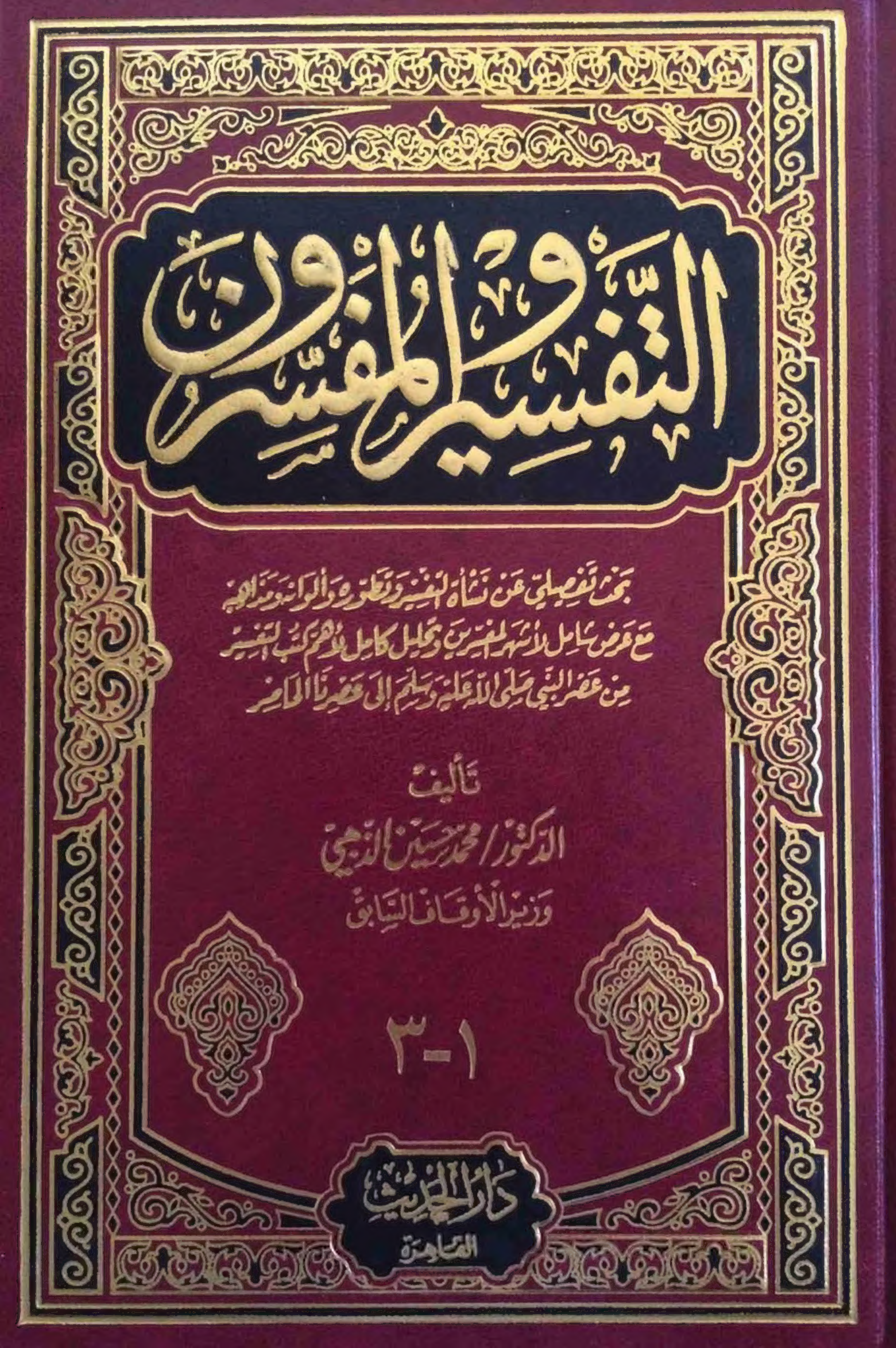

التفسير والمفسرون
بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر
تأليف
الدكتور/ محمد حسين الذهبي
وزير الأوقاف السابق
١-٣
دار الحديث
القاهرة

التفسير والمفسرون



اسم الكتـــاب : التفسير والمفسرون

اسم المؤلـــف : د . مصطفى محمد حسين الذهبي

القطــــع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحـات : ١٤٣٢ صفحة

عدد المجـلدات : مجلد واحد شاموا

سنة الطبــع : ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م


رقـم الإيـداع : ١٧٨٥٩ / ٢٠٠٥م

الترقيـم الدولى : ٧- ١٢٣ - ٣٠٠ - ٩٧٧

6 222007 703638





١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٢٥٨٩٩٤٠٩ / ٢٥٩١٨٧١٩ / ٢٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٢٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور
محمد حسين الذهبي
وزير الأوقاف السابق

الجزء الأول

دار الحديث
القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة الشهيد الذهبى

فى قرية «مطوبس» كان مولد الشيخ «محمد حسين الذهبى» وهى قرية تقع على الشاطئ الشرقى للنيل تابعة لمحافظة «كفر الشيخ» إحدى محافظات الوجه البحرى المصرية، وهو ينتمى إلى أسرة تعمل بالزراعة والتجارة.

وكان مولده عام ١٩١٥م، وتوفى أبوه وتركه صغيراً، فعُنى بتربيته وتعليمه شقيقه الأكبر «حسين»، فحفظ القرآن وأتقنه، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة فى قريته، ثم انتقل إلى معهد دسوق الدينى حيث أتم دراسته الثانوية، ورحل بعد ذلك إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف، وتلقى العلم على يد جلَّة علماء عصره أمثال: الشيخ محمد مصطفى المراغى، وعيسى منون، ومحمد زاهد الكوثرى، ومحمد حبيب الشنقيطى، ومحمد الخضر حسين ـ وكلاهما كان أثيراً عنده ـ ومأمون الشناوى، وغيرهم.

وحصل الشيخ الذهبى على الشهادة العالية من كلية الشريعة (١٩٣٦م) وكان أول الناجحين وعددهم مائة واثنا عشر من المنتسبين المبصرين، ثم نال شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن الكريم (١٥ فبراير ١٩٤٧م).

قال فيه الدكتور إبراهيم أبو الخشب:

لم يَخْط للمجد إلاَّ مؤمنًا كلفًا ... يحدوه حادٍ من الأخلاق والأدبِ

ولم يكن أبدًا إلا على ثقة ... من ربه.. وهو مولى كل ذى أربِ

موكل بمعانى النبل تقرؤها ... فى وجهه من قديم الدهر والحقبِ

وسافر الوالد ـ رحمه الله ـ فى كوكبة من علماء الأزهر فى أول بعثة إلى مدينة «الطائف» بالمملكة العربية السعودية للتدريس فى «دار التوحيد» والتى كان يديرها آنذاك الشيخ محمد بن مانع ـ رحمه الله ـ وصَحِبَه فى تلك الفترة (١٩٤٨ ـ ١٩٥١م) خيرة الشيوخ أمثال: الشيخ عبد الرزاق عفيفى، والشيخ محمد نايل، عميد كلية اللغة العربية، أمد الله فى عمره، والشيخ محمد عبد الوهاب بحيرى، صاحب كتاب «الحيل

فى الشريعة الإسلامية»، والشيخ محمد أبو زهو صاحب «الحديث والمحدثون»، والشيخ زكى غيث، والشيخ سيد الحكيم.

ثم نُدب الوالد للتدريس فى المدينة المنورة لمدة عام (١٩٥١م) حيث كان أول لقاء له مع العالم الربانى الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله.

وعاد الوالد إلى القاهرة للعمل بالمعاهد الأزهرية (١٩٥٢ - ١٩٥٤م) ثم انتقل للتدريس بكلية الشريعة (١٩٥٥م).

كما انتدب الوالد ـ رحمه الله ـ للتدريس بالعراق فى كليتى الحقوق (١٩٥٥م) والشريعة ببغداد (١٩٦١ - ١٩٦٣م) وصارت إليه رئاسة قسم الشريعة فيها.

ولما كان الوالد مُلِمّا بالمذهب الشيعى ـ عقيدة وفقهًا ـ فقد أُسند إليه تأليف وتدريس «الأحوال الشخصية بين أهل السنة والجعفرية» وهو كتاب يدل على تبحره فى أصول الفقه وفروعه وإحاطته بالمذاهب، كما تدل اختياراته وترجيحاته الفقهية على عدم تعصبه لمذهبه الحنفى.

وصحبه فى تلك الفترة لفيف من علماء الأزهر نذكر منهم: الشيخ بدر المتولى عبد الباسط صاحب كتاب «تيسير أصول الفقه» ورئيس لجنة الفتوى بالكويت فيما بعد، والشيخ عبد الحميد المسلوت صاحب كتاب «نقد كتاب الشعر الجاهلى»، والدكتور عبد الحميد طلب صاحب كتاب «غريب القرآن من عهد ابن عباس إلى ابن أبى حيان».

وتصدَّر الوالد الخطابة مرات عديدة فى مسجد الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، وكانت له صداقات مع كبار علماء العراق أمثال: الشيخ كمال الطائى ـ خطيب مسجد المرادية ـ والشيخ عبد الله القاضى، قاضى بغداد فيما بعد.

وبعد عودته من العراق إلى مصر أسهم الوالد فى إنشاء كلية البنات الإسلامية والتدريس بها (١٩٦٣ - ١٩٦٤م) وتتلمذ على يديه الكثير من النابغات.

ونُدب الوالد بعد ذلك للتدريس فى جامعة الكويت (١٩٦٨ - ١٩٧١م) ونَعِمَ فى تلك الفترة بصحبة الشيخ على حسب الله رئيس قسم الشريعة بكلية دار العلوم، والشيخ زكريا البرى رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة، والشيخ بدر المتولى عبد الباسط، والدكتور عبد الحميد طلب، وغيرهم.

اختيـر الوالد ـ رحمه الله ـ أميـنًا مساعدًا لمـجمع البحوث الإسـلامية (١٦/ ١/ ١٩٧٢م) ثم عمـيدًا لكلـية الشريـعة وأصول الديـن (١٧/ ٩/ ١٩٧٣م) ثم أمينًا عـامًا للمجمع (١/ ٦/ ١٩٧٤م) .

وللوالد إشرافات كثيـرة على رسائل «الدكتوراة» و «الماجستيـر» ومناقشات لها فى الأزهر وخارجه.

وكان الوالد ـ رحمه الله ـ عصامى النفس، عالى الهمة، صدَّاعًا بالحق، حربًا على البدع والمنكرات، حنفى المذهب، غير متـعصب له، داعيًا إلى نبذ الخلاف وفتح باب الاجتهاد.

وكان مفسرًا نابغًا، ولم يكن الشيخ أبو زهرة يلقبه، أو يناديه، إلا بإمام المفسرين، وكان ـ أيضًـا ـ محدثًا متقـنا، وخطيبًا مفـوهًا تهتز له أعواد المنابر، غـيورًا على دينه، ومربيًا ومعلمًا يروم الإصلاح ويبغى التقدم للأمة.

وكان عفـيف اللسان والقلم، ذا أدب رفيع، وفـقه فى الدين، تملكته خشية الله، وزانته طمأنينة المؤمن، وإخبات الصالحين، وأوتى نصيبًا موفورًا من الحكمة التى أثْرَتْ نتاجَه وأذاعت فضله، وأضاءت أفقه، وشهرت سيرته، وباعدت بينه وبين شطط الأقوال وذلل الآراء وخطل الأفكار.

وقد بارك الله فى عمر الوالد وفى وقته رغم انشـغاله بالتدريس معظم حياته، وهى بلا شك أعظم أعماله، وترك مؤلفـات كثيرةً من أشهرها: «التفسـير والمفسرون» الذى سار مـسيـر الشمس، وله أيضًـا: الإسرائيليات فى التـفسير والحديـث، والاتجاهات المنحرفـة فى التفسير، ابن عربى وتفسيـر القرآن، الوحى، مقدمـة فى علوم القرآن، مقدمة فى علم الحـديث، تفسير سور: النساء والنور والأحـزاب، أثر إقامة الحدود فى استقرار المجتمع، مالية الدولة الإسلامية، موقف الإسلام من الديانات السماوية، شرح أحاديث العقيدة فى الصحيحين، الأحوال الشخصية بين أهل السنة والجعفرية، وغيرها من المؤلفات.

وفى ١٦ إبريل ١٩٧٥م، وأثناء رحلته إلى العراق لحضـور أحد المؤتمرات فوجئ الوالد ـ كما فـوجئ الجميع ـ من وسائل الإعـلام بنبأ اختياره وزيرًا للأوقـاف وشئون

الأزهر، فصار مشرفًا على شئون الدعوة الإسلامية فى أعز جبهاتها وأفسح ميادينها وأبر أجنادها الذين تقر بإخلاصهم عين الملة السمحاء.

ولا عجب أن يكون للوالد - رحمه الله - فى هذه الوزارة كلمات صدق، وتوجيهات حق، وحسن اختيار للدعاة والعمل على أن يكونوا مُثلاً عالية وألسنة صادقة وهداة إلى الحق، وأُساة للأدواء، وأعوانًا على البر والتقوى، ومغاليق للشرور والآثام، ونماذج لسماحة الإسلام وعزة الإيمان.

ولم يمكث فى الوزارة كثيراً وخرج منها فى ٩/ ١١/ ١٩٧٦م، وظفرت به كلية أصول الدين مرة أخرى أستاذًا للتفسير وعلوم القرآن حتى لقى ربه شهيدًا فى ٣/ ٧/ ١٩٧٧م.

ومما قاله الدكتور إبراهيم أبو الخشب فى رثائه:

فى ذمة الله.. والإسلام.. والعربِ	ما سال من دمك المسفوك.. يا «ذهبى»
خُطفت.. فى ليلة.. ما نام حارسها	وذقت فيها الذى قد ذقت من وصبِ
قُتلت.. يا داعى الرحمن.. فى غسق	وللردى سبب.. لا بد من سببِ
سيان من مات.. فى أمن وفى دعة	ومن يموت.. صريع الجهل والشغبِ
لكنما.. لشهيد الحق منزلة	يحيا بها.. رغم ما للموت من حُجبِ

وصُلِّى عليه فى الجامع الأزهر، وأمَّ المصلين الشيخ صالح الجعفرى إمام وخطيب الجامع الأزهر آنذاك، وحضر الصلاة عليه الآلاف من زملائه وتلاميذه ومحبيه، وبكاه كل من اغترف من علمه أو ذاق حلاوة عشرته، أو لمس صلابة دينه وصفاء سريرته، وأكبر فيه عزة نفسه وعلو كرامته، أو ناله بره من قريب أو بعيد.

وشُيِّعت جنازته فى مشهد مهيب، ووروى جثمانه الثرى، فى مدافن الأسرة بالإمام الشافعى، طيب الله ثراه وأسكنه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

دكتور
مصطفى محمد الذهبى
٢٠/ ٩/ ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم الكتـــاب

الحمد لله الذى أنزل الفـرقان على عبده ليكون للعالمـين نذيرًا، والصلاة والسلام على محمـد بن عبد الله، الذى أرسله ربه شاهدًا ومبشـرًا ونذيرًا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

وبعد... فقد مر على الإنسانية حـين من الدهر وهى تتخبط فى مهمه من الضلال متـسع الأرجاء، وتسـير فى غمـرة من الأوهام ومضطرب فـسيح من فـوضى الأخلاق وتنازع الأهواء، ثم أراد الله لهذه الإنسانية المعذبة أن ترقى بروح من أمره وتسعد بوحى السماء، فأرسل إليـها على حين فترة من الرسل رسولا صنعـه الله على عينه، واختاره أمينًا على وحيه، فطلع علـيها بنوره وهديه، وكما يطلع البدر على المسـافر البادى بعد أن افتقده فى الليلة الظلماء.

ذلك هو محـمد بن عـبد الله ـ ﷺ ـ نبى الرحـمة، ومـبدد الظلمـة، وكاشف الغمة.

أرسله الله إلى هذه الإنسانية الشـقية المعذبة، ليزيل شقـوتها، ويضع عنها إصرها والأغلال التى فى أعناقها، وأنزل عليه كتابًا ـ يهـدى إلى صراط مستقيم ـ وجعل له منه معجزة باهرة، شاهدة على صدق دعوته، مؤيدة لحقية رسالته، فكان القرآن هو الهداية والحجة، هداية الخلق وحجة الرسول.

لم يكد هذا القرآن الكريم يقرع آذان القـوم حتى وصل إلى قلوبهم، وتملك عليهم حسهم ومشاعرهم، ولم يعرض عنه إلا نفر قليل، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها، ثم لم يلبث أن دخل الناس فى دين الله أفواجًـا، ورفع الإسلام رأيته خفـاقة فوق ربوع الكفر، وأقام المسلمون صرح الحق مشيدًا على أنقاض الباطل.

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم، الذى جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب

الإنسانية وشفاء ما فى الصدور، وأيقنوا بصدق الله حيث يصف القرآن فيقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩) وبصدق الرسول حيث يصف القرآن فيقول هو أيضًا «فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم»[١].

صدق المسلمون هذا، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه، فراحوا يثورون[٢] القرآن ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر، وأخذوا يتدبرون فى آياته ليأخذوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا وخير الآخرة.

وكان القوم عربًا خلصًا، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية، فهمًا لا تعكره عجمة، ولا يشوبه تكدير، ولا يشوهه شىء من قبح الابتداع، وتحكم العقيد الزائفة الفاسدة.

وكانت للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية التى دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، إذ كانوا يرجعون فى مثل ذلك إلى رسول الله ﷺ، فيكشف لهم ما دق عن أفهامهم ويجلى لهم ما خفى عن إدراكهم، وهو الذى عليه البيان كما أن عليه البلاغ، والله تعالى يقول له وعنه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفائه، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه، فكانوا من أجل ذلك أعزاء لا يقبلون الذل، أقوياء لا يعرفون الضعف، كرماء لا يرضون الضيم، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول.

ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا فى الدين شيعًا، وأحدثوا فيه بدعًا وبدعًا،

---

(١) الترمذى جـ٢ ص١٤٩.
(٢) أى ينقرون عنه ويبحثون عن معانيه.

وكـانت فتن كـقطع الليل المظلم، لا خـلاص منها إلا بالرجـوع إلى كتـاب الله وسنة رسوله، ولا نجاة من شرها إلا بالتمسك بالقرآن، وهو الحبل الذى طرفه بيد الله وطرفه بأيديهم.

وكان من بين المـسلمين من أهمل هداية القرآن، وركب رأسـه فى طريق الغواية، فلم ينهج هذا الواضح القويم الذى سلكه سلفه الصـالح فى فهم القرآن الكريم والأخذ به، فأخذ يتأول القـرآن على غير تأويله، وسلك فى شرح نصوصه طريقًا مـتلوية فيها، تعسف ظـاهر وتكلف غيو مـقبـول، وكان الذى رمى به فى هذه الطريق الملتـوية التى باعدت بينه وبين هداية القـرآن، هو تسلط العقيدة علـى عقله وقلبه، وسمـعه وبصره، فحاول أن يأخذ من القـرآن شاهدًا على صدق بدعته، وتحايل على نصـوصه الصريحة لتكون دعامة يقـيم عليها أصول عـقيدته ونزعته، فـحرَّف القرآن عن مواضعـه، وفسر ألفاظه على تحمل ما لا تدل عليه، فكان من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير!!.

وكان بجوار هذا الفريق من المسلمـين، فريق آخر منهم، برع فى علوم حدثت فى الملة، ولم يكن للعرب بهـا عهد من قبل، فحاولوا أن يصلـوا بينها وبين القرآن، وأن يربطوا بين مـا عنـدهم من قـواعد ونـظريات وبين مـا فى القـرآن من أصـول وأحكام وعقائد، وتم لهم ذلك على اختلاف بينهم فى الدوافع والحوافز على هذا العمل، منهم من قصد خدمة هذه العلوم وترويجهـا على حساب القرآن، ومنهم من أراد خدمة الدين وتفهم الـقرآن على ضوء هذه العلـوم، وأخيراً خـرج هذا الفريق على الناس بتـفاسـير كثيرة، فيـها خير وشر، وبينها تفاوت فى المنهج، واختـلاف فى طريقة الشرح ووسيلة البيان.

وكان من وراء هؤلاء وهؤلاء فريق التحف الإسـلام وتبطن الكفر، يحمل بين فكيه لسانًا مسـلما، وبين جنبيه قلبـا كافرا مظلما، يحـرص كل الحرص على أن يطفئ نور الإسلام ويهدم عز المسلمين، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السيئ، من أن يتناول القرآن بالتحـريف والتبديل، والتأويل الفاسـد الذى لا يقوم على أساس من الدين، ولا يستند إلى أصل من اللغة، ولا يرتـكز على دليل من العقل... وأخـيرًا خـرج هؤلاء أيضًا على الناس بتـأويلات فيهـا سخف ظاهر وكفـر صريح، خفى على عـقول بعض

الأغمار الجهلة، ولكن لم يجد إلى قلوب عقلاء المسلمين سبيلا، ولم يلق من نفوسهم رواجا ولا قبولا، بل وكان منهم من أفرغ همه لدحض هذه التأويلات، وأعمل لسانه وقلمه لإبطال هذه الشبهات، فوقى الله بهم المسلمين من شر، وحفظ بهم الإسلام من ضر، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

خلف لنا هؤلاء جميعا ـ مسلمون وأشباه مسلمين، مبتدعون وغير مبتدعين، كتبا كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، كل كتاب منها يحمل طابع صاحبه، ويتأثر بمذهب مؤلفه، ويتلون باللون العلمى الذى يروج فى العصر الذى ألف فيه، ويغلب على غيره من النواحى العلمية لكاتبه، وعنى المسلمون بدراسة بعض هذه الكتب، وقل اهتمامهم ببعض آخر منها، فأحببت أن أقدم للمكتبة الإسلامية كتابًا يعتبر باكورة إنتاجى فى التأليف(١) عنوانه:

(التفسير والمفسرون)

وهو كتاب يبحث عن نشأة التفسير وتطوره، وعن مناهج المفسرين وطرائقهم فى شرح كتاب الله تعالى، وعن ألوان التفسير عند أشهر طوائف المسلمين ومن ينتسبون إلى الإسلام، وعن ألوان التفسير فى هذا العصر الحديث... وراعيت أن أضمن هذا الكتاب بعض البحوث التى تدور حول التفسير، من تطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه، وما يجب أن يكون عليه المفسر عندما يحاول فهم القرآن أو كتابة التفسير، وما إلى ذلك من بحوث يطول ذكرها، ويجدها القارئ مفصلة مسهبة فى هذا الكتاب.

ورجوت من وراء هذا العمل أن أنبه المسلمين إلى هذا التراث التفسيرى، الذى اكتظت به المكتبة الإسلامية على سعتها وطول عهدها، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها، وألا يقصروا حياتهم على دراسة كتب طائفة واحدة أو طائفتين، دون من عداهما من طوائف كان لها فى التفسير أثر يذكر فيشكر أو لا يشكر.

ورجوت أيضًا أن يكون لعشاق التفسير من وراء هذا المجهود موسوعة تكشف لهم

---

(١) تقدم المؤلف بهذا البحث للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن والحديث سنة ١٩٤٦م.

عن مناهج أشهر المفسرين وطرائقهم التى يسيرون عليها فى شرحهم لكتاب الله تعالى، ليكون من يريد أن يتصفح تفسيراً منها على بصيرة من الكتاب الذى يريد أن يقرأه، وعلى بينة من لونه ومنهجه، حتى لا يغتر بباطل أو ينخدع بسراب.

وفى اعتقادى أن فى هذا الموضوع جدة وطرافة، جدة؛ إذا لم أُسبق إليه إلا بمحاولات بسيطة غير شاملة، وطرافة؛ إذ أنه يعطى القارئ صوراً متنوعة عن لون من التفكير الإسلامى فى عصوره المختلفة، ويكشف له عن أفكار وأفهام تفسيرية، فيها غرابة وطرافة، وحق وباطل، وإنصاف واعتساف ومحاورة شيقة، وجدل عنيف.

وقد رتبت الكتاب على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

أما المقدمة: فقد جعلتها على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: فى معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما.

المبحث الثانى: فى تفسير القرآن بغير لغته.

المبحث الثالث: فى اختلاف العلماء فى التفسير، هل هو من قبيل التصورات، أو من قبيل التصديقات؟.

وأما الباب الأول: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الأولى من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى، عن التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: فى فهم النبى ﷺ والصحابة للقرآن الكريم، وأهم مصادر التفسير فى هذه المرحلة.

الفصل الثانى: فى الكلام عن المفسرين من الصحابة.

الفصل الثالث: فى قيمة التفسير المأثور عن الصحابة.

الفصل الرابع: فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة.

وأما الباب الثانى: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثانية من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى عن التفسير فى عهد التابعين، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول:

الفصل الأول: فى ابتداء هذه المرحلة، ومصادر التفسير فى عصر التابعين، ومدارس التفسير التى قامت فيه.

الفصل الثانى: فى قيمة التفسير المأثور عن التابعين.

الفصل الثالث: فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة.

الفصل الرابع: فى الخلاف بين السلف فى التفسير.

وأما الباب الثالث: فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثالثة من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى عن التفسير فى عصور التدوين، وهى تبدأ من العصر العباسى، وتمتد إلى عصرنا الحاضر، وقد رتبت هذا الباب على ثمانية فصول.

الفصل الأول: فى التفسير بالمأثور وما يتعلق به من مباحث، كتطرق الوضع إليه، ودخول الإسرائيليات عليه.

الفصل الثانى: فى التفسير بالرأى ما يتعلق به من مباحث، كالعلوم التى يحتاج إليها المفسر، والمنهج الذى يجب عليه أن ينهجه فى تفسيره حتى يكون بمأمن من الخطأ.

الفصل الثالث: فى أهم كتب التفسير بالرأى الجائز.

الفصل الرابع: فى التفسير بالرأى المذموم، أو بعبارة أخرى تفسير الفرق المبتدعة وهم: المعتزلة ـ الإمامية ـ الإثنا عشرية ـ الباطنية القدامى، وهم الإمامية الإسماعيلية ـ الباطنية المحدثون، وهم: البابية والبهائية ـ الزيدية ـ الخوارج.

الفصل الخامس: فى تفسير الصوفية.

الفصل السادس: فى تفسير الفلاسفة.

الفصل السابع: فى تفسير الفقهاء.

الفصل الثامن: فى التفسير العلمى.

وأما الخاتمة: فقد جعلتها عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث، وقصرت الكلام على أهم ألوان التفسير فى هذا العصر وهى:

أولاً: اللون العلمى. ثانيًا: اللون المذهبى.

ثالثًا: اللون الإلحادى. رابعًا: اللون الأدبى الاجتماعى.

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يسدد خطانا، ويحقق رجاءنا، إنه سميع مجيب، وهو حسبى ونعم الوكيل.

محمد حسين الذهبى

١٨ محرم سنة ١٣٩٦هـ

حدائق حلوان فى أول يولية سنة ١٩٧٦م

المقدمـــــة

المبحث الأول:

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما

التفسير فى اللغة: التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان آيــة ٣٣ ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أى بيانًا وتفـصيلا، وهو مأخـوذ من الفسر، وهو الإبانة والكشف، قـال فى القاموس: «الفســر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل كضرب ونصر. . .» اهـ[1].

وقال فى لسان العرب: (الفـسر) البيان، فسر الشىء يفسـره بالكسر ويفسره بالضم فسرًا، وفسره أبانه، والتفسير مثله. . . ثم قـالَ «الفسر كشف المغطى، والتفسير المراد عن اللفظ المشكل. . .». اهـ[2].

وقال أبو حـيان فى البـحر المـحيط: «. . . ويطلـق التفسـير أيضًـا على التعـرية للانطلاق، قال ثـعلب: تقول فسـرت الفرس: عـريته لينطلق فى حـصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجرى». اهـ[3].

ومن هذا يتبين لنا أن التفسـير يستعمل لغة فى الكشف الحسى، وفى الكشف عن المعانى المعقولة، واستعماله فى الثانى أكثر من استعماله فى الأول.

التـفسـيـر فى الاصطلاح: يرى بعض العلماء: أن الـتفسـيـر ليس من العلوم التى يتكلف لها جد؛ لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئـة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العـلوم العقلية، ويكتفى فى إيضاح التفسـير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد؛ فيتكلف له التعريف، فيذكر فى ذلك علوما أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات، وغير ذلك.

---

(١) جـ٢ ص١١٠. (٢) جـ٦ ص٣٦١. (٣) جـ١ ص١٣.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

فقد عرفه أبو حيان فى البحر المحيط: بأنه «علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب؛ وتتمات لذلك».

ثم خرج التعريف فقال: «فقولنا: علم، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، هذا هو علم القراءات، وقولنا: ومدلاولتها، أى مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذى يحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: وأحكامها الإفرادية والتركيبية، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز؛ فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئًا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: وتتمات لذلك، هو معرفة النسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن، ونحو ذلك». اهـ[(١)].

وعرفه الزركشى: بأنه «علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه». اهـ[(٢)].

وعرفه بعضهم: بأنه «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية». اهـ[(٣)].

والناظر لأول وهلة فى هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان فى علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه؛ وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ «ومَلِكا كبيرًا» بفتح

---

(١) جـ١ ص١٣، ١٤.
(٢) الإتقان جـ٢ ص١٧٤.
(٣) منهج الفرقان ٢ ص٦.

الميم وكسر اللام، وكقراءة: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتسكين فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ «يطَّهـرن» بالتـشديد، كـمـا أن المـعنى يخـتلف أيضًا بـاختـلاف الرسم القـرآنى فى المصحف، فمثلا قوله تعالى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ (الملك: ٢٢) بوصل أمن، يغاير فى المعنى ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (النساء: ١٠٩) بفصلها، فإن المفصولة تفيد معنى بل دون الموصولة.

وعرفه بعضهم: بأنه «علم نزول الآيات، وشئونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها، ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها». اهـ[1].

وهذه التعـاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التـفسير علم يبـحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال فى القاموس: «آل إليه أولا ومـآلا: رجع، وعنه ارتد... ثم قال: وأول الكلام تأويـلا وتأوله دبره وقدره وفسره، والتأويل عبارة الرؤيا»[2].

وقال فى لسان العرب: «الأول: الرجوع، آل الشىء يئول أولا ومآلا: رجع، وأول الشىء رجعه، وألت عن الشىء ارتددت، وفى الحديث: «من صام الدهر فلا صام ولا آل» أى ولا رجع إلى خير... ثم قـال: «وأول الكلام وتأوله دبَّره وقدره، وأوله وتأوله فسره... إلخ»[3].

وعلى هذا فيكون التأويل مـأخوذًا من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعـتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعانى.

وقيـل: التأويل مـأخوذ من الإيالة وهى السـياسـة، فكأن المؤول يسـوس الكلام ويضعه فى موضعه ـ قال الزمخشرى فى أساس البلاغة: «آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة وائتالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم أى سائس محتكم». اهـ[4].

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٧٤.
(٢) جـ٣ ص٣٣١.
(٣) جـ١٣ ص٣٣، ٣٤.
(٤) جـ١ ص١٥.

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد فى كثير من آياته على معان مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران آية (٧): ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ**﴾ فهو فى هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين - وقوله فى سورة النساء آية (٥٩): ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ فهو فى هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير - وقوله فى سورة الأعراف آية (٥٣): ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾ وقوله فى سورة يونس آية (٣٩): ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾ فهو فى الآيتين بمعنى وقوع المخبر به - وقوله فى سورة يوسف آية (٦): ﴿**كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**﴾ وقوله فيها أيضًا آية (٣٧): ﴿**قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ**﴾ وقوله فى آية (٤٤) منها ﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾، وقوله فى آية (٤٥) منها: ﴿**أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ**﴾، وقوله فى آية (١٠٠) منها: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ**﴾ فالمراد به فى كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا، وقوله فى سورة الكهف آية (٧٨): ﴿**سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾، وقوله فيها أيضًا آية (٨٢): ﴿**ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾ فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التى أتى بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحائل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

التأويل فى الاصطلاح:

١ - التأويل عند السلف: التأويل عند السلف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: «إن العلماء يعلمون تأويله» يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا»، وبقوله: «اختلف أهل التأويل فى هذه الآية» ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام؛ فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل

المطلوب، وإن كان خبرًا، كان تأويله نفس الشيء المخبر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير والشرح والإيضاح ويكون وجـود التأويل فيه نفس الأمـور الموجودة فى الخارج، سـواء أكانت ماضية أو مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا فى نظر ابن تيمـية هو لغة القـرآن التى نزل بها، وعلى هذا فـيمكن إرجاع كل مـا جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى.

٢- التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدثة، والمتصوفة:

التـأويل عند هؤلاء جـمـيعًـا: هو صـرف اللفظ عن المـعنى الراجح إلى المـعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف، فـإذا قال أحد منهم: هذا الحـديث أو هذا النص مؤول أو هو محـمول على كذا، قـال الآخر: هذا نـوع تأويل، والتأويل يحـتاج إلى دليل، وعلى هـذا فالمـتأول مطالب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادعى أنه المراد.

الأمر الثانى: أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلا فاسدًا، أو تلاعبًا بالنصوص.

قال فى جمع الجوامـع وشرحه: «التأويل حمل الظاهر على المحـتمل المرجوح، فإن حمل عليه لدليل صحيح، أو لمـا يظن دليلا فى الواقع ففاسد، أو لا لشىء فلعب لا تأويل»[١].

وهذا أيضًـا هو التأويل الذى يتنازعـون فيـه فى مسائل الـصفات، فـمنهم من ذم التأويل ومنعه، ومنهم من مدحه وأوجبه[٢].

وستطلع عند الكلام على الفـرق بين التفسير والـتأويل على معان أخرى اشـتهرت على ألسنة المتأخرين.

---

(١) جـ٢ ص٥٦.

(٢) لخصنا هذا الموضوع من (الإكليل فى المتشـابه والتأويل) للعلامة ابن تيمية جـ٢ ص١٥ – ١٧ من مجـموعـة الرسائل الكبرى له، وانـظر مقالتـه فى القاعـدة الخامسـة من جواب المسـألة التدمرية.

الفرق بين التفسير والتأويل والنسبة بينهما:

اختلف العلماء فى بيان الفرقَ بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافا نتجت عنه أقوال كثيرة، وكأن التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصى حله على كثير من الناس إلا من سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: «نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه»[١]، وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول: «وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»[٢].

وهذه هى أقوال العلماء أبسطها بين يدى القارئ ليقف على مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمى ويرضيه.

١- قال أبو عبيدة وطائفة معه: «التفسير والتأويل بمعنى واحد»[٣] فهما مترادفان، وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢- قال الراغب الأصفهانى: «التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا، والتأويل يستعمل أكثره فى الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها، والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ، والتأويل أكثره يستعمل فى الجمل، فالتفسير إما أن يستعمل فى غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة، أو فى تبيين المراد وشرحه كقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وقوله تعالى فى الآية (١٨٩) من سورة البقرة: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ . . . الآية.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاما، ومرة خاصًا، نحو الكفر المستعمل تارة فى

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٧٣.
(٢) التفسير معالم حياته ـ منهجه اليوم ص٦.
(٣) الإتقان جـ٢ ص١٧٣.

الجحــود المطلق، وتارة فى جحود البــارى خاصة، والإيمان المــستعمل فى التــصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الــحق تارة، وإما فى لفظ مشتــرك بين معان مخــتلفة، نحو لفظ وجد، المستعمل فى الجد والوجد والوجود». اهـ[(١)].

٣- قال الماتريدى: «التفسيــر القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مـقطوع به فصحيح، وإلا فتفــسير بالرأى، وهو المنهى عنه، والتأويل تــرجيح أحد المحــتملات بدون القطع والشــهادة على الله»[(٢)]. اهـ، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤- قال أبو طالب الثـعلبى: «التفــسير بيــان وضع اللفظ، إما حقــيقة أو مـجازًا، كتفــسير الصراط بالطريق، والصــيب بالمطر، والتأويل تفسير باطــن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى فى الآية (١٤) من سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تفسيره أنه من الرصد، يقال رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتــأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستــعداد للعرض عليــه، وقواطع الأدلة تقتــضى بيان المــراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة». اهـ[(٣)]. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥- قال البــغوى، ووافقــه الكواشى: «التأويل هو صــرف الآية إلى معنى محــتمل يوافق ما قبلها وما بــعدها، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنبــاط، والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها». اهـ بتصرف[(٤)]، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦- قال بعضهم: «التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية». اهـ[(٥)]. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧- التفــسير هو بيــان المعانى التى تــستفاد مــن وضع العبارة، والتــأويل هو بيان

---

(١) مقــدمة التفــسير للراغب ص٤٠٢، ٤٠٣ بآخــر كتاب تنزيه القــرآن عن المطاعن للقاضى عــبد الجبار.

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٧٣.

(٣) الإتقان جـ٢ ص١٧٣.

(٤) تفسير البغوى جـ١ ص١٨.

(٥) الإتقان جـ٢ ص١٧٣.

المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة، فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبه إلى هذا الرأى الأخير العلامة الآلوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع: «وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه ـ ما سمعتها وما لم تسمعها ـ مخالف للعرف اليوم إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانية، تنكشف من سجف العبارات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتفسير غير ذلك.

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك فى مرية من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما، فلا أراك ترضى إلا أن فى كل كشف إرجاعا، وفى كل إرجاع كشفا، فافهم». اهـ[1].

هذه هى أهم الأقوال فى الفرق بين التفسير والتأويل، وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التطويل.

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعًا إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعًا إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان، والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله ﷺ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله ﷺ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم.

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعانى من كل ذلك.

* * *

قال الزركشى: «وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ليحيل على الاعتماد فى المنقول، وعلى النظر فى المستنبط». اهـ[2].

---

(١) الآلوسى جـ١ ص٥. (٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

المبحث الثانى:

تفسير القرآن بغير لغته

تفسير القرآن بغير لغته، أو الترجمة التفسيرية للقرآن، بحث نرى من الواجب علي أن نعرض له؛ لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب، وقبل الخوض فيه يحسن بنا أن نمهد له بعجالة مـوجزة تكشف عن معنى الترجمة وأقسامـها، ثم نتكلم عما يدخل منها تحت التفسير وما لا يدخل، فنقول: الترجمة تطلق فى اللغة على معنيين:

الأول: نقل الكلام من لغـة إلى لغة أخـرى بدون بيان لمـعنى الأصل المتـرجم، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة.

الثانى: تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى.

قال فى تاج العروس: «والترجمان المفسر للسان، وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر، قال الجوهرى: وقيل نقله من لغة إلى لغة أخرى». اهـ[(١)].

وعلى هذا فـالترجمـة تنقسم إلى قـسمـين: ترجمة حـرفيـة، وترجمة مـعنوية أو تفسيرية.

أما الترجمـة الحرفية: فهى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى، مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم.

وأما التـرجمة التفسـيرية: فهى شرح الكلام وبيان معـناه بلغة أخرى، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه.

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نـعرض لما يجوز من نوعى الترجمـة بالنسبة للقرآن وما لا يجوز، ولا لمقالات العلماء المتـقدمين والمتأخرين، ولكن غرضنا الذى نريد أن نكشف عنه ونوضحه هو: أى نوعى الترجمة داخل تحت التفسير؟ أهو الترجمة الحرفية؟ أم الترجمة التفسيرية؟ أم هما معا؟ فنقول:

---

(١) جـ٨ ص٢١١.

الترجمة الحرفية للقرآن:

الترجمة الحرفية للقرآن: إما أن تكون ترجمة بالمثل، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل، أما الترجمة الحرفية بالمثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته، وأسلوبها محل أسلوبه، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين:

أولهما: كونه آية دالة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزًا للبشر، لا يقدرون على الإتيان بسورة مثله ولو اجتمع الإنس والجن على ذلك.

وثانيهما: هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم.

أما الغرض الأول، وهو كونه آية على صدق النبى ﷺ فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقًا؛ فإن القرآن ـ وإن كان الإعجاز فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل، وغير ذلك مما عد من وجوه إعجازه ـ إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه على ما فيه من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقًا، فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فيها غيرها من اللغات، وإذًا فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية، ولنزل من مرتبته المعجزة، إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد ﷺ.

وأما الغرض الثانى، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس، وتقوى عليها جميع اللغات، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه. وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية، ونجد هذا كثيرًا فى استنباطات الأئمة المجتهدين؛ وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا، والترجمة الحرفية إن أمكن فيها

المحـافظة على المعانى الأوليـة، فغير مـمكن أن يحافظ فيـها على المعـانى الثانوية؛ ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غير من سائر اللغات.

ومما تقدم يعلم: أن التـرجمة الحرفية للقرآن، لا يـمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصـيل كل ما يقصد منه؛ لمـا يترتب عليها من ضـياع الغرض الأول برمـته، وفوات شطر من الغرض الثانى.

وأما الترجمة الحرفية بغيـر المثل: فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المـترجم وما تسعـه لغته، وهذا أمـر ممكن، وهو وإن جاز فى كلام البـشر، لا يجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز؛ لأن فيه من فاعله إهدارًا لنظم القرآن؛ وإخلالا بمعناه؛ وانتهاكا لحرمته، فضلا عن كونه فعلا لا تدعو إليه ضرورة.

الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن:

اتضح لنا ممـا سبق معنى التـرجمة الحرفـية بقسمـيها، وأقمـنا الدليل بما يناسب المقام على عـدم إمكان الترجمة الحرفـية بالمثل، وعدم جواز التـرجمة الحرفيـة بغير المثل، وإن كـانت ممكنة، ولكن بـقى بعد ذلك هذا السـؤال: هل الترجمـة الحرفـية بقسميها ـ على فرض إمكانها فى الأول وجوازها فـى الثانى ـ تسمى تفسيرًا للقرآن بغير لغته؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير؟ وللجواب عن هذا نقول:

إن الترجمة الحرفـية بالمثل، تقدم لنا أن معناها ترجمة الأصل بلغـة أخرى تحاكيه حذوا بحـذو، بحيث تحل مـفردات التـرجمـة محل مـفردات الأصل وأسلوبهـا محل أسلوبه، حتى تتحمل التـرجمة ما تحمله نظم الأصل من المعـانى البلاغية، والأحكام التشريعـية، وتقدم لنا أيضًا أن هـذه الترجمة بالنسبـة للقرآن غير مـمكنة؛ وعلى فرض إمكانها فـهى ليست من قبـيل تفسير القـرآن بغير لغـته؛ لأنها عبـارة عن هيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين: المـترجم منها والمترجم إليها، وعلى هذا فابناء اللغة المترجم إليـها يحتاجون إلى تفسيره وبيان مـا فيه من أسرار وأحكامه؛ ضرورة أن هذه الترجـمة لا شرح فيهـا ولا بيان، وإنما فيها إبـدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه، ونقل معنى الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى.

وأما الترجمة الحرفية لغير المـثل، فقد تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم القرآن حذوًا بحذو، بقدر طاقة المتـرجم وما تسعه لغته وتقدم لنا أن هذا غيـر جائز بالنسبة للقرآن،

وعلى فرض جوازها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته، لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم فى تأدية بعض معناه، وليس فى ذلك شيء من الكشف والبيان لا شرح مدلول ولا بيان مجمل، ولا تقييد مطلق ولا استنباط أحكام ولا توجيه معان ولا غير ذلك من الأمور التى اشتمل عليها التفسير المتعارف.

الترجمة التفسيرية للقرآن

الترجمة التفسيرية أو المعنوية، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه، وذلك بأن نفهم المعنى الذى يراد من الأصل، ثم نأتى له بتركيب من اللغة المترجم إليها يؤديه على وفق الغرض الذى سيق له.

وعلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية، ولإيضاح هذا الفرق نقول:

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ**﴾ (الإسراء: ٢٩) ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق، وعن مدها غاية المد، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدى المعنى الذى قصده القرآن، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن، ويقول فى نفسه: إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن؛ لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة، المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ، أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية، فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير، مصورين بصورة شنيعة، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها ويناسب إلف من يتكلم بها، ومن هذا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية، يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة التفسيرية، دون الترجمة الحرفية.

إذا علم هذا، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التى نزل بها.

وحيث اتفقت كلمة المسلمين، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقتــه البشرية؛ بدون إحاطة بجميع مراد الله؛ فإنا لا نشك فى أن الترجـمة التـفسيـرية للقرآن داخلة تحت هذا الإجـماع أيضا؛ لأن عـبارة الترجمة التـفسيرية محاذية لعبارة التـفسير، لا لعبارة الأصل القرآنى؛ فإذا كـان التفسير مشتمـلا على بيان الأصل وشرحه، بحل ألفاظه فـيما يحتاج تفهـمه إلى الحل؛ وبيان مراده كذلك، وتفصيل معناه فيما يحتاج للتفصيل، وتوجيه مسائله فيما يحتاج للتوجيه، وتقرير دلائله فيما يحتاج للتـقرير، ونحو ذلك من كل ما له تعلق بتفهم القرآن وتدبره؛ كانت الترجمة التفسيرية أيضا مشتملة على هذا كله؛ لأنه ترجمة للتفسير لا للقرآن.

وقـصارى القـول: أن فى كل من التفسير وترجمتـه بيان ناحية أو أكثر من نواحى القرآن التى لا يحيط بهـا إلا من أنزله بلسان عربى مبين؛ وليس فى واحـد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن، ولا إحـلال نظم محل نظم القرآن بل نـظم القرآن باق معهـما؛ دال على معانيه من جميع نواحيه.

الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية:

لو تأملنا أدنى تأمل لوجدنا أنه يمكن أن يفرق بين التفسيـر والترجمة التفسيرية من جهتين:

الجـهـــة الأولى: اختلاف اللغـتين، فلغة التفـسير تكون بلغة الأصـل، كما هو المتعارف المشهور، بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى.

الجهة الثانية: يمكن لقارئ التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبه عـليه وأصلحه، ولو فرض أنه لم يتنبــه لما فى التفسيـر من خطأ تنبه له قارئ آخر، أما قـارئ الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك؛ لجـهله بنظم القرآن ودلالته، بل كل ما يفـهمه ويعـتقده؛ أن هذه الترجـمة التى يقرؤها ويتـفهم معناها تـفسير صـحيح للقرآن، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن.

شروط الترجمة التفسيرية:

تفـسيـر القـرآن الكريم: من العلوم التى فـرض على الأمـة تعلمهـا، والتـرجمـة التفسيرية: تفسير للقرآن بغير لغته، فكانت أيضًا من الأمور التى فرضت على الأمة، بل

هى آكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة، كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين، وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يفهمون لغة العرب، وأيضًا حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة وتعاليم فاسدة؛ ليظهروا القرآن لمن لم يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه، وكثيرًا ما علت الأصوات بالشكوى من هذه التراجم الفاسدة؛ لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر وتراعى، لتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة مقبولة، وإليك هذه الشروط:

أولا: أن تكون الترجمة على شريطة التفسير، لا يعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية، وعلوم اللغة العربية، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية، فلا بد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك؛ أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن، أو اعتمد على تفسير ليس مستمدًا من تلك الأصول، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمدًا من تلك المناهل، معتمدًا على هذه الأصول.

ثانيًا: أن يكون المترجم بعيدًا عن الميل إلى عقيدة زائفة تخالف ما جاء به القرآن، وهذا شرط فى المفسر أيضًا؛ فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره، فإذا بالمفسر وقد فسر طبقًا لهواه، وإذا بالمترجم وقد ترجم وفقًا لميوله، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه.

ثالثًا: أن يكون المترجم عالمًا باللغتين: المترجم منها والمترجم إليها، خبيرًا بأسرارهما، يعمل جهة الوضع والأسلوب والدلالة لكل منهما.

رابعًا: أن يكتب القرآن أولا، ثم يؤتى بعده بتفسيره، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن.

هذه هى الشروط التى يجب مراعاتها لمن يريد أن يفسر القرآن بغير لغته، تفسيرًا يسلم من كل نقد يوجه، وعيب يلتمس[1] .

---

(١) المراجع: المدخل المنير ص ٤١ – إلى النهاية، ومجلة نور الإسلام «الأزهر» السنة الثالثة ص ٥٧ – –٦٥، ومنهج الفرقان جـ٢ ص ٧١ – ٩٠.

المبحث الثالث:

هل تفسير القرآن من قبيل التصورات
أو من قبيل التصديقات؟

اختلف العلماء فى علم التفسير: هل هو من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات؟ فذهب بعضهم إلى أنه من قبيل التصورات، لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظ القرآن، وذلك كله تعاريف لفظية، وقد صرح بهذا عبد الحكيم على المطول حيث قال: «وما قالوا من أن لكل علم مسائل فإنما هو فى العلوم الحكمية، وأما العلوم الشرعية والأدبية فلا يتأتى فى جميعها ذلك، فإن علم اللغة ليس إلا ذكر الألفاظ ومفهوماتها، وكذلك التفسير والحديث». اهـ[1].

وذهب السيد: إلى أن التفسير من قبيل التصديقات، لأنه يتضمن الحكم على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى؛ وعلى هذا يكون التفسير عبارة عن مسائل جزئية، مثل قولنا: يا أيها الناس: خطاب لأهل مكة؛ ويا أيها الذين آمنوا: خطاب لأهل المدينة، والاسم، معناه: الدال على المسمى، والله، معناه: الذات الأقدس، والرحمن، معناه: المحسن، وغير ذلك، ولا شك أن هذه قضايا جزئية[2].

---

(١) ص٤٩١ - ٤٩٢.

(٢) انظر اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم ص١٦٠، ١٦١.

الباب الأول

المرحلة الأولى للتفسير
أو التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه

الفصل الأول

فهم النبى ﷺ والصحابة للقرآن

تمهيــــد:

نزل القرآن الكريم على نبى أمى، وقوم أميين، وليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروبًا من الوصف، وأنواعًا من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلا مما يجرى هذا المجرى، وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب.

وجريًا على سنة الله تعالى فى إرسال الرسل، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم فى كلامهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، فألفاظ القرآن عربية، إلا ألفاظ قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء، فمن قائل: إنها عربت وأخذت من لغات أخرى، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال، ومن قائل إنها عربية بحتة، غاية الأمر أنها مما تواردت عليه اللغات، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تخرج القرآن عن كونه عربيًا.

استعمل القرآن فى أسلوبه الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، على نمط العرب فى كلامهم، غير أن القرآن يعلو على غير من الكلام العربى، بمعانيه الرائعة التى افتن بها فى غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقا لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

فهم النبى ﷺ والصحابة للقرآن:

وكان طبيعيا أن يفهم النبى ﷺ القرآن جملة وتفصيلا بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٧ - ١٩) كما كان طبيعيًا أن يفهم أصحاب النبى ﷺ القرآن فى جملته، أى بالنسبة لظاهره وأحكامه، أما فهمه تفصيلا ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المجمل والمشكل والمتشابه وغير ذلك مما لا بد فى معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول فى مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه». اهـ[1]. نعم، لا أظن الحق معه فى ذلك، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم كانوا يفهمونه فى مفرداته وتراكيبه، وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها، بل لا بد لمن يفتش عن المعانى ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه.

تفاوت الصحابة فى فهم القرآن:

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا فى درجة واحدة بالنسبة لفهم معانى القرآن، بل تفاوتت مراتبهم، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم فى القوة العقلية، وتفاوتهم فى معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا، أنهم كانوا لا يتساوون فى معرفة المعانى التى وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة، ولا ضير فى هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها.

---

(١) ص٤٨٩.

ومما يشهد لهذا الذى ذهبنا إليه، ما أخرجه أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس «أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس: ٣١) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟، ثم رجع إلى نفسه فقال: إن لهذا لهو التكلف يا عمر» (١)، وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ (النحل: ٤٧) ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامكًا قَرِدا ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ (٢)

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها» (٣).

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب ومعنى التخوف، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس ـ وهو ترجمان القرآن ـ لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟ لا شك أن كثيرًا منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية، فيكفيهم ـ مثلا ـ أن يعلموا من قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ أنه تعداد للنعم التى أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلا ما دام المراد واضحًا جليّا (٤).

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخارى، من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (البقرة: ١٨٧) وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه، فعرض بقلة فهمه، وأفهمه المراد (٥).

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١١٣.

(٢) الموافقات جـ٢ ص٨٧ ، ٨٨، والتامك: السنام، والقرد: الذى تجعد شعره، فكان كأنه وقاية للسنام، والنبع: شجر للقسى والسهام، والسفن: كل ما ينحت به غيره.

(٣) الإتقان جـ٢ ص١١٣.

(٤) انظر ما كتبه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر فى سؤاله عن معنى الأب فى سورة عم من تفسيره لجزء عم ص٢١.

(٥) الحديث عند البخارى فى باب التفسير جـ٨ ص١٢٧ من فتح البارى.

الحق أن الصحابة - ﷺ - كانوا يتفاوتون فى القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه، وذلك راجع - كما تقدم إلى اختلافهم فى أدوات الفهم، فقز كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملمًا بغريبها، ومنهم دون ذلك، ومنهم من كان يلازم النبى ﷺ فيعرف من أسباب النزول ما لا يعرفه غيره، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا فى درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافًا عظيما.

قال مسروق: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - يعنى الغدير - فالإخاذ يروى الرجل، والإخاذ يروى الرجلين، والإخاذ يروى العشرة، والإخاذ يروى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»(١).

هذا، وقد قال ابن قتيبة - وهو ممن تقدم على ابن خلدون بقرون: «إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض»(٢)، ويظهر أن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده بعد عبارته السابقة بقليل حيث قال: «وكان النبى ﷺ يبين المجمل، ويميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه...»(٣)، وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم فى معرفة معانى القرآن معرفتهم بلغته، بل كانوا فى كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول ﷺ.

* * *

(١) مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى لكلية الشريعة ص٨٤.
(٢) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص٦، نقلا عن المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص٨.
(٣) مقدمة ابن خلدون ص٤٨٩.

كان الصحابة فى هذا العصر يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر:

الأول: القرآن الكريم. **الثانى:** النبى ﷺ.

الثالث: الاجتهاد وقوة الاستنباط. **الرابع:** أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

ونوضح كل مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول:

المصدر الأول: القرآن الكريم:

الناظر فى القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أوجز فى مكان قد يبسط فى مكان آخر، وما أجمل فى موضع قد يبين فى موضع آخر، وما جاء مطلقًا فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى، وما كان عامًا فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أخرى.

لهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولا، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض؛ ليستعين بما جاء مسهبًا على معرفة ما جاء موجزًا، وبما جاء مبينًا على فهم ما جاء مجملا، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعانى كلامه، وأعرف به من غيره.

وعلى هذا فمن تفسير القرآن بالقرآن: أن يشرح ماجاء موجزًا فى القرآن بما جاء فى موضع آخر مسهبا، وذلك كقصة آدم وإبليس، جاءت مختصرة فى بعض المواضع، وجاءت مسهبة مطولة فى موضع آخر، وكقصة موسى وفرعون، جاءت موجزة فى بعض المواضع، وجاءت مسهبة مفصلة فى موضع آخر.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يحمل المجمل على المبين ليفسر به، وأمثلة ذلك

كثيرة فى القرآن، فمن ذلك تفسير قوله تعالى فى سورة غافر الآية ٢٨ ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ بأنه العذاب الأدنى المعجل فى الدنيا؛ لقوله تعالى فى آخر هذه السورة آية (٧٧) ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، ومنه تفسير قوله تعالى فى سورة النساء آية (٢٧) ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ بأهل الكتاب لقوله تعالى فى السورة نفسها آية (٤٤) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة آية (٣٧) ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فسرتها الآية (٢٣) من سورة الأعراف ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ومنه قوله تعالى فى سورة الأنعام آية (١٠٣) ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فسرتها آية ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) من سورة القيامة، ومنه قوله تعالى فى سورة المائدة آية (١) ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فسرتها آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ...﴾ الآية (٣) من السورة نفسها.

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص.

فمن الأول: ما نقله الغزالى عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد فى صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب، ومثل له بآية الوضوء والتيمم، فإن الأيدى مقيدة فى الوضوء بالغاية فى قوله تعالى فى سورة المائدة آية (٦) ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ومطلقة فى التيمم فى قوله تعالى فى الآية نفسها ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ فقيدت فى التيمم بالمرافق أيضًا [1] ومن أمثلته أيضًا عند بعض العلماء: آية الظهار مع آية القتل، ففى كفارة الظهار يقول الله تعالى فى سورة المجادلة آية (٣) ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ وفى كفارة القتل، يقول فى سورة النساء آية (٩٢) ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فيحمل المطلق فى الآية الأولى على المقيد فى الآية الثانية، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء [2].

ومن الثانى: نفى الخلة والشفاعة على جهة العموم فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ

---

(١) مسلم الثبوت وشرحه جـ١ ص٣٦١.

(٢) جمع الجوامع وشرحه جـ٢ ص٥٤، المستصفى جـ٢ ص١٨٥.

الظَّالِمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٤) وقد استثنى الله المتقين مع نفى الخلة فى قوله: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف: ٦٧) ، واستثنى ما أذن فيه الشفاعة بقوله: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى** ﴾ (النجم: ٢٦) ، ومثل قوله تعاليك ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ (النساء: ١٢٣) فإن ما فيها من عموم خصص بمثل قوله: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى: ٣٠) .

ومن تفسير القرآن الكريم: الجمع بين ما يتوهم أنه يختلف، كخلق آدم من تراب فى بعض الآيات، ومن طين فى غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإن هذا ذكر للأطوار التى مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه.

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على غيرها، فبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ وتتفق فى المعنى، فقراءة ابن مسعود ﷺ «أو يكون لك بيت من ذهب» تفسير لفظ الزخرف فى القراءة المشهورة ﴿ **أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ** ﴾ (الإسراء: ٩٣) ، وبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ والمعنى، وإحدى القراءتين تعين المراد من القراءة الأخرى، فمثلا قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ (الجمعة: ٩) فسرتها القراءة الأخرى «فامضوا إلى ذكر الله»؛ لأن السعى عبارة عن المشى السريع، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب.

وبعض القراءات تختلف بالزيادة والنقصان، وتكون الزيادة فى إحدى القراءتين مفسرة للمجمل فى القراءة التى لا زيادة فيها، فمن ذلك: القراءة المنسوبة لابن عباس «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج» (البقرة: ١٩٨) فسرت القراءة الأخرى التى لا زيادة فيها، وأزالت الشك من قلوب بعض الناس الذين كانوا يتحرجون من الصفق فى أسواق الحج، والقراءة المنسوبة لسعد بن أبى وقاص: «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس» (النساء: ١٢) التى لا تعرض فيها لنوع الأخوة.

وهنا تختلف أنظار العلماء فى مثل هذه القراءات فقال بعض المتأخرين: إنها

من أوجه القرآن، وقال غيرهم: إنها ليست قرآنا بل هى من قبيل التفسير، وهذا هو الصواب لأن الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن فظنها بعض الناس ـ لتطاول الزمن عليها ـ من أوجه القراءات التى صحت عن رسول الله ﷺ ورواها عنه أصحابه.

ومما يؤيد أن القراءات مرجع مهم من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، ما روى عن مجاهد أنه قال: «لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه»[١].

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة تعرف بعض معانى القرآن، وليس هذا عملا آليا لا يقوم على شىء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل؛ إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة.

ومن أجل هذا نستطيع أن نوافق الأستاذ جولد زيهر على ما قاله فى كتابه «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» من أن «المرحلة الأولى لتفسير القرآن والنواة التى بدأ بها، تتركز فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها، وبعبارة أوضح: فى قراءاته، ففى هذه الأشكال المختلفة، نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير[٢]، نعم نستطيع أن نوافقه على أن المرحلة الأولى للتفسير تتركز فى القرآن نفسه على معنى رد متشابهه إلى محكمه، وحمل مجمله على مبينه، وعامه على خاصه، ومطلقه على مقيده... إلخ، كما تتركز فى بعض قراءاته المتواترة، وما كان من قراءات غير متواترة فلا يعول عليها باعتبارها قرآنا، وإن عول على بعض منها باعتبارها تفسيرًا للنص القرآنى نعم نستطيع أن نوافقه على هذا إن أراده، ولكن لا نستطيع أن نوافقه على ما يرى إليه من إلحاد فى آيات الله، وما يهدف إليه من اتهام المسلمين بالتساهل فى قبول القراءات، وذلك حيث يقول فى صفحة ١، ٢ من الكتاب نفسه: «وقد تسامح المسلمون فى هذه القراءات

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى جـ١ ص١٦٣.
(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم جـ١ ص١.

واعترفوا بها جميعًا على قدم المساواة بالرغم مما قد يفرض من أن الله تعالى قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفًا حرفًا وأن مثله من الكلام المحفوظ فى اللوح والذى تنزل به الملك على الرسول المختار يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد». اهـ.

كما لا نستطيع أن نوافقه على ما نسبه إلى الصحابة من أنهم هم الذين أحدثوا هذه القراءات جميعًا، ونفى كونها من كلام الله، وعلل ما ذهب إليه بعلل واهية لا تقوم إلا على أوهام تخيلها فظنها حقائق، وذلك حيث يقول فى صفحة «٦» بعد أن ساق هذه الآية ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ⑧ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفتح: ٨، ٩) قال «قرأ بعضهم بدلا من «وتعزروه» بالراء «وتعززوه» بالزاى، من العزة والتشريف، وإنى أرى فى الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة ـ وإن كنت لا أجزم بذلك ـ أن شيئًا من التفكير فى تصور أن الله قد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك، حقًا إنه قد جاءت فى القرآن آيات بهذا المعنى، (سورة الحج ٤٠ ومحمد ٧ والحشر ٨ وغيرها) بيد أن اللفظ المس[illegible] فى هذه الآيات وهو (نصر) يقوم على أساس أخلاقى تهذيبى، وليس كالتعبير بلفظ [illegible]زر) وهى الكلمة المتفقة مع اللفظ العبرى (عزار)، والتعبير بعزر تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية». اهـ.

فهذا الكاتب دفعه إلى رأيه الذى رآه ولم يقطع به كما هى عادته، جهله بأساليب العرب وأفانينها فى البلاغة؛ فالعرب لا يفهمون من قوله تعالى ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ بالراء معنى النصرة المادية، بل أول ما تصل هذه الكلمة إلى أسماعهم يعلمون أنه يريد منهم نصر دينه ونصر رسوله، وكثير من مثل هذه العبارات وارد فى القرآن؛ وما ذكره من التفرقة بين لفظ (نصر) ولفظ (عزر) من أن الأول يقوم على أساس أخلاقى تهذيبى، والثانى يقوم على أساس من المساعدة المادية، لا يقوم على أساس من الفقه اللغوى.

ويقول الكاتب فى صفحة ١٩، ٢٠ من الكتاب نفسه: «وأحب أن أهتم هنا ببعض ما ذكرته من هذه القراءات؛ لما فيه من طابع خاص ذى مبادئ جوهرية، فبعض هذه الاختلافات ترجع أسبابها إلى الخوف من أن تنسب إلى الله ورسوله عبارات قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجوه النظر الخاصة ما يمس الذات الإلهية العالية أو الرسول، أو

مما يرى أنه غير لائق بالمقام، وهنا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب هذه الأفكار التنزيهية، ثم ضرب لذلك أمثلة قال: «ففى سورة آل عمران آية ١٨ ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ...**﴾ فقد فهم أن هناك ما يصدم بشهادة الله نفسه على قدم المساواة مع الملائكة وأولى العلم فقرأ بعضهم «شهداء الله» وبهذا يكون الكلام ملتئما مع الآية المتقدمة، ﴿**الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ**﴾» اهـ.

والمتأمل أدنى تأمل يرى أن هذا الوهم الذى ادعى حصوله من القراءة الأولى لا يمكن أن يدور بخلد عاقل، ولم تر أحدًا من العلماء خطر له هذا الإيهام، فشهادة الله مع الملائكة لا غبار عليها، ولا تفيد مساواته لمن ذكروا معه.

ويقول فى صفحة ٢١، ٢٢: «وفى سورة العنكبوت آيتى ٢، ٣ ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ فقوله تعالى: ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ**﴾ قد يوحى إلى النفس أن الله قد علم ذلك أولا عند الفتنة كأنه لم يكن يعلم بذلك فى الأزل، ويظهر أن مثل هذا الظن قد أدى إلى قراءة على والزهرى «فَلَيُعْلِمَنَّ» من الإعلام، بمعنى فليعرفن الله الناس أخلاق هؤلاء وهؤلاء، أو بمعنى ليسمنهم بعلامة يعرفون بها، من بياض الوجوه وسوادها، وكحل العيون وزرقتها، وزرقة العيون عند العرب علامة على القبح والغدر، وأحيانا على الحسد» اهـ.

وللرد على هذا نقول: إن الله تعالى لا يعلم الشىء موجودًا إلا بعد وجوده، فتعلق علمه بالحادث باعتبار أنه حدث حادث، وهذا لا ينافى كونه عالما من الأزل بالشىء قبل وقوعه، فالكاتب ظن أن العلم المترتب على الفتنة هو العلم الأزلى، ونسى علم الانكشاف والظهور، فبنى على هذا أن من قرأ «فَلَيُعْلِمَنَّ» من الإعلام، قرأ بها فرارًا مما تفيده القراءة الأولى، وهذا قول باطل، ولايخفى على صحابة رسول الله ﷺ أن فتنة الله لمن يشاء من عباده، يراد منها أن يظهر للناس فى الخارج ما اشتمل عليه علمه من الأزل، فكيف يعقل أنهم عدلوا عن قراءة ﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ**﴾ من العلم إلى قراءة «فَلَيُعْلِمَنَّ» من الإعلام لمجرد هذا الوهم الباطل؟ اللهم إن الكاتب لا يريد إلا أن يوقع فى أذهان الناس، أن القرآن كان عرضة للتبديل والتحريف من أصحاب رسول الله ﷺ.

وقد ساق الكاتب أمثلة كثيرة فى كتابه، كلها من هذا القبيل ولهذا الغرض بدون أن يفرق بين قراءة متواترة وقراءة شاذة، ولو أنه علم ما اشترطه المسلمون لصحة القراءة وقبولها من تواترها عن صاحب الرسالة، أو صحة السند، وموافقة العربية وموافقة الرسم العثمانى، لما صار إلى هذا الرأى الباطل، ولما نسب إلى الصحابة ﷺ مثل هذا التحريف والتبديل فى كتاب ضمن الله حفظه فقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر: ٩) .

المصدر الثانى: النبى ﷺ:

المصدر الثانى الذى كان يرجع إليه الصحابة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله ﷺ ، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله ﷺ فى تفسيرها، فيبين له ما خفى عليه، لأن وظيفته البيان، كما أخبر الله عنه بذلك فى كتابه حيث قال: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(النحل: ٤٤) وكما نبه على ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول ﷺ أنه قال: «ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. . .» الحديث(١) .

والذى يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير بابًا من الأبواب التى اشتملت عليها، ذكرت فيه كثيرًا من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، فمن ذلك:

ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان قال: قال رسول الله ﷺ «إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى».

وما رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «الصلاة الوسطى صلاة العصر».

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾(الأنعام: ٨٢) شق ذلك على الناس فقالوا:

---

(١) تفسير القرطبى جـ١ ص٣٧.

يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك».

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠)، ألا وإن القوة الرمى».

وما أخرجه الترمذى عن على قال: سألت رسول الله ﷺ عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر».

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ قال: لا إله إلا الله».

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «من نوقش الحساب عُذِّب» قلت: أليس يقول الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: ٨) قال: «ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض».

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة»(١).

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله ﷺ.

الوضع على رسول الله ﷺ فى التفسير:

غير أن القصاص والوضاع زادوا فى هذا النوع من التفسير كثيرًا، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ (آل عمران: ١٤) قال: «القنطار ألف أوقية»، وما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «القنطار اثنا عشر ألف أوقية»(٢).

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٩١ - ٢٠٥.

(٢) فجر الإسلام ص٤٢٥؛ وقد حقق الحافظ ابن كثير عنا تفسيره لهذه الآية ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ (آل عمران: ١٤)... إلخ، أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ حديث فى تحديد القنطار، وما ورد من ذلك فموقوف على بعض الصحابة.

فمثل هذا التناقض فى مقدار وزن القنطار، لا يمكن أن يصدر عن رسول الله ﷺ، ولهذا رد العلماء كثيرًا مما ورد من التفسير منسوبًا إلى رسول الله ﷺ، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى» ومراده من قوله هذا ـ كما نقل عن المحققين من أتباعه ـ أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة[1] لا كما استظهره الأستاذ أحمد أمين حيث يقول: «وظاهر هذه الجملة أن الأحاديث التى وردت فى التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة، والظاهر ـ كما قال بعضهم ـ إنه يريد الأحاديث المرفوعة إلى النبى ﷺ فى التفسير، أما الأحاديث المنقولة عن الصحابة والتابعين فلا وجه لإنكارها، وقد اعترف هو نفسه ببعضها» اهـ[2].

وحيث يقول: «إن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتًا، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب، فقد روى عن الإمام أحمد أنه قال: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير، والملاحم، والمغازى»[3].

نعم، ليس الأمر كما استظهره صاحب ضحى الإسلام وفجر الإسلام؛ لأنه مما لا شك فيه أن النبى ﷺ صحت عنه أحاديث فى التفسير، والإمام أحمد نفسه معترف بها، فكيف يعقل أن الإمام أحمد يريد من عباراته السابقة نفى الصحة عن جميع الأحاديث المرفوعة إلى النبى ﷺ فى التفسير؟ ـ وظنى أن الأستاذ أراد بالبعض المذكور، المحققين من أصحاب الإمام أحمد، غاية الأمر أنه حمل كلامهم على غير ما أرادوا فوقع فى هذا الخطأ، والعجب أنه نقل عن الإتقان فى هامش فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ ما استظهرناه من كلام المحققين من أتباع الإمام أحمد.

واعترف فى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥، وضحى الإسلام جزء ٢ صفحة ١٣٨: بأنه قد صح عن رسول الله ﷺ تفسيرات لبعض ما أشكل من القرآن، وإن كان قد اضطرب فى كلامه فجعل ما ورد من التفسير عن رسول الله ﷺ بالغًا حد الكثرة، حيث قال فى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥: «وهذا النوع كثير، وردت منه أبواب فى كتب

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٧٨.
(٢) ضحى الإسلام جـ٢ ص١٤١.
(٣) فجر الإسلام ص٢٤٥.

الصحاح الستة، وزاد فيه القصاص والـوضاع كثيرا»، ثم عاد فى ضحى الإسلام جزء ٢ صفحـة ١٣٨ فجعل ما ورد عن الرسـول من التفسيـر بالغًا حد القلة حـيث قال: «وما روى عن الرسول ﷺ فى ذلك قليل، حتى روى عنه عائشة أنها قالت: لم يكن النبى ﷺ يفسـر شيئًـا من القرآن إلا آيات تعد، علمـهم إياه جبريل»، وفـاته أن الحديث مطعون فيه، فذكره دليلا عن مدعاه ولم يعقب عليه، مع أنه أحال على الطبرى فى نقل الحديث، والطبرى وضح علته، وتأوله على فرض الصحـة كما سنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

هل تناول النبى ﷺ القرآن كله بالبيان:

قد يقول قائل: إن الله تعالى يقول فى سورة النحل آية ٤٤: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ فهل بين رسول الله ﷺ لأصـحابه القرآن كله، إفرادًا وتركيبًا، وما يتبع ذلك من بيان الأحكام؟ أو أنه بين لهم بعضه وسكت عن بعضه الآخر؟ ثم على أى وجه كان هذا البـيان من الرسول ﷺ لأصحابه؟ وللجواب عن هذا نقول:

المقدار الذى بينه رسول الله ﷺ من القرآن لأصحابه:

اختلف العلماء فى المقدار الذى بينـه النبى ﷺ من القرآن لأصحابه: فمنهم من ذهب إلى القول بـأن رسول الله ﷺ بين لأصحـابه كل معـانى القرآن كمـا بين لهم ألفاظه، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية[(١)].

ومنهم من ذهب إلى القـول بأن رسول الله ﷺ لم يبـين لأصحـابه من معـانى القرآن إلا القليل، وعلى رأس هؤلاء: الخـويى والسيوطى[(٢)]، وقد استـدل كل فريق على ما ذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب.

أدلة من قال بأن النبى ﷺ بين كل معانى القرآن:

أولا: قـوله تعـالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ**

---

(١) انظر مقالته فى مقدمته فى أصول التفسير ص٥.

(٢) انظر ما نقله السيـوطى عن الخويى فى الإتقان جـ٢ ص١٧٤، وما ارتضاه السـيوطى فى الإتقان جـ٢ ص١٧٩.

يتفكرون﴾ (النحل: ٤٤) والبيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن، كما يتناول بيان ألفاظه، وقد بيَّن الرسول ألفاظه كلها، فلا بد أن يكون قد بين كل معانيه أيضًا، وإلا كان مقصرًا فى البيان الذى كلف به من الله.

ثانيا: ما روى عن أبى عبد الرحمن السلمى [(١)] أنه قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ: أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثمان سنوات، والذى حمل الصحابة على هذا، ما جاء فى كتاب الله تعالى من قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ (ص: ٢٩) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) وعقل الكلام متضمن لفهمه، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، والقرآن أولى بذلك من غيره.

فهذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلموا من رسول الله ﷺ معانى القرآن كلها، كما تعلموا ألفاظه.

ثالثا: قالوا: إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكتاب الله الذى فيه عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة؟.

رابعًا: ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية، لسرعة موته بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه [(٢)].

---

(١) هو: عبد الله بن حبيب التابعى المقرى المتوفى سنة ٧٢هـ، وهو غير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى المتوفى سنة ٤١٢هـ.

(٢) استخلصنا هذه الأدلة من مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص٥ و ٦، ومن الإتقان جـ٢ ص٢٠٥.

أدلة من قال بأن النبى ﷺ لم يبين لأصحابه إلا القليل من معانى القرآن:

استدل أصحاب هذا الرأى بما يأتى:

أولاً: ما أخرجه البزار عن عائشة قال: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئًا من القرآن إلا آيًا بعدد، علمه إياهن جبريل»[(١)].

ثانيًا: قالوا: إن بيان النبى ﷺ لكل معانى القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا فى آى قلائل، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد فى جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده فى كتابه[(٢)].

ثالثًا: قالوا: لو كان رسول الله ﷺ بيَّن لأصحابه كل معانى القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له بقوله: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

فائدة: لأنه يلزم من بيان رسول الله ﷺ لأصحابه كل معانى القرآن استواؤهم فى معرفة تأويله، فكيف يخصص ابن عباس بهذا الدعاء؟[(٣)].

مغالاة الفريقين:

ومن يتأمل فيما تقدم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما على طرفى نقيض، ورأيى أن كل فريق منهم مبالغ فى رأيه، وما استند إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة على المدعى.

مناقشة أدلة الفريق الأول:

فاستدلال ابن تيمية ومن معه على رأيهم بقوله تعالى: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ (النحل: ٤٤) استدلال غير صحيح، لأن الرسول ـ بمقتضى كونه مأمورًا بالبيان ـ كان يبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن، لا كل معانيه، ما أشكل منها وما لم يشكل.

وأما استدلالهم بما روى عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلموا

---

(١) القرطبى جـ١ ص٣١، ورواية الطبرى فى تفسيره جـ١ ص٢١ (... إلا آيًا تعد) وفى ضحى الإسلام جـ٢ ص١٣٨ بلفظ (... إلا آيات تعد).

(٢) انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن الخويى جـ٢ ص١٧٤.

(٣) انظر القرطبى جـ١ ص٣٣.

من النبى ﷺ عشر آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها، فهو استدلال لا ينتج المدعى، لأن غاية ما يفيده، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه، وهو أعم من أن يفهموه من النبى ﷺ أو من غيره من إخوانهم الصحابة، أو من تلقاء أنفسهم، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد.

وأما الدليل الثالث، فكل ما يدل عليه: هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه، شأن أى كتاب يقرؤه قوم، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبى ﷺ فى كل لفظ منه.

وأما الدليل الرابع: فلا يدل أيضًا، لأن وفاة النبى ﷺ قبل أن يبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يبين لهم كل معانى القرآن، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبى ﷺ، شأن غيرها من مشكلات القرآن.

مناقشة أدلة الفريق الثانى:

وأما استدلال أصحاب الرأى الثانى بحديث عائشة، فهو استدلال باطل؛ لأن الحديث منكر غريب، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيرى، وهو مطعون فيه، قال البخارى: لا يتابع فى حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى: «منكر الحديث» وقال فيه ابن جرير الطبرى: «إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار»، وعلى فرض صحة الحديث فهو محمول ـ كما قال أبو حيان ـ على مغيبات القرآن، وتفسيره لمجمله، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله[١]، وفى معناه ما قاله ابن جرير[٢]، وما قاله ابن عطية[٣].

وأما الدليل الثانى، فلا يدل أيضًا على ندرة ما جاء عن النبى ﷺ فى التفسير؛ إذ أن دعوى إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة، وأما ما قيل من أن النبى ﷺ لم يؤمر بالتنصيص على المراد فى جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس فى آيات القرآن فليس بشىء، إذ أن النبى ﷺ مأمور بالبيان، وقد يشكل

(١) البحر المحيط جـ١ ص١٣.
(٢) فى تفسيره جـ١ ص٢٩.
(٣) ونقله عنه القرطبى فى تفسيره جـ١ ص٣١.

الكثير على أصحابه فيلزمه البيان، ولو فرض أن القرآن أشكل كله على الصحابة ما كان للنبى ﷺ أن يمتنع عن بيان كل آية منه بمقتضى أمر الله له فى الآية ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤).

وأما الدليل الثالث: فلو سلمنا أنه يدل على أن النبى ﷺ لم يفسر كل معانى القرآن، فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى.

اختيارنا فى المسألة:

والرأى الذى تميل إليه النفس ـ بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق فى دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى ـ وهو أن نتوسط بين الرأيين فنقول: إن الرسول ﷺ بين الكثير من معانى القرآن؛ لأصحابه، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معانى القرآن؛ لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته، كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير، قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» (١).

وبدهى أن رسول الله ﷺ لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته، وهو الذى لا يعذر أحد بجهله؛ لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر لهما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة، وحقيقة الروح، وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التى لم يطلع الله عليها نبيه، وإنما فسر لهم رسول الله ﷺ بعض المغيبات التى أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسر لهم أيضًا كثيرًا مما يندرج تحت القسم الثالث، وهو ما يعلمه ويرجع إلى اجتهادهم، كبيان المجمل وتخصيص العام وتوضيح المشكل، وما إلى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به.

هذا، وإن مما يؤيد أن النبى ﷺ لم يفسر كل معانى القرآن، أن الصحابة ﷺ،

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٥.

وقع بينهم الاختلاف فى تأويل بعض الآيات، ولو كـان عندهم فيه نص عن رسول الله ﷺ ما وقع هذا الاختلاف، أو لارتفع بعد الوقوف على النص.

بقى بعد هذا أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال، وهو: على أى وجه كان بيان رسول الله ﷺ للقرآن؟ فنقول:

إن الناظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد فيهما ما يدل على أن رسول الله ﷺ وظيفته البيان لكتاب الله، أو بعبارة أخرى: ما يدل على أن مركز السنة النبوية من القرآن، مركز المُبَيِّن من المُبَيَّن.

فمن القرآن: قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

(النحل: ٤٤)

ومن السنة: ما رواه أبو داود عن المقدام بن معد يكرب، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، لا لا يحل لكم الحمار الأهلى، ولا كل ذى ناب من السباع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه»[(١)].

فقوله: «أوتيت الكتب ومثله معه» معناه أنه أوتى الكتاب وحيًا يتلى، وأوتى من البيان مثله، أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب، فيعم ويخص ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن، ويحتمل وجهًا آخر: وهو أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، كما قال تعالى فى سورة النجم آيتى ٣، ٤: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، وأما قوله: «يوشك رجل شبعان... إلخ» فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنة التى سنها الرسول ﷺ وليس لها ذكر فى القرآن، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا[(٢)]، وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال: «كان الوحى ينزل على

---

(١) القرطبى جـ١ ص٣٧، ٣٨.

(٢) انظر القرطبى جـ١ ص٣٧، ٣٨.

رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك»(١)، وروى الأوزاعى عن مكحول قال: «القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن»(٢).

أوجه بيان السنة للكتاب:

وإذا قد اتضح لنا من الآية والحديث والآثار مقدار ارتباط السنة بالكتاب، ارتباط المبين بالمبيَّن - فلنبين بعد ذلك أوجه هذا البيان فنقول:

الوجه الأول: بيان المجمل فى القرآن، وتوضيح المشكل، وتخصيص العام، وتقيد المطلق.

فمن الأول: بيانه ﷺ لمواقيت الصلوات الخمس، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج، ولذا قال: «خذوا عنى مناسككم» وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى».

وقد روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: «إنك رجل أحمق، أتجد الظهر فى كتاب الله أربعًا لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد عليه الصلاة، والزكاة ونحو ذلك، ثم قال: أتجد هذا فى كتاب الله تعالى مفسرًا؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا، وإن السنة تفسر هذا»(٣).

ومن الثانى: تفسيره ﷺ للخيط الأبيض والخيط الأسود فى قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ (البقرة: ١٨٧) بأنه بياض النهار وسواد الليل.

ومن الثالث: تخصيصه ﷺ الظلم فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ (الأنعام: ٨٢) بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم، حتى قال: «وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبى ﷺ: «ليس بذلك؛ إنما هو الشرك».

ومن الرابع: تقييده اليد فى قوله تعالى: ﴿**فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ (المائدة: ٣٨) باليمين.

الوجه الثانى: بيان معنى لفظ أو متعلقه، كبيان المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، وكبيان قوله تعالى ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ (البقرة: ٢٥) بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة، وكبيان قوله تعالى ﴿**قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا**

(١، ٢) القرطبى جـ١ ص٣٩.

(٣) القرطبى جـ١ ص٣٩.

منْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ (البقرة: ٥٨، ٥٩) بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة فى شعيرة.

الوجه الثالث: بيان أحكام زائدة على ما جاء فى القرآن الكريم، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها، وصدقة الفطر، ورجم الزانى المحصن، وميراث الجدة، والحكم بشاهد ويمين، وغير هذا كثير يوجد فى كتب الفروع.

الوجه الرابع: بيان النسخ: كأن يبين رسول الله ﷺ أن آية كذا نُسخت بكذا، أو أن حكم كذا نسخ بكذا، فقوله ﷺ: «لا وصية لوارث» بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها، وإن بقيت تلاوتها، وحديث «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام» بيان منه أيضًا لنسخ حكم الآية (١٥) من سورة النساء ﴿وَاللاَّتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ...﴾ وغير هذا كثير.

الوجه الخامس: بيان التأكيد، وذلك بأن تأتى السنة موافقة لما جاء به الكتاب، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته، وذلك كقوله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه» فإنه يوافق قوله تعالى: ﴿لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (النساء: ٢٩) وقوله ﷺ: «اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» فإنه موافق لقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩).

المصدر الثالث من مصادر التفسير فى عصر الصحابة:
الاجتهاد وقوة الاستنباط

كان الصحابة رضي الله عنهم، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله ﷺ رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد، أما ما يمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لا يحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر، ضرورة أنهم من خلص العرب، يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ما ورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب، كما يقول ابن عباس رضي الله عنه.

أدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة:

وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آى القرآن بهذا الطريق، أعنى طريق الرأى والاجتهاد، مستعينًا على ذلك بما يأتى:

أولا: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانيًا: معرفة عادات العرب.

ثالثًا: معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعًا: قوة الفهم وسعة الإدرك.

فمعرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها، تعين على فهم الآيات التى لا يتوقف فهمها على غير لغة العرب، ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم، فمثلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ**﴾(التوبة: ٣٧) وقوله: ﴿**وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا**﴾(البقرة: ١٨٩) لا يمكن فهم المراد منه إلا لمن عرف عادات العرب فى الجاهلية وقت نزول القرآن.

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن، تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها»[١]، وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن»[٢]، وقال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[٣].

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن يدق معناه، ويخفى المراد منه، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظًا من الفهم ونور البصيرة، ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك، وهذا ببركة دعاء رسول الله ﷺ له بذلك حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل».

(١، ٢، ٣) منهج الفرقان جـ١ ص٣٦.

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضي الله عنه قال: «قلت لعلى رضي الله عنه: هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله؟ قال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر»(١).

هذه هى أدوات الفهم والاستنباط التى استعان بها الصحابة على فهم كثير من آيات القرآن، وهذا هو مبلغ أثرها فى الكشف عن غوامضه وأسراره.

تفاوت الصحابة فى فهم معانى القرآن:

غير أن الصحابة رضي الله عنهم، كانوا متفاوتين فى معرفتهم بهذه الأدوات، فلم يكونوا جميعًا فى مرتبة واحدة السبب الذى من أجله اختلفوا فى فهم بعض معانى القرآن، وإن كان اختلافًا يسيرًا بالنسبة لاختلاف التابعين ومن يليهم، ومن أمثلة هذه الاختلاف: ما روى من أن عمر استعمل قدامة بن مظعون على البحرين، فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول، فقال عمر: يا قدامة إنى جالدك، قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تجلدنى، قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا**﴾ (المائدة: ٩٣)، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذرًا للماضين وحجة على الباقين؛ لأن الله يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾ (المائدة: ٩٠)، قال عمر: صدقت. اهـ(٢).

وما روى أن الصحابة فرحوا حينما نزل قوله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ (المائدة: ٣) لظنهم أنها مجرد إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى، وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرًا نعى النبى صلى الله عليه وسلم، وقد كان مصيبًا فى ذلك، إذ لم يعش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها إلا أحدًا وثمانين يومًا، كما روى(٣).

---

(١) البخارى فى باب الجهاد جـ٤ ص٦٩.
(٢) فجر الإسلام ص٢٤٣، ٢٤٤.
(٣) الموافقات جـ٣ ص٣٨٤.

وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال: لِمَ يُدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئًا، فقال لى: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابًا، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول»(١).

المصدر الرابع من مصادر التفسير فى هذا العصر

أهل الكتاب من اليهود والنصارى:

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة فى بعض المسائل، وبالأخص فى قصص الأنبياء، وما يتعلق بالأمم الغابرة، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت فى الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجًا يخالف منهج التوراة والإنجيل، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائما تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء جعل بعض الصحابة ﷺ يرجعون فى استيفاء هذه القصص التى لم يتعرض لها القرآن من جميع نواحيها إلا من دخل فى دينهم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ما ليس عندهم فيه شىء عن رسول الله ﷺ؛ لأنه لو ثبت شىء فى ذلك عن رسول الله ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه.

---

(١) البخارى فى باب التفسير جـ٨ ص٥١٩ من فتح البارى.

أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة:

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب، لم يكن له من الأهمية فى التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، وإنما كان مصدرًا ضيقًا محدودًا، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل، وكان طبيعيًا أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم، ويصونوا القرآن عن أن يخضع فى فهم معانية الشىء مما جاء ذكره فى هذه الكتب التى لعبت فيها أيدى المحرفين، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن، أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافى مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه، ووراء هذا وذاك ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا النوع كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ويتوقفون فيه، فلا يحكمون عليه بصدق ولا بكذب، امتثالا لقول الرسول ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، و ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾: الآية».

وسنوفق بمشيئة الله تعالى بين هذا الحديث وحديث «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج...» ونذكر مدى تأثير اليهودية، والنصرانية على التفسير فى أدواره المختلفة من من لدن عصر الصحابة إلى عصر التدوين، وذلك عند الكلام عن التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد.

أشهر المفسرين من الصحابة:

وقد عد السيوطى رحمه الله فى الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، ﭫ.

وهناك من تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وغير أن ما نقل عنهم فى التفسير قليل جدًا، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول فى القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولا، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قلة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم فى التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم فى التفسير غير كبيرة.

أما على بن أبى طالب ﭬ، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه فى التفسير، والسبب فى ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان ﭬ، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفى من معانى القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم فى دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية فى التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلى بن أبى طالب أيضًا فى التفسير، هذه الصفات هى: قوتهم فى اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبى ﷺ مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبى ﷺ فى شبابه، لوفاة النبى ﷺ وهو فى سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.

أما باقى العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلت عنهم الرواية ولم يصلوا فى التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام فى شأن أبى بكر، وعمر، وعثمان، وزيد بن ثابت، وأبى موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، ونتكلم عن على، وابن عباس، وابن مسعود، وأبى بن كعب، نظرًا لكثرة الرواية عنهم فى التفسير، كثرة غذت مدارس الأمصار على اختلافها وكثرتها.

ولو أنَّا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم[1] لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم على بن أبى طالب، ثم أبى بن كعب، وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة بما يتناسب مع مشربه فى التفسير ومنحاه الذى نحاه فيه.

* * *

(١) وتبين هنا الحكمة من تأخير على ﷺ، لا كما زعم بعض مؤلفى الشيعة آن ذاك ـ كان متعمدًا من الوالد ـ رحمه الله ـ (د. مصطفى الذهبى).

١- عبد الله بن عباس

ترجمتـــــــه:

هو: عبد الله بن عباس بن المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ، وأمه لبـابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهـلالية، ولد والنبى ﷺ وأهل بيته بالشِّعب بمكة، فأُتى به النبى ﷺ فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبى ﷺ فى صغره؛ لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله ﷺ، وتوفـى رسول الله ﷺ وله من العـمر ثلاث عشـرة سنة، وقيل: خمس عـشرة، فلازم كبار الصـحابة وأخذ عنهم ما فـاته من حديث رسول الله ﷺ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة، مات بالطائف ودُفن بها، وتولى وضعه فى قبره محـمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوى عليه التراب: مات والله اليوم حبر هذه الأمة.

مبلغه من العلم:

كان ابن عـباس يلقب بالحبـر والبحر لكثرة علمـه، وكان على درجة عظيـمة من الاجتهـاد والمعرفة بمعـانى كتاب الله، ولذا انتهت إليـه الرياسة فى الفتوى والتفـسير، وكان عمر رضي الله عنه يُجلسـه فى مجلسه مع كبار الصحابة ويـدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتيـاننا وجهًا، وأحسنهم خلقًا، وأفقههم فى كـتاب الله، وقال فى شأنه: ذاكم فتى الكهـول؛ إن له لسانا سـئولا، وقلبًا عـقولا، وكان لفـرط أدبه إذا سأله عـمر مع الصحابة عن شىء يقول: لا أتكلم حتى يتكلموا، وكان عمر رضي الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه؛ يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتـابه أُسد الغابة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتـبة قال: «إن عمر إذا جاءته الأقـضية المعضلة قال لابن عـباس: إنها قد طرأت علينا أقضـية وعضل، فأنت لهـا ولأمثالهـا، فكان يأخذ بقوله، وما كـان يدعو لذلك أحدًا سواه» قـال عبيد الله: وعمر هو عـمر فى حذقه واجتهـاده لله وللمسلمين، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبـير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفـسه وقال: لِمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟

فقال عمر إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ (النصر: ١)فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئًا، فقال لى: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول». اهـ. وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره، وقال فيه ابن مسعود رضي الله عنه: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»، وقال فيه عطاء «ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من وادٍ واسع، وقال عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة «كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب، وتأويل، وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ منه، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يومًا ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويومًا التأويل، ويومًا المغازى، ويومًا للشعر، ويومًا لأيام العرب، ولا رأيت عالمًا قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده علمًا»، وقيل لطاوس لزمت هذا الغلام ـ يعنى ابن عباس ـ وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، قال: إنى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس، وروى الأعمش عن أبِى وائل قال: «استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة ـ وفى رواية سورة النور ـ ففسرها تفسيرًا لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا» وكان على بن أبى طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويقول: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق».

وبالجملة فقد كانت حياة ابن عباس حياةِ علمية، يتعلم ويعلم، ولم يشتغل بالإمارة إلا قليلا لما استعمله على على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه علمًا وفصاحة، وسعة اطلاع فى نواحٍ علمية مختلفة، لا

سيما فهمه لكتاب الله تعالى، وخير ما يقال فيه ما قاله ابن عمر رضي الله عنه: ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد[١] .

أسباب نبوغه:

ونستطيع أن نرجع هذه الشهرة العلمية؛ وهذا النبوغ الواسع الفياض، إلى أسباب نجملها فيما يلى:

أولا : دعاء النبى ﷺ له بقوله: «اللهم علمه الكتاب والحكمة» وفى رواية أخرى: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل»؛ والذى يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحًا فيما صح عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثانيًا: نشأته فى بيت النبوة، وملازمته لرسول الله ﷺ من عهد التمييز؛ فكان يسمع منه الشيء الكثير، ويشهد كثيرًا من الحوادث والظروف التى نزلت فيها بعض آيات القرآن.

ثالثًا: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبى ﷺ، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله ﷺ، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: «وجدت عامة حديث رسول الله ﷺ عند الأنصار، فإن كنت لآتى الرجل فأجده نائمًا، لو شئت أن يوقظ لى لأوقظ؛ فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف».

رابعًا: حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها؛ وكثيرًا ما كان يستشهد للمعنى الذى يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربى.

خامسًا: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه لملامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق فى جانبه،

---

(١) انظر أسد الغابة جـ ص١٩٢، ١٩٥.

وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه همة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بملغ علمه، فقد روى أن رجلا أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠) فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرنى، فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقا لا تمطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنت أقول: ما يعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتى علمًا.

هذه هى أهم الأسباب التى ترجع إليها شهرة ابن عباس فى التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ ودين متين.

قيمة ابن عباس فى تفسير القرآن:

تتبين قيمة ابن عباس فى التفسير، من قول تلميذه مجاهد: «إنه إذا فسر الشىء رأيت عليه النور»، ومن قول على ﷺ يثنى عليه فى تفسيره: «كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق»، ومن قول ابن عمر: «ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد»، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه فى فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى، ففى قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أى الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشراً؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذى هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: «قال يهودى بالكوفة ـ وأنا أتجهز للحج: إنى أراك رجلا تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حبر العرب ـ يعنى ابن عباس ـ فسائله عن ذلك، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما

وأطيبهما؛ إن النبى إذا وعد لم يخلف، وقال سعيد: فقدمت العراق فلقيت اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أنزل على موسى، هذا والله العالم» اهـ[١].

وهذا عمر ﷺ يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جوابًا مرضيًا رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفى هذا يروى الطبرى: «أن عمر سأل الناس عن هذه الآية، يعنى ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾ (البقرة: ٢٦٦)... الآية، فما وجد أحدًا يشفيه، حتى قال ابن عباس ـ وهو خلفه: يا أمير المؤمنين إنى أجد فى نفسى منها شيئًا، فتلفت إليه فقال تحول ههنا، لم تحقر نفسك؟ قال: هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه». اهـ[٢].

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١) وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا من نفحه الله بنفحة من روحه، وكثيراً ما ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل الملهم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه على ﷺ، الأمر الذى جعل الصحابة يقدرون ابن عباس ويثقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس، استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غذت بعلمها الأمصار المختلفة، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجابًا وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر، وقد صرح الزركشى بأن قول ابن عباس مقدم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم فى التفسير[٣].

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٢٠ ص٤٣.
(٢) تفسير ابن جرير جـ٣ ص٤٧.
(٣) الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله ﷺ، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة فى بمعرفة أسباب النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن، وكان ؓ يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

اتهام الأستاذ جولد زيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب:

وإنا لنجد فى كتاب (المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن) مبلغ اتهام مؤلفه (جولد زيهر) لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفًا ما ورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله ﷺ «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك، قال: «وكثيرًا ما يذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى، الذى أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قالت: كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام، ويختم التوراة فى ستة، يقرؤها نظرًا، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة.

ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس، نجد أيضًا كعب الأحبار اليهودى، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه فى أقواله حذر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم... ولم تكن التعاليم الكثيرة التى أمكن أن يستقيها ابن عباس، والتى اعتبرها من تلك الأمور التى يرجع فيها

إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية، فقد كان يسأل كعبًا عن التفسير الصحيح لأم القرآن وللمرجان مثلا، وقد رأى الناس فى هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم ـ على العموم ـ فى القرآن وفى كلام الرسول ﷺ وما فيهما من المعانى الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد ـ من كل جهة ـ من سؤالهم». اهـ[1].

هذه هى عبارة الأستاذ جولد زيهر فى كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأى، حيث يقول فى فجر الإسلام: «وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الإسلام، فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم، روى أن النبى ﷺ قال: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم». اهـ[2].

فالأستاذ جولد زيهر، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة ـ وبخاصة ابن عباس ـ لم يأبهوا لنهى الرسول ﷺ، فصدقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير فى التفسير، وأن اللون اليهودى قد صبغ مدارس التفسير القديمة، وبالأخص مدرسة ابن عباس، بسبب اتصالهم بمن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب.

رد هذا الاتهام:

والحق أن هذا غلو فى الرأى، وبعد عن الصواب، فابن عباس ـ كما قلت آنفا ـ وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شىء يمس العقيدة، أو يتصل بأصول الدين، أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يحكمون دينهم وعقلهم، فما

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٦٥ - ٦٧.
(٢) فجر الإسلام ص٢٤٨.

اتفق مع الدين والعقل صدقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه، وبهذا المسلك يكون الصحابة - ﷺ - قد جمعوا بين قوله ﷺ : «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وقوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار؛ لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: «فإن فيهم أعاجيب» والثانى محمول على ما إذا كان المخبر به من قبلهم محتملا، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه؛ لأنه ربما كان صدقًا فى نفس الأمر فيكون فى التكذيب به حرج، وربما كان كذبًا فى نفس الأمر فيكون فى التصديق به خرج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، كما أفاده ابن حجر ونبه عليه الشافعى رضي الله عنه(١)، وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات فى التفسير.

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضي الله عنه لنفسه أن يحدث عن بنى إسرائيل بمثل هذا التوسع الذى يجعله مخالفًا لأمر رسول الله ﷺ ، وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيرًا على ذلك، فقد روى البخارى فى صحيحه عنه أنه قال: «يا معشر المسلمين: تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ (البقرة: ٧٩) أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم». اهـ(٢).

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم:

كان ابن عباس رضي الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم؛ ليستعان به على فهم معانى الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى فى

---

(١) فتح البارى جـ٨ ص١٢٠.

(٢) البخارى فى كتاب الشهادات جـ٥ ص١٨٥ من فتح البارى.

الآية (٤٧) من سورة النحل ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكًا قَرِدا ... كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ

فيقول عمر ﷺ لأصحابه: عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم[1].

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد روى عنه الشيء الكثير من ذلك، وأوعب ما روى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتى مسألة، أخرج بعضها ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء، وأخرج الطبرانى بعضها الآخر فى معجمه الكبير، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان بسنده مبدأ هذا الحوار الذى كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها، فقال: «بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب؛ فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرنى عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (المعارج: ٣٧) قال: العزون: حلق الرفاق، قال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا؟

قال أخبرنى عن قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥)، قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

---

(١) القصة فى الموافقات جـ٢ ص٨٨ وليس فيها ما يعارض ما جاء عن عمر من أنه لما سأل عن الأب رجع إلى نفسه وقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر؛ لأن الآية: التى معنا يتوقف فهم معناها على معرفة معنى التخوف؛ بخلاف الآية الأخرى، فإن المعنى الذى يراد منها لا يتوقف على معرفة معنى الأب.

إن الرجـــال لـهم إليك وســـيلة إن يأخـذوك تكحلى وتخـضـبى؟

إلى آخر المـسائل وأجوبتـها(١)، وهى تدل على قوة ابن عـباس فى معرفتـه بلغة العرب، وإلمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غـيره، مما جعله ـ بحق ـ إمام التفسير فى عهـد الصحابة، ومرجع الـمفسرين فى الأعـصر التاليـة للعصر الذى وجد فـيهم، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل فى شأنه: «إنه هو الذى أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن»(٢).

هذا وقد بين لـنا ابن عباس ﷺ، مـبلغ الحاجـة إلى هذه الناحية فى الـتفسـير، وحض عليها من أراد أن يتـعرف غريب القرآن، فقـد روى أبو بكر بن الأنبارى عنه أنه قال: «الـشعر ديـوان العرب، فإذا خـفى علينا الحـرف من القرآن الذى أنزله الله بلـغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه»(٣).

وروى ابن الأنبارى عنه أيضًا أنه قـال: «إذا سألتمونى عن غريب القرآن فـالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»(٤).

فابن عـباس ﷺ كـان يرى رأى عمـر فى ضرورة الرجـوع إلى الشعر الجـاهلى للاستعانة به على فهم غريب القرآن، بل وكان أكثر الصحابة إلمامًا بهذه الناحية وتطبيقًا لها.

وقد استمـرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومن يليهم، إلى أن حـدثت خصومة بين متورعى الفـقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقـة، وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن(٥)، وقالوا: كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم فى القرآن والحديث؟!.

والحق أن هذه الخصـومة التى جدت فى الأجـيال المتأخـرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصـحاب هذا الرأى، من جعل الشعر أصلا للقرآن، بل هو فى الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا**

(١) وهى فى الإتقان جـ١ ص١٢٠.
(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ٦٩.
(٣) الإتقان جـ١ ص١١٩.
(٤) الإتقان جـ١ ص١١٩.
(٥) ومن هؤلاء الإمام النيسابورى صـاحب التفسير المشهـور، فقد صرح بذلك فى مقدمـة تفسيره جـ١ ص٦.

عَرَبِيًّا﴾ (الزخرف: ٣) وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥) ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلي للاستشهاد به على المعنى الذى يذهبون إليه فى فهم كلام الله تعالى.

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:

روى عن ابن عباس رضي الله عنه فى التفسير ما لا يحصى كثرة، وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضي الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذى جعل نقاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التى جاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدلوا العدول، وجرحوا الضعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفًا، وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أبين مبلغها من الصحة أو الضعف، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضي الله عنه، وهذه هى أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهذه هى أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضي الله عنه: «إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا»[(١)]، وقال الحافظ ابن حجر: «... وهذه النسخة كانت عند أبى صالح، كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس»[(٢)].

وكثيرًا ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبى صالح، ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعًا يحتجون بعلى بن أبى طلحة.

طعن بعض النقاد على هذه الطريق:

ولقد حاول بعض النقاد أن يقلل من قدر هذه الطريق فقال: «إن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير»[(٣)] وعلى هذا فهى منقطعة لا يركن إليها، ولا يعول عليها.

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٨. (٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٨. (٣) الإتقان جـ٢ ص١٨٨.

وقد استغل هذا القول الأستاذ جولد زيهر فى كتابه «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن» فقال: «صرح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل ـ على بن أبى طلحة ـ لم يسمع التفسير الذى تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى فى صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقًا، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له»(١). اهـ.

تفنيد هذا الطعن:

ويظهر لنا أن الأستاذ جولد زيهر، جهل أو تجاهل ما رد به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذى لا قيمة له، فقد فند ابن حجر هذا النقد بقوله: «بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك»(٢) وقال صاحب إيثار الحق: «وقال الذهبى فى الميزان: وقد روى ـ يعنى على بن أبى طلحة ـ عن ابن عباس وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يقبل»(٣).

وجملة القول، فهذه أصح الطرق فى التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخارى لها واعتماده عليها شاهدًا على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفى، عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيرًا ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهى طريق جيدة وإسنادها حسن، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرًا، وأخرج الطبرانى منها فى معجمه الكبير.

رابعا: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، تارة عن أبى مالك، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس، وإسماعيل السدى مختلف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعى شيعى(٤)، وقال السيوطى: «روى عن السدى الأئمة مثل

---

(١) ص٧٧.
(٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٨.
(٣) إيثار الحق ص١٥٩.
(٤) إيثار الحق ص١٥٩.

الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى»[١]، وابن جرير يورد فى تفسيره كثيرًا من تفسير السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس، ولم يخرج منه ابن أبى حاتم شيئًا؛ لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد.

خامسا: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهى تحتاج إلى دقة فى البحث، ليعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز فى روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جريج هذا جماعة كثيرة، منهم بكر بن سهل الدمياطى، عن عبد الغنى بن سعيد، عن موسى ابن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر بن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر، ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج، عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار، ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءًا وهو صحيح متفق عليه.

سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس، وهى غير مرضية؛ لأنه وإن وثقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة؛ لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيرًا ابن جرير وابن أبى حاتم، وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفًا؛ لأن جويبر شديد الضعف متروك، ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذه الطريق شيئًا، إنما خرجها ابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان.

سابعها: طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، وهى غير مرضية؛ لأن عطية ضعيف ليس بواه، وربما حسن له الترمذى، وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيرًا.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى، وهو المفسر الذى ينسب إلى الشافعى أنه قال فيه: «إن الناس عيال عليه فى التفسير»[٢]، ومع ذلك فقد ضعفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما، وقد كذبه غير واحد،

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٨.

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص٥٦٧.

ولم يوثقه أحد، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه[١]، وتكلم عنه السيوطى فقال: «إن الكلبى يفضل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية[٢]» وقد سئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: «لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه» يعنى التفسير[٣]، وقال أحمد بن حنبل: «لا يعجبنى أن أروى عن مقاتل ابن سليمان شيئًا»[٤].

وبالجملة فإن من استحسن تفسير مقاتل كان يضعفه ويقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة»[٥].

تاسعها: طريق محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، وهذه أوهى الطرق، والكلبى مشهور بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع كما قال ابن عدى فى الكامل، ومع ذلك فإن وجد من قال: رضوه فى التفسير، فقد وجد من قال: أجمعوا على ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع[٦]، وممن يروى عن الكلبى: محمد بن مروان السدى الصغير، وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهذا قال السيوطى فى الإتقان: «فإن انضم إلى ذلك ـ أى طريق الكلبى ـ رواية محمد ابن مروان السدى الصغير، فهى سلسلة الكذب»[٧]، وقال السيوطى أيضًا فى كتابه الدر المنثور جـ٦ ص٤٢٣: «الكلبى: اتهموه بالكذب، وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شىء حدثتكم عن أبى طالح كذب، ومع ضعف الكلبى فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفًا، وهو محمد بن مروان السدى الصغير» وكثيرًا ما يخرج من هذه الطريق الثعلبى والواحدى.

هذه هى أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها، وقد عرفت قيمة كل طريق منها، ومن اعتمد عليها فيما جمع من التفسير عن ابن عباس ﵄.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته:

هذا، وقد نسب إلى ابن عباس ﵄ جزء كبير فى التفسير، وطبع فى مصر مرارًا باسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس» جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز

(١) إيثار الحق ص١٥٩.
(٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٩.
(٣) تهذيب الأسماء واللغات جـ٢ ص١١١.
(٤) تهذيب الأسماء واللغات جـ٢ ص١١١.
(٥) التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم ص٩.
(٦) التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم ص٩.
(٧) الإتقان جـ٢ ص١٨٩.

أبادى الشافعى، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعت على هذا التفسير، فوجدت جامعه يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند: «أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروى، قال: أخبرنا أبى، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازى، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروى، قال: أخبرنا على بن إسحاق السمرقندى، عن محمد بن مروان، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس. وعند تفسير أول البقرة، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله بن المبارك، قال: حدثنا على بن إسحاق السمرقندى عن محمد ابن مروان، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وفى مبدأ كل سورة يقول: وبإسناده عن ابن عباس.

... وهكذا يظهر لنا جليًا، أن جميع ما روى عن ابن عباس فى هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدى الصغير، عن محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدم، وحسبنا فى التعقيب على هذا ما روى من طريق ابن عبد الحكم قال: «سمعت الشافعى يقول: لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث»[(١)] وهذا الخبر - إن صح عن الشافعى - يدلنا على مقدار ما كان عليه الوضاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس، وليس أدل على ذلك من أنك تلمس التناقض ظاهرًا بين أقوال فى التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه، وسيأتى - عند الكلام عن الوضع فى التفسير - أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيئًا من قيمته العلمية فى الغالب، وإنما الشىء الذى لا قيمة له فيه، هو نسبته إلى ابن عباس.

أسباب الوضع على ابن عباس:

ويبدو أن السر فى كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة، والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وضع على غيره، أضف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس من يتزلف إليهم، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم... وسنعرض إلى أسباب الوضع فى التفسير، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه، عند الكلام على منشأ الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٩.

٢- عبد الله بن مسعود

ترجمتـــــــه:

هو عبد الله بن غـافل، يصل نسبه إلى مضر، ويكنى بأبى عبـد الرحمن الهذلى، وأمه أم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان ينسب إليها أحيانًا فيقال ابن أم عبد، كان ـ رحمه الله ـ خفـيف اللحم، قصيرًا، شديد الأدمة، أسلم قـديمًا، روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قـال عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: «لقد رأيتنى سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيـرنا» وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشًـا بعد رسـول الله ﷺ، وأوذى فى الله من أجل ذلك، ولما أسلم عـبد الله بن مسعود أخـذه رسول الله ﷺ إليه فكان يخدمه فى أكثر شئونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعـه ويحمله فى ذراعه إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويـلج عليه داره بلا حجاب، حـتى لقد ظنه أبو موسى الأشـعرى رضي الله عنه من أهل بيت رسول الله ﷺ، ففى البـخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: «قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعـود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ؛ لما نرى من كثرة دخـوله ودخول أمه على رسول الله ﷺ ولزومـه له»، هاجر إلى الحـبشة، ثم إلى المـدينة، وصلى إلى القبلتين، وشـهد بدرًا، وأحدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائـر المشاهد مع رسول الله ﷺ، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله ﷺ، وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر، وقد شهـد له رسول الله ﷺ بالجنة وشهـد له بالفضل وعلو المنزلة؛ يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كنت مؤمرًا أحدا دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد» وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمـر وعثمان، وقـدم بالمدينة فى آخر عـمره، ومات بها سـنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع ليلا، تنفيذًا لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعًا وستين سنة.

مبلغه من العلم:

كان ابن مسعود من أحفظ الصـحابة لكتاب الله، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو نفـسه عن ذلك فقال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ

علىَّ سورة النساء» قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «إنى أحب أن أسمعه من غيرى» فقرأت عليه حتى بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ففاضت عيناه ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد» وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتزه به حتى إنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف فى عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال فى هذا: «يا معشر المسلمين: أُعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر» يريد زيد بن ثابت، وعن مسروق أنه قال: «انتهى علم أصحاب رسول الله ﷺ إلى ستة: عمر، وعلى، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: على، وعبد الله»، وقيل لحذيفة: أخبرنا برجل قريب السمت والدل والهدى من رسول الله ﷺ نأخذ عنه، فقال: «لا نعلم أحدًا أقرب سمتًا ولا هديًا برسول الله ﷺ من ابن أم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة» ولما سيره عمر رضي الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها: «إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا وأسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى» وقد أقام رضي الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم فى الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص، ولما قدم على الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلا أحسن خلقا، ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعًا من ابن مسعود، قال على: أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد أنى أقول مثل ما قالوا وأفضل.

ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضي الله عنه فى العلم، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويقدمه على غيره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده [1].

---

(١) انظر ترجمة ابن مسعود فى أُسد الغابة جـ٣ ص٢٥٦ - ٢٦٠.

قيمة ابن مسعود فى التفسير:

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: «قال عبد الله يعنى ـ ابن مسعود ـ والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته»، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى، ولو لقى عنتًا ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى البحترى قال: قالوا لعلى: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علمًا. وقال عقبة بن عامر: ما أدرى أحدًا أعلم بما نزل على محمد من عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. وصح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة. وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحدًا أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدًا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، فإن أصحاب رسول الله ﷺ لم ينكروا عليه ذلك، بل وتحدثوا بمكانته فى العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعلل ذلك أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه؛ بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول، الأمر الذى جعله أوفر حظًا فى الأخذ عن الرسول ﷺ، وأعظم نصيبًا من الاغتراف من منهل النبوة الفياض، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: «ما ترك بعده مثله» لهى شهادة منه على مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله ﷺ.

وبالجملة فابن مسعود كما قيل: أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم

بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه، فقيه فى الدين، عالم بالسنة، بصير بكتاب الله.

الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر من روى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس ﷺ، قال السيوطى فى الإتقان: «وأما ابن مسعود فقد روى عنه أكثر مما روى عن على»[1]، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظرًا لوجوده بينهم يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواته: مسروق بن الأجدع الهمدانى، وعلقمة بن قيس النخعى، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه، وسنأتى نتكلم على هؤلاء جميعًا، إن شاء الله تعالى، عند الكلام عن التفسير فى عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهى إلى ابن مسعود، نجدها مبثوثة فى كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف فى رجاله، أو الانقطاع فى إسناده، وقد تتبع العلماء النقاد هذه الروايات، كما تتبعوا غيرها بالنقد تجريحًا وتعديلاً، وهذه هى أشهر الطرق عن ابن مسعود:

أولا : طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه.

ثانيًا: طريق مجاهد، عن أبى معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضًا طريق صحيحة لا يعتريها الضعف، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه أيضًا.

ثالثًا: طريق الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود، وهذه أيضًا طريق صحيحة يخرج البخارى منها، وكفى بتخريج البخارى شاهدًا على صحتها وصحة ما سبق.

رابعًا: طريق السدى الكبير، عن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود، وهذه الطريق يخرج منها الحاكم فى مستدركه، ويصحح ما يخرجه، وابن جرير يخرج منها فى تفسيره كثيرًا، وقد علمت فيما مضى قيمة السدى الكبير فى باب الرواية.

خامسا: طريق أبى روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود، وابن جرير يخرج منها فى تفسيره أيضًا، وهذه الطريق غير مرضية؛ لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهى طريق منقطعة.

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٧.

٣- على ابن أبى طالب

ترجمتـــــه:

هو أبو الحسن، على بن أبى طالب، بن عبد المطلب، القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره على ابنته فاطمة، وذريته ﷺ منهما، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وهو أول هاشمى ولد من هاشميين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بنى هاشم، وهو أول من أسلم من الأحداث وصدق برسول الله ﷺ، هاجر إلى المدينة، وموقفه من الهجرة مشهور، قيل ونزل فيه قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾ (البقرة: ٢٠٧)، وقد شهد علىٌّ المشاهد كلها إلا تبوك؛ فإن رسول الله ﷺ خلفه على أهله، وله فى الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول ﷺ اللواء فى مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» ثم أعطاها لعلى رضي الله عنه، وآخاه رسول الله ﷺ لما آخى بين أصحابه وقال له: «أنت أخى فى الدنيا والآخرة» وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره، فمن ورع فى الدين، إلى زهد للدنيا، إلى قرابة وصهر برسول الله ﷺ، إلى علم جم وفضل غزير، وقد توفى رحمه الله فى رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولا بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

مبلغه من العلم:

كان رضي الله عنه بحرًا فى العلم، وكان قوى الحجة، سليم الاستنباط، أوتى الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائى ناضج، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور، وكثيرًا ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولَّاه رسول الله ﷺ قضاء اليمن، ودعا له بقوله: «اللهم ثبت لسانه واهد قلبه» فكان موفقًا ومسددًا، فيصلا فى المعضلات، حتى ضُرب به المثل فقيل: «قضية ولا أبا حسن لها» ولا عجب، فقد تربى فى بيت النبوة، وتغذى بلبان معارفها، وعمتَّه مشكاة أنوارها، روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على بن

أبى طالب. وقيل لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من على؟ قال: لا، والله لا أعلمه. وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «إذا ثبت لنا الشىء عن على لم نعدل عنه إلى غيره».

والذى يرجع إلى أقضية على ﷺ وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وهب عقلا ناضجًا، وبصيرة نافذة، وحظا وافرًا من العلم وقوة البيان(١).

مكانته فى التفسير:

جمع على ﷺ إلى مهارته فى القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: «ما أخذت من تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب» وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على ﷺ أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربى وهب لى قلبًا عقولا، ولسانًا سئولا» وعن أبى الطفيل قال: «شهدت عليّا يخطب وهو يقول: سلونى، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل، أم فى جبل» وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال: «إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، إلا وله ظهر وبطن. وإن على بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن»، وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيد فيهم.

الرواية عن على ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية فى التفسير عن على ﷺ، كثرة جاوزت الحد، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النقاء، وجعلهم يتتبعون الرواية عنه، بالبحث، والتحقيق؛ ليميزوا ما صح من غيره.

وما صح عن على فى التفسير قليل بالنسبة لما وضع عليه، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة، الذين أسرفوا فى حبه فاختلفوا عليه ما هو برىء منه، إما ترويجًا لمذهبهم وتدعيمًا له، وإما لظنهم الفاسد، إن الإغراق فى نسبة الأقوال العلمية إليه يعلى من

(١) أسد الغابة جـ٤ ص١٦ - ٤٠.

قدره، ويرفع من شأنه العلمى، وأظن أن ما نسب إلى على من قوله: «لو شئت أن أوقر سبعين بعيرًا من تفسير أم القرآن لفعلت» لا أصل له، اللهم إلا فى أوهام الشيعة، الذين يغالون فى حبه، ويتجاوزون الحد فى مدحه، ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضاع بالكذب عليه، تلك الناحية هى نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية تكسب الموضوع قبولا، وتعطيه رواجًا وذيوعا على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على على رضي الله عنه أفسدت الكثير من مروياته، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلمانى وشريح، وغيرهما، وهذه أهم الطرق عن على فى التفسير:

أولا: طريق هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلمانى، عن على، طريق صحيحة، يخرج منها البخارى وغيره.

ثانيا: طريق ابن أبى الحسين، عن أبى الطفيل، عن على، وهذه طريق صحيحة، يخرج منها ابن عيينة فى تفسيره.

ثالثا: طريق الزهرى، عن على زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه على، وهذه طريقة صحيحة جدًا، حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقًا[١]، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقين السابقين نظرًا لما ألصقه الضعفاء والكذابون بزين العابدين من الروايات الباطلة.

* * *

٤- أبى بن كعب

ترجمته:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل[٢]، أبى بن كعب بن قيس الأنصارى الخزرجى، شهد العقبة وبدرًا، وهو أول من كتب لرسول الله ﷺ مقدمه المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضي الله عنه فقال: «أبى سيد المسلمين» وقد اختلف فى وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات فى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١) مقدمة ابن الصلاح ص٩.

(٢) كناه النبى ﷺ بالأولى، وعمر بالثانية.

مبلغه من العلم:

كان أبى بن كعب سيد القراء، واحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، وقد قال فيه ﷺ: «وأقرؤهم أبى بن كعب» وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبى ﷺ عليه، فقد أخرج الترمذى بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «إن النبى ﷺ قال لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ قال: آلله سمانى لك؟ قال: «نعم» فجعل أبى يبكى، وفى رواية أنه قيل لأبى: وفرحت بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو يقول: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (يونس: ٥٨)، وروى الشعبى عن مسروق قال: «كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله ﷺ ستة: عمر، وعلى، وعبد الله، وأبى، وزيد، وأبو موسى»[(١)].

مكانته فى التفسير:

كان أبى بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعانى كتاب الله، هو أنه كان حبرًا من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كتاب الوحى لرسول الله ﷺ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومقدم القرآن ومؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله ﷺ، لهذا كله عُد أبى بن كعب من المكثرين فى التفسير، الذين يعتد بما صح عنهم، ويعول على تفسيرهم.

الرواية عنه فى التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن أبى بن كعب فى التفسير وتعددت طرقها، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد، فعدلوا وجرحوا؛ لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه - وهذه هى أشهر الطرق عنه:

أولا: طريق أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى رضي الله عنه، وهذه طريق صحيحة، وقد ورد عن أبى، نسخة كبيرة فى التفسير، يرويها أبو

---

(١) انظر أسد الغابة جـ١ ص٤٩ - ٥١.

جعـفر الـرازى بهذا الإسناد إلى أبى، وقـد خرج ابن جـرير وابن أبى حاتم منـها كثيرًا، وأخرج الحاكم منها أيضًا فى مستدركه، والإمام أحمد فى مسنده.

ثانيًا: طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعـب، عن أبيه، وهذه يخـرج منها الإمـام أحمـد فى مسنده، وهى علـى شرط الحسن؛ لأن عـبد الله بن محـمد بن عقـيل وإن كان صدوقًـا تكلم فيه من جـهة حفظه، قال التـرمذى فى سننه: «عبد الله بن مـحمد بن عقـيل، هو صدوق وقد تكلم فيه بعـض أهل العلم من قبل حفظه، وسمعـت محمد بن إسمـاعيل يقول: كان أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، والحميدى، يحتجون بحديث عبد الله ابن محمـد بن عقيل، قال محـمد ـ يعنى البخارى: وهو مـقارب الحديث» ونص الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد على أن حديثه حسن(١).



(١) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص١٨٠، وميزان الاعتدال جـ٢ ص٦٨.

الفصل الثالث

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم فى المستدرك: أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبى ﷺ، وعزاه هذا القول للشيخين حيث يقول فى المستدرك: «ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند»[١]، ولكن قيد ابن الصلاح، والنووى، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأى فيه، قال ابن الصلاح فى مقدمته ص (٢٤): «ما قيل من أن تفسير الصحابى حديث مسند، فإنما ذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابى، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبى ﷺ ولا مدخل للرأى فيه، كقول جابر رضي الله عنه: كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عز وجل ﴿ **نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ...** ﴾ (البقرة: ٢٢٣)... الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على إضافة شىء إلى الرسول ﷺ فمعدودة فى الموقوفات، ولكنا نجد الحاكم نفسه قد صرح فى (معرفة علوم الحديث) بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: «ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كاعل بسنده عن أبى هريرة فى قوله: ﴿ **لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ** ﴾ (المدثر: ٢٩) قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحمًا على عظم، قال: فهذا وأشباهه يعد فى تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند، فإنما نقوله فى غير هذا النوع...»، ثم أورد حديث جابر فى قصة اليهود وقال: «فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف؛ فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند»[٢]. اهـ.

فالحاكم قيد فى معرفة علوم الحديث ما أطلق فى المستدرك، فاعتمد الناس ما قيد، وتركوا ما أطلق، وعلل السيوطى فى التدريب إطلاق الحاكم بأنه كان حريصًا

(١) تدريب الراوى ص٦٤.

(٢) تدريب الراوى ص٦٥، ومعرفة علوم الحديث ص١٩، ٢٠.

على جمع الصحيح فى المستدرك حتى أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع... ثم اعترض بعد ذلك على الحاكم، حيث عد الحدث المذكور عن أبى هريرة من الموقوف، وليس كذلك؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وهذا لا مدخل للرأى فيه، فهو من قبيل المرفوع(١).

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج:

أولا: تفسير الصحابى له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله ﷺ.

ثانيًا: ما حكم عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقًا، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثا: ما حكم عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابى من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لما لم يرفعه، علم أنه اجتهد فيه، والمجتهد يخطئ ويصيب، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه؛ لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ، ولأنهم إن فسروا برأيهم فرأيهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله؛ إذ هم أهل اللسان، ولبركة الصحبة والتخلق بأخلاق النبوة، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا لها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالائمة الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشى فى البرهان: «اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد، والأول: إما أن يرد عن النبى ﷺ، أو الصحابة، أو رءوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثانى ينظر فى تفسير الصحابى، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك فى اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه...». اهـ(٢).

---

(١) التدريب ص٦٥. (٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره: «... وحينئذ إذ لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه»(١).

وهذا الرأى الأخير هو الذى تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب لما ذكر.

* * *

(١)



الفصل الرابع

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولا : لم يفسر القرآن جميعه، وإنما فسر بعض منه، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة، فكان التفسير يتزايد تبعًا لتزايد هذا الغموض، إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها.

ثانيا: قلة الاختلاف بينهم فى فهم معانيه، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: كانوا كثيرًا ما يكتفون بالمعنى الإجمالى، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلا، فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (عبس: ٣١) أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده.

رابعًا: الاقتصار على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه بأخصر لفظ، مثل قولهم: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ (المائدة: ٣) أى غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النزول.

خامسًا: ندرة الاستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء فى كتاب الله: نظرًا لاتحادهم فى العقيدة، ولأن الاختلاف المذهبى لم يقم إلا بعد عصر الصحابة ﷺ.

سادسًا: لم يدون شىء من التفسير فى هذا العصر؛ لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى، نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير فى مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التى نزل بها من عند الله تعالى.

سابعًا: اتخذ التفسير فى هذه المرحلة شكل الحديث، بلك كان جزءًا منه وفرعًا من فروعه، ولم يتخذ التفسير له شكلا منظمًا، بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة، كما كان الشأن فى رواية الحديث، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد، بجانب حديث ميراث، بجانب حديث فى تفسير آية... هكذا.

وليس لمعترض أن يعتـرض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصـح نسبته إليه، بل جمعه الفيروز أبادى ونسبه إليه، معتمدًا فى ذلك على رواية واهية، هى رواية محمد بن مروان السدى، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وهذه هى سلسلة الكذب كما قيل.

الباب الثاني

المرحلة الثانية للتفسير
أو التفسير فى عصر التابعين

الفصل الأول

ابتداء هذه المرحلة - مصادر التفسير فى هذا العصر
مدارس التفسير التى قامت فيه

ابتداء هذه المرحلة:

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم.

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ما خفى من كتاب الله، اشتهر أيضًا بالتفسير أعلام من التابعين، تكلموا فى التفسير ووضحوا لمعاصريهم خفى معانيه.

مصادر التفسير فى هذا العصر:

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى.

وقد روت لنا كتب التفسير كثيرًا من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شىء فيها عن رسول الله ﷺ، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن ما نقل عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ما غمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكلموا بعض هذا النقص، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعا، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث.

مدارس التفسير فى عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم فى حياة رسول الله ﷺ، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعا فى بلد واحد من بلاد المسلمين بل نآى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون ومنهم غير ذلك.

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التى رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم وينقلونه لمن بعدهم، فقامت فى هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية أساتذتها الصحابة وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة بالعراق، وهذه المدارس الثلاثة، هى أشهر مدارس التفسير فى الأمصار فى هذا العهد.

قال ابن تيمية: «وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد، وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاوس، وأبى الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة فى

التفسير، مثل زيد بن أسلم، الذى أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضا ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب». اهـ[(١)].

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث، وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة، فأقول وبالله التوفيق:

(١) مدرسة التفسير بمكة

قيامها على ابن عباس:

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس ﷺ، فكان يجلس لأصحابه من التابعين، يفسر لهم كتاب الله تعالى، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه.

أشهر رجالها:

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاوس بن كيسان اليمانى، وعطاء بن أبى رباح.

وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم.

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته فى التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه.

* * *

١- سعيد بن جبير

ترجمته:

هو: أبو محمد، أو أبو عبد الله، سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالى، مولاهم، كان حبشى الأصل، أسود اللون أبيض الخصال، سمع جماعة من أئمة الصحابة، روى عن ابن عباس، وابن مسعود، وغيرهما.

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص١٥.

مكانته فى التفسير:

كان ـ رحمه الله ـ من كبار التابعين ومتقدميهم فى التفسير والحديث والفقه، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضًا، وسمع منه التفسير، وأكثر روايته عنه[١]، وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها، يدلنا على ذلك ما جاء عن إسماعيل ابن عبد الملك أنه قال: «كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت، وليلة بقراءة غيره، وهكذا أبدا»[٢]، ولا شك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه القدرة على التوسع فى معرفة معانى القرآن وأسراره، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول فى التفسير برأيه يدلنا على ذلك ما رواه ابن خلكان: من أن رجلا سأل سعيدًا أن يكتب له تفسير القرآن فغضب، وقال: لأن يسقط شقى أحب إلىَّ من ذلك[٣]، ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألمَّ بما عندهم من النواحى التى برزوا فيها، فقد قال خصيف: «كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير»[٤].

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه، ويحيل عليه من يستفتيه، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ (يعنى سعيد بن جبير)، ويروى عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه، ويرى بعض العلماء أنه مقدم على مجاهد وطاوس فى العلم، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير.

هذا وقد وثق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير، فقال أبو القاسم الطبرى: هو ثقة، حجة، إمام على المسلمين، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: كان عبدًا فاضلا ورعًا، وهو مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة.

وقد قتل فى شعبان سنة خمس وتسعين من الهجرة، وهو ابن تسع وأربعين سنة،

---

(١) وفيات الأعيان جـ١ ص٣٦٤.
(٢) المرجع السابق جـ١ ص٣٦٥.
(٣) المرجع السابق جـ١ ص٣٦٥.
(٤) المرجع السابق جـ١ ص٣٦٥.

قال أبو الشيخ: قتله الحجاج صبرًا، وله مناظرة قبل قتله مع الحجاج، تدل على قوة يقينه، وثبات إيمانه، وثقته بالله، فرضى الله عنه وأرضاه[(١)].

* * *

٢- مجاهد بن جبر[(٢)]

ترجمته:

هو مجاهد بن جبر، المكى، المقرئ، المفسر، أبو الحجاج المخزومى، مولى السائب ابن أبى السائب، كان أحد الأعلام الأثبات، ولد سنة ٢١ إحدى وعشرين من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب، وكانت وفاته بمكة وهو ساجد، سنة أربع ومائة على الأشهر، وعمره ثلاث وثمانون سنة.

مكانته فى التفسير:

كان مجاهد ـ رحمه الله ـ أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه فى التفسير[(٣)]، وكان

---

(١) تهذيب التهذيب جـ٤ ص١٣، ١٤.

(٢) طبع تفسير مجاهد بتحقيق الشيخ عبد الرحمن السوارتى من باكستان، ثم حقق للمرة الثانية فى أطروحة جامعية من قبل الدكتور محمد عبد السلام أبو الليل، وطبع فى دولة الإمارات العربية المتحدة من طرف لجنة التراث والتاريخ، وهناك دراسة مستفيضة مطبوعة بعنوان: «مجاهد المفسر والتفسير» قام بها دكتور أحمد نوفل وطبعته دار الصفوة بالقاهرة ١٤١١هـ، وورد عن مجاهد فى تفسير بعض الآيات ما يعد من غرائب التفسير، مثال ذلك فى تفسير قوله تعالى فى الآية ٧٤ من سورة الأنعام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ حيث قال: آزر اسم صنم.
وعند تفسير قوله تعالى فى الآية ٢٦ من سورة يوسف: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ قال: القميص: الشاهد.
وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩) حيث قال: يجلسه معه على العرش.
كما أورد فى تفسيره بعض الإسرائيليات، وهى قليلة: مثال ذلك فى تفسير الآية ٢٤٧ من سورة البقرة، والآية ٢٧ من سورة المائدة، والآية ١٩٠ من سورة الأعراف، والآية ٢٤ من سورة يوسف.

(د. مصطفى الذهبى)

(٣) فجر الإسلام ص٢٥١.

أواثقهم، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما، ونجد البخارى ﷺ فى كتاب التفسير من الجامع الصحيح، ينقل لنا كثيرًا من التفسير عن مجاهد، وهذه أكبر شهادة من البخارى على ثقته وعدالته، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى، وقد روى الفضل بن ميمون أنه سمع مجاهدًا يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة[١]، وروى عنه أيضًا أنه قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات، أقف عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت؟[٢]، ولا تعارض بين هاتين الروايتين، لأن الإخبار بالقليل لا ينافى الإخبار بالكثير، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط، ودقة التجويد، وحسن الأداء، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلبًا لتفسيره، ومعرفة ما دق من أسراره، وخفى من معانيه، كما تشعر بذلك ألفاظ الرواية، وعن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فقال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله[٣]. وروى عبد السلام بن حرب عن مصعب قال: كان أعلمهم بالتفسير مجاهد، وبالحج عطاء، وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد. وقال ابن سعد: كان ثقة، فقيهًا، عالمًا، كثير الحديث، وقال ابن حبان: كان فقيهًا، ورعًا، عابدًا، متقنًا. وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى بكر الحنفى قال: سمعت سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[٤]، وكان ـ رحمه الله ـ جيد الحفظ، وقد حدث بهذا عن نفسه فقال: قال لى ابن عمر: وددت أن نافعًا يحفظ حفظك[٥]، وقال الذهبى فى الميزان، فى آخر ترجمة مجاهد: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة.

كل هذه شهادات من العلماء النقاد تشهد بعلو مكانته فى التفسير.

ولكن مع هذا كله كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره، فقد روى الذهبى فى ميزانه: أن أبا بكر بن عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما

(١) ميزان الاعتدال جـ٣ ص٩.
(٢) تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٤٢.
(٣) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٨.
(٤) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٠.
(٥) ميزان الاعتدال جـ٣ ص٩.

بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ كما هى رواية ابن سعد، قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب.

هذا هو كل ما أخذ على تفسيره، ولكن لم نر أحدًا طعن عليه فى صدقه وعدالته.

وجملة القول فإن مجاهدًا ثقة بلا مدافعة، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حبر الأمة ابن عباس، الذى شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله ﷺ.

مجاهد والتفسير العقلى:

وكان مجاهد - رضي الله عنه - يعطى عقله حرية واسعة فى فهم بعض نصوص القرآن التى يبدو ظاهرها بعيدًا، فإذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءًا معترفًا به ومقررًا لدى المعتزلة فى تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص.

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ما جاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عمليا فى مواضع كثيرة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٥) من سورة البقرة ﴿**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾ نجده يقول - كما يروى عنه ابن جرير -: «مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفارًا»، ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقبًا عليه: «وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف. . .» ثم يمضى فى تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية[1].

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ بقوله: «تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شىء»[2] وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئًا قويًا للمعتزلة فيما ذهبوا إليه فى مسألة نفى رؤية الله تعالى.

---

(١) تفسير الطبرى جـ١ ص٢٣٥. (٢) تفسير الطبرى جـ٢٩ ص١٢٠.

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد، هو الذى جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول فى القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله فى القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة فى الرأى، فقد روى عن ابن مجاهد أنه قال: قال رجل لأبى: أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبى ثم قال: إنى إذًا لجرىء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى ﷺ ورضى عنهم.

ومهما يكن من شىء، فمجاهد ﷺ إمام فى التفسير غير مُدافَع، وليس فى إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته، أو يقلل من مكانته[١].

* * *

٣- عكرمة

ترجمته:

هو أبو عبد الله عكرمة البربرى المدنى مولى ابن عباس، أصله من البربر بالمغرب، روى عن مولاه، وعلى بن أبى طالب، وأبى هريرة، وغيرهم.

اختلاف العلماء فى توثيقه:

وقد اختلف العلماء فى توثيقه، فكان منهم من لا يثق به ولا يروى له، وكان منهم من يوثقه ويروى له.

مطاعن من لا يوثقونه:

وإنا لنجد العلماء الذين لم يثقوا بعكرمة، يصفونه بالجرأة على العلم ويقولون: إنه كان يدعى معرفة كل شىء فى القرآن، ويزيدون على ذلك فيتهمونه بالكذب على مولاه ابن عباس، وبعد هذا كله، يتهمونه بأنه كان يرى رأى الخوارج، ويزعم أن مولاه كان كذلك، وقد نقل ابن حجر فى تهذيب التهذيب كل هذه التهم ونسبها لقائليها، فمن ذلك: ما رواه شعبة عن عمرو بن مرة قال: سأل رجل ابن المسيب عن آية من القرآن، فقال: لا تسألنى عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شىء (يعنى عكرمة)، وحكى إبراهيم بن ميسرة أن طاوسًا قال: لو أن مولى ابن عباس اتقى الله وكف من

---

(١) انظر ترجمة مجاهد فى تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٤٢ - ٤٤.

حديثه لشُدت إليه المطايا، وروى أبو خلف الجـزار عن يحيى البكاء قال: سمعت ابن عمر يقول لنافع: اتق الله، ويحك يا نافع، لا تكذب علىَّ كـما كذب عكرمة على ابن عباس، وروى أن سعـيد بن المسيب قال مثل ذلك لمـولاه، وروى ابن سعد: أن على بن عبد الله كان يُوثِقه على باب الكنيف ويقول: إن هذا يكذب على أبى.

ثم بعد ذلك كله يصـورون للناس مبلغ كراهة معـاصريه له فيقـولون: إنه مات هو وكُثَيِّر عزة فى يوم واحد، فلم يشهد جنازته أحد، أما كثير فقد شيعه خلق كثير.

تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه:

هذا الذى تقدم هو بعض الروايات التى رواها من لا يثق بعدالة عكرمة، وكلها تهم باطلة لا تقوم على أساس، فعكرمة مولى ابن عباس، كان يلازمه ويخالطه، فلا يضيره كثرة الرواية عنه؛ لأن هذا أمر طبيعى، ولا يمكن أن يعد افتراء على العلم وافتياتًا على الرواية، لأن كثـرة الرواية ليست من المطاعن التى توجه إلى الراوى وتذهب بعـدالته، فهذا أبو هريـرة قال الناس عنه فى عصره: أكثـر أبو هريرة، فبيَّن لهم سـبب إكثاره من الرواية عن رسـول الله ﷺ، وهو أنه كـان يلازم النبى ﷺ عـلى ملء بطنه، ولا شىء يشغله كما شُـغل غيره من الصحابة بالصفق فى الأسـواق، فهل ذهبت عدالة أبى هريرة وفقدنا الثقة له لكثرة روايته؟ اللهم لا.

ثم إن هذا الاتهام لم يخـف على عكرمة، بل كان يبلغـه عن متهـميه فـيود لو أنه ووجه به ليفنده، فقد روى حـماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبوننى، يكـذبوننى من خلفى، أفـلا يكذبوننى فى وجـهى؟ فإذا كـذبونى فى وجهى فقد والله كذبونى... ثم نراه يستشهد ببعض أصحابه على صدقه فيما يروى عن مولاه، فعن عثمان بن حكيم قال: كنت جـالسًا مع أبى أمامة سهل بن حنيف، إذ جاء عكرمة فقال: يا أبا أمامة، أذكرك الله، هل سمعت ابن عباس يقول: ما حدثكم عكرمة عنى فصدقوه فإنه لم يكذب علىَّ؟ فقال أبو أمامة: نعم.

هذا هو رد عكرمة على متـهميه بالكذب، وتفنيده لما نسب إليـه من الافتراء على مولاه.

وأما مـا رواه ابن سعد: مـن أن على بن عبد الله بن عـباس كان يُوثِـقه على باب

الكنيف ويقول: إن هذا يكذب على أبى، فإنه مردود بما رواه ابن حجر فى تهذيب التهذيب: «من أن ابن عباس مات وعكرمة على الرق، فباعه ولده على بن عبد الله بن عباس، من خالد بين يزيد بن معاوية، بأربعة آلاف دينار، فأتى عكرمة مولاه عليا فقال له: ما خير لك، بعت علم أبيك بأربعة آلاف؟ فاستقاله فأقاله فأعتقه». اهـ.

ثم نجد بعد هذا أن ما روى عن ابن عمر لا يصح؛ لأنه من رواية يحيى البكاء، ويحيى البكاء متروك الحديث، ومن المحال أن يُجرح العدل بكلام المجروح[١].

وأما ما قيل من أنه توفى هو وكُثَيِّر الشاعر فى يوم واحد فلم يشهد أحد جنازته، بخلاف كثير فقد شيعه الكثير من الناس، فلسنا نعلم نصيب هذا القول من الصحة، ولعل ذلك على فرض صحته ـ كما يقول ابن حجر ـ كان بسبب تطلب الأمير له وتغيبه عنه حتى مات، وليس صحيحًا ما قيل من أن هذا يرجع إلى تحقير المولى إزاء تشريف الحر[٢].

ويحقق ابن حجر بعد هذا: أن ما نقل من أنهم شهدوا جنازة كُثَيِّر وتركوا عكرمة، لم يثبت، لأنه ناقله لم يسم.

وأما ما رُمى به من الميل للخوارج، فافتراء عليه، ولا يكاد يتفق مع سلوكه فى حياته، قال ابن حجر: «فأما البدعة، فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه، لأنه لم يكن داعية، مع أنها لم تثبت عليه»[٣].

شهادات الموثقين له:

ولو أننا تتبعنا أقوال المنصفين، الذين عرفوا حقيقة هذا التابعى الجليل، لوجدناه رجلا ثبتًا، لا يتُهم فى عدالته، وكل ما قيل فى شأنه من التهم لا يراد به إلا أن يفقد الناس ثقتهم به وركونهم إليه، وإليك ما قاله بعض علماء الجرح والتعديل لتقف على عدالة الرجل وصدق روايته:

قال المروزى: قلت لأحمد: يحتج بحديث عكرمة؟ فقال: نعم، يحتج به. وقال

---

(١) مقدمة فتح البارى جـ٢ ص١٥٠.
(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٧٥.
(٣) مقدمة فتح البارى جـ٢ ص١٤٨.

ابن معين: إذا رأيت إنسانا يقع فى عكرمة، وفى حماد بن سلمة، فاتهمه على الإسلام. وقال العجلى فيه: مكى تابعى ثقة، برئ مما يرميه به الناس من الحرورية. وقال البخارى: ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة. وقد وثقه النسائى وأخرج له فى كتابه السنن، كما أخرج له البخارى، ومسلم وأبو داود، وغيرهم، وكان مسلم بن الحجاج من أسوئهم رأيًا فيه، ثم عدله بعد ما جرحه. وقال المروزى: أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة، واتفق على ذلك رؤساء أهل الحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، وابن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو ثور، ولقد سألت إسحاق بن راهويه عن الاحتجاج بحديثه فقال: عكرمة عندنا إمام الدنيا، تعجب من سؤالى إياه!!.

وبعد... فهل هناك من يقدم على البخارى ومسلم وجميع من ذكرت من علماء الرواية فى باب التعديل والتجريح؟ وإذا كان هؤلاء هم أعلم الناس بالرجال، فهل نقبل تجريح من عداهم ونترك توثيقهم؟.

الحق أن عكرمة تابعى موثوق بعدالته ودينه، وكل ما رمى به كذب واختلاق!!.

مبلغه من العلم ومكانته فى التفسير:

هذا وإن عكرمة رضي الله عنه، كان على مبلغ عظيم من العلم، وعلى مكانة عالية من التفسير خاصة، وقد شهد له العلماء بذلك، فقال ابن حبان: كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن، وقال: عمرو بن دينار: دفع إلىَّ جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عباس، هذا البحر فسلوه، وكان الشعبى يقول: ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وقال حبيب بن أبى ثابت: اجتمع عندى خمسة: طاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير؛ فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ما عندهما جعل يقول: أنزلت آية كذا فى كذا، وأنزلت آية كذا فى كذا، وقال يحيى بن أيوب المصرى: سألنى ابن جريج: هل كتبتم عن عكرمة؟ فقلت: لا، قال: فاتكم ثلثا العلم.

هذا بعض ما قيل فى عكرمة، مما يشهد لمكانته فى العلم عامة، وفى التفسير

خاصة، ولا عجب، فإن ملازمته لمولاه ابن عباس، ومبالغة مولاه فى تعليمه إلى درجة أنه كـان يضع فى رجلـه الكبل[1]، ويعلمـه القرآن والسنن، جعـلته ينهل من مـعينه الفيـاض، ويأخذ عنه علمـه الغزير، بل نجد أكـثر من هذا فيـما يرويه ابن حـجر فى تهذيب التهذيب، من أن عكرمة بيَّن لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن، قال: روى داود بن أبى هند عن عكرمة قال: «قرأ ابن عباس هذه الآية: ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ (الأعراف: ١٦٤)، قال ابن عباس: لم أدر أنجا القوم أم هلكوا؟: قال: فما زلت أبين له حتى عـرف أنهم نجوا فكسانى حلة»، وهذا الخبر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه، وعلى مقدار إعجابه بعلمه، وتقديره لفهمه.

وجملة القول، فإن عكرمة أمين فى روايته، مقدم فى علمه، مبرز فى فهمه لكتاب الله.. وكيف لا يكون كذلك وهو وارث علم ابن عباس؟.

توفى رحمه الله سنة ١٠٤هـ أربع ومائة من الهجرة، فرضى الله عنه وأرضاه[2].

* * *

٤- طاوس بن كيسان اليمانى

ترجمته ومكانته:

فى التفسير: هو: أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان، اليمانى الحميرى الجندى[3] مولى بحير بن ريسان، وقيل مولى همدان، وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، وروى عنه أنه قال: جالست خمسين من الصحابة، وكان رحمه الله عالمًا متقنًا، خبيرًا بمعانى كتاب الله تعالى، ويرجع ذلك إلى مجالسته لكثير من الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم، ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسـه لغيره من الصحابة، ويأخذ عنه فى التفسير أكثر مما يأخذ عن غيره منهم، ولهذا عددناه من تلاميذ ابن عباس، وذكرناه فى رجال مدرسته بمكة.

ولقد كان طاوس على جانب عظيم من الورع والأمانة، حتى شهد له بذلك أستاذه

---

(١) الكبل: القيد.

(٢) انظر تهذيب التهذيب جـ٧ ص٢٦٣ - ٢٧٣.

(٣) الجندى بفتح الجيم والنون نسبة إلى بلد باليمن كان يسكنها.

ابن عباس فقال فيه: إنى لأظن طاوس من أهل الجنة، وقال فيه عمرو بن دينار: ما رأيت أحدًا مثل طاوس، وقد أخرج له أصحاب الكتب السنة، وقال ابن معين: إنه ثقة، وقال ابن حبان: كان من عباد أهل اليمن ومن سادات التابعين، وكان مستجاب الدعوة، وحج أربعين حجة، وقال الذهبى: كان طاوس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة[١].

* * *

٥- عطاء بن أبى رباح

ترجمته:

هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح المكى القرشى مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين، وتوفى سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال، كان ـ رحمه الله ـ أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمى بعد ذلك.

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وغيرهم، وحدث عن نفسه: أنه أدرك مائتين من الصحابة، وكان ثقة، فقيهًا، عالمًا، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه: تجتمعون إلىَّ يا أهل مكة وعندكم عطاء؟ وقال فيه أبو حنيفة: ما رأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفى، وقال الأوزاعى: مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس، وقال سلمة بن كهيل: ما رأيت أحدًا يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة: عطاء، ومجاهد، وطاوس. وقال ابن حبان: كان من سادات التابعين فقهًا، وعلمًا، وورعًا، وفضلا[٢]، وهو عند أصحاب الكتب الستة.

مكانته فى التفسير:

كل ما تقدم من أقوال العلماء فى عطاء يشهد لمكانته العلمية على وجه العموم ويدل على مبلغ ثقته وصدقه، وليس أدل على ذلك من شهادة أستاذه ابن عباس له بذلك، ونجد شهرة عطاء على غيره من أصحاب ابن عباس، تتجلى فى معرفته

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٥ ص٨ - ١٠.

(٢) انظر تهذيب التهذيب جـ٧ ص١٩٩ - ٢٠٣.

بمناسك الحج، ولهذا قال قتادة: كان أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير، وكان عكرمة أعلمهم بالسير، وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام، وإذا نحن تتبعنا الرواة عن ابن عباس نجد أن عطاء بن أبى رباح لم يكثر من الرواية عنه كما أكثر غيره، ونجد مجاهدا وسعيد بن جبير يسبقانه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله، ولكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير، ولعل إقلاله فى التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأى، فقد قال عبد العزيز بن رفيع: سئل عطاء عن مسألة فقال: لا أدرى، فقيل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إنى أستحى من الله أن يدان فى الأرض برأيى.

* * *

(٢) مدرسة التفسير بالمدينة

قيامها على أبى بن كعب:

كان بالمدينة كثير من الصحابة، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها ـ كما تحول كثير منهم ـ إلى غيرها من بلاد المسلمين، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، ونستطيع أن نقول: إن قيام هذه المدرسة كان على أبى بن كعب، الذى يعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسرو التابعين بالمدينة؛ وذلك لشهرته أكثر من غيره فى التفسير، وكثرة ما نقل لنا عنه فى ذلك.

أشهر رجالها:

وقد وجد بالمدينة فى هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير، اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظى، وهؤلاء منهم من أخذ عن أُبى مباشرة، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة.

وأرى أن أسوق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة، بما يتناسب مع جانبه العلمى فى التفسير فأقول:

١- أبو العاليـــة

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى مولاهم، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد وفاة النبى ﷺ بسنتين، روى عن على، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبى بن كعب، وغيرهم، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير، قال فيه ابن معين، وأبو زرعة، وأبو حاتم: ثقة، وقال اللالكائى: مجمع على ثقته، وقال فيه العجلى: تابعى ثقة، من كبار التابعين، وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة، وكان يحفظ القرآن ويتقنه، وروى قتادة عنه أنه قال: قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين، وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال: قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات، وقال فيه ابن أبى داود: ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبى العالية.

وتروى عن أبى بن كعب نسخة كبيرة فى التفسير، يرويها أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى، وقلنا فيما تقدم: إن هذا الإسناد صحيح، وقلنا أيضًا: إن ابن جرير وابن أبى حاتم أخرجا من هذه النسخة كثيرًا، كما أخرج منها الحاكم فى مستدركه، والإمام أحمد فى مسنده، وكانت وفاته سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال فى ذلك(١).

* * *

٢- محمد بن كعب القرظى

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو أبو حمزة، أو أبو عبد الله، محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى المدنى، من حلفاء الأوس، روى عن على، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم، وروى عن أبى بن كعب بالواسطة، وقد اشتهر بالثقة، والعدالة، والورع، وكثرة الحديث، وتأويل القرآن، قال ابن سعد: كان ثقة، عالمًا، كثير الحديث، ورعًا، وقال العجلى: مدنى، تابعى، ثقة، رجل صالح، عالم بالقرآن: وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال ابن

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٣ ص٢٨٤، ٢٨٥.

عون: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظى[1]، وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل المدينة علمًا وفقهًا، وكان يقص فى المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، سنة ثمانى عشرة ومائة من الهجرة، وقيل غير ذلك، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

* * *

٣- زيد بن أسلم

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو أبو أسامة، أو أبو عبد الله، زيد بن أسلم، العدوى المدنى الفقيه المفسر، مولى عمر ابن الخطاب ﷺ، كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول فى التفسير والثقة فيما يروونه، قال فيه الإمام أحمد، وأبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائى: ثقة، ويكفينا شهادة هؤلاء الأربعة الأعلام دليلا قويًا على ثقته وعدالته، كما أنه عند أصحاب الكتب الستة.

ولقد كان زيد بن أسلم معروفًا بين معاصريه بغزارة العلم، فكان منهم من يجلس إليه، ويأخذ عنه، ويرى أنه ينفعه أكثر من غيره، يدلنا على هذا ما رواه البخارى فى تاريخه أن على ابن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجلس قومه، فقال له نافع بن جبير بن مطعم: تتخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب؟ فقال: عليك، إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه.

وقد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك، فقد روى حماد بن زيد، عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه: لا أعلم به بأسًا، إلا أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيدًا ثقة لا يؤخذ عليه شىء إلا أنه كان يكثر من القول بالرأى، وهذا لا يعد مغمزًا من عبيد الله فى ثقته وعدالته، كما لا نستطيع أن نعد هذا طعنًا منه فى علمه، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول فى القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين، وكان زيد يرى جواز تفسير القرآن بالرأى

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص٢٠٥.

فلا يتحرج منه كما لم يتحرج من ذلك كثير من الصحابة والتابعين، ولا نجد فى العلماء من نسب زيد بن أسلم إلى مذهب من المذاهب المبتدعة حتى نقول: إنه كان يفسر القرآن برأيه مطابقًا لمذهبه البدعى، ولو كان شيء من ذلك لما سكت عبيد الله عن بيانه، ولما حكم عليه حكمه هذا، الذى يدل على ثقته وعدالته، وإن دل على اختلافهما فى جواز التفسير بالرأى.

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم عن علماء المدينة: ابنه عبد الرحمن بن زيد، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة.

وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة، وقيل غير ذلك[١].

* * *

(٣) مدرسة التفسير بالعراق

قيامها على ابن مسعود:

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود ﷺ، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير، غير أن عبد الله بن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة، نظرًا لشهرته فى التفسير وكثرة المروى عنه فى ذلك، ولأن عمر ﷺ لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة، سير معه عبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، فكونه معلم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر، جعل الكوفيين يجلسون إليه، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة.

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأى، وهذه ظاهرة نجدها بكثرة فى مسائل الخلاف، ويقول العلماء: إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الطريقة فى مدرسة التفسير، فيكثر تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسنة.

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٣ ص٣٩٥ - ٣٩٧.

أشهر رجالها:

وقد عرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين، اشتهر من بينهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومرة الهمدانى، وعامر الشعبى، والحسن البصرى، وقتادة بن دعامة السدوسى، ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب:

* * *

١- علقمة بن قيس

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، النخعى الكوفى، ولد فى حياة رسول الله ﷺ، روى عن عمر وعثمان، وعلى، وابن مسعود، وغيرهم، وهو من أشهر رواة عبد الله ابن مسعود، وأعرفهم به، وأعلمهم بعلمه، قال عثمان بن سعيد: قلت لابن معين: علقمة أحب إليك أم عبيدة؟ فلم يخبر، قال عثمان: كلاهما ثقة، وعلقمة أعلم بعبد الله؟، وقال أبو المثنى: إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمتًا وهديًا، وقال داود بن أبى هند: قلت لشعبة: أخبرنى عن أصحاب عبد الله، قال: كان علقمة أنظر القوم به، وروى عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: ما أقرأ شيئًا ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه، وقال إبراهيم النخعى، كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم ستة: علقمة، والأسود... وذكر الباقين، وكان رحمه الله ثقة مأمونا، على جانب عظيم من الورع والصلاح، قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال مرة الهمدانى: كان علقمة من الربانيين، قال أبو نعيم: مات سنة ٦١ إحدى وستين أو اثنتين وستين من الهجرة، وعمره تسعون سنة[١].

* * *

(١) تهذيب التهذيب جـ٧ ص٢٧٦ - ٢٧٨.

٢- مسروق[١]

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: أبو عائشة: مسروق بن الأجزع بن مالك بن أمية الهمدانى الكوفى العابد، سأله عمر يومًا عن اسمه فقال له: اسمى مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق ابن عبد الرحمن. روى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وأبى بن كعب، وغيرهم، وكان أعلم أصحاب ابن مسعود، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته، وكان شريح القاضى يستشيره فى معضلات المسائل. وقال مالك بن مغول: ما رأيت أطلب للعلم منه، وقال على بن المدينى: ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله أحد. وهذه الشهادة من ابن المدينى، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذى استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص، الأمر الذى جعله يجمع علم هؤلاء جميعًا، ولقد حدث مسروق ﷺ أنه جالس أصحاب محمد ﷺ فوجدهم كالإخاذ، فالإخاذ يروى الرجل والإخاذ يروى الرجلين والإخاذ يروى العشرة والإخاذ يروى المائة والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم.

ثم إن هذا التتلمذ لأصحاب رسول الله ﷺ ولابن مسعود الذى اشتهر بتفسير القرآن، جعل من مسروق إمامًا فى التفسير، وعالمًا خبيرًا بمعانى كتاب الله تعالى، وقد حدث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال: كان عبد الله، يعنى ابن مسعود، يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار.

أما ثقته وعدالته، فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل، فقال ابن معين: ثقة، لا يُسأل عن مثله، وقال ابن سعد: كان ثقة، وله أحاديث صالحة، وذكره ابن حبان فى الثقات، وقد أخرج له الستة، هذا وقد روى شعبة عن أبى إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجدًا وكانت وفاته سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر[٢].

* * *

(١) قيل: إنه سُرق فى صغره، ثم وُجد فسمى بذلك.

(٢) انظر تهذيب التهذيب جـ١٠ ص١٠٩ - ١١١.

٣- الأسـود بن يزيـد

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: أبو عبد الرحمن، الأسود بن يزيد بن قيس، النخعى، كان من كبار التابعين، ومن رواة عبد الله بن مسعود، روى عن أبى بكر، وعلى، وحذيفة وبلال، وغيرهم، وكان رحمه الله ثقة، صالحًا، على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالى، قال فيه الإمام أحمد: ثقة من أهل الخير، وقال فيه يحيى بن معين: ثقة، وقال ابن سعد: ثقة وله أحاديث صالحة، وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال الحكم: كان الأسود يصوم الدهر، وذهبت إحدى عينيه من الصوم، وذكره إبراهيم النخعى فيمن كان يفتى من أصحاب ابن مسعود، وقال ابن حبان فى الثقات: كان فقيهًا زاهدًا، توفى بالكوفة سنة أربع وسبعين، أو خمس وسبعين من الهجرة، على الخلاف ذلك[١].

* * *

٤- مـرة الهمـدانى

ترجمتـه:

هو: أبو إسماعيل، مرة بن شراحيل الهمدانى، الكوفى، العابد المعروف بمرة الطيب، ومرة الخير، نقب بذلك لعبادته، وشدة ورعه، وكثرة صلاحه، روى عن أبى بكر، وعمر، وعلى، وابن مسعود، وغيرهم، وروى عنه الشعبى، وغيره من أصحابه، وثقه ابن معين والعجلى، وهو عند أصحاب الكتب الستة، قال فيه الحارث الغنوى: سجد مرة الهمدانى حتى أكل التراب وجهه، وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة، وتوفى سنة ٧٦ ست وسبعين من الهجرة[٢].

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ١ ص٣٤٢، ٣٤٣.
(٢) انظر تهذيب التهذيب جـ١٠ ص٨٨، ٨٩.

٥- عامر الشعبى

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبى، الحميرى، الكوفى، التابعى الجليل، قاضى الكوفة، روى عن عمر، وعلى، وابن مسعود، ولم يسمع منهم[١]، وروى عن أبى هريرة، وعائشة: وابن عباس وأبى موسى الأشعرى، وغيرهم، قال الشعبى: أدركت خمسمائة من الصحابة، وقال العجلى: سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة.

وقال عبد الملك بن عمير: مر ابن عمر على الشعبى وهو يحدث بالمغازى فقال: لقد شهدت القوم، فلهو أحفظ وأعلم بها، وقال: مكحول ما رأيت أفقه منه، وقال ابن عيينة: كانت الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس فى زمانه، والشعبى فى زمانه، والثورى فى زمانه، وقال ابن شبرمة: سمعت الشعبى يقول: ما كتبت سوداء فى بيضاء، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته، ولا حدثنى رجل بحديث فأحببت أن يعيده علىَّ، وقال ابن معين، وأبو زرعة، وغير واحد: الشعبى ثقة، وقال ابن حبان فى الثقات: كان فقيهًا شاعرًا، وهو عند أصحاب الكتب الستة، وقال أبو جعفر الطبرى فى طبقات الفقهاء: كان ذا أدب وفقه وعلم، وحكى ابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبى حصين قال: ما رأيت أعلم من الشعبى، فقال أبو بكر بن عياش: ولا شريح؟ فقال: تريدنى أكذب؟ ما رأيت أعلم من الشعبى، وقال أبو إسحاق الحبال: كان واحد زمانه فى فنون العلم، وعن سليمان بن أبى مجلز قال: ما رأيت أحدا أفقه من الشعبى، لا سعيد بن المسيب، ولا طاوس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين، وعن أبى بكر الهذلى قال: قال لى ابن سيرين: الزم الشعبى، فلقد رأيته يُستفتَى والصحابة متوافرون، وقال ابن سيرين: قدمت الكوفة وللشعبى حلقة، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ كثير، وقال عاصم: ما رأيت أحدًا أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبى.

كل هذه الشهادات من العلماء، تدل على مبلغ علم الشعبى وعظيم حظه منه على

---

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص١٥٥.

اختلاف فنونه، فمن حديث، إلى تفسير، إلى فقه، إلى شعر، إلى قوة حفظ، وكثرة أخذ عن الصحابة وعلماء الأمصار المختلفة، وإذا كان الشعبى يفتى مع وجود الصحابة ووفرتهم، ويجلس له كثير من أهل العلم يأخذون عنه، فتلك لعمرى أكبر دلالة على عظيم مكانته العلمية، وعلو منزلته بين أتباعه ومعاصريه.

وإذا كان الشعبى قد رزق حظًا وافرًا من العلم، ونال إعجاب معاصريه، فإنه مع ذلك لم يكن جريئًا على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه، بل كان يتحرج من ذلك، ويتوقف عن إجابة سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السلف، فقد قال ابن عطية: كان جلة من السلف، كسعيد ابن المسيب، وعامر الشعبى، يعظمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه، تورعًا واحتياطًا لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم. اهـ[(١)]». وأخرج الطبرى عن الشعبى أنه قال: والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله. اهـ[(٢)]. وأخرج عنه أيضًا أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأى»[(٣)] ومع هذا التوقف فإنا نرى الشعبى رجلا نقادًا لرجال التفسير فى عصره، وكثيراً ما كان يصرح بالطعن على من لا يعجبه مسلكه فى التفسير من معاصريه، فقد ذكر أبو حيان: أن الشعبى كان لا يعجبه تفسير السدى، ويطعن عليه وعلى أبى صالح؛ لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر»[(٤)].

وروى ابن جرير: أن الشعبى كان يمر بأبى صالح باذان[(٥)] فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول: تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن[(٦)]، وروى ابن جرير أيضًا عن صالح بن مسلم قال: مر الشعبى على السدى وهو يفسر فقال: لأن يضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا[(٧)].

وهذا وإن الخلاف فى مولد الشعبى وفى وفاته كثير، وأشهر الأقوال فى ذلك أنه ولد فى سنة عشرين وتوفى سنة ١٠٩ تسع ومائة من الهجرة[(٨)].

* * *

(١) مقدمة تفسير القرطبى جـ١ ص٣٤.
(٢) مقدمة تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) البحر المحيط جـ١ ص١٣.
(٥) باذان: اسمه، ويقال: باذام بالميم.
(٦) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٠.
(٧) المرجع السابق.
(٨) انظر تهذيب التهذيب جـ٥ ص٦٥ - ٦٩.

٦- الحسن البصرى

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو: أبو سعيد، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى، مولى الأنصار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة، قال ابن سعد: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادى القرى، وكان فصيحًا ورعًا وزاهدًا، لا يسبق فى وعظه، ولا يدانى فى مبلغ تأثيره على قلوب سامعيه، روى عن على، وابن عمر، وأنس، وخلق كثير من الصحابة والتابعين.

هذا وإن الحسن البصرى ليجمع إلى صلاحه وورعه وبراعته فى الوعظ، غزارة العلم بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وأحكام الحلال والحرام، وقد شهد له بالعلم خلق كثير، فقال أنس بن مالك: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا، وقال سليمان التيمى: الحسن شيخ أهل البصرة، وقال مطر الوراق: كان جابر بن زيد رجل أهل البصرة، فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما كان فى الآخرة، فهو يخبر عما رأى وعاين، وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال: ما جالست فقيهًا قط إلا رأيت فضل الحسن عليه، وقال بكر المزنى: من سره أن ينظر إلى أعلم عالم أدركناه فى زمانه، فلينظر إلى الحسن، فما أدركنا الذى هو أعلم منه، وقال الحجاج بن أرطاة: سألت عطاء بن أبى رباح فقال لى: عليك بذلك ـ يعنى الحسن ـ ذلك إمام صخم يقتدى به، وكان إذا ذكر عند أبو جعفر الباقر قال: ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء، وقال ابن سعد: كان الحسن جامعًا، عالمًا، رفيعًا، فقيهًا، ثقة، مأمونًا، عابدًا، ناسكًا، كثير العلم فصيحًا، جميلا، وسيمًا، وقال حماد بن سلمة عن حميد: قرأت القرآن على الحسن ففسره على الإثبات يعنى ـ إثبات القدر ـ وكان يقول: من كذب بالقدر فقد كفر، وحديثه عند أصحاب الكتب الستة، توفى رحمه الله تعالى سنة عشر ومائة من الهجرة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة[١].

* * *

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢٦٣ - ٢٧٠.

٧- قتادة

ترجمته ومكانته فى التفسير:

هو أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه، عربى الأصل، كان يسكن البصرة، روى عن أنس، وأبى الطفيل، وابن سيرين، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح، وغيرهم، وكان قوى الحافظة، واسع الاطلاع فى الشعر العربى، بصيرًا بأيام العرب، عليمًا بأنسابهم، متضلعًا فى اللغة العربية، ومن هنا جاءت شهرته فى التفسير، ولقد يشهد لقوة حفظه ما رواه سلام بن مسكين قال: حدثنى عمرو بن عبد الله، قال: قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أيامًا وأكثر، فقال له سعيد: أكل ما سألتنى عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثًا كثيرًا؛ قال: فقال سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك، وقد شهد له ابن سيرين بقوة الحافظة أيضًا، فقال قتادة: هو أحفظ الناس.

وكان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله، حتى قدمه بعضهم على كثير من أقرانه، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه، وقال فيه سعيد بن المسيب: ما أتانى عراقى أحسن من قتادة، وقال معمر للزهرى: قتادة أعلم عندك أم مكحول؟ قال: بل قتادة، وقال أبو حاتم: سمعت أحمد بن حنبل وذكر قتادة، فأطنب فى ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من تقدمه، أما المثل فلعل، وقال معمر: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزخرف: ١٣) فلم يجبنى، فقلت: سمعت قتادة يقول: مطيقين، فسكت، فقلت له: ما تقول يا أبا عمرو؟ فقال: حسبك قتادة، ولولا كلامه فى القدر ـ وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا ذكر القدر فأمسكوا ـ ما عدلت به أحدًا من أهل دهره» (١).

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة وبتفسيره للقرآن، لولا ما ينسب

---

(١) وفيات الأعيان جـ٢ ص١٧٩.

إليه من الخوض فى القضاء والقدر، وكثيراً ما تحرج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجد أصحاب الصحاح يخرجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا فى تعديله وتوثيقه، قال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس: الزهرى، ثم قتادة، وقال ابن سعد: كان ثقة مأمونًا حجة فى الحديث؛ وكان يقول بشىء من القدر، وقال ابن حبان فى الثقات: كان من علماء الناس بالقرآن والفقه، ومن حفاظ أهل زمانه.

وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور(١).

وبعد... فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين، وغالب أقوالهم فى التفسير تلقوها عن الصحابة، وبعض منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب، وما وراء ذلك فمحض اجتهاد لهم، ولا شك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم، لقرب عهدهم من عهد النبوة، واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة، ولعدم فساد سليقتهم العربية، الفساد الذى شاع فيما بعد؛ حتى بلغ إلى درجة الهجنة والمزيج اللغوى.

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمى الذى خلَّفه التابعون، وزادوا عليه بمقادر ما زاد من الغموض وما جد من اختلاف فى الرأى، وعن هؤلاء أخذ من جاء بعدهم... وهكذا تناقل الخلف علم السلف، وحمل علماء كل جيل علم من سبقهم وزادوا عليه، سنة الله فى تدرج العلوم، تبدأ ضيقة الدائرة، محدودة المسائل، ثم لا تلبث أن تتسع وتتضخم إلى أن تبلغ النهاية وتصل إلى الكمال.

* * *

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٨ ص٣٥١ - ٣٥٦.



الفصل الثانى

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شىء عن الرسول ﷺ، أو عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

فنقل عن الإمام أحمد رضي الله عنه روايتان فى ذلك:

رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول.

وذهب بعض العلماء: إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعى، واختاره ابن عقيل، وحكى عن شعبة، واستدل أصحاب هذا الرأى على ما ذهبوا إليه: بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول ﷺ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى: إنه محمول على سماعه من النبى ﷺ، وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلا، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة، نقل عن أبى حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال.

وقد ذهب أكثر المفسرين: إلى أنه يؤخذ بقول التابعى فى التفسير، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة، فمجاهد مثلا يقول: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها، وقتادة يقول: ما فى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئًا؛ ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها.

والذى تميل إليه النفس: هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به إلا إذا كان مما لا مجال للرأى فيه، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة، فإن ارتبنا فيه، بأن

كان يأخذ من أهل الكتاب، فلنا أن نترك قوله ولا نعتمد عليه، أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره.

قال ابن تيمية: قال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين ليست حجة، فكيف تكون حجة فى التفسير؟ يعنى أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة فى ذلك[١].

* * *

(١) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٨، ٢٩، وفواتح الرحموت جـ٢ ص١٨٨، والإتقان جـ٢ ص١٧٩.

الفصل الثالث

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية:

أولا: دخل فى التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام، وكان لا يزال عالقًا بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية، كأخبار بدء الخليقة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات، وكثير من القصص، وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فتساهل التابعون فزجوا فى التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحرٍّ ونقد، وأكثر من روى عنه فى ذلك من مسلمى أهل الكتاب: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج، ولا شك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات فى التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم[١].

وسنأتى نعرض لهذه الناحية عرضًا موسعًا عند الكلام عن أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: ظل التفسير محتفظًا بطابع التلقى والرواية[٢]، إلا أنه لم يكن تلقيا ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن فى عصر النبى ﷺ وأصحابه، بل كان تلقيًا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون ـ بوجه خاص ـ بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم، فالمكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أُبى، والعراقيون عن ابن مسعود. . . وهكذا.

---

(١) انظر فجر الإسلام ص٢٥٢، ومنهج الفرقان جـ٢ ص ٢٠.

(٢) وما سبق من أن مجاهد بن جبر كتب التفسير كله عن ابن عباس، وما يأتى بعد من أن سعيد بن جبير كتب تفسير القرآن، لا يخرج بالتفسير فى هذه المرحلة عن طابع التلقى والرواية، لأن هذا عمل فردى لا يؤثر على الطابع العام.

ثالثًا: ظهرت فى هذا العصر نواة الخلاف المذهبى، فظهرت بعض تفسيرات تحمل فى طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلا قتادة بن دعامة السدوسى يُنسب إلى الخوض فى القضـاء والقدر ويتهم بأنه قدرى، ولا شـك أن هذا أثر على تفسيره، ولهـذا كان يتحـرج بعض الناس من الرواية عنه، ونجد الحسن البـصرى قد فسـر القرآن على إثبات القدر، ويُكفر من يكذب به، كما ذكرنا ذلك فى ترجمته.

رابعًـــا: كثرة الخلاف بين التـابعين فى التفسير عما كـان بين الصحابة ﷺ، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخرى المفسرين.

* * *

الفصل الرابع

الخلاف بين السلف فى التفسير

قلنا: إن الصحابة - ﷺ - كانوا يفسرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات، وكانوا يرجعون فى فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله ﷺ.

وقلنا: إن المفسرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم، فأخذوا عنهم كثيرًا من التفسير، وقالوا فيه أيضًا برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد.

قلنا هذا فيما سبق ونزيد عليه أن ما دُون من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهية والكلامية، لم يكن قد ظهر شىء منها فى عصر الصحابة والتابعين، وإن كان قد وجدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرعت عنها كل هذه الفروع المختلفة، كان هذا هو الشأن على عهد الصحابة والتابعين، فكان طبيعيًا أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحله، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد.

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلا جدًا، وكذا بين التابعين، وإن كان أكثر منه بين الصحابة، وكان اختلافهم فى الأحكام أكثر من اختلافهم فى التفسير.

وإذا نحن تتبعنا ما نُقل لنا من أقوال السلف فى التفسير، وجمعنا ما هو مثبوت فى كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادى الرأى بكثير من الأقوال المختلفة فى المسألة الواحدة، فقول الصحابى يخالف قول صحابى آخر، وقول التابعى يخالف قول تابعى آخر، بل كثيرًا ما نجد قولين مختلفين فى المسألة الواحدة، وكلاهما منسوب لقائل واحد، فهل معنى هذا أن الخلاف فى التفسير قد اتسعت دائرته على عهد الصحابة والتابعين؟ وهل معنى هذا أن الصحابى أو التابعى يناقض نفسه فى المسألة الواحدة؟... لا، فدائرة الخلاف لم تتسع ولم يناقض الصحابى أو التابعى نفسه،

وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف فى التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلا، أو اختلاف تنوع، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه الناس فحكاه على أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض.

ونستطيع بعد البحث والنظر فى هذه الأقوال التى اختلفت ولم تتباين، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافى ولا تباين بين هذه الأقوال التى تبدو متعارضة عن السلف، وهى ما يأتى:

أولاً: أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، وذلك مثل أسماء الله الحسنى، وأسماء رسوله ﷺ، وأسماء القرآن، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر منها، بل الأمر كما قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ (الإسراء: ١١٠).

وإذا نحن نظرنا إلى كل اسم من أسمائه لوجدناه يدل على ذات الله تعالى وعلى صفة من صفاته تضمنها هذا الاسم، فالعليم يدل على الذات والعلم، والتقدير يدل على الذات والقدرة... وهكذا.

ثم إن كل اسم من هذه الأسماء يدل على الصفة التى فى الاسم الآخر بطريق اللزوم، وكذلك الشأن فى أسماء النبى ﷺ مثل: محمد وأحمد وحامد، وأسماء القرآن مثل: القرآن والفرقان، والهدى، والشفاء، وأمثال ذلك.

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمى عبر عنه بأى اسم كان إذا كان يعرف مسماه، فمثلا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي**﴾ (طه: ١٢٤) إذا قيل: ما ذكره؟ يقال: ذكره: قرآنه، أو كتابه، أو كلامه، أو هداه، ونحو ذلك، وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها.

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلا بد فى ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى، مثل أن يسأل عن القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوسًا، وسلامًا، ومؤمنًا، ومهيمنًا، ونحو ذلك.

والسلف كثيرًا ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه، وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر، كمن يقول: القدوس: هو الله، أو الرحمن، أو الغفور، ومراده أن المسمى واحد، لا أن هذه الصفة هى هذه، ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال: إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس.

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو اتباع القرآن، لقوله ﷺ فى حديث عليٍّ عند الترمذى: «ضرب الله مثلا صراطا مستقيمًا، وعلى جنبتى الصراط سوران، وفى السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو من فوق الصراط، وداع يدعو على رأس الصراط قال: فالصراط المستقيم هو الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن».

ومنهم من قال: هو اتباع السنة والجماعة، ومنهم من قال: هو طريق العبودية، ومنهم من قال: هو طاعة الله ورسوله ﷺ، وقيل غير ذلك، فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين، بل كلها متفقة فى الحقيقة، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، وهو طاعة الله ورسوله، وهو طريق العبودية لله، فالذات واحدة، وكل أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها.

ثانيًا: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعهم على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه.

مثال ذلك ما نقل فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ (فاطر: ٣٢) فبعضهم فسر السابق بمن يصلى فى أول الوقت، والمقتصد بمن يصلى فى أثنائه، والظالم بمن يصلى بعد فواته، وبعضهم فسر السابق بمن يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة، المقتصد بمن يؤديها وحدها، والظالم بمانع الزكاة، فكل من المفسرين ذكر فردًا من أفراد العام على سبيل التمثيل لا الحصر، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يكون أسهل من التعريف بالحد المطابق، والعقل السليم يتفطن للنوع بذكر مثاله، وهذا الاختلاف فى ذكر المثال لا يؤدى إلى التباين

والتناقض بين الأقوال؛ إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات، والسابق يتناول من تقرب بالحسنات مع الواجبات.

ومن هذا القبيل أن يقول أحدهم: نزلت هذه الآية فى كذا، ويقول الآخر: نزلت فى كذا، وكلٌّ يذكر غير ما يذكره صاحبه، لأن كلا منهم يذكر بعض ما يتناوله اللفظ، وهذا لا تنافى فيه ما دام اللفظ يتناول قول كل منهما.

أما إذا قال أحدهم: سبب نزول هذه الآية كذا، وقال الآخر: سبب نزول هذه الآية كذا، وكلٌّ ذكر غير ما ذكره الآخر، فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

ثالثًا: أن يكون اللفظ محتملا للأمرين أو الأمور وذلك إما لكونه مشتركا فى اللغة، كلفظ قسورة، الذى يراد به الرامى ويراد به الأسد، ولفظ عسعس، الذى يراد به إقبال الليل ويراد به إدباره، وإما لكونه متواطئًا فى الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين كالضمائر فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ** ﴾ (النجم: ٨، ٩) وكلفظ: ﴿ **وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾ (الفجر: ١ - ٣) وما ماثل ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يرد به كل المعانى التى قالها السلف، وذلك إما لكون الآية نزلت مرتين، فأريد بها هذا تارة وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه أو معانيه، وهذا يقول به أكثر الفقهاء من المالكية، والشافعية، والحنابلة، وكثير من أهل الكلام: وإما لكون اللفظ متواطئًا، فيكون عاما إذا لم يكن هناك موجب لتخصيصه.

رابعًا: أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقَلَّ أن يعبر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدى جميع معناه، وإنما يعبر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه، فمثلا إذا قال قائل: ﴿ **يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا** ﴾ (الطور: ٩) المور: الحركة، فذلك تقريب للمعنى؛ لأن المور حركة خفيفة سريعة، كذلك إذا قال: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ** ﴾ (الإسراء: ٤) أى: أعلمنا؛ لأن القضاء إليهم فى الآية أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالا وإيحاء إليهم.

فإذا قال أحدهم فى قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الأنعام: ٧٠) إن معنى تبسل: تحبس، وقال الآخر: ترتهن، ونحو ذلك، لم يكن من اختلاف التضاد، لأن هذا تقريب للمعنى، كما قلنا.

خامسًا: أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات فيفسر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة، فيظن ذلك اختلافًا، وليس باختلاف، مثال ذلك: ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وغيره من طرق فى قوله تعالى: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ (الحجر: ١٥) إن معنى سكرت: سدت، ومن طريق أخرى عنه: أن سكرت بمعنى أخذت وسحرت، ثم أخرج عن قتادة أنه قال: من قرأ سُكِّرت مشددة، فإنما يعنى سُدت، ومن قرأ سكرت مخففة، فإنه يعنى سحرت، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (إبراهيم: ٥٠) أخرج ابن جرير عن الحسن: أنه الذى تهنأ به الإبل، وأخرج من طرق عنه وعن غيره: أنه النحاس المذاب، وليسا بقولين، وإنما الثانى تفسير لقراءة من قرأ «من قطرآن» بتنوين قطر، وهو النحاس المذاب، وآن: شديد الحرارة، وأمثلة هذا النوع كثيرة، وقد خرِّج على هذا، الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ﴾ (النساء: ٤٣) هل هو الجماع، أو الجس باليد؟ فالأول تفسير لقراءة: «لامستم» والثانى لقراءة: «لمستم» ولا اختلاف.

هذه هى الأوجه التى بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التى تبدو متعارضة، أما ما جاء عنهم من اختلاف فى التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة ـ وهذا أمر نادر، أو اختلاف مخفف، كما يقول ابن تيمية[(١)] ـ فطريقنا فيه: أن ننظر فيمن نقل عنه الاختلاف، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحة وضعفًا، قدم الصحيح وترك ما عداه، وإن استويتا فى الصحة وعرفنا أن أحد القولين متأخر عن الآخر، قدم المتأخر وترك ما عداه، وإن لم نعرف تقدم أحدهما على الآخر رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع، فإن لم نجد سمعًا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما، رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه، وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين، ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

---

(١) مقدمته فى أصول التفسير ص١٢.

وإن كان الاختلاف عن شخصين أو أشخاص، واختلفت الروايتان أو الروايات صحة وضعفًا، قُدم الصحيح وتُرك ما عداه، وإن استوت الروايتان أو الروايات فى الصحة، رددنا الأمر إلى ما ثبت فيه السمع، فإن لم نجد سمعًا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا ما عداه، وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين أو الأقوال، ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

ويرى الزركشى: أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع، قدم قول ابن عباس على قول غيره، وعلل فقال: لأن النبى ﷺ بشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل»[1].

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٣ ـ وقد اعتمدنا فى هذا البحث على مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص٦ - ١٣، والإتقان جـ٢ ص١٧٦ - ١٨٣، ومبادئ التفسير للخضرى ص٦، ٧.

الباب الثالث

المرحلة الثالثة للتفسير
أو التفسير فى عصور التدوين



ابتداء هذه المرحلة ـ الخطوات التى تدرج فيها التفسير ألوان التفسير فى كل خطوة

ابتداء هذه المرحلة:

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين، وذلك فى أواخر عهد بنى أمية، وأول عهد العباسيين.

الخطوة الأولى للتفسير:

وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ، كما يروى بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة، كما يروى بعضهم عن بعض، وهذه هى الخطوة الأولى للتفسير[1].

الخطوة الثانية:

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث، فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة

---

(١) هذه الخطوات للتفسير، خطوات علمية، وأما المراحل فزمنية، وإذًا فلا ضير أن يخطو التفسير خطوة علمية واحدة فى مرحلتين زمنيتين: مرحلة عصر النبى ﷺ والصحابة، ومرحلة عصر التابعين.

سورة، وآية آية، من مبدئه إلى منتهاه؛ بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث، فجمع بجواز ذلك ما روى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى ﷺ، أو إلى الصحابة، أو إلى التابعين، ومن هؤلاء: يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هجرية: ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية، وسفيان بن عيينة[١] المتوفى سنة ١٩٨ هجرية، وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥هجرية، وعبد الرزاق ابن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية[٢]، وآدم ابن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩هجرية، وغيرهم، وهؤلاء جميعًا كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعًا لباب من أبواب الحديث، ولم يكن جمعًا للتفسير على استقلال وانفراد، وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم عن أئمة التفسير نقلوه مسندًا إليهم، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شىء منها، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها.

الخطوة الثالثة:

ثم بعد هذه الخطوة الثانية، خطا التفسير خطوة ثالثة، انفصل بها عن الحديث، فأصبح علمًا قائمًا بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف، وتم ذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة ٣٧٣هـ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨هـ، وابن أبى حاتم[٣] المتوفى سنة ٣٢٧هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩هـ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى ٤١٠هـ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن.

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ، وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شىء من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبرى فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض؛ وزاد على

---

(١)، (٢) طبعا مؤخرًا، وتحقيق الأخير فى غاية الإتقان (د. مصطفى الذهبى).

(٣) طبع تفسير ابن أبى حاتم مؤخرًا، وستتكلم عنه بالتفصيل فى التتمة (د. مصطفى الذهبى).

ذلك الإعراب، إن دعت إليه حاجة، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية . . . وسنأتى نتكلم عن هذا التفسير عند الكلام عن الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور إن شاء الله تعالى.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التى انفصل بها عن الحديث، فليس معنى ذلك أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج فى خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هى النقل عن طريق التلقى والرواية كانت الخطوة الثانية له، وهى تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهى تدوينه على استقلال وانفرادا، فكل هذه الخطوات، تم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون على نمط الخطوة الثانية، من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك على ما ورد عن رسول الله ﷺ ، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

ليس من السهل معرفة أول من دون تفسير كل القرآن مرتباً:

هذا، ولا نستطيع أن نعين بالضبط المفسر الأول الذى فسر القرآن آية آية، ودوَّنه على التتابع وحسب ترتيب المصحف، ونجد فى الفهرست لابن النديم ص(٩٩): أن أبا العباس ثعلب قال: «كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعانى [١] أن عمرو بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعًا إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألنى عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا، أو تجعل فى ذلك كتابًا أرجع إليه فعلت، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن، وجعل لهم يومًا، فلما حضروا خرج إليهم، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفى الكتاب كله، فقرأ الرجل ويفسر الفراء، قال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدًا يزيد عليه» اهـ.

---

(١) قامت دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب، وقد تم منه الجزء الأول سنة ١٩٥٦م، وهو ينتهى عند آخر سورة يونس، وإلى الآن لم يطبع غير هذا الجزء.

فهل نستطيع أن نستخلص من ذلك: أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ، هو أول من دون تفسيرًا جامعًا لكل آيات القرآن مرتبًا على وفق ترتيب المصحف؟ وهل نستطيع أن نقول: إن كل من تقدم الفراء من المفسرين كانوا يقتصرون على تفسير المشكل فقط؟ لا... لا نستطيع أن نفهم هذا من عبارة ابن النديم لأنها غير قاطعة فى هذا، كما لا نستطيع أن نميل إليه كما مال إليه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام جـ٢ ص١٤١، وذلك لأن كتاب معانى القرآن للفراء شبيه فى تناوله للآى على ترتيبها فى السور بكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة، فإنه يتناول السور على ترتيبها ويعرض لما فى السورة من آى تحتاج لبيان مجازها ـ أى المراد منها ـ فليس للفراء أولية فى هذا، بل تلك على ما يبدو كانت خطة العصر[1]، ثم إن ما نقل لنا عن السلف يشعر ـ وإن كان غير قاطع ـ بأن استيفاء التفسير لسور القرآن وآياته كان عملا مبكرًا لم يتأخر إلى نهاية القرن الثانى وأوائل الثالث، فمثلا يقول ابن أبى مليكة: «رأيت مجاهدًا يسأل ابن عباس: عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، قال: حتى سأله عن التفسير كله»[2].

ونجد الحافظ ابن حجر عندما ترجم لعطاء بن دينار الهذلى المصرى فى كتابه تهذيب التهذيب يقول: «قال على بن الحسن الهسنجانى، عن أحمد بن صالح: عطاء ابن دينار، من ثقات المصريين، وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير صحيفة، وليس له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير، وقال أبو حاتم: صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان، وكان عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦هـ سأل سعيد ابن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار فى الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير». اهـ.

فهذا صريح فى أن سعيد بن جبير ﷺ جمع تفسير القرآن فى كتاب، وأخذه من الكتاب عطاء بن دينار، ومعروف أن سعيد بن جبير قتل سنة ٩٤هـ أو سنة ٩٥ هجرية على الخلاف فى ذلك، ولا شك أن تأليفه هذا كان قبل موت عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هجرية.

---

(١) التفسير، معالم حياته، منهجه اليوم ص٣١، ٣٢ ـ (هامش).

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص٣٠.

وكـذلك نجد فى وفيات الأعيـان جـ(٢) ص(٣): أن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة، كتب تفسيراً لـلقرآن عن الحسن البصرى، ومعلوم أن الحسن توفى سنة ١١٦ هجرية.

ومر بنا فيما سبق أن ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هجرية له ثلاثة أجزاء كبار فى التفسير رواها محمد بن ثور، فإذا انضم إلى هذا ما نلاحظه من قوة اتصال القرآن بالحياة الإسلامية، وشدة عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها من آيات القرآن، وحاجتهم الملحة فى ذلك، نستطيع أن نقول: إن الفراء لم يسبق إلى هذا الاستيفاء والتقصى، بل هو مسبوق بذلك، وإن كنا لا نستطيع أن نعين من سبق إلى هذا العمل على وجه التحقيق، ولو أنه وقع لنا كل ما كتب من التفسير من مبدأ عهد التدوين، لأمكننا أن نعين المفسر الأول الذى دوَّن التفسير على هذا النمط.

الخطوة الرابعة:

ثم إن التفسير لم يقف عند هذه الخطوة الثالثة بل خطا بعدها خطوة رابعة، لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد، فصنف فى التفسير خلق كثير، اختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها لقائليها، فدخل الوضع فى التفسير والتبس الصحيح بالعليل، وأصبح الناظر فى هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح، فنقله كثير من المتأخرين فى تفاسيرهم، ونقلوا ما جاء فى هذه الكتب من إسرائيليات فى التفسير وسنعرض لهذا بالبيان والتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولقد وجد من بين هؤلاء المفسرين من عنى بجمع شتات الأقوال، فصار كلما سنح له قول أورده، وكلما خطر بباله شىء اعتمده، فيأتى من بعده وينقل ذلك عنه بدون أن يتحرى الصواب فيما ينقل، وبدون التفات منه إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير، ظنا منه أن كل ما ذكر له أصل ثابت!! وليس أدل على نهم هؤلاء القوم بكثرة النقل، من أن بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) عشرة أقوال، مع أن تفسيرها باليهود

والنصارى هو الوارد عن رسـول الله ﷺ وعن جميع الصـحابة والتابعين، حـتى قال ابن أبى حاتم: «لا أعلم فى ذلك اختلافًا بين المفسرين»[١].

الخطوة الخامسة:

ثم خطا التفسيـر بعد ذلك خطوة خامسة، هى أوسع الخطا وأفسحـها، امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا، فبعد أن كان تـدوين التفسير مقصورًا على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة، تجاوز بهـذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اخـتلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك.

تدرج التفسير العقلى:

بدأ ذلك أولا على هيـئة محـاولات فهم شخـصى، وترجيح لبـعض الأقوال على بعض، وكان هذا أمرًا مـقبولا ما دام يرجع الجانب العـقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القـرآنية، ثم ظلت محـاولات هذا الفهم الشخـصى تزداد وتتضخم، مـتأثرة بالمعارف المختلفة، والعلوم المتنوعة، والآراء المتشبعة، والعقائد المتباينة، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بُعد عظيم.

دُونت علرم اللغـة، ودُون النحو والصرف، وتشـعبت مـذاهب الخلاف الفـقهى، وأثيرت مـسائل الكلام، وظهر التـعصب المذهبى قـائمًا على قدمـه وساقه فى العـصر العباسى، وقامت الفرق الإسـلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها، وتُرجـمت كتب كثيرة من كتب الفـلاسفة، فامـتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بهـا من أبحاث بالتفـسير[٢]

(١) الإتقان جـ٢ ص١٩٠.

(٢) وكان السبب فى مزج هذه العلوم بالتفسير ما يأتى:

أولا: فى العلوم الأدبية: ضعف السليقة العربية؛ لاختلاط العرب بالعجم؛ فاحتيج إلى مزج هذه العلوم بالتفسير لفهم ألفاظ القرآن؛ والوقوف على بلاغته التى تعتبر أهم نواحى إعجازه.

ثانيًا: فى العلوم الكونية: ما ترجمه العلماء فى إبان شوكة الإسلام من كتب الفلاسفة، فاحتاجوا إلى مزجها بالتفسير لتأييدها أو الرد عليها.

ثالثًا: فى العلوم الكلامية: ظهور الفرق الإسلامية؛ واستدلال كل طائفة منها ببعض آيات القرآن الكريم على مـا تذهب إليه، فـاضطر العلماء إلى الكـلام على ذلك فى التفـسيـر؛ ليمـيزوا المقبول من المردود، وما يدل عليه القرآن مما لا يدل عليه.

رابعًا: فى العلوم الفقهية: نضوج الفقه الإسلامى وتبحر العلماء فيه؛ فعنى المفسرون بمزجها فى تفاسيرهم؛ لتكون متممة للناحية التشريعية؛ وشارحة لأصل الدين وهو القرآن.

حتى طغت عليه، وغلب الجانب العقلى على الجانب النقلى، وصار أظهر شىء فى هذه الكتب، هو الناحية العقلية، وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول، أو بغير ذلك على المأثور.

وهكذا تدرج التفسير، واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة، وتحكمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن الكريم، فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهورًا جليّا.

وإنا لنلحظ فى وضوح وجلاء: أن كل من برع فى فن من فنون العلم، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه، فالنحوى تراه لا هَمَّ له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته، وذلك كالزجاج، والواحدى فى البسيط، وأبى حيان فى البحر المحيط.

وصاحب العلوم العقلية، تراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، كما تراه يعنى يذكر شبههم والرد عليهم، وذلك كالفخر الرازى فى كتابه مفاتيح الغيب.

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية، والرد على من يخالف مذهبه، وذلك كالجصاص، والقرطبى.

وصاحب التاريخ، ليس له شغل إلا القصص، وذكر أخبار من سلف، ما صح منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبى والخازن.

وصاحب البدع، ليس له قصد إلا أن يؤول كلام الله وينزله على مذهبه الفاسد، وذلك كالرمانى، والجبائى، والقاضى عبد الجبار، والزمخشرى من المعتزلة، والطبرسى، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنى عشرية.

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب، واستخراج المعانى الإشارية من الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم، ويتناسب مع رياضاتهم ومواجيدهم، ومن هؤلاء ابن عربى، وأبو عبد الرحمن السلمى.

وهكذا فسر كل صاحب فن أو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه، وقد استمرت هذه النزعة العلمية وراجت فى بعض العصور رواجًا عظيمًا، كما راجت فى

عصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أن يحملوا آيات القرآن كل العلوم، ما ظهر منها وما لم يظهر، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن، وفى الحق أن هذا غلو منهم، وإسراف يخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه.

وسوف نتكلم على ذلك بتوسع عند الكلام عن التفسير العلمى إن شاء الله تعالى.

ثم إن هذا الطغيان العقلى العلمى، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب، بل وجد من العلماء فى عصور مختلفة، من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان، ففسر القرآن تفسيراً نقليًا بحتًا، على توسع منهم فى النقل، وعدم تفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه الدر المنثور.

التفسير الموضوعى:

وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير؛ فتكلم عن ناحية واحدة من نواحية المتشعبة المتعددة، فابن القيم ـ مثلا ـ أفرد كتابًا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه: «التبيان فى أقسام القرآن»[١]، وأبو عبيدة، أفرد كتابًا للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهانى، أفرد كتابًا فى مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس، أفراد كتابًا فى الناسخ والمنسوخ من القرآن، وأبو الحسن الواحدى، أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن، والجصاص؛ أفرد كتابًا فى أحكام القرآن. . . وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن يجمعون ما تفرق منه، ويفردونه بالدرس والبحث.

توسع متقدمى المفسرين قعد بمتأخريهم عن البحث المستقل:

ثم إنا نجد متقدمى المفسرين قد توسعوا فى التفسير إلى حد كبير، جعل من جاء بعدهم من المفسرين لا يلقون عنتًا، ولا يجدون مشقة فى محاولاتهم لفهم كتاب الله، وتدوين ما دونوا من كتب فى التفسير، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه، ومنهم من اختصر، ومنهم من علق الحواشى وتتبع كلام من سبقه، تارة بالكشف عن المراد،

---

(١) هذا الكتاب ينسب إلى ابن القيم على الأرجح من الأقوال (د. مصطفى الذهبى).

وأخرى بالتفنيد والاعـتراض، ومع ذلك فاتجاهات التفسـير، وتعدد طرائقه وألوانه، لم تزل على ما كانت عليه، متشعبة متكاثرة.

أما فى عصرنا الحاضر، فقد غلب اللون الأدبى الاجتماعى على التفسير، ووجدت بعض محاولات علمية، فى كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير، أما اللون المذهبى، فقد بقى سنة إلى يومنا هذا بمقدار ما بقى من المذاهب الإسلامـية، وسوف نعرض للتفسير فى عصرنا الحاضر بما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى.

هذا هو شأن التفـسير فى مرحلته الثالثـة ـ مرحلة التدوين ـ وهذه هى خطواته التى تدرج فيها من لدن نشأته إلى عـصرنا الحاضر، وتلك هى ألوانه وطرائقه، وأرى أن من العـسيـر على أن أتمـشى بالتفـسيـر مع الزمن، وأن أتكلم عن طـرائقه، ومـميـزاته، واتجاهاته، وألوانه فى كل عصر من العـصور التى مرت عليه؛ وذلك راجع إلى أننا لم نقف على كثير ممـا خلفته تلك العصور من آثار فيه وهى كثـرة كاثرة تنوعت مقاصدها واختلفت اتجاهاتها، وإننا لندهش عند سماع ما أُلف فى التفسير من الكتب التى بلغت حد الكثرة، ونسبت لرجال لهم قيمتهم العلميـة، ففى القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيرًا للقرآن عن الحسن البصرى، كما ذكره ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان[(١)]، ويذكر صاحب كتاب تبيين المفترى: أن أبا الحسن الأشعرى كتب كتابًا فى التفسير يسمى المختزن، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الـحق[(٢)]، كما ينسب إلى الجوينى تفسير كـبير يشتمل على عشرة أنواع فى كل آيـة[(٣)]، وينسب للقشيرى أيضًا تفـسير كبير[(٤)]، وابن الأنبارى يذكرون أنـه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرًا من تـفاسير القرآن بأسانيدها[(٥)]، وأبو هلال العسكرى، له كـتاب المحاسن فى تفسيـر القرآن، خمس مجلدات[(٦)]، وغير هذا كثـير جدًا من الكتب التى أُلفت فى تفسير القرآن.

---

(١) جـ٢ ص١٠٣.

(٢) تبيين كذب المفترى ص١٣٣، وانظر ص١٣٦ منه أو فى هامشها: وذكر المقريزى أنه فى سبعين مجلدًا، ومن ابن عربى أنه فى خمـسمائة مجلد... وابن فورك كثير النقل عن هـذا التفسير، ويقول التاج السبكى: إنه اطلع على جزء منه.

(٣) المرجع السابق ص٢٥٧.

(٤) المرجع السابق ص٢٧٣.

(٥، ٦) التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم ص١٥.

وبعد... فهل يكون فى مقدورى ـ وقد اندرست معظم كتب التفسير ـ أن أتكلم عن التفسير وما أُلف فيه فى جميع مراحله الزمنية؟ اللهم إن هذا أمر لا أقدر عليه إلا إذا جمع بين يدى كل ما كتب فى التفسير من مبدأ نشأته إلى يومنا هذا، وكان لدىَّ من الوقت ما يتسع لدراسته كله، وأنَّى لى بذلك؟.

على أننا لو نظرنا إلى مناحى المفسرين واتجاهاتهم، لوجدناهم مع اختلاف عصورهم يشتركون فيها، فبينما نجد من المتقدمين من دوَّن التفسير بالمأثور خاصة، نجد من المتأخرين من قصر تفسيره على المأثور أيضًا، وبينما نجد من المتقدمين من نحا فى تفسيره الناحية الإشارية نجد من المتأخرين من ينحو هذا المنحى بعينه، وبينما نجد من المتقدمين من حاول إخضاع القرآن لمذهبه وعقيدته نجد من المتأخرين من حاول مثل هذه المحاولة[1] وهكذا نجد كثيرًا من كتب التفسير على اختلاف أزمانها تتحد فى مشربها، وتتجه إلى ناحية واحدة من نواحى التفسير المختلفة.

لهذا كله، أرى نفسى مضطرًا إلى أن أعدل فى هذه المرحلة الثالثة ـ مرحلة عصور التدوين ـ عن السير بالتفسير مع الزمن إلى التكلم عنه من ناحية هذه الاتجاهات التى اتجه إليها المفسرون فى تفاسيرهم، وأتبع ذلك بالكلام عن أشهر الكتب المؤلفة فى التفسير، فأتكلم أولا عن التفسير المأثور وأشهر ما دون فيه، ثم عن التفسير بالرأى الجائز وغير الجائز، وعن أشهر الكتب المؤلفة فى ذلك، ويندرج فى هذا، الكلام على تفاسير الفرق المختلفة، ثم أتكلم بعد ذلك عن التفسير عند الصوفية وأهم كتبهم فيه، ثم عند الفلاسفة، ثم عند الفقهاء كذلك، ثم أتكلم عن التفسير العلمى، ثم أختم بكلمة عامة عن التفسير فى عصرنا الحاضر، وأسأل الله العون والتوفيق.

* * *

(١) سيتضح لك فيما بعد التوافق فى مناحى التفسير بين المتقدمين والمتأخرين.

الفصل الأول

التفسير بالمأثور

ما هو التفسير المأثور ـ تدرجه ـ اللون الشخصى له ـ الضعف فى روايته وأسبابه ـ أشهر الكتب المدونة فيه وخصائصها.

ما هو التفسير المأثور:

يشمل التفسير المأثور ما جاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن الرسول ﷺ، وما نقل عن الصحابة ﷺ، وما نقل عن التابعين، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم.

وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما روى عن التابعين ـ وإن كان فيه خلاف: هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى ـ لأنَّا وجدنا كتب التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وغيره، لم تقتصر على ذكر ما روى عن النبى ﷺ وما روى عن أصحابه، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين فى التفسير.

تدرج التفسير المأثور:

تدرج التفسير المأثور فى دوريه ـ دور الرواية ودور التدوين ـ أما فى دور الرواية، فإن رسول الله ﷺ بين لأصحابه ما أشكل عليهم من معانى القرآن، فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض، ولمن جاء بعدهم من التابعين.

ثم وجد من الصحابة من تكلم فى تفسير القرآن بما ثبت لديه عن رسول الله ﷺ، أو بمحض رأيه واجتهاده، وكان ذلك على قلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التى كانت لهذا العهد، والمستوى العقلى الرفيع لأهله، وتحدد حاجات حياتهم العملية، ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا.

ثم وجد من التابعين من تصدى للتفسير، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعد الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة.

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض... وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

ثم ابتدأ دور التدوين ـ وهو ما يعنينا فى هذا البحث ـ فكان أول ما دون من التفسير، هو التفسير المأثور، على تدرج فى التدوين كذلك، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول فى هذا، وقد رأينا أصحاب مبادئ العلوم حين ينسبون ـ على عادتهم ـ وضع كل علم لشخص بعينه، يعدون واضع التفسير ـ بمعنى جامعه لا مدونه ـ الإمام مالك بن أنس الأصبحى، إمام دار الهجرة[١].

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلا منظمًا، ولم يفرد بالتدوين، بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة، يجمعون فيه ما روى عن النبى ﷺ وعن الصحابة والتابعين.

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، وأفرد بتأليف خاص، فكان أول ما عرف لنا من ذلك، تلك الصحيفة التى رواها على بن أبى طلحة عن ابن عباس[٢].

ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت فى التفسير خاصة، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبى روق[٣]، وتلك الأجزاء الثلاثة التى يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج[٤].

ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير، جمعت كلا وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبى ﷺ وأصحابه وتابعيهم، كتفسير ابن جرير الطبرى، ويلاحظ أن ابن جرير ومَنْ على شاكلته ـ وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد ـ توسعوا فى النقل وأكثروا منه، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقًا به، كما يلاحظ أنه كان لا يزال موجودًا إلى ما بعد عصر ابن جرير ومَنْ على شاكلته ـ ممن أفردوا التفسير بالتأليف ـ رجال من المحدثين بوبوا للتفسير بابًا ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث.

ثم وجد بعد هذا أقوام دونوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم فى ذلك، وأكثروا من نقل الأقوال فى تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل، مما جعل

---

(١) المبادى النصرية ٢٦. (٢، ٣، ٤) الإتقان جـ٢ ص٨٨.

الناظر فى هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق، وهو كثير فى التفسير.

ثم بعد هذا تغيرت موجهات الحياة، فبعد أن كان التدوين فى التفسير لا يتعدى المأثور منه، تعدى إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج فيه، كما أشرنا إليه فيما سبق.

اللون الشخصى للتفسير المأثور:

من المعلوم أن الشخص الذى يفسر نصّا من النصوص، يلون هذا النص بتفسيره إياه؛ لأن المتفهم لعبارة من العبارات، هو الذى يحدد معناها ومرماها وفق مستواه الفكرى، وعلى سعة أفقه العقلى، وليس فى استطاعته أن يفهم من النص إلا ما يرمى إليه فكره، ويمتد إليه عقله، وبمقدار هذا يتحكم فى النص ويحدد بيانه، وهذا أصل ملحوظ، نجد آثاره واضحة فى كتب التفسير على اختلافها، فما من كتاب منها إلا وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت تفسيره بطابع خاص لا يعسر علينا إدراكه.

غير أن هذا الطابع الشخصى الذى يطبع به التفسير، إن ظهر لنا جليّا واضحًا فى كتب التفسير بالرأى، فإنا لا نكاد نجده لأول وهلة على هذا النحو من الوضوح والجلاء بالنسبة لكتب التفسير بالمأثور، ولكن نستطيع أن نتبينه إذا ما قدرنا أن المتصدى لهذا التفسير النقلى إنما يجمع حول الآية من المرويات ما يشعر أنها متجهة إليه، متعلقة به، فيقصد إلى ما يتبادر لذهنه من معناها، ثم تدفعه الفكرة العامة فيها إلى أن يصل بين الآية وما يروى حولها فى اطمئنان، وبهذا الاطمئنان، يتأثر نفسيّا وعقليّا، حينما يقبل مرويا ويعنى به، أو يرفض مرويا حين لا يرتاح إليه.

وكذلك راج بين المتقدمين ـ كما لاحظه ابن خلدون فى مقدمته ـ ما هم فى شوق إليه وتعلق به، من أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، وتفصيل الأحداث الكبرى فى تاريخ الإنسانية الأولى، نظرًا لبداوتهم وأميتهم، وقلة المتداول بينهم منه، فكان من وراء ذلك كثرة الإسرائيليات، وليس من شك فى أن هذا صورة عقلية، وطابع شخصى لهذا العصر الأول[1]، كما أنه صورة عقلية، وطابع شخصى لكل من يقبل هذه الإسرائيليات ويفسر بعض آيات القرآن على ضوئها.

---

(١) انظر التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم ص٢٨.

ثم إننا بعد هذا نلحظ لونًا شخصيًا آخر فى التفسير النقلى، ذلك أن الشخص الذى يعرف قيمة الرجال، ويستطيع أن ينقد السند، ويعرف أسباب الضعف فى الرواية، نرى تفسيره يطبع بهذا الطابع الشخصى الخاص، فيتحرى الصحة فيما يرويه، فلا يدخل فى كتابه مرويًا اعتراه الضعف أو تطرق إليه الخلل، أما الشخص الذى لا دراسة له بأسباب الضعف فى الرواية، وليس عنده القدرة على نقد الرجال ونقد المروى عنهم فحاطب ليل، يجمع كل ما ينقل له فى ذلك بدون أن يفرق بين الصحيح وغيره.

وبعد... أفلا ترى أنه حتى فى رواج التفسير النقلى وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هى الملونة له، المروجة لصنف منه؟ أظن أن نعم.

الضعف فى رواية التفسير المأثور وأسبابه

علمنا مما تقدم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيرًا للقرآن بالقرآن، وما كان تفسيرًا للقرآن بالسنة، وما كان تفسيرًا للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين، أما تفسير القرآن بالقرآن، أو بما ثبت من السنة الصحيحة، فذلك مما لا خلاف فى قبوله؛ لأنه لا يتطرق إليه الضعف، ولا يجد الشك إليه سبيلا.

وأما ما أضيف إلى النبى ﷺ وهو ضعيف فى سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول، ما دام لم تصح نسبته إلى النبى ﷺ.

وأما تفسير القرآن بما يروى عن الصحابة أو التابعين، فقد تسرب إليه الخلل، وتطرق إليه الضعف، إلى حد يفقدنا الثقة بكل ما روى من ذلك، لولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك، فسلمت لنا منه كمية لا يستهان بها، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطا فى كثير من الكتب التى عنى أصحابها بجمع شتات الأقوال.

ولقد كانت كثرة المروى من ذلك كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضي الله عنهم - أكبر عامل فى صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص، والنقد والتعديل والتجريح، حتى لقد نقل عن الإمام الشافعى رضي الله عنه أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث»[1]، وهذا العدد

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٩.

الذى ذكره الشافعى، لا يكاد يذكر بجوار ما روى عن ابن عباس من التفسير، وهذا يدل على مبلغ ما دخل فى التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة.

أسباب الضعف:

ونستطيع أن نرجع أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة:

أولها: كثرة الوضع فى التفسير.

ثانيها: دخول الإسرائيليات فيه.

ثالثها: حذف الأسانيد.

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المجملة بالإيضاح والتفصيل، حتى يتبين لنا مقدار ما كان لكل منها من الأثر فى فقدان الثقة بكثير من الروايات المأثورة فى التفسير.

أولا: الوضع فى التفسير

نشأته ـ أسبابه ـ أثره ـ قيمة التفسير الموضوع

نشأة الوضع فى التفسير:

نشأ الوضع فى التفسير مع نشأته فى الحديث، لأنهما كانا أول الأمر مزيجًا لا يستقل أحدهما عن الآخر، فكما أننا نجد فى الحديث، الصحيح والحسن والضعيف، وفى رواته من هو موثوق به، ومن هو مشكوك فيه، ومن عُرف بالوضع، نجد مثل ذلك فيما روى من التفسير، ومن روى من المفسرين.

وكان مبدأ ظهور الوضع فى سنة إحدى وأربعين من الهجرة، حين اختلف المسلمون سياسيًا، وتفرقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور، ووجد من أهل البدع والأهواء من روجوا لبدعهم، وتعصبوا لأهوائهم، ودخل فى الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له، وتضليل أهله، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة، ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة، ورغباتهم الخبيثة.

أسبابه:

ويرجع الوضع فى التفسير إلى أسباب متعددة: منها التعصب المذهبى، فإن ما جد من افتراق الأمة إلى شيعة تطرفوا فى حب علىّ، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه

العداء، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهم شيء من ابتداع التشيع أو الخروج، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيد مذهبها بشيء من القرآن، فنسب الشيعة إلى النبي ﷺ، وإلى عليٍّ وغيره من أهل البيت - ﷺ - أقوالا كثيرة في التفسير تشهد لمذهبهم، كما وضع الخوارج كثيرًا من التفسير الذي يشهد لمذهبهم[1]، ونسبوه إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبي ﷺ أو إلى أحد أصحابه، الترويج للمروى، والإمعان في التدليس؛ فإن نسبة المروى إلى الرسول ﷺ أو إلى أحد الصحابة، تورث المروى ثقة وقبولا، لا يوجد شيء منهما عندما ينسب المروى لغير النبي ﷺ أو لغير صحابي.

كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثرًا بينًا في وضع التفسير، ويلاحظ أن المروى عن عليٍّ وابن عباس ﷺ قد جاوز حد الكثرة، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وضع عليهما في التفسير أكثر مما وضع على غيرهما؛ والسبب في ذلك أن عليا وابن عباس ﷺ من بيت النبوة، فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وقبولا، وتقديسًا ورواجا، مما لا يكون لشيء مما ينسب إلى غيرهما، وفوق هذا فقد كان لعلى من الشيعة ما ليس لغيره، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يعلى من قدره، ويرفع من شأنه، وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، فوجد من الناس من تزلف إليهم، وتقرب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثر ظاهر في وضع التفسير.

كذلك نجد من أسباب الوضع في التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام، من الكيد له ولأهله، فعمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة، أو عن طريق البرهان والحجة.

أثر الوضع في التفسير:

وكان من وراء هذه الكثرة التي دخلت في التفسير ودُسَّت عليه، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذي خلفه لنا أعلام المفسرين من السلف؛ لأن ما أحاط به من

(١) وسيأتي شيء من ذلك عند الكلام عن تفسير الشيعة والخوارج.

شكوك، أفقدنا الثقة به، وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شىء من الضعف، وربما كانت صحيحة فى ذاتها.

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها، جعل بعض من ينظر فيها وليس عند القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل، ينظر إلى جميع ما روى بعين واحدة، فيحكم على الجميع بالصحة، وربما وجد من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسر واحد فيتهمه بالتناقض فى قوله، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة.

يقول الأستاذ جولد زيهر فى كتابه (المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن) ص٧٨ - ٨٢ ما نصه: «وإنه لمما يلفت النظر فى هذا المحيط، هذه الظاهرة الغريبة، وهى أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو، وهى فى نفسها تظهر فى تضاد شديد بينها وبين بعضها، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق».

ثم يسوق بعد ذلك مثالا لهذا التضاد، فيذكر ما قام حول تعيين الذبيح من خلاف أسنده مشيروه إلى أقوال مأثورة عن السلف، ويذكر فى ضمن كلامه: «أن كل فريق يعتمد فى رأيه على إسناد متصل بابن عباس يدعم به رأيه، فالإسحاقيون عن عكرمة، والإسماعيليون عن الشعبى أو مجاهد، كل أولئك سمعوا ذلك عن ابن عباس، وكلٌّ ادعى بأن هذا هو رأيه فى هذه المسألة...».

ثم يقول بعد كلام ساقه فى هذا الموضوع: «ويمكن أن يرى من ذلك إلى أى حد يكون مقدار صحة الرأى المستند إلى ابن عباس، وإلى أى حد يمكن الاعتراف به، وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه، يمكن أن يعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائمًا إلى قائل واحد، معتمدة فى الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها...».

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما وقع فيه من اللعب والخداع: «ومن الملاحظات التى أبديناها، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة: وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحدة تامة أو كيانًا قائمًا؛ فإنه قد تروى عن الصحابة فى تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها

بعضًا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تنسب للصحابى الواحد فى معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة، وبناء على ذلك، يعتبر التفسير الذى يخالف بعضه بعضًا، والمناقض بعضه بعضًا، مساويًا للتفسير بالعلم...».

هذا ما حكم به الأستاذ جولد زيهر على التفسير بالمأثور فى كتابه، وكل ما قاله فى هذا الموضوع لا يعدو أن يكون محاولات فاشلة، يريد من ورائها أن يظهر أن ابن عباس خاصة، ومن تكلم فى التفسير من الصحابة عامة، بمظهر الشخص الذى يناقض نفسه فى الكلمة الواحدة أو الموضوع الواحد، كما يرمى من وراء ذلك إلى أن يصرف نظر المسلمين عن هذه الثروة الضخمة التى خلفها لهم السلف الصالح فى التفسير، زعما أن هذا التناقض الموجود بين الروايات، نتيجة لاختلاف وجهات النظر من شخص واحد أو أشخاص، وتفسير هذا شأنه نحن فى حل من التزامه، لأنهم قالوا بعقولهم، ونحن مشتركون معهم فى هذا القدر.

ونحن لا ننكر أن هناك اختلافًا بين السلف فى التفسير، كما لا ننكر أن هناك اختلافًا بين قولين أو أقوال لشخص واحد منهم، ولكن هذا الاختلاف قلنا عنه فيما سبق مفصلا: إن معظمه يرجع إلى اختلاف عبارة وتنوع، لا اختلاف تناقض وتضاد، فما كان من هذا القبيل، فالجمع بينه سهل ميسور، وما لم يمكن فيه الجمع فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا فى الصحة عنه، وإلا فالصحيح المقدم[(١)].

أما إذا تعارضت أقوال جماعة من الصحابة وتعذر الجمع أو الترجيح، فيقدم ابن عباس على غيره، لأن النبى ﷺ بشره بذلك حيث قال: «اللهم علمه التأويل» وقد رجح الشافعى قول زيد فى الفرائض لحديث: «أفرضكم زيد»[(٢)].

وأما ما ساقة على سبيل المثال من اختلاف الرواية عن ابن عباس فى تعيين الذبيح، فقد رجعت إلى ابن جرير فى تفسيره، فوجدته قد ذكر عن ابن عباس هاتين الروايتين المختلفتين، وساق كل رواية منها بأسانيد تتصعل إلى ابن عباس، بعضها يرفعه إلى الرسول ﷺ، وبعضها موقوف عليه.

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٧٩.
(٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

وابن جرير - كما نعلم - لم يلتزم الصحة فى كل ما يرويه، ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدثين فى نقد الرواية والترجيح، لتبين لنا بكل وضوح وجلاء، أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل، أصح من غيرها وأرجح مما يخالفها، لأنها مؤيدة بأدلة كثيرة يطول ذكرها، وأيضًا فإن الرواية التى يذكرها ابن جرير عن ابن عباس مرفوعة إلى رسول الله ﷺ ومفيدة أن الذبيح هو إسحاق، فى سندها الحسن بن دينار عن على بن زيد، والحسن بن دينار متروك، وعلى بن زيد منكر الحديث، كما ذكره الحافظ ابن كثير فى تفسيره[1].

أما باقى الروايات الموقوفة على ابن عباس، والتى تفيد أن الذبيح هو إسحاق، فهى - وإن كانت صحيحة الأسانيد - محمولة على أن ما تضمنته من أن الذبيح هو إسحاق، كان رأى ابن عباس فى أول الأمر، لأنه سع ذلك من بعض الصحابة الذين كانوا يحدثون فى مثل هذا بما سمعوه من كعب وغيره من مسلمى اليهود، ثم علم بعد أن ذلك قول اليهود فرجع عنه وصرح بنقيضه، كما قال ابن جرير: «حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمر بن قيس عن عطاء بن أبى رباح، عن عبد الله بن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود»[2]، وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس، إسناده على شرط الصحيح، وهو كما ترى صريح فى تكذيب اليهود فيما زعموه، وهو يقضى على كل أثر بخلافه، وبهذا الطريق تنتظم الآثار الواردة عن ابن عباس فى هذا الباب، قال ابن كثير فى تفسيره جـ٤ ص١٧ بعدما ساق الروايات فى أن الذبيح هو إسحاق: «وهذه الأقوال، والله أعلم، كلها مأخوذة عن كعب الأحبار؛ فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر ﷺ عن كتبه قديمًا فربما استمع له عمر ﷺ، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا ما عنده عنه، غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده». اهـ.

وأما ما رمى إليه من جعل التفسير المأثور مساويًا للتفسير بالعلم، وادعاؤه أنه لا توجد به وحدة تامة أو كيان قائم، فهذا شطط منه فى الرأى، ولا يكاد يسلم له هذا

---

(١) جـ٤ ص١٧. (٢) تفسير ابن جرير جـ٢٣ ص٥٣.

المدعى؛ لأن المأثور الذى صح عن النبى ﷺ له مكانته وقيمته؛ ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤) وأما ما صح عن الصحابة فغالبه مما تلقوه عن الرسول ﷺ، وقليل منه قالوه عن نظر منهم واجتهاد، وحتى هذا القليل ـ عند من لا يرى أنه له حكم المرفوع ـ له أيضًا قيمته ومكانته، ولا يجوز العدول عنه إذا صح إلى غيره؛ لأنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح.

وبعد... فهل يعد التفسير المأثور مساويًا للتفسير بالعلم؟ اللهم إن هذا لا يقوله منصف.

قيمة التفسير الموضوع:

ثم إن هذا التفسير الموضوع، لو نظرنا إليه من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية؛ لأنه مهما كثر الوضع فى التفسير فإن الوضع ينصب على الرواية نفسها، أما التفسير فى حد ذاته فليس دائمًا أمرًا خياليًا بعيدًا عن الآية، وإنما هو ـ فى كثير من الأحيان ـ نتيجة اجتهاد علمى له قيمته، فمثلا من يضع فى التفسير شيئًا وينسبه إلى على أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه، وإنما هو رأى له، واجتهاد منه فى تفسير الآية، بناه على تفكيره الشخصى، وكثيرًا ما يكون صحيحًا، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجًا وقبولا، فنسبه إلى من نسب إليه من الصحابة، ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى على أو ابن عباس لم يفقد شيئًا من قيمته العلمية غالبًا، وإنما الشىء الذى لا قيمة له فيه هو نسبته إلى على أو ابن عباس.

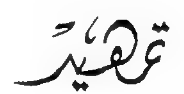
فالموضوع من التفسير ـ والحق يقال ـ لم يكن مجرد خيال أو وهم خلق خلقًا، بل له أساس ما، يهم الناظر فى التفسير درسه وبحثه، وله قيمته الذاتية وإن لم يكن له قيمته الإسنادية[1].

* * *

(١) انظر فجر الإسلام ص٢٥١؛ وضحى الإسلام جـ٢ ص١٤٣.

ثانيا: الإسرائيليات[(١)]

تمهيد: فى بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن ـ مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره ـ أثرها فى التفسير ـ قيمة المروى منها ـ موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات ـ أقطاب الروايات الإسرائيلية.



فى بيان المراد بالإسرائيليات
ومدى الصلة بينها وبين القرآن

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنَّا نريد به ما هو أوسع من ذلك وأشمل، فنريد به ما يعلم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية.

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى؛ فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه؛ وذلك لكثرة أهله، وظهور أمرهم، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه عن كثير من بلاد العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

كان لليهود ثقافة دينية، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك، وكلتا الثقافتين كان لها أثر فى التفسير إلى حد ما.

أما اليهود، فإن ثقافتهم تعتمد أول ما تعتمد على التوراة التى أشار إليها القرآن بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤) ودل على بعض ما جاء فيها من

---

(١) وقد أفردها الوالد ـ رحمه الله ـ ببحث مستقل مستفيض نشر ضمن مجموعة أبحاثه باسم الإسرائيليات فى التفسير والحديث، وهى مطبوعة فى دار الحديث (د. مصطفى الذهبى).

أحكام بقـوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: ٤٥).

وكثيراً ما يستعمل المسلمون واليهود أنفسهم لفظ التوراة ويطلقونه على كل الكتب المقدسة عند اليهود فيشمل الزبور وغيره، وتسمى التوراة بما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها: العهد القديم.

وكان لليـهود بجـانب التوراة سنن ونصـائح وشروح لم تؤخذ عن مـوسى بطريق الكتابة، وإنما تحـملوها ونقلوها بطريق المشافهة، ثـم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال، ثم دونت وعرفت باسم التلمود، ووُجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى، والقصص، والتاريخ، والتشريع، والأساطير.

وأما النصارى فكانت ثقافتهم تعتـمد ـ فى الغالب الأهم ـ على الإنجيل وقد أشار القرآن إلى أنه من كـتب السماء التى نزلت على الرسل فـقال: ﴿ ثُمَّ قَـفَّـيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ ﴾ (الحديد: ٢٧)وغير هذا كثير من آيات القرآن التى تشهد له بذلك.

والأناجيل المـعتـبرة عند النصارى يطلـق عليها وعلى مـا انضم إليهـا من رسائل الرسل، اسم: العـهـد الجـديد، والكتـاب المقـدس لدى النصـارى يشـمل: التـوراة والإنجيل، ويطلق عليه: العهد القديم والعهد الجديد.

وكان طبيعـيّاً أن يشرح الإنجيل بشروح مخـتلفة، كانت فيما بعـد منبعا من منابع الثقـافة النصرانيـة، كما وجـد بجوار ذلك مـا زاده النصارى من القصص، والأخـبار، والتعـاليم، التى زعموا أنهم تلقوها عن عـيسى عليه السـلام، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية.

إذًا فقد كانت التوراة المصدر الأول لثقافة اليهود الدينية، كما كان الإنجيل المصدر الأهم لثقافة النصارى الدينية.

وإذا نحن أجلنا النظر فى التـوراة والإنجيل نجد أنهمـا قد اشتمـلا على كثير مـما اشتمل عليه القـرآن الكريم، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبـياء، عليهم السلام، وذلك على اختلاف فى الإجمال والتفصيل، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء

- مثلا - فإنه ينحو ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل، فتراه يقتصر على مواضع العظة، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل، فلا يذكر تاريخ الوقائع، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها، كما أنه لا يذكر فى الغالب الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث، ويدخل فى تفاصيل الجزئيات، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع، وما يتعلق بموضع العبرة.

وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة، أو القرآن والإنجيل، ثم أخذنا موضوعًا منها، وقارنا بين ما جاء فى الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهرًا جليًا:

فمثلا قصة آدم عليه السلام، ورد ذكرها فى التوراة، كما وردت فى القرآن فى مواضع كثيرة، أطولها ما ورد فى سورة البقرة، وما ورد فى سورة الأعراف، وبالنظر فى هذه الآيات من السورتين، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة، ولا لنوع الشجرة التى نهى آدم وزوجه عن الأكل منها، ولا بين الحيوان الذى تقمصه الشيطان فدخل الجنة ليزل آدم وزوجه، كما لم يتعرض للبقعة التى هبط إليها آدم وزوجه وأقاما ابها بعد خروجهما من الجنة... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح.

ولكن نظرة واحدة يجيلها الإنسان فى التوراة يجد بعدها أنها قد تعرضت لكل ذلك وأكثر منه، فأبانت أن الجنة فى عدن شرقًا، وأن الشجرة التى نُهيا عنها كانت فى وسط الجنة، وأنها شجرة الحياة، وأنها شجرة معرفة الخير والشر، وأن الذى خاطب حواء هو الحية، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التى تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هى ونسلها فى حبلها... إلخ ما ذكر فيها مما يتعلق بهذه القصة (١).

ومثلا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت فى الإنجيل، فمن ذلك قصة عيسى ومريم، ومعجزات عيسى عليه السلام، كل ذلك جاء به القرآن فى أسلوب موجز، يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة، فلم يتعرض القرآن لنسب عيسى مفصلا، ولا لكيفية ولادته، ولا للمكان الذى وُلد فيه، ولا لذكر الشخص الذى

(١) العهد القديم، الإصحاح الأول من سفر التكوين ص٤، ٥.

قُذفت به مريم، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء، ولا لحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

مع أننا لو نظرنا فى الإنجيل لوجدناه قد تعرض لنسب عيسى، ولكيفية ولادة مريم له، ولذكر الشخص الذى قذفت به مريم[١]، ولنوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء[٢] ولحوادث جزئية من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى[٣]، ولكثير من مثل هذا التفصيل الموسع الذى أعرض عنه القرآن فلم يذكره لنا.

وبعد... فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز فى كتابهم، ويجدون بجانب ذلك تفصيلا لهذا الإيجاز فى كتب الديانات الأخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر ما يرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض؟... هذا ما نريد أن نعرض له فى هذا البحث، ليتبين لنا كيف دخلت الإسرائيليات فى التفسير، وكيف تطور هذا الدخول، وإلى أى حد تأثر التفسير بالتعاليم اليهودية والنصرانية.

مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره:

نستطيع أن نقول: إن دخول الإسرائيات فى التفسير، أمر يرجع إلى عهد الصحابة ﵃، وذلك نظرًا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى ذكر بعض المسائل، كما تقدم، مع فارق واحد؛ هو الإيجاز فى القرآن، والبسط والإطناب فى التوراة والإنجيل، وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب، كان مصدرًا من مصادر التفسير عند الصحابة، فكان الصحابى إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلا إلى أن يسأل عن بعض ما طواه القرآن منها ولم يتعرض له، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الإسلام، وحملوا إلى أهله ما معهم من ثقافة دينية، فألقوا إليهم ما ألقوا من الأخبار والقصص الدينى.

غير أن الصحابة ـ ﵃ ـ لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شىء، ولم يقبلوا منهم كل شىء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدو أن تكون توضيحًا للقصة وبيانًا لما

---

(١) العهد الجديد إنجيل متى، الإصحاح الأول ص١.
(٢) العهد الجديد، انجيل مرقص؛ الإصحاح الثانى ص٤٧.
(٣) إنجيل متى ص٨، ١٠، ٤٠.

أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يلقى إليهم، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب ما دام يحتمل كلا الأمرين، امتثالا لقول الرسول ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا. . . الآية»(١) .

كما أنهم لم يسألوهم عن شيء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن، كذلك كانوا لا يعدلون عما ثبت عن الرسول ﷺ من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب، لأنه إذا ثبت الشيء عن الرسول ﷺ فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره، كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه أن يكون السؤال عنها نوعًا من اللهو والعبث، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف، والبعض الذى ضُرب به القتيل من البقرة، ومقدار سفينة نوح، ونوع خشبها، واسم الغلام الذى قتله الخضر. . . وغير ذلك، ولهذا قال الدهلوى بعد أن بيَّن أن السؤال عن مثل هذا تكلف ما لا يعنى: «وكانت الصحابة ﷺ يعدون مثل ذلك قبيحًا من قبيل تضييع الأوقات»(٢) .

كذلك كان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة أو يتنافى مع العقيدة، بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شيء فأجابوا عنه خطأ، ردوا عليهم خطأهم، وبيَّنوا لهم وجه الصواب فيه، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئًا إلا أعطاه إياه، وأشار بيده يقللها»(٣) .

فقد اختلف السلف فى تعيين هذه الساعة، وهل هى باقية أو رُفعت؟ وإذا كانت باقية، فهل هى فى جمعة واحدة من السنة أو فى كل جمعة منها؟ فنجد أبا هريرة ﷺ يسأل كعب الأحبار عن ذلك، فيجيبه كعب: بأنها فى جمعة واحدة من السنة، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا ويبين له: أنها فى كل جمعة، فيرجع كعب إلى التوراة، فيرى الصواب مع أبى هريرة فيرجع إليه(٤) ، كما نجد أبا هريرة أيضا يسأل عبد الله بن سلام

(١) البخارى فى كتاب التفسير جـ٨ ص١٢٠ من فتح البارى.
(٢) الفوز الكبير فى أصول التفسير ص٣٥.
(٣) البخارى فى باب الجمعة جـ٢ ص١٣ .
(٤) القسطلانى فى شرحه للحديث السابق جـ٢ ص١٩٠ .

عن تحديد هذه الساعة ويقول له: أخبرنى ولا تضن علىَّ، فيجيبه عبد الله بن سلام بأنها آخر ساعة فى يوم الجمعة، فيرد عليه أبو هريرة بقوله: كيف تكون آخر ساعة فى يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ «لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى» وتلك الساعة لا يصلى فيها؟ فيجيبه عبد الله بن سلام بقوله: ألم يقل رسول الله ﷺ: من جلس مجلسًا ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يصلى؟... الحديث[(١)].

فمثل هذه المراجعة التى كانت بين أبى هريرة وكعب تارة، وبينه وبين ابن سلام تارة أخرى، تدلنا على أن الصحابة كانوا لا يقبلون كل ما يقال لهم، بل كانوا يتحرون الصواب ما استطاعوا، ويردون على أهل الكتاب أقوالهم إن كانت لا توافق وجه الصواب.

ومهما يكن من شىء فإن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يخرجوا عن دائرة الجواز التى حدها لهم رسول الله ﷺ وعما فهموه من الإباحة فى قوله ﷺ: «بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[(٢)].

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا... الآية»[(٣)] ولا تعارض بين هذين الحديثين، لأن الأول أباح لهم أن يحدثوا عما وقع لبنى إسرائيل من الأعاجيب، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوبًا، لأن الرسول ﷺ لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح[(٤)] عند شرحه لهذا الحديث: «وقال الشافعى: من المعلوم أن النبى ﷺ لا يجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حدثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوزونه فلا حرج عليكم فى التحدث به عنهم، وهو

---

(١) المرجع السابق؛ وسؤال أبى هريرة لابن سلام؛ عند مالك؛ وأبى داود؛ والترمذى.
(٢) البخارى جـ٦ ص٣٢٩ من فتح البارى.
(٣) البخارى فى باب التفسير جـ٨ ص١٢٠ من فتح البارى.
(٤) جـ٦ ص٣٢٠.

نظير قـوله: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصـدقوهم ولا تكذبوهم» ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه». اهـ.

وأما الحديث الثـانى، فيراد منه التوقف فـيما يحدث به أهل الكتـاب، مما يكون محتملا للصدق والكذب، لأنه ربما كان صدقًا فـيكذبونه، أو كذبًا فيصدقونه، فيقعون بذلك فى الحرج، أما ما خالف شرعنا فنحـن فى حل من تكذيبه، وأما ما وافقه فنحن فى حل من تصديقه.

قال الحـافظ ابن حجر عند شـرحه لهذا الـحديث: «لا تصدقـوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» أى إذا كـان ما يخـبرونكم به مـحتمـلا، لئلا يكـون فى نفس الأمر صـدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه، فتـقعوا فى الحرج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوقاته، نبه على ذلك الشافعى رحمه الله «... ثم قال: وعلى هذا نحمل ما جاء عن السلف من ذلك»[(١)].

وأما ما أخرجـه الإمام أحمد، وابن أبى شيبة، والبزار، من حـديث جابر بن عبد الله «أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصـابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه فغضب فقال: «أمتهوكون[(٢)] فيها يا بن الخطاب؟ والذى نفسى بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقيـة، لا تسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو ببـاطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده، لو أن موسى ﷺ كان حيّا ما وسعه إلا أن يتبعنى»[(٣)]، فـلا يعارض ما قلناه من الجـواز، لأن النهى الوارد هنا كان فى مبدأ الإسلام وقبـل استقرار الأحكام، والإباحة بـعد أن عرفت الأحكام واسـتقرت، وذهـب خوف الاختـلاط قال الحافظ ابن حجـر فى الفتح[(٤)]: «وكأن النهى وقبع قبل استـقرار الأحكام الإسلامية، والقواعـد الدينية خشيـة الفتنة، لما زال المـحذور وقع الإذن فى ذلك، لما فى سـماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار». اهـ.

ويمكن أن ندفع ما يـتوهم من التعـارض بما نقله ابن بطال عن المـهلب أنه قال: «هذا النهى إنمـا هو فى سؤالهم عمـا لا نص فيه، لأن شـرعنا مكتفٍ بنفسـه، فإذا لم

---

(١) فتح البارى جـ٨ ص١٢٠.

(٢) المتهوك، المتحير.

(٣) مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٣٨٧.

(٤) جـ٦ ص٣٢٠.

يوجد فيه نص ففى النظر والاستدلال غِنًى عن سؤالهم، ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا، والأخبار عن الأمم السالفة»[١].

ومن هذا كله يتبين لنا: أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث الثلاثة، كما يتبين لنا المقدار الذى أباحه الشارع من الرواية عن أهل الكتاب.

ولسنا بعد ما فهمناه من هذه الأحاديث، وما عرفناه من حرص الصحابة على امتثال ما أمرهم به الرسول ﷺ، نستطيع أن نقر الأستاذ جولد زيهر والأستاذ أحمد أمين على هذا الاتهام الذى وجهاه إلى ابن عباس خاصة، وإلى الصحابة عامة، من رجوعهم إلى الكتاب فى كل شىء، وقبولهم لما نهى الرسول عن أخذه من أهل الكتاب، وقد ذكرنا كلامهما ورددنا عليه عند الكلام عن ابن عباس، كما ذكرنا الأثر الذى أخرجه البخارى عن ابن عباس، وفيه يشدد - رضي الله عنه - النكير على من يأخذون من أهل الكتاب ويصدقونهم فى كل شىء، فهل يعقل بعد هذا، وبعد ما عرفناه من عدالة الصحابة وحرصهم على امتثال أوامر الله ورسوله، ومراجعة أبى هريرة لكعب الأحبار وعبد الله بن سلام، أن نعترف بتهاون الصحابة ومخالفتهم لتعاليم رسول الله ﷺ!!؟ اللهم إنا لا نقر ذلك ولا نرضاه.

وأما ما ذكره الأستاذ جولد زيهر: من أن ابن عباس كان يرجع لرجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى فى تفسير القرآن[٢]، فعلى فرض صحة ذلك، فإنَّا لا نكاد نصدق أن ابن عباس كان يرجع إليه فى كل شىء، بل كان يرجع إليه فيسأله عن أشياء لا تعدو دائرة الجواز، وليس من شك فى ذلك بعد ما عرفت من شدة نكير ابن عباس على من كان يرجع لأهل الكتاب ويأخذ عنهم.

وأما ما اعتمد عليه هذا المستشرق فى دعواه هذه، من أن الطبرى عند تفسيره للفظ البرق فى قوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة الرعد: ﴿**هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ نسب إلى ابن عباس أنه قال: إن أبا الجلد يقول: إن معناه المطر[٣] فهو

---

(١) فتح البارى جـ١٣ ص٢٥٩.

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٦٥.

(٣) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٦٥ (هامش).

اعتماد لا يكاد ينهض بهذه الدعوى: لأن ما رواه ابن جرير رواه عن المثنى، قال: حدثنا حجاج، قال: حدثنا حماد، قال، أخبرنا موسى بن سالم أبو جهضم مولى ابن عباس قال: كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن البرق فقال: البرق: الماء[١]... وهذا إسناد منقطع، لأن موسى بن سالم أبا جهضم لم يدرك ابن عباس، ولم يكن مولىً له، وإنما كان مولى العباسيين، وروى عن أبى جعفر الباقر الذى كان بعد ابن عباس بمدة طويلة[٢] ولعل ما قاله ابن جرير من أنه مولى ابن عباس سهو منه، أو لعله خطأ وقع أثناء الطبع.

ثم إن سؤال ابن عباس عن معنى البرق، ليس سؤالا عن أمر يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، وإنما هو سؤال يرجع إلى تعرف بعض ظواهر الكون الطبيعية، وليس فى هذا ما يجر إلى مخالفة الرسول ﷺ فى نهيه عن سؤال أهل الكتاب، على أن الحديث ليس فيه ما يدل على أن ابن عباس صدق أبا الجلد فيما قال، وكل ما فيه: أنه حكى قوله فى البرق.

وأما ما نسب لعبد الله بن عمرو بن العاص من أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يحدث منهما، فليس على إطلاقه، بل كان يحدث منهما فى حدود ما فهمه من الإذن فى قوله ﷺ: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» كما نص على ذلك ابن تيمية[٣].

هذ هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم، أما التابعون فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية، فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى؛ فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض، ومن

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٢ ص٨٢.
(٢) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص٣٣٤؛ وميزان الاعتدال جـ٣ ص٢١٠.
(٣) مقدمته فى أصول التفسير ص٢٦.

هؤلاء: مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ الذى نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما فى كتبهم[١]، بل ونجد بعض المفسرين فى هذا العصر - عصر التابعين - يصل بهم الأمر إلى أن يصلوا بين القرآن وما يتعلق بالإسلام فى مستقبله، فيشرحوا القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل، والتنبؤ بما يطويه الغيب، فهذا مقاتل بن سليمان، كان يرى أن قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾ (**الإسراء: ٥٨**) يرجع إلى فتح القسطنطينية، وتدمير الأندلس وغيرها من البلاد، فقد جاء عنه أنه قال: وجدت فى كتاب الضحاك بن مزاحم فى تفسيرها «أما مكة فتخربها الحبشة، وتهلك المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالترك، والجبال بالصواعق والرواجف، وأما خراسان فهلاكها ضروب... ثم ذكر بلداً بلداً»[٢]، وروى عن وهب بن منبه: أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر، ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة، فإذا كانت الملحمة الكبرى، فتحت قسطنطينية على يد رجل من بنى هاشم، وخراب الأندلس من قبل الزنج، وخراب أفريقية من قبل الأندلس، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها، وخراب العراق من الجوع، وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم من الشراب من الفرات، وخراب البصرة من قبل العراق [الغرق] وخراب الأيلة من عدو يحصرهم براً وبحراً، وخراب الرى من الديلم، وخراب خراسان من قبل التبت، وخراب التبت من قبل الصين، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان، وخراب مكة من الحبشة، وخراب المدينة من قبل الجوع». اهـ[٣].

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات، وأفرط فى الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا، ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى

(١) وفيات الأعيان جـ٢ ص٥٦٨.
(٢) تفسير الآلوسى جـ١٥ ص٩٣.
(٣) المرجع السابق.

لهم وإن كان لا يتصوره العقل!! واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات، والولع بنقل هذه الأخبار التى أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلى، الذى كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها.

مقالة ابن خلدون فى الإسرائيليات:

ونرى بعد هذا أن نذكر عبارة ابن خلدون فى مقدمته، ليتبين لنا أسباب الاستكثار من هذه المرويات الإسرائيلية، وكيف تسربت إلى المسلمين، فإنه خير من كتب فى هذا الموضوع، وإليك نص عبارته:

قال رحمه الله: «... وقد جمع المتقدمون فى ذلك ـ يعنى التفسير النقلى ـ وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين، والمقبول والمردود، والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير، الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك وهؤلاء مثل: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل، وتساهل المفسرون فى مثل ذلك، وملئوا الكتب بهذه المنقولات، وأصلها ـ كما قلنا ـ عن أهل التوراة اللذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعد صيتهم، وعظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ...»[١].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩٠، ٤٩١.

ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم.

وعد من الاعتبارات الدينية التى سوغت لهم تلقى المرويات فى تساهل وعدم تحرٍّ للصحة «أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل، وسواء أكانت هذه هى كل الأسباب أم كانت هناك أسباب أخرى، فإن كثيراً من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر، حتى أصبح ما فيها مزيجا متنوعا من مخلفات الأديان المختلفة، والمذاهب المتباينة.

أثر الإسرائيليات فى التفسير:

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيئ فى التفسير، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة، بل زادولى ذلك فرووا كل ما قيل لهم إن صدقا وإن كذبا، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئًا مما جاء فيها، لاعتقاده أن الكل من واد واحد، وفى الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب ما رووه من قصص مكذوب وأخبار لا تصح، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لا يكاد يصح شىء منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة، وسوف نعرض لهذا فيما بعد، ونرد عليه إن شاء الله تعالى.

قيمة ما يروى من الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية، إلى أقسام ثلاثة، وهى ما يأتى:

القسم الأول: ما يعلم صحته بأن نقل عن النبى ﷺ نقلا صحيحًا، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحًا على

لسان رسول الله ﷺ كما عند البخارى[1]، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده، وهذا القسم صحيح مقبول.

القسم الثانى: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته؛ لما تقدم من قوله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا. . . الآية».

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر دينى؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا اختلافا كثيرًا، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى. . . إلى غير ذلك مما أبهمه الله فى القرآن ولا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شىء من هذا القبيل ـ أعنى ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده ـ عن أحد من الصحابة[2] بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد؛ لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعد ما علم من نهى رسول الله ﷺ عن تصديقهم، وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله؛ لأن احتمال أن يكون الصحابى قد سمعه من النبى ﷺ ، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعد ما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلا بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

أما إن جاء شىء من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا بكذب؛ وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب؛ لما عرفوا به من كثرة

---

(١) باب التفسير جـ٨ ص٢٩٧ من فتح البارى.

(٢) ومرادنا من الصحابى، الصحابى الذى لم يكن قبل إسلامه من أهل الكتاب.

الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله ﷺ، وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه، فإن يكون أبعد من أن يكون مسموعًا من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به، والله أعلم(١).

موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات:

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرها، كما علمنا أن قوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» قاعدة مقررة لا يصح العدول عنها بأى حال من الأحوال، وبعد هذا وذاك نقول: إنه يجب على المفسر أن يكون يقظًا إلى أبعد حدود اليقظة، ناقدًا إلى نهاية ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سنة نبينا ﷺ بيان لمجمل القرآن، فمثلا حيث وجد لقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ**﴾ (ص: ٣٤) مجمل فى السنة النبوية الصحيحة، وهو قصة ترك (إن شاء الله) والمؤاخذة عليه(٢) فلا يرتكب قصة صخر المارد(٣).

---

(١) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص١٣، ١٤ وص٢٦، ٢٧.

(٢) القصة عند البخارى فى باب الجهاد جـ٤ ص٢٢ عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين، كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، والذى نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون» اهـ.

(٣) هذه القصة رواها ابن جرير فى تفسيره عن قتادة ونصها: أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس فقيل له: ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه، فقيل له: إن شيطانًا فى البحر يقال له صخر شبه المارد، قال: فطلبه، وكانت عين فى البحر يردها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها، وجعل فيها خمر، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا، قال: ثم رجع حتى عطش عطشًا شديدًا، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلا، قال: ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل، قال: فكان =

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدر بقدر الحاجة، فلا يذكر فى تفسيره شيئًا من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال؛ ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة.

نعم إذا اختلف المتقدمون فى شىء من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعًا، على أن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وليس له أن يحكى الخلاف ويطلقه، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال؛ لأن مثل هذا العمل يعد ناقصًا لا فائدة فيه ما دام قد خلط الصحيح بالعليل، ووضع أمام القارئ من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب.

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات وأن يمسك عما لا طائل تحته مما يعد صارفًا عن القرآن، وشاغلا عن التدبر فى حكمه وأحكامه، وبدهى أن هذا أحكم وأسلم.

هذا، وقد يشير إلى ما قلناه من جواز نقل الخلاف عن المتقدمين على شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها وتصحيح الصحيح، وأن من الخير أن يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته، ما جاء فى الآية (٢٢) من سورة الكهف من

= ملكه فى خاتمه، فأُتى به سليمان فقال: إنا قد أُمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد، قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه، فجاء بالماس فوضعه عليه فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه، فأخذ الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة، فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخله بخاتمه، فانطلق يومًا إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه، قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونُزع ملك سليمان منه، وأُلقى على الشيطان شبه سليمان، قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسُلط على ملك سليمان كله، غير نسائه، قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد فتن نبى الله، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة، فقال: والله لأجربنه، قال: فقال له: يا نبى الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبى الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة فيدع الغسل عمدًا حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأسًا؟ قال: لا، فبينا هو كذلك أربعين ليلة، حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة فأقبل، فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ قال: هو الشيطان صخر». اهـ. جـ٢٣ ص١٠١.

قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فقد اشتملت هذه الآية الكريمة ـ كما يقول ابن تيمية ـ على الأدب فى هذا المقام، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين، وسكت عن الثالث، فدل على صحته، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فيقال فى مثل هذا: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فلهذا قال: ﴿ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك؛ فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب(١).

* * *

أقطاب الروايات الإسرائيلية

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور، فلا يلبث أن يلحظ أن غالب ما يرى فيها من إسرائيليات، يكاد يدور على أربعة أشخاص، هم: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، ووهب ابن منبه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس فى الحكم عليهم والثقة بهم، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت فى الرواية، ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم؛ لأكشف عن قيمته فى باب الرواية، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير، لنرى أى الفريقين أصدق فى حكمه، وأدق فى نقده:

* * *

١- عبد الله بن سلام

ترجمته:

هو: أبو يوسف، عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى الأنصارى، حليف بنى عوف من الخزرج، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة، ويحدثنا البخارى عن قصة إسلامه فيقول فى ضمن حديث ساقه

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٧.

فى باب الهجرة، «. . . فلما جاء نبى الله ﷺ، جاء عبد الله بن سلام فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فىَّ ما ليس فىَّ، فأرسل نبى الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: يا معشر اليهود، ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقًا، وأنى جئتكم بحق فأسلموا، قالوا: ما نعلمه، قالوا: للنبى ﷺ، قالها ثلاث مرات قال: فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟ قالوا: ذلك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، فال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله ما كان ليسلم، قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، قال: يا ابن سلام، أخرج عليهم، فخرج، فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»[(١)].

قيل: وكان اسمه الحصين، فسماه النبى ﷺ عبد الله، وشهد له بالجنة، ونجد البخارى ﷺ ـ عند الكلام عن مناقب الأنصار ـ يفرد لعبد الله بن سلام بابًا مستقلا فى مناقبه، فروى فيما روى من ذلك بإسناده إلى سعد بن أبى وقاص أنه قال: ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، وقال: فيه نزلت هذه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ (الأحقاف: ١٠) الآية[(٢)].

ومما يذكر عنه ـ رحمه الله: أنه وقف خطيبًا فى المتألبين على عثمان ﷺ يدافع عنه، ويخذل الثائرين، فقد روى عبد الملك بن عمير عن ابن أخى عبد الله بن سلام، قال: «لما أريد قتل عثمان ﷺ، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت فى نصرك، قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عنى، فإنك خارج خير لى منك داخل، فخرج عبد الله إلى الناس فقال: يا أيها الناس، إنه كان اسمى فى الجاهلية: فلانًا، فسمانى رسول الله ﷺ عبد الله، ونزلت فىَّ آيات من كتاب الله عز وجل، نزل فىَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ ونزل فىَّ:

---

(١) البخارى فى باب الهجرة جـ٥ ص٦٣. (٢) البخارى جـ٥ ص٣٧.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣) إن لله سيفًا مغمودًا، وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله ﷺ، فاللهَ اللهَ فى هذا الرجل أن تقتلوه، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم من الملائكة وليسلن سيف الله المغمود فيكم فلا يغمد إلى يوم القيامة، قالوا: اقتلوا اليهودى... وقتلوا عثمان..».

روى عن النبى ﷺ، وروى عنه ابناه: يوسف ومحمد، وعوف بن مالك، وأبو هريرة، وأبو بردة بن أبى موسى، وعطاء بن يسار، وغيرهم، وشهد مع عمر رضي الله عنه فتح بيت المقدس والجابية، ومات بالمدينة سنة ٤٣هـ ثلاث وأربعين من الهجرة، وقيل غير ذلك، وقد عده بعضهم فى البدريين، أما ابن سعد فذكره فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق وما بعدها.

مبلغه من العلم والعدالة:

أما مبلغه من العلم، فيكفى ما جاء فى حديث البخارى السابق من إخباره عن نفسه: أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم، وإقرار اليهود بين يدى رسول الله ﷺ بذلك، والحق أنه اشتهر بين الصحابة بالعلم، حتى لقد روى أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له: يا أبا عبد الرحمن أوصنا، فقال: أجلسونى... قال: إن العلم والإيمان عند أربعة رهط: عند عويمر أبى الدرداء، وعند سلمان الفارسى، وعند عبد الله بن مسعود، وعند عبد الله بن سلام الذى كان يهوديًا فأسلم، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه عاشر عشرة فى الجنة» اهـ.

وليس عجيبًا أن يكون عبد الله بن سلام فى هذه المكانة العالية من العلم بعد أن اجتمع لديه علم التوراة وعلم القرآن، وبعد أن امتزجت فيه الثقافتان اليهودية والإسلامية، ولقد نقل عنه المسلمون كثيرًا مما يدل على علمه بالتوراة وما حولها، ونجد ابن جرير الطبرى ينسب إليه فى تاريخه كثيرًا من الأقوال فى المسائل التاريخية الدينية، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية، يرويها كثير من المفسرين فى كتبهم.

ونحن أمام ما يروى عنه من ذلك لا نزيف كل ما قيل، ولا نقبل كل ما قيل، بل

علينا أن نعرض كل ما يروى عنه على مقياس الصحة المعتبر فى باب الرواية، فما صح قبلناه، وما لم يصح رفضناه.

هذا، وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل فى علمه، ولا فى ثقته وعدالته، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم، وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن، وبعد أن اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التى بين أيدينا من طعن عليه فى علمه، أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأحبار، ووهب بن منبه(١).

* * *

٢- كعب الأحبار

ترجمته:

هو أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميرى، المعروف بكعب الأحبار، من آل ذى رعين، وقيل من ذى الكلاع، وأصله من يهود اليمن، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم فى خلافة أبى بكر، وقيل: فى خلافة عمر، وقيل: إنه أسلم فى عهد النبى ﷺ وتأخرت هجرته، وقال ابن حجر فى الفتح: إن إسلامه فى خلافة عمن أشهر، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا الروم فى خلافة عمر، ثم تحول فى خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢هـ اثنتين وثلاثين من الهجرة على أرجح الأقوال فى ذلك، وذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام وقال: كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفى بها سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان، وقد بلغ مائة وأربعين سنة، وقال أبو مسهر: والذى حدثنى به غير واحد: أنه كان مسكنه اليمن، فقدم على أبى بكر، ثم أتى الشام فمات به، روى عن رسول الله ﷺ مرسلا، وعن عمر، وصهيب، وعائشة، وروى عنه معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم.

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٥ ص٢٤٩، وأسد الغابة جـ٣ ص١٧٦، ١٧٧.

مبلغـــــه من العلـــم:

كان كعب بن ماتع على مبلغ عظيم من العلم؛ ولهـذا كان يقال له: كعب الحبر، وكعب الأحبار، ولقد نقل عنه فى التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية، ولم يؤثر عنه أنه ألف كما ألف وهب بن منبه، بل كانت تعاليمه كلها ـ على ما يظهر لنا وما وصل إلينا ـ شفوية تناقلها عنه أصحابه ومن أخذوا عنه، وقد جاء فى الطبقات الكبرى حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن قيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ[١]، وهذا يدلنا على أن كعبًا كان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية، وقال ابن سعد: قالوا: ذكر أبو الدرداء كعبًا فقال: إن عند ابن الحميرى لعلمًا كثيرًا، وروى معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير أنه قال: قال معاوية: ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إن عمرو بن العاص أحد الحكماء، ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده علم كالثمار وإن كنا لمفرطين، وفى تاريخ محمد بن عثمان بن أبى شيبة، من طريق ابن أبى ذئب، أن عبد الله بن الزبير قال: ما أصبت فى سلطانى شيئًا إلا قد أخبرنى به كعب قبل أن يقع[٢].

ثقتـــه وعدالتـــه:

أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس، فابن عباس على جلالة قدره، وأبو هريرة على مبلغ علمه، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويروون له، ونرى الإمام مسلمًا يخرج له فى صحيحه، فقد وقعت الرواية عنه فى مواضع من صحيحه فى أواخر كتاب الإيمان، كما نرى أبا داود والترمذى والنسائى يخرجون له، وهذا دليل على أن كعبًا كان ثقة عند هؤلاء جميعًا، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل.

---

(١) فجر الإسلام ص١٩٨ نقلا عن طبقات ابن سعد مجلد ٧ ص٧٩.

(٢) انظر تهذيب التهذيب جـ٨ ص٤٣٨ - ٤٤٠.

اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب:

ولكنا نجد الأستاذ أحمد أمين ـ رحمه الله ـ يحاول أن يغض من ثقة كعب وعدالته، بل ودينه، فنراه يوجه إليه من التهم ما نعيذ كعبًا من أن يلحقه شيء منها، وذلك حيث يقول: «وقد لاحظ بعض الباحثين، أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووى لا يروى عنه أبدًا، وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلا، ولكن غيرهم كالثعلبى، والكسائى ينقل عنه كثيرًا فى قصص الأنبياء، كقصة يوسف والوليد بن الريان، وأشباه ذلك، ويروى ابن جرير أنه جاء إلى عمر بن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له: اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب الله عز وجل... فى التوراة، قال عمر: إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة! قال: اللهم لا، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك» ثم قال الأستاذ أحمد أمين: «وهذه القصة إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية، كما تدلنا على مقدار اختلافه فيما ينقل» ثم قال: «وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم ـ يريد كعبًا ووهبًا وغيرهما من أهل الكتاب ـ فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح». اهـ[(١)].

تفنيد هذا الاتهام:

ونحن مع الأستاذ فى قوله: «وهذه القصة، إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية» ولكن لسنا نعتقد صحة هذه القصة، ورواية ابن جرير لها لا تدل على صحتها، لأن ابن جرير ـ كما هو معروف عنه ـ لم يلتزم الصحة فى كل ما يرويه، والذى ينظر فى تفسيره يجد فيه مما لا يصح شيئًا كثيرًا، كما أن ما يرويه فى تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التى تحتمل الصدق والكذب، ولم يقل أحد بأن كل ما يذكر فى كتب التاريخ ثابت صحيح.

ثم إن ما يعرف عن كعب الأحبار من دينه، وخلقه، وأمانته، وتوثيق أكثر أصحاب الصحاح له، يجعلنا نحكم بأن هذه القصة موضوعة عليه، ونحن ننزه كعبًا عن أن

---

(١) فجر الإسلام ص١٩٨.

يكون على علم بمكيدة قتل عمر وما دبر من أمرها، ثم لا يذكر لعمر من يدبر له القتل ويكيد له، كما ننزهه عن أن يكون كذابًا وضاعًا، يحتال على تأكيد ما يخبر به بنسبته إلى التوراة وصوغه فى قالب إسرائيلى.

وأما قوله: «وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح» فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السيئ إلى كعب وأضرابه فنحن لا نوافقه عليه؛ لأن ما يرويه كعب وغيره من أهل الكتاب لم يسندوه إلى رسول الله ﷺ، ولم يكذبوا فيه على أحد من المسلمين، وإنما كانوا يروونه على أنه من الإسرائيليات الموجودة فى كتبهم، ولسنا مكلفين بتصديق شىء من ذلك، ولا مطالبين بالإيمان به، بعد ما قال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم».

وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب وغيره، قد أثرت فى عقيدة المسلمين وعلمهم أثرًا غير صالح، فليس ذنب هذا راجعًا إلى كعب وأضرابه، لأنهم رووه على أنه مما فى كتبهم، ولم يشرحوا به القرآن ـ اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له ـ ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات فربطوا بينها وبينه على ما بينهما من بعد شاسع، بل وزادوا على ذلك ما نسجوه من قصص خرافية، نسبوها لهؤلاء الأعلام، ترويجا لها وتمويها على العامة.

فالذنب إذًا ذنب المتأخرين الذين ربطوا هذا الإسرائيليات بالقرآن وشرحوه على ضوئها، واخترعوا من الأساطير ما نسبوه زورًا وبهتانًا إلى هؤلاء الأعلام وهم منه براء.

اتهام الشيخ رشيد رضا لكعب:

كذلك نجد السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ فى مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلامًا لابن تيمية فى شأن ما يروى من الإسرائيليات عن كعب ووهب يقول ما نصه: «فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق ـ يريد ابن تيمية ـ جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه، وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما، فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب

ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله؟». اهـ[١].

تفنيد هذا الاتهام:

ونحن لا ننكر ما ذهب إليه ابن تيمية فى مقدمة أصول التفسير التى اعتمد عليها الشيخ فيما نقل عنه، ولكن ننكر على الشيخ فهمه لعبارة ابن تيمية، وذلك أنه ادعى أن ابن تيمية جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات، وهذا فى غير ما يقوم الدليل على بطلانه فى نفسه، يعنى أنه لا يتوقف فيه بل يرفض رفضًا باتًا.

وعبارة ابن تيمية التى ذكرها الشيخ لا تفيد ذلك الذى قاله، وإنما تفيد أن ما جاء عن رواة الإسرائيليات يتوقف فيه إذا كان مما هو مسكوت عنه فى شرعنا ولم يقم دليل على بطلانه، أما ما روى عنهم موافقًا لما جاء فى شرعنا فهذا صحيح مقبول بدون توقف، كما نص عليه ابن تيمية فى ص٢٦، ٢٧ من مقدمة فى أصول التفسير، وهو عين ما عناه بعبارته الموجودة فى ص١٣، ١٤ وهى التى اعتمد عليها السيد محمد رشيد فى طعنه على كعب وغيره.

كما أننا لا نقر الشيخ على هذا الاتهام البليغ لكعب ووهب، ولا على رميهما بالكذب، ولا على ادعاء عزوهما إلى التوراة وغيرها ما ليس فيها، كما أنَّا لا نقره على اتهامه لعلماء الجرح والتعديل الذين طهروا لنا السنة، وأزاحوا عنها ما لصق بها من الموضوعات، وبينوا لنا الصحيح والعليل منها، والعدل والمجروح من رواتها، حيث رماهم بالغفلة والاغترار، وهم أهل هذا الفن الذى لا يصلح له إلا قليل من الناس، ولا ندرى ما هذا الكذب الذى تبين له من كعب ووهب وخفى على ابن تيمية وهو من نعلم علمًا ومعرفة، وليت الشيخ ـ رحمه الله ـ بيَّن لنا ما يستند إليه فى دعواه، ولا أظن إلا أنه استند إلى ما جاء عن معاوية ﷺ عند البخارى فى شأن كعب، وهذا نصه كما فى صحيح البخارى:

«قال أبو اليمان: أخبرنا شعيب عن الزهرى: أخبرنى حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال: إن كان من

(١) تفسير المنار جـ١ ص٩.

أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب»[١].

نعم أظن أن الشيخ ـ رحمه الله ـ اتهم كعبًا وأضرابه بالكذب استنادًا لهذا الأثر المروى عن معاوية، والذى رجح لدى هذا الظن ما قاله الشيخ بعد كلامه السابق بقليل «وقد علم أن بعض الصحابة رووا عن أهل الكتاب حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال: «إن كنا لنبلو عليه الكذب» ومنهم أبو هريرة وابن عباس». اهـ[٢].

وأرى أن الشيخ قد فند قول نفسه بنفسه حيث أثبت ـ كما هو الواقع ـ أن أبا هريرة وابن عباس وغيرهما من الصحابة أخذوا عن كعب، وهل يعقل أن صحابيًا يأخذ علمه عن كذاب وضاع، بعد ما عرف عن الصحابة من العدالة والتثبت فى تحمل الأخبار، خصوصًا ابن عباس الذى كان يتشدد فى الرواية ويتأكد من صحة ما يروى له؟!.

نعم، إن حديث البخارى الذى رواه عن معاوية، يشعر لأول وهلة بنسبة الكذب إلى كعب، ولكن لو رجعنا إلى شراح الحديث لوجدناهم جميعًا يشرحونه بما يبعد هذه الوصمة الشنيعة عن كعب الأحبار، وإليك بعض ما قيل فى ذلك:

قال ابن حجر فى الفتح عند قوله: (وإن كنا لنبلو عليه الكذب) «أى يقع بعض ما يخبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به، قال ابن التين: وهذا نحو قول ابن عباس فى حق كعب المذكور: بدل من قبله فوقع فى الكذب، قال: والمراد بالمحدثين ـ فى قوله: إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ـ أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر فى كتبهم فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب، إلا أن كعبًا كان أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه.

وقال ابن حبان فى كتاب الثقات: أراد معاوية أنه يخطئ أحيانًا فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذابًا، وقال غيره: الضمير فى قوله: (لنبلو عليه) للكتاب لا لكعب، وإنما يقع فى كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه، وقال عياض: يصح عوده على الكتاب،

---

(١) البخارى من كتاب التوحيد جـ١٣ ص٢٥٩ من فتح البارى.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص١٠.

ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وإن لم يقصد الكذب ويتعمده، إذ لا يشترط فى مسمى الكذب التعمد، بل هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب، وقال ابن الجوزى: المعنى أن بعض الذى يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبًا، لا أنه يتعمد الكذب، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار». اهـ(١).

هذه هى الأقوال التى سردها لنا الحافظ ابن حجر، ونحن نميل إلى القول بأن كعبًا كان يروى ما يرويه على أنه صحيح لم يبدل ولم يحرف، فهو لم يتعمد كذبًا ولا ينسب إلى كذب، وإن كان ما يرويه كذبًا فى حد ذاته، خفى عليه كما خفى على غيره، ولهذا التحريف والتبديل نهى رسول الله ﷺ عن تصديق أهل الكتاب وعن تكذيبهم فيما يروونه من ذلك، لأنه ربما كان صدقًا فيكذبونه أو كذبًا فيصدقونه فيقعون فى الحرج.

ثم إن معاوية الذى قال هذا القول، روينا عنه فيما سبق أنه قال: «ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء إن كان عنده علم كالثمار(٢) وإن كنا لمفرطين»، فمعاوية قد شهد لكعب بالعلم وغزارته، وحكم على نفسه بأنه فرط فى علم كعب، فهل يعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب؟، وهل يعقل أنه يتحسر ويتندم على ما فاته من علم رجل يدلس فى كتب الله ويحرف فى وحى السماء؟... اللهم إنى لا أعقل ذلك، ولا أقول إلا أن كعبًا عالم له مكانته، وثقة له قيمته، وعدل له منزلته وشهرته.

* * *

٣- وهب بن منبه

ترجمته:

هو: أبو عبد الله، وهب بن منبه بن سيج بن ذى كناز، اليمانى الصنعانى، صاحب القصص، من خيار علماء التابعين، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: كان من أبناء فارس، وأصل والده (منبه) من خراسان من أهل هراة، أخرجه كسرى منها إلى اليمن فأسلم فى عهد النبى ﷺ، وكان وهب بن منبه يختلف إلى هراة ويتفقد أمرها، وقيل: إنه تولى قضاء صنعاء، قال إسحاق بن إبراهيم بن عبد الرحمن الهروى،

---

(١) فتح البارى جـ١٣ ص٢٥٩، ٢٦٠.

(٢) وفى رواية كالبحار.

ولد سنة ٣٤هـ أربع وثلاثين فى خلافة عثمان، وقال ابن سعد وجماعة: مات سنة ١١٠هـ عشر ومائة، وقيل غير ذلك.

روى عن أبى هريرة، وأبى سعيد الخدرى، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو ابن العاص، وجابر، وأنس وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبد الله وعبد الرحمن، وعمرو ابن دينار، وغيرهم، وأخرج به البخارى، ومسلم، والنسائى، والترمذى، وأبو داود.

مبلغه من العلم والعدالة:

كان وهب بن منبه واسع العلم، كثير الاطلاع على الكتب القديمة، محيطا بأخبار كثيرة وقصص يتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم، ومما يؤثر عنه أنه ألف كتابًا فى المغازى[١]، ويحدثنا ابن خلكان: أنه رأى لوهب بن منبه تصنيفًا ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير، وأخبارهم، وقصصهم، وقبورهم، وأشعارهم، فى مجلد واحد، قال: وهو من الكتب المفيدة[٢].

وقال أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق عن أبيه: حج عامة الفقهاء سنة مائة فحج وهب، فلما صلوا العشاء أتاه نفر فيهم عطاء والحسن، وهم يريدون أن يتذاكروا القدر، قال: فأمعن فى باب الحمد، فما زال فيه حتى طلع الفجر، فافترقوا ولم يسألوه عن شىء، قال أحمد: وكان يتهم بشىء من القدر ثم رجع، وقال حماد بن سلمة عن أبى سنان: سمعت وهب بن منبه يقول: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتابًا من كتب الأنبياء فى كلها (من جعل إلى نفسه شيئًا من المشيئة فقد كفر) فتركت قولى، وقال الجوزجانى: كان وهب كتب كتابًا فى القدر ثم حدث أنه ندم عليه.

فأنت ترى من بين هذه الأخبار أن وهبًا كان على ناحية عظيمة من المعرفة بالكتب الإلهية القديمة، كما ترى أنه لم يثبت على رأيه وعقيدته فى القدر، بل تركها بعد ما تبين له الحق، وندم على ما كان منه بعد أن ظهر له الصواب، وبعد رجوعه عن رأيه لا يصح أن نطعن عليه من هذه الناحية، ولقد كان وهب يرى من نفسه أنه قد جمع علم ابن سلام وعلم كعب، ويحدث هو بذلك عن نفسه فيقول: يقولون: عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ (يريد نفسه).

---

(١) فجر الإسلام ص١٩٤.

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص١٨٠.

مطاعن بعض الناس عليه:

ومع تلك المنزلة العالية التى كان عليها وهب، طعن عليه بعض الناس كما طعن على كعب؛ ورموه بالكذب والتدليس وإفساد عقول بعض المسلمين وعقائدهم، وقد سمعت مقالة السيد محمد رشيد رضا فيه وفى كعب، وسمعت الرد عليه، كما سمعت مقالة الأستاذ أحمد أمين وما تعقبناه به.

رأينا فيه وشهادات الموثقين له:

وأنا وإن كنت لا أنكر أن صاحبنا أكثر من الإسرائيليات، وقص كثيرًا من القصص إلا أنى لا أتهمه بشىء من الكذب، ولا أنسب إليه إفساد العقول والعقائد، ولا أحمله تبعة ذلك، لأن القوم هم الذين أفسدوا بإدخالهم فى التفسير ما لا صلة له به، وبالوضع عليه وعلى غيره ترويجًا للموضوع كما سبق.

ولو أنَّا رجعنا إلى ما قاله العلماء النقاد فى شأن وهب لتبين لنا أنه رجل منزه عما رُمى به، مبرأ من كلْ ما يخدش عدالته وصدقه، قال الذهبى: كان ثقة صادقًا، كثير النقل من كتب الإسرائيليات، وقال العجلى: ثقة تابعى، كان على قضاء صنعاء، وقال ابن حجر: وهب بن منبه الصنعانى من التابعين، وثقه الجمهور، وشذ الفلاس فقال: كان ضعيفًا، وكان شبهته فى ذلك أنه كان يتهم بالقول فى القدر، وقال أبو زرعة والنسائى: ثقة، وذكره ابن حبان فى الثقات، والبخارى نفسه يعتمد عليه ويوثقه، ونرى له فى البخارى حديثًا واحدًا عن أخيه همام عن أبى هريرة فى كتابة الحديث[1]، وتابعه عليه معمر عن همام، ولهمام هذا عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى الصحاح، رواها عنه معمر، ويحدثنا مثنى بن الصباح: أن وهبًا لبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءًا... وغير هذا كثير مما شهد لعدالة الرجل وحسن إيمانه.

ونحن أمام توثيق الجمهور له، واعتماد البخارى وغيره لحديثه، وما ثبت عنه من الورع والصلاح، لا نقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه، ومظلوم هو وكعب من

---

(١) البخارى جـ١ ص٣٤.

أولئك الذين استغلوا شهرة الرجلين ومنزلتهما العلمية، فنسبوا إليهما ما لا يصح عنهما، وشوهوا سمعتهما، وعرضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير[(١)]!!.

* * *

٤- عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج

ترجمته:

هو: أبو خالد، أو أبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الأموى مولاهم أصله رومى نصرانى، كان من علماء مكة ومحدثيهم، وهو من أول من صنَّف الكتب بالحجاز، وهو قطب الإسرائيليات فى عهد التابعين، ولو أنَّا رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطبرى، وتتبعنا الآيات التى وردت فى النصارى، لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير فى تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك الذى يعبر عنه دائمًا بـ (ابن جريج).

روى عن أبيه، وعطاء بن أبى رباح، وزيد بن أسلم، والزهرى، وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبد العزيز ومحمد، والأوزاعى، والليث، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وحماد بن زيد، وغيرهم، قال ابن سعد: ولد سنة ٨٠هـ ثمانين، وأما وفاته فمختلف فيها، فمنهم من قال: سنة ١٥٠هـ خمسين ومائة، ومنهم من قال: سنة ١٥٩هـ تسع وخمسين ومائة، وقيل غير ذلك

. مبلغه من العلم والعدالة:

ابن جريج ـ كما قيل ـ هو أول من صنف الكتب بالحجاز، ويعدونه من طبقة مالك بن أنس وغيره ممن جمعوا الحديث ودونوه، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبى: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج وابن أبى عروبة، وقال ابن عيينة: سمعت أخى عبد الرزاق بن همام عن ابن جريج يقول: ما دون العلم تدوينى أحد، وقد عُرف عن ابن جريج أنه كان رحالة فى طلب العلم، فقد ولد بمكة ثم طوف فى كثير من البلاد، فرحل إلى البصرة واليمن وبغداد، ويقول ابن خلدون فى العبر إنه لم يطلب العلم إلا فى الكهولة، ولو سمع فى عنفوان شبابه لحمل عن غير واحد من

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ١١ ص١٦٦، ١٦٧، وميزان الاعتدال جـ٣ ص٢٧٨، ومجلة نور الإسلام (الأزهر) السنة الثالثة ص٢٠٧، ٢٠٨.

الصحابة، فإنه قال كنت أتتبع الأشعار العربية والأنساب فقيل لى: لو لزمت عطاء؟ فلزمته ثمانية عشر عامًا». اهـ[١].

وقد رويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة فى التفسير عن ابن عباس؛ منها الصحيح، ومنها ما ليس بصحيح؛ وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم[٢].

أما منزلته من ناحية العدالة، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وتثبته فيما يرويه، وإنما اختلفت أنظارهم فيه، فمنهم من وثقه، ومنهم من ضعَّفه، قال فيه العجلى: مكى ثقة، وقال سليمان بن النضر بن مخلد بن يزيد: ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج، وعن يحيى بن سعيد قال: كنا نسمى كتب ابن جريج كتب الأمانة، وإن لم يحدثك بها ابن جريج من كتابه لم ينتفع به.

وقال ابن معين: ثقة فى كل ما روى عنه من الكتاب، وعن يحيى بن سعيد قال: كان ابن جريج صدوقًا فإذا قال: حدثنى فهو سماع، وإذا قال: أخبرنى فهو قراءة، وإذا قال: قال فهو شبه الريح.

وقال الدارقطنى: تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح، وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: كان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ومتقنيهم وكان يدلس.

وقال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال: أحد الأعلام الثقات يدلس، وهو فى نفسه مجمع على ثقته مع كونه قد تزوج نحوًا من تسعين امرأة نكاح متعة، وكان يرى الرخصة فى ذلك، وكان فقيه أهل مكة فى زمانه، قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبى: بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة، كان ابن جريج لا يبالى من أين يأخذها، يعنى قوله: أخبرت وحدثت عن فلان[٣]، وذكر الخزرجى فى خلاصته[٤] أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة، ولكن نرى الأستاذ أحمد أمين ينقل فى ضحى الإسلام[٥]: أن البخارى لم يوثقه، وقال: إنه لا يتابع فى

(١) شذرات الذهب جـ١ ص٢٢٦. (٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٨.
(٣) ميزان الاعتدال جـ٢ ص١٥١. (٤) ص٢٠٧. (٥) جـ٢ ص١٠٧.

حديثه، ولسنا ندرى من أين استقى صاحب ضحى الإسلام هذا الكلام الذى عزاه إلى البخارى رضي الله عنه!.

هذه هى نظرة العلماء إليه وحكمهم عليه، ونرى أن كثيراً منهم يحكم عليه بالتدليس وعدم الثقة ببعض مروياته؛ ومع هذا فقد قال فيه الإمام أحمد: إنه من أوعية العلم، ونحن معه فى ذلك، ولكنه وعاء لعلم امتزج صحيحه بعليله، ولا نظن إلا أن الإمام أحمد يعنى ذلك، بدليل ما تقدم عنه من قوله: «بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج موضوعة، وكان ابن جريج لا يبالى من أين أخذها».

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يرى فيه أنه لا يبالى من أين يأخذ، فقد روى عنه أنه قال: كان ابن جريج حاطب ليل».

وأخيراً فعلى المفسر أن يكون على حذر فيما روى عن ابن جريج فى التفسير حتى لا يروى ضعيفًا، أو يعتمد على سقيم[١].

وبعد... فهؤلاء هم أقطاب الإسرائيليات، وعليهم يدور كثير مما هو مثبوت فى كتب التفسير، وسواء أكان كل ما نسب إليهم صح عنهم أم وضع عليهم، فقد علمت قيمة كل واحد منهم، وعلمت قيمة ما يروى من هذه الإسرائيليات وما يجوز روايته وما لا يجوز... وهذا هو جهد المقل وغاية ما وصلت إليه فى هذا الموضوع الذى التوى، ثم التوى، حتى صار أعقد من ذنب الضب.

ثالثا: حذف الإسناد

حذف الإسناد هو السبب الثالث والأخير الذى يرجع إليه ضعف التفسير المأثور، وسبق أن أشرنا إلى مبدأ اختصار الأسانيد، ونعود إليه فنقول:

إن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يتحرون الصحة فيما يتحملون، وكان الواحد منهم لا يروى حديثًا إلا وهو متثبت مما يقول، ولكن لم يعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد، لما عرفوا به جميعًا من العدالة والأمانة، وإذا كان الأمر قد وصل ببعضهم إلى أنه كان لا يقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين كما دلت على ذلك الآثار الكثيرة، فإن الغرض من ذلك هو زيادة التأكد والتثبت، لا عدم الثقة

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ٦ ص٤٠٢ - ٤٠٦.

بمن يروون عنه منهم، فقد روى أن عمر قال لأبى بن كعب ـ وقد روى له حديثًا ـ لتأتينى على ما تقول ببينة، فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم، قالوا: قد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فقال عمر: «أما إنى لم أتهمك، ولكن أحببت أن أثبت»[١]. اهـ.

ثم جاء عصر التابعين، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب، فكانوا لا يقبلون حديثا إلا إذا جاء بسنده، وثبتت لهم عدالة رواته، أما إن حذف السند، أو ذكر وكان فى روايته من لا يوثق بحديثه، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذى هذا شأنه، فقد روى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم»[٢].

ظل الأمر فى عهد التابعين على هذا، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبى ﷺ أو عن الصحابة، لا يروونه إلا بإسناده، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير، ودوَّن ما تجمَّع لديه من ذلك، فألفت تفاسير تجمع أقوال النبى ﷺ فى التفسير، وأقوال الصحابة والتابعين، مع ذكر الأسانيد، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع ابن الجراح، وغيرهما ممن تقدم ذكرهم.

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا فى التفسير، فاختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال غير معزوة لقائلها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل.

ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شىء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجىء بعده، ظانا أن له أصلا، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف[٣].

وفى الحق أن هذا السبب يكاد يكون أخطر الأسباب جميعًا؛ لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر فى هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، وجعل كثيرًا من المفسرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصص المخترع على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل.

---

(١) الأسلوب الحديث جـ١ ص١٠.
(٢) صحيح مسلم جـ١ ص١١٢.
(٣) الإتقان جـ٢ ص١٩٠.

وإذا كان للوضع خطره، وللإسرائيليات خطرها، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها، ولكن حذفها ـ وللأسف ـ عَمَّى علينا كل شيء، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قول بإسناده، فهو وإن كان لم يتحرَّ الصحة فيما يرويه، إلا أن عذره في ذلك، أنه ذكر لنا السند مع كل رواية يرويها، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة؛ فإن أحوال الرجال كانت معروفة في العهد الأول وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة.

وبعد... فهذه هي الأسباب الثلاثة التي يرجع إليها ضعف التفسير المأثور، وكل واحد منها له خطره وأثره في التفسير، وقد أدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر، وقدروا ما كان لهذه الأسباب من أثر، فتداعى علماؤهم وأشياخهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات، وتطهيرها من كل ما دخل عليها، ولكن لم نجد منهم من نشط لهذا العمل، وإنا لنرجو آملين، أن يهيئ الله للمسلمين من بين علمائنا وأشياخنا من ينقد لهم هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلي، على هدى قواعد القوم في نقد الرواية متنًا وسندًا، ليستبعد منها هذا الكثير الذي لا يستحق البقاء، وليستريح الناظرون في الكتاب الكريم من الوقوف أمام شيء لا أساس له إذا ما حاولوا تفهم آية منه.

ولست أظن أن هذا العمل الشاق المضني يستطيع أن يقوم به فرد وحده، بل لا بد له من جماعة كبيرة، تتفرغ له، ويتسع أمامها الزمن، وتتوفر لديها جميع المصادر والمراجع التي تتعلق بالموضوع وتتصل به.

ذلك ما نرجوه ونأمله، ونسأل الله تعالى أن يحقق الرجاء ويصدق الأمل.

* * *

أشهر ما دون من كتب التفسير المأثور وخصائص هذه الكتب

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدونة فى التفسير المأثور، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا؛ نظرًا لعدم وقوع كثير منها فى أيدينا، ولو تيسر لنا لوقفت عند عزمى هذا: وهو أنى لا أتعرض لكل كتاب ألف فى هذا النوع من التفسير، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب، لأنى لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دُوِّن من هذه الكتب، كتابًا كتابًا، لطال علىَّ الأمر، والرسول ﷺ يقول: «إن المُنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها، هى أهمها وأشهرها وأكثرها تداولا، وسبيلى فى هذا: أن أعرض أولا لنبذة مختصرة عن المؤلف، ثم أبين خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه، وهذه الكتب التى وقع عليها اختيارى هى ما يأتى:

١- جامع البيان فى تفسير القرآن: لابن جرير الطبرى
٢- بحر العلوم: لأبى الليث السمرقندى
٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبى إسحاق الثعلبى
٤- معالم التنزيل: لأبى محمد الحسين البغوى
٥- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسى
٦- تفسير القرآن العظيم: لأبى الفداء الحافظ ابن كثير
٧- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن: لعبد الرحمن الثعالبى
٨- الدر المنثور فى التفسير المأثور: لجلال الدين السيوطى

وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب، فنقول وبالله التوفيق:

١- جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى، الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، وهو من أهل آمل طبرستان، ولد بها سنة ٢٢٤هـ أربع وعشرين ومائتين من الهجرة، ورحل من بلده فى طلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة، سنة ست وثلاثين ومائتين، وطوف فى الأقاليم، فسمع بمصر والشام والعراق، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد، وبقى بها إلى أن مات سنة عشر وثلاثمائة.

مبلغه من العلم والعدالة:

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظًا لكتاب الله، بصيرًا بالقرآن، عارفًا بالمعانى فقيهًا فى أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم، هذا هو ابن جرير فى نظر الخطيب البغدادى، وهى شهادة عالم خبير بأحوال الرجال، وذكر أن أبا العباس بن سريج كان يقول: محمد بن جرير فقيه عالم، وهذه الشهادة جد صادقة؛ فإن الرجل برع فى علوم كثيرة، منها: علم القراءات، والتفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، وقد صنف فى علوم كثيرة وأبدع التأليف وأجاد فيما صنف، فمن مصنفاته: كتاب التفسير الذى نحن بصدده، وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك، وهو من أمهات المراجع، وكتاب القراءات، والعدد والتنزيل، وكتاب اختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين، وكتاب أحكام شرائع الإسلام، ألفه على ما أداه إليه اجتهاده، وكتاب التبصر فى أصول الدين... وغير هذا كثير من تصانيفه التى تدل على سعة علمه وغزارة فضله.

ولكن هذه الكتب قد اختفى معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ منها بالبقاء إلى يومنا هذا وبالشهرة الواسعة، سوى كتاب التفسير، وكتاب التاريخ.

وقد اعتبر الطبرى أبًا التفسير، كما اعتبر أبًا للتاريخ الإسلامى؛ وذلك بالنظر لما فى هذين الكتابين من الناحية العلمية العالية، ويقول ابن خلكان: إنه كان من الأئمة المجتهدين، لم يقلد أحدًا، ونقل: أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازى ذكره فى طبقات الفقهاء فى جملة المجتهدين، قالوا: وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم: الجريرية، ولكن هذا المذهب الذى أسسه ـ على ما يظهر ـ بعد بحث طويل، ووجد له أتباعًا من الناس، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كثيره كغيره من مذاهب المسلمين؛ ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد متمذهبًا بمذهب الشافعى؛ يدلنا على ذلك ما جاء فى الطبقات الكبرى لابن السبكى، من أن ابن جرير قال: أظهرت فقه الشافعى، وأفتيت به ببغداد عشر سنين، وتلقاه منى ابن بشار الأحول، أستاذ أبى العباس بن سريج، وقال السيوطى فى طبقات المفسرين[١]: وكان أولا شافعيّا، ثم انفرد بمذهب مستقل، وأقاويل واختيارات، وله أتباع ومقلدون، وله فى الأصول والفروع كتب كثيرة. اهـ. وذكره صاحب لسان الميزان فقال: «ثقة، صادق، فيه تشيع يسير، وموالاة لا تضر. . .» ثم قال: أفذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال: كان يضع للروافض، وهذا رجم بالظن الكاذب، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين، وما ندعى عصمته من الخطأ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يتأنى فيه، ولا سيما فى مثل إمام كبير، ولعل السليمانى أراد الآتى ـ يريد محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى ـ قال: ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا الآتى لبررت، والسليمانى حافظ متقن، كان يدرى ما يخرج من رأسه، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل». اهـ.

هذ هو ابن جرير؛ وهذه هى نظرات العلماء إليه، وذلك هو حكمهم عليه، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته[٢].

---

(١) ص٣.

(٢) انظر وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٣٢، ٢٣٣، ولسان الميزان جـ٥ ص١٠٠ - ١٠٣، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ٢ ص١٣٥ - ١٣٨، ومعجم الأدباء جـ١٨ ص٤٠ - ٩٤.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلى؛ وإن كان فى الوقت نفسه يعتبر مرجعًا غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى؛ نظرًا لما فيه من الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحًا يعتمد على النظر العقلى، والبحث الحر الدقيق.

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءًا من الحجم الكبير، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يعتبر مفقودًا لا وجود له، ثم قدَّر الله له الظهور والتداول، فكانت مفاجأة سارة للأوساط العلمية فى الشرق والغرب أن وجدت فى حيازة أمير (حائل) الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد، من أمراء نجد، نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب، طبع عليها الكتاب من زمن قريب، فأصبحت فى يدنا دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور[١].

ولو أننا تتبعنا ما قاله العلماء فى تفسير ابن جرير، لوجدنا أن الباحثين فى الشرق والغرب قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته، واتفقوا على أنه مرجع لا غنى عنه لطالب التفسير، فقد قال السيوطى ﷺ: «وكتابه - يعنى تفسير محمد بن جرير - أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين»[٢]، وقال النووى: «أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى»[٣]، وقال أبو حامد الإسفراييني: «لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا»[٤]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما التفاسير التى فى أيدى الناس، فأصبحها تفسير ابن جرير الطبرى؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير[٥] والكلبى»[٦].

ويذكر صاحب لسان الميزان: أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير من ابن

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٨٦.
(٢) الإتقان جـ٢ ص١٩٠.
(٣) المرجع السابق.
(٤) معجم الأدباء جـ١٨ ص٤٢.
(٥) هكذا بالأصل؛ ولعله ابن سليمان، وهو مقاتل بن سليمان بن بشير؛ وهو متهم بالكذب.
(٦) فتاوى ابن تيمية جـ٢ ص١٩٢.

خالويه فرده بعد سنين ثم قال: «نظرت فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير» فابن خزيمة ما شهد هذه الشهادة إلا بعد أن اطلع على ما فى هذا التفسير من علم واسع غزير.

هذا وقد كتب (نولدكه) فى سنة ١٨٦٠م بعد اطلاعه على بعض فقرات من هذا الكتاب: «لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تمامًا، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعًا لا يغيض معينه، أخذ عنه المتأخرون معارفهم»[(١)].

ويظهر مما بأيدينا من المراجع، أن هذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم، ثم اختصره مؤلفه إلى هذا القدر الذى هو عليه الآن، كما أن كتابه فى التاريخ ظفر بمثل هذا البسط والاختصار، فابن السبكى يذكر فى طبقاته الكبرى[(٢)] «أن أبا جعفر قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟، فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟، قالوا: كم قدره، فذكر نحوًا مما ذكره فى التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله، ماتت الهمم، فاختصره فى نحو ما اختصر التفسير». اهـ.

هذا، ونستطيع أن نقول: إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذى له الأولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية من ناحية الفن والصناعة.

أما أوليته الزمنية، فلأنه أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينا، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شىء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذى نحن بصدده.

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة؛ فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التى سلكها فيه مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتابًا له قيمته ومكانته.

ونريد أن نعرض هنا لطريقة ابن جرير فى تفسيره، بعد أن أخذنا فكرة عامة عن الكتاب، حتى يتبين للقارئ أن الكتاب واحد فى بابه، سبق به مؤلفه غيره من

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٨٥. (٢) جـ٢ ص١٣٧.

المفسرين، فكان عمدة المتأخرين، ومرجعا مهمّا من مراجع المفسرين، على اختلاف مذاهبهم، وتعدد طرائقهم، فنقول:

طريقة ابن جرير فى تفسيره:

تتجلى طريقة ابن جرير فى تفسيره بكل وضوح إذا نحن قرأنا فيه وقطعنا فى القراءة شوطا بعيدًا، فأول ما نشاهده، أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول: «القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا» ثم يفسر الآية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم فى هذه الآية، وإذا كان فى الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ما قيل فيها، ويستشهد على كل قول بما يرويه فى ذلك عن الصحابة أو التابعين.

ثم هو لا يقتصر على مجرد الرواية، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال، ويرجح بعضها على بعض، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك، كما أنه يستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآية، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار.

إنكاره على من يفسر بمجرد الرأى:

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأى المستقلين فى التفكير، ولا يزال يشدد فى ضرورة الرجوع إلى العلم الراجع إلى الصحابة أو التابعين، والمنقول عنهم نقلا صحيحًا مستفيضًا، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح، فمثلا عند ما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة يوسف: ﴿**ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ نجده يذكر ما ورد فى تفسيرها عن السلف مع توجيهه للأقوال وتعرضه للقراءات بقدر ما يحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على من يفسر القرآن برأيه، وبدون اعتماد منه على شىء إلا على مجرد اللغة، فيفند قوله، ويبطل رأيه، فيقول ما نصه: «. . . وكان بعض من لا علم له بأقوال السلف من أهل التأويل، ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب، يوجه معنى قوله ﴿**وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾ إلى وفيه ينجون من الجذب والقحط بالغيث، ويزعم أنه من العصر، والعصر التى بمعنى المنجاة، من قول أبى زبيد الطائى:

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود

أى المقهور - ومن قول لبيد:

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم   وما كان وقافًا بغير معصر

وذلك تأويل يكتفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين»[١].

وكثيرًا ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروى عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٦٥) من سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ يقول ما نصه. «حدثنى المثنى، قال: حدثنا أبو حذيفة، قال: حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال: مُسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله لهم، كمثل الحمار يحمل أسفارا». اهـ. ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك على قول مجاهد فيقول ما نصه: «وهذا القول الذى قاله مجاهد، قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف...»... إلخ[٢].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة أيضًا: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ نجده يروى عن الضحاك فى معنى هذه الآية: «أن من طلق لغير العدة فقد اعتدى وظلم نفسه، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون، ثم يقول: وهذا الذى ذكر عن الضحاك لا معنى له فى هذا الموضع، لأنه لم يجر للطلاق فى العدة ذكر فيقال: تلك حدود الله، وإنما جرى ذكر العدد الذى يكون للمطلق فيه الرجعة والذى لا يكون له فيه الرجعة، دون ذكر البيان عن الطلاق للعدة». اهـ[٣].

... وهكذا نجد ابن جرير فى غير موضع من تفسيره، ينبرى للرد على مثل هذه الآراء التى لا تستند على شىء إلا على مجرد الرأى أو محض اللغة.

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٢ ص١٣٨.

(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٣) تفسير ابن جرير جـ٢ ص٢٨٩.

موقفه من الأسانيد:

ثم إن ابن جرير، وإن التـزم فى تفسير ذكر الروايات بأسـانيدها، إلا أنه فى الأعم الأغلب لا يتعقب الأسـانيد بتصحيـح ولا تضعيف، لأنه كان يرى ـ كمـا هو مقرر فى أصول الحديث ـ أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغة من العدالة أو الجرح، فهو بعمله هذا قـد خرج من العهدة، ومع ذلك فابن جرير يقف من السند أحيـانًا موقف الناقد البـصير، فيـعدل من يعدل من رجـال الإسناد، ويجرح من يجرح منهم، ويرد الرواية التى لا يثق بصحتها، ويصرح برأيه فيـها بما يناسبها، فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٤) من سورة الكهف: ﴿ ... **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**﴾ يقول ما نصه: «روى عن عكرمة فى ذلك ـ يعنى فى ضم سين سدًا وفتحها ـ ما حـدثنا به أحمد بن يوسف، قال: حدثنا القاسم، قال: حدثنا حجاج، عن هارون، عن أيوب، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بنى آدم فهو السَّد، يعنى بفتح السـين، وما كان من صنع الله فهو السُّـد، ثم يعقب على هذا السند فيقول: وأما مـا ذكر عن عكرمة فى ذلك، فإن الذى نقل ذلك عن أيوب هارون، وفى نقله نظر، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقاة أصحابه». اهـ[1].

تقديره للإجماع:

كذلك نجـد ابن جرير فى تفسـيره يقدر إجـماع الأمة، ويعـطيه سلطانًا كبـيرًا فى اختيـار ما يذهب إليه من التـفسير، فـمثلا عند قوله تعـالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة: ﴿ ... **فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ يقول ما نصه: «فإن قال قائل: فـأى النكاحين عنى الله بقوله: ﴿**فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ النكاح الذى هو جماع؟ أم النكاح الذى هو عقـد تزويج؟ قيل كلاهما؛ وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجًا نكاح تزويج ثم لم يطأها فى ذلك النكاح نـاكحها ولم يجماعـها حتى يطلقهـا لم تحل للأول، وكذلك إن وطئهـا واطئ بغير نكاح لم تحل للأول؛ لإجـماع الأمة جميعًا، فإذا كان ذلك كذلك، فمعلوم أن تأويل قوله: ﴿**فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْـرَهُ**﴾ نكاحا صحيحًا، ثم يجماعهـا فيه، ثم يطلقها، فإن قال: فإن ذِكْر

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص١٣.

الجماع غير موجود فى كتاب الله تعالى ذكره، فما الدلالة على أن معناه ما قلت؟ قيل: الدلالة على ذلك إجماع الأمة جميعًا على أن ذلك معناه»[١].

موقفه من القراءات:

كذلك نجد ابن جرير يعنى بذكر القراءات وينزلها على المعانى المختلفة، وكثيرًا ما يرد القراءات التى لا تعتمد على الأئمة الذين يعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة، والتى تقوم على أصول مضطربة مما يكون فيه تغير وتبديل لكتاب الله، ثم يتبع ذلك برأيه فى آخر الأمر مع توجيه رأيه بالأسباب، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة الأنبياء ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ يذكر أن عامة قراء الأمصار قرءوا (الريح) بالنصب على أنها مفعول لسخرنا المحذوف، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ (الريح) بالرفع على أنها مبتدأ، ثم يقول: والقراءة التى لا أستجيز القراءة بغيرها فى ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه».

ولقد يرجع السبب فى عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلى أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتى أنهم ليقولون عنه: إنه ألف فيها مؤلفًا خاصًا فى ثمانية عشر مجلدًا، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور[٢]، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرور الزمن ولم يصل إلى أيدينا، شأن الكثير من مؤلفاته.

موقفه من الإسرائيليات:

ثم إننا نجد ابن جرير يأتى فى تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلى، يرويها بإسناده إلى كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وابن جريج والسدى، وغيرهم، ونراه ينقل عن محمد بن إسحاق كثيرًا مما رواه عن مسلمة النصارى، ومن الأسانيد التى تسترعى النظر، هذا الإسناد: حدثنى ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن أبى عتاب... رجل من تغلب كان نصرانيًا عمرًا من دهرة ثم أسلم بعد فقرأ القرآن وفقه فى الدين، وكان فيما ذكر، أنه كان نصرانيًا أربعين سنة ثم عمر فى الإسلام أربعين سنة.

(١) تفسير ابن جرير جـ٢ ص٢٩٠ - ٢٩١.

(٢) معجم الأدباء جـ١٨ ص٤٥.

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروى لهذا الرجل النصرانى الأصل خبرا عن آخر أنبياء بنى إسرائيل، عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الإسراء: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾(١).

كما نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٤) من سورة الكهف: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ...﴾ الآية، يسوق هذا الإسناد: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثنا محمد بن إسحاق، قال: حدثنى بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم، مما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر، اسمه مرزبا بن مردبة اليونانى من ولد يونن بن يافث ابن نوح... إلخ»(٢).

وهكذا يكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات، ولعل هذا راجع إلى ما تأثر من الروايات التاريخية التى عالجها فى بحوثه التاريخية الواسعة.

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيرا من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلى النقد الفاحص الشامل، احتياج كثير من كتب التفسير التى اشتملت على الموضوع والقصص الإسرائيلى، على أن ابن جرير ـ كما قدمنا ـ قد ذكر لنا السند بتمامه فى كل رواية يرويها، وبذلك يكون قد خرج من العهدة، وعلينا نحن أن ننظر فى السند ونتفقد الروايات.

انصرافه عما لا فائدة فيه:

ومما يلفت النظر فى تفسير ابن جرير أن مؤلفه لا يهتم فيه ـ كما يهتم غيره من المفسرين ـ بالأمور التى لا تغنى ولا تفيد، فنراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيات (١١٢، ١١٣، ١١٤) إلى قوله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يعرض لذكر ما ورد من الروايات فى نوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء... ثم يعقب على هذا بقوله: «وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٥ ص٣٣، ٣٤.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١٦ ص١٤.

عليها مأكول، وجائز أن يكون سمكًا وخبزًا، وجائز أن يكون ثمرًا من الجنة، وغير نافع العلم به ولا ضار الجهل به، إذا أقرّ تالى الآية بظاهر ما احتمله التنزيل». اهـ[١].

كما نراه عند تفسيره قوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ يعرض لمحاولات قدماء المفسرين فى تحديد عدد الدراهم، هل هى عشرون؟ أو اثنان وعشرون؟ أو أربعون؟... إلى آخر ما ذكره من الروايات... ثم يعقب على ذلك كله بقوله: «والصواب من القول أن يقال: إن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة فى كتاب ولا خبر من الرسول ﷺ، وقد يحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعون، وأقل من ذلك وأكثر، وأى ذلك كان فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس فى العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع فى دين، ولا فى الجهل به دخول ضُرٍّ فيه، والإيمان بظاهر التنزيل فرض، وما عداه فموضوع عنا تكلف علمه». اهـ[٢].

احتكامه إلى المعروف من كلام العرب:

وثمة أمر آخر سلكه ابن جرير فى كتابه، ذلك أنه اعتبر الاستعمالات اللغوية بجانب النقول المأثورة وجعلها مرجعًا موثوقًا به عند تفسيره للعبارات المشكوك فيها، وترجيح بعض الأقوال على بعض.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة هود: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الآية، نراه يعرض لذكر الروايات عن السلف فى معنى لفظ التنور، فيروى لنا قول من قال: إن التنور عبارة عن وجه الأرض، وقول من قال: إنه عبارة عن تنوير الصبح، وقول من قال: إنه عبارة عن أعلى الأرض وأشرفها، وقول من قال: إنه عبارة عما يختبز فيه... ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: «وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله (التنور) قول من قال: التنور: الذى يختبز فيه، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شىء منه بخلاف ذلك فيسلم

---

(١) تفسير ابن جرير جـ٧ ص٨٨.

(٢) تفسير ابن جرير جـ١٢ ص١٠٣.

لها، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به. . .». اهـ[١].

رجوعه إلى الشعر القديم:

كذلك نجد ابن جرير يرجع إلى شواهد من الشعر القديم بشكل واسع، متبعًا فى هذا ما أثاره ابن عباس فى ذلك، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة: ﴿... فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا...﴾ يقول ما نصه: «قال أبو جعفر: والأنداد جمع ند، والند: العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

يعنى بقوله: ولست له بند، لست له بمثل ولا عدل، وكل شيء كان نظيرًا لشيء وشبيهًا فهو له ند»[٢] ثم يسوق الروايات عمن قال ذلك من السلف.

اهتمامه بالمذاهب النحوية:

كذلك نجد ابن جرير يتعرض كثيرًا لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين فى النحو والصرف، ويوجه الأقوال، تارة على المذهب البصرى، وأخرى على المذهب الكوفى، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة إبراهيم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ يقول ما نصه: «اختلف أهل العربية فى رافع (مثل) فقال بعض نحويى البصرة: إنما هو كأنه قال: ومما نقص عليكم مثل الذين كفروا، ثم أقبل يفسره كما قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ وهذا كثير، وقال بعض نحويى الكوفيين: إنما المثل للأعمال، ولكن العرب تقدم الأسماء لأنها أعرف، ثم تأتى بالخبر الذى تخبر عنه مع صاحبه، ومعنى الكلام: مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد. . . إلخ»[٣].

وهكذا يكثر ابن جرير فى مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب، ومن الرجوع إلى الشعر القديم ليستشهد به على ما يقول، ومن التعرض

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١٢ ص٢٥.
(٢) تفسير ابن جرير جـ١ ص١٢٥.
(٣) تفسير ابن جرير جـ١٣ ص١٣١.

للمذاهب النحوية عند ما تمس الحاجة، مما جعل الكتاب يحتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التى أكسبت الكتاب شهرة عظيمة.

والحق أن ما قدمه لنا ابن جرير فى تفسيره من البحوث اللغوية المتعددة والتى تعتبر كنزًا ثمينًا ومرجعًا مهمًا فى بابها، أمر يرجع إلى ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ، ونرى أن ننبه هنا إلى هذه البحوث اللغوية التى عالجها ابن جرير فى تفسيره لم تكن أمرًا مقصودًا لذاته، وإنما كانت وسيلة للتفسير، على معنى أنه يتوصل بذلك إلى ترجيح بعض الأقوال على بعض، كما يحاول بذلك ـ أحيانا ـ أن يوافق بين ما صح عن السلف وبين المعارف اللغوية بحيث يزيل ما يتوهم من التناقض بينهما.

معالجته للأحكام الفقهية:

كذلك نجد فى هذا التفسير آثارًا للأحكام الفقهية، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم، ويخلص من ذلك كله برأى يختاره لنفسه، ويرجحه بالأدلة العلمية القيمة، فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة النحل: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ نجده يعرض لأقوال العلماء فى حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، ويذكر قول كل قائل بسنده... وأخيرًا يختار قول من قال: إن الآية لا تدل على حرمة شىء من ذلك، ووَجه اختياره هذا فقال ما نصه: «والصواب من القول فى ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثانى ـ وهو أن الآية لا تدل على الحرمة ـ وذلك أنه لو كان فى قوله ـ تعالى ذكره ـ: ﴿**لِتَرْكَبُوهَا**﴾ دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للركوب للأكل، لكان فى قوله: ﴿**فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ (النحل: ٥) دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب، وفى إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره: ﴿**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال: ﴿**لِتَرْكَبُوهَا**﴾ جائز حلال غير حرام، إلا بما نص على تحريمه، أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحى إلى رسول الله ﷺ، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شىء، وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الأهلية بوحيه إلى رسول الله ﷺ، وعلى البغال بما قد بيَّنا فى كتابنا الأطعمة بما

أغنى عن إعادته فى هذا الموضع؛ إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل على أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس». اهـ[1].

خوضه فى مسائل الكلام:

ولا يفوتنا أن ننبه على ما نلحظه فى هذا التفسير الكبير، من تعرض صاحبه لبعض النواحى الكلامية عند كثير من آيات القرآن، مما يشهد له بأنه كان عالمًا ممتازًا فى أمور العقيدة، فهو إذا ما طبق أصول العقائد على ما يتفق مع الآية أفاد فى تطبيقه، وإذا ناقش بعض الآراء الكلامية أجاد فى مناقشته، وهو فى جدله الكلامى وتطبيقه ومناقشته، موافق لأهل السنة فى آرائهم، ويظهر ذلك جليًا فى رده على القدرية فى مسألة الاختيار.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى آخر سورة الفاتحة آية (٧): ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ نراه يقول ما نصه: «وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن فى وصف الله جل ثناؤه النصارى بالضلال بقوله ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذى وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية، جهلا منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه، ولو كان الأمر على ما ظنه الغبى الذى وصفنا شأنه، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله، ولوجب أن يكون خطأ قول القائل: تحركت الشجرة إذا حركتها الرياح، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة، وما أشبه ذلك من الكلام الذى يطول بإحصائه الكتاب، وفى قوله جل ثناؤه: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم**﴾ (يونس: ٢٢)، وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها، ما يدل على خطأ التأويل الذى تأوله من وصفنا قوله فى قوله: ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ وادعائه أن فى نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى تصحيحًا لما ادعى المنكرون أن يكون الله جل ثناؤه فى أفعال خلقه بسبب من أجلها وجدت أفعالهم، مع إبانة الله

(١) تفسير ابن جرير جـ١٤ ص٦٧ - ٥٨.

عز ذكره نصًا فى كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادى، فمن ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ٢٣) فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادى دون غيره، ولكن القرآن نزل بلسان العرب، على ما قدمنا البيان عنه فى أول الكتاب، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه، وإن كان مشيئة غير الذى وجد منه الفعل غيره، فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسبًا، ويوجده الله جل ثناؤه عينًا منشأة، بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبًا له بالقوة منه عليه، والاختيار منه له، وإلى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيرًا»[1]. اهـ.

وكثيرًا ما نجد ابن جرير يتصدى للرد على المعتزلة فى كثير من آرائهم الاعتقادية، فنراه مثلا يجادلهم مجادلة حادة فى تفسيرهم العقلى التنزيهى للآيات التى تثبت رؤية الله عند أهل السُّنة، كما نراه يذهب إلى ما ذهب إليه السلف من عدم صرف آيات الصفات عن ظاهرها، مع المعارضة لفكرة التجسيم والتشبيه، والرد على أولئك الذين يشبهون الله بالإنسان[2].

... وهكذا نجد ابن جرير لم يقف كمفسر موقفًا بعيدًا عن مسائل النزاع التى تدور حول العقيدة فى عصره، بل نراه يشارك فى هذا المجال من الجدل الكلامى بنصيب لا يستهان به، مع حرصه كل الحرص على أن يحتفظ بسنيته ضد وجوه النظر التى لا تتفق وتعاليم أهل السنة.

وبعد... فإن ما جمعه ابن جرير فى كتابه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه، وما نقله لنا عن مدرسة ابن عباس، ومدرسة ابن مسعود، ومدرسة على بن أبى طالب، ومدرسة أبى بن كعب، وما استفاده مما جمعه ابن جريج والسدى وابن إسحاق وغيرهم من التفاسير جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور، كما أن ما

---

(١) تفسير ابن جرير جـ١ ص٦٤.

(٢) انظر ما كتبه على قوله تعالى فى الآية (٦٤) من سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ الآية جـ٦ ص١٩٣ وما بعدها؛ وما كتبه على قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة الزمر ﴿... وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ جـ٢٤ ص١٦ وما بعدها.

جاء فى الكتاب من إعراب، وتوجيهات لغوية، واستنباطات فى نواح متعددة، وترجيح لبعض الأقوال على بعض، كان نقطة التحول فى التفسير، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأى، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية السائدة فى هذا العصر الذى يعيش فيه ابن جرير.

وفى الحق أن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية، جعلت تفسيره مرجعًا مهمّا من مراجع التفسير بالرواية، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة.

وعلى الإجمال فخير ما وصف به هذا الكتاب ما نقله الداودى عن أبى محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى فى تاريخه حيث قال: «فتم من كتبه - يعنى محمد بن جرير - كتاب تفسير القرآن، وجوده، وبيَّن فيه أحكامه، وناسخه ومنسوخه، ومشكله وغريبه، ومعانيه، واختلاف أهل التأويل والعلماء فى أحكامه وتأويله، والصحيح لديه من ذلك، وإعراب حروفه، والكلام على الملحدين فيه، والقصص، وأخبار الأمة والقيامة، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة، وآية آية، من الاستعاذة وإلى أبى جاد، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوى على علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل» اهـ[1].

هذا وقد جاء فى معجم الأدباء جـ١٨ ص٦٤، ٦٥ وصف مسهب لتفسير ابن جرير، جاء فى آخره ما نصه: «... وذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق، وعن الحسن البصرى ثلاثة طرق، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقًا، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جرير، وتفسير مقاتل بن حبان، سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يدخل فى كتابه شيئًا عن كتاب محمد بن السائب الكلبى، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدى؛ لأنهم عنده أظناء، والله أعلم، وكان إذا رجع

---

(١) طبقات المفسرين للداودى، ص٢٣.

إلى التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عن محمد بن السائب الكلبى، وعن ابنه هشام، وعن محمد بن عمر الواقدى، وغيرهم فيما يفتقر إليه ولا يؤخذ إلا عنهم.

وذكر فيه مجموع الكلام والمعانى من كتاب على بن حمزة الكسائى، ومن كتاب يحيى ابن زياد الفراء، ومن كتاب أبى الحسن الأخفش، وكتاب أبى على قطرب؛ وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون فى المعانى، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمهم إذا ذكر شيئًا من كلامهم، وهذا كتاب يشتمل على عشرة آلاف ورقة أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه». اهـ.

كما نجد فى معجم الأدباء أيضًا قبل ذلك بقليل ما يدل على أن الطبرى أتم تفسيره هذا فى سبع سنوات، إملاء على أصحابه، فقد جاء فى الجزء ١٨ ص٤٢ عن أبى بكر بن بالويه أنه قال: «قال أبو بكر محمد بن إسحاق ـ يعنى ابن خزيمة ـ: بلغنى أنك كتبت التفسير عن محمد ابن جرير؟ قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملاء، قال: كله؟ قلت: نعم، قال: فى أى سنة؟ قلت: من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين.. إلخ».

وبعد فأحسب أنى قد أفضت فى الكلام عن هذا التفسير، وتوسعت فى الحديث عنه، وأقول: إن السر فى ذلك هو أن الكتاب يعتبر المرجع الأول والأهم للتفسير بالمأثور، وتلك ميزة لا نعرفها لغيره من كتب التفسير بالرواية.

* * *

٢- بحر العلوم للسمرقندى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو الليث، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى، الفقيه الحنفى، المعروف بإمام الهدى، تفقه على أبى جعفر الهندوانى، واشتهر بكثرة الأقوال المفيدة، والتصانيف المشهورة، ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمى ببحر العلوم، والمعروف بتفسير أبى الليث السمرقندى، وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب النوازل فى الفقه، وخزانة الفقه فى مجلد، وتنبيه الغافلين، والبستان، وكانت وفاته رحمه الله سنة

٣٧٣هـ ثلاث وسبعين وثلاثمائة، وقيل سنة ٣٧٥ خمس وسبعين وثلاثمائة من الهجرة[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قال في كشف الظنون: «تفسير أبي الليث، نصر بن محمد الفقيه السمرقندي الحنفي، المتوفى سنة ٣٧٥هـ خمس وسبعين وثلاثمائة، وهو كتاب مشهور لطيف مفيد، خرج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفي سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة». اهـ[٢].

وهذا التفسير مخطوط في ثلاث مجلدات كبار، وموجود بدار الكتب المصرية، وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الأزهر، واحدة في مجلدين والأخرى في ثلاث مجلدات.

وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً، فوجدت مؤلفه قد قدم له بباب في الحث على طلب التفسير وبيان فضله واستشهد على ذلك بروايات عن السلف، رواها بإسناده إليهم، ثم بين أنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه من ذات نفسه ما لم يتعلم أو يعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل، واستدل على حرمة التفسير بمجرد الرأي بأقوال رواها عن السلف بإسناده إليهم أيضًا، ثم بين أن الرجل إذا لم يعلم وجوه اللغة وأحوال التنزيل، فليتعلم التفسير ويتكلف حفظه، ولا بأس بذلك على سبيل الحكاية... وبعد أن فرغ من المقدمة شرع في التفسير.

تتبعت هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف، فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم في التفسير، ولكنه لا يذكر إسناده إلى من يروي عنهم، ويندر سياقه للإسناد في بعض الروايات، وقد لاحظت عليه أنه إذا ذكر الأقوال والروايات المختلفة لا يعقب عليها ولا يرجح كما يفعل ابن جرير الطبري - مثلا - اللهم إلا في حالات نادرة أيضًا، وهو يعرض للقراءات ولكن بقدر[٣]، كما أنه

(١) انظر طبقات المفسرين للداودي ص٣٢٧. (٢) كشف الظنون جـ١ ص٢٢٤.
(٣) ارجع إليه عند قوله تعالى في الآية (١٢٤) من سورة البقرة: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ جـ١ ص٤٠.

يحتكم إلى اللغة أحيانًا، ويشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضح معنى آية أخرى[1]، كما أنه يروى من القصص الإسرائيلى، ولكن على قلة وبدون تعقيب منه على ما يرويه، وكثيرًا ما يقول: قال بعضهم كذا، وقال بعضهم كذا، ولا يعين هذا البعض، وهو يروى أحيانًا عن الضعفاء فيخرج من رواية الكلبى ومن رواية أسباط عن السدى، ومن رواية غيرهما ممن تكلم فيه، ووجدته يوجه بعض إشكالات ترد على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[2]، كما يعرض لموهم الاختلاف والتناقض فى القرآن ويزيل هذا الإيهام[3]، وبالجملة، فالكتاب قيم فى ذاته، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلى فيه على الجانب العقلى، ولهذا عددناه ضمن كتب التفسير المأثور.

* * *

٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبى النيسابورى المقرئ، المفسر، كان حافظًا واعظًا، رأسًا فى التفسير والعربية، متين الديانة، قال ابن خلكان: «كان أوحد زمانه فى علم التفسير، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير»[4]، وقال ياقوت فى معجم الأدباء: «أبو إسحاق الثعلبى، المقرئ؛ المفسر، الواعظ، الأديب، الثقة، الحافظ، صاحب التصانيف الجليلة: من التفسير الحاوى

---

(١) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ جـ١ ص٩٧.

(٢) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية ٢٨ من سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ جـ١ ص١٤.

(٣) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ...﴾ الآية جـ١ ص٢٥.

(٤) وفيات الأعيان جـ١ ص٣٧، ٣٨.

أنواع الفرائد من المعانى والإشارات، وكلمات أرباب الحقائق ووجوه الإعراب والقراءات...»[١]، وله غير ذلك من المؤلفات، ونقل السمعانى عن بعض العلماء أنه يقال له الثعلبى والثعالبى، وهو لقب له وليس بنسب، وذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسى فى كتاب سياق تاريخ نيسابور، وأثنى عليه، وقال: «هو صحيح النقل موثوق به» حدث عن أبى طاهر بن خزيمة والإمام أبى بكر بن مهران المقرئ، وعنه أخذ أبو الحسن الواحدى التفسير وأثنى عليه، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ، ولكن هناك من العلماء من يرى أنه لا يوثق به، ولا يصح نقله، وسنذكر بعض من يرى ذلك فيه ومقالاتهم عند الكلام عن تفسيره، هذا... وقد توفى الثعلبى، رحمه الله، سنة ٤٢٧هـ سبع وعشرين وأربعمائة، فرحمه الله وأرضاه[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ألقى مؤلف هذا التفسير ضوءًا عليه فى مقدمته، وأوضح فيها عن منهجه وطريقته التى سلكها فيه، فذكر أولا اختلافه منذ الصغر إلى العلماء، واجتهاده فى الاقتباس من علم التفسير الذى هو أساس الدين ورأس العلوم الشرعية، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح بعزم أكيد وجهد جهيد، حتى رزقه الله ما عرف به الحق من الباطل، والمفضول من الفاضل، والحديث من القديم، والبدعة من السنة، والحجة من الشبهة، وظهر له أن المصنفين فى تفسير القرآن فرق على طرق مختلفة:

فرقة أهل البدع والأهواء، وعد منهم الجبائى والرمانى.

وفرقة من ألفوا فأحسنوا، إلا أنهم خلطوا أباطيل المبتدعين بأقاويل السلف الصالحين، وعد منهم أبا بكر القفال.

وفرقة اقتصر أصحابها على الرواية والنقل دون الدراية والنقد، وعد منهم أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلى.

وفرقة حذفت الإسناد الذى هو الركن والعماد، ونقلت من الصحف والدفاتر،

---

(١) معجم الأدباء جـ٥ ص٣٧.

(٢) يراجع فى ترجمته: معجم الأدباء جـ٥ ص٣٦ - ٣٨، ووفيات الأعيان جـ١ ص٢٢، وشذرات الذهب جـ٢ ص٢٣٠، ٢٣١.

وحررت على هوى الخواطر، وذكرت الغث والسمين؛ والواهى والمتين، قال: وليسوا فى عداد العلماء، فصنت الكتاب عن ذكرهم.

وفرقة حاز روا قصب السبق، فى جودة التصنيف والحذق، غير أنهم طولوا فى كتبهم بالمعادات؛ وكثرة الطرق والروايات، وعد منهم ابن جرير الطبرى.

وفرقة جردت التفسير، دون الأحكام، وبيان الحلال والحرام، والحل عن الغوامض والمشكلات، والرد على أهل الزيغ والشبهات، كمشايخ السلف الماضين، مثل مجاهد والسدى والكلبى.

ثم بين أنه لم يعثر فى كتب من تقدمه على كتاب جامع مهذب يعتمد... ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه فى إخراج كتاب فى تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم، رعاية منه لحقوقهم، وتقربًا به إلى الله... ثم قال: فاستخرت الله تعالى فى تصنيف كتاب، شامل، مهذب، ملخص، مفهوم، منظوم، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات، سوى ما التقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات، وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات، وهم قريب من ثلاثمائة شيخ، نسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز والترتيب، ثم قال: وخرجت فيه الكلام على أربعة عشر نحوًا: البسائط والمقدمات، والعدد والتنزلات، والقصص والنزولات، والوجوه والقراءات، والعلل والاحتجاجات، والعربية واللغات، والإعراب والموازنات، والتفسير والتأويلات، والمعانى والجهات، والغوامض والمشكلات، والأحكام والفقهيات، والحكم والإشارات، والفضائل والكرامات، والأخبار والمتعلقات، أدرجتها فى أثناء الكتاب بحذف الأبواب، وسميته: كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن... ثم ذكر فى أول الكتاب أسانيده إلى من يروى عنهم التفسير من علماء السلف، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب، كما ذكر أسانيده إلى مصنفات أهل عصره - وهى كثيرة - وكتب الغريب والمشكل والقراءات، ثم ذكر بابًا فى فضل القرآن وأهله، وبابًا فى معنى التفسير والتأويل، ثم شرع فى التفسير.

عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجدته مخطوطًا غير كامل، وجدت منه أربع مجلدات ضخام (الأول والثانى والثالث والرابع) والرابع ينتهى عند أواخر سورة الفرقان، وباقى الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال.

قرأت فى هذا التفسير فوجدته يفسر القرآن بما جاء عن السلف، مع اختصاره للأسانيد، اكتفاء بذكرها فى مقدمة الكتاب، ولاحظت عليه أنه يعرض للمسائل النحوية ويخوض فيها بتوسع ظاهر، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٠) من سورة البقرة ﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾. . . الآية، نجده يتوسع فى الكلام على نعم وبئس ويفيض فى ذلك(١).

كما أنه يعرض لشرح الكلمات اللغوية وأصولها وتصاريفها، ويستشهد على ما يقول بالشعر العربى، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧١) من سورة البقرة: ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً**﴾. . . الآية، نجده يحلل كلمة ﴿**يَنْعِقُ**﴾ تحليلا دقيقًا ويصرفها على وجوهها كلها(٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من السورة نفسها: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ**﴾. . . الآية، نجده يحلل لفظ البغى ويتكلم عن أصل المادة بتوسع(٣).

ومما لاحظته على هذا التفسير أنه يتوسع فى الكلام عن الأحكام الفقهية عندما يتناول آية من آيات الأحكام، فتراه يذكر الأقوال والخلافات والأدلة ويعرض للمسألة من جميع نواحيها، إلى درجة أنه يخرج عما يراد من الآية، انظر إليه عندما يعرض لقوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِى أَوْلادِكُمْ**﴾ الآية، تجده يفيض فى الكلام عما يفعل بتركة الميت بعد موته، ثم يذكر جملة الورثة والسهام المحددة، ومن فرضه الربع، ومن فرضه الثمن، والثلثان والثلث، والسدس. . . وهكذا، ثم يعرض لنصيب الجد والجدة والجدات، ثم يقول بعد هذا: فصل فى بساط الآية، وفيه يتكلم عن نظام الميراث عند الجاهلية وقبل مبعث الرسول(٤).

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ تجده قد توسع فى نكاح المتعة وتعرض لأقوال العلماء، وذكر أدلتهم بتوسع ظاهر(٥).

---

(١) جـ١ ص٨٣، ٨٤.
(٢) جـ١ ص١٢٢.
(٣) جـ٢ ص١٢٥.
(٤) جـ١ ص٩١.
(٥) جـ٢ ص١٠٢ - ١٠٤.

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة النساء: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾... الآية تجده يقول:

فصل: فى أقاويل أهل التأويل فى عدد الكبائر، مجموعة من الكتاب والسنة، مقرونة بالدليل والحجة... ثم يسردها جميعًا ويذكر أدلتها على وجه التفصيل[1].

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾... الآية، تجده يعرض لأقوال السلف فى معنى اللمس والملامسة... ثم يقول: واختلف الفقهاء فى حكم الآية على خمسة مذاهب، ويتوسع على الخصوص فى بيان مذهب الشافعى ويسرد أدلته، ويذكر تفصيل كيفية الملامسة عنده، كما يعرض لأقوال العلماء فى التيمم ومذاهبهم وأدلتهم بتوسع ظاهر عندما يتكلم عن قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[2].

وهكذا يتطرق الكتاب إلى نواحٍ علمية متعددة، فى إكثار وتطويل يكاد يخرج به عن دائرة التفسير بالمأثور.

ثم إن هناك ناحية أخرى يمتاز بها هذا التفسير، هى التوسع إلى حد كبير فى ذكر الإسرائيليات بدون أن يتعقب شيئًا من ذلك أو ينبه على ما فيه رغم استبعاده وغرابته، وقد قرأت فيه قصصًا إسرائيليا نهاية فى الغرابة.

ويظهر لنا أن الثعلبى كان مولعًا بالأخبار والقصص إلى درجة كبيرة؛ بدليل أنه ألف كتابًا يشتمل على قصص الأنبياء، ولو أنك رجعت إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية ١٠ من سورة الكهف ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ...﴾... الآية، لوجدته يروى عن السدى ووهب وغيرهما كلاما طويلا فى أسماء أصحاب الكهف، وعددهم، وسبب خروجهم إليه، ولوجدته يروى عن كعب الأحبار، ما جرى لهم مع الكلب حين تبعهم إلى الغار، ولعجبت حين تراه يروى أن النبى ﷺ طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف فأجابه الله بأنه لن يراهم فى دار الدنيا، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته... إلى آخر القصة التى لا يكاد العقل يصدقها[3].

---

(٦) جـ٢ ص١١٠ - ١١٢. (٢) جـ٢ ص١٢٥ - ١٣٦. (٣) جـ٤ ص١٢١ - ١٢٥.

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٤) من سورة الكهف أيضًا: ﴿... إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ...﴾... الآية، تجده قد أطال وذكر كلامًا لا يمكن أن يقبل بحال؛ لأنه أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة[١].

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى: فى الآية (٢٧) من سورة مريم: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ...﴾... الآية، تجده يروى عن السدى ووهب وغيرهما قصصًا كثيرًا، وأخبارًا فى نهاية الغرابة والبعد[٢].

ثم إن الثعلبى لم يتحر الصحة فى كل ما ينقل من تفاسير السلف، بل نجده - كما لاحظنا عليه وكما قال السيوطى فى الإتقان[٣]: يكثر من الرواية عن السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن سورة سورة، فروى فى نهاية كل سورة حديثًا فى فضلها منسوبًا إلى أبى بن كعب، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة على ألسنة الشيعة فسود بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلافها، وفى هذا ما يدل عن أن الثعلبى لم يكن له باع فى معرفة صحيح الأخبار من سقيمها.

هذا... وإن الثعلبى قد جر على نفسه وعلى تفسيره بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات، وعدم الدقة فى اختيار الأحاديث، اللوم المرير والنقد اللاذع من بعض العلماء الذين لاحظوا هذا العيب على تفسيره، فقال ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير[٤]: «والثعلبى هو فى نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع» وقال أيضًا فى فتاواه[٥] وقد سئل عن بعض كتب التفسير: «وأما الواحدى فإنه تلميذ الثعلبى، وهو أخبر منه بالعربية، لكن الثعلبى فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدى البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها» اهـ.

---

(١) جـ٤ ص١٤٠ - ١٤٣. (٢) جـ٤ ص١٤٧ - ١٤٩. (٣) · · ص١٨٩.
(٤) ١٩. (٥) جـ٢ ص١٩٣.

ومن يقرأ تفسير الثعلبى يعلم أن ابن تيمية لم يتقوَّل عليه، ولم يصفه إلا بما هو فيه.

وقال الكتانى فى الرسالة المستطرفة[(١)] عند الكلام عن الواحدى المفسر: «ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبى كبير بضاعة فى الحديث، بل فى تفسيرهما ـ وخصوصًا الثعلبى ـ أحاديث موضوعة وقصص باطلة». اهـ.

والحق أن الثعلبى رجل قليل البضاعة فى الحديث، بل ولا أكون قاسيًا عليه إذا قلت: إنه لا يستطيع أن يميز الحديث الموضوع من غير الموضوع، وإلا لما روى فى تفسيره أحاديث الشيعة الموضوعة على علىٍّ وأهل البيت، وغيرها من الأحاديث التى اشتهر وضعها، وحذر العلماء من روايتها.

والعجب أن الثعلبى بعد هذا كله يعيب كل كتب التفسير أو معظمها، حتى كتاب محمد ابن جرير الطبرى الذى شهد له خلق كثير، وليته إذ ادعى فى مقدمة تفسيره أنه لم يعثر فى كتب من تقدمه من المفسرين على كتاب جامع مهذب يعتمد، أخرج لنا كتابه خاليًا مما عاب عليه المفسرين... ليتهُ فعل ذلك... إذًا لكان قد أراحنا وأراح الناس من هذا الخلط والخبط الذى لا يخلو منه موضع من كتابه.



٤- معالم التنزيل للبغوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف معالم التنزيل هو: أبو محمد، الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء[(٢)] البغوى[(٣)]، الفقيه، الشافعى، المحدث، المفسر، الملقب بمحيى السنة وركن الدين، تفقه البغوى على القاضى حسين وسمع الحديث منه، وكان تقيًا، ورعا، زاهدًا، قانعًا، إذا ألقى الدرس لا يلقيه إلا على طهارة؛ وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز

(١) ص٥٩.
(٢) الفراء نسبة إلى عمل الفراء وبيعها.
(٣) البغوى نسبه إلى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ، وبغشور، وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل، قاله السمعانى فى كتاب الأنساب.

وحده، ثم عدل عن ذلك فصار يأكل الخبز مع الزيت، توفى رحمه الله فى شوال سنة ٥١٠هـ عشر وخمسمائة من الهجرة بمروروز وقد جاوز الثمانين، ودفن عند شيخه القاضى حسين بمقبرة الطالقانى.

مبلغه من العلم:

كان البغوى إمامًا فى التفسير، إمامًا فى الحديث، إمامًا فى الفقه، وعده التاج السبكى من علماء الشافعية الأعلام، وقال: كان إمامًا جليلا، ورعا زاهدًا فقيهًا، محدثًا مفسرًا، جامعًا بين العلم والعمل، سالكا سبيل السلف وصنف فى تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قول النبى ﷺ، وروى الحديث واعتنى بدراسته، وصنف كتبًا كثيرة، فمن تصانيفه: معالم التنزيل فى التفسير، وهو الذى ترجمنا له، وسنتكلم عنه، وشرح السنة فى الحديث، والمصابيح فى الحديث أيضًا، والجمع بين الصحيحين، والتهذيب فى الفقه، وغير ذلك، وقد بورك له فى تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته[1].

التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه:

قال فى كشف الظنون[2]: «معالم التنزيل فى التفسير، للإمام محيى السنة، أبى محمد حسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى المتوفى سنة ٥١٦ ست عشرة وخمسمائة[3]، وهو كتاب متوسط، نقل فيه عن مفسرى الصحابة والتابعين ومن بعدهم، اختصره الشيخ تاج الدين أبو نصرى عبد الوهاب بن محمد الحسينى المتوفى سنة ٨٧٥ خمس وسبعين وثمانمائة». اهـ.

ووصفه الخازن فى مقدمة تفسيره بأنه «من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرز بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص

---

(١) انظر طبقات المفسرين للسيوطى ص١٣، ووفيات الأعيان جـ١ ص١٤٥، ١٤٦، والطبقات الكبرى لابن السبكى جـ٤ ص٢١٤، ٢١٥.
(٢) جـ٢ ص٢٨٥.
(٣) هكذا قال، والصحيح ما تقدم، وكثيرًا ما يخطئ صاحب كشف الظنون فى تعيين التواريخ.

الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصع بأحسن الإشارات، مخرج بأوضح العبارات، مفرغ فى قالب الجمال بأفصح مقال». اهـ.

وقال ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير[1]: «والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبى، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة». اهـ.

وقال فى فتاواه[2] - وقد سئل عن أى التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة؟ الزمخشرى؟ أم القرطبى؟ أم البغوى؟ أم غير هؤلاء؟ - فقال: «وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوى، لكنه مختصر من تفسير الثعلبى، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التى فيه، وحذف أشياء غير ذلك». اهـ.

وقال الكتانى فى الرسالة المستطرفة ص٥٨: «وقد يوجد فيه - يعنى معالم التنزيل - من المعانى والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه». اهـ.

وقد طبع هذا التفسير فى نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشى الدمشقى، كما طبع مع تفسير الخازن، وقد قرأت فيه فوجدته يتعرض لتفسير الآية بلفظ سهل موجز، وينقل ما جاء عن السلف فى تفسيرها، وذلك بدون أن يذكر السند، يكتفى فى ذلك بأن يقول مثلا: قال ابن عباس كذا وكذا، وقال مجاهد كذا وكذا، وقال عطاء كذا وكذا، والسر فى هذا هو أنه ذكر فى مقدمة تفسيره إسناده إلى كل من يروى عنهم، وبيَّن أن له طرقًا سواها تركها اختصارًا، ثم إنه إذا روى عمن ذكر أسانيده إليهم بإسناد آخر غير الذى ذكره فى مقدمة تفسيره فإنه يذكره عند الرواية، كما يذكر إسناده إذا روى عن غير من ذكر أسانيده إليهم من الصحابة والتابعين، كما أنه - بحكم كونه من الحفاظ المتقنين للحديث - كان يتحرى الصحة فيما يسنده إلى الرسول ﷺ، ويعرض عن المناكير وما لا تعلق له بالتفسير، وقد أوضح هذا فى مقدمة كتابه فقال: «وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ فى أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأمور الدين - فهى من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير». اهـ[3].

---

(١) ص١٩.   (٢) جـ٢ ص١٩٣.   (٣) جـ١ ص٩.

وقد لاحظت على هذا التفسير أنه يروى عن الكلبى وغيره من الضعفاء، كما لاحظت أنه يتعرض للقراءات، ولكن بدون إسراف منه فى ذلك، كما أنه يتحاشى ما ولع به كثير من المفسرين من مباحث الإعراب، ونكت البلاغة، والاستطراد إلى علوم أخرى لا صلة لها بعلم التفسير، وإن كان فى بعض الأحيان يتطرق إلى الصناعة النحوية ضرورة الكشف عن المعنى، ولكنه مقل لا يكثر، ووجدته يذكر أحيانًا بعض الإسرائيليات ولا يعقب عليها[(١)] ووجدته يورد بعض إشكالات على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[(٢)]، كما وجدته ينقل الخلاف عن السلف فى التفسير ويذكر الروايات عنهم فى ذلك، ولا يرجح رواية على رواية، ولا يضعف رواية ويصحح أخرى.

وعلى العموم فالكتاب فى جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور، وهو متداول بين أهل العلم.

* * *

٥- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز
لابن عطية

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المغربى الغرناطى[(٣)] الحافظ القاضى، ولى القضاء بمدينة المرية بالأندلس، ولما تولى توخى

---

(١) انظر ما ذكره فى قصة هاروت وماروت، فانظر ما رواه عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥١) من سورة البقرة: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ جـ١ ص٦٠٤ - ٦٠٩.

(٢) انظر ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٧) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ جـ١ ص٢٩٤.

(٣) اقتصرنا هنا على ما ذكره أبو حيان فى البحر المحيط جـ١ ص٩، وقد راجعت بعض الكتب فوجدت الاختلاف فى ذكر نسبه كثيرًا، ففى الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب «عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرءوف بن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد ابن خفاف بن أسلم بن مكرم المحاربى، يكنى أبو محمد، من ولد زيد بن محارب بن حفصة ابن قيس غيلان من مضر». اهـ.

وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة «عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم، وقيل: عبد الرحمن =

الحق وعدل فى الحكم وأعز الخطة، ويقال: إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولى قضاءها، فصُد عن دخولها، وصُرف منها إلى الرقة بالمغرب، واعتدى عليه رحمه الله، وكان مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وتوفى بالرقة سنة ست وأربعين وخمسمائة من الهجرة، وقيل غير ذلك.

مكانته العلميــة:

نشأ القاضى أبو محمد بن عطية فى بيت علم وفضل، فأبوه أبو بكر غالب بن عطية، إمام حافظ، وعالم جليل، رحل فى طلب العلم وتفقه على العلماء، وجده عطية أنسل كثيرًا لهم قدر وفيهم فضل، فلا عجب إذًا أن يشبه الفرع أصله.

كان أبو محمد بن عطية غاية فى الدهاء والذكاء وحسن الفهم وجلالة التصرف، شغوفًا باقتناء الكتب، وكان على مبلغ عظيم من العلم، فكان فقيهًا جليلا، عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير، نحويّا لغويّا، أديبًا شاعرًا، مفيدًا ضابطًا سنيّا فاضلا، وصفه صاحب قلائد العقيان بالبراعة فى الأدب، والنظم، والنثر، وذكر شيئًا من شعره، ووصفه أبو حيان فى مقدمة البحر المحيط بأنه «أجل من صنَّف فى علم التفسير، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير»(١).

روى عن أبيه، وأبى على الغسانى، والصفدى، وروى عنه أبو بكر بن أبى حمزة، وأبو القاسم بن حبيش، وأبو جعفر بن مضاء، وغيرهم.

وقد خلف من المؤلفات كتاب التفسير، المسمى بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، وهو الكتاب الذى ترجمنا له وسنتكلم عنه، كما ألف برنامجًا ضمنه مروياته وأسماء شيوخه، وقد حرر هذا الكتاب وأجاد فيه.

وعلى الجملة، فالقاضى أبو محمد بن عطية عالم له شهرته العلمية فى نواح

= ابن غالب ابن تمام بن عبد الرءوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطى صاحب التفسير الإمام أبو محمد. اهـ.

وفى كشف الظنون عند التعريف بكتابه المحرد الوجيز «أبو محمد عبد الحق بن أبى بكر بن غالب بن عطية الغرناطى» وفيه أيضًا «أبو محمد عبد الله بن عبد الحق». اهـ.

(١) البحر المحيط جـ١ ص٩.

مختلفة، وقد عده ابن فرحون فى الديباج المذهب من أعيان مذهب المالكية، كما عده السيوطى فى بغية الوعاة من شيوخ النحو وأساطين النحاة[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن عطية المسمى بـ «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين، وذلك راجع إلى أن مؤلفه أضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة، ورواجًا، وقبولا، وقد لخصه مؤلفه ـ كما يقول ابن خلدون فى مقدمته ـ من كتب التفاسير كلها ـ أى تفاسير المنقول ـ وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحى. اهـ[٢].

والحق أن ابن عطية أحسن فى هذا التفسير وأبدع، حتى طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته فى العربية وغيرها من النواحى العلمية المختلفة ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإنه لا يزال مخطوطًا إلى اليوم[٣]، وهو يقع فى عشر مجلدات كبار، ويوجد منه فى دار الكتب المصرية أربعة أجزاء فقط: الجزء الثالث، والخامس، والثامن، والعاشر، وقد رجعت إلى هذه الأجزاء وقرأت منها ما شاء الله أن أقرأ، فوجدت المؤلف يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه فى غير إكثار، وينقل عن ابن جرير الطبرى كثيرًا، ويناقش المنقول عنه أحيانًا، كما يناقش ما ينقله من غير ابن جرير ويرد عليه، وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربى، معنى بالشواهد الأدبية للعبارات، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعانى، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرض كثيرًا للقراءات وينزل عليها المعانى المختلفة.

ونجد أبا حيان فى مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير

(١) انظر ترجمة ابن عطية فى الديباج المذهب فى أعيان المذهب ص١٧٤، وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى ص٢٩٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٩١.

(٣) طبع الكتاب عدَّة طبعات محققة (د. مصطفى الذهبى).

الزمخشرى فيقول: «وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشرى ألخص، وأغوص»[١].

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين الكتابين ـ كتاب ابن عطية وكتاب الزمخشرى ـ فى فتاواه فيقول: «وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى، وأصح نقلا وبحثًا، وأبعد عن البدع وإن اشتمل عليه بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير». اهـ[٢]. كما يعقد مثل هذه المقارنة فى مقدمته فى أصول التفسير فيقول: «وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى، ولو ذكر كلام السلف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل؛ فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد ابن جرير الطبرى ـ وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا ـ ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة». اهـ[٣].

وأنا فى أثناء قراءتى فى هذا التفسير، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٦) من سورة يونس ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يقول ما نصه: «قالت فرقة هى الجمهور: الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله عز وجل، وروى فى ذلك حديثًا عن النبى ﷺ، رواه صهيب، وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق، وحذيفة، وأبى موسى الأشعرى...» ثم يقول «وقالت فرقة: الحسنى هى الحسنة، والزيادة هى تضعيف الحسنات إلى سبعمائة» فروتها حسب ما روى فى نص الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦١)، وهذا قول يعضده النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول»... ثم يأخذ فى ذكر طرق الترجيح للقول الثانى.

وهذا يدلنا على أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة، أو على الأصح يقدر ما ذهبت

(١) تفسير البحر المحيط جـ١ ص١٠.

(٢) فتاوى ابن تيمية جـ٢ ص١٩٤.

(٣) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٣.

إليه المعتـزلة فى مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأى الجـمهور، ولعل مثل هذا التصرف من ابن عطية هو الذى جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق.

* * *

٦- تفسـير القـرآن العظـيم لابـن كثيـر

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل ابن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البرصى ثم الدمشقى، الفقيه الشافعى، قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد مـوت أبيه، سمع من ابن الشحنة، والآمدى، وابن عساكر، وغيرهم، كـما لازم المزى وقرأ عليـه تهذيب الكمال، وصـاهره على ابنته، وأخذ عن ابن تيمية، وفتن بحبه، وامتُحن بسببه، وذكر ابن قاضى شهبة فى طبقاته: أنه كانت له خصوصية بابن تيميـة، ومناضلة عنه، واتباع له فى كثير من آرائه، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق، وامتُحن بسبب ذلك وأوذى.

وقال الداودى فى طبقـات المفسرين: «كـان قدوة العلماء والحفـاظ، وعمدة أهل المعـانى والألفاظ، ولى مـشيخـة أم الصالح بعد مـوت الذهبى، وبعد مـوت السبكى مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة، ثم أُخذت منه». اهـ[1].

وكان مولده سنة ٧٠٠هـ سبعمـائة أو بعدها بقليل، وتوفى فى شعبان سنة ٧٧٤هـ أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة، ودفن بمقـبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كف بصره فى آخر عمره، رحمه الله رحمة واسعة.

مكانته العلمية:

كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم، وقد شهد له العلماء بسعة علمه، وغزارة مادته، خصوصا فى التفسير والحـديث والتاريخ، قال عنه ابن حجر: «اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله، وجمع التفسير، وشرع فى كتاب كبير فى الأحكام لم يكمل،

---

(١) طبقات المفسرين للداودى ص٣٢٧.

وجمع التاريخ الذى سماه البداية والنهاية، وعمل طبقات الشافعية، وشرع فى شرح البخارى... وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة، وصارت تصانيفه فى البلاد فى حياته، وانتفع بها الناس بعد وفاته، ولم يكن على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى، وتمييز العالى من النازل، ونحو ذلك من فنونهم، وإنما هو من محدثى الفقهاء، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد»، وقال الذهبى عنه فى المعجم المختص: «الإمام المفتى، المحدث البارع، فقيه متفنن، محدث متقن، مفسر نقال، وله تصانيف مفيدة»، وذكره صاحب شذرات الذهب فقال: «كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم»، وقال ابن حبيب فيه: «زعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه فى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير، وقال فيه أحد تلاميذه ابن حجى: «أحفظ من أدركناه لمتون الحديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها، وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى عليه إلا واستفدت منه».

وعلى الجملة، فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه، وهما من خير ما ألف، وأجود ما أخرج للناس(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون فى التفسير المأثور، ويعتبر فى هذه الناحية الكتاب الثانى بعد كتاب ابن جرير؛ اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسرى السلف، ففسر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحًا وتعديلا، وقد طبع هذا التفسير مع معالم التفسير للبغوى، ثم طبع مستقلا فى أربعة أجزاء كبار(٢).

---

(١) انظر ترجمة ابن كثير فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة جـ١ ص٣٧٣ - ٣٧٤، وفى شذرات الذهب جـ٦ ص٢٣١ - ٢٣٢، وفى طبقات المفسرين للداودى ص٣٢٧.

(٢) وقد قام المرحوم الشيخ أحمد شاكر بطبع هذا الكتاب أخيرًا بعد أن جرده من الأسانيد.

وقد قدم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة، تعرض فيها لكثير من الأمور التى لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذى ذكره فى مقدمته فى أصول التفسير.

ولقد قرأت فى هذا التفسير فوجدته يمتاز فى طريقته بأنه يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعنى ويظهر المراد، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذى يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الكتاب أكثر ما عرف من كتب التفسير سردًا للآيات المتناسبة فى المعنى الواحد.

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله، يشرع فى سرد الأحاديث المرفوعة التى تتعلق بالآية، ويبين ما يحتج به وما لا يحتج به منها، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف.

ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال على بعض، ويضعف بعض الروايات، ويصحح بعضًا آخر منها، ويعدل بعض الرواة ويجرح بعضًا آخر[١]، وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال.

وكثيرًا ما نجد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير، وابن أبى حاتم، وتفسير ابن عطية، وغيرهم ممن تقدمه.

ومما يمتاز به ابن كثير، أنه ينبه إلى ما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويحذر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكرائها تارة أخرى.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**...﴾ إلى آخر القصة نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة، وعن وجودهم لها عند رجل من بنى إسرائيل كان من أبر الناس

---

(١) انظر إليه وقد ضعف أبا معشر نجيح بن عبد الرحمن المدنى الذى يروى عنه أبو حاتم، عند قوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ**﴾ جـ١ ص٢١٦، وانظر إليه وقد ضعف يحيى بن سعيد عند قوله تعالى فى الآية (٢٥١) من سورة البقرة: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ**﴾ الآية جـ١ ص١٠٨ - ١١٠.

بأبيه... إلخ، ويروى كل ما قيل فى ذلك عن بعض علماء السلف... ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه: «وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل، وهى مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب؛ فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم»(١).

ومثلا عند تفسير لأول سورة ﴿ق﴾ نراه يعرض لمعنى هذا الحرف فى أول السورة (ق) ويقول «... وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا «ق» جبل محيط بجميع الأرض يقال له: جبل قاف، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم مما لا يصدق ولا يكذب، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة، مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبى ﷺ، وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته؟. وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول، ويحكم فيه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم»(٢). اهـ.

كما نلاحظ على ابن كثير أنه يدخل فى المناقشات الفقهية، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام، وإن شئت أن ترى مثالا لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ ... الآية، فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية، وذكر أقوال العلماء فيها، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه(٣)، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة أيضًا: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ**

---

(١) جـ١ ص١٠٨ - ١١٠.

(٢) جـ٤ ص٢٢١.

(٣) جـ١ ص٢١٦، ٢١٧.

حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ... الآية، فإنه قد تعرض لما يشترط فى نكاح الزوج المحلل، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم(١).

وهكذا يدخل ابن كثير فى خلافات الفقهاء، ويخوض فى مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام، ولكنه مع هذا مقتصد مقل لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين.

وبالجملة، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور، وقد شهد له بعض العلماء، فقال السيوطى فى ذيل تذكرة الحافظ، والزرقانى فى شرح المواهب: إنه لم يؤلف على نمطه مثله(٢).

* * *

٧- الجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف الجواهر الحسان، هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى، الجزائرى، المغربى، المالكى، الإمام الحجة، العالم العامل، الزاهد الورع، ولى الله الصالح العارف بالله، كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها، ومن خيار عباد الله الصالحين، قال ابن سلامة البكرى: كان شيخنا الثعالبى، رجلا صالحًا، زاهدًا، عالمًا، عارفًا، وليا من أكابر الأولياء، وبالجملة فقد اتفق الناس على صلاحه وإمامته، وأثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح، كالإمام الأبى، والولى العراقى وغيرهما، وقد عرَّف هو بنفسه فى مواضع من كتبه، وبيَّن أنه رحل إلى مصر، ثم رجع إلى تونس، ويقول هو: لم يكن بتونس يومئذ من يفوتنى فى علم الحديث، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه، تواضعا منهم وإنصافًا، واعترافًا بالحق، وكان بعض المغاربة

---

(١) جـ١ ص٢٧٧ - ٢٧٩، وانظر إليه قبل ذلك مباشرة تجده قد أطال الكلام عن الخلع ومذاهب الفقهاء فيه.

(٢) الرسالة المستطرفة للكتانى ص١٤٦.

يقول لى لما قدمت من المشرق: أنت آية فى علم الحديث، وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم فى تلك البلاد.

وكان الثعالبى إمامًا علامة مصنفًا، خلَّف للناس كتبًا كثيرة نافعة، منها: الجواهر الحسان فى تفسير القرآن، وهو التفسير الذى نحن بصدده، وكتاب الذهب الإبريز فى غرائب القرآن العزيز، وتحفة الإخوان فى إعراب بعض آيات القرآن، وكتاب جامع الأمهات فى أحكام العبادات، وغير ذلك من الكتب النافعة فى نواح علمية مختلفة، وكانت وفاته سنة ٨٧٦هـ ست وسبعين وثمانمائة من الهجرة أو فى أواخر التى قبلها، عن نحو تسعين سنة، ودفن بمدينة الجزائر، فرحمه الله ورضى عنه(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

نستطيع أن نأخذ فكرة عامة واضحة عن هذا التفسير من كلام مؤلفه نفسه الذى ذكره فى مقدمته وخاتمته، يقول الثعالبى رحمه الله فى مقدمة تفسيره بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله: «... فإنى قد جمعت لنفسى ولك فى هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عينى وعينك فى الدارين، فد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة، من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات وذلك قريب من مائة تأليف، وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين ومعدود فى المحققين، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئًا فمن تأليفه نقلت، وعلى لفظ صاحبه عولت، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع فى الزلل، وإنما هى عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه، وما انفردت بنقله عن الطربى، فمن اختصار الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمى النحوى لتفسير الطبرى نقلت، لأنه اعتنى بتهذيبه».

ثم أبان المؤلف عن رموز الكتاب فقال: «وكل ما فى آخره انتهى فليس هو من كلام ابن عطية، بل ذلك مما انفردت بنقله من غيره، ومن أشكل عليه لفظ فى هذا المختصر فليراجع الأمهات المنقول عنها فليصلحه منها، ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله

(١) انظر ترجمته فى الضوء اللامع جـ٤ ص١٥٢، وفى نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص١٧٣ - ١٧٥.

فيقع فى الزلل من حيث لا يشعر، وجعلت علامة التاء لنفسى بدلا من قلت، ومن شاء كتبها قلت، وأما العين فلابن عطية، وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقصى مختصر أبى حيان غالبا، وجعلت الصاد علامة عليه، وربما نقلت عن غيره معزوا لمن عنه نقلت، وكل ما نقلته عن أبى حيان ـ وإنما نقلى له بواسطة الصفاقصى ـ أقول: قال الصفاقصى، وجعلت علامة ما زدته على أبى حيان (م) وما يتفق لى إن أمكن فعلامته (قلت).

«وبالجملة فحيث أطلق، فالكلام لأبى حيان... ثم قال: وما نقلته من الأحاديث الصحاح والحسان عن غير البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى فى باب الأذكار والدعوات، فأكثره من النووى وسلاح المؤمن، وفى الترغيب والترهيب وأصول الآخرة، فمعظمه من التذكرة للقرطبى، والعاقبة لعبد الحق، وربما زدت زيادة كثيرة من مصابيح البغوى وغيره، كما ستقف إن شاء الله تعالى على كل ذلك معزوّا لمحاله، وبالجملة فكتابى هذا محشو بنفائس الحكم، وجواهر السنن الصحيحة والحسان، المأثورة عن سيدنا محمد ﷺ، وسميته بالجواهر الحسان فى تفسير القرآن...» ثم نقل كثيراً مما جاء فى مقدمة تفسير ابن عطية، فذكر بابًا فى فضل القرآن؛ وبابًا فى فضل تفسير القرآن وإعرابه، وفصلا فيما قيل فى الكلام فيه، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين، وفصلا فى اختلاف الناس فى معنى قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وفصلا فى ذكر الألفاظ التى فى القرآن مما للغات العجم بها تعلق، وبابًا فى تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية... ثم شرع فى التفسير بعد ذلك كله، وفى كل ما تقدم يعتمد على ابن عطية وينقل عنه[(١)].

وفى خاتمة التفسير يقول: «وقد أودعته بحمد الله جزيلا من الدرر، وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية، وأسقطت كثيراً من التكرار وما كان من الشواذ فى غاية الوهى، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها، مميزة معزوة لمحالها، منقولة بألفاظها، وتوخيت فى جميع ذلك الصدق والصواب»[(٢)].

هذا هو وصف المؤلف لكتابه وبيانه له، ومنه يتضح جليا أن الكتاب عبارة عن

---

(١) جـ١ من أول الجزء إلى ص٥.

(٢) جـ٤ ص٤٥٤.

مختصر لتفسير ابن عطية، مع زيادة نقول، نقلها الثعالبى عمن سبقه من المفسرين، ومن أجل هذا نستطيع أن نقول: إن الثعالبى فى تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل، وأثر فكرى ضئيل.

والكتاب مطبوع فى الجزائر فى أربعة أجزاء، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بالمكتبة الأزهرية، وفى آخر الكتاب معجم مختصر فى شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة، ألحقه به مؤلفه، وزاد فيه كلمات أخرى وردت فى غيره يحتاج إلى معرفتها، وكلها مما جاء فى الموطأ وصحيحى البخارى ومسلم وغيرهما من الكتب الستة، وبعد هذا ذكر الثعالبى مرائيه التى رأى فيها النبى ﷺ .

وقد قرأت فى هذا التفسير فلاحظت أنه التزم ما ذكره فى مقدمته، فنقل عمن ذكرهم، ورمز إليهم بالحروف المذكورة، ووجدته يتعرض للقراءات أحيانًا، ويدخل فى الصناعة النحوية ناقلا عمن ذكره ومن عند نفسه، ورأيته يستشهد فى بعض المواضع بالشعر العربى على المعنى الذى يذكره، وهو إذ يذكر الروايات المأثورة فى التفسير يذكرها بدون أن يذكر سنده إلى من يروى عنه، وقد وجدت الثعالبى يذكر بعض الروايات الإسرائيلية، ولكنه يتعقب ما يذكره بما يفيد عدم صحته، أو على الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة النمل ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ نجده يذكر بعض الأخبار الإسرائيلية، ثم يقول بعد الفراغ منها: «والله أعلم بما صح من ذلك»[١]، ومثلا عندما تكلم عن (بلقيس) فى نفس السورة السابقة نجده يقول: «وأكثر بعض الناس فى قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية، أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن، ذات ملك عظيم، وكانت كافرة من قوم كفار»[٢].

وجملة القول، فإن الكتاب مفيد، جامع لخلاصات كتب مفيدة، وليس فيه ما فى غيره من الحشو المخل، والاستطراد الممل.

* * *

---

(١) جـ٣ ص١٥٩. (٢) المرجع السابق.

٨- الدر المنثور، فى التفسير المأثور للسيوطى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر ابن محمد، السيوطى الشافعى، المسند المحقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة، ولد فى رجب سنة ٨٤٩هـ تسع وأربعين وثمانمائة، وتوفى والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر، وأسند وصايته إلى جماعة، منهم الكمال بن الهمام، فقرره فى وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين، وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عدهم تلميذه الداودى فبلغ بهم واحداً وخمسين، كما عد مؤلفاته فبلغ بها ما يزيد على الخمسمائة مؤلف، وشهرة مؤلفاته تغنى عن ذكرها، فقد اشتهرت شرقًا وغربًا ورُزقت قبول الناس، وكان السيوطى ـ رحمه الله ـ آية فى سرعة التأليف حتى قال تلميذه الداودى: عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفًا وتحريراً.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالا وغريبًا، ومتنًا وسنداً، واستنباطا للأحكام، ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث، قال: لو وجدت أكثر لحفظت، ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة، وانقطع إلى الله تعالى، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه بالتنفيس، وأقام فى روضة المقياس ولم يتحول عنها إلى أن مات، وله مناقب وكرامات كثيرة، وله شعر كثير جيد، أغلبه فى الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية، وتوفى فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١هـ إحدى عشرة وتسعمائة فى منزله بروضة المقياس، فرضى الله عنه وأرضاه[١].

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ٨ ص٥١ - ٥٥.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

عرَّف الجلال السيوطى نفسه هذا التفسير، وبيَّن لنا الحامل له على تأليفه، وذلك بمجموع ما ذكره فى آخر كتاب الإتقان له، وما ذكره فى مقدمة الدر المنثور نفسه، فقال فى آخر الإتقان جـ٢ ص١٨٣: «وقد جمعت كتابًا مسندًا فيه تفاسير النبى ﷺ، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف، وقد تم ولله الحمد فى أربع مجلدات، وسميته: ترجمان القرآن». اهـ.

وقال فى مقدمة الدر المنثور جـ١ ص٢ «... وبعد، فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن - وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ - وتم بحمد الله فى مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات[1]، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم فى الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته بالدر المنثور، فى التفسير المأثور...». اهـ.

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطى اختصر كتابه الدر المنثور من كتابه ترجمان القرآن، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذى أخذها منه.

ويقول السيوطى فى آخر الإتقان جـ٢ ص١٩٠: «وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المعقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك، بحيث لا يحتاج معه إلى غيره أصلا، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين، وهو الذى جعلت هذا الكتاب - يعنى الإتقان - مقدمة له». اهـ.

ومن هذه العبارة يتبين لنا أن كتاب (مجمع البحرين، ومطلع البدرين) يشبه فى منهجه وطريقته - إلى حد كبير - تفسير ابن جرير الطبرى، ولكن لا ندرى إذا كان السيوطى قد أتم هذا التفسير أم لا، ويظهر لنا أنه لا صلة بينه وبين كتاب الدر المنثور، وذلك لأنى استعرضت كتاب الدر المنثور فوجدته لا يتعرض فيه مطلقًا لما ذكره من

---

(١) أى طرقًا كثيرة.

منهجه فى مجمع البحرين ومطلع البدرين، فلا استنباط، ولا إعراب، ولا نكات بلاغية، ولا محسنات بديعية، ولا شىء مما ذكر أنه سيعرض له فى مجمع البحرين ومطلع البدرين، وكل ما فيه هو سرد الروايات عن السلف فى التفسير بدون أن يعقب عليها، فلا يعدل ولا يجرح، ولا يضعف ولا يصحح، فهو كتاب جامع فقط لما يروى عن السلف فى التفسير، أخذه السيوطى من البخارى، ومسلم، والنسائى والترمذى، وأحمد، وأبى داود، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وعبد بن حميد، وابن أبى الدنيا، وغيرهم ممن تقدمه ودوَّن التفسير.

والسيوطى رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية، وهو مع جلالة قدره، ومعرفته بالحديث وعلله، لم يتحر الصحة فيما جمع فى هذا التفسير، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل؛ فالكتاب يحتاج إلى تصفية حتى يتميز لنا غثه من سمينه، وهو مطبوع فى ست مجلدات، ومتداول بين أهل العلم.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن كتاب الدر المنثور، هو الكتاب الوحيد الذى اقتصر على التفسير المأثور من بين هذه الكتب التى تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التى نقلها شيئًا من عمل الرأى كما فعل غيره.

وإنما اعتبرنا كل هذه الكتب من كتب التفسير بالمأثور؛ نظرًا لما امتازت به عما عداها من الإكثار فى النقل، والاعتماد على الرواية، وما كان وراء ذلك من محاولات تفسيرية عقلية، أو استطرادات إلى نواح تتصل بالتفسير، فذلك أمر يكاد يكون ثانويّاً بالنسبة لما جاء فيها من روايات عن السلف فى التفسير.

وإلى هنا نمسك عن الكلام عن بقية الكتب المؤلفة فى التفسير المأثور لما قدمناه من عدم وصول جميعها إلينا، ومن مخافة التطويل... ولعل القارئ الكريم يتفق معى على أن هذه الكتب التى تقدمت، يغنى الكلام عنها عن الكلام عما عداها من الكتب التى نهجت هذا المنهج وسلكت هذا الطريق.

* * *

الفصل الثاني

التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث

معنى التفسير بالرأى ـ موقف العلماء من التفسير بالرأى ـ العلوم التى يحتاج إليها المفسر ـ مصادر التفسير ـ الأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره ـ أنواع علوم القرآن ـ المنهج الذى يجب على المفسر أن ينهجه فى تفسيره ـ منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى ـ التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى.

معنى التفسير بالرأى:

يطلق الرأى على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس، ومنه أصحاب الرأى، أى أصحاب القياس.

والمراد بالرأى هنا الاجتهاد، وعليه فالتفسير بالرأى، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم فى القول، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها، واستعانته فى ذلك بالشعر الجاهلى، ووقوفه على أسباب النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدوات التى يحتاج إليها المفسر، وسنذكرها قريبًا إن شاء الله تعالى.

موقف العلماء من التفسير بالرأى:

اختلف العلماء من قديم الزمان فى جواز تفسير القرآن بالرأى، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين:

فقوم تشددوا فى ذلك فلم يجرءوا على تفسير شىء من القرآن، ولم يبيحوه لغيرهم وقالوا: لا يجوز لأحد تفسير شىء من القرآن وإن كان عالمًا أديبًا متسعًا فى معرفة الأدلة والفقه والنحو والأخبار والآثار، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى النبى ﷺ وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة ﷺ، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين[(١)].

---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهانى، الملحقة بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ص٤٢٢، ٤٢٣.

وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك، فلم يروا بأسًا من أن يفسروا القرآن باجتهادهم، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فموسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده.

والفريقان على طرفى نقيض فيما يبدو، وكلٌّ يعزز رأيه ويقويه بالأدلة والبراهين.

أما الفريق الأول ـ فريق المانعين ـ فقد استدلوا بما يأتى:

أولا: قالوا: إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم منهى عنه، فالتفسير بالرأى منهى عنه، دليل الصغرى: أن المفسر بالرأى ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن، والقول بالظن قول على الله بغير علم، ودليل الكبرى: قوله تعالى: ﴿**وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ وهو معطوف على ما قبله من المحرمات فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الأعراف: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...**﴾ ... الآية، وقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة الإسراء: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾.

وقد رد المجيزون هذا الدليل فقالوا: نمنع الصغرى؛ لأن الظن نوع من العلم، إذ هو إدراك الطرف الراجح، وعلى فرض تسليم الصغرى فإنا نمنع الكبرى؛ لأن الظن منهى عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم اليقينى القطعى، بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع، أو دليل عقلى موصل لذلك، أما إذا لم يوجد شىء من ذلك، فالظن كافٍ هنا، لاستناده إلى دليل قطعى من الله سبحانه وتعالى على صحة العمل به إذ ذاكَ، كقوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقوله ﷺ: «جعل الله للمصيب أجرين وللمخطئ واحدًا» ولقول رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «فبم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيى، فضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»[1].

ثانيًا: استدلوا بقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ (النحل: ٤٤) فقد أضاف البيان إليه، فعلم أنه ليس لغيره شىء من البيان لمعانى القرآن.

---

(١) الحديث حوله كلام لا يضر. (د. مصطفى الذهبى).

وأجاب المجيزون عن هذا الدليل فقالوا: نعم إن النبى ﷺ مأمور بالبيان، ولكنه مات ولم يبين كل شىء، فما ورد بيانه عنه ﷺ ففيه الكفاية عن فكرة من بعده، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده، فيستدلون بما ورد بيانه على ما لم يرد، والله تعالى يقول فى آخر الآية: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثالثا: استدلوا بما ورد فى السنة من تحريم القول فى القرآن بالرأى، فمن ذلك:

١- ما رواه الترمذى عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: «اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم، فمن كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[١]:

٢- ما زواه الترمذى وأبو داود عن جندب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٢].

وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة:

منها: أن النهى محمول على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن، ومتشابهه، من كل ما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبى ﷺ والصحابة عليهم رضوان الله.

ومنها: أنه أراد بالرأى الرأى الذى يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه، أما الذى يشدده البرهان، ويشهد له الدليل، فالقول به جائز، فالنهى على هذا متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له فى الشىء رأى وميل إليه من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق هواه، ليحتج به على تصحيح رأيه الذى يميل إليه، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لما لاح له هذا المعنى الذى حمل القرآن عليه، ومتناول لمن كان جاهلا بالحق ولكنه يحمل الآية التى تحتمل أكثر من وجه على ما يوافق رأيه وهواه، ويرجح هذا الرأى بما يتناسب مع ميوله، ولولا هذا لما ترجح عنده ذلك الوجه، ومتناول أيضًا لمن كان له غرض صحيح ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآنى يعلم أنه ليس مقصودًا به ما أراد، مثل الداعى إلى مجاهدة النفس الذى يستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طـه: ٢٤) ويريد من فرعون النفس، ولا شك أن مثل هذا قائل فى القرآن برأيه.

---

(١) سنن الترمذى (فى أبواب التفسير) جـ٢ ص١٥٧.
(٢) المرجع السابق.

ومنها: أن النهى محمول على من يقول فى القرآن بظاهر العربية، من غير أن يرجع إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بيانًا لكتاب الله تعالى، وبدون أن يرجع إلى السماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من المبهمات، والحذف، والاختصار، والإضمار، والتقديم، والتأخير، ومراعاة مقتضى الحال، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، وما إلى ذلك من كل ما يجب معرفته لمن يتكلم فى التفسير، فإن النظر إلى ظاهر العربية وحده لا يكفى، بل لا بد من ذلك أولا، ثم بعد ذلك يكون التوسع فى الفهم والاستنباط.

فمثلا قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ (الإسراء: ٥٩) معناه: وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة، وآية بينة على صدق رسالته، فظلموا بعقرها أنفسهم، ولكن الواقف عند ظاهر العربية وحدها بدون أن يستظهر بشىء مما تقدم، يظن أن مبصرة من الإبصار بالعين، وهو حال من الناقة، وصف لها فى المعنى، ولا يدرى بعد ذلك بم ظلموا، ولا من ظلموا.

كل من هذه الأجوبة الثلاثة، يمكن أن يجاب به على من يستند فى قوله بحرمة التفسير بالرأى على هذين الحديثين المتقدمين، وهى أجوبة سليمة دامغة، كافية لإسقاط حجتهما والاعتماد عليهما.

هذا ويمكن الإجابة عن حديث جندب ـ زيادة عما تقدم ـ بأن هذا الحديث لم تثبت صحته؛ لأن من رواته سهيل بن أبى حزم، وهو متكلم فيه، قال فيه أبو حاتم: ليس بالقوى، وكذا قال البخارى والنسائى، وضعفه ابن معين، وقال فيه الإمام أحمد: روى أحاديث منكرة[1]، والترمذى نفسه يقول بعد روايته لهذا الحديث: «وقد تكلم بعض أهل الحديث فى سهيل بن أبى حزم».

رابعًا: ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، من الآثار التى تدل على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ويتحرجون من القول فيه بآرائهم.

فمن ذلك: ما جاء عن أبى مليكة أنه قال: سئل أبو بكر الصديق ﷺ فى تفسير

(١) انظر ميزان الاعتدال جـ١ ص٤٣٢، وتهذيب التهذيب جـ٤ ص٢٦١.

حرف من القرآن فقال: «أى سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى، وأين أذهب، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى؟».

وما ورد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئًا.

وما روى عن الشعبى أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن، والروح، والرأى».

وهذا ابن مجاهد يقول: «قال رجل لأبى: أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبى، ثم قال: إنى إذًا لجرىء، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى ﷺ رضى الله عنهم».

وهذا هو الأصمعى إمام اللغة، كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز فى تفسير الكتاب، بل والسنة، فإذا سئل عن معنى شىء من ذلك يقول: «العرب تقول: معنى هذا كذا، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو».

... وغير هذا كثير من الآثار الدالة على المنع من القول فى التفسير بالرأى.

وقد أجاب المجيزون عن هذه الآثار: بأن إحجام من أحجم من السلف عن التفسير بالرأى، إنما كان منهم ورعًا، واحتياطًا لأنفسهم، مخافة ألا يبلغوا ما كلفوا به من إصابة الحق فى القول، وكانوا يروز أن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا وكذا، فأمسكوا عنه خشية أن لا يوافقوا مراد الله عز وجل، وكان منهم من يخشى أن يفسر القرآن برأيه فيجعل فى التفسير إمامًا يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه، فربما جاء أحد المتأخرين وفسر القرآن برأيه فوقع فى الخطأ، ويقول: إمامى فى التفسير بالرأى فلان من السلف.

ويمكن أن يقال أيضًا: إن إحجامهم كان مقيدًا بما لم يعرفوا وجه الصواب فيه، أما إذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتحرجون من إبداء ما يظهر لهم ولو بطريق الظن، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول - وقد سئل عن الكلالة: «أقول فيها برأيى، فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان غير ذلك فمنى ومن الشيطان: الكلالة كذا وكذا».

ويمكن أن يقال أيضًا: إنما أحجم من أحجم، لأنه كان لا يتعين للإجابة، لوجود

من يقوم عنه فى تفسير القرآن وإجابة السائل، وإلا لكانوا كاتمين للعلم، وقد أمرهم الله ببيانه للناس.

وهناك أجوبة أخرى غير ما تقدم، والكل يوضح لنا سر إحجام من أحجم من السلف عن القول فى التفسير برأيهم، ويبين أنه لم يكن عن اعتقاد منهم بعدم جواز التفسير بالرأى.

وأما الفريق الثانى - فريق المجوزين - فقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتى:

أولا: بنصوص كثيرة وردت فى كتاب الله تعالى: منها قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (**محمد: ٢٤**)، وقوله: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ (**ص: ٢٩**)، وقوله: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (**النساء: ٨٣**)، ووجه الدلالة فى هذه الآيات: أنه تعالى حث فى الآيتين الأوليين على تدبر القرآن والاعتبار بآياته، والاتعاظ بعظاته، كما دلت الآية الأخيرة على أن فى القرآن ما يستنبطه أولو الألباب باجتهادهم، ويصلون إليه بإعمال عقولهم، وإذا كان قد حثنا على التدبر، وتعبدنا بالنظر فى القرآن واستنباط الأحكام منه، فهل يعقل أن يكون تأويل ما لم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء، مع أنه طريق العلم، وسبيل المعرفة والعظة؟ لو كان ذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم، ولما توصلنا لشىء من الاستنباط، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالى.

ثانيًا: قالوا: لو كان التفسير بالرأى غير جائز لما كان الاجتهاد جائزًا، ولتعطل كثير من الأحكام، وهذا باطل بيِّن البطلان، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحًا إلى اليوم أمام أربابه، والمجتهد فى حكم الشرع مأجور أصاب أو أخطأ، والنبى ﷺ لم يفسر كل آيات القرآن، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام.

ثالثًا: استدلوا بما ثبت من أن الصحابة - رضي الله عنهم - قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه فى تفسير القرآن من النبى ﷺ، إذ أنه لم يبين لهم كل معانى القرآن، بل بيَّن لهم بعض معانيه، وبعضه الآخر توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم، ولو كان القول بالرأى فى القرآن محظورًا لكانت الصحابة

قد خالفت ووقعت فيما حرم الله، ونحن نعيذ الصحابة من المخالفة والجرأة على محارم الله.

رابعًا: قالوا: إن النبى ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، فقال فى دعائه له: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل» فلو كان التأويل مقصورًا على السماع والنقل كالتنزيل، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول ﷺ لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع، ذلك هو التفسير بالرأى والاجتهاد، وهذا بيِّن لا إشكال فيه.

هذه هى أدلة الفريقين، وكلٌ يحاول بما ذكر من الأدلة أن يثبت قوله ويركز مدعاه، والغزالى فى الإحياء، بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بأن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه - يقول: «فبطل أن يشترط السماع فى التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله»(١) كما قال قبل ذلك بقليل: «إن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبًا، ومتسعا بالغًا، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه»(٢).

والراغب الأصفهانى - بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما فى مقدمة التفسير - يقول: «وذكر بعض المحققين: أن المذهبين هما الغلو والتقصير، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيرًا مما يحتاج إليه، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]». اهـ(٣).

حقيقة الخلاف:

ونحن مع هذا البعض الذى نقل عنه الراغب هذا التحقيق إن وقف الفريق الأول عند المنقول فلم يتجاوزه، وأجاز الفريق الثانى لكل أحد الخوض فى التفسير والكلام فيه؛ إذ أن الجمود على المنقول تقصير وتفريط بلا نزاع، والخوض فى التفسير لكل إنسان غلو وإفراط بلا جدال.

ولكن لو رجعنا إلى هؤلاء المتشددين فى التفسير وعرفنا سر تشددهم فيه، ثم

---

(١) الإحياء جـ٣ ص١٢٧.
(٢) الإحياء جـ٣ ص١٣٦.
(٣) مقدمة التفسير للراغب ص٤٢٣.

رجعنا إلى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأى ووقفنا على ما شرطوه من شروط لا بد منها لمن يتكلم فى التفسير برأيه، وحللنا أدلة الفريقين تحليلا دقيقًا، لظهر لنا أن الخلاف لفظى لا حقيقى، ولبيان ذلك نقول:

الرأى قسمان: قسم جار على موافقة كلام العرب ومناحيهم فى القول، مع موافقة الكتاب والسنة، ومراعاة سائر شروط التفسير، وهذا القسم جائز لا شك فيه، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى.

وقسم غير جار على قوانين العربية، ولا موافق للأدلة الشرعية، ولا مستوفٍ لشرائط التفسير، وهذا هو مورد النهى ومحط الذم، وهو الذى يرمى إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: «ستجدون أقوامًا يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، وإياكم والتنطع» وكلام عمر إذ يقول: «إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس الملك على أخيه» وكلامه إذ يقول: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه؛ ولا من فاسق بيِّن فسقه، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه، ثم تأوله على غير تأويله»... فكل هذا ونحوه، وارد فى حق من لا يراعى فى تفسير القرآن قوانين اللغة ولا أدلة الشريعة، جاعلا هواه رائده، ومذهبه قائده، وهذا هو الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى، وقد قال ابن تيمية ـ بعد أن ساق الآثار عمن تحرج من السلف من القول فى التفسير: «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيها علموه، وسكتوا عما جهلوه، هذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، ولما جاء فى الحديث المروى من طرق «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار». اهـ[1].

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٣١، ٣٢.

وإذ قد علمنا أن التفسير بالرأى قسمان: قسم مذموم غير جائز، وقسم ممدوح جائز، وتبين لنا أن القسم الجائز محدود بحدود، ومقيد بقيود، فلا بد لنا من أن نعرض هنا لما ذكروه من العلوم التى يحتاج إليها المفسر، وما ذكروه من الأدوات التى إذا توافرت لديه وتكاملت فيه، خرج عن كونه مفسرًا للقرآن بمجرد الرأى، ومحض الهوى(١).

* * *

العلوم التى يحتاج إليها المفسر

اشترط العلماء فى المفسر الذى يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط، أن يكون ملمّا بجملة من العلوم التى يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيرًا عقليًا مقبولا، وجعلوا هذه العلوم بمناسبة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ، وتحميه من القول على الله بدون علم، وإليك هذا العلوم مفصلة، مع توضيح ما لكل علم منها من الأثر فى الفهم وإصابة وجه الصواب:

الأول: علم اللغة: لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، قال مجاهد: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالمًا الغات العرب»، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر فى ذلك؛ لأن اليسير لا يكفى؛ إذ ربما كان اللفظ مشتركا، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد.

الثانى: علم النحو: لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب، فلا بد من اعتباره، أخرج أبو عبيدة عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال: حسن فتعلمها؛ فإن الرجل يقرأ الآية فيعيى بوجهها فيهلك فيها.

الثالث: علم الصرف: وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ، قال ابن فارس: «ومن فاته

---

(١) رجعنا فى هذا البحث إلى مقدمة تفسير القرطبى جـ١ ص٣١ - ٣٥، والإحياء للغزالى جـ٣ ص١٣٤ - ١٤٢، والإتقان جـ٢ ص١٧٩، ١٨٠، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهانى ص٤٢٢ - ٤٢٥، ومقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٩ - ٣٢.

المعظم؛ لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها»، وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال: «من بدع التفاسير قول من قال: إن الإمام فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١): جمع أم، وأن الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف؛ فإن أُما لا تجمع على إمام»[١].

الرابع: الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين، اختلف باختلافهما، كالمسيح مثلا، هل هو من السياحة أو من المسح؟.

الخامس والسادس والسابع: علوم البلاغة الثلاثة (المعانى، والبيان، والبديع) فعلم المعانى، يعرف به خواص التراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى، وعلم البيان، يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها، وعلم البديع، يعرف به وجوه تحسين الكلام، وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وذلك لا يدرك إلا بهذه العلوم.

الثامن: علم القراءات: إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض.

التاسع: علم أصول الدين: وهو علم الكلام، وبه يستطيع المفسر أن يستدل على ما يجب فى حقه تعالى، وما يجوز، وما يستحل، وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات، والمعاد، وما إلى ذلك نظرة صائبة، ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات.

العاشر: علم أصول الفقه: إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهى، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم.

الحادى عشر: علم أسباب النزول: إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية.

---

(١) ونص عبارة الزمخشرى: ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أُم وأن الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم، وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسن والحسين، وألا يفتضح أولاد الزنى، وليت شعرى أيهما أبدع؟ أصحة لفظه؟ أم بهاء حكمته؟. اهـ.

الثانى عشر: علم القصص: لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أُجمل منها فى القرآن.

الثالث عشر: علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعلم المحكم من غيره، ومن فقد هذه الناحية، ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال والإضلال.

الرابع عشر: الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، ليستعين بها على توضيح ما يشكل عليه.

الخامس عشر: علم الموهبة: وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ **(البقرة: ٢٨٢)** وبقوله ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لا يعلم»، قال السيوطى بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التى لا بد منها للمفسر: «ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول: هذا شىء ليس فى قدرة الإنسان، وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد، قال فى البرهان: اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ولا تظهر له أسراره، وفى قلبه بدعة، أو كبر، أو هوًى، أو حب دنيا، أو وهو مصر على دنب، أو غير متحقق بالإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض».

قلت (أى السيوطى): وفى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ **(الأعراف: ١٤٦)** قال ابن عيينة: أنزع عنهم فهم القرآن، أخرجه ابن أبى حاتم[1]. اهـ.

وهذه هى العلوم التى اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى، وقد ذكرناها مسهبة مفصلة، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضًا وأعرض عن بعض آخر، ومنهم من أدمج بعضها فى بعض وضغطها حتى كانت أقل عددًا مما ذكرنا، وليس هذا العدد الذى ذكرنا حاصرًا لجميع العلوم التى يتوقف عليها التفسير، فإن القرآن ـ مثلا ـ قد اشتمل على أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، وهى أمور تقتضى الإلمام بعلمى

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٠ - ١٨٢ ـ وقد رجعنا فى هذا البحث إلى الإتقان جـ٢ ص١٨٠ - ١٨٢.

التاريخ وتقويم البلدان، لمعرفة العصور والأمكنة التى وجدت فيها تلك الأمم، ووقعت فيها هذه الحوادث.

وأرى أن أسوق هنا مقالة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ فى مقدمة تفسيره تتميمًا للفائدة، وإليك نص هذه المقالة التى اقتبسها من دروس أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده عليه رضوان الله.

قال رحمه الله: «للتفسير مراتب: أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف النفس عن الشر، ويجذبها إلى الخير، وهذه هى التى قلنا: إنها متيسرة لكل أحد ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر: ١٧) وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن، وبحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتفٍ بقبول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيرًا من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعانٍ ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد، من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقًا، أو على وجه مخصوص، ولكنه جاء فى القرآن بمعانٍ أخرى، كقوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾ (الأعراف: ٥٣) فما هذا التأويل؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التى حدثت فى الملة، ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب، فكثيرًا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى، فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه، فربما استعمل بمعانٍ مختلفة كلفظ الهداية وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته.

ثانيها: الأساليب، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب

الرفيعة، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه، نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة، ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب. ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع، أتحسبون أن ذلك كان طبيعيًا لهم؟ كلا وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم، ولو كان طبعيًا ذاتيًا لما فقدوه فى مدة خمسين سنة بعد الهجرة.

ثالثها: علم أحوال البشر، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبيَّن فيه ما لم يبين فى غيره، بيَّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم، والسنن الإلهية فى البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها، فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير، علويه وسفليه، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه.

قال الأستاذ الإمام: أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية (البقرة: ٢١٣)، وهو لا يعرف أحوال البشر، وكيف اتحدوا، وكيف تفرقوا، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها، وهل كانت نافعة أو ضارة، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم.

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية، وعن آياته فى السموات والأرض، وفى الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علمًا، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة.

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى، أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال، وأن النبى ﷺ بعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها، إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه؟!.

هل يكتفى من علماء القرآن ـ دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد ـ بأن يقولوا تقليدًا لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة؟ كلا.

وأقول الآن: يروى عن عمر ؓ أنه قال: إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة. اهـ. بالمعنى، والمراد: أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله، يجهل تأثير هدايته، وعناية الله يجعله مغيرًا لأحوال البشر، ومخرجًا لهم من الظلمات إلى النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى، كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر، وتأثير تلك الآداب من أين جاء.

خامسها: العلم بسيرة النبى ﷺ وأصحابه، وما كان عليه من علم وعمل، وتصرف فى الشئون دنيويها وأخرويها». اهـ[1].

هذه هى عبارة الأستاذ الشيخ رشيد رضا بنصها، وفيها تركيز وإدماج لبعض ما قلناه من قبل، وفيها شرح وإيضاح لبعض آخر منه، وهى تلقى ضوءًا على ما تقدم، وتوضح بعض ما فيه من إيجاز.

* * *

مصادر التفسير

خرجنا من المعركة التى قامت بين المتحرجين من القول فى التفسير بالرأى والمجيزين له بأن الخلاف لفظى لا حقيقى، وأسفرت النتيجة عن انقسام التفسير بالرأى

(١) تفسير المنار جـ١ ص٢١ - ٢٤.

إلى قسمين: قسم جائز ممدوح، وقسم حرام مذموم، وعرفنا العلوم التى يجب على المفسر معرفتها حتى يكون أهلا للتفسير بالرأى الجائز، وبقى علينا بعد ذلك أن نذكر المصادر التى يجب على المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن، حتى يكون تفسيره جائزًا ومقبولا، وإليك أهم هذه المصادر:

أولا: الرجوع إلى القرآن نفسه، وذلك بأن ينظر فى القرآن نظرة فاحص مدقق، ويجمع الآيات التى فى موضوع واحد، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر، فإن من الآيات ما أُجمل فى مكان وفُسر فى مكان آخر، ومنها ما أُوجز فى موضع وبُسط فى موضع آخر، فيحمل المجمل على المفسر، ويشرح ما جاء موجزًا بما جاء مسهبًا مفصلا، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم.

ثانيًا: النقل عن الرسول ﷺ، مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير، فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله ﷺ فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه؛ لأن النبى ﷺ مؤيد من ربه، وموكول إليه أن يبين للناس ما نُزل إليهم، فمن يترك ما يصح عن النبى ﷺ فى التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم.

ثالثًا: الأخذ بما صح عن الصحابة فى التفسير، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك؛ لأن فى التفسير كثيرًا مما وضع على الصحابة كذبا واختلاقًا، فإن وقع على قول صحيح لصحابى فى التفسير، فليس له أن يهجره ويقول برأيه؛ لأنهم أعلم بكتاب الله، وأدرى بأسرار التنزيل؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال؛ ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة: الخلفاء الراشدين، وأبى بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس وغيرهم، وقد سبق لنا أن عرضنا لقول الصحابى، هل له حكم المرفوع أو لا، واستوفينا الكلام فى ذلك بما يغنى عن إعادته هنا.

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين فى التفسير، أو لا بد له من الرجوع إلى أقوالهم؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له أيضًا فلا داعى لإعادته.

رابعًا: الأخذ بمطلق اللغة، لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين، ولكن على المفسر

أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ خارجة محتملة، يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا توجد غالبًا إلا فى الشعر ونحوه، ويكون المتبادر خلافها، روى البيهقى فى الشعب عن مالك رضي الله عنه أنه قال: «لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا».

خامسًا: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع، وهذا هو الذى دعا به النبى ﷺ لابن عباس حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» والذى عناه على رضي الله عنه بقوله - حين سئل: هل عندكم عن رسول الله ﷺ شىء بعد القرآن - قال: لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا فى القرآن.

ومن هنا اختلف الصحابة فى فهم بعض آيات القرآن، فأخذ كلٌّ بما وصل إليه عقله، وأداه إليه نظره[١].

الأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره:

هناك أمور يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره حتى لا يقع فى الخطأ ويكون ممن قال فى القرآن برأيه الفاسد، وهذه الأمور هى ما يأتى:

أولا: التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة، وبدون أن يُحصل العلوم التى يجوز معها التفسير.

ثانيًا: الخوض فيما استأثر الله بعلمه، وذلك كالمتشابه الذى لا يعلمه إلا الله فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سرًا من أسراره وحجبه عن عباده.

ثالثًا: السير مع الهوى والاستحسان، فلا يفسر بهواه، ولا يرجح باستحسانه.

رابعًا: التفسير المقرر للمذهب الفاسد، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعًا، فيحتال فى التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته، ويرده إلى مذهبه بأى طريق أمكن، وإن كان غاية فى البعد والغرابة.

خامسًا: التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، وهذا منهى عنه

(١) انظر ما نقل عن الزركشى فى الإتقان جـ٢ ص١٧٨، ١٧٩.

شرعًا، لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة البقرة: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وإذ قد بينَّا أن المفسر لا يجوز له أن يتهجم على تفسير ما استأثر الله تعالى بعلمه وحجبه عن خلقه، وبينَّا أنه لا يجوز لـه أن يقطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل، لزم علينا أن نبين أنواع العلوم التى اشتمل عليها القرآن ما يمكن معرفته منها وما لا يمكن، فنقول:

أنواع علوم القرآن:

تتنوع علوم القرآن إلى أنواع ثلاثة، وهى ما يأتى:

النوع الأول: علم لم يطلع الله عليه أحدًا من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه، من معرفة كنه ذاته وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو، وهذا النوع لا يجوز لأحد الخوض فيه والتهجم عليه بوجه من الوجوه إجماعًا.

النوع الثانى: ما أطلع الله عليه نبيه ﷺ من أسرار الكتاب واختصه به، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ، أو لمن أذن له، قيل: ومنه الحروف المقطعة فى أوائل السور، ومن العلماء من يجعلها من النوع الأول.

النوع الثالث: علوم علمها الله نبيه مما أودع فى كتابه من المعانى الجلية والخفية وأمره بتعليمها، وهذا النوع قسمان:

قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع، وذلك كأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات، واللغات، وقصص الأمم الماضية، وأخبار ما هو كائن من الحوادث، وأمور الحشر والمعاد.

وقسم يؤخذ بطريق النظر والاستدلال والاستنباط والاستخراج من العبارات والألفاظ، وهو ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: اختلفوا فى جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات فى الصفات.

وثانيهما: اتفقوا على جوازه، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية، والمواعظ

---

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب فى الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

والحكم والإشارات وما شاكل ذلك من كل ما لا يمتنع استنباطه من القرآن واستخراجه منه لمن كان أهلا لذلك(١).

المنهج الذى يجب على المفسر أن ينهجه فى تفسيره

علمنا مما سبق: أن المفسر برأيه لا بد أن يلم بكل العلوم التى هى وسائل لفهم كتاب الله، وأدوات للكشف عن أسراره، كما علمنا مما سبق أيضًا: أن المفسر لا بد أن يطلب المعنى أولا من كتاب الله، فإن لم يجده طلبه من السنة، لأنها شارحة للقرآن وموضحة له، فإن أعجزه ذلك رجع إلى أقوال الصحابة؛ لأنهم أدرى بكتاب الله وأعلم بمعانيه؛ لما اختصوا به من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، ولاحتمال أن يكونوا سمعوه من الرسول ﷺ، فإن عجز عن هذا كله، ولم يظفر بشىء من تلك المراجع الأولى للتفسير، فليس عليه بعد ذلك إلا أن يعمل عقله، ويقدح فكره، ويجتهد وسعه فى الكشف عن مراد الله تعالى، مستندًا إلى الأصول التى تقدمت، مبتعدًا عن كل ما ذكرنا من الأمور التى تجعل المفسر فى عداد المفسرين بالرأى المذموم، وعليه بعد ذلك أن ينهج فى تفسيره منهجا يراعى فيه القواعد الآتية، بحيث لا يحيد عنها، ولا يخرج عن نطاقها، وهذه القواعد هى ما يأتى:

أولا: مطابقة التفسير للمفسر، من غير نقص لما يحتاج إليه فى إيضاح المعنى، ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام، مع الاحتراز من كون التفسير فيه زيغ عن المعنى وعدول عن المراد.

ثانيًا: مراعاة المعنى الحقيقى والمعنى المجازى؛ فلعل المراد المجازى، فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس.

ثالثا: مراعاة التأليف والغرض الذى سيق له الكلام، والمؤاخاة بين المفردات.

رابعًا: مراعاة التناسب بين الآيات، فيبين وجه المناسبة، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن، حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض.

خامسًا: ملاحظة أسباب النزول، فكل آية نزلت على سبب فلا بد من ذكره بعد

---

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب فى الإتقان جـ٢ ص١٨٣.

بيان المناسبة وقبل الدخول فى شرح الآيـة، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان أن الزركشى قال فى أوائل البرهان: «قـد جرت عادة المفسرين أن يبـدءوا بذكر سبب النزول، ووقع البحث فى أنه: أيهما أولى بالبـداءة؟ أيبدأ بذكر السبب، أو بالمناسبة لأنها المـصححة لنظم الكلام، وهى سـابقة على النزول؟ قال: والتـحقيق التـفصيـل بين أن يكون وجه المناسبة متوقـفًا على سبب النزول كآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨) فهذا ينبغى فيه تقديم ذكر السبب، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد، وإن لم يتوقف على ذلك، فالأولى تقديم وجه المناسبة»[١] . اهـ.

سـادسًـا: بعد الفـراغ من ذكر المناسبة وسـبب النزول، يبدأ بما يتـعلق بالألفاظ المفردة، من اللغـة، والصرف، والاشتقاق، ثم يتكلم عليـها بحسب التركيب، فـيبدأ بالإعراب، ثم بما يتـعلق بالمعانى، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبـين المعنى المراد، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية فى حدود القوانين الشرعية.

سابعًا: على المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار فى القرآن ما أمكن.

نقل السـيـوطى عن بعض العلمـاء أنه قـال: «ممـا يدفع توهم التكرار فـيـعطف المترادفين نحو ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ (المدثر: ٢٨)، ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ (البقرة: ١٥٧)، وأشباه ذلك، أن يعتقد أن مجمـوع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد أحدهما، فإن التركيب يحدث معنى زائدًا، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى، فكذلك كثرة الألفاظ»[٢] .

وعلى المفسر أيضًا أن يتـجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو فى التـفسير كالخوض فى ذكر علل النحو، ودلائل مسائل أصول الفقـه، ودلائل مسائل الفقه، ودلائل مسائل أصول الدين، فإن كلب ذلك مقرر فى تآليف هـذه العلوم، وإنما يؤخذ ذلك مسلمًا فى علم التفسير دون استدلال عليه.

وكذلك عـلى المفـسر أن يتجنـب ذكر ما لا يصح مـن أسباب النـزول وأحاديث الفضـائل، والقصص الموضـوع، والأخبار الإسـرائيلية؛ فـإن هذا مما يذهب بجـمال القرآن، ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار.

---

(١) الإتقان جـ٢ ص١٨٥.

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٥، ١٨٦.

ثامنًا: على المفسر بعد كل هذا أن يكون يقظا، فطنا، عليمًا بقانون الترجيح، حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يرجح ويختار[١].

وإذا كان المفسر لا بد له من أن يحتكم إلى قانون الترجيح عندما تحتمل الآية أكثر من وجه، فإنا فى حاجة إلى بيان هذا القانون، الذى هو الحكم الفصل عند تزاحم الوجوه وكثرة الاحتمالات، فنقول:

قانون الترجيح فى الرأى:

أجمع كلمة قيلت فى بيان هذا القانون، هى الكلمة التى نقلها لنا السيوطى فى كتابه الإتقان عن البرهان للزركشى، ونرى أن نسوقها هنا نقلا عن الإتقان، ونكتفى بذلك لما فيها من الكفاية:

قال الزركشى رحمه الله تعالى: «كل لفظ احتمل معنيين فصاعدًا هو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى، فإن كان أحد المعنيين أظهر، وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو الخفى.

وإن استويا، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن فى أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية، وفى الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية، كما فى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣)، ولو كان أحدهما عرفية والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى، وإن اتفقا فى ذلك أيضًا، فإن تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد كالقرء للحيض والطهر، اجتهد فى المراد منهما بالأمارات الدالة عليه، فما ظنه فهو مراد الله تعالى فى حقه، وإن لم يظهر له شىء فهل يتخير فى الحمل على أيهما شاء؟ أو يأخذ بالأغلظ حكما؟ أو بالأخف؟ أقوال، وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما». اهـ[٢].

---

(١) يراجع الإتقان جـ٢ ص١٨٥، ١٨٦، ومناهل العرفان جـ١ ص٤٤٥، ٤٤٦، ومنهج الفرقان جـ٢ ص٤١.

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٨٢.

منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى:

يقع الخطأ كثيرًا فى التفسير من بعض المتصدرين للتفسير بالرأى، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين، وفسروا بمجرد الرأى والهوى، غير مستندين إلى تلك الأصول التى قدمنا أنها أول شىء يجب على المفسر أن يعتمد عليه، ولا متذرعين بتلك العلوم التى هى فى الواقع أدوات لفهم كتاب الله والكشف عن أسراره ومعانيه.

ونرى هنا أن نذكر منشأ هذا الخطأ الذى وقع فيه كثير من طوائف المفسرين فنقول:

يرجع الخطأ فى التفسير بالرأى غالبًا، إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، فإن الكتب التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفًا غير ممزوج بغيره، كتفسير عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وغيرهما، لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين، بخلاف الكتب التى جدت بعد ذلك فإن كثيرًا منها، كتفاسير المعتزلة والشيعة، مليئة بأخطاء لا تغتفر، حملهم على ارتكابها نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة.

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ فى الغالب فهمًا ما يأتى:

الجهة الأولى: أن يعتقد المفسر معنى من المعانى، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقده.

الجهة الثانية: أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به.

فالجهة الأولى مراعى فيها المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والجهة الثانية مراعًى فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربى، من من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به والمخاطب، وسياق الكلام.

ثم إن الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الأولى يقع على أربع صور.

الصورة الأولى: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صوابًا، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا

ينفى المعنى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعًا فى الدليل لا فى المدلول، وهذه الصورة تنطبق على كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحة فى ذاتها ولكنها غير مرادة، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعنى، وذلك مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى فى حقائق التفسير، فمثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٦٦) من سورة النساء: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم...**﴾ ... الآية، نجده يقول ما نصه: «اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها، أو اخرجوا من دياركم، أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم...» إلخ(١).

الصورة الثانية: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صوابًا فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به ويحمله على ما يريده هو، وعلى هذا يكون الخطأ واقعًا فى الدليل لا فى المدلول أيضًا، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعانٍ إشارية صحيحة فى حد ذاتها، ومع ذلك فإنهم يقولون: إن المعانى الظاهرة غير مرادة، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية، ومن ذلك ما فسر به سهل التسترى قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة: ﴿... **وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ حيث يقول ما نصه: «لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره.. إلخ»(٢).

الصورة الثالثة: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه، وهو مع ذلك لا ينفى الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ واقعًا فى الدليل والمدلول معًا، وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعانى الباطلة، وذلك كالتفسير المبنى على القول بوحدة الوجود، كما جاء فى التفسير المنسوب لابن عربى عند ما عرض لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة المزمل: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ من قوله فى تفسيرها: «واذكر اسم ربك الذى هو أنت، أى اعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله... إلخ»(٣).

---

(١) تفسير السلمى ص٤٩.
(٢) تفسير التسترى ص١٦.
(٣) التفسير المنسوب لابن عربى جـ٢ ص٣٥٢.

الصورة الرابعة: أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ، فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به، ويحمله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد، وعلى هذا يكون الخطأ فى الدليل والمدلول معًا، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع، والمذاهب الباطلة، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلى معنًى ليس فى اللفظ أى دلالة عليه، كتفسير بعض غلاة الشيعة الجبت والطاغوت بأبى بكر وعمر، وتارة يحتالون على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنًى فيه تكلف غير مقبول، وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآنى يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ (إلى) فى قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ بالنعمة، ذهبًا منهم إلى أن (إلى) واحد الآلاء، بمعنى النعم، فيكون المعنى: ناظرة نعمة ربها، على التقديم والتأخير[1]، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله فى الآخرة.

وأما الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الثانية فهو يقع على صورتين:

الصورة الأولى: أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذى ذكره المفسر لغة، ولكنه غير مراد، وذلك كاللفظ الذى يطلق فى اللغة على معنيين أو أكثر، والمراد منه واحد بعينه، فيأتى المفسر فيحمله على معنًى آخر من معانيه غير المعنى المراد، وذلك كلفظ (أمة) فإنه يطلق على معانٍ، منها: الجماعة، والطريقة المسلوكة فى الدين، والرجل الجامع لصفات الخير، فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة فى الدين فى قوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة الزخرف: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة.

الصورة الثانية: أن يكون اللفظ موضوعًا لمعنًى بعينه، ولكنه غير مراد فى الآية، وإنما المراد معنًى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا، فيخطئ المفسر فى تعيين المعنى المراد؛ لأنه اكتفى بظاهر اللغة، فشرح اللفظ على معناه الوضعى، وذلك كتفسير لفظ ﴿مُبْصِرَةً﴾ فى قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ

---

(١) أمالى السيد المرتضى جـ١ ص٢٨.

النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ بجعل مبصرة من الإبصار بالعين، على أنها حال من الناقة، وهذا خلاف المراد، إذا المراد: آية واضحة(١).

* * *

التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى

قلنا: إن التفسير بالرأى قسمان: قسم مذموم غير مقبول، وقسم ممدوح ومقبول، أما القسم المذموم، فلا يعقل وجود تعارض بينه وبين المأثور، لأنه ساقط من أول الأمر، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح.

وأما التفسير بالرأى المحمود، فهذا هو الذى يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور، وهذا هو الذى نريد أن نتكلم فيه وتعرض له بالبحث والبيان، غير أنه يتحتم علينا ـ ليكون الكلام على بصيرة ـ أن نعرض لبيان معنى هذا التعارض فنقول:

التعارض بين التفسير العقلى والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافى بينهما، وذلك بأن يدل أحدهما على إثبات أمر مثلا، والآخر يدل على نفيه، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال، فكأن كلا منهما وقف فى عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه، وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة وأمكن الجمع، فلا يسمى ذلك تعارضًا، وذلك كتفسيرهم (الصراط المستقيم) بالقرآن، وبالإسلام، وبطريق العبودية، وبطاعة الله ورسوله، فهذه المعانى وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة، لأن طريق الإسلام هو طريق القرآن، وهو طريق العبودية، وهو طاعة الله ورسوله، ومثلا تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر: ٣٢) قيل فيه: السابق هو الذى يصلى فى أول الوقت، والمقتصد هو الذى يصلى فى أثنائه، والظالم هو الذى يصلى بعد فواته، وقيل: السابق من يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة والمقتصد من يؤدى الزكاة المفروضة وحدها، والظالم لنفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق، وغير خاف أنه لا تنافى بين هذين التفسيرين، وإن تغايرا، لأن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات

---

(١) انظر فى هذا البحث: مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٠ - ٢٤.

وتارك المحرمات، والسابق يتناول من يفعل الواجبات ويتقرب بعد ذلك بزيادة الحسنات، فكلٌّ ذكر فردًا العام على سبيل التمثيل لا الحصر.

هذا وإن الصور العقلية التى يحصل فيها التعارض بين التفسير العقلى والتفسير النقلى هى ما يأتى:

أولا: أن يكون العقلى قطعيّا والنقلى قطعيًا كذلك.

ثانيًا: أن يكون أحدهما قطعيًا والآخر ظنيًا.

ثالثًا: أن يكون أحدهما ظنيًا والآخر ظنيًا كذلك.

أما الصورة الأولى، ففرضية؛ لأنه لا يعقل تعارض بين قطعى وقطعى، ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العقل.

وأما الصورة الثانية، فالقطعى منهما مقدم على الظنى إذا تعذر الجمع ولم يمكن التوفيق؛ أخذًا بالأرجح وعملا بالأقوى.

وأما الصورة الثالثة، فإن أمكن الجمع بين العقلى والنقلى، وجب حمل النظم الكريم عليهما، وإن تعذر الجمع، قدم التفسير المأثور عن النبى ﷺ إن ثبت من طريق صحيح، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة؛ لأن ما يصح نسبته إلى الصحابة فى التفسير، النفس إليه أميل؛ لاحتمال سماعه من الرسول ﷺ؛ ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح؛ ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل.

وأما ما يؤثر عن التابعين ففيه التفصيل، وذلك إما أن يكون التابعى معروفًا بالأخذ عن أهل الكتاب أو لا، فإن عُرف بالأخذ عن أهل الكتاب قُدم التفسير العقلى، وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب وتعارض ما جاء عنه مع التفسير العقلى - كما هو الفرض - فحينئذ نلجأ إلى الترجيح، فإن تأيد أحدهما بسمع أو استدلال رجحناه على الآخر، وإن اشتبهت القرائن، وتعارضت الأدلة والشواهد، توقفنا فى الأمر، فنؤمن بمراد الله تعالى، ولا نتهجم على تعيينه، وينزل ذلك منزلة المجمل قبل تفصيله، والمتشابه قبل تبيينه.

وبعد... فهذا هو التفسير العقلى بقسميه، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وتلك هى حقيقة الخلاف، ثم هذه هى البحوث التى تتعلق به تعلقًا قويّا، وتتصل به اتصالا

وثيقًا، وأرى بعد ذلك أن أتكلم عن أهم كتب التفسير بالرأى الجائز وأشهرها، متعرضًا لنبذة قصيرة عن كل مؤلف، تلقى لنا ضوءًا على شخصيته الذاتية والعلمية، ملتزمًا بيان المسلك الذى سلكه كل منهم فى تفسيره، وطريقته التى جرى عليها وامتاز بها، بما يظهر لى من ذلك أثناء قراءتى فى هذه الكتب، مستعينًا فى ذلك بما أظفر به من مقدمات قدم بها أصحاب هذه الكتب لكتبهم، ثم بعد الفراغ من ذلك يكون لنا كلام آخر عن موقف بعض الفرق من التفسير، وعن أشهر مؤلفاتهم فيه، وهى لا تكاد تخرج عن دائرة التفسير بالرأى المذموم.

* * *

الفصل الثالث

أهم كتب التفسير بالرأى الجائز

تمهيـــــد:

ابتدأ عهد التدوين من قديم، وظفر التفسير بالتدوين كغيره من العلوم، فألفت فيه كتب اختلفت فى منهجها، حسب اختلاف مشارب مؤلفيها، وظفرت هذه الناحية من التفسير ـ ناحية التفسير بالرأى الجائز ـ بكثرة زاخرة من الكتب المؤلفة، كثرة تضخمت على مر العصور وكر الدهور، ففى كل عصر يجد جديد من الكتب المؤلفة فى التفسير بالرأى الجائز، ثم تنضم إلى ما سبق من ذلك، حتى ازدحمت بها المكتبة الإسلامية على اتساعها وطول عهدها.

ولكن هل احتفظت لنا المكتبة الإسلامية بكل هذه الكتب؟ أو عفى رسمها وذهب أثرها؟ لا... لا هذا، ولا ذاك، بل احتفظت لنا ببعضها، وذهب بعضها الآخر بتقادم الزمن عليه، ومع هذا، فإن القصور المكتبى، حال بيننا وبين الاطلاع على جميع ما خلفته لنا المكتبة الإسلامية العامة... لهذا، ولعدم القدرة على الاطلاع على كل ما يوجد من هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراية، أكتفى بأن أتعرض لبعض هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراية، أكتفى بأن أتعرض لبعض هذه الكتب على ضوء المنهج الذى بينته، ولعل فى ذلك غنًى عن بعضها الآخر، الذى حال بينى وبينه القصور المكتبى تارة، والقصور الزمنى تارة أخرى.

هذا، ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى، يتجه كل منها إلى اتجاه معين، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحى التفسير وألوانه، فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية والإسرائيلية، ومنها غير ذلك، ولكن الجميع ينضم تحت شيء واحد هو التفسير بالرأى الجائز، فلا علىَّ إذًا إن كنت قد جمعت بين هذه الكتب المختلفة المنازع والاتجاهات، وهذا أمر اعتبارى لا أقل ولا أكثر.

أما هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى، فهى ما يأتى:

١- مفاتيح الغيب : للفخر الرازى

٢- أنواع التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوى

٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفى

٤- لباب التأويل فى معانى التنزيل : للخازن

٥- البحر المحيط : لأبى حيان

٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : للنيسابورى

٧- تفسير الجلالين : للجلال المحلى، والجلال السيوطى

٨- السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير : للخطيب الشربينى

٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لأبى السعود

١٠- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : للآلوسى

هذه هى الكتب التى وقع عليها اختيارى، وسأتكلم عنها على حسب هذا الترتيب، فأقول وبالله التوفيق:

١- مفاتيح الغيب
للرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على، التميمى، البكرى، الطبرستانى، الرازى، الملقب بفخر الدين، والمعروف بابن الخطيب، الشافعى، المولود سنة ٥٤٤هـ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة، كان رحمه الله فريد عصره، ومتكلم زمانه، جمع كثيرًا من العلوم ونبغ فيها، فكان إمامًا فى التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، ولقد أكسبه نبوغه العلمى شهرة عظيمة، فكان العلماء يقصدونه من البلاد، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الرى؛ وعن الكمال السمعانى، والمجد الجيلى، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم، وله فوق شهرته العلمية

شهرة كبيرة فى الوعظ، حتى قيل: إنه كان يعظ باللسان العربى واللسان العجمى، وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء، ولقد خلف - رحمه الله - للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه فى الفنون المختلفة، وقد انتشرت هذه التصانيف فى البلاد، ورزق فيها الحظوة الواسعة، والسعادة العظيمة، إذ أن الناس اشتغلوا بها، وأعرضوا عن كتب المتقدمين، ومن أهم هذه المصنفات: تفسيره الكبير، المسمى بمفاتيح الغيب، وهو ما نحن بصدده الآن، وله تفسير سورة الفاتحة فى مجلد واحد، ولعله هو الموجود بأول تفسيره مفاتيح الغيب، وله فى علم الكلام: المطالب العالية، وكتاب البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان، وله فى أصول الفقه: المحصول، وفى الحكمة: الملخص، وشرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة، وفى الطلسمات: السر المكنون، ويقال: إنه شرح المفصل فى النحو للزمخشرى، وشرح الوجيز فى الفقه للغزالى... وغير هذا كثير من مصنفاته، التى يتجلى فيها علم الرجل الواسع الغزير.

هذا، وقد كانت وفاة الرازى - رحمه الله - سنة ٦٠٦هـ، ست وستمائة من الهجرة بالرى، ويقال فى سبب وفاته: إنه كان بينه وبين الكرامية خلاف كبير وجدل فى أمور العقيدة، فكان ينال منهم وينالون منه سبا وتكفيراً وأخيراً سموه فمات على أثر ذلك واستراحوا منه[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم، ويقول ابن قاضى شهبة: إنه - أى الفخر الرازى - لم يتمه[٢]، كما يقول ذلك ابن خلكان فى وفيات الأعيان[٣]، إذاً فمن الذى أكمل هذا التفسير؟ وإلى أى موضع من القرآن وصل الفخر الرازى فى تفسيره؟.

الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلا حاسمًا، لتضارب أقوال العلماء فى هذا الموضوع، فابن حجر العسقلانى، فى كتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، يقول: «الذى أكمل تفسير فخر الدين الرازى، هو أحمد بن محمد بن أبى الحزم مكى

(١) انظر وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٦٥ - ٢٦٨، وشذرات الذهب جـ٥ ص٢١.
(٢) شذرات الذهب جـ٥ ص٢١. (٣) جـ٢ ص٢٦٧.

نجم الدين المخزومى القمولى، مات سنة ٧٢٧هـ، وهو مصرى»[١]، وصاحب كشف الظنون يقول: «وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولى تكملة له وتوفى سنة ٧٢٧، وقاضى القضاة، شهاب الدين بن خليل الخويى الدمشقى، كمل ما نقص منه أيضًا، وتوفى سنة ٦٣٩هـ تسع وثلاثين وستمائة»[٢].

فأنت ترى أن ابن حجر يذكر أن الذى أتم تفسير الفخر هو نجم الدين القمولى، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويى مشاركة على وجه ما فى هذه التكملة، وإن كانا يتفقان على أن الرازى لم يتم تفسيره.

وأما إلى أى موضع وصل الفخر فى تفسيره؟ فهذه كالأولى أيضًا، وذلك لأننا وجدنا على هامش كشف الظنون ما نصه: «الذى رأيته بخط السيد مرتضى نقلا عن شرح الشفا للشهاب، أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء». اهـ[٣].

وقد وجدت فى أثناء قراءتى فى هذا التفسير عند قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة الواقعة ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ هذه العبارة «المسألة الأولى أصولية، ذكرها الأمام فخر الدين رحمه الله فى مواضع كثيرة، ونحن نذكر بعضها. . . إلخ»[٤].

وهذه العبارة تدل على أن الإمام فخر الدين، لم يصل فى تفسيره إلى هذه السورة.

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ...**﴾ . . . الآية، أنه تعرض لموضوع النية فى الوضوء، واستشهد على اشتراط النية فيه بقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة البينة: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ وبيَّن أن الإخلاص عبارة عن النية، ثم قال: «وقد حققنا الكلام فى هذا الدليل فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ فليرجع إليه فى طلب زيادة الإتقان». انتهى[٥]. وهذه العبارة تشعر بأن الفخر الرازى فسر سورة البينة، أى أنه وصل إليها فى تفسيره، وهذا طبعًا بحسب ظاهر العبارة المجرد عن كل شىء.

---

(١) الدرر الكامنة جـ١ ص٣٠٤.
(٢) كشف الظنون جـ٢ ص٢٩٩.
(٣) كشف الظنون جـ٢ ص٢٩٩ (هامش).
(٤) مفاتيح الغيب جـ٨ ص٦٨.
(٥) مفاتيح الغيب جـ٣ ص٥٣٩.

والذى أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب: هو أن الإمام فخر الدين، كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء، فأتى بعده شهاب الدين الخويى، فشرع فى تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه، فأتى بعده نجم الدين القمولى فأكمل ما بقى منه، كما يجوز أن يكون الخويى أكمله إلى النهاية، والقمولى كتب تكملة أخرى غير التى كتبها الخويى، وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون.

وأما إحالة الفخر على ما كتبه فى سورة البينة، فهذا ليس بصريح فى أنه وصل إليها فى تفسيره؛ إذ لعله كتب تفسيرًا مستقلا لسورة البينة، أو لهذه الآية وحدها، فهو يشير إلى ما كتب فيها ويحيل عليه.

أقول هذا، وأعتقد أنه ليس حلا حاسمًا لهذا الاضطراب، وإنما هو توفيق يقوم على الظن، والظن يخطئ ويصيب.

ثم إن القارئ فى هذا التفسير، لا يكاد يلحظ فيه تفاوتا فى المنهج والمسلك، بل يجرى الكتاب من أوله إلى آخره على نمط واحد، وطريقة واحدة، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة، ولا يتمكن من الوقوف على حقيقة المقدار الذى كتبه الفخر، والمقدار الذى كتبه صاحب التكملة.

هذا، وإن تفسير الفخر الرازى ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير، بالأبحاث الفياضة الواسعة، فى نواح شتى من العلم، ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول: «إنه - أى الفخر الرازى - جمع فيه كل غريب وغريبة»[١].

اهتمام الفخر الرازى ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره:

وقد قرأت فى هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض، وبين السور بعضها مع بعض، وهو لا يكتفى بذكر ماسبة واحدة بل كثيرا ما يذكر أكثر من مناسبة.

---

(١) وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٦٧.

اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية:

كما أنه يكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية، وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة، على ما كنت عليه فى عهده، كالهيئة الفلكية وغيرها، كما أنه يعرض كثيرًا لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد، وإن كان يصوغ أدلته فى مباحث الإلهيات على نمط استدلالتهم العقلية، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السنة.

موقفه من المعتزلة:

ثم إنه - كسنى يرى ما يراه أهل السنة، ويعتقد بكل ما يقررونه من مسائل علم الكلام - لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها، ردًا لا يراه البعض كافيًا ولا شافيًا.

فهذا هو الحافظ ابن حجر يقول عنه فى لسان الميزان: «وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة، ويقصر فى حلها، حتى قال بعض المغاربة: يورد الشبه نقدًا ويحلها نسيئة». اهـ[١] . وقال ابن حجر أيضًا فى لسان الميزان: «ورأيت فى الإكسير فى علم التفسير للنجم الطوفى ما ملخصه: ما رأيت فى التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبى، ومن تفسير الإمام فخر الدين، إلا أنه كثير العيوب، فحدثنى شرف الدين النصيبى عن شيخه سراج الدين السرمياحى المغربى، أنه صنف كتاب المأخذ فى مجلدين، بين فيهما ما فى تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيرًا ويقول: يورد شبه المخالفين فى المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء، قال الطوفى: ولعمرى، إن هذا دأبه فى كتبه الكلامية والحكمة، حتى اتهمه بعض الناس، ولكنه خلاف ظاهر حاله؛ لأنه لو كان اختار قولا أو مذهبًا ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالا فى تقرير دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لا يبقى عنده شىء من القوى، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية، وقد صرح فى مقدمة نهاية العقول: أنه مقرر مذهب خصمه تقريرًا لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك». اهـ[٢] .

---

(١) لسان الميزان جـ٤ ص٤٢٧.

(٢) لسان الميزان جـ٤ ص٤٢٧، ٤٢٨.

موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة:

ثم إن الفخر الرازى لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعى ـ الذى يقلده ـ بالأدلة والبراهين.

كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية، والمسائل النحوية، والبلاغية، وإن كان لا يتوسع فى ذلك توسعه فى مسائل العلوم الكونية والرياضية.

وبالجملة فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة فى علم الكلام، وفى علوم الكون والطبيعة؛ إذ أن هذه الناحية، هى التى غلبت عليه حتى كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم.

ومن أجل ذلك قال صاحب كشف الظنون: «إن الإمام فخر الدين الرازى ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شىء إلى شىء، حتى يقضى الناظر العجب»(١) ونقل عن أبى حيان أنه قال فى البحر المحيط: «جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: «فيه كل شىء إلا التفسير»(٢).

ويظهر لنا أن الإمام فخر الرازى كان مولعًا بكثرة الاستنباطات والاستطرادات فى تفسيره، ما دام يستطيع أن يجد صلة ما بين المستنبط أو المستطرد إليه وبين اللفظ القرآنى، والذى يقرأ تفسيره لا يسعه إلا أن يحكم على الفخر هذا الحكم، وذلك حيث يقول: «اعلم أنه مر على لسانى فى بعض الأوقات، أن هذه السورة الكريمة ـ يريد الفاتحة ـ يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغى والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعانى، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمبانى، فلما شرعت فى تصنيف هذا الكتاب، قدمت هذه المقدمة؛ لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول... إلخ»(٣).

وبعد... فالكتاب بين يديك، فأجل نظرك فى جميع نواحيه، فسوف لا ترى إلا ما قلته فيه، وما حكمت به عليه.

(١، ٢) كشف الظنون جـ١ ص٢٣٠، ٢٣١.

(٣) مفاتيح الغيب جـ١ ص٢ - ٣.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل
للبيضـــــاوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: قاضى القضـاة، ناصر الدين أبو الخير، عبد الله بن عمر بن محمد بن على، البيضاوى الشافعى، وهو من بلاد فارس، قال ابن قاضى شهبة فى طبقـاته: «صاحب المـصنفات، وعـالم أذربيجـان، وشيخ تلك الناحـية، ولى قـضاء شيراز»، وقال السبكى: «كان إمامًا مبرزًا نظارًا خـيرًا، صالحًا متعبدًا» وقال ابن حبيب: «تكلم كلٌّ من الأئمة بالـثناء على مصنفاته، ولو لم يكن له غـير المنهاج الوجـيز لفظه المحرر لكفاه» ولى القضاء بشـيراز، وتوفى بمدينة تبريز، قال السبكى والأسنوى: سنة ٦٩١هـ إحدى وتسعـين وستمائة، وقال ابن كـثير وغيره: سنـة ٦٨٥هـ خمس وثمانين وستمائة، ومن أهم مصنفاته: كتاب المنهـاج وشرحه فى أصول الفقه، وكتاب الطوالع فى أصول الدين، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل فى التفسير، وهو ما نحن بصدده الآن، وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولا بين أهل العلم(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

تفسيـر العلامـة البـيضـاوى، تفسيـر متوسـط الحـجـم، جمع فـيه صاحـبه بين التفسير والتـأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربيـة، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اخـتصر البيـضاوى تفسـيره من الكشاف للزمخـشرى، ولكنه ترك ما فـيه من اعتزالات، وإن كـان أحيانًا يذهب إلى ما يذهب إليه صـاحب الكشاف، ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**...﴾ ... الآية، وجدناه يقول: «إلا قـياما كقيـام المصروع، وهو وارد على ما يزعمـون أن الشيطان يخبط الإنسان فـيصرع»، ثم

---

(١) انظر ترجـمة البـيضـاوى فى شذرات الذهب جـ٥ ص٣٩٢ - ٣٩٣، وفى طبـقات المـفسـرين للداودى ص١٠٢، ١٠٣، وفى طبقات الشافعية جـ٥ ص٥٩.

يفسر المس بالجنون ويقول: «وهذا أيضًا من زعمانهم أن الجنى يمس الرجل فيختلط عقله»(١).

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشرى من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء.

كما أننا نجد البيضاوى قد وقع فيما وقه فيه صاحب الكشاف، من ذكره فى نهاية كل سورة حديثًا فى فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، وقد عرَّفنا قيمة هذه الأحاديث، وقلنا: إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوى فرواها وتابع الزمخشرى فى ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة، مع ما له من مكانة علمية، وسيأتى اعتذار بعض الناس عنه فى ذلك، وإن كان اعتذارًا ضعيفًا، لا يكفى لتبرير هذا العمل الذى لا يليق بعالم كالبيضاوى له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد البيضاوى تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازى، ومن تفسير الراغب الأصفهانى، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله، فضمنه نكتًا بارعة، ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا فى أسلوب رائع موجز، وعبارة تدق أحيانًا وتخفى إلا على ذى بصيرة ثاقبة، وفطنة نيرة، وهو يهتم أحيانًا بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه فى ذلك، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالبًا لتأييد مذهبه وترويجه، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ يقول ما نصه: «وقروء جمع قرء، وهو يطلق للحيض، كقوله ﷺ: «دعى الصلاة أيام أقرائك» وللطهر بين الحيضتين» كقول الأعشى:

مورثة مالا وفى الحى رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد فى الآية؛ لأنه الدال على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية، لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق: ١) أى

(١) جـ١ ص٢٦٧.

وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون فى الحيض، وأما قوله ﷺ: «طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان» فلا يقاوم ما رواه الشيخان فى قصة ابن عمر: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء. . .» إلخ[1].

كذلك نجد البيضاوى كثيرًا ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة: ﴿**هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج، بتوسع ظاهر، وترجيح منه لمذهب أهل السنة[2].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة البقرة أيضًا: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ نراه يتعرض للخلاف الذى بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق، ويذكر وجهة نظر كل فريق؛ مع ترجيحه لمذهب أهل السنة[3].

والبيضاوى ـ رحمه الله ـ مقل جدًا من ذكر الروايات الإسرائيلية، وهو يصدر الرواية بقوله: رُوى أو قيل، إشعارًا منه بضعفها.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة النمل: ﴿**فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**﴾ يقول بعد فراغه من تفسيرها: «روى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج. . . إلخ، القصة التى يقف البيضاوى بعد روايتها موقف المجوز لها، غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه: «ولعل فى عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك، يستكبرها من يعرفها، ويستنكرها من ينكرها»[4].

ثم إن البيضاوى إذا عرض للآيات الكونية، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض فى

---

(١) جـ١ ص٢٤٠.
(٢) جـ١ ص٥٣ - ٥٦.
(٣) جـ١ ص٥٨، ٥٩.
(٤) جـ٤ ص١١٥.

مباحث الكون والطبيعة، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازى، الذى استمد منه، كما قلنا، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الصافات: ﴿ ... فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ نراه يعرض لحقيقية الشهاب فيقول: «الشهاب ما يرى كأن كوكبا انقض، ثم يرد على من يخالف ذلك فيقول: وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين، إن صح لم يناف ذلك...» إلى آخر كلامه فى هذا الموضوع[١].

هذا، وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوى فى تفسيره، والمبينة لمصادره التى رجع إليها واختصره منها، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية، وتتميما للفائدة من ناحية أخرى.

قال البيضاوى نفسه فى مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه «... ولطالما أحدث نفسى بأن أصنف فى هذا الفن - يعنى التفسير - كتابًا يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين، وينطوى على نكات بارعة، ولطائف رائعة، استنبطتها أنا ومن قبلى من أفاضل المتأخرين، وأماثل المحققين، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذ المروية عن القراء المعتبرين، إلا أن قصور بضاعتى يثبطنى عن الإقدام، ويمنعنى عن الانتصاب فى هذا المقام، حتى سنح لى بعد الاستخارة ما صمم به عزمى على الشروع فيما أردته، والإتيان بما قصدته، ناويًا أن أسميه التنزيل وأسرار التأويل...»[٢].

ويقول فى آخر الكتاب ما نصه: «وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوى على فوائد فوائد ذوى الألباب، المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمة، وصفوة آراء أعلام الأمة، فى تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه، مع الإيجاز الخالى عن الإخلال، والتلخيص العارى عن الإضلال، المرسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل...»[٣].

---

(١) جـ٥ ص٣.
(٢) جـ١ ص٦.
(٣) جـ٥ ص٢٠٤.

وكأنى به فى هذه الجملة الأخيرة، يشير إلى أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخص منه، ضمن ما اختصره من كتب التفسير الأخرى، غير أنه ترك ما فيه من نزعات الضلال، وشطحات الاعتزال.

ويقول الجلال السيوطى ـ رحمه الله ـ فى حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار) ما نصه: «وإن القاضى ناصر الدين البيضاوى لخص هذا الكتاب فأجاد، وأتى بكل مستجاد، وماز فيه أماكن الاعتزال، وطرح موضع الدسائس وأزال، وحرر مهمات، واستدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، واشتهر اشتهار الشمس فى رائعة النهار، وعكف عليه العاكفون، ولهج بذكر محاسنه الواصفون، وذاق طعم دقائقه العارفون، فأكب عليه العلماء، تدريسًا ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة»(١).

ويقول صاحب كشف الظنون ما نصه: «وتفسيره هذا ـ يريد تفسير البيضاوى ـ كتاب عظيم الشأن غنى عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالإعراب والمعانى والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات، وضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد فى العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشى:

أولو الألباب لم يأتوا بكشف قناع ما يتلى
ولكن كان للقاضى يد بيضاء لا تبلى

ولكونه متبحرًا جال فى ميدان فرسان الكلام، فأظهر مهارته فى العلوم حسبما يليق بالمقام، كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها، وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد فى المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة وأوضح لهم مناهج الأدلة، والذى ذكره من وجوه التفسير ثانيًا أو ثالثًا أو رابعًا بلفظ: قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

---

(١) المدخل المنير للشيخ مخلوف ص٤١.

وأما الوجه الذى تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لا ينبغى أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله: وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له[1]، ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، ولا يبلغ علمه إلا الإحاطة بما فيه، فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، ويروم أن يقنص نسر السماء؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية، والفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة والجماعة، وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، وسلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوى فنونًا من العلم وعزة المسالك، وأنواعًا من القواعد المختلفة الطرائق، وقل من برز فى فن إلا وصده عن سواه وشغله، والمرء عدو لما جهله، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره، وأعمى عين هواه، واستعبد نفسه فى طاعة مولاه حتى يسلم من الغلط والزلل، ويقتدر على رد السفسطة والجدل.

وأما أكثر الأحاديث التى أوردها فى أواخر السور، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه، وتعرض لنفحات ربه، تسامح فيه، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل، ونحا نحو الترغيب والتأويل، عالما بأنها مما فاه صاحبه بزور، ودلى بغرور.

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه»[2]... ثم عد من هذه الحواشى ما يزيد عدده على الأربعين، ولا أطيل بذكرها، ومن شاء الاطلاع على ذلك فليرجع إليه فى موضعه الذى أشرت إليه، وحسبى أن أقول: إن أشهر هذه الحواشى وأكثرها تداولا ونفعًا: حاشية قاضى زاده، وحاشية الشهاب الخفاجى، وحاشية القونوى.

وجملة القول، فالكتاب من أمهات كتب التفسير، التى لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله تعالى، ويقف على أسراره ومعانيه، وهو مطبوع عدة طبعات ومتوسط فى حجمه.

---

(١) انظر تفسير البيضاوى لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة غافر: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ...﴾ الآية جـ٥ ص٣٤.

(٢) كشف الظنون جـ١ ص١٢٧، ١٢٨.

٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنســـــفى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسـير، هو: أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى(١) الحنفى، أحد الزهاد المتأخـرين، والأئمة المعتبرين، كان إمامًا كـاملا عديم النظير فى زمانه، رأسًا فى الفقه والأصول، بارعًا فى الحديـث ومعانيه، بصيرًا بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبـرة فى الفقه، والأصول وغيرهما، فمن مؤلفاته: متن الوافى فى الفـروع، وشرحه الكافى، وكنـز الدقائق، فى الفقـه أيضًا، والمنار فى أصول الفقه، والعمدة فى أصول الدين، ومدارك التنـزيل وحقائق التأويل، وهو التفسير الذى نحن بصدد الكلام عنه، وغير ذلك من المـؤلفات التى تداولها العلماء، وتناولوها دراسة وبحثًـا، وليس هذا التراث العلمى بكثير على رجل تـفقه على كثيـر من مشايخ عصره وأخذ عنهم، ومن هؤلاء: شمس الأئمة الكردى، وعليه تفقه، وأحمد بن محمد العتابى الذى روى عنه الزيادات.

وكانت وفاة النسفى ـ رحمه الله ـ سنة ٧٠١هـ إحدى وسبعمائة من الهجرة، ودفن ببلدة أيذج(٢)، فرضى الله عنه وأرضاه(٣).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسـير، اختصـره النسفى ـ رحمه الله ـ من تفـسير البيضـاوى ومن الكشاف للزمخشرى، غير أنه ترك ما فى الكشـاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعـة، وهو تفسير وسط بين الطول والقصـر، جمع فيه صاحـبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليـه الكشاف من النكت البلاغية، والمحسنات البديعيـة، والكشف عن المعانى الدقـيقة الخفيـة، وأورد فيه ما أورده الزمـخشرى فى

---

(١) النسفى نسبة إلى نسف من بلاد ما وراء النهر.

(٢) قال فى القاموس جـ١ ص١٧٧: وأيذج كأحمد بلد بكردستان.

(٣) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة جـ٢ ص٢٤٧، وفى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص١٠٢.

تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقته من قوله: «فإن قيل. . . قلت» بل جعل ذلك فى الغالب كلامًا مدرجًا فى ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة فى فضائل السور.

هذا وقد أورد النسفى فى مقدمة تفسيره عبارة قصيرة، أوضح فيها عن طريقته التى سلكها فيه، وأرى أن أسوقها لك بنصها لتمام الفائدة:

قال رحمه الله: «قد سألنى من تتعين إجابته، كتابا وسطا فى التأويلات، جامعًا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنًا لدقائق علمى البديع والإشارات، حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة، خاليًا عن أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى؛ استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذًا لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته فى مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل. . .».

وقال صاحب كشف الظنون: «اختصره ـ يعنى تفسير النسفى ـ الشيخ زين الدين، أبو محمد، عبد الرحمن بن أبى بكر بن العينى، وزاد فيه[1]» ولكن لم يقع فى يدنا هذا المختصر، ولم نظفر به حتى نحكم عليه.

قرأت فى هذا التفسير فوجدته ـ كما قلت آنفًا ـ موجز العبارة سهل المأخذ، مختصرًا من تفسير الكشاف، جامعًا لمحاسنه، متحاشيًا لمساوئه، ومن تفسير البيضاوى أيضًا حتى أنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريبًا منه ويضمنها تفسيره[2].

خوضه فى المسائل النحوية:

كذلك وجدته ـ كما يقول صاحبه ـ جامعًا بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيرًا، ولا يزج بالتفاصيل النحوية فى تفسيره كما يفعل غيره، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٧) من سورة البقرة:

---

(١) كشف الظنون جـ٢ ص٢٤٨.

(٢) راجع ـ مثلا ـ تفسير البيضاوى وتفسير النسفى لسورة النجم لترى مبلغ التوافق أو التقارب بين عبارتيهما.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... ﴾ . . . الآية.

يقول ما نصه: «والمسجد الحرام عطف على سبيل الله، أى: وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى به، أى كفر وبالمسجد الحرام، ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار، فلا تقول مررت به وزيد، ولكن تقول: وبزيد، ولو كان معطوفًا على الهاء هنا لقيل: وكفر به وبالمسجد الحرام»[1]. اهـ.

موقفه من القراءات:

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها.

خوضه فى مسائل الفقه:

كذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التى لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٢) من سورة البقرة: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ... ﴾ يقول ما نصه: «. . . . ثم عند أبى حنيفة وأبى يوسف ـ رحمهما الله ـ يجتنب ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد ـ رحمه الله ـ لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وقالت عائشة ﵂: يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ ﴾ مجامعين، أو ولا تقربوا مجامعتهن «حتى يطَّهَّرْنَ» بالتشديد، كوفى غير حفص، أى يغتسلن، وأصله يتطهرن فأدغم التاء لقرب مخرجيهما، غيرهم ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ أى ينقطع دمهن، والقراءتان كآيتين، فعملنا بهما، وقلنا: له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل؛ عملا بقراءة التخفيف، وفى أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت الصلاة؛ عملا بقراءة التشديد، والحمل على هذا أولى من العكس، لأنه حينئذ يجب ترك العمل بإحداهما لما عرف، وعند الشافعى ـ

---

(١) جـ١ ص٨٤ ، ٨٥.

رحمه الله ـ: لا يقربها حتى تطهر وتتطهر، دليله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن، فجمع بينهما...». اهـ[1].

وهو ينتصر لمذهبه الحنفى ويرد على من خالفه فى كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ...﴾ جـ١ ص٨٩، وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣٧) من سورة البقرة أيضًا: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ...﴾ جـ١ ص٩٥ وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الطلاق ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ...﴾ الآية، جـ٤ ص٢٠١.

موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلحظه على هذا التفسير أنه مقل جدًا فى ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحيانًا، وأحيانًا يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلا نجده عند تفسير لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ يقول: «روى أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس فقال: يقول كما تدين تدان، وصاح هدهد فقال: يقول استغفروا الله يا مذنبون، وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيرًا تجدوه، وصاحت رخمة فقال: تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه، وصاح قمرى فأخبر أنه يقول: سبحان ربى الأعلى، وقال: الحدأة تقول كل شىء هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلون، والنسر يقول: يا بن آدم عش ما شئت آخرك الموت، والعقاب يقول: فى البعد عن الناس أنس، والضفدع يقول: سبحان ربى القدوس» ثم يتكلم عن قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله[2].

---

(١) جـ١ ص٨٧، وراجع فى هذا الموضوع ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨) جـ١ ص٨٩.

(٢) جـ٣ ص١٥٦.

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل أيضًا: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف فى تخيله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفى بكلمة واحدة[١].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢١، ٢٢) فى سورة ص: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ نراه ـ بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة داود عليه السلام ـ يقول ما نصه: «وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوجها ـ يعنى زوجة أوريا ـ فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء، وقال على ﷺ: من حدثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء. . .»[٢].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة ص أيضًا ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ نراه يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة سليمان، عليه السلام، ثم يقول ما نصه: «وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام، فمن أباطيل اليهود»[٣].

ففى هذه الآية الآخيرة وما قبلها نجد النسفى ـ رحمه الله ـ يتصدى للتنبيه والرد على القصص المكذوب الذى يتنافى مع عصمة الأنبياء، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه على عدم صحته، وما لا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه، ما دام يحتمل الصدق والكذب فى ذاته، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع.

هذا، وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم، ومطبوع فى أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفى رحمه الله.

---

(١) جـ٣ ص١٦١.
(٢) جـ٤ ص٢٩، ٣٠.
(٣) جـ٤ ص٣٢.

٤- لباب التأويل فى معانى التنزيل للخـــــازن

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: علاء الدين، أبو الحسن، على بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحى[١]، البغدادى، الشافعى، الصوفى، المعروف بالخازن، اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق، وولد ببغداد سنة ٦٧٨هـ ثمان وسبعين وستمائة من الهجرة، وسمع بها من ابن الدواليبى، وقدم دمشق فسمع من القاس ابن مظفر ووزيرة بنت عمر، واشتغل بالعلم كثيراً، قال ابن قاضى شهبة: «كان من أهل العلم، جمع وألف، وحدث ببعض مصنفاته» وقد خلف ـ رحمه الله ـ كتباً جمة فى فنون مختلفة، فمن ذلك: لباب التأويل فى معانى التنزيل، وهو التفسير الذى نريد الكلام عنه، وشرح عمدة الأحكام، ومقبول المنقول فى عشر مجلدات، جمع فيه بين مسندى الشافعى وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطنى، ورتبه على الأبواب، وجمع سيرة نبوية مطولة، وكان رحمه الله صوفيّا حسن السمت بشوش الوجه، كثير التودد للناس، توفى سنة ٧٤١هـ إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة بمدينة حلب، فرحمه الله رحمة واسعة[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوى، وضم إلى ذلك ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدم عليه، وليس له فيه ـ كما يقول ـ سوى النقل والانتخاب، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب.

وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما، معنىٌّ بتقرير الأحكام وأدلتها، مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلى الذى لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان

---

(١) الشيحى، بالحاء المهملة، نسبة إلى بلد اسمها شيحة من أعمال حلب.

(٢) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة جـ٣ ص٩٧، ٩٨ وفى طبقات المفسرين للداودى ص١٧٨، وفى شذرات الذهب جـ٦ ص١٣١.

العلم الصحيح والعقل السليم، وأرى أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه فى مقدمة تفسيره، مبينًا به طريقته التى سلكها، ومنهجه الذى نهجه فيه، وفيها غِنًى عن كل شىء.

قال رحمه الله تعالى: «ولما كان كتاب معالم التنزيل، الذى صنفه الشيخ الجليل، والحبر النبيل، الإمام العالم محيى السنة، قدوة الأمة، وإمام الأئمة مفتى الفرق، ناصر الحديث، ظهير الدين، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى ـ قدس الله روحه، ونوَّر ضريحه ـ من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسناها، جامعًا للصحيح من الأقاويل، عاريًا عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلى بالأحاديث النبوية، مطرزًا بالأحكام الشرعية، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعًا بأحسن الإشارات، مخرجًا بأوضح العبارات، مفرغًا فى قالب الجمال بأفصح مقال، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه، وجعل الجنة متقلبه ومآبه، لما كان هذا الكتاب كما وصفت، أحببت أن انتخب من غرر فوائده، ودرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه، مختصرًا جامعًا لمعانى التفسير، ولباب التأويل والتعبير، حاويًا لخلاصة منقوله، متضمنًا لنكته وأصوله، مع فوائد نقلتها، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنفة، فى سائر علومه المؤلفة، ولم أجعل لنفسى تصرفًا سوى النقل والانتخاب، مجتنبًا حد التطويل والإسهاب، وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد، فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية، على تفسير آية أو بيان حكم ـ فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين ـ عزوته إلى مخرجه، وبينت اسم ناقله، وجعلت عوض كل اسم حرفًا يعرف به، ليهون على الطالب طلبه، فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر الصحابى الراوى للحديث (خ)، وما كان من صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى فعلامته (م)، وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق)، وما كان من كتب السنن، كسنن أبى داود والترمذى، والنسائى فإنى أذكر اسمه بغير علامة، وما لم أجده فى هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسند له انفرد به، قلت: روى البغوى بسنده، وما رواه البغوى بإسناد الثعلبى قلت: روى البغوى بإسناد الثعلبى، وما

كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده؛ فإنى اجتهدت فى صحيح ما أخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، ثم إنى عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به؛ ليكون أكمل فائدة فى هذا الكتاب، وأسهل على الطلاب، وسقته بأبلغ ما قدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب، مع التسهيل والتقريب، وينبغى لكل مؤلف كتابًا فى فن قد سبق إليه، أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد: استنباط شىء إن كان معضلا، أو جمعه إن كان متفرقًا، أو شرحه إن كان غامضًا، أو حسن نظم وتأليف، أو إسقاط حشو وتطويل، وأرجو أن لا يخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التى ذكرت، وسميته (لباب التأويل فى معانى التنزيل). اهـ.

ثم قدم الخازن لتفسيره بخمسة فصول:

الفصل الأول: فى فضل القرآن وتلاوته وتعليمه.

الفصل الثانى: فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم، ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده.

الفصل الثالث: فى جمع القرآن وترتيب نزوله، وفى كونه نزل على سبعة أحرف.

الفصل الرابع: فى كون القرآن نزل على سبعة أحرف وما قيل فى ذلك.

الفصل الخامس: فى معنى التفسير والتأويل، ثم ابتدأ بعد ذلك فى التفسير.

توسعه فى ذكر الإسرائيليات:

وقد قرأت فى هذا التفسير كثيرًا فوجدته يتوسع فى ذكر القصص الإسرائيلى وكثيرًا ما ينقل ما جاء من ذلك عن بعض التفاسير التى تعنى بهذه الناحية كتفسير الثعلبى وغيره، وهو فى الغالب لا يعقب على ما يذكر من القصص الإسرائيلى، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير، وإن كان فى بعض المواضيع لا يترك القصة تمر بدون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها، ولكن على ندرة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة (ص): ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ...**﴾ الآيات (٢١ - ٢٤) إلى قوله تعالى: ﴿**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ**﴾ نراه يسوق قصصًا أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذى تمثل

لداود فى صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن، وجناحاها من الدر والزبرجد، فطارت ثم وقعت بين رجليه وألهته عن صلاته، وقصة المرأة التى وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قُتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التى فُتن بها وشغف بحبها، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة، ولكنه يأتى بعد كل هذا فيقول: (فصل فى تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب إليه) ويفند فى هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى معر عصمة نبى الله داود عليه السلام(١).

ولكنا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يعقب عليها، مع أن بعضها غاية فى الغرابة، وبعضها مما يخل بمقام النبوة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ...﴾ الآية، نراه يذكر قصة أصحاب الكهف، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار، وهى غاية فى الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يعقب عليها بلفظ واحد(٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٣، ٨٤) من سورة الأنبياء: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ نراه يروى فى حق أيوب عليه السلام، قصة طويلة جدًا عن وهب بن منبه، وهى مما لا يكاد يقرها الشرع أو يصدقها العقل، لما فيها من المنافاة لمقام النبوة، ومع ذلك، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يعقب عليها بأية كلمة(٣).

عنايته بالأخبار التاريخية:

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض فى ذكر الغزوات التى كانت على عهد النبى ﷺ وأشار إليها القرآن.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا

---

(١) جـ٦ ص٣٨ - ٤٢.
(٢) جـ٤ ص١٦٠ - ١٦٥.
(٣) جـ٤ ص٢٥٠ - ٢٥٤.

تعملون بصيراً﴾ نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول: «ذكر غزوة الخندق - وهى الأحزاب» ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع[(١)].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة الأحزاب أيضًا: **﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديراً﴾** نراه يستطرد إلى ذكر غزوة بنى قريظة، بتوسع ظاهر، وتفصيل تام.

عنايته بالناحية الفقهية:

كذلك نجد هذا التفسير يعنى جدًا بالناحية الفقهية، فإذا تكلم عن آية من آيات الأحكام، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، وأقحم فى التفسير فروعًا فقهية كثيرة، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً فى قليل ولا كثير.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٦) من سورة البقرة: **﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءو فإن الله غفور رحيم﴾** نراه بعد أن ينتهى من التفسير يقول: «فروع تتعلق بحكم الآية» ثم يذكر خمسة فروع: **الفرع الأول:** فى حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبدًا أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر، **والثانى:** فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر، **والثالث:** فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر، **والرابع:** فى مدة الإيلاء فى حق الحر والعبد واختلاف المذاهب فى ذلك، **والخامس:** فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء، فهل تجب عليه كفارة أو لا تجب؟»[(٢)].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: **﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء...﴾** نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضى به عدة الحائض... ثم يقول: «فصل فى أحكام العدة، وفيه مسائل» فيذكر أربع مسائل، يتكلم فى المسألة الأولى منها عن عدة الحوامل، وفى الثانية عن عدة المتوفى عنها زوجها، وفى الثالثة عن عدة المطلقة المدخول بها، وفى الرابعة عن عدة الإماء[(٣)].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: **﴿فإن خفتم ألاّ**

---

(١) جـ٥ - ١٩٣ - ٢٠٠.
(٢) جـ١ ص١٨٧، ١٨٨.
(٣) جـ١ ص١٨٩.

يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ... ﴾ الآية، نجده يقول: «فصل فى حكم الخلع، وفيه مسائل» ويذكر ثلاث مسائل: **المسألة الأولى:** فيما يباح من أجله الخلع، **والثانية:** فى جواز الخلع بأكثر مما أعطاها وعدم جوازه، **الثالثة:** فى اختلاف العلماء فى الخلع هل هو فسخ أو طلاق؟[١].

ومثلا عند تفسيره لآية الظهار التى فى أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلا فى أحكام الكفارة، وما يتعلق بالظهار، ويورد فيه ثمانى مسائل[٢] لا نطيل بذكرها.

عنايته بالمواعظ:

ثم إن هذا التفسير كثيرًا ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هى التى أثرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة السجدة: ﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...** ﴾ الآية، نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: «فصل فى فضل قيام الليل والحث عليه»... ثم يسوق فى ذلك أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى[٣].

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة فى نواح من العلم مختلفة، ولكن شهرته القصصية، وسمعته الإسرائيلية، أساءت إليه كثيرًا، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه!!، ولعل الله يهيئ لهذا الكتاب من يعلق عليه بتعليقات توضح غثه من سمينه، وتستخلص صحيحه من سقيمه، والكتاب مطبوع فى سبعة أجزاء متوسطة الحجم، وهو متداول بين الناس، خصوصًا من له شغف بالقصص وولوع بالأخبار.

* * *

(١) جـ١ ص١٩٣، ١٩٤.
(٢) جـ٦ ص٣٩، ٤٠.
(٣) جـ٥ ص١٨٦، ١٨٧.

٥- البحر المحيط
لأبى حيان

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: أثير الدين، محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان، الأندلسى، الغرناطى، الحيانى، الشهير بأبى حيان، المولود سنة ٦٥٤هـ أربع وخمسين وستمائة من الهجرة.

كان ـ رحمه الله ـ ملما بالقراءات، صحيحها وشاذها، قرأ القرآن على الخطيب عبد الحق ابن على إفرادًا وجمعًا، ثم على الخطيب أبى جعفر بن الطباع، ثم على الحافظ أبى على بن أبى الأحوص بمالقة، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وأفريقية، ثم قدم الإسكندرية فقرأ القراءات على عبد النصير بن على المريوطى، وبمصر على أبى طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجى، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب، قال أبو حيان: «وعدة من أخذت عنه أربعمائة وخمسون شخصًا، وأما من أجازنى فكثير جدّا» وقال الصفدى: «لم أره قط إلا يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر فى كتاب، ولم أره على غير ذلك».

كذلك عرف أبو حيان، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات، كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفن أكثر عمره، حتى صار لا يذكر أحد فى أقطار الأرض فيهما غيره، وبجانب هذا كله كان لأبى حيان اليد الطولى فى التفسير، والحديث، وتراجم الرجال، ومعرفة طبقاتهم، خصوصًا المغاربة.

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتى صار من تلامذته أئمة وأشياخ فى حياته، وهو الذى جسر الناس على كتب ابن مالك ورغبهم فيها وشرح لهم غامضها، وأما مؤلفاته فكثيرة، انتشرت فى حياته وبعد وفاته فى كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس بالقبول، ومن أهمها: تفسير البحر المحيط الذى نحن بصدده الآن، وغريب القرآن فى مجلد واحد، وشرح التسهيل، ونهاية الإعراب، وخلاصة البيان، وله منظومة على وزن

الشاطبية فى القراءات بغير رموز، وهى أخصر وأكثر فوائد، ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبيــة، هذا، وقد قيل: إن أبا حيان كــان ظاهرى المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعى على مذهبه، وكــان عريًا من الفلسفة، بريئًا من الاعتزال والتجـسيم، متمسكا بطريقـة السلف، أما وفاته فكــانت بمصر سنة ٧٤٥هـ خـمس وأربعين وسـبعـمائة من الهجرة، فرحمه الله ورضى عنه(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفـسير فى ثمان مـجلدات كبار، وهو مطبوع ومـتداول بين أهل العلم، ومعـتبر عندهم المـرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعـراب لألفاظ القرآن الكريم؛ إذ أن الناحية النحوية هى أبرز مـا فيه من البحوث التى تدور حول آيات الكتاب العزيز، والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية، فهو ابن بجدتها، وفارس حلبتها، غيــر أنه ـ والحق يقال ـ قد أكـثر من مسـائل النحو فى كتــابه، مع توسعه فى مـسائل الخلاف بين الـنحويين، حتى أصـبح الكتاب أقـرب ما يكون إلى كتب النـحو منه إلى كتب التفسير.

هذا، وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية فى تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحى التى لها اتصال بالتفـسير، فنراه يتكلم على المعانى اللغوية للمفردات، ويذكر أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والقراءات الواردة مع توجيهها، كما أنه لا يغفل الناحة البلاغية فى القـرآن، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف فى ذلك، كل هذا على طريقة وضعها لنفسه ومشى عليها فى كتابه ونبهنا عليها فى مقدمته، وذلك حيث يقول:

«وترتيبى فى هذا الكتاب، أنى أبتدئ أولا بالكلام على مـفردات الآية التى أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التى لتلك اللفظة قبل التركيب، وإذا كان للكلمة معنيان أو معانٍ ذكـرت ذلك فى أول موضع فيه تلك الكلمة؛ لينظر ما يناسب لها من تلك المعانى فى كـل موضع تقع فيه فيجمل عليه، ثم أشـرع فى تفسير الآية ذاكرًا سبب نزولها إذا كان لهـا سبب، ونسخها، ومناسبتها، وارتبـاطها بما قبلها،

(١) انظر الدرر الكامنة جـ٤ ص٣٠٢ - ٣١٠.

حاشدًا فيها القراءات، شاذها ومستعملها، ذاكرًا توجيه ذلك فى علم العربية، ناقلا أقاويل السلف والخلف فى فهم معانيها، متكلمًا على جليها وخفيها، بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبديًا ما فيها من غوامض الإعراب، ودقائق الآداب، من بديع وبيان، مجتهدًا أنى لا أكرر الكلام فى لفظ سبق، ولا فى جملة تقدم الكلام عليها، ولا فى آية فسرت، بل أذكر فى كثير منها الحوالة على الموضع الذى تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة، ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم فى الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآنى، محيلا على الدلائل التى فى كتب الفقه، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل فى تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبًا أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس، بادئًا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ، مرجحًا له لذلك، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه، متنكبًا فى الإعراب عن الوجوه التى تنزه القرآن عنها، مبينًا أنها مما يجب أن يعدل عنه، وأنه ينبغى أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب؛ إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة فى شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة، والتراكيب القلقة، والمجازات المعقدة، ثم أختتم فى جملة من الآيات التى فسرتها إفرادًا وتركيبًا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصًا، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعانى، ملخصًا جملها أحسن تلخيص، وقد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم فى التفسير، وصار ذلك أنموذجًا لن يريد أن يسلك ذلك فيما بقى من سائر القرآن، وستقف على هذا المنهج الذى سلكته إن شاء الله تعالى، وربما ألممت بشىء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ، وتجنبت كثيرًا من أقاويلهم ومعانيهم التى يحملونها الألفاظ[1]، وتركت أقوال الملحدين الباطنية[2]، المخرجين الألفاظ العربية عن

---

(١) انظر ما تعقب به تفسير القشيرى للآية (١١٤) من سورة البقرة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ الآية، جـ١ ص٣٦٠.

(٢) عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ جـ٣ ص٤٤٩.

مدلولاتها فى اللغة، إلى هذيان افتروه على الله، وعلى علىٍّ كرم الله تعالى وجهه، وعلى ذريته، ويسمونه علم التأويل...». اهـ(١).

هذا، وإن أبا حيان - رحمه الله تعالى - ينقل فى تفسيره كثيرًا من تفسير الزمخشرى، وتفسير ابن عطية، خصوصًا ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب كما أنه يتعقبهما كثيرًا بالرد والتفنيد لما قالاه فى مسائل النحو على الخصوص، ولكثرة هذا التعقيب منه على كلام الزمخشرى وابن عطية تجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩هـ تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة يختصر هذا التفسير فى كتاب سماه (الدر اللقيط من البحر المحيط) يكاد يقتصر فيه على مباحثه مع ابن عطية والزمخشرى ورده عليهما(٢)، وهذا المختصر توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر، كما أنه مطبوع على هامش البحر المحيط.

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوى المغربى يفرد مؤلفًا عنوانه «بين أبى حيان والزمخشرى» يجمع فيه اعتراضات أبى حيان على الزمخشرى، وهو مخطوط فى مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية.

وكثيرًا ما يحمل أبو حيان على الزمخشرى حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية جـ٢ ص٢٧٦، جـ٧ ص٨٥، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشرى من مهارة فائقة فى تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه، حيث يصفه بأنه أوتى من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، جـ٧ ص٨٥.

هذا، وإن أبا حيان يعتمد فى أكثر نقول كتابه هذا - كما يقول: «على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير، من، جمع شيخه، الصالح، القدوة، الأديب، جمال الدين أبى عبد الله، محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسى، المعروف بابن النقيب، رحمه الله، إذ هو أكبر كتاب صنف فى علم التفسير، يبلغ فى العدد مائة سفر أو يكاد»(٣). اهـ.

---

(١) جـ١ ص٤، ٥.
(٢) انظر كشف الظنون جـ٢ ص١٤٥.
(٣) البحر المحيط جـ١ ص١١، ومع اعتماد أبى حيان على هذا التفسير نجده يصفه بكثرة التكرير وقلة التحرير جـ١ ص١١، كما نجده لا يرضى عما أولع به مولفه من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحًا جـ٨ ص١٩١.

ونهاية القول، فإن أبا حيان قد غلبت عليه فى تفسيره الناحية التى برز فيها وبرع فيها وهى الناحية النحوية التى طغت على ما عداها من نواحى التفسير.

* * *

٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: الإمام الشهير، والعلامة الخطير، نظام الدين، بن الحسن بن محمد بن الحسين، الخراسانى النيسابورى، المعروف بالنظام الأعرج، أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة قم، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور، كان رحمه الله من أساطين العلم بنيسابور، ملما بالعلوم العقلية، جامعًا لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ فى صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير.

وهو معدود فى عداد كبار الحفاظ والمقرئين، وكان مع هذه الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع والتقوى، وعلى مبلغ عظيم من الزهد والتصوف، ويظهر أثر ذلك واضحًا جليًا فى تفسيره الذى أودع فيه مواجيده الروحية، وفيوضاته الربانية، ولقد خلف رحمه الله للناس كتبًا مفيدة نافعة، ومصنفات فريدة واسعة، فمن ذلك شرحه على متن الشافية فى فن الصرف للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام، وشرحه على تذكرة الخواجة نصير الملة والدين الطوسى فى علم الهيئة، وهو المسمى بتوضيح التذكرة، ورسائل فى علم الحساب، وكتاب فى أوقاف القرآن على حذو ما كتبه السجاوندى المشهور، وأهم مصنفاته تفسيره لكتاب الله تعالى المعروف بـ «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» وهو ما نحن بصدده الآن، وله مجلد آخر فى لب التأويل نظير تأويلات المولى عبد الرزاق القاشانى.

أما تاريخ وفاته، فلم نعثر عليه فى الكتب التى بين أيدينا، وكل ما عثرنا عليه هو قول صاحب روضات الجنات: «إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة، على قرب من درجة السيد الشريف، والمولى جلال الدين الدوانى، وابن حجر العسقلانى، وقرنائهم

الكثيرين من علماء الجمهور، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور، صادفت حدود ما بعد الثمانمائة والخمسين من الهجرة. . .[(١)].

قال: ويوجد أيضًا بالبال نسبة التشيع إليه فى بعض مصنفات الأصحاب». اهـ[(٢)].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

اختصر النيسابورى تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازى، وضم إلى ذلك بعض ما جاء فى الكشاف وغيره من التفاسير، وما فتح الله به عليه من الفهم لمحكم كتابه، وضمنه ما ثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

موقفه من الزمخشرى والفخر الرازى:

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازى، أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره، لا يقف عند النص وقوف من يجمد عند النصوص ويرى أنها ضربة لازب عليه فلا يعترض ولا يتصرف، بل نجده حرًا فى تفكيره، متصرفًا فيما يختصر أو يقتبس، فإن وجد فسادًا نبه عليه وأصلحه، وإن رأى نقصًا تداركه فأتمه وأكمله.

وكثيرًا ما نجده ينقل عن الكشاف فيقول: قال فى الكشاف كذا وكذا، أو قال جار الله كذا وكذا، وقد ينقل ما ذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازى ثم ينصب نفسه حكما بين الإمامين، ويبدى رأيه على حسب ما يظهر له.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة الزمر ﴿ ... **وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**... ﴾ يقول ما نصه: «قال جار الله: الغرض من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجملته - تصوير عظمته، والتوقيف على كنه جلاله، من غير ذهاب

---

(١) ويوجد بآخر النسخة التى بأيدينا من تفسير النيسابورى ما نصه: «وجد بآخر بعض النسخ ما نصه: علقه مؤلفه، الحسن بن محمد بن الحسين، المشتهر بنظام الأعرج النيسابورى ببلاد الهند فى دار مملكتها بدولة آباد فى أوائل صفر سنة ٧٣٠ سبعمائة وثلاثين من هجرة سيد الأولين والآخرين، صلاة الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، كما جاء فى ترجمة النيسابورى بآخر النسخة أيضًا أنه فرغ من شرحه للتذكرة النصيرية فى غرة ربيع الأول سنة ٧١١هـ إحدى عشرة وسبعمائة، وفى كشف الظنون عند الكلام عن تفسير النيسابورى أنه توفى سنة ٧٢٨هـ.

(٢) انظر ترجمة النيسابورى فى آخر تفسيره، وفى روضات الجنات ص٢٢٥، ٢٢٦.

القبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو إلى جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى عن عبد الله ابن مسعود: أن رجلا من أهل الكتاب جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال، وأنزل الله الآية تصديقًا له، قال جار الله: وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك، ولا إصبع، ولا هز، ولا شىء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة، التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التى لا تكتنهها الأوهام هينة عليه... ثم ذكر كلامًا آخر طويلا، واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازى: بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته؛ لأنه هل يسلم أن الأصل فى الكلام حمله على حقيقته أم لا؟ وعلى الثانى يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حجة؛ فإن لكل أحد حينئذ أن يؤول الآية بما يشاء، وعلى الأول ـ وهو الذى عليه الجمهور ـ يلزم بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلانى على معناه الحقيقى لتعيين المصير إلى التأويل، ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل على تعيين أحدهما، ففى هذه الصورة لا شك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوارح، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالى، فوجب المصير إلى التأويل صونًا للنص عن التعطيل، ولا تأويل إلا أن يقال: المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره، كما يقال فلان فى قبضة فلان، وقال تعالى: ﴿**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ (الأحزاب: ٥٠) ويقال: هذه الدار فى يد فلان ويمينه، وفلان صاحب اليد.

وأنا أقول: هذا الذى ذكره الإمام طريق أصولى، والذى ذكره جار الله طريق بيانى، وإنهم يحيلون كثيرًا من المسائل إلى الذوق فلا منافاة بينهما، ولا يرد اعتراض الإمام وتشنيعه، وقد مر لنا فى هذا الكتاب الأصل الذى كان يعمل به السلف فى باب المتشابهات فى مواضع، فتذكر». اهـ[1].

---

(١) جـ٢٤ ص١٧، ١٨.

منهجه فى التفسير:

ثم إنا نجد الإمام النيسابورى، قد سلك فى تفسيره مسلكا قد يكون منفردًا به من بين المفسرين؛ ذلك أنه يذكر الآيات القرآنية أولا، ثم يذكر القراءات، مع التزامه ألا يذكر إلا ما كان منها منسوبًا إلى الأئمة العشرة، وإضافة كل قراءة إلى صاحبها الذى تنسب إليه، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها، ثم بعد ذلك يشرع فى التفسير، مبتدئًا بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازى، ثم بعد ذلك يبين معانى الآيات بأسلوب بديع، يشتمل على إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارات، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب وما حُملت عليه الآية القرآنية، لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له.

فمثلا عند تفسير لقوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾ الآية، نجده يقول: «واعلم أن الكلام فى السرقة، يتعلق بأطراف المسروق، ونفس السرقة، والسارق... ثم يمضى فيتكلم عن هذه النواحى الثلاث من الناحية الفقهية، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة»[1].

خوضه فى المسائل الكلامية:

كذلك نجده يخوض فى المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السنة ومذهب غيرهم، مع ذكره لأدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السنة وتأييده له، ورد ما يرد عليه من جانب المخالفين.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا...﴾ الآية تجده يقول: «وفى الآية دلالة على أن الله تعالى هو الذى يصرف عن الإيمان ويحول بين المرء وبين قلبه، وقالت المعتزلة: لا يمكن إجراؤها على ظاهرها، وإلا كان حجة للكفار، ولأنه يكون تكليفا للعاجز، ولم يتوجه ذمهم فى قولهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ (البقرة: ٨٨) فلا بد من

(١) جـ٦ ص١٣٢ - ١٣٥.

التأويل، وذلك من وجوه...» ثم ساق خمسة أوجه للمعتزلة، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها، تفنيدًا لمذهب المعتزلة، وتصحيحًا لمذهب أهل السنة(١).

خوضه فى المسائل الكونية والفلسفية:

كذلك إذا مر النيسابورى على آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٨٩) من سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ...**﴾ الآية، نراه يذكر سبب نزول الآية، ثم يبين الحكمة التى أرادها الله من وراء جوابه لهم على غير مقصودهم، وهنا يتعرض للسبب الذى من أجله يبدو الهلال دقيقًا ثم يزيد شيئًا فشيئًا حتى يصير بدرًا، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يعود كما بدأ(٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة الزمر ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...**﴾ الآية، يقول ما نصه: «وقال حكماء الإسلام: النفس الإنسانية جوهر مشرق نورانى» إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه فى جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها، وهو الحياة واليقظة، وأما فى وقت النوم فإن ضوءه لا يقع إلا على باطن البدن وينقطع عن ظاهره، فتبقى نفس الحياة التى بها النفس وعمل القوى البدنية فى الباطن ويفنى ما به التمييز والعقل، وإذا انقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت».

وهذا المسلك الذى سلكه النيسابورى فى الكونيات والآراء الفلسفية، ليس هو فى الواقع إلا صدًى لما جاء فى تفسير الفخر الرازى الذى لخص منه تفسيره، وإن كان النيسابورى ليس بوقًا للرازى فى كل ما يقول، بل كثيرًا ما يستدرك عليه ولا يرتضى قوله.

فمثلا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١، ٢) من سورة الانفطار: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**﴾ يقول ما نصه: «وفيه ـ يعنى فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ**﴾، وكذا فى قوله: ﴿**وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ**﴾ ـ إبطال قول من زعم أن الفلكيات لا تنخرق، أما الدليل المعقول الذى ذكره الإمام فخر الدين الرازى

---

(١) جـ٧ ص١٢٩.

(٢) جـ٢ ص٢٢٢، ٢٢٣.

فى تفسيره، وهو أن الأجسام متماثلة فى الجسمية، فيصح على كل واحد منها ما يصح على الباقى، لكن السفليات يصح عليها الانخراق، فيصح على العلويات أيضًا، فغير مفيد ولا مقنع؛ لأن الخصم لو سلم الصحة فله أن ينازع فى الوقوع لمانع، كالصورة الفكلية وغيرها». اهـ(١).

النزعة الصوفية فى تفسير النيسابورى:

ثم إن النيسابورى بعد أن يفرغ من تفسير الآية يتكلم عن التأويل، والتأويل الذى يتكلم عنه هو عبارة عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التى يفتح الله بها على عقول أهل الحقيقة من المتصوفة، والنيسابورى ـ رحمه الله ـ كان صوفيًا كبيرًا، أفاض من روحه الصوفية الصافية على تفسيره، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلى كثير من المواعظ المبكيات والحكم الغاليات، كما نراه فى تأويله الإشارى يمثل الفلسفة التصوفية بأعلى أنواعها.

ليس فى تفسير النيسابورى ما يدل على تشيعه:

وعلى كثرة ما قرأت فى هذا التفسير لم أقع على نص منه يدل على تشيع مؤلفه، وكل ما وقعت عليه، أنه قال فى خاتمة تفسيره جـ٣٠ ص٢٢٨: «وإنى أرجو فضل الله العظيم، وأتوسل إليه بوجهه الكريم، ثم بنبيه القرشى الأبطحى ووليه المعظم العلى... إلخ» وهذه الجملة الأخيرة (ووليه المعظم العلى) وإن كانت اعترافًا منه بولاية علىٍّ رضي الله عنه، ليست دليلا قاطعًا على تشيعه، بل نجد النيسابورى على العكس من ذلك يعترف فى نفس خاتمة تفسيره جـ٣٠ ص٢٢٤ بأنه لم يمل فى تفسيره إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة وإذا رجعت إلى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥٤، ٥٥) من سورة المائدة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾... إلخ جـ٦ ص١٩٥ وما بعدها لوجدته يرد على الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين على ولاية على رضي الله عنه، وأنه الخليفة بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كان ما ذكره تلخيصًا لما قال الفخر الرازى فى تفسيره.

وهنا ـ وبعد ما ذكرت ـ أرى لزامًا علىَّ أن أذكر كلام النيسابورى الذى أوضح فيه

---

(١) جـ٣٠ ص٣٩.

مسلكه فى تفسيره ومنهجه الذى نهجه فيه، فإن صاحب البيت أعرف به وأدرى بما فيه.

قال رحمه الله فى مقدمة تفسيره ما نصه: «وإذا وفقنى الله تعالى لتحريك القلم فى أكثر الفنون المنقولة والمعقولة ـ كما اشتهر بحمد الله تعالى ومنه فيما بين أهل الزمان ـ وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الإنسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقنى الله تعالى من إبان الصبا وعنفوان الشباب، حفظ لفظ القرآن وفهم معنى الفرقان، وطالما طالبنى بعض أجلة الإخوان، وأعزة الأخدان ممن كنت مشارًا إليه عندهم بالبنان فى البيان ـ والله المنان يجازيهم عن حسن ظنونهم، ويوفقنا لإسعاف سؤلهم، وإنجاح مطلوبهم ـ أن أجمع كتاب فى علم التفسير، مشتملا على المهمات، منبئًا عما وقع إلينا من نقل الأثبات، وأقوال الثقات من الصحابة والتابعين، ثم من العلماء الراسخين، والفضلاء المحققين، المتقدمين والمتأخرين ـ جعل الله تعالى سعيهم مشكورًا، وعملهم مبرورًا ـ فاستعنت بالمعبود، وشرعت فى المقصود، معترفًا بالعجز والقصور فى هذا الفن وفى سائر الفنون، لا كمن هو بابنه وشعره مفتون، كيف وقد قال عز من قائل: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥) ومن أصدق من الله قيلا، وكفى بالله وليا وكفى بالله وكيلا.

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الإمام الأفضل، والهمام الأمثل، والحبر النحرير والبحر الغزير، الجامع بين المعقول والمنقول الفائز بالفروع والأصول، أفضل المتأخرين، فخر الملة والحق والدين محمد بن عمر بن الحسيّن الخطيب الرازى، تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوبة جنانه، اسمه مطابق لمسماه وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصى، ومن الزوائد والفتوى ما لا يخفى، فإنه قد بذل مجهوده، ونثل موجوده، حتى عسر كتبه على الطالبين، وأعوز تحصيله على الراغبين، فحاذيت سياق مرامه، وأوردت حاصل كلامه، وقربت مسالك أقدامه، والتقطت عقود نظامه من غير إخلال بشىء من الفوائد، وإهمال لما يعد من اللطائف والفرائد، وضممت إليه ما وجدت فى الكشاف وفى سائر التفاسير من اللطائف المهمات، أو رزقنى الله تعالى من البضاعة المزجاة، وأثبت القراءات المعتبرات والوقوف المعللات، ثم التفسير المشتمل

على المباحث اللفظيات، والمعنويات، مع إصلاح ما يجب إصلاحه، وإتمام ما ينبغى إتمامه من المسائل الموردة فى التفسير الكبير والاعتراضات، ومع كل ما يوجد فى الكشاف من المواضع المعضلات، سوى الأبيات المعقدات، فإن ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات وغرائب القرآن، إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلا فإن القرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، فلا علينا أن نقتصر فى غرائب القرآن على تفسيرها بالألفاظ المشتهرات، وعلى إيراد بعض المتجانسات التى نعرف منها أصول الاشتقاقات، وذكرت طرفًا من الإشارات المقنعات، والتأويلات الممكنات، والحكايات المبكيات، والمواعظ الرادعة عن المنهيات، الباعثة على أداء الواجبات، والتزمت إيراد لفظ القرآن الكريم أولا مع ترجمته على وجه بديع، وطريق منيع، يشتمل على إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات وتحقيق المجازات والاستعارات، فإن هذا النوع من الترجمة مما تكسب فيه العبرات، وترن[1] المترحمون هنالك إلى العثرات، وقلما يفطن له الناشئ الواقف على متن اللغة العربية، فضلا عن الدخيل الزحيل القاصر فى العلوم الأدبية، واجتهدت كل الاجتهاد، فى تسهيل سبيل الرشاد، ووضعت الجميع على طرف التمام، ليكون الكتاب كالبدر التمام، وكالشمس فى إفادة الخاص والعام، من غير تطويل يورث الملام، ولا تقصير يوعر مسالك السالك ويبدد نظام الكلام، فخير الكلام ما قل ودل «وحسبك من الزاد ما بلغك المحل». اهـ[2].

وقال فى آخر تفسيره ما نصه: «وقد تضمن كتابى هذا حاصل التفسير الكبير، الجامع لأكثر التفاسير، وجل كتاب الكشاف الذى رزق له القبول من أساتذة الأطراف والأكتاف، واحتوى مع ذلك على النكت المستحسنة الغريبة والتأويلات المحكمة العجيبة، مما لم يوجد فى سائر تفاسير الأصحاب، أو وجدت متفرقة الأسباب، أو مجموعة طويلة الذيول والأذناب.

---

(١) هكذا بالأصل، وفى هامش بعض النسخ «ولعل الصواب ويزل» وليس بظاهر.

أقـول: ولعلها يذن بمعنى يمشى: قال فى أساس البلاغة: وفلان يذن فى مشيته إذا مشى بضعف، وما زال يذن فى هذه الحاجة: يتردد بتؤدة ورفق.

(٢) جـ١ ص٥، ٦.

أما الأحاديث، فإما من الكتب المشهورة، كجامع الأصول، والمصابيح وغيرها، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما، إلا الأحاديث الموردة فى الكشاف فى فضائل السور، فإنا قد أسقطناها لأن النقد زيفها إلا ما شذ منها.

وأما الوقوف فللإمام السجاوندى، مع اختصار لبعض تعليلات، وإثبات للآيات لتوقفها على التوقيف.

وأما أسباب النزول، فمن كتاب جامع الأصول، والتفسيرين، أو من تفسير الواحدى.

وأما اللغة، فمن صحاح الجوهرى، ومن التفسيرين كما نقلا.

وأما المعانى والبيان وسائر المسائل الأدبية، فمن التفسيرين، والمفتاح، وسائر الكتب العربية.

وأما الأحكام الشرعية، فمنهما، ومن الكتب المعتبرة فى الفقه، ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعى.

وأما التأويل، فأكثرها للشيخ المحقق، المتقى المتقن نجم الملة والدين المعروف بداية قدس نفسه وروح رمسه، وطرف منها مما دار بخلدى، وسمحت به ذات يدى غير جازم بأنه المراد من الآية، بل خائف من أن يكون ذلك جرأة منى وخصوصًا فيما لا يعنينى، وإنما شجعنى على ذلك سائر الأئمة الذين اشتهروا بالذوق والوجدان، وجمعوا بين العرفان والإيمان والإتقان فى معنى القرآن، الذى هو باب واسع، يطمع فى تصنيفه كل طامع، فإن أصبت فبها، وإن أخطأت فعلى الإمام ما سها، والعذر مقبول عند أهل الكرم والنهى، والله المستعان لنا ولهم فى مظان الخلل والزلل، وعلى رحمته التكلان فى محال الخطأ والخطل، فعلى المرء أن يبذل وسعه لإدراك الحق، ثم الله معين لإرادة الصواب، ومعين لإلهام الصدق.

وكذا الكلام فى بيان الرباطات والمناسبات بين السور والآيات، وفى أنزاع التكريرات وأصناف المشتبهات، فإن للخواطر والظنون فيها مجالا، وللناس الأكياس فى استنباط الوجوه والنسب هناك مقالا... ثم مضى فقال: وإنى لم أمل فى هذا الإملاء إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة، فبينت أصولهم، ووجوه استدلالاتهم بها، وما ورد عليها من الاعتراضات، والأجوبة عنها.

وأما فى الفروع، فذكرت استدلال كل طائفة بالآية على مذهبه، من غير تعصب ومراء وجدال وهراء... ثم مضى فقال: ولقد وفقت لإتمام هذا الكتاب فى مدة خلافة على ﷺ، وكنا نقدر إتمامه فى مدة خلافة الخلفاء الراشدين، وهى ثلاثون سنة، ولو لم يكن ما اتفق فى أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة، وعدم الأسفار النافعة، ومن غموض لا يعد عديدها، وهموم لا ينادى وليدها، لكنا يمكن إتمامه فى مدة خلافة أبى بكر، كما وقع لجار الله العلامة...»[1] اهـ.

هذ، وقد نوه صاحب روضات الجنات بمكانة هذا التفسير فقال: «وتفسيره - يريد النيسابورى - من أحسن شروح كتاب الله المجيد، وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية، وأحوزها للفوائد القشرية واللبية، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كما وكيفًا، وسمة وترتيبًا، بزيادة أحكام الأوقاف فى أوائل تفسير الآى، ومراتب التأويل فى آخره، والإشارة إلى جملة من دقائق نكات العربية فى البين». اهـ[2].

والكتاب مطبوع على هامش تفسير ابن جرير الطبرى ومتداول بين أهل العلم.



٧- تفسير الجلالين
لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى

التعريف بمؤلفى هذا التفسير:

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان: جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى.

أما جلال الدين السيوطى، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمى بالدر المنثور.

وأما جلال الدين المحلى، فهو: جلال الدين، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلى الشافعى، تفتازانى العرب، الإمام العلامة، قال فى حسن المحاضرة: «ولد بمصر سنة ٧٩١هـ إحدى وتسعين وسبعمائة، واشتغل وبرع فى الفنون فقهًا، وكلامًا، وأصولا، ونحوًا، ومنطقًا، وغيرها، وأخذ عن البدر محمود الأقصرائى،

---

(١) جـ٣٠ ص٢٢٢ - ٢٢٥.

(٢) روضات الجنان ص٢٢٦.

والبرهان البيجورى، والشمس البساطى، والعلاء البخارى، وغيرهم، وكان علامة آية فى الذكاء والفهم، حتى كان بعض أهل عصره يقول فيه: إن ذهنه يثقب الماس، وكان هو يقول عن نفسه: إن فهمه لا يقبل الخطأ، ولم يك يقدر على الحفظ...».

وكان غرة عصره فى سلوك طريق السلف، على مبلغ عظيم من الصلاح والورع، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذه فى الحق لومة لائم، فكان يواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام، وكانوا يأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم فى الدخول عليه، وكان حديد الطبع، لا يراعى أحدًا فى القول، وقد عرض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله، وولى تدريس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية، وسمع من جماعة، وكان مع هذا متقشفًا فى معيشته يتكسب بالتجارة، وقد ألف كتبًا كثيرة تشد إليها الرحال، وهى غاية فى الاختصار، والتحرير والتنقيح، وسلامة العبارة وحسن المزج والحل، وقد أقبل الناس على مؤلفاته وتلقوها بالقبول، وتداولوها فى دراساتهم، فمن مؤلفاته: شرح جمع الجوامع فى الأصول وشرح المنهاج فى فقه الشافعية، وشرح الورقات فى الأصول، ومنها هذا التفسير الذى نحن بصدده.

توفى رحمه الله فى أول يوم من سنة ٨٦٤هـ أربع وستين وثمانمائة من الهجرة»[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:

اشترك فى هذا التفسير - كما قلنا - الإمامان الجليلان، جلال الدين المحلى، وجلال الدين السيوطى.

أما جلال الدين المحلى، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يفسر ما بعدها.

وأما جلال الدين السيوطى، فقد جاء بعد الجلال المحلى فكمل تفسيره، فابتدأ بتفسير سورة البقرة، وانتهى عند آخر سورة الإسراء، ووضع تفسير الفاتحة فى آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به.

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ٧ ص٢٠٣، ٢٠٤، وطبقات المفسرين للداودى ٢١٩، ٢٢٠.

هذا هو الواقع، ولا أظن صاحب كشف الظنون مصيبًا حيث يقول عند الكلام على تفسير الجلالين ما نصه: «تفسير الجلالين من أوله إلى آخر سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد ابن أحمد المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤هـ أربع وستين وثمانمائة، ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ إحدى عشرة وتسعمائة. . .» وحيث يقول بعد ذلك بقليل: «وكأن المحلى لم يفسر الفاتحة، وفسرها السيوطى تفسيرًا مناسبًا»[(١)].

نعم، لا أظن صاحب كشف الظنون مصيبًا فى ذلك، لأن السيوطى - فى مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام على سورة البقرة - يقول بعد الديباجة ما نصه: «هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين فى تكملة تفسير القرآن الكريم، الذى ألفه الإمام العلامة المحقق، جلال الدين، محمد بن أحمد، المحلى الشافعى رحمه الله، وتتميم ما فاته وهو - يريد ما فات الجلال المحلى وقام هو بتفسيره - من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء. . .».

ويقول فى آخر سورة الإسراء ما نصه: «قال مؤلفه: هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم، الذى ألفه الشيخ الإمام، العالم العلامة المحقق، جلال الدين المحلى الشافعى رضي الله عنه. . .»[(٢)].

هذا من ناحية تعيين القدر الذى فسره كل منهما، وأما من الناحية الأخرى وهى ادعاء صاحب كشف الظنون أن المحلى لم يفسر الفاتحة، وإنما الذى فسرها هو السيوطى، فهى أيضًا دعوى يظهر لنا أنها غير صحيحة وذلك لما يقوله الشيخ سليمان الجمل فى مقدمة حاشيته على هذا التفسير جـ١ ص٧: «وأما الفاتحة ففسرها المحلى، فجعلها السيوطى فى آخر تفسير المحلى لتكون منضمة لتفسيره، وابتدأ هو من أول سورة البقرة. . .». اهـ. ولقوله فى الحاشية نفسها جـ٤ ٦٢٦ عند نهاية ما كتبه على تفسير سورة الفاتحة: «إنه - أى الجلال المحلى - كان قد شرع فى تفسير النصف الأول، وأنه ابتدأ بالفاتحة، وأنه اخترمته المنية بعد الفراغ منها وقبل الشروع فى البقرة وما بعدها. . .». اهـ.

---

(١) كشف الظنون جـ١ ص٢٣٦.

(٢) جـ١ ص٢٣٧.

وهذا، وقد قال صاحب كشف الظنون بعد ما نقلناه عنه آنفًا بقليل: «ولم يتكلم الشيخان على البسملة، فتكلم عليها بأقل مما ينبغى من الكلام بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش، وهذا صحيح، فإن الجلال المحلى لم يتكلم عن تفسير البسملة مطلقًا فى الجزء الذى فسره، لا فى أول سورة الكهف، ولا فى أول فاتحة الكتاب، كذلك الجلال السيوطى، لم يتكلم عن تفسيرها مطلقًا فى الجزء الذى فسره.

وبعد هذا... فالجلال المحلى فسر الجزء الذى فسره بعبارة موجزة محررة، فى غاية الحسن ونهاية الدقة، والجلال السيوطى تابعه على ذلك ولم يتوسع؛ لأنه التزم بأن يتم الكتاب على النمط الذى جرى عليه الجلال المحلى، كما أوضح هو ذلك فى مقدمته، وذكر فى خاتمة سورة الإسراء أنه ألف الجزء الذى ألفه فى قدر ميعاد الكليم، وهو أربعون يومًا، كما ذكر فى هذا الموضع نفسه: أنه استفاد فى تفسيره من تفسير الجلال المحلى، وأنه اعتمد عليه فى الآى المتشابهة، كما أنه اعترف ـ جازمًا ـ بأن الذى وضعه الجلال المحلى فى قطعته أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة[1].

وعلى الجملة، فالسيوطى قد نهج فى تفسيره منهج المحلى «من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه، والتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة، على وجه لطيف، وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية»[2].

ولا شك أن الذى يقرأ تفسير الجلالين، لا يكاد يلمس فرقًا واضحًا بين طريقة الشيخين فيما فسراه، ولا يكاد يحس بمخالفة بينهما فى ناحية من نواحى التفسير المختلفة، اللهم إلا فى مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل.

فمن هذا المواضع أن المحلى فى سورة (ص) فسر الروح بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه، والسيوطى تابعه على هذا التفسير فى سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ فهى صريحة أو كالصريحة فى أن الروح من علم الله تعالى، فالإمساك عن تعريفها أولى.

ومنها: أن المحلى قال فى سورة الحج: «الصابئون: فرقة من اليهود»، والسيوطى

---

(١) تفسير الجلالين جـ١ ص٢٣٧ - ٢٣٨ فى الخاتمة. (٢) مقدمة السيوطى لتفسير الجلالين.

فى سورة البقرة تابعه على ذلك وزاد عليه «أو النصارى» بيانا منه لقول ثان[(١)] . . . وهكذا تلمح الخلاف بين الشيخين قليلا نادرًا.

ثم إن هذا التفسير، غاية فى الاختصار والإيجاز، حتى لقد ذكر صاحب كشف الظنون عن بعض علماء اليمن أنه قال: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلى سورة المزمل، ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن، فعلى هذا يجوز حمله بغير الوضوء». اهـ[(٢)].

ومع هذا الاختصار، فالكتاب قيم فى بابه، وهو من أعظم التفاسير انتشارًا، وأكثرها تداولا ونفعًا، وقد طبع مرارًا كثيرة، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه، ومن أهم هذه الحواشى: حاشية الجمل، وحاشية الصاوى، وهما متداولتان بين أهل العلم.

وذكر صاحب كشف الظنون: «أن عليه حاشية لشمس الدين محمد بن العلقمى سماها: قبس النيرين، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٢هـ اثنتين وخمسين وتسعمائة، وحاشية مسماة بالجمالين، لمولانا الفاضل نور الدين على بن سلطان محمد القارى نزيل مكة المكرمة، والمتوفى بها عام ١٠١٠هـ عشر وألف، وشرح لجلال الدين محمد بن محمد الكرخى، وهو كبير فى مجلدات سماه: مجمع البحرين ومطلع البدرين، وله حاشية صغرى». اهـ[(٣)]. ولكن شيئا مما ذكره صاحب كشف الظنون لم يقع تحت أيدينا، ولم نظفر بالاطلاع عليه.

* * *

---

(١) خاتمة الجزء الأول من تفسير الجلالين ص٢٣٨.

(٢) كشف الظنون جـ١ ص٢٣٦.

(٣) المرجع السابق، وقد تقدم عند الكلام عن تفسير الدر المنثور، أن السيوطى شرع فى تأليف تفسير سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين، ولم تعرف هل أتمه أو لا، وهو بالضرورة غير مجمع البحرين ومطلع البدرين لجلال الدين، محمد بن محمد الكرخى، وإن كان صاحب كشف الظنون عند الكلام عن مجمع البحرين ومطلع البدرين لم يذكر غير ما نسب للجلال السيوطى.

٨- السـراج المنيـر
فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير
للخطيب الشربينى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن محمد الشربينى، القاهرى الشافعى الخطيب، تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره؛ فمنهم الشيخ أحمد البرلسى، والنور المحلى، والبدر المشهدى، والشهاب الرملى، وغيرهم، ولما آنس منه أشياخه ورأوه أهلا للفتوى والتدريس أجازوه بها، فدرس وأفتى فى حياتهم، وانتفع به خلائق لا يحصون.

ولقد كان ـ رحمه الله ـ على جانب عظيم من الصلاح والورع، وقد أجمع أهل مصر على ذلك، ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة التنسك والعبادة، وكان من عادته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد، وكان إذا حج لا يركب إلا بعد تعب شديد، وكان يؤثر الخمول ولا يكترث بأشغال الدنيا، وعلى الجملة، فقد كان آية من آيات الله تعالى، وحجة من حججه على خلقه، توفى فى عصر يوم الخميس ثانى شعبان سنة ٩٧٧هـ سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة، ومن أهم مؤلفاته شرحه لكتاب المنهاج وكتاب التنبيه، وهما شرحان عظيمان، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد القاضى زكريا، وأقبل الناس على قراءتهما وكتابتهما فى حياته، وتفسيره لكتاب الله تعالى، هو الذى نحن بصدده الآن[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته: أن أئمة السلف ألفوا فى التفسير كتبًا، كلٌّ على قدر فهمه ومبلغ علمه، وأنه خطر له أن يتقفى أثرهم، ويسلك طريقهم، ولكنه تردد فى ذلك مدة من الزمن؛ مخافة أن يدخل تحت الوعيد الوارد فى حق من فسر

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ٨ ص٣٨٤.

القرآن برأيه أو بغير علم، ثم ذكر أنه استخار الله تعالى فى حضرته، بعد أن صلى ركعتين فى روضته، وسأله أن يشرح صدره لذلك وييسره له، فشرح الله له صدره، ولما رجع من سفره، كتم ذلك فى سره، حتى قال له شخص من أصحابه: إنه رأى فى المنام أن النبى ﷺ أو الشافعى يقول: قل لفلان يعمل تفسيرًا على القرآن، وذكر المؤلف أنه لم يمض عليه إلا القليل حتى قرر فى وظيفة مشيخة تفسير فى البيمرستان، وذكر أن جماعة من أصحابه لهم شغف بالعلم، طلبوا منه بعد فراغة من شرح منهاج الطالبين، أن يجعل لهم تفسيرًا وسيطًا بين الطويل الممل والقصير المخل، فأجابهم إلى ذلك، متمثلا وصية الرسول ﷺ فيهم، حيث قال فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه: «إن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا» ومقتديًا بالماضين من السلف، فى تدوين العلم إبقاء على الخلف، وذكر أنه ليس على ما فعلوه مزيد، ولكن لا بد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، تنبيهًا للمتوقفين، وتحريضًا للمتثبطين، وليكون ذلك عونًا له وللقاصرين أمثاله (كما يقول).

وذكر أنه اقتصر فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعاريب محلها كتب العربية، وذكر أن ما يذكره فيه من القراءات فهو من السبع المشهورات، قال: وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها، أو لورودها ولكن بصيغة قيل؛ ليعلم أن المرضى أولها، وسميته «السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير» ثم قال: «وقد تلقيت التفسير ـ بحمد الله ـ من تفاسير متعددة رواية ودراية، عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم. . .».

وقال فى خاتمة الكتاب: «فدونك تفسيرًا كأنه سبيكة عسجد، أو در منضد، جمع من التفاسير معظمها، ومن القراءات متواترها، ومن الأقاويل أظهرها، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها، محرر الدلائل فى هذا الفن، مظهرًا لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن. . . إلى آخره».

وقد قرأت فى هذا التفسير فوجدته تفسيرًا سهل المأخذ، ممتع العبارة، ليس

بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف، كما أنه يذكر أحيانًا أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشرى والبيضاوى، والبغوى، وقد يوجه ما يذكره من هذه الأقوال ويرتضيها، وقد يناقشها ويرد عليها(١).

موقفه من القراءات والأعاريب والحديث:

وقد وفى فيه صاحبه بما وعد فلم يذكر من القراءات إلا ما تواتر منها، ولم يُقحم نفسه فيما لا يعنى المفسر من ذكر الأعاريب التى لا تمت إلى التفسير بسبب، كما أنه وفى ما التزمه من أنه لا يذكر فيه إلا حديثًا صحيحًا أو حسنًا، ولهذا نراه يتعقب الزمخشرى والبيضاوى فيما ذكراه من الأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن سورة سورة، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئًا منها فى تفسيره.

فمثلا فى آخر سورة آل عمران يقول ما نصه: «روى الطبرى لكن بإسناد ضعيف: من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس. . أى تغيب، وما رواه البيضاوى تبعًا للزمخشرى وتبعهما ابن عادل من أنه ﷺ قال: من قرأ آل عمران أعطى بكل آية منها أمانًا على جسر جهنم، فهو من الأحاديث الموضوعة على أبى ابن كعب فى فضائل السور، فليتنبه لذلك ويحذر منه، وقد نبه أئمة الحديث قديمًا وحديثًا على ذلك، وعابوا من أورده من المفسرين فى تفاسيرهم، والله أعلم». اهـ(٢).

وفى آخر سورة الأعراف يقول ما نصه: «والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعًا للزمخشرى وهو: من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سدًّا، وكان آدم شفيعًا له يوم القيامة، حديث موضوع». اهـ(٣).

وفى آخر سورة الجاثية يقول ما نصه: «وما رواه البيضاوى تبعًا للزمخشرى من أنه ﷺ قال: من قرأ سورة حم الجاثية، ستر الله عورته، وسكن روعته يوم الحساب، حديث موضوع»(٤).

---

(١) انظر ما نقله عن البيضاوى متابعًا فيه الزمخشرى، وما ذكره من رد أبى حيان عليه، عند قوله تعالى فى الآية ١٨٠ من سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ جـ١ ص١١١.

(٢) جـ١ ص٢٦٥. (٣) جـ٣ ص٥٦٨. (٤) جـ٣ ص٥٦٨.

اهتمامه بالنكت التفسيرية ومشكلات القرآن:

ومما نلحظه فى هذا التفسير، أنه يورد بعض النكت التفسيرية، وبعض الإشكالات والإجابة عنها، تارة بقوله: تنبيه، وتارة بقوله: فإن قيل كذا أجيب بكذا.

عنايته بالمناسبات بين الآيات:

كما أنه شديد العناية بذكر المناسبات بين آيات القرآن، عظيم الاهتمام بتقرير الأدلة وتوجيهها.

موقفه من المسائل الفقهية:

كما أننا نلاحظ عليه أنه يستطرد إلى ذكر الأحكام الفقهية، ومذاهب العلماء وأدلتهم، وإن كان مقلا فى هذه الناحية، فلا يتوسع ولا يكثر من ذكر الفروع.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿**لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ نراه يعرض لبعض أقوال العلماء فى معنى اليمين اللغو، ثم بعد الفراغ من تفسير الآية يقول: **تنبيه:** ثم يذكر ما ينعقد به اليمين، وما يترتب على الحنث فى اليمين المنعقدة، وهل تجب الكفارة بالحنث فى اليمين الغموس أو لا تجب؟ فيذكر عن الشافعية أنهم يقولون بوجوبها، وعن بعض العلماء أنه لا كفارة فيها كأكثر الكبائر، ويعرض لحكم الحلف بغير الله كالكعبة والنبى والأب وغير ذلك[1].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة: ﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ...**﴾ يقول بعد الفراغ من التفسير:

تنبيه: اختلف العلماء فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقًا، فذهب الأكثر ومنهم الشافعى ﷺ، إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج، فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات، والعبد لا يملك على زوجته الحرة إلا طلقتين، وذهب الأقل ومنهم أبو حنيفة ﷺ، إلى أن الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق كالعدة، فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلقات، ولا يملك الحر على زوجته الأمة إلا طلقتين. اهـ[2].

---

(١) جـ١ ص١٣٩.

(٢) جـ١ ص١٤١.

خوضه فى الإسرائيليات:

هذا، ولم يخل تفسير الخطيب، من ذكر بعض القصص الإسرائيلى الغريب، وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ...**﴾ الآية، نراه يروى خبرا طويلاً عن كعب فيه أنه صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب، وصاحت فاختة فقال: أتدرون ما تقول؟ قالوا: لا، قال: فإنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، وصاح طاووس فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا، قال: فإنه يقول: كما تدين تدان... إلى آخر ما ذكره من صيحات حيوانات متعددة، ومعانى هذه الصيحات، ثم يروى ما يشبه هذا عن مكحول، وعن فرقد السنجى، كما يروى بعد ذلك أن جماعة من اليهود سألوا ابن عباس عن معانى ما تقوله بعض الطيور، وما كان من جواب ابن عباس عن ذلك، وهو شبيه بما تقدم أيضًا، ومع كون القصة فى نهاية الغرابة والبعد فإن الخطيب يمر عليها مر الكرام ولا يعقب عليها بكلمة واحدة[١].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل أيضًا: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ**﴾ نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان، وما كان من اختبارها له، وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته على ما اختبرته به، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه، مما يبعث الدهشة ويثير العجب، ومع ذلك لا يعقب على ما رواه بكلمة واحدة[٢].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الصافات: ﴿**وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ نراه يقول:

تنبيه: أذكر فيه شيئًا من قصته عليه السلام... ثم يروى لنا قصة طويلة وعجيبة عن علماء السير والأخبار، وبعد الفراغ منها لا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف[٣].

---

(١) جـ٣ ص٤٣، ٤٤.
(٢) جـ٣ ص٥٤، ٥٥.
(٣) جـ٣ ص٣٦٦ - ٣٦٩.

ولكن الخطيب إن مر على مثل هذه القصص بدون أن يعقب عليها، لا يرضى لنفسه أن يمر على قصة فيها ما يخل بمقام النبوة إلا بعد أن يعقب عليها بما يظهر بطلانها وعدم صحتها.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة (ص) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ...﴾ الآيات إلى آخر القصة، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازى التى ذكرها فى تفسيره لتفنيد الروايات الباطلة فى هذه القصة، وتقرير ما هو لائق فى حق نبى الله داود عليه السلام[1].

... وهكذا نلاحظ على هذا التفسير أنه يغلب عليه الجانب القصصى بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير.

كثرة نقوله عن تفسير الفخر الرازى:

هذا ولا يفوتنا أن الخطيب الشربينى، كثيراً ما يعتمد على التفسير الكبير للفخر الرازى، والذى يقرأ فى تفسيره هذا، يجد أنه يكثر من النقول عنه.

والكتاب مطبوع فى أربعة أجزاء كبار، ومتداول بين أهل العلم، لما فيه من السهولة والجمع لخلاصة التفاسير التى سبقته مع الدقة والإيجاز.

* * *

٩- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى، العمادى، الحنفى المولود سنة ٨٩٣هـ ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة بقرية قريبة من القسطنطينية، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل حتى قال بعضهم فيه: «تربى فى حجر العلم حتى ربى، وارتضع ثدى الفضل إلى أن ترعرع وحبا، ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتى رحب باعه، وامتد ساعده واشتد اتساعه»، قرأ كثيراً من كتب العلم على

---

(١) جـ٣ ص٣٨٤ - ٣٨٦.

والده، وتتلمذ لكثير من جلة العلماء، فاستفاد منهم علمًا جمّا، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظم صيته، وتولى التدريس فى كثير من المدارس التركية، ثم قلد قضاء بروسه ثم نقل إلى قضاء القسطنطينية، ثم نقل إلى قضاء ولاية العسكر فى ولاية روم أيلى، ودام على قضائها مدة ثمان سنين، ثم تولى أمر الفتوى بعد ذلك، فقام بها خير قيام بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلى يد، وكان ذلك سنة ٩٥٢هـ اثنتين وخمسين وتسعمائة من الهجرة، ومكث فى منصب الإفتاء نحوًا من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة، والبراعة فى الفتوى والتفنن فيها، وقد ذكروا عنه أنه كان يكتب جواب الفتوى على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب، فإن كان السؤال منظومًا، كان الجواب منظومًا كذلك، مع الاتفاق بينهما فى الوزن والقافية، وإن كان السؤال نثرًا مسجعًا، كان الجواب مثله، وإن كان بلغة العرب فالجواب بلغة العرب، وإن كان بلغة الترك، فالجواب بلغة الترك، وهكذا مما يشهد للرجل بسعة أفقه وغزارة مادته، ولقد قرأنا فى ترجمته شيئًا من الاستفتاء والفتوى، فوجدنا صدق ما قيل عنه فى ذلك.

وكان ـ رحمه الله ـ وكما قيل عنه ـ «من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها، وسارت بذكره الركبان فى مشارق الأرض ومغاربها، ولقد حاز قصب السبق بين أقرانه، ولم يقدر أحد أن يجاريه فى ميدانه»، ولقد كان اشتغاله بالتدريس وتنقله بين كثير من المدارس وتوليه للقضاء ثم الفتوى سببا عائقًا له عن التفرغ والتصنيف والتأليف، ولكنه اختلس فرصًا من وقته فصرفها إلى كتابة التفسير، فأخرج للناس كتابه الذى نحن بصدده، كما أنه كتب بعض الحواشى على تفسير الكشاف، وكتب حاشية على العناية من أول كتاب البيع من الهداية، وعلى الجملة فقد جمع صاحبنا بين العلم والأدب، فبينما نراه مجودًا فيما كتبه وألفه من كتب العلم، نراه مبدعًا غاية الإبداع فيما أثر عنه من منثور ومنظوم، ولا أظن أن صاحبه الذى رثاه بعد وفاته قد تعالى فى الثناء، أو اشتط فى الرثاء حيث يقول فى مرثيته الطويلة:

ما العلم إلا ما حويت حقيقة ... وعلوم غيرك فى الورى كسراب

توفى رحمه الله بمدينة القسطنطينية، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى، وذلك فى

أوائل جمادى الأولى سنة ٩٨٢هـ اثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة(١).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قلنا: إن صاحب هذا التفسير شغل كثيرا بالتدريس والقضاء والفتوى، ولكنه اختلس فرصًا من وقته ألف فيها كتابه فى التفسير، قلنا هذا فيما سبق، والمؤلف نفسه يقرر هذا فى مقدمة تفسيره، ولم يعرف أنه أخرج تفسيره للناس دفعة واحدة، بل ذكروا أنه ابتدأ فيه، فلما وصل إلى آخر سورة (ص) عرض له من الشواغل ما جعله يقف فى تفسيره عند هذا الحد، فبيض ما كتب فى شعبان سنة ٩٧٣هـ ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة، ثم أرسله إلى الباب العالى، فتلقاه السلطان سليمان خان بحسن القبول، وأنعم عليه بما أنعم، وزاد فى وظيفته كل يوم خمسمائة درهم، ثم تيسر له بعد ذلك إتمامه، فأتمه بعد سنة، ثم أرسله إلى السطان ثانيًا بعد إتمامه، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه، وزاد فى وظيفته مرة أخرى.

والحق أن هذا التفسير غاية فى بابه، ونهاية فى حسن الصوغ وجمال التعبير كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية، بما لم يسبقه أحد إليه، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب فى التفسير، فصاحب العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم، يقول عنه فى كتابه: «وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأزمان، ولم تقرع به الآذان، فصدق المثل السائر كم ترك الأول للآخر»، وصاحب الفوائد البهية فى تراجم الحنفية يقول: «وقد طالعت تفسيره وانتفعت به، وهو تفسير حسن، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات، ومشتمل على فوائد وإشارات» ونقل عن صاحب الكشف أنه قال: «انتشرت نسخه فى الأقطار، ووقع له التلقى بالقبول من الفحول الكبار، لحسن سبكه وصدق تعبيره، فصار يقال له: خطيب المفسرين، ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضى لم يبلغ إلى ما بلغ من رتبة الاعتبار»(٢).

---

(١) يراجع العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم الموجود بهامش وفيات الأعيان جـ٢ ص٢٨٢ - ٣٠٥.

(٢) الفوائد البهية ص٨٢.

ولم يظفر هذا التفسير كغيره من التفاسير بكثرة الحواشى والتعليقات التى تكشف عن مراده، أو تتعقبه فى بعض ما يقول، ولم يقع تحت يدنا شىء من ذلك، غير أننا نجد فى كشف الظنون عند الكلام عن هذا التفسير، ذكر ما كتب عليه من التعليقات، فمن ذلك: تعليقة الشيخ أحمد الرومى الآحصارى المتوفى سنة ١٠٤١هـ إحدى وأربعين وألف من الهجرة، من سورة الروم إلى سورة الدخان، وتعليقة الشيخ رضى الدين بن يوسف القدسى، علقها إلى قريب من النصف، وأهداها إلى المولى أسعد بن سعد الدين، حين دخل المقدس زائرًا، وكان دأبه فيها نقل كلام العلامتين، الزمخشرى والبيضاوى وكلام ذلك الفاضل (أبى السعود) بقوله: قال الكشاف، وقال القاضى، وقال المفتى: ثم المحاكمة فيما بينهم[1]، هذا ما ذكره صاحب كشف الظنون، ولا نعلم أحدًا كتب عليه غير من ذكرهما.

قرأت مقدمة الكتاب لمؤلفه، فوجدته يثنى كثيرًا على تفسير الكشاف، وأنوار التنزيل للبيضاوى، ويذكر أنه قرأهما قبل أن يؤلف تفسيره، ثم يقول: «ولقد كان فى سوابق الأيام، وسالف الدهور والأعوام، أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما، وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما، يدور فى خلدى على استمرار، آناء الليل وأطراف النهار، أن أنظم درر فوائدهما فى سمط دقيق، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق، وصادفته فى أصداف العالم الزاخرة من زواهر الدقائق، وأسلك خلالها بطريق الترصيع، على نسق أنيق وأسلوب بديع، حسبما تقتضيه جلالة شأن التنزيل، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل، ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب، وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب، وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام فى مداحض الأقدام، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام، فى معارك أفكار تشتبه فيها الشئون ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون، وأبرز من وراء أستار الكمون، من دقائق السر المخزون فى خَزائن الكتاب المكنون، ما تطمئن إليه النفوس، وتقر به

---

(١) كشف الظنون جـ١ ص٦٧.

العيون، من خفايا الرموز وخبايات الكنوز... ناويًا أن أسميه عند تمامه، بتوفيق الله وإنعامه: إرشاد العقل السليم، إلى مزايا الكتاب الكريم»(١).

ومن هنا يتبين لنا، أن أبا السعود يعتمد فى تفسيره على تفسير الكشاف والبيضاوى وغيرهما ممن تقدمه، غير أنه لم يغتر بما جاء فى الكشاف من الاعتزالات، ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها، مع جريانه على مذهب أهل السنة فى تفسيره، ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر فى آخر كل سورة حديثًا عن النبى ﷺ فى فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله، مع أن هذه الأحاديث موضوعه باتفاق أهل العلم جميعًا.

عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه:

قرأت فى هذا التفسير فلاحظت عليه ـ غير ما تقدم ـ أنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها، مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحى القرآن البلاغية، وسر إعجازه فى نظمه وأسلوبه، وبخاصة فى باب الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير، والاعتراض والتذييل، كما أنه يهتم بإبداء المعانى الدقيقة التى تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتى حظا وافرًا من المعرفة بدقائق اللغة العربية، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين فى هذه الناحية.

اهتمامه بالمناسبات وإلمامه ببعض القراءآت:

ونلحظ على أبى السعود فى تفسيره أنه كثيرًا ما يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين الآيات، كما نلحظ عليه أنه يعرض أحيانا لذكر القراءات، ولكن بقدر ما يوضح به المعنى، ولا يتوسع كما يتوسع غيره.

إقلاله من رواية الإسرائيليات:

ومن ناحية أخرى نجد أنه مقل فى سرد الإسرائيليات، غير مولع بذكرها وإن ذكرها أحيانا فإنه لا يذكرها على سبيل الجزم بها، والقطع بصحتها، بل يصدر ذكر

---

(١) تفسير أبى السعود جـ١ ص٣، ٤ من المقدمة.

الرواية بقوله: روى، أو قيل، مما يشعر بضعفها، وإن كان لا يعقب عليها بعد ذلك، ولعله يكتفى بهذه الإشارة.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ يقول: روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهم الأساور والأطواق... إلى آخر ما ذكره من القصة العجيبة الغريبة[١]، ومع ذلك فلم يعقب عليها ولا بكلمة واحدة، ولعله اكتفى ـ كما قلت ـ بما يشير إليه لفظ روى من عدم صحة ما ذكره.

روايته عن بعض من اشتهر بالكذب:

كما نلاحظ عليه أنه يروى بعض القصص عن طريق الكلبى عن أبى صالح، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥) وما بعدها من سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ...﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجده يقول: «وأصل قصتهم ما رواه الكلبى عن أبى صالح: أن عمرو بن عامر من أولاد سبأ، وبينهما اثنى عشر أبًا، وهو الذى يقال له مزيقيا ابن ماء السماء، أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب، وتغريق سيل العرم الجنتين...» ويمضى فى ذكر روايات أخرى عن رجال آخرين[٢] مع العلم أن الكلبى متهم بالكذب، فقد قال السيوطى فى خاتمة الدر المنثور ما نصه: «الكلبى اتهموه بالكذب، وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب»[٣] ولكن نجد أبا السعود، يخلص من تبعة هذه الروايات التى سردها بقوله أخيرًا «والله تعالى أعلم» وهذا يشعر بأنه يشك فى صدقها وصحتها.

إقلاله من ذكر المسائل الفقهية:

كذلك نجد أبا السعود ـ رحمه الله ـ يتعرض فى تفسيره لبعض المسائل الفقهية، ولكنه مقل جدًا، ولا يكاد يدخل فى المناقشات الفقهية والأدلة المذهبية، بل نجده يسرد المذاهب فى الآية ولا يزيد على ذلك.

---

(١) جـ٤ ص١٣١.

(٢) جـ٤ ص٢٢٩.

(٣) جـ٦ ص٤٢٣.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾ الآية، نجده يعرض للخلاف المذهبى فى تحديد معنى اليمين اللغو فيقول: «وقد اختُلف فيه، فعندنا هو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه، فإنه لا يقصد فيه الكذب، وعند الشافعى ـ رحمه الله ـ هو قول العرب: لا والله وبلى والله، مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال»[1] ولا يزيد على ذلك بل يمضى فينزل الآية على قول الحنفية

تناوله لما تحتمله الآيات من وجوه الإعراب:

كما نلحظ عليه أنه يعرض أحيانًا للناحية النحوية إذا كانت الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب وينزل الآية على اختلاف الأعاريب، ويرجح واحدًا منها ويدلل على رجحانه.

وعلى الجملة، فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحى العلمية، وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين، وقد طبع هذا التفسير مرارًا، وهو يقع فى خمسة أجزاء متوسطة الحجم.

* * *

١٠- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للآلوسى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو: أبو الثناء، شهاب الدين، السيد محمود أفندى الآلوسى[2] البغدادى، ولد فى سنة ١٢١٧هـ سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية، فى جانب الكرخ من بغداد.

---

(١) جـ١ ص١٧١.

(٢) الآلوسى: نسبة إلى قرية اسمها آلوس، وهى جزيرة فى منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد كانت موطن أجداده.

كان ـ رحمه الله ـ شيخ العلماء فى العراق، وآية من آيات الله العظام، ونادرة من نوادر الأيام، جمع كثيرًا من العلوم حتى أصبح علامة فى المنقول والمعقول، فهامة فى الفروع والأصول، محدثًا لا يجارى، ومفسرًا لكتاب الله لا يبارى، أخذ العلم عن فحول العلماء، منهم والده العلامة، والشيخ خالد النقشبندى والشيخ على السويدى، وكان ـ رحمه الله ـ غاية فى الحرص على تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه، وكان كثيرًا ما ينشد:

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ودرس فى عدة مدارس، وعندما قُلد إفتاء الحنفية، شرع يدرس سائر العلوم فى داره الملاصقة لجامع الشيخ عبد الله العاقولى فى الرصافة، وقد تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير من قاصى البلاد ودانيها، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة، وكان ـ رحمه الله ـ يواسى طلبته من ملبسه ومأكله، ويسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتى صار فى العراق العلم المفرد، وانتهت إليه الرياسة، لمزيد فضله الذى لا يجحد، وكان نسيج وحده فى النثر وقوة التحرير، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير، وقد أملى كثيرًا من الخطب والرسائل، والفتاوى والمسائل، ولكن أكثر ذلك ـ على قرب العهد ـ درس وعفت آثاره، ولم تظفر الأيدى إلا بالقليل منه، وكان ذا حافظة عجيبة، وفكرة غريبة، وكثيرًا ماكان يقول: «ما استودعت ذهنى شيئًا فخاننى، ولا دعوت فكرى لمعضلة إلا وأجابنى»، قُلد إفتاء الحنفية فى السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية، وقبل ذلك بأشهر، ولى أوقاف المدرسة المرجانية؛ إذ كانت مشروطة لأعلم أهل البلد، وتحقق لدى الوزير الخطير على رضا باشا، أنه ليس فيها من يدانيه من أحد، وفى شوال سنة ١٢٦٣هـ ثلاث وستين ومائتين بعد الألف انفصل من منصب الإفتاء، وبقى مشتغلا بتفسير القرآن الكريم حتى أتمه، ثم سافر إلى القسطنطينية فى السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف، فعرض تفسيره على السلطان عبد المجيد خان، فنال إعجابه ورضاه، ثم رجع منها سنة ١٢٦٩هـ تسع وستين ومائتين بعد الألف.

وكان ـ رحمه الله ـ عالمًا باختلاف المذاهب، مطلعًا على الملل والنحل، سلفى الاعتقاد، شافعى المذهب؛ إلا أنه فى كثير من المسائل يقلد الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان ﷺ، وكان فى آخر أمره يميل إلى الاجتهاد، ولقد خلف ـ رحمه الله ـ للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة؛ فمن ذلك تفسيره لكتاب الله، وهو الذى نحن بصدده الآن، وحاشيته على القطر، كتب منها فى الشباب إلى موضع الحال، وبعد وفاته أتمها ابنه السيد نعمان الآلوسى، وشرح السلم فى المنطق، وقد فقد، ومنها الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية، ودرة الغواص فى أوهام الخواص، والنفحات القدسية فى المباحث الإمامية، والفوائد السنية فى علم آداب البحث.

وقد توفى رحمه الله فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ١٢٧٠هـ سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة ودفن مع أهله فى مقبرة الشيخ معروف الكرخى فى الكرخ، فرضى الله عنه وأرضاه[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا التفسير فى مقدمته أنه منذ عهد الصغر، لم يزل متطلبًا لاستكشاف سر كتاب الله المكتوم، مترقبًا لارتشاف رحيقه المختوم، وأنه طالما فرق نومه لجمع شوارده، وفارق قومه لوصال خرائده، لا يرفل فى مطارف اللهو كما يرفل أقرانه، ولا يهب نفائس الأوقات لخسائس الشهوات كما يفعل إخوانه، وبذلك وفقه الله للوقوف على كثير من حقائقه، وحل وفير من دقائقه، وذكر أنه قبل أن يكمل سنه العشرين، شرع يدفع كثيرًا من الإشكالات التى ترد على ظاهر النظم الكريم، ويتجاهر بما لم يظفر به فى كتاب من دقائق التفسير، ويعلق على ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذى ذهن خطير، وذكر أنه استفاد من علماء عصره، واقتطف من أزهارهم، واقتبس من أنوارهم، وأودع علمهم صدره، وأفنى فى كتابة فوائدهم حبره... ثم ذكر أنه كثيرًا ما خطر له أن يحرر كتابًا يجمع فيه ما عنده من ذلك، وأنه كان يتردد فى ذلك، إلى أن رأى فى بعض ليالى الجمعة من شهر رجب سنة ١٢٥٢هـ اثنتين وخمسين ومائتين بعد

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من الترجمة الموجودة بأول النسخة الأميرية من تفسير الآلوسى.

الألف من الهجرة، أن الله جل شأنه أمره بطى السموات والأرض، ورتق فتقهما على الطول والعرض، فرفع يدًا إلى السماء، وخفض الأخرى إلى مستقر الماء، ثم انتبه من نومه وهو مستعظم لرؤيته، فجعل يفتش لها عن تعبير، فرأى فى بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير، فشرع فيه فى الليلة السادسة عشرة من شهر شعبان من السنة المذكورة، وكان عمره إذ ذاك أربعًا وثلاثين سنة، وذلك فى عهد السلطان محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان، وذكر فى خاتمته أنه انتهى منه ليلة الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٧هـ سبع وستين ومائتين بعد الألف، ولما انتهى منه جعل يفكر ما اسمه؟ وبماذا يدعوه؟ فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر، وتبتش من سماعه الخواطر، فعرض الأمر على وزير الوزراء على رضا باشا، فسماه على الفور: «روح المعانى، فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى».

هذه هى قصة تأليف هذا التفسير، كما ذكرها صاحبه عليه رضوان الله.

وقد ذكروا أن سلوكه فى تفسيره هذا كان أمرًا عظيمًا، وسرّا من الأسرار غريبًا، فإن نهاره كان للإفتاء والتدريس وأول ليلة لمنادمة مستفيد وجليس، فيكتب بأواخر الليل منه ورقات، فيعطيها صباحًا للكتاب الذين وظفهم فى داره فلا يكملونها تبييضًا إلا فى نحو عشر ساعات.

مكانة هذا التفسير من التفاسير التى تقدمته:

ثم إن هذا التفسير ـ والحق يقال ـ قد أفرغ فيه مؤلفه وسعه، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتابًا جامعًا لآراء السلف رواية ودراية، مشتملا على أقوال الخلف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبى حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبى السعود، وتفسير البيضاوى، وتفسير الفخر الرازى، وغيرها من كتب التفسير المعتبرة، وهو إذا نقل عن تفسير أبى السعود يقول ـ غالبًا: قال شيخ الإسلام، وإذا نقل عن تفسير البيضاوى يقول غالبًا: قال القاضى، وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازى يقول غالبًا: قال الإمام، وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكمًا عدلا بينها، ويجعل من نفسه نقادًا مدققًا، ثم يبدى رأيه حرّا فيما ينقل، فتراه كثيرًا ما يعترض على ما ينقله عن أبى السعود، أو عن

البيضاوى، أو عن أبى حيان، أو عن غيرهم، كما تراه يتعقب الفخر الرازى فى كثير من المسائل، ويرد عليه على الخصوص فى بعض المسائل الفقهية، انتصاراً منه لمذهب أبى حنيفة، ثم إنه إذا استصوب رأيا لبعض من ينقل عنهم، انتصر له ورجحه على ما عداه.

موقف الآلوسى من المخالفين لأهل السنة:

والآلوسى سلفى المذهب سنى العقيدة، ولهذا نراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة والشيعة، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة البقرة: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ يقول بعد كلام طويل ما نصه: «... وإضافته - أى الطغيان - إليهم، لأنه فعلهم الصادر منهم، بقدرهم المؤثرة بإذن الله تعالى فالاختصاص المشعرة به الإضافة، إنما هو بهذا الاعتبار، لا باعتبار المحلية والاتصاف، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلى الإضافة، ولا باعتبار الإيجاد استقلالا من غير توقف على إذن الفعال لما يريد، فإنه اعتبار عليه غبار، بل غبار ليس له اعتبار، فلا تهولنك جعجعة الزمخشرى وقعقعته»(١).

وانظر إلى ما كتبه قبل ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من السورة نفسها ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ تجده يطيل بما لا يتسع لذكره المقام هنا، من بيان إسناد الختم إليه عز وجل على مذهب أهل السنة، ومن ذكر ما ذهب إليه المعتزلة فى هذه الآية وما رد به عليهم، وفند به تأويلهم الذى يتفق مع مذهبهم الاعتزالى(٢).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١) من سورة الجمعة: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ**﴾ يقول ما نصه: «وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضي الله عنهم، بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة، ورغبوا عن الصلاة التى هى عماد الدين، وأفضل من كثير من العبادات، لا سيما مع رسول الله ﷺ، وروى أن ذلك

(١) جـ١ ص١٦٠.

(٢) انظر جـ١ ص١٣١ - ١٣٤.

قد وقع مراراً منهم، وفيه أن كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا، والقصة كانت فى أوائل زمن الهجرة، ولم يكن أكثر القوم تام التجلى بحلية آداب الشريعة بعد، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر، فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا، ولذا لم يتوعدهم الله على ذلك بالنار أو نحوها، بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم، ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقى فى شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال: بلغنى - والله تعالى أعلم - أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه، وإن أريد بها غيرها فليبين وليثبت صحته، وأنى بذلك؟.

وبالجملة: الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التى كانت من بعضهم فى أوائل أمرهم - وقد عقبها منهم عبادات لا تحصى - سفه ظاهر وجهل وافر»[(١)].

الآلوسى والمسائل الكونية:

ومما نلاحظه على الآلوسى فى تفسيره، أنه يستطرد إلى الكلام فى الأمور الكونية، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة، ويقر منه ما يرتضيه، ويفند ما لا يرتضيه، وإن أردت مثالا جامعًا فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٣٨، ٣٩، ٤٠) من سورة يس ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾[(٢)].

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة الطلاق ﴿**اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ**﴾[(٣)] فسترى منه توسعًا فى هذه الناحية.

كثرة استطراده للمسائل النحوية:

كذلك يستطرد الآلوسى إلى الكلام فى الصناعة النحوية، ويتوسع فى ذلك أحيانًا إلى حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسرًا، ولا أحيلك على نقطة بعينها، فإنه لا يكاد يخلو موضع من الكتاب من ذلك.

---

(١) جـ٢٨ ص٩٤. (٢) جـ٢٣ ص١١. (٣) جـ٢٨ ص١٢٥ - ١٢٨.

موقفه من المسائل الفقهية:

كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة ﴿... **وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾ يقول ما نصه: وقال الإمام مالك: المحسنون المتطوعون، وبذلك استدل على استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلى الندب، وعندنا[١]: هى واجبة للمطلقات فى الآية، مستحبة لسائر المطلقات، وعند الشافعى ﷺ فى أحد قوليه: هى واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التى سمى لها وطلقت قبل الدخول، ولما لم يساعده مفهوم الآية، ولم يعتبر العموم فى قوله تعالى: ﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (البقرة: ٢٤١) لأنه يحمل المطلق على المقيد، قال بالقياس، وجعله مقدمًا على المفهوم؛ لأنه من الحجج القطعية دونه، وأجيب عما قاله مالك، بمنع قصر المحسن على المتطوع، بل هو أعم منه ومن القائم بالواجبات، فلا ينافى الوجوب، فلا يكون صارفًا للأمر عنه مع ما انضم إليه من لفظ حقّا»[٢].

وإذا أردت أن تتأكد من أن الآلوسى غير متعصب لمذهب بعينه فارجع إلى البحث الذى أفاض فيه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**...﴾ الآية، تجده بعد أن يذكر مذهب الشافعية، ومذهب الحنفية، وأدلة كل منهم، ومناقشاتهم يقول: «وبالجملة، كلام الشافعية فى هذا المقام قوى، كما لا يخفى على من أحاط بأطراف كلامهم، واستقرأ ما قالوه، تأمل ما دفعوا به من أدلة مخالفيهم»[٣].

---

(١) هذه اللفظة (وعندنا) تدل بوضوح على أن الآلوسى كان حنفى المذهب، وما أكثر هذا التعبير فى تفسيره مما يجعلنا لا نميل إلى ما نقلناه سابقًا من أنه كان شافعيا يقلد أبا حنيفة فى كثير من المسائل.

(٢) جـ٢ ص١٥٤.

(٣) جـ٢ ص١٣٠ - ١٣٣.

موقفه من الإسرائيليات:

ومما نلاحظ على الآلوسى أنه شديد النقد للإسرائيليات والأخبار المكذوبة التى حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة، مع سخرية منه أحيانًا.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة المائدة: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...**﴾ نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق، يرويها عن البغوى، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه: «وأقول: قد شاع أمر عوج عند العامة، ونقلوا فيه حكايات شنيعة، وفى فتاوى العلامة ابن حجر: قال الحافظ العماد ابن كثير: قصة عوج وجميع ما يحكون عنه، هذيان لا أصل له، وهو من مختلقات أهل الكتاب، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام، ولم يسلم من الكفار أحد، وقال ابن القيم: من الأمور التى يعرف بها كون الحديث موضوعًا، أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه، كحديث عوج بن عنق، وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب على الله تعالى، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث فى كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره، ثم قال: ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم... ثم مضى الآلوسى فى تفنيد هذه القصة لما حكاه عن غير من تقدم من العلماء الذين استنكروا هذه القصة الخرافية»[(١)].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة هود: ﴿**وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ...**﴾ الآية، نجده يروى أخبارًا كثيرة فى نوع الخشب الذى صنعت منه السفينة، وفى مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، وفى المكان الذى صنعت فيه... ثم يعقب على كل ذلك بقوله: «وسفينة الأخبار فى تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها، إذ هى غير سالمة عن عيب، فالحرى بحال من لا يميل إلى الفضول، أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى فى كتابه، ولا يخوض فى مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، ومن أى خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة»[(٢)].

---

(١) جـ٦ ص٨٦، ٨٧.

(٢) جـ١٢ ص٤٥.

تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول:

ثم إن الآلوسى يعرض لذكر القراءات ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها، كما أنه يعنى بإظهار وجه المناسبات بين السور، كما يعنى بذكر المناسبات بين الآيات، ويذكر أسباب النزول للآيات التى أنزلت على سبب، وهو كثير الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعانى اللغوية.

الآلوسى والتفسير الإشارى:

ولم يفت الآلوسى أن يتكلم عن التفسير الإشارى بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات[(١)]، ومن هنا عد بعض العلماء تفسيره هذا فى ضمن كتب التفسير الإشارى، كما عُد تفسير النيسابورى فى ضمنها كذلك، ولكنى رأيت أن أجعلهما فى عداد كتب التفسير بالرأى المحمود، نظرًا إلى أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشارى، بل كان ذلك تابعًا ـ كما يبدو ـ لغيره من التفسير الظاهر، وهذه ـ كما قلت من قبل ـ مسألة اعتبارية لا أكثر ولا أقل، وإنما أردت أن أبين جهتى الاعتبار.

وجملة القول، فروح المعانى للعلامة الآلوسى ليس إلا موسوعة تفسيرية قيمة، جمعت جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه، مع النقد الحر، والترجيح الذى يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة، وهو وإن كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة، مع توسع يكاد يخرجه عن مهمته كمفسر إلا أنه متزن فى كل ما يتكلم فيه، مما يشهد له بغزارة العلم على اختلاف نواحيه، وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه، **فجزاه الله** عن العلم وأهله خير الجزاء، إنه سميع مجيب.

وبعد... فهذه هى أهم كتب التفسير بالرأى الجائز، وهناك كتب أخرى تدخل فى هذا النوع من التفسير، ولها أهميتها وقيمتها، كما أن لها شهرتها الواسعة بين أهل العلم الذين يعنون بالتفسير، غير أنى أمسكت عنها هنا مخافة التطويل، ولعدم إمكان الحصول على بعضها، وأحسب أن فى هذا القدر كفاية وغنًى عن كتب أخرى كثيرة.

* * *

(١) وسيأتى عند الكلام عن التفسير الإشارى توضيح لرأى الآلوسى فى هذا اللون من التفسير.

الفصل الرابع

التفسير بالرأى المذموم
أو
تفسير الفرق المبتدعة

تمهيد فى بيان نشأة الفرق الإسلامية:

جرى التفسير منذ زمن النبوة إلى زمن أتباع التابعين، على طريقة تكاد تكون واحدة، فخلف كل عصر يحمل التفسير عمن سلف بطريق الرواية والسماع، وفى كل عصر من هذه العصور، تتجدد نظرات تفسيرية، لم يكن لها وجود قبل ذلك، وهذا راجع إلى أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحى الغموض فى التفسير، فكان لا بد للتفسير من أن يتضخم كلما مرت عليه السنون.

لم يكن هذا التضخم فى الحقيقة إلا محاولات عقلية، ونظرات اجتهادية، قام بها أفراد ممن لهم عناية بهذه الناحية، غير أن هذه الناحية العقلية فى التفسير لم تخرج عن قانون اللغة، ولم تتخط حدود الشريعة، بل ظلت محتفظة بصبغتها العقلية والدينية، فلم تتجاوز دائرة الرأى المحمود إلى دائرة الرأى المذموم الذى لا يتفق وقواعد الشرع.

ظل الأمر على ذلك إلى أن قامت الفرق المختلفة، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة، ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة، وكان القرآن هو هدفهم الأول الذى يقصدون إليه جميعًا، كلٌّ يبحث فى القرآن ليجد فيه ما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه، وكلٌّ واجد ما يبحث عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه، والميل بها مع رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه منها تأويلا يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه، ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأى المحمود إلى دائرة الرأى المذموم، واستفحل الأمر إلى حد جعل القوم يتسعون فى حماية عقائدهم، والترويج لمذاهبهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم!!.

ونحن نعلم بطريق الإجمال ـ وللتفصيل موضع غير هذا ـ أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة، كلها فى النار، إلا واحدة، وهى ما أنا عليه وأصحابى» وقد حقق الله نبوءة رسوله، وصدق قوله فتصدعت الوحدة الإسلامية إلى أحزاب مختلفة، وفرق متنافرة متناحرة، ولم يظهر هذا التفرق بكل ما فيه من خطر على الإسلام والمسلمين إلا فى عصر الدولة العباسية، أما قبل ذلك فقد كان المسلمون يداً واحدة، وكانت عقيدتهم واحدة كذلك، إذا استثنينا ما كان بينهم من المنافقين الذين ينتسبون إلى الإسلام ويضمرون الكفر، وما كان بين علىٍّ ومعاوية من خلاف لم يكن له مثل هذا الخطر، وإن كان النواة التى قام عليها التحزب، ونبت عنها التفرق والاختلاف.

بدأ الخلاف بين المسلمين أول ما بدأ، فى أمور اجتهادية لا تصل بأحد منهم إلى درجة الابتداع والكفر، كاختلافهم عند قول النبى ﷺ: «ائتونى بقرطاس أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعدى» حتى قال عمر: إن النبى قد غيبه الوجع، حسبنا كتاب الله، وكثر اللغط فى ذلك حتى قال النبى ﷺ: «قوموا عنى، لا ينبغى عندى التنازع» وكاختلافهم فى موضع دفنه ﷺ، أيدفن بمكة؛ لأنها مولده وبها قبلته ومشاعرالحج؟ أم يدفن بالمدينة، لأنها موضع هجرته، وموطن أهل نصرته؟ أم يدفن ببيت المقدس، لأن بها تربة الأنبياء ومشاهدهم؟ وكالخلاف الذى وقع بينهم فى سقيفة بنى ساعدة فى تولية من يخلف رسول الله ﷺ بعد وفاته، وغير ذلك من الخلافات التى وقعت بينهم، ولم يكن لها خطرها الذى ينجم عنه التفرق ووقوع الفتنة والبغضاء بين المسلمين.

ظل الأمر على ذلك إلى زمن عثمان رضي الله عنه، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه، ومحاصرتهم لداره، وقتلهم له، فعرى المسلمين من ذلك الوقت رجة فكرية عنيفة، طاحت بالروية، وذهبت بكثير من الأفكار مذاهب شتى، فقام قوم يطالبون بدم عثمان، ثم نشبت الحرب بين على ومعاوية رضي الله عنهما من أجل الخلافة، وكان لكل منهم شيعة وأنصار يشدون أزره ويقوون عزمه، وتبع ذلك انشقاق جماعة على كرم الله وجهه، بعد مسألة التحكيم فى الخلاف الذى بينه وبين معاوية، فى السنة السابعة

والثلاثين من الهجـرة، فظهرت من ذلك الوقت فرقة الشـيعة، وفرقة الخـوارج، وفرقة المرجئة[١]، وفرقة أخرى تنحاز لمعاوية، وتؤيد الأمويين على وجه العموم.

ثم أخذ هذا الخلاف والتفرق، يتدرج شيئًا فـشيئًا، ويترقى حينا بعد حين، إلى أن ظهر فى أيام المتأخرين من الصحابة خـلاف القدرية، وكان أول من جهر بهذا المذهب ووضع الحجر الأسـاسى لقيام هذه الفرقة معـبد الجهنى، الذى أخذ عنه مذهبـه غيلان الدمشقى ومن شاكله، وكان ينكر عليهم مذهبهم هذا من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر، وابن عباس، وأنس، وأبى هريرة، وغيرهم.

ثم ظهر بعد هؤلاء وفى زمن الحس البصـرى بالبصرة، خلاف واصل بن عطاء فى القدر، وفى القول بالمنزلة بين المنزلتين، ومجادلته للحسن البصرى فى ذلك، واعتزاله مجلسه، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة.

ثم كان من أصـحاب الديانات المـختلفة كـاليهـودية والنصرانية، والـمجوسـية، والصـابئـة... إلى آخره، مـن تزيا بزى الإسـلام وأبطن الكيـد له؛ حنينًا إلى ملتـهم الأولى، كعبد الله بن سبأ اليهودى، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة، ويرجون لهم الفرقة، فأفلحوا فيما قصدوا إليه من تحزب المسلمين وتفرقهم.

وفى خلال ذلك غلا بعض الطوائف التى ولَّدها الخلاف، فـابتدعوا أقوالا خرجت بهم عن دائرة الإسلام كـالقائلين بالحلول والتناسخ مـن السبئـية، وكالبـاطنية الذين لا يعدون من فرق الإسلام، وإنما هم فى الحقيقة على دين المجوس.

لم يزل الخـلاف يتـشـعب، والآراء تتـفرق، حـتى تفـرق أهل الإسـلام وأرباب المقالات، إلى ثلاث وسبعين فرقة، كما قال صاحب المواقف[٢]، وكما عدهم وبيَّنهم الإمام الكبير، أبو الـمظفر الإسفراينى، فى كتابه التـبصير فى الدين[٣]، ولـيس هـذا موضع ذكرها واستقصائها.

والذى اشتهر من هذه الفرق خمس: أهل السنة، والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة، والخـوارج، وما وراء ذلك من الفـرق كالجـبرية، والبـاطنية، والمـشبـهة، وغيـرها، فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسية.

---

(١) انظر تبيين كذب المفترى ص١٠. (٢) جـ٨ ص٣٧٧. (٣) ١٥، ١٦.

نحن نعلم هذا التفرق الذى أصاب المسلمين فى وحدتهم الدينية والسياسية، ونعلم أيضًا، أن الناس كانوا فى عصر النبى ﷺ وبعده يقرءون القرآن أو يسمعونه فيعنون بتفهم روحه، فإن عنى علماؤهم بشىء وراء ذلك، فما يوضح الآية من سبب للنزول، واستشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظًا غريبًا، أو أسلوبًا غامضًا، ولكنا لا نعلم فى هذا العصر الأول، انحياز الصحابة إلى مذاهب دينية وآراء فى الملل والنحل، فلما وقع هذا التفرق الذى أشرنا إليه وأجملنا مبدأه وتطوره، رأينا كل فرقة من هذه الفرق تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها، وتفسرها بما يتلاءم مع مذهبها، فالمعتزلى يطبق القرآن على مذهبه فى الاختيار، والصفات، والتحسين والتقبيح العقليين... ويؤول ما لا يتفق ومذهبه، وكذلك يفعل الشيعى، وكذلك يفعل كل صاحب مذهب حتى يسلم له مذهبه.

غير أننا لم نحط علما بكل هذه النظرات المذهبية فى القرآن، ولم يقع تحت أيدينا من كتب التفسير المذهبية إلا القليل النادر بالنسبة لما حُرمت منه المكتبة الإسلامية، على أن هذا القليل ليس إلا لبعض الفرق دون بعض، وهناك تفسيرات وتأويلات لبعض من آيات القرآن لبعض من الفرق، ولكنها متفرقة مشتتة بين صحائف كتب التفسير خاصة وكتب العلم عامة، وهناك فرق أخرى لم نظفر لها بتفسير كامل ولا بشىء من التفسير، ولهذا أرى أن أتكلم عن التفسير المذهبى لا لكل الفرق، بل للفرق التى ألفت وخلفت لنا كتبًا فى التفسير، ووقعت تحت أيدينا، فاستطعنا بعد القراءة فيها والنظر إليها أن نحكم عليها بما يتناسب مع المنهج الذى انتهجه فيها مؤلفوها، والطريق الذى سلكوه فى شرحهم لكتاب الله تعالى.

وسبق لنا أن تكلمنا عن التفسير بالرأى الجائز وأهم ما أُلف فيه من كتب، وذلك هو تفسير أهل السنة والجماعة، وتلك هى أشهر تفاسيرهم التى خلفوها للناس، فلا نعود لذلك، بل نشرع فى الكلام عن موقف غيرهم من الفرق، بالنسبة لكتاب الله تعالى، وعن أهم ما خلفوه لنا من كتب فى التفسير، والله يتولانا ويسدد خطانا؛ إنه سميع مجيب.

* * *

المعتزلة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية:

نشأة المعتزلة: نشأت هذه الفرقة فى العصر الأموى، ولكنها شغلت الفكر الإسلامى فى العصر العباسى ردحا طويلا من الزمان، وأصل هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الملقب بالغزال[١] المولود سنة ٨٠هـ ثمانين، والمتوفى سنة ١٣١هـ إحدى وثلاثين ومائة، فى خلافة هشام بن عبد الملك؛ وذلك أنه دخل على الحسن البصرى رجل فقال: يا إمام الدين، ظهر فى زماننا جماعة يُكفِّرون صاحب الكبيرة - يريد وعيدية الخوارج - وجماعة أخرى يرجئون الكبائر، ويقولون: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد فى ذلك؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، ثم قام إلى إسطوانة من اسطوانات المسجد، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به، من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين، قائلا: إن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح فلا يكون مؤمنًا، وليس بكافر أيضًا؛ لإقراره بالشهادتين، ولوجود سائر أعمال الخير فيه، فإذا مات بلا توبة خلد فى النار؛ إذ ليس فى الآخرة إلا فريقان: فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، لكن يخفف عنه، وتكون دركته فوق دركات الكفار، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فلذلك سمى هو وأصحابه معتزلة[٢].

ويلقب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمعطلة تارة أخرى، أما تلقيبهم بالقدرية فلأنهم يسندون أفعال العباد إلى قدرتهم، وينكرون القدر فيها، وأما تلقيبهم بالمعطلة، فلأنهم يقولون بنفى صفات المعانى فيقولون: الله عالم بذاته، قادر بذاته. . . وهكذا.

فأنت ترى مما تقدم، أن الاعتزال نشأ فى البصرة، ولكن سرعان ما انتشر فى

---

(١) لقب بذلك لأنه كان يلازم حوانيت الغزالين.

(٢) شرح الموقف جـ٨، ويرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ابنا محمد ابن الحنفية، وعن أبى هاشم أخذ الاعتزال واصل بن عطاء - انظر مقدمة تبيين كذب المفترى ص١٠، ١١.

العراق، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد، وفى العصر العباسى، استفحل أمر المعتزلة، واحتلت فكرهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكانًا عظيمًا، وما لبث أن تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان: مدرسة البصرة وعلى رأسها واصل بن عطاء، ومدرسة بغداد، وعلى رأسها بشر بن المعتمر، وكان بين معتزلى البصرة ومعتزلى بغداد جدال وخلاف فى كثير من المسائل.

ولا أطيل بذكر ما كان بين المدرستين من مسائل خلافية، فإن هذه العجالة لا تتحمل الإطالة والتفصيل، ويكفى أن أجمل القول فى ذكر أصول المعتزلة، وأن أشير إلى تعدد فرقهم، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب التى أُلفت فى تاريخ الفرق، وهى كثيرة.

أصول المعتزلة:

أما أصول المعتزلة فهى خمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها، ومن لم يقل بها جميعًا فليس معتزليّا بالمعنى الصحيح، قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى: «وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلى»[١].

أما التوحيد: فهو لب مذهبهم، ورأس نحلتهم، وقد بنوا على هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وأن الصفات ليست شيئًا غير الذات، وأن القرآن مخلوق لله تعالى.

وأما العدل: فقد بنوا عليه: أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات، ولا خلقها ولا هو قادر عليها كلها، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى، لا خيرها ولا شرها، ولم يرد إلا ما أمر به شرعا، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وأما الوعد والوعيد: فمضمونه، أن الله يجازى من أحسن بالإحسان، ومن أساء

(١) تاريخ الجدل لأبى زهرة ص٢٠٨.

بالسوء، لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب، ولا يقبل فى أهل الكبائر شفاعة، ولا يخرج أحدًا منهم من النار، وأوضح من هذا أنهم يقولون: إنه يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه، لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به، فلو لم يعاقب لزم الخلف فى وعيده، وهم يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات، والعقاب على المعاصى قانون حتمى التزم الله به، كما قالوا: إن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ولو صدق بوحدانية الله وآمن برسله، لقوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة البقرة: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

وأما المنزلة بين المنزلتين: فقد سبق أن بياناها فى مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصرى.

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فهو مبدأ مقرر عندهم، وواجب على المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، ولكنهم بالغوا فى هذا الأصل، وخالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليدين إن لم يغنيا، وبالسيف إن لم تكف اليد، لقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجرات: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ...**﴾ وهم فى ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره، كما أنهم لم يفرقوا بين الأصول الدينية المجمع عليها وعقائدهم الاعتزالية [(١)].

وهناك مبادئ أخرى للمعتزلة، لا يشتركون فيها، بل هى مبادئ خاصة لكل فرقة من فرقهم المتعددة، التى بلغت العشرين أو تزيد، ولا أطيل بذكر هذه الفرق وبيانها خصائص كل فرقة، وأحيلك على المواقف، أو التبصير فى الدين، أو الفرق بين الفرق للبغدادى، أو الملل والنحل للشهرستانى، أو الفصل لابن حزم، لتتعرف منها هذه الفرق وخصائصها، إذ ليس هذا موضع التفصيل.

---

(١) انظر ما كتبه صاحب الكشاف على قوله تعالى فى الآية ١١٠ من سورة آل عمران ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ جـ١ ص٣١٩ وما كتبه على قوله تعالى فى الآية ٧٣ من سورة التوبة: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ جـ١ ص٥٦١.

وبعد. . . فقد عرفنا نشأة المعتزلة، وعرفنا أصولهم التى أجمعوا عليها، وما علينا بعد ذلك إلا أن نتكلم عن موقفهم الذى وقفوه من تفسير القرآن، ثم بعد ذلك نتكلم عن أهم من عرفناه من مفسرى المعتزلة وعن كتبهم التى ألفوها فى التفسير، ونسأل الله التوفيق والسداد.

* * *

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

إقامة تفسيرهم على أصولهم الخمسة:

أقام المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة التى ذكرناها آنفًا، ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة، الذين يعتبرون أهم خصومهم؛ ولهذا كان من الضرورى لهذه الفرقة ـ فرقة المعتزلة ـ فى سبيل مكافحة خصومها، أن تقيم مذهبها وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن، وكان لا بد لها أيضًا أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم، وتضعف من قوتها وسبيل ذلك كله هو النظر إلى القرآن أولا من خلال عقيدتهم ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التى يقولون بها وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم.

ولا شك أن مثل هذا التفسير الذى يخضع للعقيدة، يحتاج إلى مهارة كبيرة، واعتماد على العقل أكثر من الاعتماد على النقل، حتى يستطيع المفسر الذى هذا حاله، أن يلوى العبارة إلى جانبه، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه.

والذى يقرأ تفسير المعتزلة، يجد أنهم بنوا تفسيرهم على أسسهم من التنزيه المطلق، والعدل وحرية الإرادة، وفعل الأصلح، ونحو ذلك، ووضعوا أسسًا للآيات التى ظاهرها التعارض فحكَّموا العقل، ليكون الفيصل بين المتشابهات، وقد كان من قبلهم يكتفون بمجرد النقل عن الصحابة أو التابعين فإذا جاءوا إلى المتشابهات سكتوا وفوضوا العلم لله.

إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة:

ثم إن هذا السلطان العقلى المطلق، قد جر المعتزلة إلى إنكار ما صح من الأحاديث التى تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية، كما أنه نقل التفسير الذى كان

يعتمد أولا وقبل كل شيء على الشعور الحى، والإحساس الدقيق، والبساطة فى الفهم وعدم التكلف والتعمق، إلى مجموعة من القضايا العقلية، والبراهين المنطقية، مما يشهد للمعتزلة ـ رغم اعتزالهم ـ بقوة العقل وجودة التفكير.

ومع أن هذا السلطان العقلى المطلق، كان له الأثر الأكبر فى تفسير المعتزلة للقرآن، حتى اضطرهم فى بعض الأحيان إلى رد ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة، فإنا لا نستطيع أن نقول: إن المعتزلة كانوا يقصدون الخروج على الحديث أو عدم الاعتراف بالتفسير المأثور؛ وذلك لأن حالهم بإزاء التفسير المأثور وتصديقهم له، يظهر بأجلى وضوح من حكم النظام على استرسال المفسرين من معاصريه.

وكان النظام معتبرًا فى مدرسة المعتزلة من الرءوس الحرة الواسعة الحرية، وقد ذكر لنا تلميذة الجاحظ قوله الذى قاله فى شأن هؤلاء المفسرين، وهذا نصه: «قال الجاحظ: كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة؛ فإن كثيرًا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم، وليكن عندكم عكرمة، والكلبى، والسدى، والضحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصم فى سبيل واحدة، وكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا فى قوله عز وجل: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ**﴾ (الجن: ١٨) إن الله عز وجل، لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها، بل إنما عنى الجباة، وكل ما سجد الناس عليه من يد وجبهة وأنف وثفنة ـ وقالوا فى قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ (الغاشية: ١٧) إنه ليس يعنى الجمال والنوق، وإنما يعنى السحاب، وإذا سئلوا عن قوله: ﴿**وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ**﴾ (الواقعة: ٢٩) قالوا: الطلح هو الموز، وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان قد كان فرضًا على جميع الأمم وأن الناس غيروه، قوله تعالى: ﴿... **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ (البقرة: ١٨٣) ـ وقالوا فى قوله تعالى: ﴿... **رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**﴾ (طه: ١٢٥) قالوا: إنه حشره بلا حجة، وقالوا فى قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ**﴾ (المطففين: ١): الويل: واد فى جهنم، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى، ومعنى الويل فى كلام العرب معروف، وكيف كان فى الجاهلية قبل الإسلام، وهو من

أشهر كلامهم، وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (الفلق: ١) قالوا: الفلق: واد فى جهنم، ثم قعدوا يصفونه، وقال آخرون: الفلق: المقطرة بلغة اليمين... إلى آخر ما ذكره من تفسيراتهم الغريبة[١].

هذا، وإن الزمخشرى - وهو أهم من عرفنا من مفسرى المعتزلة - نجده كثيراً ما يذكر ما جاء عن الرسول ﷺ أو عن السلف من التفسير ويعتمد على ما يذكر من ذلك فى تفسيره.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٤١، ٤٢) من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ يقول ما نصه: «﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أثنوا عليه بضروب الثناء، من التقديس، والتحميد، والتهليل، والتكبير، وما هو أهله، وأكثروا ذلك ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى كافة الأوقات، قال رسول الله ﷺ: «ذكر الله على فم كل مسلم» وروى «فى قلب كل مسلم» وعن قتادة: «قولوا سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» وعن مجاهد: «هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان» أعنى: اذكروا وسبحوا موجهنا إلى البكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة... إلخ»[٢]. اهـ.

ادعاؤهم أن كل محاولاتهم فى التفسير مرادة لله:

ثم إن المعتزلة - بناء على رأيهم فى الاجتهاد، من أن الحكم ما أدى إليه اجتهاد كل مجتهد، فإذا اجتهدوا فى حادثة فالحكم عند الله تعالى فى حق كل واحد مجتهده[٣]- رفضوا أن يكون للآية التى تحتمل أوجهًا تفسيرًا واحدًا لا خطأ فيه، وحكموا على جميع محاولاتهم التى حاولوها فى حل المسائل الموجودة فى القرآن، بأنها مرادة لله تعالى، وغاية ما قطعوا به هو عدم إمكان التفسير المخالف لمبادئهم وآرائهم.

وبدهى أن هذا الذى ذهب إليه المعتزلة، يخالف مذهب أهل السنة من أن لكل آية من القرآن معنًى واحدًا مرادًا لله تعالى، وما عداه من المعانى المحتملة، فهى محاولات

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ١ ص١٦٨ - ١٧٠. (٢) الكشاف جـ٢ ص٢١٥.
(٣) التوضيح جـ٢ ص١١٨.

واجتهادات، يراد منها الوصول إلى مراد الله بدون قطع، غاية الأمر أن المفسر يقول باجتهاده، والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب، وهو مأجور فى الحالتين وإن كان الأجر على تفاوت.

المبدأ اللغوى فى التفسير وأهميته لدى المعتزلة:

كذلك نجد المعتزلة قد حرصوا كل الحرص على الطريقة اللغوية التى تعتبر عندهم المبدأ الأعلى لتفسير القرآن، وهذا المبدأ اللغوى، يظهر أثره واضحًا فى تفسيرهم للعبارات القرآنية التى لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية، أو العبارات التى تحتوى على التشبيه، أو العبارات التى تصادم بعض أصولهم، فنراهم يحاولون أولا إبطال المعنى الذى يرونه مشتبها فى اللفظ القرآنى، ثم يثبتون لهذا اللفظ معنًى موجودًا فى اللغة يزيل هذا الاشتباه ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون على ما يذهبون إليه من المعانى التى يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربى القديم.

فمثلا الآيات التى تدل على رؤية الله تعالى كقوله سبحانه فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ وقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة المطففين ﴿**عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ نجد المعتزلة ينظرون إليها بعين غير العين التى ينظر بها أهل السنة، ويحاولون بكل ما يستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوى، حتى يتخلصوا من الورطة التى أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، فإذا بهم يقولون: إن النظر إلى الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة، واستدلوا على ذلك بأن النظر إلى الشىء فى العربية ليس مختصًا بالرؤية المادية، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

وإذ نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما

ومثلا عندما يقرأ المعتزلى قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة الفرقان: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ**﴾ يجد أن مذهبه الذى يقول بوجوب الصلاح والأصلح على الله لا يتفق وهذا الظاهر من معنى الجعل، ولكن سرعان ما يتخلص من هذه الضائقة العالم المعتزلى الكبير أبو على الجبائى فيفسر «جعل» بمعنى بين لا بمعنى خلق، ويستدل على ذلك بقول الشاعر:

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا على ثبت من أمرهم حين يمموا

فيكون المعنى على هذا، أن الله سبحانه بين لكل نبى عدوه حتى يأخذ حذره منه(١).

تصرف المعتزلة فى القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم:

وأحيانًا يحاول المعتزلة تحويل النص القرآنى من أجل عقيدتهم إلى ما لا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ.

فمثلا ينظر بعض المعتزلة إلى قوله تعالى فى الآية (١٦٤) من سورة النساء ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**﴾ فيرى أن مذهبه لا يتفق وهذا اللفظ القرآنى حيث جاء المصدر مؤكدًا للفعل، رافعًا لاحتمال المجاز، فيبادر إلى تحويل هذا النص إلى ما يتفق ومذهبه فيقرؤه هكذا «وكلم اللهَ موسى تكليمًا»... بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول، ورفع موسى على أنه فاعل، وبعض المعتزلة يبقى اللفظ القرآنى على وضعه المتواتر، ولكنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادمًا لمذهبه فيقول: إن كلم من الكَلْم بمعنى الجرح، فالمعنى وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن؛ وهذا ليفر من ظاهر النظم الذى يصادم عقيدته ويخالف هواه.

هذا الذى ذكرناه، تعرض له الزمخشرى فى كشافه، فرواه عمن قال به عندما تكلم عن هذه الآية فقال: «وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنهما قرءا «وكلم اللهَ» بالنصب، ثم قال منددًا بالرأى الثانى: ومن بدع التفاسير أنه من الكلم، وأن معناه، وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن». اهـ(٢).

ومن الأمثلة التى يظهر فيها هذا التصرف من أجل أغراضهم المذهبية، قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة البقرة: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ فبعض المعتزلة أحس من هذه الآية أنها لا تتفق ومذهبه، لأنها تشعر بأن الله خلق قلوبهم على طبيعة وحالة لا تقبل معها الإسلام، فيكون هو الذى منعهم عن الهدى وألجأهم إلى الضلال فقرأها هذا المعتزلى «غُلُف» جمع غلاف بمعنى الوعاء، أى قلوبنا أوعية حاوية للعلم، فهم مستغنون بما عندهم عما جاءهم به محمد ﷺ،

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٧١، والمذاهب الإسلامية فى القرآن الكريم ص١٣٠.
(٢) الكشاف جـ١ ص٣٩٧، ٣٩٨.

وهذا الوجه يتمشى مع القراءة المعروفة «غُلْف» على أنه مخفف «غلُف»، وبطبيعة الحال يكون هذا القول من اليهود افتخاراً منهم بأن قلوبهم أوعية للعلم، فلا حاجة لهم بما جاء به محمد ﷺ، وليس اعتذاراً منهم وتبريرًا لكفرهم بأن الله خلق قلوبهم فى أكنة مما يدعوهم إليه، ومغشاة بأغطية تمنع وصول دعوة الرسول إليها.

وهذا الذى ذكرنا من قراءة «غُلُف» بدون تخفيف تعرض لذكره الزمخشرى فقال: «وقيل غُلْف: تخفيف غُلُف، جمع غلاف، أى قلوبنا أوعية للعلم، فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، وروى عن أبى عمرو: «قلوبنا غلف» بضمتين». اهـ[1].

كما ذكره أيضًا الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره لهذه الآية فقال: «... وثانيها ـ أى ثانى الأوجه ـ روى الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غُلُفٌ بالعلم، ومملوءة بالحكمة، فلا حاجة معها بهم إلى شرع محمد ﷺ ...». اهـ[2].

وهكذا نجد شيوخ المعتزلة، يحاولون التوفيق بين مذهبهم والقرآن، بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق، تارة بتطبيق مبدئهم اللغوى على كثير من آيات القرآن الكريم، حتى يتمشى النص القرآنى مع قواعد مذهبهم أن يتخلصوا من معارضته ومصادمته لهم على الأقل، وتارة بتحويل النص القرآنى والتصرف فيه، بما يجعله فى جانبهم لا فى جانب خصومهم.

نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالى فى التفسير:

غير أن هذا المسلك قد أغضب العلامة ابن قتيبة وأهاجه عليهم، فانتقدهم انتقادًا مرًا لاذعًا فى كتابه: «تأويل مختلف الحديث» وإليك ما قاله بنصه لتقف على ما كان بين الفريقين ـ فريق أهل السنة وفريق المعتزلة ـ من جدال ومحاورة، وليتبين لك مقدار الميل بالعبارات القرآنية إلى ناحية المذهب والعقيدة من كبار شيوخ المذهب الاعتزالى.

قال أبو محمد: «وفسروا ـ أى المعتزلة ـ القرآن بأعجب تفسير؛ يريدون أن يردوه إلى مذهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم فى قوله تعالى: ﴿وَسِعَ

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٢٤، والقراءة المروية عن أبى عمرو شاذة.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١ ص٦١٥.

كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) أى علمه، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف، وهذا قول الشاعر:

* ولا بكرْسِىءُ علم اللهِ مخلوقُ *

كأنه عندهم، ولا يعلم علم الله مخلوق، والكرسى غير مهموز وبكرسىء مهموز، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيًا أو سريرًا، ويجعلون العرش شيئًا آخر، والعرب لا تعرف من العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار، يقول الله تعالى: **﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾** (يوسف: ١٠٠) أى السرير، وأمية بن أبى الصلت يقول:

مجدوا الله، وهو للمجد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرا
بالبناء الأعلى الذى سبق النا س وسوى فوق السماء سريرا
شَرْجَعًا ما يناله بصر العيـ ـن ترى دونه الملائك صورا[(١)]

وقال فريق منهم فى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾** (يوسف: ٢٤): إنها همت بالفاحشة، وهم هو بالفرار منها أو الضرب لها، والله تعالى يقول: **﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾** (يوسف: ٢٤) أفتراه أراد الفرار منها أو الضرب لها، فلما رأى البرهان أقام عندها؟ وليس يجوز فى اللغة أن تقول: هممت بفلان وهم بى، وأنت تريد اختلاف الهمين حتى تكون أنت تهم بإهانته ويهم هو بإكرامك، وإنما يجوز هذا الكلام إذا اتفق الهمان.

وقال فريق منهم فى قوله تعالى: **﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾** (طه: ١٢١): إنه أتخم من أكل الشجرة، فذهبوا إلى قول العرب: غَوِىَ الفصيل يَغْوى غوًى إذا أكثر من شرب اللبن حتى يبشم، وذلك غَوَى يَغْوِى غيًا، وهو من البشم غَوِىَ يغْوَى غَوًى.

وقال فريق منهم فى قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾** (الأعراف: ١٧٩) أى ألقينا فيها، يذهب إلى قول الناس: ذرته الريح، ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح؛ لأن ذرأنا مهموز، وذرته الريح تذروه غير مهموز، ولا يجوز أيضًا أن نجعله من أذرته الدابة عن ظهرها أى ألقته؛ لأن ذلك من

---

(١) شرجعًا أى طويلا؛ وصورا جمع أصور وهو المائل العنق. اهـ منه. (هامش).

ذرأت تقدير فعلت بالهمز، وهذا من أذريت تقدير أفعلت بلا همز، واحتج بقول المثقب العبدى:

تقول إذا ذرأت لها وضينى أهذا دينه أبدًا ودينى؟(١)

وهذا تصحيف، لأنه قال: نقول إذدرأت، أى دفعت، بالدال غير معجمة.

وقالوا فى قوله عز وجل: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ (الأنبياء: ٨٧): إنه ذهب مغاضبًا لقومه، استيحاشًا من أن يجعلوه مغاضبًا لربه مع عصمة الله، فجعلوه مغاضبًا لقومه حين آمنوا، ففروا إلى مثل ما استقبحوا، وكيف يجوز أن يغضب نبى الله ﷺ على قومه حين آمنوا وبذلك بعث وبه أمر؟ وما الفرق بينه وبين عدو الله إن كان يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ولم يخرج مغاضبًا لربه ولا لقومه؟ وهذا مبين فى كتابى المؤلف فى مشكل القرآن، ولم يكن قصدى فى هذا الكتاب الإخبار عن هذه الحروف وأشباهها، وإنما كان القصد به الإخبار عن جهلهم وجرأتهم على الله بصرف الكتاب إلى ما يستحسنون، وحمل التأويل على ما ينتحلون.

وقالوا فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء: ١٢٥): أى فقيرًا إلى رحمته، وجعلوه من الخلة بفتح الخاء، استيحاشًا أن يكون الله تعالى خليلا لأحد من خلقه، واحتجوا بقول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب ما لى ولا حرم

أى إن أتاه فقدر، فأية فضيلة فى هذا القول لإبراهيم ﷺ؟ أما تعلمون أن الناس جميعًا فقراء إلى الله تعالى، وهل إبراهيم خليل الله إلا كما قيل، وموسى كليم الله، وعيسى روح الله؟.

وقالوا فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤) إن اليد ههنا النعمة؛ لقول العرب: لى عند فلان يد، أى نعمة ومعروف، وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة؛ لأنه قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ معارضة عما قالوه فيها، ثم قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (المائدة: ٦٤) ولا يجوز أن يكون أراد: غلت نعمهم بل نعمتاه

---

(١) الوضين: بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ولا يكون إلا من جلد، ودينه: أى عادته. اهـ منه. (هامش).

مبسوطتان؛ لأن النعم لا تغل، ولأن المعروف لا يكنى عنه باليدين كما يكنى عنه باليد، إلا أن يريد جنسين من المعروف فيقول: لى عنده يدان، ونعم الله تعالى أكثر من أن يحاط بها»[١]. اهـ.

تذرع المعتزلة بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريبا:

هذا، وإن المعتزلة فى كثير من الأحيان، يعتمدون فى طريقتهم التفسيرية على الفروض المجازية، فمثلا إذا مروا بآية من الآيات التى تبدو فى ظاهرها غريبة مستبعدة، كقوله تعالى فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ الآية، وقوله تعالى فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا...**﴾ الآية، نجدهم يحملون الكلام على التمثيل أو التخييل، ولا يقولون بالظاهر ولا يحومون عليه، اللهم إلا للرد على من يقول به ويجوز حصوله... نعم إن القرآن يمثل القمة العالية فى كمال الأسلوب وبراعة النظم، وهو فى نفسه يقبل ما يقول المعتزلة من المجازات والاستعارات، ولكن ما الذى يمنع من إرادة الحقيقة؟ وأى صارف يصرف اللفظ عن الظاهر إلى غيره من التمثيل أو التخييل بعد ما تقرر من أن اللفظ إذا أمكن حمله على الظاهر وجب حمله عليه وقبح صرفه إلى غير ما يتبادر منه؟... اللهم لا شىء يمنع من إرادة المعنى الظاهر إلا استبعاد ذلك على قدرة الله تعالى، ولسنا فى شك من صلاحية القدرة لمثل ما جاء فى الآيات التى أشرنا إليها، غاية الأمر، أن كيفية أخذ الله ذرية بنى آدم من ظهورهم، ومخاطبته لتلك الذرية، وكيفية عرض الأمانة على ما ذكر من السموات والأرض والجبال وإبائها عن حملها، أمر لا نستطيع أن نخوض فيه، بل يجب علينا أن نفوض علمه وحقيقته إلى الله سبحانه.

وسيأتى الكلام عن هذه الناحية بالذات بما هو أوسع من هذا، عند الكلام على الكشاف للزمخشرى، فإنه صاحب اليد الطولى فى هذه الناحية، وخير من أفاض فيها وأجاد.

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص٨٠ - ٨٤.

تفسيرهم للقرآن على ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية:

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر، ويعترفون بما له من تأثير فى المسحور، ويقولون بوجود الجن، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير فى الإنسان حتى ينشأ عن ذلك المس والصرع، ويقولون بكرامات الأولياء... وما إلى ذلك، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياسًا للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات، والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء، وكان من وراء ذلك أن تمرد المعتزلة ـ فى حرية مطلقة من كل قيد ـ على الاعتقاد بالسحر والسحرة، وما يدور حول ذلك، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث التى تصرح بأن الرسول ﷺ قد سحر[1]، ولم يقفوا طويلا أمام ما يعارضهم من سورة الفلق، بل تخلصوا بتأويلات ثلاث ذكرها الزمخشرى فى كشافه جـ٢ ص٥٦٨.

كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام على الاعتقاد بوجود الجن، وثار بعضهم كالزمخشرى ضد من يقول بأن الجن لها قوة التأثير فى الإنسان مع الاعتراف منه بوجودها فى نفسها، فأولوا ما يصادمهم من الآيات القرآنية، وأنكروا أو تأولوا ما صح من الأحاديث النبوية، كالحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى، وفيه: إن شيطانًا من الجن عرض للنبى ﷺ وهو فى الصلاة يريد أن يشغله عنها فأمكنه الله منه، وكالحديث الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ وهو «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»[2].

كذلك تمرد المعتزلة على الاعتقاد بكرامات الأولياء، واعتمدوا فى تمردهم هذا على قول الله تعالى فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الجن: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ

---

(١) ينكر بعض أهل السنة أن رسول الله ﷺ قد سُحر، زعمًا منهم أن ذلك مما يقدح فى صحة نبوته، وأنكروا ما صح من الأحاديث فى ذلك أو تأولوها، والحق ـ ما دامت الأحاديث قد صحت ـ أن رسول الله ﷺ سُحر وأثر فيه السحر بما لا يخدش جانب نبوته، وتأثير السحر عليه لا يعدو أن يكون مرضًا بدنيًا كالعقد عن النساء.

(٢) الكشاف جـ١ ص٣٠٢ - ٣٠٣.

غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ...﴾ ونرى الزمخشرى يستنتج من هذه الآية «أنه تعالى لا يطلع على الغيب إلا المرتضى، الذى هو مصطفًى للنبوة خاصة، لا كل مرتضًى، وفى هذا إبطال للكرامات، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين، فليسوا برسل، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب، وإبطال الكهانة والتنجيم، لأن أصحابهما أبعد شىء من الارتضاء وأدخله فى السخط»[1].

وبعد... فإن المعتزلة لم يقفوا هذا الموقف الذى لا يتفق مع معتقدات أهل السنة، ولم يعطوا العقل هذا السلطان الواسع فى التفسير، إلا من أجل أن يبعدوا ـ كما يزعمون ـ كل الأساطير الخرافية عن محيط الحقائق الدينية وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التى قامت على التوحيد الخالص من كل شائبة.

ولكن هل وقف أهل السنة حيال هذه المحاولات الاعتزالية فى فهم نصوص القرآن الكريم موقف التسليم لها والرضى بها؟ أو أغضبهم هذا التصرف من خصومهم المعتزلة؟ الحق أن هذا التصرف من المعتزلة أثار عليهم خصومهم أهل السنة، واستعداهم عليهم، فرموهم بالعبارات اللاذعة، واتهموهم بتحريف النصوص عن مواضعها، تمشيًا مع الهوى وميلا مع العقيدة، وقد مر بك آنفًا مقالة ابن قتيبة، وفيها يشدد عليهم النكير من أجل مسلكهم اللغوى فى التفسير.

حكم الإمام أبى الحسن الأشعرى على تفسير المعتزلة:

وهذا هو الإمام أبو الحسن الأشعرى، يحكم على تفسير المعتزلة بأنه زيغ وضلال، وذلك حيث يقول فى مقدمة تفسيره المسمى بالمختزن، والذى لم يقع لنا: «أما بعد، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم، وفسروه على أهوائهم: تفسيرًا لم ينزل الله به سلطانًا، ولا أوضح به برهانًا، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراءً على الله، قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبى الهذيل بياع العلف ومتبعيه، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه، وعن الفوطى وناصريه، وعن المنسوب إلى قرية جُبى ومنتحليه، وعن

(١) الكشاف جـ٢ ص٤٩٧.

الأشج جعفر بن حرب ومجتبيه، وعن جعفر بن مبشر القصبى ومتعصبيه، وعن الإسكافى الجاهل ومعظميه، وعن الفروى المنسوب إلى مدينة بلخ وذويه؛ فإنهم قادة الضلال، من المعتزلة الجهال، الذين قلدوهم فى دينهم، وجعلوهم معولهم الذى عليه يعولون، وركنهم الذى إليه يستندون.

ورأيت الجبائى ألف فى تفسير القرآن كتابًا، أوله على خلاف ما أنزل الله عز وجل، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجُبى، وليس من أهل اللسان الذى نزل به القرآن، وما روى فى كتابه حرفًا عن أحد من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيرًا من العوام، واستنزل به عن الحق كثيرًا من الطغام، لم يكن لتشاغلى به وجه...»[1]. اهـ.

حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة:

كذلك حكم ابن تيمية على تفسيرهم فقال: «إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلا على قولهم، أو جوابًا على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحًا ويدس البدع فى كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف، ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك»[2]. اهـ.

حكم ابن القيم على تفسير المعتزلة:

كذلك نجد العلامة ابن القيم يحكم على تفسير المعتزلة حكمًا قاسيًا فيقول: «إنه زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفار الآراء، ووساوس الصدور، فملئوا به الأوراق

---

(١) تبيين كذب المفترى ص١٣٩.

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص٢٢.

سوادًا، والقلوب شكوكـا، والعالم فسـادًا، وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فـساد العالم إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى، والهوى على العقل»[١].

* * *

أهم كتب التفسير الاعتزالى

صنف كثيـر من شيوخ المعتـزلة تفاسير للقرآن الكريم على أصـول مذهبهم، ولم تكن هذه التفاسيـر أكثر حظا من غيرها من كتب التـفسير المختلفـة، حيث امتدت إلى كثير منها يد الزمان، فضاعت بتقادم العهد عليها، وحرمت المكتبة الإسلامية العامة من معظم هذاالـتراث العلمى الذى لو بقى إلى يومنا هذا لألقى ضـوءًا واضحًـا على مدى التفكير التـفسيرى، لشيوخ هذا المـذهب الاعتزالى، ولكشف لنا عن حقيـقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعـة النطاق، نسمع بها من علمائنا المتقدمين، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين، لما يذكر عنها من الاستفاضة والتضخم إلى حد يكاد يكون متخيلا أو مبالغًا فيه.

نتصفح طبقات المفسرين للسيوطى، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودى، وغيرهما من الكتب التى لهـا عناية بهذا الشأن، فنجـد أن من أشهر مـن صنف فى التفسـير من المعتزلة: أبو بكر، عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفى سنة ٢٤٠هـ أربعين ومائتين من الهجرة، أقدم شيوخ المعتزلة، وشيخ إبراهيم بن إسماعيل ابن علية الذى كان يناظر الشافعى، فقد ذكر ابن النديم فى الفهرست: أنه ألف تفسيرًا للقرآن الكريم[٢]، ولكننا لا نعلم عن هذا التفسير خبرًا، حيث أنه فقد بمرور الزمن وتقادم العهد عليه.

ومحمـد بن عبد الوهاب بن سلام (أبو على الجبـائى) المتوفى سنة ٣٠٣هـ ثلاث وثلاثمائة من الهجرة، وأحد شيوخ المعتـزلة الذين كانت لهم شهرة واسعة فى الفلسفة والكلام، فقد ذكر السيوطى فى طبقات المفسرين[٣]: أنه ألف فى التفسير، وذكر ذلك ابن النديم فى الفهرست[٤] أيضًا، ولكننا لا نعلم شيئًا عن هذا التفسير أكثر مما ذكرناه آنفًا عن أبى الحسن الأشعرى.

---

(١) أعلام الموقعين جـ١ ص٧٨. (٢) الفهرست ص٥١.
(٣) ص٢٣. (٤) ص٥٠.

وأبو القاسم، عبد الله بن أحمد البلخي الحنفى، المعروف بالكعبى المعتزلى، المتوفى سنة ٣١٩هـ تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة، فقد ذكر صاحب كشف الظنون: أنه ألف تفسيرًا كبيرًا يقع فى اثنى عشر مجلدًا وقال: إنه لم يسبق إليه[١]، ولكن لم يقع لنا هذا التفسير كغيره.

وأبو هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى المتوفى سنة ٣٢١هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، ذكر السيوطى فى طبقات المفسرين[٢]: أنه ألف تفسيرًا، وقال: إنه رأى جزءًا منه، ولكنا لم نظفر به أيضًا.

وأبو مسلم، محمد بن بحر الأصفهانى المتوفى سنة ٣٢٢هـ اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة، صنف تفسيرًا اسمه: جامع التأويل لمحكم التنزيل، يقع فى أربعة عشر مجلدًا، وقيل: فى عشرين مجلدًا، وقد أشار إلى هذا التفسير ابن النديم فى الفهرست[٣]، والسيوطى فى بغية الوعاة فى طبقات النحاة[٤]، وهذا التفسير - فيما يبدو - هو الذى يعتمد عليه الفخر الرازى فيما ينقله فى تفسيره من أقوال منسوبة لأبى مسلم، وقد أخذ بعض المؤلفين ما جاء فى تفسير الفخر الرازى منسوبًا لأبى مسلم، وجمعه فى كتاب مستقل سماه تفسير أبى مسلم الأصفهانى، وقد اطلعت على جزء منه صغير الحجم بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

وأبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة، وأحد شيوخ المعتزلة المتشيعين، صنف تفسيرًا للقرآن الكريم، قال السيوطى فى طبقات المفسرين[٥]: إنه رآه، وذكر صاحب كشف الظنون: أنه اختصره عبد الملك بن على المؤذن الهروى المتوفى سنة ٤٨٩هـ تسع وثمانين وأربعمائة من الهجرة[٦]، ولكنا لم نظفر به ولا بمختصره.

وعبيد الله بن محمد بن جرو الأسدى أبو القاسم النحوى العروضى المعتزلى

---

(١) كشف الظنون جـ١ ص٢٣٤.
(٢) ص٣٣.
(٣) ص٥٠.
(٤) ص٢٣.
(٥) ص٢٤.
(٦) كشف الظنون جـ١ ص٢٣٧.

المتوفى سنة ٣٨٧هـ: سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة، قال السيوطى فى طبقات المفسرين[١]: إنه صنف تفسيراً للقرآن الكريم؛ وذكر فى «بسم الله الرحمن الرحيم» مائة وعشرين وجهًا، ولكنا لم نظفر به أيضًا.

والقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى، المتوفى سنة ٤١٥ خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة، ألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) وهو بين أيدينا، ومتداول بين أهل العلم، ولكنه غير شامل لجميع آيات القرآن الكريم.

والشريف المرتضى، العالم الشيعى العلوى المتوفى سنة ٤٣٦هـ ست وثلاثين وأربعمائة من الهجرة، كتب بحوثًا فياضة فى بعض آيات القرآن الكريم التى تصادم مذهب المعتزلة، ووفق بين ظاهر النظم الكريم والعقيدة الاعتزالية، ونجد هذه البحوث التفسيرية ضمن ما دونه فى أماليه التى سماها: غرر الفوائد ودرر القلائد.

وعبد السلام بن محمد بن يوسف القزوينى شيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٣هـ ثلاث وثمانين وأربعمائة من الهجرة، فسر القرآن تفسيراً واسعًا، فقد جاء فى طبقات المفسرين[٢] للسيوطى «أنه جمع التفسير الكبير الذى لم يرد فى التفاسير أكبر منه ولا أجمع للفوائد، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة، وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد، منها سبع مجلدات فى الفاتحة» ونقل عن ابن النجار أنه قال فى شأن القزوينى هذا: (إنه كان طويل اللسان، ولم يكن محققًا إلا فى التفسير، فإنه لهج بالتفاسير حتى جمع كتابًا بلغ خمسمائة مجلد حشى فيه العجائب، حتى رأيت منه مجلداً فى آية واحدة، وهى قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ...﴾ (البقرة: ١٠٢) الآية»[٣].

وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة، فسر القرآن الكريم تفسيراً عظيمًا جدا، لولا ما فيه من نزعات الاعتزال، وهو أشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة.

* * *

---

(١) ص١٩. (٢) ص١٩. (٣) المرجع السابق.

هؤلاء هم أشهر من عرفناهم من مفسرى المعتزلة وهذه هى تفاسيرهم التى نسمع عنها، ولم يصل إلينا منها إلا هذه المصنفات الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار؛ وأمالى الشريف المرتضى، والكشاف للزمخشرى، ولهذا نرى أن نتكلم عن هذه الكتب الثلاثة، وعن المسلك الذى سلكه فيها أصحابها، بما يلقى لنا ضوءاً على المنحى الذى نحاه المعتزلة فى تفسيره لكتاب الله تعالى، وتأويلهم لنصوصه، حتى تشهد لهم، أو لا تتعارض معهم على الأقل.



١- تنزيه القرآن عن المطاعن
للقاضي عبد الجبار

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو قاضي القضاة[١]، أبوالحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار ابن أحمد بن الخليل الهمداني الأسدباذي الشافعي، شيخ المعتزلة، سمع من أبي الحسن بن سلمة بن القطان، وعبد الله بن جعفر بن فارس، وغيرهما، عاش دهرًا طويلا وفاق أقرانه، وسار ذكره، وعظم صيته، ورحلت إليه الطلبة، وأخذ عنه كثير من العلماء، منهم: أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي، والحسن بن علي الصيمري الفقيه، وأبو محمد عبد السلام القزويني المفسر المعتزلي.

استدعاه الصاحب إلى الري بعد سنة ٣٦٠هـ ستين وثلاثمائة من الهجرة، فولي قضاءها، وبقي بها مواظبًا على التدريس إلى آخر حياته، وكان الصاحب يقول فيه: هو أعلم أهل الأرض.

وقد خلف القاضي عبد الجبار مصنفات في أنواع مختلفة من العلوم، منها: كتاب الخلاف والوفاق، وكتاب المبسوط، وكتاب المحيط، وكلها في علم الكلام، وألف في أصول الفقه: النهاية، والعمدة، وشرحه، وألف في المواعظ كتابًا سماه نصيحة المتفقهة، وقال ابن كثير في طبقاته: إن من أجل مصنفاته وأعظمها، كتاب دلائل النبوة، في مجلدين، أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة.

وبالجملة، فقد طبق الأرض بكتبه، وبعد صيته، وعظم قدره، حتى انتهت إليه الرياسة في المعتزلة، وصار شيخها وعالمها غير مدافع، وكانت وفاته في ذي القعدة ٤١٥هـ خمس عشرة وأربعمائة[٢].

---

(١) تلقبه المعتزلة بهذا؛ ولا يعنون به عند الإطلاق غيره.

(٢) يراجع طبقات المفسرين للسيوطي ص١٦، وشذرات الذهب جـ٣ ص٢٠٢، ٢٠٣.

التعريف بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن وطريقة مؤلفه فيه:

ذكر مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته ص٣، ٤: أنه لا ينتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف على معانى ما فيه، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه، وذكر أن كثيرًا من الناس قد ضل بأن تمسك بالمتشابه حتى اعتقد أن قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (الحشر: ١) حقيقة فى الحجر والمدر والطير والنعم، وربما رأوا فى ذلك تسبيح كل شىء من ذلك، ومن اعتقد ذلك لم ينتفع بما يقرؤه، قال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ (النساء: ٨٢)، وكذلك وصفه تعالى بأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٩)... ثم قال: وقد أملينا فى ذلك كتابًا يفصل بين المحكم والمتشابه، عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها، وبيننا معانى ما تشابه من آياتها، مع بيان وجه خطأ فريق من الناس فى تأويلها، ليكون النفع به أعظم، ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله. اهـ.

فالكتاب لم يقصد فيه مؤلفه أن يعرض لشرح كتاب الله آية آية، بل كان كل همه - كما نأخذ من عبارته السابقة، وكما يظهر لنا من مسلكه فى الكتاب نفسه - موجهًا إلى الفصل بين محكم الكتاب ومتشابهه، وإلى بيان معانى هذه الآيات المتشابهة، ثم إلى بيان خطأ فريق من الناس فى تأويلها، وهو يقصد بهذا الفريق - فى الغالب - جماعة أهل السنة الذين لا يرون رأيه فى القرآن، ولا ينظرون إليه نظرته الاعتزالية.

نقرأ هذا الكتاب، فنجد أن مؤلفه قد ابتدأه بسورة الفاتحة، واختتمه بسورة الناس، ولكنه لا يستقصى جميع السور، ولا يعرض لكل آياتها بالشرح كما قلنا، بل نجده يبنى كتابه على مسائل، كل مسألة تتضمن إشكالا وجوابًا، وهذا الإشكال تارة يرد على ظاهر النظم الكريم من ناحية الصناعة العربية، وتارة يرد عليه من ناحية أنه لا يتفق مع عقيدته الاعتزالية.

بعض موافقه من مشكلات الصناعة العربية:

أما المسائل التى أوردها مشتملة على مشكلات الصناعة العربية وأجوبتها، فهى لا تخرج عما عرض له عامة المفسرين فى تفاسيرهم، وهذا الجانب يشمل جزءًا غير قليل من الكتاب، وإليك بعض هذه المسائل:

فمثلا فى سورة الحمد يقول فى ص٤، ٥ ما نصه: «**مسألة:** قالوا: الحمد لله خبر، فإن كان حمد نفسه فلا فائدة لنا فيه، وإن أمرنا بذلك، فكان يجب أن يقول: قولوا الحمد لله، وجوابنا عن ذلك: أن المراد به الأمر بالشكر والتعليم لكى نشكره، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة: ٤)، لأنه لا يليق بالله تعالى، وإنما يليق بالعباد، فإذا كان معناه قولوا: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ فكذلك قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ وهكذا كقوله: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم**﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤) ومثله كثير فى القرآن» اهـ.

ومثلا فى سورة البقرة يقول فى ص٦ ما نصه: «**مسألة:** ومتى قيل: ولماذا قال تعالى ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ (البقرة: ٢) ولم يقل هذا الكتاب؟ فجوابنا: أنه جل وعز وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء، فلما أنزل ذلك قال: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ**﴾ والمراد ما وعدتك، ولو قال هذا الكتاب لم يفد هذه الفائدة». اهـ.

ويقول بعد ذلك مباشرة فى ص٦، ٧ ما نصه: «**مسألة:** فإن قالوا: ما معنى ﴿**لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ (البقرة: ٢) وقد علمتم أن خلقًا يشكون فى ذلك فكيف يصح ذلك؟ وإن أراد لا ريب فيه عندى وعند من يعلم، فلا فائدة فى ذلك؟ فجوابنا: أن المراد أنه حق يجب أن لا يرتاب فيه، وهذا كما يبين المرء الشىء لخصمه فيحسن منه بعد البيان أن يقول: هذا كالشمس واضح، وهذا لا يشك فيه أحد، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق، وإن كان فى الناس من يكذب بذلك. اهـ.

ومثلا فى سورة هود يقول فى ص١٦٤ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿**أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ**﴾ (هود: ١٧) ما الفائدة فى هذا الابتداء ولا خبر له؟ وجوابنا أن الخبر قد يحذف إذا كان كالمعلوم، والمراد: أفمن كان بهذا الوصف كمن هو يكفر ولا يسلك طريق العبادة وما توجيه البينة. اهـ.

ومثلا فى سورة الفرقان يقول فى ص٢٥٤ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ**﴾ (الفرقان: ١٥) كيف يصح ذلك ولا خير فى النار أصلا؟ وجوابنا: أن المراد أيهما أولى بأن يكون خيرًا؟، وقد يقول الحكيم لغيره من العصاة: إن التمسك بالطاعة خير لك من المعصية، والمراد ما قد ذكرنا». اهـ.

هذه أمثلة من الإشكالات التى أوردها القاضى عبد الجبار على ظاهر النظم من ناحية الصناعة، وهذه هى الأجوبة التى أجاب بها عن هذه الإشكالات.

بعض مواقفه من المشكلات العقدية الاعتزالية:

وأما المسائل التى أوردها مشتملة على إشكالات ترد على ظاهر النظم من ناحية أنه لا يتفق وعقيدته، وعلى أجوبة هذه الإشكالات، فهى كثيرة جدًا، وهى تشغل الجزء الأكبر من هذا المؤلف، وإليك بعض هذه المسائل:

الهداية والضلال:

فمثلا يقول فى سورة البقرة ص٩، ١٠ ما نصه: «**مسألة:** قالوا: فقد قال تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ (البقرة: ٧) وهذا يدل على أنه قد منعهم من الإيمان، ومذهبكم بخلافه، وكيف تأويل الآية؟، وجوابنا أن للعلماء فى ذاك جوابين:

أحدهما: أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذى على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول: إنه حمار قد طبع الله على قلبه، وربما تقول: إنه ميت، وقد قال تعالى للرسول: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ**﴾ (النمل: ٨٠) وكانوا أحياء، فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى، وهو كقول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم، وأنه ذكر فى جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم، وذلك لو كان ثابتًا لم يوثر فى كونهم عقلاء مكلفين.

والجواب الثانى: أن الختم علامة يفعلها تعالى فى قلبهم؛ لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع على ذمهم، ويكون ذلك لطفًا لهم، ولطفًا لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه؛ فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر، وهذا جواب الحسن رحمه الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (البقرة: ٧)». اهـ.

ومثلا فى سورة الأعراف يقول فى ص١٤٠ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله

تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٨) أليس ذلك يدل على أنه يخلق الهدى والضلال؟ وجوابنا: أن المراد: من يهد الله إلى الجنة والثواب فهو المهتدى فى الدنيا، ومن يضلل عن الثواب إلى العقاب فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا، وسبيل ذلك أن يكون بعثا من الله تعالى على الطاعة، وكذلك قوله تعالى ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِىَ لَهُ﴾ (الأعراف: ١٨٦) المراد من يضلله عن الثواب فى الآخرة فلا هادى له إليه، وإن كنا قد أزحنا العلة وسهلنا السبيل إلى الطاعة. اهـ.

ومثلا فى سورة الحج يقول فى ص ٢٤٠، ٢٤١ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٦) إن ذلك يدل على أنه يهدى قوما دون قوم بخلاف قولكم: إن الهدى عام، وجوابنا: أن المراد يكلف مَن يريد، لأن فى الناس من لا يبلغه حد التكليف، أو يحتمل أن يريد الهداية إلى الثواب؛ لأنها خاصة فى المطيعين دون العصاة، ورغب تعالى المؤمن فى تحمل المشاق واحتمال ما يناله من المبطلين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الحج: ١٧) فيبين حسن عاقبة المؤمن عند الفصل؛ ليكون فى الدنيا وإن لحقه الذل صابرًا، وعلى هذا الوجه قال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». اهـ.

فأنت ترى من هذا كله: أنه يفر من القول بأن الله تعالى هو الذى يصرف العبد عن طريق الهدى إلى طريق الضلال أو العكس، تمشيا مع مذهبه وعقيدته.

مس الشيطان:

كذلك نراه يفسر الآيات التى تدل على أن الشيطان له قدرة على أن يؤثر فى الإنسان بما يوافق مذهبه، فيقول فى سورة البقرة ص ٥٠ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل: إن قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥) كيف ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر على مثل ذلك؟، وجوابنا: أن مس الشيطان إنما هو بالوسوسة كما قال تعالى فى قصة أيوب ﴿مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (ص: ٤١) كما يقال فيمن يفكر فى شىء يغمه: قد مسه التعب، وبين ذلك قوله فى صفة الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى﴾

(إبراهيم: ٢٢) ولو كان يقدر على أن يخبط لصرف همته إلى العلماء والزهاد وأهل العقول، لا إلى من يعتريه الضعف، وإذا وسوس ضعف قلب من يخصه بالوسوسة فتغلب عليه المرة فيتخبط، كما يتفق ذلك فى كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك لغيرهم». اهـ.

ويقول فى سورة الناس ص٣٨٥، ٣٨٦ «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ...**﴾ (الناس: ١ - ٤) أليس ذلك يدل على أن الشيطان يؤثر فى الإنسان حتى أمرنا بأن نتعوذ من شره، وأنتم تقولون: إنه لا يقدر على شىء من ذلك؟ وجوابنا: أنه تعالى بيَّن أن هذا الوسواس من الجِنة والناس، ومعلوم أن من يوسوس من الناس لا يخبط ولا يحدث فيمن يوسوس له تغيير عقل وجسم، فكذلك حال الشيطان، ومع ذلك فلا بد فى وسوستهم من أن يكون ضرر يصح أن يُتعوذ بالله تعالى منه وهذا يدل إذا تأمله المرء على قولنا بأن العبد مختار لفعله؛ وذلك لأنه تعالى لو كان يخلق كل هذه الأمور فيه لم يكن لهذا التعوذ معنًى؛ لأنه إن أراد خلق ما يضره فيه، وخلق المعاصى فيه، فهذا التعوذ وجوده كعدمه، وإنما ينفع ذلك متى كان العبد مختارًا، فإذا أتى بهذا التعوذ كان أقرب إلى أن لا يناله من قبل الجنة والناس ما كان يناله لولا ذلك...» اهـ.

رؤيـــة الله:

ولما كان المعتزلة لا يجوزون وقوع رؤية الله فى الآخرة، فإن صاحبنا قد تخلص من كل آية تجوز وقوع الرؤية.

فمثلا فى سورة يونس يقول ص١٥٩ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ (يونس: ٢٦) أليس المراد بها الرؤية على ما روُى فى الخبر؟ وجوابنا أن المراد بالزيادة التفضل فى الثواب، فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه، وهذا مروى، وهو الظاهر، فلا معنى لتعلقهم بذلك، وكيف يصح ذلك وعندهم أن الرؤية أعظم من كل الثواب فكيف تجعل زيادة على الحسنى؟ ولذلك قال بعده: ﴿**وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ**﴾ (يونس: ٢٦) فبين أن الزيادة هى من هذا الجنس فى الجنة. اهـ.

وفى سورة القيامة يقول فى ص٣٥٨، ٣٥٩ ما نصه: (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يُرى فى الآخرة، وجوابنا: أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم، فإنا لا ننازعه فى أنه يُرى، بل فى أنه يصافح، ويعانق، ويلمس، تعالى الله عن ذلك، وإنما نكلمه فى أنه ليس بجسم، وإن كان ممن ينفى التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشىء طلبًا لرؤيته، وذلك لا يصح إلا فى الأجسام، فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ (يوسف: ٨٢) فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم، وبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيبًا فى الثواب كما ذكر قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٤، ٢٥) زجرًا عن العقاب، فيجب حمله على ما ذكرناه. . .» اهـ.

أفعال العباد:

كذلك يتأثر القاضى عبد الجبار بعقيدته الاعتزالية القائلة بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد، فيقول فى سورة الأنفال ص١٤٤ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (الأنفال: ١٧) كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد؟ وجوابنا: أنه ﷺ كان يرمى يوم بدر، والله تعالى يبلغ برميته المقاتل، فلذلك أضافه تعالى إلى نفسه كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ والكلام متفق بحمد الله». اهـ.

ويقول فى سورة الصافات ص٢٩٨، ٢٩٩ ما نصه « **مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٥، ٩٦) أليس فى ذلك تصريح بخلق أعمال العباد؟ وجوابنا: أن المراد والله خلقكم وما تعملون من الأصنام، فالأصنام من خلق الله، وإنما عملهم نحتها وتسويتها، ولم يكن الكلام فى ذلك؛ فإنه ﷺ أنكر عبادتهم، فقال: أتعبدون ما تنحتون، وذلك الذى تنحتون الله خلقه، ولا يصح لما أورده عليهم معنى إلا على هذا الوجه، وذلك فى اللغة ظاهر؛ لأنه يقال فى النجار: عمل السرير، وإن كان عمله قد تقضى، وعمل الباب، ونظير

ذلك قوله تعالى فى عصا موسى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشعراء: ٤٥) المراد ما وقع إفكهم فيه، فعلى هذا الوجه نتأول هذه الآية، معنى قوله من بعد ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الصافات: ٩٩، ١٠٠)» اهـ.

المنزلة بين المنزلتين:

ولما كان القاضى عبد الجبار يقول - كغيره من المعتزلة - بالمنزلة بين المنزلتين، فإنا نراه يتأثر بهذه العقيدة، ففى سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا...﴾ (الأنفال: ٢: ٤) نجده فى ص١٤٣ يقول ما نصه: «... وكل ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل، ويدخل فيه كل هذه الطاعات، وأن المؤمن لا يكون مؤمنًا إلا أن يقوم بحق العبادات، ومتى وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمنًا». اهـ.

وفى سورة الإنسان يقول فى ص٣٥٩، ٣٦٠ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) أما يدل ذلك على أنه ليس من المكلفين إلا كافر ومؤمن؟ وجوابنا: أن الشاكر قد يكون شاكرًا وإن لم يكن مؤمنا برًا تقيًا؛ لأن الفاسق بغضب أو غيره قد يكون شاكرًا فلا يدل على ما قالوا، بل فى الآية دلالة على ما نقول من أن الكافر والمؤمن هما سواء فى أن الله تعالى قد هداهما، لا كما قالت المجبرة: إنه تعالى إنما هدى المؤمنين، والمراد به أنه دل الجميع وأزال علتهم، فمن عصى فمن جهة نفسه أتى». اهـ.

تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نرى القاضى عبد الجبار يقف أمام الآيات التى تبدو فى ظاهرها غريبة مستبعدة، موقف النفور من جواز إرادة المعنى الحقيقى، والتخلص من هذا الظاهر المستغرب بحمل الكلام على المجاز والتشبيه.

فمثلا يقول فى سورة الأعراف ص١٤٠ ما نصه: «**مسألة:** وربما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) وفى الخبر أن جميع بنى آدم أخذ عليهم المواثيق من ظهر

آدم ﷺ ، كيف يصح ذلك؟ وجوابنا؛ أن القوم مخطئون فى الرواية، فمن المحال أن يأخذ عليهم المواثيق وهم كالذر لا حياة لهم ولا عقل، فالمراد أنه أخذ الميثاق من العقلاء، بأن أودع فى عقلهم ما ألزمهم، إذ فائدة الميثاق أن يكون منبهًا، وأن يذكر المرء بالدنيا والآخرة، وذلك لا يصح إلا فى العقلاء، وظاهر الآية بخلاف قولهم؛ لأنه تعالى أخذ من ظهور بنى آدم، لا من آدم، والمراد أنه أخرج من ظهورهم ذرية أكمل عقولهم، فأخذ الميثاق عليهم، وأشهدهم على أنفسهم بما أودعه عقلهم». اهـ.

ومثلا فى سورة الرعد يقول فى ص١٨١ ما نصه: «**مسألة**: ومتى قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**﴾ (الرعد: ١٣) وكيف يصلح التسبيح من الرعد؟ وجوابنا: أن المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة على قدرته وعلى تنزيهه، وذلك بقوله تعالى: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ (الحديد: ١) لدلالة الكل على أنه منزه عما لا يليق، ولذلك قال: ﴿**وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**﴾ (الرعد: ١٣) ففصل بين الأمرين، وقوله بعد: ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**﴾ (الرعد: ١٥) معناه يخضع، فالمكلف العارف بالله يخضع طوعًا، وغيره يخضع كرهًا، لأنَّا نعلم أن نفس السجود لا يقع من كل أحد». اهـ.

وقد رأينا كيف حمل القاضى حملته الشعواء فى مقدمة كتابه على من يحمل مثل هذه الآية على حقيقتها، وكيف حكم عليه بأنه ضال لا ينتفع بما يقرأ من كتاب الله.

. . . هكذا نجد القاضى عبد الجبار يتأثر تأثرًا عظيمًا بمذهبه الاعتزالى، فلا يكاد يمر بآية تعارض مذهبه إلا صرفها عن ظاهرها، ومال بها إلى ناحية مذهبه. . .

وعلى الجملة فالكتاب ـ رغم ما فيه من هذه النزعات الاعتزالية ـ قد كشف لنا عن كثير من الشبهات التى ترد على ظاهر النظم الكريم، وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآنى الذى ينطوى على البلاغة والإعجاز، مما يشهد لمؤلفه بقوة رغزارة العلم، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ومتداول بين أهل العلم.

٢- أمالى الشريف المرتضى(١)
أو
غرر الفوائد ودرر القلائد

التعريف بمؤلف هذا الكتاب:

مؤلف هذا الكتاب، هو أبو القاسم، على بن الطاهر أبى أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ، وهو أخو الشريف الرضى، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق، وكان مع تشيعه معتزليًا مبالغًا فى اعتزاله، وقد تبحر - رحمه الله - فى فنون العلم، وعرف بالإمامة فى الكلام والأدب، والشعر، أخذ عن الشيخ المفيد، وروى الحديث عن سهل الديباجى الكذاب، وله تصانيف كثيرة على مذهب الشيعة، ومقالة فى أصول الدين، وله ديوان شعر كبير، وله كتاب الأمالى الذى سماه غرر الفوائد ودرر القلائد، جمع فيه بين التفسير الاعتزالى، والحديث، والأدب، وهو ما نحن بصدد الكلام عنه الآن». واختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب، هل هو جمعه؟ أو جمع أخيه الشريف الرضى؟.

وبالجملة فقد كان الشريف المرتضى إمام أئمة العراق، يفزع إليه علماؤها ويأخذ

---

(١) لأخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦هـ كتاب «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وهو يقرب من الأمالى فى منهجه وطريقته، فمن أجوبة لما يرد من إشكالات على ظاهر النظم، إلى رد ما يتعارض مع مذهبه الاعتزالى من ظواهر القرآن، إلى غير ذلك من البحوث التى يكاد يتفق فيها مشرب الشريف الرضى مع مشرب أخيه الشريف المرتضى، وقد أمسكنا عن الكلام عن هذا المؤلف؛ لأنه مفقود ولم يطبع منه إلا الجزء الخامس وهو يشتمل على بعض مسائل من سورة آل عمران وبعض سورة النساء؛ ولأنه فى كثير من الأحيان يحيل الجواب على ما تقدم فى الأجزاء السابقة، ولو وقع لنا هذا الكتاب كاملا لكان مرجعًا مهمًا لا يقل عن الأمالى فى تصويره لعقلية هذا الإمام الكبير وتأثره بمذهبه الاعتزالى فى فهمه لكتاب الله تعالى، ولقد نقل ابن خلكان فى وفيات الأعيان جـ٢ ص٣٦٥ عن ابن جنى أستاذ الشريف الرضى أنه قال: «صنف الشريف الرضى كتابًا فى معانى القرآن يتعذر وجود مثله، دل على توسعه فى علم النحو واللغة». اهـ.

عنه عظماؤها، وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ خمس وخمسين وثلاثمائة من الهجرة، وتوفى سنة ٤٣٦ ست وثلاثين وأربعمائة ببغداد، ودفن فى داره عشية يوم وفاته، فرضى الله عنه وأرضاه[1].

التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه التى سلكها فى التفسير:

كتاب غرر الفوائد ودرر القلائد، كتاب يشتمل على محاضرات أو أمالى، أملاها الشريف المرتضى فى ثمانين مجلسًا، تشتمل على بحوث فى التفسير والحديث، والأدب، وهو كتاب ممتع، يدل على فضل كثير، وتوسع فى الاطلاع على العلوم، وهو لا يحيط بتفسير القرآن كله، بل ببعض من آياته التى يدور أغلبها حول العقيدة، وعلى ضوء ما فسره من الآيات نستطيع أن نلقى نظرة فاحصة على تفسير المعتزلة للقرآن فى ذلك العصر، كما تستطيع أن نقف على مبلغ جهود الشريف المرتضى للتوفيق بين آرائه الاعتزالية وآيات القرآن التى تتصادم معها.

ونحن إذ نتكلم عن أمالى الشريف المرتضى لا نتكلم عنها إلا من ناحية ما فيها من التفسير، أما الناحية الحديثية والأدبية فلا تعنينا فى هذا البحث، وإن كان لها قيمتها ومكانتها العلمية بين رجال الدين والأدب.

نتصفح كتاب الأمالى، ونجيل النظر بين ما فيه من بحوث فى التفسير، فنجد السيد الشريف يسعى بكل جهوده إلى الوصول إلى مبادئه الاعتزالية عن طريق التفسير، مستعينًا فى ذلك بنبوغه الأدبى، ومعرفته بفنون اللغة وأساليبها، حتى أننا لنراه يقف من الآيات التى تعارضه موقفًا يلتزم فيه مخالفة ظاهر القرآن، ويفضل فيه التفاسير الملتوية لبعض الألفاظ على ما يتبادر منها إرضاءً لعقيدته، وتمشيًا مع مذهبه.

وإليك بعض الأمثلة من تفسيره للآيات التى تدور حول العقيدة، لنقف على حقيقة الأمر، ولتلمس مقدار هذا التعصب المذهبى عند هذا الشريف العلوى.

رؤيــــة الله:

يقول فى المجلس الثالث جـ١ ص٢٨ - ٢٩: «**مسألة:** اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا فى إبطال ما ظنه أصحاب الرؤية فى قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ**

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ٢ ص١٤ - ١٧.

رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) على وجوه معروفة، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية، ولا الرؤية من أحد محتملاته، ودلوا على أن النظر ينقسم إلى أقسام كثيرة: **منها**: تقليب الحدقة الصحيحة فى جهة المرئى طلبًا للرؤية، **ومنها**: النظر الذى هو الانتظار، **ومنها**: النظر الذى هو التعطف والمرحمة، **ومنها**: النظر الذى هو الفكر والتأمل، وقالوا: إذا لم يكن فى أقسام النظر الرؤية، لم يكن للقوم بظاهرها تعلق، واحتجنا جميعًا إلى طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية، وتأولها بعضهم على انتظار للثواب وإن كان المنتظر فى الحقيقة محذوفًا، والمنتظر منه مذكورًا على عادة للعرب معروفة، وسلم بعضهم أن النظر يكون الرؤية بالبصر، وحمل الآية على رؤية أهل الجنة لنعم الله تعالى عليهم، على سبيل حذف المرئى فى الحقيقة، وهذا كلام مشروح فى موراضعه، وقد بينا ما يرد عليه، وما يجاب به عن الشبهة المعترضة فى مواضع كثيرة.

وههنا وجه غريب فى الآية، حكى عن بعض المتأخرين، لا يفتقر معتمده إلى العدول عن الظاهر، أو إلى تقدير محذوف، ولا يحتاج إلى منازعتهم فى أن النظر يحتمل الرؤية أو لا يحتملها، بل يصح الاعتماد عليه، سواء كان النظر المذكور فى الآية هو الانتظار بالقلب أم الرؤية بالعين، وهو أن يحمل قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ إلى أنه أراد نعمة ربها، لأن الآلاء النعم، وفى واحدها أربع لغات، ألاً مثل قفًا، وألى مثل رَمى، وإِلى مثل مِعى، وإلى مثل حنى، قال أعشى بكر بن وائل:

أبيض لا يرهب الهزال ولا ... يقطع رحمًا ولا يخون إلى

أراد أنه لا يخون نعمة، وأراد تعالى إلى ربها، فأسقط التنوين للإضافة.

فإن قيل: فأى فرق بين هذا الوجه وبين تأويل من حمل الآية على أنه أراد به إلى ثواب ربها ناظرة، بمعنى رائية لنعمه وثوابه؟ **قلنا**: ذلك الوجه يفتقر إلى محذوف، لأنه إذا جعل إلى حرفًا، ولم يعلقها بالرب تعالى، فلا بد من تقدير محذوف، وفى الجواب الذى ذكرناه لا يفتقر إلى تقدير محذوف، لأن إلى فيه اسم يتعلق به الرؤية، ولا يحتاج إلى تقديره غيره، والله أعلم بالصواب. اهـ.

الإرادة وحرية الأفعال:

وفى المجلس الرابع جـ١ ص٣٠، ٣٣ يقول ما نصه: «تأويل آية... إن قال قائل: ما تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (يونس: ١٠٠) فظاهر هذا الكلام يدل على أن الإيمان إنما كان لهم فعله بإذنه وأمره، ورليس هذا مذهبكم، وإن حمل الإذن هنا على الإرادة، اقتضى أن من لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه، وهذا أيضًا بخلاف قولكم، ثم جعل الرجس ـ الذى هو العذاب ـ على الذين لا يعقلون، ومن كان فاقدًا لعقله لا يكون مكلفًا، فكيف يستحق العذاب، وهو بالضد من الخبر المروى عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثر أهل الجنة البله»؟... الجواب: يقال له: فى قوله تعالى ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وجوه: **منها**: أن يكون الإذن الأمر، ويكون معنى الكلام أن الإيمان لا يقع إلا بعد أن يأذن الله فيه ويأمر به، ولا يكون معناه ما ظنه السائل من أنه لا يكون للفاعل فعله إلا بإذنه، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٤٥) ومعلوم أن معنى قوله ليس لها فى هذه الآية، هو ما ذكرناه، وإن كان الأشبه فى هذه الآية التى ذكر فيها الموت أن يكون المراد بالإذن العلم... **ومنها**: أن يكون الإذن هو التوفيق، والتيسير، والتسهيل، ولا شبهة فى أن الله يوفق لفعل الإيمان ويلطف فيه، ويسهل السبيل إليه.. **ومنها**: أن يكون الإذن العلم، من قوله: أذنت لكذا وكذا، إذا سمعته وعلمته، وأذنت فلانا بكذا إذا أعلمته، فتكون فائدة الآية: الإخبار عن علمه تعالى بسائر الكائنات؛ فإنه ممن لا تخفى عليه الخفيات.. وقد أنكر بعض من لا بصيرة له أن يكون الإذن بكسر الألف وتسكين الذال عبارة عن العلم وزعم أن الذى هو العلم الأذن بالتحريك واستشهد بقول الشاعر:

* إن همى فى سماع وأذن *

وليس الأمر على ما توهم هذا المتوهم؛ لأن الأذن هو المصدر، والإذن هو اسم الفعل، فيجرى مجرى الحذر والحذر فى أنه مصدر، والحذر بالتسكين الاسم، على أنه لو لم يكن مسموعًا إلا الأذن بالتحريك لجاز التسكين مثل: مَثَل: ومِثْل وشَبَه وشِبْه، ونظائر ذلك كثيرة... **ومنها**: أن يكون الإذن العلم، ومعناه إعلام الله المكلفين بفضل

الإيمان وما يدعو إلى فعله، ويكون معنى الآية: وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإعلام الله لها بما يبعثها على الإيمان وما يدعوها إلى فعله... فأما ظن السائل دخول الإرادة فى محتمل اللفظ فباطل؛ لأن الإذن لا يحتمل الإرادة فى اللغة، ولو احتملها أيضًا لم يجب ما توهمه، لأنه إذا قال: إن الإيمان لا يقع إلا وأنا مريد له، لم ينف أن يكون مريدًا لما لم يقع، وليس فى صريح الكلام ولا دلالته شىء من ذلك...» ثم انتقل من هذا إلى كشف الشبهة عن معنى قوله ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ مما لا يتصل بعقيدته الاعتزالية.

وفى المجلس ٤١ جـ٣ ص٢، ٤ يقول ما نصه: «تأويل آية: إن سأل سائل عن قوله تعالى ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٦، ٢٧) إلى آخر الآية[1] فقال: ما تأويل هذه الآية؟ أوليس ظاهرها يقتضى أن لا نشاء شيئًا إلا والله تعالى شاءه، ولم يخص إيمان من كفر، ولا طاعة من معصية؟... الجواب: قلنا: الوجه المذكور فى هذه الآية أن الكلام متعلق بما تقدمه من ذكر الاستقامة؛ لأنه تعالى قال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى ما نشاءون الاستقامة إلا والله تعالى مريد لها، ونحن لا ننكر أن يريد الله تعالى الطاعات وإنما أنكرنا إرادته المعاصى، وليس لهم أن يقولوا تقدم ذكر الاستقامة لا يوجب قصر الكلام عليها ولا يمنع من عمومه، كما أن السبب لا يوجب قصر ما يخرج من الكلام عليه حتى لا يتعداه، وذلك أن الذى ذكروه إنما يجب فيما يستقل بنفسه من الكلام دون ما لا يستقل... وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ لا ذكر للمراد فيه، فهو غير مستقل بنفسه، وإذا علق بما تقدم من ذكر الاستقامة استقل، على أنه لو كان للآية ظاهر يقتضى ما ظنوه ـ وليس لها ذلك ـ لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة على أنه تعالى لا يريد المعاصى ولا القبائح، على أن مخالفينا فى هذه المسألة لا يمكنهم حمل الآية على العموم، لأن العباد قد يشاءون عندهم ما لا يشاؤه الله تعالى بأن يريدوا الشىء ويعزموا عليه فلا يقع لمانع، ممتنعًا كان أو غيره، وكذلك

---

(١) يريد إلى آخر السورة وهو قوله تعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ والآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩ من سورة التكوير.

قد يريد النبى ﷺ من الكفار الإيمان، وقد تعبدنا بأن نريد من المقدم على القبيح تركه، وإن كان تعالى عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع، فلا بد لهم من تخصيص الآية، فإذا جاز لهم ذلك بالشبهة، جاز لنا مثله بالحجة وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**...﴾ (الإنسان: ٢٩، ٣٠) وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ (المدثر: ٥٦) فى تعلق الكلام بما قبله... فإن قالوا: فالآية تدل على صحة مذهبنا من وجه وبطلان مذهبكم من وجه آخر، وهو أنه عز وجل قال: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ وذلك يقتضى أنه يشاء الاستقامة فى حال مشيئتنا لها لأن أن الخفيفة إذا دخلت على الفعل المضارع اقتضت الاستقبال، وهذا يوجب أنه يشاء أفعال العباد فى كل حال، ويبطل ما تذهبون إليه من أنه إنما يريد الطاعات فى حال الأمر... قلنا: ليس فى ظاهر الآية أنَّا لا نشاء إلا ما شاءه الله تعالى فى حال مشيئتنا كما ظننتم، وإنما يقتضى حصول مشيئته لما تشاءونه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا تأخر، ويجرى ذلك مجرى قول القائل: ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو، ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولهما فى حالة واحدة، بل لا يمتنع أن يتقدم دخول عمرو، ويتلوه دخول زيد، وأن الخفيفة وإن كانت للاستقبال ـ على ما ذكر ـ فلم يبطل على تأويلنا معنى الاستقبال فيها، لأن تقدير الكلام وما تشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالى، ومشيئته تعالى قد كانت لها حال الاستقبال، وقد ذهب أبو على الجبائى إلى أنه لا يمتنع أن يريد تعالى الطاعات حالا بعد حال، وإن كان قد أرادها فى حال الأمر، كما يصح أن يأمر بها أمراً بعد أمر، قال: لأنه قد يصح أن يتعلق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفى حال الفعل مصلحة، ويعلم تعالى أنا نكون متى علمنا ذلك كنا إلى فعل الطاعات أقرب، وعلى هذا المذهب لا يعترض بما ذكروه... والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلى مذهب أبى على فى هذا الباب، على أن اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل على فساد قولهم؛ لأن الكلام إذ اقتضى حدوث المشيئة وأبطل استقبالها بطل قول من قال منهم: إنه مريد بنفسه، أو مريد بإرادة قديمة، وصح ما نقوله من أن إرادته محدثة مجددة، ويمكن فى تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها

على العموم من غير أن نخصها بما تقدم ذكره من الاستقامة، ويكون المعنى: وما تشاءون شيئًا من فعالكم إلا أن يشاء الله تمكينكم من مشيئتكم، وإقداركم عليها، والتخلية بينكم وبينها، وتكون الفائدة فى ذلك الإخبار عن الافتقار إلى الله تعالى، وأنه لا قدرة على ما لم يقدره الله تعالى عز وجل، وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه، لأن ما تتعلق به المشيئة فى الآية محذوف غير مذكور، وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بالأفعال، دون تعلقه بالقدرة، لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور، وكل هذا واضح بحمد الله».

فأنت ترى من هذه المثل وغيرها لو رجعت إليها فى مكانها أن الشريف المرتضى تأثر فى تأويله للآيات القرآنية بعقيدته الاعتزالية ودافع بكل ما يستطيع عن مذهبه، ورد كل شبهة ترد عليه بما يدل على قوة ذهنه وسعة اطلاعه.

رفضه لبعض ظواهر القرآن:

كذلك نجد الشريف المرتضى ـ كغيره من المعتزلة ـ يرفض بشدة المعانى القرآنية الظاهرة، التى تبدو فى أول أمرها مستبعدة مستغربة، والتى يجوزها أهل السنة ويرونها أولى بأن يحمل اللفظ عليها من غيرها، ويتخلص من ذلك إما بحمل اللفظ على معنًى حقيقى آخر لا غرابة فيه، وإما بحمله على التمثيل أو التخييل، ونجد لذلك مثلا جليّا واضحًا فى المجلس الثالث جـ١ ص٢٠، ٢٢ حيث يقول ما نصه: «قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣)، وقد ظن بعض من لا بصيرة له ولا فطنة عنده، أن تأويل هذه الآية: أن الله استخرج من ظهر آدم جميع ذريته وهم فى خلق الذر، فقررهم بمعرفته، وأشهدهم على أنفسهم، وهذا التأويل مع أن العقل يبطله ويحيله، مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه، لأن الله تعالى قال ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره، وقال: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ولم يقل: ذريته، ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا إنهم كانوا عن هذا غافلين، أو يتعذروا بشرك آبائهم، وأنهم نشئوا على دينهم وسنتهم، وهذا يقتضى أن الآية لم تتناول ولد آدم

لصلبه، وأنها تناولت من كان له آباء مشركون، وهذا يدل على اختصاصها ببعض ولد آدم، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله، فأما شهادة العقل، فمن حيث لا تخلو هذه الذرية التى استخرجت من ظهر آدم فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، أو لا تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف، فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ما كانوا عليه فى تلك الحال، وما قرروا به واستشهدوا عليه، لأن العاقل لا ينسى ما يجرى هذا المجرى وإن بعد العهد وطال الزمان، ولهذا لا يجوز أن يتصرف أحدنا فى بلد من البلدان وهو عاقل كامل، فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله، وليس أيضًا لتخلل الموت بين الحالين تأثير؛ لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر؛ لكان تخلل النوم، والسكر، والجنون، والإغماء من أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم؛ لأن سائر ما عددناه مما ينفى العلوم يجرى مجرى الموت فى هذا، وليس لهم أن يقولوا: إذا جاز فى العاقل الكامل أن ينسى ما كان عليه فى حال الطفولية جاز ما ذكرناه، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوه إذا كملت عقولهم، من حيث يجرى عليهم وهم كاملو العقول، ولو كانوا بصفة الأطفال فى تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه، على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الغرض فى الآية؛ وذلك أن الله تعالى أخبرنا بأنه إنما قررهم وأشهدهم؛ لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة وسقوط الحجة عنهم، فإذا جاز نسيانهم له، عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها، وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف، قبح خطابهم، وتقريرهم، وإشهادهم، وصار ذلك عبثًا قبيحًا، **فإن قيل**: قد أبطلتم قول مخالفيكم، فما تأويلها الصحيح عندكم؟ **قلنا**: فى الآية وجهان:

أحدهما: أن يكون تعالى إنما عنى بها جماعة من ذرية بنى آدم، خلقهم وبلغهم، وأكمل عقولهم، وقررهم على ألسن رسله عليهم السلام بمعرفته، وما يجب من طاعته، فأمروا بذلك، وأشهدهم على أنفسهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو يعتذروا بشرك آبائهم، وإنما أتى من اشتبه عليه تأويل الآية من حيث ظن أن اسم الذرية لا يقع إلا على من لم يكن عاقلا كاملا، وليس الأمر كما ظن؛ لأنه

سمى جميع البشر بأنهم ذرية آدم وإن دخل فيهم العقلاء الكاملون، وقد قال تعالى ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ (غافر: ٨) ولفظ الصالح لا يطلق إلا على من كان كاملا عاقلا، فإن استبعدوا تأويلنا وحملنا الآية على البالغين المكلفين فهذا جوابهم.

والجواب الثانى: أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيبًا يدل على معرفته، ويشهد بقدرته ووجوب عبادته، فأراهم العبر، والآيات، والدلائل، فى أنفسهم وفى غيرهم، كان بمنزلة المشهد لهم على أنفسهم وكانوا فى مشاهدة ذلك ومعرفته، وظهوره فيهم على الوجه الذى أراده الله تعالى وتعذر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالته، بمنزلة المقر المعترف وإن لم يكن هناك إشهاد ولا اعتراف على الحقيقة، ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١)، وإن لم يكن منه تعالى قول على الحقيقة، ولا منهما جواب، ومثله قوله تعالى: ﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ﴾ (التوبة: ١٧) ونحن نعلم أن الكفار لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم، وإنما ذلك لما ظهر منهم ظهورًا لا يتمكنون من دفعه، كانوا بمنزلة المعترفين به، ومثل هذا قولهم: جوارحى تشهد بنعمتك، وحالى معترفة بإحسانك، وما روى عن بعض الحكماء من قوله: سل الأرض من شق أنهارك؟ وغرس أشجارك؟ وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك جؤارًا، أجابتك اعتبارًا، وهذا باب كبير، وله نظائر كثيرة فى النظم والنثر، يغنى عن ذكر جميعها القدر الذى ذكرناها منها». انتهى.

الطريق اللغوية فى تفسيره للقرآن:

ثم إننا نجد الشريف المرتضى، قد ولع بالطريقة اللغوية فى تفسيره للآيات القرآنية، وحرص كل الحرص على تطبيق هذا المبدأ اللغوى، الذى يعتبر الأصل لهم من قواعد التفسير عند المعتزلة، وكثيرًا ما نراه يظهر مهارة فائقة فى استعماله لهذه الطريق عندما يساوره الشك فى ظاهر اللفظ الذى يتعلق بالعقيدة، فنراه يفسر تفسيرا مقبولا لديه، يقوم على أساس من الأسس اللغوية، والحق أن الشريف المرتضى قد ظهر تفوقه العلمى الصحيح، عند تطبيقه لهذا المبدأ، وذلك راجع إلى تمكنه العظيم من اللغة والشعر القديم، ولهذا نجده لا يعتبر من التفاسير اللغوية إلا ما كان له شاهد

من اللغة أو الشعر العربى القديم، أما التفسير المطلق، الذى لا يعتمد على شاهد من ذلك، فإنه يرفضه ولا يرضاه، وإليك بعض الأمثلة التى تصور لك عناية المرتضى بهذا المبدأ اللغوى.

ففى المجلس ٢٣ جـ٢ ص٦ - ٩ يقول ما نصه: «إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ (المائدة: ١١٦) ما المراد بالنفس فى هذه الآية؟ وهل المعنى فيها كالمعنى فى قوله ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران: ٢٨)؟ أو يخالفه؟ أو يطابق معنى الآيتين، والمراد بالنفس فيهما ما رواه أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «يقول الله عز وجل: إذا أحب العبد لقائى أحببت لقاءه، وإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه، وإذا تقرب إلىَّ ذراعًا تقربت إليه باعًا» أو لا يطابقه؟. . . . الجواب: قلنا: إن النفس فى اللغة لها معانٍ مختلفة، ووجوه فى التصرف متباينة: فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان، وهى التى إذا فقدها خرج عن كونه حيا، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥)، والنفس ذات الشيء الذى يخبر عنه، كقولهم: فعل ذلك فلان نفسه، إذا تولى فعله، والنفس الأنفة، من قولهم: ليس لفلان نفس، أى لا أنفة له، والنفس الإرادة، من قولهم: نفس فلان فى كذا، أى إرادته، قال الشاعر:

فنفساى نفس قالت آنت ابن يجدل ... تجد فرجًا من كل غم تهابها
ونفس تقول اجهد نجاك فلا تكن ... كخاضبة لم يغن شيئًا خضابها

ومنه: أن رجلا قال للحسن البصرى: يا أبا سعيد، لم أحجج قط، فنفس تقول لى: حج، ونفس تقول لى: تزوج، فقال الحسن: أما النفس فواحدة، ولكن لك هَمٌّ يقول: حج، وهمٌّ يقول: تزوج، وأمره بالحج. . . وقال الممزق العبدى، ويروى لمعقر بن حمار البارقى:

ألا من لعين قد نآها حميمها ... وأرقنى بعد المنام همومها
فباتت لها نفسان، شتى همومها ... فنفس تعزيها، ونفس تلومها

وقال نمر بن تولب العكلى:

أما خليلى، فإنى لست معجله ... حتى يؤامر نفسيه كما زعما
نفس له من نفوس القوم صالحة ... تعطى الجزيل، ونفس ترضع الغنما

أراد أنه بين نفسين: نفس تأمره بالجود، وأخرى تأمر بالبخل، وكنى برضاع الغنم عن البخل؛ لأن البخيل يرضع اللبن من الشاة ولا يحلبها؛ لئلا يسمع الضيف صوت الشخب فيهتدى إليه، ومنه قيل لئيم راضع، وقال كُثير:

فأصبحت ذا نفسين: نفس مريضة ... من الناس، ما ينفك هَمٌّ يعودها

ونفس ترجى وصلها بعد صرمها ... تجمل كى يزداد غيظا حسودها

والنفس العين التى تصيب الإنسان، يقال: أصابت فلانًا نفس أى عين، وروى أن رسول الله ﷺ كان يرقى فيقول: «باسم الله أرقيك، والله يشفيك، من كل داء يؤذيك، وداء هو فيك، من كل عين عائن، ونفس نافس، وحسد حاسد» وقال ابن الأعرابى: النفوس: التى تصيب الناس بالنفس، وذكر رجلا فقال: كان والله حسودًا نفوسًا كذوبًا، وقال عبد الله ابن قيس الرقيات، وهو قرشى:

يتقى أهلها النفوس عليها ... فعلى نحرها الرقى والتميم

وقال مضرس الفقعسى:

وإذا نموا صعدا فليس عليهم ... منا الخيال ولا نفوس الحسد

وقال ابن هرمة، يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك:

فاسلم، سلمت من المكاره والردى ... وعثارها، ووقيت نفس الحسد

والنفس أيضًا من الدباغ بمقدار الدبغة، تقول: أعطنى نفسًا من دباغ، أى قدر ما أدبغ به مرة، والنفس: الغيب، يقول القائل إنى لا أعلم نفس فلان، أى غيبه، وعلى هذا تأويل قوله تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ (المائدة: ١١٦) أى تعلم غيبى وما عندى، ولا أعلم غيبك، وقيل: إن النفس أيضًا العقوبة، من قولهم أحذرك نفسى، أى عقوبتى، وبعض المفسرين يحمل قوله تعالى: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾ (آل عمران: ٢٨) على هذا المعنى، كأنه يحذركم عقوبته، وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وآخرين، قالوا: معنى الآية: يحذركم الله إياه، وقد روى عن الحسن ومجاهد فى قوله تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ ما ذكرناه من التأويل بعينه.

فإن قيل: ما وجه تسميته الغيب بأنه نفس؟ **قلنا:** لا يمتنع أن يكون الوجه فى ذلك، أن نفس الإنسان لما كانت خفية الموضع، نزل ما يكتمه ويجتهد فى ستره

منزلتها، وسمى باسمها فقيل فيه: إنه نفسه، مبالغة فى وصفه بالكتمان والخفاء، وإنما حسن أن يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ ﴿وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ من حيث تقدم قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ ليزدوج الكلام؛ ولهذا لا يحسن ابتداءً، أنا لا أعلم ما فى نفس الله تعالى، وإن حسن على الوجه الأول، ولهذا نظائر فى الاستعمال مشهورة مذكورة، فأما الخبر الذى يرويه السائل فتأويله ظاهر، وهو خارج على مذهب العرب فى مثل هذا الباب المعروف، ومعناه: أن من ذكرنى فى نفسه جازيته على ذكره لى، وإذا تقرب إلىَّ شبراً جازيته على تقربه إلىَّ... وكذلك الخبر إلى آخره، فسمى المجازاة على الشىء باسمه اتساعاً، كما قال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠) ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ (الأنفال: ٣٠) ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥) وكما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظائر هذا كثير فى كلام العرب، ولما أراد تعالى المبالغة فى وصف ما يفعله به من الثواب والمجازاة على تقربه بالكثرة والزيادة، كنى عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال: باعاً وذراعاً، إشارة إلى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها» .اهـ.

وقال فى المجلس ٤٥ جـ٣ ص٤٦ - ٥٠ ما نصه: «إن سأل سائل عن معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩) وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٧) وما شاكل ذلك من آى القرآن المتضمنة لذكر الوجه... الجواب: قلنا: الوجه ينقسم فى اللغة العربية إلى أقسام: فالوجه المركب فيه العينان من كل حيوان، والوجه أيضاً: أول الشىء وصدره ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ (آل عمران: ٧٢) أى أول النهار، ومنه قول الربيع بن زياد:

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهارِ

أى غداة كل يوم، وقال قوم: وجه نهار: اسم موضع، الوجه: القصد بالعقل؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ (النساء: ١٢٥)، وقال الفرزدق:

وأسلمت وجهى حين شُدت ركائبى إلى آل مروان بناة المكارمِ

أى: جعلت قصدى وإرادتى لهم، وأنشد الفراء:

استغفر الله ذنبًا لست محصيه ربَّ العباد إليه الوجه والعملُ

أى القصد، ومنه قولهم فى الصلاة: وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض، أى قصدت قصدى بصلاتى وعملى، وكذلك قوله تعالى ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ**﴾ (الروم: ٤٣).

والوجه: الاحتيال فى الأمر، من قوله: كيف الوجه لهذا الأمر، وما الوجه فيه، أى الحيلة، والوجه: الذهاب والجهة والناحية، قال حمزة بن بيض الحنفى:

أى الوجوه انتجعت؟ قلت لهم لأى وجه إلا إلى الحكم

متى يقل صاحبًا سرادقه هذا ابن بيض بالباب يبتسم

والوجه: القدر والمنزلة، ومنه قولهم: لفلان وجه عريض، وفلان أوجه من فلان، أى أعظم قدرًا وجاهًا، ويقال: أوجهه السلطان، إذا جعل له جاهًا، قال امرؤ القيس:

ونادمت قيصر فى ملكه فأوجهنى وركبت البريدا

يقال: حمل فلانٌ فلانًا على البريد إذا هيأ له فى كل مرحلة مركبًا ليركبه، فإذا وصل إلى المرحلة الأخرى نزل عن المعيى وركب المرفّه... وهكذا إلى أن يصل إلى مقصده.

والوجه: الرئيس المنظور إليه، يقال: فلان وجه القوم وهو وجه عشيرته، ووجه الشيء: نفسه وذاته، قال أحمد بن جندل:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة فأفلت منها وجهه عتد بهد[1]

أراد أفلته ونجاه، ومن ذلك قولهم: إنما أفعل ذلك لوجهك، ويدل أيضًا على أن الوجه يعبر به عن الذات قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾ (القيامة: ٢٢ - ٢٥)، وقوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ**﴾ (الغاشية: ٨، ٩) لأن جميع ما أضيف إلى الوجوه

---

(١) هكذا بالأصل ولا يظهر لقوله (عتد بهد) معنى، وأصل البيت بخلاف ذلك، راجع ما كتب على البيت بهامش الأمالى.

فى ظاهر الآى من النظر والظن والرضا لا يصح إضافته على الحقيقة إليها، وإنما يضاف إلى الجملة، فمعنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ أى كل شىء هالك إلا إياه، فكذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧)، لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل ذى، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٧٨) لما كان اسمه غيره... ويمكن فى قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ وجه آخر - وقد روى عن بعض المتقدمين - وهو أن يكون المراد بالوجه ما يقصد به إلى الله تعالى، ويوجه به إليه، نحو القربة إليه جلت عظمته، فيقول: لا تشرك بالله والا تدع إلهًا غيره؛ فإن كل فعل يتقرب به إلى غيره، ويقصد به سواه فهو هالك باطل، وكيف يسوغ للمشبهة أن يحملوا هذه الآية والتى قبلها على الظاهر؟ أوليس ذلك يوجب أنه تعالى يفنى ويبقى وجهه، وهذا كفر وجهل من قائله... فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ (الإنسان: ٩) وقوله: ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ٢٠) وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩) فمحمول على أن هذه الأفعال مفعولة له، ومقصود بها ثوابه والقربة إليه، والزلفة عنده، فأما قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) فيحتمل أن يراد به فثم الله، لا على معنى الحلول، ولكن على معنى التدبير والعلم، ويحتمل أيضًا أن يراد به فثم رضا الله وثوابه والقربة إليه، ويحتمل أن يكون المراد بالوجه الجهة، ويكون الإضافة بمعنى الملك، والخلق، والإنشاء، والإحداث؛ لأنه عز وجل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) أى أن الجهات كلها لله، وتحت ملكه، وكل هذا واضح بين بحمد الله... اهـ.

ونراه يقول فى المجلس ١٩ جـ٢ ص٥٣ - ٥٦ ما نصه: إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢) فقال: أى تمدح فى سرعة الحساب وليس بظاهر وجه المدحة فيه؟ الجواب: قلنا فى ذلك وجوه: **أولها**: أن يكون المعنى أنه سريع الحساب للعباد على أعمالهم، وأن وقت الجزاء قريب وإن تأخر، ويجرى مجرى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ (النحل: ٧٧) وإنما جاز أن يعبر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب؛ لأن ما

يجازى به العبد هو كفؤ لفعله وبمقداره، فهو حساب له إذا كان مماثلا مكافئًا، ومما يشهد بأن فى الحساب معنى المكافأة قوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ (النبأ: ٣٦) أى عطاء كافيًا، ويقال: أحسبنى الطعام يحسبنى إحسابًا إذا كفانى، قال الشاعر:

وإذ لا ترى فى الناس حسنًا يفوتها وفى الناس حسنًا لو تأملت محسب

معناه كاف - **وثانيها**: أن يكون المراد أنه عز وجل يحاسب الخلق جميعًا فى أوقات يسيرة، ويقال: إن مقدار ذلك حلب شاة؛ لأنه تعالى لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة غيره، بل يكلمهم جميعًا، ويحاسبهم كلهم على أعمالهم فى وقت واحد، وهذا أحد ما يدل على أنه تعالى ليس بجسم، وأنه لا يحتاج فى فعل الكلام إلى آلة؛ لأنه لو كان بهذه الصفات - تعالى عنها - لما جاز أن يخاطب اثنين فى وقت واحد بمخاطبتين مختلفتين؛ ولكان خطاب بعض الناس يشغله عن خطاب غيره، ولكانت مدة محاسبته للخلق على أعمالهم طويلة غير قصيرة، كما أن جميع ذلك واجب فى المحدثين الذين يفتقرون فى الكلام إلى الآلات - **وثالثها**: ذكره بعضهم من أن المراد بالآية أنه سريع العلم بكل محسوب، وأنه لما كانت عادة بنى الدنيا أن يستعملوا الحساب والإحصاء فى أكثر أمورهم، أعلمهم الله تعالى أنه يعلم ما يحسبون بغير حساب، وإنما سمى العلم حسابًا؛ لأن الحساب إنما يراد به العلم، وهذا جواب ضعيف؛ لأن العلم بالحساب أو المحسوب لا يسمى حسابًا، ولو سمى بذلك لما جاز أيضًا أن يقال إنه سريع العلم بكذا؛ لأنه علمه بالأشياء مما لا يتجدد فيوصف بالسرعة - **ورابعها**: أن الله تعالى سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم؛ وذلك أنه يُسأل فى وقت واحد سؤلات مختلفة من أمور الدنيا والآخرة، فيجزى كل عبد بمقدار استحقاقه ومصلحته، فيوصل إليه عند دعائه ومسألته ما يستوجبه بحد ومقدار، فلو كان الأمر على ما يتعارفه الناس لطال العدد واتصل الحساب، فأعلمنا تعالى أنه سريع الحساب، أى سريع القبول للدعاء بغير إحصاء وبحث عن المقدار الذى يستحقه الداعى، كما يبحث المخلوقون للحساب والإحصاء، وهذا جواب مبنى أيضًا على دعوى أن قبول الدعاء يسمى حسابًا، ولم يعهد ذلك فى لغة، ولا عرف، ولا شرع، وقد كان يجب

على من أجاب بهذا الجواب، أن يستشهد على ذلك بما يكون حجة فيه، وإلا فلا طائل فيما ذكره، ويمكن فى الآية وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالحساب محاسبة الخلق على أعمالهم يوم القيامة، وموافقتهم عليها، وتكون الفائدة فى الإخبار بسرعته، الإخبار عن قرب الساعة، كما قال تعالى: ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وليس لأحد أن يقول: فهذا هو الجواب الأول الذى حكيتموه وذلك أن بينهما فرقًا؛ لأن الأول مبنى على أن الحساب فى الآية هو الجزاء والمكافأة على الأعمال، وفى هذا الجواب لم يخرج الحساب عن بابه، وعن معنى المحاسبة المعروفة، والمقابلة بالأعمال وترجيحها، وذلك غير الجزاء الذى يفضى الحساب إليه، وقد طعن بعضهم فى الجواب الثانى معترضًا على أبى على الجبائى فى اعتماده إياه؛ بأن قال: مخرج الكلام فى الآية على وجه الوعيد، وليس فى خفة الحساب وسرعة زمانه ما يقتضى زجرًا، ولا هو مما يتوعد بمثله، فيجب أن يكون المراد الإخبار عن قرب أمر الآخرة، والمجازاة على الأعمال، وهذا الجواب ليس أبو على المبتدئ به، بل قد حكى عن الحسن البصرى، واعتمده أيضًا قطرب بن المستنير النحوى، وذكره الفضل بن سلمة، وليس الطعن الذى حكيناه عن هذا الطاعن بمبطل له: لأنه اعتمد على أن مخرج الآية مخرج الوعيد، وليس كذلك؛ لأنه قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢) فالأشبه بالظاهر أن يكون وعدا بالثواب، وراجعًا إلى الذين يقولون: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أو يكون راجعًا إلى الجميع، فيكون المعنى أن للجميع نصيبًا مما كسبوا، فلا يكون وعيدًا خالصًا، بل إما أن يكون وعدًا خالصًا، أو وعدًا ووعيدًا، على أنه لو كان وعيدًا خالصًا على ما ذكر الطاعن لكان لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ على تأويل من أراد قصر الزمان وسرعة الموافقة وجه وتعلق بالوعد والوعيد؛ لأن الكلام على كل حال متضمن لوقوع المحاسبة على أعمال العباد، والإحاطة بخيرها وشرها، وإن وصف الحساب مع ذلك بالسرعة، وفى هذا ترغيب وترهيب لا محالة؛ لأن من علم بأنه يحاسب بأعماله، ويوقف على جميلها وقبيحها

انزجر عن القبيح، وعمل ورغب فى فعل الواجب، فهذا ينصر الجواب، وإن كنا لا ندفع أن فى حمل الجواب على قرب المجازاة، وقرب المحاسبة على الأعمال ترغيبًا فى الطاعات، وزجرًا على المقبحات، فالتأويل الأول أشبه بالظاهر ونسق الآية، إلا أن التأويل الآخر غير مدفوع أيضًا ولا مردود. اهـ.

فأنت ترى فى المثالين الأولين كيف تخلص من ظاهر اللفظ الذى يمس عقيدته بمهارته اللغوية وتوسعه فى المعرفة بأشعار العرب، كما ترى فى المثال الثالث كيف لم يقبل قول من قال: إن معنى سريع الحساب سريع العلم، أو سريع القبول للدعاء؛ لأن القولين لم يستند ـ كما قال ـ إلى أصل لغوى، أو عرفى، أو شرعى.

دفعه لموهم الاختلاف والتناقض:

هذا، وإن الشريف المرتضى لا يقتصر فى أماليه على هذا النوع المذهبى من التفسير، بل نجده يعرض لبعض الإشكالات التى ترد على ظاهر النظم الكريم مما يوهم الاختلاف والتناقض، ثم يجيب عنها بدفقة بالغة، ترجع إلى مهارته فى اللغة وإحاطته بفنونها.

فمثلا فى المجلس الثالث جـ١ ص١٨ - ٢٠ يقول ما نصه: «تأويل آية» إن سأل سائل فقال: ما تقولون فى قوله تبارك وتعالى حكاية عن موسى: ﴿**فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾ (الشعراء: ٣٢) وقال تعالى فى موضع آخر: ﴿**وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ (القصص: ٣١)، والثعبان الحية العظيمة الخلقة، والجان الصغير من الحيات، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة؟ وكيف يجوز أن تكون العصا فى حال واحدة بصفة ما عظم خلقه من الحيات وبصفة ما صغر منها؟ وبأى شىء تزيلون التناقض عن هذا الكلام؟ (الجواب) أول ما نقوله: إن الذى ظنه السائل من كون الآيتين خبرًا عن قصة واحدة باطل، بل الحالتان مختلفتان، فالحال التى أخبر أن العصا فيها بصفة الجان، كانت فى ابتداء النبوة وقبل مصير موسى إلى فرعون، والحال التى صار العصا عليها ثعبانًا، كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة، والتلاوة تدل على ذلك، وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة، على أن قومًا من المفسرين قد تعاطوا الجواب على هذا السؤال؛ إما لظنهم أن القصة واحدة، أو لاعتقادهم أن

العصا الواحدة لا يجوز أن تنقلب فى حالتين، تارة إلى صفة الجان، وتارة إلى صفة الثعبان.

أو على سبيل الاستظهار فى الحجة، وأن الحال لو كانت واحدة على ما ظن لم يكن بين الآيتين تناقض، وهذا الوجه أحسن ما تكلف به الجواب لأجله؛ لأن الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو عن غفلة، وذكروا وجهين تزول بكل منهما الشبهة من تأويلها... **أحدهما**: أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان فى إحدى الحالتين لعظم خلقها، وكبر جسمها، وهول منظرها، وشبهها فى الآية الأخرى بالجان لسرعة حركتها، ونشاطها، وخفتها، فاجتمع لها مع أنها فى جسم الثعبان وكبر خلقه، نشاط الجان وسرعة حركته، وهذا أبهر فى باب الإعجاز وأبلغ فى خرق العادة، ولا تناقض بين الآيتين، وليس يجب إذا شبهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان، وإذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته، وقد قال الله تعالى ﴿**وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ**﴾ (الإنسان: ١٥، ١٦) ولم يرد تعالى أن الفضة قوارير على الحقيقة؛ وإنما وصفها بذلك لأنه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقتها، مع أنها من فضة، وقد تشبه العرب الشىء بغيره فى بعض وجوهه، فيشبهون المرأة بالظبية، وبالبقرة، ونحن نعلم أن فى الظباء والبقر من الصفات ما لا يستحسن أن يكون فى النساء، وإنما وقع التشبيه فى صفة دون صفة، ومن وجه دون وجه، **والجواب الثانى**: أنه تعالى لم يرد بذكر الجان فى الآية الأخرى الحية، وإنما أراد أحد الجن، فكأنه تعالى أخبر بأن العصا صارت ثعبانًا فى الخلقة وعظم الجسم، وكانت مع ذلك كأحد الجن فى هول المنظر وإفزاعها لمن شاهدها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾ ويمكن أن يكون فى الآية تأويل آخر استخرجناه، إن لم يزد على الوجهين الأولين لم ينقص عنهما، والوجه فى تكلفنا له، ما بيناه من الاستظهار فى الحجة، وأن التناقض الذى توهم زائل على كل وجه، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولا بصفة الجان وعلى صورته، ثم صارت بصفة الثعبان، ولم تصر كذلك ضربة واحدة، فتتفق الآيتان على هذا التأويل ولا يختلف حكمهما، وتكون الآية الأولى تتضمن ذكر الثعبان إخبارًا عن غاية حال العصا، وتكون الآية الثانية تتضمن

ذكر الحال التى ولى موسى منها هاربًا، وهى حال انقلاب العصا إلى خلقة الجان، وإن كانت بعد تلك الحال انتهت إلى صورة الثعبان، **فإن قيل:** على هذا الوجه: كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ**﴾ وهذا يقتضى أنها صارت ثعبانًا بعد الإلقاء بلا فصل؟ **قلنا:** ليس تفيد الآية ما ظن، وإنما فائدة قوله تعالى ﴿**فَإِذَا هِيَ**﴾ الإخبار عن قرب الحال التى صارت فيها بتلك الصفة، وأنه لم يطل الزمان فى مصيرها كذلك، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ**﴾ (يس: ٧٧) مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه خصيمًا مبينًا، وقولهم: ركب فلان من منزله فإذا هو فى ضيعته، وسقط من أعلا الحائط فإذا هو فى الأرض، ونحن نعلم أن بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زمانًا، وأنه لم يصل إليها إلا على تدريج وكذلك الهابط من الحائط، وإنما فائدة الكلام الإخبار عن تقارب الزمان وأنه لم يطل ولم يمتد. اهـ.

ليس فى الأمالى أثر للتشيع، وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلى الأئمة من آل البيت:

هذا، وإنا لا نكاد نجد أثرًا ظاهرًا للتشيع فيما فسره الشريف المرتضى من الآيات فى أماليه، رغم أنه من شيوخ الشيعة وعلمائهم، غير أنَّا نجد منه محاولة جدية، يريد من ورائها أن يثبت أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ، ومن كلام غيره من أئمة الشيعة وغيرهم، وذلك حيث يقول فى المجلس العاشر جـ١ ص١٠٣ - ١٠٤ ما نصه: اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين علىٍّ عليه السلام وخطبه وأنها تتضمن من ذلك ما لا مزيد عليه ولا غاية وراءه، ومن تأمل المأثور فى ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعدُ فى تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول، وروى عن الأئمة من أبنائه عليهم السلام ما لا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذى فى بعضه شفاء للصدور السقيمة، ونتاج للعقول العقيمة، ونحن نقدم على ما نريد ذكره شيئًا مما يروى عنهم فى هذا الباب. . . ثم ساق أشياء كثيرة منها ما نصه: وروى صفوان بن يحيى قال: دخل أبو قرة المحدث

على أبى الحسن الرضا عليه السلام، فسأله عن أشياء من الحلال والحرام، والأحكام والفرائض، حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا: أن الله قسم الكلام والرؤية، فقسم لموسى عليه السلام الكلام، ولمحمد ﷺ الرؤية، فقال الرضا عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين ـ الجن والإنس ـ أنه ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ (الأنعام: ١٠٣) ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه: ١١٠)، و ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ (الشورى: ١١)؟ أليس محمد نبيا صادقا؟ قال: بلى، قال: وكيف يجىء رجل إلى الخلق جميعًا فيخبرهم أنه جاء من عند الله يدعوهم إليه بأمره يقول: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ ثم يقول: سأراه بعينى، وأحيط به علمًا، ألا تستحيون؟ ما قدرت ترميه بهذا، أن يكون يأتى عن الله بشىء، ثم يأتى بخلافه من وجه آخر، قال أبو قرة: فإنه يقول: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ**﴾ (النجم: ١٣، ١٤) قال عليه السلام: ما قبل هذه الآية يدل على ما رأى حيث يقول ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ**﴾ (النجم: ١١) يقول ما كذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿**لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ (النجم: ١٨) وآيات الله غير الله، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم، فقال أبو قرة: فأكذب بالرؤية؟ فقال الرضا عليه السلام: إن القرآن كذبها، وما أجمع عليه المسلمون أنه لا يحاط به علما، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شىء. اهـ.

. . . ثم قال بعد قليل: وروى أن شيخًا حضر صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام، أكان بقضاء من الله تعالى وقدر؟ قال له: نعم يا أخا أهل الشام، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئًا، ولا هبطنا واديًا، ولا علونا تلعة، إلا بقضاء من الله وقدر، فقال الشامى: عند الله أحتسب عناى يا أمير المؤمنين، وما أظن أن لى أجرا فى سعيى إذا كان الله قضاه علىَّ وقدره، فقال له عليه السلام: إن الله قد أعظم لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون، وعلى مقامكم وأنتم مقيمون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين، ولا عليها مجبرين، فقال الشامى: كيف ذاك والقضاء والقدر ساقانا، وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟ فقال عليه السلام: ويحك يا أخا أهل الشام، لعلك ظننت قضاءً

لازما، وقدرًا حاكمًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهى، ولما كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسىء، والمسىء أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة عبدة الأوثان، وحزب الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور، وقدرية هذه الأمة ومجوسها، إن الله أمر عباده تخييرًا، ونهاهم تحذيرًا، وكلف يسيرًا، وأعطى على القليل كثيرًا، ولم يُطع مكرهًا، ولم يُعص مغلوبًا، ولم يكلف عسيرًا، ولم يرسل الأنبياء لعبًا، ولم ينزل الكتب لعباده عبثًا ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧)، قال الشامى: فما القضاء والقدر الذى كان مسيرنا بهما وعنهما؟ قال: الأمر من الله بذلك والحكم، ثم تلا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨) فقام الشامى فرحًا مسرورًا لما سمع هذا المقال، وقال: فرجت عنى، فرج الله عنك يا أمير المؤمنين، وجعل يقول:

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته ... يوم الحساب من الرحمن غفرانا

أوضحت من أمرنا ما كان ملتبسًا ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا

انتهى.

وهكذا يذكر الشريف المرتضى من الأخبار عن أهل البيت وعن غيرهم ما يستدل به على أن أصول المعتزلة مستمدة من كلامهم، والله يعلم مقدار ما عليه هذه الأخبار من الصحة، وأنا لا أكاد أصدقها بالنسبة لعلى ﷺ، فقد روى أبو القاسم بن حبيب فى تفسيره بإسناده: أن على بن أبى طالب ﷺ سأله سائل عن القدر فقال: دقيق لا تمش فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، فقال: بحر عميق لا تخض فيه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، فقال: سر خفى لله لا تفشه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر، فقال: على ﷺ: يا سائل، إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فقال: كما شاء، قال: إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء؟ فقال: كما شاء، فقال: يا سائل لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته؟ فإن قلت مع مشيئته ادعيت الشركة معه، وإن قلت دون مشيئته، استغنيت عن مشيئته، وإن قلت فوق مشيئتك، كانت مشيئته غالبة على مشيئته، ثم قال: ألست تسأل الله العافية؟ فقال: نعم، فقال: فعن ماذا تسأله العافية؟ أمن بلاء هو ابتلاك به؟ أو من بلاء

غيره ابتلاك به؟ قان بلاء ابتلانى به، فقال: ألست تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم؟ قال: بلى، قال: تعرف تفسرها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، علمنى مما علمك الله، فقال: تفسيره: أن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله عز وجل، يا سائل: إن الله يُسقِم ويداوى، منه الداء، ومنه الدواء، اعقل عن الله، فقال السائل: عقلت، فقال له: الآن صرت مسلمًا، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده، ثم قال علىٌّ: لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه، ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه؛ فإنهم يهود هذه الأمة. اهـ[1].

وبعد... فهذه هى أمالى الشريف المرتضى، وهى وإن كانت لا تصور لنا تفسيراً متناولا للقرآن كله إلا أنها يمكن أن تكشف لنا عن مبلغ تأثر صاحبها بعقيدته الاعتزالية فى بحوثه التفسيرية التى عالجها، كما تكشف لنا عن مبلغ ما كان لفنه الأدبى من الأثر الظاهر فى التفسير.

* * *

٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو: أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى، الإمام الحنفى المعتزلى، الملقب بجار الله[2] ولد فى رجب سنة ٤٦٧هـ سبع وستين وأربعمائة من الهجرة بزمخشر، قرية من قرى خوارزم، وقدم بغداد، ولقى الكبار وأخذ عنهم، دخل خراسان مراراً عديدة، وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسلم له واعترف به، ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.

---

(١) التبصير فى الدين ص٥٨.

(٢) لقب بذلك لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زمانا حتى عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه.

ليس عجيبًا أن يحظى الزمخشرى بكل هذا وهو الإمام الكبير فى التفسير والحديث والنحـو واللغة والأدب، وصـاحب التـصانـيف البديعـة فى شـتى العلوم، ومن أجل مصنفاته: كتابه فى تفسير القرآن العزيز الذى لم يصنف قبله مثله، وهو ما نحن بصدده الآن، والمحـاجاة فى المسـائل النحوية، والمفـرد والمركب فى العربيـة، والفائق فى تفسير الحديث، وأساس البلاغـة فى اللغة، والمفصل فى النحو، ورءوس المسائل فى الفقه... وغير هذا كثير من مؤلفاته.

قال صاحب وفيات الأعيان: «كان الزمخشرى معتزلى الاعتقاد، متظاهرًا باعتزاله، حتى نقل عنه: أنه كان إذا قصد صاحبًا له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له، أبو القـاسم المعـتزلى بـالباب، وأول مـا صنف كتـاب الكشاف كـتب استفتاح الخطبة «الحمد الله الذى خلق القرآن» فيقال: إنه قيل له: متى تركته على هذه الهيئـة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه، فـغيَّره بقوله: «الحمـد لله الذى جعل القرآنَ» وجـعل عندهم بمـعنى خلق، والبـحث فى ذلك يطول، ورأيت فى كـثيـر من النسخ «الحمد لله الذى أنزل القرآن» وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف». اهـ.

الفيـروزآبـادى وصـاحب القامـوس يقول فيـما علقـه على خطبه الكشـاف: «قال بـعض الـطلبـة ـ وأثبـته بعض المـعتنين بالكشـاف فى تعـليق له عليه ـ إنه كـان فى الأصل كتب (خلق) مـكان (أنزل) وأخيرًا غـيَّره المصنف أو غـيره حـذرًا عن الشناعة الواضحة، وهذا قول ساقط جدا وقد عرضـته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين: **أحدهما**: أن الزمخشرى لم يكن أهلا لأن تفوته اللطائف المذكورة فى أنزل وفى نزل فى مفتـتح كلامه ووضع كلمة خالية من ذلـك، **والثـانى**: أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال، وإنمـا كان يفتخر بذلك، وأيضًا أتى عقيبـه بما هو صريح فى المعنى[1] ولم يبال بأنه قبيـح، وقد رأيت النسخة التى بخط يده بمدينة السـلام، مختبئـة فى تربة الإمام أبى حنيفة، خـالية عن أثر كشط وإصلاح». اهـ[2].

---

(١) حيث قال: أنشأه كتبا ساطعًا بيانه.

(٢) كشف الظنون جـ٢ ص١٧٦.

وكانت وفاة الزمخشرى رحمه الله ليلة عـرفة سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات من جملتها:

فـأرض مكة ندى الدمع مـقلتـهـا حزنا لفـرقة جـار الله محـمود[1]

* * *

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه

قصة تأليف الكشاف:

قبل الخوض فى التعريف بالكشاف للزمخشرى، أرى أن أسوق لك قصة تأليفه وما كـان من الزمخـشرى من التـردد بين الإقـدام عليه والإحـجام عنه أولا . . . ثم العـزم المصمم منه على تأليفه حتى أخرجه للناس كتابًا جامعًا نافعًا.

أسوق هذه القصة نقلا عن الـزمخشرى فى مقدمة كشافـه، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر، وكشف عن السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه فى التفسير فقال:

«ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجـية العدلية، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلىَّ فى تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب، أفاضوا فى الاستحسان والتـعجب، واستطيروا شوقًا إلى مصنف يضم أطرافًا من ذلك، حتى اجـتمعـوا إلى مقترحـين أن أملى عليهم الكشف عن حـقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، فى وجوه التأويل، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد، والذى حـدانى إلى الاستعفاء ـ على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليـه على واجبة، لأن الخوض فيـه كفرض العين ـ مـا أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى الـبيان والمعـانى، فأمليت عليهم مسـألة فى الفواتح، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة، وكان كلاما مبسوطًا كثير السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم، وأن يكون لهم منارًا ينتحونه، ومثالا يحتذونه، فلمـا صمم العزم على معاودة جواز الله، والإناخة

(١) انظر ترجـمة الزمـخشرى فـى وفيات الأعـيان جـ٢ ص٥٠٩ - ٥١٣، وشـذرات الذهب جـ٤ ص١٢١، وطبقات المفسرين للسيوطى ص٤١.

بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة، وجدت فى مجتازى بكل بلد من فيه مسكة من أهلها ـ وقليل ما هم ـ عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى، متطلعين إلى إيناسه، حراصًا على اقتباسه، فهز ما رأيت من عطفى، وحرك الساكن من نشاطى، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية: الأمير الشريف، الإمام شرف آل رسول الله، أبى الحسن بن حمزة بن وهاس ـ أدام الله مجده ـ وهو النكتة والشامة فى بنى الحسن، مع كثرة محاسنهم، وجموم مناقبهم، أعطش الناس كبدًا، وألهبهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه فى مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ما هو فيه من المشادة، بقطع الفيافى وطى المهامة، والإفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض، فقلت: قد ضاقت على المستعفى الحيل، وعيَّت به العلل، ورأيتنى قد أخذت منى السن، وتقعقع السن، وناهزت العشر التى سمتها العرب دقاقة الرقاب[1]، فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى، مع ضمان التكثير من الفوائد، والفحص عن السرائر، ووفق الله وسدد، ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق ﷺ[2] وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم، وبركة أفيضت علىَّ من بركات هذا الحرم المعظم، أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سببًا ينجينى، ونورًا لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى، ونعم المسئول[3].

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشرى نفسه.

قيمة الكشاف العلمية:

وأما قيمة هذا التفسير، فهو ـ بصرف النظر عما فيه من الاعتزال ـ تفسير لم يسبق مؤلفه إليه؛ لما أبان فيه من وجوه الإعجاز فى غير ما آية من القرآن؛ ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته، وليس كالزمخشرى من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال

---

(١) وهى ما بين الستين إلى السبعين، وهى معترك المنايا.

(٢) وهى سنتان وأربعة أشهر أو وثلاثة أشهر وتسع ليال، وفى كشف الظنون جـ٢ ص١٧٢ أنه فرغ من تأليفه ضحوة الاثنين الثانى من ربيع الآخر فى عام ثمان وعشرين وخمسمائة، وكذا فى خاتمة الكشاف.

(٣) الكشاف جـ١ ص١٥ - ١٩.

القرآن وسحر بلاغته؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم، لا سيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب، والمعرفة بأشعارهم، وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة، والبيان، والإعراب، والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوبًا جميلا، لفت إليه أنظار العلماء وعلّق به قلوب المفسرين.

هذا وقد أحس الزمخشرى إحساسًا قويًا بضرورة الإلمام بعلمى المعانى والبيان قبل كل شىء، لمن يريد أن يفسر كتاب الله عز وجل، وجهر بذلك فى مقدمة الكشاف فقال: (. . .ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح، من غرائب نكت يلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سبكها، علم التفسير، الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم ـ كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن ـ فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرّية[1] أحفظ، والوعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن، وهما: علم المعانى، وعلم البيان، وتمهل فى ارتيادهما آونة، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجج الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ـ بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ، جامعًا بين أمرين: تحقيق وحفظ، كثير المطالعات، طويل المراجعات، قد رجع زمانا ورُجع إليه، ورَدّ ورُد عليه، فارسًا فى علم الإعراب، مقدمًا فى حملة الكتاب، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها، يقظان النفس، درا كاللمحة وإن لطف شأنها، منتبهًا على الرمزة وإن خفى مكانها، لاكزًا جاسيًا، ولا غليظا جافيًا، متصرفًا ذا دراسة بأساليب النظم والنثر، مرتاضًا غير ريض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب

---

(١) القرية: بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة، أحد فصحاء العرب واسمه أيوب؛ والقرية اسم أمه.

الكلام ويؤلف، وكيف ينظم ويرصف، طالما دفع إلى مضايقه، ووقع فى مداحضه ومزالقه». اهـ[١].

وفى الحقيقة أن الزمخشرى قد جمع كل هذه الوسائل التى لا بد منها للمفسر، فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم فى تفسير القرآن (الكشاف عن حقائقه، المخلص من مضايقه، المطلع على غوامضه، المصبت فى مداحضه؛ الملخص لنكته ولطائف نظمه، المنقر عن فقره وجواهر علمه، المكتنز بالفوائد المفتنة التى لا توجد إلا فيه، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه، مع الإيجاز، الحاذف للفضول، وتجنب المستكره المملول، ولو لم يكن فى مضمونه، إلا إيراد كل شيء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار وجوهره يتمنى العثور عليها غاصة البحار)[٢].

ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلى بهذه الأوصاف قال متحدثًا بنعمة الله:

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد   وليس فيها لعمرى مثل كشافى
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته   فالجهل كالداء والكشاف كالشافى[٣]

وإذا كان الزمخشرى قد اعتز بكشافه، وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له، وإطراء عليه، فإنا نعذره فى ذلك ولا نلومه عليه؛ فالكتاب وحدٌ فى بابه، وعلم شامخ فى نظر علماء التفسير وطلابه، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التى يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال، وإليك مقالات بعض العلماء فى الكشاف:

مقالة ابن بشكوال فى الكشاف:

وإنا لنجد فى مقدمة تفسير أبى حيان، مقارنة للحافظ أبى القاسم بن بشكوال، بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى، ووصفًا دقيقًا وتحليلا عميقًا لكتاب الكشاف يقول فيها:

«وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص، وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص، إلا أن الزمخشرى قائل بالطفرة، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبى المقادة

---

(١) الكشاف جـ١ ص١٢ - ١٥.
(٢) الكشاف جـ٢ ص٦١٠.
(٣) كشف الظنون جـ٢ ص١٧٣.

فأعجزه اعتياصه، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه، فتركه عقلا لمن يصطاده، وغفلا لمن يرتاده، وربما ناقض هذا المنزع، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح، وأجال فيه كلامًا، ورمى نحو غرضه سهامًا، هذا مع ما فى كتابه من نصرة مذهبه، وتقحم مرتكبه، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه، ونسبة ذلك إليه، فمغتفر إساءته لإحسانه، ومصفوح عن سقطه فى بعضٍ، لإصابته فى أكثر تبيانه». اهـ[1].

مقالة الشيخ حيدر الهروى:

كذلك نجد الشيخ حيدر الهروى ـ أحد الذين علقوا على الكشاف ـ وصفًا دقيقًا لكتاب الكشاف وهذا نصه:

. . . وبعد، فإن كتاب الكشاف؛ كتاب عليّ القدر رفيع الشأن لم ير مثله فى تصانيف الأولين؛ ولم يرد شبيهه فى تآليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين، ما قصر فى قوانين التفسير وتهذيب براهينه، وتمهيد قواعده وتشييد معاقده، وكل كتاب بعده فى التفسير، ولو فرض أنه لا يخلو عن النقير والقطمير، إذا قيس به لا تكون له تلك الطلاوة، ولا يوجد فيه شيء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفى أثره، ويسأل خبره، وقلما غير تركيبًا من تراكيبه إلا وقع فى الخطأ والخطل، وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه ولا أثر؛ ولذلك قد تداولته أيدى النظار، فاشتهر فى الأقطار، كالشمس فى وسط النهار، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية، وإغفاله عن إجمال أرباب الكمال، أصابته عين الكلالة، فالتزم فى كتابه أمورًا أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره ورواءه، فتكدرت مشارعه الصافية، وتضيقت موارده الضافية، وتزلزلت رتبه العالية.

منها: أنه كلما شرع فى تفسيره آية من الآى القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، وتعسفات جامدة، وصرف الآية ـ بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة ـ عن الظاهر، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى، وليته يكتفى بقدر الضرورة، بل يبالغ فى الإطناب والتكثير؛ لئلا يوهم

---

(١) البحر المحيط جـ١ ص١٠.

بالعجز والتقصير، فتراه مشحونًا بالاعتزالات الظاهرة التى تتبادر إلى الأفهام، والخفية التى لا تتسارق إليها الأوهام، بل لا يهتدى إلى حبائله إلا ورَّاد بعد وراد من الأذكياء الحذاق، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق، وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة.

ومنها: أنه يطعن فى أولياء الله المرتضين من عباده، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، ونعم ما قال الرازى فى تفسير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤) خاض صاحب الكشاف فى هذا المقام فى الطعن فى أولياء الله تعالى، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله فى كتب الفحش، فهب أنه اجترأ على الطعن فى أولياء الله تعالى، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش فى تفسير كلام الله المجيد.

ومنها: أنه.. أورد فيه أبياتًا كثيرة وأمثالا غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها، وأورد على المزاج البارد نبراسها، وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد لا سيما عند أهل العدل والتوحيد.

ومنها: أنه يذكر أهل السنة والجماعة ـ وهم الفرقة الناجية ـ بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد، وهذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الأبرار»[(١)]. اهـ.

مقالة أبى حيان:

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة النمل ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يتعقب الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ثم يصفه بقوله: وهذا الرجل وإن كان أوتى من علم القرآن أوفر حظ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ، ففى كتابه فى التفسير أشياء منتقدة، وكنت قريبًا من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيدًا فى شغل الإنسان نفسه بكتاب الله، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشرى، فذكرت أشياء من محاسنه، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه، ورأيت

---

(١) كشف الظنون جـ٢ ص١٧٦، ١٧٧.

إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابى هذا، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح، فقلت بعد ذكر ما مدحته به:

ولكنه فيه مجال لناقد ... وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا ... ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ... ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب فى المعنى الوجيز دلالة ... بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا
يقوِّل فيها الله ما ليس قائلا ... وكان محبًّا فى الخطابة وامقا
ويخطئ فى تركيبه لكلامه ... فليس لما قد ركبوه موافقا
وينسب إبداء المعانى لنفسه ... ليوهم أغمارًا وإن كان سارقا
ويخطئ فى فهم القرآن لأنه ... يجوز إعرابًا أبى أن يطابقا
وكم بين من يؤتى البيان سليقة ... وآخر عاناه فما هو لاحقا
ويحتال للألفاظ حتى يديرها ... لمذهب سوء فيه أصبح مارقا
فيا خسره شيخ تخرق صيتهـ ... مغارب تخزيق الصبا ومشارقا
لئن لم تداركه من الله رحمة ... لسوف يرى للكافرين مرافقا(١)

انتهى.

وأحسب أن القارئ لا يفوته أن يدرك ما فى الوصف من قسوة على الزمخشرى، وما فيه من اتهامه بقلة بضاعته فى البيان والعربية، مع أنه سلطان هذه الطريقة فى التفسير غير مدافع.

مقالة ابن خلدون:

وهذا هو العلامة ابن خلدون، نجده عندما تكلم عن القسم الثانى من التفسير، وهو ما يرجع إلى اللسان، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب، يقول: ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له فى آى القرآن من طرق

---

(١) البحر المحيط جـ٧ ص٨٥.

البلاغة، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انجراف عنه، وتحذير للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة، وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسنًا للحجاج عنها، فلا جرم أنه مأمون من غوائله، فتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان، ولقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليف لبعض العراقيين، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا، وتتبع ألفاظه، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة، لا على ما يراه المعتزلة، فأحسن فى ذلك ما شاء، ما إمتاعه فى سائر فنون البلاغة، وفوق كل ذى علم عليم». اهـ[١].

مقالة التاج السبكى:

وأخيرًا... فهذا هو العلامة تاج الدين السبكى يقول فى كتابه معيد النعم ومبيد النقم: «واعلم أن الكشاف كتاب عظيم فى بابه، ومصنفه إمام فى فنه، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته، يضع من قدر النبوة كثيرًا، ويسىء أدبه على أهل السنة والجماعة، والواجب كشط ما فى الكشاف من ذلك كله، ولقد كان الشيخ الإمام - يعنى والده تقى الدين السبكى - يقرئه، فإذا انتهى إلى كلامه فى قوله تعالى فى سورة التكوير الآية (١٩): ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ اعرض عنه صفحًا، وكتب ورقة حسبة سماها: «سبب الانكفاف عن إقراء الكشاف» وقال فيها: قد رأيت كلامه على قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾[٢]، وكلامه فى سورة التحريم[٣] وغير ذلك من الأماكن التى أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى؛ سيدنا رسول الله ﷺ، فأعرضت عن إقراء كتابه به حياء من النبى ﷺ، مع ما فى كتابه من الفوائد والنكت البديعة». اهـ[٤].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٩١.

(٢) فى الآية (٤٣) من سورة التوبة؛ وفيه يقول الزمخشرى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾ كناية عن الجناية؛ لأن العفو مرادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت. اهـ. من الكشاف جـ٢ ص٣٤ ط أميرية سنة ١٣١٨هـ.

(٣) حيث يقول عند تفسيره للآية (١) من سورة التحريم ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلخ، وكان هذا زلة منه؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله.. اهـ. من الكشاف جـ٣ ص١٩٨ ط أميرية سنة ١٣١٨هـ.

(٤) النماذج الخيرية ص٣١٠.

هذه هى شهادات بعض العلماء فى تفسير الكشاف بما له وما عليه، ومهما يكن من شىء، فالكل مجمع عن أن الزمخشرى هو سلطان الطريقة اللغوية فى تفسير القرآن، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه، ومن أجلها طار كتابه فى أقصى المشرق والمغرب، واشتهر فى الآفاق، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر، وارتشف من معينه الفياض، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه: فمن مميز لما جاء فيه من الاعتزال، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب، ومن محش وضح ونقح واستشكل وأجاب، ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وانتقد، ومن مختصر لخص وأوجز.

ولا أطيل بذكر الكتب التى عنى فيها أصحابها بهذه النواحى، ويكفى أن أقول: إن من أهم الحواشى على تفسير الكشاف، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى، المتوفى سنة ٧٤٣هـ ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة، وهى وتقع فى ست مجلدات كبارا، وهى التى أشار إليها ابن خلدون فى مقالته السابقة، وقد سماها صاحبها «فتوح الغيب فى الكشف عن قناع الريب» ومن يريد الوقوف على كل ما كتب على الكشاف فليرجع إلى كشف الظنون جـ٢ ص١٧٣ - ١٧٧ وسيراها كثيرة، كثرة يضيق المقام عن ذكرها.

هذا، وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتى من خصومه، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التى أغرت العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات، لدليل قاطع على أنه تفسير فى أعلى القمة.

وليس عجيبًا أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب فى التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن «وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذى يفهم من التركيب اللفظى، كل هذا فى قالب أدبى رائع، وصوغ إنشائى بديع، لا يتفق لغير الزمخشرى إمام اللغة وسلطان المفسرين، وإذا كان الزمخشرى قد تأثر فى تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعانى التى تشهد لمذهبه، أو تأولها بحيث لا تتنافى معه على الأقل، فإنه فى محاولاته هذه قد برهن بحق على براعته وقوة ذهنه، وصور لنا مقدار ما كان من التأثر والتأثير بين التفسير وهوى العقيدة، وما كان لنا

بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير، تأثراً بمذهبنا السنى، كراهة لمذهب المعتزلة، وبخاصة بعد ما هو ثابت وواقع من ثناء كثير من علماء أهل السنة عليه ـ فيما عدا ناحيته الاعتزالية ـ واعتماد معظم مفسريهم عليه وأخذهم منه.

فالكشاف ـ والحق يقال ـ قد بلغ فى نجاحه مبلغًا عظيمًا، ليس فقط لأنه لا يمكن الاستغناء عنه فى بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة، بل لأنه استطاع أيضًا أن يكون معترفًا به من الأصدقاء والخصوم على السواء ككتاب أساسى للتفسير، وأن يأخذ طابعًا شعبيًا يغرى الكل ويتسع للجميع.

وكما اعتبرنا تفسير الطبرى ممثلا للقمة العالية فى التفسير بالمأثور فأطنبنا فى وصفه وأطلنا الكلام عليه، فهنا كذلك سنعتبر الكشاف للزمخشرى القمة العالية للتفسير الاعتزالى؛ لأنه الكتاب الوحيد من تفاسير المعتزلة الذى وصل إلينا متناولا للقرآن كله، وشاملا للأفكار الاعتزالية التى تتصل بالقرآن الكريم باعتباره أصل العقيدة ومعتمد ما يتشعب عنها من آراء وأفكار؛ ولهذا أرانى مضطرًا إلى الإطناب والإفاضة فى كلامى عن هذا التفسير، ودراستى له من جميع نواحيه بمقدار ما يفتح الله.

اهتمام الزمخشرى بالناحية البلاغية للقرآن:

عندما يلقى الإنسان نظرة فاحصة على العمل التفسيرى الذى قام به العلامة الزمخشرى فى كشافه، يظهر له من أول وهلة، أن المبدأ الغالب عليه فى جهوده التفسيرية، كان فى تبيين ما فى القرآن من الثروة البلاغية التى كان لها كبير الأثر فى عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله، والذى يقرأ ما اورده الزمخشرى عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات، والمجازات، والأشكال البلاغية الأخرى، يرى أن الزمخشرى كان يحرص كل الحرص على أن يبرز فى حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه، وإنا لنكاد نقطع ـ إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج ما يحتويه القرآن من ثروة بلاغية فى المعانى والبيان ـ بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالا فى جهوده فى هذا الصدد من تفسير الزمخشرى.

ولقد كانت لعناية الزمخشرى بهذه الناحية فى تفسيره من الأثر بين المفسرين وبين مواطنيه من المشارقة ما هو واضح بيِّن.

أما أثره بين المفسرين، فإن كل من جاء بعده منهم ـ حتى من أهل السنة ـ استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لا يلتفتون إليها لولاه، فأوردوا فى تفسيرهم ما ساقه الزمخشرى فى كشافه من ضروب الاستعارات، والمجازات والأشكال البلاغية الأخرى، واعتمدوا ما نبه عليه الزمخشرى من نكات بلاغية، تكشف عما دق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه.

وليس عجيبًا أن يعتمد خصوم الزمخشرى كغيرهم على كتاب الكشاف، وينظروا إليه كمرجع مهم من مراجع التفسير فى هذه الناحية، بعد ما قدروا هذه الناحية البلاغية فى تفسير القرآن، وبعد ما علموا أن الزمخشرى هو سلطان هذه الطريقة غير مدافع.

وأما أثره بين مواطنيه من المشارقة، فإنهم أخذوا عنه هذا الفن البلاغى وبرعوا فيه، حتى سبقوا من عداهم من المغاربة، وقد بيَّن ابن خلدون فى مقدمته ـ عند الكلام عن علم البيان ـ ما لتفسير الزمخشرى من الأثر فى براعة المشارقة فى هذا الفن فقال:

«... وبالجملة، فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه ـ والله أعلم ـ أنه كمالى فى العلوم اللسانية، والصنائع الكمالية توجد فى العمران والمشرق أوفر عمرانًا من المغرب كما ذكرنا، أو نقول لعناية العجم ـ وهم معظم أهل المشرق ـ بتفسير الزمخشرى وهو كله مبنى على هذا الفن وهو أصله»(١). اهـ.

ثم إنا نستعرض هذه الروح البلاغية التى تسود فى تفسير الزمخشرى فنشهدها واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التى تجوز فى محل هذه الجملة من الإعراب، نبه على أن الواجب على مفسر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعانى ويحافظ عليها، ويجعل الألفاظ تبعًا لها، فقال ما نصه «... والذى هو أرسخ عرقًا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحًا وأن يقال: إن قوله: ﴿الٓمٓ﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة ثانية و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثالثة و ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم، حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها من آخية آخذا بعضها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٦٤٦.

بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقه لها... وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة، بيان ذلك، أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المبعوت بغاية الكمال، فكان تقريرًا لجهة التحدى وشدًا من أعضاده، ثم نفى عنه أنه يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة، وقيل لبعض العلماء: فيم لذتك؟ فقال: فى حجة تتبختر اتضاحًا، وفى شبهة تتضاءل افتضاحًا، ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينًا لا يحوم الشك حوله، وحقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحد من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السرى، من نكتة ذات جزالة، ففى الأولى: الحذف، والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفى الثانية: ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة: ما فى تقديم الريب على الظرف وفى الرابعة: الحذف، وضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد، وإيراده منكرًا، والإيجاد فى ذكر المتقين، زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه، وتبينًا لنكت تنزيله، وتوفيقًا للعمل بما فيه»[١]. انتهى.

تذرعه بالمعانى اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالى:

كذلك نرى الزمخشرى - كغيره من المعتزلة - إذا مر بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر، وأن يثبت للفظ معنًى آخر موجودًا فى اللغة.

فمثلا نراه عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ناظرة؛ لأنه لا يتفق مع مذهبه الذى لا يقول برؤية الله تعالى، ونراه يثبت له معنًى آخر هو التوقع والرجاء، ويستشهد على ذلك بالشعر العربى فيقول ما نصه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره، وهذا معنى تقديم المفعول، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: ١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٣٠) ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٣) ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨)

(١) الكشاف جـ١ ص٩٢ - ٩٤.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٤٥) ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى: ١٠) كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد، وفى محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم، فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم؛ لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظوراً إليه محال، فوجب حمله على معنًى يصح معه الاختصاص، والذى يصح معه، أن يكون من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى، تريد معنى التوقع والرجاء، ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما

وسمعت سروية[1] مستجدية بمكة وقت الظهر، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم، تقول: «عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم» والمعنى: أنهم لا يتوقون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا فى الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه». اهـ[2].

اعتماده على الفروض المجازية، وتذرعه بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نرى الزمخشرى يعتمد فى تفسيره على الفروض المجازية فى الكلام الذى يبدو فى حقيقته بعيداً وغريباً.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «وهو يريد بالأمانة الطاعة، فعظم أمرها، وفخم شأنها، وفيه وجهان:

أحدهما: أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال، قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها، وهو ما يتأتى من الجمادات، وأطاعت له الطاعة التى تصح منه وتليق بها، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجاداً، وتكويناً، وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة، كما قال: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١) وأما الإنسان، فلم تكن حاله فيم يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه ـ وهو حيوان عاقل صالح للتكليف ـ مثل حال تلك الجمادات فيم يصح منها

---

(١) فلعلها نسبة إلى سرو: محلة حمير.

(٢) الكشاف جـ٢ ص٥٠٩.

ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع، والمراد بالأمانة الطاعة؛ لأنها لازمة الوجود، كما أن الأمانة لازمة الأداء، وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز، وأما حمل الأمانة، فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها، ألا تراهم يقولون: ركبته الديون، ولى عليه حق، فإذا أداها لم تكن راكبة له ولا هو حاملا لها، ونحوه قولهم: لا يملك مولى نصراً، يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل، ومنه قول القائل:

أخوك الذى لا تملك الحس[1] نفسه وترفض عند المحفظات الكتائف

أى لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين ما فى يده، بل يبذل ذلك ويسمح به، ومنه قولهم: ابغض حق أخيك؛ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده، وإذا أبغضه أخرجه وأداه، فمعنى: ﴿**فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ**﴾ (الأحزاب: ٧٢) فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الإنسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها، ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤه.

والثانى: أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله، أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام، وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به، فأبى حمله والاستقلال به، وأشفق منه، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ (الأحزاب: ٧٢) حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها، ونحو هذا الكلام كثير فى لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم، من ذلك قولهم: «لو قيل للشحم أين تذهب لقال: أسوى العوج» وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائهم والجمادات، وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه؛ كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر السمن فيه تصويراً هو أوقع فى نفس السامع، وهى به آنس، وله أقبل وعلى حقيقته أوقف، وكذلك تصوير عظم الأمانة، وصعوبة أمرها، وثقل محملها، والوفاء بها. . .

---

(١) الحس: مصدر قولك حس له؛ أى دق له؛ والبيت لذى الرمة.

وهنا تقوم أمام الزمخشرى صعوبات ومشاكل يصورها لنا فى سؤاله:

«فإن قلت» قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى؛ لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضى على أحدهما، بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه المضى فى وجهة، وكل واحد من المُمثَّل والمُمثَّل به شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة، وليس كذلك ما فى هذه الآية؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم، فكيف صح بناء التمثيل على المحال؟ وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئًا والمشبه به غير معقول. اهـ.

ولكن الزمخشرى لا يقف طويلا أمام هذه الصعوبات، بل نراه يتخلص منها بكل دقة وبراعة حيث يقول: (قلت: الممثل به فى الآية، وفى قولهم: لو قيل للشحم أين تذهب، وفى نظائره، مفروض، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات، مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقل محمله، بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها). اهـ[(١)].

ثم إن هذه الطريقة التى يعتمد عليها الزمخشرى فى تفسيره، أعنى طريقة الفروض المجازية، وحمل الكلام الذى يبدو غريبًا فى ظاهره على أنه من قبيل التعبيرات التمثيلية أو التخييلية، قد أثارت حفيظة خصمه السنى ابن المنير الإسكندرى عليه، فاتهمه بأشنع التهم فى كثير من المراضع التى تحمل هذا الطابع، ونسبه فيها إلى قلة الأدب وعدم الذوق.

فمثلا عندما يعرض الزمخشرى لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحشر: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ نراه يقول «هذا تمثيل وتخييل كما مر فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ**﴾ وقد دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره»[(٢)]. اهـ.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) الكشاف جـ٢ ص٤٤٩.

ولكن هذا أغضب ابن المنير على الزمخشري فقال معقبًا عليه: (وهذا مما تقدم إنكاري عليه فيه، أفلا كان يتأدب بأدب الآية، حيث سمى الله هذا مثلا، ولم يقل: تلك الخيالات نضربها للناس؟ ألهمنا الله حسن الأدب معه، والله الموفق). اهـ[١].

ولكن الزمخشري ولع بهذه الطريقة؛ فمشى عليها من أول تفسيره إلى آخره، ولم يقبل المعانى الظاهرة التي يجوزها أهل السنة، بل ويرونها أقرب إلى الصواب من غيرها، وهو كل ما يذكر من المعانى لا يعدم مثلا عربيًا سائرًا، أو بيتًا من الشعر القديم يشهد لما يقوله، كما أنه لا ينفك عن التنديد بأهل السنة الذين يقبلون هذه المعانى الظاهرة ويقولون بها، وكثيرًا ما ينسبهم من أجل ذلك إلى أنهم من أهل الأوهام والخرافات[٢]، وإليك بعض الأمثلة لتقف على مقدار تمسكه بهذه الطريقة:

ففي سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (٢٥٥): ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ يذكر الزمخشري أربعة أوجه فى معنى الكرسي، يقول فى الوجه الأول منها: إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته، وما هو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط، ولا كرسي ثمة، ولا قعود، ولا قاعد، كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر: ٦٧) من غير تصور قبضة وطى ويمين، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه، وتمثيل حسن، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾. اهـ[٣].

وبطبيعة الحال لم يرتض ابن المنير هذا الكلام فتعقبه بقوله: «قوله فى الوجه الأول: إن ذلك تخييل للعظمة، سوء أدب فى الإطلاق، وبعد فى الإصرار؛ فإن التخييل إنما يستعمل فى الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق؛ فإن يكن معنى ما قاله صحيحًا فقد أخطأ فى التعبير عنه بعبارة موهمة، لا مدخل لها فى الأدب الشرعي، وسيأتي له أمثالها مما يوجبُ الأدبُ أن يجتنب». اهـ[٤].

وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧٢، ١٧٣): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن

---

(١) هامش الكشاف جـ٢ ص٤٤٩.

(٢) انظر ما قاله عند قوله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الآية ٣٦ جـ١ ص٣٠٢.

(٣) الكشاف جـ١ ص٢٧٨، ٢٧٩.

(٤) المرجع السابق (هامش).

بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ يقول ما نصه: وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ من باب التمثيل، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم، وقال لهم: ألست بربكم، وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله ﷺ وفى كلام العرب، ونظيره قوله تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠) ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١) وقوله:

إذا قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصبا قرقار

ومعلوم أنه لا قول وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى». اهـ[1].

ولكن ابن المنير السنى لم يرض هذا من الزمخشرى بطبيعة الحال، ولذا تعقبه بقوله (إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فكذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا، وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك). اهـ[2].

ويتصل بهذه الآية السابقة قوله تعالى فى الآية (٨) من سورة الحديد: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالزمخشرى يميل فى تفسير الميثاق هنا إلى المعنى الذى حمل عليه أخذ العهد فى آية الأعراف، فيقول: والمعنى: وأى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه، وينبهكم عليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج، وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان، حيث ركب فيكم العقول، ونصب لكم الأدلة، ومكنكم من النظر

---

(١) الكشاف جـ١ ص٥١٧.

(٢) هامش الكشاف جـ١ ص٥١٧.

وأزاح عللكم، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول، فما لكم لا تؤمنون؟). اهـ[(١)].

ولكن ابن المنير السنى، يريد أن يحمل أخذ الميثاق الذى فى سورة الحديد، على المعنى الذى ارتضاه للفظ العهد فى سورة الأعراف، ولهذا نراه يرد على الزمخشرى ويشدد عليه النكير فيقول: وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله فى آية غير هذه، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ولقد يريبنى منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر، والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا، ووقوعها بالسمع قطعًا، إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلا، فالقاعدة التى تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومئ إليه: أن كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع، وجب حمله على ظاهره، والله الموفق. اهـ[(٢)].

ومسألة التمثيل والتخييل يستعملها الزمخشرى بحرية أوسع فيما ورد من الأحاديث التى يبدو ظاهرها مستغربًا، وأسوق إليك مقالا أتى به الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قال رحمه الله: (وما يروون من الحديث «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها» فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان فى صفتهما، كقوله تعالى: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢، ٨٣)، واستهلاله صارخا من مسه، تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل، قول ابن الرومى:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها   يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهل الحشو فكلا، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخًا وعياطا مما يبلونا به من نخسه[(٣)]. اهـ.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٤٣٤.

(٢) هامش الكشاف جـ٢ ص٤٣٤.

(٣) الكشاف جـ١ ص٣٠٢، ٣٠٣.

وبالضرورة لم يرتض ابن المنير هذا الصنيع من خصمه المعتزلى، فنراه يتورك عليه بقوله: أما الحديث فمذكور فى الصحاح متفق على صحته، فلا محيص له إذًا عن تعطيل كلامه ﷺ بتحميله ما لا يحتمله، جنوحًا إلى اعتزال منتزع، فى فلسفة منتزعة، فى إلحاد، ظلمات بعضها فوق بعض، وقد قدمت عند قوله تعالى: ﴿لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ما فيه كفاية، وما أرى الشيطان إلا طعن فى خواصر القدرية حتى بقرها، وذكر فى قلوبهم حتى حمل الزمخشرى وأمثاله أن يقول فى كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ بما يتخيل، كما قال فى الحديث، ثم تنظيره بتخييل ابن الرومى فى شعره جرأة وسوء أدب، ولو كان معنى ما قاله صحيحًا لكانت هذه العبارة واجبًا أن تجتنب، ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلا، أما وهو واقع مشاهد فلا وجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد الضئيل، وارتكاب الهوى الوبيل. اهـ[1].

مبدأ الزمخشرى فى التفسير عندما يصادم النص القرآنى مذهبه:

والمبدأ الذى يسير عليه الزمخشرى فى تفسيره ويعتمد عليه عندما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته، هو حمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشرى فى قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (فالمحكمات) هى التى أحكمت عباراتها، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه (والمتشابهات) هى المتشبهات المحتملات (وأم الكتاب) هى أصله الذى يحمل عليه المتشابه، ويرد إليه، يفسر به[2].

على هذا التفسير جرى الزمخشرى فى كشافه عندما تعرض لهذه الآية، وهو تفسير لا غبار عليه، كما أن هذا المبدأ: أعنى مبدأ حمل الآيات المتشابهات على الآيات المحكمات، مبدأ سليم يقول به غير الزمخشرى أيضًا من علماء أهل السنة، ولكن الذى لا نسلمه للزمخشرى هو تطبيقه لهذا المبدأ على الآيات التى تصادفه، فإذا مر بآية تعارض مذهبه، وآية أخرى فى موضوعها تشهد له بظاهرها، نراه يدعى الاشتباه فى

---

(١) هامش الكشاف جـ١ ص٣١٢.

(٢) الكشاف جـ١ ص٢٩٤.

الأولى والإحكام فى الثانية، ثم يحمل الأولى على الثانية وبهذا يرضى هواه المذهبى، وعقيدته الاعتزالية.

وقد مثل الزمخشرى لحمل المتشابه على المحكم ورده إليه بقوله تعالى فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ وقوله فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والآية الثانية متشابهة، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولى، ولا سبيل إلى ذلك إلى بحملها عليها، وردها إليها.

ومثل أيضًا بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وقوله فى الآية (١٦) من سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ فهو يرى أن الآية الأولى محكمة، والآية الثانية متشابهة، فلا بد من حمل الثانية على الأولى ليتفق المعنى ويتحدد المراد.

ثم لا ينتهى الزمخشرى من تطبيقه لهذا المبدأ حتى يتساءل عن السبب الذى من أجله لم يكن القرآن كله محكمًا، وعن السر الذى من أجله جعل الله فى القرآن آيات محتملات مشتابهات؟ ولكن الزمخشرى يجيب بنفسه على ما تساءل عنه فيقول: (لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به، ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما فى تقادح العلماء وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمة، ونيل الدرجات عند الله، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف، وإذا رأى فيه ما يتناقض فى ظاهره، وأهمه طلب ما يوفق بينه ويجريه على سنن واحد، ففكَّر وراجع نفسه وغيره، ففتح الله عليه، وتبين مطابقة المتشابه المحكم، ازداد طمأنينة إلى معتقده وقوة فى إيقانه). اهـ[1].

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٩٤.

وهذا الجواب فى منتهى القوة والسداد، وابن المنير السنى يمر على كل هذا الكلام فلا يرى فيه أدنى ناحية من نواحى الاعتزال، لكنه يغضب على الزمخشرى فقط من أجل أنه عد قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ من قبيل المتشابه الذى يجب حمله على آية الأنعام: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ فيقول معقبًا عليه: قال محمود «المحكمات التى أحكمت عباراتها... إلخ» قال أحمد: هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآى على وفق ما يعتقده، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعًا للرأى، وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى، بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه بزعمهم إلى الآية التى يدعون أن ظاهرها يوافق رأيهم، والآية قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ...﴾ ثم جمع ابن المنير بين الآيتين بما يتفق مع مذهبه السنى... ثم قال: وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ (الأعراف: ٢٨) والأخرى التى هى قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ (الإسراء: ١٦) فلا ينازع الزمخشرى فى تمثيل المحكم والمتشابه بهما». اهـ[1].

انتصار الزمخشرى لعقائد المعتزلة:

هذا، وإن الزمخشرى لينتصر لمذهبه الاعتزالى، ويؤيده بكل ما يملك من قوة الحجة وسلطان الدليل، وإنا لنلمس هذا التعصب الظاهر فى كثير مما أسلفنا من النصوص، وفى غيرها مما نسوقه لك من الأمثلة، وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه، وعلى أن يتأول ما كان منها معارضًا له.

انتصاره لرأى المعتزلة فى أصحاب الكبائر:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٣) من سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ نجده يجعل لهذه الآية أهمية كبيرة فى نصرة مذهبه، ويتيه بها على خصومه من أهل السنة، ويندد بهم حيث يقولون بجواز مغفرة الذنب وإن لم يتب منه صاحبه، وبأن صاحب الكبيرة لا

---

(١) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٩٢٤.

يخلد فى النار، فيقول مستغلا لهذه الفرصة المواتية للاستهزاء من خصومه السنيين (هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد، والإبراق والإرعاد، أمر عظيم وخطب غليظ، ومِن ثَمَّ روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة، وعن سفيان: كان أهل العلم إذا سئلوا، قالوا: لا توبة له، وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله فى التغليظ والتشديد، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة، وناهيك بمحو الشرك دليلا، وفى الحديث: (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرئ مسلم) وفيه: (لو أن رجلا قُتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه) وفيه (إن هذا الإنسان بنيان الله، ملعون من هدم بنيانه) وفيه: (من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله) والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ويرون ما فيها، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة، واتباعهم هواهم، وما يخيل إليهم مناهم، أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤) ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة فى قتل الخطأ ـ لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ ـ فيه حسم للأطماع وأى حسم، ولكن لا حياة لمن تنادى، فإن قلت: هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر؟ قلت: ما أبين الدليل، وهو تناول قوله ﴿وَمَن يَقْتُلْ﴾ أى قاتل كان، من مسلم أو كافر، تائب أو غير تائب، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله). اهـ[1].

وفى سورة الأنعام عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥٨): ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ نجد الزمخشرى يمسك بهذه الآية «ويستدل بها على صحة عقيدته فى أن الكافر والعاصى سواء فى الخلود فى النار فيقول: (والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت ـ وهى آيات ملجئة مضطرة ـ ذهب أوان التكليف عندها، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسًا غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيرًا، فلم يفرق ـ كما

(١) الكشاف جـ١ ص٣٨١.

ترى - بين النفس الكافرة إذا آمنت فى غير وقت الإيمان، وبين النفس التى آمنت فى وقته ولم تكسب خيرًا؛ ليعلم أن قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة: ٢٥) جمع بين قرينتين لا ينبغى أن تنفك إحداهما عن الأخرى، حتى يفوز صاحبهما ويسعد، وإلا فالشقوة والهلاك). اهـ[١].

انتصاره لمذهب المعتزلة فى الحسن والقبح العقليين:

ولما كان الزمخشرى يقول بمبدأ المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذين النصين المنافيين لمذهبه، وهما: قوله تعالى فى الآية (١٦٥) من سورة النساء: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وقوله فى الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ فنراه فى الآية الأولى يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال: «كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى النظر فيها موصل إلى المعرفة، والرسل فى أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر فى تلك الأدلة، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها؟ ثم يجيب هو عن هذا السؤال فيقول: (قلت) الرسل منبهون عن الغفلة، وباعثون على النظر، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف، وتعليم الشرائع، فكان إرسالهم إزاحة للعلة، وتتميمًا لإلزام الحجة لئلا يقولوا: لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة، وينبهنا لما وجب الانتباه له). انتهى[٢].

وعندما تكلم عن الآية الثانية نراه يستشعر مثل ما استشعر فى الآية الأولى، ويسأل ويجيب بمثل ما سأل عنه وأجاب به فى الآية الأولى، فيقول (فإن قلت) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل، لأن معهم أدلة العقل التى بها يُعرف الله، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم، وكفرهم لذلك، لا لإغفال الشرائع التى لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان، (قلت) بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة، لئلا يقولوا: كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر فى أدلة العقل)[٣]. اهـ.

---

(١) الكشاف جـ١ ص٤٧٧.

(٢) الكشاف جـ١ ص٣٩٨.

(٣) الكشاف جـ١ ص٧٠٢، ٧٠٣.

انتصاره لمعتقد المعتزلة فى السحر:

ثم إن الزمخشرى ـ كغيره من المعتزلة ـ لا يقول بالسحر ولا يعتقد فى السحرة، ولهذا نجده عندما يفسر سورة الفلق التى تشهد لأهل السنة ولا تشهد له، لا تخونه مهارته، ولا تعوزه الحيلة التى يخرج بها فى تفسيره من هذه الورطة الصريحة، كما نجده يشدد النكير ويغرق فى الاستهزاء والسخرية بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر، وذلك حيث يقول (النفاثات) النساء أو النفوس، أو الجماعات السواحر، اللاتى يعقدن عقدًا فى خيوط، وينفثن عليها ويرقين، والنفث: النفخ مع ريق، ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثَمَّ إطعام شيء ضار، أو سقيه، أو إشمامه، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه، ولكن الله عز وجل، قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق، من الحشوية والجهلة من العوام، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به، (فإن قلت) فما معنى الاستعاذة من شرهن؟ (قلت) فيها ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من عملهن الذى هو صنعة السحر ومن إثمهن فى ذلك.

والثانى: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن.

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله: ﴿**إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ**﴾ (يوسف: ٢٨)، تشبيهًا لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد، أو اللاتى يفتنَّ الرجل بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن، كأنهم يسحرنهم بذلك[١].

وفى الحق أن هذه محاولة عقلية عنيفة من الزمخشرى يريد من ورائها أن يحول الحقائق التى ورد بوقوعها الكتاب والسنة، إلى ما يتناسب مع هواه وعقيدته، ولقد دهش ابن المنير من هذه المحاولة وحكم على الزمخشرى بأنه (استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف، وما به إلا أن يتبع اعتزاله، ويغطى بكفه وجه الغزالة[٢].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٥٦٨.

(٢) الانصاف «هامش الكشاف» جـ٢ ص٥٦٨.

انتصاره لمذهب المعتزلة فى حرية الإرادة وخلق الأفعال:

ولقد تأثر الزمخشرى برأيه الاعتزالى فى حرية الإرادة وخلق الأفعال، ولكنه وجد ما يصادمه من الآيات الصريحة فى أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى، فأراد أن يتفادى هذا التصادم ويعمل على الخروج من هذه الورطة الكبرى، فساعده على ما أراد، هذا المعنى الذى تمسك به المعتزلة ونفعهم فى كثير من المواضع، وهو (اللطف) من الله، فباللطف منه تعالى يسهل عمل الخير على الإنسان، وبسلبه يصعب عليه عمل الخير.

هذا (اللطف) وما يتصل به من (التوفيق) ساعد الزمخشرى على الخروج من الضائقة التى صادفته عندما تناول بالتفسير تلك الآيات القرآنية الصريحة فى أن الله يخلق أفعال العباد خيرها وشرها، والتى يعتبرها أهل السنة سلاحًا قويًا لهم ضد هذه النظرية الاعتزالية.

ففى سور آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (٨) ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ نجد الزمخشرى يستشعر من هذه الآية أن قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء، فمن أراد هدايته هداه، ومن أراد ضلاله أضله، ولكنه يفر من هذا الظاهر فيقول: ﴿**لا تُزِغْ قُلُوبَنَا**﴾ لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ﴿**بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**﴾ وأرشدتنا لدينك، أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا)[1].

وفى سورة المائدة عند قوله تعالى فى الآية (٤١): ﴿**وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ نجد الزمخشرى لا يجزع من هذا الظاهر الذى يتشبث به أهل السنة ويتيهون به على خصومهم، بل نراه يفسرها حسب هواه ووفق مبدئه فيقول: ﴿**وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ**﴾ تركه مفتونًا وخذلانه ﴿**فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئًا، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم، لأنهم ليسوا من أهلها، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا**

---

(١) الكشاف جـ١ ص١٩٥ . س

يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ (النحل: ١٠٤)، ﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ** ﴾ (آل عمران: ٨٦). اهـ[١].

وهكذا نجد الزمخشرى بواسطة هذه التأويلات يخضع لمبدئه الاعتزالى فى الجبر والاختيار مثل هذه المواضع القرآنية التى لم تكن طيعة له، ولكن ابن المنير السكندرى لم ترقه هذه التأويلات، ولم يسلم بها لخصمه، فأخذ يناقشه فى معنى اللطف مناقشة حادة ساخرة، فعندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ وتذرع بلفظ (اللطف) تعقبه ابن المنير فقال: «المعتقد الصحيح، أن الله هو الذى يخلق الهدى لمن يشاء هداه، ذلك هو اللطف، لا كما يزعم الزمخشرى أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما فى هذه الآية فهو مؤول على زعم الزمخشرى بلفظ الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه، إن هذا إلا اختلاق، وهذه النزغة من توابع معتقدهم السيئ فى خلق الأفعال، وليس علينا هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا»[٢]. اهـ.

وعندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام: ﴿ **مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ وقال: «من يشأ يضلله» أى يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به؛ لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ **وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ أى يلطف به، لأن اللطف يجدى عليه[٣]، عندما قال ذلك تعقبه ابن المنير فقال: (وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعًا لمعتقده الفاسد فى أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال، وأنهما من جملة مخلوقات العباد، وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها، وقد اتسع الخرق على الراقع[٤]. اهـ.

وعندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ وتأول الهداية هنا بمعنى اللطف والتوفيق كعادته، تعقبه ابن المنير ورد عليه ردًا فى غاية التهكم

---

(١) الكشاف جـ١ ص٤١٦.
(٢) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٢٨٥.
(٣) الكشاف جـ١ ص٤٥١.
(٤) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٤٥١.

والسخرية فقال: (وهذه الآية ـ يعنى قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا﴾ ـ تكفح وجوه القدرية بالرد؛ فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدى من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون؛ فلا يهتدى إلا من هدى الله ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى فهو إذًا مهتد وإن لم يهده الله؛ إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له، وفى زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ولا يتوقف ذلك على خلقه، تعالى الله عما يقولون، ولما فطن الزمخشرى لذلك جرى على عادته فى تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذى بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسك، واعرض قول القائل: المهتدى من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله ـ أى يخلق له الهدى ـ على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين فى دار الحق: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وانظر تباين هذين القولين، أعنى قول المعتزلى فى الدنيا وقول الموحد فى الآخرة فى مقعد صدق، واختر لنفسك أى الفريقين تقتدى به، وما أراك ـ والخطاب لكل عاقل ـ تعدل بهذا القول المحكى عن أولياء الله فى دار السلام منوهًا به فى الكتاب العزيز، قول قدرى ضال تذبذب مع هواه وتعصبه فى دار الغرور والزوال، نسأل الله حسن المآب والمآل». اهـ[1].

خصومة العقيدة بين الزمخشرى وأهل السنة:

ومن أجل هذا الخلاف العقدى بين الزمخشرى وأهل السنة، نجد الخصومة بينهم حادة عنيفة، كلٌّ يتهم خصمه بالزيغ والضلال، ويرميه بأوصاف يسلكه بها فى قرن واحد مع الكفرة الفجرة، وتلك ـ على ما أعتقد ـ مبالغة مسفة فى الخصومة، ما كان ينبغى لأحد الخصمين أن يخوض فيها على هذا الوجه، وبخاصة بعد ما عرف من أن كليهما يهدف إلى تنزيه الله عما لا يليق بكماله، وإليك بعض الحملات التى وجهها كل من الخصمين إلى الآخر؛ لتلمس بنفسك مبلغ هذه الخصومة وتحكم عليها:

---

(١) الانتصاف: هامش الكشاف جـ١ ص٤٨٦.

حملة الزمخشرى على أهل السنة:

هذا، وإن المتتبع لما فى الكشاف من الجدول المذهبى، ليجد أن الزمخشرى قد مزجه فيالغالب بشىء من المبالغة فى السخرية والاستهزاء بأهل السنة، فهو لا يكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة، فتارة يسميهم المجبرة، وأخرى يسميهم الحشوية، وثالثة يسميهم المشبهة، وأحيانًا يسميهم القدرية، تلك التسمية التى أطلقها على أهل السنة على منكرى القدر، فرماهم بها الزمخشرى لأنهم يؤمنون بالقدر، كما جعل حديث الرسول الذى حكم فيه على القدرية أنهم مجوس هذه الأمة منصبًا عليهم، وذلك حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة فصلت: ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ ولو لم يكن فى القرآن حجة على القدرية، الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها ﷺ ـ وكفى به شاهدًا ـ إلا هذه الآية لكفى بها حجة». اهـ[١].

كما سماهم بهذه الاسم ورماهم بأنهم يحيون لياليهم فى تحمل فاحشة ينسبونها إلى الله تعالى، حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٩، ١٠) من سورة الشمس: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ وأما قول من زعم أن الضمير فى زكى ودسى لله تعالى، وأن تأنيث الراجع إلى من لأنه فى معنى النفس، فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدرًا هو برىء منه ومتعال عنه، ويحيون لياليهم فى تمحل الفاحشة ينسبونها إليه». اهـ[٢].

والظاهرة العجيبة فى خصومة الزمخشرى، أنه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التى وردت فى حق الكفار إلى ناحية مخالفيه فى العقيدة من أهل السنة، ففى سورة آل عمران حيث يقول الله تعالى فى الآية (١٠٥): ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ...** ﴾ نجد الزمخشرى بعد ما يعترف بأن الآية واردة فى حق اليهود والنصارى، يجوز أن تكون واردة فى حق مبتدعى هذه الأمة، وينص على أنهم المشبهة، والمجبرة، والحشوية، وأشباههم[٣].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٣٢١.
(٢) الكشاف جـ٢ ص٥٤٧.
(٣) الكشاف جـ١ ص٣١٩.

وفى سورة يونس حيث يقول الله تعالى فى الآية (٣٩): ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ...﴾ يقول: بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وناجؤوه فى بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الحشوية، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ـ وإن كان أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة ـ أنكرها فى أول وهلة، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب[1].

ولقد أظهر الزمخشرى تعصبًا قويًا للمعتزلة، إلى حد جعله يخرج خصومه السنيين من دين الله، وهو الإسلام، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة آل عمران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ...﴾ الآية (فإن قلت) ما المراد بأولى العلم الذى عظمهم هذا التعظيم، حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله؟ (قلت) هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد ـ يريد أهل مذهبه ـ (فإن قلت) ما فائدة هذا التوكيد ـ يعنى فى قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ ـ (قلت) فائدته أن قوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ توحيد، وقوله ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ تعديل، فإذا أردفه قوله ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وهو الدين عند الله، وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين، وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية، أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام، وهذا بين جلى كما ترى... اهـ[2].

هذه بعض الأمثلة التى يتجلى فيها تعصب الزمخشرى لمذهبه الاعتزالى، وانتصاره له، ويتضح منها مبلغ إيغاله فى الخصومة، ومقدار حملته على أهل السنة، وهناك غيرها كثير مما أثار عليه خصومه من السنيين، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد، وردوا بشكل

(١) الكشاف جـ١ ص٥٨٢.
(٢) الكشاف جـ١ ص٢٩٧.

حاسم على ما أورده فى كشافه من استنتاجات اعتقادية، من آى القرآن الكريم، وقالوا: إنها جافة وقائمة على الرأى الطليق.

ومع ذلك لم يجدحوا ما كان للزمخشرى من أثر محمود فى التفسير، فنراهم ـ على ما بينهم وبينه من خصومة، ورغم ما سيمر بك من حملاتهم عليه ـ يقدرون إلى حد بعيد ما كان له من مجهود خاص فى عمله التفسيرى الذى ترجع إلى الناحية البلاغية واللغوية، كما نراهم فى الغالب يسطون على كتابه ويأخذون منه ما يعجبون به ويرون أنه عزيز المنال إلا على الزمخشرى.

حملة ابن القيم على الزمخشرى:

فهذا هو العلامة ابن القيم، كثيرًا ما يثور على الزمخشرى من أجل تفسيره الاعتزالى.

فمثلا نراه يذكر ما فسر به الزمخشرى قوله تعالى فى الآية (١٧٦) من سورة الأعراف: ﴿ ... وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ... ﴾ ثم يقول (فهذا من شنشنة نعرفها من قدرى نافٍ للمشيئة العامة، مبعد للنجعة فى جعل كلام الله معتزليا قدريا). اهـ[١].

حملة ابن المنير على الزمخشرى:

ومن الذين خصصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره، قاضى الإسكندرية، أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكى، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف) ناقش فيها الزمخشرى وجادله فى بعض ما جاء فى كشافه من أعاريب وغيرها، ولكنه ركز مجهوده العظيم فى بيان ما تضمنه من الاعتزال، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشرى وتتفق مع هواه.

ويظهر أن القاضى المالكى كان يميل بوجه عام إلى الجدال والنقاش، فقد قيل: إنه كان بصدد أن يرد على كتب الإمام الغزالى، تلك الكتب التى لم تكن مقبولة عند المالكية، ولم يصرفه عن قصده إلا أمه التى لم يطب خاطرها بهذه الحرب التى يثيرها ابنها ضد الموتى كما أثارها ضد الأحياء[٢]، ولكنه مع ذلك فعل هذا مع الزمخشرى،

---

(١) أعلام الموقعين جـ١ ص٢٠٢.

(٢) بغية الوعاة ص١٦٨.

واعتقد أنه بعلمه هذا قد ثأر لأهل السنة من أهل البدعة، وقد صرح بذلك حيث توجه باللوم للزمخشرى على تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٣، ٢٤) من سورة آل عمران: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فقال: (فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضًا لأهل السنة وشقاقًا، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقًا، فالحمد لله الذى أهَّل عبده الفقير إلى التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة)[1].

كما اعتقد أنه أدى للمسلمين وللإسلام خدمة عظيمة، كافية لأن تقوم له عذرًا أمام الله وأمام الناس عن تخلفه عن الخروج للغزو والجهاد فى سبيل الله، وذلك حيث يقول بعد تعقيبه على الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٢) من سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ قال أحمد: ولا أجد فى تأخرى عن حضور الغزاة عذرًا إلا صرف الهمة لتحرير هذا المصنف، فإنى تفقهت فى أصل الدين وقواعد العقائد مؤيدًا بآيات الكتاب العزيز، مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه، بلغنا الله الخير، ووفقنا لما يرضيه، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم. اهـ[2].

وابن المنير - مع شدة خصومته للزمخشرى - لا ينسى ما له من أثر طيب فى التفسير، فكثيرًا ما يبدى إعجابه به «لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة التى تنادى بأنه ليس من كلام البشر... وكثيرًا ما يعترف - بتقدير كبير وفى عدالة واعتدال - بتحليلاته اللغوية، ونكاته البلاغية.

فمثلا عندما تعقب تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩١) من سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ

(١) الانتصاف، هامش الكشاف جـ١ ص٢٩٩.

(٢) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٥٧٢.

مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ نجده يقول: وهذا أيضًا من دقة نظره فى الكتاب العزيز والعمق فى آثار معادنه، وإبراز محاسنه. اهـ. من الانتصاف «هامش الكشاف جـ١ ص ٤٦٠ط أميرية سنة ١٩١٨.

وفى سورة يونس عند قوله تعالى فى الآية (١١): ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ...﴾ الآية نجده يثنى على تفسيره لها فيقول: وهذا أيضًا من تنبيهات الزمخشرى الحسنة التى تقوم على دقة نظره. اهـ(١).

وفى سورة هود عند قوله تعالى فى الآية (٩١): ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أثنى على تفسيره لقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ فقال: وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان مليّا بالحذاقة فى علم البيان. اهـ(٢).

وعندما بيَّن الزمخشرى سر التعبير بقوله تعالى فى الآية (٥١) من سورة النحل: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ...﴾ قال ابن المنير معترفًا بدقة الزمخشرى وبراعته: وهذا الفصل من حسناته التى لا يدافع عنها. اهـ(٣).

ومع كل هذا الاعتراف، فإن ابن المنير يلاحظ على الزمخشرى ـ أحيانًا ـ أنه سيئ النية فيما يقول، فمن ذلك أن الزمخشرى لما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الرعد: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ...﴾ وختم تفسيره للآية بقوله: «وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التى ورد عليها، مناد على نفسه بلسان طلق ذلق: أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه، فتبارك الله أحسن الخالقين) لما قال الزمخشرى هذه المقالة، لم يتركها ابن المنير تمر بدون أن ينبه على ما فيها فقال: (هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن، فتنبه لها، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه، وهو غافل عما تحته، لولا هذا التنبيه والإيقاظ). اهـ(٤).

---

(١) الانتصاف: هامش الكشاف جـ١ ص٥٧٦. (٢) الانتصاف: هامش الكشاف جـ١ ص٦١١.
(٣) الانتصاف: هامش الكشاف جـ١ ص٦٨٦. (٤) الانتصاف: هامش الكشاف جـ١ ص٦٥٥.

وفى الوقت نفسه لم يترك ابن المنير فرصة تمر بدون أن يكيل للزمخشرى بمثل كيله من الإقذاع فى القول والسخرية به وبأمثاله من المعتزلة، فنراه يرد هجمات الزمخشرى التى يشنها على أهل السنة بعبارات شديدة يوجهها إلى الزمخشرى وأصحابه، مع تحقيره له ولهم، واستبشاعه لتفسيره وتفسيرهم.

فمثلا فى سورة آل عمران عندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (١٨): ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ الآية «ونوه بأنه وأصحابه أهل العدل والتوحيد، وأنهم أولو العلم المرادون بالآية، وصرح ـ أو كاد ـ بخروج أهل السنة من ملة الإسلام، عندما تكلم الزمخشرى بهذا كله، عقب عليه ابن المنير بتهكمه اللاذع، وسخريته الفاضحة فقال: (وهذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام، بل تصريح، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم ﷺ بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون فى رؤيته، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده «فشهدوا أن لا إله إلا هو، ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم، لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية، وتلك هى المعبر عنها شرعًا بالكسب فى مثل قوله تعالى: ﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾.

هذا إيمان القوم وتوحيدهم، لا كقوم يغيرون فى وجه النصوص، فيجحدون الرؤية التى يظهر أن جحدهم لها سبب فى حرمانهم إياها، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله فى مخلوقاته، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من أفعال على خلاف مشيئة ربهم، محادة ومعاندة لله فى ملكه، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد، والله أعلم بمن اتقى، ولجبر خير من إشراك، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين.

ولو نظرت أيها الزمخشرى بين الإنصاف إلى جهالة القدرية وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها، ولخرجت من مزالق البدع ومزالها ﴿**وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ**﴾ ولعلمت أى الفريقين أحق بالأمن، وأولى بالدخول فى أولى العلم المقرونين فى التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل). اهـ[١].

---

(١) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٢٩٨.

وفى سورة المائدة عند قوله تعالى فى الآية (٤١): ﴿... وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ...﴾ الآية، نراه يمعن فى السخرية من المعتزلة، ويغرق فى النكير على تفسير الزمخشرى لهذه الآية، وذلك حيث يقول: «كم يتلجلج والحق أبلج، هذه الآية ـ كما تراها ـ منطبقة على عقيدة أهل السنة فى أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد، ولكن لم يقع، فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

وما أبشع صرف الزمخشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله: لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه؛ لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع، فلطف من ينفع؟ وإرادة من تنجع؟ وليس وراء الله للمرء مطمع»[١]. اهـ.

ولقد يتطرف ابن المنير فيرمى خصومه من المعتزلة بالشرك، ففى سورة يونس عند تفسير الزمخشرى لقوله تعالى فى الآية (٣١): ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية، نرى ابن المنير يقول: «وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية، الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد، وهو الحلال، ومنها ما رزقه العبد لنفسه، وهو الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك الخفى لو سمعوا ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [(يونس: ٤٢)]»[٢]. انتهى.

وإنا لنرى ابن المنير يعتمد فى حملاته الساخرة القاسية التى يحملها على الزمخشرى، على ما يعتمد عليه الزمخشرى فى حملاته على أهل السنة، أو على الأصح، يأخذ من كلام الزمخشرى نفسه ما يبرر به موقفه الذى وقفه منه للرد على اعتزالاته، فحيث يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى فى الآية (٧٣) من سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾

---

(١) الانتصاف هاشم الكشاف جـ١ ص٤١٦.
(٢) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٥٨١.

﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ بالحجة ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فى الجهادين جميعًا ولا تحابهم، وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه، يجاهد بحجة، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن...»[١] عندما يقول الزمخشرى هذا، ويرمى من ورائه إلى أن الآية شاملة لخصومه من أهل السنة، نرى ابن المنير يستغل هذا الكلام لنفسه ويقلبه على خصمه المعتزلى فيقول: «الحمد لله الذى أنطقه بالحجة لنا فى إغلاظ عليه أحيانا»[٢].

وقد تبدو على ابن المنير علائم البشر، وتأخذه نشوة الفرح والسرور، عندما يرى أن الزمخشرى قد ابتعد عن متطرفى المعتزلة، وخالفهم فى بعض آرائهم، وأخذ برأى أهل السنة، ومثل هذا نراه واضحًا عندما فسر الزمخشرى قوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة آل عمران: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ حيث قال فى تفسير هذه الآية: «فإن قلت: كيف اتصل به - أى بقوله ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ - ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ (قلت) اتصاله به على أن كلكم تموتون، ولا بد لكم من الموت، ولا توفون أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقب موتكم، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور، (فإن قلت) فهذا يوهم نفى ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار (قلت) كلمة التوفية تزيل هذا الوهم؛ لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور»[٣]. انتهى.

وهنا نرى ابن المنير يعترف بأن الزمخشرى قد أحسن فى مخالفته لأصحابه من المعتزلة، وموافقته لأهل السنة، فيقول: «هذا - كما ترى - صريح فى اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة، وهو المراد بما يكون فى القبر من نعيم وعذاب، ولقد أحسن الزمخشرى فى مخالفة أصحابه فى هذه العقيدة؛ فإنهم يجحدون عذاب القبر، وها هو قد اعترف به». اهـ[٤].

---

(١) الكشاف جـ١ ص٥١٦.

(٢) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ص٥٦١.

(٣) الكشاف جـ١ ص٣٣٩.

(٤) الانتصاف هامش الكشاف جـ١ ٢٣٩.

موقف الزمخشرى من المسائل الفقهية:

هذا، وإن الزمخشرى - رحمه الله - يتعرض إلى حد ما، وبدون توسع إلى المسائل الفقهية التى تتعلق ببعض الآيات القرآنية، وهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفى.

ففى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية «٢٢٢»: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ يقول: «... وبين الفقهاء خلاف فى الاعتزال: فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج، وروى محمد حديث عائشة رضي الله عنها: أن عبد الله بن عمر سألها: هل يباشر الرجل امرأته وهى حائض؟ فقالت: تشد إزارها على سفلتها، ثم ليباشرها إن شاء، وما روى زيد بن أسلم: أن رجلا سأل النبى ﷺ: ما يحل لى من امرأتى وهى حائض؟ قال: «لتشد عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها» ثم قال: وهذا قول أبى حنيفة، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (يجتنب شعار الدم وله ما سوى ذلك) وقرئ يطَّهَّر بالتشديد، أى يتطهرن؛ بدليل قوله «فإذا تطهرن» وقرأ عبد الله: حتى يتطّهرْن ويَطْهرن بالتخفيف، والتطهر الاغتسال، والطهر انقطاع دم الحيض، وكلتا القراءتين مما يجب العمل به، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل، وفى أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة، وذهب الشافعى إلى أنه لا يقربها حتى تَطْهر وتطهَّر فتجمع بين الأمرين، وهو قول واضح، ويعضده قوله: «فإذا تطهرن»[١]. اهـ.

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٣٧) من سورة البقرة ﴿... إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ...﴾ قال: «والذى بيده عقدة النكاج الولى، يعنى إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر، وتقول المرأة ما رآنى، ولا خدمته، ولا استمتع بى، فكيف آخذ منه شيئًا، أو يعفو الولى الذى يلى عقد نكاحهن،

---

(١) الكشاف جـ١ ص٢٦٤.

وهو مذهب الشافعى، وقيل: هو الزوج وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملا، وهو مذهب أبى حنيفة، والأول ظاهر الصحة. . .» اهـ[(١)].

وفى سورة الطلاق عند قوله تعالى فى الآية (١): ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ...**﴾ يقول ما نصه: «فطلقوهن مستقبلات لعدتهم، كقولك: أتيته لليلة بقيت من المحرم، أى مستقبلا لها، وفى قراءة رسول الله ﷺ: فى قبل عدتهن، وإذا طلقت المرأة فى الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها.

والمراد أن يطلقن فى طهر لم يجامعن فيه، ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن، وهذا أحسن الطلاق، وأدخله فى السنة، وأبعده من الندم، ويدل عليه ما روى عن إبراهيم النخعى أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنّة إلا واحدة، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثًا فى ثلاثة أطهار، وقال مالك بن أنس ﷺ: لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو متفرقة.

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا ما زاد على الواحدة فى طهر واحد، فأما مفرقًا فى الأطهار فلا، لما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال لابن عمر حيث طلق امرأته وهى حائض: «ما هكذا أمرك الله، إنما السنة أن تستقبل الطهر استقبالا، وتطلقها لكل قرء تطليقة» وروى أنه قال لعمر: «مر ابنك فليراجعها، ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر، ثم ليطلقها إن شاء، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء».

وعند الشافعى ﷺ: لا بأس بإرسال الثلاث، وقال: لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة، وهو مباح.

فمالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت، وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت، والشافعى يراعى الوقت وحده. اهـ[(٢)].

موقف الزمخشرى من الإسرائيليات:

ثم إن الزمخشرى مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية، وما يذكره من ذلك إما أن

(١) الكشاف جـ١ ص٢٧٢. (٢) الكشاف جـ٢ ص٤٦٦.

يصدره بلفظ روى، المشعر بضعفه الرواية وبعدها عن الصحة، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه، وهذا فى الغالب يكون عند ذكره للروايات التى لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين، وإما أن ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال، وهذا فى الغالب يكون عند الروايات التى لها مساس بالدين وتعلق به.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ...﴾ الآية، نجده يذكر هذه الرواية فيقول: «روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى، وحليهن الأساور والأطواق والقرطة، راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروح بالذهب المرصع بالجواهر، وخمسائة جارية على رماك فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر، وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب، وبعثت رجلين من أشراف قومها: المنذر بن عمرو، وآخر ذا رأى وعقل، وقالت: إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى، وثقب الدرة ثقبًا مستويًا، وسلك فى الخرزة خيطا، ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك، فلا يهولنك، وإن رأيته بشا لطيفًا فهو نبى، فأقبل الهدهد فأخبر سليمان، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة، وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطًا شرَفُه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن، وأمر بأولاد الجن ـ وهم خلق كثير ـ فأقيموا على اليمين واليسار، ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنس صفوفًا فراسخ، والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك، فلما دنا القوم ونظروا بُهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال: ما وراءكم؟ وقال: أين الحُق؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه، فقال لهم: إن فيه كذا وكذا، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها فجعل رزقها فى الشجرة، وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها فى الفواكه، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به

وجهها، والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه، ثم رد الهدية وقال للمنذر: ارجع إليهم، فقالت: هو نبى وما لنا به طاقة، فشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قَيْلٍ تحت كل قَيْلٍ ألوف». اهـ[١].

وفى سورة القصص عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٨) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا...﴾ الآية، قال: «روى أنه لما أمر ببناء الصرح، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير، فشيده حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه يبنى، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربها بجناحه فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل، ووقعت قطعة فى البحر، وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك، ويروى فى هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه بنشابه إلى السماء، فأراد الله أن يفتنهم، فردت إليه ملطوخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته». اهـ[٢].

فالقصة الأولى صدرها الزمخشرى بلفظ «روى» المشعر بضعفها، والقصة الثانية صدرها أيضًا بهذا اللفظ وعقب عليها بقوله «والله أعلم بصحته» مما يدل على أنه متشكك فى صحة هذه الرواية، وكلتا القصتين على فرض صحتهما لا مطعن فيهما ولا مغمز من ورائهما يلحق الدين، ولهذا اكتفى الزمخشرى بما ذكر فى حكمه عليهما.

وفى سورة «ص» عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ...﴾ الآيات (٢١) وما بعدها إلى آخر القصة نراه يقول: (كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضًا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته، وكانت لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها ـ وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذلك ـ فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها، فسأله النزول له عنها، فاستحيا أن يرده، ففعل، فتزوجها ـ وهى أم سليمان ـ فقيل له: إنك

---

(١) الكشاف جـ٢ ص١٤٤.

(٢) الكشاف جـ٢ ص١٦٢.

مع عظيم منزلتك، وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك، وكثرة نسائك، لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك، وقهر نفسك، والصبر على ما امتحنت به، وقيل خطبها أوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه.

وأما ما يذكر أن داود عليه السلام، تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فقال: يا رب، إن آبائى قد ذهبوا بالخير كله، فأوحى إليه أنهم ابتلوا ببلايا فصبروا عليها، قد ابتلى إبراهيم بنمروذ وذبح ولده، وإسحاق بذبحه وذهاب بصره، ويعقوب بالحزن على يوسف، فسأل الابتلاء، فأوحى الله إليه: إنك لمبتلى فى يوم كذا وكذا فاحترس، فلما حان ذلك اليوم، دخل محرابه، وأغلق بابه، وجعل يصلى ويقرأ الزبور، فجاء الشيطان فى صورة حمامة من ذهب، فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت، فامتد إليها فطارت، فوقعت فى كوة فتتبعها، فأبصر امرأة جميلة قد نفضت شعرها فغطى بدنها، وهى امرأة أوريا، وهو من غزاة البلقاء، فكتب إلى أيوب بن صوريا ـ وهو صاحب بعث البلقاء ـ أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت ـ وكان من يتقدم لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد ـ ففتح الله على يده وسلم، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قُتل، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما يحزن على الشهداء، وتزوج امرأته، فهذا ونحوه، مما لا يصح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء، وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور: أن على بن أبى طالب ﷺ قال: من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء، وروى أنه حُدث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به، وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كان كما ذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فما ينبغى إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس، والذى يدل عليه المثل الذى ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب). اهـ[١].

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٧٩، ٢٨٠.

فأنت ترى أن الزمخشرى يرتضى قصة النزول عن الزوجة، وقصة الخطبة على الخطبة، ولا يرى فى ذلك إخلالا بعصمة داود، ولا مساسًا بمقام النبوة، وبمثل قصة النزول لما كان من تنازل الأنصار للمهاجرين عن أزواجهم فى مبدأ الهجرة، ويرى أن الآية تدل على ذلك، ولكنه يستنكر القصة الأخيرة، ويذكر من الأخبار ما يؤكد استبعادها، وذلك لأنه يرى فيها ـ لو صحت ـ إخلالا بمقام النبوة، وهدمًا لعصمة نبى الله داود عليه السلام.

كذلك نرى الزمخشرى فى السورة نفسها عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤): ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ يقول: «قيل فتن سليمان بعدما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة، وكان من فتنته أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم فكان يغذوه فى السحاب، فما راعه إلا أن أُلقى على كرسيه ميتًا، فتنبه على خطئه فى أن لم يتوكل فيه على ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه، وروى عن النبى ﷺ «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة؛ جاءت بشق رجل، والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون» فذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ وهذا ونحوه مما لا بأس به.

وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان فالله أعلم بصحته، حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون، وهى مدينة فى بعض الجزائر، وأن بها ملكا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها، وأصاب بنتا له اسمها جرادة، من أحسن الناس وجهًا، فاصطفاها لنفسه، وأسلمت، وأحبها، وكانت لا يرقأ دمعها على أبيها، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها؛ يسجدن له كعادتهن فى ملكه، فأخبر آصف سليمان بذلك، فكسر الصورة، وعاقب المرأة، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبًا إلى الله متضرعًا، وكانت له أم ولد يقال لها: أمينة، إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع

خاتمه عـندها ـ وكان ملكه فى خاتمه ـ فـوضعه عندها يومًا، وأتاها الشـيطان صاحب البحر ـ وهو الذى دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس، واسمه صخر ـ على صورة سليمـان فقال: يا أمينة، خـاتمى، فتختم به وجلس على كـرسى سليمان، وعكفت عليه الطير والجن والإنس، وغيَّر سليمـان من هيئته، فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته، فعـرف أن الخطيئة قد أدركته، فكان يدور على البـيوت يتكفف، فإذا قال: أنا سليمـان حثوا عليه التراب وسـبوه، ثم عمد إلى السماكـين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين، فمكث على ذلك أربعين صباحًا عدد ما عبد الوثن فى بيته، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان، وسأل آصف نساء سليمان، فقلن: ما يدع امرأة منـا فى دمها ولا يغـتسل من جنابة، وقـيل بل نفذ حكمـه فى كل شىء إلا فيـهن، ثم طار الشيطان وقذف الخـاتم، فتخـتم به ووقع ساجـدًا، ورجع إليه ملكه، وجاب صخرة لـصخر فجعله فيـها، وسد عليه بأخرى، ثم أوثقهـا بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر، وقيل: لما افتتن كان يسـقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها، فقال له آصف: إنك لمفتـون بذنبك، والخاتم لا يقر فى يدك، فتـب إلى الله عز وجل، ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله، وقـالوا: هذا من أباطيل اليهود، والشياطين لا يتمكنون من فعل هذه الأفاعيل: وتسليط الله إياهم على عباده حـتى يقعوا فى تغيير الأحكام، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح، وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع، ألا ترى إلى قوله: ﴿مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ (سبأ: ١٣)، وأما السجود للصورة فلا يظن بنبى الله أن يأذن فيه، وإذا كان بغير علمه فلا عليه)[١]. اهـ.

وجلى أن الزمخشرى قد صـرح بجواز الروايتين (الأولى والثانية) ورأى أنه لا بأس من قوع إحـداهما، ولكنه فند الرواية الأخيـرة ـ رواية صخر المـارد ـ وبيَّن أنها تذهب بعصمة الأنبياء، ولا تتفق وقواعد الشريعة.

. . . وهكذا لم يقع الزمخـشرى فيـما وقع فيـه غيره من المـفسرين من الاغـترار بالقصص الإسرائيلى والأخبار المختلقة المصنوعة[٢]، وهذه محمدة أخرى لهذا التفسير الكبير تحمد له ويشكر عليها.

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٢) وإن كان قد اغتر بالأحاديث الموضوعة فى فضائل السور فضمنها تفسيره.

وبعد. . . فهذه الكتب الثلاثة: تنزيه القرآن عن المطاعن، وأمالى الشريف المرتضى، وكشاف الزمخشرى، هى كل ما وصل إلى أيدينا من تراث المعتزلة ومؤلفاتهم فى التفسير، وهى وإن كانت قليلة بالنسبة لما لم تنله أيدينا من تفاسير المعتزلة، يمكن أن تكون تعويضًا مقبولا إلى حد كبير عن التفاسير التى طوتها يد النسيان، وأدرجتها فى غضون الزمن السحيق، وهى بعد ذلك تعتبر أثرًا خالدًا ومهمّا، لا فى تاريخ التفسير الاعتزالى فقط، بل فيه، وفى تاريخ الأدب العربى كذلك؛ لما تشتمل عليه من بحوث أدبية قيمة، تلقى لنا ضوءًا على ما كان بين الأدب والتفسير من تأثر كل منهما بالآخر وتأثيره فيه. والله أعلم.

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى بعون الله وأوله:

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور
محمد حسين الذهبي
وزير الأوقاف السابق

الجزء الثاني

دار الحديث
القاهرة

التفسير والمفسرون



اسم الكتاب : التفسير والمفسرون

اسم المؤلف : د. مصطفى محمد حسين الذهبي

القطع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحات : ١٤٣٢ صفحة

عدد المجلدات : مجلد واحد شاموا

سنة الطبع : ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م



رقم الإيداع : ١٧٨٥٩ / ٢٠٠٥م

الترقيم الدولي : ٧- ١٢٣ - ٣٠٠ - ٩٧٧



طبع . نشر . توزيع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٢٥٨٩٩٤٠٩ / ٢٥٩١٨٧١٩ / ٢٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٢٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيعة وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم:

الشيعة فى الأصل، هم الذين شايعوا عليّا وأهل بيته ووالوهم، وقالوا: إن عليًا هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، وإن الخلافة حق له، استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، وهى لا تخرج عنه فى حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين: **أحدهما**: أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه، **ثانيهما**: أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر، تقية منه، ودرءًا للشر عن نفسه وعن أتباعه.

وهذا المذهب الشيعى من أقدم المذاهب الإسلامية، وقد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضي الله عنه[1]، ثم نما واتسع على عهد على رضي الله عنه؛ إذ كان كلما اختلط رضي الله عنه بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، مما يظهر لهم من قوة دينه، ومكنون علمه، وعظيم مواهبه، فاستغل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس.

ثم جاء عصر بنى أمية وفيه وقعت المظالم على العلويين ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن المحبة لهم، وحركت دفين الشفقة عليهم، ورأى الناس فى على وذريته شهداء هذا الظلم الأموى، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى وكثر أنصاره، ويظهر لنا أن هذا الحب لعلى وأهل بيته، وتفضيلهم على من سواهم، ليس بالأمر الذى جد وحدث بعد عصر الصحابة، بل وجد من الصحابة من كان يحب عليّا ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة، وأنه أولى بالخلافة من غيره، كعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود، وأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وجابر بن عبد الله... وغيرهم كثير.

غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليًا رضي الله عنه؛ لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لا بد له من شمل متحد وكلمة مجموعة، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذى تكاد

---

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ.

تتفق عليه كلمة الشيعة، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو «أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعين، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليّا ﷺ هو الذى عينه رسول الله ﷺ»[1].

لم يكن الشيعة جميعًا متفقين فى المذهب، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق عدة، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلى عاملين قويين، كان لهما كل الأثر تقريبًا فى تعدد فرق الشيعة وتفرق مذاهبهم:

أولهما: اختلافهم فى المبادئ والتعاليم، فمنهم من تغالى فى تشيعه وتطرف فيه إلى حد جعله يلقى على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرمى كل من خالف عليّا وحزبه بالكفر، ومنهم من اعتدل فى تشيعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم، ولكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر.

وثانيهما: الاختلاف فى تعيين الأئمة، وذلك أنهم اتفقوا جميعًا على إمامة على ﷺ، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه، ولما قتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين ﷺ: **ففريق** يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن على المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها، **وفريق ثان**، يرى حصر الإمامة فى ولد على من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقّا لأولاد الحسن؛ لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر غير أولاده، وهم ينتظرون كبرهم ليبايعوا أرشدهم، **وفريق ثالث**، يرى ما يراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد على من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول: إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حتى أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقّا لأولاد الحسين الذى قتل من أجلها فهم أولى بالانتظار.

بلغ عدد الفرق التى انقسم إليها الشيعة حدّا كبيرًا من الكثرة، منها من تغالى فى تشيعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها من اعتدل فى تشيعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها.

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنى سأقتصر على فرقتين هما: الزيدية،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٨.

والإمامية (الاثنا عشر والإسماعيلية) لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة.

الزيديـــــــة:

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن على بن الحسين ﷺ، طمحت نفسه إلى استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل وصلب، ثم أحرق جسده، وقد ورد فى سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له «أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى، عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه: ما تقول فى أبى بكر وعمر؟ فقال زيد: أثنى عليهما جدى على، وقال فيها حسنًا، وإنما خروجى على بنى أمية؛ فإنهم قاتلوا جدى عليًا، وقتلوا جدى حسينًا، فخرجوا عليه ورفضوه، فسموا رافضة بذلك السبب»(١).

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية، إذ أنها لم تغل فى معتقداتها، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله ﷺ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين.

قوام مذهب الزيدية:

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ما قبل طرو التغير عليه والتفرق بين أصحابه، هو ما يأتى:

١- أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وهذه الأوصاف هى: كونه فاطميًا، ورعًا، سخيًا، يخرج داعيًا الناس لنفسه.

٢- أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه.

وبنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولى الحل والعقد على إمام لم تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته، ولزمت بيعته؛ ولهذا قالوا بصحة إمامة أبى بكر وعمر ﷺ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما.

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين فى قطرين مختلفين لا فى قطر واحد، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد فى النار، وهذا هو عين مذهب المعتزلة، ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا

---

(١) التبصير فى الدين ص ١٨.

بها كما قالوا بكثير من مبادئهم، والسر فى ذلك هو أن زيدًا رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية وقال بها(١).

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنًا طويلاً، بل تفرقوا واختلفت عقائدهم، وقد ذكر لنا صاحب المواقف أنهم تفرقوا إلى ثلاث فرق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها(٢)، ولا نطيل بذكر ذلك، ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه فى موضعه.

الإمامية(٣):

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبى ﷺ نص على إمامة على ﵁ نصّا ظاهرًا، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد على فى ولده من فاطمة ﵂.

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا فى تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفَّروا الكثير من الصحابة، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعلى ﵁، فأوجبوا التبرؤ منهما، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل، كالعلامة الطبرسى صاحب التفسير.

وقد اتفق الإمامية على إمامة على ﵁، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه، ثم إلى أخيه الحسين من بعده، ثم إلى ابنه على زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم اختلفوا بعد ذلك فى سوق الإمامة وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان: الإمامية الاثنا عشرية والإمامية الإسماعيلية.

الإمامية الاثنا عشرية:

أما الإمامية الاثنا عشرية، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه على الرضا، ثم إلى ابنه محمد الجواد، ثم إلى ابنه على الهادى، ثم إلى ابنه الحسن العسكرى، ثم إلى ابنه محمد المهدى المنتظر وهو الإمام الثانى عشر، ويزعمون أنه دخل سردابًا فى دار أبيه بـ «سر من رأى» ولم يعد بعد، وأنه سيخرج فى آخر الزمان، ليملأ الدنيا عدلا وأمنًا، كما ملئت ظلمًا وخوفًا.

وهؤلاء قد جاوزوا الحد فى تقديسهم للأئمة، فزعموا: أن الإمام له صلة روحية

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (٢/ ٢٠٨).
(٢) المواقف (٨/ ١٠).
(٣) **الإمامية**: نسبة إلى الإمام لأنهم أكثروا من الاهتمام به، وركزوا كثيرًا من تعاليمهم حوله.

بالله كصلة الأنبياء، وقالوا: إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطلة فى الأئمة.

أشهر تعاليم الإمامية الاثنى عشرية:

وأشهر تعاليم الإمامية الاثنى عشرية أمور أربعة: العصمة والمهدية والرجعة والتقية.

أما العصمة: فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر فى كل حياتهم، ولا يجوز عليهم شىء من الخطأ والنسيان.

وأما المهدية: فيقصدون منها الإمام المنتظر الذى يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض أمنًا وعدلاً، بعد أن ملئت خوفًا وجورًا، وأول من قال بهذا هو كيسان مولى على بن أبى طالب فى محمد ابن الحنفية، ثم تسربت إلى طوائف الإمامية، فكان لكل منها مهدى منتظر(١).

وأما الرجعة: فهى عقيدة لازمة لفكرة المهدية، ومعناها: أنه بعد ظهور المهدى المنتظر، يرجع النبى ﷺ إلى الدنيا، ويرجع على، والحسن، والحسين، بل وكل الأئمة، كما يرجع خصومهم، كأبى بكر وعمر، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم، ثم يموتون جميعًا، ثم يحيون يوم القيامة.

وأما التقية: فمعناها المداراة والمصانعة، وهى مبدأ أساسى عندهم، وجزء من الدين يكتمونه عن الناس، فهى نظام سرى يسيرون على تعاليمه، فيدعون فى الخفاء لإمامهم المختفى ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة القائمة الظالمة.

هذه هى أهم تعاليم الإمامية الاثنا عشرية، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة، غير أنها لا تسلم لهم، ولا تثبت مدعاهم، ونحن نمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شىء من ذلك.

---

(١) وردت بعض الأحاديث فى شأن المهدى، رواها الترمذى وأبو داود وابن ماجه وغيرهم، كقوله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطوَّل الله ذلك حتى يبعث فيه رجلا منى أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى» ومثل قوله: «لو لم يبق إلا يوم، لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورًا» وقد وقع بين المسلمين خلاف فى شأن المهدى هذا، فمنهم من يقول به، ومنهم من ينكره، ولكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية فى تعيين المهدى ودعواهم أنه الإمام الثانى عشر الذى اختفى حيا وسيعود فى آخر الزمان.

الإمامية الإسماعيلية:

وأما الإماميــة الإسماعيلية، فيـرون أن الإمامة بعد جعفـر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل، بالنص من أبيه على ذلك، قالوا: وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عـقبه، ثم انتقلت الإمامــة من إسماعيل إلى ابنه محـمد المكتوم، وهو أول الأئمة المـستورين، وبعـده تتابع أئمة مـستورون إلى أن ظهـر بالدعوة الإمام عـبد الله المهدى رأس الفاطميين.

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسمـاعيلية لقبوا بسبعة ألقـاب، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم، وهذه الألقاب هى ما يأتى:

١- **الإسماعيلية:** لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه.

٢- **البـاطـنيـة:** لقولهم بالإمـام الباطن أى المستور، أو لقـولهم بأن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، والمراد منه باطنه دون ظاهره.

٣- **القــرامطة:** لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مـذهبهم رجل يقال له: حـمدان قرمط[1].

٤- **الحرمية:** لإباحتهم المحرمات والمحارم.

٥- **السبعية:** لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى، وعيسى، ومحـمد، ومحمد المهدى المنتظر سـابع النطقاء، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته، ولا بد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى وبهم يهتدى.

٦- **البابكية أو الخرمية:** لأتباع طائفة منهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان.

٧- **المحمرة:** للبسهم الحمرة أيام بابك، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميراً[2].

هذا وسيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية، عندما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم.

وقبل أن أخلص من هذه العـجالة أسوق لك كلمـة أنقلها بنصهـا عن أبى المظفر الإسفراينى فى كتابه (التبصير فى الدين) قال رحمه الله:

«واعلم أن الزيدية والإمـامية منهم، يـكفر بعضـهم بعضـًا، والعداوة بينهم قـائمة دائمة، والكيسانيــة يعدون فى الإمامية، واعلم أن جميع من ذكرناهم مــن فرق الإمامية

---

(١) **قرمط:** قرية من قرى واسط أو نسبة لقرمطة فى خطوه ـ وقيل فى خطه ـ وقرمطة الخطا تتابعها.

(٢) المواقف (٨/ ٣٨٨، ٣٨٩).

متفقون على تكفير الصحابة، ويدعون أن القرآن قد غُيِّرَ عما كان ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة على فأسقطه الصحابة منه، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن ولا على شيء من الأخبار المروية عن المصطفى ﷺ، ويزعمون أنه لا اعتماد على الشريعة التى فى أيدى المسلمين، وينتظرون إمامًا يسمونه «المهدى» يخرج ويعلمهم الشريعة، وليسوا على شيء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام فى الإمامة، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا فى استحلال المحرمات الشرعية، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغيير القرآن من عند الصحابة، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر، إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين»[١].

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم

إذا نحن أجلنا النظر فى مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام فى الرأى والعقيدة، فبينا نجد الغلاة الذين رفعوا عليًّا إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون عليًّا أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب؛ ونجد من يقف موقفًا وسطًا بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤلِّه عليًّا، ولا هو يرى أنه بشر يخطئ ويصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله ﷺ غير منازع ولا مدافع وإن غلب على أمره واغتصبت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء - كما قلنا - إلى حد الكثرة فى التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعيًّا - وكل حزب من هذه الأحزاب يدعى الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة - أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهدًا له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلاً على مذهبه تمسك به، وأخذ فى إقامة مذهبه على دعامة منه، وما وجده مخالفًا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقًا لا مخالفًا، وإن أدى هذا كله إلى خروج اللفظ القرآنى عن معناه الذى وضع له وسيق من أجله، وإليك طرفًا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

(١) التبصير فى الدين ص ٢٤، ٢٥، وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية.

من تأويلات السبئية[(١)]:

فمثلاً نجد بعض السبئية يزعم أن عليًا فى السحاب، وعلى هذا يفسرون الرعد بأنه صوت علىٍّ، والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول: عليك السلام يا أمير المؤمنين.

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمدًا ﷺ سيرجع إلى الحياة الدنيا، وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة القصص: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[(٢)].

من تأويلات البيانية:

كذلك نجد بيان بن سمعان التيمى زعيم البيانية[(٣)]، يزعم أنه هو المذكور فى القرآن بقوله تعالى فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ويقول: أنا البيان، وأنا الهدى والموعظة.

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور، وأنه يفنى كله غير وجهه، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة القصص ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقوله فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[(٤)].

من تأويلات المغيرية:

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية[(٥)] يقول: إن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالاسم الأعظم، فطار ذلك الاسم ووقع تاجًا على رأسه،

---

(١) **السبئية** هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالإسلام وغلا فى حب علىٍّ حتى جعله نبيا، ثم بالغ فى الغلو حتى جعله إلها، وزعم أنه لم يقتل ولكنه رفع إلى السماء.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبى زهرة ص ١٢٨.

(٣) **البيانية** هم أتباع بيان بن سمعان التميمى، وهم الذين زعموا أن الإمامة صارت من محمد ابن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد، ثم صارت من أبى هاشم إلى بيان بن سمعان بوصيته إليه، واختلف هؤلاء فى بيان زعيمهم، فمنهم من زعم أنه كان نبيا، وأنه نسخ شريعة محمد ﷺ، ومنهم من زعم أنه كان إلها. (الفرق بين الفرق ص ٢٢٧).

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٥) **المغيرية** هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى، وكان يظهر فى بدء أمره موالاة الإمامية ثم ادعى النبوة، وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم، وزعم أنه يحيى به الموتى ويهزم الجيوش. (الفرق بين الفرق ص ٢٢٩).

وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (١) من سورة الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج [١].

ويزعم المغيرة أيضًا، أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد ﷺ، قال: فذلك قوله فى الآية (٨١) من سورة الزخرف ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ قال: ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك، فعرض ذلك على الناس، فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من أعدائه، وأن يغدر به فى الدنيا، وضمن له أن يعينه على الغدر به، على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده، ففعل أبو بكر ذلك، قال: فذلك تأويل قوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر.

وتأول فى عمر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة الحشر: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ...﴾ والشيطان عنده عمر [٢].

من تأويلات المنصورية:

وكذلك نجد أبا منصور العجلى زعيم المنصورية [٣] والمعروف بالكسف، يزعم أنه عرج به إلى السماء، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له: يا بنى بلغ عنى، ثم أنزله إلى الأرض، وزعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور فى قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة الطور: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [٤].

وتأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام، والنار بالضد، أى رجل أمرنا ببغضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر، وتأولوا الفرائض والمحرمات فقالوا: الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم، والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم [٥].

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩. (٢) الفرق بين الفرق ص ٢٣٠، ٢٣١.

(٣) المنصورية هم أتباع أبى منصور العجلى، الملقب بالكسف، الذى زعم أن الإمامية دارت فى أولاد على حتى انتهت إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر، وادعى هذا العجلى: أنه خليفة الباقر ثم ألحد فى دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل. (الفرق بين الفرق ص ٢٣٤).

(٤) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤. (٥) المواقف (٨/ ٣٨٦).

من تأويلات الخطابية:

كذلك نجد من الخطابية[١] من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا، والنار بأنها آلامها[٢].

ووجدنا منهم من يقول إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه، وعلى هذا المعنى كانوا يتأولون قوله تعالى فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً**﴾ ويقولون: إن معناه بوحى من الله، ويقولون: إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد فى قوله تعالى فى الآية (٦٨) من سورة النحل: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**﴾ لم لا يجوز أن يوحى إلينا[٣]؟!.

من تأويلات العبيديين:

كذلك نجد أبا إسحاق الشاطبى يذكر لنا عن بعض العلماء: أن عبيد الله الشيعى المسمى بالمهدى، حين ملك إفريقية واستولى عليها، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره، وكان أحدهما يسمى بنصر الله، والآخر يسمى بالفتح، فكان يقول لهما: أنتما اللذان ذكركما الله فى كتابه فقال: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ (النصر: ١)، قالوا: وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى، فبدل قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ بقوله: (كتامة خير أمة أخرجت للناس)[٤].

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون، يجدون فى صرف اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم، وهم بعملهم هذا يحملون القرآن ما لا يحتمله، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان.

---

(١) **الخطابية** أتباع أبى الخطاب الأسدى، وهم خمس فرق، يقولون إن الإمامة كانت فى أولاد على إلى أن انتهت إلى محمد (الحبيب آخر الأئمة المستورين) ابن جعفر الصادق ويقولون: إن الأئمة كانوا آلهة، وكان أبو الخطاب يقول فى أيامه: إن أولاد الحس والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه، وكان يقول: إن جعفرًا إله، فلما بلغ ذلك جعفر لعنه وطرده، وكان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك الألوهية. (التبصير فى الدين ص ٧٣، ٧٤).

(٢) المواقف (٨/ ٣٨٦). (٣) التبصير فى الدين ص ٧٤. (٤) الموافقات (٣/ ٣٩٢).

كذلك نجد الإمامية الاثنا عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم، وهؤلاء ليس لهم فى تفسيرهم المذهبى مستند صحيح يستندون إليه، ولا دليل سليم يعتمدون عليه، وإنما هى أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة، وخرافات صدرت من عقول عشش فيها الباطل وأفرخ، فكان ما كان من خرافات وترهات!!.

نعم يعتمد الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التى لا توجد إلا فى عقول أصحابها، فمن ذلك الذى يعتمدون عليه ما يأتى:

أولاً: جمع القران الكريم وتأويله، وهو كتاب جمع فيه على ﷺ القرآن على ترتيب النزول(١).

ثانيًا: كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعًا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثالاً يخصه، ويعتقدون أنه الأصل لكل من كتب فى أنواع علوم القرآن، وهم يروون عن على ﷺ هذا الكتاب بطرق عدة، وهو فى أيديهم إلى اليوم، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعًا بالقطع الكبير الكامل، كل صفحة منها سبعة وعشرون سطرًا(٢).

ثالثًا: الجامعة وهى كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء رسول الله ﷺ وخط على عليه السلام، مكتوب على الجلد المسمى بالرق فى عرض الجلد، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعًا، وعدوها من مؤلفات على باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله ﷺ وإملائه، قالوا: وفيه كل حلال وحرام، وكل شىء يحتاج الناس إليه حتى الأرش فى الخدش(٣).

رابعًا: الجفر، وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون: «واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلى، وهو رأس الزيدية، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم، على طريق الكرامة والكشف

---

(١) أعيان الشيعة (١/ ١٥٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٥٤، ١٥٥).
(٣) المرجع السابق (١/ ١٦٦ - ١٦٨).

الذى يقع لمثلهم من الأولياء، وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير، فرواه عنه هارون العجلى، وكتبه، وسماه: «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه[١]؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير، وصار هذا الاسم علمًا على هذا الكتاب عندهم، وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى، مروية عن جعفر الصادق، وهذا الكتاب لم تتصل روايته، ولا عرف عينه، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه؛ فهم أهل الكرامات. . . »[٢].

ويعرف صاحب أعيان الشيعة الجفر بأنه كتاب أملاه رسول الله ﷺ على علىٍّ رضي الله عنه، ويذكر فى ذلك أقوالاً متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها: «الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال، وحرام، وأحكام، وأصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم، والإخبار عن بعض الحوادث، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد»[٣] ثم ينكر على من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم، ويتمثل بقول أبى العلاء المعرى:

لقد عجبوا لأهل البيت لما ... أروهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى ... أرته كل عامرة وقفر[٤]

خامسًا: مصحف فاطمة، جاء فى البصائر: «أن أبا عبد الله سأله بعض الأصحاب عن مصحف فاطمة، فقال: إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون، إن فاطمة مكثت بعد رسول الله ﷺ خمسة وسبعين يومًا، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها، ويخبرها عن أبيها ومكانه، ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها، وكان علىٌّ عليه السلام يكتب ذلك، فهذا مصحف فاطمة»[٥].

هذه هى أهم الأشياء التى يستند إليها الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهى كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا فى عقول الشيعة. . . وكيف يكون

(١) المعروف من كتب اللغة أن الجعفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر، وفى القاموس: الجفر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣.

(٣) أعيان الشيعة (١/ ١٨٢).

(٤) المرجع السابق (١/ ١٨٤).

(٥) المرجع السابق (١/ ١٨٨).

سائغًا ومقبولا أن ينبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل؟! لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول:

«وأعجب من هذا التفسير ـ يعنى تفسير المعتزلة ـ تفسير الروافض للقرآن، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هارون بن سعد العجلى، وكان رأس الزيدية فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا: إمام، ومنهم ... طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمن ممن تجفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض ... بصير بباب الكفر فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى ... عليها وإن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال: إن الفيل ضب لصدقوا ... ولو قال: زنجى تحول أحمرا
وأخلف من بول البعير فإنه ... إذا هو للإقبال وُجّه أدبرا
فقبح أقوام رموه بفرية ... كما قال فى عيسى الفرَى من تنصرا»(١)

قال أبو محمد: وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، فمن ذلك قولهم فى قول الله عز وجل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (النمل: ١٦) إنه الإمام، وورث النبى ﷺ علمه، وقولهم فى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (البقرة: ٦٧) إنها عائشة رضي الله عنها، وفى

(١) هذا الذى ذكره ابن قتيبة عن هرون بن سعد العجلى، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هرون بن سعد العجلى، وهو يرويه عن جعفر الصادق، ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول: إن هرون بن سعد العجلى، وكان رافضيًا مغاليًا أول أمره، وكان يروى هذا الجفر ويصدق به ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر، وقال مقالته التى رواها ابن قتيبة بعد توبته، وهذا الذى ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام عن هرون بن سعد العجلى جـ١١ ص ٦ وخلاصته: أن هرون بن سعد العجلى، ويقال: الجعفى الكوفى الأعور، قال أحمد: روى عنه الناس، وهو صالح، وروى عن ابن معين أنه قال: ليس به بأس، وذكره ابن حبان فى الثقات وذكره أيضًا فى الضعفاء قال: وكان غاليًا فى الرفض لا تحل عنه الرواية بحال، وروى عن ابن معين أيضًا أنه قال: كان من غلاة الشيعة، وقال الساجى: كان يغلو فى الرفض، وحكى أبو العرب الصقلى عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعرًا يدل على نزوعه عن الرفض. انتهى. ملخصًا، ونزع عن الرفض معناه: رجع عنه، يقال: نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه، كما أفاده صاحب القاموس وغيره.

قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة: ٧٣) إنه طلحة والزبير، وقولهم فى الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، والجبت والطاغوت: إنهما معاوية وعمرو بن العاص... مع عجائب أرغب عن ذكرها، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها، وكان بعض أهل الأدب يقول: ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر فإنه قال ذات يوم: ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع، وأبو الفوارس نهشل

أنه فى رجال منهم... قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت: بيت الله، وزرارة: الحجر، قيل: فمجاشع؟ قال: رمز... جشعت بالماء، قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قيس، قيل له: فنهشل؟ قال نهشل... أشده، وفكر ساعة ثم قال: نهشل: مصباح الكعبة؛ لأنه طويل أسود، فذلك نهشل.

وهم أكثر أهل البدع افتراقًا ونحلاً، فمنهم قول يقال لهم البيانية، ينسبون إلى رجل يقال له بيان، قال لهم: إلىَّ أشار الله تعالى إذ قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

وهم أول من قال بخلق القرآن، ومنهم المنصورية، أصحاب أبى منصور الكسف وكان قال لأصحابه: فىَّ نزول قوله ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ (الطور: ٤٤)، ومنهم الخناقون والشداخون، ومنهم الغرابية، وهم الذين ذكروا أن عليًا رضي الله عنه كان أشبه بالنبى ﷺ من الغراب بالغراب، فغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلى على لشبهه به.

قال أبو محمد: ولا نعلم فى أهل البدع والأهواء أحد ادعى الربوبية لبشر غيرهم؛ فإن عبد الله بن سبأ، ادعى الربوبية لعلىٍّ، فأحرق علىٌّ أصحابه بالنار، وقال فى ذلك:

لما رأيت الأمر أمرًا منكرا أججت نارى ودعوت قنبرا[1]

ولا نعلم أحدًا ادعى النبوة لنفسه غيرهم؛ فإن المختار بن أبى عبيد ادعى النبوة لنفسه، وقال: «إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته، فصدقه قوم واتبعوه، وهم الكيسانية»[2].

وهذا لا يفوتنا أن نقول: إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها، وأشهر ما

---

(١) قنبر هو مولى على الذى تولى طرحهم فى النار.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ - ٨٨.

بقى منها إلى اليوم ثلاث فرق، هى: الإمامية الاثنا عشرية، والإمامية الإسماعيلية - وهم المسمون بالباطنية - والزيدية.

أما الإمامية الاثنا عشرية، فينتشرون اليوم فى بلاد إيران، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام.

وأما الإسماعيلية، فينتشرون فى بلاد الهند؛ كما يوجدون فى نواح أخرى متفرقة، وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندى الإسماعيلى المعروف[1].

وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن.

إذًا فالأجدر بنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن، ما دامت قد بادت ولم يبق لها أثر، وما دمنا لم نقف لها على شيء فى التفسير أكثر من هذه النبذ المتفرقة التى وجدناها للبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة.

والذى يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك، هو تلك الفرق الثلاث التى لا تزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها.

وسنبدأ أولاً بالإمامية الاثنى عشرية، ثم بالإمامية الإسماعيلية، ثم الزيدية، فنقول وبالله التوفيق:

١- موقف الإمامية الاثنى عشرية من تفسير القرآن الكريم

للإمامية الاثنى عشرية معتقدات يدينون بها، وينفردون بها عمن عداهم من طوائف الشيعة، وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بد لهم - ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم، وأن يدافعوا عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل.

موقفهم من الأئمة وأثر ذلك فى تفسيرهم:

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم، فهم يُلقون على الأئمة نوعًا من التقديس والتعظيم، ويرون أن الأئمة «أركان الأرض أن تميد بأهلها، وحجة الله البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى»[2]، ويرون أن الإمامة «زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعز المؤمنين»[3].

---

(١) وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت، والحسن هذا من نسل على بن أبى طالب. ضحى الإسلام (٣/ ٢٢٥).

(٢) ضحى الإسلام (٣/ ٢١٥) نقلا عن أصول الكافى ص ٩٣.

(٣) المرجع السابق.

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يحكم عليه، وفوق الناس فى طينته وتصرفاته، فإنا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التى للأنبياء والرسل، وأنه مشرع ومنفذ، وأن الله قد فوض النبى والإمام فى الدين، ويروون عن الصادق أنه قال: «(إن الله خلق نبيه على أحسن أدب وأرشد عقل، ثم أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) ثم أثنى الله عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ثم بعد ذلك فوض إليه دينه، فوض إليه التشريع فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) و ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) الله فوض دينه إلى نبيه، ثم إن نبى الله فوض كل ذلك إلى على وأولاده سلمتم وجحده الناس، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله، وما جعل الله لأحد خيرًا فى خلاف أمرنا»[(١)].

وحيث إن الله تعالى خلق النبى وكل إمام بعده على أحسن أدب وأرشد عقل، فلا يختار النبى ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب، ولا يخطر بقلب النبى ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة، فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأى النبى ورأى الإمام مثل الزيادة فى عدد ركعات الفرض، ومثل تعيين النوافل من الصلاة والصيام، وذلك إظهارًا لكرامة النبى والإمام، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحى، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام، وله فى الشرع شواهد: حرم الله الخمر، وحرم النبى كل مسكر فأجازه الله، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد، فجعل النبى للجد السدس، وكان النبى يبشر ويعطى الجنة على الله ويجيزه الله.

وأيضا فوض الله للنبى والأئمة من بعده أمور الخلق، وأمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم، وواجب على الناس طاعتهم فى كل ذلك، قالوا: وهذا حق ثابت دلت الأخبار عليه.

وأيضًا فوضهم الله تعالى فى البيان، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها، ولهم أن يبينوا ولهم أن يسكتوا، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلى أى وجه شاءوا تَقِيّة منهم وعلى حسب الأحوال والمصلحة، والتفويض بهذا المعنى يدعون أنه حق ثابت لهم، والأخبار ناطقة به وشاهدة عليه، يقول صاحب الكافى: «سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة فى كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب، أجاب ثلاثة

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٧.

بأجوبة ثلاث، واختلاف الأجوبة فى مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التقية وإما على سبيل التفويض»[١].

وهناك نواع آخر من التفويض يثبتونه للنبى والأئمة، ذلك هو أن النبى أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق فى كل واقعة، كما كان لصاحب موسى فى قصة الكهف، وكما وقع لذى القرنين[٢].

ثم كان من توابع هذه العقيدة التى يعتقدونها فى أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة، وقالوا بالمهدى المنتظر، وقالوا بالرجعة، وقالوا بالتقية، وهذه كلها عقائد رسخت فى أذهانهم وتمكنت من عقولهم فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقًا لهواهم، وفهموا نصوصه وتأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوى... وهذا تفسير بالرأى المذموم، تفسير من اعتقد أولاً، ثم فسر ثانيًا بعد أن اعتقد.

تأثر الإمامية الاثنى عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك فى تفسيرهم:

هذا ... وإن الإمامية الاثنى عشرية لهم فى نصوص القرآن التى تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا فى مسائل قليلة، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذى كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ المعتزلة، كما يظهر لنا جليًا أن هذا الارتباط فى التفكير شىء قديم غير جديد، فالحسن العسكرى، والشريف المرتضى، وأبو على الطبرسى، وغيرهم من قدماء الشيعة، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية فى تفاسيرهم التى بأيدينا، والتى تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريبًا، بل إننا نجد الشريف المرتضى فى أماليه يحاول محاولة جدية أن يجعل عليًا ﷺ معتزليًا أو رأس المعتزلة على الأصح، وقد تقدمت لنا مقالته التى عرضنا لها عند الكلام عن أماليه[٣]، وليس من شك فى أن هذه النظرات

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٩. (٢) المرجع السابق ص ٨٩.

(٣) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله، والحسن، ابنا محمد ابن الحنفية، وعن أبى هاشم أخذ واصل بن عطاء ـ مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠، ١١.
يقول أبو الحسن الطرائفى الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧هـ فى كتابه: رد أهل الأهواء والبدع «عندما بايع الحسن بن على معاوية وسلم له الأمر، اعتزل جماعة من أصحاب على الحسن =

الاعتزالية كان لها أثر كبير فى تفسيرهم وستقف على شىء من ذلك إن شاء الله تعالى.

تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية فى تفاسيرهم:

ثم إن الشيعة لهم فى الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم فمثلاً نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهى: الكتاب، والسنة، والإجماع، ودليل العقل، أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد.

وأما السنة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها، وسنعرض لها فيما بعد أيضًا.

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم فى المجمعين، أو كان الإجماع كاشفًا عن رأيه فى المسألة، أو كان الإجماع عن دليل معتبر؛ فهو فى الحقيقة داخل فى الكتاب أو السنة.

وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس، ولا الاستحسان، ولا المصالح المرسلة، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم(١).

وفى الفقه لهم مخالفات يشذون بها، فمثلاً تراهم يقولون: إن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح دون الغسل، ولا يجوزون المسح على الخفين، وجوزوا نكاح المتعة، وجوزا أن تورث الأنبياء، ولهم مخالفات فى نظام الإرث، كإنكارهم للعول مثلاً، ولهم مخالفات كثيرة غير ذلك فى مسائل الاجتهاد.

لهذا كان طبيعيًا أن يقف الإمامية الاثنا عشرية من الآيات التى تتعلق بالفقه وأصوله موقفًا فيه تعصب وتعسف، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم ومذاهبهم، كما كان طبيعيًا أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث، بل ووجدناهم أحيانًا يزيدون فى القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت، وهذا إمعان منهم فى اللجاج، وإغراق فى المخالفة والشذوذ.

= ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة» من هامش تبيين كذب المفترى ص ١٠.

(١) انظر أعيان الشيعة (١/ ٤٧٧) وقد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص. انظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد على تقى الحيدرى طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠.

احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها:

ويظهر لنا أن الإمامية الاثنى عشرية لم يجدوا فى القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم، فراحوا **أولاً:** يدعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وبواطن كثيرة، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة، سواء فى ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالبواطن، وحجروا على العقول فمنعوا الناس من القول فى القرآن بغير سماع من أئمتهم، وراحوا **ثانيًا:** يدعون أن القرآن وارد كله أو جله فى أئمتهم ومواليهم، وفى أعدائهم ومخالفيهم كذلك، وراحوا **ثالثًا:** يدعون أن القرآن حرِّف وبدل عما كان عليه زمن النبى ﷺ ، وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز عقائدهم وإيهام الناس أنها مستقاة من القرآن الذى هو المنبع الأساسى والأول للدين.

وأعجب من هذا أنهم أخذوا يموهون على الناس، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله ﷺ وعلى أهل بيته، وطعنوا على الصحابة إلا نفرًا قليلا منهم، ورموهم بكل نقيصة فى الدين؛ ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التى يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله ﷺ .

ويحسن بنا ألا نمر سراعًا على هذه النقط الأربعة بالذات، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام والدعاوى التى كان لها أكبر الأثر فى اتجاه التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، فنقول وبالله التوفيق:

١- ظاهر القرآن وباطنه:

يقول الإمامية الاثنا عشرية: إن القرآن له ظاهر وباطن، وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعدما صح لدينا من الأحاديث التى تقرر هذا المبدأ فى التفسير[(١)]، غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هذا الحد، بل تجاوزوا إلى القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطنًا، ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وجعل باطنه فى الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما.

حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه:

ولقد كان من أثر هذا الرأى فى القرآن، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن

(١) سيأتى بيان المراد بالباطن قريبًا، وسترى أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية.

يعقدوا صلة بين المعانى الظاهرة والمعانى الباطنة للقرآن، ويعملوا بكل ما فى وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يقرِّبوا هذا المبدأ من عقول الناس ويجعلوه أمرًا سائغًا مقبولاً، ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه، قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة محمد ﷺ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام، ويقولون: إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعانى الظاهرة والباطنة، حتى لا يكون مستبعدًا إرادة الله لمعنى خاص بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر.

حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعانى الباطنة للقرآن:

وكأنى بالإمامية الاثنى عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه، وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه... كأنى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفى فى حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا، فحاولوا أن يحملوها عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الدينى، الذى يشبه الإرهاب الكنسى للعامة فى العصور المظلمة، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية، فقالوا: إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، ولا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليهم علم ذلك مفصلاً عن آل البيت، ويكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل، قالوا: ولا يجوز له أن ينكر الباطن بحال، وعليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه، ولو أن إنسانًا آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعًا.

وحرصًا منهم على تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر فى نصوص القرآن الكريم، قالوا: إن جميع معانى القرآن، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن، اختص بها النبى ﷺ والأئمة من بعده، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله؛ لأن القرآن نزل فى بيتهم (وأهل البيت أدرى بما فى البيت) أما من عداهم من الناس فلا

يرون أدنى شبهة فى قصور علمهم، وعدم إدراكه لكثير من معانى القرآن الظاهرة، فضلاً عن معانيه الباطنة، قالوا: ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول فى القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم، غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت واستمد علومه من أهل البيت حتى أنس من نفسه العلم والمعرفة، جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له؛ لأنه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم وقد قيل (سلمان منا آل البيت).

أثر التفسير الباطنى فى تلاعبهم بنصوص القرآن:

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطنى للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربًا بالغًا ومجالاً رحبًا، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم العقيدة، فأخذو يتصرفون فى القرآن كما يحبون، وعلى أى وجه يشتهون، بعدما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم وسلموا بأفكارهم ومبادئهم.

فقالوا مثلاً: إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعانى الباطنة لبعض الآيات إلى ما سيحدث فى المستقبل من حوادث، ويعدون هذا من وجوه إعجازه، ثم يفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى، وما يزينه فى أعينهم داعى العقيدة وسلطانها، فيقولون مثلاً فى قوله تعالى فى الآية (١٩) من سورة الانشقاق: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾ إنه إشارة إلى أن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أن يقولوا: إن اللفظ الذى يراد به العموم ظاهرًا كثيرًا ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن، فمثلاً لفظ الكافرين الذى يراد به العموم، يقولون: هو فى الباطن مخصوص بمن كفر بولاية على.

كما مكنهم أيضًا من أن يصرفوا الخطاب الذى هو موجه فى الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها، إلى من يصدق عليه الخطاب فى نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن، فمثلاً قوله تعالى فى الآية ١٥٩ من سورة الأعراف: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ يقولون فيه: قوم موسى فى الباطن هم أهل الإسلام.

ولقد مكنهم أيضًا من أن يتركوا أحيانًا المعنى الظاهر ويقولوا بالباطن وحده، كما فى قوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا**

نَصِيراً﴾ فالظاهر غير مراد عندهم، ويقـولون: عنى بذلك غير النبى؛ لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجـهًا للنبى ﷺ ، وإنما هو معنى به من قـد مضى، أو هو من باب (إياك أعنى واسمعى يا جارة).

كذلك مكنهم هذا المبدأ من إرجاع الضميـر إلى ما لم يسبق له ذكر، كما فى قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة يونس: ﴿قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَـدِّلْـهُ...﴾ حيث يفسرون (أو بدله) بمعنى أو بدل علـيًّا، ومعلوم أن عليًا لم يسبق له ذكر، ولم يكن الكلام مسوقًا فى شأن خلافته وولايته.

وممـا ساغ لهم أن يقـولوه بعد تقـريرهم لمبـدأ القول بالبـاطن: إن تأويل الآيات القرآنية لا يجـرى على أهل زمان واحد، بل عندهم أن كل فقرة من فقـرات القرآن لها تأويل يجرى فى كل آن وعلى أهل كل زمان، فمعانى القرآن على هذا متجددة، حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيه من حوادث، بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا: إن الآية الواحدة لها تأويلات كـثيرة مختلـفة متناقضة، وقـالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء آخـر... ولا شك أن باب التأويل الباطنى باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره.

وليس لقائل أن يقول: إن رسول الله ﷺ صرح بأن للقرآن باطنًا، وإن المفسرين جميعًا يعترفون بذلك ويقولون به، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية وحدهم؟ ليس لقائل أن يقول ذلك؛ لأن البـاطن الذى أشار إليه الحـديث وقال به جمـهور المفـسرين، هو عبـارة عن التـأويل الذى يحتـمله اللفظ القـرآنى، ويمكن أن يكون من مدلولاته، أمـا البـاطن الذى يقول به الشيـعـة فشىء يتـفق مع أذواقـهم ومشـاربهم، وليس فى اللفظ القرآنى الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة.

مخلصهم من تناقض أقوالهم فى التفسير:

ثم إن الإمامـية الاثنى عشرية، أحـسوا بخطر موقـفهم وتحرجه عندمـا جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكـثر من تفسير واحـد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفـاسير، فأخذوا يموهون على العامة ويضللونهم، فقرروا من المبادئ ما أوجبوا الاعتقاد به أولاً على الناس ليصلوا بعـد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المـأزق الحرج، فكان من هذه المبادئ التى قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتى:

أولاً: أن الإمام مفوض من قبل الله فى تفسير القرآن.

ثانيًا: أنه مفوض فى سياسة الأمة. **ثالثًا**: التقية.

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصًا للخروج من هذا التناقض الذى وقع فى تفاسيرهم التى يروونها عن أئمتهم، فكون الإمام مفوضًا من قبل الله فى تفسير القرآن مخلص لهم؛ لأن باب التفويض واسع، وكونه مفوضًا فى سياسة الأمة مخلص أيضًا؛ لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله، والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقيه، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه «قيل عند الباقر: إن الحسن البصرى يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذى ريح بطونهم أهل النار، فقال الباقر: فهلك إذا مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتومًا منذ بعث الله نوحًا، فليذهب الحسن يمينًا وشمالاً، لا يوجد العلم إلا ههنا... وأشار إلى صدره»[(١)].

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يرى فيه المصلحة... تقية منه أيضًا، وبنوا على هذا «أن الإمام إن قال قولاً على سبيل التقية، فللشيعى أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعى إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقية»[(٢)].

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجأون إلى هذه التقية... تقية الخداع فى الأخبار، والنفاق فى الأحكام، وإنما هى تمحلات يتمحلونها، ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذى وقعوا فيه.

٢- موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم:

ثم إن الإمامية الاثنى عشرية، قرروا أن الإقرار بإمامة على ومن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم، وبغض مخالفيهم وأعدائهم، أصل من أصول الإيمان، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك، مع الإقرار بباقى الأصول، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة، واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين.

قرر الإمامية هذا كله، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه، بل وزادوا على ذلك فقالوا: إن كل آيات المدح والثناء وردت فى الأئمة ومن والاهم، وكل آيات الذم والتقريع وردت فى مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدعون ما هو أكثر من ذلك فيقولون: إن جل القرآن بل كله، أنزل فى الإرشاد إليهم، والإعلان بهم، والأمر بموافقتهم، والنهى عن مخالفتهم.

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٠. (٢) المرجع السابق ص ٨٢.

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جله أو كله وارد فى أئمتهم ومن والاهم، وفى أعدائهم ومن وافقهم، أن قالوا: إن ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أنه أراد إدخال النبى ﷺ والأئمة معه، قالوا: وهو مجاز شائع معروف، بل وبالغوا فقالوا: إن الأئمة هم المقصودون بالذات أحيانًا كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧) حيث رووا عن أبى جعفر محمد الباقر أنه قال فيها: «إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم، ولكن خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥) بمعنى الأئمة منا[١]».

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة والإله والرب، مرادًا به الإمام وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه، وتأولوا ما أضافه الله إلى نفسه من الإطاعة والرضى والغنى والفقر مثلاً، بما يتعلق بالإمام كإطاعته، ورضاه وغناه، وفقره... إلخ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف... ولكن لا شيوع لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذ المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى، وأين العلاقة هنا؟ وإذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم... لم هذا التكلف والعدول إلى المجاز، وقد تقرر أنه لا يعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة؟.

٣- تحريف القرآن وتبديله:

وأحسب أن الإمامية الاثنى عشرية، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح فى عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفيهم، وكأنى بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جله واردًا فى شأن الأئمة وشيعتهم، وفى شأن أعدائهم ومخالفيهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحًا مع أنه المقصود أولاً وبالذات؟ ولم اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟.. كأنى بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، راحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذى جمعه على عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرف ومبدل، حذف منه كل ما ورد صريحًا فى فضائل آل البيت، وكل ما ورد

---

(١) مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٢٩ والآية رقم (٥٥) من سورة المائدة.

صريحًا فى مثالب أعدائهم ومخالفيهم، وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم فى ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافى عن الصادق: أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقى مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه على[١].

ويقولون: إن سورة (لم يكن) كانت مشتملة على اسم سبعين رجلاً من قريش بأنسابهم وآبائهم، وإن سورة (الأحزاب) كانت مثل سورة (الأنعام) أسقطوا منها فضائل أهل البيت، وإن سورة (الولاية) أسقطت بتمامها... وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف ما لهم فى هذا الموضوع هو (أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل، والباقى مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شىء، وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين على)[٢].

ولقد اصطدم مدعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة فى هدم مدعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ ولكن سرعان ما تخلصوا منها بالتأويل فقالوا: (وإنا لحافظون... أى عند الأئمة) وبمثل هذا التأويل يتخلصون من باقى النصوص المعارضة لهم.

واصطدموا أيضًا بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم ومبادئهم.

أولهما: كيف تعتمدون على تعاليمكم ومعتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا وقد جزمتم بوقوع التحريف والتبديل فيه؟.

ثانيهما: كيف توجبون على الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت، ويتبرأوا من أعدائهم ومخالفيهم، والحجة غير قائمة عليهم بعد أن حذف كل ذلك من القرآن؟.

وقد أجابوا عن الأول: بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على، وآل محمد، وأسماء المنافقين.

وقد أجابوا عن الثانى: بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فلم يكتف بما جاء صريحًا فى فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم، بل

---

(١) الوشيعة ص ٢٣. (٢) المرجع السابق ص ٢٧.

أشار إلى ذلك ودل عليه بحسب بطون القرآن وتأويله، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعًا، فبقيت الحجة قائمة على الناس وإن بدلوا الظاهر وحرفوه.

والحق أن الشيعة هم الذين حرفوا وبدلوا، فكثيرًا ما يزيدون فى القرآن ما ليس منه، ويدعون أنه قراءة أهل البيت، فمثلاً نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ يزيدون (فى شأن على) وهى زيادة لم ترد إلا من طريقهم، وهى طريق مطعون فيها.

وهم الذين حرفوا القرآن أيضًا حيث تأولوه على غير ما أنزل الله «قيل للصادق: ألم يكن على قويًا فى دين الله؟ قال: بلى، قيل: فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم؟ وما منعه من ذلك؟ قال الصادق: آية فى كتاب الله منعته، قيل: أى آية؟ قال: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفتح: ٢٥) كان لله ودائع مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن على يقتل الآباء حتى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر علىٌّ على من ظهر فقتلهم»(١).

وروى العياشى عن الباقر أنه قال: لما قال النبى ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام» أنزل الله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(٢) (الكهف: ٥١).

وتقول أصول الكافى فى قوله تعالى فى الآية (١٣٧) من سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان، آمنوا بالنبى أولاً، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية على، ثم آمنوا بالبيعة لعلى، ثم كفروا بعد موت النبى، ثم ازدادوا كفرًا بأخذ البيعة من كل الأمة(٣).

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدى القارئ الكريم ليحكم بنفسه حكما صادقًا: أن هؤلاء الشيعة، الذين يدعون التحريف والتبديل للقرآن، هم أنفسهم المحرفون لكتاب الله المبدلون فيه، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها وتقولهم على الله بالهوى والتشهى.

---

(١) الوشيعة ص ٦٤ نقلاً عن الوافى (٢/ ١٥٢).
(٢) الوشيعة ص ٦٤.
(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلاً عن أصول الكافى (٣/ ٣٢٥).

٤- موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة:

ولقد رأى الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ، وأمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة ﷺ أجمعين، وفى تلك الأحاديث وهذه الآثار ما يخالف تعاليمهم مخالفة صريحة: لذا كان بدهيا أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها، وإما بطريق تأويلها، والرد عندهم سهل ميسور؛ ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولا لصحابى، وإما أن تكون قولاً لرسول الله ﷺ عن طريق صحابى، وهم يجرحون معظم الصحابة، بل ويكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولاً، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما... وأما التأويل فباب واسع... وهم أهله وأربابه.

فمثلاً نجدهم يردون الأحاديث والآثار التى تثبت فى تحريم نكاح المتعة ونسخ حله، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين ويقولون: إنه من رواية المغيرة ابن شعبة رأس المنافقين، ثم نجدهم يسلمون صحة الرواية جدلاً ولكنهم يتأولونها فيقولون: إن الخف الذى كان يلبسه النبى ﷺ كان مشقوقًا من أعلى، فكان يمسح على ظاهر قدمه من هذا الشق... وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف.

فإذا كان هؤلاء لا يقبلون أقوال الصحابة، ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله ﷺ، إذًا فمن يقبلون قوله؟ ومن يثقون بروايته؟.

الذى عليه الشيعة إلى اليوم، أنهم لا يأخذون الحديث إلا ممن كان شيعيًا، ولا يقبلون تفسيرًا إلا ممن كان شيعيًا، ولا يثقون بشيء مطلقًا إلا إذا وصل لهم من طريق شيعى!!... وبهذا حصروا أنفسهم فى دائرة خاصة، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم، فإن عاشوا وسط السُّنيين فباطنهم لأنفسهم، وظاهرهم للتقية!!.

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد ـ حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم ـ بل وجدنا الرؤساء من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى وغيره قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطَيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته، ويضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية، وأغراضهم السيئة الدنيئة، ولم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم...

ويعجبنى هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائينى فى كتابه التبصير فى الدين، وهو: أن

الروافض «لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف، ويصنف لكل فريق، قالت له الروافض: صنف لنا كتابًا، فقال لهم: لست أدرى لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها، فقالوا له: إذًا دلنا على شىء نتمسك به، فقال: لا أرى لكم وجهًا، إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئًا تزعمونه، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سببًا تستندون إليه غير هذا الكلام... فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التى دلهم عليها، فكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة، نسبوها إلى ذلك السيد الصادق، وهو عنها منزه ومن مقالتهم فى الدارين برىء»[١].

أهم الكتب التى يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار:

هذا... وللإمامية الاثنى عشرية كتب كثيرة، يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية، ويثقون بها وثوقًا بالغًا، فمن أهم هذه الكتب ما يأتى:

أولاً: كتاب الكافى، وهو أهم الكتب عند الإمامية الاثنى عشرية على الإطلاق، وهو لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ، وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة، وهذا الكتاب يحتوى على ستة عشر ألف حديث، قسمها - كما فعل أهل السنة - إلى صحيح، وحسن، وضعيف، وهو يقع فى ثلاث مجلدات: المجلد الأول فى الأصول، والثانى والثالث فى الفروع.

ثانيًا: كتاب التهذيب لمحمد بن الحسن الطوسى، مجلدان فى الفروع.

ثالثًا: كتاب من لا يحضره الفقيه، لمحمد بن على بن بابويه، وهو فى الفروع.

رابعًا: كتاب الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار، لمحمد بن الحسن الطوسى «اختصره من كتاب التهذيب».

هذه الكتب الأربعة، هى أمهات كتب الشيعة التى يعتمدون عليها ويثقون بها، وقد جمعها كتاب الوافى فى ثلاثة مجلدات كبيرة، وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى، المعروف بملاّ محسن الكاشانى. وهناك كتب فى الحديث ذكرها صاحب أعيان الشيعة غير ما تقدم، منها: وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة، للشيخ محمد بن الحسن العاملى، وبحار الأنوار فى أحاديث النبى والأئمة الأطهار، للشيخ محمد الباقر، وهى لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة[٢].

والذى يقرأ فى هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم

(١) التبصير فى الدين ص ٢٦.
(٢) أعيان الشيعة (١/ ٢٩٢، ٢٩٣).

بأن متـونها موضوعـة، وأسانيدها مـفتعلة مصنوعـة، كما لا يسـعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع؛ لأنهم ينقصهم الذوق، وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأية مهارة فى تلك الرواية التى يروونها عن جعفر الصادق ﷺ، وهى: أنه قال: «ما من مـولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرتـه، فأعلم الله أن المولود من شيـعتنا حجـبه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن المـولود من شيعـتنا أثبت الشيطان أصبعه فى دبر الغلام فكان مأبونًا، وفى فرج الجارية فكانت فاجرة»[1] .

أظن أن القارئ معى فى أن الذى وضع هذه الرواية واختلقهـا على جعفر الصادق، رجل ينقصه الـذوق، وتعوزه المهارة، ونحن أمام هذه الأحـاديث والروايات، لا يسعنا إلا أن نردها ردًا باتًا، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: إن غـالب هذه الأحاديث يـروونها بدون سند، بـل يعتـمـدون على مجـرد وجودها فى كـتبـهم، تروى كتب الشيـعة أن إمـامًا من أئمة أهل الـبيت، أولاد على، يقـول: «ذروا الناس فإن الناس أخـذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسـول الله» ولكن بأى سند؟ تجيب كتب الشيعة: «إن شيوخـنا رووا عن الباقر وعن الصادق وكانت التقية شديدة، وكانت الشيوخ تكتم الكتب، فلما خلت الشـيوخ وماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا، فقال إمام من الأئمة: حدثوا بها فإنها صادقة»[2] .

ثانيًا: إن ما روى من هذه الروايات مسندًا لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبـه، وقد قال رجـال الحديـث: إنه لا تقـبل رواية المبتـدع الذى يدعو لمـذهبه ويروج له.

ثالثًـا: (إن القاعدة المتفق عليها بين المـحدثين أن كل متن يناقض المعقول، أو يخالف الأصول، أو يعـارض الثابت من المنقول، فهو موضـوع على الرسول) وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة.

وكلمة الحق والإنصاف: أنه لو تصفح إنسان أصول الكافى وكتاب الوافى وغيرهما من الكتب التى يعـتمد عليـها الإمامـية الاثنا عشـرية، لظهر له أن مـعظم ما فيـها من الأخبار موضوع وضع كذب وافتراء، وكثير مما روى فى تأويل الآيات وتنزيلها، لا يدل إلا على جهل القائل بها وافـترائه على الله، ولو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن، لما كان قرآن، ولا إسلام، ولا شرف لأهل البيت، ولا ذكر لهم.

---

(١) الوشيعة ص ٤٠ نقلاً عن الوافى جـ١٣ ص ١٤.

(٢) الوشيعة ص ٤٦، ٤٧ نقلاً عن الوافى (١/ ١٢٤) وشرح الكافى (١/ ٢٨).

وبعد. . . فغالب ما فى كتب الإمامية الاثنى عشرية فى تأويل الآيات وتنزيلها، وفى ظهر القرآن وبطنه، استخفاف بالقرآن الكريم، ولعب بآيات الذكر الحكيم. . . وإذا كان لهم فى تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم، بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل، والكثير منها صدر عمدًا عن هوى ملتزم، وللشيعة ـ كما بينا ـ أهواء التزمتها.

أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية

للإمامية الاثنى عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير، منها ما تم، ومنها ما لم يتم، ومنها القديم، ومنها الحديث، ومنها ما بقى، ومنها ما اندثر، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال، واختلاف فى المنهج الذى سلكه مؤلف كل منها، ومن هذه الكتب ما يأتى:

١- **تفسير الحسن العسكرى**، المتوفى سنة ٢٥٤هـ أربع وخمسين ومائتين من الهجرة، لم يتم، وهو مطبوع فى مجلد واحد، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٢- **تفسير محمد بن مسعود** بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف بالعياشى، من علماء القرن الثالث الهجرى، وهو من أمهات كتب التفسير عند الشيعة، وعليه يعولون كثيرًا، ولم يقع لنا هذا التفسير.

٣- **تفسير على بن إبراهيم القمى**، فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، وهو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيرًا، وهو مبطوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٤- **التبيان**: للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠هـ ستين وأربعمائة من الهجرة، وهو الذى استمد منه الطبرسى تفسيره، وقد ذكر صاحب أعيان الشيعة أنه يقع فى عشرين مجلدًا، ولم يقع لنا هذا التفسير أيضًا(١).

٥- **مجمع البيان**: لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأزهرية(٢).

---

(١) ذكر لى عندما كنت بالعراق: أن هذا التفسير يجرى طبعه فى النجف، ولعله تم الآن.
قلت: طُبع وستتكلم عليه فى التتمة. (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) وقد طبع أخيرًا فى إيران فى عشر مجلدات، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن، وقد صدر منه جزء واحد.

٦- **الصافى**: لمحمد بن مرتضى، الشهير بملا حسن الكاشانى، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

٧ - **الأصفى**: للمؤلف السابق، وهو مختصر من الصافى، ومطبوع فى مجلد واحد كبير، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة).

٨ - **البرهان**: لهاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسينى البحرانى، المتوفى سنة ١١٠٧هـ سبع ومائة بعد الألف من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلدين، وموجود بدار الكتب المصرية.

٩ - **مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار**: للمولى عبد اللطيف الكازرانى[(١)]، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط، وهى مطبوعة فى مجلد كبير وموجودة فى دار الكتب المصرية.

١٠- **المؤلف**: لمحمد مرتضى الحسينى، المعروف بنور الدين، من علماء القرن الثانى عشر الهجرى، وهو مخطوط فى مجلد واحد صغير، وموجود بدار الكتب المصرية.

١١- **تفسير القرآن**: للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوى، المتوفى سنة ١٢٤٢هـ اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة، وهو مطبوع فى مجلد كبير، وموجود بدار الكتب المصرية.

١٢- **بيان السعادة فى مقامات العبادة**: لسلطان بن محمد بن حيدر الخراسانى، من علماء القرن الرابع عشر الهجرى، وهو مطبوع فى مجلد كبير وموجود بدار الكتب المصرية.

١٣- **آلاء الرحمن فى تفسير القرآن**: لمحمد جواد بن حسن النجفى المتوفى سنة ١٣٥٢هـ اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، لم يتم، والموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول، وهو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه، وهو يبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة النساء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً** ...﴾ الآية.

---

(١) هكذا فى الأصل، والصحيح ما سنبينه عند الكلام على هذا التفسير. (د/ مصطفى الذهبى).

هذا هو أهم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وقد أمكننى أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب، وعلى غير ما ذكرته مما هو موجود أيضًا بدار الكتب المصرية، فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها فى التفسير، واتجاهاتهم فى فهمهم لكتاب الله تعالى، وكم كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى، وتفسير الطوسى؛ لأقف بنفسى على هذين الكتابين المعتبرين أهم المراجع فى التفسير عند أرباب هذا المذهب.

وأظننى لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم فى التفسير، بل يكفينى أن أتكلم عن بعض منها، وهو أهمها، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختيارى، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وطابع يمتاز به عما سواه.

وقد رأيت أن ألخص أولاً مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للعاملى، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص.

ثم أتكلم عن تفسير الحسن العسكرى، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين، الذين عندهم علم الكتاب كله، ظاهره وباطنه.

ثم عن مجمع البيان للطبرسى، لأنه يمثل لنا تفاسير معتدلى الإمامية الاثنى عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم.

ثم عن الصافى لملا محسن الكاشانى: لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفى الإمامية الاثنى عشرية.

ثم عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوى، لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذى جمع بين الاختصار وكثرة الفائدة.

ثم عن بيان السعادة فى مقامات العبادة، لسلطان بن محمد الخراسانى؛ لأنه يمثل لنا التفسير الصوفى الفلسفى عند الإمامية الاثنى عشرية.

هذه هى أهم الكتب التى سأتكلم عنها وعن مؤلفيها وسأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها فى الذكر، فأقول مستمدًا من الله العون والتوفيق:

١- مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار لأبى الحسن العاملى

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

«هو الفاضل، والباذل جهده فى سبيل التكليف، أبو الحسن العاملى، ثم الأصفهانى، ابن المولى محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن على بن معتوق بن عبد الحميد العاملى، وقد كان من أعاظم فقهائنا المتأخرين، وأفاخم نبلائنا المتبحرين، سكن ديار العجم طوالا من السنين، وهاجر إلى النجف... وكان ميلاده ببلدة أصفهان[٢] لما أن والده المولى محمد طاهر كان قاطنًا بها برهة من الزمان، وناكحًا فيها والدته المرضية العلوية التى هى أخت سيدنا الأمير محمد صالح بن عبد الواسع الحسينى.. كما أن تعبيره عن نسب نفسه فى أواخر ما وجدنا من أرقامه المباركة: بأبى الحسن العاملى الشريف دليل على ذلك أيضًا وعلى أن البلدة المزبورة هى ميلاده المنيف.

ثم ذكر مشايخ إجازته وهم:

١- العلامة الثقة الثبت: ملا محمد بن باقر بن محمد تقى المجلس، وتاريخ إجازته له: ثالث ربيع الأول سنة ١١٠٧هـ.

٢- الشيخ محمد حسين بن الحسن بن على بن عبد العالى الميسى، وتاريخ إجازته له: شهر صفر سنة ١١٠٧هـ.

٣- الأمير محمد صالح بن عبد الواسع بن محمد صالح الحسينى، المتوفى سنة ١١١٦هـ، وتاريخ إجازته له: سنة ١١٠٧هـ.

٤- الشيخ عبد الواحد بن أحمد البورانى، وتاريخ إجازته له: ١٥شوال سنة ١١٠٣هـ.

٥- الشيخ قاسم بن محمد الكاظمى، نزيل النجف، المتوفى سنة ١١٠٠هـ.

٦- الحاج محمود بن على الميبدى (الميمندى) المشهدى، وتاريخ إجازته له: المحرم سنة ١١٠٧هـ.

٧- محمد بن المرتضى المدعو بملا محسن الكاشانى صاحب الوافى والصافى والشافى.

---

(١) نسب هذا التفسير فى الطبعات الأولى خطأ للمولى عبد اللطيف الكازرانى، والصواب هو ما أثبتناه نقلا عن الوالد. (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) قال معلقه: لم نقف على شهر ولا سنة ولادته مع كثرة التشبع منا فى كتب الترجمات، تراجع ترجمته فى روضات الجنات، والزريعة: (١/ ٤، ١٤٩).

٨- السيد البارع المحدِّث نعمت الله بن عبد الله الموسوى التسترى الجزائرى.

٩- المولى المحقق صاحب التصانيف آقا حسين الخوانسارى.

قال: «إلا أن غالب روايته الموجودة فى الإجازات المنتمية إلينا مقصورة على شيخه الأفعم الأقدم محمد باقر بن محمد تقى المجلسى، رضوان الله عليه».

ثم ذكر تلاميذه وهم:

١- الشيخ أحمد بن إسماعيل ابن الشيخ عبد النبى بن سعيد الجزائرى النجفى (المتوفى بعد سنة ١١٤٩هـ) بقليل، وهو صاحب آيات الأحكام.

٢- السيد السعيد نصر الله بن الحسين بن على الحسينى الفائزى الحايرى، الشهيد فى حدود سنة ١١٦٨هـ.

٣- الشيخ محمد مهدى بن بهاء الدين محمد الملقب بالصالح الأفتونى العاملى الغروى، ابن عم المولى أبى الحسن، صاحب الترجمة.

ثم نقل صاحب المقدمة «محمود بن جعفر الموسوى» عن العلامة النورى فى «الفيض القدسى» نبذة عن أبى الحسن العاملى (المترجم له) ما ملخصه:

«العالم العامل الفاضل الكامل المدقق العلامة أفقه المحدِّثين، وأكمل الربانيين، الشريف العدل المولى أبو الحسن بن محمد طاهر بن عبد الحميد بن موسى بن على ابن معتوق بن عبد الحميد الفتونى النباطى العاملى الأصفهانى الغروى... وهذا الشيخ جليل القدر عظيم الشأن، أفضل أهل عصره فيما أعلم، وهو مؤلف «مرآة الأنوار» إلى أواسط سورة البقرة، يقرب مقدماته من عشرين ألف بيت لا يوجد مثله، وكتاب «ضياء العالمين فى الإمامة» يزيد عن ستين ألف بيت، أجمع وأجل ما كُتب فى هذا الفن، وغيرهما مما جمع بعضه فى اللؤلؤة.

توفى فى أواخر عشر الأربعين بعد المائة والألف (١١٣٨هـ) وكان له ولد عالم فاضل محقق متتبع فى غاية الذكاء وحسن الإدراك، متوسع فى العقليات والشرعيات، اسمه: المولى أبو طالب، كما صرح به السيد عبد الله سبط الجزائرى فى إجازته».

... ثم ذكر مؤلفاته فقال ما ملخصه:

«وله من المصنفات المشهورة التى عثرنا عليها: كتاب لطيف طريف جعله فى خصوص الأوليين... وسماه: «الفوائد الغروية» لكونه من بركات زمن مجاوزته بأرض الغرويين.. وعندنا الجزء المتأخر الذى هو فى أصول الفقه منه بخط مؤلفه المبرور.

وله أيضًا رسالة غراء مبسوطة فى مسألة الرضاع، وكتاب كبير فى التفسير على النحو الذى ورد فى متـون الأخبار سمـاه «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» لم يخـرج منه سوى مجلدين: المجلد الأول يحوى مقدمات التفسير وعموم العلوم المتعلقة بالقرآن المجيد، وجاء فى المجلد الثانى تفسير سورة الفاتحة وما يقارب النصف من تفسير سورة البقرة».

ثم قال: قال شيخنا البحر المتلاطم الزخار الحاج ميرزا حسن النورى الطبرسى فى خاتمة كتابه «المستدرك» فى الفـائدة الثالثة من (ص ٣٨٥) فى الحاشية: ومن الحوادث الطريفة والسرقات اللطيفة أن مجلد مقدمات تفسير هذا المولى الجليل المسمى بـ «مرآة الأنوار» موجودة الآن بخط مؤلفه فى خزانة كتب حفـيده شيخ الفقهاء صاحب «جواهر الكلام» طاب ثراه، واستنسخناه بتعب ومشقـة، وكانت النسخة معى فى بعض أسفارى إلى طهران فـأخذها منى بعض أركان الدولة، وكان عـازمًا على طبع «تفسيـر البرهان» للعالِم السيد هاشم البحرانى، وقال لى: إن تفسيره خال عن البيان فيناسب أن نلحق به هذه النسخة ليتم المقصود بها، فاستنسخها ورجعتُ إلى العراق، وتوفى هذا البانى قبل إتمام الطبع، فاشترى ما طُبع من التفـسير ونسخة «المرآة» من ورثته بعض أرباب الطبع فأكمل النـاقص وطبع «المرآة» فى مجلد، ولما عـثرت عليه فى المشـهد الغروى رأيت مكتوبًا على ظهر الورقة الأولى منه: كتاب «مـرآة الأنوار ومشكاة الأسرار» وهو مصباح لأنظار الأبرار، ومقدمة للتفسير الذى صنفه الشيخ الأجل والنحرير الأنبل العالم العلامة والفاضل الفهامة الشيخ عبد اللطيف الكازرانى مولدًا والنجفى سكنًا... إلخ، فتحيَّرتُ وتعجَّـبتُ من هذه السرقـة فكتبتُ إلى بانى الطبع مـا معناه: إن هذا التفـسيـر للمولى الجليل أبى الحسن الشـريف، وأما عبـد اللطيف فلم أسمع بذكره ولم نره فى كـتاب، ولعل الكاتب السارق المطفئ لنور الله اشـتبه عليه ما فى صدر الكتـاب بعد الخطبة من قوله: «يقول العبد الضعيف الراجى لطف ربه اللطيف خادم كلام الله الشريف»... إلى آخره، فظن أنه أشـار إلى اسمـه فى ضمن هذه العبـارة ولكن النسبـة إلى «كازران» لا أدرى ما منشؤها، فوعدنى فى الجواب أن يتدارك ويـغير ويبدل الصفحة الأولى ويكتب على ظهرها اسم مؤلفه وشرح حـاله الذى كتبته سالفًا على ظهر نسخـتى من التفسير، وإلى الآن ما وفَّى بعهده، وأعـد نفسه لمؤاخذة المولى الشـريف فى غد، فليبلغ الناظر الغائب أن هذا التفـسير المطبوع فى سنة (١٢٩٥هـ) فى طهران المكتـوب فى ظهره ما

تقدم للمولى أبى الحسن الشريف الذى يعبر عنه فى الجواهر بجدى العلاَّمة، لا لعبد الطيف الكازرانى الذى لم يتولد بعد... إلى الله المشتكى وهو المستعان».

... ثم ذكر له ترجمة أخرى تتضمن ما سبق، وفيها من مؤلفاته شرح على المفاتيح سماه: «شريعة الشيعة ودلائل الشريعة».

«قال صاحب روضات الجنات: ويظهر من تضاعيف كتاب الآمل أن بيت بنى موسى بن على النباطيين العاملين بيت كبير من أهل الفقه والأدب والحديث، وأكثرهم كانوا متوطنين إما بمحروسة أصفهان أو مجاورين بالنجف الأشرف».

وفى خطبة الكتاب للمؤلف ما نصه:

«أما بعد... فيقول العبد الضعيف الراجى لطف ربه اللطيف، خادم كلام الله: أبو الحسن الشريف» (١/ ٣).

وقال الناشر فى آخر المقدمة ما نصه:

«والحمد لله على أن وفقنا لتجديد طبع هذا الكتاب الذى لم يأت بمثله ذوو العلوم من تأويلات أيات كتاب الله المبين والفرقان العظيم، وحل مشكلاته مستدلاً فيما جاء به من التأويل بالأحاديث المأثورة عن النبى ﷺ والأئمة عليهم السلام.

جزى الله مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء».

التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يعد فى الحقيقة مرجعًا مهمًا من مراجع التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وأصلاً لا بد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومن على شاكلته فى فهمه لكتاب الله، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعى... ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، ونحن لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية؟ أليس هذا يعد من قبيل الحكم على ما نجهله، والقول فيما ليس لنا به علم؟؟... لا، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير، ذلك هو مقدمته التى قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا.

وجدت هذه المقدمة فى دار الكتب المصرية، فقرأتها، فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها فى تفسيره، وتوضح لنا كثيرًا من آرائه فى فهم كتاب الله وتبين فى

صرحة تامة كيف تأثر المؤلف بعقيدته الزائفه، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال، وها أنا ذا ألخص لك أهم المباحث التى تشتمل عليها هذه المقدمة، ولذلك نلقى ضوءًا على هذا التفسير المفقود ونعطى القارئ فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه فى تفسيره.

المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى منهجه الذى سلكه فيه:

يجد القارئ أول ما يقرأ فى هذه المقدمة، بيانًا مسهبًا من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذى حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذى نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما يكشف لنا فى أثناء بيانه هذا، عن نظرته لكتاب الله وموقفه من تفسيره، تلك النظرة التى لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف من أغراه مذهبه وخدعه هواه.

يقول المؤلف فى المقدمة ص٢، ٣ ما نصه: «. . . إن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأمور وأشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد. . . وكل فقرة من كتاب الله الحميد، ظهرًا وبطنًا؛ وتفسيرًا وتأويلاً، بل لكل واحدة منها ـ كما يظهر من الأخبار المستفيضة ـ سبعة بطون وسبعون بطنًا، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيرًا من تنزيلها وتفسيرها، فى فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلالة حال القادة الأخيار، أعنى النبى المختار، وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار، بل الحق المتين، والصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفى أوليائهم نزلت، وأن جل فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد والتفضيح، بل جملتها فى مخالفيهم وأعدائهم وردت، بل التحقيق الحقيق ـ كما سيظهر عن قريب ـ أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن فى دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جل ظهره فى دعوة التوحيد والنبوة والرسالة».

وهذه الدعاوى من المؤلف لا نكاد نسلمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة على ما ذهب إليه، أمر لا

يلتفت إليه ولا يعول عليه، لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدو أن يكون موضوعًا لا أصل له، ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعى مبالغ فى تشيعه إلى حد جعله يحمل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله، ويجعله موزعًا بين دعوة الحق ودعوة الباطل، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه!!.

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسرى الشيعة الذين سبقوه، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة فى تفاسيرهم، وبين عذرهم فى ذلك.

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدره، ويدور بخاطره وخلده، أن يجمع ما تفرق من الأخبار المأثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها، وذلك كله فى كتاب مستقل، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه ـ حقبة من الزمن ـ تفرقُ باله، وتشتت حاله، وكثرة أشغاله، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التى كان حريصًا على جمعها، فرأى أن الذى تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه، فشرع فى جمع الروايات وتحريرها، وتفسير الآيات وتقريرها.

ثم بين لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير، وهو أنه أراد أن يفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف، وبيان لطيف، وطور رشيق، وطرز أنيق، بطريق الإيجاز والاختصار، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار، بحيث يوضح غوامض أسرارها، ويكشف عن خبايا أستارها، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها، من غير تطويل ممل، ولا اختصار زائد مخل.

ثم بيَّن لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير، وهو يتلخص فيما يأتى:

١- يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها، بل يقتصر على موضع الحاجة، ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار.

٢- أنه لا يتعرض لبيان جمع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جلها.

٣- أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها.

٤- أنه يحرص كل الحرص على ما ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن.

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير «ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان، وثاني أول ما خلق الله قبل الكون والمكان، قاسم درجات الجنان ودركات النيران... إمام المشارق والمغارب، أمير المؤمنين أبى الحسنين على بن أبى طالب».

ثم قال: «وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلنى فى شيعته الخاصين وأوليائه الخالصين وأن تدركنى شفاعته المقبولة، وحمايته المأمولة وجعلته خدمة لسدته السنية وثوابه هدية إلى حضرته العلية وسميته: مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار».

وبالجملة، فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار من علماء أهل البيت إما صريحًا أو استخلاصًا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت ﷺ.

بعد هذا البيان قال المؤلف: «ولنذكر قبل الشروع فى المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها ههنا» ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فنراه قد جعل المقدمة الأولى فى بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة، وأن الأصل فى تنزيل آيات القرآن بتأويلها، إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبى والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عز شأنهم وذل حال شانئهم، بحيث لا خير أخبر به إلا وهو فيهم وفى أتباعهم وعارفيهم ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفى مخالفيهم، قال: «ويستبين ذلك فى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: فى بيان ما يوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة فى خصوص هذه المقدمة، وهى تتم بفصول» ثم ذكر ثلاثة فصول.

جعل **الفصل الأول** منها فى بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطونًا ولآياته تأويلات، وأن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد، بل لكل منها تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان... ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت، فمن هذه الروايات ما رواه العياشى وغيره عن جابر قال:

«سألت أبا جعفر عليه السلام عن شىء من تفسير القرآن فأجابنى، ثم سألته ثانية فأجابنى بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كيف أجبت فى هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لى: يا جابر، إن للقرآن بطنًا، وللبطن بطنًا وظهرًا، يا جابر، وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن... إن الآية ليكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه» ثم عقب المؤلف على هذا الخبر فقال: (دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن وظاهر، وعلى تعدد تأويل آية واحدة، وعلى عدم تنافى تأويل أول آية فى شىء وآخرها فى آخر، بل عدم تنافى التفسير بالظاهر فى أولها والباطن فى آخرها أو بالعكس ظاهره، فإذا سمعت شيئًا من ذلك فلا تنكره؛ لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل، وبما فيه إصلاح السائل والسامع، ولهذا ورد: «إن القرآن ذلول ذو وجوه فأحملوه على أحسن الوجوه» ويؤيده ما فى الكافى عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ (الرعد: ٢١) هذه نزلت فى رحم آل محمد ﷺ وقد يكون فى قرابتك، فلا تكون ممن يقول للشىء إنه فى شىء واحد».

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبى حكيم الزاهد قال: حدثنى أبو عبد الله بمكة قال: «بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلى فاستحسن صلاته، فقال: يا هذا الرجل، إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه ﷺ بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل، وكل ذلك على التعبد، فمن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة» ثم عقب المؤلف على هذا فقال: «الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه، وبالتأويل الباطن، وبالتنزيل الظاهر، وبالتعبد سبيل الإطاعة، والمعنى: أن كل ما جاء به النبى ﷺ وأمر به فى الظاهر فله شبيه ونظير مأمور به فى الباطن، ويلزم الإيمان بهما جميعًا، فمن لم يعرف شبيه الصلاة وباطنها الذى هو الإمام إطاعته - كما سيأتى - فصلاته الظاهرية ناقصة». (ص٣، ٤).

وعقد الفصل الثانى فى ذكر الأخبار الصريحة فى أن بطن القرآن وتأويله إنما هو بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك، فكان من جملة الأخبار التى ساقها: ما رواه الكلينى بإسناده إلى أبى بصير قال: «قال الصادق عليه السلام: يا أبا

محمد، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلا وهى فينا وفى شيعتنا، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهى فى عدونا ومن خالفنا».

وما نقله عن الكافى وتفسير العياشى وغيرهما، عن محمد بن ميمون، عن الكاظم عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾ (الأعراف: ٣٣) قال: «القرآن له ظهر وبطن، فجميع ما حرم الله فى الكتاب هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل الله فى الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق.

وما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبى ﷺ فى خطبته يوم الغدير: «معاشر الناس: هذا علىٌّ أحقكم بى، وأقربكم إلىَّ، والله وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضى إلا فيه، وما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به، وما نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه، معاشر الناس: إن فضائل على عند الله عز وجل، وقد أنزلها علىَّ فى القرآن أكثر من أن أحصيها فى مكان واحد فمن نبأكم بها وعرفها فصدقوه».

وما رواه عن عبد الله بن سنان أنه قال: قال زريح المحاربى: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ (الحج: ٢٩) فقال: المراد لقاء الإمام، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام وقلت له: جعلت فداك، قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: أخذ الشارب، وقص الأظافر، وما أشبه ذلك، فحكيت له كلام ذريح فقال: صدق ذريح وصدقت، إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا ومن يحتمل ما يحتمل ذريح؟» ثم عقب المولى على هذا فقال: «الكلام من الإمام عليه السلام صريح فى أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس، حتى عن ابن سنان الذى كان من فضلاء أصحابه». (ص٥).

وعقد **الفصل الثالث** فى بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال: «اعلم أن ما دلت عليه الأخبار الماضية، وما تدل عليه الأخبار التى ستأتى من المعانى الباطنة والتأويلات، ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة، بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز، ونهج الاستعارة، وسبيل الكناية، ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، إذ أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة، فلا استبعاد

إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذى يدل عليه ظاهر اللفظ معنى، وبحسب التجوز الذى تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر، وسنشير إلى كثير من وجوه التناسب فى المقدمة الثالثة وغيرها، ولكن نذكر فى هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يستفاد من أخبار الأئمة الأطياب، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب، ونكشف عنها النقاب، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الألباب، وأما إحاطة العلم بالجميع، فهى للراسخين فى العلم ومن عنده علم الكتاب. . . كما سيظهر فى الفصل الأخير.

فاعلم أنه يمكنه تبيين المرام فى هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضه إلى بعض» ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال، فكان مما ذكره فى الوجه الرابع: ما جاء فى البصائر «عن نصر بن قابوس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل: ﴿**وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ**﴾ (الواقعة: ٣٠ - ٣٣) قال: يا نصر إنه ليس حيث يذهب الناس إنما هو العالمُ وما يخرج منه».

ثم قال المؤلف: «قال شيخنا العلامة ـ رحمه الله: لعل المعنى ليس حيث يذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين فى الجنة الصورية الأخروية، بل لهم فى الدنيا أيضًا ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود فى الدنيا والآخرة، وماء مسكوب من علومهم الممتعة التى بها تحيا النفوس والأرواح، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التى لا تنقطع عن شيعتهم ولا يمنعون منها، وفرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم بل لا يتلذذ المقربون فى الآخرة أيضًا فى الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التى كانوا يتنعمون بها فى الدنيا كما تشهد به الأخبار. انتهى كلامه أعلى الله مقامه. فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله فى ساير نعم الجنة، مثل أنهار الخمر وأمثالها، كما يشهد له ما سيأتى فى الأنهار واللبن من تأويل اللبن والخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام، وسيأتى فى الجنة والنار وما بمعناهما من تأويل الأولى بولاية الأئمة، والثانية بعداوتهم، وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار فى الترجمات الجائية المناسبة لها فافهم، وكذا كل ما ورد ظاهره فى

العذاب، والمسخ والهلاك، والموت البدنى، ونحو ذلك، فباطنه فى الهلاك المعنوى بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات، وموت قلوبهم ومسخها وعميها عن إدراك الحق، فهم إن كانوا فى صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل، وإن كانوا ظاهراً بين الأحياء، فهم أموات، ولكن لا يشعرون، إذ لا يسمعون الحق، ولا يبصرونه، ولا يعقلونه، ولا ينطقون به ولا يأتى منهم أمر ينفعهم فى أخراهم، فهم شر من الأموات وكذا كل ما كان فى القرآن مما ظاهره فى النهى عن القبائح الصورية، وتحريم الخبائث الظاهرية، كالزنا، والسرقة، والإيذاء، ونحوها مما هو علامة رذالة حال فاعله، ودليل خباثة طبع مرتكبه، كالخمر والميتة، والدم، ونحوها مما تستقذر منه الطبائع السليمة، وتنفر منه القرائح المستقيمة، فبطنه فى النهى عن القبائح الباطنة التى هى معاداة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التى هى أعاديهم ومنكروا ولايتهم والفضائل التى هى فيهم، فإنها أيضًا فى استقذار الأرواح، وتخبث القلوب، واستنفار العقول. . . ونحو ذلك مثل الخبائب الظاهرة والقبائح الصورية، بل أشد كما لا يخفى، وهكذا حال بطون ما ظاهره فى الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم، وبالجملة المدار علىٰ تشبيه الأمور المعنوية بالصورية، كالحياة والموت والانتفاعات والتصورات الروحانية بالجسمية. . . وهكذا فى البواقى، على أن فى هذا الأخير تناسبًا آخر أيضًا، وهو أنه لا خفاء فى كون النبى والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات، وأنهم الأصل فى قبولها فلا بُعدَ إن أريدوا بها فى بطن القرآن، وكذا لا بعد فى كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات). (ص٨).

وفى الوجه الخامس من العلل، علل ما ورد من تأويل معرفة الله، وعبادته ومخالفته، وأسفه، وظلمه، ورضاه، وسخطه، وأمثالها بمعرفة الإمام، وإطاعته ومخالفته، وأسفه وظلمه ورضاه، وسخطه وكذا تأويل الإمام، يد الله، وعينه، وجنبه، وقلبه وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصه به، بالإمام عليه السلام، وما ورد من الأخبار فى تأويل روح الله ونفسه، ولفظ الجلالة والإله والرب الإمام عليه السلام. . . علل هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذى جرى من عادة

الأعاظم والملوك والأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى نفسهم تجوزًا، وكذا قد ينسبون مجازًا ما يصيب خدمهم ومقربيهم من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم، إظهارًا لجلالة حال أولئك الخدم عندهم، وإشعارًا بأنهم فى لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم وفى حكمهم، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم.

قال الصادق عليه السلام ـ كما سيأتى عن الكافى وغيره: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضا نفسه، وسخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه... الخبر... فى رواية أخرى: ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، ثم أنزل بذلك قرآنًا على نبيه... الخبر.

قال المؤلف: وسيأتى بقية الأخبار مفصلة، وهكذا كثيرًا ما يطلق تجوزًا على مقربى الرجل وأعوانه أسامى جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به فى النفع كما يقال للوزير الكامل المقرب عند السلطان النافع له جدًا: إنه يده وسيفه وعينه... وهكذا بناء على أنه فى الدفع والنفع والقرب والعزة مثل ذلك، حتى إنه قد يقال: إنه روحه ونفسه، بل ربما يقال إنه السلطان تجوزًا بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته، ومخالفته مخالفته، بحيث لا يرضى بغير ذلك» (ص٩).

ثم عقد الفصل الرابع فى بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه، وتنزيله وتأويله معًا، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وبسائر ما يتعلق بذلك جميعًا مفصلاً أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما فى البيت، وإن من أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر، وكذا بالعكس: أى إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر، على كل مؤمن أن لا يجترئ بإنكار ما نقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيرًا وتأويلاً وإن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه... ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك، وكلها منسوبة إلى أهل البيت، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه

قال: «إن الله عز وجل قد أرسل رسله بالكتاب وبتأويله، فمن كذب بالكتاب أو كذب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك». (ص٩).

ومنها ما روى عن الهيثم التميمى، قال: (قال أبو عبد عليه السلام: يا هيثم إن قومًا آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئًا، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئًا لا إيمان بظاهر إلا بباطن، ولا بباطن إلا بظاهر). (ص٩).

وعقد الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام، وما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى وبغير سماع من الأئمة، وفى الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق فى ذلك، فقال: «اعلم أنه لا ريب فى اطلاع النبى والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها؛ ظواهرها وبواطنها تنزيلها وتأويلها، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله، كما أنزله الله فى بيتهم؛ فإن أهل البيت أدرى بما فى البيت، وقد دلت على هذا أخبار متواترة... فمنها ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال: والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام: إن الله علم نبيه ﷺ التنزيل والتأويل قال: فعلم رسول الله ﷺ عليًا عليه السلام؛ قال: وعلمنا... الخبر.

وما فيه أيضًا بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به، فقال أبو الحسن: فنحن نعرف حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضريه، وفى أى ليلة نزلت من آية، فيمن نزلت، وفيم أنزلت... الخبر.

واستدل أيضا بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء.

ثم قال المؤلف بعد سياقه لهذه الروايات وغيرها: «وأما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل، فضلاً عن البواطن والتأويل، بلا إسناد من الأئمة العاملين، وعناية من الله رب العالمين».

ثم بعد أن استدل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقة قال: «ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام» ثم استدل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه، فكان مما استدل به، ما رواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال: «من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء» وما روى عن النبى ﷺ «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» وما ورد فى تفسير الإمام عليه السلام من قوله: «أتدرون من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم؟ هو الذى يأخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين، وقياس الفاسقين، فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله، وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار». (ص١١، ١٢).

ثم بعد ذلك وفق بين الأخبار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى وبين ما ورد من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤) وقوله: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) وقوله ﷺ: «القرآن ذلول ذو وجوه، فاحملوه على أحسن الوجوه» وغير ذلك من الآيات والأخبار الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعًا بالغًا ومجالاً رحبًا فقال: لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ما هو الأكمل منها، وهو ما ذكره بعض محققى علمائنا، وقال: «الصواب أن يقال: إن من أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت، وأخذ علمه منهم؛ وتتبع آثارهم، واطلع على جملة من أسرارهم، بحيث يحصل له المراس فى العلم والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، فله أن يستفيد من القرآن غرائبه، ويستنبط منه نبذًا من عجائبه، وليس ذلك من كرم الله بغريب، ولا من جوده بعجيب، وليست السعادة وقفًا على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل». (ص١٢، ١٣).

ثم قال: «وأما التفسير المنهى عنه، فقد نزله المحقق أيضًا على وجهين:

أحدهما: أن يكون للمفسر فى الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج به على تصحيح غرضه ومدعاه، فيكون قد فسر القرآن برأيه؛ أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه، وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلاً كذلك قد يكون مع العلم، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك، ولكن يلبس على خصمه، ومن هذا ما مر من تأويلات الباطنية، وقد يصدر مثله عمن له غرض صحيح، لكن يطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به ذلك، كالذى يدعو مثلاً إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول: قال الله تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾(طه: ٢٤) ويشير إلى قلبه ويومئ إليه أنه المراد بفرعون، قال ذلك المحقق، وهذا قد يستغله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسينًا للكلام وترغيبًا للمستمع، وهو ممنوع.

ثانيهما: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيها من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ من بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى، فلا بد له أولاً من السماع وظاهر التفسير ليتقى مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾(الإسراء: ٥٩) فإن معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم، ومن ذلك الآيات التى سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطلع على ما فيها إلا من تجرع كئوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، كما سيأتى فى الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧) من أن المراد ظلم محمد وآله، ومنها ما سيأتى أيضا فى الفصل الثالث من المقالة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٤) من أنه تعالى عنى بذلك غير النبى ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: «ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من قد مضى» وقد روى الكلينى وغيره عنه عليه السلام أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» وعن الباقر عليه السلام: «إذا علم الله شيئًا هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان» وقد مر فى حديث جابر قوله عليه السلام: «وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية ليكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء... الخبر» وسنذكر عن قريب فى فصول المقالة المذكورة وغيرها، ما يوضح حال تفسير الآيات التى كذا شأنها، ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى. (ص١٣).

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال، بل جعل القرآن تبعًا لرأيه، ونزَّله على معان تتفق وهواه، ورمى غيره بالداء الذى هو فيه.

ثم ذكر المقالة الثانية، فجعلها فى بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحًا وتنزيلاً، على ما يتعلق بالولاية والإمامة بطنًا وكناية وتأويلاً، بحسب الأخبار الواردة فى أن الولاية أى الإقرار بنبوة النبى وإمامة الأئمة والتزام حبهم وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفيهم أصل الإيمان، مع توحيد الله عز وجل؛ بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله، بل إنها بسبب إيجاد العالم، وبناء حكم التكليف، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأنها التى عرضت كالتوحيد على الخلق جميعًا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت فى الكتب، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنًا، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر، ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض، وأن الأئمة مثل النبى فى فرض الطاعة والأفضلية بعده على الخلائق أجمعين، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرمين، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين... عقد هذه المقالة الثانية لهذا الغرض فقال:

«اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة، تدل على هذه الأمور المذكورة، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين، وقد نص على حقيقتها بل كون جلها من ضروريات هذا المذهب أعاظم أصحابنا المحدثين» وكفى فى بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة، وسنذكر فى هذا الكتاب لها شواهد كثيرة، فلنكتف ههنا بنقل شىء من تصريحات محققى أصحابنا فى هذا الباب، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة الأطياب إذا ليس هنا موضع البسط والإطناب ويكفى ما سنذكره فى تبصرة من هو من أولى الألباب «فههنا فصول خمسة». . . ثم ساق الفصول الخمسة:

فجعل الفصل الأول منها فى بيان نبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظيم شأن الأئمة وولايتهم وكفر منكريهم.

وجعل الفصل الثانى فى بيان نبذ من الأخبار التى وردت فى خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم، وأن ذلك مناط صحة الإيمان، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم، وكفر مبغضيهم ومخالفيهم.

وجعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى ﷺ وآله فى مدخلية صحة الدين وصدق الإيمان، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك، وأن نسبة النبوة إلى الإمامية، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر.

وجعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عرضت مع التوحيد على الخلق جميعًا، وأخذ عليهم الميثاق، وبعث بها الأنبياء، وأنزلت فى الكتب وكلف بها جميع الأمم، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضًا.

وجعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى ﷺ وآله والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين، وأفضلهم وأكملهم، وأكرمهم، بحيث كانت

الملائكة والأنبياء تتوسل بهم وبولايتهم، وتفخر الملائكة بخدمتهم، وتعلموا التسبيح والتمجيد منهم، وأنهم وولايتهم العلة فى الإيجاد، والأصل فى الطاعة والمعرفة.

ثم ذكر المقالة الثالثة وجعلها فى بيان ما يوضح ورود بطون القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، بحسب الأخبار التى تدل على أن هذه الأمة تقتفى سنن الأمم السابقة، وسيرة من كان قبلهم فى كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه كان كذلك فى سائر الأمم، قال: «فإنها بجملتها ـ يعنى بطون القرآن ـ تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار والتبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، وأن يشير إلى الزين والشين فى كل أوان بالنسبه إلى أهل كل زمان، وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلا بد من ألطافه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز...» وقد أورد فى جملة ما أورد من الأخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩) أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء، وما رواه الكلينى فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ قال: يا زرارة... أى لتركبن هذه الأمة بعد نبيها طبقًا عن طبق فى أمر فلان، وفلان، وفلان» قال المؤلف: «أقول: أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليفة واتباع العجل والسامرى وأشباه ذلك... قال: ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد». (ص٢٣، ٢٤).

ثم ذكر المقدمة الثانية فتكلم فى بيان ما يوضح وقوع بعض تغيير فى القرآن وأنه السر فى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعار بذلك على سبيل التجوز والرموز التعويض فى ظاهر القرآن وتنزيله فقال: «اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله ﷺ وآله شىء من التغييرات، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيرًا من

الكلمات والآيات، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر، الموافق لما أنزله الله تعالى، ما جمعه عليٌّ عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام. . . وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه، ولهذا ـ كما قد ورد صريحًا حديث سنذكره ـ لما أن الله عز وجل قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن على عليه السلام وذريته الطاهرين، حاولوا إسقاط ذلك رأسًا أو تغييره محرفين، وكان فى مشيئته الكاملة ومن ألطافه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية، ومحارسة مظاهر فضائل النبى ﷺ وآله والأئمة، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف، لم يكتف بما كان مصرحًا به منها فى كتابه الشريف، بل جعل جلّ بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل، وفى ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز والتعريض، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل، حتى تتم حجته على الخلائق جميعًا ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحًا بأحسن وجه وأجمل سبيل» قال: «ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما تذكره فى هذه الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال».

ثم عقد الفصل الأول فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، من الروايات التى نقلها أصحابه من الإمامية فى كتبهم.

وعقد الفصل الثانى فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره، والاختلاف فيه من الروايات التى نقلها المخالفون فى كتبهم.

وعقد الفصل الثالث فى بيان ما وعد به سابقًا، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن، وأنه هو السر فى الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض.

وعقد الفصل الرابع فى بيان خلاصة أقوال علمائهم فى تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير.

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نبذًا من التأويلات المأثورة عن

الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات، قال: ويستبان بها أيضًا ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة، وأن فى هذا الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة. . . عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال:

«اعلم أن التأويلات التى ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد مختصًا بكلمة أو آية مذكورة فى موضع واحد بحيث لا يجرى فى غيرها، ومحل ذكر مورده.

الثانى: ما ورد فى آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى فى غيرها، بل ربما يكون الورود على سبيل العموم أيضًا، ونحن نذكر هذا القسم فى هذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص.

الثالث: ما لم يرد فى تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها، كقوله عليه السلام: «نحن يد الله» ونحوه، وهذا أيضًا مما نذكره فى هذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه، وفى هذين الأخيرين إذا وصلنا فى كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص فى مواردها، ثم من هذه التأويلات ما هو على نهج الكناية والتعريض والمجازات العقلية، ومنها ما هو من قبيل المجاز اللغوى، وها نحن نرتب هذه المقدمة على مقالتين، نذكر فى إحداهما ما ظاهره على النهج الأول مما لا بد من إفراد ذكره، وفى الأخرى سائر التأويلات العامة مع نصوصها، ثم نلحقها بخاتمة نختم بها المقدمات». (ص٣٦).

ثم ذكر المقالة الأولى: فجعلها فى بيان بعض التأويلات التى لا بد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها، وجلها من قبيل المجازات العقلية، والتجوز فى الإسناد، والكناية، والتعريض وإن أمكن التكلف فى إدخال بعضها تحت المجاز اللغوى، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول:

جعل الفصل الأول منها: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز وجل كثيرًا ما أراد فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهرًا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك،

قال: ويدل على هذا أحاديث كثيرة، منها ما سيأتى فى تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية، والمنافقين بمن نافق فيها، والمشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام، وأشباه ذلك. . . ثم قال: والحق أنه إذا تأمل بصير فى أكثر ما ورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل، وهو مجاز شائع ذائع استعماله فى كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها. . . إلخ. (ص٣٦).

وجعل الفصل الثانى: فى بيان ما يظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيرًا ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبى ﷺ والأمم السالفة بحسب الظاهر، ومراده بحسب التأويل والباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن فى ذلك الزمان. . . ثم ذكر فى ضمن ما رواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء فى تفسير العياشى عن عبد ابن سنان عن أبى عبد الله فى قوله عز وجل: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ **(الأعراف: ١٥٩)** قال: قوم موسى: هم أهل الإسلام، قال المؤلف «والظاهر أن مراده عليه السلام، أن نظيره جار فيهم، وإنما ذكر فى الآية تمثيلاً لحال هذه الأمة، ويؤيده ما سيأتى فى الأئمة[١] فلا ينافى هذا ما هو الظاهر من الآية من وجود جماعة فى قوم موسى هادين إلى الحق صريحًا كما يظهر من بعض الأخبار». (ص٣٧).

وجعل الفصل الثالث: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والبطن مخاطبًا غير من يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجهًا إليه، وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام: «إن الآية لتكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء» وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» وفيهما أيضًا عن أبى عمير عمن حدثه عن أبى عبد الله قال: «ما خاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ**

---

(١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا**﴾ الآية، حيث يحمل على الأئمة الاثنى عشر.

شَيْئًا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٤) عنى بذلك غيره» قال بعض المحدثين: لعل المراد من مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون فى آيات... قال وفى كنز الفوائد عن الأعمش قال: سمعت عطاء بن أبى رباح يقول: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (ق: ٣٤) فقال رسول الله ﷺ «أنا وعلى نلقى فى جهنم كل من عادانا... الخبر». (ص٣٧).

وجعل الفصل الرابع: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعًا إلى شىء ليس بمذكور صريحًا، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلاً، كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك، بلا سبق ذكر ظاهرًا، ثم ذكر ما ورد من الأخبار فى ذلك، منها: ما رواه الكلينى عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (يونس: ١٥) قال: قالوا: أو بدل عليًا... وما ورد فى كنز الفوائد للكراكجى من تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ (الواقعة: ٨٢) أى أن شكر النعمة التى رزقكم وما منَّ عليكم بمحمد وآله ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (الواقعة: ٨٢) أى بوصيَّته ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ (الواقعة: ٨٣، ٨٤) إلى وصيه على عليه السلام يبشر وليه بالجنة ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ (الواقعة: ٨٥) يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم ﴿ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ (الواقعة: ٨٥) أى لا تعرفون. ومنها ما ورد فى تفسير القمى عن أبى الشمال عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المدثر: ﴿ إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيراً لِّلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ٣٥، ٣٦) قال: يعنى فاطمة: وكذا قال فى سائر الضمائر التى فى السورة». (ص٣٨).

وجعل الفصل الخامس: فى بيان ما يدل على أنه لا استبعاد فى أن يحمل ما عبر عنه بالماضى على ما هو المستقبل الآتى كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال: روى الكلينى فى الكافى بإسناده عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «إذا علم الله شيئًا هو كائن أخبر خبر ما قد كان» يعنى إذا كان فى علم الله تعالى الكامل وقوع الشىء لا محالة وأنه سيكون قطعًا، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان، سواء كان ذلك مما

يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله، أو باطنه وتأويله، كما هو مفتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلاً، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة وما يكون فيها، وما يصدر من الأمة بالنسبة إلى الإمامة وأمثال ذلك... قال: ولا يخفى أنه بناءً على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور. (ص٣٨).

وجعل **الفصل السادس**: فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التى نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ (الزخرف: ٥٥) وقوله عز وجل: ﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**﴾ (الغاشية: ٢٥، ٢٦) وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السر فى إدخال النبى ﷺ والأئمة فيها، بل إنهم هم المقصودون فى كثير منها، وعد هذا من قبيل المجازات الشائعة فى كلام الملوك والأعاظم... ثم قال: فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه، وذكر أخباراً، منها ما رواه الكلينى فى الصحيح عن حمزة بن بزيغ عن أبى عبد الله عليه السلام فى قول الله عز وجل: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ فقال: إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضى نفسه، وسخطهم سخط نفسه؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه... إلخ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال: «من أهان لى وليّا فقد بارزنى بالمحاربة ودعانى إليها» وقال: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ (النساء: ٨٠) وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (الفتح: ١٠) قال: وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة فى المقصود ههنا... قال: وفى الكافى وغيره عن زرارة عن أبى جعفر قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (البقرة: ٥٧) فقال: إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم، ولكن خلطنا بنفسه، فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته حيث يقول: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (المائدة: ٥٥) يعنى الأئمة منا». (ص٣٩).

وجعل **الفصل السابع**: فى بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام فى مواضع عديدة، بل هكذا حال بعض

الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة، والإطاعة، والمعرفة، والرضى، والسخط، والمخالفة، والفقر، والغنى، إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته، وإقامته، وإطاعته، ورضاه، وسخطه، وسبه، وأذاه، ومخالفته، وغناه، وفقره، ونحو ذلك، وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز فى الإسناد، قال: لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن فى ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوى أو التشبيه بالمعنى العرفى، ثم ذكر بعض ما هو نص فى بيان المقصود، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى حديث له طويل: إن قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾ (الزخرف: ٨٤) وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ (الحديد: ٤)، وقوله: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ (المجادلة: ٧) فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه، وأن فعلهم فعله... الخبر، وما رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ (النحل: ٥١) يعنى بذلك لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد، وما جاء فى كنز الفوائد للكراكجى عن على بن أسباط عن إبراهيم الجعفرى عن أبى الجارود عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (النمل: ٦١) قال: أى أإمام هدى مع إمام ضلال فى قرن واحد؟ وما رواه القمى فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ (الزمر: ٦٩) أن الصادق عليه السلام قال: أى رب الأرض، يعنى إمام الأرض، وما جاء فى تفسير القمى فى قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ...**﴾ (إبراهيم: ١٨) الآية، قال: من لم يقر بولاية على عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذى تجىء الريح فتحمله، وما جاء فى كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا**﴾ (الكهف: ٨٧) أن الإمام عليه السلام قال: هو يرد إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيعذبه عذابًا نكرًا، ثم يقول: ﴿**يَا لَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا**﴾ (النبأ: ٤٠) أى من شيعة أبى تراب. (ص٤١).

وأما المقالة الثانية: فهى فى بيان سائر التأويلات العامة التى تجرى فى غير

موضعـها وتعم أكثر من موضع واحد مع نـصوصها وأدلتها، وقـد رتب المؤلف ما فى هذه المقالة عـلى ترتيب حروف الهجاء ونهج فـيها منهج كتب اللغة بـملاحظة الحرف الأول، ثم الآخر ثم الثانى، فمن ذلك الذى ذكره ما يأتى:

(الإصر) قال فى سورة البقرة وآل عمران والأعراف، وفى أساس البلاغة: الإصر: الثقل، وفى القامـوس: الإصر بالكسر: الذنب، وسيـأتى فى الذنب تأويله، وقد روى الكلينى أيضًا عن الباقر عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**﴾ (الأعراف: ١٥٧) أنه قال: «الإصر الذنوب التى كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام، فلمـا عرفوا فـضل الإمام وضع عنهم الإصر، قـال: قال عليه السـلام: الإصر الذنب، وهى الآصار... الخبـر» وتأويله ظاهر، وفى تفسير القـمى عن الصادق عليه السلام أنـه قال فى قوله تـعالى: ﴿**وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي**﴾ (آل عـمـران: ٨١): أى عهدى، أى عهد الإيمان بالنبى ﷺ ونصرة على عليه السلام». (ص٥٠).

(البــاطل) قال: الباطـل والمبطلون، والباطل ضد الحق وقـد ورد تأويله بأعداء الأئمة، وبدولة الباطل؛ وبما كان عليه بنو أمية وأشباههم من غاصبى الخلافة، كعداوة الأئمة وغيـرها، ومنه يظهر المراد بالمبطلين أى مـدعى الباطل وأتباعهم، ففى تفـسير القمى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ**﴾ (محمد: ٣) قال: هم الذين اتبعوا أعداء على وآل الرسول... الخبر». (ص٧٠).

(الراجـفة) قال: الرجفة، والرادفة، والرجفة، والمـرجفون: أصل الرجفة الحركة والاضطراب، ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب، وفى سورة الأحزاب (فى الآية ٦٠) ﴿**وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ**﴾ قال: وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام: أن الراجفة الحـسين عليه السلام، والرادفة أبوه على عـليه السلام، وأن أول من ينفض التراب عن رأسه فى الرجفة الحسين عليه السلام، وقد فسرها المفسرون بالنفخ الأول، والرادفة بالنفخ الثانى، وهو أيضًا مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور، وربما أمكن إجراء مـا ذكرناه من التأويل فى بعض مـوارد الرجفة علـى حسب التناسب، بل يمكن التأويل أيضًا بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل. (ص١٠٩).

(الزيت والزيتون) قال: أما الزيتون فمعروف، وأما الزيت ففرد منه، ويأتى إن شاء

الله فى المشكاة، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم، وفى سورة (التين) ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين، وقد أوله القمى أيضًا بعلى عليه السلام كما سيظهر فى السورة المذكورة، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضًا، وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة: إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف، وعلى عليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين، وعلومه قوة قلب المؤمنين، وبنوره ونور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين، وقد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى (الطور). (ص١١٣).

(القبلة) قال فى القاموس: القبلة التى يصلى نحوها، والجهة، والكعبة، وكل ما يستقبل، يقال: ما له قِبلة ولا دِبرة بكسرهما أى وجهة، هذا وقد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام، وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن، واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ونحو هذا، وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام «نحن قبلة الله ونحن كعبة الله» وسيأتى بعض المؤيِّد فى (الكعبة) والله الهادى. (ص١٨٣).

ثم ذكر الخاتمة: وجعلها مشتملة على فصلين:

الفصل الأول: فى بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال: «اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر: النبى وفاطمة والأئمة الاثنى عشر، والسور هى هذه: الم، المص، الر، المر، كهيعص، طه، طسم، طس، يس، ص، حم، حمعسق، ق، ن، ثم قال: وفى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال: «الم حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن، الذى يؤلفه النبى والإمام عليه السلام، فإذا دعا به أجيب» قال بعض الأفاضل: فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذريته، أقول: ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام: أن معنى الم أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها ا ل م وهو بلغتكم وحروف هجائكم، فأتوا بمثله إن كنتم صادقين.. ثم قال:

وسنشير فيما ورد فى (ص) إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى ﷺ ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها، فما ورد فى الم، والمص، والر، والمر، ما قيل من أن معنى الم: أنا الله أعلم وأرى، والمص: أنا الله أعلم وأفصل، وعلى هذا يمكن التأويل بأنه أعلم حيث اختار محمداً وعليّا وآلهما الطيبين للنبوة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتى بعده. . . إلخ». (ص٢٣١).

ثم قال: «وأما (كهيعص) فمعناه أنا الكافى الهادى، والوالى العالم الصادق الوعد. . .

أقول: تأويل هذا: ما ورد عنه عليه السلام أيضًا أنه قال: أى كاف لشعيتنا، هاد لهم، ولىّ لهم، وعده حق، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن ـ وما فى الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل (كهيعص) فقال: إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا، ثم فصلها على محمد ﷺ ، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعليّا، وفاطمة، والحسن سرى عنه همه وانجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: إلهى ما بالى إذا ذكرت أربعًا منهم تسليت بأسمائهم من همومى، وإذا ذكرت الحسين تدمع عينى وتثور زقرتى؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنة الله. . . وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع فيها الناس من الدخول عليه. . . الخبر.

قال: وسيأتى تتمته فى سورته. (ص٢٢٣).

وجعل الفصل الثانى من الخاتمة فى ذكر بعض الفوائد.

فالفائدة الأولى: بين فيها أن دأبه فى هذا التفسير على شيئين:

أحدهما: تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة أنبيائه وعصيانهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلغوا إليهم وأمروهم به من الإقرار بولاية النبى والأئمة، والاعتراف بحقهم، والتمسك بهم، مع

التبرى من أعدائهم، بعد الإقرار بالله ورسوله، وتصديقهم فيما بلغوا جميعًا، لا سيما الولاية.

وثانيهما: تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى إطاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبى والأئمة فى أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار، والأشرار بالأشرار، وتبيان وجه الشبه فى تنظيم أفعالهم بأفعالهم، كتنظير أصحاب السبت بقتلة ذرية النبى كبنى أمية وبنى العباس مثلاً، وأصحاب الكهف بأبى طالب ونظرائه مثلاً، وأصحاب العجل بأهل السقيفة، وغير ذلك. (ص٢٣٥).

والفائدة الثانية: بين فيها أن المراد فى الباطن بجميع ما حرم الله فى القرآن أئمة الجور، وبما أحل أئمة الحق، وأنهم أصل كل خير، ومن فروعهم كل بر، وأعداؤهم أصل كل شر، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهى وما يعبد من دون الله. (ص٢٣٦).

والفائدة الثالثة: قال فيها: «إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معًا، وأن كلا منهما مقصود البارى، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جل ما يتعلق بالظاهر وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة؛ لخلو أكثر التفاسير عنها جميعًا، ومن أكثرها، جعلنا مدار كلامنا على تبين هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالبطون فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلاً، حذرًا من التطويل والخروج عن المقصود الأصلى. (ص٢٣٦).

والفائدة الرابعة: بين فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية فى تفسيره، فمبناه على التجوز فى المعنى، أو الإسناد، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات وأمثالها، قال: ومع هذا لا يجوز ذلك فى موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفى مثله، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل. (ص٢٣٦).

والفائدة الخامسة: بين فيها أنه اقتصر فى نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد، مخافة التطويل.

قال: فربما فرقنا مضمون خبر على مواضع، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه». (ص٢٣٦).

والفائدة السادسة: بين فيها أن كل ما ذكره فى تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام. (ص٢٣٦).

والفائدة السابعة: بين فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعى، وادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها فى الجملة وإن كانت مختلفة فى تفصيلها وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتى حديث فيها، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك. (ص٢٣٧ - ٢٣٩).

ثم قال: «وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده فى مقدمات تفسيرنا، ونشرع بعد هذا فى أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحوله وقوته وتوفيقه، حامدًا ومصليًا ومسلمًا، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين، صلوات الله عليهم أجمعين، حمدًا وصلاة وتسليمًا كثيرًا كثيرًا كثيرًا».

ولكن أين هذا التفسير؟؟ قلنا: لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية، وقلنا: إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية... ولكن ألست معى فى أن هذه المقدمة التى لخصت لك أهم مباحثها تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها فى تفسيره، وعن مقداره تأثره بعقيدته فى فهمه لكتاب الله؟ أظن أنك معى فى هذا وإليك أسوق أهم القواعد التى سار عليها المولى عبد اللطيف فى تفسيره وهى قواعد استخلصتها ولخصتها من مقدمة تفسيره، ولا أحسب أنه تخطاها أو شذ عنها بعدما دافع عنها وقواها بما استطاع من الأدلة، وهذه هى أهم القواعد:

أولا: القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطنًا، وجملة باطن الكتاب فى الدعوة إلى الإمامية والولاية، وجملة ظاهره فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففى أئمتهم، وكل ما ورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتقريع ففى مخالفيهم وأعدائهم نزلت.

ثانيًا: لا تقتصر معانى الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان.

ثالثًا: معانى القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة.

رابعًا: المعانى الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية، وهذا فى تقديره أمر لا غرابة فيه ولا استبعاد؛ إذ أن أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة، وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة.

خامسًا: يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر ما يعلق بذلك تفصيلاً أو إجمالاً إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت، ومن أنكر الظاهر وأقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر، بل ويجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئًا من ذلك لخفائه عليه.

سادسًا: علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة، وهذا أمر اختصوا به دون من عداهم؛ فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه وبدون سماع منهم، لأنه لا شبهة فى أن من عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلاً عن بواطنه وتأويله.

سابعًا: ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية فى الأزمنة المستقبلة ـ أى بعد نزول القرآن ـ أشار الله إليه ونبه عليه فى كتابه الكريم، فكل ما جد ويجد من الحوادث بعد نزول القرآن يستفاد من آياته عن طريق تأويلها، وهذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز، فقول تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ (الانشقاق: ١٩) تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء.

ثامنًا: القرآن الذى جمعه على عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ما ورد صريحًا فى مدح أهل البيت وذم شانئيهم أُسقط من القرآن أو حُرف وبُدل، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتف الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرح به القرآن، بل أرشد إلى ذلك أيضًا بحسب ما يدل عليه باطن اللفظ وتأويله؛ لتقوم بذلك الحجة على الناس وإن حرف القرآن وبدل.

تاسعًا: كثيرًا ما يريد الله فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهرًا على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ما صدقت عليه، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك، كما ورد فى تأويل المشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام.

عاشرًا: ما ورد من الخطاب للأمم السابقة كثيرًا ما يراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما، مع إرادة الظاهر أيضًا مثل ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾ (الأعراف: ١٥٩) أراد فى الباطن بقوم موسى أهل الإسلام.

الحادية عشرة: قد يراد بالخطاب فى الباطن مخاطبًا غير من نفهم من الظاهر كون الخطاب له، كما ورد عن أبى عبد الله أنه قال: «نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى يا جارة» فقوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**﴾ (الإسراء: ٧٤) عنى به غير النبى.

الثانية عشرة: قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحًا مثل قوله تعالى: ﴿**ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ**﴾ (يونس: ١٥) يعنى أو بدل عليًّا.

الثالثة عشرة: ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ**﴾ (الزخرف: ٥٥) السر فيه إدخال النبى ﷺ والأئمة فى مفهومه وهذا مجاز شائع معروف.

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكله والضمائر الراجعة إلى الله فى الظاهر مراد به الإمام باطنًا وتأويلاً، وهذا مجاز شائع معروف.

هذه هى أهم القواعد التى سار عليها المؤلف فى تفسيره، وهى كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره.

٢- تفسير الحسن العسكرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، الإمام الحادى عشر عند الإمامية الاثنى عشرية والمعروف بالحسن العسكرى[1]، وهو والد المهدى المنتظر.

ولد سنة ٢٣١هـ إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة ـ وقيل: سنة ٢٣٢هـ ـ بالمدينة على الراجح، وتوفى بـ «سر من رأى» سنة ٢٦٠هـ ستين ومائتين ودفن بها بجانب أبيه[2].

التعريف بهذا التفسير:

عثرنا على هذا التفسير فى دار الكتب المصرية فوجدناه منسوبًا إلى الإمام أبى محمد الحسن العسكرى، ومرويًا عنه برواية أبى يعقوب يوسف بن محمد بن زياد، وأبى الحسن على بن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكرى فى سبع سنين، ولهما فى تلقى هذا التفسير عن الحسن العسكرى قصة غريبة فى مقدمة الكتاب حدَّثا بها فقالا ما ملخصه: كنا صغيرين، وكان أبوانا إماميين، وكانت الزيدية هم الغالبين بإستراباذ، وكنا فى إمارة الحسن بن زيد العلوى، الملقب بالداعى إلى الحق، إمام الزيدية، وكان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعاياتهم، فخاف أبوانا الوشاية بهما عنده فخرجا بنا وبأهلينا إلى حضرة الإمام أبى محمد الحسن بن على بن محمد أبى القائم، فلما دخلا عليه قال لهما: مرحبا بالآوين إلينا، الملتجئين إلى كنفنا، قد تقبل الله سعيكما، وأمن روعكما، وكفاكما أعداءكما، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما، قالا: فماذا تأمر أيها

---

(١) **العسكرى** نسبة إلى العسكر وهى سر من رأى، لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر، وإنما نسب المذكور إليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها وأقام بها مدة طويلة، فنسب وولده هذا إليها.

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٣٩، ٢٤٠) وله ترجمة مستفيضة فى أعيان الشيعة (٤/ ٢٨٨ – ٣٢٥).

الإمام؟ أن نرجع فى طريقنا إلى أن ننتهى إلى بلد خرجنا منه؟ وكيف ندخل ذلك البلد ومنه هربنا وطلب سلطان البلد لنا حثيث، ووعيده إيانا شديد؟ فقال عليه السلام: خلفا علىَّ ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذى يشرفهما الله به، ثم لا تحفلا بالسعاة ولا بوعيد المسعى إليه؛ فإن الله عز وجل يقصم السعاة ويلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند من هربتم منه.

قال أبو يعقوب وأبو الحسن: فأتمرا لما أمرا، وخرجا وخلفانا هناك، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإماء وذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم: إذا أتاكما خبر كفاية الله عز وجل أبويكما، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدى إياهما، جعلت من شكر الله عز وجل أن أفيدكما تفسير القرآن مشتملاً على بعض أخبار محمد ﷺ، فيعظم الله بذلك شأنكما، قالا: ففرحنا وقلنا: يا بن رسول الله.. فإذًا نأتى جميع علوم القرآن ومعانيه، قال: كلا إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك وقال: يا بن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها، قال: قد جمعت خيرًا كثيرًا، وأوتيت فضلاً واسعًا، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن، إن الله عز وجل يقول: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾ (الكهف: ١٠٩) ويقول: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ (لقمان: ٢٧)، وهذا علم القرآن ومعانيه وما أودع من عجائبه، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن؟ ولكن القدر الذى أخذته قد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك ولا يفهم كفهمك.

ثم ذكر ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوى عن بطشه وفتكه، وعدم تعرضه للناس فى مذاهبهم، وأمره لأبويهما بملازمة الإمام أبى محمد الحسن العسكرى لما سمع بهذا، قال: هذا حين إنجازى ما وعدتكما من تفسير القرآن، ثم قال: قد وظفت لكما كل يوم شيئًا منه تكتبانه، فالزمانى وواظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما، فأول ما أملى علينا أحاديث فى فضل القرآن وأهله، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه فى مدة مقامنا عنده، وذلك سبع سنين، نكتب فى كل يوم منه مقدار ما ننشط له، فكان أول ما أملى علينا وكتبناه قال: حدثنى أبى: على بن محمد، عن

أبيه: محمد بن على، عن أبيه: على بن موسى، عن أبيه: موسى بن جعفر، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه: الباقر محمد بن على، عن أبيه: على بن الحسين زين العابدين، عن أبيه: الحسين بن على سيد المستشهدين، عن أبيه: أمير المؤمنين وسيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين، فاروق الأمة، وباب مدينة الحكمة، ووصى رسول الرحمة، على بن أبى طالب صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، عن رسول رب العالمين، وسيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين، والمخصوص بأشرف الشفاعات فى يوم الدين، ﷺ وآله أجمعين. . .» ثم ذكر شيئًا من الأخبار فى فضل القرآن وحملته. . . ثم قال: «قال رسول الله: أتدرون من المتمسك الذى بتسمكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذى أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين. . .» ثم قال: «قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ (يونس: ٥٧، ٥٨) قال رسول الله ﷺ: «فضل الله عز وجل القرآن والعلم بتأويله، وبرحمته: توفيقه لموالاة محمد وآله الطيبين، ومعاداة أعدائهم. . .» ثم ذكر الحسن العسكرى تفسير أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم منسوبًا إلى على ﵁، وفيه يقول على: «ألا أنبئكم ببعض أخبارنا؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم، أراد الله إبانة محمد وآله الأفضلين بالفضيلة، فنزل جبريل عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب، فأول من بعث إليه رسول الله ﷺ يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب، فقال: سمعًا وطاعة لله ولرسوله ـ وكان الرسول معاذ بن جبل ـ ثم مر العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين، فقال لها: ما بالك قاعدة انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها، أتظن أن رسول الله يخرج عمه ويدخل ابن عمه؟ فمر بهم رسول الله ﷺ فقال لها: ما بالك قاعدة؟ قالت: أنتظر أمر رسول الله بسد الأبواب، فقال لها: إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول الله، وإنما أنتم نفس رسول الله،

ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال: أحب النظر إليك يا رسول الله إذا مررت إلى مصلاك، فأذن لى فى فرجة أنظر إليك منها، فقال: قد أبى الله عز وجل ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه وجهى، قال: قد أبى الله ذلك، قال: فمقدار ما أضع عليه إحدى عينى، قال: أبى الله ذلك، ولو قلت: قدر طرف الإبرة لم آذن لك، والذى نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتهم ولكن الله أدخلهم وأخرجكم، ثم قال: لا ينبغى لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت فى هذا المسجد جنبًا إلا محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون[1] من آلهم الطيبين من أولادهم، قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلموا، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا، ومشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمدًا لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليخرجنا منها صفرًا، والله لئن أنفذنا له فى حياته لنأتين عليه بعد وفاته، وجعل عبد الله بن أبى يصغى إلى مقالتهم ويغضب تارة ويسكن أخرى، ويقول لهم: إن محمدًا لمتأله، فإياكم ومكاشفته، فإن من كاشف المتأله انقلب خاسئًا حسيرًا وينغص عليه عيشه، وإن الفطن اللبيب من يتجرع على الغصة لينتهز الفرصة، فبينما هم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال به زيد بن أرقم فقال لهم: يا أعداء الله أبالله تكذبون؟ وعلى رسوله تطعنون؟ ولدينه تكيدون؟ والله لأخبرن رسول الله بكم، فقال عبد الله بن أبى والجماعة: والله لئن أخبرته بنا لنكذبنك ولنحلفن له؛ فإنه إذًا يصدقنا، ثم والله لنقيمن عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك، قال: فأتى زيد رسول الله فأسر إليه ما كان من عبد الله بن أبى وأصحابه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله والموالاة لك ولأوليائك، والمعاداة لأعدائك ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (الأحزاب: ٤٨) الذين يطيعونك فى الظاهر ويخالفونك فى الباطن ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ (الأحزاب: ٤٨) مما يكون منهم من القول السيئ فيك وفى ذويك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأحزاب: ٤٨) فى إتمامًا أمرك وإقامة حجتك، فإن المؤمن هو الظاهر بالحجة وإن غلب فى الدنيا؛ لأن العاقبة له؛ لأن غرض المؤمنين فى كدحهم فى الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد فى

---

(١) المنتجبون: أى المختارون.

الجنة، وذلك حاصل لك ولآلك ولأصحابك وشيعتك، ثم إن رسول الله ﷺ لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم، وأمر زيداً فقال: إن أردت أن لا يصيبك شرهم ولا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ فإن الله يعيذك من شرهم؛ فإنهم شياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، وإذا أردت أن يؤمنك بعد ذلك من الغرق والحرق والسرق فقل إذا أصبحت: باسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، باسم الله لا يسوق الخير إلا الله، باسم الله ما شاء الله، ما يكون من نعمة فمن الله، باسم الله ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، باسم الله ما شاء الله وصلى الله على محمد وآله الطيبين، فإن من قالها ثلاثًا إذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق حتى يمسى، ومن قالها ثلاثًا إذا أمسى أمن من الحرق والغرق حتى يصبح، وإن الخضر وإلياس يلتقيان فى كل موسم، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات، وإن ذلك شعار شيعتى، وبه يمتاز أعدائى من أوليائى يوم خروج قائمهم...» ثم ذكر حديثًا آخر طويلاً عن الباقر يتضمن ما كان من المحاورة بين العباس ورسول الله ﷺ بشأن إغلاق باب العباس وغيره، وإبقاء باب على وحده، وفيه شهادة رسول الله ﷺ بالفضل لعلى على غيره، وفى آخره يقول رسول الله ﷺ: «يا عم رسول الله إن شأن على عظيم، إن حال على جليل، إن وزن على ثقيل، وما وضع حب على فى ميزان أحد إلا رجح على سيئاته، ولا وضع بغضه فى ميزان أحد إلا رجح على حسناته... إلخ»[1].

هذا، والكتاب مطبوع فى مجلد صغير يقع فى ٢٨٦ صحيفة، وهو غير شامل للقرآن كله، بل بعد الفراغ من المقدمة وشرح الاستعاذة شرع فى الفاتحة ففسرها، ثم شرع فى سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى فى الآية (١١٤): ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ وذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص٢٣٦.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ...**﴾ الآية (١٥٨) إلى قوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ الآية (١٧٩) وذلك يبدأ من ص٢٣٦ إلى ص٢٥٤.

---

(١) ص ٢ - ٧.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ...﴾ الآية (١٩٨) إلى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ...﴾ الآية (٢١٠) وذلك يبدأ من ص٢٥٤ إلى ص٢٦٧.

ومن قوله تعالى فيها: ﴿... أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ...﴾ الآية (٢٨٢) إلى قوله: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ في الآية (٢٨٣) وذلك يبدأ من ص٢٦٧ إلى ص٢٨٦.

هذا هو كل ما وجد وطبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكرى رحمه الله تعالى، وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه فى التفسير، وتأثره بمذهب الإمامية، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح، أو نسب إليه زورًا وبهتانًا.

ولاية علي:

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: «قال العالم موسى بن جعفر: إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف، ثم قال: يا عباد الله انسبونى، فقالوا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: يا أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فنظر إلى السماء وقال: اللهم اشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثًا - ثم قال: ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا على مولاه وأولى به، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، ثم قال: قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام وبايع لبه، ثم قال: قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين، فقام فبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب قال: بخ بخ يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة، ثم تفرقوا عند ذلك وقد وُكِّدتْ عليهم العهود والمواثيق، ثم إن قومًا من متمرديهم وجبابرتهم تواطئوا بينهم لئن كان محمد كائنة لَيَدْفعُن هذا الأمر من على ولا يتركونه، فعرف الله ذلك من قبلهم، وكانوا يأتون

رسول الله ويقولون: لقد أقمت علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا، والمتجبرين فى سياستنا، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمداً عنهم فقال: يا محمد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الذى أمرك بنصب على إماماً وسايساً لأمتك ومدبراً، ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ بذلك، ولكنهم يتواطئون على إهلاكك وإهلاكه، يوطئون أنفسهم على التمرد على على إن كانت بك كائنة»[(١)].

وعند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ يقول: «قال موسى بن جعفر: إذا قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة: قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار: آمنوا برسول الله وعلى الذى أوقفه موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبى وسلموا لهذا الإمام، وسلموا له فى ظاهر الأمر وباطنه كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبى ذر وعمار، قالوا فى الجواب لمن يفضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين؛ فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا علياً خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رءوسهم بموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه حتى إن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء، قال الله عز وجل: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا فى أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذريته ومن مخالفيهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه، فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد

---

(١) ص ٤١، ٤٢.

ولا محبة اليهود وسائر الكافرين، لأنهم يظهرون لمحمد من موالاته وموالاة أخيه على ومعاداة أعدائهم اليـهود والنصارى، كما يظهرون لهم من معاداة مـحمد وعلى وموالاة أعدائهم، فهم يقدرون فيهم نفاقهم مـعهم كنفاقهم مع محمد وعلى، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يطلع نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويسقطهم»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٥٩، ١٦٠) من سورة البقرة: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ يقول: «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من صـفة محمد وصفة على وحليتـه، والهدى بعدما بيـناه للناس فى الكتاب قال: والذى أنزلناه هو مـا أظهرناه من الآيات على فـضلهم ومحلهم، كـالغمامـة التى تظل رسول الله فى أسـفاره، والمـياه الأجاجة التى كانت تعذب فى الآبار بريقه، والأشـجار التى كانت تتهدل ثمارها بنزوله تحتها، والعاهات التى كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث بريقه فيها، وكالآيات التى ظهرت على علىٍّ من تسليم الجـبال والصخور والأشجار قـائلة: يا ولى الله ويا خليفة رسول الله، السـموم القاتلة التى تناولهـا من سمى باسمـه عليها ولم يصـبه بلاؤها. . وسائر مـا خصـه الله تعالى به من فـضائله، فـهذا من الهـدى الذى بينه الله للناس فى كتابه. . . إلخ(٢).

روايات مكذوبة فى فضل أهل البيت:

وعند تفسـيره لقوله تـعالى فى الآية (٣) من سورة البـقرة ﴿... **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ يقول: «ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدى لهم فقال: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ يعنى بما غـاب عن حواسهم من الأمور التى يلزمـهم الإيمان بها، كالبعث، والنشور، والحساب، والجنة، والنار، وتوحيد الله تعالى، وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعـرف بدلائل قد نصبها الله عز وجل عليـها كآدم، وحواء، وإدريس، ونوح، وإبراهيم، والأنبيـاء الذين يـلزمهـم الإيمـان بهم بحـجج الله تعـالى وإن لم يشاهدوهم، ويؤمنون بالغيب وهم من الـساعة مشفقون، وذلك أن سلمـان الفارسى مر

---

(١) ص ٤٤، ٤٥.

(٢) ص ٢٣٦، ٢٣٧.

بقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم ويحدثهم بما سمع من محمد فى يومه هذا، فجلس إليهم لحرصه على إسلامهم فقال: سمعت محمداً يقول: إن الله عز وجل يقول: يا عبادى، أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعه؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد وأخوه على، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى، إلا فليدعنى من أهمته حاجة يريد نفعها، أو دهته دهياء يريد كف ضررها بمحمد وآله الأفضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن مما يقضيها من تشفعون إليه بأعز الخلق عليه، قالوا لسلمان - وهم يستهزئون به: يا عبد الله فما بالك لا تقترح على الله وتتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة؟ فقال سلمان: قد دعوت الله عز وجل بهم، وسألته ما هو أجل وأفضل وأنفع من ملك الدنيا بأسرها، وسألته بهم أن يهب لى لسانًا لتمجيد شأنه ذاكرًا، وقلبًا لآلائه شاكرًا، وعلى الدواهى الداهية لى صابرًا، وهو عز وجل قد أجابنى إلى ملتمسى من ذلك، وهو أفضل من ملك الدنيا بحذافيرها وما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف ألف مرة، قال: فجعلوا يهزأون ويقولون: يا سلمان، لقد ادعيت مرتبة عظيمة يحتاج أن يمتحن صدقك من كذبك فيها وها نحن إذًا قائمون إليك بسياط عذابنا فضاربوك، فاسأل ربك أن يكف أيدينا عنك، فجعل سلمان يقول: اللهم اجعلنى على البلايا صابرًا، وجعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعيوا وملوا، وجعل سلمان لا يزيد على قوله: اللهم اجعلنى على البلايا صابرًا، فلما ملوا وأعيوا قالوا: يا سلمان ما ظننا أن روحًا تثبت فى مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك فما بالك لا تسأل ربك أن يكفنا عنك؟ قال: لأن سؤال ذلك ربى خلاف الصبر، بل سلمت لإمهال الله تعالى لكم، وسألته الصبر، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا: لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد، فقال: ما كنت أفعل ذلك؛ فإن الله قد أنزل على محمد ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وإن احتمالى لمكارهكم لأدخل فى جملة من مدحه الله بذلك سهل على يسير، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى ملوا، ثم قعدوا وقالوا: يا سلمان، لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب دعاءك وكفنا عنك، فقال سلمان: ما أجهلكم... كيف يكون مستجيبًا دعائى إذا فعل بى خلاف ما

أريد منه، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لى فصبرت، ولم أسأله كفكم عنى فيمنعنى حتى يكون ضد دعائى كما تظنون، فقاموا إليه ثالثة بسياطهم فجعلوا يضربونه وسلمان لا يزيد على قوله: اللهم صبرنى على البلايا فى حب صفيك وخليلك محمد، فقالوا له: يا سلمان، ويحك أوليس محمد قد رخص لك أن تقول كلمة الكفر به بما تعتقد ضدة للتقية؟ فقال سلمان: إن الله قد رخص لى ذلك ولم يفرضه علىَّ، بل أجاز لى ألا أعطيكم ما تريدون وأحتمل مكارهكم، وجعله أفضل المنزلتين، وأنا لا أختار غيره، ثم قاموا إليه بسياطهم وضربوه ضربًا كثيرًا وسيلوا دماءه، وقالوا له وهم ساخرون: لو لم تسأل الله كفنا عنك ولا تظهر لنا ما نريد منك لنكف به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنت من الصادقين فى دعواك أن الله لا يرد دعاءك بمحمد وآله الطيبين الطاهرين، فقال سلمان: إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافة أن يكون فيكم من قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان، فقالوا: قل: اللهم أهلك من كان فى علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفته، قال: فانفرج له حائط البيت الذى هو فيه مع القوم وشاهد رسول الله ﷺ وهو يقول: يا سلمان ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد، كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، فقال سلمان: كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهلاك؟ فقالوا: تدعو الله بأن يقلب سوط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم تمشش عظام سائر بدنه... فدعا الله بذلك، فما من سياطهم سوط إلا قلبه الله تعالى أفعى لها رأسان تتناول برأس رأسه وبرأس آخر يمينه التى كان فيها سوطه ثم رضضتهم ومششتهم وبلعتهم والتقمتهم، فقال رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه: معاشر المؤمنين، إن الله تعالى قد نصر أخاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فرقة من اليهود والمنافقين، قلبت سياطهم أفاعى رضضتهم ومششتهم وهشمت عظامهم والتقمتهم فقوموا بنا ننظر إلى تلك الأفاعى المبعوثة لنصرة سلمان، فقام رسول الله وأصحابه إلى تلك الدار وقد اجتمع إليها جيرانها من اليهود والمنافقين لما سمعوا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم، فإذا هم خائفون منها، نافرون من قربها، فلما جاء رسول الله ﷺ خرجت كلها عن البيت إلى شارع المدينة، وكان شارعًا ضيقًا فوسعه

الله تعالى وجعله عشرة أضعافه، ثم نادت الأفاعى: السلام عليك يا محمد يا سيد الأولين والآخرين، السلام عليك يا على يا سيد الوصيين، السلام على ذريتك الطيبين الطاهرين الذين جعلوا على الخلق قوامين، ها نحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان، قال رسول الله: الحمد لله الذى جعل من يضاهى بدعائه عند قبضه وعند انبساطه نوحًا نبيه، ثم نادت الأفاعى: يا رسول الله.. قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين، وأحكامك وأحكام وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين، ونحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء معذبين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين، فقال رسول الله ﷺ: قد أجبتكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم، بعد أن تقذفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لخزيهم وأبقى للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم، يقولون: هؤلاء الملعونون المخزيون بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين، فقذفت الأفاعى ما فى بطونها من أجزاء أبدانهم، فجاء أهلوهم فدفنوهم، وأسلم كثير من الكافرين، وأخلص كثير من المنافقين، وغلب الشقاء على كثير من الكافرين والمنافقين، فقالوا: هذا سحر مبين، ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال: يا عبد الله، أنت من خواص إخواننا المؤمنين، ومن أحباب قلوب ملائكة الله المقربين، إنك فى ملكوت السموات والحجب والكرسى والعرش وما دون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يوم لا غيم ولا قتر ولا غبار فى الجو، فأنت من أفاضل الممدوحين بقوله ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يقول ما نصه: «... قال على بن الحسين: طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ، حتى قيل لهم ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضحة الدامغة، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله؟ وذلك محال، لأن

(١) ص ٢٤ - ٢٦.

الإتيان على الله لا يجوز، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله فى نصب أمير المؤمنين على إمامًا، واقترحوا. . . حتى اقترحوا المحال، وذلك أن رسول الله لما نص على عليٍّ بالفضيلة والإمامة، وسكن إلى ذلك قلوب المؤمنين وعاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين، وشك فى ذلك ضعفاء من الشاكين، واحتال فى السلم من الفريقين من النبى وخيار أصحابه ومن أصناف أعدائه جماعة المنافقين، وفاض فى صدورهم العداوة والبغضاء، والحسد والشحناء، حتى قال قائل المنافقين: لقد أسرف محمد فى مدح نفسه، ثم أسرف فى مدح أخيه على، وما ذاك من عند رب العالمين، ولكنه فى ذلك من المتقولين، يريد أن يثبت لنفسه الرياسة علينا حيا ولعلى بعد موته، قال الله تعالى: يا محمد، قل لهم: وأى شىء أنكرتم من ذلك؟ هو عظيم كريم حكيم، ارتضى عبادًا من عباده، قد اختصهم بكرامات، لما علم من حسن طاعتهم ولانقيادهم لأمره، ففوض إليهم أمور عباده، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذى وفقهم له، أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده ووثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أمور ممالكه، جعل ما وراء بابه إليه واعتمد فى سياسة جيوشه ورعاياه عليه؟ كذلك محمد فى التدبير الذى رفعه له ربه، وعلىّ من بعده الذى جعله وصيه وخليفته فى أهله، وقاضى دينه ومنجز عداته، والموازر لأوليائه والمناصب لأعدائه، فلم يقنعوا بذلك ولم يسلموا، وقالوا: ليس الذى تسنده إلى ابن أبى طالب أمرًا صغيرًا إنما هو دماء الخلق، ونساؤهم، وأولادهم، وأموالهم، وحقوقهم، وأنصباؤهم، ودنياهم، وأخراهم، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية، فقال رسول الله: أما كفاكم نور على المشرق فى الظلمات الذى رأيتموه ليلة خروجه من عند رسول الله إلى منزله؟ أما كفاكم أن عليّا جاوز الحيطان بين يديه ففتحت له وفرجت ثم عادت والتأمت؟ أما كفاكم يوم غدير خم أن عليّا لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة والملائكة فيها مطلعين تناديكم: هذا ولى الله فاتبعوه وإلا حل بكم عذاب الله فاحذروه؟ أما كفاكم رؤيتكم على بن أبى طالب وهو يمشى والجبال تسير من بين يديه لئلا يحتاج إلى انحراف عنها، فلما جاز رجعت الجبال إلى أماكنها؟ ثم قال: اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حجتك عليهم تأكيدًا، قال:

فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم: حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية على، قالوا: آمنا... ودخلوا... ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلوها، ونادتهم: حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقروا بولاية على، فأقروا... ونزعوها... ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم: حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا، ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر فى أفواههم وناداهم: حرام عليكم أكلنا حتى تعترفوا بولاية على، فاعترفوا... ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذاكيرهم: حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية على بن أبى طالب، فاعترفوا، ثم ضجر بعضهم وقال: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ قال الله عز وجل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾ (الأنفال: ٣٣)... إلخ»[(١)].

الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة ﴿**وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ يبين المراد من الشجرة ويعلل النهى عنها فيقول: «... لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد، الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: لا تقربا هذه الشجرة، شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم... ومنها ما كان يتناوله النبى، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب، وهى شجرة تميزت من بين أشجار الجنة، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعًا من الثمار والمأكول، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر، والعنب، والتين والعناب وسائر أنواع التمار والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة، فقال بعضهم: هى برة، وقال آخرون: هى عنبة، وقال آخرون: هى عنابه، قال الله تعالى: ولا تقربا هذه الشجرة تلتمسان بذلك دوحة محمد

---

(١) ص ٢٦٥ - ٢٦٧.

وآل محمد فى فضلهم، فإن الله تعالى خصهم بهذه دون غيرهم، وهى الشجرة التى من يتناول منها بإذن الله عز وجل ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول منها بغير إذن الله خاب من مراده وعصى ربه ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بمعصيتكما والتماسكما درجة قد أوثر بها غيركما كما إذا أردتما بغير يحكم الله»[1].

توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد ﷺ وبأهل البيت:

وقد جاء فى هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء والأمم السابقين كانوا إذا حزبهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد ﷺ وأهل بيته ﷺ.

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة البقرة: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نراه يقول: «... فلما زلت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عز وجل قال: يا رب، تب على واقبل معذرتى، وأعدنى إلى مرتبتى، وارفع لديك درجتى فما أشد تبين بعض الخطيئة وذلها بأعضائى وسائر بدنى، قال الله تعالى: يا آدم، أما تذكر أمرى إياك بأن تدعونى بمحمد وآله الطيبين عند شدائدك ودواهيك وفى النوازل تنزل بك؟ قال آدم: يا رب بلى، قال الله عز وجل له: فتوسل بمحمد وعلى فاطمة والحسن والحسين خصوصًا، فادعنى أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك، فقال آدم: يا رب وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتى، وتغفر خطيئتى، وأنا الذى أسجدت له ملائكتك، وأبحته جنتك، وزوجته حواء أمتك وأخدمته كرام ملائكتك؟ قال الله: يا آدم... إنما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود إذا كنت وعاء لهذه الأنوار، ولو كنت سألتنى بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعى عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قد جعلت ذلك، ولكن المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقًا لعلمى، فالآن بهم فادعنى لأجبك، فعند ذلك قال آدم: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين، بجاه محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لما تفضلت بقبول توبتى، وغفران زلتى، وإعادتى من كراماتك إلى مرتبتى، فقال الله عز وجل: قد قبلت توبتك وأقبلت برضوانى عليك، ورزقت آلائى ونعمائى عليك، وأعدتك إلى مرتبتك من كراماتى، ووفرت نصيبك من رحماتى،

---

(١) ص ٨٩.

فذلك قوله عز وجل: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧)»(١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ نجده يقول: «قال الله عز وجل: واذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقا ينقطع بعضه من بعض، فأنجيناكم هناك وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون، وذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عز وجل إليه: قل لبنى إسرائيل جددوا توحيدى، وأمِرّوا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى وإمائى، وأعيدوا على أنفسكم الولاية لعلى أخى محمد وآله الطيبين، وقولوا: اللهم بجاههم جوزنا على متن هذا الماء، فإنه يتحول لكم أرضًا، فقال لهم موسى ذلك، فقالوا: أتورد علينا ما نكره، وهل فررنا من آل فرعون إلا من خوف الموت، وأنت تقتحم بنا هذا الماء الغمر بهذه الكلمات، وما يدرينا ما يحدث من هذه علينا؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا وهو على دابة له ـ وكان ذلك الخليج أربعة فراسخ: يا نبى الله، أمرك الله بهذا أن نقوله وندخل الماء؟ قال: نعم، قال: وأنت تأمرنى به؟ قال: نعم، فوقف وجدد على نفسه من توحيد الله ونبوة محمد وولاية على والطيبين من آلهما ما أمر به، ثم قال: اللهم بجاههم جوزنى على متن هذا الماء، وإذا الماء قصته كأرض لينة، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضًا، ثم قال لبنى إسرائيل: يا بنى إسرائيل... أطيعوا موسى، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان، ومغاليق أبواب النيران، ومستنزل الأرزاق، وجالب على عباد الله وإمائه رضا المهيمن الخلاق، فأبوا وقالوا: لا نسير إلا على الأرض، فأوحى الله: يا موسى... اضرب بعصاك البحر وقل: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما فلقته، ففعل فانفلق وظهرت الأرض إلى آخر الخليج، فقال موسى: ادخلوها، قالوا: الأرض وحلة، نخاف أن نرسب فيها، فقال الله عز وجل: يا موسى... قل: اللهم بحق محمد وآله الطيبين جففها، فقالها، فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفت، فقال موسى: ادخلوها، فقالوا: يا نبى الله، نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثنى عشر أبًا، وإن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه ولا نأمن

---

(١) ص ٩٠، ٩١.

من وقوع الشر بيننا، فلو كان لكل فريق منا طريق على حدة لأمنا ما نخافه، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم اثنتى عشرة ضربة، فى اثنى عشر موضعًا إلى جانب ذلك الموضع ويقول: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين بين الأرض لنا، وأقصر الماء عنا، فصار فيه تمام اثنى عشر طريقًا، وجف قرار الأرض بريح الصبا، فقال: ادخلوها، فقالوا: كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين، فقال الله عز وجل: فاضرب كل طود من الماء بين هذه السكك، فضرب فقال: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما جعلت فى هذا الماء طيقانًا واسعة يرى بعضهم بعضًا، فحدثت طيقان واسعة يرى بعضهم بعضًا، ثم دخلوها، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون وقومه فدخل بعضهم، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم بالخروج أمر الله تعالى فانطبق عليهم فغرقوا، وأصحاب موسى ينظرون إليه، فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾»[١] .

التقيـــــــة:

وهو يعترف بالتقية ويدين بها، ويروى عن رسول الله ﷺ أحاديث فيها، فمن ذلك: أنه روى عن الحسن بن على أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأنبياء إنما فضلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله، وحسن تقيتهم لأجل إخوانهم فى الله»[٢] .

وروى عن أمير المؤمنين أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره وتزول عنه التقية، جاء يوم القيامة ملجمًا بلجام من النار»[٣] .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ يقول: «. . . الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسع لهم فى التقية، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا، ويسرونها إذا عجزوا»[٤] .

---

(١) ص ٩٨، ٩٩.
(٢) ص ١٦٢.
(٣) ص ١٤٢.
(٤) ص ٢٣٩.

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ...﴾ الآية يقول: «... نظر الباقر إلى بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة، وأحس الشيعى بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال: أعتذر إليك يا بن رسول الله عن صلاتى خلف فلان فإنها تقية، ولو لا ذلك لصليت وحدى، قال له الباقر: يا أخى... إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت، يا عبد الله المؤمن... ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلى عليك وتلعن إمامك ذاك، وإن الله تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقية بسبعمائة صلاة لو صليتها لوحدك، فعليك بالتقية»(١).

تأثره بمذهب المعتزلة:

وإنا لنجد فى هذا التفسير تأثرًا بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره، ونراه يتأول هذا الختم بما يتفق ورأى المعتزلة فيقول: «أى وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا يؤمنون، وعلى سمعهم كذلك بسمات، وعلى أبصارهم غشاوة، وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه، وقصروا فيما أريد منهم، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به، فصاروا كمن على عينه غطاء لا يبصر ما أمامه؛ فإن الله عز وجل يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه، فلا يأمرهم بمغالبته ولا بالمسير إلى ما قد صدهم بالعجز»(٢).

تأثره فى تفسيره بآراء الشيعة فى الفروع الفقهية:

كذلك نجد المؤلف يجرى فى تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التى يقول بها الإمامية الاثنا عشرية.

فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾ نراه يروى حديثًا طويلاً عن رسول الله ﷺ يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقية، وهذا

---

(١) ص ٢٤٥، ٢٤٦. (٢) ص ٣٦.

الحديث هو: أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا توضـأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه، وإذا غـسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديـه، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب رأسه، وإذا مسح رجليه، أو غسلهما تقية تناثرت ذنوب رجليه... إلخ»(١).

... وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشـيعى، سيرًا فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المـعقول المقبـول، وإذا كان هذا التفسـير من عمل الحسن العسكرى، الإمام المعصوم، الذى عنده علم القـرآن كله، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصـوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته؟!.

وإذا كان ما يذكره صـاحب أعيان الشيعة من علمـه وصلاحه أمرًا حقيـقيا، فالظن بهذا الكتـاب أن يكون منسوبًا إلى هذا الإمام زورًا وبهتـانًا، وهذا ما أرجحـه وأختاره، لأنى لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه فى التشيع كما فعل غيره.

* * *

(١) ص ٢١٥، ٢١٦.

(٣) مجمع البيان لعلوم القرآن
للطبرسى

ترجمة المؤلف ومكانته العلمية:

مؤلف هذا التفسير فى نظر أصحابه هو أبو على، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرى المشهدى[1]، الفاضل العالم، المفسر، الفقيه، المحدث، الجليل، الثقة، الكامل، النبيل، وهو من بيت عرف أهله بالعلم، فهو وابنه رضى الدين أبو نصر حسن بن الفضل صاحب مكارم الأخلاق، وسبطه أبو الفضل على بن الحسن، وسائر سلسلته وأقربائه، من أكابر العلماء، ويروى عنه جماعة من العلماء منهم: ولده المذكور، وابن شهر آشوب، والشيخ منتخب الدين، والقطب الراوندى، وغيرهم، ويروى هو عن: الشيخ أبى على ابن الشيخ الطوسى، قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس: «هو ثقة، فاضل، دين، عين، له تصانيف، منها: مجمع البيان فى تفسير القرآن، والوسيط فى التفسير أربع مجلدات، والوجيز مجلدة، وإعلام الورى بأعلام الهدى مجلدتين، وتاج المواليد والآداب الدينية للخزانة المعيبة». قال صاحب روضات الجنات معقبًا على هذا: «وقد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤هـ أربع وثلاثين وخمسمائة، ولعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور، وبالوجيز الكاف الشاف عن الكشاف، ويحتمل المغايرة».

وقال صاحب مجالس المؤمنين ما معناه: «إن عمدة المفسرين، أمين الدين، ثقة الإسلام، أبو على الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، كان من نحارير علماء التفسير، وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان، بيان كاف ودليل واف لجامعيته لفنون الفضل والكمال، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، ألف تفسيرًا آخر مختصرًا، شاملاً لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع، وله تفسير ثالث أيضًا أخصر من الأولين، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام، ويظهر من كتاب اللمعة الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسى هذا كان

---

(١) الطبرسى: نسبة إلى طبرستان: والمشهدى نسبة للمشهد الرضوى المدفون فيه.

داخلاً فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضًا، ومقالته فى الرضاع معروفة، وهى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة، وكذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر».

ومن العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة والغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره مجمع البيان الذى نحن بصدده فيقولون: «ومن عجيب أمر هذا الطبرسى بل من غريب كراماته، ما اشتهر بين الخاص والعام، أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ودفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر ومسدودًا عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر فى تلك الحال أنه إذا نجى من تلك الداهية ألف كتابًا فى تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده، فتحير النباش ودهش مما رآه، ثم تكلم معه فازداد به قلقًا، فقال له: لا تخف، أنا حى وقد أصابتنى السكتة ففعلوا بى هذا، ولما لم يقدر على النهوض والمشى من غاية ضعفه، حمله النباش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة وأولاه مالاً جزيلاً، وتاب على يده النباش، ثم إنه بعد ذلك وفَّى بنذره الموصوف، وشرع فى تأليفه مجمع البيان».

وكانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة[١].

الكلام على هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

قبل أن أخوض فى الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء فى مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله؛ لما جاء فيها من بيان الحوافز التى دفعت مؤلفه إلى تأليفه، ولما أوضحه لنا من طريقته التى سلكها فى تفسيره، فهو أدرى بها وأعلم.

الدواعى التى حملت الطبرسى على كتابة هذا التفسير:

ذكر الطبرسى هذه الدواعى فقال:

«... وقد خاض العلماء قديمًا وحديثًا فى علم تفسير القرآن، واجتهدوا فى إبراز مكنونه وإظهار مضمونه، وألفوا فيه كتبًا جمّا غاصوا فى كثير منها إلى أعماق لججه، وشققوا الشعر فى إيضاح حججه، وحققوا فى تفتيح أبوابه وتغلغل شعابه، إلا أن

---

(١) انظر روضات الجنات ٥١٢ - ٥١٤..

أصحابنا ـ ﷺ ـ لم يدونوا فى ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم فى ذلك من الأخبار، ولم يعنوا ببسط المعانى فيه وكشف الأسرار، إلا ما جمعه الشيخ الأجل السعيد، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى من كتاب التبيان، فإنه الكتاب الذى يقتبس من ضيائه الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، وقد تضمن فيه من المعانى الأسرار البديعة، واختصر من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة وأستضىء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط فى أشياء مما ذكره فى الإعراب والنحو الغث بالسمين، والخاثر بالزباد، ولم يميز الصلاح مما ذكر فيه والفساد، وأدى الألفاظ فى مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، وأخل بحسن الترتيب وجودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السلمية الموقع المرضى، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان العلى».

«وقد كنت فى ريعان الشباب وحداثة السن، وريان العيش ونضارة الغصن، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب فى التفسير، ينتظم أسرار النحو اللطيفة، ولمع اللغة الشريفة، ويفى موارد القراءات من متوجهاتها، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها، ويجمع جوامع البيان فى المعانى المستنبطة من معادنها، المستخرجة من كوامنها، إلى غير ذلك من علومه الجمة، مطلعة من الغلف والأكمة، فيعترض لذلك جوائح الزمان، وعوائق الحدثان، وواردات الهموم، وهفوات القدر المحتوم، وهلم جرًّا إلى الآن، وقد زرف سنى على الستين واشتعل الرأس شيبًا، وامتلأت العيبة عيبًا، فحدانى على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم، ولى النعيم جلال الدين ركن الإسلام... فخر آل رسول الله ﷺ وآله، أبى منصور محمد بن يحيى بن هبة الله الحسين ـ أدام الله علاه ـ بهذا العلم، وصدق رغبته فى معرفة هذا الفن، وقصر همه على تحقيق حقائقه، والاحتواء على جلائله ودقائقه، والله عز اسمه المسئول أن يحرس للإسلام والمسلمين رفيع حضرته، ويفيض على الفضل والفضلاء سجال سيادته، ويمد على العلم والعلماء أمداد سعادته... فأوجبت على نفسى إجابته إلى مطلوبه، وإسعافه بمحبوبه، واستخرت الله تعالى، ثم قصرت وهمى وهمى على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، واكتساب هذه الفضيلة النبيلة، وشمرت عن

ساق الجد، وبذلت غاية الجهد والكد، وأسهرت الناظر وأتعبت الخاطر، وأطلت التفكير وأحضرت التفاسير، واستمددت من الله التوفيق والتيسير»(١).

وصف الطبرسى لتفسيره:

ثم وصف الطبرسى تفسيره فقال:

«وابتدأت فى تأليف كتاب هو فى غاية التلخيص والتهذيب وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوى فصوصه وعيونه من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا - ﷺ - من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعقول والمسموع، على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار؛ فإن الخواطر فى هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة وتضعف عن الإجراء فى الحلبات الخطيرة إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، ومن العلوم إلا الذماء»(٢).

منهج الطبرسى فى تفسيره:

ثم وضح منهجه فقال:

«وقدمت فى مطلع كل سورة ذكر مكيها ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها، ثم ذكرت تلاوتها، ثم أقدم فى كل آية الاختلاف فى القراءات، ثم أذكر العلل والاحتجاجات، ثم أذكر العربية واللغات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعانى والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات، على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة، وفى إعرابه كل حجة واضحة، وفى معانيه كل قول متين، وفى مشكلاته كل برهان مبين، فهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوى عدة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللمحدث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة، وسميته: «مجمع البيان لعلوم القرآن».

---

(١) هنا يذكر الشيخ الحوافز التى دفعته إلى هذا التفسير، وهى كما ترى مخالفة للقصة المتقدمة.

(٢) الذماء فى الأصل: بقية الروح فى المذبوح.

مقدمات الكتاب:

ثم استطرد إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال: وقبل أن نشرع فى تفسير السور والآيات، فنحن نصدر الكتاب بذكر مقدمات لا بد من معرفتها، لمن أراد الخوض فى علومه تجمعها فنون سبعة:

جعل **الفن الأول** منها: فى أعداد آى القرآن والفائدة من معرفتها.

والفن الثانى: فى ذكر أسامى القراء المشهورين فى الأمصار ورواتهم.

والفن الثالث: فى ذكر التفسير والتأويل والمعنى، والتوفيق بين ما ورد من الآيات والآثار من النهى عن التفسير بالرأى وإباحته.

والفن الرابع: فى ذكر أسامى القرآن ومعانيها.

والفن الخامس: فى أشياء من علوم القرآن يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها والكتب المؤلفة فيها كإعجاز القرآن، والكلام عن زيادة القرآن ونقصانه.

وهنا يقول: فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه... إلخ»[١]، ثم ذكر من جملة العلوم التى يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام فى النسخ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن وليست داخلة فى التفسير.

والفن السادس: فى ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة فى فضل القرآن وأهله.

والفن السابع: فى ذكر ما يستحب للقارئ من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن[٢].

ثم شرع فى التفسير فتكلم عن الاستعاذة فالبسملة ففاتحة الكتاب وهكذا إلى آخر القرآن.

---

(١) جـ١ ص ٦. (٢) جـ١ ص ١ - ٦.

والحق أن تفسير الطبرسى ـ بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية ـ كتاب عظيم فى بابه، يدل على تبحر صاحبه فى فنون مختلفة من العلم والمعرفة، والكتاب يجرى على الطريقة التى أوضحها لنا صاحبه، فى تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد فى كل ناحية من النواحى التى يتكلم عنها، فإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلم عن المعانى اللغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد، وإذا شرح المعنى الإجمالى أوضح المراد، وإذا تكلم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء، وجهر بمذهبه، ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل، وأوضح لنا عن حسن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال، وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها، وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التى خالف فيها هو ومن على شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة، غير أنه ـ والحق يقال ـ ليس مغاليًا فى تشيعه، ولا متطرفًا فى عقيدته، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الاثنى عشرية.

وإليك بعض المثل من هذا التفسير، لترى كيف يميل الطبرسى بالآيات القرآنية إلى المعانى التى تتفق ومذهبه، وكيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أسس من القرآن الكريم، وأن يرد ما يصادمه من ظواهر النصوص ويدفع بها فى وجه خصمه.

إمامة على:

لما كان الطبرسى يدين بإمامة على رضي الله عنه، ويرى أنه خليفة النبى صلى الله عليه وسلم بلا فصل، فإنا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ يبذل مجهودًا كبيرًا لاستخلاص وجوب إمامة على رضي الله عنه من هذه الآية، فنجده أولاً يتكلم عن المعانى اللغوية لبعض مفردات الآية

فيفسر المولى بقوله: «الولى هو الذى يلى النصرة والمعونة، والولى هو الذى يلى تدبير الأمر، يقال: فلان ولى أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها، وولى الدم من كان إليه المطالبة بالقود، والسلطان ولى أمر الرعية، ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده ولى عهد المسلمين، قال الكميت يمدح عليّا:

ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

(ويروى الفتوى) وإنما أراد ولى الأمر والقائم بتدبيره، قال المبرد فى كتاب العبادة عن صفات الله: (أصل الولى الذى هو أولى أى أحق، ومثله المولى)، ثم بعد ذلك فسر الطبرسى (الركوع) و (الحزب)، ثم ذكر الإعراب، ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل: «. . . بينا عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول: قال رسول الله ﷺ، إذ أقبل رجل متعمم بعمامة، فجعل ابن عباس لا يقول: قال رسول الله ﷺ إلا قال الرجل: قال رسول الله، فقال ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال: يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمتا، ورأيته بهاتين وإلا عميتا يقول: (علىٌّ قائد البررة، وقاتل الكفرة، ومنصور من نصره، ومخذول من خذله) أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يومًا من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئًا، فرفع البسائل يده إلى السماء فقال: اللهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئًا، وكان على راكعًا فآوى بخنصره اليمنى إليه - وكان يتختم فيها - فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين رسول الله ﷺ، فلما فرغ النبى من صلاته ورفع رأسه إلى السماء فقال: اللهم إن أخى موسى سألك فقال ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ (طه: ٢٥ - ٣٢) فأنزلت عليه قرآنًا ناطقًا ﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا**﴾ (القصص: ٣٥) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك، اللهم فاشرح لى صدرى، ويسر لى أمرى، واجعل لى وزيرًا من أهلى، عليًا اشدد به ظهرى، قال أبو ذر: فوالله ما استتم رسول الله ﷺ الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند ربه فقال: يا محمد، اقرأ، قال: وما أقرأ! قال: اقرأ ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ**

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٥) وروى هذا الخبر أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بهذا الإسناد بعينه، وروى أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن ـ على ما حكاه المغربي عنه ـ والرماني، والطبري أنها نزلت في علي حين تصدق بخاتمه وهو راكع، وهو قول مجاهد والسدي، والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وجميع علماء أهل البيت، وقال الكليني: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية، وفي رواية عطاء قال عبد الله بن سلام: يا رسول الله أنا رأيت عليّا تصدق بخاتمه وهو راكع فنحن نتولاه، وقد رواه السيد أبو الحمد عن أبي القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبي صالح أبي الصلاح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمنوا بالنبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله.. إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجلس، وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا، فقال لهم النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾ (المائدة: ٥٥) الآية، ثم إن النبي خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فبصر بسائل، فقال النبي ﷺ: «هل أعطاك أحد شيئًا؟» فقال: نعم... خاتم من فضة، فقال النبي ﷺ: «من أعطاكه؟» قال: ذلك القائم ـ وأومأ بيده إلى عليٍّ ـ فقال النبي ﷺ: «على أي حال أعطاكه؟» قال: أعطاني وهو راكع، فكبَّر النبي ثم قرأ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦) فأنشأ حسان بن ثابت يقول في ذلك:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب مدحيك المحبر ضائعًا ... وما المدح في جنب الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعًا ... زكاة فدتك النفس يا خير راكع

فأنزل فيك الله خير ولاية ... وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

وفي حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير: أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من قومهم، فبينا هم يشكون إذ نزلت هذه الآية، وأذن بلال فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل، فقال ﷺ: ماذا أعطيت؟ قال: خاتم من فضة، قال: من أعطاكه؟

قال: ذلك القائم، فإذا هو على، قال: على أى حال أعطاكه؟ قال: أعطانى وهو راكع، فكبر رسول الله ﷺ وقال: ومن يتول الله ورسوله...».

ثم شرح المعنى فقال: «ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم، ويجب طاعته عليهم، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ أى الذى يتولى مصالحكم ويحقق تدبيركم هو الله تعالى، ورسوله يفعله بأمره ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم وصف الذين آمنوا فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ بشرائطها ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أى ويعطون ﴿الزَّكَاةَ﴾ ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أى فى حال الركوع، وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة على بعد النبى ﷺ بلا فصل، والوجه فيه: أنه إذا ثبت أن لفظة (وليكم) فى الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم، وثبت أن المراد بالذين آمنوا علىٌّ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح، والذى يدل على الأول هو الرجوع إلى اللغة، فمن تأملها علم أن القوم نصوا على ذلك، وقد ذكرنا قول أهل اللغة فيه قبل فلا وجه لإعادته، وإن الذى يدل على أنها فى الآية تفيد ذلك دون غيره، أن لفظة «إنما» على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عمن عدا المذكور، كما يقولون: إنما الفصاحة للجاهلية، ويعنون نفى الفصاحة عن غيرهم، وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة الوالى على الموالاة فى الدين والمحبة؛ لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر، والمؤمنون كلهم مشتركون فى هذا المعنى، كما قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (التوبة: ٧١) وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمور، وما يقتضى فرض الطاعة على الجمهور؛ لأنه لا محتمل للفظ إلا الوجهان، فإذا بطل أحدهما ثبت الآخر، والذى يدل على أن المعنى بالذين آمنوا هو على، الرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية فيه لما تصدق بخاتمه فى حال الركوع، وقد تقدم ذكرها، وأيضًا فإن كل من قال إن المراد بلفظة ولى ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية والمنفرد، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنى بها سواه، وليس لأحد أن يقول: إن لفظة الذين آمنوا لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد، وذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على

سبيل التفخيم والتعظيم، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه، وليس لهم أن يقولوا: إن المراد بقوله: وهم راكعون، أن هذه شيمتهم وعادتهم ولا يكون حالاً لإيتاء الزكاة؛ وذلك لأن قوله: (يقيمون الصلاة) قد دخل فيه الركوع، فلو لم يحمل قوله (وهم راكعون) على أنه حال من (يؤتون الزكاة) وحملناه على من صفتهم الركوع، كان ذلك كالتكرار غير المفيد، والتأويل المفيد أولى من البعد الذى لا يفيد، ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة: أنه قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ فخاطب جميع المؤمنين، ودخل فى الخطاب النبى ﷺ وغيره، ثم قال: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ فأخرج النبى ﷺ من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوجب أن يكون الذى خوطب بالآية هو الذى جعلت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولى نفسه، وذلك محال، واستيفاء الكلام فى هذا الباب يطول به الكتاب ومن أراده فليطلبه من مظانه . . .»[1].

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة؛ فإن حديث تصدق على بخاتمه فى الصلاة ـ وهو محور الكلام ـ حديث موضوع لا أصل له، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى فى كتابه منهاج السنة (جـ٤ ص٣ - ٩).

عصمة الأئمة:

ولما كان الطبرسى يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يحاول محاولة جدية أن يقصر أهل البيت على النبى ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين؛ ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء، فلهذا يقول بعدما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذى يريده: «. . . والروايات فى هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة، لو تصدينا لإيرادها لطال الكلام، وفيما أوردناه كفاية. . . واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا: إن لفظة (إنما) محققة لما أثبت بعدها، نافية لما لم يثبت؛ فإن قول

---

(١) جـ١ ص٣٣٥، ٣٣٦.

القائل: إنما لك عندى درهم، وإنما فى الدار زيد، يقتضى أنه ليس عندى سوى الدرهم، وليس فى الدار سوى زيد، وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة فى الآية أن تكون هى الإرادة المحضة، أو الإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، ولا يجوز الوجه الأول؛ لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة، ولا مدح فى الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثانى، وفى ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح، وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم، ومتى قيل: إن صدر الآية وما بعدها فى الأزواج، فالقول فيه: إن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء فى كلامهم؛ فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم. . .»(١).

فأنت ترى أن الطبرسى يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة الأئمة وهى عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومن على شاكلته من الإمامية الاثنى عشرية، ولا شك أن هذا تحكم فى كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى، وحمله عليه تأثير المذهب.

الرجعة:

ولما كان الطبرسى يقول بالرجعة، فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول ما نصه: (. . . واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة، وقول من قال: إن الرجعة لا تجوز إلا فى زمن النبى لتكون معجزة له ودلالة على نبوته، باطل؛ لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدى الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة فى كتب الأصول. . .»(٢).

المهدى:

والطبرسى يدين بالمهدى، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع فى آخر الزمان، وقد تأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ

---

(١) جـ١ ص ٥٠. (٢) جـ١ ص ٥٠.

يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يذكر الأقوال الواردة فى المعنى المراد بالغيب، وينقل فى جملة ما ينقل من الأقوال: أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه، ثم يقول: «وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدى ووقت خروجه»(١).

التقيـــــة:

ولما كان الطبرسى يقول بمبدأ التقية، فإنا نجده يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً...﴾** الآية، فيقول: «من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله فى شىء، أى ليس هو من أولياء الله، والله برىء منه، وقيل: ليس هو من ولاية الله تعالى فى شىء، وقيل: ليس من دين الله فى شىء، ثم استثنى فقال: **﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾** والمعنى: إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه، ومداراتهم تقية منهم ودفعًا عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك، وفى هذه الآية دلالة على أن التقية جائزة فى الدين عند الخوف على النفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة فى الأحوال كلها عند الضرورة، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال فى قتل المؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد فى الدين.

قال المفيد: إنها قد تجب أحيانًا وتكون فرضًا، وتجوز أحيانًا من غير وجوب، وتكون فى وقت أفضل من تركها، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذورًا أو معفوًا عنه متفضلاً عليه بترك اللوم عليها، وقال الشيخ أبو جعفر الطوسى: وظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس، وقد روى رخصته فى جواز الإفصاح بالحق عنده، وروى الحسن: أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال:

(١) جـ١ ص ١٧.

أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: إنى أصم، قالها ثلاثًا، كل ذلك يجيبه بمثل الأول، فضرب عنقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: أما ذلك المقتول فمضى على صدقه ويقينه، وأخذ بفضله فهنيئًا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه، فعلى هذا تكون التقية رخصة والإفصاح بالحق فضيلة»[1].

تأثر الطبرسى بفقه الشيعة فى تفسيره:

ونجد الطبرسى فى تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الاثنى عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم، وهو فى استدلاله ورده، ودفاعه وجدله، عنيف كل العنف، قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب من يخالفه.

نكاح المتعة:

فمثلاً نجد الإمامية الاثنى عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين؛ فلهذا حاول الطبرسى - وهو واحد منهم - أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى فعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً...** ﴾ الآية، يقول ما نصه: ﴿ ... **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً...** ﴾ الآية، قيل: المراد بالاستمتاع هنا درك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة، عن الحسن ومجاهد وابن زيد، فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن، وقيل: المراد نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم... عن ابن عباس والسدى وابن سعيد وجماعة من التابعين، وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح؛ لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان فى الأصل واقعًا على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بعرف الشرع مخصوصًا بهذا العقد

---

(١) جـ١ ص ١٨٣.

المسمى متعة فآتوهن أجورهن، ويدل على ذلك أن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضى أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ، لأن المهر لا يجب إلا به، هذا وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبى بن كعب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود: أنهم قرأوا: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن» وفى ذلك تصريح بأن المراد به عقد المتعة، وقد أورد الثعلبى فى تفسيره عن حبيب بن أبى ثابت قال: أعطانى ابن عباس مصحفًا فقال: هذا على قراءة أبى، فرأيت فى المصحف: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، وبإسناده عن أبى نضرة قال: سألت ابن عباس عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ فقلت: بلى، فقال: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، قلت: لا أقرأها هكذا، قال ابن عباس: والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات)، وبإسناده عن سعيد ابن جبير أنه قرأ: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال: سألته عن هذه الآية ﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ** ﴾ أمنسوخة هى؟ قال: قال الحكم: قال على بن أبى طالب: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى[1]، وبإسناده عن عمران بن الحصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها، فأمرنا رسول الله ﷺ، وتمتعنا مع رسول الله ﷺ ومات ولم ينهنا عنها، فقال بعد رجل برأيه ما شاء، ومما أورده مسلم بن الحجاج فى الصحيح قال: حدثنا الحسن الحلوانى، قال: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا ابن جريج، قال: قال عطاء: قدم جابر بن عبد الله معتمرًا فجئناه فى منزله، فسأله القوم عن أشياء، ثم ذكروا المتعة، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبى بكر وعمر، ومما يدل أيضًا على أن لفظ الاستمتاع فى الآية لا يجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شىء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشىء، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد؛ لأنه قال: ﴿ **فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ** ﴾ أى مهورهن، ولا خلاف فى أن ذلك غير واجب، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد فى نكاح المتعة.

(١) **الأشفى بالفاء:** أى: إلا قليل.

ومما يمكن التعلق به فى هذه المسألة، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ حلالاً، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبى ﷺ نسخها أو نهى عنها أو أباحها فى وقت مخصوص دون غيره لأضاف التحريم إليه دون نفسه، وأيضًا فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء فى النهى، ولا خلاف فى أن متعة الحج غير منسوخة ولا محرمة، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها، وقوله: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ (**النساء: ٢٤**) من قال: إن المراد بالاستمتاع والانتفاع والجماع، قال: المراد به ولا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر ونقصانه، أو حط، أو إبراء، أو تأخير، وقال السدى: معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب فى عقد المتعة، يزيدها الرجل فى الأجر وتزيده فى المدة، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم...»[1].

فرض الرجلين فى الوضوء:

كذلك يقول الطبرسى ـ كغيره من علماء مذهبه ـ بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شىء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... وأرجلكم إلى الكعبين، اختلف فى ذلك، فقال جمهور الفقهاء: إن فرضهما الغسل، وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره، وبه قال عكرمة، وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين، كابن عباس، وأنس وأبى العالية والشعبى، وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل، وإليه ذهب الطبرى والجبائى إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم، قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية: يجب الجمع بين المسح والغسل، وروى عن ابن

(١) جـ١ ص ٢٥٥.

عباس أنه وصف وضوء رسول الله فمسح على رجليه، وروى عنه أنه قال: إن فى كتاب الله المسح، ويأبى الناس إلا الغسل، وقال: الوضوء غسلتان ومسحتان، وقال قتادة: فرض الله غسلتين ومسحتين، وروى ابن علية، عن حميد، عن موسى بن أنس: أنه قال لأنس ونحن عنده: إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم، وإنه ليس شىء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعواقبهما، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما، وقال الشعبى: نزل جبريل عليه السلام بالمسح، وقال: إن فى التيمم يمسح ما كان غسلاً، ويلغى ما كان مسحًا، وقال يونس: حدثنى من صحب عكرمة إلى واسط، قال: فما رأيته غسل رجليه، إنما كان يمسح عليهما، وأما ما روى عن سادة أهل البيت فى ذلك فأكثر من أن يحصى، فمن ذلك ما روى الحسين بن سعيد الأهوازى، عن فضالة، عن حماد بن عثمان، عن غالب بن هذيل قال: سألت أبا جعفر عن المسح على الرجلين فقال: هو الذى نزل به جبريل، وعنه عن أحمد بن محمد قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكعبين؛ فقلت له: لو أن رجلاً قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين؟ قال: لا، إلا بكفه كلها، وأما وجه القراءتين فى (أرجلكم) فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على (برءوسكم) وقال: المراد بالمسح هو الغسل، وروى عن أبى زيد أنه قال: المسح خفيف الغسل، فقد قالوا: تمسحت للصلاة، وقوى ذلك بأن التحديد إنما جاء فى المغسول ولم يجئ فى الممسوح، فلما وقع التحديد فى المسح علم أنه فى حكم الغسل لموافقة الغسل فى التحديد، وهذا قول أبى على الفارسى.

وقال بعضهم: هو خفض على الجوار، كما قالوا جحر ضب خرب، وخرب من صفات الجحر لا الضب، وكما قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله   كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجاج: إذا قرئ بالجر يكون عطفًا على الرءوس فيقتضى كونه ممسوحًا،

وذكر عن بعض السلف أنه قال: نزل جبريل بالمسح، والسنة فيه الغسل، قال: والخفض على الجوار لا يجوز فى كتاب الله تعالى، ولكن المسح على هذا التحديد فى القرآن كالغسل، وقال الأخفش: هو معطوف على الرءوس فى اللفظ، مقطوع فى المعنى، كقول الشاعر:

* علفتها تبنًا وماء باردا *

المعنى: وسقيتها ماء باردًا.

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه... إنه معطوف على (أيديكم) لأنا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح، ولما روى أن النبى ﷺ رأى قومًا توضأوا وأعقابهم تلوح، فقال: «ويل للعراقيب من النار» ذكره أبو على الفارسى، وأما من قال بوجوب مسح الرجلين... حمل الجر والنصب فى (أرجلكم) على ظاهره بدون تعسف، فالجر للعطف على الرءوس، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور، وأمثال ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تحصى، قالوا: ليس فلان بقائم ولا ذاهبًا، وأنشد:

معاوى إننا بشر فأسجع   فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال تأبط شرًا:

هل أنت باعث دينارًا لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف عبد على موضع دينار، فإنه منصوب فى المعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

جئنى بمثل بنى بدر لقومهم   أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى جئنى هات وأحضر لى مثلهم، عطف بالنصب على المعنى، وأجابوا الأولين عما ذكروه فى وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجاز: قالوا: ما ذكروه أولاً من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها: أن فائدة اللفظين فى اللغة والشرع مختلفة، وقد فرق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء الممسوحة، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحدًا؟.

وثانيها: أن الأرجل إذا كان معطوفًا على الرءوس، وكان الفرض فى الرءوس

المسح الذى ليس بغسل بلا خلاف، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك؛ لأن حقيقة العطف تقتضى ذلك.

وثالثها: أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلاً وفى هذا ما فيه.

فأما استشهاد أبى زيد بقولهم: تمسحت للصلاة، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يخبروا عن الطهور بلفظ موجز ولم يجز أن يقولوا تغسلت للصلاة لأن ذلك تشبيه بالغسل، قالوا بدلا من ذلك تمسحت، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضًا فتجوزوا لذلك تعويلاً على أن المراد مفهوم، وهذا لا يقتضى أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل.

وأما ما قالوا فى تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى فى الجواب عنه: أن ذلك لا يدل على الغسل، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبته الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل، ولو صرح سبحانه وتعالى فقال: وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين، لم يكن منكرًا، فإن قالوا: إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل، قلنا: إنا لم نوجب الغسل فى اليدين للتحديد بل للتصرح بغسلهما، وليس كذلك فى الرجلين، وإن قالوا: عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام، قلنا: هذا لا يصح؛ لأن الأيدى محدودة وهى معطوفة على الوجوه التى ليست فى الآية محدودة، فإذًا جاز عطف الأرجل وهى محدودة، على الرءوس التى ليست بمحدودة، وهذا أشبه مما ذكرتموه؛ لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه، وعطف عضو محدود مغسول عليه، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود، فيجب أن يكون أرجل ممسوحة محدودة معطوفة على الرءوس دون غيره، ليتقابل الجملتان فى عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود.

وأما من قال: إنه عطف على الجوار، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يجوز ذلك فى القرآن، ومن أجاز ذلك فى الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف، وكل ما استشهد

به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك، وأيضًا فإن المجاورة إنما وردت فى كلامهم عند ارتفاع اللبس والأمن من الاشتباه، فإن أحدًا لا يشتبه عليه أن (خربا) لا يكون من صفة الضب، ولفظة (مزمل) لا يكون من صفة البجاد، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون ممسوحة كالرءوس، وأيضًا فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزًا فى كلام العرب، وقالوا فى جحر ضب خرب: إنهم أرادوا خرب جحره، فحذفوا المضاف الذى هو جحر وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه وإذا ارتفع الضمير استكن فى خرب، وكذلك القول فى كبير أناس فى بجاد مزمل، فتقديره مزمل كبيره، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة، وهذا واضح لمن تدبره.

وأما من جعله مثل قول الشاعر: علفتها تبنًا وماء باردًا، كأنه قدر فى الآية: واغسلوا أرجلكم، فقوله أبعد من الجميع؛ لأن مثل ذلك لو جاز فى كتاب الله تعالى ـ على ضعفه وبعده فى سائر الكلام ـ فإنما يجوز إذا استحال حمله على ظاهر، فأما إذا كان الكلام مستقيمًا ومعناه ظاهرًا فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد؟.

وأما ما قاله أبو على فى القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدى، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال: جعل التأثير فى الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد، فنصب الأرجل عطفًا على الموضع أولى من عطفها على الأيدى والوجوه، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم: ضربت زيدًا وعمرًا وأكرمت خالدًا وبكرًا، فإن رد بكر إلى خالد الإكرام هو الوجه فى الكلام لا يسوغ الذى سواه، ولا يجوز رده إلى الضرب الذى قد انقطع حكمه، ولو جاز ذلك أيضًا لترجح ما ذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان.

فأما ما روى فى الحديث أنه قال: ويل للعراقيب من النار، وغير ذلك من الأخبار التى رووها عن النبى ﷺ أنه توضأ وغسل رجليه، فالكلام فى ذلك أنه لا يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الذى لا يوجب علمًا وإنما يقتضى الظن، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت فى كتبهم،

ونقلت عن شيوخهم، مثل ما روى عن أوس بن أبى أوس أنه قال: رأيت النبى ﷺ يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلى، وعن حذيفة قال: أتى رسول الله سباطة قوم فبال عليها ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه، وذكره أبو عبيدة فى غريب الحديث، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وقوله: ويل للعراقيب من النار، فقد روى فيه أن قومًا من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها، ويدخلون المسجد للصلاة، وكان ذلك سببًا لهذا الوعيد.

وأما الكعبان فقد اختلف فى معناهما، فعند الإمامية هما العظمان النابتان فى ظهر القدم عند معقد الشراك، ووافقهم فى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع، وقال جمهور المفسرين والفقهاء: الكعبان هما عظما الساقين؛ قالوا: ولو كان كما قالوه لقال سبحانه: وأرجلكم إلى الكعاب ولم يقل إلى الكعبين؛ لأن على ذلك القول يكون فى كل رجل كعبان»[(١)].

نكاح الكتابيات:

ولما كان مذهب الطبرسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ...**﴾ الآية، يقول بعدما تكلم عن اللغة والإعراب وسبب النزول: «لما تقدم ذكر المخالطة بيَّن تعالى من يجوز مخالطته بالنكاح فقال: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ**﴾ أى لا تزوجوا النساء الكافرات ﴿**حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ أى يصدقن بالله، وهى عامة عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، وليست بمنسوخة ولا مخصوصة، فاختلفوا فيه، فقال بعضم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب، وقد فصل الله بينهما فقال: ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ**﴾ (البينة: ١) و ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ**﴾ (البقرة: ١٠٥) وعطف أحدهما على الآخر، فلا نسخ فى الآية ولا تخصيص، وقال بعضهم: الآية متناولة جميع

(١) جـ١ ص ٣١٤ - ٣١٦.

الكفار، والشرك يطلق على الكل، ومن جحد نبوة نبينا محمد ﷺ فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه؛ لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة، ثم اختلف هؤلاء: فمنهم من قال: إن الآية منسوخة فى الكتاب بالآية التى فى المائدة ﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (المائدة: ٥) عن ابن عباس والحسن ومجاهد، ومنهم من قال: إنها مخصوصة بغير الكتابيات... عن قتادة وسعيد بن جبير، ومنهم من قال: إنها على ظاهرها فى تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة... عن ابن عمر وبعض الزيدية وهو مذهبنا، وسيأتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ معناه مملوكة مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ معناه ولو أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها، فظاهر هذا يدل على أنه لا يجوز نكاح الأمة المؤمنة فى وجود الطول، فأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً...﴾ (النساء: ٢٥) الآية، فإنما هى على التنزيه دون التحريم ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ (البقرة: ٢٢١) معناه: ولا تنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى يؤمنوا، وهذا يؤيد قول من يقول إن قوله: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ يتناول جميع الكافرات، وقوله: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ أى عبد مصدق مسلم خير من حر مشرك ولو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله...»[(١)].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية، نراه يقول ما نصه: ﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، واختلف فى معناه فقيل: هن العفائف حرائر كن أو إماء، حربيات كن أو ذميات... عن مجاهد والحسن والشعبى وغيرهم، وقيل: هن الحرائر أو ذميات كن أو حربيات، وقال أصحابنا: لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتابية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ولقوله: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) وأولوا هذه الآية بأن المراد بالمحصنات

(١) جـ١ ص ١٣٤.

من الذين أتوا الكتاب: اللاتى أسلمن منهن، والمراد بالمحصنات من المؤمنات، اللاتى كن فى الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام، وذلك أن قوما كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر، فبين سبحانه أنه لا حرج فى ذلك؛ ولهذا أفردهن بالذكر، حكى ذلك أبو القاسم البلخى، قالوا: ويجوز أن يكون مخصوصًا أيضًا بنكاح المتعة وملك اليمين، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبى جعفر أنه منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وبقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾»[١].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ قال ما نصه: «أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات، وأصل العصمة المنع، وسمى النكاح عصمة، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته، وفى هذا دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت حربية أو ذمية، وعلى كل حال، الآية عامة فى الكوافر، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب...»[٢].

الغنائم:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيجبون الخمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعًا سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعثر عليه، والمعدن الذى يستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى، وليس الخمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقًا امتيازيًا لآل محمد الذين حرمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطانى بإرادة ملكية، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن[٣].

---

(١) جـ١ ص ٣١٣.

(٢) جـ٢ ص ٤٩٧.

(٣) تعريف الشيعة ص٣١.

لما كان هذا فإنا نجد الطبرسى ينزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه، ولهذا عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الآية، يقول متأثرًا بمذهبه: «... اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس ومن يستحقه على أقوال:

أحدها: ما ذهب إليه أصحابنا، وهو أن الخمس يقسم على ستة أسهم، فسهم لله، وسهم للرسول، وهذان السهمان مع سهم ذى القربى للإمام القائم مقام الرسول، وسهم ليتامى آل محمد، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، لا يشركهم فى ذلك غيرهم، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقات لكونها أوساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس، وروى ذلك الطبرى عن على بن الحسين زين العابدين، ومحمد بن على الباقر، وروى أيضًا عن أبى العالية والربيع أنه يقسم على ستة أسهم إلا أنهما قالا: سهم الله للكعبة، والباقى لمن ذكره الله، وهذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب ويقويه.

الثانى: أن الخمس يقسم على خمسة أسهم، وأن سهم الله والرسول واحد، ويصرف هذا السهم إلى الكراع والسلاح، وهو المروى عن ابن عباس، وإبراهيم، وقتادة، وعطاء.

الثالث: أن يقسم على أربعة أسهم: سهم لذى القربى... لقرابة النبى ﷺ، والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين، وهو مذهب الشافعى.

الرابع: أنه يقسم على ثلاثة أسهم، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته، لأن الأنبياء لا تورث فيما يزعمون، وسهم ذوى القربى قد سقط، لأن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذى القربى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما... وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق، ومنهم من قال: لو أعطى فقراء ذوى القربى سهمًا والآخرون ثلاثة أسهم جاز، ولو جعل ذوى القربى أسوة بالفقراء ولا يفرد لهم سهم جاز، واختلف فى ذى القربى: فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه... عن ابن عباس ومجاهد، وإليه ذهب أصحابنا، وقيل: هم بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف... وهو مذهب الشافعى، وروى ذلك عن جبير بن مطعم

عن النبى ﷺ، وقال أصحابنا: إن الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب، وأرباح التجارات، وفى الكنوز والمعادن والغوص، وغير ذلك مما هو مذكور فى الكتب، ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم والغنيمة...»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أى من أموال كفار أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ﴾ يأمركم فيه بما أحب ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بتمليك الله إياه ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى أهل بيت رسول الله وقرابته، وهم بنو هاشم ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ منهم، لأن التقدير ولذى قرباه، ويتامى أهل بيته ومساكينهم وابن السبيل منهم، وروى المنهال بن عمرو عن على بن الحسين قال: قلت: قوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ قال: هم أقرباؤنا ومساكيننا وأبناء سبيلنا، وقال جميع الفقهاء: هم يتامى الناس عامة، وكذلك المساكين وأبناء السبيل، وقد روى أيضًا ذلك عنهم، وروى محمد ابن مسلم عن أبى جعفر أنه قال: كان أبى يقول: لنا سهم رسول الله وسهم ذوى القربى، ونحن شركاء الناس فيما بقى، والظاهر يقتضى أن ذلك لهم، سواء كانوا أغنياء أو فقراء... وهو مذهب الشافعى، وقيل: إن مال الفىء للفقراء من قرابة رسول الله وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وروى عن الصادق أنه قال: نحن قوم فرض الله طاعتنا، ولنا الأنفال، ولنا صفو المال... يعنى ما كان يصطفى لرسول الله ﷺ من فره الدواب، وحسان الجوارى والدرة الثمينة والشىء الذى لا نظير له»(٢).

ميراث الأنبياء:

والطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما يورث سائر الناس، ولهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا، فيحمل عليه كلام الله، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ

---

(١) (١/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٢) (٢/ ٤٩١).

رَضِيًّا﴾ يقول ما نصه: «... اختلف فى معناه، فقيل: معناه: يرثنى مالى ويرث من آل يعقوب النبوة... عن أبى صالح، وقيل معناه يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب... عن الحسن ومجاهد، واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة، بأن قالوا: إن لفظ الميراث فى اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ما ينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال، ولا يستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة، وأيضًا فإن زكريا قال فى دعائه: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أى اجعل يا رب ذلك المولى الذى يرثنى رضيًا عندك ممتثلاً لأمرك، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى، وكان لغوًا عبثًا، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد: اللهم ابعث لنا نبيًا، واجعله عاقلاً رضيًا فى أخلاقه، لأنه إذا كان نبيًا فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا فى النبوة، ويقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله ﴿وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى﴾ وإنما يطلب وارثًا لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم، لأنه كأن أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيًا من ليس بأهل النبوة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهم بأهل، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته، فإن قيل: إن هذا يرجع عليكم فى ورثة المال، لأن فى ذلك إضافة الضن والبخل إليه، قلنا: معاذ الله أن يستوى الأمران، فإن المال قد يروق المؤمن والكافر، والصالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغى، بل فى ذلك غاية الحكمة، فإن تقوية الفساق، وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين، فمن عد ذلك بخلا وضنًا فهو غير منصف، وقوله: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى﴾ يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه، فالمراد به: خفت تضييع الموالى مالى وإنفاقهم إياه فى معصية الله»(١).

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾

(١) (٢/ ١١٤، ١١٥).

نجده يقول ما نصه: «فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم... وهو قول الحسن، وقيل: معناه أنه ورث علمه ونبوته وملكه دون سائر أولاده، ومعنى الميراث هنا أنه قام مقامه فى ذلك، فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث... عن الجبائى، وهذا خلاف الظاهر، والصحيح عند أهل البيت هو الأول...»[(١)].

الإجمـــــاع:

ولما كان الطبرسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفًا عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلاً فى جملة المجمعين[(٢)]، فإنا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات.

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿... **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجية الإجماع فيقول ما نصه «... واستدل بعضهم بقوله: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ على أن إجماع الأمة حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا والإجماع حجة، وهذا الاستدلال إنما يصح لو فرض أن فى الأمة معصومًا حافظًا للشرع، فأما إذا لم يفرض ذلك فلا يصح، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافة عند أكثر العلماء، فكيف اعتمدوا عليه ههنا، على أن الأمة لا تجمع على شىء إلا عن كتاب أو سنة، وكيف يقال إنها إذا أجمعت على شىء لا يجب عليها الرد إلى الكتاب والسنة وقد ردت إليهما؟»[(٣)].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ...**﴾ الآية، يقول ما

(١) (٢/ ٢٢٩).
(٢) تعريف الشيعة ص ١٦.
(٣) (١/ ٢٧٠).

نصه «... وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، لأنه توعد على مخالفة سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول، والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعة من هو مؤمن على الحقيقة ظاهرًا وباطنًا، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازًا، فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعة من أظهر الإيمان، وليس كل من أظهر الإيمان مؤمنًا، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد ﷺ، على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول من جمع بين مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أن من يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟ ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاقة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية، فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر»[(١)].

تأثر الطبرسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

هذا .. وإن عقيدة الطبرسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيرًا ما يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم، ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه، وأحيانا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

الهدى والضلال:

ففى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**...﴾ الآية، يقول ما نصه: «... قد ذكر فى تأويل الآية وجوه:

أحدها: أن معناه من يرد الله أن يهديه إلى الثواب وطريق الجنة يشرح صدره للإسلام فى الدنيا؛ بأن يثبت عزمه عليه، ويقوى دواعيه على التمسك به، ويزيل عن

(١) (١/ ٢٩٠).

قلبه وساوس الشيطان وما يعرض فى القلوب من الخواطر الفاسدة، وإنما يفعل ذلك لطفًا لها ومنًا عليه وثوابًا على اهتدائه بهدى الله وقبوله إياه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ (محمد: ١٧)، و ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم: ٧٦) ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ عن ثوابه وكرامته ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ﴾ فى كفره ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعًا له عن الإيمان وسالبًا إياه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سببًا داعيًا له إلى الإيمان، فإن من ضاق صدره بالشىء كان ذلك داعيًا له إلى تركه، والدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثوابًا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾ (الشرح: ١) الآيات، ومعلوم أن وضع الوزر ورفع الذكر يكون ثوابًا على تحمل أعباء الرسالة وكلفها، وكذلك ما قرن به من شرح الصدر، والدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ (محمد: ٤، ٥) ومعلوم أن الهداية بعد القتل لا تكون إلا إلى الثواب؛ فليس بعد الموت تكليف، وقد وردت الرواية الصحيحة: أنه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر: ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له صدره، وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: نعم... الإنابة إلى دار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

وثانيها: أن معنى الآية: فمن يرد الله أن يثبته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزاءً له على إيمانه واهتدائه، وقد يطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦)، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ﴾ أى يخذلها ويخلى بينه وبين ما يريده لاختياره الكفر وتركه الإيمان ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بأن يمنعه الألطاف التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره، فإن قيل: إنا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه، ونراه طيب القلب على كفره، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه؟ قلنا: إنه سبحانه بيَّن أنه يجعل صدره ضيقًا ولم يقل فى كل حال، ومعلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه والشكوك عليه، وعندما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان، وهذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر.

وثالثها: أن معنى الآية: من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعدها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة، لأن من حقها أن تزيد المؤمن بصيرة ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ**﴾ عن تلك الزيادة بمعنى يذهبه عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه ﴿**يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ لمكان فقد تلك الزيادة؛ لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده، ويكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان والزجر عن الكفر... وهذا التأويل قريب مما تقدم، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: إنما سمى الله قلب الكافر حرجًا، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه، وفى رواية أخرى: لا تصل الحكمة إلى قلبه، ولا يجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال، ولا الأمر به، ولا الإجبار عليه؛ لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال ولا يدعو إليه، فكيف يجبر عليه، والدعاء إليه أهون من الإجبار عليه، وقد ذم الله تعالى فرعون والسامرى على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله: ﴿**وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى**﴾ (طه: ٧٩)، وقوله ﴿**وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾ (طه: ٨٥) ولا خلاف فى أن إضلالهما إضلال أمر وإجبار ودعاء، وقد ذمهما الله تعالى عليه مطلقًا، فكيف يتمدح بما ذم عليه غيره»(١).

رؤيــــــة الله:

كذلك يقول الطبرسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول: «﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ اختلف فيه على وجهين:

أحدهما: أن معناه نظرة العين.

والثانى: أنه الانتظار، واختلف من حمله على نظر العين على قولين:

أحدهما: أن المراد: إلى ثواب ربها ناظرة، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنة حالاً بعد حال، فيزداد بذلك سرورها، وذكر الوجوه والمراد بها أصحاب الوجوه، روى ذلك عن جماعة من علماء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم... فحذف المضاف وأقيم

---

(١) (١/ ٤٠١).

المضاف إليه مقامه، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (الفجر: ٢٢) أمر ربك، وقوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ (غافر: ٤٢) أى إلى إطاعة العزيز الغفار وتوحيده، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٥٧) أى أولياء الله.

والآخر: أن النظر بمعنى الرؤية، والمعنى تنظر إلى الله معاينة، روى ذلك عن الكلبى ومقاتل وعطاء وغيرهم، وهذا لا يجوز، لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين، كما يجل سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع، وأيضًا فإن الرؤية بالحاسة لا تتم إلا بالمقابلة والتوجه، والله يتعالى عن ذلك بالاتفاق، وأيضًا فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئى، والله منزه عن اتصال الشعاع به، على أن النظر لا يفيد الرؤية فى اللغة، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية، كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطًا متناقضًا، وقولهم: ما زلت أنظر إليه حتى رأيته، والشىء لا يجعل غاية لنفسه، فلا يقال: ما زلت أراه حتى رأيته، ولأنَّا نعلم الناظر ناظرًا بالضرورة، ولا نعلمه رائيًا بالضرورة، بدلالة أنا نسأله هل رأيت أم لا؟.

وأما من حمل النظر فى الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا فى معناه على أقوال:

أحدها: أن المعنى منتظرة لثواب ربها... روى ذلك عن مجاهد، والحسن وسعيد ابن جبير، والضحاك... وهو المروى عن على، ومن اعترض على هذا بأن قال: إن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى بإلى، فلا يقال: انتظرت إليه، وإنما يقال انتظرته، فالجواب عنه على وجوه:

منها: أنه قد جاء فى الشعر بمعنى الانتظار ومعدى بإلى، كما فى البيت الذى سبق ذكره:

... ناظرات إلى الرحمن[1]

---

(١) وذلك حيث، فسر النظر لغة فقال: «... والنظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلبًا لرؤيته، ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال عز شأنه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ أى منتظرة، وقال الشاعر:

وجوه يوم بدر ناظرات ... إلى الرحمن تنظر الفلاحا =

وكقول جميل بن معمر:

وإذا نظرت إليك من ملك ... والبحر دونك زدتنى نعما[(١)]

وقول الآخر:

إنى إليك لما وعدت لناظر ... نظر الفقير إلى الغنى الموسر

ونظائره كثيرة:

ومنها: أن تحمل (إلى) فى قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على أنها اسم، فهو واحد الآلاء التى هى النعم، فإن فى واحدها أربع لغات: إلا وألا مثل معى وقفا، وألى وإلى مثل جدى وحسى، وسقط التنوين بالإضافة، وقال الأعشى:

أبيض لا يرهب الهزال ولا ... يقطع رحمًا ولا يخون إلى

وليس لأحد أن يقول: إن هذا من أقوال المتأخرين وقد سبقهم الإجماع، فإنا لا نسلم ذلك؛ لما ذكرناه من أن عليًا ومجاهدًا والحسن وغيرهم قالوا: المراد بذلك تنتظر الثواب.

ومنها: أن لفظ النظر يجوز أن يعدى بإلى فى الانتظار على المعنى، كما أن الرؤية عديت بإلى فى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ **(الفرقان: ٤٥)** فأجرى الكلام على المعنى، ولا يقال: رأيت إلى فلان، ومن إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق:

ولقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت ... منى تلوذ ببطن أم جرير

فعدى عجبت بإلى لأن المعنى نظرت.

وثانيها: أن معناه مؤملة لتجديد الكرامة، كما يقال: عينى ممدودة إلى الله تعالى وإلى فلان، وأنا شاخص الطرف إلى فلان... ولما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الفعل الذى يقع بالعين إليها... عن أبى مسلم.

وثالثها: أن المعنى أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شىء سوى الله، ورجوه

= ثم يستعمل فى الفكر فيقال: نظرت فى هذه المسألة أى: تفكرت، ومنه المناظرة: وتكون بمعنى المقابلة، يقال: دور بنى فلان تتناظر أى تتقابل» جـ٢ ص ٥٥٢.

(١) وفى رواية: جدتنى نعما، أى: جدت علىّ.

دون غيره، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر، ألا ترى أن الرغبة تتوقع نظر السلطان وتطمع فى أفضاله عليها وإسعافه فى حوائجها، فنظر الناس مختلف: فناظر إلى السلطان، وناظر إلى تجارة، وناظر إلى زراعة، وناظر إلى ربه يؤمله، وهذه الأقوال متقاربة فى المعنى، وعلى هذا فإن هذا الانتظار متى يكون؟ فقيل: إنه بعد الاستقرار فى الجنة، وقيل: إنه قبل استقرار الخلق فى الجنة والنار، فكل فريق ينتظر ما هو له أهل... وهذا اختيار القاضى عبد الجبار، وذكر جمهور أهل العدل أن النظر يجوز أن يحمل على المعنيين جميعًا، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المعد لهم فى الحال من أنواع النعيم، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال ليتم لهم ما يستحقون من الإجلال، ويسأل على هذا فيقال: إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة وبمعنى الانتظار مجازًا فكيف يحمل عليهما؟ والجواب: أن عند أكثر المتكلمين فى أصول الفقه يجوز أن يرادا بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما... وهو اختيار المرتضى قدس الله روحه، ولم يجوز ذلك أبو هاشم إلا إذا تكلم به مرتين: مرة يريد النظر، ومرة يريد الانتظار، وأما قولهم: المنتظر لا يكون نعيمه خالصًا فكيف يوصف أهل الجنة بالانتظار؟ فالجواب عنه: أن من ينتظر شيئًا لا يحتاج إليه فى الحال وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك ولا ينقص سروره به، بل ذلك زايد فى نعيمه، وإنما يلحق الهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره فى الحال ويلحقه بفوته مضرة وهو غير واثق بالوصول إليه، وقد قيل فى إضافة النظر إلى الوجود: إن الغم والسرور إنما يظهران فى الوجوه، فبين الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه، وأن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه...»[1].

السحر:

والطبرسى ينكر حقيقة السحر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السنة فى ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ ولهذا نراه فى آخر تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... واختلف فى ماهية السحر على أقوال:

---

(١) (٢/ ٥٥٢ - ٣٥٥).

فقيل: إنه ضرب من التخييل وصنعة لطيفة من الصنائع، وقد أمر الله تعالى بالتعوذ منه وجعل التحرز منه بكتابه وقاية منه، وأنزل فيه سورة الفلق، وهو قول الشيخ المفيد أبى عبد الله من أصحابنا.

وقيل: إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها، تخيل إلى المسحور لها حقيقة.

وقيل: إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً ويقلبه من صورة إلى صورة، وينشئ الحيوان على وجه الاختراع، وهو لا يجوز، ومن صدق به فهو لا يعرف النبوة، ولا يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع، ولو أن الساحر والمعزم قدرا على نفع أو ضرر، وعلما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معادنها والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه وضرر، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالاً وأكثرهم مكيدة واحتيالاً، علمنا أنهم لا يقدرون على شىء من ذلك، فأما ما روى من الأخبار أن النبى ﷺ سُحر فكان يرى أنه فعل ما لم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله حكاية عن الكفار: ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً**﴾ (الفرقان: ٨) فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين فى مقالهم، حاشا النبى من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله؛ فإنه حجة الله على خلقه وصفوته على بريته...»[١].

الشفاعة:

هذا ولا يلتزم الطبرسى القول بكل معتقدات المعتزلة، بل تراه يخالفهم فى كثير من الأحيان، ويرد عليهم معتقداتهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفًا قويّا.

فمذهب الطبرسى فى الشفاعة ـ مثلاً ـ يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ يقول ما نصه: ﴿**... وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ قال المفسرون: حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم

---

(١) (١/ ٧٥).

والمراد به الخصوص، ويدل على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبى شفاعة مقبولة وإن اختلفوا فى كيفيتها فعندنا هى مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبى المؤمنين.

وقالت المعتزلة: هى فى زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين، وهى ثابتة عندنا للنبى، ولأصحابه المنتخبين، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين، ولصالحى المؤمنين، وينجى بشفاعتهم كثيرًا من الخاطئين، ويؤيده الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول وهو قوله: (ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) وما جاء فى روايات أصحابنا ﷺ مرفوعًا إلى النبى أنه قال: «إنى أشفع يوم القيامة فأشفع، ويشفع على فيشفع، ويشفع أهل بيتى فيشفعون، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع فى أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار) وقوله مخبرًا عن الكفار عند حسراتهم على الفائت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (الشعراء: ١٠٠، ١٠١) »[١].

حقيقة الإيمان:

وهو أيضًا يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة: ﴿... الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال ما نصه: «... وقالت المعتزلة بأجمعها: الإيمان هو فعل الطاعة، ثم اختلفوا فمنهم من اعتبر الفرائض والنوافل، ومنهم من اعتبر الفرائض فحسب، واعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها، وقد روى العام والخاص عن على بن موسى الرضى: أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وقد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضًا: الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتباع الرسول.

وأقول أنا: أصل الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاءت به رسله، وكل عارف بشىء فهو مصدق به، يدل عليه هذه الآية، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علقه بالغيب، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على معرفة وثقة، ثم أفرده

---

(١) (١/ ٤٥).

بالذكر عن سائر الطاعات البدنية والمالية وعطفها عليه فقال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ والشىء لا يعطف على نفسه وإنما يعطف على غيره، ويدل عليه أيضًا أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقال: ﴿أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ (المجادلة: ٢٢) وقال النبى ﷺ: «الإيمان سر - وأشار إلى صدره - والإسلام علانية» وقد يسمى الإقرار إيمانًا كما يسمى تصديقًا إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيمانًا لفظيًا لا حقيقيًا، وقد تسمى أعمال الجوارح أيضًا إيمانًا استعارة وتلويحًا كما يسمى تصديقًا كذلك، فيقال: فلان تصدق أفعاله مقاله، ولا خير فى قول لا يصدقه الفعل، والفعل ليس بتصديق حقيقى باتفاق أهل اللغة، وإنما استعير هذا الاسم على الوجه الذى ذكرناه، فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر وقبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والتصديق به على نحو ما تقتضيه اللغة، ولا يطلق لفظه إلا على ذلك، إلا أنه يستعمل فى الإقرار باللسان والعمل بالأركان مجازًا واتساعًا، وبالله التوفيق...»[1].

روايته للأحاديث الموضوعة:

هذا، ولا يفوتنا أن نقول: إن الطبرسى رحمه الله لم يكن صادقًا فى وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث، ذلك لأنا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث فى تفسيره، فقد أكثر من ذكر الموضوعات، خصوصًا ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبى ﷺ أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم، وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسندًا إلى أبى وغيره، ومرفوعًا إلى رسول الله ﷺ، وهى أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم.

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث ما يشهد لمذهبه أو يتصل به، وهى أخبار نقرؤها ولا نكاد نرى عليها صبغة الصدق ورواء الحق.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ

---

(١) (١/ ١٧).

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نجد أنه يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسنة الشيعة، ثم يمر عليها بدون تعقيب منها، مما يدل على أنه يصدقها ويقول بها، فهو بعد أن ذكر أقوالاً أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال: «لما نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: أنا المنذر وعلى الهادى من بعدى، يا على بك يهتدى المهتدون» ونقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ بالطهور وعنده على بن أبى طالب، فأخذ رسول الله بيد على بعد ما تطهر فألزمها بصدره ثم قال: إنما أنت منذر، ثم ردها إلى صدره، ثم قال: ولكل قوم هاد، ثم قال: إنك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى وأشهد على ذلك أنك كذلك»[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ نجده يذكر أقوالاً ثلاثة فى معنى هذه الآية:

أحدها: لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرًا إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح.

وثانيها: أن معناه: إلا أن توذونى فى قرابتى منكم وتحفظونى لها.

وثالثها: إلا أن تودوا قرابتى وتحفظونى فيهم... وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم ما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم: على وفاطمة وولدهما، ويروى فيما يروى هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب (شواهد التنزيل لقواعد التفضيل) مرفوعًا إلى أبى أمامة الباهلى... قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى، وخلقت أنا وعلى من شجرة واحدة، فأنا أصلها، وعلى فرعها، وفاطمة لقاحها، والحسن والحسين ثمارها، وأشياعنا أوراقها، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا، ومن زاغ عنها هوى، ولو أن عبدًا عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالى، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه فى النار، ثم تلا ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾»[٢].

---

(١) (٢/ ٥).

(٢) (٢/ ٣٨٧ - ٣٨٩).

موقفه من الإسرائيليات:

وكثيرًا ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها... اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق وبعدها عن الصواب، فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة (ص): ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ** (٢١) **إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ...**﴾ الآيات، نجده يقول: «واختلف فى استغفار داود من أى شىء كان، فقيل: إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله ﴿**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ (الشعراء: ٨٢)، وأما قوله: ﴿**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ**﴾ (ص: ٢٥) فالمعنى أنا قبلناه منه وأثبتناه، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ (النساء: ١٤٢) وقوله: ﴿**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**﴾ (البقرة: ١٥)، فلما كان المقصود من الاستغفار والتوبة القبول قيل فى جوابه: غفرنا، وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم، ومن جوز على الأنبياء الصغائر قال: إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه، ثم إنهم اختلفوا فى ذلك على وجوه:

أحدها: أن أوريا بن حيان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضًا فزوجوها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا... عن الجبائى.

وثانيها: أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها: أنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها، فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج، فلما قتل أوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبة داود وجلالته أولياءه أن يخطبوها، فعوتب على ذلك.

ورابعها: أن داود كان متشاغلاً بالعبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وذلك مباح، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه، فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب.

وخامسها: أنه عوتب على عجلته فى الحكم قبل التثبت، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ويحكم عليه قبل ذلك، وإنما أنساه التثبت فى الحكم فزعه من دخولهما عليه فى غير وقت العادة.

وأما ما ذكر فى القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علىَّ إبراهيم فاتخذته خليلاً، وفضلت علىَّ موسى فكلمته تكليمًا، فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت، فقال: نعم يا رب فابتلنى، فبينا هو فى محرابه ذات يوم وقعت حمامة، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهمَّ بتزوجها، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذى فيه السكينة ففعل ذلك وقتل، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان، فبينا هو ذات يوم فى محرابه يقرأ إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما، فقالا: لا تخف ﴿**خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**﴾ (ص: ٢٢) فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك، فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه فى صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه، فمما لا شبهة فى فساده؛ فإن ذلك مما يقدح فى العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك، وقد روى عن أمير المؤمنين أنه قال: لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين، حدًا للنبوة وحدًا للإسلام...»[١].

التفسير الرمزى:

والطبرسى مع أنه فى كتابه هذا يفسر القرآن تفسيرًا يتمشى مع الظاهر المتبادر الى الذهن إلا أنا نلاحظ عليه احيانًا انه يذكر المعانى الباطنية، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزى الذى يقول به الشيعة، وهو وإن كان ناقلاً لهذه الاقوال إلا أنه يرتضيها ولا ير د عليها، كثيرًا ما يؤيدها بأدلة من عنده.

مثال ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور: ﴿**اللَّهُ نُورُ**

(١) (٢/ ٣٤٩).

﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ الآية، نجده يقول بعد كلام طويل: «واختلف فى هذا المشبه والمشبه به على أقوال... ثم ذكر هذه الأقول، فكان من جملة ما ذكره هذه الروايات التى لا تعدو أن تكون من وضع الشيعة، وهى ما روى عن الرضا أنه قال: «نحن المشكاة فيها المصباح محمد ﷺ يهدى الله لولايتنا من أحب» وما نقله من كتاب التوحيد لأبى جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى ابن راشد عن أبى جعفر الباقر فى قوله: **﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾** قال: نور العلم فى صدر النبى **﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾** الزجاجة صدر على، صار علم النبى إلى صدر على، علم النبى عليًا **﴿يُوقَدُ من شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾** نور العلم **﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾** لا يهودية ولا نصرانية **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾** قال: يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل **﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾** أى إمام مؤيد بنور العلم والحكمة فى إثر إمام من آل محمد ﷺ، ذلك من النبى آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء فى أرضه، وحججه على خلقه، لا تخلو الأرض فى كل عصر من واحد منهم، ويدل عليه قول أبى طالب:

أنت الأمير محمد	قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر	كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعو	د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل	فينا وصى مرشد
ولقد عرفتك صادقا	والقول لا يتفند
ما زلت تنطق بالصوا	ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان، شجرة أصلها النبوة، وفرعها الإمامة، وأغصانها التنزيل، وأوراقها التأويل، وخدمها جبريل وميكائيل...»[1].

---

(١) (٢/ ١٨٩).

اعتداله فى تشيعه:

والطبرسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الاثنى عشرية، ولقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصبًا كبيرًا، ولم نأخذ عليه أنه كفَّر أحدًا من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن على بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة، ولقد وجدناه يروى عن رسول الله ﷺ حديثًا فى شأن من والى عليًا ومن عاداه، وهو بصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفًا وسطًا أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلى ؓ، هذا الحديث هو ما رواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ حيث قال: «... ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن على عليهم أفضل الصلوات أنه قال: جئت إلى رسول الله يومًا فوجدته فى ملأ من قريش فنظر إلى ثم قال: يا على إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا فى حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا فى بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا: يشبهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية...»(١).

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، يقول: «قيل فى المعنى بهذه الآية أقوال... ثم يذكر الأقول، ويذكر ما رواه أصحابه عن أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق من أنهما قالا: «أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده» ثم قال مؤيدًا لهذا القول: «ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر، وروى عنهم أنهم قالوا: آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم قال الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾

---

(١) (٢/ ٣٩٩).

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ (النساء: ٥٩) الآية»[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ...﴾ الآية، نجده بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السلف من أن المراد بأولى الأمر الأمراء، وما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول: «وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق أن أولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء ولا العلماء سواهم، جل الله أن يطاعة من يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين فى القول والفعل؛ لأنه محال أن يطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه، ومما يدل على ذلك أيضًا أن الله لم يقرن طاعة أولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، إلا وأن أولى الأمر فوق الخلق جميعًا، كما أن الرسل فوق أولى الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم...»[٢].

وبعد... أفلا ترى معى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، وجمال التهذيب، ودقة التعليل، وقوة الحجة؟ أظن أنك معى فى هذا، وأظن أنك معى أيضًا فى أن الطبرسى وإن دافع عن عقيدته ونافح عنها لم يغل غلو غيره ولم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التى كان عليها صاحب مرآة الأنوار[٣] وأمثاله من غلاة الإمامية الاثنى عشرية.

---

(١) (١/ ٢٦٩). (٢) (١/ ٢٦٩).

(٣) فى الأصل: (المولى الكازرانى) وما أثبتناه الصواب. (د. مصطفى الذهبى.

(٤) الصافى فى تفسير القرآن الكريم
لملا محسن الكاشى[١]

التعريف بصاحب هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود، المعروف بملا حسن وبالفيض الكاشانى، وأحد غلاة الإمامية الاثنى عشرية، قال صاحب روضات الجنات فى ترجمته ما ملخصه: «وأمره فى الفضل والفهم والنبالة فى الفروع والأصول، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول، وكثرة التأليف والتصنيف، مع جودة التعبير والترصيف، أشهر من أن يخفى فى هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد، وعمره كما استفيد لنا من تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين، ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين، وأبوه مرتضى المذكور أيضًا كان من العلماء، وكذا أخوه محمد المعروف بنور الدين، وكذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور، وبالجملة، فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك، من كبار بيوتات العلم والعمل والفضل والإدراك، وأما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يعرف بين هذه الطائفة مثله، وخصوصًا فى مراتب المعرفة والأخلاق، وتطبيق الظواهر بالبواطن بحسن المذاق، وجودة الإشراق، وكان يشبه مشربه مشرب أبى حامد الغزالى، وقد نسب إليه الشيخ على المشهدى العاملى فى ذيل رسالته فى تحريم الغناء وغيرها، كثيرًا من الأقاويل الفاسدة، والآراء الباطلة العاطلة، التى تفوح منها رائحة الكفر والمضارة بضروريات هذا الدين المتين، والمضادة لما هو من قطعيات علم هذا الشرع المتين، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة... من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة، مثل قوله بوحدة الوجود، وبعدم خلود الكفار فى عذاب النار، وعدم نجاة أهل الاجتهاد وإن كانوا من جملة أجلائنا الكبار، وفى قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس... وبالجملة فقد كان رحمه الله دائمًا فى طرف

---

(١) هكذا فى الأصل، وضُبِط أيضًا: «الكاشانى» (د/ مصطفى الذهبى).

النقيض من الشيخ على المذكور. . . ومن جملة من كان ينكر عليه أيضًا كثيرًا من علماء زمانه الفاضل المحدث المولى محمد طاهر القمى صاحب كتاب حجة الإسلام وغيره، وإن قيل إنه رجع فى أواخر عمره عن اعتقاده السوء فى حقه، فخرج من «قم» المباركة إلى بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف، والاعتذار لديه بحسن الإنصاف، ماشيًا على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره، فنادى: يا محسن قد أتاك المسىء، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلا يتصافحان ويتعانقان ويستحل كل منهما من صاحبه، ثم رحل من فوره إلى بلده وقال: لم أرد من هذه الحركة إلا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهاب، ويقال أيضًا: إن بعض من اعتقد فى حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه فى المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما كتبه فى أواخر عمره وهو فى مكان كذا وكذا، فلما استيقظ وطلبه وجده كما نسبه، وكان فيه تبرئة نفسه من جميع ما ينسب إليه من أقوال الضلال. . . وقد ذكره صاحب أمل الآمل فقال: المولى الجليل، محمد بن مرتضى، المدعى بمحسن الكاشانى، كان فاضلا عالمًا، حكيمًا متكلمًا، محدثًا فقيهًا، شاعرًا أديبًا، أحسن التصنيف، من المعاصرين، وله كتب: منها كتاب الوافى فى جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، وهو حسن إلا أن فيه ميلاً إلى بعض طريقة الصوفية، وكذا جملة من كتبه، وكتاب سفينة النجاة فى طريقة العمل، وتفاسير ثلاثة كبير وصغير ومتوسط، وكتاب عين اليقين، وكتاب علم اليقين، وكتاب حق اليقين. . . وقال صاحب لؤلؤة البحرين «وهذا الشيخ كان فاضلاً، محدثًا، إخباريًا، صلبًا، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما فى رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلاً عن الفسق، مثل إيراده لآية ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ (هود: ٤٢) وهو تفريط وغلو بحت، مع أن له أدلة من المقالات التى جرى فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله، مثل ما يدل فى كلامه على القول بوحدة الوجود، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة فى القول بذلك، قد جرى فيها على عقائد ابن عربى الزنديق، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبر عنه ببعض العارفين، ثم قال: وقد تتلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى، وفى الحكمة

والأصول على صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازى، كان صهره على ابنته؛ ولذا ترى أن كتبه فى الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة، ولاشتهار مذهب التصوف فى بلاد العجم وميلهم إليه، بل وغلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا فى زمانه، والغاية القصوى فى أوانه، وفاق عند الناس جملة أقرانه، حتى جاء شيخنا المجلسى فسعى غاية السعى فى سد تلك الشقاشق الفاغرة، وإطفاء ثائرة تلك البدع البائرة، وله تصانيف كثيرة أفرد لها فهرسًا على حدة ونحن ننقل عنه ملخصًا: كتاب الصافى فى تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه فى سنة ١٠٧٥هـ خمس وسبعين بعد الألف من الهجرة، وكتاب الأصفى، منتخب منه... أحد وعشرين ألف بيت تقريبًا، ثم عدد كتبه التى ألفها وهى كثيرة، وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائرى التسترى قال: كان أستاذنا المحقق المولى محمد حسن الكاشانى صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب من مائتى كتاب ورسالة، وكان نشؤه فى بلدة قم، فسمع بقدوم السيد الأجل المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحرانى الصادقى إلى شيراز، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده فى الرخصة إليه، ثم بنوا الرخصة وعدمها على الاستخارة، فلما فتح القرآن جاءت الآية ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ...﴾ (التوبة: ١٢٢) الآية، ثم بعده تفاءل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا   وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم، واكتساب معيشة   وعلم، وآداب، وصحبة ماجد

هذه ترجمة المؤلف، وفيها ما يشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه فى العلم، كما أن الأقوال التى قيلت من عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة، وإن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول: إنها فرية بلا مرية... أما أنا فلم ألاحظ عليه فى تفسيره أثرًا للقول بوحدة الوجود، ولا ما يشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار فى عذاب النار، ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفى الفلسفى، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نسب إليه واتهم به»[1].

---

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص ٥٤٢ - ٥٤٩.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

الصافى فى تفسير القرآن الكريم، كتاب فسر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادئ الإمامية الاثنى عشرية، وهو تفسير وسط يقع فى جزأين كبيرين ومتناول لشرح الآيات القرآنية شرحًا مختصراً جدّاً ولا يطيل إلا إذا وجد فى الآية ما يمكن أن يأخذ منه شاهداً على مبدأ من مبادئه، أو دليلاً على عقيدة من عقائده، أو دفعًا يدفع به رأيًا من آراء مخالفيه، كذلك يطيل عندما يعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول ﷺ، والكتاب يعتمد أولاً وقبل كل شىء على ما ورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت، شأنه فى هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه، والكتاب فى جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه فى تشيعه، فهو يجادل ويدافع عن مبادئ حزبه، ويطعن فى صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بالنفاق والكفر. . . إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى، هذا وقد قدم ملا محسن الكاشانى لتفسيره باثنتى عشرة مقدمة، أرى أنه لا داعى لذكرها جميعًا، ولكن حسبى وحسب القارئ أن أذكر أهم الآراء التى يقول بها المؤلف ويشرحها لنا فى هذه المقدمات، ثم أذكر طريقته التى سار عليها فى تفسيره كما أوضحها هو، ثم أعرض على القارئ بعد ذلك بعض مواقف المؤلف فى تفسيره؛ ومنها يتبين جليّا قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه، ومسلكه الذى سلكه فى شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه ويتمشى مع عقيدته، وإليك أهم هذه الآراء التى قالها المؤلف.

آل البيت هم تراجمة القرآن؛ لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم:

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره، ووقفوا على رموزه وإشاراته؛ ذلك لأن القرآن نزل فى بيتهم ـ بيت النبوة ـ ورب البيت أدرى بما فيه، وهو فى هذه العقيدة لا يشذ وحده بل ذلك هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف.

يرى المؤلف هذا الرأى ويصرح به فى مقدمة تفسيره فيقول: «. . . وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكاشف عن وجوه عرايس أسراره ودقائقه وهم خوطبوا به؟ ومن

لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنبع بحر حقائقه وهم أبو حسنه؟ ومن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصراح إلا من شرح الله صدره بنوره ومثله بالمشكاة والمصباح؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل، وفى بيوتهم كان ينزل جبريل؟ . . . وهى البيوت التى أذن الله أن ترفع، فعنهم يؤخذ ومنهم يسمع، إذًا أهل البيت بما فى البيت أدرى، والمخاطبون بما خوطبوا به أوعى، فأين نذهب عن بابهم وإلى من نصير؟ . . .»[(١)] .

ثم يمضى صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها ـ فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها ـ من وضع الشيعة وأخلاقهم، فمن ذلك ما نقله عن الكافى بإسناده عن سليم بن قيس الهلالى قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول. . . وساق الحديث إلى أن قال: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها علىَّ فأكتبها بخطى، وعلمنى تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله أن يعلمنى فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علمًا أملاه علىَّ فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئًا علمه الله من حلال وحرام، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفًا واحدًا، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علمًا وفهمًا وحكمة ونورًا، فقلت: يا رسول الله. . . بأبى أنت وأمى دعوت الله لى بما دعوت لم أنس شيئًا ولم يفتنى شىء لم أكتبه. . . أوتتخوف على النسيان فيما بعد؟ فقال: لست أتخوف عليك نسيانًا ولا جهلاً. قال: ورواه العياشى فى تفسيره والصدوق فى إكمال الدين، بتفاوت يسير فى ألفاظه، وزيد فى آخره «وقد أخبرنى ربى أنه قد استجاب لى فيك وفى شركائك الذين يكونون من بعدك، فقلت: يا رسول الله. . . ومن شركائى من بعدى؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه وبى، فقال: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (النساء: ٥٩) فقلت: ومن هم؟ قال الأوصياء منى إلى أن يردوا علىَّ الحوض كلهم هادين مهتدين لا يضرهم من خذلهم، وهم مع القرآن والقرآن معهم، لا يفارقهم ولا يفارقونه، بهم تنصر أمتى وبهم تمطر، وبهم يدفع عنهم البلاء، وبهم

---

(١) (١/ ٢).

يستجاب دعاؤهم، فقلت: يا رسول الله... سمهم لى... فقال: ابنى هذا... ووضع يده على رأس الحسن، ثم ابنى هذا... ووضع يده على رأس الحسين، ثم ابن له يقال له: على، وسيولد فى حياتك فأقرئه منى السلام، ثم تكملة اثنى عشر من ولد محمد، فقلت له: بأبى وأمى أنت فسمهم لى، فسماهم رجلاً رجلاً، فقال: منهم والله يا أخا بنى هلال مهدى أمة محمد، الذى يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا، والله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم»[(١)].

ومنها ما نقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحام... قال: «دخل قتادة بن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال: يا قتادة أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر عليه السلام: بعلم تفسيره أم بجهل؟ قالا: لا... بل بعلم، فقال له أبو جعفر عليه السلام: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك، قال قتادة: سل، قال: أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨) فقال قتادة: من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر عليه السلام: نشدتك بالله يا قتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة... إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة... ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفًا بحقنا، يهوانا قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ولم يعين البيت، فقيل إليه: نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة فإذا كان كذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا أفسرها إلا هكذا، فقال أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة... إنما يعرف القرآن من خوطب به»[(٢)].

---

(١) (١/ ٥، ٦).

(٢) المرجع السابق.

من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه:

ولكن هل معنى ذلك أن مـلا محسن يرى أن فـهم معانى القـرآن ومعرفـة أسراره أصبح أمرًا مقصورًا على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حجر واسعًا وجحد فضل من عداهم من العلماء؟ أو يرى أن القرآن فى فـهمه قدر مشترك بين العلمـاء جميعًا لا فرق بين أهل البيت وغيرهم؟ الحق أن صاحـبنا يرى أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعًا بالغًا ومجالاً رحبًا، ولكن من هم أولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يعملوا عقولهم فى فهم مـعانى القرآن واستنبـاط أحكامه؟ نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفـهم بحدود، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمـذهبه الشيعى، وذلك حيث يقول: «. . . فالصواب أن يقال: إن من أخلـص الانقياد لله ولرسـوله ولأهل البيت عليـهم السلام، وأخـذ علمه منهم، وتتـبع آثارهم، واطلع على جملة من أسـرارهم، بحيث حصـل له الرسوخ فى العلم، والطمأنينة فى المعرفة، وانفتح عـينا قلبه، وهجم به العلم على حقائق الأمور، وباشر روح اليقين، واستلان ما استوعره المترفون، وأنس بما استوحش منه الجاهلون، وصحب الدنيـا ببدن روحـه معلقة بالمـحل الأعلى، فله أن يستـفيد مـن القرآن بعض غرائبـه، ويستنبط منه نبذًا من عـجائبه، ليس ذلك من كرم الله بغـريب، ولا من جوده بعجيب، فليست السـعادة وقفًا على قوم دون آخرين، وقد عدوا عليـهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفـات من أنفسهم، كما قالوا: سلمان منا أهل البيت، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم، العالمين بالتأويل»[١].

المولف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى ويطعن فى بقية الصحابة وفى تفسيرهم:

ولما كان المؤلف رحـمه الله قد جعل جل اعتماده فى تفـسيره، بل كله، على ما وصل إليه من التفسـير عن آل البيت؛ لاعـتقاده أنهم أدرى به من غيرهم، فإنا نراه يرى - مع شىء من التـواضع التقليـدى - أن تفـسيـره هو التفـسيـر المثـالى الذى يجب أن يحتذى، كما نراه لا يعترف بتفسير غـيره ممن تقدم عصره بل ويبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على من عـدا أهل البيت من الصحابة ويرمـيهم بالنفاق وغيـره، ولا يرتضى ما

---

(١) (١/ ١٠).

جاء عنهم من تفسير، كأن عقول الصحابة جميعًا قد عقمت وضلت إلا عقول أهل البيت ومن والاهم. . .

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله ﷺ، وذلك حيث يقول: «. . . هذا يا إخوانى ما سألتمونى من تفسير القرآن، بما وصل إلينا من أئمتنا المعصومين من البيان، أتيتكم به مع قلة البضاعة، وقصور يدى عن هذه الصناعة، على قدر مقدور، فإن المأمور معذور، والميسور لا يترك بالمعسور، ولا سيما أنى كنت أراه أمرًا مهمًا؛ وبدونه أرى الخطب مدلهمًا، فإن المفسرين وإن أكثروا القول فى معانى القرآن، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسلطان؛ وذلك لأن فى القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وخاصًا وعامًا، ومبينًا ومبهمًا، ومقطوعًا وموصولاً، وفرائض وأحكامًا، وسننًا وآدابًا، وحلالاً وحرامًا، وعزيمة ورخصة، وظاهرًا وباطنًا، وحدًا ومطلعًا، ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل فى بيته، وذلك هو النبى ﷺ وآله وأهل بيته، فكل ما لا يخرج من بيتهم فلا تعويل عليه، ولهذا ورد عن النبى ﷺ: من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم فى تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة، إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين، وعلى أقدار أفهام المخاطبين، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين، وبقيت بعد خبايا فى زوايا، خوفًا من الأعداء وتقية من البعداء، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر؛ لأن رواته كانوا فى محنة من التقية، وشدة من الخطر، وذلك أنه لما جرى فى الصحابة ما جرى، وضل بهم عامة الورى، أعرض الناس عن الثقلين[1]، وتاهوا فى بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين، وعمهوا فى غمرتهم حتى حين فآل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته، وتناساه حفظته، فكان الكتاب وأهله فى الناس وليسا فى الناس، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا، وكان العلم مكتومًا، وأهله مظلومًا، لا سبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغازه، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين، لم يدروا ما صنعوا بالقرآن، وعمن أخذوا التفسير والبيان، فعمدوا إلى طائفة

---

(١) أراد بالثقلين: كتاب الله والعترة، كما أفصح عن ذلك فى أول المقدمة ص ٢.

يزعمون أنهم من العلماء، فكانوا ي[illegible]ون لهم بالآراء، ويروون تفسيره عمن يحسبونه من كبرائهم؛ مثل أبى هريرة وأنس وابن عمر ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس، ممن ليس على قوله كثير تعويل، ولا له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله، وربما يسندونه إلى رسول الله ﷺ وآله، ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يبطنون النفاق، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله ﷺ فى عزة وشقاق، وهكذا كان حال الناس قرنًا بعد قرن، فكان لهم فى كل قرن رؤساء ضلالة، عنهم يأخذون، وإليهم يرجعون، وهم بآرائهم يجيبون، أو إلى كبرائهم يستندون، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام فى جملة ما يروون عن رجالهم، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتبًّا لهم ولأدب الرواية، إذ ما رعوها حق الرعاية، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب، ونسوا الله رب الأرباب؛ وراموا غير باب الله أبوابًا، واتخذوا من دون الله أربابًا، وفيهم أهل بيت نبيهم، وهم أزمة الحق، وسنة الصدق، وشجرة النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحى، وعيبة العلم، ومنار الهدى، والحجج على أهل الدنيا، خزائن أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، والأمناء على الحقائق، والخلفاء على الخلائق، أولو الأمر الذين أمروا بطاعتهم، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، والراسخون فى العلم الذين عندهم القرآن كله تأويلاً وتفسيرًا، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون، إنا لله وإنا إليه راجعون، ولما أصبح الأمر كذلك وبقى العلم سخريًا هنالك، صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم وحملوه على أهوائهم فى تفاسيرهم وكلامهم، والتفاسير التى صنفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل، وكذلك التى صنفها متأخروا أصحابنا فإنها أيضًا مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام، وذلك لأنهم إنما

نسجوا على منوالهم، واقتصروا فى الأكثر على أقوالهم، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء ـ فإنما تكلموا فى النحو، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والقراءة، وأمثالها ـ مما يدور على القشور دون اللباب، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ما قويت فيه منته، وترك ما لا معرفة له به مما قصرت عنه همته، ومنهم من أدخل فى التفسير ما لا يليق به، فبسط الكلام فى فروع الفقه وأصوله، وطول القول فى اختلاف الفقهاء، أو صرف همته فيه إلى المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء وأما ما وصل إلينا مما ألفه قدماؤنا من أهل الحديث فغير تام، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن؛ وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان، مع أن منه ما لم يثبت صحته عن المعصوم، لضعف رواته أو جهالة حالهم، ونكارة بعض مقالهم... إلى أن قال: وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافى، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافى...»(١).

جل القرآن نازل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم:

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم، فما كان من آية مدح فهى فى آل البيت وأشياعهم، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهى فى مخالفيهم، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة فى هذا المعنى، فمن ذلك ما نقله عن الكافى وتفسير العياشى بالإسناد إلى أبى جعفر عليه السلام قال: «نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى أعدائنا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام» وزاد العياشى «ولنا كرائم القرآن» ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال: «وقد وردت أخبار جمة عن أهل البيت عليهم السلام، فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم، حتى إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتبًا فى تأويل القرآن على هذا النحو جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام فى تأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم، أو بعدوهم، على ترتيب القرآن، وقد رأيت منها كتابًا يقرب من عشرين ألف بيت... ثم قال: وذلك مثل لما رواه الكافى عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ

---

(١) (١/ ٢ - ٤).

قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) قال: هى الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام، وفى تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال: يا أبا محمد. . . إذا سمعت الله ذكر قومًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا، وفيه عن عمير بن حنظلة عن أبى عبد الله عليه السلام: سأله عن قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣) قال: فلما رآنى أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: حسبك. . . كل شىء فى الكتاب من فاتحته إلى خاتمته، مثل هذا، فهو فى الأئمة عنوا به»[(١)].

رأى المصنف فى تحريف القرآن وتبديله:

يدين ملا محسن بأن عليًا ﷺ هو أول من جمع القرآن، وأن القرآن الذى جمعه هو القرآن الكامل الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ويروى لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له فى رأيه هذا، فمن ذلك: ما نقله عن القمى فى تفسيره بإسناده عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال: إن النبى ﷺ قال لعلى عليه السلام: يا على. . إن القرآن خلف فراشى فى الصحف والحرير والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته وقال: لا أرتدى حتى أجمعه قال: كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه.

ومنها ما رواه القمى بإسناده عن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبى عبد الله ـ وأنا أستمع ـ حروفًا من القرآن ليس على ما يقرأها الناس، فقال أبو عبد الله: كف عن هذه القراءة، اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة وأخرج المصحف الذى كتبه على عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله كما أنزله الله على محمد ﷺ، وقد جمعته بين اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدًا، إنما كان على أن أخبركم حين جمعته لقراءته.

ومن ذلك ما روى عن أبى ذر الغفارى ﷺ: أنه لما توفى رسول الله ﷺ جمع

---

(١) (١/ ٦، ٧).

على عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم؛ لما قد أوصاه بذلك رسول الله ﷺ، فلما فتحه أبو بكر خرج فى أول صفحة فتحها فضائح القوم، فوثب عمر وقال: يا على اردده فلا حاجة لنا فيه، فأخذه على عليه السلام، وانصرف، ثم حضر زيد بن ثابت ـ وكان قارئًا للقرآن ـ فقال له عمر: إن عليًا جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار، وقد أردنا أن تؤلف لنا القرآن وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار، فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال: فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر على القرآن الذى ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم؟ ثم قال عمر: فما الحيلة؟ قال زيد: أنتم أعلم بالحيلة، فقال عمر: ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه، فدبر فى قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك... فلما استخلف عمر سأل عليًا عليه السلام أن يدفع إليه القرآن فيحرفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن، إن كنت جئت به إلى أبى بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه، فقال على عليه السلام: هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنما جئت به لأبى بكر لتقوم به الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئتنا به، إن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت لإظهاره معلوم؟ قال على عليه السلام: نعم، إذا قام القائم من ولدى فيظهره ويحمل الناس عليه فتجرى السنة به»[1].

ولكنا نجد صاحبنا بعدما ساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول: «ويرد على هذا كله إشكال، وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شىء من القرآن؛ إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفًا ومغيرًا، أو يكون على خلاف ما أنزل الله، فلم يبق لنا فى القرآن حجة أصلاً، فتنتفى فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك، وأيضًا قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤١، ٤٢) وقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير؟ وأيضًا قد استفاض عن النبى والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على

---

(١) (١/ ١٠، ١١).

كتاب الله ليعلم صحته بموافقته له، وفساده بمخالفته[١]، فإذا كان القرآن الذى بأيدينا محرفًا فما فائدة العرض؟ مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله».

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين:

أولهما: أن هذه الأخبار إن صحت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال، كحذف اسم على وآل محمد، وحذف أسماء المنافقين؛ فإن انتفاء التعبير باق لعموم اللفظ.

وثانيهما: أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن، فيكون التبديل من حيث المعنى، أى حرفوه وغيروه فى تفسيره وتأويله، بأن حملوه على خلاف ما يراد منه»[٢].

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدمه من شيوخه وعلماء مذهبه وهم ما بين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك، ولكل أدلته وحجته، ولا نطيل بذكرها ومن أرادها فليرجع إليها فى المقدمة السادسة (ص١٤، ١٥).

طريقة المؤلف فى تفسيره:

بيَّن المؤلف فى المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته واصطلاحاته التى جرى عليها فى كتابه فقال: «كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه، أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه، أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه فهمه وتعاطيه، أو إلى تعرف نسخ أو تخصيص أو صفة أخرى فيه، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم، فإن وجدنا شاهدًا من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به فإن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا ﷺ أوردناه، وإلا أوردنا ما روينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة. . . نظائره فى الأحكام ما روى عن الصادق:

---

(١) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم.
(٢) (١/ ١٠ - ١٤).

إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا، فانظروا إلى ما رووه عن على عليه السلام فاعملوا به. . . رواه الشيخ الطوسى فى العدة، وما لم نظفر فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن وفحواه، وأشبه حديثهم فى معناه، فإن لم نعتمد عليه من جهة الاستناد، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة والشبه والسداد، قال رسول الله ﷺ : «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه» وقال الصادق: «ما جاءك فى رواية من راوٍ فاجرٍ يوافق القرآن فخذ به، وما جاءك فى رواية من راوٍ فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به» وقال الكاظم: «إذا جاءك الحديثان المختلفان فَقِسْهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا، فإن أشبههما فهو حق، وإن لم يشبههما فهو باطل» وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها، وتركنا سايرها مما فى معناه روماً للاختصار، وصوناً عن الإكثار، وربما أشرنا إلى تعددها وتكثرها إذا أهمنا الاعتماد.

وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا، وما لا يحتاج إلا إلى شرح اللفظ والمفهوم، والنكات المتعلقة لعلوم الرسوم، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم، أوردنا فيه ما ذكره المفسرون الظاهريون، من كان تفسيره أحسن، وبيانه أوجز وأتقن، كائناً من كان. . . ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكرى وغيره، وذكر اصطلاحاته فى العزو إلى الكتب التى استقى منها، وفى نسبة الأقوال إلى قائليها ولا نطيل بذكرها»[(١)].

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها ملا محسن، والتى استخلصناها من مقدماته التى قدم بها تفسيره، وهذه هى طريقته التى سار عليها فى كتابه الذى نحن بصدده، والكتاب ـ كما أشرنا آنفًا ـ مذهبى إلى حد التطرف والغلو؛ فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا ويحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه أو دفعاً لمذهب مخالفيه!. . . ولقد قرأت فى هذا الكتاب، فلمست فيه روح التحيز المزرى، والتعصب الممقوت، ولأجل أن يكون القارئ على بينة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتى وفى

---

(١) (١/ ١٩ - ٣٠).

موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هذا التعصب الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

القرآن وأهل البيت:

فمثلاً، نجد كثيرًا من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكنا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معان لا صلة لها باللفظ... معان تحمل فى طياتها طابع التعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «وذلك لما كان فى صلبه من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين، وكانوا قد فضلوا على الملائكة باحتمالهم الأذى فى جنب الله، فكان السجود لهم تعظيمًا وإكرامًا، ولله سبحانه عبودية، ولآدم طاعة، قال على بن الحسين: حدثنى أبى عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: يا عباد الله، آدم لما رأى النور ساطعًا من صلبه - إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره - رأى النور ولم يتبين الأشباح، فقال: يا رب ما هذه الأنوار؟ فقال الله عز وجل: أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك؛ ولذلك أمرت الملائكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح، فقال آدم: يا رب... لو بينتها لى، فقال الله عز وجل: انظر يا آدم إلى ذروة العرش، فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش، فانطبع فيه صور أنوار أشبحانا التى فى ظهره، كما ينطبع وجه الإنسان فى المرآة الصافية، فرأى أشباحنا فقال: ما هذه الأشباح يا رب؟ قال الله: يا آدم... هذه أشباح أفضل خلائقى وبرياتى، هذا محمد، وأنا الحميد المحمود فى فعالى، شققت له اسمًا من اسمى، وهذا على، وأنا العالى، شققت له اسمًا من اسمى، وهذه فاطمة، وأنا فاطر السموات والأرض، فاطم أعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى، وفاطم أوليائى عما يعيرهم ويشينهم، فشققت لها اسمًا من اسمى، وهذا الحسن، وهذا الحسين، وأنا المحسن المجمل، شققت اسميهما من اسمى، هؤلاء خيار خليقتى، وكرام بريتى، بهم آخذ، وبهم أعطى، وبهم أعاقب، وبهم أثيب، فتوسل بهم إلىَّ يا آدم، وإذا دهتك

داهية فاجعلهم إلىَّ شفعاءك؛ فإنى آليت على نفسى قسمًا حقًا لا أخيب بهم أملاً، ولا أرد بهم سائلاً؛ فلذلك حين زلت به الخطيئة دعا الله عز وجل بهم، فتاب عليه وغفر له)(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١، ٢، ٣) من سورة البلد: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ يقول ما نصه: «فى المجمع عن الصادق، يعنى آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم...»(٢).

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجد فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه!!.

طعن المؤلف على الصحابة:

كذلك نجد ملا محسن فى تفسيره هذا، يطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويرميهم بما لا يليق يمؤمن فضلاً عن صحابى جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل فى سبيل نصرته دمه وماله، كما يطعن فى بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

طعنه على عثمان رضى الله عنه:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ نجده يفسر الآية تفسيرًا مختصرًا مقبولاً، ثم يروى عن القمى «أنها نزلت فى أبى ذر - رحمة الله عليه - وفيما فعل به عثمان بن عفان وكان سبب ذلك: أنه لما أمر عثمان بنفى أبى ذر - رحمة الله عليه - إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر وكان عليلاً وهو متكئ على عصاه، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم أتته من

---

(١) (١/ ٢٩).

(٢) (١/ ٣٥٩).

بعض النواحى، وأصحابه حوله ينظـرون إليه ويطمعون أن يقسمها فـيهم، فقال أبو ذر لعثـمان: ما هذا المال؟ فـقال: حمل إلينا من بعض الأعمـال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيى... قـال أبو ذر: يا عثمان... أيما أكثر؟ مائة ألف درهم أو أربعة دنانيـر؟ قال عثمـان: بل مائة ألف درهم، فقال: أمـا تذكر إذ أنا وأنت دخلنا على رسول الله ﷺ وآله عشاء فوجدناه كئيبًا حزينًا فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام، فلما أصـبحنا أتيناه فرأيناه ضـاحكًا مستبشـرًا، فقلت له: بأبى أنت وأمى... دخلنا عليك البارحة فرأيناك كـئيبًا حزينًا، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مـستبشرًا، فقال: نعم... قد بقى عندى من فىء المسلمين أربعة دنانـير لم أكن قسمتها، وخفت أن يدركنى الموت وهى عندى، وقد قسـمتها اليوم فاسترحت، فنظر عـثمان إلى كعب الأحبار فقال له: يا أبا إسحاق... ما تقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة... هل يجب عليه فـيها بعد ذلك شىء؟ فـقال: لا ولو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فـضة ما وجب عليه شىء، فـرفع أبو ذر عصاه فضرب بـها رأس كعب، فقال: يا بن الـيهودية المشـركة، ما أنت والنظر فى أحكام المـسلمين؟ قول الله عز وجل أصـدق من قولك حـيث قـال: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥) قال عثمان: يا أبا ذر.. إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلتك، فقال: كذبت يا عثمان... ويلك... أخبـرنى حبيبى رسـول الله ﷺ فقـال: لا يفـتنونك يا أبا ذر ولا يقتلونك... أما عقلى فقد بقى منه ما أذكرنى حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ قاله فيك وفى قـومك، قال: وما سمعت من رسـول الله فىَّ وفى قومى؟ قال: سمعتـه يقول ـ وهو قوله ﷺ: إذا بلغ إلى أبى العاص ثلاثون رجلاً صـيروا مال الله دولاً، وكتاب الله دغـلاً، وعباد الله خولاً، والصالحـين حربًا، والفاسقـين حزبًا، قال عثمان: يا مـعشر أصحاب محمد، هل سـمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله؟ قالوا: لا، ما سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، قال عثمان: ادعوا عليًا... فجاء أمير المؤمنين فقال له عـثمان: يا أبا الحسن اسمع ما يقول هذا الشيخ الـكذاب، فقال أمير المؤمنين: يا عـثمان، لا تقل كذابًا، فـإنى سمعت رسول الله ﷺ يقـول: ما أظلت

الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر، قال أصحاب رسول الله: صدق على، سمعنا هذا من رسول الله، فعند ذلك بكى أبو ذر وقال:

ويلكم.. كلكم قد مد عنقه إلى هذا المال، ظننتم أنى أكذب على رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خيرنا، قال: نعم... خلفت حبيبى رسول الله ﷺ وهو على بعيره، وأنتم قد أحدثتم أحداثًا كثيرة، والله سائلكم عن ذلك ولا يسألنى، فقال عثمان: يا أبا ذر... أسألك بحق رسول الله إلا ما أخبرتنى عما أنا سائلك عنه، فقال أبو ذر: والله لو لم تسألنى بحق رسول الله ﷺ لما أخبرتك، فقال: أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فقال: مكة حرم الله وحرم رسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: المدينة حرم رسول الله، فقال: لا ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال: وأى البلاد أبغض إليك أن تكون بها؟ قال: الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قد سألتنى فصدقتك، وأنا أسألك فاصدقنى، قال: نعم، قال: أخبرنى لو أنك بعثتنى فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسرونى وقالوا لا نفديه إلا بثلث ما تملك...؟ قال: كنت أفديك، قال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تملك، قال: كنت أفديك، فقال أبو ذر: الله أكبر... قال لى حبيبى رسول الله ﷺ يومًا: يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقول مكة حرم الله وحرم رسوله... أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فيقال: لا ولا كرامة لك، فتقول: المدينة حرم رسول الله، فيقال: لا ولا كرامة لك، ثم يقال لك: فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ فتقول: الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام، فيقال لك: سر إليها، فقلت: وإن هذا لكائن يا رسول الله؟ فقال: والذى نفسى بيده إنه لكائن، فقلت: يا رسول الله أفلا أضع سيفى على عاتقى فأضرب به قدما قدما؟ قال: لا... اسمع واسكت ولو لعبد حبشى، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان خصمك آية، فقلت: وما هى يا رسول الله؟ فقال: قول الله... وتلا الآية»[(١)].

(١)(١/ ٤٢، ٤٣).

طعنه على أبى بكر:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...** ﴾ الآية، نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، ﷺ، بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزًا وطعنًا على أبى بكر، وذلك حيث يقول ما نصه: «... ﴿ **إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** ﴾ وهو أبو بكر ﴿ **لا تَحْزَنْ** ﴾ لا تخف ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ بالعصمة والمعونة... فى الكافى عن الباقر أن رسول الله ﷺ أقبل يقول لأبى بكر فى الغار: اسكن فإن الله معنا، وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله حالة قال له: تريد أن أريك أصحابى من الأنصار فى مجالسهم يتحدثون؟ وأريك جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله ﷺ بيده على وجهه فنظر إلى الأنصار يتحدثون، وإلى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ** ﴾ أمنته التى تسكن إليها القلوب ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ فى الكافى عن الرضا: أنه قرأها (على رسوله) قيل له: هكذا؟ قال: هكذا نقرأها، وهكذا تنزيلها، والعياشى عنه: إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ وما لهم فى ذلك من حجة، فوالله لقد قال الله: ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ** ﴾ (الفتح: ٢٦) وما ذكره فيها يخبر، قيل: هكذا تقرأونها؟ قال: هكذا قراءتها...»[١].

طعنه على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...** ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ **فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ نراه ينقل عن القمى فى سبب نزول هذه الآية «أن رسول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكانت ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها، فتناول رسول الله مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله... فى يومى؟ وفى دارى؟ وعلى فراشى؟ فاستحيى رسول الله منها فقال: كفى فقد حرمت مارية على

---

(١) (١/ ٢٥٧).

نفسى، ولا أطؤها بعد هذا أبدًا، وأنا أفضى إليك سرًا إن أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشىء ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال لها: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم... قد قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة، قال: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا به من قتله ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ أخبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ قال: لم يخبرهم بما يعلم مما هموا به من قتله»[1].

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسرين جميعًا، ويجعل العتاب موجهًا إلى عثمان ﷺ، أو إلى رجل آخر من بنى أمية، والذى حمله على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهًا إلى النبى ﷺ أو إلى أحد من الأئمة المعصومين، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان وصدور سببه منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره؛ لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة فلهذا تراه يروى عن القمى «أنها نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذنًا لرسول الله ﷺ، وكان أعمى، وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده، فقدمه رسول الله ﷺ على عثمان فعبس عثمان وجهه وتولى عنه، فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾، ونقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أمية كان عند النبى فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه، فحكى

---

(١) (٢/ ٣٢٠).

الله ذلك وأنكره عليه...» ثم قال: «أقول: وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبى ﷺ دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكره بعدها إلى آخر السورة كما لا يخفى على العارف بأساليب الكلام، ويمكن أن يكون من مختلقات أهل النفاق خذاهم الله»(١).

دفاع المؤلف عن أصول مذهبه:

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، ونراه ينتصر لمذهبه ويتعصب له، ويؤيد أصوله بكل ما يستطيع من الأدلة، ويدفع الشبه عنها، ويرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد؛ فلهذا نجده إذا مر بآية من آيات القرآن التى يستطيع أن يستند إليها ويعتمد عليها فى نظره، أخذ فى تأويلها على وفق مذهبه وهواه، وإن كان فى ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآنى.

ولايـــة على:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ نراه يستند إلى هذه الآية استنادًا قويًا فى أن عليًا ﷺ هو وصى النبى ﷺ وخليفته من بعده، فيقول ما نصه «فى الكافى عن الصادق فى تفسير هذه الآية: «أولى بكم»: أى أحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا ـ يعنى عليًا وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة ـ ثم وصفهم الله فقال: ﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ وكان أمير المؤمنين فى صلاة الظهر ـ وقد صلى ركعتين ـ وهو راكع، عليه حلة قيمتها ألف دينار، وكان النبى أعطاه إياها، وكان النجاشى أهداها له، فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولى الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم... تصدق على مسكين، فطرح الحلة إليه، وأومأ بيده إليه أن احملها، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية، وصير نعمة أولاده بنعمته، فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله، فيتصدقون وهم راكعون، والسائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة، وعنه عن أبيه عن جده فى قوله عز وجل: ﴿**يَعْرِفُونَ**

---

(١) (٢/ ٣٤٨، ٣٤٩).

نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ (النحل: ٨٣) قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، اجتمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى مسجد المدينة فقال بعضهم: إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها، وإن آمنا فإن هذا ذل حين يسلط علينا على بن أبى طالب، فقالوا: قد علمنا أن محمدًا صادق فيما يقول، ولكنا نتولاه ولا نطيع عليًّا فيما أمرنا، قال: فنزلت هذه الآية ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ يعنى ولاية على ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (النحل: ٨٣) بالولاية، وعنه أنه سئل: الأوصياء طاعتهم مفروضة؟ قال: نعم هم الذين قال الله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩) وهم الذين قال الله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ الآية، وروى المؤلف غير ذلك من الروايات، وكلها يدور حول هذا الشأن... ثم ادعى إجماع الأمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راكع غير رجل واحد هو على... ثم علل عدم ذكره باسمه فى الكتاب بأنه لو ذكر باسمه فى الكتاب لأسقط مع ما أسقط... ثم وفق بين الروايات القائلة بانه تصدق بحلته وبين الروايات القائلة بأنه تصدق بخاتمه فقال: «لعله تصدق مرة فى ركوعه بالحلة، ومرة بالخاتم...» والآية نزلت بعد الثانية، وقوله تعالى ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ إشعار بذلك؛ لتضمنه التكرار والتجدد، كما أن فيه إشعارًا بفعل أولاده أيضًا»[(١)].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ الآية، نراه يحمل التبليغ المأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة على وولايته... ويروى هنا قصة طويلة جدا، ويروى خطبة النبى لأصحابه عند غدير خم، وهى خطبة طويلة كذلك، وفى هذه الخطبة يقول رسول الله ﷺ مبينًا سبب نزول الآية: «وأنا مبين لكم سبب هذه الآية: إن جبريل هبط إلىَّ مرارًا ثلاثة، يأمرنى عن السلام ربى وهو السلام: أن أقوم فى هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن على بن أبى طالب أخى، ووصيى وخليفتى، والإمام من بعدى، الذى محله منى محل هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى وهو وليكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله علىَّ بذلك آية من كتابه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

---

(١) (١/ ١٦٤).

وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وعلى بن أبى طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع، يريد لله عز وجل فى كل حال، وسألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس، لعلمى بقلة المتقين، وكثرة المنافقين، وإدغال الآثمين، وحيل المستهزئين بالإسلام، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سمونى أُذنا، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياى وإقبالى عليه، حتى أنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ (التوبة: ٦١) الآية، ولو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت، وأن أومئ إليهم لأعيانهم لأومأت، وأن أدل عليهم لدللت، ولكنى - والله - فى أمورهم قد تكرمت، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبلغ ما أنزل إلى. . . ثم تلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. . .﴾ (المائدة: ٦٧) . . . إلخ»[1].

أولو الأمر الذين تجب طاعتهم:

ومثلاً عند قوله تعالى فى (٥٩) من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ. . .﴾ الآية، نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة، أما من عداهم فليسوا أولى الأمر، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية ما نصه: «فى الكافى والعياشى عن الباقر: إيانا عنى خاصة. . . أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا، وفى الكافى عن الصادق: أنه سئل عن الأوصياء. . . طاعتهم مفترضة؟ قال: نعم، هم الذين قال الله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الآية، وقال الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ. . .﴾ الآية، وفيه والعياشى عنه فى هذه الآية قال: نزلت فى على بن أبى طالب والحسن والحسين، فقال: إن الناس يقولون فما له لم يسم عليًا وأهل بيته فى كتابه؟ فقال: فقولوا لهم: نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثًا ولا أربعًا حتى كان رسول الله فسر ذلك لهم، ونزلت ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ونزلت فى على

---

(١) (١/ ١٦٥ - ١٧١).

والحسن والحسين؛ فقال رسول الله ﷺ فى على: من كنت مولاه فهذا على مولاه، وقال: أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتى، فإنى سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما على الحوض، فأعطانى ذلك، وقال: لا تعلموهم، فإنهم أعلم منكم، وقال: إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم فى باب ضلالة، فلو سكت رسول الله ﷺ ولم يبين مَنْ أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان، ولكن الله أنزل فى كتابه تصديقًا لنبيه ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) فكان على والحسن والحسين وفاطمة، فأدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء فى بيت أم سلمة، ثم قال: اللهم إن لكل نبى أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتى وثقلى، فقالت أم سلمة: ألست من أهلك؟ فقال: إنك إلى خير، ولكن هؤلاء أهل بيتى وثقلى... الحديث، وزاد العياشى: آل عباس، وآل عقيل، قبل قوله: وآل فلان. وعن الصادق أنه سئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التى إذا أخذ بها زكى العمل ولم يضر جهل ما جهل بعده، فقال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله، وحق فى الأموال الزكاة، والولاية التى أمر الله بها، ولاية آل محمد، فإن رسول الله قال: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية... قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فكان على، ثم صار من بعده الحسن، ثم بعده الحسين، ثم من بعده على بن الحسين، ثم من بعده محمد بن على، ثم هكذا يكون الأمر... إن الأرض لا تصلح إلا بإمام... الحديث، وفى المعانى عن سليم بن قيس الهلالى عن أمير المؤمنين أنه سأله: ما أدنى ما يكون به الرجل ضالاً؟ فقال: أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته، وجعله حجته فى أرضه، وشاهده على خلقه... قال: فمن هم يا أمير المؤمنين؟ قال: الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: فقبلت رأسه وقلت: أوضحت لى، وفرجت عنى، وأذهبت كل شىء فى قلبى. وفى الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال: لما نزلت هذه الآية قلت: يا رسول الله... عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال: هم خلفائى يا جابر وأئمة المسلمين من بعدى، أولهم على بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم

على بن الحسين، ثم محمد بن على المعروف فى التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر، ثم على ابن موسى، ثم محمد بن على، ثم على بن محمد، ثم الحسن بن على، ثم سمى محمد، وكنيته حجة الله فى أرضه، وبقيته فى عباده، ابن الحسن بن على، ذاك الذى يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها؛ ذاك الذى يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، قال جابر: فقلت: يا رسول الله... فهل لشيعته الانتفاع به فى غيبته؟ فقال: أى... والذى بعثنى بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب، يا جابر... هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله... والأخبار فى هذا المعنى فى الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصى كثرة. وفى التوحيد عن أمير المؤمنين: اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسول، وأولى الأمر بالمعروف والعدل والإحسان. وفى العلل عنه، لا طاعة لمن عصى الله، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لا يأمر بمعصية، وإنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصية»[(١)].

الإمام يوصى لمن بعده:

ولما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده، وليس ذلك لأحد من المسلمين غيره، فإنا نجده يتأثر بهذه العقيدة ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ الآية، على وفق هذه العقيدة فيقول: «فى الكافى وغيره فى عدة روايات: إن الخطاب إلى الأئمة... أمر كلا منهم أن يؤدى إلى الإمام الذى بعده ويوصى إليه، ثم هى جارية فى سائر الأمانات، وفيه وفى العياشى عن الباقر، إيانا عنى أن يؤدى الإمام الأول إلى الذى بعده العلم والكتب والسلاح... إلخ»[(٢)].

---

(١) (١/ ١٣٣).

(٢) (١/ ١٣٢).

استدلاله على الرجعة:

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإنا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى فى الآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ وذلك حيث يقول: «. . . أقول: قيد البعث بالموت لأنه قد يكون من إغماء ونوم، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التى قال بها أصحابنا نقلاً عن أئمتهم، واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباتة، والقمى، هذا دليل على الرجعة فى أمة محمد ﷺ، فإنه قال: لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلا وفى أمته مثله، يعنى دليلاً على وقوعها»[(١)].

الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان بالغيب:

ولكون المؤلف يعتقد بالرجعة ويرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن، فإنا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذى مدح الله به عباده المتقين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة ﴿ . . . **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** . . . ﴾ «﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ بما غاب عن حواسهم من توحيد الله، ونبوة الأنبياء، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار، وسائر الأمور التى يلزمهم الإيمان بها مما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل نصبها الله عز وجل»[(٢)].

التقيـــــــة:

ولما كان ملا محسن يقول بالتقية، ويراها ضررة من ضروريات قيام مذهبه وصون أصحابه من الاضطهاد، فإنا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿ **لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** . . . ﴾ الآية، فيقول: «﴿ **إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم خوفًا وأمرًا يجب أن يخاف منه، وقرئ (تقية) منع عن موالاتهم ظاهرًا وباطنًا فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فإن إظهار الموالاة حينئذ

---

(١) (١/ ٣٥). (٢) (١/ ٢٣).

جائز بالمخالفة كما قيل: كن وسطًا وامش جانبًا...) ثم قال: (وفى العياشى عن الصادق قال: كان رسول الله ﷺ يقول: لا إيمان لمن لا تقية له، ويقول: قال الله ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾، وفى الكافى عنه قال: التقية ترس الله بينه وبين خلقه، وعن الباقر قال: التقية فى كل شىء يضطر إليه ابن آدم، وقد أحل الله له، والأخبار فى ذلك مما لا تحصى»[١].

تأثره فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية:

ولما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له فى بعض المسائل الاجتهادية الفقهية رأى يخالف آراء مجتهدى المذاهب الأخرى، فإنا نراه ينتصر لمذهبه ويعمل على تأييده بما يظهر له من آيات القرآن... والمتتبع لتفسيره لآيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهرًا جليّا، فهو يحاول محاول جدية أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفيه بما يظهر له منه، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبة الفقهى.

المتعة:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ...﴾ نراه يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلاً على صحة مذهبه وذلك حيث يقول ما نصه: (﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ﴾ مهورهن، سمى أجرًا لأنه فى مقابلة الاستمتاع ﴿فَرِيضَةً﴾ مصدر مؤكد، فى الكافى عن الصادق، إنما أنزلت: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة» والعياشى عن الباقر، أنه كان يقرأها كذلك، وروته العامة أيضًا عن جماعة من الصحابة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ من زيادة فى المهر أو الأجل، أو نقصان فيهما، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع، فى الكافى مقطوعًا والعياشى عن الباقر «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجل آخر يرضى منها، ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، وعدتها حيضتان ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح فيما شرع من الأحكام، فى الكافى عن

---

(١) (١/ ٩٦).

الصادق، المتعة نزل بها القرآن، وجرت بها السنة من رسول الله ﷺ، وعن الباقر كان على يقول: لولا ما سبقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى - بالفاء، يعنى إلا قليل - أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس، لندبت الناس عليها، ورغبتهم فيها، فاستغنوا بها عن الزنى، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهيه عنها تارة بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهما ومعاقب عليهما: متعة الحج، ومتعة النساء، وأخرى بقوله: ثلاث كن على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمهن ومعاقب عليهن: متعة الحج، ومتعة النساء، وحى على خير العمل فى الأذان، وفيه جاء عبد الله بن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له: ما تقول فى متعة النساء، فقال: أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر... مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها، فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئًا حرمه عمر، فقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألاعنك أن القول ما قال رسول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، وقال: فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك، وبناتك، وأخواتك، وبنات عمك، يفعلن ذلك، فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه، وفيه: سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان صاحب الطاق فقال: يا أبا جعفر: ما تقول فى المتعة؟ أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم، قال: فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك، فقال أبو جعفر: ليست كل الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم، ولكن ما تقول يا أبا حنيفة فى النبيذ أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم؛ قال: فما يمنعك أن تقعد نساءك فى الحوانيت نباذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيفة: واحدة بواحدة، وسهمك أنفذ، ثم قال: يا أبا جعفر، إن الآية التى فى (سأل سائل) تنطق بتحريم المتعة[1] والرواية عن النبى قد جاءت بنسخها، فقال أبو جعفر: يا أبا حنيفة، إن سورة (سأل سائل) مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضًا

---

(١) يريد قوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذاك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها، ما تقول فيها؟ قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث... ثم افترقا، وعن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال: عن أى المتعتين تسأل؟ فقال: سألتك عن متعة الحج فأنبئنى عن متعة النساء أحق هى؟ فقال: سبحان الله... أما تقرأ كتاب الله ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ قال أبو حنيفة: والله لكأنها آية لم أقرأها قط، وفى الفقه عنه: ليس منا من لم يؤمن بكرتنا ويستحل متعتنا (أقول) الكرة: الرجعة، وهى إشارة إلى ما ثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم فى زمن القائم لينصروه، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف، ويأتى أخبار أخر فيها إن شاء الله»[1].

نكاح الكتابيات:

وملا محسن لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى، بل نراه يذكر لنا فى تفسيره للآيات التى تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء، ويفيض فى سرده لأقوال المجيزين منهم، ويعقب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحرمة، ومرتض لقول من يقول بالحل؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ لا تزوجوا الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ مملوكة ﴿مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ حرة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة بجمالها أو مالها أو حسبها ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تزوجوا منهم المؤمنات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ مملوك ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ حر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ جماله أو ماله أو حاله ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ إلى الكفر المؤدى إلى النار، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ إلى فعل ما يوجب الجنة والمغفرة من الإيمان والطاعة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بأمره وتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أوامره ونواهيه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ويتعظون، القمى: هى منسوخة بقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة

---

(١) (١/ ١٢٦، ١٢٧).

المائدة ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال: فنسخ هذه الآية ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وترك قوله ﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ على حاله لم ينسخ؛ لأنه لا يحل للمسلم أن ينكح المشرك، ويحل له أن يتزوج المشركة من اليهود والنصارى، وكذلك قال النعمانى[1] فى كتابه، وكلاهما عد قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ من منسوخ النصف من الآيات، ويأتى تمام الكلام فيه فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى)[2].

وعندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ.....﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فى الفقيه عن الصادق: هن العفائف، والعياشى عن الكاظم أنه سئل ما معنى إحصانهن؟ قال: هن العفائف من نسائهم، وفى الكافى، والمجمع، والعياشى، عن الباقر: أنها منسوخة بقوله ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) وزاد فى المجمع: وبقوله ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ القمى، أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية، وغيرهم لم تحل مناكحتهم (أقول): يؤيد هذا الحديث النبوى إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً فأحلوا حلالها وحرموا حرامها، وفى الكافى عن الحسن بن الجهم قال: قال لى أبو الحسن الرضا: يا أبا محمد ما تقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة؟ قلت: جعلت فداك، وما قولى بين يديك؟ قال: لتقولن... فإن ذلك تعلم به قولى، قلت: لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة، قال: ولم؟ قلت: لقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ قال: فما تقول فى هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾؟ قلت: فقوله: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ نسخت هذه الآية، فتبسم ثم سكت، وفيه وفى

(١) يقصد تفسير النعمانى. (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) (١/ ٧٣).

الفقيه عن الصادق فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية قال: إذا أصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقيل: يكون له فيها الهوى، فقال: إن فعل فيمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه فى دينه غضاضة، وعن الباقر: لا ينبغى للمسلم أن يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو أمة، وعنه: إنما يحل منهم نكاح البله، وفى الفقيه عنه أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية، قال: لا . . . ولكن إن كانت له أمة مجوسية فلا بأس أن يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولدها، وفى رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية ولا النصرانية على المسلمة، ويتزوج المسلمة على اليهودية والنصرانية، وفى التهذيب عن الصادق: لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حرة، وفيه فى جواز التمتع بهما وبالمجوسية أخبار أخر. . . »[(١)] .

وفى سورة الممتحنة عند قوله تعالى فى الآية (١٠) ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ قال ما نصه: «﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ بما يعتصم به الكافرات من عقد ونسب. . . جمع عصمة، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، القمى عن الباقر فى هذه الآية قال: يقول: من كانت عنده امرأة كافرة ـ يعنى على غير ملة الإسلام ـ وهو على ملة الإسلام فليعرض عليها الإسلام، فإن قبلت فهى امرأته، وإلا فهى بريئة منه، فنهى الله أن يمسك بعصمتها، وفى الكافى عنه قال: لا ينبغى نكاح أهل الكتاب، قيل: وأين تحريمه؟ قال: قوله ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (أقول): قد مضى فى سورة المائدة ما يخالف ذلك»[(٢)] .

فرض الرجلين فى الوضوء، وحكم المسح على الخفين:

ويرى صاحبنا أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحها لا غلسها، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الآية، نراه يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح، وعليه فلا يجزئ المسح

---

(١) (١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) (٢/ ٣١٠).

على القلنسوة ولا على الخفين، ثم يروى ما جاء فى التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم على فقال: ما تقولون فى المسح على الخفين؟ فقام المغيرة بن شعبة فقال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح على الخفين، فقال على: قبل المائدة أو بعد المائدة؟ قال: لا أدرى، فقال على: سبق الكتاب الخفين؛ إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض بشهرين أو ثلاثة» وهنا يعقب ملا محسن على هذه الرواية فيقول: «أقول: المغيرة بن شعبة هذا هو أحد رؤساء المنافقين من أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله... ثم يقول: وفى الفقيه روت عائشة عن النبى أنه قال: أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره، وروى عنها أنها قالت: لأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على خفى، ولم يعرف للنبى خف إلا خف أهداه النجاشى وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقًا، فمسح النبى ﷺ على رجليه وعليه خفاه، فقال الناس: إنه مسح على خفيه، على أن الحديث فى ذلك غير صحيح الإسناد. اهـ كلام الفقيه»[(١)].

وبعد هذا انتقل المؤلف إلى الكلام على فرض الرجلين فى الوضوء، فقال بعدما بين أولاً أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم: «... ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس فى رابعة النهار، وخصوصًا على قراءة الجر، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل، وفى التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ على الخفض هى أم على النصب؟ قال: «بل هى على الخفض» ثم قال: (أقول) وعلى تقدير القراءة على النصب، أيضًا، تدل على المسح، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرءوس كما تقول: مررت بزيد وعمرًا؛ إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة، بل عن أسلوب العربية... ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه..»[(٢)].

الغنائم:

وهو يرى فى الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه من أن الخمس يقسم إلى ستة سهام: سهم لله، وسهم للرسول، وسهم للإمام، وسهم ليتامى آل الرسول، وسهم

---

(١) (١/ ١٥٤). (٢) (١/ ١٥٥).

لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم، وسهم الله وسهم الرسول يرثهما الإمام، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة... ثم يعلل اختصاص الإمام من الخمس بالأسهم الثلاثة، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبى من تربية الأمة، وموتى المسلمين وقضاء ديونهم، وحملهم فى الحج والجهاد، وذلك قول رسول الله ﷺ لما أنزل عليه «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم» فلما جعله الله أبًا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك: من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فعلىّ وإلىّ، فلزم الإمام ما لزم الرسول، فلذلك صار له من الخمس ثلاثة أسهم.

والمؤلف يرى أن الله تعالى عوَّض يتامى آل البيت ومساكينهم وأبناء سبيلهم بما خصوا به من هذه السهام عن الصدقات التى حرمت عليهم ومنعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس، ويروى فى ذلك أخبارًا كثيرة عن علماء آل البيت»(١) .

وعندما فسر المؤلف قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ الآية، نقل من الكافى عن أمير المؤمنين أنه قال: «نحن والله الذين عنى الله بذى القربى الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ منا خاصة ولم يجعل لنا سهمًا فى الصدقة... أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما فى أيدى الناس»(٢) .

الاستنباط:

ويرى ملا محسن أن الاستنباط لا يجوز لأحد من الأمة إلا للأئمة؛ لأنهم هم المعصومون عن الخطأ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ الآية، يقول ما نصه: «﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ﴾ مما يوجب الأمن والخوف ﴿أَذَاعُوا بِهِ﴾ فشوه، قيل: كان قوم من ضعفه المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله ﷺ أو أخبرهم الرسول بما أوحى إليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوه،

---

(١) (٢/ ٢٤٤). (٢) (٢/ ٣٠٦).

وكانت إذاعتهم مفسدة ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ ردوا ذلك الأمر ﴿إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ قيل: أى يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم، فى الجوامع عن الباقر: هم الأئمة المعصومون، والعياشى عن الرضا: يعنى آل محمد ﷺ وهم الذين يستنبطون من القرآن، ويعرفون الحلال والحرام، وهم حجة الله على خلقه، وفى الإكمال عن الباقر: من وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عز وجل، وجعل الجهال ولاة أمر الله، والمتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوه على الله وزاغوا عن وصية الله وطاعته، فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى، فضلوا وأضلوا أتباعهم، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة»[١].

موقف المؤلف من مسائل علم الكلام:

والمؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة وآرائهم الكلامية، فهو يوافقهم فى بعض المسائل، ويخالفهم فى بعض آخر منها، وإنا لنلحظ هذا التأثر فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية، وإليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة، وبعض المثل التى خالفهم فيها:

أفعال العباد:

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه، ويوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم، ولهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة فى تفسيره.

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا...﴾ الآية، نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول: «... والمعنى خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر...»[٢].

رؤيـــــة الله:

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة فى أن رؤية الله تعالى غير جائزة، ولا واقعة؛ ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿وُجُوهٌ

---

(١) (١/ ١٣٧). (٢) (١/ ١٩٦).

يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول ما نصه: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ القمى: أى مشرقة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: ينظرون إلى وجه الله أى إلى رحمته ونعمته، وفى العيون عن الرضا قال: يعنى مشرقة تنتظر ثواب ربها، وفى التوحيد والاحتجاج عن أمير المؤمنين فى حديث قال: ينتهى أولياء الله بعدما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقًا، فيذهب عنهم كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وإنما نعنى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى، وزاد فى الاحتجاج: والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة ألم تسمع إلى قوله ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة»(١).

الشـــــفاعة:

ويخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائزة وواقعة يوم القيامة، وأن أهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ الآية، نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال: «هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغنى عنه، فأما القيامة فإنا وأهلنا نجزى عن شيعتنا كل جزاء، ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين، والطيبون من آلهم، فنرى بعض شيعتنا فى تلك العرصات، فمن كان منهم مقصرًا وفى بعض شدائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبى ذر، وعمار، ونظرائهم فى العصر الذى يليهم، ثم فى كل عصر إلى يوم القيامة، فينقضون عليهم كالبزاة والصقور، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقور صيدها، فيزفونهم إلى الجنة زفًا، وإنا لنبعث على آخرين من محبينا خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا، وسيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا فى أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النُّصَّاب(٢) فيقال له: هؤلاء فداؤك من النار، فيدخل

---

(١) (٢/ ٢٤١).

(٢) النِّصاب جمع ناصب، والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الأول والثانى، يعنى أبا بكر وعمر ـ على عليّ، أو يعتقد إمامة الأول والثانى. الوشيعة ص٢٤.

هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النصاب النار، وذلك ما قال الله عز وجل فى الآية (٣) من سورة الحجر ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى بالولاية ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فى الدنيا، منقادين للأئمة، ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم»[١].

السحر:

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالسحر؛ فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبى ﷺ سحر، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه: «﴿... وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللواتى يعقدن عقدًا فى خيوط وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق... ثم ذكر الحديث الذى فيه أن رسول الله ﷺ سحر بفعل لبيد بن الأعصم»[٢].

روايته للأحاديث الموضوعة:

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التى يرويها المؤلف فى تفسيره عن رسول الله ﷺ أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول، هى فى الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها، وقد مر بك الكثير من هذه الروايات، وهى ناطقة على نفسها، بالوضع، فلست فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة، إذ نحن فى غنى عن هذا بعدما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه فى ثنايا ألفاظه ومعانيه، والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر فى نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب، وفى اعتقادى أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبى وابن عباس فى فضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة فى تفسيره بعدما سود كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ وعلى آل بيته عليهم رضوان الله.

---

(١) (١/ ٢٣).

(٢) (٢/ ٣٧٦).

٥ - تفسيــــر القـــرآن
للسيد عبد الله العلوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن محمد رضا، العلوى، الحسينى، الشهير بشبّر، ولد بأرض النجف سنة ١١٨٨هـ ثمان وثمانين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية... ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية ومكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢هـ اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة، كان فى نظر أصحابه من أعيان الشيعة وفضلائهم، فقيهًا، محدثًا، مفسرًا متبحرًا، جامعًا لعلوم كثيرة، آية فى الأخلاق، تلقى العلم على والده، وعلى الإمام الكبير السيد محسن الأعرجى، وقد تتلمذ عليه خلق كثير، لأنهم كانوا يعتبرونه علمًا من أعلام الشيعة، وشخصية علمية بارزة لها مكانها ومقدارها، ولقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف والتصنيف حتى أخرج للناس مع سنه الذى لم يتجاوز الأربع والخمسين سنة كتبًا كثيرة ومصنفات عديدة نذكر منها:

١ - الدرر المنثورة فى المواعظ المأثورة عن الله تعالى والنبى والأئمة الطاهرين عليهم السلام والحكماء.

٢ - رسالة فى حجية خبر الواحد.

٣ - أعمال السنة، كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسى.

٤ - رسالة فى حجية العقل والحسن والقبح العقليين.

٥ - مصباح الظلام فى شرح مفاتيح شرائع الإسلام.

٦ - قصص الأنبياء.

٧ - البرهان المبين فى فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين.

٨ - كتاب شرح نهج البلاغة.

٩ - صفوة التفاسير فى ستين ألف بيت.

١٠- الجوهر الثمين فى تفسير القرآن المبين.. فى مجلدين فى ثلاثين ألف بيت.

١١- التفسير الوجيز مجلد واحد فى ثمانية عشر ألف بيت، ولعل هذا التفسير

هو الذى فى أيدينا، وهناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة فى ترجمته لا نطيل بذكرها»[(١)].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الاثنى عشرية، من حمل ألفاظ القرآن الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه، مع شىء من التعصب والغلو فى التنويه بشأن أهل البيت والحط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلى وذريته، والكتاب مختصر فى ألفاظه، موجز فى عباراته، مع تضمنه للمعانى الكثيرة الدقيقة، فهو أشبه ما يكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعانى الكثيرة، والنكات الخفية الدقيقة، بعبارة سهلة موجزة.

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جل اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت، وإن كان لا يعزو كل قول إلى قائله فى الغالب، كما حرص على أن ينصر مذهبه ويدافع عنه سواء فى ذلك ما يتعلق بأصول المذهب أو بفروعه، وهو بعد ذلك يشرح الآيات التى لها صلة بمسائل علم الكلام شرحًا يتفق أحيانًا كثيرة مع مذهب المعتزلة، وأحيانًا مع مذهب أهل السنة، وذلك راجع إلى أنه يأخذ بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل، وبمذهب أهل السنة فى بعض آخر منها، شأن الكثير الغالب من علماء الإمامية الاثنى عشرية، ثم لا يفوت المؤلف فى تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التى ترد على ظاهر النظم الكريم، ثم يجيب عنها، كما لا يفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللفظية والبيانية والمعنوية، مع الخوض أحيانًا فى المعانى اللغوية والمسائل النحوية، كل هذا ـ كما قلت ـ فى أسلوب ممتع لا يمل قارئه من تعقيد ولا يسأم من طول.

ولقد وصف المؤلف تفسيره هذا، وبين مسلكه فيه فقال فى مقدمته:

«هذه كلمات شريفة، وتحقيقات منيفة، وبيانات شافية، وإشارات وافية، تتعلق ببعض مشكلات الآيات القرآنية، وغرائب الفقرات الفرقانية، وتتحرى غالبًا ما ورد عن خزان أسرار الوحى والتنزيل، ومعادن جواهر العلم والتأويل، الذين نزل فى بيوتهم

---

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص٣٧٤، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم.

جبرائيل، بأوجز إشارة، وألطف عبارة، وفيما يتعلق بالألفاظ والأغراض والنكات البيانية تفسير وجيز، فإنه ألطف التفاسير بيانًا وأحسنها تبيانًا مع وجازة اللفظ وكثرة المعنى».

هذا، وقد أتم المؤلف تفسيره هذا ـ كما قال فى خاتمته ـ فى جمادى الأولى سنة ١٢٣٩هـ تسع وثلاثين ومائتين بعد الألف من الهجرة، والكتاب مطبوع فى مجلد واحد كبير الحجم، وموجود بدار الكتب المصرية، وإليك بعض ما يكشف عن منهج هذا التفسير.

تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك فى تفسيره:

هذا، وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر فى تفسيره بتعاليم الإمامية الاثنى عشرية وأصول مذهبهم، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حجة لمذهبه أو دفعًا لمذهب مخالفيه إلا فسرها كما يحب ويهوى.

الإمامة:

فمثلاً نراه يتأثر بعقيدته فى الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ فيذكر أنها «نزلت فى على عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع فى صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها» ويدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين ـ جانب الموافقين وجانب المخالفين ـ ثم يقول بعد ذلك: «وتدل ـ يعنى الآية ـ على إمامته دون من سواه؛ للحصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيمًا، أو لدخول أولاده الطاهرين»[(١)].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضًا ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...**﴾ الآية، يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر: «أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف عليًا، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت، فأخذ بيده فقال: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى... قال: من كنت مولاه فعلى مولاه»[(٢)].

---

(١) ص ٢. (٢) ص ٢٦٤.

كل إمام يوصى لمن بعده:

ويدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولاً لأحد من الناس، بل كل إمام يوصى لمن بعده، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...**﴾ الآية، يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف وكل أمانة... ثم يقول: «وعنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده»(١).

وفى سورة الأحزاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...**﴾ الآية، يقول: (وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار»(٢). اهـ.

وجود الأئمة فى كل زمان وعصمتهم، ووجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم:

ولما كان المؤلف يرى أنه لا يخلو كل زمان من إمام، وأن الأئمة لهم من الله العصمة كالأنبياء وليس هذا لغيرهم، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب أو السنة، أما من عداهم من الناس فلا يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه، ولا يؤخذ برأيه فى مسائل الخلاف:

يقول المؤلف هذا ويدين به فنجده يتأثر به فى تفسيره، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ...**﴾ الآية، يقول: «دل على وجود أولى الأمر فى كل زمان، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم، وعصمتهم، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية... وعنهم عليهم السلام: إيانا عنى خاصة... أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ**﴾ أيها المأمورون ﴿**فِي شَيْءٍ**﴾ من أمور الدين ﴿**فَرُدُّوهُ**﴾ فراجعوا فيه ﴿**إِلَى اللَّهِ**﴾ إلى محكم كتابه ﴿**وَالرَّسُولِ**﴾ بالأخذ لسنته، والمراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه، فإنها رد إليه، وقرئ: فإن خفتم تنازعًا فى شىء فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم...»(٣).

---

(١) ص ٢٠٣. (٢) ص ٨٧٣. (٣) ص ٢٠٤.

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء أيضًا ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...﴾ يقول: «﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ هم آل محمد عليهم السلام ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليهم السلام...»[1].

الرجعـــة:

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ نجده يفسر الغيب «بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع، وصفاته، والنبوة، وقيام القائم، والرجعة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار».

ومثلاً فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة أيضًا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: «... وفيه حجة على صحة البعث والرجعة».

التقيـــة:

ولتأثر المؤلف بعقيدته نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً...﴾ الآية، يقول: «... رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم وهى التقية التى تدين بها الإمامية، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾»[2].

تحريف القرآن:

كذلك نجد شبرًا يعتقد بأن القرآن بدل وحرف، ولما اصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول: «﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عند أهل الذكر واحدًا بعد واحد إلى القائم، أو فى اللوح... وقيل: الضمير للنبى»[3].

---

(١) ص ٢١٠، ٢١١.

(٢) ص ١٢٩.

(٣) ص ٥٤٦.

آيات العتاب:

والمؤلف يكبر عليه معاتبة الله لنبيه محمد ﷺ على أمر من الأمور، فيحاول بكل ما يستطيع أن يحول العتاب إلى غير النبى ﷺ .

فمثلاً عتاب الله لنبيه ﷺ فى شأن ابن أم مكتوم يشق على شبر أن يكون مقصودًا به النبى، فنراه يقتصر على ما روى عن أهل البيت من أن آيات العتاب «نزلت فى رجل من بنى أمية، كان عند النبى ﷺ فجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه»(١) .

طعنه على الصحابة:

وإنا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو ما يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نسب إليهم فى القرآن تنقيصًا لهم، وحطًا من قدرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا** ﴾ الآية، نجده يعرض عن تعيين هذا الذى صحب النبى ﷺ فى هجرته، وهو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينقص من قدره، أو يذهب بفضله المنسوب إليه والمنوه به فى القرآن الكريم فيقول: «﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ** ﴾ حال أى معه واحد لا غير ﴿ **إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ نقب فى ثور، وهو جبل بقرب مكة ﴿ **إِذْ** ﴾ بدل ثان ﴿ **يَقُولُ لِصَاحِبِهِ** ﴾ ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال: ﴿ **قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ** ﴾ **(الكهف: ٣٧)** ﴿ **لا تَحْزَنْ** ﴾ فإنه خاف على نفسه وقبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ عالم بنا ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ...** ﴾ إلى قوله ﴿ **إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ** ﴾ **(المجادلة: ٧)** أى عالم بهم ﴿ **فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ** ﴾ طمأنينته ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ على الرسول... وفى إقراة ﷺ ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت ما لا يخفى، وجعل الهاء لصاحبه ينفيه كونها للرسول قبل وبعد... إلخ»(٢) .

---

(١) ص١١٩١ .

(٢) ص ٤١٧، ٤١٨ .

تعصبه لآل البيت :

ولقد مر بنا عند قراءتنا فى هذا التفسير، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصبًا ممقوتًا مرذولاً، فتارة نجده يصرف اللفظ العام إلى على ﷺ، كما فعل فى الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ فإنه صرف لفظ (صالح المؤمنين) من عمومه وادعى أنه خاص بأمير المؤمنين على، عليه السلام، كما ادعى رواية العامة والخاصة لذلك[1].

كما نجده يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة وأنبيائهم يتوسلون إلى الله، فيكشف عنهم الغمة، ويزحزح عنهم الكربة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...** ﴾ إلى آخر القصة، نجده يدعى أن السجود لآدم إنما كان (لما فى صلبه من نور محمد ﷺ وأهل بيته) ويدعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى (التوسل فى دعائه بمحمد ﷺ وآله الطيبين)[2].

ومثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير.

علم القرآن كله عند آل البيت:

والمؤلف يدعى ـ كغيره من الإمامية الاثنى عشرية ـ أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم، وإنا لنجد أثر هذا واضحًا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران ﴿ ... **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...** ﴾ الآية، وذلك حيث يقول: «﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ** ﴾ تأويل القرآن كله الذى يجب أن يحمل عليه ﴿ **إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ الثابتون فيه ومن لا يختلف فى علمه... عن الصادق عليه السلام: نحن الراسخون فى العلم، ونحن نعلم تأويله، ومن وقف من الجمهور على الله؛ فسر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة ونحوه»[3].

---

(١) ص ١١٣٥. (٢) ص ١٩، ٢٠. (٣) ص ١٩، ٢٠.

تأثر المؤلف فى تفسيره بفروع الإمامية الفقهية:

ثم إن المؤلف يجرى فى تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية.

نكاح المتعة:

فمثلاً نجده يتأثر برأيه الذى يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه، فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء ﴿ ... وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ... ﴾ الآية، يقول: «... والمراد به نكاح المتعة بإجماع أهل البيت، ويدل عليه قراءة أبى وابن عباس وابن مسعود "فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى" ﴿ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن ﴿ فَرِيضَةً ﴾ من الله ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة فى الأجر والمدة»(١).

فرض الرجلين فى الوضوء:

ولما كان المؤلف يرى أن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح لا الغسل، فإنا نراه يشير إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... ﴾ الآية، فيقول: «﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ بالجر كما عن حمزة وابن كثير وأبى عمرو... ونصبه الباقون عطفا على رءوسكم محلا»(٢).

الغنائم:

كذلك يقول المؤلف بما يقول له علماء مذهبه فى تفسير خمس الغنائم، ويجرى على مذهبه فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ... ﴾ الآية، فيقول: «﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ خبر محذوف، أو مبتدأ، أى فالحكم أو فواجب أن لله خمسه ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ الإمام ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ يتامى الرسول ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ منهم ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ منهم..»(٣).

---

(١) ص ١٢٢. (٢) ص ٢٤٦.

(٣) ص ٣٩٥.

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ الآية، يقول مثل ما قاله فى الآية السابقة وينبه على أنه مر فى الأنفال نحوه[1].

ميراث الأنبياء:

ونجد شبرًا يقول بأن الأنبياء يورثون المال كسائر الناس، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة مريم ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ يقول ما نصه: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ الذين يلوننى فى النسب، وهم بنو عمه ﴿مِن وَرَائِي﴾ بعد موتى أن يرثوا مالى فيصرفوه فيما لا ينبغى، إذ كانوا أشرارًا ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لا تلد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ ابنًا ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾... إلى آخره»[2].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ الآية، يقول ما نصه: «وورث سليمان داود ماله وهلكه. وقيل: نبوته وعلمه، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وهم تسعة عشر، والأول مروى»[3].

نكاح الكتابيات:

ولكن نرى المؤلف فى مسألة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحل وعدم الحرمة؛ ففى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، يقول: «﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ظاهره حل نكاح كل كتابية ذمية أو حربية، دائمًا، أو منقطعًا، أو ملكًا، فيخص آية ولا تنكحوا المشركات إن شملت الكتابية، وعن الباقر عليه السلام أنه منسوخ بتلك»[4]. اهـ.

---

(١) ص ١١٠٧.
(٢) ص ٦٣٤.
(٣) ص ٧٨٨.
(٤) ص ٢٤٥.

وعند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ نراه يمر عليها بدون أن يتعرض لهذا الموضوع أصلاً.

تأثره بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الاثنى عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها، ويقول بما يقولون به فى كثير من أمور العقائد، كما يخالف أهل الاعتزال فى بعض منها ويقول بما يقول به أهل السنة، وإننا لنلمس أثر ذلك واضحا جليًا فى تفسيره لكتاب الله تعالى.

حرية الإرادة وخلق الأفعال:

فمثلاً نجد المؤلف يوافق المعتزلة فى أن العبد حر فى إرادته، خالق لأفعاله كلها، ولهذا نراه كلما اصطدم بآية من الآيات التى تدل على أن الله هو الذى يخلق أفعال العباد، لجأ إلى التأويل الذى يتفق مع عقيدته هذه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول: «﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لا يؤمنون، وعن الرضا عليه السلام: الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ (النساء: ١٥٥) ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ غطاء، أقول: ويمكن أن يكون تهكمًا حكاية لقولهم ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥) أو فى الآخرة، والتعبير بالماضى لتحققه، ويشهد له قوله ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ (الإسراء: ٩٧)»[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ...﴾ الآية، نراه يفر من نسبة التزيين إلى الله فيقول: «﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أى لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم، أو أمهلنا الشيطان حتى زينه لهم»[٢].

---

(١) ص ٨، ٩. (٢) ص ٣١٧.

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من السورة نفسها ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ...﴾ الآية، يتخلص من نسبة الجعل هنا الى الله تعالى بتأويله بالتخلية فيقول: «أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخلية، أى لم يمنعهم العداوة»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من السورة نفسها ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية، نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف والخذلان فيقول: «﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ أى يلطف به ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ بأن يفسح فيه وينور قلبه ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ أى يمنعه ألطافه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان...»(٢).

رؤيـــــة الله:

ولقد تأثر المؤلف أيضًا فى تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله وعدم وقوعها ولهذا لما فسر قوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ...﴾ الآية، قال ما نصه: «﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ روى لما كرر سؤال الرؤية أوحى الله إليه: يا موسى سلنى ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم... قال: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ علق على المحال ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أى أظهر له أمره واقتداره أو نورة وعظمته... ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك عما لا يليق بك من الرؤية وغيرها ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من طلب الرؤية، أو السؤال بلا إذن ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك لا تُرى»(٣).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يقول: «ناظرة إلى رحمته وإنعامه»(٤).

---

(١) ص ٣١٨.
(٢) ص ٣٢٢.
(٣) ص ٣٦٧.
(٤) ص ١٧٤؛

غفران الذنوب:

ولما كان المؤلف يخالف المعتزلة فى بعض معتقداتهم، فإنا نراه يفسر الآيات التى يستندون إليها فى بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها، فلا يرى المؤلف أنه يجوز فى حق الله تعالى أن يغفر الذنوب ـ إلا الشرك ـ بدون توبة من العبد تفضلاً منه ورحمة، وهذا ما لا يقول به المعتزلة؛ فلهذا نجده يجرى على هذه العقيدة فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة النساء ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فيقول: «﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ**﴾ أى الشرك ﴿**بِهِ**﴾ بدون توبة للإجماع على غفرانها بها ﴿**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ**﴾ ما سواه من الذنوب بدون توبة ﴿**لِمَن يَشَاءُ**﴾ تفضلاً، ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء»(١).

وهكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعى، والدفاع عن أصوله وفروعه.

* * *

---

(١) ص ٣٠.

٦- بيان السعادة فى مقامات العبادة
لسلطان محمد الخراسانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنابذى الخراسانى أحد متطرفى الإمامية الاثنى عشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى [1].

قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعطينا هذا التفسير لونًا آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية، وذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم فى التفسير يكاد يكون متفقًا على لون واحد، وهو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمة وآل البيت، وما كان من تفاوت بينهما فهو لا يعدو أن يكون تفاوتًا بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه، وبمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم وتدعيم أصوله بالأدلة والبراهين.

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكًا غير هذا المسلك، مما جعل له لونًا مخالفًا للون تلك الكتب السابقة؛ ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن كله عند الأئمة، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد، بل نراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز والإشارات، كما يخلط بالتفسير كثيرًا من البحوث الفلسفية الدقيقة، والذى يقرأ هذا الكتاب ويتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها، الغريبة فى لفظها وأسلوبها، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه، عسير فى فهم مراده ومراميه، وأنا إذ أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغاليًا ولا متجنيًا فيما حكمت، فكثيرًا ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة، ولا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المبتور، بعد أن يرتد إلىَّ البصر خاسئًا وهو حسير، ويرجع الذهن عاجزًا عن الفهم وهو كليل. . . وربما أكون واهمًا فى هذا الحكم؛ لقصور معرفتى باصطلاحات القوم، وعدم وقوفى على أصول مذهبهم ومرامى رموزهم التى يرمزون بها. . . ولو

---

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا.

تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم، ورأى فيه مخالف لهذا الرأى.

والذى نلحظه فى هذا التفسير بعد ذلك: أنه يدافع عن أصول مذهبه ويطيل فى دفاعه، مع تعصب كبير، وتطرف بالغ إلى درجة الغلو والعناد، أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية، فيمر عليها مرّاً سريعًا بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر، كما نلحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السنة أيضًا كالبيضاوى وغيره، وكثيرًا ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول.

وبالجملة، فالكتاب يكاد يكون فى جملته تفسيرًا جاريًا على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم، ويظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولاً وبالذات؛ يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره وهى قوله: «. . . وقد كنت نشيطًا منذ أوان اكتسابى للعلوم وعنفوان شبابى بمطالعة كتب التفاسير والأخبار ومدارستها، ووفقنى الله تعالى لذلك، وقد كان يظهر لى بعض الأحيان من إشارات الكتب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب ولا أسمعها من خطاب، فأردت أن أثبتها فى وريقات، وأجعلها نحو تفسير للكتاب، لتكون تذكرة لى ولإخوانى المؤمنين، وتنبيهًا لنفسى ولجملة الغافلين، راجيًا من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين، ولسان صدق فى الآخرين وهو جدير بأن يسمى: بيان السعادة فى مقامات العبادة»(١).

فأنت ترى أن المؤلف يقرر هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة تلك الإشارات والتلويحات التى فتح الله بها عليه ولم يسبق إليها فلو أنا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهة الحق والصواب، ولكنا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الاثنى عشرية؛ لما فيه من اللون المذهبى والأثر الشيعى البالغ حد التطرف والغلو حتى فى ناحيته الصوفية والفلسفية، والكتاب مطبوع فى جزأين، وموجود بدار الكتب المصرية، وفى آخره ما يدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١هـ.

---

(١) (١/ ٣).

وأرى قبل كل شىء أن أسوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى يقول بها المصنف ويجهر بها فى مقدمة تفسيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة، وإليك أهم هذه الآراء:

الإمامية الاثنا عشرية والمهدى المنتظر:

يدين صاحبنا بأن عليّا أول العترة، ووارث علم محمد ﷺ، وبعده الأحد عشر من ولده، وأن الحادى عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج ويملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما ملئت ظلمًا وجورًا، وأن هؤلاء الاثنى عشر أئمة وشفعاؤه يوم القيامة...[(١)].

القرآن والعترة:

ويعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة، وأن العترة مبينون للقرآن، ويقول: إن القرآن إمام صامت، والعترة إمام ناطق، كما يقول: «إن محبة العالم من العترة وتعظيمه، والنظر إليه، والجلوس عنده، واستماع قوله وسماعه، والتدبر فى أفعاله وأحواله وأخلاقه، والتفكر فى شئونه والتسليم له ولمتشابهات ما منه، وتخلية بيت القلب لنزوله بملكوته فيه، بملاحظة أنه حبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العبادات، كذلك تعظيم القرآن، والنظر فى سوره، واستماع كلماته وسماعها، والتدبر فى عباراته، والتفكر فى إشاراته ولطائفه، وتخلية بيت القلب لتجلى حقائقه، واتباع أحكامه وتسليم متشابهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه حبلا ممدودًا من الله»[(٢)].

علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء:

ويعتقد المؤلف أن علم القرآن جميعه عند النبى ﷺ والأئمة، أما من عداهم فعلمهم بمعانى القرآن قاصر لا يبلغ المبلغ الذى خص به النبى والأئمة، وذلك فى نظره راجع إلى تفاوت المقامات التى يتفاوت العلم بتفاوتها، ونظرية تفاوت المقامات التى يتفاوت من أجلها العلم بمعانى القرآن، نظرية فلسفية صوفية شيعية، وإليك نص عبارة المؤلف فى الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها:

---

(١) (١/ ٢).

(٢) (١/ ٢).

يقول المؤلف ما نصه: «الفصل العاشر: أن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر فى محمد ﷺ وأوصيائه الاثنى عشر وليس لغيرهم إلا بقدر مقامه، قد مضى أن بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة، وأن بطنه الأعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد، وعلوية على، وهو مقام المشيئة التى هى فوق الإمكان، وكل نبى ووصى كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد ﷺ وأوصيائه، ومن لم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم ما فيه ولا يتبين من ذلك المقام شيئًا، لأن المفسر لا يتجاوز فى تفسيره حد نفسه، فكل من علم من القرآن شيئًا أو فسر منه شيئًا وإن بلغ من المقامات لا يكون علمه وتفسيره بالنسبة إلى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط؛ فإن حقيقة القرآن التى هى حقيقة محمد وعلى هى مقام الإطلاق الذى لا نهاية له، والممكن وإن كان أشرف الممكنات الذى هو العقل الكلى يكون محدودًا، ولا يتصور النسبة بين المحدود وغير المتناهى الغير محدود، فعلم كل عالم ومفسر للقرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار، ولما كان مقام محمد ﷺ وعلى وأولاده المعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم، وكان على هو من عنده علم الكتاب كما فى الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستغراق، وكان آصف هو الذى عنده علم من الكتاب، وكان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمات معدودة لا بجملة الكلمات، مع أنه كان أكمل الأنبياء بعد نبينا، وكان محمد ﷺ يؤمن بالله وكلماته جميعًا فى قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾(الأعراف: ١٥٨) فإن الكلمات جمع مضاف مفيد للاستغراق، وليس المراد به الإيمان الإجمالى وإلا لشاركه غيره فيه، بل الإيمان التفصيلى، والإيمان التفصيلى لا يكون إلا بإدراك المؤمن به شهودًا وعيانًا»[١].

تحريف القرآن وتبديله:

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح فى تحريف القرآن وتبديله فيقول ما نصه: (اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك فى صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيير إنما هى فى مدركاتهم من القرآن لا فى لفظ القرآن كلفة، ولا يليق بالكاملين

(١) (١/ ١٠).

فى مخاطباتهم العامة؛ لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص، وصرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف، وما توهموه صارفًا من كونه مجموعًا عندهم فى زمن النبى، وكانوا يحفظونه ويدرسونه، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير والتبديل، حتى ضبطوا قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم.

فالجواب عنه: أن كونه مجموعًا غير مسلم، فإن القرآن نزل فى مدة رسالته إلى آخر عمره نجومًا، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات فى العام الآخر، وما ورد من أنهم جمعوه بعد رحلته، وأن عليّا جلس فى بيته مشغولاً بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره، وكونهم يحفظونه ويدرسونه مُسَلَّم، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه، وكما كانت الدواعى متوفرة فى حفظه، كذلك كانت متوفرة من المنافقين فى تغييره، وأما ما قيل: إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه، والحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه، واتباع أحكامه، والتدبر فى آياته، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده، وعرض الأخبار عليه، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها؛ لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه، وامتثال أوامره ونواهيه، وإقامة حدوده وأحكامه، إنما هى للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذكر، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على محمد ﷺ من غير نقيصة وزيادة وتحريف فيه، ويستفاد من هذه الأخبار: أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت فى القرآن لم تكن مخلة بمقصود الباقى منه، بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم، وفى الباقى منه حجتهم أهل البيت، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعية لنا ولو كان مغيرًا تغييرًا مخلاً بمقصوده، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمروا باتباعه، وكان التوسل به، واتباع أحكامه، واستنباط أوامره ونواهيه، وحدوده، وأحكامه، من قبل أنفسنا كان من قبيل التفسير بالرأى الذى منعوا منه، ولو لم يكن مغيرًا»[1].

---

(١) (١/ ١٢).

نزول القرآن فى شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم:

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه فى الأئمة الاثنى عشر بوجه، ونزل فيهم وفى أعدائهم بوجه، ونزل أثلاثًا: ثلث فيهم وفى أعدائهم، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام... بوجه، أو ثلث فيهم وفى أحبائهم، وثلث فى أعدائهم، وثلث سنة ومثل... بوجه، ونزل أرباعًا: ربع فيهم، وربع فى عدوهم، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام... بوجه... ويرى أن كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت، ويوجه ذلك فيقول: «لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية، وتوجيه الخلق إلى الولاية، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولاية والمتحقق بالولاية المطلقة محمدًا ﷺ وعليًا وأولادهما، صح أن يقال: جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماويبة نزلت فيهم وفى توجيه الخلق إليهم، وهو أيضًا وصف وتبجيل لهم، ولما كان كثير من آيات القرآن نزلت فيهم تصريحًا أو تعريضًا أو تورية، وما كان فى أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا الاعتبار بمخالفيهم والانزجار عن مخالفتهم ليكون سببًا للتوجه إليهم ولمعرفة قدرهم وعظمة شأنهم، وكان سائر آيات الأمر والنهى والقصص والأخبار لتأكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية، صح أن يقال: جميع القرآن نزل فيهم، ولما كان القرآن مفصلاً يكون بعض آياته فيهم وفى محبتهم، وبعضها فى أعدائهم ومخالفيهم، وبعضها سننًا وأمثالاً، وبعضها فرائض وأحكامًا، صح أن يقال: نزل القرآن فيهم وفى أعدائهم، أو نزل أثلاثًا أو أرباعًا والآية الدالة على أخبار الأخيار والأشرار الماضين، كلها تعريض بالأئمة وأخيار هذه الأمة وأشرارهم، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم وإلى أعدائهم بسبب كونهم أصلاً فى الخير وكون أعدائهم أصلاً فى الشر، بل يقول: كل آية ذكر فيها خير كان المراد بها أخيار الأمة، وكل آية ذكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأمة؛ لكون الآية فيهم أو تعريضًا بهم، أو لكونهم وكون أعدائهم أصلاً فى الخير والشر»[(١)].

هذه أهم آراء المصنف التى يراها فى القرآن وتفسيره ومفسريه، وإليك بعض النماذج التى توضح لك الطريقة التى جرى عليها المصنف فى تفسيره، ومقدار تأثره بنزعته الصوفية، وهواه الشيعى.

---

(١) (١/ ١٣).

من التفسير الصوفى:

قلنا: إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفى لكثرة ما فيه من التأويلات الإشارية، والشطحات الصوفية، والمواجيد التى نقرؤها للمؤلف فى تفسيره للآيات القرآنية، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقى النواحى فى هذا التفسير.

فمثلاً عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٧٥) من سورة النساء ﴿**وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ...**﴾ الآية «إن كان النزول فى ضعفاء قرية فلا اختصاص لها بهم كما فى الخبر، فالقرية مكة وكل قرية لا يجد الشيعة فيها وليًا من الإمام ومشايخهم، وكل قرية وقع بها الأئمة بين منافقى الأمة، وقرية النفس الحيوانية التى لا يجد الجنود الإنسانية فيها وليًا ويطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر ومدينة القلب، ويسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم فى بيت القلب خاليًا عن مزاحمة الأغيار بقولهم ﴿**وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ تكرار اجعل، لأن مقام التضرع والابتهال يناسبه التطويل والإلحاح فى السؤال، ولأن المسئول ليس شخصًا واحدًا ولو كان واحدًا لم يكن مسئولاً من جهة واحدة، بل المسئول محمد ﷺ وعلى، أو المسئول محمد من جهة هدايته ومن جهة نصرته، أو على كذلك».

«وقد بقى بين الصوفية أن يكون التعليم والتلقين بتعاضد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هاديًا والآخر دليلاً، والشيخ الهادى له الهداية وتولى أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه، والشيخ الدليل ينصره لمدافعة الأعداء، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى، وفى الآية إشارة إلى أن السالك ينبغى له أن يطلب دائمًا حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره، وهو معنى انتظار ظهور الشيخ فى عالم الصغير وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك، فلا يصدق عليه أنه من لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان وليًا من لدن الله ونصيرًا من لدنه»(١).

---

(١) (١/ ٢١١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بقوله: «. . . اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى ما لا نهاية له، والتكاليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه بل - كما عرفت سابقًا - للمفاهيم الواردة فى التكاليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان، وبعضها فوق بعض، فكل ما ورد فى الشريعة المطهرة من الألفاظ فهى مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصداق من المصاديق، فالإنسان بحسب مرتبته النباتية له محللات إلهية، وبحسب مرتبته الحيوانية أخرى، وبحسب الصدر أخرى، وبحسب القلب أخرى، وبحسب الروح أخرى، والتحريم الإلهى فى كل مرتبة بحسبه، وكذا تحريم الإنسان على نفسه، فالمحللات بحسب مرتبته الحيوانية والنباتية: ما أباح الله له من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمركوب، والمنكوح والمسكن، والمنظور، وبحسب الصدر: ما أباح الله له من الأفعال الإرادية، والأعمال الشرعية، والتدبيرات المعادية والمعاشية، والأخلاق الجميلة، والمكاشفات الصورية، وبحسب القلب: ما أباح الله له من الأعمال القلبية، والواردات الإلهية، والعلوم اللدنية، والمشاهدات المعنوية الكلية. . . وهكذا فى سائر المراتب، والطيبات من ذلك فى كل مرتبة: ما تستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة، ومطلق المباح فى كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه، وأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ولا يحب الشره والاعتداء فى رخصه بحيث يؤدى إلى الانتقال إلى ما هو حرام محظور بأصل الشرع، أو بحيث يؤدى إلى صيرورة المباح حرامًا بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه، كما لا يحب الامتناع عن رخصه، فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تمتنعوا من الرخص، ولا تحرموا بقسم وشبهة، ولا بكسل ونحوه، على أنفسكم ما تستلذه المدارك بحسب كل مرتبة وقوة مما أباحه الله لكم؛ لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذًا بما أباحه له، كما يجب أن يراه مستلذًا بعباداته ومناجاته، ولا تمتنعوا بالاكتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية، فإنه يحب أن يرى عبده مصراً على طلب مستلذات المرتبة العالية، كما يحب أن يراه

فى هذه الحالة معرضًا عن مباحات المرتبة الدانية، مكتفيًا بضرورياتها وراجحاتها، ولا تعتدوا عما أباح الله إلى ما حظره، وفى المباح إلى حد الحظر، والآية إشارة إلى التوسط بين التفريط والإفراط فى كل الأمور من الأفعال والطاعات والأخلاق والعقائد والسير إلى الله، فإن المطلوب من السائر إلى الله يكون واقعًا بين إفراط الجذب وتفريط السلوك...».

ثم بعد ذلك فسر قوله تعالى ﴿**وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ (المائدة: ٨٨) بما يشبه التفسير السابق... ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت فى على وبلال وعثمان بن مظعون، فأما على فحلف أن لا ينام بالليل، وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبدًا، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبدًا، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما بال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات؟ إنى أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار، فمن رغب عن سنتى فليس منى، فقام هؤلاء فقالوا: يا رسول الله... فقد حلفنا على ذلك، فأنزل الله آيات الحلف... ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين: **أولهما**: أن مثال هذه المعاتبات ونسبة التحريم والاعتداء والتقوى ولغو الإيمان غير مناسبة لمقام على، **وثانيهما**: أن عليًا إما كان عالمًا بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبداد والرأى كان من البدع والضلال، وإن كان بالنذر وشبهه ـ كما دل عليه الخبر ـ كان مرجوحًا غير مرضى لله تعالى، ومع ذلك حرمه على نفسه، أو كان جاهلاً بذلك، وكلا الوجهين غير لائق بمقامه... ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال: «والجواب الجلى لطالبى الآخرة والسالكين إلى الله، الذين بايعوا عليًا بالولاية، وتابعوه بقدم صدق، واستشهوا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال: إن السالك إلى الله يتم سلوكه باستجماعه بين نشأتى الجذب والسلوك، بمعنى توسطه بين تفريط السلوك الصرف، وإفراط الجذب الصرف، فإنه إن كان فى نشأة السلوك فقد جمد طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير، وإن كان فى نشأة الجذب فقط، فنى بحرارة الجذب عن أفعاله وصفاته وذاته، بحيث لا يبقى منه أثر ولا خبر، وهو وإن كان فى روح وراحة، لكنه

ناقص كمال النقص من حيث إن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده، وخدمه، وأتباعه، وحشمه، وهو طرح الكل، وتسارع بوحدته، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون فى الجذب والسلوك منكسرًا ببرودة سلوكه بحرارة جذبه، فالجذب والسلوك كالليل والنهار وكالصيف والشتاء، من حيث إنهما يربيان المواليد بتضادهما، فهما ـ مع كونهما متنازعين ـ متآلفان متوافقان.

إذا علمت ذلك، فاعلم أن السالك إذا وقع فى نشأة الجذب، وشرب من شراب الشوق الزنجبيلى، سكر وطرب ووجد، بحيث لا يبقى فى نظره سوى الخدمة للمحبوب، وكل ما رآه منافيًا للخدمة رآه ثقلاً ووبالاً على نفسه ومكروها لمولاه، فيصمم فى طرحه، ويعزم على ترك الاشتغال به، وهو من كمال الطاعة لا أنه ترك الطاعة كما يظن، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع فى تلك النشأة، وحرم على نفسه كل ما يشغله عن الخدمة؛ لكمال الاهتمام بالطاعة، ولما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين، أسقاه محمد ﷺ من شراب السلوك، لأنه كان مكملاً مربيًا له ولغيره، ولذا قالوا: لأن يكون للسالك شيخ وإلا فيوشك أن يقع فى الورطات المهلكة، ولا منقصة فى أمثال هذه المعاتبات على الأحباب، بل فيها من اللطف والترغيب فى الخدمة ما لا يخفى، وعلىٌّ كان عالمًا بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين، لكنه يرى حين الجذب أن كل ما يشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب، ومرجوح عنده، فحلف على ترك المرجوح، أو يقال: إن عليًا لما كان شريكًا للرسول ﷺ فى تكميل السلاك لقوله: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى» وكان له شأن الدلالة، ولمحمد شأن الإرشاد، والمرشد بنشأته النبوية شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك، وإن كان بنشأته الولوية وشأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب، والدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب، وإن كان بنشأته النبوية وشأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور، ويعلمه آداب الحضور، وطريق العبودية من عدم الالتفات إلى ما سوى المعبود، وطرح جميع العوائق من طريقه، والمرشد بنبوته يبعده عن الحضور، ويقربه إلى السلوك، ويرغبه فيه، فهما فى فعلهما كالنشأتين: متضادان متوافقان، فأمير

المؤمنين لما رأى بلالاً وعثمان مستعدين لنشأة الجذب؛ رغبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات وترك المألوفات، وشاركهما فى ذلك ليستكمل بذلك شوقهما ويتم جذبهما، ولما مضى مدة ورأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق وأنفع لهما، ردهما إلى نشأة السلوك، وعابتهما بألطف عتاب، ولا يرد نقص على أمير المؤمنين، ولما قالوا بعد عتابه: قد حلفنا.. نزل ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ **(البقرة: ٢٢٥)** وهو الذى يؤتى به للتاكيد فى الكلام كما هو عادة العوام... إلخ»[١].

فأنت ترى من هذين المثالين السابقين، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيره للآيات، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى وذريته بل ومن اتخاذه مخرجًا يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه.

من التفسير الفلسفى:

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية، فمثلاً فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسده وروحه عليه السلام، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك، ويقدم لبحثه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام على ﷺ، وذلك حيث يقول:

«العالم ليس منحصرًا فى هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بسماواته وأراضيه، بل فوقه البرزخ، وهو عالم بين عالم الطبع وعالم المثال، وله الحكومة على عالم الطبع والتصرف فيه أى تصرف شاء، من الإحياء، والإماتة، وإيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، وستر المحسوس، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس، ومنه طى الأرض، والسير على الماء والهواء، والدخول فى النار سالمًا، وقلب الماهيات، ومنه طى الزمان، كما ورد فى الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق: اخسأ، فصار كلبًا، وقال لآخر: أنت امرأة بين الرجال، فصار امرأة، وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس[٢] فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد... ثم خرجت لتغتسل فى البحر فدحلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل

(١) (١/ ٢٤٩ - ٢٥١).

(٢) ارتمس من الارتماس وهو الانغماس.

النهر المعهود وهو رجل وإذا بثيابه موضوعة كما وضعها، فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين بغيبته لقصر الزمان، وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه فى عالم الملك، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت وأنكرها جماعة فأتيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة، مع أنه لم يمض فى بلدها قدر ساعة، أو من قبيل البسط فى الدهر من غير تصرف فى الزمان إن كان وقوعه فى الملكوت، وفوق البرزخ عالم المثال، وله التصرف فى البرزخ والطبع، وفوقه عالم النفوس الكليات المُعَبَّرُ عنها بالمدبرات أمرًا، وفوقه الأرواح المُعَبَّرُ عنها بالصافات صفا؛ ويعبر عنها فى لسان الإشراقيين بأرباب الأنواع وأرباب الطلسمات، وفوقها العقول المُعَبَّرُ عنها بالمقربين، وفوقها الكرسى، وفوقه العرش، وهو سرير الملك المتعال، وهما بين الوجوب والإمكان لا واجبان ولا ممكنان، بل فوق الإمكان وتحت الوجوب، وكل من تلك العوالم له الإحاطة والتصرف والحكومة على جميع ما دونه، فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار ما دونه بحكمة، وذهب عنه حكم نفسه.

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم، وله مراتب بإزاء تلك العوالم، وكل مرتبة عالية لها الحكومة على ما دونها من غير فرق، كما نشاهده من حكومة النفس على البدن والقوى، لكن تلك المراتب فى أكثر الناس بالقوة، وما بالفعل من النفس المجردة التى هى بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف، بحيث لا يمكنها التصرف فى بدنها زائدًا على ما جعله الله فى جبلتها، فكيف بغير بدنها؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما فى أكثر الأنبياء والأولياء، أو جميعها كما فى خاتم الأنبياء وصاحبى الولاية الكلية، كان لهم التصرف فى أبدانهم بأى نحو شاءوا، وفى سائر أجزاء العالم، كما روى عن الأنبياء والأولياء من طى المكان والزمان، والسير على الماء والهواء، ودخول النار، وإحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وقلب الماهيات، وغير ذلك مما لا ينكر تمامها لكثرتها، وتواتر الأخبار بمجموعها وإن كان آحادها غير متواترة، وأما التصرف فى البدن الطبيعى بحيث يخرجه عن حكم الإمكان ويدخله فى عالم العرش الذى هو فوق الإمكان وفوق عالم العقول والملائكة المقربين، كما روى

أن جبريل تخلف عن الرسول ﷺ فى المعراج، وقال: لو دنوت أنملة لاحترقت، مع أنه من عالم العقول المقربين، فهو من خواص خاتم الكل فى الرسالة والنبوة والولاية، وهو من خواص نبينا ﷺ لا يشاركه فيه غيره لا نبى مرسل ولا خاتم الأولياء، ولذلك جعلوا المعراج الجسمانى بالكيفية المخصوصة من خواصه ﷺ، ولما كان المعراج بتلك الكيفية أمرًا لا يتصور أمر فوقه من الممكن، وكان لا يتيسر إلا إذا غلب العالم الذى فوق الإمكان على البدن الطبيعى، ولا تتيسر تلك الغلبة بسهولة ولكل أحد وفى كل زمان، قالوا: إن المعراج للنبى ﷺ كان مرتين؛ مع أنه نسب إلى بعض العرفاء أنه قال: إنى أعرج كل ليلة سبعين مرة، والمعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن.

إذا تقرر ذلك نقول: إنه عرج ببدنه الطبيعى وعليه عباءة إلى بيت المقدس، ومنه إلى السموات، ومنها إلى الملكوت، ومنها إلى الجبروت، ومنها إلى العرش الذى هو فوق الإمكان، وفى هذا السير تخلف جبريل عنه ﷺ؛ لأنه كان من عالم الإمكان، ولم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان؛ لأن الملائكة كل له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان، ولم يكن منه ذلك المعراج إلا مرتين كما فى الأخبار، ولا يلزم منه خرق السماوات؛ لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت ـ ولا استغراب فى عروج البدن الطبيعى إلى الملكوت والجبروت ـ ولسقوط حكم الملك بل حل الإمكان عنه مع بقاء عينه، ولا غرو فى كثرة وقائعه فى المعراج؛ فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧) وقال أيضًا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج: ٤) فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة...»[١]. اهـ.

ومثلاً عن تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحجر: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ يقول ما نصه: «اعلم أنه قد يطلق الشىء ويراد به ما يساوق الموجود، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه، وقد يطلق ويراد به المشىء وجوده، فلا يشمل الحق الأول، ولا حضرة الأسماء ولا حضرة الفعل الذى هو مبدأ إضافته، ويشمل الممكنات كلها

---

(١) (١/ ٤١٩).

من حضرة العقول المعبر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقربين، وحضرة الأرواح المعبر عنها بأرباب الأنواع والصافات صفًا، وحضرة النفوس الكلية المعبر عنها بالأرواح الكلية المحفوظة والمدبرات أمرًا، وحضرة النفوس الجزئية المعبر عنها بألواح المحو والإثبات وبعالم المثال باعتبارين، ويشمل موجودات عالم الطبع تمامًا، وكل ما فى تلك الحضرات له حقيقة فى حضرة الأسماء وحقيقة فى حضرة الفعل والإضافة الإلهية الإشراقية، وكل ما فى حضرة الفعل له حقيقة أيضًا فى حضرة الأسماء، وكل ما فى حضرة الأرواح له حقيقة فى حضرة الأقلام، وحقيقة فى حضرة الفعل، وحقيقة فى حضرة الأسماء، وهكذا حضرة النفوس الكلية وما فيها، وحضرة النفوس الجزئية وما فيها، وعالم الطبع وما فيه، وبعبارة أخرى: كل دان له صورة بالاستقلال فى العالى، وصورة بالاستقلال فى عالى العالى، وصورة بتبع العالى فى عالى العالى، فلكل شىء من الممكنات حقائق فى حضرة الأسماء استقلالاً وتبعًا، وهكذا فى حضرة الفعل، وهكذا فى حضرة الأقلام إلى عالم المثال، وكل تلك الحضرات من حيث إنها عوالم مجردة عن المادة وأغشيتها، تسمى عند الله، ولدن الله؛ لحضورها فى محضره، ولما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير والتبدل كالأشياء النفسية المخزونة المحفوظة، سماها تعالى بالخزائن، فكل ما فى عالم الملك له حقيقة فى عالم المثال، ينزله ـ تعالى شأنه ـ من عالم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله وحين استعدادها، وهكذا من النفوس الكلية إلى عالم المثال، وهكذا الأمر فى العالى والأعلى إلى حضرة الأسماء، ولما كان موجودات عالم الملك متجددة بالتجدد الذاتى، بمعنى أنها كل آن فانية عن ذواتها، وموجودة بموجدها كما حقق فى محله، فما من شىء مما فى عالم الملك إلا ويفنى آنًا فآنًا، وينزله تعالى من خزائنه آنًا فآنًا، فلذلك قال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾»(١).

آل البيت والأمم السابقة:

ومما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمدًا ﷺ وآل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم، ويتوسلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم.

---

(١) (١/ ٤٠٢، ٤٠٣).

وهذه الروايات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التى تسلطت على عقول أولئك القوم، ومن هذه الروايات ـ مثلاً ـ ما ذكره المؤلف فى قصة قتيل بنى إسرائيل المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ الآيات إلى آخر القصة، من أن موسى جمع أماثل القبيلة التى وجد القتيل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ما قتلناه ولا علمنا له قاتلاً [(١)].

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذه البقرة المذكورة بأوصافها فى القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله فى منامه محمداً وعليّاً وطيبى ذريتهما فقالا: إنك لنا محبّا مفضلاً، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك فى الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله يلقنها ما يغنيك وعقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته؛ فقالوا: بكم تبيع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين والخيار لأمى، قالوا: رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا: نعطيك دينارين، فأخبر أمه، فقالت: ثمانية. . . فما زالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، ويرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر ما يكون دنانير، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون[(٢)].

وبعد ذلك بقليل يقول: «وفى تفسير الإمام أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا: افتقرت القبيلة، وانسلخنا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا ﷺ، فأوحى الله إليه: ليذهب رؤساؤهم إلى خربة بنى فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ما هناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة ما دفع، لتعود أحوالهم على ما كانت، ثم ليتقاسموا بعد ذلك ما يفضل وهو خمسة آلاف ألف دينار على قدر ما دفع كل واحد منهم، لتتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله، واعتقادهم لتفضيلهم»[(٣)].

كما يروى «أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبى محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب، وأن القتيل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يبقيه فى الدنيا متمتعاً بابنة عمه، ويجزى عنه أعدائه، ويرزقه رزقًا كثيراً طيبًا،

---

(١) (١/ ٥٧). (٢) (١/ ٥٨). (٣) (١/ ٥٨).

فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التى عاشها قبل ذلك، وعاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعًا بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعًا معًا، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين»[(١)].

قصص القرآن:

وإنا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه: أن القصص القرآنى وما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل المرموزات التى رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، كما يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلا بد وأن يتحير فيها، وليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، والمقصود منها بمجرد قوته البشرية: فعندما تكلم على قصة آدم فى أول البقرة وجدناه يقول: «ولما كان قصة آدم وخلقته، وأمر الملائكة بسجدته، وإباء إبليس عن السجود، وهبوطه من الجنة، وبكائه فى فراق الجنة وفراق حواء، وخلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، وغروره بقول الشيطان وحواء، وكثرة نسله، وحمل حواء فى كل بطن ذكراً وأنثى، وتزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، وقد كثر ذكره فى كتب السلف خصوصًا كتب اليهود وتواريخهم، ووردت أخبارنا مختلفة فى هذا الباب اختلافًا كثيراً، مرموزاً بها إلى ما رمزوه، ومن أراد أن يحملها على ظاهرها تحير فيها، ومن رام أن يدرك المقصود بقوته البشرية والمدارك الشيطانية منها طرد عنها، ولم يدرك منها إلا خلاف مدلولها»[(٢)]. .

وبعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأمور المرموز إليها فى القصة، لا بقوته البشرية؛ فإنها عاجزة عن إدراكها كما يقول، بل بقوته الروحية التى تستلهم المعارف من الله، وذلك حيث يقول فى أثناء تفسيره للقصة نفسها: «اعلم أن قصة خلق آدم وحواء من الطين ومن ضلعه الأيسر، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن السجدة، وإسكان آدم وحواء الجنة، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها، ووسوسة إبليس لهما، وأكلهما من الشجرة المنهية، وهبوطهما، من المرموزات المذكورة فى كتب الأمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقًا، فالمراد بآدم فى العالم

---

(١) (١/ ٥٨).

(٢) (١/ ٤٢).

الصغير: اللطيفة العاقلة الآدمية، الخليفة على الملائكة الأرضيين، وعلى الجنة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع، المسجودة للملائكة، المخلوقة من الطين، الساكنة فى جنة النفس الإنسانية، وهى أعلا من مقام النفس الحيوانية المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذى يلى النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية، والمراد بالشجرة المنهية: مرتبة النفس الإنسانية التى هى جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية، والمراد بالحية واختفاء إبليس بين لحييها: القوة الواهمة؛ فإنها لكونها مظهراً لإبليس، تسمى بإبليس فى العالم الصغير، ووسوسته تزيينها ما لا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء، وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية، وهبوط الحية وذريتهما: عبارة عن تنزلهما عن مقام التبعية لآدم؛ فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعته، وشرافتها باستخدام آدم لها شرافته، وهبوط الواهمة كان هبوطًا له، وإذا أريد بالشجرة: النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار؛ فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار والحبوب، وأصناف الأوصاف والخصال؛ لأن الحبوب والثمار وإن لم تكن بوجود ذاتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها، فتعيين تلك الشجرة بشىء من الحبوب والثمار، والعلوم والأصناف بيان لبعض شئونها، روى فى تفسير الإمام: أنها شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه، فقال الله تعالى: «لا تقربا هذه الشجرة... شجرة العلم؛ فإنها لمحمد وآله دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم، ومنها ما كان يتناوله النبى ﷺ، وعلى، وفاطمة، والحسن، والحسين بعد إطعامهم المسكين، واليتيم، والأسير، حتى لم يحسوا بجوع، ولا عطش، ولا تعب، ولا نصب، وهى شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعًا من الثمار، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر، والعنب، والتين، والعناب، وسائر أنواع الثمار، والفواكه والأطعمة، فلذلك اختلف الحاكون... فقال بعضهم: برة، وقال آخرون: هى الشجرة التى من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم، ومن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربه.

أقول: آخر الحديث يدل على ما قالته الصوفية من أن السالك ما لم يتم سلوكه، ولم ينته إلى مقام الفناء، ولم يرجع إلى الصحو بعد المحو بإذن الله، لم يجز له الاشتغال بالكثرات ومقتضيات النفس زائدًا على قدر الضرورة، وشجرة علم محمد وآل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة والواحدة»(١).

وفى سورة البقرة أيضًا عندما تكلم عن قصة هاروت وماروت يقول: «اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل، وأخذها المتأخرون بطريق الأسمار، وأخذوا منها ظاهرها الذى لا يليق بشأن الأنبياء، وورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسمارًا نظرًا إلى ما رمزها الأقدمون، وأمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظرًا إلى ظاهر ما أخذها العوام، وتصديقها نظرًا إلى ما رمزوا إليه. . . »(٢).

وفى أول سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الآية، يقول: «لما كان تلك الحكاية وأمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء والأولياء والحكماء التابعين لهم، وحملها العوام من الناس على ظاهرها، اختلفت الأخبار فى تصديقها وتقريرها وتكذيبها وتوهينها فإن فى كيفية خلقه آدم وتناسلهما وتناكحهما وتناكح أولادهما، وكذا فى قصة هاروت وماروت، وقصة داود، وغير ذلك، اختلافًا كثيرًا فى الأخبار، واضطرابا شديدًا، بحيث يورث التحير والاضطرابات لمن لا خبرة له، حتى يكاد يخرج من الدين، ولكن الراسخين فى العلم يعلمون أن كلا من معادن النبوة ومحال الوحى صدر، ولا اختلاف فيها ولا اضطراب، جعلنا الله منهم، والله ولى التوفيق»(٣).

وفى سورة (ص) عند قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ...﴾ الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة، يقول بعدما ذكر قصة الفتنة: «وأمثال هذه، وأمثال روايات سلب ملك سليمان، وجلوس الشيطان على كرسيه، وكون ملكه منوطًا بخاتم، ليس إلا من الرموز التى رمزها الأقدمون، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة، ومفاهيمها العامية، ونسبوا إلى الأنبياء ما لا يليق أن ينسب إلى مؤمن، فكيف بكامل أو نبى؟»(٤).

---

(١) (١/ ٤٥، ٤٦).
(٢) (١/ ٦٧).
(٣) (١/ ١٩٠).
(٤) (٢/ ١٧٦).

الإمامـــــــة:

والمؤلف يقــرر فى تفسيره إمــامة على ﷺ، وخلافتــه للنبى ﷺ بدون فصل، فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ نجده يؤكـد أن الآية نازلة فى حق على ﷺ، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة، ويرد على من يخــالف ذلك بما يظهـر له من الدليل، كـما يبـين السر الذى من أجله ذكـر على بوصفه دون اسـمه، وذلك حيث يقول: (قد ورد من طريق العامـة والخاصة أن الولاية نازلة فى على حين تـصدق فى المسـجد فى ركوع الصـلاة بخاتمة أو بحلتـه التى كان قيمتها ألف دينار، ومفسرو العــامة لا ينكرون الأخبار فى كونها نازلة فى أمير المؤمنين وقد نقلوا بطرق عديدة من رواتهم أنها نزلت فى على، ومع ذلك يقولون فى تفسيرها: إن الآية نزلت بعـد النهى عن اتخاذ أهل الكتـاب أولياء، ولا شك أن المـراد بالأولياء هناك أولياء المعـاشرة، بقرينة المقابلة، وبـقرينة جمع المؤمنين، ولو كان المـراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التـصرف لصرح باسمه، أو لقـال: والذى آمن بالإفراد، وهم غافلون عن أنه لو صـرح باسمه، أو أفرد المـؤمن ـ مع الاتفاق فى أنها نازلة فى أمـير المؤمنين ـ لأسقطوه تمويهًا على عابدى عجلهم، فنقول: نسبة الولاية أولاً إلى الله، ثم إلى رسوله ﷺ وآله، ثم إلى الذين آمنوا، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التى فى قولـه تعالى ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ**﴾**(الأحـزاب: ٦)** لأن ولايـة الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول؛ بقرينة العطف، وبما هو معلوم من الخارج، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقـرينة العطف، وبقـرينة عـدم تكرار الولى، فإن المـراد أن الولاية ههنا أمر واحد مـترتب فى الظهور، فإن ولاية الرسول ليست شـيئًا سوى ولاية الله، وولاية الله تتحـقق بولاية الرسول، فهكذا ولاية الذين آمنوا، فإنهـا ولاية الرسول ﷺ وآله تظهـر فى ولاية الذين آمنوا على مـا قاله الشيعـة، ولو كان المـراد ولاية المعاشرة كان أولياؤكم بلفظ الجمع أولى، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الركوع يدل على أنهـا ليست ولاية المعاشرة، وإلا لكان جملة المـؤمنين فيها سواء، وليس كل المؤمنين متـصفين بالصفات المذكورة، على أنه لا خـلاف معتدًا فى

أنها نزلت فى على وصورة الأوصاف خاصة به، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاء فى حال الخضوع لله، لا فى حال بهجة النفس، لأنهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) بخلاف الفاعل من قبل النفس فإن شأنه الارتضاء بفعله، وتوقع المدح من الغير على فعله؛ لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون، ويحبون أن يحمدوا على ما لم يفعلوا، فضلاً عما فعلوا، واستمرار الصفات بحسب المعنى: لعلى وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم، وبحسب الصورة: ما كان أحد مصداقها إلا على نقلاً عن طريق العامة والخاصة، ووقع صدور الزكاة فى الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة، وفى نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف، فإنها ثابتة لله ذاتًا ولرسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله، وليس لأحد شركة فيها، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التى تكون بالمواضعة والاتخاذ، وإلا لم يكن للحصر وجه، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول: بل أنتم أولياء الله . . . إلخ، أو بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء، ولأن المراد بها ولاية التصرف التى كانت بالذات لله قال فى عكسه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ (المائدة: ٥٦) إشعارًا بأن الولاية السابقة هى ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها، ومن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطًا بالله وخلفائه، ومن صار مرتبطًا بالله صار من حزب الله، ومن صار من حزب الله كان غالبًا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المائدة: ٥٦) ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول: ومن يتخذ الله، أو ومن صار وليًا لله، والحاصل: أن فى لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف، وأنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائنًا من كان، متعددًا أو منفردًا، سواء قلنا نزلت فى على أو لم نقل، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه، ونزلت الآية فى حقه، والمراد بالذين آمنوا ههنا، هم الموصوفون فى الآية السابقة، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى»(١).

---

(١) (١/ ١٢٤).

وفى سورة المائدة أيضًا عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ الآية، نجده يدعى ـ كغيره من الإمامية ـ أن القراءة الصحيحة كانت «بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على» ويحمل التبليغ المأمور به النبى على ذلك فحسب، ويمنع إرادة العموم، ويقيم الأدلة على ذلك ردًا على من يدعى العموم، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامة على ﷺ بنص القرآن الكريم[١].

الرجعة:

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة، فلهذا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة ﴿... ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول: «وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها وصارت كالضرورى فى هذه الأمة، وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على أن الكواء فى إنكاره الرجعة»[٢].

تحريف القرآن:

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل فى القرآن، فإنا نجده عندما يصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يحاول أن يتخلص من هذا النص الذى يجبهه فيقول: «ولا ينافى حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقة التحريف فى صورة تدوينه، فإن التحريف إن وقع وقع فى الصورة المماثلة له كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ٧٩) وكما قال: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٨)»[٣].

---

(١) (١/ ٢٣٤ - ٢٤٧) وراجع ما كتبه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (١/ ٢٠٦ - ٢٠٨).

(٢) (١/ ٥٤).
فى الآية (٨٧) من سورة آل عمران، وفى الأصل تحريف وحذف وخلط بين الآيتين.

(٣) (١/ ٤٠١، ٤٠٢).

موقف المؤلف من الصحابة:

لم نلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا ما يدل صراحة على أنه يكفر أحدًا من الصحابة، كما لاحظنا على ملا محسن فى تفسيره، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحيانًا يقف من الآيات التى وردت فى شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفًا يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته، وأحيانًا ينسب إلى بعض الصحابة ما يكاد يكون تصريحًا منه بفسقهم أو كفرهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٤) من سورة آل عمران ﴿ . . . **وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ نراه يصرف لفظ (الشاكرين) عن عمومه ويريد منه خصوص على ونفر معه فيقول: (والمراد بالشاكرين ههنا: على ونفر يسير بقوا عند رسول الله ﷺ حين انهزم المسلمون) وهنا يروى رواية عليها دليل الواضع وسمته فيقول:

(روى عن الصادق: أنه لما انهزم المسلمون يوم أحد عن النبى ﷺ انصرف إليها بوجهه وهو يقول: أنا محمد رسول الله؛ لم أقتل ولم أمت، فالتفت إليه فلان وفلان فقالا: الآن يسخر بنا أيضًا وقد هزمنا، وبقى معه على وأبو دجانة رحمه الله، فدعاه النبى ﷺ فقال: يا أبا دجانة انصرف وأنت فى حل من بيعتك، فأما على فهو أنا، وأنا هو، فتحول وجلس بين يدى النبى وبكى وقال: لا والله، ورفع رأسه إلى السماء وقال: لا والله، لا جعلت نفسى فى حل من بيعتك، إنى بايعتك فإلى من أنصرف يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت؟ أو ولد يموت؟ أو دار تخرب ومال يفنى وأجل قد اقترب؟ فرقَّ له النبى ﷺ، فلم يزل يقاتل حتى قتل، فجاء به على إلى النبى فقال: يا رسول الله . . . أوفيت ببيعتى؟ فقال: نعم، وقال له النبى خيرًا، وكان الناس يحملون على النبى ﷺ الميمنة فيكشفهم على، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبى فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع، فجاء إلى النبى فطرحه بين يديه وقال: سيفى قد تقطع، فيومئذ أعطاه النبى ذا الفقار، ولما رأى النبى ﷺ اختلاج ساقيه من كثرة القتال، رفع رأسه إلى السماء وهو يبكى وقال: يا رب وعدتنى أن تظهر دينك وإن شئت لم يعيك، فأقبل على إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، أسمع دويًا شديدًا،

وأسمع: أقدم يا حيزوم، وما أهم أضرب أحدًا إلا سقط ميتًا قبل أن أضربه، فقال: هذا جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة، ثم جاء جبريل فوقف إلى جنب رسول الله ﷺ فقال: يا محمد... إن هذه لهى المواساة، فقال النبى ﷺ: إن عليّا منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكم... إلخ الحديث، ونزل ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ **(آل عمران: ١٤٥)**»[١]. اهـ.

ومثلاً نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤) وما بعدها إلى آخر سورة الليل ﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ يصعب عليه أن يعترف اعترافًا جازمًا بأن الأتقى مراد به الصديق رضي الله عنه كما يقول المفسرون من أهل السنة، كما نراه حريصًا على أن يكون علىٌّ هو أولى الناس بهذا الشرف، وهذا التنويه الإلهى، فلهذا نراه يقول ما نصه: «إن كانت الآيات نزلت فى رجل خاص فالمعنى عام، والأصل فيمن أعطى واتقى: على، وفيمن بخل واستغنى هو الثانى، وقيل المراد بمن أعطى: أبو بكر حيث اشترى بلالاً فى جماعة من المشركين وكانوا يؤذون فأعتقه، والمراد بالأشقى: أبو جهل وأمية ابن خلف»[٢].

وفى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...**﴾ الآية، يقول: «قد نقل فى تفاسير الخاصة والعامة أن الآيات نزلت فى عائشة» ثم يروى السبب المعروف لنا... ثم يقول: «ونقل عن الخاصة أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة، روى عن الباقر أنه قال: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا، فقالت له عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ عليّا وأمره بقتله، فذهب على ومعه السيف، وكان جريج القبطى فى حائط، فضرب على باب البستان، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب، فلما رأى عليّا عرف فى وجهه الغضب، فأدبر راجعًا ولم يفتح باب البستان، فوثب على على الحائط، ونزل إلى البستان واتبعه، وولى جريج مدبرًا،

---

(١) (١/ ١٦٦).

(٢) ص ٣١٦.

فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة وصعد على فى أثره، فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء، فانصرف على إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أمضى على ذلك أم أتثبت؟ قال: لا بل تتثبت، قال: والذى بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذى صرف عنا السوء أهل البيت»[١].

وفى سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى فى أولها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...**﴾ الآيات إلى آخر القصة، نراه يذكر سبب نزولها فيقول: «قال القمى وغيره: سبب نزول الآيات أن رسول الله ﷺ كان فى بيت عائشة أو فى بيت حفصة، فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلمت حفصة بذلك فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله فى يومى؟ وفى دراى؟ وعلى فراشى؟ فاستحيى رسول الله ﷺ فقال: كفى، فقد حرمت مارية على نفسى، وأنا أفضى إليك سرّا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت: نعم... ما هو؟ فقال: إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى، ثم بعده أبوك، فقالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأنى العليم الخبير، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبا بكر، فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له: إن عائشة أخبرتنى بشىء عن حفصة ولا أثق بقولها، فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة فقال: ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت ذلك وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم... قاله رسول الله ﷺ، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله ﷺ، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه السورة «وأظهره الله عليه» يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا من قتله و «عرف بعضه» أى خبرها وقال: لم أخبرت بما أخبرتك؟ «وأعرض عن بعض» يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هموا به من قتله»[٢].

---

(١) (٢/ ٦٦).

(٢) (٢/ ٣٧٨).

عتاب النبى ﷺ:

ويرى المؤلف ـ كغيره من الشيعة ـ أن ما ورد من الآيات مشتملاً على عتاب النبى ﷺ ؛ أو على التهديد والوعيد للنبى ﷺ على فرض وقوع المعصية منه إنما هو من قبيل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) والذى دفعه إلى ذلك، هو ارتفاعه بمقام النبوة عن أن يوجه إليه عتاب من الله، أو لوم وتهديد على فرض صدور المعصية.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٧٤، ٧٥) من سورة الإسراء ﴿ **وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** ﴾ نجده يقول: «وقد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) وورد أنها من فرية الملحدين، ولو كان الخطاب له ﷺ من غير كونه عن طريق إياك أعنى واسمعى يا جارة، ولم تكن فرية لم يكن فيها ازدراء به ﷺ بل يكون صدر الآية ازدراء بالملحدين، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته، يعنى أنهم ما أهملوا شيئًا مما يفتن به، ولو كان المفتون غيرك ولم يكن التثبيت من الله لفتن، وذيلها ببيان امتنانه عليه بأنه ثبته فى مثل هذا المقام»(١).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...** ﴾ الآية، يقول ما نصه: «وهذا على: إياك أعنى واسمعى يا جارة»(٢).

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَى...** ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿ **فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى** ﴾ يقول ما نصه: «وقد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله، لبعد مقامه عن العبوس والتولى عن الأعمى، وعلو مرتبته عن أن يصير معاتبًا بمثل هذا العتاب (أقول): لو كانت الآيات فيه والعتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه، ولم يكن منافيًا لما قاله تعالى فى حقه من قوله: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم: ٤) فإنه إقباله وإدباره، وعبوسه، واستبشاره، كان لله، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله، وإسماع كلماته لأعداء الله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه، لم يكن فيه نقص فيه وفى خلقه، وأما أمثال العتاب له ﷺ فإنها تدل على

---

(١) (١/ ٤٢٩).
(٢) (١/ ٤٢٧).

تفخيمه والاعتداد به، فإن كلها كانت بإياك أعنى واسمعى يا جارة، فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له، وكذا نسبة الله زراية عيب العبوس والقول له يكون متوجهًا إلى غيره فى الحقيقة».

الناحية الفقهية فى هذا التفسير:

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير: فإنها تظهر فيه بمظهر التأثر بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم، غير أن المؤلف يطوى الكلام طيّا، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية، ولا يشغل نفسه بكثرة الأدلة والبراهين، ولا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفيه، كما يفعل الطبرسى مثلاً.

نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...**﴾ الآية، يقول ما نصه: قد اختلفت الأخبار والأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، وحرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخة، وكذا فى الدوام والتمتع بهن، وقول النبى ﷺ وآله: إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها، ينفى كونها منسوخة (١).

المتعـــة:

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤ من سورة النساء ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ نجده يقول: «وفى لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل ـ على قراءة إلى أجل ـ دلالة واضحة على تحليل المتعة... ﴿**وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ**﴾ من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئًا من الفريضة ﴿**مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به، وعن الباقر: لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول: استحللتك بأجر آخر يرضى منها ولا تحل

---

(١) (١/ ٢٣٢).

لغيرك حتى تنقضى عدتهـا. . . وعدتها حيضتان ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فـحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم»(١).

فرض الرجلين فى الوضوء:

وعند تفسيره لقـوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ الآية، يقول: «﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالجر عطف على رءوسكم، وبالنصب على محل رءوسكم، وعطفه على وجوهكم مع جواز العطف على رءوسكم فى غاية البعد، غاية الأمر أنها فى هذا العطف مـحتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محـتاجة إلى البيان، ولم يكن رأينا مبـينًا للقرآن لاسـتلزامه الترجـيح بلا مرجح، بل المـبين: من نص الله ورسوله عليـه، لا من نصبوه لبيـانه، فإن نصب شخص إنسـانى لبيان القرآن وخـلافة الرحـمن ليس بأقل من نصب الأصنـام لعبـادة الأنام، أو العـجل المـصنوع للعـوام، وتفصـيل الوضوء وكيفـيته قد وصل إلينا مـفصلاً مبـينًا عن أئمتنا المعصـومين من الله ورسوله، وقد فصله الفقهاء ﷺ، فلا حاجة إلى التفصيل ههنا»(٢).

ميراث الأنبياء:

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس، ولكنا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التى استدل بها عـلماء مذهبه على أن الأنبياء يورثون المال مـوقفًا فيـه تلك المغالاة وهذا التطرف كـالذى وقفه الطبـرسى منها، بل نجده عندمـا فسر قوله تعالى فى الآيـة (٥) من سورة مريم ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي...﴾ يقول: «﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ فى الإرث الصورى من التضييع والنزاع والخلاف، أو فى الإرث المعنوى من الاختلاف وتضيـيع العباد، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للإجابة»(٣) هذا هو كل ما قاله فى هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يـقطع أن الآية فى الإرث الصورى دون المعنـوى، بل جوز صدقـها على كل منهما، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذى كان من الطبرسى عندما أراد أن يقصر الإرث فى الآية على الإرث الصورى.

---

(١) (١/ ٢٩٥). (٢) (١/ ٢٣٢). (٣) (٢/ ٢).

ونجده عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ الآية، يقرر أن الميراث هو ميراث ما ينبغى أن يرثه منه من الرسالة والعلم والملك والسلطنة، ثم يقول: «ولذلك حذف المفعول الثانى»(١) يقول هذا أيضًا ولا يحاول أن يخرج الآية عن ظاهرها وسياقها كما حاول غيره.

الغنائم:

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أى وجه كان، كما يرى أن الخمس يقسم بين ذوى القربى وهو الإمام، ويتامى آل البيت، ومساكينهم، وأبناء سبيلهم، وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التى هى أوساخ الناس.

يرى المؤلف هذا كله ويقرره فى تفسيره باختصار فيقول عند قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ الآية، ما نصه: «﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال، وإلا فهى اسم لكل ما استفاد الإنسان من أى وجه كان وأى شىء كان، فعن الصادق هى والله الإفادة يومًا بيوم ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وقد فسر ذوى القربى بالإمام من آل محمد؛ فإنه ذو القربى حقيقة، وفسر الثلاثة الأخيرة بمن كان من قربات الرسول، جعل ذلك لهم بدلا عن الزكاة التى هى أوساخ الناس تشريفًا لهم»(٢).

وفى سورة الحشر عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ...﴾ الآية، يقول: «﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ أى ذى قربى الرسول ﷺ، ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ من قرابات الرسول ﷺ، وقد خص فى الأخبار كل ذلك بأقرباء الرسول ﷺ»(٣).

---

(١) (١/ ٩٨). (٢) (١/ ٣١٨). (٣) (١/ ٢٦٦).

موقف المؤلف فى تفسيره من المسائل الكلامية:

وإنا لنجد المؤلف يتأثر بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية فيوافقهم عليها فى تفسيره، ويخالفهم فى بعض آخر منها بما يقول به أهل السنة، فمن المسائل التى يوافق فيها المعتزلة مثلاً:

رؤيـــة الله:

فهو ينكر جوازها ووقوعها، ويجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ نجده يقول ما نصه: (وورد أنه سئل الرضا كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران لا يعلم أن الله لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأل هذا السؤال؟ فقال: إن كليم الله علم أن الله منزه عن أن يُرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه وقربه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته وكان القوم سبعمائة ألف فاختار منهم سبعين ألفًا، ثم اختار منهم سبعة آلاف، ثم اختار منهم سبعمائة، ثم اختار منهم سبعين رجلاً لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم فى سفح الجبل، وصعد موسى إلى الطور وسأل ربه أن يكلمه ويسمعهم كلامه، وكلمه الله وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام ـ لا أن الله أحدثه فى الشجرة، ثم جعله منبعثًا منها ـ حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن بأن هذا الذى سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا، بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، فماتوا، فقال موسى: ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم؛ لأنك لم تكن صادقًا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم وبعثهم، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته، فقال موسى: يا قوم... إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى: يا رب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل، وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله إليه: يا موسى سلنى ما سألوك فلن آخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ وهو يهوى ﴿فَسَوْفَ

ترانى فلما تجلى ربه للجبل﴾ بآية ﴿جعله دكًا وخر موسى صعقًا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك﴾ يقول: رجعت إلى معرفتى بك عن جهل قومى ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ (الأعراف: ١٤٣) منهم بأنك لا تُرى»(١).

وفى سورة القيامة عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) ﴿وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة﴾ يقول: «﴿إلى ربها ناظرة﴾ أى إلى ربها المضاف لظهوره الولاية وصاحبها فى ذلك اليوم، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره، أى إلى آثاره ناظرة، أو منتظرة إلى ثواب ربها، روى عن أمير المؤمنين فى حديث «ينتهى أولياء الله بعدما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشرقًا، فيذهب كل قذى ووعث، ثم يؤمرون بدخول الجنة، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم، قال: فذلك قوله تعالى ﴿إلى ربها ناظرة﴾ وإنما يعنى بالنظر إليه، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى، وفى الخبر: والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فناظرة بم يرجع المرسلون﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة»(٢).

ومن المسائل التى يخالف فيها المعتزلة:

السحر:

فهو يقول به ويعترف بحقيقته ويوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر...﴾ الآية، حقيقة السحر وكيفية تأثيره فى المسحور وذلك حيث يقول: «... والسحر اسم لقول أو فعل أو نقش فى صفحة يؤثر فى عالم الطبع تأثيرًا خارجًا عن الأسباب والمعتاد، وذلك التأثير يكون بسبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية، أو بتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخر الساحر، وهذا أمر واقع فى نفس الأمر ليس محض تخييل كما قيل... وتحقيقه أن يقال: إن عالم الطبع واقع بين الملكوت السفلى والملكوت العلوى كما مر، وأن لأهل العالمين تصرفًا بإذن الله عالم الطبع بأنفسهم، أو بأسباب من قبل النفوس البشرية، وأن النفوس البشرية إذا تجردت من علائقها، وصفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية، وناسبت المجردات العلوية أو السفلية، تؤثر

---

(١) (١/ ٥٤). (٢) (٢/ ٢٩٤).

بالأسباب أو بغير الأسباب فى أهل العالمين بتسخيرها إياهم، وجذبها لهم إلى عالمها، وتوجيهم فى مراداتها شرعية كانت أو غير شرعية، وإذا كان التأثير كان من أهل العالم السفلى تسمى أسبابه سحرًا، وقد يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به سحرًا، وإذا كان من أهل العالم العلوى يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به معجزة وكرامة، وقد تتقوى فى الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير فى الأرواح، ويسمى ذلك التأثير والأثر أيضًا سحرًا ومعجزة، فالسحر هو السبب المؤثر فى الأرواح الخبيثة الذى خفى سببيته، أو تأثير تلك الأرواح وآثارها فى عالم الطبع بحيث خفى مدركها، ثم أطلق على كل علم وبيان دقيق قلما يدرك مدركه، ويطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر، ومنه ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ على وجه... فيستعمل على هذا فى المدح والذم»(١).

وفى الآية (٤) من سورة الفلق نجده يعترف أيضًا بالسحر ويروى أن الرسول سحر بيد لبيد بن الأعصم وذلك حيث يقول: «﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور والخيوط، وينفثن فيها، ويسحرن الناس بها، أو النساء اللاتى يفعلن ذلك... ثم ساق حديث سحر الرسول ﷺ»(٢).

وهناك مسائل أخرى يوافق فيها المعتزلة، ومسائل أخرى يخالفهم فيها ويوافق أهل السنة، ولا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجًا من كل طائفة، ومن أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل.

هذا... ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيرًا ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية، فتراه يذكر الأعاريب التى فى الآية، كما يهتم فى بعض النواحى بالقراءات وإن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نظم القرآن وأسلوبه.

وبالجملة، فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثيره بعقيدته الشيعية، ونزعته الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى... والكتاب مطبوع فى جزأين كبيرين، وموجود بدار الكتب المصرية.

---

(١) (١/ ٦٨).

(٢) (٢/ ٣٣٩).

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية) وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الإسماعيلية وعقائدهم وأغراضهم:

قلنا: إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقلنا: إنهم يلقبون بالباطنية أيضًا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور.

والحق أن هذه الطائفة لا يمكن أن تكون داخلة فى عداد طوائف المسلمين، وإنما هى فى الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لا تقهر، وأبصروا عزة المسلمين فتية لا تغلب ولا تكسر، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين، ورأوا أنه لا سبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار، فسلكوا طريق الاحتيال الذى يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم؛ ليطفئوا نور الله بأفواههم، وخفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

مؤسسو هذه الطائفة:

ظهرت بوادر هذه الفتنة، ونبتت نواة هذه الطائفة، زمن المأمون، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق، هم: عبد الله بن ميمون القداح، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق، ومحمد بن الحسين المعروف بذيذان، وجماعة كانوا يدعون (الجهاربجة)[1].

اجتمع هؤلاء النفر، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده، فلما خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم، ثم استفحل أمرها، واستطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين، وما زالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام[2].

---

(١) أى العلماء الأربعة.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦، والتبصير فى الدين ص ٨٣.

احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم:

رأى المؤسسون لمبادئ الباطنية أنه لا طاقة لهم بالوقوف فى وجه المسلمين صراحة وجهارًا، فاحتالوا ـ كما قلنا ـ على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل، فاندسوا بين المسلمين باسم الحدب على الإسلام، وتلفعوا بالتشيع والمولاة لأهل البيت، وتظاهروا بالورع الكاذب، وجعلوا ذلك كله ستارًا لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب فى العقيدة والسياسة.

ومن المحزن أن يدعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين، فيلقى هذا الادعاء رواجًا وقبولاً من أناس ضعفاء أغمار، غرهم التباكى على آل البيت والتحزن عليهم، فتحركت أحقاد دفينة، وثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها.

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين، ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة، فجعلوا هدفهم الأول: الاحتيال على الطعام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد، وتدرجوا فى وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب وهى ما يأتيك:

مراتب الدعوة عند الباطنية:

أولاً: الذوق: وهو تفرس حال المدعو، هل هو قابل للدعوة أو لا؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر فى السبخة، أى دعوى من ليس قابلاً لها، ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج... أى فى موضع فيه فقيه أو متعلم.

ثانيًا: التأنيس: باستمالة كل أحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه، من زهد، وخلاعة، وغيرهما، فإن كان يميل إلى زهد زينه فى عينه وقبح نقيضه، وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها وقبح نقيضها، ومن رآه الداعى مائلاً إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده وقال: لهما حظ فى تأويل الشريعة، ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار، ثم إلى المدينة، وأفضى إليه فى الغار تأويل الشريعة... وهكذا حتى يحصل له الأنس به.

ثالثًا: التشكيك فى أصول الدين وأركان الشريعة: كأن يقول للمدعو: ما معنى الحروف المقطعة فى أوائل السور؟ ولمَ تقضى الحائض الصوم دون الصلاة؟ ولمَ يجب الغسل من المنى دون البول؟ ولم اختلفت الصلوات فى عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين، وبعضها ثلاثًا، وبعضها أربعًا؟... وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم.

رابعًا: الرابط: وهو أمران: **أحدهما**: أخذ الميثاق على الشخص بأن لا يفشى لهم سرا، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ (الأحزاب: ٧) وقوله: ﴿**وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا**﴾ (النحل: ٩١) **وثانيهما**: حوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه من الأمور التى ألقيت إليه؛ فإنها لا تعلم إلا من قبل الإمام.

خامسًا: التدليس: وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم.

سادسًا: التأسيس: وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه.

سابعًا: الخلع: وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية.

ثامنًا: السلخ: وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية، ثم بعد ذلك يأخذون فى تأويل الشريعة على ما تشاء أهواؤهم[1].

فأنت ترى أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين فى عقائدهم، وكأنهم رأوا أن القرآن ما دام موجودًا بين المسلمين ومحفوظًا عندهم يرجعون إليه فى أمور الدين، ويهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة، فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة، فأخذوا يجدون فى تأويل نصوص القرآن كما يحبون، وعلى أى وجه يرونه هدمًا لتعاليم الإسلام، الذى أصبح قذى فى أعينهم وشجى فى حلوقهم!!.

(١) راجع المواقف (٨/ ٣٨٩، ٣٩٠) والفرق بين الفرق ص ٢٨٢ وما بعدها.

وحرصًا منهم على أن تكون دعواهم فى تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه. . . قالو: «إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون، ودينه المخزون، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت؛ ولذلك قال عليه السلام ـ لما قيل: ومن أين يعرف الحق بعدك؟ ـ «ألم أترك فيكم القرآن وعترتى؟». . . وأراد به أعقابه، فهم الذين يطلعون على معانى القرآن»(١).

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجًا عند عقلاء المسلمين، ولم يجد غباوة فى عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين. . . وكيف يمكن أن يجد رواجًا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشريعة، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ؛ فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به، والباطن لا ضبط له، بل تتعارض فيه الخواطر، ويمكن تنزيله على وجوه شتى.

إنتاج الباطنية فى تفسير القرآن الكريم:

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابًا للوصول إلى أغراضهم، فإنا لم نقف لهم على كتب مستقلة فى تفسير كتاب الله تعالى، ولم نسمع أن واحدًا منهم كتب تفسيرًا جامعًا للقرآن كله، سورة سورة، وآية آية، ولعل السر فى ذلك: أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آية، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لا يستطيعون تذليلها ولا يقدرون على التخلص منها، وكل الذى وجدناه لهم فى تفسير القرآن أو تأويله على الأصح: إنما هو نصوص متفرقة فى بطون الكتب وتعطينا إلى حد ما صورة واضحة، وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم، ومبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

---

(١) فضائح الباطنية ص ٦.

وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين:

الأول: موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم.

والثانى: موقف الباطنية المتأخرين منه أيضًا.

ونريد بالمتقدمين: الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم فى الزمن، وبالمتأخرين: البابية والبهائية، وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذى من أجله عددناهم من قبيل الباطنية.

* * *

موقف متقدمى الباطنية
من تفسير القرآن الكريم

علمت أن الغرض الأول الذى تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه: هو العمل على هدم الشرائع عمومًا، وشريعة الإسلام على الخصوص، فكان لزامًا عليهم - وقد قاموا يحاربون الإسلام - أن يعملوا معاول الهدم فى ركن الإسلام المكين، وهو القرآن الكريم، وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولاً أصلب ولا أقوى على تنفيذ غرضهم من معول التأويل والميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله.

كتب عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنانى رسالة طويلة جاء فيها «... وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور، وإبطال الملائكة فى السماء، وإبطال الجن فى الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم»[١].

رأى هذا الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، ورأى رأيه أهل الباطن جميعًا فقالوا: «للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة فى الكتاب، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره، وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الحديد ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾»[٢].

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم، ثم اعجب ما شاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة على قاعدتهم التى قعدوها، ولست أدرى ما صلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة فى شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء.

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٨٠، وبمثل وهذه العبارة يستدل أبو منصور البغدادى على أنهم دهريون.
(٢) المواقف (٨/ ٣٨٨).

من تأويلات الباطنية القدامى:

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم فى شرحهم لكتاب الله تعالى، فكان من تأويلاتهم ما يأتى:

(الوضوء) عبارة عن موالاة الإمام، و (التيمم) هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحجة، و (الصلاة) عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى فى الآية (٤٥) من سورة العنكبوت: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، و (الغسل) تجديد العهد ممن أفشى سرّا من أسرارهم من غير قصد، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى (الاحتلام) و (الزكاة) عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين، و (الكعبة) النبى، و (الباب) على، و (الصفا) هو النبى، و (المروة) على، و (الميقات) الإيناس، و (التلبية) إجابة الدعوة، و (الطواف بالبيت سبعًا) موالاة الأئمة السبعة، و (الجنة) راحة الأبدان من التكاليف، و (النار) مشقتها لمزاولة التكاليف [(١)].

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا: (أنهار من لبن) أى معادن العلم... اللبن العلم الباطن، يرتفع به أهلها، ويتغذون به تغذيا يدون به حياتهم اللطيفة؛ فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم (وأنهار من خمر) هو العلم الظاهر (وأنهار من عسل مصفى) هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة [(٢)].

كذلك تجد الباطنية يرفضون المعجزات، ولا يعترفون بها للرسل، وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحى من الله، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء ملك وفى الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه، فتخلصوا منها بمبدئهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن، وأولوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم، فتأولوا (الملائكة) على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم، وتأولوا (الشياطين) على مخالفيهم، وتأولوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم

---

(١) المواقف (٨/ ٣٩٠).

(٢) فضائح الباطنية للغزالى ص ١٣.

السلام، فقالوا: (الطوفان) معناه طوفان العلم .... أغرق به المتمسكون بالسنة. و (السفينة) حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته، و (نار إبراهيم) عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية، و (ذبح إسحاق) معناه أخذ العهد عليه، و (عصا موسى) حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب و (انفلاق البحر) افتراق علم موسى فيهم عن أقسام، و (البحر) هو العلم و (الغمام الذى أظلهم) معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم، و (الجراد والقمل والضفادع) هى سؤالات موسى والتزاماته التى سلطت عليهم، و (المن والسلوى) علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى، و (تسبيح الجبال) معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين، و (الجن الذين ملكهم سليمان بن داود) باطنية ذلك الزمان، و (الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة، و (عيسى) له أب من حيث الظاهر، وإنما أراد بالأب المنفى: الإمام، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة، وزعموا - لعنهم الله - أن أباه يوسف النجار، و (كلامه فى المهد) اطلاعه فى مهد القالب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القالب، و (إحياء الموتى من عيسى) معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن، و (إبراؤه الأعمى) عن عمى الضلالة، و (الأبرص) عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين، و (إبليس وآدم) عبارة عن أبى بكر وعلى، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر، و (الدجال) أبو بكر، وكان أعورًا، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن، و (يأجوج ومأجوج) هم أهل الظاهر»[1].

بل بالغوا فقالوا: «إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة، فساسوا العامة بالنواميس والحيل، طلبًا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة»[2].

هذا... وإن مما زعمته الباطنية: أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة الحجر: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ وحملوا اليقين على معرفة التأويل.

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم، بحجة أن الأخ

(١) فضائح الباطنية ص ١٣.

(٢) الفرق بين الفرق ص٢٧٩.

أحق بأخته، والأب أولى بابنته... وهكذا، ولست أدرى على أى وجه تأولوا آية النساء التى حرمت ذلك، ومنعته منعًا باتا.

ويقول القيروانى فى رسالته التى أرسلها إلى سليمان بن الحسن: «... وينبغى أن تحيط علمًا بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم، كعيسى ابن مريم، قال لليهود: لا أرفع شريعة موسى، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلاً من السبت وأباح العمل فى السبت، وأبدل قِبْلَة موسى بخلاف جهتها... وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته، ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال: ﴿**الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ (الإسراء: ٨٥) لما لم يحضره جواب المسألة، ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة، ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهانًا قال له: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ (الشعراء: ٢٩) وقال لقومه: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾ (النازعات: ٢٤) لأنه كان صاحب الزمان فى وقته...».

ثم قال فى آخر هذه الرسالة: «... وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة فى حسنها، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته، وبنته من الأجنبى، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل، وهو الإله الذى يزعمونه، وأخبرهم بكون ما لا يرونه أبدًا من البعث من القبور، والحساب، والجنة، والنار، حتى استعبدهم بذلك عاجلاً وجعلهم له فى حياته، ولذريته بعد وفاته خولاً، واستباح بذلك أموالهم بقوله ﴿**لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ (الشورى: ٢٣) فكان أمره معهم نقدًا، وأمرهم معه نسيئة، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج».

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة: «... وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على

الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئًا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم»[١].

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التى يتوصلون بها إلى هواهم النفسى، ومأربهم الشخصى، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه به، وتتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه، يقولون له: لا نظهره إلا بتقديم خير عليه، فيطلبون مائة وتسعة عشر درهمًا من السبيكة الخالصة، ويقولون: هذا تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (المزمل: ٢٠) فالحاء والسين والنون والألف إذا جمع عددها بحساب الجمل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر»[٢].

ومن ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجمل؟ . . . اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله!!.

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفى وجود الإله الحق، والنبى المرسل محمد ﷺ؛ ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف، فنراهم يقولون للمبتدئ: «إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً ﷺ، فيستحسن المبتدئ هذا الكلام، ثم يقول له: أتدرى من محمد؟ فيقول: نعم. . . محمد رسول الله، خرج من مكة، وادعى النبوة، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة، فيقول له: ليس هذا الذى تقول إلا كقول هؤلاء الحمير - يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام - إنما محمد أنت، فيستعيذ السامع ويقول: لست أنا محمداً، فيقول له: الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وهؤلاء الحمير يقولون: من مكة. . . فيقول له الغر الغمر: على أى معنى تقول أنا محمد؟ فيقول: خلقك وصورك خلقة محمد، فالرأس بمنزلة الميم، واليدان بمنزلة الحاء، والسرة بمنزلة الميم، والرجلان بمنزلة الدال، وكذلك أنت على أيضًا، عينك هى العين، والألف هى اللام، والفم الياء»[٣].

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) التبصير فى الدين ص ٨٧.

(٣) التبصير فى الدين ص ٨٧، ٨٨.

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن، أما ما يدعى من وجود رسول اسمه محمد، فهذا ظاهره غير مراد.

ولأجل أن يوهمه أيضا بأنه لا إله موجود على الحقيقة، وما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة، نجده يقول للمبتدئ: إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك، ويؤولون عليه قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (قريش: ٣) ويقولون: الرب هو الروح والبيت هو البدن.

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأنه هو الذى كلم موسى بقوله ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ (طه: ١٢) وفى هذا يروى لنا البغدادى صاحب (الفرق بين الفرق) قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وفقه الله لتركها والرجوع لرشده... يحكى هذا الرجل قصته للبغدادى فيقول: «إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرجات، واستعبدوهم بشرائعهم، قال الحاكى البغدادى: ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له: ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ ثم قال: فقلت: سخنت عينك، تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق العالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلهًا مرسلاً لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذبًا، فالذى زعمت أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لا تفلح أبدًا، وندم على إفشاء أسراره إلىَّ وتبت من بدعتهم»[1].

فانظر إليهم - لعنهم الله - كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل!! أليس هذا غلوًا فى الإلحاد؟ وإغراقًا فى الكفر والعناد؟.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم، ويفضح أسرارهم وخباياهم، وهو لمحمد بن مالك اليمانى أحد علماء القرن الخامس الهجرى، ولا أريد

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٨٨.

أن أطيل على القارئ بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب، ضمنها المصنف ما شهده بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهراً بدخوله فى زمرتهم، ليقف بنفسه على ما بلغه عنهم من أباطيل وأضاليل، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات؛ لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل، وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل!!.

مقالة محمد بن مالك اليمانى فى الباطنية:

يقول محمد بن مالك اليمانى: «أول ما أشهد به وأشرحه، وأبينه للمسلمين وأوضحه، أن له - يريد على بن محمد الصليحى زعيم باطنية اليمن فى وقته - نواباً يسميهم الدعاة المأذونين، وآخرين يلقبهم المكلبين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد؛ لأنهم ينصبون للناس الحبائل، ويكيدونهم بالغوائل، وينقبضون عن كل عاقل، ويلبسون على كل جاهل، بكلمة حق يراد بها الباطل، ويحضونه على شرائع الإسلام، من الصلاة والزكاة والصيام، كالذى ينثر الحب للطير ليقع فى شركه، فيقيم أكثر من سنة يمنعون به، وينظرون صبره، ويتصفحون أمره، ويخدعونه بروايات عن النبى ﷺ محرفة، وأقوال مزخرفة، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه، والانقياد بما يأمرونه، قالوا حينئذ: اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر، وتدبر القرآن ورموزه، واعرف مثله وممثوله، واعرف معانى الصلاة والطهارة، وما روى عن النبى ﷺ بالمرموز والإشارة، دون التصريح فى ذلك والعبارة، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة، لممثولات محجوبة، فاعرف الصلاة وما فيها، وقف على باطنها ومعانيها، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه، فيقول: عم أسأل؟ فيقول: قال الله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة: ٤٣) فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة، وكذلك الصلاة، من صلاها مرة فى السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار، وأيضاً فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان، والزكاة زكاتان، والصوم صومان، والحج حجان، وما خلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله

باطن، يدل على ذلك: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٠) و ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ (الأعراف: ٣٣) ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ما تساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به، فلا يعرفه إلا القليل، من ذلك قوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠) وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص: ٢٤) وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣) فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم.

و (الصلاة) و (الزكاة) سبعة[1] أحرف دليل على محمد وعلىٍّ صلى الله عليهما؛ لأنهما سبعة أحرف، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة، فيوهمون عَلَى من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبى ﷺ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة؛ لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له: قرب قربانًا يكون لك سلمًا ونجوى، ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة، ويضع عنك هذا الإصر، فيدفع اثنى عشر دينارًا، فيقول ذلك الداعى: يا مولانا، إن عبدك فلانًا قد عرف الصلاة ومعانيها، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر، وهذا نجواه اثنا عشر دينارًا، فيقول: اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون: الحمد لله الذى وضع عنك ﴿وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (الشرح: ٢، ٣). . . ثم يقول له ذلك الداعى ـ الملعون ـ بعد مدة: قد عرفت الصلاة وهى أول درجة، وأنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات، فاسأل وابحث، فيقول: عم أسأل؟ فيقول له: سل عن الخمر والميسر اللذين نهى الله تعالى عنهما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على على، وأخذهما الخلافة دونه، فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام؛ لأنه مما أنبتت الأرض، ويتلو عليه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢) إلى آخر الآية، ويتلو عليه: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ

---

(١) لعله عدهما سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين.

فِيمَا طَعِمُوا ﴾ (المائدة: ٩٣) إلى آخر الآية، والصوم : الكتمان، فيتلو عليه ﴿ **فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ** ﴾ (البقرة: ١٨٥) يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفًا من الظالمين، ويتلو عليه : ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ (مريم: ٢٦) فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال: فلن أطعم اليوم شيئًا، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغيانًا وكفرًا، وينهمك إلى قول ذلك الداعى المعلون؛ لأنه أتاه بما يوافق هواه، والنفس أمارة بالسوء... ثم يقول له: ادفع النجوى تكن له سلمًا ووسيلة حتى تسأل مولانا يضع عنك الصوم، فيدفع اثنى عشر دينارًا، فيمضى به إليه فيقول: يا مولانا عبدك فلان، قد عرف معنى الصوم على الحقيقة، فأبح له الأكل فى رمضان، فيقول له: قد وثقته وأمنته على سرائرنا؟ فيقول له: نعم، فيقول: قد وضعت عنه ذلك، ثم يقيم بعد ذلك مدة، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له: قد عرفت ثلاث درجات، فاعرف الطهارة ما هى، ومعنى الجنابة ما هى فى التأويل، فيقول له: فسر لى ذلك، فيقول له: اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب، وأن المؤمن طاهر بذاته، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره، وأن الجنابة هى موالاة الأضداد أضداد الأنبياء والأئمة، فأما المنى فليس بنجس؛ منه خلق الله الأنبياء، والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجسًا وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب؛ لأنهما نجسان، وإنما معنى ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا** ﴾ (المائدة: ٦) معناه: وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وقوله: ﴿ **فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ** ﴾ (الطارق: ٥، ٦) فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعى أن يدفع اثنى عشر دينارًا، ويقول: يا مولانا عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول: اشهدوا أنى قد حللت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعى المعلون: قد عرفت أربع درجات، وبقى عليك الخامسة، فاكشف عنها؛ فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك، ويتلو عليه ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ**

أَعْيُنٍ﴾ (السجدة: ١٧) فيقول له: ألهمنى إياها ودلنى عليها، فيتلو عليه ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق: ٢٢) ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا؟ فيقول: وكيف لى ذلك؟ فيتلو عليه ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ (الليل: ١٣) ويتلو عليه ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢) والزينة ههنا: ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ (النور: ٣١) والزينة مستورة غير مشهورة، ثم يتلو عليه ﴿وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (الواقعة: ٢٢، ٢٣) فمن لم ينل الجنة فى الدنيا لم ينلها فى الآخرة؛ لأن الجنة مخصوص بها ذو الألباب، وأهل العقول دون الجهال؛ لأن المستحسن من الأشياء ما خفى؛ ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، وسميت الجن جنًا لاختفائهم عن الناس، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس المجن لأنه يستتر به، فالجنة هاهنا: ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقول، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكًا، ويقول لذلك الداعى الملعون: تلطف فى حالى، وبلغنى إلى ما شوقتنى إليه، فيقول: ادفع النجوى اثنى عشر دينارًا تكون لك قربانًا وسلمًا، فيمضى به فيقول: يا مولانا... إن عبدك فلانًا قد صحت سريرته، وصفت خبرته وهو يريد أن تدخله الجنة، وتبلغه حد الأحكام، وتزوجه الحور العين، فيقول له: قد وثقته وأمنته؟ فيقول: يا مولانا قد وثقته وأمنته وخبرته فوجدته على الحق صابرًا، ولأنعمك شاكرًا، فيقول: علمنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبى مرسل، أو ملك مقرب، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها، فيقول: سمعًا وطاعة لله ولمولانا، فيمضى به إلى بيته، فيبيت مع زوجته، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذ من فضل مولانا، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعى الملعون، ثم يقول له: لا بد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا، فادفع قربانك، فيدفع

اثنى عشر ديناراً ويصل به ويقول: يا مولانا... إن عبدك فلانًا يريد أن يشهد المشهد الأعظم، وهذا قربانه، حتى إذا جن الليل، ودارت الكئوس وحميت الرءوس، وطابت النفوس، أحضر جميع أهل هذه الدعوى المعلونة حريمهم، فيدخلن عليهم من كل باب، وأطفئوا السراج والشموع، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه فى يده، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعى الملعون وجميع المستجيبين، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له، فيقول له: ليس هذا من فضلى، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم، ووضع عنكم أوزاركم، وحط عنكم آصاركم، ووضع عنكم أثقالكم، وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥)».

قال محمد بن مالك ـ رحمه الله تعالى: «هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم، والله تعالى لهم بالمرصاد، والله تعالى علىَّ شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم، والله يشهد علىَّ بجميع ما ذكرته عالم به، ومن تكلم عليهم بباطل فعليه لعنة الله، ولعنة اللاعنين، والملائكة، والناس أجمعين، وأخزى الله من كذب عليهم، وأعد له جهنم وساءت مصيراً، ومن حكى عنهم بغير ما هم عليه فهو يخرجة من حول الله وقوته إلى حول الشيطان وقوته...»[١]. اهـ.

وبعد... ألست ترى معى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان، وإنما هى أوهام وأباطيل: غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين، وليدخلوهم فى زمرة الملحدين وحزب الشياطين؟ أعتقد ذلك، وأظن أن سؤالاً يدور بخلد القارئ هو: كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعانى التى نقلت عنهم للفظ الواحد؟ أليس هذا دليلاً على عدم صحة كل ما ينسب إليهم؟... والحق أن السؤال وارد، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالى من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلمتهم، ويتفاوت نقل المذهب عنهم[٢].

---

(١) كشف أسرار الباطنية ص ١١ - ١٦.
(٢) فضائح الباطنية ص ٨.

موقف متأخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

تمهيد: فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن وتعدد ألقابهم:

قلنا: إن الباطنية يعرفون بأسماء عدة، وقلنا: إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند، ويعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية، وزعيمهم أغاخان الزعيم الإسماعيلى المعروف، ويوجدون فى بلاد الأكراد ويعرفون (بالعلوية) حيث يقولون: على هو الله، ويوجدون فى تركيا ويعرفون (بالبكداشية) وفى مصر جماعة من البكداشية من أصل ألبانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى[1]، ويوجدون فى بلاد العجم ويعرفون (بالبابية) ويوجودون فى فلسطين ويعرفون (بالبهائية) ومنهم جماعات فى بلاد متفرقة[2]، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى القاديانية، وهى أحدث فرقهم عهدًا، وأقربها ظهورًا.

هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم، يتفق مع مبدئها ومشربها.

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم، غير أننا لم نقف على شىء من ذلك، اللهم إلا شيئًا يسيرًا للبابية والبهائية. . .

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفة[3] وموقفها من كتاب الله تعالى، لأن ما وصلنا عنها ـ وإن قل ـ فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم.

واعتمادنا فى كل ما نكتب: على بعض الكتب التى وصلتنا عنهم، وعلى ما نشر فى المجلات العلمية من البحوث التى تدور حولهم، فنقول وبالله التوفيق:

---

(١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعة البكداشية من مصر وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم.

(٢) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢، طرد البهائيين من مصر، والاستيلاء على مركزهم العام وتحويله إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم، وقد تم ذلك فى حفل عام سنة ١٩٦١م.

(٣) البابية والبهائية فى واقع الأمر طائفة واحدة، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها: بابية، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثانى، فقيل لها: بهائية كما هو موضح بعد.

البابية والبهائية

كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهائية:

البابيـــــة:

نسبـة إلى الباب، وهو لـقب ميرزا على مـحمـد، الذى ابتدع هذه النحلـة، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الأول لها.

والبهائيــــة:

نسبة إلى بهاء الله، وهو لقب ميرزا حسين على، الزعيم الثانى للبابية، وإليه تنسب هذه الطائفة؛ باعتباره المؤسس الثانى لها.

وأصل نشأة هذه الطائفة: أن ميرزا على محمد، الملقب بالباب، والمولود فى سنة ١٢٣٥ هجرية، توفى عند والده مـيرزا محمد رضـا قبل فطامه، فربى فى حـجر خاله ميرزا سيد على، ونشأ معه فى مدينة شيراز بجنوب إيران، واشتغل معه بالتجارة، ولما بلغ سنة الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب - والبـاب عند الشيعة معـناه نائب المهدى المنتظر - وكـان ادعاؤه هذا فى سنة ١٢٦٠ هجـرية، وما لبث أن وصلت هـذه الدعوة إلى طائفة من الجـاهلين فصدقوا بـها، وتتابعوا عليـها، وكان عدد من صـدقه فى أول الأمر ثمانية عشر رجلاً، فسماهم بكلمة (حـى) لأن عدد حرفيها بحساب الجمل ثمانية عشـر، ثم أمر أتباعـه هؤلاء بالانتشار فى إيـران وبلاد العراق؛ يبشـرون به وبدعوته، وأوصاهم بكتمان اسـمه حتى يظهره هو بنفسه، ولمـا حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعـوته فى المجـمع الكبـير فـاشتـهر اسـمه، وذاعت دعـوته، فـثارت عليـه طوائف المسلمين، وقاموا فى سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل.

وقد عقـد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهـرت ما فى دعوته من غواية وضلال، فكفـره بعض العلماء، ورماه بعض آخر منهم بالجنون، فـاعتقله الوالى فى سجن شيراز، ثم فى سجن أصفهـان، ثم فى طهران، ثم فى أذربيجان، وفى عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفيهم، وقامت بينهم حرب

طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب، فعلق فى ميدان مدينة تبريز، وقتل رميًا بالرصاص، وذلك فى سنة ١٢٦٥ هجرية.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم فى شأن من ينوب عنه، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة، من قبيل النبوة، والوصاية، والولاية، وأمثالها، وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاة سنة ١٢٦٨ هجرية انتقامًا لزعيمهم الباب، ولما خاب سعيهم وفشلوا فى هذه المؤامرة، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابيين، وتسوقهم إلى التحقيق، فقتل من قتل، ونفى من نفى، وكان من بين زعمائهم فى هذا الوقت ـ وقت الاضطهاد ـ ميرزا حسين على الملقب فيما بعد بـ (بهاء الله).

بهاء الله:

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية، وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة فى وقته، فلما قام الباب واشتهر أمره صدقه بهاء الله، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية، وهى محاولة اغتيال ناصر الدين شاه، قبض على بهاء الله وسجن نحو أربعة أشهر، ثم أفرج عنه وأبعد إلى العراق، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية، ومكث بها اثنى عشر عامًا، يدعو الناس إلى نفسه، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب، وكان يشير إليه بلفظ (من يظهره الله) وهناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين، وتسموا حينئذ بالبهائيين، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تفضى إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين، فقررت الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة، فأرسل إليها ومكث بها نحوًا من أربعة أشهر، ثم نفى إلى أدرنة[1] ومكث بها نحوًا من خمس سنوات، ثم نفى منها إلى عكا من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، وبقى بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجرية، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس المولود سنة ١٨٤٤م والمتوفى سنة ١٩٢١م والملقب (عبد البهاء) فأخذ يدعو إلى هذا المذهب، ويتصرف

---

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه يحيى الملقب بصبح أزل ـ وكان ممن رفض دعوى أخيه، وأتباعه يعرفون بالأزلية ـ فتنة فى أدرنة، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة، فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا، ونفت يحيى وأتباعه إلى قبرص.

فيـه كيف يشاء، فلم يرض هذا الصنيع أتبـاع البهاء فـانشقوا عليـه، والتف فريق منهم حول أخيه الميرزا على، وألفوا كتبًا فى الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء[1].

الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى:

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريبًا، فإنا نجدها ليست بالفرقة المحدثة فى عقائدها وتعاليـمها، بل هى فى الحقيقة ونفس الأمر وليـدة من ولائد الباطنية، تغذت من ديانات قديمـة، وآراء فلسفية، ونزعـات سياسـية، ثم درجت تحذو حذو البـاطنية الأول، وتترسم خطاهم فى كل شىء، وتهذى فى كتاب الله، فـتأولته بمثل ما تأولوه؛ لتصرف عنه قلوبًا تعلقت به ونفوسًا اطمأنت إليه.

والذى يقرأ تاريخ الباطنية الأول، ويطلع على ما فى كـتبهم من خرافات وأباطيل، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح البـاطنيـة حلت فى جسم مـيرزا عـلى، وميـرزا حسـين على، فخرجت للناس أخيرًا باسم البابية والبهائية.

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية، وينفذون إلى عقول العامة بإظهـارهم الحب والتـشـيع، بل والانتـساب إلى آل الـبيت، ثم يـصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معـان باطنية لا يقبلها العقل، ولا تمتُّ إلى الدين بسبب، وعلى هذا الأسـاس قامت دعـوة البـابية والبـهـائية، وبمـثل هذه الوسـيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم، وإليك ما يوضح ذلك.

أولاً: فى الباطنيـة من يدعى النبوة لنفســه أو يدعيهـا لغيره، ومـيرزا على الملقب بالباب يدعى أنه رسـول للناس من قبل الله تعالى، وله كـتاب اسمه (البـيان) ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى، وقد جاء فى رسـالة بعث بها الباب إلى العلامة الآلوسى صاحب التفـسير المعروف، يدعوه فـيها إلى الإيمان به: (إننى أنا عبـد الله، قد بعثنى

---

(١) لخصنا هذا البـحث التاريخى من مقـال لأبى الفضائل الإيرانى منشـور بمجلة المقـتطف الجزء التاسع، السنة العـشرين، ومن مقال السيـد محمد الخـضر حسين منشور بـمجلة نور الإسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) العدد الخامس من السنة الأولى.

بالهدى من عنده) وسمى فى هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال: (ومن لم يدخل فى دين الله، مثله كمثل الذين لم يدخلوا فى الإسلام)[١].

ولا نعلم ماذا أجاب به الآلوسى على هذه الرسالة، وإن كنا نعلم رأيه فى هذه الطائفة عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة الأحزاب ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وذلك حيث يقول: «وقد ظهر فى هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية، لهم فى هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم فى سلك ذوى العقول، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق، حيث خذلهم - نصره الله - وشتت شملهم، وغضب عليهم - ﷺ - وأفسد عملهم، فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيرًا، ودفع عنه فى الدارين ضيمًا وضيرًا»[٢].

وكذل ادعى زعيمهم الثانى الملقب ببهاء الله: أنه رسول من عند الله، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض، وبين أيدينا كتاب بهاء الله، ويطلق عليه اسم (الكتاب) قرأنا فيه فوجدناه يقول:

«لعمر الله إن البهاء ما نطق عن الهوى، قد أنطقه الذى أنظق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار»[٣].

«لعمرى ما أظهرت نفسى، بل الله أظهرنى كيف أراد، إنى كنت كأحد من العباد، وراقدًا على المهاد، مرت على نسائم السبحان، وعلمنى علم ما كان، ليس هذا من عندى بل من لدن عزيز عليم، وأمرنى بالنداء بين الأرض والسماء، وبذلك ورد على ما ذرفت به دموع العارفين، ما قرأت ما عند الناس من العلم، وما دخلت المدارس، فاسأل المدينة التى كنت فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين»[٤].

«قل قد أتى المختار، فى ظل الأنوار، ليحيى الأكوان، من نفحات اسمه الرحمن، ويتحد العالم، و ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء»[٥].

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٨).
(٢) روح المعانى (٢٢/ ٣٩).
(٣) الكتاب ص ٧.
(٤) المرجع السابق ص ٩.
(٥) المرجع السابق ص ٣٥.

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكامًا خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية، فجعل السوم تسعة عشر يومًا من شروق الشمس إلى غروبها، وعين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى، بحيث يكون عيد الفطر عندهم يوم (النيروز) على الدوام، وفى كتاب البيان «... أيام معدودات، وقد جعلنا النيروز عيدًا لكم بعد إكمالها»[(١)].

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، ويقرر ذلك فى كتابه فيقول: «لو كان القديم هو المختار عندكم، لما تركتم ما شرع فى الإنجيل، بينوا يا قوم... لعمرى ليس لكم اليوم من محيص، إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله، ومن قبله الروح، ومن قبله الكليم، وإن كان ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره، فأنا أول المذنبين، لا أبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين»[(٢)].

وقرر البهاء أن الدين قسمان: عملى وروحانى، فالقسم الروحانى وهو مظاهر الألوهية والنبوة، غير قابل للتبديل، والقسم العملى، وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية، قابل للتغيير، وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليلة، وجعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو!! وفى هذا يقول: «إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطرى الأقدس»[(٣)] وسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق الشرعية والسياسية، وقرر عقوبات مالية للزنى والسرقة وغيرهما، ومنع التسرى، وحرم الزواج بأكثر من واحدة، وقيد لهم الطلاق وصعبه، وحجته فى هذا كله: أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم، فلا بد من دين جديد يوافق هذا العصر... عصر التقدم المادى العظيم، وهذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسايرة هذا العصر دون غيره[(٤)].

ثانيًا: منع الحسن بن الصباح وغيره من زعماء الباطنية، العوام من دراسة العلوم، والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة، وفعل الباب مثل ذلك فحرم فى كتابه (البيان)

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٩).
(٢) كتاب بهاء الله ص ٣٩.
(٣) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٩).
(٤) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين، وانظر المحاضرة التى ألقاها عبد العزيز نصحى عن البهائيين بدار جمعية الهدايا الإسلامية.

التعليم وقراءة كتب غير كتبه، فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم، وما فى أيديهم من كتب العلم... ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته، فنسخ ذلك التحجير، وذلك حيث يقول فى كتابه المسمى بـ (الأقدس) «قد عفا الله عنكم ما نزل فى البيان من محو الكتب، وآذنا بكم بأن تقرأوا من العلوم ما ينفعكم»(١).

ثالثًا: من الباطنية من يدعى حلول الإله فى بعض الأشخاص، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله فى إمامهم محمد بن إسماعيل، ونجد مثل هذه الدعوى متجلية فى بعض مقالات البابية، فهذا بهاء الله يقول فى الكتاب «لنا مع الله حالات نحن فيها هو، وهو نحن، ونحن نحن»(٢) وهذا عباس الملقب بعبد البهاء يقول: «وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجىء رب الجنود والأب الأزلى، ومخلص العالم الذى لا بد منه فى آخر الزمان، كما أنذر جميع الأنبياء، عبارة عن تجليه فى الهيكل البشرى، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى، إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيأوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم»(٣) يريد بهذا: أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على ما يزعم، وهذا أبو الفضل الإيرانى أحد دعاتهم يقول: «... فكل ما توصف به ذات الله ويضاف ويسند إلى الله من العزة، والعظمة، والقدرة والعلم، والحكمة، والإرادة، والمشيئة، وغيرها من الأوصاف، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره، ومطالع نوره، ومهابط وحيه، ومواقع ظهوره»(٤) ومثل هذا كثير فى كلام زعمائهم ودعاتهم.

رابعًا: يدعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره، ويحصرون مدارك الحق فى أقواله، والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه فى كتبهم.

يقول بهاء الله فى الكتاب: «يسند القائم ظهره إلى الحرم، ويمد يده المباركة، فترى بيضاء من غير سوء، ويقول: هذه يد الله، ويمين الله، وعين الله، وبأمر الله، أنا الذى لا يقع عليه اسم ولا صفة، ظاهرى إمامة، وباطنى غيب لا يدرك»(٥).

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٠). (٢) الكتاب ص ٣٣.
(٣) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٠). (٤) المرجع نفسه. (٥) الكتاب ص ٨٣.

وقد عرفت أن البابية والبهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بن سيظهره الله، ويزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

خامسًا: من مبادئ قدماء الباطنية التفرس، وعلى هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج أى فقيه أو متعلم، والبهائية يسيرون على هذا المبدأ وإليك ما يثبت ذلك.

أرسل إلى أبى الفضائل الإيرانى بعض إخوانه كتابًا يرجوه فيه أن يرد على مقال كتبه جرجس صال الإنجليزى بإمضاء هاشم الشامى، والمقال يتضمن توجيه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك فى رسالة أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها:

«. . . إن هناك موانع جمة، أعظمها وأشدها مانع كبير لا يستسهل العاقل تذليل صعوباته، ولا يتسنم النبيه متن صهواته، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه، ومن القرآن برسمه، تغذت فى مدة مديدة، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب، وألفت سفاسف المسائل حتى بعدت عن لباب الكتاب، وجهلت حقيقة معانى الخطاب، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات، وأظهرنا المعانى المقصودة من ظواهر العبارات، فطلعت صور الحقائق المقصورة فى قصر الآيات، وتهللت وجوه المعانى المستورة فى خدور الاستعارات، لندفع تلك الردود والاعتراضات، ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات، تثور أولاً أحقاد جهلائنا، ويرتفع نعيب سفهائنا، وينادون بالويل والثبور، ويثيرون الأحقاد الكامنة فى الصدور. . .» ثم يقول لصاحبه فى آخر الرسالة: «. . . لتعلم حق العلم أنى ما نسيت ولم أكره صفة من صفاتك، ولا خلة من خلالك، ولكن - والحق يقال - إنك نسيت وصية روح الله الواردة فى سفر متى «لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير» حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعالى المعانى، عند من لا يستحق أن تخاطبه وتلاطفه، وتجالسه وتؤانسه، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية، والأسرار الربانية، فتمسك بالحكمة، وكن على جانب عظيم من الفطنة» (١).

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٢٦ - ١٢٧.

ويقول فى رسالة أرسلها إلى الشيخ فرج الله زكى الكردى أحد أتباعهم فى مصر «. . . واعلم يا حبيى أنه سيدخل عليكم كثيرون، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث، ويظهرون السلم والوفاق، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان، واضطهاد أصحاب الإيقان، كما تصرح وتنادى آى الفرقان: منها قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** . . . ﴾ (الحديد: ١٣ - ١٥) إلى آخر الآيات، فتحكم الآية المباركة أنه لا بد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق، للاستطلاع والاستراق، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم، ولا يخدعنك ملاينتهم وتملقهم، فإن التهور، والتعجيل يوجب الندم والافتضاح، والتروى يكفل النجاح والفلاح، ومن الحكم المأثورة (العجلة من الشيطان، والتأنى من الرحمن»[١].

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح: أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة فى تعاليمها ومعتقداتها، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الدينى، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن ـ علاة على ما سبق ـ أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول، ويترسمون خطاهم فى تحريفهم لكتاب الله، والعبث بآياته!!.

* * *

(١) رسائل أبى الفضائل ص ١٣٨، ١٣٩.

موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم

لم تحل عقائد البـابية والبهائية بينهم وبين الاعتـراف بالقرآن الكريم، ولم يمنعهم موقفهم الشـاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على دعـاواهم الباطلة، ومذاهبهم الفاسدة؛ تمويهًا على العامة، وتغريرًا بعقول الأغمار الجهلة.

أبو الفضائل الإيرانى يعيب تفاسير أهل السنة:

ولم يكن فى وجوهـهم قطرة من الحياة تمنـعهم من التنديد بتفـاسيـر علماء أهل السنة وتحقيرها، فـهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيرانى، نجـده فى رسالة أرسلها لصديق له، يعيب على تفاسير أهل السنة فيقول: «. . . ولقـد يدهش الإنسان ويتحير يا حبيبى من تعاليـمهم الباطلة، وتفـاسيرهم المـضحكة فإن أحبـاءنا الأمريكيين الذين تشـرفوا بالوفود على الأرض المـقدسة فى هذه الأيام الأخـيرة، قابلناهم فى بيروت، وسـافرنا معهـم إلى الأرض الفيحاء مـدينة حيفا، أخـبرونا بما يتحـير منه الأريب، ويدهش منه اللبيب، كـيف تقدمت كلمـة الله فى تلك الأقطار البعيـدة الشاسعـة مع هذه التفاسـير الباطلة الضائعة، من النفوس الجـاهلة الخادعة؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشديد قوته؟ وسطوع آياته وظهور بيناته؟. . .»(١).

يعيب أبو الفضائل تفسيـر أهل السنة؛ لأنه يرى فى زعمه أنه وأهل نحلته خير من يفهم القرآن، ويعلم مـا فيه من أسرار ورموز، ويرى أنه ومن شـاكله هم الراسخون فى العلم، الذين يقفون على عـجائب القرآن التى لا يدل عليهـا إلا باطنه، أما ما يعنى به مفسروا أهل السنة من الظواهر فليس فى زعمه من المعانى التى يرمى إليها القرآن، وفى هذا يقول ما نصـه: «. . . لو كان معانى آيات القرآن ما هو ظاهر يعـرفه كل من يعرف اللغة العربـية، ويتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأدبية، كـيف يتم هذا القول ـ يريد قول رسول الله ﷺ فى شأن القرآن إنه لا تنقضى عجائبه ـ وكيف يصدق قول الله فى الآية (٧) من سورة آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾»(٢).

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٦٦.

(٢) رسائل أبى الفضائل ص ٧٦.

إنتاج البابية والبهائية فى التفسير، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة:

ولكن هل وصل إلى أيدينا شىء من كتب هذه الطائفة فى تفسير القرآن؟ لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألفوا تفسيرًا متناولاً للقرآن آية آية، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة، وسورة يوسف، وسورة الكوثر، ولكن لم يصل إلى أيدينا شىء فى ذلك، وكل ما وصل إلينا هو نبذ من تفسيره، وتفسير بعض أشياعه ودعاته، قرأناها فى كتبهم أنفسهم، وفى الكتب والمقالات التى كتبت عنهم، وهذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم، والميل بنصوصه إلى ما يرضى أهواءهم، ويشبع أطماعهم، وإليك بعض هذه التأويلات، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم، وتلاعبهم بالقرآن وبالعقول!!.

من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف، فمشى فيها على طريقة التأويل الذى لا يقره الشرع ولا يقبله العقل، ولا يمكنه أن يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين[(١)] كما قيل.

وإليك بعض ما قاله الباب فى تفسيره لسورة يوسف، لتقف على مقدار هذيانه، وتلاعبه بالنصوص القرآنية.

عند قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ يقول ما نصه: «وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول، وثمرة البتول، حسين بن على بن أبى طالب مشهودًا... إذ قال حسين لأبيه يومًا: إنى رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم بالإحاطة على الحق لله القديم سجادًا... وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة، وبالقمر محمدًا، وبالنجوم أئمة الحق فى أم الكتاب معروفًا، فهم الذين يبكون على يوسف بإذن الله سجدًا وقيامًا»[(٢)].

وفى قوله تعالى فى الآية (٥) ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ يقول ما نصه: (إذ قال على: يا بنى لا تخبر مما أراك الله من أمرك إخوتك ترحمًا على إلفهم، وصبرًا لله العلى، وهو الله كان عزيزًا حميدًا، إن كنت تخبر من أمرك فى بعض مما قضى الله فيك، فيكيدوا لك كيدًا، بأن

---

(١) البرسام ـ بكسر الباء: علة يصحبها هذيان.

(٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩.

يقتلوا أنفسهم فى محبة الله من دون نفسك الحق شهيداً، وإن الله لوجهك بدمك محمرّاً على الأرض بالحق على الحق صبيغًا وإن الله قد شاء كما شاء أن يراك مخضبًا شعرك من دمك، ونفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلاً، وجسمك على الأرض عريّا، وإن الله شاء كما شاء بأن يرى بناتك وحريمك فى أيدى الكافرين أسيرًا . . . »[١].

وعند قوله تعالى فى الآية (٨) ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يقول ما نصه: (. . . إذ قالوا حروف لا إله إلا الله، وإن يوسف أحب إلى أبينا منا بما قد سبق من علم الله حرفًا مستسرّاً بالسر مقنعًا على السر محتجبًا فى سطر، غايبًا فى سر السر مرتفعًا عما فى الدنيا وأيدى العالمين جميعًا، وإنا نحن عصبة فيما أراد الله فى شأن يوسف النبى محمد العربى حول السطر مسطوراً، وإن الله قد فضل أبانا بفضل نفسه وقدر الله سر المستسر من سر أمره بما فى أيدى العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر (الباء) ضلالاً. . . إلخ)[٢]. اهـ.

من تأويلات بهاء الله:

ويرى بهاء الله أن ما ورد فى القرآن من الصراط، والزكاة، والصيام، والحج، والكعبة، والبلد الحرام، وما إلى ذلك، كله لا يراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة، وفى هذا يقول فى الكتاب: «قال أبو جعفر الطوسى: قلت لأبى عبد الله: أنتم الصراط فى كتاب الله، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ قال: يا فلان. . . نحن الصراط فى كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله»[٣].

وفى كتاب بهاء الله والعصر الجديد، ما يدل على أن البهائيين لا يعترفون بالبعث، ولا بالجنة والنار؛ حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجىء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، قال فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد: «وطبقا للتفاسير البهائية، يكون مجئ كل مظهر إلهى عبارة عن يوم الجزاء، إلا أن مجىء المظهر الأعظم بهاء الله: هو

---

(١) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٠. (٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٢.

(٣) الكتاب ص ٨٣.

يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التى نعيش فيها» وقال: «ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية، بل هو يوم يبتدئ بظهور المظهر، ويبقى ببقاء الدورة العالمية»[١].

ويفسر البهائية الجنة بالحياة الروحانية، والنار بالموت الروحانى، فقد جاء فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد «أن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة» فالجنة ترمز إلى حياة الكمال، والنار ترمز إلى حياة النقص، ولما كانت الحياة الروحية فى نظر البهاء هى الإيمان به، والموت الروحى هو تكذيب دعوته، فإنا نراه يقرر ذلك فيقول: «. . . منهم من قال: هل الآيات نزلت؟ قل: إى ورب السموات، قال: أين الجنة والنار؟ قل: الأولى لقائى، والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب»[٢].

من تأويلات عبد البهاء عباس:

كذلك نجد عبد البهاء، يتكلم عن النبوة والوحى بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلدوا الفلاسفة فيقول: «الأنبياء مرايا تنبئ عن الفيض الإلهى، والتجلى الروحانى، وانطبعت فيه أشعة ساطعة من شمس الحقيقة، وارتسمت فيه الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنى، ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى، فهم معادن الرحمة، ومهابط الوحى، ومشارقة الأنوار، ومصادر الإرسال، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»[٣].

ونجد قرة العيون إحدى أتباع الباب، تدعى أنها الصور الذى ينفخ فيه يوم القيامة، وتقول: «إن الصور الذى ينتظرون فى اليوم الآخر هو أنا»[٤].

وبين أيدينا رسائل أبى الفضائل، محمد بن رضا الجرفادقانى، المعروف بفضل الله الإيرانى، أحد دعاة البابية المتعصبين، وكتاب الحجج البهية له أيضًا، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية، بما يتفق ومذهبه الباطل.

فمن ذلك مثلاً أنه يفسر الروح الأمين الذى ورد فى القرآن بأنه الحقيقة المقدسة، ثم يعرفها فيقول: «هى غيب فى ذاتها، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات، فلا توصف بأوصاف الماديات، ولا تذكر بخصائصها، ولا يطلق عليها الخروج

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ١٠٣).
(٢) كتاب بهاء الله ص ٩٧.
(٣) خطابات ومحادثات عبد البهاء.
(٤) المبادئ البهائية ص ٢١.

والدخول، ولا توصف بالتحيز والحلول، وإنما هى حقيقة تنجلى فى مظاهر أمر الله ...ى، عرشها قلوب الأصفياء، ومرآة تجليها صدور الأولياء، وإنما مثل طلوعها ..راقها فى النفوس القدسية كمثل انطباع الشمس فى المرايا، فلا يقال: إن الشمس حت فى المرآة، ولا إنها دخلت فيها، بل ولا يقال: إنها عرضت عليها، بل يقال: إن الشمس تجلت فى المرآة، وظهرت منها وأشرقت، وانطبعت بها)[١]. وهذا بعينه مذهب قدماء الباطنية والفلاسفة.

ومن ذلك أيضا أنه فسر قوله تعالى فى الآيتين (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...﴾ الآية، تفسيرًا باطنيًا فقال: «المراد بالليل ـ كما سمعته منى مرارًا ـ هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة، واليوم على حسب ما نزل فى التوراة المقدس يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر، وفر من فرعون وملئه إلى مدين، كان ابن ثلاثين، وأقام فى مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبى عليه السلام، وكان فى طى هذه المدة التى كانت الليالى المظلمة، والدياجى الكالحة من ظلم الفراعنة، وأوهام الصابئة، مشتغلاً بتهذيب أخلاقه، وتطييب أعراقه، وتنقية فؤاده، والمناجاة مع ربه فى وحدته وانفراده، فلما طاب خلقه، وتم خلقه، بعثه الله نبيًا لهداية بنى إسرائيل، وإنقاذهم من ذلك الوبيل، فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة، أقام موسى عليه السلام فى أثنائها فى مصر ومدين، ولا تنافى كلمة واعدنا هذا التفسير، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته، فإن أمثال هذه الكلمة كثيرًا ما أطلقت على ما ألقى فى الروع، وألهم فى القلب، حتى على الحيوانات، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل: ٦٨) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢) ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هارون حينما كان مع الشعب فى البرية، كما هو مذكور فى التواريخ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جدًا، حيث إن المؤرخين اعتمدوا فى هذه المسائل على ما جاء فى التوراة

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٣٩.

وسائر الكتب العتيقة، ولكنا أثبتنا فى كتاب الدرر البهية ضعف هذا المستند من حيث العلم، فيجوز أن يكون هارون مستخلفًا عن موسى عليهما السلام؛ لحفظ الشعب أيام غياب موسى فى مدين، وقد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جدهم إبراهيم عليه السلام، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين تزلفًا إلى فرعون وقومه، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية، واعتنقوا الديانة الوثنية، فلما رجع موسى عليه السلام ورآهم على تلك الحال السيئة والعبادة الباطلة، أنكر ذلك على هارون، كما ذكره المؤرخون، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ما عرفوا بصلابة الرأى يتركون ديانتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليال.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) اعلم - حفظك الله - أن علماءنا - سامحهم الله - اختلفوا فى رؤية الله تعالى وعدم جواز رؤيته، فالشيعة والمعتزلة أنكروا جواز رؤيته، حيث تقتضى الجهة والمقابلة، وهى من مقتضيات الجسد والتحين والتحدد وأمثال ذلك، وهو منزه عن تلك الأوصاف، إذ لم يفهموا من لفظة الله سوى الذات، ولا شك أن الذات منزهة عن تلك الصفات، وأهل السنة والجماعة جوزوا رؤية الله تعالى اعتمادًا على صريح الآيات، واستنادًا على صريح الأحاديث والروايات، وكانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية، فمزجوها بالعقائد الوهمية، حيث شاعت فى تلك القرون بينهم المسائل الكلامية، والمعارف الناقصة العقلية، فإنهم قالوا: إن رؤية الله تعالى جائزة وواقعة فى القيامة، إلا أنها لست من قبيل الإحاطة بالنظر، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة ومقابلة، وكيفية وإحاطة، مما يرجع إلى الوهم الصريح، وإنكار الرؤية حقيقة، وأهل البهاء المستظلين بظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا، لما عرفوا - على حسب ما يعلمون من القلم الأعلى - أن ذات الله بسبب تجردها وتقديسها الذاتى لا تدرك، ولا توصف ولا تسمى باسم، ولا تشارك بإشارة، ولا تتعين بإرجاع ضمير،

والأسماء والأوصاف وكل ما يسند ويضاف إليها راجعة في الحقيقة إلى مظاهرها ومطالعها ولذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التي نزلت في الكتب المقدسة والصحف المطهرة؛ من قبيل رؤية الله تعالى، ولقاء الله وظهور الله ومجيء الله وغيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق... ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيرًا ما أطلقوا في عباراتهم لفظ (جل) على أكابر الرجال استعارة، سواء كانوا من صناديد الدولة والملك؛ أو من قروم أهل العلم والفضل كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعي المعروف بالأشتر، لما اشتهر ذكر وفاته، وأخبر بمماته، ومقامه عليه السلام معلوم لديك في الفصاحة والبراعة، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة، وعبارته هذه مذكورة في نهج البلاغة، وهذه استعارة في غاية المناسبة واللطافة حيث إن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد، لاستقرار أرض المعارف والديانة، أو الأمة والدولة، وكثيرًا ما أطلقه داود عليه السلام في مزاميره، وسائر الأنبياء من بني إسرائيل في كتبهم على الرب تعالى، كما جاء في مزمور (٤٢) (أقول لله صخرتي لماذا نسيتني) وجاء في مزمور (٧١) (كن لي صخرة وملجأ أدخله دائمًا، أمرت بخلاصي لأنك صخرتي وحصني) إلى كثير من أمثالها، فإذا عرفت هذا، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله، كما يدلك عليه قوله تعالى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾(النساء: ١٥٣) إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان في مكانهم من الإذعان واليقين ولكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم والمعرفة واليقين فلا بد وأن تندك جبال وجودهم؛ ويتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر، ويقينهم بالشك، وإقبالهم بالإعراض، حيث لم تكمل بعد مراتب عرفانهم، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم؛ فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء ولم يصعدوا إلى درجة الاستقرار والبقاء؛ فلا بد من ظهور الأنبياء، وقيام الأصفياء، لتربية أشجار الوجودات البشرية، وتكمل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور وطي العصور، حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والاستقرار، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض والسماء، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة

واللقاء، فخلاصة تفسير الآية الكريمة: أن موسى عليه السلام قال: رب أرنى أنظر إليك؛ حيث إن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابه الله تعالى بأنك لن ترانى، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد إلى درجة كمال وجودهم، ولم يستعدوا للقاء معبودهم، فانظر إلى جبال الوجودات، ومقادير استقرار الإيقان، فإن استقر جبل الوجود فى مقام إيمانه وإيقانه حين تجلى المعبود ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود، حينئذ استعد للقاء الله، واستحق للوقوف بين يدى الله، والتشرف برؤية الله، ثم تجلى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان من رؤساء الشعب، ومن جبال الإيمان والإيقان، فاندك وجوده، وتضعضع ريمانه، واضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الامتحان، وعرف مقدار صعوبة مقام الافتتان، فندم على ما سأل الرؤية للطالبين، ورجع فى الحين، وقال: ﴿ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

فانظر إليه كيف أول الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة، وهى التى يبعث الأنبياء على رأسها، وكيف علل التعبير بلفظ ليلة بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليالى بظلم فرعون وملئه، وكيف تخلص من منافاة لفظ واعدنا للمعنى الذى يهذى به، وكيف اتهم التوراة وسائر الكتب العتيقة ـ بما فيها القرآن طبعًا كما سيأتى بعد ـ بأنها لا يعول عليها فى الروايات التاريخية، وكيف رمى المعتزلة وأهل السنة بعدم إصابة المعنى الحقيقى للرؤية الواردة فى الآية، وكيف ادعى أنه ومن على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقى للآية، وكيف صرف لفظ الجبل عن معناه المراد إلى معنى لا يفهم من لفظ القرآن وسياق الآية!!... ولست فى حاجة إلى أن أبين ما فى هذا التفسير من خطأ وضلال، فإن الحق بين واضح[2].

وفى كتاب الدرر البهية، صرح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة، وأنها فى الحقيقة رموز إلى معان خفية فقال: «لا يمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه التاريخية من آيات القرآن»[3] وقال: «إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم التاريخية، وأقاصيصه القومية، ومبادئهم العلمية؛ فتكلموا بما عندهم، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات، وسدلوا عليها ستائر بليغ الاستعارات»[4].

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦ - ١٠٣. (٢) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٦).
(٣، ٤) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٦).

ولا شك أن هذه دعوى كاذبة يراد بها إدخال الشك فى قلوب المؤمنين، وإيهامهم بأن القرآن لا يعتمد على ظاهره، وإنما يعتمد على باطنه الذى عندهم علمه دون من عداهم من الناس، وإلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم ولن يقوم دليل تاريخى أو عقلى على عدم صحة قصة من قصص القرآن، وهو الذى ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ (فصلت: ٤٢).

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض فى كتابه المسمى (الدرر البهية) لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة يونس ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ ولقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الأعراف ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ فيقول:

«ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية» . . . ثم قال بعد هذا: «قرر الله تنزيل تلك الآيات على ألسنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء» وقال: «إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله؛ وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود» وقال: «وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها الأصلية المقصودة لا تظهر إلا فى اليوم الآخر، يعنى يوم القيامة، ومجىء مظهر أمرالله وإشراق آفاق الأرض ببهاء وجه الله» ثم قال: «ولذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمة جامدة، بل مضلة مبعدة منحرفة مفسدة)[(١)].

ومعلوم أن لفظ التأويل فى الآيتين عبارة عن وقوع المخبر به ولكن يأبى هذا المخرف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعانى الخفية وعجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب، وأما كشف الستر عن المعانى الخفية فإلى روح الله حين نزولة، وروح الله فى نظره

---

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٥).

ونظر أشياعه: هو البهاء الذى يعبر عنه بالنقطة، ويدعى أن الرسل أرسلوا لسوق الخلق إليه، ويدعى أيضًا أن ظهوره يكون يوم القيامة، ولا شك أن هذا تفسير بارد عقيم، وجامد مضل، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذا، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة، عقيمة جامدة، مضلة مبعدة، محرفة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به، والعلم فى نظره عند البهاء وحده.

كذلك نجد أبا الفضائل يفسر قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بما لا يقره شرع، أو يرضى به عقل فيقول: «إن لفظ الملك واحد الملائكة، والملائكة فى اللغة العربية توافق لفظًا ومعنى ما فى اللغة العبرانية، حيث إنها مأخوذة من الأصل السامى، الذى اشتقت منه اللغات السريانية، والعبرانية، والعربية، والآشورية، والكلدانية، وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شىء فكما أنه أطلق لفظ الملك والملائكة فى الكلمات النبوية المحفوظة فى الكتب السماوية على النفوس القدسية، والأئمة الهداة، لخلعهم ثياب البشرية وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية، فملكوا زمام الهداية، وصاروا ملوك ممالك الولاية، كأنهم أعطوا سلطة مطلقة فى سعادة الناس وشقاوتهم، وهدايتهم وضلالهم، وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت فى الأخبار، ولذا سمى سيد الأبرار وأمير الأبرار، بقسيم الجنة والنار، كذلك أطلق هذا اللفظ فى الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار، وأئمة الضلال، حيث إنهم قادة الفجار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة فى قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ (القصص: ٤١) ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه؛ كما أنها أبواب للدخول فى جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلاً، ثم استطرد من هذا إلى أن الباب كما يطلق على الديانات، يطلق أيضًا على الأنبياء وكبار الأولياء، واستدل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت فى شأن الأئمة وهى (أنتم بابه المؤتى والمأخوذ عنه) قال: وإليه أشير فى الآية الكريمة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾

(الحديد: ١٣) بعد أن قرر هذا، ادعى «أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر، وهى ثمانية عشر حروف (الحى) والنقطة الفردانية[١] وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا، ودخلوا الجنة... ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنسانًا من رؤساء أصحابه ودهاة أحبابه؛ لإضلال أهل الإيمان، ومعارضة جمال الرحمن» ثم قال: «فالمراد بملائكة النار فى الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة الضلال» ثم ذكر بعد ذلك أن عدد أبواب النار صار فى هذا الدور الحميد[٢]، والكون المجيد ثلاثة فقط وهى أيضًا ملائكة الجحيم، وقادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم».

واستدل على ذلك بقوله تعالى ﴿**انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ**﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١) ثم قال: «وفى كل دور وزمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان، وحملة القرآن، ومخازن الحكمة، ومطالع البيان...»[٣]

وفى الحجج البهية يقرر أبو الفضائل: أن جميع الديانات السماوية، وغير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية، وذلك حيث يقول فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ «... فانظروا ـ وفقكم الله ـ كيف اعتبر فى الآية الكريمة ديانات الصابئة والزردشتية والموسوية، والنصرانية والإسلامية دينًا واحدًا، كما اعتبر مؤسسها وشارعها إلهًا واحدًا، على اختلافها فى الأحكام والحدود والآداب»[٤] وهذا منه كفر صريح، لأن الآية تدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية فى أصول العقائد؛ أما الديانة الصابئية، والديانة الزردشتية فلم يقل أحد إنها من شرائع الله، حتى يسوى بينها وبين سائر الشرائع السماوية.

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة، ويريد بها: رجوع الحقيقة المقدسة التى

---

(١) يريد الباب نفسه، والثمانية عشر الذين استجابوا له أولا.

(٢) لعله يريد زمن بهاء الله.

(٣) رسائل أبى الفضائل ص ١٠٤ - ١٠٩.

(٤) الحجج البهية ص ٢٨.

هى الوحى، على معنى أن الوحى بعـد انقطاعه بموت محمـد ﷺ يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البـهاء، ويفسر القيامة: بأنها قيام مظهر الحـقيقة المقدسة، والساعة: بساعـة طلوعها وإشراقها بعد الغـيبة ويقول: «وأما الرجعة والقـيامة بالمعنى الذى تعتقـد وتنتظره الأمم فهى أمر غيـر معقول؛ إذ هو مـخالف للنواميس الطبيـعية، ومباين للسنن الإلهية»[١].

ويقول: «إن جميع ما نزل فى الكتب المقدسة من بشارات يوم الله، ويوم القيامة، وظهـور الرب، وورود الساعـة وأشراطهـا. . . لا بد أن تكون لتلك الألفـاظ مقـاصد معقـولة، ومفاهيم ممكنة، ومعان غـير المعانى الظاهرية، ومدلولات غـير المدلولات الأولية»[٢].

وكأنى بأبى الفضـائل - وقد قال بنبوة الباب والبـهاء - نظر فى كتاب البيـان وكتاب بهاء الله، فلم يجدهما فى رصـانة القرآن وفصاحته، فأراد أن ينزل بالقـرآن عن مستواه فى البلاغة، ويسلب عنه إعجازه حتى يكون فى درجة البيان والكتاب فقال: «ولا يعرف ولا يمتـاز كلام الله عن كلام البـشر بفصـاحته، وبلاغـته، ورصف كلماته، وتسـجيع عباراته، وترصيع جمله، ولطيف استـعاراته، كما يدعيه قوم»[٣] كما أعتـقد أنه - وقد أدعى نبوة الباب والبهاء - راح يفتش لهما عن مـعجزة تصدق دعواهما النبوة، فلم يعثر ولا على جزء معجـزة فجره ذلك أن ينكر معجزات الرسل، ويـتأول ما ورد فى القرآن منها بأنها من قـبيل الاستعارات عن الأمور المـعقولة، والحقائق الممكنة، مـما يجوزه العقل السليم، كـما جره إلى القول بأنه لا صلة بين دعوى الرسـالة، وبين القدرة على الإتيان بالخوارق فـقال: «لا نسبة بين القـدرة على إتيان المعجـزات والعجائب، وبين ادعاء النبـوة والرسالة، فـإن الرسالة والنبوة ليـست إلا بعث إنسان من قـبل الله تعالى لهداية الخلق، فمـا هو ارتباط هذا المعنى بالقدرة على شق البحـار، وجفاف الأنهار، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلاً»[٤].

ولا يشك عـاقل فى أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفـتح باب شـر عظيم؛ ليدخل منه كل من يدعى النبوة والرسالة، كما دخل منه أنبياء البابية البهائية من قبل.

---

(١) الحجج البهية ص ٣٠، ٣١.

(٢) الحجج البهية ص ٥٨.

(٣) الحجج البهية ص ٣٧.

(٤) الحجج البهية ص ٧٠.

وكما تأول متعصبو الشيعة الشجرة المباركة، والشجرة الملعونة، فحملوا الأولى على آل البيت، والثانية على أعدائهم من بنى أمية، كذلك تأولهما أبو الفضائل، فقال فى شرحه لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ...﴾ الآية «أطلق لفظ شجرة مباركة زيتونة على مظهر أمر الله، ومطلع شمس حقيقته وذاته، ومشرق أنوار سمائه وصفاته، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق وتضىء الأنوار الإلهية وتشرق وتلمع أشعة العلم والقوة، والقدرة الملكوتية السماوية، وهذه استعارة فى غاية الرقة واللطافة، وتجوز فى نهاية اللطافة والبراعة، لم يوجد مثلها إلا فى الكلمات النبوية، ولم يسمع شبيهها إلا من نغمان طيور القدس فى الحدائق القدسية»... قال: «وكذلك فى الآية (٦٠) من سورة بنى إسرائيل، أطلق لفظ الشجرة الملعونة: استعارة على أعداء الله، ومحاربى رسول الله، من السلالة الأموية، والسلطة العضوضية السفيانية، حيث قال جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ...﴾ (الإسراء: ٦٠)»[١].

هذه نبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم، تعطينا دليلاً قويًا، وبرهانًا صادقًا على أن المذهب البابى، أو البهائى يقوم على أطلال الباطنية، ويحمل فى سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل فى آيات القرآن، ودعوى النبوة والرسالة، بعد أن ختمها الله برسالة محمد ﷺ، وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهى: أن البابية والبهائية وأسلافهم من الباطنية، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنوص الشريعة على هذه الصورة التى تأتى على بنيان الدين من قواعده، وإنما هو صنيع قلدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودى المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد، نجده ألف كتابًا فى تأويل التوراة، ذاهبًا إلى أن كثيرًا مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة، ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة: إن هذا التأويل الرمزى كان موجودًا ومعروفًا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) ويذكرون أمثلة من

---

(١) الحجج البهية ص ١٧٥، ١٧٦.

تأويلهم: أنهم فسروا آدم بالعقل، والجنة برياسة النفس، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم، وإسحاق عندهم هو الفضيلة الغريزية، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين، إلى أمثال هذا من التأويل الذى لا يحوم عليه إلا الجاحدون المراءون، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون»[١].

وبعد أن انتهينا من موقف الباطنية - قديمهم وحديثهم - من القرآن الكريم، نتكلم عن موقف الزيدية منه فنقول وبالله التوفيق:

* * *

(١) رسائل الإصلاح (٣/ ٩٧، ٩٨).

الزيدية وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

تمهيـــــــد:

لم يقع بين الزيدية من الشيعة، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة، والذى يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر.

يرى الزيدية: أن عليّا أفضل من سائر الصحابة، وأولى بالخلافة بعد رسول الله ، ويقولون: إن كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للإمامة صحت إمامته، ووجبت طاعته، سواء أكان من أولاد الحسن، أم من أولاد الحسين، ومع ذلك فهم لا يتبرأون من الشيخين، ولا يكفرونهما، بل يجوزون إمامتهما؛ لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية، والعصمة للأئمة، واختفائهم ثم رجوعهم فى آخر الزمان، وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن على شاكلتهم.

وكل الذى نلحظه على الزيدية، أنهم يشترطون الاجتهاد فى أئمتهم؛ ولهذا كثر فيهم الاجتهاد، وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت، والذى يقرأ كتاب المجموع للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد بن على زين العابدين، عن آبائه من الأئمة، عن رسول الله ﷺ، وليس فيه بعد ذلك حديث يروى عن صحابى آخر من غير أهل البيت ﷺ.

كما نلاحظ على الزيدية أيضًا أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم، ويرجع السر فى هذا إلى أن إمامهم زيد بن على، تتلمذ على واصل بن عطاء، كما قلنا ذلك فيما سبق.

إذًا فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثرًا مميزًا، وطابعًا خاصًا فى التفسير كما رأينا للإمامية؛ لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره، ويتخذ له طابعًا خاصًا، واتجاهًا معينًا، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين، وليست الزيدية ـ بصرف النظر

عن ميولهم الاعتزالية ـ بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة وعقائدهم، حتى يكون لهم فى التفسير خلاف كبير.

أهم كتب التفسير عند الزيدية:

وإذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية فى المكتبات التى تحت أبصارنا، وفى متناول أيدينا، فإنا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكانى المسمى (فتح القدير) وهو تفسير متناول للقرآن كله، وجامع بين الرواية والدراية، وتفسير آخر فى شرح آيات الأحكام اسمه (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد، من علماء القرن التاسع الهجرى، هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب فى التفسير.

ولكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة؟ أو أن هناك كتبًا أخرى ألفت فى التفسير ثم درست؟ أو ألفت وبقيت إلى اليوم غير أنه لم يكتب لها الذيوع والانتشار، ولذا لم تصل إلى أيدينا؟.

الحق أنى وجهت هذا السؤال إلى نفسى، فرجَّحت أن تكون هناك كتب كثيرة فى التفسير لهذه الطائفة، منها ما درس، ومنها ما بقى إلى اليوم مطمورًا فى بعض المكاتب الخاصة؛ إذ ليس من المعقول أن لا يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان، وبقيت محتفظة بتعاليمها ومقوماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل فى التفسير.

رجحت هذا الرأى، فذهبت أفتش وأبحث فى بعض الكتب التى لها عناية بهذا الشأن؛ على أن أعثر على أسماء لبعض كتب فى التفسير لبعض من علماء الزيدية... وأخيرًا وجدت فى الفهرست لابن النديم: أن مقاتل بن سليمان ـ وعده من الزيدية ـ له من الكتب، كتاب التفسير الكبير، وكتاب نوادر التفسير(١).

ووجدت فى الفهرست أيضًا: أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى، له كتابان فى التفسير: أحدهما: كتاب التفسير الكبير، والآخر: كتاب التفسير الصغير(٢).

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية فى الفقه، وهى مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة فى شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجندارى، فخرجت منها بما يأتى:

---

(١) الفهرست ص ٢٥٤. (٢) الفهرست ص ٢٧٤.

١- تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن على، جمعه بإسناده محمد بن منصور بن يزيد الكوفى، أحد أئمة الزيدية، المتوفى سنة نيف وتسعين ومائتين(١).

٢- تفسير إسماعيل بن على البستى الزيدى، المتوفى فى حدود العشرين وأربعمائة، قال: وهو فى مجلد واحد(٢).

٣- التهذيب، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى، المقتول سنة ٤٩٤هـ أربع وتسعين وأربعمائة، قال: وهذا التفسير مشهور، ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق؛ فإنه يورد الآية كاملة، ثم يقول القراءة ويذكرها ويميز السبع من غيرها، ثم يقول اللغة ويذكرها، ثم يقول الإعراب ويذكره، ثم يقول النظم ويذكره، ثم يقول المعنى ويذكره، ويذكر أقوالاً متعددة، وينسب كل قول إلى قائلة من المفسرين، ثم يقول النزول ويذكر سببه، ثم يقول الأحكام ويستنبط أحكامًا كثيرة من الآية(٣).

٤- تفسير عطية بن محمد النجوانى الزيدى، المتوفى سنة ٦٦٥هـ خمس وستين وستمائة، قال: وقد قيل إنه تفسير جليل، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية(٤).

٥- التيسير فى التفسير، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعانى، المتوفى سنة ٧٩١هـ إحدى وتسعين وسبعمائة(٥).

هذا هو كل ما قرأت عنه من كتب الزيدية فى التفسير، لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم؟ أو درست بتقادم العهد عليها؟ سألت نفسى هذا السؤال، وحاولت أن أقف على جوابه، وأخيرًا انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى فى مصر(٦) ـ وفيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين ـ فاتصلت بأحد أعضائه البارزين، وهو القاضى محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية فى التفسير، وعن الموجود منها إلى اليوم، فأخبرنى بأن للزيدية كتبًا كثيرة فى تفسير القرآن الكريم، منها ما بقى، ومنها

---

(١) مقدمة شرح الأزهار ص ٣٦.
(٢) ص ٧ من المرجع السابق.
(٣) ص٣٢ من المرجع السابق، وحقق الكتاب الدكتور عدنان زرزور، ولكنه لم يطبع حتى الآن، ونقل عنه القاسمى الكثير فى تفسيره.
(٤) ص٢٣ من المرجع السابق.
(٥) ص١١ من المرجع السابق.
(٦) كان ذلك فى سنة ١٩٤٥م.

ما اندثر، وما بقى منهـا إلى اليوم لا يزال مخطوطًا، وموجـودًا فى مكاتبهم، وذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتى:

١- تفسير ابن الأقضم. . . أحد قدماء الزيدية.

٢- شرح الخمـسمائة آية (تفسـير آيات الأحكام) لحسين بن أحـمد النجرى، من علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى.

٣- الثمرات اليـانعة (تفسير آيات الأحكام) للشيخ شـمس الدين يوسف بن أحمد ابن محمد بن عثمان، من علماء الزيدية فى القرن التاسع الهجرى.

٤- منتـهى المرام، شـرح آيات الأحكام، لمحـمد بن الحـسين بن القـاسم، من علماء الزيدية فى القرن الحادى عشر الهجرى.

٥- تفسير القاضى بن عبد الرحـمن المجاهد، أحد علماء الزيدية فى القرن الثالث عشر الهجرى.

قال: وهناك كتب أخرى لا يحـضرنى اسمها، ولا اسم مؤلفيها، فـسألته عن السر الذى من أجله بقـيت هذه الكتب مـخطوطة إلى اليـوم؟ وأى شىء يحـول بينكم وبين طبعها، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم، وعشاق التفسير؟ فأجابنى بأن السر فى هذا أمران: **أحدهما**: عدم تقدم فن الطباعة عندهم، **وثانيهما**: أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب الكشاف للزمخشرى؛ نظرًا للصلة التى بين الزيدية والمعتزلة، مما جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ما عداه من كتب التفسير، ورجا ورجوت معه أن يهيئ الله لهذا التراث العلـمى فى التفسـير من الأسبـاب ما يجـعله متداولاً بين أهـل العلم، ورجال التفسير.

وبعد. . . فما دامت أيدينا لم تصل إلى شىء من كتب التـفسير عند الزيدية سوى كتاب (فـتح القدير) للشوكانى، و (الثـمرات اليانعة) لشمس الـدين يوسف بن أحمد؛ فإنى سأقتصـر على هذين الكتابين فى دراستى وبحثى، وسأبدأ بتفسـير الشوكانى، وإن كان لا يمثل لنا تفسيـر الزيدية تمثيلاً وافيًا شافيًا، وأرجـئ الكلام عن (الثمرات اليانعة) إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله.

فتح القدير ـ للشوكانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

ومؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن على بن عبد الله الشوكانى، ولد فى سنة ١١٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية، فى بلدة هجرة شوكان، ونشأ ـ رحمه الله تعالى ـ بصنعاء، وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة، وأخذ فى طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام، وجدَّ فى طلب العلم، واشتغل كثيرًا بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب، وسار على هذه الطريقة ما بين مطالعة وحفظ، وما بين سماع وتلق، إلى أن صار إمامًا يعول عليه، ورأسًا يرحل إليه «فريدًا فى عصره، ونادرة لدهره، وقدوة لغيره، بحرًا فى العلم لا يجارى، ومفسرًا للقرآن لا يبارى، ومحدثًا لا يشق له غبار، ومجتهدًا لا يثبت أحد معه فى مضمار».

ولقد خلف رحمه الله كتبًا فى العلم نافعة وكثيرة، أهمها: كتاب فتح القدير فى التفسير، وهو الكتاب الذى نحن بصدد الكلام عنه، وكتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار فى الحديث، وكتاب إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات.. رد به على موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى، وغير هذا كثير من مؤلفاته.

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألف وأفتى، ثم خلع ربقة التقليد، وتحلى بمنصب الاجتهاد، وألف رسالة سماها (القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد) تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت، وثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين من هو مقلد ومن هو مجتهد.

وعقيدة الشوكانى عقيدة السلف، من حمل صفات الله تعالى الواردة فى القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف، وقد ألف رسالة فى ذلك سماها (التحف بمذهب السلف).

هذا وقد توفى الشوكانى رحمه الله سنة ١٢٥٠هـ، فرحمه الله وأرضاه[(١)].

---

(١) انظر ترجمة المؤلف فى أول فتح القدير، وفى أول نيل الأوطار.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير أصلاً من أصول التفسير، ومرجعًا مهمًا من مراجعه، لأنه جمع بين التفسير بالدراية، والتفسير بالرواية، فأجاد فى باب الدراية، وتوسع فى باب الرواية، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية، وفرغ منه فى شهر رجب سنة تسع وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية، كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس، وابن عطية الدمشقى، وابن عطية الأندلسى، والقرطبى، والزمخشرى، وغيرهم.

طريقة الشوكانى فى تفسيره:

وطريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفينا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبينًا بها منهجه فيه.

قال رحمه الله: «... ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول: إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأسًا، وإن جاءوا به لم يصححوا لها أساسًا، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب» ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا: «وبهذا يعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه، وأخذى من بيان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتمدين، وقد أذكر ما فى إسناده ضعف؛ إما لأن فى المقام ما يقويه، أو لموافقته للمعنى العربى، وقد أذكر الحديث معزوًا إلى راويه من

غيـر بيان حال الإسناد، لأنى أجده فى الأصـول التى نقلت عنها كذلك، كـما يقع فى تفسير ابن جرير والقـرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبـعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفًـا ولا يبينوه، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقـوه: إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجـائز أن ينقلوه من دون كشف عن حـال الإسناد، بل هذا هو الذى يغلب به الظن؛ لأنهم لو كشفـوا عنه فثبت عندهم صحـته لم يتركوا بيان ذلك، كـما يقع منهم كثيرًا التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التى يروون عنها، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها، فلينظر إلى أسانيدها موفقًا إن شاء الله.

واعلم أن تفسـير السيوطى الـمسمى بالدر المنثـور، قد اشتمل على غـالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى ﷺ، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر، وقد اشتمل هذا التفسـير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتـعلق بالتفسيـر، مع اختصار لمـا تكرر لفظًا واتحد معنى بقولى: ومـثله ونحوه؛ وضممت إلى ذلك فوائد لم يشمل عليها، وجدتها فى غيرها من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التى لاحت لى، من تصحيح، أو تحسـين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح فـهذا التفسـير وإن كبر حجـمه فقد كـثر علمه، وتوفر من التـحقيق قسـمه، وأصاب غرض الحـق سهمه، واشـتمل على ما فى كـتب التفاسـير من بدائع الفوائد، مـع زوائد فرائد، وقواعـد شرائد، ثم أرجع إلى تفـاسيـبر المـعتمِـدين على الدراية، ثم أنظر فى هذا التفـسير بعد النظـرين، فعند ذلك يسفر الصـبح لذى عينين، ويتبـين لك أن هذا الكتـاب هو اللباب، وعـجب العجـاب، وذخيرة الطلاب، ونـهاية مآرب أولى الألباب... وقد سميـته «فتح القدير، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير»...»[1].

مما تقدم يتضح لك جليّا طريقة المؤلف التى سلكها فى تفسيره هذا، وقد رجعت إلى هذا التفسـير وقرأت فيه كـثيرًا، فوجدته يذكر الآيات، ثم يـفسرها تفسيرًا مـعقولاً ومقبـولاً، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك: الروايات التفـسيرية الواردة عن السلف، وهو ينقل كثيرًا عمن ذكر من أصحاب كـتب التفسير، ووجدته يذكر المناسابت بين الآيات،

---

(١) مقدمة الكتاب ص ١ - ٤.

ويحتكم إلى اللغة كثيراً، ويتفل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفراء، كما أنه يتعرض أحيانًا للقراءات السبع، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم، ويدلى بدلوه بين الدلاء، فيرجح، ويستظهر، ويستنبط، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط؛ لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين.

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

غير أنى آخذ عليه ـ كرجل من أهل الحديث ـ أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة، أو الضعيفة، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...**﴾ الآية، وقوله فى الآية (٦٧) منها ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...**﴾ الآية، يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة، ولا ينبه على أنها موضوعة، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة على، ففى الآية الأولى يقول: «... ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ جملة حالية من فاعل الفعلين اللذين قبله، والمراد بالركوع: الخشوع والخضوع، أى يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم خاشعون لا يتكبرون، وقيل: هو حال من فاعل الزكاة، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور، أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم، وقيل: المراد بالركوع على المعنى الثانى: ركوع الصلاة، ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال»(١).

ثم نراه يذكر فى ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال: تصدق على بخاتم وهو راكع، فقال النبى ﷺ للسائل: من أعطاك هذا الخاتم؟ قال: ذلك الراكع، فأنزل الله فيه ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...**﴾ الآية(٢)، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها.

وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: «نزلت هذه الآية ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ...**﴾ على رسول الله ﷺ يوم غدير خم، فى على

---

(١) جـ٢ ص ٤٨.
(٢) جـ٢ ص ٥٠.

ابن أبى طالب ﷺ» ويروى عن ابن مسعود أنه قال: (كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، أن عليًا مولى المؤمنين، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»[1] ثم يمر على هاتين الروايتين أيضًا بدون أن يتعقبهما بشىء أصلاً.

ذمه للتقليد والمقلدين:

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدى أئمة المذاهب الفقهية، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله، معرضون عن سنة رسوله ﷺ، ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه إلا أنا لا ننكر أن فى الناس من ليس أهلاً للاجتهاد، وهؤلاء لا بد لهم من التقليد، ولست فى شك من أن الشوكانى مخطئ فى حملاته على المقلدة، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ما ورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلدى الأئمة وأتباعهم، وإليك بعض ما قاله فى تفسيره:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ قال ما نصه: «... وفى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر، وأبلغ واعظ للمقلدة، الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق، فإنهم القائلون: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ (الزخرف: ٢٣) والقائلون: ﴿**وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ (الأعراف: ٢٨) والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به، وأنه الحق لم يبق عليه، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية، والنصرانى على النصرانية، والمبتدع على بدعته، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة، وأحسنوا الظن بهم، بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم، ولا طلبوا الحق كما يجب، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص، فيا من نشأ

(١) جـ٢ ص ٥٧.

على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة، وتستمر على الضلالة، فقد اختلط الشر بالخير، والصحيح بالسقيم، وفاسد الرأى بصحيح الرواية، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولاً واحداً أمرهم باتباعه، ونهى عن مخالفته فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ (الحشر: ٧) ولو كان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد، لكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى، المكلفين للناس بما لم يكلفهم الله به، وإن من أعجب الغفلة، وأعظم الذهول عن الحق، اختيار المقلدة لآراء الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله، ووجود من يأخذونهما عنه، ووجود آلة الفهم لديهم، وملكة العقل عندهم»(١).

وفى سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول ما نصه: «... وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد فى دين الله، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الكتاب العزيز، والسنة المطهرة؛ فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله، ويستن بسنته من علماء هذه الأمة، مع مخالفته لما جاءت به النصوص، وقامت به حجج الله وبراهينه، ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله؛ للقطع بأنهم لم يعبدوهم، بل أطاعوهم، وحرموا ما حرموا، وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء، فيا عباد الله، ويا أتباع محمد بن عبد الله: ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانبًا، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم فى تعبد الله لهم بهما، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه؟ فعملتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين، ونصوص الكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذانًا صمّا، وقلوبًا غلفًا، وأفهامًا مريضة، وعقولاً مهيضة، وأذهانًا كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

---

(١) جـ٢ ص ١٨٩.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا ـ أرشدكم الله وإياى ـ كتبًا كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالفكم، ومتعبدهم ومتعبدكم، ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم وإمامهم، وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأول محمد بن عبد الله ﷺ.

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال، مرشد التائه، موضح السبيل... اهدنا إلى الحق، وأرشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٢، ٥٣، ٥٤) من سورة الأنبياء ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ نجده يذم المقلدة، وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم فى حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله، وذلك حيث يقول: «... وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية، فإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل... قالوا: هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين، وبرأيه آخذين، وجوابهم هو ما أجاب به الخليل ههنا ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى فى خسران واضح لا يخفى على أحد، ولا يلتبس على ذى عقل؛ فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوى هذا الخسران خسران، وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله وبسنة رسوله كتابًا، قد دونت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، إما لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل من وجده، وأبرزه واضح المنار، كأنه علم فى رأسه نار، وقال: هذا كتاب الله، أو هذه سنة رسول الله، وأنشدهم:

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

---

(١) جـ٢ ص ٢٣٧.

فقالوا كما قال الأول:

ومـا أنا إلا من غـزية إن غـوت غـويت وإن ترشـد غـزية أرشـد

وقد أحسن من قال:

يأبى الـفـتى إلا اتبـاع الهـوى ومـنـهـج الحـق لـه واضـح»[1]

حياة الشهداء:

هذا... وإن الشوكانى ليقرر فى تفسيره هذا: أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، حياة حقيقية لا مجازية، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة آل عمران ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ «... وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟ فقيل: شهداء أحد، وقيل: فى شهداء بدر، وقيل: فى شهداء بئر معونة... وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب... ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة، ثم اختلفوا: فمنهم من قال: إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون، وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية، والمعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة، والصحيح الأول، ولا موجب للمصير إلى المجاز، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون»[2].

التوســـل:

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء؟ والأولياء موقف المعارضة، ويفيض فى الإنكار على من يفعل ذلك فى سورة يونس عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩): ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ...** ﴾ يقول ما نصه: «... وفى هذا أعظم واعظ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله ﷺ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله

(١) جـ٣ ص ٣٩٨. (٢) جـ١ ص ٣٦٥.

سبحانه، وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه، فإن هذا مقام رب العالمين، الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين، ورزقهم وأحياهم ويميتهم، فكيف يطلب من نبى من الأنبياء، أو ملك من الملائكة، أو صالح من الصالحين، ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب، القادر على كل شيء الخالق الرازق، المعطى المانع، وحسبك بما فى هده الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده: لا أملك لنفسى ضرّا ولا نفعًا، فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلاً عن أن يملكه لغيره؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذين صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، كيف لا يتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى (لا إله إلا الله) ومدلول ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١).

وأعجب من هذا، اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أشد منها، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، المحيى المميت، الضار النافع، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله، ومقربين لهم إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع، وينادونهم تارة على الاستقلال، وتارة مع ذى الجلال، وكفاك من شر سماعه، والله ناصر دينه، ومطهر شريعته من أوضار الشرك، وأدناس الكفر، ولقد توسل الشيطان ـ أخزاه الله ـ بهذه الذريعة إلى ما تقر به عينه، وينثلج به صدره، من كفر كثير من هذه الأمة المباركة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا!!... إنا لله وإنا إليه راجعون»[١].

موقفه من المتشابه:

ثم إن المؤلف ـ كما قلنا فى ترجمته ـ سلفى العقيدة، فكل ما ورد فى القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها، وفوض الكيف إلى الله؛ ولهذا نراه مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

---

(١) جـ٢ ص ٤٢٩.

يقول: «الكرسى: الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك، وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا فى ذلك خطأ بينًا، وغلطوا غلطًا فاحشًا، وقال بعض السلف: إن الكرسى هنا عبارة عن العلم، ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير، وقيل: كرسيه: قدرته التى يمسك بها السموات والأرض، كما يقال: اجعل لهذا الحائط كرسيا... أى ما يعمده، وقيل: إن الكرسى هو العرش، وقيل: هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له، وقيل: هو عبارة عن الملك، والحق القول الأول، ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ الآية، يقول ما نصه: «قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولاً، وأحقها وأولالها بالصواب مذهب السلف الصالح: أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه»(٢).

موقفه من آراء المعتزلة:

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيرًا بتعاليم المعتزلة، وأخذوا عنهم آراءهم وعقائدهم فى غالب مسائل الكلام، فإنا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم، ويعارضهم معارضة شديدة فى كثير من المواقف.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾ الآية، يقول ما نصه: «... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم؛ لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا، وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا، ووقوعها فى الآخرة، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة، وهى قطعية الدلالة، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد

---

(١) جـ١ ص ٢٤٤.
(٢) جـ٢ ص ٢٠١.

الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها، دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم بنصيب نافع. . .»[١].

كذلك نراه يرد على الزمخشرى فى دعواه: أن دخول الجنة مستحق بسبب العمل الصالح، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف: ﴿ . . . ونُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ﴾ «. . . قال الكشاف: بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقوله المبطلة. أقول: يا مسكين. . . هذا قاله رسول الله ﷺ فيما صح عنه «سددوا وقاربوا واعملوا، إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته» والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلاً، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة، وفى التنزيل ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ (النساء: ٧٠)، وفيه ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ (النساء: ١٧٥)»[٢].

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين: بأن العين لا تأثير لها فى المعين، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة يوسف: ﴿وَقَالَ يَا بَنِىَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ. . .﴾ الآية «وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى، أن للعين تأثيرًا، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة، ومنهم رسول الله ﷺ، وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف، لمجرد الاستبعاد العقلى، والتنطع فى العبارات، كالزمخشرى فى تفسيره؛ فإنه فى كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة، على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة، والمذاهب الزائفة،

---

(١) جـ١ ص ٧٢. (٢) جـ٢ ص ١٩٦.

وبالجملة، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة، وإجماع من يعتد به من هده الأمة سلفًا وخلفًا، وبما هو مشاهد فى الوجود، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب»(١).

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة فى مسألة غفران الذنوب، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿**قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا...**﴾ الآية، نجده يقول: «... وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين، وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادى، وعلى نفسها براقش تجنى، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين، وقد قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ **(النساء: ١١٦)** فلو كانت التوبة قيدًا فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة، وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ**﴾ **(الرعد: ٦)** قال الواحدى: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبى ﷺ، قلت: هب أنها فى هؤلاء فكان ماذا؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها، واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله»(٢).

موقف الشوكانى من مسألة خلق القرآن:

هذا... ولم يرض الشوكانى موقف أهل السنة، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف فى هذه المسألة، فلم يجزم فيها برأى، وراح ينحى بالأئمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة الأنبياء: ﴿**مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ**

---

(١) جـ٣ ص ٣٨.

(٢) جـ٤ ص ٤٥٧.

﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يقول ما نصه: «... وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثًا على أن القرآن محدث، لأنه الذكر هنا هو القرآن، وأجيب بأن لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد فى النزول، فالمعنى: محدث تنزيله، وإنما النزاع فى الكلام النفسى[1]، وهذه المسألة ـ أعنى قدم القرآن وحدوثه ـ قد ابتلى بها كثير من أهل العلم... ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم ـ رحمهم الله ـ جاوزوا ذلك إلى القول بقدمه، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا إلى ذلك إلى تكفير من قال: لفظى بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ـ إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة ـ شىء من الكلام، ولا تنقل عنهم كلمة فى ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه، هو الطريقة المثلى؛ وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه»[2].

هذا هو أهم ما فى تفسير الشوكانى من البحوث التى أعطى فيها لنفسه حرية واسعة، خولت له أن يسخر من عقول العامة، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة، وأن يندد ببعض مواقف أهل السنة، وأحسب أن الرجل قد دخله شىء من الغرور العلمى، فراح يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء، وليته وقف منهم جميعًا موقف الحاكم النزيه، والناقد العف... وعلى الجملة، فالكتاب له قيمته ومكانته، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم فى التفسير وأحسب أنه كثير والكتاب مطبوع فى خمس مجلدات ومتداول بين أهل العلم.

---

(١) ليس هذا هو محل النزاع، لأن الكلام النفسى بمعنى أنه صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف ولا صوت منزهة عن التقديم والتأخير ولوازم الكلام اللفظى ومنزهة عن السكون النفسى وعن الآفة الباطنة... الكلام النفسى بهذا المعنى يقول به الأشعرى وينفيه باقى الفرق ـ انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبى دقيقة ص ١٢٨ مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦م.

(٢) جـ٣ ص ٣٨٤.

الخوارج - وموقفهم من تفسير القرآن

كلمة إجمالية عن الخوارج:

بعد مقتل عثمان ﷺ، نشط أنصار على ﷺ فى الدعوة له، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين، ليكون خليفة لهم... ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر؛ لاعتقادهم أن الحق فى غير جانبه، وهؤلاء الصحابة هم: معاوية بن أبى سفيان، وطلحة بن عبد الله، والزبير بن العوام.

وكان لعلى - ﷺ - شيعة وأنصار، وكان لمعاوية - ﷺ - شيعة وأنصار كذلك، وكانت حروب طاحنة بين الفريقين!! كان الغلب فيها لعلى وحزبه، إلى أن جاءت موقعة صفين، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية، وأوشكت الهزيمة أن تحدق به، لولا أن لجأ إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح، طلبًا للهدنة، ورغبة فى التحكيم بين الحزبين، وبعد أخذ ورد بين جيش على فى قبول التحكيم وعدمه، رأى على ﷺ قبول التحكيم؛ رغبة منه فى حقن الدماء، واختار معاوية: عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب على: أبا موسى الأشعرى.

وكان قبول على - ﷺ - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه وحزبه؛ إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ، لأن الحق ظاهر فى جانب على، ولا يعتوره شك فى نظرهم، وقبول التحكيم دليل الشك من على فى أحقيته بالخلافة، وهم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه، فكيف يشك هو فيه؟؟.

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم، فخرجوا على علىٍّ، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، لقبوله التحكيم، وإلا إذا نقض ما أبرم من الشروط بينه وبين معاوية، ولكن عليا ﷺ لم يستجب لرغبتهم هذه، فأخذوا كلما خطب على أو ضمه وإياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم: (لا حكم إلا لله).

وكان التحكيم، وفيه خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى، فلم يكن إلا تحكيمًا فاشلاً، أمال قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج، وأخيرًا، وبعد يأس الخوارج من رجوع على إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم، وخطب فيهم خطبة حثهم

على التمسك بمبدئهم والدفاع عنه، وطلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها حروراء، فخرجوا إليها، وأمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى[1]، ووقعت بينهم وبين على حروب طاحنة هزمهم فيها، ولكن لم يقض عليهم، وأخيرًا دبروا له مكيدة قتله، فقتله عبد الرحمن بن ملجم.

وجاءت دولة الأمويين، فكان الخوارج شوكة فى جنبها يهددونها ويحاربونها، حتى كادوا يقضون عليها، ثم جاءت الدولة العباسية، فكان بينهم وبينها حروب كذلك، ولكن لم يكونوا فى قوتهم الأولى، لتفرق كلمتهم وتشتت وحدتهم، وضعف سلطانهم، وخور قواهم.

دبت فى وحدة الخوارج جرثومة التفرق، وأصيبوا بداء التحزب، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزبًا، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ والعقيدة... ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين:

أحدهما: إكفار على، وعثمان، والحكمين، وأصحاب الجمل، وكل من رضى بتحكيم الحكمين.

وثانيهما: وجوب الخروج على السلطان الجائر.

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج، وهو: الإكفار بارتكاب الكبائر[2].

هذا... وقد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا: «إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل، أو يحكم، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيًا، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم، ولو كان عبدًا حبشيًا، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يضخع خضوعًا تامًا لما أمر الله، وإلا وجب عزله، ولهذا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى، ولم يكن قرشيًا»[3].

وعلى هذا حكموا بصحة خلافة أبى بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى، فلما غير وبدل ولم يسر سيرة الشيخين ـ كما زعموا ـ وجب عزله، وأقروا

---

(١) نسبة إلى راسب، حى من الأزد.

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٥٥.

(٣) فجر الإسلام (١/ ٣١٧).

بصحة خلافة على أولاً، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم، وكفر به كما يزعمون!.

ولا يسعنا فى تلك العجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج، ولكن نكتفى بالكلام عن أشهرها، وهى ما يأتى:

أولاً: الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهم يكفرون من عداهم من المسلمين، ويحرمون أكل ذبحائهم ومناكحتهم، ولا يجيزون التوارث بينهم، ويعاملونهم معاملة الكفار من المشركين... إما الإسلام، وإما السيف، ودارهم دار حرب، ويحل قتل نسائهم وأطفالهم، ولا يقولون برجم الزانى المحصن، ولا يقولون بحد من يقذف المحصنين من الرجال... أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعًا، ولا يرون جواز التقية.

ثانيًا: النجدات: وهم أتباع نجدة بن عامر، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط، بل عليهم أن يتناصفوا فيها بينهم، فإن رأوا أن الحاجة تدعو إلى إمام أقاموه، وإلا فلا، كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع بن الأزرق، ويكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه، ويقولون: إن الدين أمران:

أحدهما: معرفة الله تعالى، ومعرفة الرسول، والإقرار بما جاء به جملة، فهذا واجب معرفته على كل مكلف.

وثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحجة.

فمن استحل شيئًا حرامًا باجتهاد فله عذره؛ وهم يعظمون جريمة الكذب، ويجعلونها أكبر جرمًا من شرب الخمر والزنى.

ومن بدع نجدة: أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، وقال: لعل الله يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم ثم يدخلهم الجنة، وزعم أن النار يدخلها من خالفه فى دينه.

ثالثًا: الصفرية: وهم أتباع زياد بن الأصفر، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك، ومن الصفرية من يخالف فى ذلك فيقول: كل ذنب له حد فى الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركًا، ولا كافرًا، بل يدعى باسمه المشتق من جريمته يقال: سارق، وقاتل، وقاذف،

وكل ذنب ليس فيه حد معلوم فى الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر. . . ولا يسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعًا مؤمنًا، ومنهم من يقول: إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالى فيحده ويحكم بكفره.

رابعًا: الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أعدل فرق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السنة، وهم يجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين، ولا مؤمنين، ولكنهم كفار، ويروى عنهم أنهم يريدون كفر النعمة، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوارث معهم، وحرموا دماءهم فى السر دون العلانية، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولا يدينون دين الحق ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم: الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة حربية لهم، ولم يستحلوا غنائم الذهب والفضة، بل يردونها لأهلها.

واختلفوا فى النفاق على ثلاثة أقوال:

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك والإيمان معًا، ويحتج بقوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة النساء ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ**﴾.

وفريق يرى أن كل نفاق فهو شرك، لأنه ينافى التوحيد.

وفريق ثالث يرى أن النفاق لا يسمى به غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين.

وهناك مخالفة لبعض الإباضية فى بعض المسائل، لا نعرض لها هنا، مخافة التطويل.

هذه هى أهم فرق الخوارج، وهذه هى أهم ما لهم من تعاليم وعقائد؛ نضعها بين يدى القارئ قبل أن نتكلم عن موقفهم من التفسير، ليكون على علم بها، وليعلم بعد ذلك مقدار الصلة بينها وبين ما لهم من تفسير.

* * *

مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم

تعددت فرق الخوارج، وتعـددت مذاهبهم وآراؤهم، فكان طبيعيّـا ـ وهم ينتسبون إلى الإسلام، ويعترفون بالقرآن ـ أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم، تبنى عليهـا مبادئها وتعاليـمها، وأن تنظر إلى القرآن من خـلال عقيدتهـا، فما رأته فى جانبها ـ ولو ادعاء ـ تمـسكت به، واعتمدت عليه، وما رأته فى غيـر صالحها حاولت التخلص منه بصرفه وتأويله، بحيث لا يبقى متعارضًا مع آرائها وتعاليمها.

سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن:

والذى يقرأ تاريخ الخوارج، ويقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية، يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم، وتحكم فيها، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا على ضوئه، ولا يدركون شـيئًا من مـعانيه إلا تحت تأثيـر سلطانه، ولا يأخذون منه إلا بقدر مـا ينصر مبادئهم ويدعو إليها.

فمثلاً نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر، ومخلد فى نار جهنم، ونقـرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحـديد ـ وهو ممن تعرض لهم فى كتـابه (شرح نهج البلاغة) ـ يسوق لنا أدلتـهم التى أخذوها من القرآن، وبنوا عليها رأيهم فى مـرتكب الكبيرة، كما نجده يـناقش هذه الأدلة ويفندها دليلاً بعد دليل، ونرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبى الحديد لهذه الأدلة، ويكفى أن نسوق للقارئ الكريم هذه الآيات التى اسـتندوا إليها ووجـهة نظرهم فـيها، فـهى التى تعنينا فى هذا البحث وهى التى ترينا إلى أى حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة فى فهم نصوص القرآن.

فمن هذه الأدلة ما يأتى:

قوله تعالى فى الآية (٩٧) من سـورة آل عمران: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَـيْـتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ قالوا: فجعل تارك الحج كافرًا.

ومنهـا: قوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة يوسف ﴿**إِنَّهُ لا يَيْـأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَـوْمُ الْكَافِـرُونَ**﴾ قالوا: والفـاسق، لفسقه وإصـراره عليه، آيس من روح الله، فكان كافرًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (٤٤) من سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قالوا: وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (١٤ - ١٦) من سورة الليل ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ⑭ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ⑮ الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ قالوا: وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار، فوجب أن يسمى كافرًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (١٠٦) من سورة آل عمران ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قالوا: والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت، ووجب أن يسمى كافرًا؛ لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ㊳ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ㊴ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ㊵ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ㊶ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ قالوا: والفاسق على وجهه غبرة، فوجب أن يكون من الكفرة الفجرة.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة سبأ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ قالوا: والفاسق لا بد أن يجازى، فوجب أن يكون كفورًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة الحجر ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وقال فى الآية (١٠٠) من سورة النحل ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ قالوا: فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة السجدة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قالوا: فجعل الفاسق مكذبًا.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام ﴿... وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قالوا: فأثبت الظالم جاحدًا، وهذه صفة الكفار.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى فى الآيات (١٠٢ - ١٠٥) من سورة المؤمنون ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ قالوا: فنص سبحانه على أن من تخف موازينه يكون مكذبًا، والفاسق تخف موازينه فكان مكذبًا، وكل مكذب كافر.

ومنها: قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة التغابن ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾ قالوا: وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر، والفاسق ليس بمؤمن، فوجب أن يكون كافراً[(١)].

هذه بعض الآيات التى تمسك بها الخوارج فى موقفهم من مرتكب الكبيرة الذى لم يتب، والتى حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين، ولا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى شأن عصاة المؤمنين، ويتأمل قليلاً فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولون بها، لا يسعه بعد هذا كله إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون، ومندفعون بدافع العقيدة، وسلطان المذهب.

وهناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج، لتدعيم مبادئهم التى يشذون بها عمن عداهم من بعض فرق الخوارج، وهى فى مظهرها التفسيرى أكثر تعصبًا، وأبلغ تعنتًا، فمن ذلك: أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقية التى هى فى الأصل من مبادئ الشيعة، ويستدل على حرمتها بقوله تعالى فى الآية (٧٧) من سورة النساء ﴿... **إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ**﴾.

ويرى نجدة بن عامر جواز التقية، ويستدل على ذلك بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة غافر ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾.

وأظهر من هذا: أن نجدة بن عامر كان لا يصوب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القعدة، واستحلال قتل أطفال مخالفيه، وعدم رد الأمانات إلى مخالفيه، وغير ذلك من آرائه التى شذ بها، فأرسل نجدة إلى نافع رسالة يقول له فيها: «... وأكفرت

---

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص ٣٠٧، ٣٠٨.

الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم، قال الله عز وجل ـ وقوله الحق ووعده الصدق: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ (التوبة: ٩١) ثم سماهم ـ تعالى ـ أحسن الأسماء فقال: ﴿ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ** ﴾ (التوبة: ٩١) ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ **وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴾ (الأنعام: ١٦٤) وقال سبحانه فى القعدة خيرًا فقال: ﴿ **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء: ٩٥) فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين. . . أوما سمعت قوله تعالى ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ** ﴾ (النساء: ٩٥) فجعلهم من المؤمنين، ثم إنك لا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها، فاتق الله فى نفسك؛ واتق يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا، فإن الله بالمرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل، والسلام».

فرد عليه نافع بكتاب جاء فيه: «. . . وعبت ما دنت به من إكفار القعدة وقتل الأطفال، واستحلال الأمانة من المخالفين، وسأفسر لك إن شاء الله.

أما هؤلاء القعدة، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن والطريق لهم نهج واضح، وقد عرفت ما قاله الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا ﴿ **كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ (النساء: ٩٧) فقال: ﴿ **أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ (النساء: ٩٧) وقال سبحانه: ﴿ **فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (التوبة: ٨١) وقال: ﴿ **وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ** ﴾ (التوبة: ٩٠) فخبر بتعذيرهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله، ثم قال: ﴿ **سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٩٠) فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال، فإن نوحًا نبى الله كان أعلم بالله منى ومنك، وقد قال ﴿ **رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا** ﴾

(نـوح: ٢٦، ٢٧) فسماهم بالكفر وهم أطفـال وقبل أن يولدوا، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا نقوله فى قومنا... والله تعالى يقول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القمر: ٤٣) وهؤلاء كمشركى العرب لا يقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال أمانات من خالفنا، فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم كما أحل دماءهم لنا، فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فىء للمسلمين...»[1].

ولا شك لدينا فى أن نافع بن الأزرق متـعصب فى فهمـه للآيات على النحو الذى جاء فى رسـالته هذه، وهو تـعصب بلغ به إلى درجـة المغالـطة، وإلا فهو جـهل منه بمواقع كلام الله، ومدلول آياته.

مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن:

هذا... وإن الخـوارج عندمـا ينظرون إلى القـرآن لا يتعـمـقون فى التـأويل ولا يغوصـون وراء المعانى الدقـيقة، ولا يكلفـون أنفسهم عناء البـحث عن أهداف القرآن وأسراره، بل يقـفون عند حـرفية ألفـاظه، وينظرون إلى الآيات نظرة سطحيـة، وربما كانت الآية لا تنطبق على مـا يقصدون إليه، ولا تتـصل بالموضوع الذى يستـدلون بها عليه، لأنهم فهموا ظاهراً معطلا، وأخذوا بفهم غير مراد.

ولقد يعجب الإنسان ويدهش عندما يقرأ ما للقـوم من سخافات فى فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعهم فيها التنطع والتمسك بظواهر النصوص، ولكى لا أتهم بالقسوة فى حكمى هذا، أضع بين يدى القـارئ الكريم بعض ما جاء عن القوم، حـتى لا يجد مفرّا من الحكم عليهم بمثل ما حكمت به.

«روى أن عبيـدة بن هلال البشكرى اتهم بامرأة حداد رأوه يدخل منـزله بغير إذنه، فـأتوا قطريّا[2] فذكروا ذلك له، فـقال لهم: إن عبيدة من الدين بـحيث علمتم، ومن الجهاد بحيث رأيتم، فـقالوا: إنا لا نقاره على الفاحشة، فـقال: انصرفوا... ثم بعث إلى عبيدة فأخبـره وقال: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتونى يا أمـير المؤمنين فما

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الأول ص ٣٨٢.

(٢) هو قطرى بن الفجاءة الزعيم الثالث للأزارقة.

إلى عبيدة فأخبره وقال: إنا لا نقار على الفاحشة، فقال: بهتونى يا أمير المؤمنين فما ترى؟ قال: إنى جامع بينك وبينهم؛ فلا تخضع خضوع المذنب، ولا تتطاول تطاول البرىء. . . فجمع بينهم فتكلموا، فقام عبيدة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**...﴾ الآيات (١١ وما بعدها من سورة النور) فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا: استغفر لنا. . . ففعل»[١].

«ويروى أن واصل بن عطاء وقع هو وبعض أصحابه فى يد الخوارج فقال لأصحابه: اعتزلوا ودعونى وإياهم ـ وكانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا: شأنك. . . فخرج إليهم فقالوا: ما أنت وأصحابك؟ قال: مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده، فقالوا: قد أجزناكم، قال: فعلمونا: فجعلوا يعلمونه أحكامهم، وجعل يقول: قد قبلت أنا ومن معى، قالوا: فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا، قال: ليس ذلك لكم، قال الله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ**﴾ (التوبة: ٦) فأبلغونا مأمننا، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا: ذلك لكم، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن»[٢].

ومن الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال: «لو أن رجلاً أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار، لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة النساء: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**﴾ ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار، لأن الله لم ينص على ذلك»[٣].

وهذا هو ميمون العجردى زعيم الميمونية[٤] من الخوارج، يرى جواز نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والأخوات ويستدل على ذلك فيقول: «إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النساء بالنسب الأمهات، والبنات والأخوات والعمات، والخالات، وبنات الأخ، وبنات الأخت، ولم يذكر بنات البنات ولا بنات البنين، ولا بنات أولاد الإخوة ولا بنات أولاد الأخوات»[٥].

---

(١) الكامل للمبرد (٢/ ٢٣٦). (٢) الكامل للمبرد (٢/ ١٠٦).
(٣) تلبيس إبليس ص ٩٥.
(٤) يعدهم صاحب الفرق بين الفرق من غير فرق المسلمين.
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٦٤، ٤٦٥.

ويروى أن رجلاً من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه، وكانت له جارية على مذهبه قال لها: قدمى شيئًا، فأبطأت، فحلف ليبيعها من الأعراب، فقيل له: تبيع جارية مؤمنة من قوم كفار، فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٥)(١).

وأيضًا نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين ﵂، وقالوا: لم خرجت من بيتها، والله تعالى يقول: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب: ٣٣)(٢).

وأيضًا فإن الأزارقة قالوا: من قذف امرأة محصنة فعليه الحد، ومن قذف رجلاً محصنًا فلا حد عليه(٣)... وهذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات، ولم ينص على حد قاذف المحصنين.

وقالوا - أيضًا - بأن سارق القليل يجب عليه القطع(٤)، أخذًا بظاهر قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾.

وغير هذا كثير نجده عنهم فى بطون الكتب، وهو لا يدع مجالاً للشك فى أن الخوارج قوم سطحيون فى فهمهم لآيات القرآن الكريم، وإدراك معانيه.

موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة، وأثر ذلك فى تفسيرهم للقرآن:

ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية، أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخًا لبعض آيات الكتاب، أو مخصصًا لبعض عموماته، أو زائدًا على بعض أحكامه، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملك قلوب الخوارج، وتسلط على عقولهم، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله ﷺ هذا الحديث، وهو: «إنكم ستختلفون من بعدى، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس منى» فقد قال عبد الرحمن المهدى: «الزنادقة والخوارج وضعوا حديث: ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله... إلخ»(٥).

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضًا، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع

(١) التبصير فى الدين ص ٣٥.
(٢) التبصير فى الدين ص ٣٦.
(٣) التبصير فى الدين ص ٢٩.
(٤) التبصير فى الدين ص ٢٩.
(٥) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام مصطفى صبرى ص ٦٤، ٦٥ (هامش) وقد اغتر بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين، وكان ذريعة لتشكيك بعض الناس فى عقائدهم.

الأمة، ولم يقدروه عند فهمهم لنصوص القرآن، مع أن الإجماع فى الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة، وليس أمرًا مبتدعًا فى الدين، أو خارجًا على قواعده وأصوله.

وفى هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج، وهى مخالفة لإجماع الأمة، ومناقضة لما صح عن الرسول ﷺ، وقالوا: يبطلها القرآن... فيقول:

«... وقالوا: حكم فى الرجم يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ رجم، ورجمت الأئمة من بعده، والله تعالى يقول فى الإماء: ﴿**فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ**﴾ (النساء: ٢٥) والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض، فكيف يكون على الإماء نصفه؟... وذهبوا إلى أن المحصنات؛ ذوات الأزواج... قالوا: وفى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد»(١).

«قالوا: حكم فى الوصية يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: (لا وصية لوارث) والله تعالى يقول: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ**﴾ (البقرة: ١٨٠) والوالدان وارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث، وهذه الرواية خلاف كتاب الله عز وجل»(٢).

(قالوا: حكم فى النكاح يدفعه الكتاب... قالوا: رويتم أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها) وأنه قال: (يحرم من الرضاع من يحرم من النسب) والله عز وجل يقول: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...**﴾ (النساء: ٢٣) إلى آخر الآية، ولم يذكر الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، ولم يحرم من الرضاع إلا الأم المرضعة والأخت بالرضاع... ثم قال: ﴿**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ**﴾ (النساء: ٢٤) فدخلت المرأة على عمتها وخالتها، وكل رضاع سوى الأم، والأخت فيما أحله الله تعالى»(٣).

يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى بنفسه الرد عليهم فى ذلك كله ردًا مسهبًا فيه

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢.

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣، ٢٤٤.

إزالة كل شبهة، ودفع كل حجة وردت على ألسن القوم، ولا نطيل بذكر ذلك، ومن أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه فى (تأويل مختلف الحديث) ص٢٤١ - ٢٥٠.

الإنتاج التفسيرى للخوارج:

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيرى مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة، أو غيرهما من فرق المسلمين التى خلفت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ما وصل إلينا من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليه مناظراتهم، وذكرنا لك منها كل ما وصل إلى أيدينا، وجميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة.

ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير؟ وهل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة فى التفسير، ولكن فقدتها المكتبة الإسلامية على طول الأيام ومر العصور؟.

الحق أنى وجهت لنفسى هذا السؤال، وكدت أعجز عن الجواب عنه... ولكن هيأ الله لى ظرفًا جمعنى مع رجل من الإباضية المعاصرين، يقيم فى القاهرة، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه، فأفهمنى أن الإنتاج التفسيرى للخوارج كان قليلاً بالنسبة لإنتاج غيرهم من فرق الإسلام، ومع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه، لبعض العلماء من الإباضية فى القديم والحديث.

فسألته: وهل تذكر شيئًا من هذه الكتب؟ فذكر لى من الكتب ما يأتى:

١- تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسى... من أهل القرن الثالث الهجرى.

٢- تفسير هود بن محكم الهوارى... من أهل القرن الثالث الهجرى.

٣- تفسير أبى يعقوب، يوسف بن إبراهيم الورجلانى........ من أهل القرن السادس الهجرى.

٤- داعى العمل ليوم الأمل... للشيخ محمد بن يوسف اطفيش... من أهل القرن الحاضر.

٥- هميان الزاد إلى دار المعاد... له أيضًا.

٦- تيسير التفسير... له أيضًا.

فقلت له: وهل يوجد شيء من هذه الكتب إلى اليوم؟... فقال لى:

أما تفسير عبد الرحمن بن رستم، فغير موجود، وأما تفسير هود بن محكم، فموجود، ومتداول بين الإباضية فى بلاد المغرب، وهو يقع فى أربع مجلدات، وقد أطلعنى منه على جزءين مخطوطين عنده، وهما الأول والرابع، أما الأول: فيبدأ بسورة الفاتحة، وينتهى بآخر سورة الأنعام، وأما الرابع: فيبدأ بسورة الزمر، وينتهى بآخر القرآن[1].

قال: وأما تفسير أبى يعقوب الورجلانى، فغير موجود، ويذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثًا، وتحقيقًا، وإعرابًا.

وأما تفسير داعى العمل ليوم الأمل، فلم يتمه مؤلفه؛ لأنه عزم على أن يجعله فى اثنين وثلاثين جزءًا، ثم عدل عن عزمه هذا، واشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد.

وقد أطلعنى محدثى على أربعة أجزاء من تفسير داعى العمل، فى مجلدين مخطوطين بخط المؤلف، أما أحد المجلدين: فإنه يحتوى على الجزء التاسع والعشرين، والجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب، وهو يبدأ بسورة الرحمن، وينتهى بآخر سورة التحريم، وأما المجلد الثانى: فإنه يحتوى على الجزء الحادى والثلاثين، والجزء الثانى والثلاثين، وهو يبدأ بسورة تبارك، وينتهى بآخر القرآن، وقد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص) ويظهر ـ كما قال محدثى ـ أُن المؤلف قد ابتدأ تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس، ثم بدأ بسورة (ص) ووقف عندها ولم يتم.

وأما تفسير هميان الزاد، فموجود ومطبوع فى ثلاثة عشر مجلدًا كبارًا، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، ونسخة أخرى عند محدثى.

وأما تيسير التفسير، فموجود ومطبوع فى سبع مجلدات متوسطة الحجم، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، وأخرى عند محدثى أيضًا.

---

(١) طبع مؤخرًا، وسنتكلم عليه بالتفصيل فى التتمة (د. مصطفى الذهبى).

أسباب قلة إنتاج الخوارج فى التفسير:

وأنت ترى أن هذه الكتب المذكورة، ما وجد منها وما لم يوجد، كلها للإباضية وحدهم، ولعل السر فى ذلك: أن جميع فرق الخوارج ما عدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر.

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا، ومذهبهم منتشر فى بلاد المغرب، وحضرموت، وعمان، وزنجبار.

ولكن بقى بعد هذا سؤال يتردد فى نفسى، ولعله يتردد فى نفس القارئ أيضًا، وهو: ما السر فى أن الخوارج قل إنتاجهم فى التفسير؟.

والجواب عن هذا السؤال ـ كما أعتقد ـ ينحصر فى أمور ثلاثة وهى ما يأتى:

أولاً: أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية، ومن قبائل تميم على الأخص، وقليل منهم كان يسكن البصرة والكوفة مع احتفاظه ببداوته، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى، والعلمى، والاجتماعى، وكانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته، وعلى فطرته، بدون أن تشوبه تعاليم الأمم الأخرى، أضف إلى ذلك: احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير، وضيق التصور، والبعد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم.

ثانيا: أنهم شغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم، وكانت حروبًا قاسية وطويلة، ومتتابعة... أسلمتهم حروب على إلى حروب الأمويين، وأسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار، وتؤذن بالفناء، فكان من الطبيعى أن لا تدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث والتصنيف.

ثالثًا: أن الخوارج ـ مع ما هم عليه من شذوذ ـ كانوا يخلصون لعقيدتهم، ويتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير، ويرون أن الكذب جريمة من أكبر الجرائم، وبه ـ عند جمهورهم ـ يخرج الإنسان من عداد المؤمنين، فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض فى تفسير القرآن، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه، مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله... وقد سئل بعضهم: لمَ لمْ تفسر القرآن؟ فقال: (كلما رأيت قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** ﴾ (الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦) أحجمت عن التفسير).

من أجل هذا كله لم يكن ينتظر من الخوارج أن يؤلفوا لنا فى التفسير كما ألف غيرهم، وليس التفسير وحده هو الذى حرم من تصنيف الخوارج وتأليفهم بل كل العلوم فى ذلك سواء، وما وجد لهم من مؤلفات فى علم الكلام أو الفقه، أو الأصول، أو الحديث، أو التفسير، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم، لأن هذه الفرقة هى التى عاشت وانتشرت فى كثير من بلاد المسلمين، واستمرت إلى يومنا هذا، وتأثرت بتعاليم المعتزلة وغيرهم، وسايرت التطور العلمى والاجتماعى.

وبعد: فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير، وهو تراث نادر عزيز، وما وجد منه أندر وأعز، وأرى أن أكتفى بالكلام عن هميان الزاد إلى دار المعاد وحده، وعذرى فى ذلك: أن ما وجدناه من تفسير هود بن محكم، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافى الذى يعطينا فكرة واضحة عنه، وعن مؤلفه، وذلك راجع إلى رداءة خطه، وضياع بعض أوراقه، وتآكل بعضها.

وما وجدناه من تفسير (داعى العمل ليوم الأمل) لم يكن أكثر حظًا من تفسير هود ابن محكم.

وأما تيسير التفسير، فهو فى الحقيقة خلاصة لما تضمنه هميان الزاد فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عند مفسره على الأصل.

* * *

هميان الزاد إلى دار المعاد
لمحمد بن يوسف إطفيش

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

مؤلف هذا التفسير هو محـمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبى[٢]، الإباضى، وهو من وادى ميزاب بصـحراء الجزائر من بلاد المغرب، و نشـأ بين قومه، وعـرف عندهم بالزهد والورع، واشـتغل بالتـدريس والتـأليف وهو شـاب لم يتجـاوز السادسة عـشرة من عمره، وانكب على القراءة والتأليف، حـتى قيل إنه لم ينم فى ليلة أكـثر من أربع سـاعات، وله من المـؤلفـات فى شتى العلوم ثـروة عظيمـة تربو على الثلاثمـائة مؤلف. . . فمن ذلك: نظم المـغنى لابن هشام فى خمـسة آلاف بيت. . . وكان ذلك فى شـبابه، وشرح كتـاب التوحيد للشـيخ عيسى بن تبـغورين وهو من أهم مؤلفاته فى علم الكلام، وشـرح كتاب العدل والإنصاف فى أصول الفـقه لأبى يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجـلانى، وله فى الحـديث: وفـاء الضمـانة بأداء الأمـانة، وهو مطبوع فى ثلاثـة مجلدات، وجامع الشـمل فى حديث خاتم الرسـل، وهو مطبوع فى مجلد واحد، وله فى الفـقه: شرح كتاب النيل، وهو مطبوع فى عـشرة مجلدات، وله مـؤلفـات أخرى فى الـنحو والصـرف، والبـلاغـة، والفلك، والعـروض، والوضع، والفرائض، وغيرها.

وأما التـفسـير فله فـيه: داعى العمل لـيوم الأمل، لم يتم، وهمـيان الزاد إلى دار المعاد. . . وهو مـا نحن بصدده، وتيسير التـفسير. . . وهو مختـصر من السابق هذا، وقد توفى المـؤلف سنة ١٣٣٢هـ انثين وثلاثـين وثلاثمائة وألف من الهـجرة، وله من العمر ست وتسعون سنة.

---

(١) اعتمدنا فى هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم اطفيش، وهو تلميذ المؤلف وابن أخيه.

(٢) الوهبى نسبة إلى عبد الله بن وهب الراسبى، الزعيم الأول للخوارج.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم فى عصورهم الأولى؛ وذلك لقرب عهد مؤلفه، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه، والذين خالفوه فيه.

ولقد جرت سنة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم، وصاحبنا فى تفسيره هذا، استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم ومشاربهم وإن كان يدعى فى مقدمته أنه لا يقلد فيه أحدًا إلا إذا حكى قولاً، أو قراءة، أو حديثًا، أو قصة، أو أثرًا لسلف، وأما نفس تفاسير الآى، والرد على بعض المفسرين، والجواب، فمن عنده إلا ما نسبه لقائله، كما يدعى أنه كان ينظر بفكره فى الآية أولاً، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشرى، والقاضى البيضاوى. . . وهو الغالب، وتارة يخالفهما، ويوافق وجهًا أحسن مما أثبتاه أو مثله.

ومهما يكن من شىء فلا يسعنا إلا أن نقول: إن الرجل ـ وقد قرأ الكثير من كتب التفسير ـ تأثر بما جاء فيها، واستفاد الكثير من معانيها مما يدعونا إلى القول أن تفسيره بمثل التفسير المذهبى للخوارج الإباضية فى أواخر عصورهم فقط، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التى مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن.

نقرأ فى هذا التفسير فنجد أن صاحبه يذكر فى أول كل سورة عدد آياتها، والمكى منها والمدنى، ثم يذكر فضائل السورة، مستشهدًا لذلك فى الغالب بالأحاديث الموضوعة فى فضائل السور، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحًا وافيًا، فيسهب فى المسائل النحوية، واللغوية، والبلاغية، ويفيض فى مسائل الفقه والخلاف بين الفقهاء، كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات، وهو مكثر إلى حد كبير من ذكر الإسرائيليات التى لا يؤيدها الشرع، ولا يصدقها العقل، كما يطيل فى ذكر تفاصيل الغزوات التى كانت على عهد رسول الله ﷺ، ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها فى جانبه إلا مال بها إلى مذهبه، وجعلها دليلاً عليه، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا

تلمس لها كل ما فى طاقته من تأويل؛ ليتخلص من معارضتها... وقد يكون تأويلاً متكلفًا وفاسدًا، لا ينجيه من معارضة الآية له، لكنه التعصب الأعمى... يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله، ويطرح تفكيره الصائب، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ وتفكير خاطئ!! وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير؛ لتقف على مسلك صاحبه فى فهمه لآيات القرآن الكريم.

حقيقة الإيمان:

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة ﴿... **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ نراه يقرر: أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد، والإقرار، والعمل، ثم يقول: «فمن أخل بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل، فهو مشرك من حيث الإنكار، منافق أيضًا من حيث أنه أظهر ما ليس فى قلبه، ومن أخل بالإقرار وحده، أو بالإقرار والعمل، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا، وقال القليل: إنه إذا أخل بالإقرار وحده، مسلم عند الله من أهل الجنة، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة... وإن أخل بالعمل فقط، فمنافق عندنا، فاسق ضال، كافر كفرًا دون شرك غير مؤمن الإيمان التام... ثم قال: واختلف الخوارج... وهم الذين خرجوا عن ضلالة على، فقالت الإباضية الوهبية، وسائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة: ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد، أو بترك الإقرار، وينافق بترك العمل، ويثبتون الصغيرة، وقال الباقون كذلك وإنه لا صغيرة، ومذهب المحدثين انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد على التكميل لا على أنه ركن، ونحن نقول: انضمامهما إليه ركن، وهما جزء ماهيته...»[١].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة ﴿... **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ الآية، نراه يحاول محاولة جدية فى تحقيق أن العمل جزء من الإيمان ولا يتحقق الإيمان بدونه، فيقول: «ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله ـ عز وجل ـ الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا

---

(١) جـ١ ص ٢٠٠.

يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونًا بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى، إذ لا يخدم الإنسان مثلاً سلطانًا لا يعتقد بوجوده، وثبوت سلطته، فالعمل الصالح كالبناء النافع، المظلل المانع للحر، والبرد والمضرات، والإيمان أس، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه، ولو بنى الإنسان ألوفًا من الأسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص، والحر، والبرد، وغير ذلك: فإذا ذكر الإيمان مفردًا قيد بالعمل الصالح، وإذا ذكر العمل الصالح، فما هو إلا فرع الإيمان؛ إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده، وفى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان، دليل على أن كلا منهما غير الآخر؛ لأن الأصل فى العطف المغايرة بين المتعاطفين، ففى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان»[1].

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة البقرة ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ يقول: (... «سيئة» خصلة قبيحة، وهى الذنب الكبير، سواء كان نفاقًا أو إشراكًا، ومن الذنوب الكبيرة: الإصرار، فإنه نفسه كبيرة، سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة، والدليل على أن السيئة: الكبيرة قوله ﴿**فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ ويحتمل وجه آخر وهو أن السيئة: الذنب صغيرًا أو كبيرًا، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ وإن قلت: روى قومنا عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السيئة هنا الشرك، وكذا قال الشيخ هود ـ رحمه الله ـ إنها الشرك، قلت: ما ذكرته أولى مما ذكراه؛ فإن لفظ السيئة عام، وحمله على العموم أولى؛ إذ ذلك تفسير منهما لا حديث، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار، ولم يحصروا دخولها على الشرك، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكبير، سواء كان أبديًا، أو غير أبدى، وادعاء أن الخلود فى الموحدين

---

(١) جـ١ ص ٣٦٠، ٣٦١.

بمعنى المكث الطويل، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم، استعمال للكلمة فى حقيقتها ومجازها، وهو ضعيف، وأيضًا ذكر إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره، لكنه أنسب بغيره؛ لأن الشرك أقوى ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار، فصار لا خلاص له منها، كمن أحاط به العدو، أو الحرق، أو حائط السجن، وذلك بأن مات غير تائب»(١).

حملته على أهل السنة:

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب فى النار على قدر معصيته، ثم يدخل الجنة بعد ذلك، ندد بهم ولمزهم.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة البقرة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقول: «... وترى أقوامًا ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود فى قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ (آل عمران: ٢٤)»(٢).

مغفرة الذنوب:

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها، ويحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة وإن لم يتب.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨٤) من سورة البقرة ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ...﴾ يقول: «... ولا دليل فى الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها، كما زعم غيرنا، لحديث «هلك المصرون»(٣).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٢٩) من سورة آل عمران ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ يقول: «يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة، ويعذب من يشاء تعذيبه بأن لا يوفقه، وليس من الحكمة أن يعذب المطيع

(١) جـ٢ ص ١٤٠. (٢) جـ١ ص ٢٢٨. (٣) جـ٣ ص ٤٤٣.

الموفى، وليس مدبها أن يرحم العاصى المصر، وقد انتفى الله من أن يكون ظالمًا، وعد من الظلم: النقص من حسنات المحسن، والزيادة فى سيئات المسىء، وليس من الجائز عليه ذلك، خلافًا للأشعرية فى قولهم: يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين، والنار جميع الأبرار، وقد أخطأوا فى ذلك...»[١].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقول: «بشرط التوبة منها، بدليل التقييد بها فى مواضع من القرآن والسنة، والمطلق يحمل على المقيد، وقد ذكرت فى القرآن مرارًا شرطًا للغفران، فذكرها فيما ذكرت، ذكر لها فيما لم تذكر، وإنما تحذف لدليل، والقرآن فى حكم كلام واحد لا يتناقض، حاشاه، وأيضًا لا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها، لأن ذلك يؤدى بهم إلى الاجتراء عليها، وقد أخفى الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث إنه غفرها، ويدل لذلك تعقيب الآية بقوله: «وأنيبوا إلى ربكم» لئلا يطمع طامع كالقاضى - يريد البيضاوى - فى حصول المغفرة بلا توبة، ويدل له أيضًا قراءة ابن مسعود وابن عباس «يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء» أى لمن يشاؤه بالتوبة... وأما قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة، أى يغفرها، ويقبل التوبة منها، لأن من شأنه الغفران العظيم، الرحمة العظيمة وملكه وغناه واسع لذلك، والمراد بالآية: التنبية على أنه لا يجوز لمن عصى الله - أى عصيان كان - أن يظن أنه لا يغفر له، ولا يقبل توبته، وذلك مذهبنا معشر الإباضية، وزعم القاضى وغيره: أن الشرك يغفر بلا توبة، ومشهور مذهب القوم: أن الموحد إذا مات غير تائب: يرجى له، وأنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة، وإن شاء غفر له، ومذهبنا: أن من مات على كبيرة غير تائب: لا يرجى له»[٢].

رأيه فى الشفاعة:

ويرى المؤلف: أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين، ولا لأصحاب الكبائر، ومن خلال رأيه هذا ينظر إلى آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا ما يتفق ومذهبه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ

(١) جـ٤ ص ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) جـ١٢ ص ٧٢.

تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول: «... وإن قلت: فهل الشفاعة والفداء بالعدل واقعان ولكن لا يقبلان؟ أم غير واقعين؟ قلت: غير واقعين... أما من تأهل للشفاعة من الملائكة والأنبياء والعلماء والصالحين، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم، فإن تعرضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم، قيل لهم: إنهم بدلوا وغيروا، وليسوا أهلاً لها، فيتركوا التعرض لها، وأما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدرى ما يفعل به»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من السورة نفسها **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾** يقول: «**﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾** لعدمها هناك فالمراد أنه لا شفاعة تنفعها، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها، وليس المراد أنه هناك شفاعة لا تقبل، وإنما ساغ ذلك، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع، كما تصدق بنفى المحمول، فكما تقول: ليس زيد قاعداً فى السوق وتريد أنه فيها لكنه قائم، كذلك تقول: ليس زيد قاعداً فيها، وتريد أنه ليس فيها أصلاً وذلك مخصوص بالمشرك؛ فإنه لا شفاعة له هنالك إلا شفاعة القيام لدخول النار ولا نفع له فى دخول النار، وإنما الشفاعة للموحد التائب»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأنعام **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ...﴾** الآية، يقول: «... فالآية نص أو كالنص فى أن لا شفاعة لأهل الكبائر، أى أنت برىء منهم على كل وجه وقد علمت عن عمر وأبى هريرة أن الآية فى أهل البدع من هذه الأمة»(٣).

رؤيـــة الله تعالى:

ويرى صاحبنا: أن رؤية الله تعالى غير جائزة، ولا واقعة لأحد مطلقًا، ويصرح بذلك فى تفسيره لآيات الرؤية، ويرد على أهل السنة الذين يقولون يجوازها فى الدنيا، ووقوعها للمؤمنين فى الآخرة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾** الآية، نراه يذكر ما ورد من الروايات فى هذا الباب،

---

(١) جـ٢ ص ١٧. (٢) جـ٢ ص ٢٩٩. (٣) جـ٦ ص ٢٧٤.

ومن الروايات رواية تفيد: أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة، يعقب عليها فيقول: «وهذه الرواية تقتضى أن موسى يجيز الرؤية، حتى سألها ومُنِعَهَا... وليس كذلك، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك، فنهاهم عن ذلك وحرمه، أو سكت انتظارًا للوحى فى ذلك، فلما فرغ وخرج، عاودوه ذكر ذلك، فقال لهم: قد سألته على لسانكم كما تحبون، لأخبركم بالجواب الذى يقمعكم لا لجواز الرؤية، فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكّا، فكفروا بطلب الرؤية، لاستلزامها اللون، والتركيب، والتحيز، والحدود، والحلول... وذلك كله يستلزم الحدوث، وذلك كله محال على الله، وإذا كان ذلك مستلزمًا عقلاً لم يختلف دنيا وأخرى، فالرؤية محال دنيا وأخرى، ولا بالإيمان، والكفر، والنبوة، وعدمها»[(١)].

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) من سورة النساء ﴿**يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ الآية، يقول: «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إذ سألوا رؤية الله جل وعلا الموجبة للتشبيه... وقالت الأشعرية: الصاعقة إنما هى من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية، لا من أجل طلب الرؤية، وهو خلاف ظاهر الآية، مع أن الرؤية توجب التحيز، والجهات، والتركيب والحلول، واللون، وغير ذلك من صفات الخلق، ويدل لما قلته قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ (**الأنعام: ١٠٣**) والأشعرية لما أُفحموا قالوا: بلا كيف، وحديث الرؤية إن صح فمعناه: يزدادون يقينًا بحضور ما وعد الله فى الآخرة، فلا يشكون فى وجود الله، وكمال صدقه، وقدرته، كما لا يشكون فى البدر»[(٢)].

أفعال العباد:

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحيانًا، فإنه يصرح بمخالفتهم فى بعض المسائل، فمثلاً نراه يقرر: أن أفعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لا يخلق أفعال نفسه، ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة، فمثلاً عندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام ﴿... **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا**

---

(١) جـ٢ ص ٤٢.

(٢) جـ٥ ص ١٧٣.

جعلناك عليهم حفيظًا...﴾ الآية، يقول: «ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئًا، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيئته، وفيه رد على المعتزلة في قولهم: لم يرد معصية العاصى... وزعموا أن المعنى: لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك، ولزم عليهم أن يكون مغلوبًا على أمره إذا عصى ولم يرد المعصية، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع ـ تعالى الله عن ذلك ـ والحق أن المعصية بإرادته ومشيئته، مع اختيار العاصى... لا جبر، للذم عليها والعقاب والنهى عنها»[1].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٢) من سورة الزمر ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: «من إيمان، وكفر، وخير، وشر، مما هو كائن دنيا وأخرى»[2].

موقفه من المتشابه:

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل، ويعيب على من يقول بالظاهر، وإن فوض علمه وكيفيته لله.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يقول: «﴿إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ على حذف مضاف أى أمر الله، بدليل قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ (النحل: ٣٣) والحاصل؛ أن مذهبنا ومذهب هؤلاء ـ يريد المعتزلة ومن وافقهم ـ تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به»[3].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة المائدة ﴿... وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ نراه يذكر الحديث القائل (إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين) ثم يقول: «ويمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين فى الأمر الحسن، ودل لذلك قوله: وكلتا يديه يمين، والتأويل فى مثل ذلك هو الحق، وأما قول سلف الأشعرية فى

---

(١) جـ٦ ص ٦٨.
(٢) جـ١٢ ص ٧٧.
(٣) جـ٢ ص ١٥٧.

مثل ذلك: إنا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله، ونقول: هو على معنى يليق به... وكذا طوائف من المتكلمين؛ فجمود وتعام عن الحق»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ...﴾ الآية، يقول: «...واستوى بمعنى استولى بالملك، والغلبة، والقوة، والتصرف فيه كيف شاء، والعرش جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة وأبى المعالى وغيره من حذاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته»(٢).

موقفه من تفسير الصوفية:

ونجد المؤلف يبدى رأيه فى تفسير الصوفية بصراحة تامة؛ ويحمل على من يفسر هذا التفسير، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: «... قيل ويحتمل أن يراد الإنفاق من جميع ما رزقهم الله من أنواع الأموال؛ والعلم، وقوة البدن، والجاه، وفصاحة اللسان... ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز، وقيل: المعنى ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله - جل وعلا - يفيضون... وهذا القول والذى قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف، وليس تفسير الصوفية عندى مقبولاً إذا خالف الظاهر، وكان تكلفًا، أو خالف أسلوب العربية، ولا أعذر من يفسر به ولا أقبل شهادته، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه، فإنه ولو كان فى نفسه حقًا لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التى يتخاطبون بها وتكلف من التكلف الذى يبغضه الله، فإن القولين وإن ناسبهما قوله ﷺ: «إن علمًا لا يقال به ككنز لا ينفق منه» الذى رواه الطبرانى فى الأوسط، لكن لا يصحان تفسيرا للآية، إذ لا يتبادر ذلك ولا يجرى على أسلوب العرب والقول الأخير أبعد وأنا أعد اعتقادى ذلك نورًا ومعرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم علىَّ، وقد أقبل القول الذى قبله، لأنه قريب من أسلوب العرب، وقليل التكلف، والصحيح أن المراد النفقة الواجبة وغير الواجبة من المال»(٣).

---

(١) جـ٥ ص ٣٣٩. (٢) جـ٦ ص ٣٦١. (٣) جـ١ ص ٢٢٠.

موقفه من الشيعة:

وصاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة على بقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول: «وزعم الشيعة أن الذين آمنوا الذى يقيمون الصلاة... إلى راكعون، المراد به على بن أبى طالب وأن جملة «هم راكعون» حال من واو «يؤتون الزكاة» وهى مقارنة، وأنه أعطى الزكاة وهو فى الصلاة راكع سأل سائل وهو فى ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه فى حال ركوعه وأراد به الزكاة، وعبر عنه بالجمع تعظيمًا، وهى دعوى بلا دليل عليها والأصل العموم، والأصل أن لا يطلق لفظ الجمع على المفرد، ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولى فى الآية المتولى للأمور المستحق للتصرف فيها، وأن هذه الآية دليل على إمامة على... وهذا أيضًا تكلف بلا دليل»(١).

رأيه فى التحكيم:

ونرى المؤلف يتأثر فى تفسيره هذا بعقيدته فى مسألة التحكيم بين على ومعاوية رضي الله عنهما، فيفر من الآيات التى تعارضه، ويمكن أن تكون مستندًا لمخالفيه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النساء ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا...**﴾ الآية، نراه يقول: «... ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها، وأيضًا المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٩، ١٠) من سورة الحجرات ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا.....**﴾ إلى قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ يقول: «... والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله...» ثم يقول: «وسمع علىٌّ رجلاً يقول فى ناحية المسجد: (لا حكم إلا الله) فقال: كلمة حق أريد بها باطل... لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفىء ما دامت

(١) جـ٥ ص ٣٧٦.

(٢) جـ٤ ص ٤٧٨.

أيديكم فى أيدينا، ولا نبدأكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم فى مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان على أعلم عالم، ثم قال: قيل: وفى الآية دليل على أن البغى لا يزيل اسم مؤمن؛ لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين... وسماهم إخوة مؤمنين.

قلت: لا دليل؛ أما وإن طائفتان من المؤمنين... فتسميتهم فيه مؤمنين: باعتبار ما يظهر لنا قبل ظهور البغى، وأما إنما المؤمنون إخوة... فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة: باعتبار ما ظهر لنا قبل البغى، فقوله: وأصلحوا بين أخويكم فى معنى اهدوهم إلى الحال التى كانوا عليها قبل، أو المراد بالمؤمن الموحد لا الموفى؛ بدليل «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» وأما لفظ آمن وإيمان، فلا يختصان بالموفى»[1].

إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعلى ومن والاهما:

ثم إنه لا تكاد تأتى مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم، ولا لذكر على، أو عثمان، أو من يلوذ بهما إلا وغض من شأنهم، ورماهم بكل نقيصة.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٠٥، ١٠٦) من سورة آل عمران ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...** ﴾ إلخ، نراه يعيب على من يقول من المفسرين: «إن الذين تفرقوا واختلفوا هم من خرج على علىّ عند قبوله التحكيم ويقول: إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية، بل فى إمارة على، وتفرقوا واختلفوا صيغتان ماضيتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر، بل دلت الآية على خلوصهم من ذلك، وعلى أنهم المحقون الذين تبيض وجوههم، فمن خالفهم فهو داخل فى قوله تعالى ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (آل عمران: ١٠٦) وهو يعم كل من كفر بعد إيمانه، واعلم أنه قد خرج على على حين أذعن للحكومة صحابة كثيرون ـ رضي الله عنهم ـ وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمون ويشتمون من خرج عنه، ويلعنونه، غير الصحابة الذين خرجوا عنه،

---

(١) جـ١٢ ص ٥١٧.

والخروج واحد إما حق فى حق الجميع، وإما باطل فى حق الجميع... فإذا كان حقًا فى جنب الكل، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة، وإن كان باطلا فى جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضًا... عافاهم الله، ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح الحديث ويزيدون فيه، وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا»... ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التى حملت عليهم، وردوها بعدم صحتها، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية، أو بحملها على من قبل التحكيم... ثم قال: «والدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا ولا فيمن اقتدينا بهم، وأن الراضين بالتحكيم هم المبطلون، ما رواه أبو عمر، وعثمان بن خليفة: أن رجلاً من تلاميذ أبى موسى الأشعرى عبد الله بن قيس، لقيه بعدما وقع فيما وقع من أمر التحكيم، فقال له: قف يا عبد الله بن قيس أستفتك، فوقف... وكان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله ﷺ أنه قال: سيكون فى هذه الأمة حكمان ضالان مضلان يضلان ويضل من اتبعهما قال: فلا تتبعهما وإن كنت أحدهما، ثم قال له التلميذ: إن صدقت فعليك لعنة الله، وإن كذبت فعليك لعنة الله، ومعنى ذلك: إن كانت الرواية التى رواها عن رسول الله ﷺ صحيحة ثم وقع فيها، فعليه لعنة الله، وإن كان كاذبًا على رسول الله ﷺ، فعليه لعنة الله؛ لنقله الكذب عن رسول الله، لا محيص عن الأمرين جميعًا...»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة التوبة ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ...﴾ الآية، نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذى بذل ماله فى غزوة تبوك دفاعًا عن رسول الله ﷺ، ونصرة لدين الله فيقول: «... وعن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذى يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم، وجهز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبى ﷺ ولم يكن للناس قوة، وكان عثمان قد جهز عيرًا إلى الشام، فقال: يا رسول الله... هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، قال صاحب المواهب: قال عمران بن حصين: فسمعته يقول: لا يضر عثمان ما عمل

(١) جـ٤ ص ١٨٥، ١٨٦.

بعدها ـ والعهدة على القسطلانى وعمران ـ فإن صح ذلك فمعنى ذلك: الدعاء له بالخير، لا القطع بأنه من أهل الجنة، وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة، فنثرها فى حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها فى حجره ويقول: ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، فإن صح هذا فذلك أيضًا دعاء، وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ . . . »(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٣ - ١٠٦) وما بعدها من سورة الكهف ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً**﴾ الآيات إلى قوله: ﴿**ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا**﴾ يقول: « . . وزعم علىٌّ أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه؛ لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم، وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء، وسئل أهم مشركون؟ فقال: لا، فقال: أمنافقون؟ فقال: لا . . . بل إخواننا بغوا علينا . . . وذلك خطأ تشهد به عبارته؛ لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنًا أو مشركًا أو منافقًا، فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون، والمؤمن لا يوصف بالبغى وهو مؤمن، ومن بغى دخل فى حدود النفاق، وأيضًا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، والسافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلة، وأيضا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله، ولا بلقائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث، والأخسرون أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء، ولست أقول ذلك معجبًا بنفسى، ولا متعجبًا ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرحت به»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...**﴾ الآية، يقول: « . . . قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وإن استخلافهم: إمامتهم العظمى، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلى فى ذلك . . . ثم قال: وفى أيام أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وبعدهم، كانت الفتوح العظيمة، وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعلى، فإنهما وإن

---

(١) جـ٧ ص ٢١٣.
(٢) جـ١٠ ص ١٨٣، ١٨٤.

كانت خلافتهما برضى الصحابة، لكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا فسحقا... كما فى أحاديث عنه ﷺ أنهما مفتونان»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية السابقة ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يقول: «... أقول ـ والله أعلم بغيبه: إن أول من كفر بتلك النعمة وجحد حقها: عثمان بن عفان... جعله المسلمون على أنفسهم، وأموالهم، فخانهم فى كل ذلك، زاد فى مسجد رسول الله ﷺ ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فغصبهم، فصاحوا به فسيرهم للحبس، وقال: قد فعل لكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، وقد جمع فى ذلك غصب المال، وقذف عمر رضي الله عنه، واستعمل أخاه لأمه وهو الوليد بن عقبة، ونزل ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ **(الأنفال: ٢٥)** بحضرة أبى بكر، وعمر ـ رضي الله عنهما ـ وعثمان وعلى، فقال لعثمان: بك تفتح وبك تشب، وقال لعلى: أنت إمامها، وزمامها، وقائدها، تمشى فيها مشى البعير فى قيده، وقال: لضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أحد، وقال: يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى، ألا إن أوليائى المتقون... إلى آخر ما ذكره من النقائص فى حق على وعثمان رضي الله عنهما...»(٢).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ...﴾ الآية، يقول: «... فمودة قرابته ﷺ من لم يبدل منهم ولم يغير، مثل فاطمة، وحمزة، والعباس، وابنه ـ رضي الله عنهم ـ واجبة» ثم ذكر روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودتهم... وبعدما فرغ منها قال: «لكن المراد بآله: آله الذين لم يبدلوا، فخرج على ونحوه ممن بدل، فإنه قتل من قال ﷺ: لا يدخل قاتله الجنة، ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية: أنه لما نزلت قيل: من قرابتك الذين تجب علينا مودتهم؟ فقال: على، وفاطمة، وابناهما...»(٣).

---

(١) جـ١٠ ص ٢٨٠، ٢٨١. (٢) جـ١٠ ص ٢٨٢، ٢٨٣.

(٣) جـ١٢ ص ٢٢٧.

اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين:

هذا... وإن المؤلف ليفخر كثيراً فى مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحلته، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق، والدين القويم، والتفكير السليم، وأما من عداهم: فضالون مضلون، مبتدعون مخطئون.

فمثلاً نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ الآية، يقول ما نصه: «... واعلم أن الحق هو القرآن والسنة، وما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك، فهو الجماعة والسواد الأعظم، ولو كان واحداً؛ لأنه نائب النبى ﷺ والصحابة، والتابعين الذين اهتدوا، وكل مهتد، ومن خالف ذلك، فهو مبتدع ضال، ولو كان جمهوراً، هذا ما يظهر لى بالاجتهاد، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف، فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السنة ولو كانوا أقل الناس، لأنهم المصيبون فى أمر التوحيد، وعلم الكلام، والولاية، والبراءة، والأصول دون غيرهم»(١).

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من سورة هود ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ الآية، يقول ما نصه: «واعلم يا أخى ـ رحمك الله ـ أنى استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية ومذهب المالكية، ومذهب الشافعية ومذهب الحنفية، ومذهب الحنبلية، بالمنقول والمعقول، فلم أر مستقيماً منها فى علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل، حججه لا تقاومها حجة، ولا تثبت لها، والحمد لله وحده»(٢).

هذا هو مفسرنا الإباضى، وهذا هو تفسيره الذى ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة، والتعصب للمذهب الفاسد، وهو بعد ـ كما ترى ـ لا يسلم من مجاراة المعتزلة فى بعض عقائدهم، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التى جرت على ألسن وضاع الخوارج، لينصروا بها مذهبهم؛ ويروجوا له بين الناس.

---

(١) جـ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٢) جـ٨ ص ٢١٣.

الفصل الرابع

تفســـــير الصـــــوفية

تمهيـــــد:

أصل كلمة تصوف ـ معناها ـ نشأته وتطوره ـ أقسامه.

أصل كلمة تصوف:

وقع الاختلاف فى أصل هذه الكلمة (تصوف) فقيل: إنها مشتقة من الصوف؛ وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فى لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفًا وزهدًا، وقيل: إنه من الصفاء؛ وذلك لصفاء قلب المريد، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه، وقيل: إنه مأخوذ من الصُّفة التى ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة، ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق، قال القشيرى رحمه الله: «ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية، ولا قياس، والظاهر أنه لقب، ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى، قال: وكذلك من الصوف؛ لأنهم لم يختصوا به»(١).

معنى التصوف:

وأما معنى التصوف... فقيل: «هو إرسال النفس مع الله على ما يريده»(٢).

وقيل: «هو مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أردا التبرؤ من الرجس والدنس، وفى تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة وصعود إلى عالم الفيض والإلهام، وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض، بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر، فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن، فالتصوف إذن: فكر وعمل، ودراسة، وسلوك»(٣).

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢. (٢) دائرة المعارف للبستانى المجلد السادس ص ١٣٣.

(٣) دروس فى تاريخ الفلسفة للدكتور مدكور، ويوسف كرم ص ١٤٠.

نشأة التصوف وتطوره:

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف، مبالغين فى العبادة، فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبًا لروحه، غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية، وإنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى، وكان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى، وأول من سمى بالصوفى: أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠هـ خمسين ومائة من الهجرة[(١)].

وفى هذا القرن وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها، وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذا الأبحاث والنظريات.

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التورط الصوفى، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر، بل وكونوا فلسفة خاصة بهم، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالاً أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد، والتقشف، وتربية النفس، وإصلاحها. . . وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى.

ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة، وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين، يشرفون على الطريق، ويتولون تربية الأتباع والمريدين، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة، هى دائرة الأوراد والأذكار، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث.

---

(١)كشف الظنون (١/ ١٥٠).

أقســـــام التصــــــوف

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين:

تصوف نظرى: وهو التصوف الذى يقوم على البحث والدراسة.

وتصــوف عــملى: وهو التصــوف الذى يقوم على التقشف والزهد، والتـفانى فى طاعة الله، وكل من القسمـين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم، مما جـعل التفسير الصوفى ينقـسم أيضًا إلى قـسمين: تفـسير صـوفى نظرى، وتفسـير صوفى فـيضى أو إشارى، وسنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه:

أولاً: التفسير الصوفى النظرى

وجد من المـتصـوفة ـ كمـا قلنا ـ من بنى تصوفـه على مباحث نظريـة، وتعاليم فلسـفيـة، فكان من البدهـى أن ينظر هؤلاء المتـصوفـة إلى القـرآن نظرة تتمـشى مع نظرياتهم، وتتفق وتعاليمهم.

وليس من السهل أن يجد الصـوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعـاليمه، ولا ما يتمـشى بوضوح مع نظرياته التى يـقول بها؛ إذ أن القـرآن عربى جاء لـهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات، ربـما كانت فى الغالب مـستحدثة وبعـيدة عن روح الدين وبداهة العقل.

غير أن الصوفى حرصًا منه على أن يتسلم له تعاليمه ونظرياته، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه، فتـراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحًا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع، وتشهد له اللغة.

ابن عربى شيخ هذه الطريقة:

ونستطيع أن نـعتبـر الأستاذ الأكـبر محـيى الدين بن عربى شيخ هـذه الطريقة فى التفسير، إذ أنه أظهـر من خب فيها ووضع، وأكثر أصحابه معـالجة للقرآن على طريقة التصـوف النظرى، وإن كان له من التـفسـير الإشارى مـا يجعله فى عـداد المفـسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضًا.

تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية:

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يشك فى نسبتها إليه، كالتفسير المشهور باسمه، وفى الكتب التى تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية، والفصوص. فنراه يطبق كثيرًا من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية.

فمثلاً يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ نجده يقوله: «وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر»... ثم ذكر الأفلاك التى تحته، والتى فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين كما قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥) فى هذا العلو، وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة»[١].

وعند قوله تعالى فى الآية (٨٧) وما بعدها من سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ..﴾ إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: «.. والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد، وإسرافيل هو روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى»[٢].

وعند قوله تعالى فى الآيتين (١٩، ٢٠) من سورة الرحمن ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ يقول: «﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج، وبحر الروح الذى هو العذب الفرات ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فى الوجود الإنسانى ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها ﴿لاَّ يَبْغِيَانِ﴾ لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله

---

(١) الفصوص (١/ ٢٦). (٢) تفسير ابن عربى (١/ ٥١).

من جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله مـاديًا. . . سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء»[١].

تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود:

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود، التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه، فنراه فى كثير من الأحيان يشرح الآيات على وفق هذه النظرية، حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ الآية، نجـده يقول: «﴿**اتَّقُـوا ربَكُمُ**﴾ اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم، واجعـلوا ما بطن منكم ـ وهو ربكم ـ وقاية لكم؛ فإن الأمـر ذم وحمد، فكونوا وقايته فى الذم، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين»[٢].

وفى تفسيـره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) من سـورة الفجر ﴿**فَـادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ يقول: «. . . وادخلى جنتى التى هى سترى، وليست جنتى سواك، فـأنت تسترنى بذاتك الإنسانـية فلا أعرف إلا بك، كـما أنك لا تكون إلا بى، فمن عـرفك عرفنى، وأنا لا أُعْرَف فـأنت لا تعرف، فإذا دخلت جنتـه دخلت نفسك، فتعرف نفسك معرفة أخرى، غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها، فتكون صاحب معرفتين: معـرفة به من حيث أنت، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت، فـأنت عبد رأيت ربًا، وأنت رب لـمن له فيه أنت عـبد، وأنت رب وأنت عبد لمن فى الخطاب عهد. . . إلخ»[٣].

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً**﴾ يقول: أى شيئا غـيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسـماءك ومظاهر صفاتك ﴿**سُـبْـحَـانَكَ**﴾ ننزهك أن يوجـد غـيـرك، أى يقـارن شىء فـردانيـتك أو يثنى وحدانيتك. . .»[٤].

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآيتين (٩، ١٠) من سورة الشمس ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**

---

(١) تفسير ابن عربى (٢/ ٢٨٠).
(٢) الفصوص (١/ ٥٠).
(٣) الفصوص (١/ ١٩١ - ١٩٣).
(٤) تفسير ابن عربى (١/ ١٤١).

﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ يقول: «تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكو إلا بربها، فيه تشريف وتعظيم فى ذاتها، لأن الزكاة ربو، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه، والصورة فى الشاهد صورة خلق، فقد زكت نفس من هذا نعته، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، كالأسماء الإلهية لله، والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر، ولولا أنه هكذا فى نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود، ولذلك خاب من دساها؛ لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها فى هذا النعت، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله، لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا، ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ ففرض له البقاء، والبقاء ليس إلا لله، أو لما كان عند الله، وما ثم إلا الله، أو ما هو عنده، فخزائنه غير نافذة، فليس إلا صور تعقب صورًا...»(١).

وغير هذا كثير من قسر الآيات وإخضاعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها ابن عربى.

قياسه الغائب على الشاهد:

كذلك نجد ابن عربى يفهم بعض النصوص القرآنية فهمًا خياليًا منتزعًا من المشاهد المحسوس، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ يقول ما نصه: (﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ على أى قلب نزل ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ فعين له الصنف المنزل عليه ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أى نزل له البيان فأبان عن المراد الذى فى الغيب ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ميزان حركات الأفلاك ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ لهذا الميزان، أى من أجل هذا الميزان، فمنه ذو ساق وهو الشجر، ومنه ما لا ساق له وهو النجم، فاختلفت السجدتان ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ وهى قبة الميزان ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ليزن به الثقلان ﴿أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ بالإفراط والتفريط من أجل الخسران ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ مثل اعتدال نشأة الإنسان، إذ

---

(١) الفتوحات (٤/ ١١٩).

الإنسان لسان الميزان ﴿وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ (الأنبياء: ٤٧) فأعلم أنه ما من صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علمًا وعملاً، فللمعانى ميزان بيد العقل يسمى المنطق، يحتوى على كفتين تسمى المقدمتين، وللكلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان، ولكل ذى لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (الحجر: ٢١) ﴿وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ (الشورى: ٢٧) وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان، وجعل كفتيه: يمينه وشماله، وجعل لسانه: قائمة ذاته، فهو لأى جانب مال، وقرن الله السعادة باليمين، وقرن الشقاء بالشمال، وجعل الميزان الذى يورن بالأعمال على شكل القبان، ولهذا وصف بالثقل والخفة؛ ليجمع بين الميزان العددى وهو قوله تعالى ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ وبين ما يوزن بالرطل، وذلك لا يكون إلا فى القبان، فلذلك لم يعين الكفتين، بل قال: فأما من ثقلت موازينه... فى حق السعداء، وأما من خفت موازينه... فى حق الأشقياء، ولر كان ميزان الكفتين لقال: وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا، وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضًا إذا رجحت على الحسنات، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان...»[1].

إخضاعه قواعد النحو لنظراته الصوفية:

وكذلك يخضع ابن عربى التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية أحيانًا، ولكنه خضوع يكيفه الصوفى على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه، فنجد ابن عربى مثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ يقول: «... وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ العامل فى هذا الظرف فى طريقنا، قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾ أى من يعظمها عند ربه، أى فى ذلك الموطن، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى؟... كالصلاة مثلاً، فإن المصلى يناجى

---

(١) الفتوحات (٣/ ٦).

ربه، فإذا عظم حرمة الله فى هذا الموطن كان خيرًا له. . . والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه، فيعظم هناك حرمة الله، فيكون الخيز الذى له فى مثل هذا الموطن المبَشرَة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيره، والمواطن التى يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود. . .»[1].

* * *

التفسير الصوفى النظرى فى الميزان

من هذه الأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر فى صراحة واطمئنان: أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن - فى الغالب - عن هدفه الذى يرمى إليه!! يقصد القرآن هدفًا معينًا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفى هدفًا معينًا بأبحاثه ونظرياته، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده، إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله: أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه عن أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئًا، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد فى آيات الله!!.

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبى يزيد البسطامى، والحلاج، وغيرهما، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبًا منه، ووحدة الوجود - عندهم - معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود الحق، وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز، وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله فى أئمتهم، وصوروه - أعنى الصوفية - بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة، وإن اختلفت فى الاصطلاح والألفاظ. . .!![2].

هذا المذهب الذى خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربى أن

---

(١) الفتوحات (٤/ ١١٥).

(٢) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون =

يقول: إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها، والذى جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى؛ إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يذهب بالدين من أساسه، هل يكون سائغًا ومقبولاً أن نجعله أصلاً نبنى عليه إفهامنا لآيات القرآن الكريم؟! وهل يليق بابن عربى وهو الأستاذ الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى فى الآيتين (٦، ٧) من سورة البقرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فيقول شارحًا لهذا النص القرآنى: «يا محمد... إن الذين كفروا: ستروا محبتهم فىَّ... دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به، أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك؛ فإنهم لا يعقلون غيرى، وأنت تنذرهم بخلقى وهم ما عقلوه ولا شاهدوه، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعًا لغيرى، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلامًا فى العالم إلا منى، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى، فلا يبصرون سواى، ولهم عذاب عظيم عندى... أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربًا... أنزلتك إلى من يكذبك، ويرد ما جئت به إليه منى فى وجهك، وتسمع فى ما يضيق له صدرك، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائك؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضاى عنهم»[1].

وهل يجدر بمثل هذا الصوفى الكبير أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾: «... فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفًا... وهو الصحيح؛ فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية

= إلى فريقين: فريق يقول بالحلول، وفريق لا يقول به. انظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧.

(١) الفتوحات (١/ ١١٥).

فنسبوها إليهم، ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيره منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطأوا فى النسبة فما أخطأوا فى المقام، ولهذا قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ (النجم: ٢٣) أى أنتم قلتم عنها: إنها آلهة. . . وإلا فسموها، فلو سموهم لقالوا: هذا حجر، أو شجر، أو ما كان، فتتميز عندهم بالاسمية؛ إذ ما كل حجر عُبِدَ ولا اتخذ إلهًا، ولا كل شجر، ولا كل جسم منير، ولا كل حيوان، فلله الحجة البالغة عليهم بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾»(١).

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ قال: «. . . إن الله تعالى خاطب فى هذه الآية المسلمين، والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله، فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذى يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد كأنكم ما اختلفتم فى أحديته. . . فقال: وإلهكم، فجمعنا وإياهم إله واحد، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم، ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد، كما يقال: من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه؛ ولهذا ذكر الله أنهم يتبرأون منهم يوم القيامة، وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم، لا أنهم جعلوا قدر الله فى ذلك، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال: وإلهكم إله واحد؟ ونبههم فقال: «قل سموهم» فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالاً بعيدًا، أو مبينًا؛ لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة؛ لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئًا، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم، ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهية لهم أى جعلوهم كالنواب لله والوزراء، كأن الله استخلفهم، ومن عادة الخليفة أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه؛ فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك، وقول من قال: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على

---

(١) الفتوحات (٣/ ١١٧).

الجميع، فأشبه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها: إنها الله، لكن لما كان هذا من عند الله، وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك، كما ثبت فى قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) هذا حقيقة؛ فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد إليها، ومع هذا لو تولى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته، لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة، فإذا تولى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة، فإن الله يقبل ذلك التولى، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافرًا وجاهلاً، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله، ولهذا اختلفت الشرائع: فما كان محرمًا فى شرع ما، حلله الله فى شرع آخر، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عين ذلك المحكوم عليه، قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (ص: ٢٦) يعنى الحق الذى أنزلته إليك ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ (ص: ٢٦) وهو ما خالف شرعك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: ٢٦) وهو ما شرعه الله لك على الخصوص، فإذا علمت هذا وتقرر لديك، علمت أن الله إله واحد فى كل شرع عينًا، وكثير صورة وكونًا، فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه، وكلها حق ومدلولها صدق، والتجلى فى الصورة كثرة أيضًا لاختلافها، والعين واحدة، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع؟ أو كيف يصح لى أن أخطئ قائلاً؟ ولهذا لا يصح خطأ من أحد فيه، وإنما الخطأ فى إثبات الغير وهو القول بالشريك، فهذا القول بالعدم؛ لأن الشريك ليس ثم، وذلك لا يغفره الله، لأن الغفر الستر، ولا يستر إلا من له وجود، والشريك عدم فلا يستر... فهى كلمة تحقيق ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ (النساء: ١١٦) لأنه لا يجده، فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها، وما فى الوجود من يقبل الأضداد إلا

العالم من حيث ما هو واحد، وفى هذا الواحد ظهرت الأضداد، وما هى إلا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود التى بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها...»[1].

رأينا فى التفسير الصوفى النظرى:

ورأيى الذى أدين الله عليه: أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله.

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة، والذى جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية... لا نقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله، وإن كنا نقبله ـ إن صح ـ على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه، على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنيّا، وقد يظهر خطأه فى يوم من الأيام، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟.

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة، فهذا أيضًا ضرب من التخمين، والتخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم ﷺ.

وأما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية، فهذا إن ساعده السياق والسباق قُبِل، وإلا أعرضنا عنه، وأخذنا بما يصححه النظر ويقويه الدليل.

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى، وليس لدينا من المعاذير ما نستطيع أن نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه، وإذا صح ـ وما أرانى أرتضى ذلك ـ أن نغض الطرف عما قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها وسفليها، وحقائق الملائكة والروح، والعرش، والكرسى، وأمثال ذلك، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه فى

---

(١) الفتوحات (٤/ ١٠٦، ١٠٧).

التفسير المبنى على وحدة الوجود، وإذا أمكننا ـ على كره ـ أن نتسامح فى بعض عبارات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد، وارتفع به الحال، وغاب عن نفسه، وشاهد ما لا نشاهد، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله: أنا الحق، أو أنا الله، فليس فى مقدورنا أن نتسامح فى مثل هذه التفاسير التى جرت بها ألسنة القوم وأقلامهم وهم فى حالة الهدوء النفسى، يقدورن ما يقولون، ويشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون.

هذا ولم نسمع بأن أحدًا ألف فى التفسير الصوفى النظرى كتابًا خاصًا يتتبع القرآن آية آية، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى، وكتاب الفتوحات المكية له، وكتاب الفصوص له أيضًا، كما يوجد بعض من ذلك فى كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب.



ثانيا: التفسير الصوفى الفيضى أو الإشارى

حقيقته:

التفسير الفيضى أو الإشارى: هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة.

الفرق بينه وبين التفسير الصوفى النظرى:

وعلى هذا فالفرق بين التفسير الصوفى الإشارى والتفسير الصوفى النظرى من وجهين:

أولاً: أن التفسير الصوفى النظرى، ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولاً، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك.

أما التفسير الإشارى، فلا يرتكز على مقدمات علمية، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية.

ثانيًا: أن التفسير الصوفى النظرى، يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه... وهذا بحسب طاقته طبعًا.

أما التفسير الإشارى، فلا يرى الصوفى أنه كل ما يراد من الآية، بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولاً وقبل كل شيء، ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره.

هل للتفسير الإشارى أصل شرعى؟

ربما يجول بخاطر القارئ الكريم هذا السؤال وهو: هل للتفسير الإشارى أصل شرعى يقوم عليه، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة وذيوع طريقتهم؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول:

لم يكن التفسير الإشارى بالأمر الجديد فى إبراز معانى القرآن الكريم، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ . . . أشار إليه القرآن، ونبه عليه الرسول ﷺ ، وعرفه الصحابة ﷺ وقالوا به.

أما إشارة القرآن إليه، ففى قوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿**فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ وقوله فى الآية (٨٢) منها أيضًا: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ وقوله فى الآية (٢٤) من سورة محمد ﷺ : ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثًا، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم[(١)].

وأما تنبيه الرسول ﷺ ، فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع» وفى الحديث الذى أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد».

ففى هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك:

فقيل: ظاهرها ـ أى الآية ـ لفظها، وباطنها تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين، وحديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم. . . ولكن هذا خاص بالقصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

---

(١) انظر الموافقات (٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣).

وحكى ابن النقيب قولاً ثالثًا: وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر والبطن، وأما قوله فى الحديث الأول: ولكل حرف حد، فمعناه على ما قيل، لكل حرف حد أى منتهى فيما أراد الله من معناه أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب، والأول أظهر، وقوله: ولكل حد مطلع، ومعناه على ما قيل أيضًا: لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به، وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة، والأول أظهر أيضًا.

وأما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشارى وقالوا به، أما الروايات الدالة على أنهم يعرفون ذلك فمنها:

ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه، ولا تبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أخبر فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجالسوا به العلماء، وجانبوا به السفهاء».

وروى عن أبى الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها».

عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن» وهذا الذى قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.

وأما الروايات الدالة على أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشاريًا، فما رواه البخارى عن ابن عباس ﵄ أنه قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون فى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر: ١)؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لى: أكذاك تقول

يا بن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول)[١].

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر، أما ابن عباس وعمر فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

وأيضًا ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ فرح الصحابة وبكى عمر رضي الله عنه وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرًا نعيه ﷺ، فقد أخرج ابن أبى شيبة (أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية بكى، فقال النبى: ما يبكيك؟ قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص، فقال ﷺ: صدقت)[٢].

فعمر رضي الله عنه أدرك المعنى الإشارى: وهو نعى رسول الله ﷺ، وأقره النبى على فهمه هذا، وأما باقى الصحابة: فقد فرحوا بنزول الآية؛ لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها.

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن... ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربى... وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر، غير أن المعانى الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذى تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هى أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور، ولقد فهم ابن مسعود أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحبًا ومتسعًا بالغًا فقال: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن) وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يوسف: ١١١).

---

(١) البخارى باب التفسير (٦/ ١٧٩).

(٢) تفسير الآلوسى (٦/ ٦٠).

التفاوت فى إدراك المعانى الباطنة وإصابتها:

غير أن هذه المعانى المتكاثرة التى يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن فى متناول المفسرين جميعًا، كما أنهم لم يكونوا متساوين فى القدر الذى أدركوه منها، بل تفاوتوا فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعًا مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، بل أصابوا فى بعض منها وأخطأوا فى بعض آخر، وما أخطأوا فيه: بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر على ما به، قالوا بالباطن أيضًا، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة، والباطنية لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضًا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعانى الباطنة خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، فبينما تجد لهم أفهامًا مقبولة سائغة، تجد لهم يجوارها أفهامًا لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع؛ ولهذا أرى أن أستعرض بعض ما للقوم من أفهام فى التفسير، ثم أحكم عليها حكمًا مجردًا عن كل شىء إلا عن الحق والإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشارى، وهى الشروط التى إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به، وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة فى نفوسنا أو فى نفوس القوم.

* * *

التفسير الإشارى فى الميزان

قلنا: إن القرآن له ظهر وبطن وذكرنا لك أهم الأقوال فى معنى الظاهر والباطن ومهما يكن من شىء فإن ظاهر القرآن ـ وهو المنزل بلسان عربى مبين ـ هو المفهوم العربى المجرد، وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، هذا هو خير ما يقال فى معنى الظاهر والباطن.

وعلى ذلك نقول: إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا

عليها داخل تحت الظاهر، فالمسائل البيانية، والمنازع البلاغية، لا معدل لها عن ظاهر القرآن، فإذا فهم الإنسان مثلاً الفرق بين (ضيق) فى قوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ وبين (ضائق) فى قوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة هود ﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ**﴾ وعرف أن (ضيق) صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام فى حق من يرد الله أن يضله، وأن (ضائق) اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد وأنه أمر عارض له ﷺ، إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن.

إذًا فلا يشترط فى فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربى، وإذًا كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من تفسير القرآن فى شىء... لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادعى فيه ذلك فهو مبطل فى دعواه.

أما المعنى الباطن، فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده، بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرًا خارجًا عن مدلول اللفظ القرآنى، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

أولهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية.

وثانيهما: أن يكون له شاهد نصًا أو ظاهرًا فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول: فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيًا، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيًا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً؛ إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم.

وأما الشرط الثانى: فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر أو كان وله معارض صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن، والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء(١).

إذا توافر هذان الشرطان فى معنى من المعانى الباطنة قُبِل؛ لأنه معنى باطن صحيح وإلا رفض رفضًا باتًا؛ لأنه معنى باطن فاسد وتقول على الله بالهوى والتشهى.

إذا عرفنا هذا كله ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم فى معانى القرآن الباطنية، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح، وكثير منها أيضًا هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض، وكبرى المشاكل أن بعضها منسوب إلى رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية ودينية فى نفوسنا، بل وبعضها منسوب إلى رجال من الصحابة، وهم أعرف الناس بكتاب الله وما يحويه من المعانى والأسرار.

فمن الأفهام الباطنة المنقول عنهم ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول: ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من قول سهل التسترى: «﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أى أضدادًا، فأكبر الأضداد: النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله»(٢).

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أندادًا لا صنمًا، ولا شيطانًا، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا... وهذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنمًا أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخذوها أربابًا من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك:

أن الناظر فى القرآن الكريم، قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية؛ لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه، وسهل التسترى -

---

(١) الموافقات (٣/ ٣٩٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٤.

رحمه الله ـ حين قال فى الآية ما قال، لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند فى الاعتبار الشرعى؛ وذلك لأن حقيقة الند: أنه المضاد لنده، الجارى على مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها؛ لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذى يعنى به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل فى الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين: جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتباراً، وجهة كون الخطاب ـ وإن كان موجهًا للمشركين ـ فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى: فقوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة التوبة: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه.

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية: فهو أن عمر بن الخطاب ﷺ قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية ﴿**أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا**﴾ (**الأحقاف: ٢٠**) وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت فى حق الكفار لقوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ...**﴾ (**الأحقاف: ٢٠**) الآية، فعمر ﷺ له فى الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذرًا منه وخوفًا أن يكون التوسع فى المباحات سببًا فى الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمر ﷺ أن ينزل الآية على المتوسعين فى المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضًا أن ينزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك.

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة ﴿**... وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ من قول سهل رحمه الله: «لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره... أى لا تهتم بشىء

هو غيرى، قال: فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل فى الجنة، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك، قال: وكذلك كل من ادعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظرًا إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله عز وجل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها. . . قال: وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوست به نفسه، فغلب الهوى والشهوة العلم والعقل والبيان ونور القلب؛ لسابق القدر من الله تعالى، كما قال عليه السلام: الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل»(١).

وبالنظر فى كلام سهل هذا نرى أنه ادعى فى الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن المراد النهى عن نفس الأكل، لا عن سكون الهمة لغير الله، وإن كان هذا منهيّا عنه أيضًا، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذى قاله سهل وجه يجرى عليه، وذلك أن النهى فى الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجردًا، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة، ولأنه لم يقل به أحد، وإنما النهى عن معنى فى القرب وهو إما التناول والأكل، وإما غيره وهو شىء ينشأ الأكل عنه، وذلك مساكنة الهمة، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل، ولا شك فى أن السكون لغير الله لجلب منفعة أو دفع مفسدة منهى عنه.

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول: لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله، إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكنًا لله وحده فلما لم يفعل وسكن إلى أمر فى الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود فى الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال فى الآيتين (١٢١، ١٢٢) من سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

مثل هذا ـ وهو كثير فى كلام الصوفية ـ لا نعدم له وجهًا نحمله عليه حتى يكون تفسيرًا صحيحًا ومقبولاً.

ولكن هناك أقوال لهم فى التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائرًا وعاجزًا عن تلمس محمل لها تحمل عليها حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة، فمن ذلك:

(١) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص١٦، ١٧.

ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر ﴿ الٓمٓ ﴾ (البقرة: ١) فقال: «الألف: الله، واللام: جبريل، والميم محمد ﷺ، وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام»(١).

وهذا إن صح نقله فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر:

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شرًا فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شرًا فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألا تا قالوا جميعًا كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا.

وقوله ﷺ «كفى بالسيف شا» أراد، شافيًا (٢).

... ولكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾؟.

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه... ولما لم يثبت شيء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

ومثل هذا المروى عن ابن عباس ـ ولعله أشكل منه ـ ما قاله سهل التسترى فى تفسيره للبسملة حيث قال: ««بسم الله الرحمن الرحيم» الباء: بهاء الله عز وجل، والسين: سناء الله عز وجل، والميم: مجد الله عز وجل، والله: هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها، وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب من غيب إلى

(١) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٢.

(٢) انظر تفسير القرطبى (١/ ١٥٥، ١٥٦).

غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا ضرورة الإيمان، والرحمن: اسم فيه خاصية من الحرف المكنى بين الألف واللام، والرحيم: هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع والابتداء فى الأصل، رحمة لسابق علمه القديم»(١).

وما فسر به ﴿الٓمٓ﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: «﴿الٓمٓ﴾ اسم الله عز وجل فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة، فأما هذه الحروف إذا انفردت، فالألف: تأليف الله عز وجل، ألف الأشياء كما شاء، واللام: لطفه القديم، والميم: مجده العظيم» وقال: «لكل كتاب أنزله الله تعالى سر، وسر القرآن فواتح السور؛ لأنها أسماء وصفات، مثل قوله ﴿الٓمٓصٓ﴾ (الأعراف: ١) ﴿الٓر﴾ (يونس: ١) ﴿الٓمٓر﴾ (الرعد: ١) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ (مريم: ١) ﴿طسٓمٓ﴾ (الشعراء: ١) ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١، ٢)، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلى بعض كانت اسم الله الأعظم، أى إذا أخذ من كل سورة حرف على الولاء أى على ما أنزلت السورة وما بعدها على النسق ﴿الٓر﴾ و ﴿حمٓ﴾ (غافر: ١) و ﴿نٓ﴾ (القلم: ١) معناه الرحمن، وقال ابن عباس والضحاك: ﴿الٓمٓ﴾ معناه أنا الله أعلم، وقال على ﷺ: هذه أسماء مقطعة، إذا أخذ من كل حرف حرفًا لا يشبه صاحبه فجمعن كان اسمًا من أسماء الرحمن إذا عرفوه ودعوه به كان الاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب..»(٢).

وما قاله أبو عبد الرحمن السلمى فى تفسير ﴿الٓمٓ﴾ فاتحة البقرة وهو قوله: «الم: قيل: إن الألف ألف الوحدانية، واللام: لام اللطف، والميم: ميم الملك، معناه من وجدنى على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له... فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشىء من الملك... وقيل: الم، معنى الألف: أى أفرد سرك، واللام ليت جوارحك لعبادتى، والميم: أقم معى بمحو رسومك وصفاتك، أزينك بصفات الأنس بى، والمشاهدة إياى، والقرب منى»(٣).

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٩، ١٠، ١١، ١٢.

(٣) حقائق التفسير ص ٩.

فهذا الذى قاله سهل التسترى والذى قاله أبو عبد الرحمن السلمى مشكل كالمروى عن ابن عباس، بل وأعظم منه إشكالاً حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلى أسرار غيبية ومعان مكنية، وإذا جمعت هذه الحروف على طريقة مخصوصة كان كذا وكذا، بل ويدعون أحيانًا أن هذه الحروف هى أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئًا من ذلك، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل برهانى أو إقناعى، وكل ما أقوله فيها: إنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح دليلاً شرعيًا بحال من الأحوال.

ومن المواضع المشكلة أيضًا، ولكنها أخف إشكالاً مما مر... ما جاء عنهم من نحو تفسير سهل التسترى لقوله تعالى فى الآية (٩٦) من سورة آل عمران: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ**﴾ الآية، بقوله: «أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة، هذا هو الظاهر، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد من الناس»(١).

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النساء ﴿... **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**...﴾ حيث يقول ـ بعد ذكره للتفسير الظاهر: «... وأما باطنها، فالجار ذى القربى: هو القلب، والجار الجنب: هو الطبيعة، والصاحب بالجنب: هو العقل المقتدى بالشريعة، وابن السبيل: هو الجوارح المطيعة لله...»(٢).

وتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الروم: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ بقوله: «مثل الله الجوارح بالبر، ومثل القلب بالبحر، وهم أعم نفعًا وأكثر خطرًا، هذا هو باطن الآية، ألا ترى أن القلب إنما سمى قلبًا لتقلبه وبعد غوره؟...»(٣).

وتفسير ابن عطاء الله السكندرى لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة (يس) ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**﴾ بقوله: «القلوب الميتة

(١، ٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٤١، ٤٥.

(٣) المرجع السابق.

بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة، وأخرجنا منها حبا معرفة صافية تضىء أنوارها على الظاهر والباطن»[(١)].

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التى تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية؛ وذلك لأن المعانى التى حملوا عليها الألفاظ فى الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ، لا بالوضع الحقيقى ولا بالوضع المجازى المناسب، وليس فى مساق الآيات ما يدل على هذه المعانى المذكورة، ومعلوم أن القرآن عربى ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه، فهذه الآيات المذكورة آنفا لا يفهم منها العربى أكثر من المعانى المتبادرة إلى فهمه، والتى تنساق إلى ذهنه ابتداء، فلا يفهم من البيت الحرام، ولا من الجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، ولا من البر والبحر، ولا من الأرض والحب، إلا ما يفهمه العربى من هذه الألفاظ وما وراء ذلك فليس عليه دليل.

وأيضًا لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه، ولو كان عندهم معروفًا لنقل؛ لأنهم أدرى بمعانى القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة، وغير معقول أن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم، ولا أدرى بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلى لغتهم.

ولكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين ووثوقنا بهم من الناحية العلمية والدينية، واعترافهم فى تفاسيرهم ـ التى نقلنا عنها ـ بالمعانى الظاهرية للقرآن وإنكارهم على من يقول بباطن القرآن دون ظاهره، كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم، فنحمل أمثال هذه المعانى على أنها ليست من قبيل التفسير، وإنما هى ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير كما قال ابن الصلاح فى فتاواه[(٢)].

---

(١) حقائق التفسير للسلمى ص ٢٨٤.
(٢) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

مقالة الشاطبى فى التفسير الإشارى:

ولزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبى فى هذا الموضوع:

قال رحمه الله: «الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب، الظاهرة للبصائر، إذا صحت على كمال شرطها فهى على ضربين:

أحدهما: ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات، فإن الاعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نورُ البصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقف، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك.

والثانى: ما يكون أصل انفجاره من الموجودات: جزئيها أو كليها، ويتبعه الاعتبار فى القرآن.

فإن كان الأول، فذلك الاعتبار صحيح، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين، وبحسب التكاليف وأحوالها، لا بإطلاق، وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنى قلما يجده إلا من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الاعتبار فيه عن حدوده كما لم يخرجوا فى العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون معتدًا به لجريانه على مجاريه، والشاهد على ذلك ما نقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ما تقضى به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثانى، فالتوقف عن اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره فى فهم القرآن، فنقول:

إن تلك الأنظار الباطنة فى القرآن فى الآيات المذكورة - يريد ﴿**وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ وما ذكره معها مما تقدم لنا ذكره - إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهى راجعة إلى الاعتبار غير القرآنى وهو الوجودى[1] ويصح تنزيله على معانى القرآن لأنه وجودى أيضًا، فهو مشترك من تلك

---

(١) مثال الاعتبار الخارجى ما يروونه عن بعضهم فى معنى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة =

الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا ما يطلبه المربى، وهو أمر خاص، منفرد بنفسه، لا يختص بهذا الموضع، فلذلك يوقف على محله، فكون القلب جارًا ذا قربى، والجار الجنب هو النفس الطبيعى... إلى سائر ما ذكر، يصح تنزيله اعتباريًا مطلقًا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض فى هذا النمط صحيح وسهل جدًا عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ.

وأيضًا فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى المقصود المخاطب به الخلق، بل أجراه مجراه وسكت عن كونه هو المراد وإن جاء شىء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآنى والوجودى، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد فى السلوك، سائر على الطريق، لم يتحقق بمطلوبه، ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم...)[1].

فالشاطبى - رحمه الله - يقرر فى كلامه هذا: أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلى الاعتبار غير القرآنى، ومع ذلك فيمكن تنزيله على معانى القرآن، كما أنه يقرر: أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله على أنه تفسير للآية وبيان للمقصود منها، وهذا من حسن ظنه بالقوم.

مقالات بعض العلماء فى التفسير الإشارى:

وإذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التى قالوها فى تفسير الصوفية وجدناها جميعًا تقوم على حسن الظن بهم، وإليك بعضًا منها:

= القدر ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قال: ألف شهر هى مدة الدولة الأموية، لأنها مكثت ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر وأن ذلك من الله تسلية لرسوله ﷺ حين أطلعه على ملوك بنى أمية واحدًا واحدًا فسرى عنه بهذه السورة، هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن، بل أخذ من الخارج والواقع فى ذاته، بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه، لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود). هامش الموافقات (٣/ ٤٠٤).

(١) الموافقات (٣/ ٤٠٣ - ٤٠٥).

مقالة ابن الصلاح:

قال ابن الصلاح فى فتاواه ـ وقد سئل عن كلام الصوفية، فى القرآن ـ «وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئًا من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن، فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة ـ يريد قوله تعالى فى الآية (١٣٣) من سورة التوبة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ ـ فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإبهام والإلباس»[١].

مقالة سعد الدين التفتازانى:

وقد علق التفازانى على قول النسفى فى كتابه العقائد: «والنصوص على ظواهرها، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد» فقال ـ رحمه الله ـ: «وسموا الباطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية... ثم قال: وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان»[٢].

مقالة ابن عطاء الله السكندرى:

ونقل السيوطى عن ابن عطاء الله السكندرى أنه قال فى كتابه لطائف المنن: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان،

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩.

(٢) العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازانى ص ١٤٢.

وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء فى الحديث «لكل آية ظهر وبطن» فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله... فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادًا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم»(١).

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم، فحملوا أقوالهم الغريبة التى قالوها فى القرآن على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن، أو على أنها إشارات خفية، ومعان إلهامية، تنهل على قلوب العارفين، ونزهوهم عن إرادة التفسير الحقيقى لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التى نقلت عنهم، وهذا عمل حسن وصنع جميل من هؤلاء العلماء، وقد تابعناهم عليه حملاً لحال المؤمن على الصلاح... ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربى فى فتوحاته... وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست إلا تفسيرًا حقيقيًا لمعانى القرآن، وشرحًا لمراد الله من ألفاظه وآياته ويذكر لنا أن تسمْيتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر... وفى هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم - على حد تعبيره - الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية، وإليك ما قاله بالنص لتقف على رأيه الصريح الذى لا مواربة فيه ولا التواء.

مقالة ابن عربى فى التفسير الإشارى:

قال رحمه الله: «اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق، خلق الإنسان أطوارًا، فمنا العالم والجاهل، ومنا المنصف والمعاند، ومنا القاهر ومنا المقهور، ومنا الحاكم ومنا المحكوم، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه، ومنا الرئيس والمرءوس، ومنا الأمير والمأمور، ومنا الملك والسوقة، ومنا الحاسد والمحسود، وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذى منحهم أسراره فى خلقه، وفهمهم معانى كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام لما كان الأمر فى الوجود الواقع على ما سبق به

---

(١) الإتقان (٢/ ١٨٥).

العلم القديم ـ كما ذكرنا ـ عدل أصحابنا إلى الإشارات، فكلامهم ـ رضي الله عنهم ـ فى شرح كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيراً لمعانيه النافعة، ورد ذلك كله إلى نفسهم مع تقريرهم إياه فى العموم، وفيما نزل فيه، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ (فصلت: ٥٣) يعنى الآيات المنزلة فى الآفاق وفى أنفسهم، فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه فى نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم، فيسمون ما يرونه فى نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولون فى ذلك إنه تفسير؛ وقاية لشرهم وتشنيعهم فى ذلك بالكفر عليه؛ وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق، واقتدوا فى ذلك بسنن الهدى، فإن الله كان قادراً على تنصيص ما تأوله أهل الله فى كتابه، ومع ذلك فما فعل؛ بل أدرج فى تلك الكلمات الإلهية التى نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم».

(ولو كان علماء الرسوم ينصفون، لاعتبروا فى نفوسهم إذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمونها فيما بينهم فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك، ويعلو بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها، وكلهم فى مجرى واحد، ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم فى ذلك، ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشيء مما يغمض عن إدراكهم، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلا بالتعليم المعتاد فى العرف، وصدقوا، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحمانى الربانى قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ - ٥) فإنه القائل ﴿أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (النحل: ٧٨)، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٣، ٤) فهو سبحانه معلم الإنسان، فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام، والله يقول فى حق الرسول: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣) وقال فى حق عيسى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (آل عمران: ٤٨) وقال فى حق خضر

صاحب موسى عليهما السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف: ٦٥) فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا: إن العلم لا يكون إلا بالتعلم وأخطأوا فى اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبى ولا رسول، يقول الله: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٦٩) وهى العلم، وجاء بمن وهى نكرة، ولكن علماء الرسوم لما آثروا الدنيا على الآخرة وآثروا جانب الخلق على جانب الحق، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم، ورأوا فى زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عبادًا تولى الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزله فى كتبه وعلى ألسنة رسله وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لا يشك مؤمن فى كمال علمه ولا غير مؤمن؛ فإن الذين قالوا: إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفى العلم عنه، وإنما قصدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشىء، بل علمها مندرجة فى علمه بالكليات، فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين، وقصدوا تنزيهه سبحانه فى ذلك وإن أخطأوا فى التعبير عن ذلك، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٨) فى إثر قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: ٧) فبين لها الفجور من التقوى إلهامًا من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى».

«وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها، ولا تعلمت فيه، بل جاءت من عند الله، كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢) وقال فيه إنه ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢) وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله، لا من فكر الإنسان ورويته ـ وعلماء الرسوم يعلمون ذلك ـ فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم، فيكون شرحه أيضًا تنزيلاً من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل، وكذا قال على بن أبى طالب ﷺ فى هذا الباب (ما هو إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده فى هذا القرآن) فجعل ذلك عطاء من الله، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله، فأهل الله أولى به من غيرهم، فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة فى الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء

الرسوم، وأعطاهم التحكم فى الخلق بما يفتون به، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون ـ وهم في إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ـ سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات، فإن علماء الرسوم لا ينكرون الإشارات، فإذا كان فى غد يوم القيامة يكون الأمر فى الكل، كما قال القائل:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

كما يتميز المحق من أهل الله، من المدعى فى الأهلية غدًا يوم القيامة، قال بعضهم:

فإذا اشتبكت دموع فى خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

أين عالم الرسوم من قول على بن أبى طالب ﷺ حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم فى الفاتحة من القرآن لحمل منها سبعين وقرًا؟ هل هذا إلا من الفهم الذى أعطاه الله فى القرآن؟ فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم، فإن الله يقول فيهم: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٢) فأقامهم مقام الرسول فى التفقه فى الدين والإنذار، وهو الذى يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله ﷺ على بصيرة، لا على غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتى به وبقوله على بصيرة منه فى دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة ظنه».

«ثم إن من شأن عالم الرسوم فى الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول: فهمنى ربى، ويرى أنه أفضل منه، وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله: إن الله ألقى فى سرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية، أو يقول: رأيت رسول الله ﷺ فى واقعتى فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده، قال أبو يزيد البسطامى ﷺ فى هذا المقام... يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت، يقول أمثالنا: حدثنى قلبى عن ربى، وأنتم تقولون حدثنى فلان... وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان... وأين هو؟ قالوا: مات، وكان الشيخ أبو مدين ـ رحمه الله ـ إذا قيل له: قال فلان، عن فلان، عن فلان، يقول: ما

نريد نأكل قديدًا، هاتوا . . . ائتونى بلحم طرى - يرفع همم أصحابه - فأولئك أكلوه لحمًا طريًا، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد».

«والفيض الإلهى والمبشرات ما سد بابها، وهى من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقى من أتى إليه يسعى، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا، فمن كان معك بهذه المثابة من القرب - مع دعواك العلم بذلك والإيمان به - لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟»[(١)] .

رأينا فى مقالة ابن عربى:

ونحن لا ننكر على ابن عربى أن ثم أفهامًا يلقيها الله فى قلوب أصفيائه وأحبابه، ويحصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيرًا للقرآن وبيانًا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها، أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن تقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآنى عربى قبل كل شيء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنه: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣) وحاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: ١٧) .

هذا هو ما أدين عليه بالنسبة لكلام الصوفية، وعذرى فى ذلك أنى لم أسلك مسلك القوم، ولم أذق ذوقهم، ولم أعرف اصطلاحاتهم التى يصطلحون عليها، ولعلى إذا سلكت هذا الطريق، وانكشف لى من أستار الغيب ما انكشف لهم، أو على الأقل فهمت لغة القوم ووقفت على مصطلحاتهم، لعلى إذا حصل لى شيء من هذا تبدل رأيى وتغير حكمى، فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيدًا وغريبًا، وقد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض فقال له: «دع عنك هذا، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى ما رأوا»[(٢)] .

---

(١) الفتوحات المكية (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) شذرات الذهب (٥/ ١٩١).

يقولون: إنهم يدركون بعض المعانى بعين اليقين، وما من شأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين، إذًا فلا بد لمن يريد أن يحكم على القوم حكمًا صحيحًا أن يجتهد فى الوصول إلى ما وصلوا إليه بالعيان، دون أن يطلبه عن طريق البيان، فإنه طور وراء طور العقل، والشاعر يقول:

علم التصوف علم ليس يعرفه
إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده
وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف؟[1]

ويقول ابن خلدون: «وليس البرهان والدليل بنافع فى هذه الطريق ردّا وقبولاً؛ إذ هى من قبيل الوجدانيات»[2].

ويقول الألوسى فى مقدمة تفسيره جـ١ ص٨: «فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل؛ لكثرة العوائق والعلائق إليه:

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار»

ويقول الألوسى أيضًا بعد أن نقل عن ابن عربى ما قاله فى تفسير الفاتحة فى فتوحاته: «فإذا وقع الجدار، وانهدم الصور، وامتزجت الأنهار، والتقى البحران، وعدم البرزخ، صار العذاب نعيمًا، وجهنم جنة، ولا عذاب ولا عقاب، إلا نعيم وأمان، بمشاهدة العيان... إلخ» يقول الألوسى بعد نقله لهذا الكلام الغريب: «وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافى ما وردت به القواطع، ثم قال: وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه، وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى، فسلمه لهم بالمعنى الذى أرادوه، مما لا تعلمه أنت ولا أنا، لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك، المشوب بالأوهام فالأمر والله وراء ذلك»[3].

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم

(١) كشف الظنون (١/ ٢٢٢).
(٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٥.
(٣) تفسير الآلوسى (١/ ١٤٢، ١٤٣).

مهما أوغلت فى البعد والغرابة، وتوريط لنا بتسليم كل ما يقولون تحت تأثير ما لهم فى نفوسنا من المكانة العلمية والدينية، ومهما يكن من شىء فأنا عند رأيى لا أتحول عنه، حتى إذا ما جعت جوع القوم، وسهرت سهرهم، ووجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل ما يقولون (ومن ذاق عرف).

والخلاصة: أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم، ولم يذيعوها على الناس فيوقعوهم فى حيرة واختلاف: منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ما ينقل فى كتب التفسير على خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبها على الإطلاق، ويرى أنها تقوُّل على الله وبهتان، ليتهم فعلوا ذلك، إذًا لأراحونا من هذه الحيرة، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم، وقذف البعض لهم بالكفر، والإلحاد فى آيات الله!!.

شروط قبول التفسير الإشارى:

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشارى منه ما هو مقبول ومنه ما ليس بمقبول فعلينا بعد ذلك أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر فى التفسير الإشارى ـ وإن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق ـ حتى يكون تفسيرًا مقبولاً وإليك هذه الشروط:

أولاً: أن لا يكون التفسير الإشارى منافيًا للظاهر من النظم القرآنى الكريم.

ثانيًا: أن يكون له شاهد شرعى يؤيده.

ثالثًا: أن لا يكون له معارض شرعى أو عقلى.

وهذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلى إعادة توضيحها.

رابعًا: أن لا يدعى أن التفسير الإشارى هو المراد وحده دون الظاهر، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولا؛ إذ لا يطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر «ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب»[(١)].

إذا علمت هذا، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض

---

(١) الإتقان (٢/ ١٨٤).

المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة ﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ فقال معناه: «من ذل» من الذل «ذى» إشارة إلى النفس «يشف» من الشفاء «ع» أمر من الوعى[1]، وما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة العنكبوت ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فجعل «لمع» فعلاً ماضيًا بمعنى أضاء، و ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ مفعوله[2].

هذا التفسير وأمثاله إلحاد فى آيات الله، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ (فصلت: ٤٠) قال الألوسى فى تفسير هذه الآية: «أى ينحرفون فى تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يضعون الكلام فى غير موضعه»[3].

هذه هى الشروط التى إذا توفرت فى التفسير الإشارى كان مقبولاً، ومعنى كونه مقبولاً: عدم رفضه لا وجوب الأخذ به، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف، وليس له ما ينافيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية.

وأما عدم وجوب الأخذ به، فلأنه من قبيل الوجدانيات، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان، وإنما هى أمر يجده الصوفى من نفسه، وسر بينه وبين ربه، فله أن يأخذ به ويعمل على مقتضاه، دون أن يلزم به أحدًا من الناس سواه.

أهم كتب التفسير الإشارى:

من العلماء من وجه همته إلى التفسير الظاهر ولم يتعرض للتفسير الإشارى، كالبيضاوى، والزمخشرى مثلاً، ومنهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر وتعرض للتفسير الإشارى بقدر، كما فعل النيسابورى، والآلوسى، ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشارى ومع ذلك فهو يتعرض أحيانًا للتفسير الظاهر، كما فعل سهل التسترى، ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشارى، ولم يحم حول المعانى الظاهرة، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى، ومنهم من أعرض عن الظاهر وجمع فى تفسيره بين التفسير

---

(١) الإتقان (٢/ ١٨٤).

(٢) مبادئ التفسير للخضرى ص ٩.

(٣) تفسير الآلوسى (٢٤/ ١١٢).

الصوفى النظرى والتفسير الصوفى الإشارى كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربى.

وليس ضروريًا أن نتكلم عن تفسير النيسابورى والآلوسى من ناحية ما فيهما من التفسير الإشارى؛ لأنهما أقرب إلى أهل الظاهر منهما إلى أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشارى أمرًا عارضًا وتابعًا لغيره، وقد سبق الكلام عنهما فى كتب التفسير بالرأى المحمود.

ويكفى هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التى وجه أصحابها فيها كل عنايتهم، أو جلها نحو التفسير الإشارى، وإليك أهم هذه الكتب:

١- تفسير القرآن العظيم ـ للتسترى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبد الله، التسترى، المولود بتستر[١] سنة ٢٠٠هـ مائتين، وقيل: سنة ٢٠١ إحدى ومائتين من الهجرة.

كان ـ رحمه الله ـ من كبار العارفين، ولم يكن له فى الورع نظير، وكان صاحب كرامات، ولقى الشيخ ذا النون المصرى ـ رحمه الله ـ بمكة، وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة، أقام بالبصرة زمنًا طويلاً، وتوفى بها سنة ٢٨٣هـ ثلاث وثمانين ومائتين، وقيل: سنة ٢٧٣هـ ثلاث وسبعين ومائتين، فرحمه الله رحمة واسعة[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير مطبوع فى مجلد صغير الحجم، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة، ويظهر لنا أن سهلاً ـ رضي الله عنه ـ لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما هى أقوال قالها سهل فى آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدى، المذكور فى أول الكتاب، والذى يقول كثيرًا، قال أبو بكر: سئل سهل عن معنى كذا، فقال كذا، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه.

نقرأ فى هذا الكتاب، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر القرآن وباطنه، ومعنى الحد والمطلع، فيقول: «ما من آية فى القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع، فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحد: حلالها وحرامها، والمطلع: إشراق القلب على المراد بها، فقهًا من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص، قال تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى لا يفقهون خطابا»[٣].

---

(١) تستر ـ بضم التاء الأولى، وسكون السين المهملة، وفتح التاء الثانية: بلد من الأهواز.
(٢) انظر وفيات الأعيان (١/ ٣٨٩).
(٣) ص ٣.

ويقول فى موضع آخر: قال سهل: إن الله تعالى ما استولى وليًا من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن، إما ظاهرًا وإما باطنًا، قيل له: إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو؟ قال: فهمه، وإن فهمه هو المراد»[١].

فمن هاتين العبارتين، نأخذ أن سهلاً التسترى يريك أن الظاهر هو المعنى اللغوى المجرد، وأن الباطن هو المعنى الذى يفهم من اللفظ ويريده الله تعالى من كلامه: كما نأخذ منه: أنه يرى أن المعانى الظاهرة أمر عام يقف عليها كل من يعرف اللسان العربى، أما المعانى الباطنة فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه.

كذلك نجد سهلاً - رضي الله عنه - لم يقتصر فى تفسيره على المعانى الإشارية وحدها، بل نجده يذكر أحيانًا المعانى الظاهرة، ثم يعقبها بالمعانى الإشارية، وقد يقتصر أحيانًا على المعنى الإشارى وحده، كما يقتصر أحيانًا على المعنى الظاهرى، بدون أن يعرج على باطن الآية.

وحين يعرض سهل للمعانى الإشارية لا يكون واضحًا فى كل ما يقوله، بل تارة بالمعانى الغريبة التى نستعبد أن تكون مرادة لله تعالى، وذلك كالمعانى التى نقلناها عنه سابقًا فى معنى البسملة، و (الم) فاتحة البقرة، وتارة يأتى بالمعانى الغريبة التى يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ، وذلك هو الغالب فى تفسيره.

كذلك نجد المؤلف ينحو فى كتابه هذا منحى تزكية النفوس، وتطهير القلوب، والتحلى بالأخلاق والفضائل التى يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة، وكثيرًا ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهدًا لما يذكره، كما أنه يتعرض فى بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللفظ الكريم، وإليك نماذج من تفسيره.

فى سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٨) ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ**﴾ يقول ما نصه: «عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس»[٢].

---

(١) ص ٧ ولعلك تجد فى هذه العبارة ما يؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع أحد تلاميذه: أبو بكر محمد البلدى.

(٢) ص ٦٠.

وفى سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٧٨ - ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ يقول ما نصه: «﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ أى الذى خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قربه ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ قال: يطعمنى لذة الإيمان ويسقينى شراب التوكل والكفاية ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ قال: يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى، ﴿وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ قال: الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر ﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء، ولم يحكم عليه بالمغفرة»[(١)].

وفى سورة الصافات عند قوله تعالى فى الآية (١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال ما نصه: «إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب، فلما خلص السر له، ورجع عن عادة الطبع، فداه بذبح عظيم»[(٢)].

فهذه المعانى كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية، والكتاب - فى الغالب - يسير على هذه الطريقة، وهى لا شوب فيها.

---

(١) ص ١٠٦.   (٢) ص ١٢٠.

٢- حقائق التفسير ـ للسلمى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير، هو أبو عبد الرحمن، محمد بن الحسين بن موسى، الأزدى السلمى، المولود ٣٣٠هـ ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة، وقيل غير ذلك.

كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان، له اليد الطولى فى التصوف، والعلم الغزير، والسير على سنن السلف، أخذ الطريق عن أبيه، فكان موفقًا فى جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف، وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث، حتى قيل: إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة، وكتب الحديث بنيسابور، ومرو، والعراق، والحجاز، وصنف سننًا لأهل خراسان، وأخذ عنه بعض الحفاظ: منهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو القاسم القشيرى، وغيرهما، ولقد خلف ـ رحمه الله ـ من الكتب ما يزيد على المائة: منها ما هو فى علوم القوم، ومنها ما هو فى التاريخ، ومنها ما هو فى الحديث، ومنها ما هو فى التفسير.

ولكن السلمى مع وفرة جلالته، وعظيم منزلته بين مريديه، لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه، قال الخطيب: قال محمد بن يوسف النيسابورى القطان: كان السلمى غير ثقة، يضع للصوفية، وكأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه، فقال حكاية هذا القول: (قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محمودًا صاحب حديث) قال ابن السبكى صاحب طبقات الشافعية: (قول الخطيب فيه هو الصحيح، وأبو عبد الرحمن ثقة، ولا عبرة بهذا الكلام فيه) هذا وقد كانت وفاته سنة ٤١٢هـ اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد كبير الحجم، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية.

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى طبقات المفسرين للسيوطى ص٣١، وإلى طبقات الشافعية للسبكى (٣/ ٦٠ - ٦٢).

قرأت فى هذا التفسير، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويغضى عن بعضها الآخر، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن، وإنما جرى فى جميع ما كتبه على نمط واحد، وهو التفسير الإشارى، وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد؛ لأنه يصرح فى مقدمة تفسيره: أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة فى كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر.

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمى، لم يكن له مجهود فى هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض، ورتبها على حسب السور والآيات، وأخرجها للناس فى كتاب سماه: حقائق التفسير.

وأهم من ينقل عنه السلمى فى حقائقه: جعفر بن محمد الصادق، وابن عطاء الله السكندرى، والجنيد، والفضيل بن عياض، وسهل بن عبد الله التسترى، وغيرهم كثير.

وإليك بعض ما قاله فى مقدمته لتعلم أن السلمى حين اقتصر على المعانى الإشارية لم يجحد المعانى الظاهرية للقرآن، ولتعلم أيضًا أن مجهوده فى هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب.

قال رحمه الله: «. . . لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا فى أنواع فرائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة، نسبت إلى أبى العباس بن عطاء، وآيات ذكر أنها عن جعفر بن محمد على غير ترتيب، وكنت قد سمعت منهم فى ذلك حروفًا استحسنتها، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم، وأضم أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى، واستخرت الله فى جمع شىء من ذلك، واستعنت به فى ذلك وفى جميع أمورى، وهو حسبى ونعم المعين»[(١)].

طعن بعض العلماء على هذا التفسير:

غير أن الاقتصار على المعانى الإشارية، والإعراض عن المعانى الظاهرة فى هذا المؤلف، ترك للعلماء مجالاً للطعن على هذا التفسير وعلى صاحبه من أجله، فالجلال

---

(١) ص ١، ٢.

السيوطى رحمه الله يذكر أبا عبد الرحمن السلمى فى كتابه طبقات المفسرين ضمن من صنف فى التفسير من المبتدعة ويقول: «وإنما أوردته فى هذا القسم لأن تفسيره غير محمود»(١)، والحافظ الذهبى رحمه الله يقول عن السلمى: «... وله كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه؛ فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب»(٢)، ويقول السبكى فى طبقات الشافعية: «وكتاب حقائق التفسير، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ومحال للصوفية ينبو عنها اللفظ»(٣).

وقد مر بك آنفًا أن الإمام أبا الحسن الواحدى قال: «صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر».

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول: «وما ينقل فى حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه فى غير ذلك»(٤).

رأينا فى هذه الطعون:

هذا، وإن عد السيوطى السلمى فى ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف.

وما قاله الذهبى من أن ما فى الحقائق تحريف وقرمطة - يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية - فهذا غير صحيح؛ لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها، والقرامطة بخلاف ذلك.

وأما ما قاله السبكى من أن السلمى قد اقتصر فى حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها.

وأما قول الواحدى: إنه لو اعتقد أن ما فى الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا، فنقول فيه: إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير، وإنما قال: إنه إشارات تخفى وتدق إلا على أربابها، كما صرح بذلك فى مقدمة حقائق التفسير(٥).

وأما قول ابن تيمية: إن ما ينقل فى حقائق السلمى من التفسير عن جعفر عامته

---

(١) طبقات المفسرين ص ٣١. (٢) طبقات الشافعية للسبكى (٣/ ٦١).
(٣) المرجع السابق. (٤) منهاج السنة (٤/ ١٥٥). (٥) ص ١.

كذب على جعفر، فهذه كلمة حق من ابن تيمية؛ إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه، ولست أدرى كيف اغتر السلمى وهو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلقة الموضوعة.

نماذج من تفسير السلمى:

وإذ قد فرغنا من الحديث على حقائق التفسير، فاقرأ بعض ما جاء فيه، لتحكم أنت بدورك عليه:

فى سورة النساء عند قول الله تعالى فى الآية (٦٦) ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ يقول: «قال محمد بن الفضل ﴿**اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾ بمخالفة هواها ﴿**أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم**﴾ أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم ﴿**مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ فى العدد، كثير فى المعانى، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة»(١).

وفى سورة الرعد عند قوله تعالى فى الآية (٣) ﴿**وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ**﴾ يقول: «قال بعضهم: هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادًا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ، وبهم النجاة، فمن ضرب فى الأرض يقصدهم فاز ونجا، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر، سمعت على بن سعيد يقول: سمعت أبا محمد الحريرى يقول: كان فى جوار الجنيد إنسان مصاب فى خربة، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة فلما رجعنا تقدم خطوات وعلا موضعًا من الأرض عاليًا، فاستقبلنى بوجهه وقال: يا أبا محمد... إنى لراجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد، ثم أنشد شعرًا:

وما أسفى من فراق قوم ... هم المصابيح، والحصون
والمدن، والمزن، والرواسى ... والخير، والأمن، والسكون
لم تتغير لنا الليالى ... حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب ... وكل ماء لنا عيون»(٢)

---

(١) ص ٤٩.

(٢) ص ١٣٨.

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآية (٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ يقول: «قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحائب القربة، وفتح إلى قلوب عباده عيونًا من ماء الرحمة، فأنبتت فاخضرت بزينة المعرفة، وأثمرت الإيمان، وأينعت التوحيد، أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها، وأناخت بين يديه، وعكفت فأقبلت عليه، وانقطعت عن الأكوان أجمع، عند ذاك آواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها الخيرة فى بساتين الأنس، ورياض الشوق والقدس»[(١)].

وفى سورة الرحمن عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ يقول: «قال جعفر: جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه، فغرس فيها أشجار المعرفة، أصولها ثابتة فى أسرارهم، وفروعها قائمة بالحضرة فى المشهد، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان، وهو قوله تعالى ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ أى ذات الألوان، كل يجتنى منه لونًا على قدر سعته، وما كوشف له من بوادى المعرفة وآثار الولاية»[(٢)].

وفى سورة الانفطار عند قوله تعالى فى الآيتين (١٣، ١٤) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ يقول: «قال جعفر: النعيم المعرفة والمشاهدة، والجحيم النفوس؛ فإن لها نيرانًا تتقد»[(٣)].

وفى سورة النصر عند قوله تعالى فى أولها ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يقول: «قال ابن عطاء الله: إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى، والفتح هو النجاة من السجن البشرى بلقاء الله تعالى...»[(٤)].

---

(١) ص ٢١٢.
(٢) ص ٣٤٤
(٣) ص ٣٨٥.
(٤) ص ٤٠٢

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن
لأبى محمد الشيرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير:

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر، البقلى، الشيرازى الصوفى، المتوفى سنة ٦٦٦هـ ست وستين وستمائة من الهجرة النبوية(١).

التعريف بهذا التفسير:

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسير الإشارى، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً، يدل على ذلك قوله فى المقدمة: «ولما وجدت أن كلامه الأزلى لا نهاية له فى الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه، لأن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من بحار الأسرار، ونهرًا من أنهار الأنوار، لأنه وصف القديم وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته... قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان: ٢٧) وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (الكهف: ١٠٩) فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات، التى تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء، اقتداء بالأولياء، وأسوة بالخلفاء، وسنة للأصفياء، وصنفت فى حقائق القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن فى القرآن، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ، ثم أردفت بعد قولى أقوال مشايخى مما عباراتها ألطف، وإشاراتها أظرف ببركاتهم، وتركت كثيرًا منها ليكون كتابى أخف محملاً وأحسن تفصيلاً، واستخرت الله تعالى فى ذلك، واستعنت به، ليكون لمرادة

---

(١) كشف الظنون (٢/ ٢١) ولم نقف على أكثر من هذا فى ترجمته.

قلت: ولد سنة ٥٢٢هـ، وتوفى منتصف المحرم سنة ٦٠٦هـ، وله من الكتب: لطائف البيان فى تفسير القرآن، مكنون الحديث، حدائق الأخبار، الموشح فى المذاهب الأربعة، وغيرها. وله ترجمة فى الذريعة (١٥/ ٢٤٢)، ريحانة الأدب (٣/ ٣٢٤). (د/ مصطفى الذهبى).

ومواطئًا لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبى وحسب كل ضعيف. . . وسميته بـ (عرائس البيان فى حقائق القرآن). . . إلخ»(١).

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعنى الظاهرة للقرآن، ويقرر أن ما ذكره فى كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن، وإشارات تجلت له من جانب الرحمن، كما ترى فيها وصفه لكتابه والمسلك الذى سلكه فيه، غير أنى ألحظ من قوله: «واستعنت به ليكون موافقًا لمراده، ومواطئًا لسنة رسوله» أنه يريد أن يقرر أن كل ما فى كتابه من المعانى ليس إلا تفسيرًا لكتاب الله وبيانًا لمراده منه، وهذا هو ما لا نقره عليه، ولا نسلمه له، لأن هذه المعانى الغريبة التى يأتى بها فى تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآنى، ولا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأمة، وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن.

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير:

فى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (٩١) ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ**﴾ يقول: «وصف الله زمرة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهائمين فى المشاهدات، والمستغرقين فى بحار الأزليات، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر، وجولانها فى الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية، عن الدنيا الفانية بمشاهدة الباقية، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان، وأبقاهم فى مجالس الأنس ورياض الإيقان، وقال: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ**﴾ يعنى الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة ﴿**وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ**﴾ الذين أمرضهم مرارة الصبابات ﴿**وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ**﴾ الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد ﴿**حَرَجٌ**﴾ عتاب من جهة العبودية والمجاهدة، لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقرهم من حسن الرضا. . .»(٢).

وفى سورة النحل عند قوله تعالى فى الآية (٨١) ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ**

(١) جـ ١ ص ٢ - ٣.
(٢) جـ١ ص ٣٣٩.

نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يقول: «يعنى ظلال أوليائه؛ ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله فى أرضه، لقوله ﷺ «السلطان ظل الله فى أرضه، يأوى إليه كل مظلوم» ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ أكنان الجبال: قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة، يسكن فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرابيل روح الإنس، لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ . . . »(١) .

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٠، ٢١) ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: « . . . إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة، وكان قلبه غائبًا فى غيب الحق، مشغولاً بالمذكور عن الذكر، فتفقده وما وجده، فتعجب من شأنه . . . أين قلبه إن لم يكن معه؟ . . . فظن أنه غائب عن الحق وكان فى الحق غائبًا، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم فى الله، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية، وألقينه فى بحر النكرة من المعرفة، ليفنى ثم يفنى عن الفناء، أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق، أو ليأتينى من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل . . . »(٢) .

هذا . . . والكتاب مطبوع فى جزءين، يضمهما مجلد كبير، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية.

---

(١) جـ١ ص ٥٣٤، ٥٣٥ .

(٢) جـ٢ ص ٨١٣ .

٤- التأويلات النجمية
لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمنانى

التعريف بمؤلفى هذا التفسير:

ألف هذا التفسير نجم الدين داية، ومات قبل أن يتمه، فأكمله من بعده علاء الدولة السمنانى، وسنوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير، إذًا فقد اشترك نجم الدين دايه وعلاء الدولة السمنانى فى هذا التفسير، وإذًا لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين.

أما نجم الدين داية:

فهو الشيخ نجم الدين، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدى الرازى المعروف بداية، المتوفى سنة ٦٥٤هـ أربع وخمسون وستمائة من الهجرة.

كان من خيار الصوفية، أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبى الجناب المعروف بالبكرى، وكان مقيمًا أول أمره بخوارزم، ثم خرج منها أيام حروب جنكيزخان إلى بلاد الروم، وهناك لقى صدر الدين القنوى وأخذ عنه، ويقال: إنه استشهد فى حروب جنكيزخان، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد، قرب السرى السقطى والجنيد(١).

وأما علاء الدولة السمنانى:

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمنانى، البيانانكى، الملقب بعلاء الدولة، وركن الدين، والمولود سنة ٦٥٩هـ تسع وخمسين وستمائة، تفقه وطلب الحديث على كثير من شيوخ عصره، حتى برع فى العلم، قال الذهبى: «كان إمامًا جامعًا، كثير التلاوة، وله وقع فى النفوس، وكان يحط على ابن عربى ويكفره، وكان مليح الشكل، حسن الخلق، غزير الفتوة، كثير البر يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفًا فينفقها فى القرب، أخذ عن صدر الدين بن حمويه، وسراج الدين القزوينى، وإمام الدين بن على مبارك البكرى، وذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة»(٢). وذكره

---

(١) انظر نفحات الأنس ص ٤٩١.

(٢) الدرر الكامنة (١/ ٢٥٠ - ٢٥٢).

الأسنوى فى طبقاته وقال: (كان عالمًا مرشدًا، له كرامات وتصانيف فى التفسير والتصوف وغيرهما»[١]، ومن مصنفاته: مدارج المعارج، وتكملة التأويلات النجمية، وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيرًا كبيرًا فى ثلاثة عشر مجلدًا[٢]، ولكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير على طريقة القوم أو طريقة المفسرين، وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد، ومات فى رجب سنة ٧٣٦هـ ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه:

يقع هذا التفسير فى خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهى التى رجعنا إليها، ينتهى المجلد الرابع عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الذاريات ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية فى تفسيره، أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة، وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: «... ولا يؤمن أحد بالذى قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان...»[٣] ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب، ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن، ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التى مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذى يقرأ فى هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية؛ وبين ما كتبه السمنانى، يلحظ أن هناك فرقًا بين التفسيرين؛ ذلك أن الجانب الذى كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحيانًا للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشارى قائلاً: والإشارة فيه إلى كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشارى سهل المأخذ؛ لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية، كما أنه يربط بين الآيات.

---

(١) طبقات المفسرين للداودى ص ٢٨. (٢) كشف الظنون (١/ ٢٣٨).

(٣) جـ٥ ص؟ يلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات، لأن النسخة التى بأيدينا لم ترقم صفحاتها.

أما الجانب الذى كتبه السمنانى فلا يعـرج فيه على المعانى الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التى فـى الجانب الذى كتبه نجم الدين، بل هو تفسير مـعقد مغلق، والسر فى ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفـية صوفية، هذه القواعد ذكـرها فى مقدمة التكملة، وهى يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفى أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمـثلاً نراه يقرر فى هذه المـقدمة: أن كل آية لهـا سبعة أبـطن، كل بطن يخالف الآخر، فـالمعنى الذى يـجرى على هذا البطن يغـاير المعنى الذى يجـرى على البطن الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطـون السبعة: فـبطن مخصوص بالـلطيفة القالبـية، وبطن مخـصوص باللطيفـة النفسيـة، وبطن مخصـوص باللطيفة القلبـية، وبطن مخـصوص باللطيفة السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية، ولتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى**﴾ الآية، على هذه البطون السبعـة سبع تفسيـرات، كل يخالف الآخر، ثم هو لم يقف عند هذا الحـد، بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنًا بل سبعمائة، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره.

وعلى الجمـلة، فهذا التـفسيـر المعـروف بالتأويلات النجمـية يعـد من أهم كتب التفسير الإشارى، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لولا هذه التكملة، وإليك نماذج منه، بعضها لنجم الدين وبعضها لعلاء الدولة؛ لتـعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين.

من تأويلات نجم الدين:

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (٢٤٩) ﴿**فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾ يقول: «والإشارة فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا وماء زينتها وما زين للخلق فيهـا؛ لقوله تعالى ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ...**﴾ (آل عـمـران: ١٤) الآية، ليظهر المحسن من المسىء، وليميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (الكهف: ٧) ثم امتحنهم، وقال تعالى: ﴿**فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**﴾ يعنى من

أوليائى، ومحبى وطلابى، وله اختصاص بقربى، وقبولى، والتخلق بأخلاقى، ونيل الكرامة منى، كان النبى ﷺ يقول: (أنا من الله، والمؤمنون منى) ﴿**إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ**﴾ يعنى: من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه: من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق، على حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبى ﷺ وأصحابه، وكان يقول: (اللهم ارزق آل محمد قوتًا) أى ما يمسك رمقهم...»(١).

وفى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٣) ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ يقول: «﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أى صدقوا محمدًا ﷺ فيما دلهم إلى الله بإذنه ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ**﴾ أى جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديل وحملها على طاعة الله، والمجاهدة فى سبيله، فإنها تحجبك عن الله ﴿**وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾ أى عزيمة صادقة فى فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها، ومنازعتها فى هواها، وحملها على المتابعة فى طلب الحق ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما سواه، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف»(٢).

وفى سورة يوسف عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٠، ٣١) ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ يقول: «يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعية، والشيطانية فى مدينة الجسد ﴿**امْرَأَةُ الْعَزِيزِ**﴾ وهى الدنيا ﴿**تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ**﴾ تطالب عبدها وهو القلب، كان عبدًا فى البداية لحاجته إليها للتربية، فلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل للنظر الإلهى، فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنور القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شىء، وسجد له حتى الدنيا ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ أى أحبته الدنيا غاية الحب، لما ترى عليه آثار جمال الحق، ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على

---

(١) جـ ١. (٢) جـ ٢.

جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا الدنيا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ فى ملامتها ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أى الصفات ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وهو سكين الذكر ﴿وَقَالَتِ﴾ زليخا الدنيا ليوسف القلب ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ أى وقعن على جماله وكماله ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أكبرن جماله أن يكون جمال بشر ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أى جمال بشر ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ما هذا إلا جمال ملك كريم، وهو الله تعالى بقراءة من قرأ ملك بكسر اللام»[(١)].

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧، ١٨) ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ⑰ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: «﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى صفته الشيطانية ﴿وَالإِنسِ﴾ أى صفته النفسانية ﴿وَالطَّيْرِ﴾ أى صفته الملكية ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة، ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وهى النفس اللوامة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أى الصفات النفسانية ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ لا يهلكنكم ﴿سُلَيْمَانُ﴾ القلب ﴿وَجُنُودُهُ﴾ المسخرة له ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم الحق، وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها»[(٢)].

من تأويلات السمنانى:

فى سورة التحريم عند قوله تعالى فى الآية (١١) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول: «﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامة ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ يعنى القوة الصالحة القابلة تحت القوى الفاسدة

---

(١) جـ٣.

(٢) جـ٤.

الفاعلة المستكبرة، ما ضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هى بنفسها ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها: ابن لى بيتًا فى أخص أطوار القلب... وقالت أيضًا فى مناجاتها: نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها، ونجنى من ألوانها وقواها الظالمة...»[1].

وفى سورة الشمس عند قوله تعالى فى الآيات (١١) وما بعدها ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا...﴾ إلى آخر السورة، يقول: «﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ يعنى إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث أشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى اللطيفة ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أى احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ﴾ أى أهلكهم الله ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أى عمهم بذلك العذاب ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه»[2].

* * *

(١) جـ٥.

(٢) جـ٥.

٥- التفسير المنسوب لابن عربى

من مؤلف هذا التفسير ؟:

هذا التفسير طبع مجردًا فى مجلدين، وطبع على هامش عرائس البيان فى حقائق القرآن، لأبى محمد بن أبى النصر الشيرازى، الصوفى، الذى تكلمنا عنه فيما مضى، وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربى، وبعض الناس يصدق هذه النسبة، ويعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربى نفسه، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربى، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق الكاشانى، وإنما نسب لابن عربى، ترويجًا له بين الناس، وتشهيرًا له بشهرة ابن عربى، وممن يرى هذا الرأى الأخير: المرحوم الشيخ محمد عبده فى مقدمة التفسير التى اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه، ورواها عنه بالمعنى، ووضعها فى مقدمة تفسير المنار، وذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشارى، ثم يقول: (وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية، ومن ذلك: التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز)(١).

ونحن مع الأستاذ الإمام فى أن هذا التفسير للكاشانى، لا «لابن عربى» وإن كنا لا نوافقه على دعواه أن القاشانى من الباطنية، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى.

هذا، وإنى حين أميل لهذا الرأى ـ أعنى كون التفسير للقاشانى ـ أؤيده بما يأتى:

أولاً: أن جميع النسخ الخطية منسوبة للكاشانى، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى؛ لأنها الأصل الذى أخذت عنه النسخ المطبوعة.

ثانيًا: قال فى كشف الظنون: (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشانى، وهو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبى الغنائم عبد الرزاق كمال الدين الكاشانى السمرقندى، المتوفى سنة ٧٣٠هـ(٢) ثلاثين

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٨).

(٢) فى الأصل سنة ٨٨٧، وهو خطأ، وقيل: ٧٣٥هـ، وهو شيعى، له من المؤلفات: فى =

ورد هذا الاسم فى بعض المراجع (القاشانى) بالقاف.

وسبعمائة، أوله: الحمد لله الذى جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته. . . إلخ»[(١)]
وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربى، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها.

ثالثًا: فى تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٢) ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ يقول: «. . . وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز فى شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه. . . إلخ»[(٢)] ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن على النطنزى الأصفهانى، والمتوفى فى أواخر القرن السابع، وكان شيخًا لعبد الرزاق القاشانى، المتوفى سنة ٧٣٠هـ ثلاثين وسبعمائة من الهجرة، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس[(٣)] فى مناقب الأولياء ص٥٣٤ - ٥٣٧، وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزى المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى شيخًا لابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨هـ ثمان وثلاثين وستمائة من الهجرة.

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربى، وإنما هو لعبد الرزاق الكاشانى الصوفى.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفى النظرى، وبين التفسير الإشارى، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال.

أما ما فيه من التفسير الصوفى النظرى: فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود، ذلك المذهب الذى كان له أثره السيئ فى تفسير القرآن الكريم.

وأما ما فيه من تفسير إشارى: فكثير منه لا نفهم له معنى، ولا نجد له من سياق

= اصطلاحات الصوفية، تحفة الإخوان فى خصائص الفتيان، شرح فصوص الحكم، شرح منازل السائرين للخواجة عبد الله الأنصارى، وغيرها. (د/ مصطفى الذهبى).

(١) كشف الظنون ص ١٨٧، ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير، والكتاب من أوله إلى آخره يسير على طريقة واحدة.

(٢) تفسير ابن عربى (٢/ ١١٦).

(٣) هذا الكتاب باللغة التركية، ورجعنا إليه بمعونة الأستاذ الشيخ زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقًا.

الآية أو لفظها ما يدل عليه، ولو أن المؤلف ـ رحمه الله ـ كان واضحًا فى كلامه، كما كان التسترى واضحًا، أو جمع بين التفسير الظاهر والتفسير الباطن لهان الأمر، ولكنه لم يفعل شيئًا من ذلك، مما جعل الكتاب مغلقًا، وموهمًا لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه، كما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال الأستاذ الإمام فى القاشانى: إنه باطنى، وأنا مع اعترافى بأن الكتاب فى جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية، من ناحية ما فيه من المعانى التى تقوم على نظرية وحدة الوجود، وما فيه من المعانى الإشارية البعيدة ـ مع اعترافى بهذا ـ أخالف كل من يقول: إن القاشانى من الباطنية، ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع، وأيضًا فإنا نعلم أن الباطنية ينكرون المعانى الظاهرية للقرآن، ويقولون: إن المراد هو الباطن وحده، أما صاحبنا، فلم يذهب هذا المذهب، بل نجده فى مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولا بد منه أولاً، كما نبه على أنه لا يحوم فى كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر، ولعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتنى بالظواهر دون الإشارات، فأراد هو أن يعتنى بالناحية الإشارية دون الناحية الظاهرية للقرآن. فألف كتابه على النحو الذى نراه، وإليك بعض ما جاء فى هذه المقدمة، لتعلم أن الرجل ليس باطنيّا، ولتعلم أيضًا منهجه الذى نهجه فى تفسيره، وطريقته التى سار عليها فى شرحه لكتاب الله، قال رحمه الله:

«وبعد، فإنى طالما تعهدت تلاوة القرآن، وتدبرت معانيه بقوة الإيمان، وكنت مع المواظبة على الأوراد، حرج الصدر، قلق الفؤاد، لا ينشرح بها قلبى ولا يصرفنى عنها ربى، حتى استأنست بها فألفتها، وذقت حلاوة كأسها وشربتها، فإذا أنا بها نشيط النفس، فلج الصدر، متسع البال، منبسط القلب، فسيح السر، طيب الوقت والحال، مسرور الروح بذلك الفتوح، كأنه دائمًا فى غبوق وصبوح، تنكشف لى تحت كل آية من المعانى ما يكل بوصفه لسانى، لا القدرة تفى بضبطها وإحصائها، ولا القدرة تصبر عن نشرها وإفشائها، فتذكرت خبر من أتى ما ازدهانى، مما وراء المقاصد والأمانى، قول النبى الأمى الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع» وفهمت منه أن الظهر: هو التفسير، والبطن: هو التأويل، والحد: ما يتناهى إليه المفهوم من معنى

الكلام، والمطلع ما يصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام، وقد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: لقد تجلى الله لعباده فى كلامه، ولكن لا يبصرون، وروى عنه عليه السلام أنه خر مغشيّا عليه وهو فى الصلاة فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها. . . فرأيت أن أعلق بعض ما يسنح لى فى الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات، دون ما يتعلق بالظواهر والحدود، فإنه قد عين لها حد محدد، وقيل: من فسر برأيه فقد كفر، وأما التأويل فلا يتقى ولا يذر؛ فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع وأوقاته، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته، وكلما ترقى عن مقامه انفتح له باب فهم جديد، واطلع به على لطيف معنى عتيد، فشرعت فى تسويد هذه الأوراق بما عسى يسمح به الخاطر على سبيل الاتفاق، غير حائم بقيعة التفسير، ولا خائض فى لجة من المطلعات ما لا يسعه التقرير، مراعيًا لنطق الكتاب وترتيبه، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه فى أساليبه، وكل ما لا يقبل التأويل عندى، أو لا يحتاج إليه فما أوردته أصلاً، ولا أزعم أنى بلغت الحد فيما أوردته كاملاً فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت، وعلم الله لا يتقيد بما علمت، ومع ذلك فما وقف الفهم منى على ما ذكر فيه، بل ربما لاح لى فيما كتب من الوجوه ما تهت فى محاويه، وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلاً، ليعلم به أن للفهم إليه سبيلاً، ويستدل بذلك على نظائرها إن جاوز عن ظواهرها، إذ لم يكن فى تأويلها بد من تعسف، وعنوان المروءة ترك التكلف وعسى أن يتجه لغيرى وجوه أحسن منها طوع القياد، فإن ذلك سهل لمن تيسر له من أفراد العباد، ولله تعالى فى كل كلمة كلمات ينفد البحر دون نفادها، فكيف السبيل إلى حصرها وتعدادها، ولكنها أنموذج لأهل الذوق والوجدان يحتذون على حذوها عند تلاوة القرآن فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه، ويتجلى عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه، والله الهادى لأهل المجاهدة، إلى سبيل المكاشفة والمشاهدة، ولأهل الشوق إلى مشارب الذوق، إنه ولى التحقيق، وبيده التوفيق»(١).

---

(١) جـ١ ص ٣ - ٥.

فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم على الكاشانى بأنه صوفى لا باطنى، كما أنك تجد فيها منهجه الذى سار عليه فى تفسيره، ولو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار على الطريقة التى رسمها لنفسه ولم يحد عنها، وإليك نماذج منه.

نماذج من التفسير الإشارى:

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يقول ما نصه: «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذى هو حرم القلب، بلدًا آمنا من استيلاء صفات النفس، واغتيال العدو اللعين، وتخطف جن القوى البدنية أهله، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ من وحد الله منهم وعلم المعاد ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أى ومن احتجب أيضًا من الذين سكنوا الصدر، ولا يجاوزون حده بالترقى إلى مقام العين، لاحتجابهم بالعلم الذى وعاؤه الصدر، ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ من المعانى العقلية، والمعلومات الكلية، النازلة إليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ﴾ نار الحرمان والحجاب ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم، وتألمهم بحرمانهم»[١].

وفى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (٩٥) ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ يقول ما نصه: (إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف، ونوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم، ويخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى بإقباله عليها، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم، وتقليبكم فى أطواركم، فأنى تصرفون عنه إلى غيره»[٢].

(١) جـ١ ص ٥٧.
(٢) جـ١ ص ٢١٥.

نماذج التفسير المبنى على وحدة الوجود:

فى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ يقول: «ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلاً، أى شيئًا غيرك، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك، سبحانك: ننزهك أن يوجد غيرك أى يقارن شىء فردانيتك، أو يثنى وحدانيتك. . . »(١).

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى فى الآية (٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ يقول: «نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا فى صوركم»(٢).

وفى سورة الحديد عند قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يقول: «وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به، وظهوره فى مظاهركم»(٣).

وفى سورة المجادلة عند قوله تعالى فى الآية (٧) ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ...﴾ الآية، يقول: «لا بالعدد والمقارنة، بل بامتيازهم عنه بتعيناتهم، واحتجابهم عنه بماهياتهم ونياتهم، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم لماهياتهم وهوياتهم، وتحققهم بوجوبه اللازم لذاته، واتصاله بهم بهويته المندرجة فى هوياتهم، وظهوره فى مظاهرهم، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة، وإقامتها بعين وجوده، وإيجابهم بوجوبه، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم؛ ولهذا قيل: لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة»(٤).

وفى سورة المزمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٨، ٩) ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ يقول: «واذكر اسم ربك الذى هو أنت، أى اعرف نفسك، واذكرها، ولا تنسها، فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها. . . ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أى الذى ظهر عليك نوره، فطلع من أفق وجودك بإيجادك، أو المغرب الذى اختفى بوجودك، وغرب نوره فيك واحتجب بك»(٥).

هذه بعض النماذج التى تكشف لك عن روح هذا التفسير، ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم فى الغالب على مذهب صاحبه فى وحدة الوجود، ولعل هذا هو

---

(١) جـ١ ص ١٤١. (٢) جـ٢ ص ٢٩١. (٣) جـ٢ ص ٢٩٤.
(٤) جـ٢ ص ٣٠٠. (٥) جـ٢ ص ٣٥٢.

السر الذى من أجله نسب الكتاب لابن عربى؛ فإن ابن عربى يقول بوحدة الوجود، ويبنى كثيرًا من تفسيره لبعض الآيات على هذا المذهب، فلاتحاد المذاهب وتشابه التفسير وقع الالتباس، فنسب التفسير لابن عربى، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا، وأمن من فعل ذلك من افتضاح أمره؛ اعتمادًا على الاتحاد فى المذهب، والتشابه فى التفسير.

وإذ قد جرنا الحديث إلى ابن عربى، فأرى إتمامًا للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل، وعن مذهبه فى التفسير، وليقف القارئ بعد ذلك على مقدار التشابه بين ابن عربى والكاشانى فى فهم كتاب الله تعالى، والكشف عن معانيه.

ابن عربى ومذهبه فى تفسير القرآن الكريم

ترجمة ابن عربى[1]:

هو أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى، الطائى، الأندلسى، المعروف بابن عربى بدون أداة التعريف، كما اصطلح على ذلك أهل المشرق، فرقًا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى صاحب أحكام القرآن، وكان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف واللام، كما كان يعرف فى الأندلس بابن سراقة.

ولد بِمَرْسية سنة ٥٦٠هـ ستين وخمسمائة من الهجرة ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨هـ ثمان وستين وخمسمائة، وبقى بها نحوًا من ثلاثين عامًا، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه، وعلا ذكره، وفى سنة ٥٩٨هـ ثمان وتسعين وخمسمائة، نزح إلى المشرق وطوف فى كثير من البلاد؛ فدخل الشام، ومصر، والموصل، وآسيا الصغرى، ومكة، وأخيرًا ألقى عصاه واستقر به النوى فى دمشق، وتوفى بها فى سنة ٦٣٨هـ ثمان وثلاثين وستمائة، ودفن بها، فرحمه الله رحمه واسعة.

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة لترجمته المذكورة فى آخر الفتوحات، وهى ملخصة من نفح الطيب، وإلى شذرات الذهب (٥/ ١٩١)، وإلى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول، العدد الثالث، ودائرة المعارف للبستانى المجلد الأول ص ٥٩٩.

ابن عربى بين أعدائه ومريديه:

كان ابن عربى شيخ المتصوفة فى وقته، وكان له أتباع ومريدون، يعجبون به إلى حد كبير، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر، والعارف بالله، كما كان له أعداء ينقمون عليه، ويرمونه بالكفر والزندقة، وذلك لما كان يدين به من القول بوحدة الوجود، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة، التى تحمل فى ظاهرها كل معانى الكفر والزندقة، فمن المعجبين بابن عربى: قاضى القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى الفيروزآبادى صاحب القاموس، وقد كتب كتابًا يدافع فيه عنه، ردًا على رضى الدين بن الخياط الذى كتب عن عقيدة ابن عربى ورماه بالكفر، وكمال الدين الزملكانى، من أكابر مشايخ الشام، والشيخ صلاح الدين الصفدى، والحافظ السيوطى، الذى ألف فى الدفاع عنه كتابًا سماه (تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى) وسراج الدين البلقينى، وتقى الدين بن السبكى، وغيرهم.

ومن الناقمين عليه: ابن الخياط السابق ذكره، والحافظ الذهبى، وابن تيمية عدو الصوفية على الإطلاق[١]، ولقد بلغ من عدواة بعض الناس لابن عربى أنهم حاولوا اغتياله بمصر، ولكن الله سلمه وأنجاه.

مكانته العلمية:

لم تقتصر براعة ابن عربى على التصوف، بل برع مع ذلك فى كثير من العلوم، فكان عارفًا بالآثار والسنن، أخذ الحديث عن جمع من علمائه، وكان شاعرًا وأديبًا، ولذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك المغرب، وقد بلغ مبلغ الاجتهاد والاستنباط، وتأسيس القواعد والمقاصد التى لا يحيط بها إلا من طالعها، ووقف على حقيقتها، ويقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم ومذهبه الظاهرى، ولكنه مع ذلك أبطل التقليد.

مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود:

أما مذهبه فى وحدة الوجود فهو: أنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة، ويعد التعدد والكثرة أمرًا قضت به الحواس الظاهرة «وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان، لا فرق بين سماويها وغير سماويها، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى

---

(١) وللإمام البقاعى فى تكفيره ابن عربى كتاب مستقل. (د/ مصطفى الذهبى).

صورهم، وصور جميع المعبودات، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه: هو التحقق من وحدته الذاتية معه، وإنما الباطل من العبادة: أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره، ويسميه إلهًا»(١).

«وبالجملة، فمنزلة ابن عربى العلمية كبيرة، ولا أدل على ذلك من مؤلفاته الكثيرة التى تدل على سعة باعه، وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة، وقد بلغ ما بقى منها إلى اليوم مائة وخمسون كتابًا، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربى فى الواقع»(٢) وأهم هذه المؤلفات: الفتوحات المكية، الذى ذاع صيته، وكلف به كثير من الرجال، ثم فصوص الحكم، وله ديوان فى الأشعار الصوفية، وكتاب الأخلاق، وكتاب مجموع الرسائل الإلهية، وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة.

غير أن هذه المؤلفات، يوجد فى تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة، التى سببت خوض الناس فى عقيدته، ورميهم إياه بالكفر والزندقة، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ على ظواهرها بل قالوا: إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها، حتى لا يدعيها الكذابون، وقد قال السيوطى فى كتابه «تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى»: «والقول الفصل فى ابن عربى: اعتقاد ولايته، وتحريم النظر فى كتبه؛ فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا، قال السيوطى: وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر، نص على ذلك الغزالى فى بعض كتبه وقال: إنه شبيه بالمتشابهه من القرآن والسنة، من حمله على ظاهره كفر»(٣).

ومما استدلوا به على أن ابن عربى لا يريد الظاهر الموهم من كلامه: ما يروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه:

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

---

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٣.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٣٦.

(٣) شذرات الذهب (٥ ص ١٩١).

فاعترض عليه السامع وقال: كيف تقول إنه لا يراك، وأنت تعلم أنه يراك؟! فقال مرتجلاً:

يا من يراني مجرمًا ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعمًا ولا يراني لائذًا[1]

قالوا: فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره، وإنما له محامل تليق به.

ومن العلماء من ينزه ابن عربى عن هذه العبارات الموهمة ويقول: إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه، ويروون فى ذلك أن الشعرانى الذى اختصر الفتوحات قال: «وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة، فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشرى، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد ابن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥هـ فذاكرته فى ذلك، فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونية، فلم أر فيها شيئًا مما توقفت فيه وحذفته، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره»[2].

ومهما يكن من شيء، فابن عربى معقد فى أفكاره، موهم فى ألفاظه وتعابيره، مشكل فى أكثر ما يقول، ومع كل هذا فلا أتهمه فى عقيدته، لجهلى باصطلاحات القوم ورموزهم، وكلمة الإنصاف فيه ـ كما أعتقد ـ قول الحافظ الذهبى عنه «وله توسع فى الكلام، وذكاء، وقوة خاطر، وحافظة، وتدقيق فى التصوف وتآليفه جمة فى العرفان، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس»[3].

---

(١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات (٤/ ٥٥٧).
(٢) خاتمة الفتوحات ص ٥٥٥.
(٣) دائرة المعارف للبستانى ص ٥٩٩.

مذهب ابن عربى فى تفسير القرآن الكريم:

يقوم مذهب ابن عربى فى التفسير غالبًا على نظرية وحدة الوجود التى يدين بها، وعلى الفيوضات والوجدانيات التى تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهى، وتنقذف فى قلبه من ناحية الإشراق الربانى.

أما من الناحية الأولى: ناحية التأثر بمذهب وحدة الوجود، فإنا نراه فى كثير من الأحيان يتعسف فى التأويل، ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية، وهذا ـ فيما أعتقد ـ منهج كله شر فى التفسير، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته، ويقسرها على أن تتضمن مذهبه، وتكون أسانيد له، وهذا ليس من شأن المفسر المنصف، الذى يبحث فى القرآن بحثًا مجردًا عن الهوى والعقيدة.

وأما من الناحية الثانية: ناحية الفيض الإلهى، فهو واسع الباع فيها، وقد مرت بك مقالته فى التفسير الإشارى، ورأيت كيف ادعى أن كل ما يجرى على لسان أهل الحقيقة من المعانى الإشارية فى القرآن هو فى الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله، وإنما عبر عنها بالإشارة، تقية من أهل الظاهر، ورأيت كيف ادعى أن أهل الله ـ وهم الصوفية ـ أحق الناس بشرح كتابه؛ لأنهم يتلقون علومهم عن الله، فهم يقولون فى القرآن على بصيرة، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين.

ثم هو لا يرى فرقًا بين القرآن نفسه، وبين تفسير أهل الله له، من ناحية أن كلا منهما حق ثابت، وصدق لا يعتريه شك، فإذا كان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه من عند الله، فكذلك أقوال أهل الحقيقة فى التفسير، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها منزلة على قلوبهم من عند الله.

يقرر ابن عربى كل هذه المبادئ، ويصرح بها فى فتوحاته، وأنا لا زلت واقفًا عند رأيى الذى قررته آنفًا، وهو: أن دعوى الفيض والإلهام لا يصح أن تكون أصلاً يحكم به على كتاب الله تعالى.

هذا... وإن ابن عربى لم نظفر له، بكتاب فى التفسير، ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول: إنه «صنَّف تفسيرًا كبيرًا على طريقة أهل التصوف فى مجلدات، قيل: إنه فى ستين سفرًا، وهو إلى سورة الكهف، وله تفسير صغير فى ثمانية أسفار

علىٰ طريقة المفسرين»[١] وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين، فإنا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما، وهو تفسيره لبعض الآية التى وجدناها متفرقة فى غضون مؤلفاته، كالفصوص، والفتوحات، إليك بعضًا منها لتكون على بصيرة، ولتطمئن إلى حكمى على الرجل فى شرحه لكتاب الله تعالى.

نماذج من التفسير الصوفى النظرى:

فى سورة نوح عند قوله تعالى فى الآية (٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ يقول: «﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهو الحيرة ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ فى عين الماء... ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد»[٢].

وعند قوله فى الآيتين (٢٧، ٢٨) من سورة نوح أيضًا: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ يقول ما نصه: «﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ أى تدعهم وتتركهم ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾: أى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية، فينظروا أنفسهم أربابا، بعدما كانوا عبيدًا، فهم العبيد الأرباب ﴿وَلَا يَلِدُوا﴾ أى لا ينتجوا ولا يظهروا ﴿إِلَّا فَاجِرًا﴾: أى مظهرًا ما ستر ﴿كَفَّارًا﴾ أى ساترًا ما ظهر بعد ظهوره، فيظهرون ما ستر فيهم، ثم يسترونه بعد ظهوره، فيحار الناظر، ولا يعرف قدر الفاجر فى فجوره، ولا الكافر فى كفره، والشخص واحد ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أى استرنى واستر من أجلى، فيجهل مقامى وقدرى، كما جهل قدرك ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر: ٦٧) ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ كنت نتيجة عنهما، وهما العقل والطبيعة ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أى قلبى ﴿مُؤْمِنًا﴾ أى مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية وهو ما حدثت به أنفسهم ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العقول ﴿وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ من النفوس ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ﴾ من الظلمات أهل الغيب المكتنفين خلف الحجب الظلمانية ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ أى هلاكًا، فلا يعرفون نفوسهم وشهودهم وجه الحق دونهم»[٣].

---

(١) كشف الظنون (١/ ٢٣٣).
(٢) فصوص الحكم (١/ ٢١٩).
(٣) الفصوص (١/ ١٢٣).

وفى سورة النساء عند قوله تعالى فى الآية (٨٠) ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ يقول: «لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته»[1].

نماذج من التفسير الإشارى:

فى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (٥٧، ٥٨) ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ نراه يذكر: أنه لما أدركته الفطرة التى لا بد منها لكل داخل فى الطريق، وتحكمت فيه، رأى الحق سبحانه، فتلا عليه هاتين الآيتين، قال: فعلمت أنى المراد بهذه الآية، وقلت: ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله عليهم جميعهم؛ فإن رجوعنا إلى هذا الطريق، كان بمبشرة على يد عيسى، وموسى ومحمد عليهم السلام ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ وهى العناية بنا ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ وهو ترادف التوفيق ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وهو أنا ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (فاطر: ٩) وهو ما ظهر علينا من أنوار القبول، والعمل الصالح، والتعشق به، ثم مثل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبى ﷺ فى البعث ـ أعنى حشر الأجسام ـ من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منى الرجال... الحديث، ثم قال ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل ﴿وَالَّذِى خَبُثَ﴾ وهو الذى غلبت عليه نفسه والطبع، وهو معتنى به فى نفس الأمر ﴿لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ مثل قوله: إن لله عبادًا يقادون إلى الجنة بالسلاسل، وقوله فى الآية (١٥) من سورة الرعد ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾) فقلنا: طوعًا يا إلهنا[2].

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٢، ٣٣) ﴿مَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ نجده

---

(١) الفتوحات (٤/ ١٢٢).

(٢) الفتوحات (٤/ ١٧٢).

يفسر ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ فيقول: «شعائر الله أعلامه، وأعلامه الدلائل الموصلة إليه» ويفسر قوله ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فيقول: «﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات، وليس إلا قلب المؤمن الذى وسع عظمة الله وجلاله»(١).

وفى سورة لقمان عند قوله تعالى فى الآية (١٦) ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ الآية، نجده يفسر قوله تعالى ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ فيقول: «أى عند ذى قلب قاس لا شفقة له على خلق الله، قال تعالى فى الآية (٧٤) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾»(٢).

نماذج من التفسير الظاهر:

فى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: «﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ فأضافه إليه، ولم يقل صراط الله، ووصفه بالاستقامة... ثم قال: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ الضمير يعود على صراطه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يعنى شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هى شرائع لهم، إلا إن وجد حكم فيها شرعى فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعًا لهم ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ يعنى تلك الشرائع ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ أى عن طريقه الذى جاء به محمد ﷺ، ولم يقل عن سبيل الله: لأن الكل سبيل الله؛ إذ كان الله غايتها ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينكم وبين المشى على غيره...»(٣).

وهذا تفسير مقبول، لجريانه على مقتضى الظاهر من الآية، ولكن نجد صاحبنا أحيانًا يشطح فى فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلمها له على ظاهرها، وإنما أقول على ظاهرها، لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنى لا غبار عليه، أراده هو، وجهلته أنا، فمن ذلك أنه يقول: «اعلم ـ وفقك الله ـ أن الله أخبر عن نبيه ورسوله ﷺ فى كتابه أنه قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(هود: ٥٦) فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم، وما أخطأ هذا الرسول فى هذا القول، ثم إنه ما قال ذلك إلا

(١) الفتوحات (٤/ ١٠٩).
(٢) الفتوحات (٤/ ١١٤).
(٣) الفتوحات (٢/ ٢١٧).

بعد قوله: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦) فما ثم إلا من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو على صراط مستقيم، ونكر لفظ دابة فهم، فأين المعوج حتى نعدل عنه؟ فهذا جبر، وهذه استقامة، فالله يوفقنا فى إنزال كل حكمة فى موضعها...».

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربى، ومنها تستطيع أن تحكم على فهمه لمعانى القرآن، كما تستطيع أن تقارن بينها وبين ما فى تأويلات الكاشانى، المنسوبة لابن عربى، لتقف على مقدار التشابه بين التفسيرين، وتأثر كل منهما بعقيدته فى وحدة الوجود.

وبعد... فهذا هو تفسير الصوفية، وهؤلاء هم أهمُّ مفسريه، وهذه هى أهم الكتب المؤلفة فيه ولعلى أكون قد أوفيت البحث حقه، وألممت بالموضوع من جميع نواحيه.

* * *

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة:

فى إيان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا العمل إلى العباسيين وحدهم؛ إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها.

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده، وبلغ بها المأمون خاصة القمة، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان.

ولكى يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس والهنود والصابئة والمسيحين، الذين كانوا على اتصال وثيق بالدراسات القديمة، فنقلوا إلى اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان، والهند، والفرس، وغيرهم، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمين، فقرأوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذى لم يكن لهم به عهد من قبل.

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث؛ لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين، ولا تتفق معه بحال من الأحوال، فكرسوا حياتهم للرد عليها، وتنفير الناس منها، وكان على رأس هؤلاء: الغزالى، والفخر الرازى، الذى تعرض فى تفسيره لنظريات الفلاسفة التى تبدو فى نظره متعارضة مع الدين، ومع القرآن على الأخص، فردها وأبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة، وانقاد له الدليل.

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم، وتعاليمه التى لا يلحقها الشك، ولا تحوم حولها الشبهة... نعم أعجبوا بها رغم هذا، لأنهم وجدوا أن فى مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة والعقيدة، أو بين الفلسفة والدين، وأن يبينوا للناس أن الوحى لا

يناقض العقل فى شىء، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس، وثبتت أمام الخصوم... رأوا أن هذا فى مقدورهم، فبذلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلسفة بالدين، ويؤاخوا بينهما، حتى يصبح الدين فلسفة، والفلسفة دينًا، وفعلاً وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق، ولكنه توفيق إن أرضى بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم؛ ذلك لأنهم لم يصلوا فى توفيقهم إلا إلى حلول وسطى، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويرًا يبعد كثيرًا عن الصور الثابتة المأثورة، ومثل هذه الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبين متقابلين وطرفين متنافرين؛ ولذلك لم يجد الغزالى ومن لف لفه صعوبة فى الرد على هؤلاء الفلاسفة الموفقين، وإبطال محاولاتهم، التى ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده وتعاليمه.

كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة:

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين والفلسفة، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما فى توفيقهم:

أما الطريق الأولى: فهى طريقة التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية، بما يتفق مع الآراء الفلسفية، ومعنى هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلى هذه الآراء حتى تسايرها وتتمشى معها.

وأما الطريقة الثانية: فهى شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية، ومعنى هذا أن تطغى الفلسفة على الدين وتتحكم فى نصوصه، وهذه الطريقة أخطر من الأولى، وأكثر شرًا منها على الدين.

الأثر الفلسفى فى تفسير القرآن الكريم:

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعًا على مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض وعدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها والقبول لها، وكان من هؤلاء وهؤلاء أثر ظاهر فى تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأى من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير، إما على طريق

الدفاع عنها وبيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده، والمسلمة لديه، وإما على طريق الرد عليها، وبيان أنها لا يمكن أن تساير نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات التى لا يسلمها ولا يقول بها.

وهو فى الحالة الأولى يشرح القرآن على ما يوافق هذه النظريات التى لا يراها متعارضة مع الدين، وفى الحالة الثانية لا يمشى على ضوء النظريات الفلسفية فى تفسيره، بل يفسر النصوص على ضوء الدين والعقل وحدهما، دون أن يكون للرأى الفلسفى دخل فى شرح النص القرآنى وبيان معناه، وممن فعل هذا فى تفسيره: الإمام فخر الدين الرازى، ودونك التفسير فسترى فيه ما ذكرته.

وأما الفريق المسالم للفلسفة: المصدق بكل ما فيها من نظريات وآراء فإنه لما فسر القرآن سلك طريقًا كله شر وضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن، فشرح نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شىء إلا من التعصب الفلسفى... وأخيرًا وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن، هى فى الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية، قصد بها تدعيم الفلسفة وخدمتها على حساب القرآن الكريم، الذى هو أصل الدين ومنبع تعاليمه

من تفسير الفارابى:

فمن هذه الروح التى طغت عليها الفلسفة، ما تجده للفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة فى كتابه فصوص الحكم، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التى جاء بها القرآن تفسيرًا فلسفيًا بحتًا، فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرية الواردة فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾ تفسيرًا أفلوطونيًا مبنيًا على القول بقدم العالم فيقول: إنه «الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره، وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربة منه، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه بكون، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشىء، ووجد إذ وجد معه لا فيه، هو أول؛ لأنه إذا اعتبر كل شىء كان فيه أولاً أثره، وثانيًا قبوله لا بالزمان، هو آخر؛ لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومباديها وقف عنده المنسوب، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية

فى كل طلب، فالغاية مثل السعادة فى قولك: لم شربت الماء؟ فتقول: لتغيير المزاج، فيقال: ولم أردت أن يتغير المزاج؟ فتقول: للصحة، فيقال: لم طلبت الصحة؟ فتقول: للسعادة والخير، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه؛ لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره... فهو المعشوق الأول، فلذلك هو آخر كل غاية، أول فى الفكرة آخر فى الحصول، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق...»(١).

ويشرح الظاهر والباطن الوارد فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد أيضًا ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ فيقول: «لا وجود أكمل من وجوده، فلا خفاء به من نقص الوجود، فهو فى ذاته ظاهر، ولشدة ظهوره باطن، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفى وتستبطن لا عن خفاء»(٢).

كما يشرح هذه الجملة مرة أخرى فيقول: «هو باطن لأنه شديد الظهور غلب ظهوره على الإدراك فخفى، وهو ظاهر من حيث إن الآثار تنسب إلى صفاته، وتجب عن ذاته فتصدق بها...»(٣).

ويفسر الوحى بقوله: (والوحى لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة، وذلك هو الكلام الحقيقى، فإن الكلام إنما يراد به تصوير ما يتضمنه باطن المخاطب فى باطن المخاطب ليصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه، اتخذ فيما بين الباطنين سفيرًا من الظاهرين، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار، وإذا كان المخاطب لا حجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافى فانتقش منه، لكن المنتقش فى الروح من شأنه أن يسبح إلى الحس الباطن إذا كان قويًا، فينطبع فى القوة المذكورة فيشاهد، فيكون الموحى إليه يتصل بالملك باطنه، ويتلقى وحيه الكلى بباطنه...)(٤).

---

(١) فصوص الحكم ص ١٧٤ - ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبى نصر الفارابى.
(٢) فصوص الحكم ص ١٧٠. (٣) فصوص الحكم ص ١٧٢ - ١٧٣.
(٤) فصوص الحكم ص ١٦٣.

كما يشرح الملائكة بأنها «صورة علمية، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها، تلحظ الأمر الأعلى فينطبع فى هويتها ما تلحظ، وهى مطلقة، لكن الروح القدسية تخاطبها فى اليقظة، والروح البشرية تعاشرها فى النوم»(١).

من تفسير إخوان الصفا:

ومن الشروح الفلسفية للقرآن أيضًا ما نجده فى رسائل إخوان الصفا، الذين لا زلنا نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم وتكوينهم، والذين كانوا يمتون فى أغلب الظن بصلة إلى الباطنية الإسماعيلية.

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة والنار، بما يفهم منه أن الجنة هى عالم الأفلاك وأن النار هى عالم ما تحت فلك القمر، وهو عالم الدنيا، ففى حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلى عالم الأفلاك، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف، ويقولون: «إن النفس إذا فارقت هذه الجنة، ولم يعقها شىء من سوء أفعالها، أو فساد آرائها، وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها، فهى هناك فى عالم الفلك فى أقل من طرفة عين بلا زمان، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد، ومعشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية، وشهواتها هذه الزينات الجسمانية، فهى لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة، بل تبقى تحت فلك القمر، سائحة فى قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة، تارة من الكون إلى الفساد؛ وتارة من الفساد إلى الكون ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ (النساء: ٥٦) ﴿**لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**﴾ (النبأ: ٢٣) ما دامت السموات والأرض، لا يذوقون فيها برد عالم الأرواح الذى هو الروح والريحان، ولا يجدون لذة شراب الجنان المذكور فى القرآن ﴿**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾

(١) المرجع السابق ص ١٤٦.

(الأعراف: ٥٠) الظالمين لأنفسهم، ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: (الجنة فى السماء والنار فى الأرض»[١].

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون: «إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته... خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه، وتدبير خلائقه؛ وسياسة بريته، وهم خلفاء الله فى أفلاكه كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله فى أرضه»[٢].

كذلك يرى إخوان الصفا «أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلى ملكوت السماء وتدخل فى زمرة الملائكة؛ وتحيى بروح القدس، وتسبح فى فضاء الأفلاك، فى فسحة السموات، فرحة، مسرورة منعمة، متلذذة، مكرمة، مغتبطة) ويقولون: إن ذلك هو معنى قول الله عز وجل فى الآية (١٠) من سورة فاطر: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾»[٣].

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحًا فلسفيًا بحتًا لا يتفق مع ما جاء به الدين فيقولون: «إن الله أشار إلى النفوس ووساوسها بقوله ـ فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام ـ ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ فشياطين الجن هى النفوس المفارقة الشريرة التى قد استجنت عن إدراك الحواس، وشياطين الإنس هى النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد»[٤].

ثم يقولون: «أمثال هذه النفوس التى ذكرناه ـ يعنون النفوس الخبيثة ـ هى شياطين بالقوة، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل»[٥].

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء فى قوله فى الآية (٦٩) من سورة النساء ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ

(١) رسائل إخوان الصفا (١/ ـ٩١، ٩٢) المطبعة العربية سنة ١٩٢٨م.
(٢) المصدر السابق (١/ ٩٨).
(٣) المصدر السابق (٤/ ١١٠، ١١١) مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ.
(٤) رسائل إخوان الصفا (٤/ ١٧٢) مطبعة تحفة الأخبار سنة ١٣٠٦هـ
(٥) المرجع السابق (٤/ ١٧٤).

رَفِيقًا﴾ بهذا الاسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى، ويعنون بها جنة الدنيا ونعيمها»[١] .

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان العامة، ويقولون: «إن النبى ﷺ يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح فى السر والعلن، غير مرموز ولا مكتوم، ثم يشير إليها، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة، والمعانى المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور، وتقبلها نفوسهم»[٢] وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة.

هذه بعض شروح الفلاسفة من المسلمين لآيات القرآن الكريم، وهى كما ترى شروح تقوم على نظريات فلسفية بحتة لا يمكن أن يتحملها النص القرآنى بحال من الأحوال.

هذا... ولم نسمع أن فيلسوفًا من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة فى عقولهم، ألف لنا تفسيرًا كاملاً للقرآن الكريم، وكل ما وجدناه لهم فى ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة فى كتبهم التى ألفوها فى الفلسفة، وأكثر من وجدنا له أثرًا فى التفسير من هؤلاء الفلاسفة هو الرئيس أبو على بن سينا؛ إذ قد عثر له على تفسير قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية[٣] وعلى تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين[٤] وبعض آيات أخرى، ولهذا سأعتبر ابن سينا الشخصية الأولى التى كان لها أكبر أثر فى التفسير الفلسفى، فأذكر نبذة عن حياته، ثم أعرض لمسلكه فى التفسير فأقول:

ترجمة ابن سينا:

هو الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا، كان أبوه من أهل بلخ، ثم انتقل إلى بخارى، وفى قرية من قراها ولد له أبو على بن

---

(١) المرجع السابق (٤/ ١٨٦). (٢) المرجع السابق (٤/ ١٨٥).

(٣) يوجد هذا التفسير فى كتاب جامع البدائع.

(٤) يوجد تفسير هذه السور الثلاث فى رسائل ابن سينا.

سينا سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة، ثم انتقل مع أهله إلى بخارى، ثم طوف أبو على بعد ذلك فى البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصل كثيرًا من الفنون، حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين، والحساب والجبر، ثم تعلم المنطق على أبى عبد الله الناتلى، وفاقه، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية، ثم رغب فى علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه، حتى أصبح بارعًا لا يعدله أحدًا فيه، كل هذا ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم التى عاناها، مما يدل على ذكائه الخارق وذهنه الثاقب، أما تصانيفه فكثيرة، تقارب المائة مصنف، ومن أهمها: كتاب الشفاء فى الحكمة، والنجاة والإشارات، والقانون، وغير ذلك من كتبه القيمة، التى انتفع الناس بها كثيرًا.

ولقد جمع أبو على بن سينا إلى شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية؛ إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان، ولما اضطربت أمور الدولة خرج أبو على من بخارى، وطوف ببلاد كثيرة حتى وصل إلى همدان، وهناك تقلد الوزارة لشمس الدولة، ثم ثار الجند عليه، وأغاروا على داره، ونهبوها، وقبضوا عليه، وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع، ثم أطلق فتوارى، ثم أعاده شمس الدولة وزيرًا بعد ذلك، ولما مات شمس الدولة توجه إلى أصبهان، ثم أدركه مرض شديد مات على أثره، وكانت وفاته بهمدان سنة ٤٢٨هـ ثمان وعشرين وأربعمائة من الهجرة، ودفن بها، فرحمه الله(١).

مسلك ابن سينا فى التفسير:

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن، وفيلسوف محب للفلسفة حريص على سلامة ما فيها من آراء، كان حريصا كل الحرص على أن يوفق بين الدين والفلسفة، حتى يرضى ناحيته الدينية والفلسفية، وكان طبيعيًا - والقرآن هو الدعامة الأولى من دعائهم الإسلام - أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن والنظريات الفلسفية

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ص٢٧١ - ٢٧٥ وشذرات الذهب (٣/ ٢٣٤ - ٢٣٧).

التى تبدو معارضة لها، وفعلاً قام بهذه العملية التى كانت ـ فيما أعتقد ـ شرّاً على الدين، وإبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة.

نظر ابن سينا إلى القرآن، ونظر إلى الفلسفة، فحكم النظريات الفلسفية فى النصوص القرآنية، فشرحها شرحًا فلسفيًا بحتًا، وكانت طريقته التى يسلكها فى شرحه غالبًا هى شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبى ﷺ لحقائق تدق على أفهام العامة، عجزت أفهامهم عن إدركها، فرمز إليها النبى بما يمكنهم أن يدركوه، وأخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم، وهو يقول: «إن المشترط على النبى أن يكون كلامه رمزًا، وألفاظه إيماء، وكما يذكر أفلاطون فى كتاب النواميس: إن من لم يقف على معانى رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهى، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون فى كتبهم الرموز والإشارات، التى حشوا فيها أسرارهم، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون... وما كان يمكن النبى محمدًا ﷺ أن يوقف على العلم أعرابيًا جافيًا، ولا سيما البشر كلهم، إذ كان مبعوثًا إليهم كلهم»(١).

وعلى هذا الأساس نظر ابن سينا إلى نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا الخواص أمثاله، ففسرها تفسيرًا حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية، فكان فى عمله هذا فاشلاً، وبعيدًا عن حقيقة الدين، وروح القرآن الكريم!.

وإليك بعض ما قاله ابن سينا فى بعض نصوص القرآن الكريم، لتقف على مقدار تهافته، وبعده عن حقائق القرآن الثابتة.

عرض ابن سينا لشرح قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الحاقة ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾ ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذى هو فلك الأفلاك، وفسر الملائكة الثمانية التى تحمل العرش بأنها أفلاك الثمانية التى تحت الفلك التاسع، وإليك عبارته بنصها:

قال: «وأما ما بلغ النبى ﷺ عن ربه عز وجل من قوله: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ**

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٤ - ١٢٥ مطبعة هندية سنة ١٩٠٨م.

رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (فنقول) إن الكلام المستفيض فى استواء الله تعالى على العرش من أوضاعه: أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، وتدعى المشبهة من المتشرعين أن الله تعالى على العرش لا على سبيل حلول، هذا، وأما فى كلام الفلسفى فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع الذى هو فلك الأفلاك، ويذكرون أن الله تعالى هناك، وعليه لا على حلول، كما بين أرسطو فى آخر كتاب سماع الكيان، والحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم، هذا... وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس؛ لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية، والذاتية إما طبيعية، وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى ولا تتغير أبد الدهر، وقد ذاع فى الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعًا، لا يموتون كالإنسان الذى يموت، فإذا قيل إن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحى الناطق الغير الميت يسمى ملكًا، فالأفلاك تسمى ملائكة، فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية، ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك، والحمل يقال على وجهين: حمل بشرى، وهو أولى باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، وحمل طبيعى كقولنا الماء محمول على الأرض، والنار على الهواء، والمعنى هنا الحمل الطبيعى لا الأول، وقوله: يومئذ والساعة، والقيامة، فالمراد بها ما ذكره الشارع: أن من مات قامت قيامته، ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة آكد جعل الوعد والوعيد، وأشباههما إلى ذلك الوقت»[١].

كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة والنار والصراط تفسيرًا فلسفيًا بعيدًا عن المأثور الثابت الصحيح، فيقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام: عالم حسى، وعالم خيالى وهمى، وعالم عقلى، والعالم العقلى عنده هو الجنة، والعالم الخيالى هو النار، والعالم الحسى هو عالم القبور، أما الصراط فيقول فى شرحه: «اعلم أن العقل يحتاج فى تصور أكثر الكليات إلى استقراء الجزئيات، فلا محالة أنها تحتاج إلى الحس الظاهر، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلى الخيال إلى الوهم،

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٨، ١٢٩.

وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب حتى يبلغ ذاته العقل، فهو إذًا يرى كيف الحد صراطا وطريقًا فى عالم الجحيم، فإن جاوزه بلغ عالم العقل، فإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلاً، وما يشير إليه حقًا، فقد وقف على الجحيم، وسكن فى جهنم، وهلك وخسر خسرانًا مبينًا».

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة المدثر: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ تفسيرًا فلسفيًا بعيدًا عن هدف القرآن، فيقرر أن النفس الحيوانية هى الباقية الدائمة فى جهنم، وهى منقسمة إلى قسمين: إدراكية، وعملية، والعملية، شوقية، وغضبية، والعلمية هى تصوارت الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة، وتلك المحسوسات ستة عشر، والقوة الوهمية الحاكمة على تلك الصور حكمًا غير واجب واحدة ـ ذاتيان، وستة عشر، وواحدة تسعة عشر. . . ثم يقول: «وأما قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً﴾ فمن العادة فى الشريعة تسمية القوى اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة»[1].

كما يفسر أبواب الجنة الثمانية، وأبواب النار السبعة تفسيرًا فلسفيًا صرفًا، فيقول: «وأما ما بلغ النبى محمد عن ربه عز وجل أن للنار سبعة أبواب، وللجنة ثمانية أبواب، فإذ قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهى خمسة، وإدراكها الصور مع المواد، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزانة الحواس المسماة بالخيال، وقوة حاكمة عليها حكمًا غير واجب وهو الوهم، وقوة حاكمة واجبًا وهو العقل، فذلك ثمانية، فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلى السعادة السرمدية، والدخول فى الجنة، وإن حصل سبعة منها لا تستتم إلا بالثامن أدت إلى الشقاوة السرمدية، والمستعمل فى اللغات أن الشىء المؤدى إلى الشىء يسمى بابًا، فالسبعة المؤدية إلى النار سميت أبوابًا لها، والثمانية المؤدية إلى الجنة سميت أبوابًا لها)[2].

ويفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٣١ - ١٣٢. (٢) رسائل ابن سينا ص ١٣٢.

﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيقول: «النور: اسم مشترك لمعنيين: ذاتى ومستعار، والذاتى هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاليس، والمستعار على وجهين: إما الخير، وإما السبب الموصل إلى الخير، والمعنى ههنا هو القسم المستعار بكلى فى قسميه... أعنى أن الله تعالى خير بذاته وهو سبب لكل خير، كذلك الحكم فى الذاتى وغير الذاتى، وقوله ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ عبارة عن الكل، وقوله «مشكاة» فهو عبارة عن العقل الهيولانى والنفس الناطقة؛ لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهيؤ للاستضاءة؛ لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد، والضوء أكثر، وكما أن العقل بالفعل مشبه بالنور، كذلك قابله مشبه بقابله وهو المشف، وأفضل المشفات الهواء، وأفضل الأهوية هو المشكاة، فالمرموز بالمشكاة هو العقل الهيولانى الذى نسبته إلى العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلى النور، والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل؛ لأن النور كما هو كمال للمشف كما حدبه الفلاسفة ومخرج له من القوة إلى الفعل، ونسبة العقل المستفاد إلى العقل الهيولانى كنسبة المصباح إلى المشكاة، وقوله: ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ لما كان بين العقل الهيولانى والمستفاد مرتبة أخرى وموضع آخر نسبته كنسبة الذى بين المشف والمصباح، فهو الذى لا يصل فى العيان المصباح إلى المشف إلا بتوسط وهو المسرجة، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للضوء، ثم قال بعد ذلك: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ ليجعلها الزجاج الصافى المشف، لا الزجاج الذى لا يستشف، فليس شيء من المتلونات يستشف ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ يعنى به القوة الفكرية التى هى موضوعة ومادة للأفعال العقلية، كما أن الدهن موضوع ومادة للسراج...»[1] وهكذا استمر ابن سينا فى شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت، وسترى أن شرحه هذا مزيج من فكرتى أفلاطون وأرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير بـ (الخير) و (الكل) وما يعرف لأرسطو من أقسام العقل.

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٥ - ١٢٨.

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ : «قوله تعالى ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ﴾ إشارة إلى القوة النباتية؛ فإن النباتية موكلة بتدبير البدن ونشوه ونموه، والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلى الانفكاك، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنًا حيوانيًا، والنفاثات فيها هى القوى النباتية، فإن النفث سبب لأن يصير جوهر الشىء زائدًا فى المقدار من جميع جهاته. . . أى الطول والعرض والعمق، وهذه القوى هى التى تؤثر فى زيادة الجسم المغتذى والنامى من جميع الجهات المذكورة. . . إلخ»(١).

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة الفلق أيضًا ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فيقول: «عنى به النزاع الحاصل بين البدن وقواه كلها، وبين النفس»(٢).

وفى سورة الناس يفسر قوله تعالى فى الآية (٤) ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ فيقول: «هذه القوة التى توقع الوسوسة هى القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية، ثم إن حركتها تكون بالعكس، فإن النفس وجهها إلى المبادئ المفارقة، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلى الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنس أى تتحرك بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلى العكس، فلهذا سمى خناسًا»(٣).

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الناس أيضًا ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فيقول: «الجن هو الاستتار، والإنس هو الاستئناس، فالأمور المستترة هى الحواس الباطنة، والمستأنسة هى الحواس الظاهرة»(٤).

رأينا فى تفسير الفلاسفة:

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا فى شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم، وهو كما ترى عين ما يذهب إليه الباطنية فى تأويلاتهم للآيات القرآنية، ولا أحسب أن

(١) جامع البدائع ص ٢٧ - ٢٨ مطبعة السعادة سنة ١٩١٧م.
(٢) المرجع السابق ص ٢٨.
(٣) المرجع السابق ص ٣١.
(٤) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٣.

مسلمًا مهما كان محبا للفلسفة والفلاسفة يقر ابن سينا وأمثاله على دعوى أن الحقائق القرآنية رموز وإشارات لحقائق أخرى، دقت عن أفهام العامة، وخفيت على عقولهم القاصرة، فرمز إليها النبى بآيات القرآن الكريم.

هذا، ولعل القارئ الكريم يلحظ معى أن الإمامية الاثنى عشرية، والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفى الصوفية، ورجال الفلسفة الإسلامية، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز، أو الإشارة، أو الباطن، ويظهر لنا أنها عدوى سرت إلى المسلمين من قدماء الفلاسفة[1]، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب، وتقبلتها بقبول حسن، لأنهم رأوا فيها عونًا كبيرًا على ترويج بدعهم، ونشر ضلالاتهم بين المسلمين!!.

* * *

(١) انظر ما قلناه عن فيلون اليهودى عند كلامنا عن البابية.

الفصل السابع

تفســـــير الفقهاء

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهى

١ - التفسير الفقهى من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

نزل القرآن الكريم مشتملاً على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التى تتعلق بمصالح العباد فى دنياهم وأخراهم، وكان المسلمون على عهد رسول الله ﷺ يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية، وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله ﷺ .

ولما توفى رسول الله ﷺ جدت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكمًا شرعيا صحيحًا، فكان أول شىء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم، ينظرون فى آياته، ويعرضونها على عقولهم وقلوبهم، فإن أمكن لهم أن ينزلوها على الحوادث التى جدت فبها ونعمت، وإلا لجأوا إلى سنة رسول الله ﷺ ، فإن لم يجدوا فيها حكمًا اجتهدوا وأعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة؛ ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه.

غير أن الصحابة فى نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون أحيانًا على الحكم المستنبط، وأحيانًا يختلفون فى فهم الآية، فتختلف أحكامهم فى المسألة التى يبحثون عن حكمها، كالخلاف الذى وقع بين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها، فعمر رضي الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، وعلى حكم بأن عدتها أبعد الأجلين: وضع الحمل، ومضى أربعة أشهر وعشرة أيام، وسبب هذا الخلاف تعارض نصين عامين فى القرآن، فإن الله سبحانه جعل عدة المطلقة الحامل: وضع الحمل، وجعل عدة الوفاة: أربعة أشهر وعشرًا من غير تفصيل، فذهب على رضي الله عنه إلى العمل بالآيتين معًا، وأن كل آية

منهما مخصصة لعموم الأخرى، وذهب عمر ﷺ إلى أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة، وقد تأيد رأى عمر ﷺ بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها، فوضعت الحمل بعد خمسة وعشرين يومًا من موته، فأحلها رسول الله ﷺ للأزواج(١).

وكالخلاف الذى وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت فى تقسيم ميراث من مات عن زوج وأبوين، فابن عباس ﷺ أفتى بأن للزوج النصف، وللأم الثلث، وللأب الباقى تعصيبًا، تمسكًا بظاهر قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وزيد بن ثابت ﷺ ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقى بعد فرض الزوج، نظرًا لأن الأب والأم ذكر وأنثى ورثا بجهة واحدة، فللذكر مثل حظ الأنثيين»(٢).

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة ﷺ حسبما يفهمه كل منهم فى النص القرآنى، وما يحيط به من أدلة خارجية، ومع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده، فإن ظهر له أنه فى جانب من خالفه رجع إلى رأيه وأخذ به.

التفسير الفقهى فى مبدأ قيام المذاهب الفقهية:

ظل الأمر على هذا إلى عهد ظهور أئمة المذاهب ـ الأربعة وغيرها ـ وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها، لأنها لم تكن على عهدهم، فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة، وغيرهما من مصادر التشريع، ثم يحكم عليها بالحكم الذى ينقدح فى ذهنه، ويعتقد أنه هو الحق الذى يقوم على الأدلة والبراهين، وكانوا يتفقون فيما يحكمون به أحيانًا، وأحيانًا يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الأدلة، غير أنهم مع كثرة اختلافهم فى الأحكام لم تظهر منهم بادرة التعصب للمذهب، بل كانوا جميعًا ينشدون الحق ويطلبون الحكم الصحيح، وليس يعزيز على الواحد منهم أن

(١) انظر تاريخ التشريع للخضرى ص ١١٣.
(٢) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للأساتذة: السبكى والسايس والبربرى ص ٩٦.

يرجع إلى رأى مخالفه إن ظهر له أن الحق فى جانبه، فهذا هو الشافعى ﷺ كان يقول: إذا صح الحديث فهو رأيى، وكان يقول: الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه فى الفقه: إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به، وكان يقول: إذا ذكر الحديث فمالك النجم الثاقب... إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء، وهذه هى سنة أسلافهم من الصحابة والتابعين(١).

التفسير الفقهى بعد ظهور التقليد والتعصب المذهبى:

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة، التقليد الذى يقوم على التعصب المذهبى، ولا يعرف التسامح، ولا يطلب الحق لذاته ولا ينشده تحت ضوء البحث الحر، والنقد البرىء.

ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلى أن نظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع، فوقفوا جهدهم العلمى على نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبذلوا كل ما فى وسعهم لإبطال مذهب المخالف وتفنيده، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلى آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل، وإلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلاً يجعلها به لا تصلح أن تكون فى جانب مخالفيه، وأحيانًا يلجأ إلى القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل، فهذا عبد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبى حنيفة يقول: «كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ»(٢).

ومع هذا الغلو فى التعصب المذهبى، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة، فنظر فى أقوالهم نظرة الباحث الحر الذى يساير الدليل حتى يصل به إلى الحق أيا كان قائلة.

وكان لهؤلاء وهؤلاء ـ أعنى المتعصبين وغير المتعصبين ـ أثر ظاهر فى

---

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى للأساتذة: السبكى والسايس والبربرى ص ٢٨١.

التفسير الفقهى، فالمتعصبون ينظرون إلى الآيات من خلال مذهبهم فينزلونها عليه، وغير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوى المذهبى، فينزلونها على حسب ما يظهر لهم، وينقدح فى ذهنهم.

تنوع التفسير الفقهى تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية:

وإذا تتبعنا التفسير الفقهى فى جميع مراحله وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء والأعراض من مبدأ نزول القرآن إلى وقت قيام المذاهب المختلفة، ثم بعد ذلك يسير تبعًا للمذاهب، ويتنوع بتنوعها، فلأهل السنة تفسير فقهى متنوع بدأ نظيفًا من التعصب، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا، وللظاهرية تفسير فقهى يقوم على الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها، وللخوارج تفسير فقهى يخصهم، وللشيعة تفسير فقهى يخالفون به من عداهم... وكل فريق من هؤلاء يجتهد فيتأويل النصوص القرآنية حتى تشهد له أو لا تعارضه على الأقل... مما أدى ببعضهم إلى التعسف فى التأويل، والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها.

الإنتاج التفسيرى للفقهاء:

هذا وإنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات فى التفسير الفقهى، فإنا لا نكاد نعثر على شيء من ذلك قبل عصر التدوين، اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم فى التفسير الفقهى.

فمن الحنفية:

ألف أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص والمتوفى سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة أحكام القرآن، وهو مطبوع فى ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

وألف أحمد بن أبى سعيد المدعو بمُلاً جيون من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، التفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية، وهو مطبوع بالهند فى

مجلد كبـير، ومنه نسخة فى مكتبـة الأزهر، وأخرى فى مكتبة الجامعـة المصرية (جامعة القاهرة)[١].

ومن الشافعية:

ألف أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى المتوفى سنة ٥٠٤هـ، أربع وخمـسمائة من الهـجرة، كتـابه أحكام القرآن، وهو مـخطوط فى مجلد كبـير، وموجود فى دار الكتب المصرية، وفى المكتبة الأزهرية[٢].

وألف شـهاب الدين، أبو العـبـاس أحمـد بن يوسف بن مـحمـد الحلبى، المعروف بالسمين، والمتوفى سنة ٧٥٦هـ ست وخمـسين وسبعمائة من الهجرة، كتابه (القول الوجيز فى أحكام الكتـاب العزيز) ويوجد منه فى مكتبة الأزهر الجزء الأول، وهو ينتهى عند قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ...﴾ (البقرة: ١٩٤) الآية، وهو مخطوط بخط المؤلف.

وألف على بن عبـد الله محـمود الشنفكى من علماء الـقرن التاسع الهـجرى كتابه (أحـكام الكتاب المبين) وتوجـد منه نسخة فى المكتبـة الأزهرية، مخطوطة بخط المؤلف، فى مجلد متوسط الحجم.

وألف جلال الدين السيوطى، المتوفى سنة ٩١١هـ إحدى عشرة وتسعمائة من الهجـرة، كتابه (الإكليل فى استنبـاط التنزيل) وهو موجود فى المكتـبة الأزهرية، ومخطوط فى مجلد متوسط الحجم.

ومن المالكية:

ألف أبو بكر بن العـربى المتـوفى سنة ٥٤٣هـ ثلاث وأربعيـن وخمسـمائة من الهجرة، كتابه أحكام القرآن، وهو مطبوع فـى مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

وألف أبو عبد الله القرطبى المتوفى سنة ٦٧١هـ إحـدى وسبعين وستمائة من الهجرة، كتابه (الجامع لأحكام القـرآن) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد

---

(١) كذلك تفسـير آيات الأحكام للطـحاوى وطبـع فى تركيـا وسنتكلم علـيه بالتفصيل فى التـتمة (د/ مصطفى الذهبى).

(٢) طبع الكتاب عدة طبعات. (د/ مصطفى الذهبى).

قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءًا ينتهى الجزء الرابع عشر عند آخر سورة (فاطر) وما بقى منه على أهبة الطبع[1].

ومن الزيدية:

ألف حسين بن أحمد النجرى، من أهل القرن الثامن الهجرى، كتابه (شرح الخمسمائة آية) ولم يصل إلى أيدينا هذا التفسير.

وألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجرى (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة) ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية، مخطوطة فى ثلاثة مجلدات، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثانى منه فى مجلد واحد مخطوط.

وألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادى عشر الهجرى، كتابه (منتهى المرام. شرح آيات الأحكام) ولم نقف على هذا التفسير[2].

ومن الإمامية الاثنى عشرية:

ألف مقداد السيورى، من أهل القرن الثامن الهجرى، كتابه (كنز الفرقان فى فقه القرآن) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، مطبوعة فى مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكرى.

وهناك كتب أخرى فى تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون، لا نطيل بذكرها، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب، ويكفى أن نعرض لأهمها وهو ما يأتى:

---

(١) كان هذا وقت تأليف هذا الكتاب، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير، ولما نفدت نسخه أخذت دار الكتب فى طبعه للمرة الثانية، كما يجرى الآن طبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب).

وطبع مؤخرًا فى اليمن، وسنتكلم عنه فى التتمة. (د. مصطفى الذهبى).

١- أحكام القرآن ـ للجصاص (الحنفى)

ترجمة المؤلف:

هو أبو بكر، أحمد بن على الرازى، المشهور بالجصاص(١)، ولد رحمه الله تعالى ببغداد سنة ٣٠٥هـ خمس وثلاثمائة من الهجرة.

كان إمام الحنفية فى وقته، وإليه انتهت رياسة الأصحاب، أخذ عن أبى سهل الزجاج، وعن أبى الحسن الكرخى، وعن غيرهما من فقهاء عصره، واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان على طريق الكرخى فى الزهد، وبه انتفع، وعليه تخرج، وبلغ من زهده أنه خوطب فى أن يلى القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل، أما مصنفاته فكثيرة، أهمها كتاب أحكام القرآن وهو ما نحن بصدده الآن، وشرح مختصر الكرخى، وشرح مختصر الطحاوى، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانى، وكتب أصول الفقه، وآخر فى أدب القضاء، وعلى الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل فى تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة.

هذا وقد ذكره المنصور بالله فى طبقات المعتزلة(٢)، وسيأتيك فى تفسيره ما يؤيد هذا القول.

أما وفاته فكانت سنة ٣٧٠هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة، فرحمه الله ورضى عنه(٣).

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهى خصوصًا عند الحنفية؛ لأنه يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه، وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التى لها تعلق بالأحكام فقط، وهو ـ وإن

---

(١) الجصاص نسبة إلى العمل بالجص. (٢) شرح الأزهار (٢/ ٤).

(٣) انظر ترجمته فى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ٢٧، ٢٨.

كان يسير على ترتيب سور القرآن ـ مبوب كتبويب الفقه، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التى يتعرض لها المؤلف فى هذا الباب.

استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن:

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ لا يقتصر فى تفسيره على ذكر الأحكام التى يمكن أن تستنبط من الآيات، بل نراه يستطرد إلى كثير من مسائل الفقه والخلافيات بين الأئمة، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، وكثيراً ما يكون هذا الاستطراد إلى مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد.

فمثلاً نجد عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ يستطرد لمذهب الحنفية فى أن من قال لعبيده: من بشرنى بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحدًا بعد واحد أن الأول يعتق دون غيره[١].

ومثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٦) من سورة يوسف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ...﴾ الآية، نجده يستطرد لخلاف الفقهاء فى مدعى اللقطة إذا ذكر علامتها، وخلافهم فى اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة فى جسده، وخلافهم فى متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسه وادعته الزوجة لنفسها، وخلافهم فى مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر... وغير ذلك من مسائل الخلاف التى لا تتصل بالآية إلا عن بعد[٢].

تعصبه لمذهب الحنفية:

ثم إن المؤلف ـ رحمه الله وعفا عنه ـ متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير، مما جعله فى هذا الكتاب يتعسف فى تأويل بعض الآيات حتى يجعلها فى جانبه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه، والذى يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه فى كثير من المواقف.

فمثلاً عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا

(١) جـ١ ص ٣٣.　(٢) جـ٣ ص ٣١٠ - ٣١٢.

الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل فى صوم التطوع لزم إتمامه[١] .

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٢) من سورة البقرة ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ الآية، نجده يحـاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها بغير الولى وبدون إذنه[٢] .

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النساء ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ...﴾ الآية، وقوله فى آية (٦) منها ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلاً لمذهب أبى حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة، وإن لم يؤنس منه الرشد[٣] .

حملة الجصاص على مخالفيه:

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه فى التأويل، ليس عف اللسان مع الإمام الشافعى رضي الله عنه ولا مع غيره من الأئمة، وكثيراً ما نراه يرمى الشافعى وغيره من مخالفى الحنفية بعبارات شـديدة، لا تليق من مثل الجصاص فى مثل الشافعى وغيره من الأئمة رحمهم الله.

فمثلاً عندمـا عرض لآية المحرمات من النساء فى سـورة النساء نجده يعرض للخلاف الذى بين الحنفية والشافعية فى حكم من زنى بامرأة، هل يحل له التزوج ببنتها أو لا؟ ثم يذكـر مناظرة طويلة جرت بين الشافعى وغيـره فى هذه المسألة، ويناقش الشافعى فيـما يرد به على مناظره، ويرميه بعبارات شنيعـة لاذعة كقوله: «فقـد بان أن ما قاله الشافـعى وما سلمه له السـائل كلام فارغ لا معنى تحـته فى حكم ما سئل عنه»[٤] .

وقوله: «ما ظـننت أن أحدًا ممن ينتدب لمناظرة خـصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلى مثل هذا، مع سخافة عقل السائل وغباوته»[٥] .

وقوله حين لم يرقـه أحد أجوبة الشافـعى على سؤال مناظره «ولو كلم بذلك

(١) جـ١ ص ٢٧٤ - ٢٨٥.
(٢) جـ١ ص ٤٧٢ - ٤٧٤.
(٣) جـ٢ ص ٥٦ - ٥٩.
(٤) جـ٢ ص ١٤٣.
(٥) جـ٢ ص ١٤٣.

المبتدئون من أحداث أصحابنا لما خفى عليهم عوار هذا الحجاج، وضعف السائل، والمسئول فيه»[١].

ومثلاً عند ذكره لمذهب الشافعى فى الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول: «وهذا القول مما خرج به الشافعى عن إجماع السلف والفقهاء»[٢] كأن الشافعى فى نظر الجصاص ممن لا يعتد برأيه، حتى ينعقد الإجماع بدونه.

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة:

كذلك نجد الجصاص يميل إلى عقيدة المعتزلة، ويتأثر بها فى تفسيره، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ الآية، نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه: «متى أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لا حقيقة له ولا ثبات»[٣] كما ينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ ويقرر أنه من وضع الملاحدة[٤].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ...**﴾ الآية، نجده يقول: «معناه لا تراه الأبصار، وهذا تمدح بنفى رؤية الأبصار كقوله تعالى (فى الآية ٢٥٥ من سورة البقرة) ﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص، فغير جائز إثبات نقيضه بحال... فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال؛ إذ كان فيه إثبات صفة نقص، ولا يجوز أن يكون مخصوصاً بقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ لأن النظر محتمل لمعان: منها انتظار الثواب، كما روى عن جماعة من السلف، فلما كان ذلك محتملاً للتأويل لم يجز الاعتراض به على ما لا مساغ للتأويل فيه، والأخبار المروية فى الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت، وهو علم الضرورة الذى لا تشوبه شبهة، ولا تعرض فيه الشكوك، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة فى اللغة»[٥].

---

(١) جـ٢ ص ٢٤٥.
(٢) جـ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١.
(٣) جـ١ ص ٤٨.
(٤) جـ٢ ص ٥٥.
(٥) جـ٣ ص ٥.

حملة الجصاص على معاوية ﷺ:

كما أننـا نلاحظ على الجصاص أنه تبدو منه البـغضاء لمعـاوية ﷺ، ويتأثر بذلك فى تفسـيره، فمـثلاً عند تفسـيره لقولـه تعالى فى الآيات (٣٩ - ٤١) من سورة الحج ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ...**﴾ إلى قـوله: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ يقول: «... وهذه صـفة الخلفاء الراشدين، الذين مكنهم الله فى الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ﷺ، وفيـه الدلالة الواضحة على صـحة إمامـتهم؛ لإخبـار الله تعالى بأنهم إذا مكنوا فى الأرض قـاموا بفـروض الله عليـهم، وقد مكنوا فى الأرض فـوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتـهين عن زواجره ونواهيه، ولا يدخل معاوية فى هؤلاء؛ لأن الله إنما وصف بذلك المـهاجرين الذين أخـرجوا من ديارهم، وليس معاوية من المهاجرين، بل هو من الطلقاء»[1].

ومثلاً فى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (٥٥) ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ...**﴾ الآية، يقول: «وفيه الدلالة على صحة إمامة الخلفـاء الأربعة أيضًا؛ لأن الله استخلفهم فى الأرض ومكن لهـم كما جاء الوعد، ولا يدخل فيهم معاوية؛ لأنه لم يكن مؤمنًا فى ذلك الوقت»[2].

وفى سورة الحجرات عند قوله تعالى فى الآية (٩): ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...**﴾ الآية، نجده يجعل عليّا ﷺ هو المحق فى قـتاله، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية، وكذلك كل من خرج على على[3].

وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحـامل على معاوية الصحابى، ويفوض أمره إلى الله، ولا يلوى مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه.

هذا... والكتاب مطبوع فى ثلاثة مجلدات كبار، ومتداول بين أهل العلم.

---

(١) جـ٣ ص ٣٠٣، ٣٠٤.
(٢) جـ٣ ص ٤٠٦.
(٣) جـ٣ ص ٤٩٢.

٢- أحكام القرآن ـ لكيا الهراسى (الشافعى)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين، أبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى، المعروف بالكيا[1] الهراسى، الفقيه الشافعى، المولود سنة ٤٥٠هـ خمسين وأربعمائة من الهجرة.

أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين الجوينى مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفى سنة ٥٠٤هـ أربع وخمسمائة من الهجرة، وكان رحمه الله فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثًا، يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالسه، فرضى الله عنه وأرضاه[2].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

أهمية هذا التفسير ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعى:

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات فى التفسير الفقهى عند الشافعية؛ وذلك لأن مؤلفه شافعى لا يقل فى تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعى، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون فى جانب مخالفيه.

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التى يقرر فيها «إن مذهب الشافعى رضي الله عنه أسد المذاهب وأقومها، وأرشدها وأحكمها، وإن نظر الشافعى فى أكثر آرائه ومعظم أبحاثه، يترقى عن حد الظن والتخمين، إلى درجة واليقين، والسبب فى ذلك أنه ـ يعنى الشافعى ـ بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح

---

(١) الكيا ـ بكسر الكاف وفتح الياء (المخففة) معناه فى اللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس. وفيات الأعيان (١/ ٥٩٠).

(٢) انظر وفيات الأعيان (١/ ٥٨٧ - ٥٩٠).

له درك غوامض معانيه، والغوص على تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه، ويسر عليّ من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عداه. . .»(١).

يقرر صاحبنا هذا، وأنا لا أنكره عليه، ولا أغض من مقام الشافعى رحمه الله، ولكنى أقول: إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام نطق بأن الرجل متعصب لمذهبه، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك فى تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعى، وفروع مذهبه، وإن أداه ذلك إلى التعسف فى التأويل.

وإذا لم يكفك هذا دليلاً على تعصب الرجل فدونك الكتاب، لتقف بعد القراءة فيه على مبلغ تعصب صاحبه وتعسفه.

تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصاص:

غير أن الهراسى ـ والحق يقال ـ كان عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصاص فى الشافعى وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفًا كان فيه شديد المراس، قوى الجدال، قاسى العبارة؛ إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التى ذكرها الجصاص فى تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعى، ففند كل شبهة أوردها، ودفع كل ما وجهه إلى مذهب الشافعى، بحجج قوية يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتص للشافعى من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة، والألفاظ المقذعة «والجزاء من جنس العمل».

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة النساء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ الآية، نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل بأن الزنى بامرأة يحرم على الزانى أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص على الشافعى فى هذه المسألة، ثم يقول فى شأن الجصاص: «إنه لم يفهم معنى كلام الشافعى ﷺ، ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال، ولتفهم معانى كتاب الله رجال، وليس هو منهم»(٢).

كما يقول: «وقد ذكر الشافعى مناظرة بينه وبين مسترشد طلب الحق فى هذه

---

(١) ص ٢.

(٢) ص ٢١٣

المسألة، فأوردها الرازى متعجبًا منها، ومنبهًا على ضعف كلام الشافعى فيها، ولا شىء أدل على جهل الرازى وقلة معرفته بمعانى الكلام من سياقه لهذه المناظرة، واعتراضاته عليها»(١).

ويقول بعد قليل: «ولم يعلم هذا الجاهل معنى كلام الشافعى ﷺ فاعترض عليه بما قاله، وعجب الناس من ذلك، فقال: فى هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل، فكان كما قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحا وآفته من الفهم السقيم(٢)

كما يقول فى موضع آخر: «وكيف يتصدى للتصنيف فى الدين من هذا مبلغ علمه، ومقدار فهمه، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول... ثم يتعرض للطعن فيمن لو عُمِّرَ عمر نوح ما اهتدى إلى مبادئ نظره فى الحقائق، فنسأل الله تعالى التوفيق، ونعوذ به من عمى البصيرة واتباع الهوى»(٣).

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليبين لنا فى مقدمة تفسيره الحامل له على تأليفه، ومنهجه الذى سلكه، وتقديره لكتابه فيقول:

«ولما رأيت الأمر كذلك ـ يريد رجحان مذهب الشافعى على غيره ـ أردت أن أصنف كتابًا فى أحكام القرآن، أشرح ما ابتدعه الشافعى ﷺ من أخذ الدلائل فى غوامض المسائل، وضممت إليه ما نسجته على منواله، واحتذيت فيه على مثاله، على قدر طاقتى وجهدى، ومبلغ وسعى وجدى... ولا يعرف قدر هذا الكتاب، وما فيه من العجب العجاب، ولباب الألباب، إلا من وفر حظه من علوم المعقول والمنقول، وتبحر فى الفروع الأصول، ثم انكب على مطالعة هذه الفصول، بمسكة صحيحة، وقريحة همة غير قريحة»(٤).

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط، مع استيفاء ما فى جميع السور، والكتاب مخطوط فى مجلد كبير، وموجود فى دار الكتب المصرية، وفى المكتبة الأزهرية(٥).

---

(١) ص ٢١٤. (٢) ص ٢١٥. (٣) ص ٢٢٦. (٤) ص ٢.
(٥) طبع الكتاب طبعة غير محققة وتحتاج إلى تدقيق (د. مصطفى الذهبى).

٣- أحكام القرآن ـ لابن العربى (المالكى)

ترجمة المؤلف:

هو القــاضى أبو بكر محـــمد بن عبــد الله بن محـــمد بن عــبد الله بن أحـــمد المعــافرى، الأندلسى، الإشــبيلى، الإمــام، العلامــة، المتــبحــر، ختام عــلماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها... كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨هـ ثمان وسـتين وأربعمائة من الهــجرة، وتأدب ببلده، وقرأ القــراءات، ثم رحل إلى مـصر، والشام، وبغــداد، ومكة، وكان يــأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقــه، والأصول، وقيد الحديث، واتسع فى الرواية، وأتقن مـسائل الخلاف والكلام، وتـبحر فى التـفسـير، وبرع فى الأدب والشعر... وأخيـرًا عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثيـر، لم يأت به أحد قبله، ممن كانت له رحلة إلى المشرق.

وعلى الجملة، فقد كان ـ رحمه الله ـ من أهل التفنن فى العلوم، والاستبحار فيــها، والجمع لها، مـتقدمـا فى المعارف كلها، مـتكلمًا فى أنواعهــا، نافذًا فى جمـعها، حـريصًا على أدائهــا ونشرها، ثاقب الذهن فى تمـييز الصـواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود، سكن بلده وشوور فيه، وسمع، ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفـسير، ورحل إليه للسماع، قــال القاضى عياض ـ وهو ممن أخــذوا عنه: (استقضى ببلده فنفع الله به أهلــها لصرامته، وشــدة نفوذ أحكامــه، وكانت له فى الظالمـين سيـرة مرهــوبة، وتؤثر عنه فى قضــائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه).

هذا وقد ألف ـ رحمه الله ـ تـصانيف كثيرة مفيــدة، منها: أحكام القرآن... وهو ما نحن بصدده الآن، وكتاب المسالــك فى شرح موطأ مالك، وكتاب القبس على شـرح موطأ مــالك بن أنس، وعــارضــة الأحوذى على كـتـاب الترمــذى، والقواصم والعواصم، والمـحصول فى أصول الفقه، وكـتاب الناسخ والمنسوخ،

وتخليص التلخيص، وكتاب القانون فى تفسير القرآن العزيز، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن... قيل: إنه ألفه فى عشرينه سنة، ويقع فى ثمانين ألف ورقة، وذكر بعضهم أنه رأى هذا التفسير وعد أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلدًا، وبالجملة فقد خلف ـ رحمه الله ـ كتبًا كثيرة، انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه فى حياته، هذا... وقد كانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة ٥٤٣هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة منصرفه من مراكش، وحمل ميتًا إلى مدينة فاس ودفن بها، فرضى الله عنه وأرضاه[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، وطريقته فى ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ فى شرحها آية آية... قائلاً: الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلاً) والآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلاً) وهكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة فى السورة.

تفسير ابن العربى بين إنصافه واعتسافه:

هذا... وإن الكتاب يعتبر مرجعًا مهمًا للتفسير الفقهى عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكى تأثر بمذهبه، فظهرت عليه فى تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشتط فى تعصبه إلى الدرجة التى يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكى، ولم يبلغ به التعسف إلى الحد الذى يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيهًا ومقبولاً، والذى يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفيه أحيانًا، كما يلمس منه روح التعصب المذهبى التى تستولى على صاحبها فتجعله أحيانًا كثيرة يرمى مخالفه وإن كان إمامًا له قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح، ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحيانًا يتغلب العقل على التعصب، فيصدر حكمه عادلاً لا تكدره شائبة التعصب، وأحيانًا ـ وهو الغالب ـ

---

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ٢٨١ - ٢٨٤.

تتغلب العصبية المذهبية على العقل، فيصدر حكمه مشوبًا بالتعسف، بعيدًا عن الإنصاف.

طرف من إنصافه:

وإذا أردت أن أضع يدك على شيء من إنصاف الرجل واستعماله لعقله، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ...﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ الاعتكاف فى اللغة هو اللبث، وهو غير مقدر عند الشافعى، وأقله لحظة، ولا حد لأكثره، وقال مالك وأبو حنيفة: هو مقدر بيوم وليلة، لأن الصوم عندهما من شرطه، قال علماؤنا: لأن الله تعالى خاطب الصائمين، وهذا لا يلزم فى الوجهين: أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه، لأنها حال واقعة لا مشترطة، وأما تقديره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدرة بشرطها، ألا ترى أن الطهارة شرط فى الصلاة، وتنقضى الصلاة، وتبقى الطهارة؟...»[١].

فأنت ترى أن المؤلف ـ رحمه الله ـ لم يرقه هذا الاستدلال الذى أظهر بطلانه، وهذا دليل على أنه يستعمل عقله الحر أحيانًا، فلا يسكت على الزلة العلمية فيما يعتقد، وإن كان فيها ترويج لمذهبه.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ...﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة والعشرون فى قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ...﴾ ثم يذكر أن العلماء اختلفوا فى مسح الرأس على أحد عشر قولاً، ثم يأخذ فى بيانها واحدًا واحدًا، ثم يقول: «ولكل قول من هذه الأقوال مطلع من القرآن والسنة» ثم يذكر لنا مطلع كل قول، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله: «وليس يخفى على أحد عند اطلاعه على هذه الأقوال والأنحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات فى مقصود الشريعة،

---

(١) جـ١ ص ٤٠.

ولا جاوز طرفيها إلى الإفراط، فإن للشريعة طرفين، أحدهما طرف التخفيف فى التكليف، والآخر طرف الاحتياط فى العبادات، فمن احتاط استوفى الكل، ومن خفف أخذ بالبعض. . . »(١).

فأنت ترى أنه يصوب كل ما قيل فى مسح الرأس.

وانظر إليه فى الآية السابقة حيث يقول: «المسألة السادسة والأربعون: نزع علماؤنا بهذه الآية إلى أن إزالة النجاسة غير واجبة، لأنه قال: إذا قمتم إلى الصلاة: تقديره ـ كما سبق ـ وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم وأيديكم، فلم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء، ولو كان واجبا لكان أول مبدوء به. . . وهى رواية أشهب عن مالك، وقال ابن وهب: لا تجزئ الصلاة بها لا ذاكراً ولا ناسيًا. . . والصحيح رواية ابن وهب، ولا حجة فى ظاهر القرآن، لأن الله سبحانه وتعالى إنما بين فى آية الوضوء صفة الوضوء خاصة، وللصلاة شروط: من استقبال الكعبة، وستر العورة، وإزالة النجاسة. . . وبيان كل شرط منها فى موضعه. . . »(٢).

فأنت ترى أنه لا يميل إلى رواية أشهب عن مالك، ولا يرى فى ظاهر الآية ما يشهد له.

طرف من تعصبه لمذهبه:

وإن أردت أن أضع يدك على شىء من تعصب ابن العربى، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٨٦) من سورة النساء ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**...﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة السابعة: إذا كان الرد فرضًا بلا خلاف، فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب فى الهبة للعين، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة، وقال الشافعى: ليس فى هبة الأجنبى ثواب. . . وهذا فاسد، لأن المرء ما أعطى إلا ليعطى، وهذا هو الأصل فيها، وإنا لا نعلم عملاً لمولانا إلا ليعطينا، فكيف بعضنا لبعض. . . »(٣).

---

(١) جـ١ ص ٢٣٥، ٢٣٦. (٢) جـ١ ص ٢٤٠. (٣) جـ١ ص ١٩٤، ١٩٥.

حملته على مخالفى مذهبه:

وإن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى وأتباعهم، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا...**﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الرابعة عشرة: هذا يدل على أن الخلع طلاق، خلافًا لقول الشافعى فى القديم إنه فسخ، وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخًا لم يعد طلقة، قال الشافعى: لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقوله تعالى ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ (البقرة: ٢٣٠) وهذا غير صحيح، لأنه لو كان كل مذكور فى معرض هذه الآيات لا يعد طلاقًا لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى ﴿**أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ طلاقًا، لأنه يزيد به على الثلاث، ولا يفهم هذا إلا غبى أو متغاب... إلخ»[١].

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿**وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً...**﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الثامنة والعشرون: قوله تعالى: ﴿**مَاءً**﴾ قال أبو حنيفة: هذا نفى فى نكرة وهو يعم لغة، فيكون مفيدًا جواز الوضوء بالماء المتغير، وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه... قلنا: استنوق الجمل إلى أن يستدل أصحاب أبى حنيفة باللغات، ويقولون على ألسنة العرب وهم ينبذونها فى أكثر المسائل بالعراء، واعلموا أن النفى فى النكرة يعم كما قلتم، ولكن فى الجنس، فهو عام فى كل ما كان من سماء، أو بئر، أو عين، أو نهر، أو بحر عذب أو ملح، فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء...»[٢].

ونجده فى موضع من كتابه يرمى أبا حنيفة بأنه كثيرًا ما يترك الظواهر والنصوص للأقيسة[٣]، ويقول عنه فى موضع آخر إنه «سكن دار الضرب فكثر

(١) جـ١ ص ٨٢.
(٢) جـ١ ص ١٨٦.
(٣) جـ١ ص ١٧٦.

عنده المدلس، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك، لما صدر عنه إلا إبريز الدين وإكسير الملة، كما صدر عن مالك»(١).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، حيث يقول فى تعريض ساخر: (المسألة الحادية عشرة: قوله عز وجل ﴿فَاغْسِلُوا﴾ وظن الشافعى - وهو عند أصحابه معد بن عدنان فى الفصاحة بله أبى حنيفة وسواه - أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك، وقد بينا فساد ذلك فى مسائل الخلاف، وفى سورة النساء، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء، أو ما فى معنى اليد»(٢).

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ حيث يقول: (المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ اختلف الناس فى تأويله على ثلاثة أقوال: **الأول:** أن لا يكثر عيالكم... قاله الشافعى، **الثانى:** أن لا تضلوا.. قاله مجاهد، **الثالث:** أن لا تميلوا... قاله ابن عباس والناس... قلنا: أعجب أصحاب الشافعى، بكلامه هذا، وقالوا: هو حجة، لمنزلة الشافعى فى اللغة، وشهرته فى العربية، والاعتراف له بالفصاحة، حتى لقد قال الجوينى: هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه على المعانى ومعرفته بالأصول... واعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم، فذلكم أقرب إلى أن تنتفى عنكم كثرة العيال... قال ابن العربى: (كل ما قال الشافعى، أو قيل عنه، أو وصف به، فهو كله جزء من مالك ونقطة من بحره، ومالك أوعى سمعًا، وأثقب فهمًا، وأفصح لسانًا، وأبرع بيانًا، وأبدع وصفًا، ويدلك على ذلك مقابلة قول بقول فى كل مسألة وفصل) ثم تكلم بعد ذلك عن معنى لفظ «عال» فى اللغة، ثم قال: «والفعل فى كثرة العيال رباعى لا مدخل له فى الآية، فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنفع الضاد المنطوق بها على الاختصاص»(٣).

---

(١) جـ١ ص ٣١٨. (٢) جـ١ ص ٢٣٢. (٣) جـ١ ص ١٣١.

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة النساء ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، حيث يقول: «المسألة الخامسة: قال أبو بكر الرازى إمام الحنفية فى كتاب أحكام القرآن: ليس نكاح الأمة ضرورة، لأن الضرورة ما يخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، وليس فى مسألتنا شىء من ذلك، قلنا: هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع، أو متهكم لا يبالى بموارد القول، نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا: إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة، ولكل واحد منهما حكم يختص به، وحالة يعتبر فيها، ومن لم يفرق بين الضرورة والحاجة التى تكون معها الرخصة، فلا يُعنى بالكلام معه، فإنه معاند أو جاهل، وتقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به»(١).

فأنت ترى من هذه الأمثلة كلها، أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة، ولا مع أتباعهم، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبى، الذى يقود صاحبه إلى ما لا يليق به، ويدفعه إلى الخروج عن حد اللطافة والكياسة.

احتكامه إلى اللغة:

ثم إن المؤلف ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يحتكم إلى اللغة فى استنباط المعانى من الآيات، وفى الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة(٢).

كراهته للإسرائيليات:

كما أنه شديد النفرة من الخوض فى الإسرائيليات، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة البقرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الآية، نجده يقول: «المسألة الثانية: فى الحديث عن بنى إسرائيل: كثر استرسال العلماء فى الحديث عنهم فى كل طريق، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» ومعنى هذا الخبر: الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة

---

(١) جـ١ ص ١٦٤.

(٢) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالى فى سورة النساء ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ جـ١ ص ١٣١، وما قاله عند تفسير قوله فى النساء أيضًا ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ جـ ١ ص ١٧٥.

وللثبوت إلى منتهى الخبر، وما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه، فهو أعلم بذلك، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله، ففى رواية مالك عن عمر ﷺ أنه قال: رآنى رسول الله ﷺ وأنا أمسك مصحفًا قد تشرمت حواشيه، فقال: ما هذا؟ قلت: جزء من التوراة، فغضب وقال: والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعى»[(١)].

نفرته من الأحاديث الضعيفة:

كذلك نجد ابن العربى شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، وهو يحذر منها فى تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله ﷺ توضأ مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، وتوضأ مرتين مرتين، وقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثًا ثلاثًا وقال: (هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء أبى إبراهيم) يقول لهم بعدما بيَّن ضعف هذا الحديث: «وقد ألقيت إليكم وصيتى فى كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده...»[(٢)].

هذا والكتاب مطبوع فى مجلدين كبيرين، ومتداول بين أهل العلم.

* * *

(١) جـ١ ص ١١. (٢) جـ١ ص ٢٤١.

٤- الجامع لأحكام القرآن
لأبى عبد الله القرطبى (المالكى)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير: هو الإمام أبو عبـد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح - بإسكان الراء والحاء المهملة - الأنصارى، الخزرجى، الأندلسى، القرطبى المفسر.

كان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، وبلغ من زهده أن اطرح التكلف، وصار يمشى بثوب واحد وعلى رأسـه طاقية، وكانت أوقاته كلهـا معمورة بالتوجـه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتبًا انتـفعوا بها، ومن مصنفاته: كتابه فى التفسيـر المسمى بالجامع لأحكام القرآن، وهو ما نحن بصـدده، وشرح أسماء الله الحسنى، وكـتاب التـذكار فى أفضل الأذكـار، وكتـاب شرح التقـصى، وكتـاب قمع الحرص بالزهد والقناعـة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة، قـال ابن فرحون: لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه، وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة.

سمع من الشيخ أبـى العباس بن عمر القـرطبى، مؤلف المفهم فى شـرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح، وحـدث عن أبى على الحسن بن محمد البكرى، وغـيرهما، وكان مستقرًا بمنية ابن خصيب، وتوفى ودفن بها فى شوال سنة ٦٧١هـ إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة، فرحمه الله رحمة واسعة[١].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وصف العلامـة ابن فرحون هذا التفـسير فقال: «هو مـن أجل التفاسير وأعـظمها نفعًا، أسـقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عـوضها أحكام القرآن واسـتنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعـراب والناسخ والمنسوخ»[٢] وذكر المؤلف رحمـه الله فى مقدمة هذا التفسير السبب الذى حمله على تأليفه، والطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه،

---

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧، ٣١٨.
(٢) الديباج المذهب ص ٣١٧.

وشروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه فقال: «وبعد، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى، وأستفرغ فيه منتى[١]، بأن أكتب فيه تعليقًا وجيزًا يتضمن نكتًا من التفسير، واللغات، والإعراب، والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعًا بين معانيها، ومبينًا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف... وشرطى فى هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيرًا ما يجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهمًا، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرًا لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك فى هذا الكتاب، والله الموفق للصواب، وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه، وما لا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام، بمسائل تفسر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية تتضمن حكمًا أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول، والتفسير، والغريب، والحكم، فإن لم تتضمن حكمًا ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل... وهكذا إلى آخر الكتاب، وسميته بالجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان...»[٢].

والذى يقرأ فى هذا التفسير يجد أن القرطبى ـ رحمه الله ـ قد وفَّى بما شرط على نفسه فى هذا التفسير، فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيرًا إلى اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة، والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، ولم يسقط القصص بالمرة، كما تفيده عبارة ابن فرحون، بل أضرب عن كثير منها، كما

(١) المنة: القوة.

(٢) القرطبى (١/ ٢، ٣).

ذكر فى مقدمة تفسيره، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروى أحيانًا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلى.

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ينقل عن السلف كثيرًا مما أثر عنهم فى التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلى قائله وفاءً بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه فى التفسير، خصوصًا من ألف منهم فى كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها، وممن ينقل عنهم كثيرًا: ابن جرير الطبرى، وابن عطية، وابن العربى، والكيا الهراسى، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحية الأحكام، فإنا نلاحظ عليه أنه يفيض فى ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول.

إنصاف القرطبى وعدم تعصبه:

وخير ما فى الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكى، بل يمشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أيًا كان قائله.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ نجده عند المسألة السادسة عشرة من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير، ويذكر أقوال من يجيزها ومن يمنعها، ويذكر أن من المانعين لها جملة: مالكًا، والثورى، وأصحاب الرأى، ولكنا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها، وذلك حيث يقول: «قلت: إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئًا، ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن سلمة قال: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله... أوحى إليه كذا... أوحى إليه كذا، فكنت أحفظ هذا الكلام، فكأنما يقر فى صدرى، وكانت العرب تلوم إسلامها فيقولون: اتركوه وقومه؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند نبى الله حقًا... قال: صلوا صلاة كذا فى حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا، فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآنًا، لما كنت أتلقى من الركبان... فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع

سنين، وكانت على بردة إذا سجدت تقلصت عنى، فقالت امرأة من الحى: ألا تغطون عنا إست قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لى قميصًا، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القيمص»[١].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة ﴿... فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ...﴾ نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية فى اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية، فيذكر أن مالكًا حظر ذلك عليه، وكذا الشافعى فى أحد قوليه... وينقل عن ابن العربى أنه قال: (عجبًا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية، وما أظن أحدًا يقوله، فإن قاله فهو مخطئ قطعًا) ثم يعقب القرطبى على هذا كله فيقول: «قلت: الصحيح خلاف هذا، فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال الله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة النساء: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ وهذا عام ولعله يتوب فى ثانى الحال، فتمحو التوبة عنه ما كان...»[٢].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾ الآية، نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التى تتعلق بهذه الآية فى اختلاف العلماء فى حكم صلاة عيد الفطر فى اليوم الثانى، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد فى غير يوم العيد، ويذكر عنه أيضًا أنه قال: «لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تقضى، فهذه مثلها» ثم يعقب القرطبى على هذا فيقول: «قلت: والقول بالخروج ـ يعنى لصلاة العيد فى اليوم الثانى ـ إن شاء الله أصح، للسنة الثابتة فى ذلك، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته، وقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعدما تطلع الشمس».. قلت: وقد قال علماؤنا: من ضاق عليه الوقت، وصلى الصبح، وترك ركعتى الفجر، فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء، وقيل: لا يصليهما حينئذ، ثم إذا قلنا يصليهما... فهل ما

---

(١) جـ١ ص ٣٥٢. (٢) جـ٢ ص ٣٣٢.

يفعله قضاء؟ أو ركعتان ينوب له ثوابها عن ثواب ركعتى الفجر؟ قال الشيخ أبو بكر: وهذا الجارى على أصل المذهب، وذكر القضاء تجوز، قلت: ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل، لا سيما مع كونها مرة واحدة فى السنة، مع ما ثبت من السنة، ثم روى عن النسائى بسنده (أن قومًا رأوا الهلال فأتوا النبى ﷺ فأمرهم أن يفطروا بعدما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلى العيد من الغد، وفى رواية: ويخرجوا لمصلاهم من الغد»(١).

ومثلاً نجده عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ..﴾ الآية، نجده فى المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية يذكر خلاف العلماء فى حكم من أكل فى نهار رمضان ناسيًا... فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء، ولكنه لا يرضى ذلك الحكم فيقول: «وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسيًا لصومه، قلت: وهو الصحيح، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسيًا فلا قضاء عليه، وإن صومه تام، لحديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أكل الصائم ناسيًا أو شرب ناسيًا فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه، ولا قضاء عليه...»(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ نجده يذكر فى المسألة السادسة من مسائل هذه الآية اختلاف العلماء فى حكم المتعة، فيذكر من يقول بوجوبها، ويذكر من يقول بندبها، ويعد فى ضمن القائلين بالندب مالكًا رحمه الله، ثم يقول: «تمسك أهل القول الأول بمقتضى الأمر، وتمسك أهل القول الثانى بقوله تعالى ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ و ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١) ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين، والقول الأول أولى؛ لأن عمومات الأمر بالامتناع فى قوله ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وإضافة الإمتاع إليهن بلام التمليك فى قوله ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ (البقرة: ٢٤١) أظهر فى الوجوب منه فى الندب، وقوله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها؛ لأن كل واحد يجب

---

(١) جـ٢ ص ٣٠٤، ٣٠٥.
(٢) جـ٢ ص ٣٢٢.

عليه أن يتقى الله فى الإشراك به ومعاصيه، وقد قال تعالى فى القرآن فى الآية (٢) من سورة البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾»[1].

موقفه من حملات ابن العربى على مخالفيه:

كذلك نجد القرطبى ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين، مع توجيه اللوم إليه أحيانًا، على ما يصدر منه من عبارات قاسية فى حق علماء المسلمين، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء ﴿... **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**﴾ نراه يروى عن الشافعى أنه فسرها على معنى: ألا تكثر عيالكم، ثم يقول: «قال الثعلبى: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال يعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربى: أن عال على سبعة معان لا ثامن لها، **يقال**: عال: مال، **الثانى**: زاد، **الثالث**: جار، **الرابع**: افتقر، **الخامس**: أثقل، حكاه ابن دريد، قالت الخنساء:

* ويكفى العشيرة ما عالها *

السادس: عال: قام بمؤنة العيال، ومنه قوله ﷺ: «وابدأ بمن تعول» **السابع**: عال: غلب، ومنه عيل صبره أى: غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله، وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح.

قلت: أما قول الثعلبى (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطنى فى سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه، وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح، وقد ذكرنا: عال الأمر: اشتد وتفاقم... حكاه الجوهرى.

وقال الهروى فى غريبه: (وقال أبو بكر: يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها، وقال الأحمر: يقال: عالنى الشىء يعيننى عيلاً ومعيلاً إذا أعجزك، وأما عال كثر عياله فذكره الكسائى وأبو عمرو الدورى وابن الأعرابى، قال الكسائى أبو الحسن على بن حمزة: العرب تقول: عال يعول وأعال يعيل أى كثر عياله، وقال أبو حاتم: كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا... ولعله لغة، قال الثعلبى المفسر: قال

---

(١) جـ٣ ص ٢٠٠.

أستاذنا أبو القاسم بن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا ـ وكان إمامًا فى اللغة غير مدافع ـ فقال: هى لغة حمير، وأنشد:

وإن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمشى وعالا

يعنى: وإن كثر ماشيته وعياله، وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحنًا، وقرأ طلحة بن مصرف: ألا تعيلوا، وهى حجة الشافعى رضي الله عنه، وقدح الزجاج وغيره فى تأويل عال من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى وفى ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع، وإنما القادح: الحرائر ذوات الحقوق الواجبة، وحكى ابن الأعرابى: أن العرب تقول: عال الرجل إذا كثر عياله»[(١)].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة النحل ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ نراه يعيب على ابن العربى تشنيعه على من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول: «وهذا تشنيع شنيع، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار»[(٢)].

وعلى الجملة، فإن القرطبى رحمه الله فى تفسيره هذا حر فى بحثه، نزيه فى نقده، عف فى مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع فى كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه، فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءًا تنتهى بآخر سورة فاطر، وعسى أن يعجل الله بإتمام ما بقى منه، حتى يتم به النفع إنه سميع مجيب[(٣)].

---

(١) جـ٥ ص ٢١ – ٢٢.
(٢) جـ١٠ ص ١٣٠.
(٣) وقد حقق الله الرجاء وتم طبع الكتاب، كما قدمنا.

٥- كنز العرفان فى فقه القرآن

لمقداد السيورى (من الإمامية الاثنى عشرية)

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التفسير، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيورى[(١)] أحد علماء الإمامية الاثنى عشرية، والمعروف بينهم بالعلم، والفضل والتحقيق، والتدقيق وله مؤلفات كثيرة، منها: تفسيره هذا؛ ومنها التنقيح الرائع فى شرح مختصر الشرائع، وشرح مبادئ الأصول... وغير ذلك، وكان فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى[(٢)].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكرًا ما فى كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص زابن العربى مثلاً، بل طريقته فى تفسيره: أنه يعقد فيه أبوابًا كأبواب الفقه، ويدرج فى كل باب منها الآيات التى تدخل تحت موضوع واحد فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد فى الطهارة من الآيات القرآنية، شارحًا كل آية منها على حدة، مبينًا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية فى فروعهم، مع تعرضه المذاهب الأخرى، ورده على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية.

هذا، وإن طريقته التى يسلكها فى تدعيم مذهبه وترويجه، وإبطال مذهب مخالفيه، لا تخرج عن أمرين اثنين:

أولهما: الدليل العقلى.

---

(١) السيورى: نسبة إلى السيور، وهو ما يقد من الجلد، أو إلى بلد من بلاد اليمن كما فى روضات الجنات.

(٢) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦ - ٥٦٧ (توفى عام ٨٢٦ هـ).

ثانيهما: دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت.

أما الدليل العقلى، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه فى صحة ما يشذ به.

وأما دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت، فتلك دعوى كثيرًا ما تكون كاذبة، يلجأ إليها الشيعة عندما يعوزهم الدليل، وتخونهم الحجة، وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار شذوذ صاحبه.

فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء ﴿... **وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**...﴾ يقول: «... فتيمموا أى فتعمدوا واقصدوا صعيدًا طيبًا، أى شيئًا من وجه الأرض كقوله ﴿**صَعِيدًا زَلَقًا**﴾ (الكهف: ٤٠) طيبًا: أى طاهرًا، ولذلك قال أصحابنا: لو ضرب المتيمم يده على حجر صلب ومسح: أجزأه، وبه قالت الحنفية، وقالت الشافعية: لا بد أن يعلق باليد شىء، لقوله ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ**﴾ (المائدة: ٦) وفيه نظر، لجواز كون (من) هنا ابتدائية، والوجه: المراد بعضه، وهو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض، أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام، فمسح الجبهة إلى طرف أنفه الأعلى، وكذا المراد باليدين: ظهر اليد من الزند إلى أطراف الأصابع»[١].

ويقول عندما تعرض لآية التيمم فى سورة المائدة: «وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنتان للغسل» ثم يرد على الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخرى لليدين، وأن المراد بالوجه كله، وباليدين إلى المرفقين... يرد عليهم فيقول: «وروايات أهل البيت تدفع ذلك»[٢].

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة ﴿... **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**...﴾ يقول: «... مدلول الآية أنه إذا طلقها الزوج عقيب الطلقتين تنكح زوجًا غير ذلك المطلق وهذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة، فإن ذلك يحرم فى التاسعة أبدًا ـ وطلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها على الشرائط ثم يراجعها فى العدة ثم يطلقها مرة ثانية ويفعل كما فعل أولاً، ثم يطلقها ثالثة، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبدًا»[٣].

(١، ٢) ص ٨، ٩.
(٣) ص ٢٥٢.

وهكذا يسير المؤلف بهـذا الشذوذ فى كثير من الأحكام، وبهذا التـعسف والتخبط فى فـهم نصـوص القرآن، والـذى يقرأ الكتـاب يرى الكثيـر من ذلك، ويعـجب من محاولاته الفاشلة فـى استنباط ما يشذ به من الآيات التى تجبهـه، ولا يمكن أن تتمشى مع مذهبـه بحال من الأحـوال، هذا، وإن الكتاب مطبوع على هامـش تفسيـر الحسن العسكرى، وموجود بدار الكتب.

* * *

٦- الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوسف الثلائى (الزيدى)[١]

ترجمة المؤلف:

مؤلف هذا التـفسـير هو شمس الدين يوسف بن أحـمد بن مـحمد بن أحـمد بن عثمــان الثلائى، الزيدى الفقـيه، أحد أصحـاب الإمام المهدى، وأحـد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه، ارتحل الناس إليه من الأقطار إلى ثلا، وكان إذا قرأ أمتلأ الجامع بالطلبة، وباقيهم بكتبهم فى الطاقات من خارج المسجد.

أخذ عن الفقـيه حسن النحوى، وله تصانيف، منهـا: الزهور والرياض، والثمرات اليانعة، وهو أجل مصنف عند الزيدية، وهو ما نحن بصدده الآن، توفى رحمه الله بثلا فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٢هـ اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة[٢].

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التـفسـير فى ثـلاثة أجزاء كـبار، ومنه نسـخة خـطية كـاملة بدار الكتب المصرية، ويوجد بالمكتـبة الأزهرية الجزء الثانى فقط، وهو مخطوط فى مـجلد كبير، يبدأ من قـوله تعالى فى الآية (٤) من سـورة المائدة ﴿يَسْـأَلُونَكَ مَـاذَا أُحِلَّ لَهُمْ...﴾ الآية، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النور ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

قرأت فى هذا التفسـير فوجدت المؤلف يقـتصر على آيات الأحكام، متمـشيًا مع ترتيب المصحـف فى سوره وآياته، يذكر الآية أولاً، ثم يذكر ما ورد فـى سبب نزولها إن كان لهـا سبب، ثم يقـول: ولهذه الآية ثمرات، هى أحكـام شرعيـة: الأولى: كذا والثانية: كذا... إلى أن ينتهى من كل ما يتعلق بالآية من الأحكام.

---

(١) طبع فى اليمن مؤخرًا فى ستة مجلدات (د/ مصطفى الذهبى).
(٢) انظر شرح الأزهار (١/ ٤٣).

اعتماد المؤلف على الروايات التى لا تصح:

ويلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث، وما يذكره من ذلك يمر عليه مرّا سابريّا بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه، فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ نراه يذكر الروايات الواردة فى سبب نزول هذه الآية، ويذكر ضمن ما يذكر: أنها نزلت فى على بن أبى طالب لما تصدق بخاتمه فى الصلاة وهو راكع[١]، وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة، ولكن المؤلف يذكرها، ثم يأخذ فى تفريع الأحكام على هذه القصة المكذوبة، كأنها عنده من الثابت الصحيح.

تقديره لكشاف الزمخشرى:

كذلك يلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشرى، مما يدل على أنه معجب به وبتفسيره إلى حد كبير، ولعل ذلك ناشئ عما بين الرجلين من صلة التمذهب بمذهب الاعتزال.

مسلكه فى أحكام القرآن:

أما مسلك المؤلف فى أحكام القرآن، فإنه يسرد أقوال السلف والخلف فى المسألة، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين، ويعرض لمذهب الشافعية، والحنفية، والمالكية، والظاهرية، والإمامية... وغيرهم من فقهاء المذاهب، ذاكرًا لكل مذهب دليله ومستنده فى الغالب، كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم فى المسألة التى يعرض لها، مع الإفاضة فى بيان أدلتهم التى استندوا إليها، والرد على من يخالفهم فيما يذهبون إليه... كل هذا بدون أن نلحظ على الرجل شيئًا من القدح فى مخالفيه، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم، وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه، وعمله على تأييده بالبراهين والأدلة.

---

(١) جـ٢ ص ٥٨.

رأيه فى نكاح الكتابيات:

فمثلاً عندما تعـرض لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة ﴿ **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ...** ﴾ إلى قـوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ...** ﴾ الآية، نراه يعرض لأقوال العلماء فى حكم نكاح الكتابيات فـيقول: «... ظاهر الآية جواز نكاح الكتابيـة، وهذا مذهب أكثر الفقهـاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن على، والصادق، والباقر، واختاره الإمـام يحيى بن حمزة وقال: إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهى نصرانية، فلما توفى عثمان خطبها معاوية، فقالت: وما يعـجبك منى؟ قال: ثناياتك، فقلعتهما وأمرت بهمـا إليه، ونكح طلحـة نصرانية، ونـكح حذيفة يهـودية، وقال القـاسم، والهادى، والناصر، ومحمد بن عبد الله، وعامة القاسمية، وهو مروى عن ابن عمر: إنه لا يجوز لمسـلم نكاح كافـرة كـتابـية كانت أو غيـرها، واحتجوا بقوله تعالى فى سـورة البقرة: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ (البقـرة: ٢٢١) قالوا: هذا فى المـشركات لا فى الكتابيات، قلنا: اسم المـشرك ينطلق على أهل الكتاب، بدليل قوله تعـالى، بعد ذكر اليهودى والنصارى فى قوله ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...** ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (التـوبة: ٣١) وعن ابن عمر: لا أعلم شركًا أعظم من قول النصارى إن ربهـا عيسى، وعن عطاء: قد كثر الله المـسلمات، وإنما رخص لهم يومئذ، قالوا: إنه تعالى عطف أحدهما على الآخر فـدل أنهما غيران -حيث قال تعالى: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ** ﴾ (البـينة: ١) قلنا: هذا كقوله تعالى: ﴿ **الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ** ﴾ (البقرة: ١٨٠) قالوا: الآية مصرحة بالجواز فى قوله تعالى: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾ قلـنا: قولـه تعـالـى فى سورة الممـتحنة: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ (الممتحنة: ١٠) وقوله تعالى فى سورة النور: ﴿ **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ** ﴾ (النور: ٢٦) وقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم** ﴾ (النساء: ٢٥) فشرط الإيمان فى هذا يقتضى التحريم فتتأول هذه الآية بأنه أراد المحـصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلمـوا؛ لأنهم كانوا يتكرهون ذلك، فسماهم

باسم ما كانوا عليه، وقد ورد مثل هـذا فى كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (البقرة: ١٢١) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (البقرة: ١٤٦) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١٩٩) قالوا: سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز، وإنا نجمع بين الآيات الكريمة فنقول: قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ عام ونخصه بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو نقول: أراد بالمشركات الوثنيات، وبالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر، أو يكون قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ ناسخًا لتحريم الكتابيات بقوله: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ قلنا: نقل ما ذكرتم بما روى أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبى ﷺ وآله عن ذلك فقال: إنها لا تحصن ماءك، وروى أنه نهاه عن ذلك، وبأنا نتأول قوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فنجمع ونقول: وتخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب متراخ، والبيان لا يجوز أن يتراخى، قالوا: روى جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال: أحل لنا ذبائح أهل الكتاب وأحل لنا نساؤهم، وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا، قال فى الشفاء: قال علماؤنا: هذا حديث ضعيف النقل، قالوا: قوله ﷺ وآله فى المجوس: سنوا بهم سنة أهل الكتاب... الخبر، فأفاد جواز ذبائحهم، ونكاح نسائهم، قلنا: الجواز منسوخ بأدلة التحريم، ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس، فنقول: كافرة فأشبهت الحربية، أو لما حرمت الموارثة حرمت المناكحة، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس. قالوا: لا حكم للاعتبار مع الأدلة...»(١).

المسح على الخفين:

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ...﴾ الآية، نراه يعرض لمسألة المسح على الخفين فيقول: «..... إن المسح على الخفين والجوربين لا يجوز، وهو مروى عن علىٍّ،

---

(١) جـ٢ ص ٦، ٧.

عليه السلام، وابن عباس، وعمار بن ياسر، وأبى هريرة، وعائشة، وقال عامة الفقهاء... إنه يجوز المسح عليهما، حجتنا هذه الآية، وهى قوله تعالى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فأمرت بتطهير الرجلين، والماسح على الخفين لا يكون مطهراً لهما، وكذلك الأخبار التى دلت على الغسل للقدمين، فأما ما روى أنه ﷺ وآله مسح على الخفين وأمر به، فهذه الأخبار كانت بمكة وبعد هجرته ﷺ وآله، ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخة، ويدل على هذا ما رواه زيد بن على عن آبائه عليهم السلام عن على عليه السلام قال: لما كان فى ولاية عمر جاء سعد بن أبى وقاص فقال: يا أمير المؤمنين، ما لقيت من عمار، قال: وما ذاك؟ قال: خرجت وأنا أريدك ومعى الناس، فأمرت منادياً فنادى بالصلاة، ثم دعوت بطهور فتطهرت ومسحت على خفى، وتقدمت أصلى، فاعتزلنى عمار، فلا هو اقتدى بى ولا هو تركنى، فجعل ينادى من خلفى: يا سعد: أصلاة من غير وضوء؟ فقال عمر: يا عمار، أخرج مما جئت به، فقال: نعم... كان المسح قبل المائدة، فقال عمر: يا أبا الحسن ما تقول؟ قال: أقول: إن المسح كان من رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، والمائدة نزلت فى بيتها، فأرسل عمر إلى عائشة فقالت: كان المسح قبل المائدة، فقل لعمر: والله لأن يقطع قدماى بعقبهما أحب إلى من أن أمسح عليهما، فقال عمر: لا نأخذ بقول امرأة، ثم قال: أنشد الله امرءاً شهد المسح من رسول الله لما قام، فقام ثمانية عشر رجلاً كلهم رأى رسول الله ﷺ وآله يمسح وعليه جبة شامية ضيقة الكمين، فأخرج يده من تحتها ثم مسح على خفيه، فقال عمر: ما تقول يا أبا الحسن؟ فقال: سلهم... أقبل المائدة أم بعدها؟ فسألهم، فقالوا: ما ندرى، فقال على عليه السلام: أنشد الله امرءاً مسلماً علم أن المسح قبل المائدة لما قام، فقام اثنان وعشرون رجلاً، فتفرق القوم وهؤلاء يقولون لا نترك ما رأينا، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس: والله ما مسح رسول الله بعد المائدة، ولأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على الخفين، وعن على عليه السلام: سبق الكتاب الخفين ـ قيل معناه قطع ـ وعن أبى هريرة: ما أبالى على خفى مسحت أو على ظهر حمار، فثبت للنسخ بما ذكر، وأما قول جرير: رأيت رسول الله يمسح، وكان إسلامه بعد المائدة، فروايته لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين؛

ولأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحًا، هذا كلام أهل المذهب والمسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام»[١].

وهكذا نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، وإن دلت على شىء فهو قوة ذهن الرجل، وسعة اطلاعه، هذا... ولا يكاد القارئ لهذا التفسير يجد فيه خلافًا كثيرًا للمذاهب الفقهية الأخرى، كما هو الشأن فى كتب التفسير الفقهى للإمامية الاثنى عشرية، وهذا راجع إلى تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة فى أصول الفقه وفروعه.

* * *

(١) جـ٢ ص ١٨، ١٩.

التفســـير العلمى

معنى التفسير العلمى:

نريد بالتفسير العلمى: التفسير الذى يُحكِّم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن، ويجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها.

التوسع فى هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به:

وقد وقع هذا النوع من التفسير، واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها، وتعدد ألوانها.

الإمام الغزالى والتفسير العلمى:

ويظهر لنا ـ على حسب ما قرأنا ـ أن الإمام الغزالى كان ـ إلى عهده ـ أكثر من استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن.

وبين أيدينا كتاب الإحياء للغزالى نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن فى فهم القرآن وتفسيره، بالرأى من غير نقل، وفيه ينقل عن بعض العلماء «أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف؛ إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع»[(١)] ثم يروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن»[(٢)] ثم يقول بعد ذلك كله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعال وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها»[(٣)]

---

(١) جـ٢ ص ١٨، ١٩.

(٢) الإحياء (٣/ ١٣٥) مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٣٥٦هـ.

(٣) المرجع السابق.

ثم يزيد على ذلك فيقول: «بل كل ما أشكل فهمه على النظار، واختلف فيه الخلائق فى النظريات؛ والمعقولات، فى القرآن إليه رمز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها»(١).

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذى ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بيانًا وتفصيلاً، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والثانى: علم اللباب، وجعل من مشتملاته: علم قصص الأولين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك(٢).

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... وغير ذلك ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها أن فى الإمكان والقوة أصنافًا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخر ليس فى قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين، فإن الإمكان فى حق الآدمى محدود، والإمكان فى حق الملك محدود إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذى لا يتناهى العلم فى حقه»(٣).

---

(١) المرجع السابق.

(٢) جواهر القرآن ص ٢١ - ٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩هـ.

(٣) جواهر القرآن ص ٣١، ٣٢.

ثم يقول بعد ذلك: «ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها، ليست أوائلها خارجه من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلاً ـ الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٨٠) وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥) وقال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥) وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (القيامة: ٨، ٩) وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (لقمان: ٢٩) وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، وولوج الليل فى النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦ - ٨) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنًا، وعددها وأنواعها، وحكمتها ومنافعها، وقد أشار فى القرآن فى مواضع إليها، وهى من علوم الأولين والآخرين، وفى القرآن جامع علم الأولين والآخرين، وكذلك لا يعرف معنى قوله ﴿سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ (ص: ٧٢) ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت لأفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها. . فتفكر فى القرآن، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين. .»[1].

---

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ ـ ٣٤.

الجلال السيوطى والتفسير العلمى:

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الغزالى فى القول بالتفسير العلمى، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه (الإتقان) فى النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضًا بمثل هذا الوضوح والتوسع فى كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات قوله: تعالى فى الآية (٣٨) من سورة الأنعام: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ**﴾ وقوله فى الآية (٨٩) من سورة النحل ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾[(١)].

ومن الأحاديث: ما أخرجه الترمذى وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[(٢)] وما أخرجه أبو الشيخ عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة»[(٣)].

ومن الآثار: ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين»[(٤)] وما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «أنزل فى القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شىء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن»[(٥)].

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبى ﷺ ثلاث رستون سنة من قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة المنافقين ﴿**وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا**﴾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده»[(٦)].

---

(١) الإتقان (٢/ ١٣٥).
(٢) الإتقان (٢/ ١٣١).
(٣) الإكليل ص ٢.
(٤) الإتقان (٢/ ١٢٦).
(٥) الإكليل ص ٢.
(٦) الإكليل ص ٢ والإتقان (٢/ ١٢٦).

أبو الفضل المرسى والتفسير العلمى:

ثم ذكر عن أبى الفضل المرسى أنه قال فى تفسيره: (جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس حتى قال: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أمل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه، فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه، وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات. . . إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة، من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة، وغيرها، وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم، والمتعدى، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفى منه، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى؛ وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله، ووجوده، وبقائه، وقدمه، وقدرته، وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بأصول الدين.

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى

الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا فى التخصيص، والإضمار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهى، والنسخ. . . إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال، والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول فى ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضًا.

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم، والأمثال، والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد، والوعيد، والتحذير، والتبشير، وذكر الموت، والمعاد، والنشر، والحشر، والحساب، والعقاب، والجنة، والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، وفى منامى صاحبى السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسموه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب، فإن عز فمن الحكم والأمثال، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعرف عاداتهم، الذى أشار إليه القرآن بقوله: ﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ (لقمان: ١٧).

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك، علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف، والثلث، والربع، والسدس، والثمن، حساب الفرائض، ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة، فى الليل، والنهار، والشمس، والقمر، ومنازله، والبروج، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم وحسن السياق، والمبادئ، والمقاطع، والمخالص، والتلوين فى الخطاب، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك واستنبطوا منه المعانى، والبيان، والبديع.

ونظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلامًا اصطلحوا عليها، مثل: الفناء، والبقاء، والحضور، والخوف، والهيبة، والأنس، والوحشة، والقبض، والبسط، وما أشبه ذلك.

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه، وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم.

أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى ﴿**وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ (الفرقان: ٦٧) وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى ﴿**شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ**﴾ (النحل: ٦٩) ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة: ففى تضاعيف سورة من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات.

وأما الهندسة: ففى قوله تعالى ﴿**انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ**﴾ (المرسلات: ٣٠، ٣١) فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئًا كثيرًا، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة، وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقى، مضروب بعضها فى بعض.

وأما النجامة: ففى قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ (الأحقاف: ٤) فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها، كالخياطة فى قوله ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ (طه: ١٢١) والحدادة ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ (الكهف: ٩٦) والبناء فى آيات، والنجارة ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود: ٣٧) والغزل ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢) والنسج ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١) والفلاحة ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ (الواقعة: ٦٣) الآيات، والصيد فى آيات، والغوص ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (ص: ٣٧) ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤) والصياغة ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨) والزجاجة ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤) ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥) والفخارة ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨) والملاحة ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ...﴾ (الكهف: ٧٩) الآية، والكتابة ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤) وفى آيات أخر، والخبز ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ (يوسف: ٣٦) والطبخ ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩) والقصارة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤) ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ (الصف: ١٤) وهم القصارون، والجزارة ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣) والبيع والشراء فى آيات، والصبغ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: ٢٧) والحجارة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (الشعراء: ١٤٩) والكيالة والوزن فى آيات كثيرة، والرمى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) قال السيوطى: انتهى كلام المرسى ملخصًا مع زيادات»[١].

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة، نجده يذكر عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه قانون التأويل: «علوم القرآن خمسون علمًا، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة؛ إذ لكل كلمة ظهر بطن، وحد ومطلع، وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يحصى، وما لا يعلمه إلا الله»[٢].

---

(١) الإكليل ص ٢ – ٥، والإتقان (٣/ ١٢٦ – ١٢٨).
(٢) الإتقان (٢/ ١٣٨).

وأخيرًا عقب السيوطى على هذه النقول وغيرها فقال: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى وو... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات»(١).

ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين فى تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما جد منها وما يجد إلى يوم القيامة.

ولو أنَّا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم، لوجدنا أن هذه النزعة ـ نزعة التفسير العلمى ـ تمتد من عهد النهضة العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت فى أول الأمر عبارة عن محاولات، يقصد منها التوفيق بين القرآن، وما جد من العلوم، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالى، وابن العربى، والمرسى، والسيوطى، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت عمليًا، وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى، ضمن تفسيره للقرآن.

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم، وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما ألفت بعض التفاسير التى تسير على ضوء هذه الفكرة، ونرى أن نؤجل البحث عن التفسير العلمى فى هذه المرحلة الأخيرة إلى خاتمة الكتاب؛ حيث نعرض لألوان التفسير فى العصر الحديث إن شاء الله تعالى.

إنكار التفسير العلمى

إذا كانت فكرة التفسير العلمى قد راجت عند بعض المتقدمين، وازدادت رواجًا عند بعض المتأخرين، فإنها لم تلق رواجًا عند بعض العلماء الأقدمين، كما أنها لم تلق رواجًا عند بعض المتأخرين منهم أيضًا.

---

(١) الإتقان (٢/ ١٢٩ - ١٣٢).

إنكار الشاطبى للتفسير العملى:

ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة فى العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولى، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى، الأندلسى، المتوفى سنة ٧٩٠هـ تسعين وسبعمائة من الهجرة؛ وذلك أنا نجده فى كتابه (الموافقات) يعقد بحثًا خاصًا لمقاصد الشارع، وينوع هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها وبيانها، والذى يهمنا هنا النوع الثانى منها وهو «بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للأفهام) وفى المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن (هذه الشريعة المباركة أمية؛ لأن أهلها كذلك[1] فهو أجرى على اعتبار المصالح. . .»[2] ثم دلل على ذلك بأمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عقب بفصل ذكر فيه «أن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ما ينفع من ذلك، ومضار ما يضر منه» ثم ذكر من العلوم الصحيحة التى كان للعرب اعتناء بها علم النجوم وما يختص به من الاهتداء فى البر، والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعنى، ثم قال: «وهو معنى مقرر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ** ﴾ (الأنعام: ٩٧) وقوله: ﴿ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ (النحل: ١٦) وقوله: ﴿ **وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (يس: ٣٩، ٤٠) وقوله ﴿ **هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾ (يونس: ٥) وقوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً...** ﴾ (الإسراء: ١٢) الآية، وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ﴾ (الملك: ٥) وقوله: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾ (البقرة: ١٨٩) وما أشبه ذلك من الآيات.

---

(١) يريد أن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التى يقصدها الشارع الحكيم. من الشارح (٢/ ٦٩).

(٢) الموافقات (٢/ ٦٩).

وذكر علم الأنواء، وأوقات نزول الأمطار، وإنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها، وعرض لما ورد فى ذلك من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ (الرعد: ١٢، ١٣) الآية، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ (الواقعة: ٦٨، ٦٩) وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (فاطر: ٩). . . وغير ذلك من الآيات.

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، قال: وفى القرآن من ذلك ما هو كثير. . . قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ (آل عمران: ٤٤) الآية، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩).

وذكر علم الطب، وبين أنه كان فى العرب منه شيء مبنى على تجارب الأميين، لا على قواعد الأقدمين، قال: وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة لكن على وجه جامع، شاف، قليل، يطلع منه على كثير، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١).

وذكر التفنن فى علم فنون البلاغة، والخوض فى وجوه الفصاحة، والتصرف فى أساليب الكلام. . . قال: وهو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم: ٥٨).

وذكر من العلوم التى عنى بها العرب وأكثرها باطل أو جميعها، علم العيافة والزجر، والكهانة، وخط الرمل، والضرب بالحصى، والطيرة، قال: «فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل، ونهت عنه كالكهانة، والزجر، وخط الرمل، وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب؛ فإن الكهانة والزجر كذلك، وأكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل فجاء النبى ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض، وهو

الوحى والإلهام، وبقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة وهو الرؤيا الصالحة، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلمام والفراسة»(١).

ثم بعد هذا البيان الذى أوضح فيه الشاطبى أن الشريعة فى تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم، ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابًا، وإيضاحًا، ويتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين، مفندًا هذا الزعم، الذى اعتقد أن قائليه قد تجاوزوا به الحد فى دعواهم على القرآن، وذلك حيث يقول فى المسألة الرابعة من مسائل النوع الثانى من المقاصد ـ أعنى مقاصد وضع الشريعة للإفهام؛ «ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها ـ وهم العرب ـ ينبنى عليه قواعد: منها: أن كثيرًا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح»(٢).

ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن فيقول: «. . . إن السلف الصالح ـ من الصحابة والتابعين ومن يليهم ـ كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلى ذلك، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشىء مما زعموا، نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة، دون الاهتداء بأعلامه، والاستنارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا»(٣).

ثم أخذ الشاطبى بعد هذا فى ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمى من الأدلة

---

(١) الموافقات (٢/ ٧١ - ٧٦).

(٢) الموافقات (١/ ٧٩).

(٣) الموافقات (٢/ ٧٩، ٨٠).

فقال: (وربما استدلوا على دعاهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) ونحو ذلك، وبفواتح السور - وهى مما لم يعهد عند العرب - وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن على بن أبى طالب ﷺ وغيره أشياء»[1].

ثم أخذ الشاطبى رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال:

فأما الآيات: فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب فى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية.

وأما فواتح السور: فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهدًا، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره أصحاب السير، أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى، وغير ذلك، وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادعوا، وما ينقل عن علىٍّ أو غيره فى هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة؛ فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقوَّل على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق»[2].

هذه هى الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبى فى هذا الموضوع، وذلك هو رأيه فى التفسير العلمى الذى شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين، وأحسب أنى - وقد وضعت بين يدى القارئ مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة - قد أنرت له الطريق، وأوضحت له السبيل؛ ليختار لنفسه ما يحلو له، بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلاً.

* * *

---

(١) الموافقات (٢/ ٨٠).

(٢) الموافقات (٢/ ٨١، ٨٢).

اختيارنا فى هذا الموضوع

أما أنا فاعتقادى أن الحق مع الشاطبى رحمه الله، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مدعاهم.

وهناك أمور أخرى يتقوى بها اعتقادنا أن الحق فى جانب الشاطبى ومن لف لفه، فمن ذلك ما يأتى:

أولاً: الناحية اللغوية:

وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة، ونحن وإن كنا لا نعرف شيئًا عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن، نظرًا لحدوثه وطروه على اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل على معان جدت باصطلاح حادث، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعانى التى حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتليت أول ما تليت على من كان حول النبى ﷺ؟... أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا من سفه نفسه، وأنكر عقله.

ثانيًا: الناحية البلاغية:

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن فى أعلى درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمى وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعانى المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا فى ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن، أو يذهب بفطانة العرب؛ وذلك لأن من

خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعانى، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم، وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذى حوى علوم الأولين والآخرين؟ ولم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟ . . . وهذا أيضًا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثًا: الناحية الاعتقادية:

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعًا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض.

هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به، حتى يسلم له دينه، ولا يرتاب فيه، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يُحَمِّل القرآن كل شىء، وجعلناه مصدرًا لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكنا بذلك قد أوقعنا الشك فى عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها ولا بقاء، فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير، لأنه ظهر له خطأها، وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرًا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينهما من التنافى والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولاً، فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ . . .

الحق أن القرآن لا يعنى بهذا اللون من حياة الناس، ولا يتعهده بالشرح ولا يتولاه بالبيان، حتى يكون مصدرهم الذى يرجعون إليه فى تعرف حياتهم العلمية الدنيوية.

ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة ـ فكرة التفسير العلمى ـ لم يقولوا بها، ولم يعملوا

على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وبيان صلاحيته للحياة، وتمشيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها، ولكن (ما هكذا يا سعد تورد الإبل) فإن إعجاز القرآن غنى عن أن يسلك فى بيانه هذا المسلك المتكلف، الذى قد يذهب بالإعجاز، وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل على محمد ﷺ.

وإذا كان أرباب هذا المسلك فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده، ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثها فى الآفاق وفى أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، فهم مخطئون - ولا شك - وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده، ودعوته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس، وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة، ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة. . .

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف، الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى، فى إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلى الله تعالى.

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضًا، أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى فى تفسيرهم، رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية، تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل من الصحة.

* * *

الخاتمــــــة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث

التفسير بين ماضيه وحاضره:

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد فى تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومراميه؛ إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذى جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ، وتلون بألوان مختلفة مرت بك كلها، أو مر بك على التحقيق ما وصلنا إليه فى دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة.

والذى يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخلة شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية المذهبية، والناحية الكونية الفلسفية، كل هذه النواحى وغيرها تناولها المفسرون الأول بتوسع ظاهر ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر يقومون به فى تفاسيرهم التى ألفوها، اللهم إلا عملاً ضئيلاً لا يعدو أن يكون جمعًا لأقوال المتقدمين، أو شرحا لغامضها، أو نقدًا وتفنيدًا لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحًا لرأى على رأى، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار.

مميزات التفسير فى العصر الحديث:

ولقد ظل الأمر على هذا، وبقى التفسير واقفا عند هذه المرحلة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعداها، ولا يحاول التخلص منها، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا فى كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير على ما دونه الأوائل فى التفسير - أثرت فى الاتجاه التفسيرى للقرآن تأثيرًا لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات

العلمية، التى حشرت فى التفسير حشرًا ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلى الذى كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول الله ﷺ، أو على أصحابه ﷺ، وإلباس التفسير ثوبًا أدبيًا اجتماعيًا، يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، على تفاوت بين الموقفين فى الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذى يتمشى مع الزمن فى جميع أطواره ومراحله... وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت فى الاتجاه التفسيرى فى هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمى والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذى قام على حرية الرأى الفاسد.

ألوان التفسير فى العصر الحديث:

وعلى ضوء ما تقدم، نستطيع أن نجمل ألوان التفسير فى العصر الحديث فى الألوان الأربعة الآتية وهى أهمها:

أولاً: اللون العلمى.

ثانيًا: اللون المذهبى.

ثالثًا: اللون الإلحادى.

رابعًا: اللون الأدبى الاجتماعى.

وسأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير فى العصر الحديث، على حسب ترتيبها، وبمقدار ما استفدت من قراءاتى فى كتب التفسير وما يتصل به من مؤلفات جدت فى هذا العصر، والله ولى التوفيق.

اللون العلمى للتفسير فى عصرنا الحاضر

تكلمنا عن التفسير العلمى فيما سبق، وبيننا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين، فمنهم من أيده وقال به، ومنهم من فنده ومنع منه.

وقلنا: إن التفسير العلمى كان أكثر رواجًا وأعظم قبولاً لدى المتأخرين، وأجملنا القول فى هذه النقطة الأخيرة، ووعدناك بالتوسع فيها عندما نعرض لهذه الخاتمة التى نحن بصددها، ووفاء بوعدى أقول:

رواج التفسير العلمى فى عصرنا الحاضر:

إن هذا اللون من التفسير ـ أعنى التفسير العلمى الذى يرمى إلى جعل القرآن مشتملاً على سائر العلوم ما جد منها وما يجد ـ قد استشرى أمره فى هذا العصر الحديث، وراج لدى بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم، وعناية بالقرآن الكريم، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التى تسلطت على قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض والسماء، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح، اعتقاداً منهم ـ كما قلنا ـ أن هذا بيان لناحية من أهم نواحى صدقه، وإعجازه، وصلاحيته للبقاء.

أهم الكتب التى عنيت بهذا اللون:

ومن أهم هذه الكتب التى ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية، فيما يتعلق بالأجرام السماوية، والأرضية، والحيوانات، والنباتات، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل، والطبيب البارع، محمد بن أحمد الإسكندرانى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى، وهو كتاب كبير الحجم، يقع فى ثلاثة مجلدات، ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧هـ ومنه نسخة بدار الكتب المصرية.

ورسالة عبد الله باشا فكرى فى مقارنة بعض مباحث الهيئة، بالوارد فى النصوص الشرعية، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ.

وبين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لرجل الإصلاح الإسلامى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى، وهو عبارة عن مجموع مقالات له، نشرها فى

بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨هـ وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك) وفى هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ ينحاز انحيازًا بليغًا إلى هذا اللون من ألوان التفسير، فيصف القرآن بأنه (شمس العلوم وكنز الحكم)(١) ويقرر بأن السر فى إحجام العلماء عن تفسير قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن، وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو «أنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين فى العلم فيكفرون فيقتلون» ثم يقول: «وهذه مسألة إعجاز القرآن، وهى أهم مسألة فى الدين، لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هى فصاحته، وبلاغته، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون»(٢).

ثم نراه يأخذ فى بيان اشتمال القرآن على ما جد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن، فيقول: (إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات: لرأوا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز... لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان، تبرهن على إعجازه بصدق قوله تعالى: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩) برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان، ومثال ذلك: أن العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنًا، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن، شاهدة بأنهن كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير، وقد وصف القرآن بده التكوين فقال ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ (فصلت: ١١).

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...﴾ إلى أن يقول: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٣٣ - ٤٠).

وحققوا أن الأرض منفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول: ﴿... أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠).

---

(١) ص ٢٢. (٢) ص ٢٣.

وحققوا أن القمر منشق من الأرض، والقرآن يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد: ٤١) ويقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) وحققوا أن طبقات الأرض سبع، والقرآن الكريم يقول: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢).

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأرض، أى: ترتج فى دورتها، والقرآن يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل: ١٥).

وكشفوا أن التغير فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور، والقرآن يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وحققوا أن العالم العضوى ـ ومنه الإنسان ـ ترقى من الجماد، والقرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢).

وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات، والقرآن يقول: ﴿خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾ (يس: ٣٦) ويقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٥٣)، ويقول: ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥) ويقول: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (الرعد: ٣).

وكشفوا طريقة إمساك الظل، أى التصوير الشمسى، والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٥).

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، والقرآن يقول ـ بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (يس: ٤٢).

وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدرى وغيره من المرض، والقرآن يقول: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل: ٣) أى متتابعة مجتمعة ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ (الفيل: ٤) أى من طير المستنقعات اليابس. . . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية، وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى

أن كثيراً من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون، تجديداً لإعجازه ما دام الزمان وما كر الجديدان»(١).

وبين أيدينا كتاب (إعجار القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعى، وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية ومن المؤيدين لها، وفى هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يعقد بحثًا خاصًا لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن القرآن «بآثاره النامية، معجزة أصلية فى تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله. . .»(٢) ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما نقله السيوطى فى الإتقان والإكليل عن العلامة المرسى فى اشتمال القرآن على سائر العلوم، وهنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول: «قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه فى القرآن بقوله تعالى ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ (غافر: ١٥) قال: فإن عدد ﴿رَفِيعُ﴾ بحساب الجمل ثلاثمائة وستون، وهى عدد درج الليل والنهار»، ثم يقول الرافعى نفسه بعد هذا: (وإذا أطلق حساب الجمل فى كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور، وتواريخها، وأسرارها، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث»(٣).

ثم نرى الرافعى ـ رحمه الله ـ يسترسل فى حديثه إلى أن يقول: «وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطًا ليس هو من غرضنا فنستقصى فيه(٤)، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة، ولعل متحققا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن، وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوى عليه أمره، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها» ثم يقول: «وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفًا، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ

---

(١) ص ٢٣ - ٢٥. (٢) ص ١٠٨.

(٣) ص ١١٣ - ١١٤ (هامش) مَطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩هـ.

(٤) وهنا نرى المؤلف يعلق على قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبى من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم.

وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣) ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى: ﴿ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شىء...)[١].

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، الطبيب المعروف، ينحاز إلى هذا اللون من ألوان التفسير فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) الذى جمع فيه مقالاته التى نشرها فى مجلة الأزهر، وبين أيدينا هذا الكتاب، وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧هـ وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن «ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحيانًا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم»[٢] كما يقرر أن كثيرًا من آيات القرآن «لا يفهم شيئًا من معناها الحقيقى إلا من درس العلوم الحديثة»[٣] كما يؤكد أن العلم الحديث «كشف عن معنى بعض الآيات، وسينكشف الباقى منها كلما تقدمت العلوم، ثم يأتى وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين»[٤].

وفى هذا كما ترى اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعانى الحقيقية لبعض الآيات القرآنية؛ لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة، وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله ﷺ، وسلف الأمة رضي الله عنهم.

وإذا نحن تتبعنا ما فى هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية.

فمثلاً نجده يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ تحت عنوان (الحياة تحت ضوء القرآن) وفيه يقول: «... هذه الآية الكريمة معناها ـ والله أعلم ـ (وتأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان... إلخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة، وليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع، لأن هذا يجب أن لا يكون سببًا مهمًا للأفضلية...» ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة

(١) ص ١٢٤ - ١٢٦. (٢) ص ١. (٣) ص ١. (٤) ص ١١٢.

المواد الزلالية، ثم يقول: «وقد اهتدت أخيراً لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها، وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالى:

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

ثم يقول: «إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف (واعجب لقوله: لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة. . .»[١].

وغير هذا كثير فى كتاب (الإسلام والطب الحديث) مما لا نصدق أنه مراده من خطابه للعرب بالقرآن، وإن كان لا يتعارض ـ كما قلنا ـ مع ما ثبت من ذلك علميّاً وتحققت صحته.

هذا، وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعًا للنزعة التفسيرية العلمية، وأكثرهم إنتاجًا لهذا التفسير العلمى، هو المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى؛ إذا أنه على حسب ما رأينا أكثر من جمع فى هذا وأطال فى تفسيره «الجواهر» الذى يقع فى خمسة وعشرين جزءًا كباراً، والمطبوع بمصر سنة ١٣٤١ - ١٣٥١هـ، ولهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقة مؤلفه ومنهجه الذى سلكه فيه.



(١) ص ١٣ - ١٥.

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم
للشيخ طنطاوى جوهرى

ترجمة المؤلف(١):

هو الشيخ طنطاوى جوهرى، ولد سنة ١٢٨٧هـ، بكفر عوض الله حجازى فى «الشرقية»، تلقى العلم فى الأزهر، ثم فى المدرسة الحكومية، ثم دار العلوم، وتخرج منها سنة ١٣١٠هـ، وعين بعد تخرجه مدرسًا فى دار العلوم، وقد طُلب للقضاء فلم يقبل، وكان رئيسًا لجمعية المواساة الإسلامية بالقاهرة، وتولى رئاسة تحرير مجلة: «الإخوان المسلمين» مدة، وانقطع للتأليف فصنَّف كتبًا كثيرة نحو ٣٠ مؤلفًا، منها:

١ - الجواهر فى نفسير القرآن الكريم.
٢ - الأرواح.
٣ - أصل العالم.
٤ - أين الإنسان؟.
٥ - التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم.
٦ - جمال العالم «دراسات فى الحيوان والطير والهوام والحشرات».
٧ - جواهر العلوم.
٨ - جواهر التقوى.
٩ - النظر فى الكون بهجة الحكماء وعبادة الأذكياء.
١٠- الزهرة فى نظام العالم.
١١- السر العجيب فى حكمة تعدد أزواج النبى ﷺ.
١٢- سوانح الجوهرى.
١٣- ميزان الجواهر فى عجائب هذا الكون الباهر.
١٤- نظام العالم والأمم.
١٥- النظام والإسلام.
١٦- القرآن والعلوم العصرية.
١٧- كتاب فى الموسيقى.

وتوفى ـ رحمه الله تعالى ـ فى القاهرة سنة ١٣٥٨هـ.

---

(١) اقتبست هذه الترجمة من تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد العدد الماسى بمناسبة مرور ٧٥ عامًا على مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ - ١٩٤٧، ومن الأعلام للزركلى ج ٣ ص ٢٣٠ - ٢٣١.

الدوافع التى حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير:

خلق الفيلسوف الإسلامى المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى ـ كما يقول هو عن نفسه ـ (مغرمًا بالعجائب الكونية، معجبًا بالبدائع الطبيعية، مشوقًا إلى ما فى السماء من جمال، وما فى الأرض من بهاء وكمال) ثم كان منه ـ كما يقول: إنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية، ألفى أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضين، وعن التفرج عليها ساهين لاهين، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم وما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلى أن ألف كتبًا كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية، وجعل آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع، وحكم الخلق، وكان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم والأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و (النظام والإسلام) و (الأمة وحياتها) ولكنه وجد أن هذه الكتب ـ رغم كثرتها، وانتشارها، وترجمتها إلى اللغات الأجنبية ـ لم تشف غليله، فتوجه إلى ذى العزة والجلال، أن يوفقه إلى أن يفسر القرآن تفسيراً ينطوى على كل ما وصل إليه البشر من علوم، فاستجاب الله دعاءه، وتم له ما أراد.

متى وكيف شرع المؤلف فى كتابة هذا التفسير:

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرسًا بمدرسة دار العلوم، فكان يلقى تفسير بعض آيات على طلبتها، وبعضها كان يكتب فى مجلة الملاجئ العباسية، ثم والى سيره فى التفسير حتى أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة.

غرض المؤلف من تفسيره:

ولقد أمل المؤلف ـ رحمه الله ـ من وراء هذا التفسير ـ كما يقول ـ «أن يشرح الله به قلوبًا، ويهدى به أممًا، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية» وقال: «وإنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وليقر أن فى مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهم إلى العلا، وليكونن داعيًا حثيثًا إلى درس العوالم العلوية والسفلية، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة فى الزراعة، والطب، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، وغيرها من العلوم والصناعات».

مسلك المؤلف فى تفسيره:

ولقد وضع المؤلف فى تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق، مما يشوق المسلمين والمسلمات ـ كما يقول ـ إلى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان والنبات، والأرض والسموات.

هذا... وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، فى حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية، كما يقرر «أن الإسلام جاء لأمم كثيرة، وأن سور القرآن متممات لأمور أظهرها العلم الحديث»(١).

وكثيرًا ما نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ فى تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى ترشد إلى علوم الكون، ويحثهم على العمل بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعى على من أغفلها من السابقين الأولين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة.

نجد المؤلف يكرر هذه النغمة فى كثير من مواضع الكتاب فيقول فى موضع منه: «يا أمة الإسلام: آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعًا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور نور الإسلام، هذا زمان رقيه، يا ليت شعرى... لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا فى آيات الميراث؟ ولكنى أقول: الحمد لله... الحمد لله، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض؛ لأنه فرض كفاية، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر... إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن، هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام، فهذا زمان الانقلاب، وظهور الحقائق، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»(٢).

---

(١) رجعنا فى هذا إلى مقدمة الكتاب وخاتمته وجمعناه ملخصًا.

(٢) الجواهر (٣/ ١٩).

ويقول فى موضع آخر: «إن نظام التعليم الإسلامى لا بد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليس هى نهاية علوم القرآن، بل هى علوم لفظه، وما نكتبه اليوم علوم معناه، وانطباقها على العلوم التى أظهرها الله فى الأرض، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٩) فإن البيان المذكور فى سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شىء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان ما فيه من الأحكام والعجائب ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير وما لم يذكر، من البيان الذى أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام، فالحمد لله الذى وفق فى هذا التفسير لبعض العرفان تصديقًا لما ذكر الله من أن عليه البيان»[١].

ويقول فى موضع آخر: «. . . لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علم الفقه. . . وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه، وقل جدّا فى علوم الكائنات التى لا تخلو منها سورة؟ بل هى تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة، فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة، ويجهلوا علما آياته كثيرة جدّا؟ إن آباءنا برعوا فى الفقه، فلنبرع نحن الآن فى علم الكائنات. . . لنقم به؛ لترقى الأمة. . .»[٢].

لم يلق تفسير الجواهر قبولاً لدى كثير من المثقفين:

هذه المقالات - وغيرها كثير فى تفسير الجواهر - نجد أغلبها قد صدر من المؤلف فى مقام الرد على من كان يوجه إليه اللوم والاعتراض على ما كان منه من تحميل القرآن الكريم علومًا ونظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها، ولا صلة للقرآن بشىء منها.

ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف - رحمه الله - لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذى سلكه فى تفسيره، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولاً لدى كثير من المثقفين.

---

(١) الجواهر (٢٥/ ٤٠). (٢) الجواهر (٥/ ٥٣).

مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر:

ولعل هذا المنزع فى تفسير القرآن الكريم هو السر الذى من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب، ولم تسمح بدخوله إلى بلادها، كما يجد القارئ ذلك فى نص الكتاب المرسل من المؤلف إلى الملك عبد العزيز آل سعود، ملك نجد والحجاز ص٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين.

طريقة المؤلف فى هذا التفسير:

هذا وإنى - بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير - أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التى سلكها فيه، وذلك أن المؤلف - رحمه الله - يفسر الآيات القرآنية تفسيرًا لفظيًا مختصرًا، لا يكاد يخرج عما فى كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذى يسميه لفظيًا، ويدخل فى أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو لطائف أو جواهر... هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب فى العصر الحديث، أتى بها المؤلف، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة.

ثم إننا نجد المؤلف - رحمه الله - يضع لنا فى تفسيره هذا كثيرًا من صور النباتات، والحيوانات، ومناظر الطبيعة، وتجارب العلوم، بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحًا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس.

كذلك نجد المؤلف - رحمه الله - يستشهد أحيانًا على ما يقول بما جاء فى الإنجيل، وإعتماده فيما ينقل على إنجيل (برنابا) لأنه - كما يرى - أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذى لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل.

وكثيرًا ما نرى المؤلف - رحمه الله - يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون فى جمهوريته، أو بما جاء عن إخوان الصفا فى رسائلهم، وهو حين ينقلها يبدى لنا رضاه عنها، وتصديقه بها، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ.

كما أنه يستخرج كثيرًا من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذى لا نصدق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة، وإنما هى عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين، فتسلطت على عقول الكثير منهم.

هذا... وإنا لنجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يفسر آيات القرآن تفسيراً علميّا يقوم على نظريات حديثة، وعلوم جديدة، لم يكن للعرب عهد بها من قبل، ولست أرى هذا المسلك فى التفسير إلا ضربًا من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن، فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله.

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير:

نماذج من هذا التفسير:

فمثلاً، عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦١) من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ الآية، نجده يقول: (الفوائد الطبية فى هذه الآية) ثم يأخذ فى بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية، ويذكر مناهج أطباء أوربا فى الطب، ثم يقول: «أوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن؟ أوليس قوله: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ**﴾ رمزًا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى... وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقى والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل، واللحم، والإكثار من ألوان الطعام، مع الذلة، وجور الحكام، والجبن، وطمع الجيران من الممالك، فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون، بمثل هذا تفسر هذه الآيات بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله...»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً...**﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجده يعقد بحثًا فى عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول: «... وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه... إن هذه الآية تتلى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوربا ثانيًا...» ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، ثم قال أخيرًا: «ولما كانت

---

(١) الجواهر (١/ ٦٦، ٦٧).

السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون، فماتوا ثم أحياهم. . . وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها، فلا تيأسوا من ذلك؛ فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنبياء: ٧) ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين، كالعزير، وإبراهيم، وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ (الأنعام: ٩٠). . . »[١].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة آل عمران ﴿**الم**﴾ نجده يعقد بحثًا طويلاً عنوانه (الأسرار الكيمائية، فى الحروف الهجائية، للأمم الإسلامية، فى أوائل السور القرآنية) وفيه يقول: «انظر رعاك الله ، تأمل. . . يقول الله: أ، ل، م ـ طس ـ حم ـ وهكذا يقول لنا: أيها الناس، إن الحروف الهجائية، إليها تحلل الكلمات الللغوية، فما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية، فلا صرف، ولا إملاء، ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها، وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون.

ولا جرم أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعليم؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية، فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيره لا تعرف حقائق إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذًا تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية التى لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم»[٢].

---

(١) الجواهر (١/ ٧١ - ٧٧).

(٢) الجواهر (٢/ ١٠، ١١).

ومثلاً نراه يعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة النور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقوله فى الآيات (٢٠ - ٢٢) من سورة فصلت ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وقوله فى الآية (٦٥) من سورة يس ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ثم يقول: «... أوليس الاستدلال بآثار الأقدام، وآثار أصابع الأيدى فى أيامنا الحاضرة، هو نفس الذى صرح به القرآن، وإذا كان الله يعلم ما فى البواطن بل هو القائل للإنسان: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: ١٤) والقائل: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ (القيامة: ١٤) أفلا يكون ذكر الأيدى والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين؟ وإن هناك ما هو أفضل منها؟... وهى التى يحكم بها الله فاحكموا بها، ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدى فيها أسرار، وفى الأرجل أسرار، وفى النفوس أسرار: فالأيدى لا تشتبه، والأرجل لا تشتبه، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم... أوليس فى الحق أن أقول: إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التى ظهرت فى هذا العصر تظهر فى القرآن بنصها وفصها...»[1].

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ نجده يقول: «... قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعة قديمًا وحديثًا، وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ يشير لعلمين لم يعرفا إلا فى زماننا، وهما علم طبقات الأرض، المتقدم مرارًا فى هذا التفسير، وعلم الآثار، المتقدم بعضه فى سورة يونس... فالله هنا يقول: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى...»[2].

---

(١) الجواهر (٣/ ٩).
(٢) الجواهر (١٠/ ٦٤، ٦٥).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ الآية، يقول: «ها أنت قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين، من أن السموات والأرض أى الشمس والكواكب وما هى فيه من العوالم، كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى، وقلنا: إن هذه معجزة؛ لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا فى هذه العصور، ألا ترى أن كثيرًا من المفسرين قالوا: إن الكفار فى ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم، فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به فى نفس هذه الآية، فكأن الآية تستدل عليهم بنفس ما نزلت به، وذلك أن هذه الأمور لم تخلق، وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله، وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدى الفرنجة، كما نطق القرآن هنا، كأنه يقول: سيرى الذى كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضى فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ (النحل: ١) وهذه معجزة تامة للقرآن، وعجيبة من أعجب ما يسمعه الناس فى هذه الحياة الدنيا. . .»(١).

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة الرحمن ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ نجده يقول: «. . . والمارج: المختلط بعضه ببعض، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات، وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات، ولقد ظهر فى الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألونها السبعة، وإلى أن اللهب مضطرب دائمًا، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب، إشارة إلى أن نفوس الجان لا تزال فى حاجة إلى التهذيب والتكميل، تأمل فى مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم أن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة. . .»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآية (٣٥) من السورة نفسها ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ﴾ يقول: «. . . إنه عبر هنا بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله: ﴿مِن

(١) الجواهر (١٠/ ١٩٩).
(٢) الجواهر (٢٤/ ١٧).

مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص، فلماذا جعل الجان مخلوقًا من مارج ولم يقل من شواظ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم، وقد أبنت ذلك هناك، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم فى علم الأرواح، وأيضًا اختلاط الألوان الآن معروف فى التحليل فهو من هذا القبيل. . . وهذه الفكرة لم تعرف قط إلا فى زماننا هذا؛ فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة، لم يكن إلا فى زماننا، وهذا من أعاجيب القرآن الى لا تدرك إلا بقراءة العلوم وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف، فلا أصحاب المعلقات يدركونها، ولا الذين بعدهم يعلمونها، فهل لمثل امرئ القيس، أو لأبى العلاء، أو المتنبى أن يتناولوا هذه المعانى فى أقوالهم؟ كلا. . . فهذه بلاغه لا تخطر ببالهم، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج؟ وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ»[(١)].

ومثلاً فى سورة الزلزلة نجده يفسرها تفسيراً لفظيّا مختصراً، ثم يذكر ما فيها من لطائف، مستعرضًا ما وقع من حوادث الزلزال فى إيطاليا، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض، وما كثر فى هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض، مثل ما كشف فى مصر من آثار قدمائها، ثم يقول ـ بعدما يفيض فى هذا وغيره: «ألست ترى أن هذه السورة ـ وإن كانت واردة لأحوال الآخرة ـ تشير من طرف خفى إلى ما ذكرنا فى الدنيا؟ فالأرض الآن كأنها فى حال زلزلة، وقد أخرجت أثقالها: كنوزها وموتاها وغيرها، والناس الآن يتساءلون، وها هم أولاء يلهمون الاختراع، وها هم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة فى عمل يناسبها، وكل إنسان فى عمله الخاص به وينتفع به»[(٢)].

ومثلاً نجده بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر، وسورة الكافرون، وسورة النصر، يذكر لنا بحثًا مستفيضًا عنوانه: (تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما) وفيه نجده يتأثر بنزعته التفسيرية العلمية إلى درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من المعانى الرمزية ما يستبعد أن يكون مرادًا لها، وذلك أنه يقرر أولا أن هذه السور لم

---

(١) الجواهر (٢٤/ ٢٧).

(٢) الجواهر (٢٥/ ٢٤٩ - ٢٥١).

تكن خاصة بزمان النبوة، ولا بفتح مكة ونصر جيشها، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور فى أول عمرها، وسيطول إن شاء الله، وكم سيكون لها من فتوح وانتصارات، ثم قال: «وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب، وورثة النبى الذى جاء منا ﷺ، ولغتنا فى مصر، والشام، والعراق، وشمال أفريقيا، هى لغة القرآن، فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها خوفًا من أهل زمانهم، ولكنا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة، وقسطها من الإصلاح. . .» ثم أخذ يبين لنا الكوثر، وأوصاف كيزانه، وطيره، وأوصاف من سيرد عليه من المسلمين، بما جاء فى الأحاديث عن رسول الله ﷺ . . . ثم قال ـ بعد هذا كله: «اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى مما يراها الذين لا يفكرون، كما أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون، فماذا فعلوا؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة، وصورة مفرحة، وبهجة وجمال، ولا نزال نرى كل أمة حاضرة كفائتة، جميعهم يصيغون ما يريدون من الجمال، والحكمة، والعلم، ورقى الأمة بهيئة تسر الجمهور. . .» ثم يقول: «الجاهل يسمع الدر والياقوت وشرابًا أحلى من العسل، فيفرح ويعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التى تقر بها عينه. . . والعالم ينظر فيقول: إن هذا القول وراءه حكمة ووراءه علم؛ لأنى أرى فى خلال القول عجائب، فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء! وأى دخل لنجوم السماء هنا؟ ولماذا عبر به؟. . . ثم يقول: لماذا ذكر أن الذين يرون الحوض عليهم آثار الوضوء؟ ولم؟. . . . ولم؟. . . الحق أن نبينا محمدًا ﷺ يريد أمرين: أمرًا واضحًا جليًّا يفرح به جميع الناس، وأمرًا يختص بالقواد والعظماء.

إن النبوة بأمر الله، والله جعل فى أهل الأرض فلاحين لا يعرفون إلا ظواهر الزرع، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر، وحكماء يستخرجون علومًا، وكل لا يعرف إلا علمه، فالطبيب يشارك الفلاح فى أنه يأكل، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية، هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء فى أنهم يفهمون الحوض كما فهموه، ويردونه معهم كما يردونه، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها، فماذا يقولون؟ يقولون: إن النبى ﷺ يريد معانى أرقى، إن الجنة

فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فليس الماء الذى هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج كل شىء هناك، ثم إن الجنة لا ظمأ فيها، وأى شىء عدد نجوم السماء؟ ولماذا اختصت النجوم بالعدد والوضوء بالأثر؟ والذى نقوله: إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره، فلا المسك الإذفر، ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت، ولا حلاوة العسل الذى فى ذلك الماء، ولا اتساع الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعه المختلفة المناهج، العذبة المشارب، السارة للناظرين. . . »
ثم يخلص من هذا كله إلى الاستدلال على أن ما ذهب إليه من قبيل الكناية التى هى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى، ثم يقول ـ بعد بيان هذه الكناية: « . . . هنا يكون النصر ولا يكون إلا بعد أن يتجافى الناس عن أفعال الملحدين والكافرين، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة الكافرون، هنا يكون نصر الله والفتح ويدخل الناس فى هذه العلوم الحقيقية أفواجًا، وعلى حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم على الجهل فى العالم الإنسانى، وأصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأنهم رحمة للعالمين، متى رأى العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر فى زماننا، وهو الفتح، وإذًا فعلى القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه. . . إلخ»(١).

هذا هو تفسير الجواهر، وهذه نماذج منه وضعتها أمام القارئ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه وقلبه.

والكتاب ـ كما ترى ـ موسوعة علمية، ضربت فى كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوسف بما وصف به تفسير الفخر الرازى، فقيل عنه: (فيه كل شىء إلا التفسير) بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به، وإذا دل الكتاب على شىء، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرًا ما يسبح فى ملكوت السموات والأرض بفكره، ويطوف فى نواح شتى من العلم بعقله وقلبه، ليجلى للناس آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنًا لكل ما

---

(١) الجواهر (٢٥/ ٢٦٩ - ٢٧٣).

جاء ويجىء به الإنسان من علوم ونظريات، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث، تحقيقًا لقول الله تعالى فى كتابه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨) لكن هذا خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه، وقد عرفت رأينا فى المسألة فلا نعيده.

إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير:

لم يقف العلماء فى العصر موقف الإجماع على قبول هذا اللون من التفسير، بل نراهم مختلفين فى قبوله والقول به، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين.

وإذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلى هذه الفكرة فى التفسير وتأثر بها فى مؤلفاته، فإنا نجد بجوار هؤلاء أيضًا كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسير، ولم تستسغ أن تشرح به كتاب الله تعالى، ولم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة على أهلها وتناولهم إياها بالنقد والتفنيد.

نجد هذه المعارضة فى كثير من المحاورات والاعتراضات التى وجهت إلى صاحب الجواهر، وذكرها لنا فى تفسيره.

كما نجد بعض أساتذتنا المعاصرين ينعون على من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت، فقد تناول هذا الموضوع بالبحث فى العدد ٤٠٧ و ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجله الرسالة (إبريل سنة ١٩٤١م) وفيه يرد على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة.

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولى يتناول هذا الموضوع فى كتابه (التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم) وفيه يرد على أنصار هذا المذهب فى التفسير بحجج قوية واضحة، استفدنا منها كثيرًا فى تأييد ما اخترنا من المذهبين.

وهذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا، نجده فى مقدمة تفسيره ينعى على من تأثروا فى تفسيرهم بنزعاتهم العلمية، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو، والفقه، ونكت المعانى، والبيان، والإسرائيليات، وغير ذلك، ويعد هذا صارفًا يصرف الناس عن القرآن وهديه، ثم ينعى على الفخر الرازى ما أورده فى تفسيره من العلوم الحادثة فى

الملة، ويعد هذا صارفًا يصرف الإنسان عن القرآن وهديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم على من قلد الفخر الرازى فى مسلكه من المعاصرين، وأظنه أراد صاحب الجواهر، وذلك حيث يقول: «... وقد زاد الفخر الرازى صارفًا آخر عن القرآن، هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولاً طويلة - بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن»(١).

وأخيرًا فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى - رحمه الله رحمة واسعه - نجده فى تقريظه لكتاب (الإسلام والطب الحديث) لا يرضى عن هذا المسلك فى التفسير، رغم أنه مدح الكتاب وأشاد بمجهود مؤلفه، وذلك حيث يقول: «لست أريد من هذا - يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه - أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمى المعروف، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسدًا وروحًا، وترك الباب مفتوحًا لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه»(٢).

وفى موضع آخر يقول: «يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»(٣).

ومن هذا كله يتبين أن التفسير العلمى فى العصر الحديث إن كان قد لقى قبولاً ورواجًا عند بعض العلماء، فإنه لم يلق مثل هذا القبول والرواج عند كثير منهم، وقد علمت فيما سبق أى الرأيين أقرب إلى الحق وأحرى بالقبول.

اللون المذهبى للتفسير فى عصرنا الحاضر:

لم يبق من الفرق المنسوبة إلى الإسلام فى هذا العصر الحديث من له كيان، أو شىء من الكيان - حسبما نعلم - إلا أهل السنة، والإمامية الاثنا عشرية، والإمامية

---

(١) تفسير المنار (١/ ٧).

(٢) الإسلام والطب والحديث (المقدمة) ص د.

(٣) المرجع نفسه ص ٣.

الإسماعيلية، والزيدية، والإباضية من الخوارج، والبهائية من الباطنية، هذه هى الفرق التى لا تزال فى اعتبارنا قائمة إلى يومنا هذا، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التى تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها.

وإذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق فى عصورها السابقة على عمل ظاهر فى تفسير كتاب الله، وشرحه على حسب ما تمليه عقيدة المفسر، وما يوحى به إليه، فإنا لا نعدم هذا اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم فى هذا العصر الحديث، ولكن بمقدار ما بقى من هذه المذاهب قائمًا إلى هذا العصر الذى نتكلم عنه، ونتحدث عن ألوان التفسير فيه.

نعم بقى اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم قائمًا فى هذا العصر الحديث، بمقدار ما بقى قائمًا من المذاهب الإسلامية.

فأهل السنة فسروا القرآن، وألفوا الكتب فيه بما يتفق وعقيدتهم، كما نرى ذلك واضحًا فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب فى التفسير.

والإمامية الاثنا عشرية فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشى مع مذهبهم، ويتفق مع أهوائهم ومشاربهم، ومن أحدث كتبهم التى اطلعنا عليها فى التفسير: كتاب (بيان السعادة فى مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراسانى، من أهل القرن الرابع عشر الهجرى، وقد سبق لنا الكلام عنه مفصلاً، وكتاب (آلاء الرحمن فى تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفى، المتوفى سنة ١٣٥٢هـ وقد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام على أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية.

والإباضية من الخوارج فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم، ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك فى كتاب (هميان الزاد، إلى دار المعاد) للشيخ محمد ابن يوسف إطفيش، المتوفى سنة ١٢٣٢هـ، وقد مر الكلام عنه أيضًا.

والبهائية من الباطنية نظروا إلى القرآن من خلال عقيدتهم فأولوا وحرفوا، كما نجد ذلك جليا فى رسائل أبى الفضائل الجرفادقانى، أحد رجال البهائية فى هذا العصر.

أما الزيدية، فهى وإن كانت لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، إلا أنا لم نقف لها على شىء فى التفسير فى هذا العصر الحديث.

وأما المعتزلة، فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها فى هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومقومات، إلا أنا نرى أثرًا كبيرًا لتعاليمها فى تفسير القرآن فى العصر الحديث، كما يظهر ذلك جليًا فى تفاسير الإمامية الاثنى عشرية، والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة فى هذا العصر، أضفت على التفسير لونًا مذهبيًا، يقوم على تأييد العقيدة، وخدمتها على حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيرى؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التى ذكرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبى فى هذا العصر.

وأما المعتزلة، فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها فى هذا العصر كفرقة لها كيان، ووحدة، ومقومات، إلا أنا نرى أثرًا كبيرًا لتعاليمها فى تفسير القرآن فى العصر الحديث، كما يظهر ذلك جليًا فى تفاسير الإمامية الاثنى عشرية، والإباضية، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين.

كل هذه الفرق الموجودة فى هذا العصر، أضفت على التفسير لونًا مذهبيًا، يقوم على تأييد العقيدة، وخدمتها على حساب القرآن الكريم، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيرى؛ إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التى ذكرتها، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبى فى هذا العصر.



اللون الإلحادى للتفسير فى عصرنا الحاضر

مُنِىَ الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التى طرقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع ما فى القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ما سولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!!.

منى الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومنى بمثل هذا فى أحدث عصوره، فظهر فى هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات فى نفوسهم، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة فى القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعًا بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده فى تفسير كتاب الله.. جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من العلم حظًا يسيرًا، ونصيبًا قليلاً، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين فى العلم، ونسى أنه قل فى علم اللغة نصيبه، وخف فى علم الشريعة وزنه، فراح ينظر فى كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذى بأفهام فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلى حجة، ولا تتكئ على دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر على عـقيدة معروفة، ولكنه لعبت برأسه الغـواية، وتسلطت على قلبه وعقلـه أفكار وآراء من نحل مختلفـة، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل فى قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما يتفق معها، تأويلاً لا يقره العقل ولا يرضاه الدين.

هؤلاء جميعًا خاضوا فى القرآن على عمـاية، فلم يراعوا فى فهمه قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسـيره من باب السنة الصحـيحة، وحـسبوا أنهم أرضوا ضـمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأى الطليق.

ولولا أن الله قيض لهـذا الدين رجالاً يدرسونه ببصـائر تنفذ إلى لبابه، ويدفـعهم الإيمان والإخلاص إلى أن يبعدوا عنه هذه الخبائث، التى يراد أن تلصق به أو تنزل فى رحابه. . . لولا هذا لأصـاب المسلمين من هؤلاء المـضللين شر مسـتطير، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وأنا إذ أعرض لهـذا اللون من التفسيـر، لا أريد أن أذكر أحدًا من أصحابـه باسمه ولقبه، إذ ربما كان هذا سـببًا للفتنة، وباعثًا على العداوة، وكثـير منهم أحياء يرزقون، ويكفى أن أضع يد القارئ على المـراجع التى أنقل عنها تفسيـر هؤلاء القوم، وآراءهم فى القرآن الكريم، وهى مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها ويطلع عليها.

وجدنا من أصحـاب هذا اللون من ألوان التفسير، رجـلاً يكتب بحثًا طويلاً تحت عنوان (القرآن والمفسرون) وفيه يعرض لنواحى التقصير فى تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى، ويحـمل عليهم حملة شـديدة نكراء، ويوجه إليهم جمـيعًا نقده السـاخر، ولومه اللاذع، بدون أن يستثنى منهم مفسرًا واحدًا على كثرتهم وكثرة المعتدلين منهم.

رأيناه يتهم المـفسرين جمـيعًا بأنهم تأثروا فى تفاسـيرهم بعقائدهم، فـأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم، فى تعسف ظاهر، وتكلف غـير مقبول[١]، ورأيناه يرميهم جـميعًا بأنهم كثـيرًا ما يكتفـون بذكر إسرائيليات ليس لهـا سند أصلاً، فضلاً عن طمـعهم فى تصحيح هذه الأسانيـد المكذوبة، ونراه يذكر لهذا الاتهام الأخير مـثلاً من أقوالهم فى تفسير قـصة أيوب عليه السلام، ثم يأخذ فى تفنيد ما ذهبـوا إليه، وإبطال ما قالوا به،

(١) انظر مجلة الإيمان العدد الثانى من السنة الثانية سنة ١٣٤٥هـ.

بأدلة كثيرة ذكرها، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالى فى الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة (ص): ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾.

تناول الكاتب هذه الآيات، فشرحها شرحًا يخالف ما ذهب إليه المفسرون جميعًا، مدعيًا أن ما ذهب إليه هو الذى يساير كل ما ورد من آيات القصصفى القرآن، ومؤكدًا أنه هو الذى يتفق مع بلاغة القرآن، وقدسية الأنبياء، فقال:

«يجب أن ننظر فى الآية نظرة أخرى - يعنى خلاف ما عليه المفسرون - تساير بها نظائرها من آيات القصص ونحن إذا التفتنا إلى ما فى هذه الآية من أيوب عليه السلام قد عزى النصب والعذاب للشيطان فقال ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ كان ذلك مانعًا كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون... إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه، ويوسوس إليه، فيلويه عن الخير إلى الشر، وعن العزم فى سبيل الغاية إلى التردد والهزيمة، وإنه ما من نبى ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب... مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين، وصد الشيطان لهم عن سبيل الله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ (الحج: ٥٢) الآية، وما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة، ولا كان حزنهم الذى كان يبلغ أحيانًا حد الإهلاك للنفس إلا لبطء فى سير الدعوة إلى الله تعالى... انظر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧) وقوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦).

ولما كانت الشكوى تشعر بوهن فى العزيمة، وضعف فى الثقة، وعدم القوة فى السير إلى الغاية، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ فالمراد بالركض هنا؛ عقد العزيمة وتأكيدها، واستتمام الثقة وإكمالها، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلى الغاية، فهى كناية من أعذب الكنايات وأروعها، وهى من وادى

ـ شمر عن ساعد الجد، شمر عن ساقيك ـ غير أنها أوفر منها صياغة وترفعًا، إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلى جهة بغير تردد، بل بقوة وعزيمة، ترى لرجليه ضربًا، وتسمع لقدميه على الأرض وقعًا، ولما كان تردد المرء فى غايته، ووهن عزيمته إليها، وضعف ثقته بها، صدأ يغشى الأرواح، ومرضًا يتعب النفوس ويضايق الصدور، كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلاً للروح من صدئها، وشفاءً للنفس من مرضها، ونقعًا لغلة الصدور؛ لذلك قال الله لرسوله أيوب: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ والآية كما ترى ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركض المفهوم من قوله ﴿ارْكُضْ﴾ المكنى به عن توثيق العزم، والأخذ بالحزم، كما هو مقتضى النظم الكريم، الجارى لقواعد اللغة، التى تأبى أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين، كما يقتضيه تفسير المفسرين؛ إذ ليس فى النظم ما يدل عليهما بأى وجه من وجوه الدلالة، ولما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولاً لا بد أن يأتمر فى إخلاص الأنبياء بأمر ربه، بين الله ثمرة جهاده وصبره، ومضاء عزمه، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أى هدينا له أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد، بل هبة الهداية والإرشاد؛ بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية والولد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (مريم: ٥٣) إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدى الله بهم، لا أن يولد لهم، ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيى لزكريا، وإسحاق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين: **الأول:** أنه قد ولد لإبراهيم ولزكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط، **والثانى:** أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادى، فموضع المنة فى هذا: كونهما رسولين لا كونهما ولدين».

«ثم بيَّن الله بعد ذلك سيرة أيوب التى أمره أن يسير بها فى قومه، وهى اللين فى القول، والرفق فى الدعوة، والعظة بالحسنى، وتلك هى الخطة التى رسمها الله لجميع أنبيائه، انظر كيف يقول لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٣، ٤٤) ويقول لرسوله الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(الشعراء: ٢١٥) وبيّن الله ذلك فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ (ص: ٤٤) أى لا ترفع فى وجوه قومك رمحًا ولا عصًا، ولا تغلظ لهم القول، ولا تخاشنهم فى الطلب، بل لوح فى وجوههم بالرياحين والأزهار، ولا تأثم بالغلظة والجفوة، فإنك بخفض الجناح والجدال بالتى هى أحسن تبلغ منهم ما لا تبلغه بالسيف، والعصا، والخشونة، والغلظة، فانظر إلى ما فى الآية من كناية ما أجملها وأعلاها، وما أخصبها وأرواها، وانظر كم تعطيك على هذا الوجه من فنون البلاغة، وكم تمنحك من جزالة فى الأسلوب، ثم هم - يريد المفسرين - بعد ذلك يمسخونها ويشوهونها، فيجعلونها منقطعة عما قبلها، وما بعدها، فتقلق فى مرقدها، وتنبو فى مضجعها، إذ يجعلونها متوقفة فى فهمها على معونة أجنبية من الكلام الذى هى فيه، وذلك من أدعى الدواعى لانحطاط الكلام عن المستوى العالى لكلام البشر، فضلاً عن مستوى الإعجاز الذى يجب أن يكون عليه القرآن الكريم».

«هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات، استنادًا إلى ما جرى عليه قصص القرآن، وتحاميًا لما يترتب على ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام، باعتباره نبيًا رسولاً، ومن منافاة ذلك لحكمته السامية، وتفاديًا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادى، وهو أن شخصًا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه. . . ذلك الحديث الذى لا يتحدث به عظيم من الناس فضلاً عن الله تعالى، ولا يحدث به عن رجل عادى فضلاً عن أيوب الرسول الكريم. . . »(١).

هذا هو التفسير الصحيح فى نظر صاحبه، وأحسب أن القارئ الكريم سوف لا يتردد فى الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن، ومخالف لظاهره الذى عرف منذ عهد الصحابة والتابعين، وأى شىء يقف فى سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف وتكلف غير مقبول؟ اللهم لا شىء إلا دعوى التجديد، والثورة على القديم، والعمل على هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم، ودفاعهم عن الدين.

ولا أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأى الشاذ وما يحمله من دعاوى غير صحيحة على

---

(١) مجلة الإيمان العدد الثالث من السنة الثانية سنة ١٣٥٤هـ.

المفسرين جميعًا، فقد سبقنى إلى هذا أحد أساتذتى الأجلاء، ولست ببالغ مبلغه من العلم، ولا بآت بأكثر مما أتى به فى الرد على صاحب هذا الرأى[(١)].

ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلاً آخر دفعه حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد ويجارى من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة فى أحكامها وحدودها، فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه، فحمل الأمر فيها على الإباحة. . . وجعل الأمر فى ذلك مفوضًا إلى رأى ولى الأمر وحده، وهو وإن كان قد استعمل الأسلوب اللولبى فيما أبداه، وطرح الموضوع الذى عالجه فى صورة سؤال ألقاه شخص خالى الذهن ليتعرف وجه الحق فى المسألة، هو وإن كان قد فعل ذلك مفضوح أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه، ويفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها على الإباحة، وإليك ما جاء فى هذه المقالة لتقف على حقيقة الأمر، ولتعرف نية الكاتب وما يهدف إليه فى مقاله.

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى): «قرأت فى السياسة الأسبوعية الغراء مقالاً بهذا العنوان[(٢)]، حوى أفكارًا أثارت فى نفسى من الرأى ما كانت أريد أن أرجئه إلى حين، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد، حتى إذا ظهر المجتهد فى هذا العصر برأى جديد، كتلك الآراء التى كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون فى عصور الاجتهاد، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ؛ لأن الناس فى تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد وكانوا يألفون شذوذه وخطأه، إلفهم لصوابه وتوفيقه، أما فى هذا العصر، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذًا فى نظرهم، وإن كان فى الواقع صوابًا، وما أسرعهم فى ذلك إلى التشنيع والطعن فى الدين، والمحاربة فى الرزق، فلا يجد من يرى شيئًا من ذلك إلا أن يكتمه أو

---

(١) صاحب الرد المفحم، هو أستاذنا العلامة الشيخ السيد محمد الخضر حسين، وقد نشره فى مجلة الهداية الإسلامية. . العدد العاشر والثانى عشر من المجلد السابع، والعدد الثانى والثالث والرابع من المجلد الثامن.

(٢) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة (سنة ١٩٣٧م).

يظهره بين أخصائه، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم، وتضيع بهذا على الأمة آراء نافعة فى دينها ودنياها، ولكنى سأقدم على ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلى حين، وسأجتهد ما أمكننى فى أن لا أدع لأحد مجالاً فى ذلك التشنيع الذى يقف عقبة فى سبيل كل جديد»... ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال: «ولكن يبقى بعد هذا فى تلك الحدود ذلك الأمر الذى سنثيره فيها، ليبحث فى هدوء وسكون، فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد... وسيكون هذا بإعادة النظر فى النصوص التى وردت فيها تلك الحدود؛ لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة، وسأقتصر فى ذلك ـ الآن ـ على ذكر ما ورد فى تلك الحدود من النصوص القرآنية، وذلك قوله تعالى فى حد السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٨، ٣٩) وقوله تعالى فى حد الزنى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (النور: ٢) فهل لنا أن نجتهد فى الأمر الوارد فى حد السرقة وهو قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ والأمر الوارد فى حد الزنى وهو قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر فى قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١) فلا يكون قطع يد السارق حدًّا مفروضًا، لا يجوز العدول عنه فى جميع حالات السرقة، بل يكون القطع فى السرقة هو أقصى عقوبة فيها، ويجوز العدول عنه فى بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة، ويكون شأنه فى ذلك شأن كل المباحات التى تخضع لتصرفات ولى الأمر، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان، وهكذا الأمر فى حد الزنى سواء أكان رجمًا أم جلدًا، مع مراعاة أن الرجم فى الزنى لا يقول به فقهاء الخوارج؛ لعدم النص عليه فى القرآن الكريم، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى، مع أنا فى هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصًّا ولا ألغينا حدًّا، وإنما وسعنا الأمر توسيعًا يليق بما امتازت به الشريعة

الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان، وبما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير، والتخفيف على التشديد...»(١).

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله، إذ أول آية السرقة وآية الزنى تأويلاً غير مقبول بأى حال من الأحوال، ومن ينظر إلى آية السرقة وآية الزنى لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقًا، وذلك الأمر فى قوله تعالى: ﴿فَاقْطَعُوا﴾ وقوله: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ وارد فى الوجوب القاطع؛ فإن بناء الأمر بالقطع فى آية السرقة على قوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ وبناء الأمر بالجلد فى آية الزنى على قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب؛ وهذا لأن تعليق الحكم على شخص موصوف بوصف يؤذن بأن المتقضى للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنى ووضع الشارع لهما حكمًا فى صيغة الأمر ولم يذكر حكمًا غيره، لا يصح أن يقال: إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتمله الأمر فى قوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الآية.

ثم إن قوله تعالى فى آية السرقة: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ وقوله فى آية الزنى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤكد أن الأمر فى الآيتين للوجوب لا للإباحة.

ثم إن هناك من سنة رسول الله ﷺ القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب فى الآيتين.

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذى تنكره اللغة، ولا تقره السنة ولا يتفق وحكمة التشريع؟ اللهم إن هذا التأويل لا يجوز، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأقلامهم، فقام كثير منهم بالرد على صاحبه، وتفنيد ما ذهب إليه(٢)، ولقد تنبه القائمون على أمر الأزهر حينئذ إلى خطر هذا الرأى وما يجره على الدين من بلاء، فجوزى صاحب المقال على ما كان منه

---

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٥٠ فبراير سنة ١٩٣٧م).

(١) خير من رد عليه أستاذنا السيد محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧م).

جزاء إن كان بسيطًا فى حد ذاته، فهو يدل على أن أفكار الكاتب لم تلق قبولاً ولم تجد رواجًا فى محيط العلماء.

ووجدنا غير هذا وذاك من تأثر ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية الثابتة، ويتأول ما ورد منها فى القران بما يتمشى مع مذاهب الفلاسفة، فأنكر حقيقة الشيطان، وتأويل ما جاء من لفظ الشيطان فى قوله تعالى فى الآية (١١٧) من سورة النساء: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ فقال ما نصه: «. . . والمعنى أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعى العقل أو داعى فطرة، وإنما أجابوا نزعات الشر المنبثة فى العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير وعوامل الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريًا على عادة العرب المألوفة، إذ كانوا يتصورون قوى الشر شياطين تتحدث وتناجى وتغرى وتدفع إلى ما تريد». . . ثم قال: «هذا هو الشيطان الذى يلبى المشرك بإشراكه أمره، ويتخذه وليّا يأمره وينهاه. . .»(١).

وفى موضع آخر نجد(٢) صاحب هذا الرأى يعود إليه فيؤكده، ولست أدرى ماذا يفعل فى سياق الآية، وفى القرائن التى احتفت بها، والصفات التى انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس، ذلك الكائن الخارجى المستقل المستتر عن أعين الناس، كما لا أدرى كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول ﷺ، والتى تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجى.

وأنكر بعضهم وجود عالم الجن، وتأول ما جاء من ذلك صريحًا فى آيات القرآن الكريم، ففسر قوله تعالى فى أول سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ الآية، بأن الجن قبيلة من العرب(٣).

وهذا تأويل ينافى صريح القرآن فى مواضع كثيرة، فضلاً عن أنه لا يقوم على دليل يصححه.

---

(١) مجلة الإيمان السنة الخامس العدد ٢١ ص ١١.

(٢) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤.

(٣) انظر مجلة الهداية الإسلامية المجلد الثامن العدد الحادى عشر ٧٠٣١.

ووجدنا غير هؤلاء جميعًا رجلاً نكس على رأسه، فطوعت له نفسه أن يخوض فى تفسير كتاب الله على ما به من غواية وعماية، وأخيرًا طلع على الناس بكتاب مختصر فى تفسير القرآن الكريم، تفسيرًا جمع فيه الكثير من وساوسه وأوهامه، ثم سول له الغرور أن يسميه: «**الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن**» أحدث هذا التفسير ضجة كبرى فى المحيط العلمى، وقام رجال الأزهر وقعدوا من أجله، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر فى هذا الكتاب، ثم لتحكم عليه بما ترى فيه، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه (أفاك خراص، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد فى الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث فى شأنه وترديد سيرته).

ثم صودر الكتاب واختفى عن أعين الناس ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ**﴾.

قرأت ما جاء فى تقرير اللجنة الأزهرية، ولكننى أردت أن أطلع على الكتاب نفسه، فعملت كل ما أستطيع حتى استصدرت تصريحًا من دار الكتب المصرية بالاطلاع على هذا الكتاب الذى منع من التداول بين الناس.

حملته على جميع المفسرين:

جاءنى الكتاب وقرأت فيه، فوجدت مؤلفه قد قدم له بمقدمة عاب فيها المفسرين وكتب التفسير جميعًا فقال: «وقد بلغ الدس والحشو فى التفاسير أنك لا تجد أصلاً من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة؛ لهدمه وتبديله، والمفسرون قد وضعوا هذا فى كتبهم من حيث لا يشعرون»[1].

طريقته فى التفسير:

ثم قال بعد ذلك: «فهذا كله ـ يعنى الدس والحشو فى التفاسير ـ دعانى إلى تفسيرى، وأن تكون طريقتى فيه كشف الآية وألفاظها بما ورد فى موضوعها من الآيات والسور، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن، ويكون القرآن هو الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجتماع، وقد اخترت أن تكون على عدد

---

(١) ص (ب).

الآيات فى المصحف لتبقى الهداية بالترتيب الذى اختاره الله، وليمكن الباحث عن معنى الآية أن يلاحظ سياقها فيقرأ ما سبقها وما لحقها من الآيات ليكون على علم تام وهداية واعظة...»[1].

ولعل القارئ الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يرمى من وراء قوله (... ويكون القرآن هو الذى يفسر نفسه كما أخبر الله، ولا يحتاج إلى شىء من الخارج غير الواقع الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجتماع) أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم، وينفى أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل: ٤٤).

ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله ﷺ، ولا يعترف بما لها من مكانة فى تفسير القرآن الكريم، فقال مقالته السابقة، كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة فى التشريع الإسلامى فقال فى قوله تعالى فى الآية (٦٣) من سورة النور ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: «يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره، وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى»[2] فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(الحشر: ٧) ولغير هذا من الآيات التى وردت فى وجوب طاعته ﷺ وهى كثيرة، ثم أى مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله ﷺ؟.

هذا ولا أريد أن أطيل بذكر ما جاء فى هذا الكتاب من أباطيل وأضاليل ويكفى أن أذكر طرفًا مما حواه من ذلك ليتبين القارئ أن الرجل (جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم).

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام:

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفًا شاذًا غريبا، يقوم على إنكارها وجحدها والذهاب بها ـ عن طريق التأويل الفاسد ـ إلى أن تكون من قبيل

---

(١) ص حـ ـ د.

(٢) ص ٢٨١.

الممكن الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان رسول أو غير رسول، وهو يصرح بهذا فى كثير من المواضع، فيقول فى بعض المواضع: «وبعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغى أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه فى دعوته غير ما فى سيرته ورسالته»(١) وفى موضع آخر يقول: «واعلم أن آيات الله فى نصر أنبيائه لا تناقض سننه فى خلقه وكونه»(٢) وفى موضع ثالث يقول: «وقد كانت كل آياتهم حججًا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم، فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها، فتكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها فتدبر»(٣) وفى موضع رابع يقول: (وإن آيتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم لا يأتون بغير المعقول، ولا بما يبدل سنته ونظامه فى كونه)(٤).

على هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقى الذى أراده الله تعالى.

موقفه من معجزات عيسى عليه السلام:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة آل عمران فى شأن عيسى عليه السلام: ﴿ ... أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ نجده يقول ما نصه: «﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ يفيدك التمثيل إخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره ﴿الأَكْمَهَ﴾ من ليس عنده نظر ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ المتلون بما يشوه الفطرة، فهل عيسى يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية؟ ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ يعلمهم التدبير المنزلى»(٥).

وإذا كان المؤلف قد تردد فى معنى إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة، وبين تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية، فإنه ليس

---

(١) ص ١٦١. (٢) ص ٢٩٠. (٣) ص ٢٩٧.
(٤) ص ٢٠٦. (٥) ص ٤٥.

تردد الشاك فى أى الأمرين كان، وإنما هو تردد يبدو منه فى صراحة ووضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحى لا غير، وإنك لتجده يصرح فى موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية، وذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة المائدة ﴿ ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي... ﴾ من هذا تعرف أن عيسى نبى أرسله الله إلى بنى إسرائيل ليشفى نفوسهم، ويحيى موت قلوبهم، فآيته فى دعوته وسيرته وهدايته، عاش ومات كغيره من الأنبياء فى بشريته، فلم يكن خارقًا فى سنته، ولا ممتازًا بما يدعو ألوهيته وعبادته»[1].

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم فى المهد وذلك حيث يؤول قوله تعالى فى الآية (٤٦) من سورة آل عمران ﴿ ... وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا... ﴾ ما نصه: «فى المهد: فى دور التمهيد للحياة وهو دور الصبا، علامة على الجرأة وقوله الاستعداد فى الصغر، وكهلاً: علامة على أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر، ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم والكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه»[2].

وتأول أيضًا قوله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فقال: «أى كان ذاك النهار ولدًا صغيرًا فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم فهذا ابن حرام»[3].

ولما رأى أن قوله تعالى قبل ذلك فى الآية (٢٧) ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ لا يتفق مع تأويله السابق تأوله أيضًا فقال: «تحمل على ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنه كان فى سياحة طويلة»[4].

موقفه من معجزات موسى عليه السلام:

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ قال:

---

(١) ص ٩٧.
(٢) ص ٤٤.
(٣) ص ٢٣٩.
(٤) ص ٢٣٩.

«ويصح أن يكون الحجر اسم مكان، واضرب بعصاك الحجر: معناه: اطرقه واذهب إليه، والغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه»(١).

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٣) من سورة الشعراء ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ قال ما نصه: «﴿الْبَحْرَ﴾ الماء الواسع ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ اطرقه واذهب إليه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة، راجع (١٦٠) فى الأعراف، ثم راجع طه فى (٧٧، ٧٨) ولتعرف كيف اهتدى إلى طريق يبس مر منه، واقرأ استعمال الضرب فى السير فى قصة أيوب فى (ص)..»(٢).

وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (١٠٧، ١٠٨): ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ يقول: (مثال من قوة حجته وظهور برهانه)(٣).

وعند قوله تعالى فى الآيات (١١٨) إلى (١٢٢) من نفس السورة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ يقول: «يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتى سلموا له وآمنوا به»(٤).

موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة الأنبياء ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾ نجده ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقى فى النار وخرج منها سالمًا، وذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول: «معناه نجاه من الوقوع فيها - راجع ٦٤ فى المائدة و ٢٦ فى النحل، وترى فى الآية وباقى القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم»(٥).

موقفه من معجزات داود عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٧٩) من سورة الأنبياء: ﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يقول: «﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يعبر عما تظهره الجبال

---

(١) ص ١٣١. (٢) ص ٢٩٠. (٣) ص ١٢٦.
(٤) ص ١٢٦. (٥) ص ٢٥٦.

من المعادن التى كان يسخرها داود فى صناعتها الحربية ﴿وَالطَّيْرَ﴾ يطلق على ذى الجناح وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية»[(١)].

موقفه من معجزات سليمان عليه السلام:

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة الأنبياء: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا...﴾ نجده يقول: «﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ الآن تجرى بأمر الدول الأوربية وإشارتها فى التلغرافات والتليفونات الهوائية، اقرأ سبأ»[(٢)].

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآية (١٦) ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ يقول: «﴿مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ كل من يربى الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقه وماذا يريد، ويمكنهم أن يستعملوه فى الرسائل وغيرها»[(٣)].

وفى قوله تعالى فى الآية (١٨) من السورة نفسها ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...﴾ نجده يقول: «﴿نَمْلَةٌ﴾: قبيلة ﴿النَّمْلِ﴾ قبائل الوادى»[(٤)].

وفى قوله بعد ذلك فى الآية (٢٠) من السورة أيضًا ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ نجده يقول: «﴿الْهُدْهُدَ﴾ اسم طائر، فهل يكون من ذوى الجناحين؟ ويكون كلامه كناية عما يحمل من رسائل؟ أم من الخيالة؟ السوارى؟ أو الطيارين الآخرين؟ راجع الأنبياء»[(٥)].

وفى قوله بعد ذلك فى الآيات من (٣٨) إلى (٤٢) من السورة نفسه: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فى هذه الآيات نراه يقول: «﴿بِعَرْشِهَا﴾ بملكها، يريد أن يضع

---

(١) ص ٢٥٧. (٢) ص ٢٥٧. (٣) ص ٢٩٧.
(٤) ص ٢٩٧. (٥) ص ٢٩٧.

خطط الحرب ونظام الدخول فى البلاد، فطلب الخريطة التى فيها مملكة سبأ ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أحد القواد... ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلى الذى ﴿عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من الكتابة والرسم والتخطيط ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الغرض أنه يأتى به حالاً وقد أتى به، ويحتمل أنه رسمه فى الحال أو كان عنده مرسومًا، ولو كان عهد الفوتوغرافيا قديمًا لصح أن يكون ذلك الرسم فيها، وترى أن سليمان يشكر الله على ما فى المملكة من العلماء العاملين فى كل فن، ونأخذ من القصة أن الله يعظم شأن العلم ويدعونا إلى التمسك بالأسباب الكونية لتشييده الملك وإقامة الدولة ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ يؤيد لك أن المسألة علمية ﴿مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لله، يعنى أنهم جمعوا بين العلم والتربية على الخلق العظيم، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة»[1].

موقفه من معجزة الإسراء:

وعندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نجده يقول: «﴿أَسْرَىٰ﴾ الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء... انظر ٧٧ فى طه، و ١٣٨ فى الأعراف، و ٥٢ فى الشعراء، و ٢٣ فى الدخان، و ٨١ فى هود، و ٦٥ فى الحج، ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء» ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذى له حرمة يحترم بها عند جميع الناس ٢١٧ و٢٨ فى البقرة و٢٥ فى الحج ﴿الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ الأبعد، مسجد المدينة... وقد بارك الله حوله، فكان للنبى ﷺ هناك ثمرة وقوة، وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان ذلك من آيات الله، انظر ٢٠ يس و١٠٨ فى التوبة ثم ارجع إلى الإسراء فاقرأ إلى ٦٠ و ٩٣»[2].

إنكاره للملائكة والجن والشياطين:

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة، والجن، والشياطين، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ

(١) ص ٢٩٨، ٢٩٩. (٢) ص ٢١٩.

اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ نجده يقول: «الملائكة رسل النظام وعالم السنن، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له، راجع ٢٩، ثم انظر الملك فى ١٥ ﴿إِبْلِيسَ﴾ اسم لكل مستكبر على الحق، ويتبعه لفظ الشيطان والجان، وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره»(١).

وعند قوله تعالى فى الآية (٧١) من سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ...﴾ الآية، نجده يقول: «﴿الشَّيَاطِينُ﴾ تطلق على الحيات والثعابين، تستهوى من يتبعها ليقتلها فيهوى معها وتضله بتعرجها راجع ٢٧٥ فى البقرة»(٢).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ يقول: «يمثل لك بوصف الإنسان، النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد ﴿وَالْجَانَّ﴾ النوع المتشرد صاحب الطبع النارى، إذا قاربته يؤذيك ويغويك، ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله، والنوعان موجودان فى كل أمة، فتدبر السياق من أول السورة، وراجع القصة فى البقرة»(٣).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة النمل ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ يقول: «﴿الْجِنِّ﴾ يطلق على العالم الخفى والظاهر القوى، وجن كل شىء أوله ومقدمته، وجن الجيش قواده ورؤساؤه ﴿وَالإِنسِ﴾ طائعوه ومرءوسوه، اقرأ الجن»(٤).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٨) من سورة الصافات ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يقول: «الجنة أو الجن: سادتهم وكبراؤهم»(٥).

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٣٧ و ٣٨) من سورة (ص) ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ نجده يقول: «﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ مسلوكين فى القيود،

---

(١) ص ٧. (٢) ص ١٠٥. (٣) ص ٢٠٤.
(٤) ص ٢٩٧. (٥) ص ٢٥٦.

ومنها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم...»[١].

إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من المجتهدين:

ولقد سولت للمؤلف نفسه أن يتأول بعض آيات الأحكام على غير ما أراد الله، وعلى مقتضى هواه الذى لا يخضع لقواعد اللغة ولا لأصول الشريعة!!.

حد السرقة:

فمثلاً عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ الآية، يقول: «واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطى معنى التعود، أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم، ويظهر لك من هذا المعنى: أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده؛ لأن قطعها فيه تعجيز له، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه»[٢].

حد الزنى:

وعند قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ الآية، نجده يقول: «﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنى وكان من عادتهما وخلقهما، فهما بذلك يستحقان الجلد»[٣].

تعدد الزوجات:

فى الآية (٣) من سورة النساء ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ...﴾ الآية، نجده يقول: «﴿مِّنَ النِّسَاءِ﴾ نساء اليتامى الذين فيهم الكلام (هكذا بالأصل) لأن الزواج منهن يمنع الحرج فى أموالهن، ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التى يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررًا على المجتمع من تركه، لتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾»[٤].

---

(١) ص ٢٥٩.
(٢) ص ٨٨.
(٣) ص ٢٧٤.
(٤) ص ٦١.

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى فى حجره، وأمن من نفسه عدم الجور، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقًا، ومن يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط فى التعدد.

التسرى:

وعند قوله تعالى فى نفس الآية السابقة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ نجده يقول: «انظر آية ٢٥ إلى ٢٨ من النساء»[1] وفى الآية ٢٥ وهى قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ يقول: «فيه عناية بالخادمات، وتسهيل لمن يريدون الزواج، ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات، انظر (٣٣) فى النور و (٦٠) فى الكهف، ثم (٣٠ و ٣٦ و ٤٢ و ٦٢» فى يوسف ﴿الْعَنَتَ﴾ الحرج، انظر (٢٢٠) فى البقرة و (٧) فى الحجرات و (١٢٨) فى التوبة و (١١٨) فى آل عمران، وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات، بحجة أنهن مشتريات بالمال، أو أسيرات بالحرب، فليس فى الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج، مملوكة كانت أو مالكة، فتدبر ذلك فى الآيات»[2].

وفى قوله تعالى فى الآيتين (٥، ٦) من سورة المؤمنون: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآية، يقول: «اقرأ المعارج، والنور، وأوائل البقرة»[3].

ثم قال فى المعارج عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٩، ٣٠) ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ما نصه: «﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الخدم، فإن لهم ما ليس لغيرهم، فقد يكون فى الإنسان فروج أى عيوب ونقائص يسيئه أن يراها الناس فيه، ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه»[4].

فأنت ترى من هذا أنه يحرم التسرى، ويفسر الفروج بالعيوب، وهذا بعد عن قوانين اللغة، ومبادئ الشريعة.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) ص ٤٥٥.
(٣) ص ٢٦٧.
(٤) ص ٤٥٥.

الربـــــــا:

كذلـك نجـد المـؤلف يميـل إلـى أن الربـا المحـرم شـرعًـا هـو الفاحش فـقط، ولهذا نراه عندمـا يعرض لآيات الربا فى سـورة البقرة يفـسر (الربا) فيـقول: «الربا هو الزيادة من الربح فى رأس المـال، وهو معروف ومـقيد بالآية (١٣٠) فى آل عـمران، فانظـرها أولاً»(١) يريـد قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ (آل عمـران: ١٣٠) ثم يقول بعد ذلك: «﴿ وَذَرُوا مَـا بَقِيَ ﴾ (البـقرة: ٢٧٨) ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٩) ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ (البقرة: ٢٨٠) كل ذلك يفيدك أن الكلام فى المعاملة الحاضرة ويبشر من يتـوب بأنه لا يحاسب على ما كسبه من قبل ﴿ فَلَهُ مَـا سَلَفَ ﴾ (البقرة: ٢٧٥) انظر (٣٨) فى الأنفال»(٢) يريد قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾.

ثم قال بعد ذلك عندما عرض لقـوله تعالى فى الآية (١٣٠) من سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾: «﴿ الـرِّبَـا أَضْعَـافًا مُّـضَاعَـفَةً ﴾ أى الربا الفاحـش، وبمعنى آخر: الربح الـزائد عن حده فى رأس المال، وتقدره كل أمة بعـرفها، راجع فى جزائه أواخر البقرة، وقصـة اليهود فى أواخر النساء، ثم ارجع إلى (٥) فى النساء و (٤٣)(٣).

زكاة الزروع:

كذلك نجد المـؤلف يذهب فى زكاة الزروع مذهبًا لم يقل به أحد من المـجتهدين فضـلاً عن أنه يصادم ما جـاء من السنة الصحـيحة فى بيـان المقـدار الواجب فى زكاة الزروع وذلك حيث يفسر قوله تعالى فى الآية (١٤١) من سورة الأنعام: ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فيقول: «﴿ وَآتُوا حَقَّهُ ﴾ يفيد أن فى كل هذا الخارج من الأرض حقًا لا بد من إعطائه ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ زمن تحصيله وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق أمر الحاكم العالم بأخذه والعمل على جبايته لبيت المال، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال»(٤).

أقـول: وليس للأمة دخل فى تقدير مقـررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول ﷺ، وقررها على الأمة.

---

(١) ص ٣٧.

(٢) ص ٣٨.

(٣) ص ٥٣.

(٤) ص ١١٣.

مصارف الزكاة:

كذلك تخبط المؤلف فى شرحه لبعض مصارف الزكاة، وذلك حيث فسر قوله تعالى فى الآية (٦٠) من سورة التوبة ﴿... وَفِي الرِّقَابِ﴾ فقال: «فى خلاصها من الاستعباد، وفى هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب، فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم، وفى الزكاة حق لهذا التعاون»[١].

الطلاق:

كذلك نجد المؤلف يذهب إلى أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرًا يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول فى قوله تعالى فى الآية (١) من سورة الطلاق ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ما نصه: «... ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ بيوت الزوجية، راجع البقرة من (٢٢٦ - ٢٤٢) والأحزاب (٤٠) والتحريم (٥) والنور (٥ - ١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان فى يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية»[٢].

هذا بعض ما جاء فى هذا الكتاب الذى هذى به صاحبه، وفيه غير هذا كثير مما يدل على أن الرجل قد ركب متن الغواية، ومشى يخبط خبط الأعشى فى مهمه متسع من الضلالة!!.

وحسبى أن أكون قد أطلعت القارئ على بعض ما جاء فى هذا الكتاب، ولست فى حاجة إلى أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها؛ فإنى لست فى مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا فى مقام بيان لون من ألوان التفسير فى هذا العصر وإذا كان القارئ الكريم يود أن يقف على إبطال هذه المزاعم التى حشا بها المؤلف كتابه، فليرجع إلى قرار اللجنة الأزهرية، التى ألفت للرد على هذا الكتاب[٣]، وليرجع إلى ما كتبه شيخنا العلامة السيد محمد الخضر حسين فى الجزء الثالث من رسائل الإصلاح[٤]، ولا شك أنه سيجد فيما كتب هنا وهناك ما يكفى لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح، وما ينادى بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدى، فهوى إلى مكان سحيق.

---

(١) ص ١٥٠. (٢) ص ٤٥٥.

(٣) العدد الثالث والرابع من المجلد الثانى من مجلة نور الإسلام (الأزهر سنة ١٣٥٠هـ).

(٤) ص ١٤٠ - ١٦٠.

اللون الأدبى الاجتماعى للتفسير فى عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير فى هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبى الاجتماعى، ونعنى بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه فى هذا العصر ذلك الطابع الجاف، الذى يصرف الناس عن هداية القرآن، الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلون بلون يكاد يكون جديداً وطارئا على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبق النص القرآنى على ما فى الكون من سنن الاجتماع، ونظم العمران.

مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وأثرها فى التفسير

وإذا كان هذا اللون الأدبى الاجتماعى يعتبر فى نظرنا عملاً جديداً فى التفسير، وابتكاراً يرجع فضله إلى مفسرى هذا العصر الحديث، فإنا نستطيع أن نقول بحق: إن الفضل فى هذا اللون التفسيرى يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير... هذه المدرسة للتى قام زعيمها، ورجالها من بعده، بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى، وهداية الناس إلى ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة.

نعم قامت هذه المدرسة بمجهود كبير فى تفسيره كتاب الله تعالى، مجهود نحمد لها الكثير منه، ولا نوافيها على بعض منه قليل.

محاسن هذه المدرسة:

فالذى تحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلى الدرجة التى تجعل القرآن تابعًا لمذهبه، فيؤول القرآن بما يتفق معه، وإن كان تأويلاً متكلفًا وبعيداً.

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير، فلم تشوه التفسير بما شوه به فى كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التى أحاطت بجمال القرآن وجلاله، فأساءت إليه وجرأت الطاعنين عليه!!.

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التى كان لها أثر سيئ فى تفسير القرآن الكريم!!.

ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية، والأحاديث الموضوعة، أنها لم تخض فى تعيين ما أبهمه القرآن، ولم تجرؤ على الخوض فى الكلام عن الأمور الغيبية، التى لا تعرف إلا من جهة النصوص الشرعية الصحيحة، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملاً، ومنعت من الخوض فى التفصيلات

والجزئيات، وهذا مبدأ سليم، يقف حاجزًا منيعًا دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد.

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون، التى زج بها فى التفسير بدون أن يكون فى حاجة إليها، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة، وعلى حسب الضرورة فقط.

ثم إن هذه المدرسة، نهجت بالتفسير منهجًا أدبيّا اجتماعيّا، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه، وأوضحت معانيه ومراميه، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة، ومشاكل الأمم عامة، بما أرشد إليه القرآن، من هداية وتعاليم، جمعت بين خيرى الدنيا والآخرة، ووفقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، وجلت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذى يستطيع أن يساير التطور الزمنى والبشرى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه على القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوى القارئ، ويستولى على قلبه، ويحبب إليه النظر فى كتاب الله، ويرغبه فى الوقوف على معانيه وأسراره.

هذا ما نحمده لهذه المدرسة، ولا نستطيع أن نغمطها عليه، أو نقلل من فضلها فيه.

عيوب هذه المدرسة:

أما ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التى جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن.

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة فى بعض تعاليمها وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعانى ما لم يكن معهودًا عند العرب فى

زمن نزول القرآن وطعنت فى بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة، فى كل ما هو من قبيل العقائد، أو من قبيل السمعيات، مع أن أحاديث الآحاد فى هذا الباب كثيرة لا يستهان بها.

وما يقال من أن خبر الواحد لا تثبت به عقيدة إجماعًا، فيه نظر من وجوه:

الأول: أن دعوى الإجماع باطلة، فإن للعلماء أربعة أقوال فى إفادة خبر الواحد العلم:

١- يفيد الظن مطلقًا.

٢- يفيد العلم بقرينة.

٣- يفيد العلم من غير قرينة باطراد.

٤- يفيد العلم من غير قرينة لا باطراد.

الثانى: إذ جرينا على أن خبر الواحد يفيد العلم، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا على أنه يفيد الظن، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن ـ على المختار ـ لإفادته العلم حينئذ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأن أحاديث الصحيحين التى لم تنتقد عليهما تفيد العلم؛ فإن الأمة قد تلقتهما بالقبول، وهى معصومة من الخطأ، وظن المعصوم لا يخطئ [(١)].

الثالث: أنه ليس المراد من العقيدة كل ما يعتقد، وإلا لتناول ذلك الفروع الفقهية، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها، وإنما المراد بالعقائد أصولها، وهو ما كان الإخلال بها موجبًا للكفر، كالإيمان بالله وباليوم الآخر، وأما الأحاديث الواردة فى الحوادث الماضية، أو المستقبلة، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر وما فيه، فلا يشترط فيها التواتر، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التى يترتب على عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالى، ولكن يكتفى فيها بأن تكون من طريق صحيح.

---

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص ١٤ - ٣٥.

أهم رجال هذه المدرسة:

هذا. . . وإن أهم رجال هذه المدرسة، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، وهما خير من أنجبت هذه المدرسة، وخير من ترسم خطا الأستاذ الإمام، وسار على منهجه وطريقته فى التفسير.

ولست أرى القارئ بحاجة إلى أن أترجم لحياة هؤلاء الرجال الثلاثة، فالعهد بهم قريب، وليس يخشى على من له صلة بالحركة العلمية فى هذا العصر شىء من معالم حياتهم، ويكفى أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم فى التفسير وعن منهجه الذى سلكه فيه، وسيقف القارئ - إن شاء الله تعالى - على ما قلته عن هذه المدرسة، وما ذكرته لها من أثر محمود فى التفسير، وما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها ولا يحمد لها.

* * *

١- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

التعريف بالمؤلف[(١)]:

ولد الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ بقرية شنرا، من قرى مصر، ونشأ بضاحية نصر (بحيرة) سنة ١٨٤٩م، حفظ القرآن الكريم وجوَّده، ثم التحق بالأزهر سنة ١٨٦٦م، ونال درجة العالمية سنة ١٨٧٧م، تتلمذ على كبار العلماء المشهود لهم بسعة العلم والمعرفة مثل: الشيخ «درويش خضر»، والشيخ «حسن الطويل»، والشيخ «جمال الدين الأفغانى» الذى رافقه فى رحلاته وشاركه فى جهاده وتأثر به، ونشر آراءه من بعده.

عمل بالأزهر، ومدرسة دار العلوم، ومدرسة الألسن، ورأس تحرير جريدة الوقائع المصرية، ورحل إلى سوريا سنة ١٨٨٣م، ثم لحق بـ «جمال الدين الأفغانى» فى باريس سنة ١٨٨٤م، وأصدرا معًا جريدة العروة الوثقى، ثم غادر باريس إلى بيروت سنة ١٨٨٥م، وألَّف هناك رسالته المشهورة فى التوحيد، ثم غادر إلى مصر سنة ١٨٨٨م فعُين قاضيًا بالمحاكم الشرعية، ثم مستشارًا لمحكمة الاستئناف، ثم عضوًا بمجلس إدارة الأزهر، ثم تقلد منصب الإفتاء سنة ١٨٩٩م، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى.

ويرجع الفضل إليه فى إصلاح الأزهر، وتجديد مناهج دراسته وطرق التدريس فيه وأساليب الامتحان وغيرها، وكذلك إصلاح المحاكم الشرعية والقضاء الشرعى والأوقاف، وإنهاض الجمعيات الخيرية ومدارسها، فضلاً عن الجهاد السياسى والدينى والأخلاقى وتربية الأمة لتنهض من كبوتها.

من مؤلفاته:

١- رسالة التوحيد.

٢- شرح نهج البلاغة.

٣- الإسلام والنصرانية.

٤- شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى.

٥- الرد على هانوتو.

---

(١) تم وضع هذه الترجمة لبعد العهد وإتمامًا للفائدة (د. مصطفى الذهبى).

إنتاجه فى التفسير:

إذا نحن ذهبنا نستقصى ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل فى التفسير، فإنا نجد له تفسيره المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذى ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعًا لأساتذة مدارس الجمعية فى تفهيم التلاميذ معانى ما يحفظون من سور هذا الجزء، وعاملاً للإصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء فى سنة ١٣٢١هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول: (فى أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه فى الإعراب، بحيث لا يحتاج فى فهمها إلى أن يعرف القارئ كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان)(١).

كذلك نجد له تفسيراً مطولاً لسورة (العصر) كان قد ألقاه على هيئة محاضرات، أو دروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها فى سنة ١٣٢١هـ سنة (١٩٠٢م)(٢) ويقول الأستاذ الإمام: إنه قرأ تفسير هذه السورة فى سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة ونصف(٣).

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء ﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ وقوله فى الآية (٧٩) من السورة نفسها: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾ وجمعه بينهما، وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى، وتارة إلى العبد.

وكشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٥٢ - ٥٥) من سورة الحج ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ**

---

(١) مقدمة تفسير جزء (عم) ص ٢.

(٢) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، الشيخ رشيد.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٣).

من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ وإبطاله لقصة الغرانيق، وتفنيده لما بنى عليها من تفسير يذهب بعصمة النبى ﷺ، ويرفع الأمان عن الوحى الذى تكفل الله بحفظه.

وكتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة (الأحزاب): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة، تصور النبى ﷺ بصورة الرجل الشهوانى، وإبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة ـ قصة زيد وزينب ـ من مطاعن رمى بها رسول الله ﷺ زورًا وبهتانًا.

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام فى التفسير، تلك الدروس التى ألقاها فى الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه، وكان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا، وإقناعه به، كما يقول هو فى مقدمة تفسيره(١).

وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن فى غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى فى الآية (١٢٦) من سورة النساء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وذلك فى منتصف المحرم سنة ١٣٢٣هـ، إذ توفى ـ رحمه الله ـ لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها(٢).

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هذه الدروس فى التفسير على طلابه ولم يدون شيئًا منها، فإنا لا نرى حرجًا من جعلها أثرًا من آثاره فى التفسير، وذلك:

لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب فى أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام، ثم يحفظ ما كتب ليمده بما يذكره من أقواله وقت الفراغ، ثم قام بعد ذلك بنشر ما كتب فى مجلته (المنار) وكان ـ كما يقول هو فى مقدمة تفسيره ـ يطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه، فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة، أو حذف كلمة أو كلمات، قال: (ولا أذكر أنه انتقد شيئًا مما لم يره قبل الطبع، بل كان راضيًا بالمكتوب؛ بل معجبًا به)(٣).

(١) جـ١ ص ٤ من تفسير المنار. (٢) المرجع نفسه. (٣) تفسير المنار (١/ ١٥).

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام فى التفسير، وهو وإن كان إنتاجًا بعد قليلاً بالنسبة لهذه الشخصية البارزة، إلا أنه ـ والحق يقال ـ كان له أثر بالغ فى تطور التفسير واتجاهاته، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

منهجه فى التفسير:

كان الأستاذ الإمام هو الذى قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد، والتحرر من قيود التقليد، فاستعمل عقله الحر فى كتاباته وبحوثه، ولم يجر على ما جمد عليه غيره من أفكار المتقدمين، وأقوال السابقين، فكان له من وراء ذلك آراء وأفكار خالف بها من سبقه، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم، وجمعت حوله قلوب مريديه والمعجبين به.

هذه الحرية العقلية، وهذه الثورة على القديم، كان لهما أثر بالغ فى المنهج الذى نهجه الشيخ لنفسه، وسار عليه فى تفسيره.

وذلك: أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدأ يسير عليه فى تفسير القرآن الكريم، ويخالف به جماعة المفسرين المتقدمين، وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة: وذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له، أو وسيلة لتحصيله(١).

يقرر الأستاذ الإمام هذ المبدأ فى التفسير، ثم يتوجه باللوم إلى المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن، وهو ما فيه من هداية وإرشاد، وراحوا يتوسعون فى نواح أخرى من ضروب المعانى، ووجوه النحو، وخلافات الفقه، وغير ذلك من المقاصد التى يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار فى مقصد منها (يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى)(٢).

لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلى قسمين:

أحدهما: جاف مبعد عن الله وكتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، قال: وهذا لا

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ١٧.

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٨.

ينبغى أن يسمى تفسيرًا، وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون، كالنحو، والمعانى، وغيرهما.

وثانيهما: ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام، على الوجه الذى يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام؛ ليتحقق فيه معنى قوله تعالى ﴿**هُدًى وَرَحْمَةً**﴾ **(لقمان: ٣)** ونحوهما من الأوصاف قال الأستاذ الإمام: (وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير)(١).

هذا... وإن الأستاذ الإمام لا يريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلاً فى تفسير القرآن، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة، فيبين المفسر ـ مثلاً ـ من وجوه البلاغة، وضروب الإعراب بقدر ما يحتمله المعنى، وعلى الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته، وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة.

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام ـ وقد وضع لنفسه هذه الخطة فى التفسير ـ يشترط شروطًا لا بد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرًا يحقق الغرض منه، وقد ذكرناها بجملتها عند كلامنا عن العلوم التى يحتاج إليها المفسر.

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن:

ويرى الأستاذ الإمام: أن القرآن الكريم هو الميزان الذى توزن به العقائد لتعرف قيمتها، ويقرر أنه يجب على من ينظر فى القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة، ويستنبط منه الرأى، وينعى على ما كان من أكثر المفسرين، من تسلط العقيدة عليهم، ونظرتهم للقرآن من خلالها، حتى تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم، ويتمشى معها، وفى هذا يقول: «إذا وزنا ما فى أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى، من غير أن ندخلها أولاً فيه، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين، وأما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن، وحشرناها فيه أولاً، فلا يمكننا أن نعرض الهداية من الضلال؛ لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدرى ما هو الموزون به».

«أريد أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين، لا أن تكون

(١) تفسير المنار (١/ ٣٥).

المذاهب أصلاً والقرآن هو الذى يحمل عليها، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها، كما جرى عليه المخذولون، وتاه فيه الضالون» (١).

كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه:

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس، أما ناحية التأليف، فمحدودة ضيقة، كما ظهر لك فيما سبق، وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلى حد ما من ناحية التأليف؛ فقد ألقى ـ رحمه الله ـ دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر الشريف، مدة ست سنوات، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن، كما ألمعنا إليه فيما تقدم.

كذلك ألقى دروسًا فى التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب، كما ألقى دروسًا فى التفسير أيضًا فى مساجد بيروت.. فى المسجد الكبير، وفى مسجد (الباشورة) (٢).

وكان من عادة الأستاذ الإمام فى دروسه: أنه يراعى حال من يستمعون إليه، فإذا حضره جماعة من البلداء الخاملى الفكر شرح لهم المعنى بكلمات قليلة وإذا كان هناك من يتنبه لما يقول ويلقى له بالاً، يفتح الله عليه بكلام كثير، بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه (٣).

ويحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقة الأستاذ الإمام فى دروس التفسير فيقول: «كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير، وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ، والإعراب، ونكت البلاغة، وفى الروايات التى تدل عليها، ولا تتوقف على فهمها الآيات» (٤).

وكان الأستاذ الإمام يعتمد فى دروسه وكتابته فى التفسير على عقله الحر وكان ـ كما يقول عنه بعض الكاتبين ـ «لا يلتزم فى التفسير كتابًا، وإنما يقرأ فى المصحف، ويلقى ما يفيض الله على قلبه» (٥).

---

(١) تفسير سورة الفاتحة ص ٥٤.
(٢) محمد عبده لعثمان أمين ١٠١.
(٣) تفسير المنار (١/ ١٤).
(٤) المرجع نفسه ص ١٥.
(٥) محمد عبده لعثمان أمين ص ١١.

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلى كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتى لا يتأثر بفهم غيره، وكل ما كان منه أنه إذا ما عرض له وجه غريب من الإعراب، أو كلمة غريبة فى اللغة رجع إلى بعض كتب التفسير، ليرى ما كتب فى ذلك، وقد حدث عن نفسه بذلك فقال: «إننى لا أطالع عندما أقرأ لكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الإعراب، أو كلمة غريبة فى اللغة»(١).

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان «يتوكأ فى ذلك - يعنى فى دروسه فى التفسير - على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير، فكان يقرأ عبارته فيقرها، أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه، مما فيه هداية وعبرة»(٢).

وسواء أقلنا إن الأستاذ الإمام كان يرجع إلى كتب التفسير أم لا يرجع إليها، فإنه كان يحكم عقله فيما يلقى وفيما يكتب، غير ملتفت إلى ما سبق به من أقوال فى التفسير، ولا بواقف عند اعتبارات المؤلفين وأفهامهم وقوف من يخضع لها، ويسلم بها، على ما فيها من غث وسمين.

نعم لم يجمد الأستاذ الإمام على ما فى كتب قدماء المفسرين، ولم يلغ عقله أمام عقولهم، بل على العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفى فى التفسير بالنظر فى أقوال المتقدمين فيقول: «التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون، هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير، على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢) وليت أهل العناية باطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب، ثم يبثونه فى الناس ويحملونهم عليه، ولكنهم لم يطلبوا ذلك، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها، ولا يخرجون لإظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القول، واختراع الوجوه من التأويل والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل».

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٤) ويظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة (قبل أن أقرأ كما نبه على ذلك فى حاشية الكتاب).

(٢) تفسير المنار (١/ ١٥).

«إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه، وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا، وعن سنة نبينا الذى بين لنا ما نزل إلينا ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤)».

«يسألنا هل بلغتكم الرسالة؟ هل تدبرتم ما بلغتم؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن، واهتديتم بهدى النبى، واتبعتم سنته؟ عجبًا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه، فيا للغفلة والغرور»[1].

كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول: «... وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه، لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذًا جافًا، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان، للذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر»[2].

ومما يذكر فى هذا المقام أنه (لما أبدى الأستاذ الإمام رأيًا طريفًا فى تفسير بعض الآيات، قال له أحد المجاورين: إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل ـ يعنى بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشى على تفسير الجلالين ـ فقال الأستاذ على الفور: إننى أقرر ما يدل عليه المعنى الجليل، والكلام البليغ، ولا يعنينى أوافق عليه الجمل أو الحمار)[3].

كل هذا يدلنا على أن الأستاذ الإمام كان حرًا فى تفكيره وفهمه للقرآن، صريحًا فى نقده ونصحه للتفسير والمفسرين، جريئًا فى ثورته على القديم، ودعوته إلى التحرر مما أحاط بالعقول من القيود، وما أوغلت فيه من الركود والجمود.

هذا... وإن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات فجعلوا منها شروحًا لمبهمات القرآن، بل وجدناه على العكس من ذلك نفورًا منها، وشرودًا من الخوض فيها، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهمًا فى كتابه، ولو أراد منا ذلك لدلنا عليه فى كتابه أو على

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٧).

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٧).

(٣) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٥.

لسان نبيه، وهو يصرح بأن هذا هو «مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه»[١].

وإذا نحن تتبعنا أقواله فى مبهمات القرآن وجدناه محافظًا على هذا المبدأ، لا يعدل عنه ولا يحيد، إلا فى مواضع قليلة نادرة.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (١٠، ١١) من سورة الانفطار ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ نجده يقول: «ومن الغيب الذى يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به فى كتابه: أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات، ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء، ومن أى شيء خلقوا، وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم، هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا... وهو يبعد فهمه؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الأعمال؟ وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو ما نعهد؟ أو إنما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس إلى أن يبعث الله الناس؟ كل ذلك لا نكلف العلم به، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه إلى الله، والذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى علمنا، هو : أن أعمالنا تحفظ وتحصى، لا يضيع منها نقير ولا قطمير»[٢].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ...**﴾ إلى آخر القصة، يقول: «أما تعيين أصحاب الأخدود، وأنى كانوا؟ ومن هم أولئك المؤمنون؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران، عندما كان دينهم دين التوحيد، ليس فيه حدث ولا بدعة، وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية، غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم، والجهة، وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء، حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات، والأساطير المحشوة بالخرافات، وإنما الذى عليه: هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا، ولو علم الله خيرًا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به»[٣].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٣٢٠).

(٢) تفسير جزء (عم) ص ٢٦.

(٣) تفسير جزء (عم) ص ٥٩.

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٦، ٧) من سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ نجده يقول: «وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير إرم ذات العماد، كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله، فإذا وقع إليك شىء من كتبهم، ونظرت فى هذا الموضع منها، فتخط ببصرك ما تجده فى وصف إرم، وإياك أن تنظر فيه»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦ - ٩) من سورة القارعة ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ نجده يقول: «وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم، إنما يكون على حسب ما يعلم، لا طريقة ما نعلم، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه على الإيمان به، ومن عجيب ما قال بعض المفسرين «إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض، ولا يعلم ماهيته إلا الله» فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، ولم يرد فى الكتاب إلا كلمة ميزان، وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد، وما عدا ذلك فعلمه إلى الله سبحانه، وقد قالوا: إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر، إذا كان القائل به يحدد له لسانًا وكفتين، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون، أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه؟ أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات إلا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة؟ على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف، إنما هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة، وهلا يكون الأليق بالمقام الإلهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر، مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل، التى لم تزل فى مهد

---

(١) تفسير جزء (عم) ص ٧٩.

الإنسانية الأولى؟ ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب، ولا لحياء العقل من الله، وإطراقه عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه، وتعاظمت قدرته».

«عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال، ويميز لكل عمل مقداره، ولا تسل كيف يزن، ولا كيف يقدر، فهو أعلم بغيبه، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»[١].

معالجته للمسائل الاجتماعية:

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لا يكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذ منها علاجًا للأمراض الاجتماعية، إلا أفاض فى ذلك بما يصور للقارئ خطر العلة الاجتماعية التى يتكلم عنها، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم، ثم يلقى به على أسماع المسلمين وغير المسلمين؛ رجاء أن يعودوا إلى الصواب، ويثوبوا إلى الرشاد.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ نجده يقول: «... والصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله، والرضى بما يكره فى سبيل الحق، وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق، وما أُتِىَ الناس من شىء مثل ما أتوا من فقد البصر أو ضعفه، كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها، ضعف فيها كل شىء، وذهبت منها كل قوة، ولنضرب لذلك مثلاً: نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر؛ فإن من عرف بابًا من أبواب العلم، لا يجد فى نفسه صبرًا على التوسع فيه، والتعب فى تحقيق مسائله، وينام على فراش من التقليد هين لين، لا يكلفه مشقة، ولا يجشمه تعبا، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه، ولو كان عنده احترام حقيقى لسلفه، لاتخذهم أسوة له فى عمله، فحذا حذوهم، وسلك مسلكهم، وكلف نفسه بعض ما حملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين».

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٧.

«ثم هو إذا تعلم لا يجد صربًا على مشقة دعوة الناس إلى علم ما يعلم، وحملهم على عرفان ما يعرف، ولا جلدًا على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده، بل متى لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون».

«يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل، فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له، فينقطع عن الطلب، ويذهب فى الجهل كل مذهب، وكل هذا من ضعف الصبر».

«يبخل البخيل بماله، ويجهد نفسه فى جمعه وكنزه، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها، ولا ينفق درهمًا فى شىء منها، فيؤذى بذلك وطنه وملته، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته، ولو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر، ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله».

«يسرف المسرف فى الشهوات، ويتهتك المتهتك فى المنكرات، حتى ينفد المال، وتسوء الحال، ويستبدل الذل بالعز، والفقر بالغنى، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى، وضبط نفسه عن مواقع الردى، ولو صبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله، وأفسد حاله. . . وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل، وأبحث عن عللها الأولى لوجدتموها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده، ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعًا سوى الصبر، أفلا يكون جديرًا بعد هذا بأن يخص بالذكر؟»[١].

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلى الخير فيقول: «. . . يجب على العلماء ومن يتشبه بهم، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال، على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب عليهم فى ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق وأحوال النفس، وعلم الحس والوجدان، ونحو ذلك مما لا بد منه فى معرفة مداخل الباطل إلى القلوب، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق، وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة

---

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧ - ٨٩.

الدنيوية والأخروية، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير، فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم، ولا تنفعهم دعوى العجز؛ فإنهم ينفقون من أزمانهم فى القيل والقال، والبحث فى الألفاظ والأقوال، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار علم، وأعلام هدى ورشد، فليطلبوا العلم من سبله التى قام عليها السلف الصالح، والله كفيل أن يمدهم بمعونته، أما وقد انقطعوا إلى ما يعجزهم عن القيام بأمره، فلن يقبل الله لهم عذرًا، بل فليتربصوا حى يأتى أمر الله».

«لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان فى الأرض ويمسحها بالطول والعرض، وأن يتعلم اللغات الأجنبية، ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله، وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون، ولهم فى سلف الأمة من القرون الأولى إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة، وأفضل قدوة، وكل ما يهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هى وساس شيطان، يشغلهم بها عن النظر فى معانى القرآن، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن»[1].

ومثلاً عند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الانفطار ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ نراه يوضح معنى البر وما يكون به الإنسان من الأبرار، ثم يقول: «فلا يعد الشخص برًّا ولا بارًا حتى يكون للناس من كسبة ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات، ثم بصوم أيام معدودات، لا يجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط، ارتفع أو انحط؛ ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى أيدى الناس، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم؛ لا لشىء شوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل؛ وهم يجرون على سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل، فهؤلاء ليسوا من الأبرار، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار»[2].

---

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست: سور من خواتيم القرآن ص ٩٩، ١٠٠.

(١) تفسير جزء عم ص ٣٧.

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى أول فى سورة العاديات ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ نجده يقول: «. . . وكان فى هذه الآيات القارعات، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ (الأنفال: ٦٠) وفيما ورد فى الأحاديث التى لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقانًا، أفليس من أعجب العجب عندهم أن ترى أممًا هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية، إلى أن صار يشار إلى راكبيها بينهم بالهزء، والسخرية، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى؟ أليس أغرب ما يستغرب أن أناسًا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل، وأبعدهم عن صفات الرجولية، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم، وفوائدها فى علم الدين أن قال: «إذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم، كان علينا إذًا أن نعلمهم ركوب الخيل) يقول ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبة العلم، وهم يقولون: إن العلماء ورثة الأنبياء، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب؟ أنصف ثم احكم»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الماعون ﴿**. . . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾ نجده يقرر: «أن قوله ولا يحض على طعام المسكين، كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت الذى لا يستطيع له كسبًا. . .» ثم يقول: «وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين؛ ولم تجد ما تعطيه، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهى طريقة الجمعيات الخيرية، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية، وبنحو قوله تعالى فى الآيتين (١٧، ١٨) من سورة الفجر

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٢.

﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ونعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء، وسد شىء من حاجات المساكين...»[١].

ومن أجل هذه الروح التى تسيطر على الأستاذ الإمام فى تفسيره، نجد الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ يقول: «وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيما تطبيق القرآن على معارفهم»[٢].

تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث:

كذلك نجد الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحًا يقوم على أساس من نظريات العلم الحديث، وغرضه بذلك: أن يوفق بين معانى القرآن التى قد تبدو مستبعدة فى نظر بعض الناس، وبين ما عندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم، أو هى مسلمة بالفعل، وهو ـ وإن كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض نبيل ـ يخرج أحيانًا بمثل هذا الشرح والبيان عن مألوف العرب، وما عهد لديهم وقت نزول القرآن.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الانشقاق ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ نجده يقول: «انشقاق السماء، مثل انفطارها الذى مر تفسيره فى سورة إذا السماء انفطرت، وهو فساد تركيبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالم، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام، واختل نظامها حال ظهوره»[٣].

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه، إذ غرضه من ذلك تقريب معانى القرآن وما يخبر به من عقول الناس، بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم، ولكن هل لا بد فى فساد الكون من أن يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية؟ وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمر آخر غير ذلك؟ أليس الأولى بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن،

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢.
(٢) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٢.
(٣) تفسير جزء عم ص ٤٩.

ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلاً، ولا يريده على أنه أمر لا بد منه.

ومثلاً عندما يعرض لتفسير سورة الفيل، بعد أن ذكر ما قيل فى إرسال الطير على أبرهة، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة يقول: «وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة، أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فلله جند من كل شىء.

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد»(١)

وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته فى مبهمات القرآن فراح يخوض فى التفصيلات والجزئيات، ثم جوز أن تكون الطير هى ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هى جراثيم بعض الأمراض، وهذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التى اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربى إذا سمع لفظ الحجارة فى هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون.

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٥٨.

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة فى تفسيره للقرآن الكريم، فإنا نجده يغرق فى هذه الحرية ويتوسع فيها، إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف فى أفكاره، والغلو فى آرائه.

موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ**﴾ إلى آخر القصة، نجده يقول: «وذهب بعض المفسرين مذهبًا آخر فى فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص، نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكًا ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسم هذه المعانى القوى الطبيعية، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه، هو أن فى باطن الخلقة أمرًا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها، لا يمكن العاقل أن ينكره، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكًا، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسًا طبيعيًّا، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع، فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودًا لا يدرك كنهه، والذى لا يؤمن بالغيب يقول: لا أعرف الروح، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها، ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس، وكل يقر بوجود شىء غير ما يرى ويحس، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه؟ وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ـ وقد اعترف بما غيب عنه ـ لو قال: أصدق بغيب أعرف أثره، وإن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى، ويحظى بما يحظى به المؤمنون».

«يشعر كل من فكر فى نفسه، ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر، بأن فى نفسه تنازعًا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذلك يدفع، واحد يقول افعل، وآخر يقول لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا ونسميه قوة وفكرًا، وهى فى الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها، لا يبعد أن يسميه الله ملكًا، أو يسمى أسبابه ملائكة، أو ما شاء من الأسماء، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة، والسلطان النافذ والعلم الواسع»(١).

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك(٢): «فإذا صح الجرى على هذا التفسير، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض، ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصًا بنوع من أنواع المخلوقات، لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به، خلق بعد ذلك الإنسان، وأعطاه قوة يكون بها مستعدًا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له، والتصرف الذى لم يعط لغيره؛ خليفة الله فى أرضه، لأنه أكمل الموجودات فى الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة، عبر عنها بإبليس، وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزًا، وهى التى تميل بالمستعد للكمال، أو بالكامل إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم، أو تقطع سبيل البقاء، وتعود بالموجود إلى العناء، أو التى تعارض فى اتباع الحق، وتصد عن عمل الخير، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعدًا للوصول إليها... تلك القوة التى ضللت آثارها قومًا فزعموا أن فى العالم إلهًا يسمى إله الشر، وما هى بإله، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو».

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢٦٧، ١٦٨).

(٢) غالب ما ينسب للإمام فى هذا التفسير مروى بالمعنى عنه.

قال: «ولو أن أنفسنا مالت إلى قبول هذا التأويل، لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك، والعمدة على اطمئنان القلب، وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق»(١).

ثم يعود فى موضع آخر إلى تقرير التمثيل فى القصة فيقول: «وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه، التى بها قوامه ونظامه، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره، ويعطى استعداداً فى العلم والعمل لا حد لهما، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك، وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض، وانتفاعه به فى استعمارها، وعرض الأسماء على الملائكة، وسؤالهم عنها، وتنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له، ينتفع فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر، وإبطال داعية خواطر السوء، التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والإفساد فى الأرض، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى»(٢).

والذى ينظر فى هذا التأويل الذى جوزه الشيخ، وفى سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاورة ومقاولة، لا يسعه إلا أن يرده، وإن حاول قائله أن يروج له بجعله الأوامر التى وردت فى الآية من قبيل الأمر التكوينى لا الأمر التكليفى.

موقفه من السحر:

ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة فى فهم القرآن الكريم، أنا نجده يخالف رأى جمهور أهل السنة، ويذهب إلى ما ذهب إليه المعتزلة، من أن السحر لا حقيقة له، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق

(١) تفسير المنار (١/ ٢٦٩). (٢) تفسير المنار (١/ ٢٨١، ٢٨٢).

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ نجده بعد أن يفسر معنى النفث والعقد، يفسر المراد بالنفاثات فى الآية فيقول: «المراد بهم هنا هم النمامون، المقطعون لروابط الألفة، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم، وإنما جاءت العبارة كما فى الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه ـ مثلاً ـ فيما يوهمون به العامة، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها، ليكون ذلك حلا للعقد التى بين الزوجين، والنميمة تشبه أن تكون ضربًا من السحر؛ لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة، بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلل وجدان الصديقين، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته؛ ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق. . .»(١).

إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة:

ثم راح الشيخ ـ رحمه الله ـ يرد ما جاء من الروايات فى سحر الرسول ﷺ فقال: «وقد رووا هنا أحاديث فى أن النبى ﷺ سحره لبيد بن الأعصم، وأثر سحره فيه، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله، أو يأتى شيئًا وهو لا يأتيه، وأن الله أنبأه بذلك، وأخرجت مواد السحر من بئر، وعوفى ﷺ مما كان نزل به من ذلك، ونزلت هذه السورة، ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئًا وهو لا يفعله، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية، بل هو ماس بالعقل، آخذ بالروح، وهو مما يصدق قول المشركين فيه ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان: ٨) وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله، وخيل له أن شيئًا يقع وهو لا يقع، فيخيل إليه أنه يوحى إليه، ولا يوحى إليه، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها: إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من إنكار السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة، ونعوذ بالله، يحتج بالقرآن على ثبوت

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١.

السحر، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه ﷺ، وعده من افتراء المشركين عليه، ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك، مع أن الذى قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون: إن الشيطان يلابسه ﷺ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب إلى لبيد، فإنه خولط فى عقله وإدراكه فى زعمهم».

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته، وعدم الاعتقاد بما ينفيه، وقد جاء بنفى السحر عنه ﷺ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه، ووبخهم على زعمهم هذا، فإذًا هو ليس بمسحور قطعًا، وأما الحديث فعلى فرض صحته، هو آحاد، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين، ولا يجوز أن يؤخذ فيها الظن والمظنون، على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد، إنما يحصل الظن عند من صح عنده، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح، فلا تقوم به عليه حجة، وعلى أى حال، فلنا، بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث، ولا نحكمه فى عقيدتنا، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل، فإنه إذا خولط النبى فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئًا وهو لم يبلغه، أو أن شيئًا نزل عليه وهو لم ينزل عليه، والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان... إلخ»(١).

وهذا الحديث الذى يرده الأستاذ الإمام رواه البخارى وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة، وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة، فإن السحر الذى أصيب به ﷺ كان من قبيل الأمراض التى تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شىء من العقل، وقد قالوا: إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبى ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعًا من أنواع العقد عن النساء، وهو الذى يسمونه (رباطًا) فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه، فإذا ما همَّ بحاجته عجز عن ذلك، أما السحر الذى نفى عنه ﷺ فمراد به الجنون، وهو مخل - ولا شك - بمقام النبوة، وقد قالوا **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** (الحجر: ٦).

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١ - ١٩٢.

ثم إن الحديث رواية البخارى وغيره من كتب الصحيح، ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخارى وغيره فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخارى، كما أنه لو صح فى نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن، وهذا فى نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التى هى بالنسبة للكتاب فى منزلة المبين من المبين، وقد قالوا: إن البيان يلتحق بالمبين، وليس هذا الحديث وحده هو الذى يضعفه الشيخ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسى، فمن ذلك أيضًا حديث الشيخين (كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) فإنه قال فيه: (إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة)[1].

فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة، بجعل الحديث من باب التمثيل، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة، الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط.

وبعد... فهذا هو إنتاج الأستاذ الإمام فى التفسير، وهذا هو مسلكه ومنهجه فيه، ولعلى أكون قد أرضيت الحقيقة، ولم أتجن على الشيخ، أو أتهمه بما هو منه برىء.

* * *

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٩٠).

٢- السيد محمد رشيد رضا

ترجمة المؤلف[1]:

هو: محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين، بغدادى الأصل، حسينى النسب، ولد ونشأ فى القلمون فى بلاد الشام سنة ٢١٨٢هـ.. أحد دعاة الإصلاح، صاحب مجلة المنار. عالم بالحديث الشريف والأدب، رحل إلى مصر فى عام ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، بثَّ آراءَه الإصلاحية فى مجلته «المنار» حاول فيها التوفيق بين الإسلام والحياة العصرية، وكان يشارك فى النشاطات الوطنية فى بدء الاحتلال الفرنسى إذ ترأس المؤتمر السورى الذى دعا إلى حرية الوطن السورى ووحدته واستقلاله. وخلال وجوده فى سورية اعترض عليه أحد المقاومين للإصلاح فعاد إلى القاهرة، ومات فيها، وفيها دُفِن، وذلك سنة ١٣٥٤م.

مؤلفات رشيد رضا:

١ - الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية.
٢ - مجلة المنار: وهى المعلمة الإسلامية الكبرى، والكنز الذى احتوى ثمار تجاربه فى الإصلاح الدينى والسياسى.
٣ - تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر فى عصره.
٤ - الوحى المحمدى.
٥ - الوحدة الإسلامية.
٦ - يسر الإسلام وأصول التشريع العام.
٧ - الخلافة أو الإمامة العظمى.
٨ - السنة والشيعة.
٩ - مناسك الحج، أحكامه وحكمه.
١٠ - تفسير القرآن الكريم، المعروف بتفسير المنار.
١١ - حقيقة الربا.
١٢ - مساواة الرجل بالمرأة.
١٣ - رسالة فى حجة الإسلام الغزالى.
١٤ - المقصورة الرشيدية، وغيرها.

---

(١) أضفنا هذه الترجمة استكمالا للفائدة. (د/ مصطفى الذهبى).

كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الإمام:

نشأ السيد محمد رشيد رضا فى طرابلس الشام، وفيها تلقى العلم عن شيوخها وعلمائها، وجلس يفيدهم بعلمه، ويرشدهم بنصحه ووعظه، وفى هذه الأثناء وقع فى يده نسخة من جريدة العروة الوثقى، التى كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغانى، وتلميذه الشيخ محمد عبده، فقرأ الشيخ رشيد ما فى الجريدة، فأعجب بالرجلين إعجابًا شديدًا، ورغب فى الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى فلم يسعده الحظ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده، فأسعده الحظ فى هذه المرة، واتصل بالشيخ فى رجب سنة ١٣١٥هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه، أن يكتب تفسيرًا للقرآن على نهج ما كان يكتب فى جريدة العروة الوثقى، وبعد أخذ ورد بين الشيخين اقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروسًا فى التفسير بالجامع الأزهر، ولم يلبث إلا قليلاً حتى قام بإلقاء دروسه فى التفسير على طلابه ومريديه.

وكان الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ ألزم الناس لهذه الدروس، وأحرصهم على تلقيها وضبطها، فكان يكتب بعض ما يسمع، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك، ثم قام بنشر ما كتب على الناس فى مجلته (المنار) ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب، وتناول له بالتنقيح والتهذيب[١].

لهذا كله نستطيع أن نقول: إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ، وألف فى حياته وبعد وفاته؛ فكان لا يحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره، وليس غريبًا ما يرويه الشيخ رشيد من أن الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ كان يقول: (صاحب المنار ترجمان أفكارى)[٢] كما أنه ليس غريبًا ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيدًا بأنه (متحد معه فى العقيدة، والفكر، والرأى، والخلق، والعمل)[٣].

إنتاج الشيخ رشيد فى التفسير:

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال

(١) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار (١/ ١٠ – ١٥). (٢) جـ٢ ص ٤٩٨.

(٣) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم فى مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد ١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام.

مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجًا فى التفسير؛ وذلك أنه كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم، والمشهور بتفسير المنار. . . ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى: (١٠١) من سورة يوسف: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله.

هذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلدًا كبارًا، ينتهى المجلد الثانى عشر عند قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة يوسف: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي...**﴾ الآية.

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها فى كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله.

هذا. . . وقد فسر الشيخ من القصار: سورة الكوثر، والكافرون، والإخلاص، والمعوذتين، ولا نعرف له إنتاجًا فى التفسير أكثر من هذا، وهو إنتاج لا بأس به، وفيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه، فالمصادر هى المصادر، والهدف هو الهدف، والمنهج هو المنهج، والأفكار هى الأفكار، لا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر.

مصادره فى التفسير:

أما مصادره فى التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه، خصوصًا إذا تكررت الآيات فى موضوع واحد، وكان يستعين أيضًا بما صح عنده من بيان رسول الله ﷺ، وبما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، وبأساليب لغة العرب وسنن الله فى خلقه[1]، ومستعينًا بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم، وأقوال شيخه على الأخص، ويحدثنا بعض تلاميذه: «أنه كان لا يراجع ما يكتب فى التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه فى الآية، حذرًا من تأثير أقوال المفسرين على نفسه، وإذا آتاه الله فهمًا فى القرآن لم يسبق إليه أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكرًا، وقد يقصه على أهل بيته مغتبطًا مسرورًا»[1].

---

(١) انظر تفسير المنار جـ٦ ص ١٩٦.

هدفه من التفسير:

وأما هدفه فى التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو «فهم الكاتب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة»(١) فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك فى كثير من مواضع كتابه، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلى من حشروا فى التفسير من قواعد العلوم، ومسائل الفنون، وموضوعات الحديث، وخرافات الإسرائيليات، ما يصرف الناس عن هداية القرآن، يقول: «إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة، المنزلة فى وصفه، وما أنزل لأجله، من الإنذار، والتبشير، والهداية، والإصلاح»(٢).

يريد أنه سيعمل تفسيره على هذا النمط ليسد حاجة الناس، ويقول فى موضع آخر: «إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن، وطرق الاهتداء به فى هذا الزمان»(٣).

منهجه فى التفسير:

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام، فلا تقيد بأقوال المفسرين، ولا تحكم للعقيدة فى نص القرآن، ولا خوض فى إسرائيليات، ولا تعيين لمبهمات، ولا تعلق بأحاديث موضوعة، ولا حشد لمباحث الفنون، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم، بل شرح للآيات بأسلوب رائع، وكشف عن المعانى بعبارة سهلة مقبولة، وتوضيح لمشكلات القرآن، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات، وبيان لهدايته، ودلالة إلى عظيم إرشاده، وتوقيف على حكم تشريعه، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه، وبيان لسنن الله فى خليقته.

ولكنا نجد الشيخ رشيد ـ رحمه الله ـ يحيد عن هذا المنهج بعض الشىء، وذلك بعد وفاة شيخه، واستقلاله بالعمل، ويحدثنا هو بذلك فيقول:

---

(١) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد فى مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٣٥٤هـ.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٠).

«وإننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته، خالفت منهجه ـ رحمه الله تعالى ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها، أو فى حكمها، وفى تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة، أو بحل بعض المشكلات التى أعيا حلها، بما يطمئن به القلب، وتسكن إليه النفس»(١).

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذى كان من الشيخ رشيد خصوصًا فى المسائل الاجتماعية، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلاً (صحفيّا) اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازعهم ومشاربهم، وفيهم المتدين، والملحد، والكافر، فأردا أن يتمشى بكتابته مع الجميع، فيثبت المتدين على دينه، ويرد الملحد عن إلحاده، ويكشف عن محاسن الإسلام؛ لعل الكافر أن يثوب إلى رشده ويرجع عن كفره(٢).

آراؤه فى التفسير:

أما آراؤه فى التفسير فهى كآراء شيخه، تقوم على حرية واسعة فى الرأى واعتداد عظيم بالفهم، وثقة قوية بما عنده من العلم، وعدم تقيد ببعض المسلمات عند العلماء؛ ولهذا نجد له أفكاراً غريبة فى تفسير القرآن استقل ببعض منها، وقلد شيخه فى بعضها الآخر.

رأيه فى أصحاب الكبائر:

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة فى شأن المرابين: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ نجده يخالف أهل السنة، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التى فى درجة أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد فى النار، ولا يخرج منها أبدًا فيقول: «أى ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا

---

(١) تفسير المنار (١/ ١٦).

(٢) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه فى التفسير تباعًا بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب فى كتاب واحد وهو تفسيره المتداول بين أهل العلم.

المحرم بعد تحريمه، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم، الذى لا ينهاهم إلا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه، فيكونون فيها خالدين».

«وقد أول الخلود المفسرون، لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد والفقه من كون المعاصى لا توجب الخلود فى النار، فقال أكثرهم: إن المراد: ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقادًا، ورده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا، وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرًا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل».

«والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء، يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه، ولا يجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد، وليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال، ومن العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار، انتصارًا لأصحابه الأشاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث، أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانًا يعصم صاحبه من الخلود فى النار، الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذى نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه، وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة فى العقل بالبرهان مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعًا لسلطانها فى كل حال إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان، وليس الربا من المعاصى التى تنسى، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها فى غمرة النسيان كالغيبة والنظرة، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود فى سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدًا، إيثارًا لحب المال واللذة، عن دين الله وما فيه من الحكم والمصالح، وأما الإيمان الأول: فهو صورى فقط، فلا قيمة له عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال،

كما ورد فى الحديث والشواهد على هذا الذى قررناه فى كتاب الله تعالى كثيرة جدًّا، وهو مذهب السلف الصالح، وإن جهله كثير مما يدعون اتباع السنة حتى جرأوا الناس على هدم الدين، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم، كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال: إننى لا أنكر أننى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد، وبأنه يرضى أن يكون محاربًا لله ولرسوله، وظالمًا لنفسه وللناس، كما سيأتى فى آية أخرى، فهل يعترف بالملزوم؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان»[1].

تقليده لشيخه فى قصة آدم:

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه فى موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول:

«وهذا التفصيل مبنى على كون الأمر بالسجود للتكليف، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه، وبين إبليس، وأما على القول بأن الأمر للتكوين، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين، فالمعنى: أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التى عليها مدار نظامها كما قال: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ (النازعات: ٥) مسخرة لآدم وذريته، إذ خلق الله هذا النوع مستعدًّا للانتفاع بها كلها، بعلمه بسنن الله تعالى فيها، وبعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء، والهواء والكهرباء، والنور، والأرض: معادنها، ونباتها، وحيوانها، وإظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها، ومستعدًّا لاصطفاء الله بعض أفراده، واختصاصهم بوحيه ورسالته، وإقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه، وقد أشير إلى ذلك فى الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمردًا على الإنسان، بل عدوًّا

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٩٨، ٩٩) وراجع أيضًا ما كتبه عن قتل العمد (٥/ ٣٣٩ - ٣٤٥).

له، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله وإقامة سننه فى صلاح الخلق، وبين روح الجن الذى يغلب على شرارهم - وهم الشياطين - التمرد والعصيان، وقد أعطى الإنسان إرادة واختيارًا من ربه فى ترجيح ما به يصعد إلى أفق الملائكة، وما به يهبط إلى أفق الشياطين»(١).

تذرعه بالمجاز والتشبيه:

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها، ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه، وذلك فيما يبدو مستبعدًا ومستغربًا لو أجرى على حقيقته، وهذا المسلك الذى جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه، ومسلك الزمخشرى وغيره من المعتزلة، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التى يصرح بها القرآن، ولا تعجز عنها قدرة الله، وإن بعدت عن منال البشر.

فمثلاً نجد صاحب المنار عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٧) من سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا**﴾ الآية، نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو: «آمنوا بما نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها فى كيد الإسلام، ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء، بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذى جاء به الأنبياء، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والمعرفة والقوة، فهذا ما نفسرها به، على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين... ثم سرد بعض أقوال المفسرين فى هذه الآية، ثم بين أن ما اختاره هو رأى شيخه الذى مال إليه فى دروسه» (٢).

رأيه فى السحر:

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضربًا من التمويه والخداع، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول المعتزلة من قبله؛ ولهذا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الأنعام: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾ نجده يقول: «والآية

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٣٢). (٢) تفسير المنار (٥/ ١٤٥، ١٤٦).

تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يرى ما لا حقيقة له فى صورة الحقائق. . . »[١].

وهذا ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ كما فعل شيخه، ولكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد عن النساء، وبين أن عذر من طعن فى الحديث هو أن هشامًا راوى الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل[٢].

رأيه فى الشياطين:

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط، ويقول: «كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان، أو ملوك الجان على بعض الناس، وقدرتهم على نفعهم وضرهم، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم»[٣].

رأيه فى الجن:

كما يرى أن الجن لا ترى للإنسان على أى حال من الأحوال، ويرجح أن من ادعى رؤية الجن فذلك وهْم منه وتخيل، ولا حقيقة له فى الخارج، أو لعله رأى حيوانًا غريبًا كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن[٤]، يقول هذا ثم يعرض فى (الهامش) لذكر حديث أبى هريرة رضي الله عنه فيمن كان يسرق تمر الصدقة، وإخبار النبى له بأنه شيطان - وهو فى البخارى - ولغيره من الأحاديث التى تدل على أن الإنسان يرى الجنى ويبصره، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات «والصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح. . . »[٥].

بل ونجده يزيد على ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعًا من الجن، وذلك حيث يقول عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ. . .﴾ الآية:

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٣١١).

(٢) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٢٩ - ١٣٤.

(٣) تفسير سورة الناس من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٤١.

(٤) انظر تفسير المنار (٧/ ٥١٦). (٥) المرجع السابق (هامش).

«. . . والمتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، وقد قلنا فى المنار غير مرة: إنه يصح أن يقال: إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالمكروبات، يصح أن تكون نوعًا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض»(١).

رأيه فى معجزات النبى ﷺ:

ولقد نجد صاحب المنار يذهب فى معجزات النبى ﷺ مذهبًا بعيدًا، فيقرر أنه لا معجزة للنبى ﷺ غير القرآن الكريم، وينكر بعض معجزاته الكونية، ويتأول ما يشهد لها من آيات، ويجحد صحة ما يقوم بإثباتها عن الأحاديث، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو فى نظره إكرام للنبى من ربه، وليس من قبيل المعجزة، أو الحجة على صدق دعوته.

يذهب إلى هذا ويستدل له بمثل قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ...﴾ الآية، وبمثل قوله ﷺ من رواية أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما: «ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة على مدعاه فيقول: «وقد يعارضه ـ يعنى الحديث السابق ـ آية انشقاق القمر مع ما ورد فى أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشًا سألوا النبى ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين، ولكن فى الأحاديث الواردة فى انشقاقه عللاً فى متنها وأسانيدها، وإشكالات علمية، وعقلية، وتاريخية، فصلناها فى المجلد الثلاثين من المنار، وبينا أن ما تدل عليه الآيات القرآنية، المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح فى حصر معجزة نبوته ﷺ فى القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضى إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال، هو الحق الذى لا ينهض لمعارضته شىء»(٢).

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٩٦).

(٢) تفسير المنار (١١/ ٢٣٣) وانظر الوحى المحمدى للمؤلف ص ٦٩، ٧٠ مطبعة المنار سنة ١٣٥٤هـ.

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه، فإنه قد تخلص فى موضع آخر من معارضة الآية، حيث فسر انشقاق القمر بظهور الحجة[(١)]!.

رأيه فى مسائل من الفقه:

كذلك نجد صاحب المنار يعطى نفسه حرية واسعة فى استنباط الأحكام من القرآن الكريم، مما يجعله يخالف جمهور الفقهاء، ويسفههم فيما ذهبوا إليه وإذا أردت مثالاً لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾ فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث «لا وصية لوارث» الذى جنح الشافعى فى الأم إلى أن متنه متواتر[(٢)]، فراح ـ رحمه الله ـ يؤكد بكل ما يملك من حجة: أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باق لم ينسخ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور، ولا أطيل بذكر ما قال فى هذا الموضوع، ويكفى أن أقول لك: إنه أنهى البحث فى هذه المسألة بقوله: (وصفوة القول: أن الآية غير منسوخة بآية المواريث؛ لأنها لا تعارضها، بل تؤيدها، ولا دليل على أنها بعدها، ولا بالحديث، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب، فهى محكمة، وحكمها باق، ولك أن تجعله خاصّاً بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روى عن بعض الصحابة، وأن تجعله على إطلاقه، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر، ولا سيما بعدما أكده بقوله: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾)[(٣)].

وإن أردت مثالاً آخر فارجع إلى ما ذهب إليه فى آية التيمم من سورة النساء، فسترى أنه يقرر: أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافراً، ويخالف بذلك جملة الفقهاء، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء، كما ينكر على من

---

(١) انظر القول الفصل ص ١٦٣.

(٢) نيل الأوطار للشوكانى (٦/ ٤٠) المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧هـ.

(٣) تفسير المنار (١/ ١٤١).

استشكل الآية من المفسرين، ويقول فيما يقول: «سيقول أدعياء العلم من المقلدين، نعم... إن الآية واضحة المعنى، كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود الماء، وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين؟ وكيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه؟... ولنا أن نقول لمثل هؤلاء ـ وإن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له ـ وكيف يعقل أن يكون أبلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلاً مشكلاً؟ وأى الأمرين أولى بالترجيح؟ الطعن ببلاغة القرآن وبيانه، لحمله على كلام الفقهاء؟ أو تجويز الخطأ على الفقهاء؛ لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف، وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر، التى فيها قصر الصلاة وجمعها، وإباحة الفطر فى رمضان، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين»... إلى أن قال: «ألا إن من أعجب العجيب، غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرخصة الصريحة فى عبارة القرآن، التى هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر فى رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام...» ثم قال: «وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد، بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا فى بنائها على اشتراط فقد الماء، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه فى السفر، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث...»[(١)].

حملته على بعض المفسرين:

هذا... ولا يفوتنا أن نقول: إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانًا قدماء المفسرين، خصوصًا الفخر الرازى منهم، مع قسوة منه عليهم فى الكثير الغالب[(٢)].

---

(١) تفسير المنار (٥/ ١١٨ - ١٢٢).

(٢) انظر ما عقب به على الزمخشرى وغيره من المفسرين الذين فسروا الركون بالميل اليسير فى قوله تعالى فى الآية ١١٣ من سورة هود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ جـ١٢ ص ١٦٩ - ١٧٩.

حملته على البدع والخرافات:

كما أنه كان كثير الاستطراد إلى تتبع بدع المسلمين، والكشف عن عوارها والإرشاد إلى علاجها، مع تشدد وتعسف منه فى كثير من الأحيان.

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء فى التوراة والإنجيل:

كذلك لا يفوتنا أن ننبه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات فى تفاسيرهم، ويتخذون منها شروحًا لكتاب الله، يخوض هو أيضًا فيما هو من هذا القبيل، ويتخذ منه شروحًا لكتاب الله، وذلك أنه كثيرًا ما ينقل عن الكتاب المقدس أخبارًا وآثارًا يفسر بها بعض مهمات القرآن أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين[1]، وكان الأجدر بهذا المفسر الذى يشدد النكير على عشاق الإسرائيليات، أن يكف هو أيضا عن النقل عن كتب أهل الكتاب، خصوصًا وهو يعترف أنه قد تطرق إليه التحريف والتبديل.

دفاعه عن الإسلام:

وأخيرًا فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل وقد استعمل فى ذلك لسانه وقلمه، وضمنه مجلته وتفسيره، وتلك مزية للرجل يحمد عليها، ولا ننسى ما له من أفكار جريئة ومتطرفة.



(١) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه (٢/ ٤٨٢، ٤٨٣) واستشهاده على ما فسر به استجابة الله لدعاء موسى وهارون، حيث قالا كما جاء فى الآيتين (٨٨، ٨٩) من سورة يونس: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بما جاء فى سفر الخروج (١١/ ٤٧٤).

٣- الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى

ترجمة المراغى[(١)]:

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى (٩ فبراير ١٨٨١م) فى بلدة المراغة بمحافظة سوهاج، التحق بالأزهر الشريف بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم بكتاب قريته، وتلقى العلم على يد كبار العلماء والمشايخ، واتصل بالإمام محمد عبده، وانتفع بدروسه فى التاريخ والاجتماع والسياسة، وتوثقت صلته به، وسار على نهجه فى الإصلاح والتجديد فيما بعد.

كما تلقى العلم على يد الشيخ دسوقى العربى، ومحمد حسنين العدوى، ومحمد نجيب المطيعى، وغيرهم.

تخرج الإمام المراغى من الأزهر بعد حصوله على الشهادة العالمية عام (١٢٣٢هـ/ ١٩٠٤م) وكان ترتيبه الأول على زملائه، وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، وهى سن مبكرة بالنسبة لعلماء الأزهر فى ذلك الوقت.

وفى سنة التخرج اختاره أستاذه الشيخ محمد عبده ليعمل قاضيا فى مدينة دنقلة بالسودان، واستمر الشيخ المراغى فى وظيفته تلك لمدة ثلاث سنوات فقط حتى عام ١٩٠٦م، حيث قدَّم استقالته من عمله بسبب خلافه المستمر مع الحاكم العسكرى الإنكليزى للسودان، وعاد لمصر ليتدرج فى مناصب القضاء حتى تولى رئاسة المحكمة الشرعية العليا عام ١٩٢٣م.

وفى عام ١٩٢٨م ثم تعيينه شيخًا للأزهر وهو فى السابعة والأربعين من عمره، وكان معنيًا بإصلاح الأزهر، ولكنه لما وجد أن هناك عقبات كثيرة تحول بينه وبين ذلك استقال من منصبه فى أكتوبر ١٩٢٩م.

وفى أبريل ١٩٣٥م أعيد تعيين الشيخ المراغى شيخًا للأزهر مرة أخرى بعد المظاهرات الكبيرة التى قام بها طلاب الأزهر وعلماؤه للمطالبة بعودة الإمام المراغى للأزهر لتحقيق ما نادى به من إصلاح.

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من الفتح المبين فى طبقات الأصوليين (٣/ ١٩٤ - ١٩٨).

(د/ مصطفى الذهبى)

وظل الشيخ المراغى فى منصبه شيخًا للأزهر لمدة عشر سنوات إلى أن توفى فى ١٧ أغسطس ١٩٤٥م.

هذا . . . ولم يترك الشيخ المراغى من المؤلفات سوى مقتطفات من تفسير القرآن، وهى التى تكلم عنها الوالد.

الأستاذ المراغى فى مدرسة الشيخ محمد عبده:

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلاً تأثر بروح الأستاذ الإمام، ونهج على طريقته من التجديد واطراح التقليد، والعمل على تنقية الإسلام من الشوائب التى ألصقت به، وتنبيه الغافلين عن هديه وإرشاده، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه رحمة الله ورضوانه.

تربى هذا الرجل فى مدرسة الأستاذ الأمام، وتخرج منها وهو يحمل بين جنبيه قلبًا مليئًا بالرغبة فى الإصلاح، والثورة على كل ما يقف فى سبيل الإسلام والمسلمين.

هذا القلب الفتى، العامر بما فيه من حب للخير ورغبة فى الإصلاح، دفع بالرجل إلى ميدان الحياة الاجتماعية، وترقى به فى مراتب المناصب الدينية وأخيراً وقف به عند الغاية، فإذا بالرجل شيخًا للأزهر، وإذا بروح الإصلاح والتجديد تتدفق من فوق منبره، وعلى قلوب طلابه وغير طلابه، ثم تنساب جارفة إلى نواح من الحياة مختلفة، فتعمل فيها عمل السحر، والحياة والنور.

لم يلازم الشيخ المراغى أستاذه الإمام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد ولم يجلس إليه كثيراً مثل ما جلس، ولكنه كان على رغم ذلك أعمق أثرًا وأكثر تحقيقًا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الإصلاح وصنوف التجديد، والسر فى ذلك ـ كما يظهر لنا ـ هو تقلب الشيخ فى مختلف المناصب الدينية الكبيرة، ثم ما كان فيه من جاذبية وقدرة على استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه، مما أجلس بين يديه الملك، والأمير، والوزير، والشيخ الكبير والطالب الصغير، ورجل الشارع.

جلس هؤلاء جميعًا يستمعون إليه ويأخذون عنه، فكان الميدان فسيحًا أمام الشيخ، يلقى فيه بآرائه وأفكاره، فتجد الدعوة قبولاً من مستمعيه، ورواجًا عند مريديه. . . ثم لا تلبث أن تنتشر فتعم كل شىء.

وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذى شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية، وجعل فيه

خيرها وسعادتها فى الدنيا والآخرة، فلم لا يكون هو الباب الذى يصل منه الشيخ إلى ما يرجوه من خير؛ وما يهدف إليه من إصلاح.

إنتاجه فى التفسير:

طرق الشيخ هذا الباب، فعقد دروسًا دينية فى تفسير القرآن الكريم، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك إلى رجل الشارع كما قلت، وأذيعت هذه الدروس أيضًا فى كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام وأخيرًا طبعت هذه الدروس، ووزعت على الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها.

لم تكن هذه الدروس على شىء من الكثرة، ولم يكن مقدار ما تناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير، الذى كنا نرغب ونطمع فى أن تزود به المكتبة الإسلامية.

نعم... لم تتناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقدارًا قليلاً، وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثر من شرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾ إلى قوله ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٣٣ - ١٣٨) من سورة آل عمران ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ...﴾ إلى قوله ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (١٣، ١٤) من سورة الشورى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا...﴾ إلى قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾[٣].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٥١ - ١٥٣) من سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيرى بالإسكندرية فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٢) ألقى هذا المسجد بمسجد الحسين بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٣) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان أبى العلاء بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٤) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان الحنفى بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٨٣ - ١٨٦) من سورة البقرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...﴾ إلى قوله ﴿... وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[١].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٢٤ - ٢٩) من سورة الأنفال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢].

وشرحه لسورة الحجرات[٣]، وشرحه لسورة الحديد[٤]، وشرحه لسورة لقمان[٥].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٦٠ - ١٦٥) من سور الأنعام ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا...﴾ إلى آخر السورة[٦].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٩٩ - ٢٠٦) من سورة الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ إلى آخر السورة[٧].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٣٠ - ٣٤) من سورة فصلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...﴾ إلى قوله ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٨].

وشرحه لأوائل سورة الأعراف إلى قوله فى الآية (٩) ﴿... وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٩].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١١٢ - ١٢٣) من سورة هود ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ...﴾ إلى آخر السورة[١٠].

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد السيدة زينب بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٢) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيرى بالإسكندرية فى رمضان سنة ١٣٥٦هـ.
(٣) فى دروس ثلاثة فى شهر رمضان سنة ١٣٥٨هـ.
(٤، ٥) ألقى تفسير هذه السورة فى رمضان سنة ١٣٥٩، ١٣٦٠هـ.
(٦، ٧) ألقى تفسيرها فى رمضان سنة ١٣٦١هـ.
(٨) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦١هـ.
(٩) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢هـ.
(١٠) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢هـ.

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (٥٨، ٥٩) من سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ إلى قوله ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[1].

وشرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الرعد ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾ إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾[2].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٨٣ - ٨٨) من سورة القصص ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ..﴾ إلى آخر السورة[3].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١ - ١٠) من سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ...﴾ إلى قوله ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾[4].

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٦٣ - ٧٧) من سورة الفرقان أيضًا ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا...﴾ إلى قوله ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[5].

وشرحه لسورة العصر[6].

وشرحه لسورة الملك[7].

هذا هو كل ما للأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ من إنتاج فى التفسير، وهو على قلته عمل كبير وعظيم، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح، وما يحمل فى طياته من توجيه حسن فى التفسير.

وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثير من المسلمين إلى القرآن، بعد أن أعرضوا عن هديه، وضلوا عن إرشاده، وتلك حسنة نرجو له برها وذخرها عند الله.

---

(١) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٢) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ.

(٣) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٣هـ ـ وقد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن قصة قارون مع قومه وبيِّن موضع العبرة فيها.

(٤) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠هـ.

(٥) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلبمين سنة ١٣٥٩هـ.

(٦) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلبمين سنة ١٣٦١هـ.

(٧) وهو آخر دروسه فى التفسير رحمه الله، إذ توفى فى رمضان سنة ١٣٦٤هـ ولم يقع لنا تفسير هذه السورة، وقد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها على ما سمعته بنفسى من دروسه فى تفسيرها.

منهجه فى التفسير:

يتتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر فى التفسير، ويستقصى ما عرض له من آيات القرآن الكريم، فيلحظ أن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته، وما تظهر فيه وسائل هداية البشر، ومواضع العظة والعبرة، كما يلحظ أيضًا أنه وجه جانبًا كبيرًا من عنايته إلى الآيات التى يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربى؛ ليظهر للناس أن القرآن لا يقف فى سبيل العلم، ولا يصادم ما صح من قواعده ونظرياته، وذلك بما يهديه الله إليه من الدقة فى التوفيق بين قضايا القرآن، وقضايا العلم الحديث. . . دقة لا يبلغ شأوها، ولا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه، وكد فهمه فى هذا السبيل.

مصادره فى التفسير:

وأعتقد أن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان يستند فى تحضير دروسه على كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات فى موضوع واحد، لعل ما أجمل فى موضع فسر فى موضع آخر، وما أبهم فى آية بين فى آية أخرى، وكان يستند أيضًا إلى ما صح من بيان رسول الله ﷺ ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ثم على أساليب اللغة وسنن الله فى الكون، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين، ولكنه لم يلغ عقله فى هذا كله، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره، ويعرض ما فيها على قلبه وعقله، فما أعجبه منها أقره، وما لم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه.

لم نسمع عن الأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولاً فيما كتبه المفسرون، ولم يبلغنا عنه أنه ادعى لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأوائل فى التنسير، بل على العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل للأقدمين، ولا ينسى ما كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود، وذلك حيث يقول عن تفسيره: «ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين، وزهرات من رياضهم»[1].

لم يتحامل الشيخ ـ رحمه الله ـ على المفسرين كما تحامل غيره، ولم يرم فى وجوههم بالعبارات القاذعة اللاذعة، بل كان عفًا فى نقده، نزيهًا فى عبارته، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء، وبخاصة مع أسلافهم ومتقدميهم.

---

(١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد.

موقفه من مبهمات القرآن:

هذا، وإن الأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ قد نهج فى تفسيره منهج شيخه، فوجدناه لا يخوض فى مبهمات القرآن بالتفصيل، ولا يدخل فى جزئيات سكت عنها القرآن، وأعرض عنها الرسول ﷺ، فلا الروايات الموضوعة أو الضعيفة بكافية عنده حتى يزج بها فى تفسيره، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه حتى يجعل منها شروحًا لما أجمله وسكت عن تفصيله، فلهذا نراه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ نجده يقول بعد أن ينتهى من تفسير الآية ما نصه: «والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن، لأن الفعل الماضى يفهم هذا، غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ**﴾ (الزمر: ٦٨) فلا يدل على خلقها الآن، والبحث فى هذا لا فائدة له، ولا طائل تحته»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٣) من سورة البقرة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...**﴾ الآية، وجدناه يقول: «... ونحن لا نعلم ما هو الذى فرضه الله على الأمم السابقة من قبل، أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس؟ أم غيره؟ وليس لنا ما يهدينا إلى شىء معين من دليل يطمئن إليه القلب، والتشبيه لا يدل على المماثلة فى كل شىء، فنحن نؤمن بأن صومًا فرض على الأمم السابقة، لا نعلم مقداره ولا كيفيته، ولا يزال الصوم معروفًا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة...»(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة لقمان ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...**﴾ الآية، وجدناه يقول ما نصه: «اختلف الناس فى لقمان هذا من هو؟ ومن أى الأمم هو؟ فقيل: إنه من بنى إسرائيل، وقيل: إنه كان عبدًا حبشيًا، وقيل: إنه أسود من سودان مصر، وقيل: إنه يونانى، ومن الناس من جعله نجارًا، ومنهم من جعله راعى غنم، ومنهم من قال: إنه نبى، ومنهم من قال: إنه حكيم، وكل

---

(١) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦هـ، مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨.
(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ ص ٦، مطبعة الأزهر سنة ١٩٣٩.

هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، وبعد أنه وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيًا مملوكًا»[١].

عنايته بإظهار أسرار التشريع:

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم فى تفسيره اهتمامًا كبيرًا بإظهار سر التشريع الإسلامى، وحكمة التكليف الإلهى؛ ليظهر محاسن الإسلام، ويكشف عن هدايته للناس.

فمثلاً عندما تعرض لآيات الصوم فى سورة البقرة، نجده يفيض فى سر الصوم وحكمته فيقول: «الصيام أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام، وهو رياضة بدنية، وتهذيب خلقى، وتطهير روحى؛ ذلك أن الاسترسال فى الشهوات، والانغماس فى اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهى، يعوقها عن تلقى الإلهام وعن لذة الاتصال، ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلى الصوم، كلما أحسوا بعدًا عن الذات الإلهية، وانزعج خاطرهم شوقًا إلى القرب منها».

«وفى الصبر على الحرمان من اللذات التى تنازع إليها النفس، وتقتضيها الطبيعة، تربية للإرادة، وتقوية على المضى فى العزم، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود؛ لما فيها من المشقات، وفى تقوية الإرادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكاليف الإلهية بالقبول والطمأنينة، وتثبيت لملكة المراقبة والخوف من الله، وتقوية لخلق الحياة، وفى هذا كل الخير، وبه تتحقق تقوى الله، وتستعد النفس للسخاء، والبذل والتضحية، إذا دعى الداعى، وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم، وبين كرامهم وأنذالهم».

«وليس يخفى أن كل شىء فى هذه الحياة ممكن، الفقر بعد الغنى، والمرض بعد الصحة، والذلة بعد العز، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها، وتغلب الأعداء بعد الغلب عليهم وقهرهم... وما إلى ذلك مما هو بسبيل أن يعرض للإنسان، وعروض هذه الأشياء على نفس مدللة، وجسم مترف، ينام بقدر، ويأكل بقدر، ويمرح فى اللذات بين الأهل والعشيرة، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتمالها، أو يسوق إليه الجزع ويورثه اليأس».

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٨ مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢م.

«لذلك كله اقتضت حكمة الحكيم العليم، أن يجعل من العبادات ما يروض الأجسام ويهذب الأخلاق، ويطهر الأرواح ويزكيها.. وكان من هذه العبادات الصوم».

«وكما عنى الإسلام بتزكية الأرواح وتهذيب الأخلاق، فقد عنى بتربية الأجسام، وحرم كل ما هو ضار بها، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد؛ ذلك أن الإسلام يريد رجلاً عاملاً فى الحياة، مهذب الأخلاق، طاهر الأعراق، قويًا لا يهاب الموت، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن، ويذود عن العشيرة، ويريد رجلاً رحيمًا حسن المعاشرة، سلس القياد لأهله، وعشيرته، وبنى وطنه، يريد رجلاً لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه... إلخ»[1].

معالجته للمشاكل الاجتماعية:

كذلك نجد الشيخ المراغى ـ رحمه الله ـ يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط فى دول الإسلام، فيعالج كل ذلك بما يفيضه الله على قلبه وعقله ولسانه، من هداية القرآن وإرشاده.

ولقد كان الأستاذ ـ رحمه الله ـ بصيرًا بمواطن الداء، وأسباب الشفاء، فكان يهدف فى دروسه إلى علاجها واستئصالها، وكان كثيرًا ما يوجه الخطاب إلى أرباب الحل والعقد فى الدولة ـ وهم غالبية المستمعين له ـ ويلفت أنظارهم إلى ما فى أعناقهم من أمانات، وما عليهم من تبعات، ثم يأخذ بيدهم إلى حيث يكون صلاحهم، وصلاح من تحت إمرتهم ورعايتهم... يدفعه فى هذا كله إخلاصه لربه، ولوطنه، ولأمته...

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا...﴾ الآية، نجده يقول: «... والحكمة فى هذه الشرائع الإلهية: أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة، وكان أشقى من أنواع الحيوان، وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه، فقد دلت التجارب على أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهى يذهب مذاهب شتى، منها الصواب ومنها الضلال، وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه، وهذه آراء العلماء فى الفلسفة والأخلاق، يشبه بعضها هذيان المحموم، وبعضها لا يدرك له محصل على

---

(١) الدروس الدينية لسنة ١٩٥٧ هـ ص ٦، ٧.

كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين، وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها، فلا بد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلى الحكيم، وقد دلت التجارب أيضًا على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به».

«وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة، فإنها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع، إلى مرض مزمن، ومس فقد الأهل والعشيرة، إلى فقد العزة والجاه، ومن شرف رفيع، إلى ذلة ومهانة... واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس فى طاقة الإنسان، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش، ويجعل المؤمن فى سعادة نفسية، ويقويه على احتمال الصعاب، وعلى الصبر على معاشرة الناس، فلا بد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما؛ فإن دائرة العقل محدودة، وهى قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل».

«وإذا قيل: إن التدين مقيد للحرية، ومانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوى والعزاء؟ فالجواب: أن الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث، ولم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان، وليست السعادة فى حرية البهائم، بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه، وقوام آداب الأمم وفضائلها، التى قامت عليها صروح المدنية الحقة مستند إلى الدين، وبعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين، وبناءها على أساس العقل والعلم، غير أنه لا شبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهما، وليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق، أو أية قاعدة علمية أخرى، ولكن من الميسور دائمًا أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين، فالذى يحاول العلماء: وهم وخيال»(١).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ نجده بعد أن يشرح الآية،

(١) الدروس الدينية لسنة ١٣٦٥ هـ ص ٣٤ - ٣٦.

ويذكر ما فى القرآن من هداية يقول: (هذا هو القرآن الذى سعد به المسلمون بحياة روحية هى المثال الأعلى للنفس الإنسانية، وبحياة جثمانية طاهرة بريئة، وبحياة علمية لا يزال ما بقى من نورها يستمتع به الناس، وهو موضع للعجب، ومثار للإكبار والإجلال».

«سعدوا به حقبة، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم، وصاروا فى حاجة إلى غيرهم فى كل مرافق الحياة، ووصل بهم الجهل إلى حد أن ظنوا أن كل ما عند غيرهم خير يجلب، وكل ما عندهم شر ينبذ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة... القدوة حتى فيما علم غيرهم شره وفساده، وحاولوا نبذه وطرحه، وقد أصبح المسلمون مثلاً سيئًا للإسلام، يحتج بهم عليه والدين منهم برىء».

«الدين يطلب رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، رجالاً باعوا أنفسهم، وأموالهم بأن لهم الجنة، رجالاً خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله فى الأرض، يعلمون سرها، ويسخرونه للخير ودفع الأذى، يدفعون عوادى الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفون للكرامة قدرها، وللعزة موضعها، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل، وأن الآخرة خير وأبقى»(١).

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة الحديد: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...**﴾ الآية وجدناه يقول بعدما شرح الآية: (ذكر الله ـ سبحانه ـ الكتاب والميزان والحديد وقرنها بعضها ببعض، فالكتاب: إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف، والميزان: إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام، والحديد: إشارة إلى ما يحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا «والله سبحانه ـ وهو العليم الحكيم ـ لا يضع للخلق من القوانين إلا ما فيه مصلحتهم وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع ما فيه، وغيرهم لا بد له من وازع، وهو سلطان الحاكم المشار

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧ هـ ص ١٥، ١٦.

إليه بالحديد، ولذلك وجدت التعاذير فى الإسلام، ووجدت الحدود، أما ترك الناس أحرارًا من غير وازع، فهو ضار بالمجتمع الإنسانى، وموجب للتراخى فى إقامة العدل واتباع القانون، جرب هذا فى العصور المختلفة، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه، وعلم أن الأمم التى لم تحط أخلاقها بوازع؛ انحدرت إلى الدرك الأسفل وأضلتها الشهوات، وقد كانت درة عمر سلكًا قويًا للنظام الإسلامى فلما رفعت ضعف ذلك الرباط»[(١)].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة لقمان ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...**﴾ الآية، نجده يقول: «... من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالاً وبرسالة محمد، ويعظمهما ويجلهما فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق؟ وتحد القاذف؟ ولم لا تحكم القرآن فى الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كتفيه وابتسم؛ أو زاد: إنها رجعية لا يحتملها تمدين العصر الحديث!!... أليس هذا استهزاءً بالآيات؟ واشتراءً للباطل؟ وضلالاً عن سبيل الله؟».

«هناك مقلدون للمذاهب فى العقائد والأحكام، إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبم، ولوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها؛ بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعًا للحق بغير علم؟».

«هناك مذاهب ابتدعت فى الدين للضلال والإضلال بسبب السياسة، وفسر مبتدعوها الآيات فى التأويل ليردوها إلى مذاهبهم المبتدعة وجاء أتباعهم فقلدوهم».

«أما المبتدعون فأمرهم واضح... اشتروا الضلالة بالهدى!!».

«وأما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا فى الآيات ويتدبروها عملاً بقوله سبحانه ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (النساء: ٥٩) فهم أيضًا اشتروا الضلالة بالهدى ولهم بعض العذر...»[(٢)].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الحجرات ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ**﴾ الآية، نجده يقول: «... وللتثبيت فى الأخبار فضيلة ليست

---

(١) تفسير سورة الحديد ص ٤٢، ٤٣.
(٢) تفسير سورة لقمان ص ٩، ١٠.

كثيرة عند الناس، وأكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبيتًا من الأخبار).

(وكثيراً ما يقع عدم التثبيت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر يجيئهم ذلك: من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم وهو مدخل للخطر عظيم).

(والذين هم فى أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية هم الذين بيدهم مقاليد الأمور؟ وبيدهم الضر والنفع، أما الذين لا يملكون ضرآ ولا نفعًا فحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء).

(والآية على العموم: أدب عظيم لا بد منه لتكميل النفس، وإعدادها لتعرف الحق والبعد عن مواطن الباطل...)[1].

توفيقه بين القرآن والعلم الحديث:

هذا، وإن الأستاذ المراغى ـ رحمه الله ـ كان مع اعتقاده أن القرآن قد أتى بأصول عامة، لكل ما يهم الإنسان معرفته والعلم به، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كى يفسرها تفسيراً علميّا يتفق مع نظريات العلم الحديث.

نعم... كره الشيخ هذا المسلك فى التفسير، وجهر بخطأ أصحاب المولعين به، وكرر هذا فى مواضع كثيرة، فكان مما قاله فى بعض المواضع من دروسه فى التفسير: (وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهامًا لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله)[2].

ولكن الأستاذ المراغى مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شىء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث، ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً على قدرة الله، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة.

كان الشيخ يرى هذا، ويعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم، فجهر به

---

(١) تفسير سورة الحجرات ص ١١.

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ ص ٤٢.

فى أحد دروسه فى التفسير فقال: «ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات، ومادته وأبعاده، وأقداره، وأوزانه؟ لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار»(١).

ثم وجدنا الأستاذ المراغى بعد هذا يشرح قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة لقمان ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ شرحًا يقوم على هذا المبدأ الذى ارتضاه فقال: «﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات؛ ونجوم وسدائم وهى مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة فى الفضاء، كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلهى ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها، فإذا قيل: إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهى قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول: إن لها عمدًا غير منظورة وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شىء مادى تعتمد عليه، وجب أن نقول: إنه لا عمد لها، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة فى الفضاء... ثم قال: قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءًا من السموات وانفصلت عنها وقرر الكتاب الكريم أن الله ﴿ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (فصلت: ١١) وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم وقد قال العلماء: إن حادثًا كونيًا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعًا كل قطعة منها صارت سيارًا من السيارات وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبتها والأرض واحدة من هذه السيارات فهى بنت الشمس، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات... فليست الأرض هى مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هى مركز هذه المجموعة والشمس وتوابعها قوى صغيرة فى العالم السماوى، وأين هى من الشعرى اليمانية التى قال الله سبحانه فيها: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴾ (النجم: ٤٩) فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣، ١٤.

الشمس (٢٦) مرة، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء، فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محل الشمس يومًا من الأيام، لانتهت الحياة فجأة؛ بغليان الأنهار، والمحيطات والقارات الجليدية، التى حول القطبين، وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق، فانظر إلى هذا البعد السحيق».

«وليست الشعرى اليمانية أكبر نجم فى السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة».

«وعظمة السماء ليست فى الشمس وتوابعها، كلا... إن عظمتها فى مدنها النجومية، فى أقدارها، وأوزانها وأضوائها، وأبعادها، على اختلاف أنواعها».

«وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليونًا من المرات، وهناك السدائم، وهى قريبة من الخلق أول الأمر، ثم يقف علم الإنسان، والله تعالى وحده الذى يعلم خلقه ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ **(الكهف: ٥١)**.

﴿**وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ أى خلق الجبال فى الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب، ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس، وعكوفها على الدوران حولها على بعد منها، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من الموراد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلفت الأرض، وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر، وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها فى الطبقات، حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها».

«والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها، وتوزعها، وتغير اتجاهها، وتكسر حدتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، والتى يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان، وتحفظها من أن تمور».

«فالجبال أولاً حبست النار فى جوف الأرض، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهى حافظة للأرض من الميدان الذى يجىء بأسباب من داخل الأرض، والذى يجىء بسبب العواصف والرياح...» وهكذا مشى الشيخ إلى آخر الآية(١).

حرية الرأى فى تفسيره:

ثم إن الشيخ المراغى - رحمه الله - كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة، ولا يقف عند مذهب مخصوص، ولا يقول برأى معين إلا إذا اقتنع به، وإلا فلا عليه أن يتركه إلى ما هو صواب فى نظره.

فمثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٤) من سورة البقرة: ﴿.... **فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**...﴾ نجده يقول بعد أن يذكر خلاف علماء الفقه فى السفر المبيح للفطر: «وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: أن رسول الله ﷺ كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال، وروى عن ابن أبى شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر فى الميل الواحد، وإذا نظرنا إلى أن نص القرآن مطلق، وأن كل ما رواه فى التخصيص أخبار آحاد، وأنهم لم يتفقوا فى التخصيص، جاز لنا أن نقول: إن السفر مطلقًا مبيح للفطر، وهذا رأى داود وغيره من الأئمة»(٢).

ومثلاً عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة لقمان: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ الآية، نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة فى الآية مراد به الكثرة يقول: «وعلى هذا يمكن أن يقال فى أبواب النار، أما الأبواب الثمانية للجنة، فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النار؛ لراحة أهلها، وزيادة العناية بهم».

(وكذلك يقال فى السموات السبع والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة، وتذكر السبعين للكثرة كذلك، ومنه ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ (التوبة: ٨٠) ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم فى السبعين، ولا فى

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣ - ١٥.

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ١١.

السبعة الآلاف، ونظيره ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة: ٣٢) يراد فى سلسلة طويلة هائلة، ولا يراد التقدير بهذا العدد» (١) والواقع أن هناك فرقًا بين ما ورد من نحو قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ..﴾ إلخ، وقوله: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ وبين ما ورد فى عدة أبواب الجنة والنار، وعدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر فى مقام التهويل، فلا يراد التحديد وإنما يراد الكثرة، بخلاف الثانى فإنه ليس كذلك.

ومثلاً نجد الأستاذ المراغى فى دروسه الأخيرة عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة الملك ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ...﴾ الآية، يشرح كون النجوم رجومًا للشياطين بما معناه: «أن ما فى السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيئات مخصوصة ونظام محكم، لتكون حججًا دامغة، وأدلة قوية على من يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده» سمعناه يقول ما هذا معناه، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون: (ألقمته حجرًا) يعنى أقمت عليه الحجة فلم يحر جوابًا، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن فى القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم، كقوله تعالى فى الآيات (٦ - ١٠) من سورة الصافات ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ وكقوله فى الآيتين (٨، ٩) من سورة الجن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه: «وهناك آيات أخرى فى هذا المقام، تبدو مخالفة لهذا المعنى، ولكن يمكن حملها عليه، وليس فى الوقت متسع لذلك، وسنعرض لها فى موضع غير هذا».

ولست أدرى كيف كان يستطيع الشيخ - رحمه الله - أن يحمل كل الآيات الواردة فى هذا الموضوع على المعنى الذى قاله حملاً صحيحًا، وهى كما ترى صريحة فى أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع، ثم منعوا من ذلك عند رسالة

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ٣٦.

محمد ﷺ، فمن حاول منهم استراق السمع ـ كما كانوا يفعلون من قبل ـ رمى بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد.

وخاتمة المطاف فى هذه الدروس التى ألقاها الأستاذ الأكبر فى التفسير: أنه كان منها ـ كما قيل ـ أمران عظيمان لهما خطرهما فى الحياة الدينية: كانت عاملاً قويًا فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الظاهر إلى الجانب الدينى، ولفت أنظارهم إلى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم، وأدب جم كريم، وإرشاد قيم مفيد فحببت إليهم الدين، وزينته فى قلوبهم، وهرعوا إليه يتعرفون حكمه، وأحكامه ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية، أساسها الدين والخلق الكريم.

وكانت هذه الدروس أيضًا: منار هدى وإرشاد، يلقى أشعته الوضاءة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن، فيضىء لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله، واستخلاص آدابه وأحكامه، خالصة مما جاورها من إسرائيليات وتأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، وشغلتهم فى تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه ومعناه، وكذلك صورت الدين لغير أهله الذين يتحسسون له عيبًا صورة لا تتفق وما له من جلال وجمال(١).

هذا... وإنا لنرجو للشيخ المراغى عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده فى التفسير وهو:

(أن يضعه الله سبحانه فى كفة الحسنات من ميزان أعماله، وأن يجعلها ضياء ونورًا يسعى بين يديه ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ (الحديد: ١٢)).

* * *

(١) مقدمة الشيخ شلتوت لتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغى.

رجـــاء واعتـــذار

وبعد . . . فـهذا ما يسره الله لى وأعـاننى عليه، ولعلى أكون وقـد طوفت بالقارئ الكريم فى نواح شتى من مناهـج التفسيـر، وأخذت بيده إلى حيث أطلعـته على ألوان مختلفـة منه، من مبدأ نزول القـرآن إلى عصرنا هذا، وكشـفت له عن طرائق القوم فى فهمهم لنصوص كتاب الله، وأريته كيف حاول كل ذى نحلة أن يقيم نحلته على أساس من القرآن، وكيف تحايل على فهم آياته، وتصرف فى تأويل عبارته، كل من حاول أن يجعل القرآن شاهدًا له، ودليلاً على ما يهدف إليه، من حق تبلج، أو باطل تلجلج . . . لعلى بعد هذا كله أكون قد أرضيت عشاق التفـسير خاصة، وأهل العلم عامة، وحققت رغبـة طالما ترددت فى صـدورهم، وقضيت حـاجة كـثيرًا مـا تطلعت لها نفـوسهم، واشرأبت إليها أعناقهم.

ولعلى بعـد ذلك أن لا أكون قـد أسـأمت القارئ الكريـم، من طول دعتنى إليـه ضرورة البحث، ودفعتنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء.

واعتقادى ـ رغم هذا الطول ـ أن فى هذا البحث تركيزًا كبيرًا، واختصارًا كثيرًا، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتابًا وحده، وكتابًا موسعًا مسهبًا.

وأرجـو أن يهيئ الله لى رشـدًا من أمرى، ومـتـسعًـا من وقتى، لأجـعل من هذا الكتاب كتـبًا متعددة، فـيها إسهاب أوسع مـن هذا الإسهاب، واستيـفاء أشمل من هذا الاستيفاء.

وحسـبى بهذا العـمل الذى يعتبـر باكورة عـملى فى التأليف أن أكـون قدمت إلى المكتبـة الإسلامية بحـثًا فيه جـدة وطرافة، وفيه مـتعة علميـة، ولذة روحية تستـهوى القارئ، وتستحوذ على مشاعره وحسه.

حسبى هذا، حسبى وأن أكون قد أرضـيت رغبتى العلمية؛ التى لم آل فى إرضائها جهدًا، ولـم أدخر فى إشباعها وسعًا، فإن رضى الناس بعد ذلك، فذلك من فضل الله، وإن كانت الأخـرى؛ فذلك هو جـهد المقل، وطاقـة الناشئ، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملاً فسيحًا، وكمالاً صريحًا.

هذا... ولا يفوتنى أن أعتذر إلى القارئ الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخـفى على فطانته، ولا تدق عن إدراكـه، فإن مر بهـا فرجـائى إليه أن يتلمس لهـا عذرًا، وأن يصـححهـا مشكورًا، وتلك شـيمـة الكرام أهل الخلق الطاهر والأدب الحميد، وأن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر:

فـإن رأوا زلـة طاروا بهـا فـــرحًـا

عنى ومـا وجدوا من صـالح دفنوا

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عـملى هذا خالصًا لوجهه، وأن ينفع به أناسًا أخلصوا قلوبهم لله، وأن ينفعنى به فى دنياى وآخرتى، وأن يحـقق لى به ما تصبو إليه نفسى، وتسمو إليه همتى... والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصـحابه وسلم، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

محمد حسين الذهبى

حدائق حلوان فى عصر الجمعة الموافق

١٩ من ربيع الثانى سنه ١٣٨١هـ.

الموافق: ٢٩ من سبتمر سنة ١٩٦١م.



فهرس الموضوعات

الموضــــــــوع الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصل الرابع

تفسير الصوفية

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصل الثامن

التفسير العلمى

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

انتهى بحمد الله تعالى

المراجـــــــع

كتب التفسير بالمأثور:

١- جامع البيان، فى تفسير القرآن: ابن جرير الطبرى، الأميرية ١٣٢٣هـ.

٢- بحر العلوم: أبو الليث السمرقندى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣).

٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أبو إسحاق الثعلبى، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١.

٤- معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغدادى، المنار ١٣٤٥هـ.

٥- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز: ابن عطية الأندلسى، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٠ و ٣٥٦.

٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: للحافظ عماد الدين ابن كثير، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦هـ.

٧- الجواهر الحسان: عبد الرحمن الثعالبى، طبع الجزائر ١٣٢٣هـ.

٨- الدر المنثور: جلال الدين السيوطى، الميمنية ١٣١٤هـ.

٩- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: أبو طاهر الفيروزابادى الأزهرية ١٣٤٤هـ.

كتب التفسير بالرأى المحمود:

١ - مفاتيح الغيب: الفخر الرازى، الأميرية ١٢٨٩هـ.

٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوى، دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ.

٣ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفى، السعادة ١٣٢٦هـ.

٤ - لباب التأويل فى معانى التنزيل: الخازن، التقدم ١٣٢١هـ.

٥ - البحر المحيط: أبو حيان، السعادة ١٣٢٨هـ.

٦ - تفسير الجلالين: الجلال المحلى والجلال السيوطى، دار إحياء الكتب ١٣٤٥هـ.

٧ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: النيسابورى، الأميرية ١٣٢٣هـ.

٨ - السراج المنير: الخطيب الشربينى، الأميرية ١٢٩٩هـ.

٩ - إرشاد العقل السليم: أبو السعود، المصرية ١٣٤٧هـ.

١٠- روح المعانى: الآلوسى، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة.

كتب تفسير المعتزلة:

١- تنزيه القرآن عن المطاعن: القاضى عبد الجبار، الجمالية ١٣٢٩هـ.

٢- أمالى الشريف المرتضى: الشريف المرتضى، السعادة ١٣٢٥هـ.

٣- الكشاف: الزمخشرى، مطبعة محمد مصطفى ١٣٠٨هـ.

كتب تفسير الإمامية الاثنى عشرية:

١- مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: عبد اللطيف الكازرانى، طبع العجم ١٣٠٣هـ.

٢- تفسير العسكرى: الحسن العسكرى، طبع تبريز ١٣١٤هـ.

٣- مجمع البيان: أبو على الطبرى، طبع طهران ١٣١٤هـ.

٤- الصافى: ملا محسن الكاشى، طبع فارس ١٢٤٤هـ.

٥- تفسير القرآن: السيد عبد الله العلوى، طبع طهران ١٣٥٢هـ.

٦- بيان السعادة: سلطان الخراسانى، طبع طهران ١٣١٤هـ.

كتب تفسير الزيدية:

١- فتح القدير: الشوكانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩هـ.

كتب تفسير الخوارج:

١- هميان الزاد إلى دار المعاد: محمد إسفيش، طبع زنجبار ١٣١٤هـ

تفاسير الصوفية:

١- تفسير القرآن الكريم: سهل التسترى، السعادة ١٩٠٨هـ.

٢- حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن السلمى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٣).

٣- عرائس البيان فى حقائق القرآن: أبو محمد روزبهان، طبع الهند ١٣١٥هـ.

٤- التأويلات النجمية: نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٦م.

٥- تفسير ابن عربى (تأويلات القاشانى): عبد الرزاق القاشانى، الأميرية ١٢٨٣هـ.

تفاسير الفقهاء:

١- أحكام القرآن (حنفى): الجصاص، البهية المصرية ١٣٤٧هـ.

٢- أحكام القرآن (شافعى): الكيا الهراسى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦.

٣- الإكليل فى استنباط التنزيل (شافعى): الجلال السيوطى، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت.

٤- أحكام القرآن (مالكى): أبو بكر بن العربى، السعادة ١٣٣١هـ.

٥- الجامع لأحكام القرآن (مالكى): القرطبى، دار الكتب ١٩٣٥ - ١٩٤٥م.

٦- كنز العرفان فى فقه القرآن (اثنا عشرى): مقداد السيورى، طبع تبريز ١٣١٤هـ.
٧- الثمرات اليانعة (زيدى): الفقيه يوسف الثلاثى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١)م.

كتب التفسير فى العصر الحديث:

١- الجواهر فى تفسير القرآن الحكيم: طنطاوى جوهرى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٠ - ١٣٥١هـ.
٢- الهداية والعرفان: أبو زيد الدمنهورى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩هـ.
٣- تفسير جزء (عم): الشيخ محمد عبده، مطبعة مصر ١٣٤١هـ.
٤- تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن: الشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا، المنار ١٣٥٣هـ.
٥- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): السيد محمد رشيد رضا، المنار ١٣٤٦هـ.
٦- الدروس الدينية: الشيخ محمد مصطفى المراغى، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ - ١٣٦٤هـ.

علوم القرآن:

١ - مقدمة التفسير: الراغب الأصفهانى، الجمالية ١٣٢٩هـ.
٢ - مقدمة فى أصول التفسير: ابن تيمية، الترقى بدمشق ١٩٣٩م.
٣ - جواهر القرآن: الغزالى، كردستان العلمية ١٣٢٩م.
٤ - الإتقان: الجلال السيوطى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٥م.
٥ - الفوز الكبير فى أصول التفسير: ولى الله الدهلوى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦هـ.
٦ - مبادئ التفسير: محمد الخضرى الدمياطى، النيل ١٣٢١هـ.
٧ - المدخل المنير: محمد حسنين مخلوف العدوى، مطبعة المعاهد ١٣٥١هـ.
٨ - التفصيل فى الفرق بين التفسير والتأويل: حامد العمادى، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٣٤٤٤ مجاميع.
٩ - التفسير ـ معالم حياته ـ منهجه اليوم: أمين الخولى، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤م.
١٠- المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم (جزء أول): جولد زيهر تعريب على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٤م.
١١- إعجاز القران: مصطفى صادق الرافعى، الاستقامة ١٩٤٠م.
١٢- منهج الفرقان: محمد أبو سلامة، مطبعة شبرا ١٩٣٨م.
١٣- مناهل العرفان: عبد العظيم الزرقانى، مطبعة شبرا ١٣٥٩هـ.

كتب الحديث وعلومه:

١ - صحيح البخارى: أبو عبد الله البخارى، الخيرية ١٣٢٠هـ.
٢ - صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، الأميرية ١٣٢٥هـ.
٣ - سنن الترمذى: أبو عيسى الترمذى، الأميرية ١٢٩٢هـ.
٤ - مسند الإمام أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، الميمنية ١٣١٣هـ.
٥ - نيل الأوطار: الشوكانى، العثمانية ١٣٥٧هـ.
٦ - فتح البارى شرح البخارى: ابن حجر العسقلانى، الخيرية ١٣١٩هـ.
٧ - إرشاد السارى شرح البخارى: القسطلانى، الأميرية ١٣٢٥هـ.
٨ - شرح صحيح مسلم: محيى الدين النووى، الأميرية ١٣٢٥هـ.
٩ - تأويل مختلف الحديث: ابن قتيبة، كردستان ١٣٢٦هـ.
١٠ - منهاج السنة: ابن تيمية، الأميرية ١٣٢٣هـ.
١١ - معرفة علوم الحديث: الحاكم النيسابورى، دار الكتب المصرية ١٩٣٧هـ.
١٢ - مقدمة ابن الصلاح: أبو عمر بن الصلاح، طبع الهند ١٣٥٧هـ.
١٣ - تدريب الراوى: الجلال السيوطى، الخيرية ١٣٠٧هـ.
١٤ - هدى السارى مقدمة فتح البارى: ابن حجر العسقلانى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧هـ.
١٥ - الأسلوب الحديث: أمين الشيخ، مطبعة شبرا ١٩٤٠م.

كتب اللغة:

١ - القاموس المحيط: مجد الدين الفيروزابادى، المصرية ١٩٣٥م.
٢ - تاج العروس شرح القاموس: السيد مرتضى الزبيدى، الخيرية ١٣٠٦هـ.
٣ - لسان العرب: ابن منظور، الأميرية ١٣٠٢هـ.
٤ - أساس البلاغة: الزمخشرى، الأميرية ١٣٢٧هـ.

كتب الفقه والأصول:

١ - فتاوى ابن تيمية: ابن تيمية، كردستان العلمية ١٣٢٩هـ.
٢ - أعلام الموقعين: ابن القيم، مطبعة فرج الله الكردى ١٣٢٥هـ.
٣ - الموافقات: أبو إسحاق الشاطبى، مطبعة المكتبة التجارية، الطبعة الأخيرة.
٤ - المستصفى: أبو حامد الغزالى، الأميرية ١٣٢٤هـ.
٥ - مسلم الثبوت وشرحه: محب الله عبد الشكور وعبد العلى الأنصارى، الأميرية ١٣٢٤هـ.
٦ - شرح التلويح: سعد الدين التفتازانى، دار الكتب العربية ١٣٢٧هـ.

٧- جمع الجوامع وشرحه: ابن السبكى، والجلال المحلى، الأزهرية ١٢٣١هـ.

كتب التاريخ والرجال:

١ - الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن على العسقلانى، الشرقية ١٩٠٧م.
٢ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة: ابن الأثير الجزرى، الوهبية ١٢٨٠هـ.
٣ - تهذيب التهذيب: ابن حجر العسقلانى طبع الهند ١٣٢٥هـ.
٤ - ميزان الاعتدال: الحافظ الذهبى، السعادة ١٣٢٥هـ.
٥ - لسان الميزان: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٣١هـ.
٦ - خلاصة تذهيب الكمال: صفى الدين الخزرجى، الخيرية ١٣٢٢هـ.
٧ - طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين السبكى، الحسينية الطبعة الأولى.
٨ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب: ابن فرحون السعادة ١٣٢٩هـ.
٩ - نيل الابتهاج: أحمد بابا التبنكى اسلعادة ١٣٢٩هـ.
١٠- الفوائد البهية فى تراجم الحنفية: محمد اللكنوى، السعادة ١٣٢٤هـ.
١١- الفهرست: ابن النديم: الرحمانية ١٣٤٨هـ.
١٢- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين السخاوى، مطبعة القدسى ١٣٥٥هـ.
١٣- شذرات الذهب: عبد الحى بن العماد، مطبعة القدسى، ١٣٥٠هـ.
١٤- مروج الذهب: أبو الحسن المسعودى، البهية ١٣٤٦هـ.
١٥- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون، الشرفية ١٣٢٧هـ.
١٦- طبقات المفسرين: الجلال السيوطى، طبع ليدن ١٨٣٩م.
١٧- طبقات المفسرين: الداودى، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة ١٦٨.
١٨- تهذيب الأسماء واللغات: محيى الدين النووى، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة.
١٩- وفيات الأعيان: ابن خلكان، الأميرية ١٢٩٩هـ.
٢٠- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتّبى، الأميرية ١٢٨٣هـ.
٢١- العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم: على بن لالى بالى، الميمنية ١٣١٠هـ.
٢٢- معجم الأدباء: ياقوت الحموى، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٦م.
٢٣- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلانى، طبع الهند ١٣٤٨هـ.
٢٤- روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الموسى، طبع فارس ١٣٠٧هـ.
٢٥- بغية الوعاة فى طبقات النحاة: الجلال السيوطى، السعادة ١٣٢٦هـ.

٢٦- أعيان الشيعة: السيد محمد الأمين الحسينى، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٢٥٣هـ.
٢٧- ترجمة الرجال المذكورة فى شرح الأزهار: أحمد بن عبد الله الجندارى التمدن ١٣٣٢هـ.
٢٨- تاريخ التشريع الإسلامى: محمد (بك) الخضرى مطبعة عيسى الحلبى ١٩٣٠م.
٢٩- مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى: السبكى، السايس، البربرى، وادى الملوك ١٩٣٦م.
٣٠- نظرة عامة فى تاريخ التشريع الإسلامى: على حسن عبد القادر، العلوم ١٩٤٢م.
٣١- تاريخ الجدل: محمد أبو زهرة، العلوم ١٩٣٤م.

كتب التوحيد والملل والنحل:

١ - الفرق بين الفرق: أبو منصور البغدادى، المعارف ١٣٢٨هـ.
٢ - التبصير فى الدين: أبو المظفر الإسفرايينى، الأنوار ١٩٤٠م.
٣ - شرح المواقف: السيد الشريف، السعادة ١٩٠٧م.
٤ - تبيين كذب المفترى: ابن عساكر، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ.
٥ - إيثار الحق على الخلق: أبو عبد الله اليمانى، الآداب ١٣١٨هـ.
٦ - شرح العقائد النسفية: سعد الدين التفتازانى، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٢١هـ.
٧ - الإكليل فى المتشابه والتنزيل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى: ابن تيمية العامرة الشرفية ١٣٢٣هـ.
٨ - الفصل: على بن حزم، الأدبية ١٣٢٠هـ.
٩ - الملل والنحل: محمد الشهرستانى، الأدبية ١٣٢٠هـ.
١٠- كشف أسرار الباطنية: محمد بن مالك اليمانى، الأنوار ١٣٥٧هـ.
١١- فضائح الباطنية: أبو حامد الغزالى، طبع ليدن ١٩١٦م.
١٢- تعريف الشيعة: عبد الرزاق الحسنى، العرفان ١٣٥٢هـ.
١٣- الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة: موسى جاد الله، الشرق ١٣٥٥هـ.
١٤- كتاب بهاء الله: بهاء الله، السعادة ١٩٢٠م.
١٥- رسائل أبى الفضائل: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٠م.
١٦- مفتاح باب الأبواب: ميرزا محمد مهدى خان المنار ١٣٢١هـ.
١٧- خطابات ومحادثات عبد البهاء: عبد البهاء عباس جمع ع ج س، السعادة ١٩٢٠م.
١٨- المبادئ البهائية: معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية رعمسيس ١٩٢١م.
١٩- الحجج البهية: أبو الفضائل الإيرانى، السعادة ١٩٢٥م.

٢٠- محاضرة عن البهائية: عبد العزيز نصحى، السلفية ١٣٥٢هـ.

كتب التصوف:

١- الفتوحات المكية: ابن عربى، دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ.
٢- الفصوص: بن عربى، الزمان ١٣٠٤هـ.
٣- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالى، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٥٦هـ.
٤- تلبيس إبليس: ابن الجوزى، النهضة ١٩٢٨م.

كتب الفلسفة:

١- رسائل إخوان الصفا: إخوان الصفا، الآداب ١٣٠٦هـ.
٢- فصوص الحكم: الفارابى، السعادة ١٩٠٧م.
٣- رسائل ابن سينا: أبو على بن سينا، مطبعة هندية ١٩٠٨م.
٤- جامع البدائع: ابن سينا، السعادة ١٩١٧م.
٥- تاريخ الفلسفة: الدكتور مدكور ـ يوسف كرم ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠م.

كتب المعلومات العامة:

١- الكتاب المقدس: المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٠م.
٢- شرح نهج البلاغة: ابن أبى الحديد، دار الكتب العربية ١٣٢٩هـ.
٣- الحيوان: الجاحظ، السعادة ١٣٢٥هـ.
٤- الكامل: المبرد، الخيرية ١٣٠٨هـ.
٥- كشف الظنون: ملا كاتب جلبى، دار الطباعة المصرية ١٢٧٤هـ.
٦- فجر الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥م.
٧- ضحى الإسلام: أحمد (بك) أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣م.
٨- رسائل الإصلاح: محمد الخضر حسين، مطبعة القدسى ١٣٥٨هـ.
٩- القول الفصل: شيخ الإسلام صبرى، مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦١هـ.
١٠- الرسالة المستطرفة: محمد الكتانى، طبع بيروت ١٣٢٢هـ.
١١- طبائع الاستبداد، ومصارع الاستبعاد: عبد الرحمن الكواكبى الجمالية.
١٢- اللؤلؤ المنظوم فى مبادئ العلوم: أبو عليان، الحسينية ١٣٢٥هـ.
١٣- المبادئ النصرية: نصر الحويحى، الخيرية ١٣٢٠هـ.
١٤- محمد عبده: عثمان أمين، مطبعة عيسى الحلبى ١٩٤٤م.

١٥- الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل باشا، الاعتماد ١٣٥٧هـ.
١٦- النماذج الخيرية: منير الدمشقى، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩هـ.
١٧- دائرة المعارف الإسلامية: أحمد الشنتناوى وشركاه، مطبعة لجنة الترجمة ١٩٢٣م
١٨- دائرة المعارِف للبستانى: المعلم بطرس البستانى، طبع بيروت ١٨٧٦م.
١٩- مجلة الإيمان: علماء الوعظ والإرشاد.
٢٠- مجلة نور الإسلام: علماء الوعظ والإرشاد.
٢١- مجلة نور الإسلام (الأزهر): الأزهر الشريف.
٢٢- مجلة الهداية الإسلامية: جمعية الهداية الإسلامية.
٢٣- مجل المقتطف: دار المقطم.
٢٤- مجلة السياسة الأسبوعية: محمد حسين هيكل (باشا).
مجموع المراجع ١٧١ مرجعًا.

تم والحمد لله

التفسير والمفسرون

بحث تفصيلي عن نشأة التفسير وتطوره وألوانه ومذاهبه
مع عرض شامل لأشهر المفسرين وتحليل كامل لأهم كتب التفسير
من عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر

الدكتور/ مصطفى محمد الذهبي

الجزء الثالث

دار الحديث
القاهرة

التفسير والمفسرون



اسم الكتـــاب : التفسير والمفسرون

اسم المؤلـــف : د . مصطفى محمد حسين الذهبي

القطـــــع : ١٧×٢٤سم

عدد الصفحـات : ١٤٣٢ صفحة

عدد المجـلدات : مجلد واحد شاموا

سنة الطبـــع : ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م



رقـم الإيــداع : ١٧٨٥٩ / ٢٠٠٥م

الترقيـم الدولى : ٧- ١٢٣ - ٣٠٠ - ٩٧٧

6 222007 703638

طبـــع . نشـــر . توزيـــع

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر تليفون : ٢٥٨٩٩٤٠٩ / ٢٥٩١٨٧١٩ / ٢٥٩١٩٦٩٧ فاكس : ٢٥٩١٩٦٩٧

www.darelhadith.com E-mail: info@darelhadith.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة بين يدى الكتاب

الحمـد لله الذى أنزل على عبده الكتـاب ولم يجعل له عوجًا، والصـلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

وبعـــــد . . .

فقد سارت حركة النشر فى الآونة الأخيرة بخطًى متسارعة، وظهر العديد من كتب التفسير - على اخـتلاف مشاربها وتعدد مناهجها - إلى عـالم النور بعد أن ظلت عهودًا طويلة حبيسة فى عالم المخطوطات.

وحيث أن الوالد - رحمه الله - كان قد اطلع على جـزء منها بعد انتهائه من تأليف كتابه: «**التفسير والمفسرون**» والبعض الآخر منها طُبع بعد استشهاده، فقد عهدت إلىَّ «**دار الحـــديث**» بكتـابة بحث شامل عن هذه الكتب، يُبَـيِّن مناهجهـا ويوضِّح آراء مؤلفيها، ليكون ذيلا على ما خطَّه الوالد فى كتابه.

فاستخـرت الله ربى، وسألته العون والإمداد فى كـتابة هذا البحث، وأن يَمُنَّ علىَّ بإتمامه، وأن ينفع بكتابى هذا كما نفع بأصله.

وقد جعلت بحثى هذا على ثمانية أبواب:

الباب الأول: كتب انلتفسير بالمأثور عند أهل السنة.

الباب الثانى: كتب التفسير بالرأى عند أهل السنة.

الباب الثالث: كتب التفسير عند الإمامية الاثنا عشرية.

الباب الرابع: كتب التفسير عند الإسماعيلية.

الباب الخامس: كتب التفسير عند الإباضية.

الباب السادس: كتب التفسير عند الزيدية.

الباب السابع: كتب التفسير عند الصوفية.

الباب الثامن: كتب التفسير المتعلقة بآيات الأحكام.

ولم أتعرض فى بحثى هذا لكتب التفسير فى العصر الحديث، رغبة منى فى أن أُفردها بكتاب مستقل يفى بالموضوع.

وقبل أن أختم هذه المقدمة أحب أن أوضح للقارئ الكريم أنى اكتفيت فى إحالاتى التى أتكلم عليها بأن أعزوها إلى سورها، ورقم آياتها، دون عزو إلى أرقام الأجزاء والصفحات الخاصة بالكتب المنقولة منها، وقد اخترت هذا النهج وارتضيته لعدة أمور:

أولها: أن الحصول على جميع هذه الكتب ـ فى بعض البلدان ـ صار أمرًا صعب المنال، إن لم يكن ضربًا من المُحال فى كثير من الأحوال.

ثانيها: أن هذه الطريقة أدق وأسهل فى البحث نظرًا لتعدد الطبعات للكتاب الواحد، وبخاصة فى الكتب المشهورة المتداولة.

ثالثها: أن فى هذا المنهج تيسير كبير لمن يعتمدون فى أبحاثهم واطلاعاتهم على الاسطوانات المدمجة، ومواقع الإنترنت.

هذا .. ولم ألجأ إلى الإحالة إلى رقم الجزء والصفحة إلا فى الكتب التى لم تشتمل على تفسير القرآن بأكمله، ككتب الإسماعيلية، وكذلك المؤلفات التى لم تلتزم بترتيب القرآن، ككتب آيات الأحكام.

وأخيرًا أدعو الله تعالى أن يلهمنى الصواب، وأن يتقبل عملى هذا، إنه سميع مجيب.

القاهرة فى:
١٠ رمضان ١٤٢٦هـ
١٣ أكتوبر ٢٠٠٥م

دكتور
مصطفى محمد حسين الذهبى

الباب الأول

كتب التفسير بالمأثور عند أهل السنة

١ـ تفسير مقاتل بن سليمان.

٢ـ تفسير عبد الرزاق الصنعانى.

٣ـ تفسير ابن أبى حاتم.



١- تفسير مقاتل بن سليمان[1]

التعريف بصاحب هذا التفسير[2]:

هو: مقاتل بن سليمان البلخى، الأزدى بالولاء، الخراسانى، أبو الحسن، ولد بمدينة «بلخ» من إقليم «خراسان» ونشأ بها، وتحول إلى «مرو» ثم انتقل إلى العراق فنزل بالبصرة، ودخل بغداد، وكانت إذ ذاك دار الخلافة، يقصد إليها العلماء والأدباء والشعراء، وكان مقاتل واحدًا منهم، حيث قضى وقتًا طويلاً من عمره، وكان يجالس الخلفاء والأمراء.

اشتهر بتفسير القرآن الكريم، وأخذ الحديث عن جماعة من مشاهير التابعين، منهم: مجاهد بن جبر، وعطاء بن رباح، والضحاك بن مزاحم، وعطية بن سعيد العوفى، وقال الحربى: لم يسمع من مجاهد، وفى التهذيب: أنه لم يسمع من الضحاك، فقد مات الضحاك قبل أن يولد مقاتل بأربع سنين.

ولمقاتل تصانيف متعددة فى التفسير والقراءات والفقه، منها:

١- التفسير الكبير، وسنذكر ما كتبه الوالد ـ رحمه الله ـ عنه.

٢- الناسخ والمنسوخ.

٣- تفسير الخمسمائة آية.

٤- كتاب القراءات.

٥- كتاب متشابه القرآن.

٦- كتاب نوادر التفسير.

٧- الوجوه والنظائر فى القرآن، وطبع فى القاهرة (سنة ١٩٧٥م) بتحقيق الدكتور عبد الله شحاته ـ رحمه الله ـ بعنوان الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم.

---

(١) كتب الوالد هذا البحث، وقد ترأس اللجنة التى منحت درجة الدكتوراة للدكتور عبد الله شحاته، رحمهما الله، والترجمة فقط من زياداتى.

(٢) مصادر الترجمة: طبقات المفسرين للداودى (رقم ٦٤٢)، وفيات الأعيان (٥/ ٢٥٥ - ٢٥٧)، تذكرة الحفاظ للذهبى (١/ ١٧٤)، ميزان الاعتدال (٤/ ١٧١)، خلاصة تذهيب الكمال (٣٣٠)، تاريخ بغداد (١٣/ ١٦٠)، تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١١١).

٨ - كتاب الجوابات فى القرآن.

٩ - كتاب الرد على القدرية.

١٠- كتاب الأقسام واللغات.

١١- كتاب التقديم والتأخير.

١٢- كتاب الآيات المتشابهات.

وتوفى مقاتل بن سليمان بالبصرة سنة خمسين ومائة.

رأى الدكتور الشهيد محمد الذهبى فى مقاتل بن سليمان:

ومقاتل بن سليمان متهم مجروح، ولا نعلم أحدًا من علماء عصره ناله مثل ما ناله من الطعن والتجريح، ولقد كان لما عُرِفَ عنه من المذاهب الردية أثر بالغ فى انصراف الناس عن علمه عامة وعن تفسيره خاصة، وإذا كنا قد وجدنا مقاتل بن حبان يقول: «ما وجدت علم مقاتل بن سليمان إلا كالبحر»، ووجدنا مَن يَنْسِبُ إلى الشافعى رضي الله عنه أنه قال: «الناس عيال فى التفسير على مقاتل» فقد وجدنا بجوار ذلك مَن اتهمه فى علمه، وعاب تفسيره، ومَن رماه بالكذب والوضع فى حديثه، ومَن قال عنه: إنه دجال، جسور، فاسد العقيدة.

والحق أن علم مقاتل بن سليمان، علم شرُّه أكثر من خيره، وضرُّه أكبر من نفعه، وإذا كان مقاتل بن حبان يقول: إن علمه كالبحر، فكثيرًا ما يحمل البحر الخَبث، ويقذف بالغُثاء والزَّبد.

والحق ـ أيضًا ـ أن تفسير مقاتل يحوى من الإسرائيليات والخرافات، وضلالات المشبهة والمجسمة ما ينكره الشرع ولا يقبله العقل، وإذا كان حقًا ما نُسِبَ إلى الشافعى من قوله: الناس عيال فى التفسير على مقاتل، فلست ألمح فى قوله هذا استحسانًا لتفسيره ولا ثناءً عليه، ولا أعقل من هذه العبارة ـ وقد بلوتُ تفسير مقاتل ـ إلا أن الشافعى أراد أنه كان مرجعًا للمفسرين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وجد فيه المعتدلون الفهم السليم للنص القرآنى فاقتبسوه منه، ووجد فيه أصحاب المذاهب الردية كالمشبهة والمجسمة ما يوافق هواهم فنقلوه عنه، ووجد فيه المولعون بالقصص

ورواية الأخبار معينًا فياضًا بالغرائب والأعاجيب فاستمدوا منه ما أشبع رغباتهم ووافق ميولهم.

وإذا كان هؤلاء هم عيال مقاتل على مائدة تفسيره، فما أكثر المتخَمين منهم بالمناكير والأباطيل، وما أقل مَنْ طوى صدره منهم على الحقيقة الناصعة والرأى السديد.

ما وجدنا أحدًا من العلماء أثنى على تفسير مقاتل، ومَن استحسن تفسيره منهم ـ وهذا هو ابن المبارك ـ يحتاط فى تحسينه له حتى ليكاد ينفى عنه سمة الحُسن حين يقول: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة».

وهذا وكيع بن الجراح يُسأل عن تفسير مقاتل بن سليمان فيقول: «لا تنظروا فيه» فيقول السائل: ما أصنع به؟ فيقول له: «ادفنه».

ويروى أبو عبد الله الذهبى عن أبى حاتم محمد بن حبان البستى أنه قال: «مقاتل ابن سليمان كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن العزيز الذى يوافق كتبهم، وكان مشبهًا يُشَبِّه الرب بالمخلوقين، وكان يكذب مع ذلك فى الحديث».

وقد أكثر العلماء من تجريح مقاتل، كما قلنا، وإليك بعض أقوالهم:

قال أحمد بن سيار عنه: «هو متروك الحديث، ومهجور القول، وكان يتكلم فى الصفات بما لا تحل الرواية عنه».

وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى: «مقاتل بن سليمان كان دجالاً جسورًا».

وقال أبو عبد الرحمن النسائى: «الكذَّابون المعروفون بوضع الحديث على رسول الله ﷺ أربعة: ابن أبى يحيى بالمدينة، والواقدى ببغداد، ومقاتل بن سليمان بخراسان، ومحمد بن سعيد ـ ويعرف بالمصلوب ـ بالشام».

وقال عمرو بن على الفلاَّس: «مقاتل كذَّاب متروك الحديث».

وقال البخارى: «مقاتل بن سليمان سكتوا عنه» وقال فى موضع آخر: «لا شىء ألبتة».

وقال يحيى بن معين: «مقاتل بن سليمان ليس حديثه بشىء».

وقال أحمد بن حنبل: «مقاتل بن سليمان صاحب التفسير ما يعجبنى أن أروى عنه شيئًا».

وقال أبو حنيفة: «أفرط جهم فى نفى التشبيه حتى قال: إنه تعالى ليس بشىء، وأفرط مقاتل ـ يعنى فى الإثبات ـ حتى جعله مثل خلقه».

وقال أبو معاذ الفضل بن خالد المروزى: «سمعت خارجة بن مصعب يقول: لم أستحل دم يهودى، ولو وجدت مقاتل بن سليمان خلوة لشققتُ بطنه».

وبعد... فلست أرى مقاتل بن سليمان إلا راوية خرافات، ومروِّج إسرائيليات، يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن ـ كما يقول أبو حاتم محمد بن حبان البستى ـ فإذا انضم إلى ذلك كونه مبتدعًا، وكذابًا، ووضَّاعًا، طرحنا كل ما يُنسب إليه من روايات فى التفسير والحديث، اللَّهم إلا إذا صحت من طريق غير طريقه.

صحة نسبة التفسير المطبوع لمقاتل بن سليمان:

وأنا فى شك من كون هذا التفسير لمقاتل، فالعصر الذى عاش فيه مقاتل كان عصر إسناد، حتى من الوضَّاعين، وما وجدنا فى تفسير مقاتل إسنادًا إلا نادرًا، وكثيرًا ما يرد فى هذا التفسير عبارة: «قال أبو محمد: قال الفراء: كذا وكذا» وأحيانًا ترد عبارة: «قال الفراء» فى سياق التفسير وفى صلبه وكأنما قائل هذه العبارة هو المفسر نفسه، ولا يعقل أن يكون مقاتل بن سليمان لأنه توفى سنة ١٥٠هـ، والفراء ولد سنة ١٤٤هـ وتوفى سنة ٢٠٧هـ، فكيف يروى عنه؟! أغلب الظن أن هذا التفسير من عمل بعض المتأخرين عن عصر مقاتل، جمع فيه ما روى عنه فى التفسير، وضم إليه من رأيه ومن أقوال غيره ما رآه مكملا له أو موضحًا لبعض ما فيه.

والتفسير مكتوب على الآلة الكاتبة ومنه نسخة مودعة فى مكتبة كلية دار العلوم، وهى التى رجعنا إليها، وفيها اضطراب فى بعض عباراتها، وتحريف فى بعض ألفاظها[١].

الإسرائيليات فى تفسير مقاتل:

وقد قرأت فى هذا التفسير، فرأيته قد حوى كل غريب وغريبة، ووجدت فيه قصصًا إسرائيلية فيها باطل كثير، ولم أجده يروى ما يذكره من ذلك ولا من غيره

---

(١) طبع هذا التفسير بعد ذلك فى الهيئة العامة للكتاب ـ بمصر، ثم منع من التداول أو إعادة الطبع، ولله الحمد والمنة.

مسندًا، اللهم إلا فى مواضع قليلة يكون إسناده فيها ـ غالبًا ـ إلى رجال متهمين بالكذب ووضع الأحاديث، كإسناده إلى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، قال السيوطى: إن الكلبى مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شيء حدثتكم عن أبى صالح كذب.

ومن أمثلة ما جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان من القصص الإسرائيلى الذى لا يعدو أن يكون من قبيل الخرافات، ما قاله فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿قٓ﴾ فى أول سورتها، ونصه:

«وقاف: جبل من زمردة خضراء، محيط بالعالم، فخضرة السماء منه، ليس من الخلق شيء على خلقه، وتنبت الجبال منه، وهو وراء الجبال، وعروق الجبال كلها من «قاف» فإذا أراد الله تعالى زلزلة أرض أوحى إلى الملَك الذى عنده، أن يخرق عرقًا من الجبل، فتتحرك الأرض الذى يريد، وهو أول جبل خُلِقَ، ثم أبو قبيس بعده، وهو الجبل الذى الصفا تحته، ودون «قاف» بمسيرة سنة جبل تغرب فيه الشمس، يقال له: «الحجاب» فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ (سورة ص: ٣٢) يعنى بالجبل، وهو من وراء حجاب، وله وجه كوجه الإنسان، وقلب كقلوب الملائكة فى الخشية لله تعالى، وهو من وراء الحجاب الذى تغيب الشمس من ورائه، والحجاب دون «قاف» بمسيرة سنة، وما بينهما ظلمة، والشمس تغرب من وراء الحجاب فى أصل الجبل، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يعنى بالجبل، وذلك قوله فى مريم: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ (مريم: ١٧) يعنى جبلا».

وفى الكلام تكرار ظاهر، واضطراب فى العبارة، وتفسيره غير مقبول.

وفى تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فى أول سورتها يقول ما نصه:

«الويل: واد فى جهنم، بُعده مسيرة سبعين سنة، فيه تسعون ألف شعب، فى كل شعب سبعون ألف شق، فى كل شق سبعون ألف مغار، فى كل مغار سبعون ألف قصر، فى كل قصر سبعون ألف تابوت من حديد، وفى التابوت سبعون ألف شجرة، فى كل شجرة سبعون ألف غصن من نار، فى كل غصن سبعون ألف ثمرة، فى كل ثمرة دودة طولها سبعون ذراعًا، تحت كل شجرة سبعون ألف ثعبان، وسبعون

ألف عقـرب، فأمـا الثعابيـن فطولهـن مسـيـرة شهر، فى الغلـظ مثل الجـبل، وأنيابها مثل النـخل، وعقـاربهـا مثل البـغال الدهـم، لهـا ثلاثمائة وستون فقـارًا، فى كل فقار قُلة سم».

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة الإنسان: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً﴾ نراه يقول ما نصه:

«وذلك أن الرجل من أهل الجنة له قصر، فى ذلك القصر سـبعون قصرًا، فى كل قصـر سبعون بيـتًا، كل بيت من لؤلؤة مجـوَّفة، طولها فى السـماء فرسخ، وعرضـها فرسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من ذهب، فى ذلك البيت سرير منسوج بقضبان الدر والياقوت، عن يمين السرير وعن يساره أربعـون ألف كرسى من ذهب، قوائمها ياقوت أحمر، على ذلك السرير سبعون فراشًا، كل فراش على لون، وهو جالس فوقها، وهو متكئ على يساره عليـه سبعون حُلَّة من ديباج، الذى يلى جسـده حريرة بيضاء، وعلى جبهـته إكليل مكلَّل بالزبرجد والياقوت، وألوان الجـواهر كل جوهرة على لون، وعلى رأسـه تاج من ذهب، فـيه سـبـعـون ذؤابة، فى كل ذؤابة دُرَّة تسـاوى مال الـمشـرق والمغرب، وفى يديه ثلاثة أساور: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفى أصابع يديه ورجليه خواتم من ذهب وفضة، فيه ألوان الفصوص، وبين يديه عشرة آلاف غلام، لا يكبـرون ولا يشيبـون أبدًا، ويوضع بين يديه مائدة من ياقوتة حـمراء، طولها ميل فى مـيل، ويوضع على المائدة سبعـون ألف إناء من ذهب وفضة، فى كل إناء سبعون لونًا من الطعام، يأخذ اللّقمة بيديه، فما يخطر على باله حتى تتحوَّل اللُّقمة عن حالهـا إلى الحال التى يشتهـيها، وبين يديه غلمـان بأيديهم أكواب: إناء من ذهب وإناء من فضة، معـهم الخمر والماء، فيأكل على قدر أربـعين رجلاً من الألوان كلها، وكلما شبع من لون من الطعام سقـوه شربة مما يشتهى من الأشربة، فيتـجشى، فيفتح الله تعالى عليه ألف باب من الشهوة من الشراب، فيدخل عليه الطير من الأبواب كأمثال النجائب، فـيقومون (هكذا بالأصل) بين يديه صـفًا، فينعت كلٌّ نفسَـه بصوت مطرب لذيذ، ألذ من كل غناء فـى الدنيا، فـيـقول: يا ولى الله، كُـلْنِى، إنى كنت أرعى فى روضة كذا وكذا من ريـاض الجنة، فيحلون عليه أصواتها (هكذا بالأصل) فـيرفع بصره فينظر إليهم، فينظر إلى أزهاها صوتًا، وأجودها نعتًا فيشتهيها، فيعلم الله ما وراء شهوته

فى قلبه من حبه، فيجىء الطير فيقع على المائدة، بعضه قديد، وبعضه شواء، أشد بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل، فيأكل، حتى إذا شبع منها واكتفى، صارت طيرًا كما كانت، فتخرج من الباب الذى كانت دخلت منه، فهو على الأرائك، وزوجته مستقبلة، يبصر وجهه فى وجهها من الصفاء والبياض، كلما أراد أن يجامعها ينظر إليها فيستحى أن يدعوها، فتعلم ما يريد منها زوجها، فتدنو إليه فتقول: بأبى وأمى، ارفع رأسك وانظر إلىَّ، فإنك اليوم لى وأنا لك، فيجامعها على قوة مائة رجل من الأوَّلين، وعلى شهوة أربعين رجلاً، كلما أتاها وجدها عذراء، لا يغفل عنها مقدار أربعين يومًا، فإذا فرغ وجد ريح المسك منها فيزداد حبّا لها، فيها أربعة آلاف وثمانمائة زوجة مثلها، لكل زوجة سبعون خادمًا وجارية».

وهكذا يذكر مقاتل من خرافاته وترهاته بدون إسناد وبغير نقد ما يجعله تفسيرًا لكلام الله تعالى، وما كان كلام الله بحاجة إلى مثل هذا الهراء الذى لا يليق بعاقل أن يذكره مجرد ذكر، فضلاً عن أن يشرح به كتاب الله عز وجل!! ولكنه مقاتل بن سليمان الذى عرفناه - فيما سبق - كذَّابًا، وضَّاعًا، فاسد العقيدة.

وأدهى من ذلك وأمرُّ أن نرى مقاتل بن سليمان يذكر فى غير موضع من تفسيره بعض ما دُسَّ على الإسلام من أباطيل، يذكرها دون أن يسندها وينتهى منها من غير أن يُفَنِّدها، كأنما صحت عنده، وكأنه لا يرى فيها عيبًا ولا ذمّا!!.

نقرأ تفسير مقاتل لقوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ** ﴾ . . . الآية، فنجده بعدما ذكر من أمر خطبة زينب لزيد، وتمنعها أول الأمر، ثم قبولها الزواج منه نزولاً على أمر الله ورسوله، يقول ما نصه:

«ودخل بها - يعنى بزينب - زيد، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى شكا إلى النبى ﷺ ما يلقى منها، فدخل النبى ﷺ فوعظها، فلما كلمها أعجبه حسنها وظرفها، وكان أمرًا قضاه الله عز وجل، ثم رجع النبى ﷺ وفى نفسه منها ما شاء الله عز وجل، فكان النبى ﷺ يسأل زيدًا بعد ذلك: كيف هى معك؟ فيشكوها إليه، فقال له النبى ﷺ : اتق الله، وأمسك عليك زوجك، وفى قلبه غير ذلك». . . ثم يقول:

«ثم إن النبى ﷺ أتى زيدًا فأبصر زينب قائمة، وكانت حسناء بيضاء، من أتم نساء قريش، فهويها النبى ﷺ فقال: سبحان مُقَلِّب القلوب، ففطن زيد فقال: يا رسول الله، ائذن لى فى طلاقها فإن فيها كِبرًا، تعظم علىَّ وتؤذينى بلسانها، فقال النبى ﷺ: أمسك عليك زوجك واتق الله، ثم إن زيدًا طلقها بعد ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق، وكان زيد أعرابيًا فى الجاهلية، مولًى فى الإسلام، سُبِىَ فأصابه النبى ﷺ فأعتقه ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ يعنى وتُسِرُّ فى قلبك يا محمد: ليت أنه طلقها ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ يعنى مُظْهِرُه عليك حين ينزل به قرآن ﴿وَتَخْشَى﴾ قالة ﴿النَّاسَ﴾ فى أمر زينب ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ فى أمرها، فقرأ النبى ﷺ هذه الآية على الناس بما أظهره الله عليه من أمر زينب إذ هويها».

ثم يمضى مقاتل فى تفسيره للآيات إلى أن يصل إلى قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ (الأحزاب: ٣٨) فيقول:

«هكذا كانت سُنَّة الله فى الذين خلوا من قبل محمد، يعنى: داود النبى ﷺ حين هوى المرأة التى فُتِنَ بها، وهى امرأة أوريا بن حنان، فجمع الله بين داود وبين المرأة التى هويها، وكذلك جمع الله عز وجل بين محمد ﷺ وبين زينب إذ هويها، كما فعل بداود عليه السلام، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب: ٣٨) فقدر الله عز وجل لداود ومحمد تزويجهما».

. . . يا عجبًا كل العجب لمقاتل!! كيف طوَّعت له نفسه أن يقول كل هذا فى رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ كان يعرف زينب قبل أن يزوجها مولاه زيدًا، فهى ابنة عمته، ولو كان له فيها رغبة لخطبها لنفسه قبل أن يخطبها لزيد، وقبل أن يدخل بها، أما أن تقع فى نفسه بعدما قضى زيد منها وطرًا، وأما أن يقول لزيد: أمسك عليك زوجك وكل أمنيته أن يُطَلِّقها زيد ليتزوجها هو من بعده، فذلك ما أعيذ منه رسول الله ﷺ، لأنه يحطم جانب العصمة فيه، والعصمة فى الأنبياء شرط لازم.

ومما لا يكاد ينقضى منه العجب، أن مقاتلاً برَّر فريته على رسول الله ﷺ بفرية مثلها، نسبها إلى داود عليه السلام، اختصرها هنا، وبسطها من غير تحرج ولا تأثم

عند تفسيره لقوله تعالى في سورة ص: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (الآيات من ٢١ - ٢٤).

وعند تفسير مقاتل لقوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ إلى آخر الآيتين (٥٢، ٥٣) نجده يفسر التمنى بالتحدث ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ أى: فى حديثه، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة: ٧٨) أى: إلا ما يُحَدِّثون به عنها، يعنى التوراة، ثم يقول ما نصه: «وذلك أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الصلاة عند مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ فنعس فقال: «أفرأيتم اللاَّت والعُزَّى ومَنَاة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العُلا، عندها الشفاعة تُرتجى» فلما سمع كفار مكة أن لآلهتهم شفاعة فرحوا، ثم رجع النبى ﷺ فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (النجم: ١٩ - ٢٢) فذلك قوله سبحانه: ﴿ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ (الحج: ٥٢).

ونجد مقاتلاً عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة النجم: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ (الآيات من ١٩ - ٢٢) يقول مثل كلامه السابق، ويُصَرِّح بأن الشيطان هو الذى ألقى هذه الزيادة: «تلك الغرانيق العُلا، عندها الشفاعة ترتجى» على لسان النبى ﷺ وفى قراءته، وهذا كلام ساقط لا أصل له، ولا أعتقد إلا أنه دسيسة دسَّها على الإسلام أعداؤه من اليهود أو غيرهم، وراجت لدى مقاتل بن سليمان ـ كما راجت لدى نفر من المفسرين ـ فنقلها فى تفسيره ولم يُعَقِّب عليها ولا بكلمة واحدة تفيد بطلانها، وما كان الله ليلقى النعاس على نبيه فى صلاته، ثم يُسَلِّط عليه الشيطان فيُلقى على لسانه ما ليس قرآنًا، وهو الذى تكفل بحفظ القرآن حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

وضمن لنبيه ﷺ جمعه له فى صدره، وقراءته على لسانه كما نزل به جبريل بقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ أى: بلسان جبريل لا بلسان الشيطان ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة: ١٧ - ١٩).

وقصة الغرانيق لم تثبت من طريق صحيح، وهى من وضع الزنادقة.

وإذا كنا نرى مقاتل بن سليمان يُسَوِّد صفحات تفسيره بمثل ما تقدَّم من خرافات وأباطيل، فإنَّا نراه يعنى عناية لم نرها لغيره من المفسرين، بتفسير ما لا فائدة لنا من تفسيره، ويشغل بتوافه لا يعدو أن يكون الاشتغال بها عبثًا ولهواً.

نراه يعرض لتفسيره الآيات الواردة فى قصة قتيل بنى إسرائيل من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (الآيات من ٦٧ - ٧٣) فيذكر أن اسم المقتول «عاميل» والبعض الذى ضُرِبَ به هو فخذ البقرة اليمنى.

ونراه يعرض لتفسير الآيات الواردة فى شأن أصحاب الكهف: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (الآية ١٠ وما بعدها إلى آخر القصة فى سورة الكهف) فيعنى بشكل ملحوظ ببيان ما فيها من المبهمات التى لا حاجة بنا إلى معرفتها، والتى لم يرد تعيينها من طريق صحيح، فيذكر أن اسم الملك الذى فَرَّ منه الفتية «دقيوس»، واسم الكهف الذى أووا إليه «بانجلوس»، واسم الكلب الذى تبعهم «قطمير»!!.

ويعرض لقصة الخضر مع موسى عليه السلام، فيذكر عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧٤) من سورة الكهف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ أن اسم الغلام «حسين بن كازرى» واسم أمه «سهرى» وأن الخضر قتل الغلام بحجر! وكأنه لم يكف مقاتلاً أن عيَّن آلة القتل فأضاف أن لون الحجر كان أسود.

ويعرض مقاتل لتفسير قوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة النمل: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ فيذكر أن النملة التى خاطبت جماعة النمل اسمها «الجرمى» ولا أدرى، لِمَ لَمْ يُعيِّن لنا مقاتل أذكرًا كانت النملة أم أُنثى؟!.

ويمضى مقاتل فى هذا العبث فى مواضع كثيرة من تفسيره، فيذكر أن الذى صنع التابوت لأم موسى لتضعه فيه عندما تُلقيه فى اليم كان رجلاً مؤمنًا، وأن اسمه «حزبيل ابن صابوث»، ويذكر أن عصا موسى كانت من الآس وأن اسمها «نفعة» وأن الحية التى انقلبت عن العصا كانت ذكرًا أشعر له عُرف.

ويذكر أن الكبش الذى فدى الله به الذبيح ـ وهو على ما فى تفسيره: إسحاق لا إسماعيل ـ اسمه «رزين» وأنه كان من الوعل، وأنه رعى فى الجنة أربعين سنة قبل أن يُذبح!!.

وكأنى بمقاتل لم يرضه أن يستأثر هو بهذا الهراء والعبث فذهب يكذب على رسول الله ﷺ ، وينسب إليه شيئًا من ذلك، فعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ . . . الآية، يقول ما نصه:

«قالت عائشة رضي الله عنها: كيف لم يسمهما الله تعالى؟ قال النبى ﷺ : «لبغضهما» يعنى امرأة نوح وامرأة لوط، قالت عائشة: فما اسمهما؟ فأتاه جبريل ﷺ فقال: أخْبِر عائشة رضي الله عنها ـ أن اسم امرأة نوح «والغة» واسم امرأة لوط «والهة».

ولست أدرى هل تحوَّل بُغض الله لهما إلى حب حتى ذكر اسميهما؟ أم أن الله سارع لعائشة فى هواها فسماهما لها وهو كاره؟!!.

وبعد. . . فإذا كان ما تقدَّم بعض ما فى تفسير مقاتل من أباطيل فكيف يعقل أن يقول الشافعى ـ رحمه الله: الناس عيال فى التفسير على مقاتل؟ لا أعتقد ـ كما قلت سابقًا ـ أن الشافعى ـ رحمه الله ـ يقول هذه المقالة، اللَّهم إلا إذا كان يقصد بها ما شرحناها به سابقًا، أو لعله يقصد مقاتل بن حبَّان، وهو معروف بالتفسير، وقال عنه النووى: «اتفقوا على توثيقه والثناء عليه».

٢- تفسير عبد الرزاق الصنعاني

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو عبد الرزاق بن همام بن نافع، الحميرى بالولاء، أبو بكر اليمانى الصنعانى.

ولد سنة ست وعشرين ومائة، وطلب العلم وهو ابن عشرين سنة، ولزم مَعْمر بن راشد وكتب عنه الكثير، ورحل إلى الحجاز والشام والعراق.

روى عن: أبيه وعمه وهب، ومعمر بن راشد، وأيمن بن نابل، وعكرمة بن عمار وعبد الملك بن جريج، والأوزاعى، وسفيان الثورى، وسفيان بن عيينة، وجعفر بن سليمان الضُّبعى ومالك بن أنس، وإسرائيل بن يونس، وإسماعيل بن عياش، وآخرين.

روى عنه: سفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان ـ وهما من شيوخه ـ ووكيع، وأحمد بن الأزهر النيسابورى، ومحمد بن يحيى الذهلى، وأحمد بن حنبل، وعمرو الناقد، ويحيى بن معين، وعلى بن المدينى، وسليمان بن داود الشاذكونى، ومؤمَّل بن إهاب، وطائفة.

كان حافظًا كبيرًا، واسع العلم، وهو ممن شُدَّت إليه الرحال حتى قيل: ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله ﷺ مثل ما رحلوا إليه.

قال على بن المدينى: قال هشام بن يوسف: كان عبد الرزاق أعلمنا وأحفظنا.

وقيل لأحمد بن حنبل: رأيت أحسن حديثًا من عبد الرزاق؟ قال: لا.

عده ابن قتيبة فى رجال الشيعة، وقال ابن الأثير: كان يتشيع، وقال ابن تيمية: كان يميل للتشيع، وروى كثيرًا من فضائل على، وإن كانت ضعيفة.

وقال الطيالسى: سمعت يحيى بن معين يقول: سمعت من عبد الرزاق كلامًا يومًا فاستدللت به على تشيعه، فقلت: إن أساتيذك الذين أخذت عنهم كلهم أصحاب سنة: معمر، ومالك، وابن جريج، وسفيان، والأوزاعى، فعمن أخذت هذا المذهب؟ فقال: قدم علينا جعفر بن سليمان الضبعى، فرأيته فاضلاً حسن الهدى، فأخذت هذا عنه.

---

(١) مصادر الترجمة: الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٥٤٨)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٥٦٣)، الفهرست لابن النديم ٣٣٢، تذكرة الحفاظ (١/ ٣٦٤)، منهاج السنة (٤/ ٤، ٨)، مقدمة التفسير لابن تيمية ص٤٢.

ولكن محمد بن أبى المقدمى كان يرى أن جعفر الضبعى قد أخذ التشيع عن عبد الرزاق، وكان يدعو على عبد الرزاق بسبب ذلك، فيقول: فقدت عبد الرزاق، ما أفسد جعفرًا غيره.

وروى له من أئمة الشيعة: الكلينى والطوسى.

والحق الذى أراه أن عبد الرزاق كان يدعو إلى محبة أهل البيت وتعظيمهم، ويرفض الغلو فيهم.

ولعبد الرزاق من الكتب: «المصنف»، و «الجامع الكبير» فى الحديث، «تفسير القرآن» وهو ما نحن بصدده، وكتاب «المغازى»، وكتاب «السنن» فى الفقه، وكتاب «الأمالى»، وكتاب «الصلاة» وكتاب «تزكية الأرواح»، وغيرها.

توفى عبد الرزاق سنة إحدى عشرة ومائتين.

التعريف بهذا التفسير:

رتب عبد الرزاق نصوص كتابه تحت أسماء سور القرآن، والتى رُتبت بدورها على ترتيب المصحف الشريف، وقد حفظ لنا هذا التفسير (٣٧٥٥) نصًا مسندًا، يرويها عبد الرزاق عن شيوخه بإسناده إلى النبى ﷺ إذا كان النص مرفوعًا، أو إلى الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ إذا كان النص موقوفًا أو مقطوعًا.

وهذه الأحاديث والآثار تتعلق بإيضاح كلمة غريبة فى القرآن، أو النصوص، مع بيان فضل سورة من السور أو آية من الآيات، أو بيان سبب نزول آية أو سورة، أو بيان ما يتعلق بالآية من مسائل فقهية، أو سيرة نبوية، أو قصص الأنبياء.

هذا وقد اعترف العلماء عامة، والمفسرون خاصة، بما لتفسير عبد الرزاق من علو القدر وسمو المنزلة، وخير دليل على ذلك كثرة ما نقلوه عنه، وضمنوه كتبهم، كصنيع ابن أبى حاتم فى تفسيره، وابن جرير الطبرى ـ وهو المجمع على إمامته فى هذا الفن ـ فإنه يُضَمِّن كتابه أكثر تفسير عبد الرزاق، وكذلك فعل السيوطى فى «الدر المنثور».

هل فى تفسير عبد الرزاق ما يدل على تشيعه؟

الحق أنى قرأت هذا التفسير فلم أجد فيه ما يدل على تشيعه، أو تفضيله عليًا على غيره من الصحابة، كما أنه لم يكثر من الرواية عن علىٍّ إذا قورنت مروياته عنه بما رواه

عن ابن عباس، وأبى هريرة، وابن مسعود، وأبى سعيد الخدرى، وأنس بن مالك، وغيرهم.

روايته لبعض الأحاديث الضعيفة:

هذا وقد وقع عبد الرزاق فيما وقع فيه غيره من المفسرين من رواية بعض الأحاديث الضعيفة فى تفسيره، وهى إذا قيست بحجم مروياته فى التفسير يتبين أنها من الندرة بمكان، وإحقاقًا للحق فإن عبد الرزاق لم يورد من هذه الضعاف ما يتعلق بتفسير آية من آيات الأحكام، أو العقيدة، بل كلها فيما يختص بالقصص، والترغيب والترهيب، وفضائل الأعمال.

موقفه من الإسرائيليات:

هذا ولم يخل تفسير عبد الرزاق من الإسرائيليات، وهو يوردها دون أن يعقب عليها، وفيها ما لا يليق بمقام الأنبياء وينافى العصمة، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**﴾ (يوسف: ٢٣) «روى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، قال: جلس منها مجلس الرجل من امرأته حتى رأى صورة يعقوب فى الجدار. وقال معمر: قال قتادة: بل رأى صورة يعقوب فى الجدار، فقال: يا يوسف أتعمل عمل الفجار، وأنت مكتوب فى الأنبياء؟ فاستحيا منه.

وروى عن الثورى، عن أبى حصين، عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿**لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ قال: يعقوب ضرب بيده على صدره فخرجت شهوة يوسف من أنامله، وعن الثورى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد قال: يعقوب مثل له.

وروى عن جعفر بن سليمان، عن يونس، عن الحسن قال: رأى يعقوب عاضًا على يده.

وروى عن ابن عيينة، عن عثمان بن أبى سليمان، عن ابن أبى مليكة قال: شهدت ابن عباس، وهو يسأل عن هَمِّ يوسف ما بلغ؟ قال: حل الهميان، وجلس منها مجلس الخاتن، فنودى: يا بن يعقوب، أتزنى فتكون كالطائر وقع ريشه فذهب يطير فلا ريش له».

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات:

من الأمور التى تحـمد لعبد الرزاق فى تفسيره أنه صان قلمه عن ذكر الأحاديث الموضوعة فى فضائل السور والآيات القرآنية والتى اشتملت عليها بعض كتب التفسير الأخرى، واقتصر فيما ذكره من أحاديث الفضائل على ما صح سنده ومتنه، مثال ذلك ما رواه فى فضل خواتيم سورة البقرة حيث روى بإسناده إلى علقمة بن قيس قال: «من قرأ خواتم سورة البقرة فى ليلة أجزأت عنه قيام تلك الليلة».

وما رواه بإسناده إلى أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه...».

هذا وقد طُبِع الكتاب أكثر من مرة، والطبعة التى يدى هى طبعة دار الكتب العلمية (١٤١٩هـ) وتقع فى ثلاثة مجلدات.

* * *

٣- تفسير ابن أبى حاتم

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس التميمى الحنظلى، أبو محمد االرازى.

ولد سنة أربعين ومائتين، أو إحدى وأربعين.

قرأ القرآن على الفضل بن شاذان الرازى.

وسمع من: أبيه، ويونس بن عبد الأعلى، والحسن بن عرفة، وأبى سعيد الأشجّ، وأبى زرعة، والربيع بن سليمان المؤذن، وحجاج بن الشاعر، وأحمد بن سنان القطان، وغيرهم بالحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة.

حدَّث عنه: أبو الشيخ، وعلى بن محمد القصار، وعبد الله بن محمد بن أسد، وابن عدى، وأبو أحمد الحاكم، وآخرون.

وكان من كبار الحفاظ، فقيهًا، مفسرًا، عارفًا بالرجال، صنف فى الفقه، وفى اختلاف الصحابة والتابعين وعلماء الامصار.

من مصنفاته: الجرح والتعديل، التفسير المسند، وهو ما نحن بصدده، الرد على الجهمية، علل الحديث، آداب الشافعى ومناقبه، الزهد، مناقب أحمد، وبيان خطأ أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى تاريخه، وغيرها.

توفى بالرى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وهذا التفسير - إلى يومنا هذا - لم يعثر عليه كاملا، وقد طُبع ملفقًا بين ما عُثر عليه من أصله وما ضُم إليه من نقولات منسوبة لابن أبى حاتم فى كتب التفسير التى نقلت عنه كابن كثير، والدر المنثور.

---

(١) مصادر الترجمة: طبقات الحنابلة (٢/ ٥٥)، الكامل فى التاريخ (٨/ ٣٨٥)، مختصر تاريخ دمشق (١٥/ ١٩ برقم ١٤)، تاريخ الإسلام (حوادث ٣٢١ - ٣٣٠) ٢٠٦ برقم ٣٣٢، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٣ برقم ١٢٩)، العبر (٢/ ٢٧)، تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٢٩ برقم ٨١١)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٨٧ برقم ٤٩٦٥)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٢٥٨ برقم ٢٦٤).

والطبعة التى بين يدى هى طبعة نزار الباز (١٤١٩هـ).

وتفسير ابن أبى حاتم يُعد خير مثال للتفسير بالمأثور، مما حدا بكثير ممن جاء بعده أن يقتبس منه ويستفيد، كالبغوى وابن كثير، والسيوطى الذى قال فى الدر المنثور: «لخصت تفسير ابن أبى حاتم فى كتابى».

وإن المطالع لمقدمة المؤلف لكتابه هذا، يجده قد أبان عن منهجه فى كتابه أحسن إبانة، ويمكننا أن نلخص منهجه فيما يلى:

١- جمع ابن أبى حاتم فى كتابه ما صح - عنده - من تفسير للقرآن بالسنة وآثار الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، وتابعى أتباع التابعين.

٢- إذا وجد التفسير عن رسول الله ﷺ فإنه لا يذكر معه شيئًا مما ورد عن الصحابة فى تفسير الآية.

٣- فإن لم يجد التفسير عن الرسول ﷺ ووجده مرويًا عن الصحابة وقد اتفقوا على هذا الوجه من التأويل؛ فإنه يذكر أعلاهم درجة بأصح الأسانيد، ثم يسمى من وافقهم بغير إسناد، وإن كان ثَمَّ اختلاف فى التفسير ذكر الخلاف بالأسانيد، وسمى من وافقهم وحذف إسناده.

٤- فإن لم يجد التفسير عن الصحابة ووجده عن التابعين، تصرف مثلما تصرف فى تفسير الصحابة.

هذا . . وقد انفرد الكتاب بمرويات ليست فى غيره، كما حفظ لنا كثيراً من التفاسير المفقودة، مثل: تفسير سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وغيرهما.

الإسرائيليات والواهيات فى تفسير ابن أبى حاتم:

ومن يقرأ تفسير ابن أبى حاتم يجد أنه حوى بين دفتيه إلى جوار الصحيح والحسن العديد من الأخبار الواهية والضعيفة، والكثير من الإسرائيليات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (البقرة: ٣٠) حيث قال: «سمع أبا جعفر محمد بن على يقول: السجل: ملك، وكان هاروت وماروت من أعوانه، وكان له فى كل يوم ثلاث لمحات فى أم الكتاب، فنظر نظرة لم تكن له، فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور، فأسرَّ إلى هاروت وماروت - وكانا فى أعوانه - فلما قال

تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠) قال ذلك استطالة على الملائكة».

قلت: قال ابن كثير ـ معقبًا على ذلك: «وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب، وفيه نكارة توجب رده».

وأغرب منه ما رواه ابن أبى حاتم أيضًا حيث قال: «حدثنا أبى حدثنا هشام بن أبى عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير قال: سمعت أبى يقول: إن الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم» وهذا أيضًا إسرائيلى منكر كالذى قبله.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: ١٠٢) قال ابن أبى حاتم: «حدثنا أبى، ثنا عبد الله بن جعفر الرقى، ثنا عبيد الله ـ يعنى ابن عمر ـ عن زيد بن أبى أنيسة، عن المنهال بن عمرو، ويونس بن خباب، عن مجاهد، قال: كنت نازلا على عبد الله بن عمر فى سفر، فلما كان ذات ليلة، قال لغلامه: انظر طلعت الحمراء لا مرحبًا بها ولا أهلا ولا حياها الله، هى صاحبة الملكين، قالت الملائكة: رب كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يسفكون الدم الحرام، وينتهكون محارمك، ويفسدون فى الأرض؟ قال: إنى قد ابتليتهم، فلعلى إن ابتليتكم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون، قالوا: لا، قال: فاختاروا من خياركم اثنين، فاختاروا هاروت وماروت، فقال لهما: إنى مهبطكما إلى الأرض وعاهد إليكما أن لا تشركا، ولا تزنيا، ولا تخونا، فأهبطا إلى الأرض، وألقى عليهما الشبق، وأهبطت لهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة، فتعرضت لهما، فأراداها على نفسها، فقالت: إنى على دين لا يصلح لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله، قالا: وما دينك؟ قالت: المجوسية، قالا: الشرك، هذا شىء لا نقر به، فمكثت عنهما ما شاء الله، ثم تعرضت لهما، فأراداها عن نفسها، فقالت: ما شئتما، غير أن لى زوجًا وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح، فإن أقررتما لى بدينى، وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلت، فأقرا لها بدينها

وأتياها فـيما يريان، ثم صعـدا بها إلى السمـاء، فلما انتهـيا بها إلى السمـاء اختُطفت منهما، وقُطعت أجـنحتها، فوقـعا خائفيْن نادميْن يبكيـان، وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين، فإذا كان يوم الجمعـة أجيب، فقالا: لو أتينا فلانًا فسألناه يطلب لنا التوبة، فقال: رحمكما الله، كيف يطلب أهل الأرض لأهل السماء؟! قالا: إنا قد ابتُلينا، قال: ائتيـانى فى يوم الجمعة، فـأتياه، فقال: مـا أُجبت فيكمـا بشىء، ائتيانى فى الجمـعة الثانية، فأتياه، فقال: اختارا فقد خُيرتما، إن أحببتما معاقبة الدنيا وعذاب الآخرة، وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتمـا يوم القيامة على حكم الله، فقال أحدهما: الدنيا لم يمض منها إلا قليل، وقال الآخر: ويحك، إنى قـد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن، إن عذابًا يفنى لـيس كعذاب يبـقى، وإننا يوم القيامـة على حكم الله، فأخـاف أن يعذبنا، قال: لا، إنى لأرجو إن علم الله أنَّا قد اخترنا عـذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعـهما علينا، قال: فاخـتاروا عذاب الدنيا، فجُعـلا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ (آل عمران: ٢٩) قال ابن أبى حاتم: «حدثنا أبو جعـفر محمـد بن غالب البغـدادى، حدثـنى سـعيد بن سليمان، حدثنا عباد - يعنى ابن العوام - عن يحيى بن سعيد، عن سـعيد بن المسيب، عن ابن العاص - لا يدرى عبد الله أو عـمرو - عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ قـال: ثم تناول شيئًا من الأرض، فقال: «كان ذكره مثل هذا».

وقال ابن أبى حاتم - أيضًا: «حدثنا أبى، حدثنا عيـسى بن حماد ومحمد بن سلمة المرادى قـالا: حدثنا حجـاج بن سليمان المـقرى عن الليث بن سـعد عن محـمد بن عجلان عن القعقاع، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «كل ابن آدم يلقى الله بذنب يعـذبه عليه إن شـاء أو يرحمـه، إلا يحيى بـن زكريا فـإنه كان سـيدًا وحصـورًا ونبيّـا من الصالحيـن» ثم أهوى النبى ﷺ إلى قذاة من الأرض، فـأخذها وقال: «وكان ذكره مثل هذه القذاة».

قـلـت: قال القاضى عياض فى «الشـفاء»: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان حصـورًا، ليس كما قاله بعـضهم: إنه كان هيوبًا، أو لا ذكـر له، بل قد أنكر هذا

حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتيها كأنه حُصر عنها. وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة، ثم يمنعها، إما بمجاهدة كعيسى، أو بكفاية من الله - عز وجل - كيحيى عليه السلام، ثم هى فى حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وقيامه عليهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم ثلاث . . .».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ (البقرة: ٦٩) قال: «من لبس نعالا صفراء لم يزل فى سرور ما دام لابسها» وسكت عنه، مع أنه قال فى الجرح والتعديل (٩/ ٣٢٥): حديثٌ كذب موضوع.

وأخيرًا، فالكتاب فى مجمله عظيم الفائدة، ولعل الله يَمُنُّ بالعثور على نسخة كاملة منه، ويهيئ لها من علمائنا من ينقد ما فيه من الروايات نقدًا فاحصًا شاملا حتى يتبين جيدها من رديئها، وقد يسر ابن أبى حاتم هذه المهمة لمن يتصدون لها، وذلك بذكره لأسانيد مروياته فى تفسيره.

* * *

الباب الثاني

كتب التفسير بالرأى عند أهل السنة

١- تفسير ابن أبى زمنين.

٢- تفسير المهدوى.

٣- تفسير السمعانى.

٤- تفسير الماوردي.

٥- تفسير ابن الجوزى.

٦- تفسير ابن عرفة.

١- تفسير ابن أبى زمنين

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المُرِّى، أبو عبد الله الأندلسى الإلبيرى، المعروف بابن أبى زَمَنين ـ بفتح الميم وكسر النون ـ المالكى.

ولد فى أول سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

تفقه بإسحاق الطليطلى.

وسمع من: محمد بن معاوية الأموى، وأحمد بن مطرف، وأحمد بن الشامة، وأبان بن عيسى بن محمد، وغيرهم.

روى عنه: أبو عمرو الدانى، وأبو عمر بن الحذاء، وهشام بن سوار، والقاضى يونس، وآخرون.

وتفقه به أهل بلده وغيرهم.

وكان متفننًا بالأدب والشعر والمواعظ والأخبار، ومُجانبًا للأمراء.

اختصر «المدونة»، وصنف كتبًا، منها: منتخب الأحكام، الوثائق، حياة القلوب، أدب الإسلام، أصول السنة، المواعظ، منتخب الدعاء، ومختصر تفسير يحيى بن سلام، وهو ما نحن بصدده، وغيرها.

ومن شعره فى المواعظ:

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ... ونحن فى غفلة عما يُراد بنا

لا تطمئن إلى الدنيا وزخرفها ... وإن توشَّحت من أثوابها الحسنا

أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ ... أين الذين هم كانوا لنا سكنا؟

سقاهم الدهر كأسًا غير صافية ... فصيرتهم لأطباق الثرى رُهُنا

توفى فى ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة.

---

(١) مصادر الترجمة: جذوة المقتبس (١/ ١٠٠ برقم ٥٧)، ترتيب المدارك (٤/ ٦٧٢)، بغية الملتمس (١/ ١١٩ برقم ١٦١)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٨٨ برقم ١٠٩)، الوافى بالوفيات (٣/ ٣٢١ برقم ١٣٧٤)، الديباج المذهب (٢/ ٢٣٢)، طبقات المفسرين للداودى (٢/ ١٦٥)، شذرات الذهب (٣/ ١٥٦)، معجم المؤلفين (١٠/ ٢٢٩).

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير مختصر لتفسير الإمام يحيى بن سلام، وطُبع مؤخرًا فى مجلدين صغيرين، والطبعة التى تحت يدى هى طبعة دار الكتب العلمية (١٤٢٤هـ).

السبب الدافع إلى اختصاره لتفسير يحيى بن سلام:

ويقول ابن أبى زمنين فى مقدمة كتابه، مبينًا سبب اختصاره لتفسير يحيى بن سلام: «وبعد، فإنى قرأت كتاب يحيى بن سلام فى تفسير القرآن، فوجدت فيه تكرارًا كثيرًا، وأحاديث ذكرها يقوم علم التفسير دونها، فطال بذلك الكتاب، وإنه للذى خبرته من قلة نشاط أكثر الطالبين للعلوم فى زماننا هذا، إلا إلى ما يخف فى هذا الكتاب على الدارس، ويقرب للمقيد، نظرت فيه، فاختصرت فيه مُكرره، وبعض أحاديثه».

منهجه فى التفسير:

أما بالنسبة إلى منهجه فى كتابه فقد حدده فى خطبة الكتاب بقوله: «وزدت فيه من غير كتاب يحيى تفسير ما لم يفسره يحيى، وأتبعت ذلك إعرابًا كثيرًا ولغة، على ما نقل عن النحويين، وأصحاب اللغة السالكين لمناهج الفقهاء فى التأويل، زائدًا على الذى ذكره يحيى من ذلك».

وقد مُيزت زيادات ابن أبى زمنين على تفسير يحيى بن سلام بأن أولها: «قال محمد»: يعنى ابن أبى زمنين. أما تفسير يحيى بن سلام فمذكور كذلك فى أوله إما: «قال يحيى» أو «يحيى».

وقد نصَّ الإمام ابن الجزرى ـ رحمه الله ـ على أن هذا الكتاب، يعنى ـ تفسير يحيى بن سلام ـ سُمع من مؤلفه بأفريقية، وشهد بأنه كتاب «ليس لأحد من المتقدمين مثله».

وكذلك نقل عن إمام القراءات أبى عمرو الدانى أنه قال: «ليس لأحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام».

وقد طُبعت ستة أجزاء من تفسير يحيى بن سلام البصرى فى الجزائر بتحقيق عدة باحثين، ولم ينشر هذا التفسير كاملاً إلى اليوم.

وهذه المكانة لتفسير يحيى بن سلام دفعت العلماء كالماوردى والقرطبى،

إلى النقل عنه كالماوردى، وكذلك الاشتغال به وتدريسه واختصاره، وممن اختصره:

١ـ ابن أبى زمنين، وهو ما نحن بصدد دراسته.

٢ـ أبو المطرف القنازعى، عبد الرحمن بن مروان، (ت ٣١٤هـ)، وتفسيره مفقود.

٣ـ وهود بن مُحَكِّم الإباضى، وسيأتى الكلام عليه عند الحديث على تفاسير الإباضية.

قال ابن أبى زمنين فى مقدمة كتابه نقلا عن يحيى بن سلام: «ولا يعرف تفسير القرآن إلا من عرف اثنتى عشرة خصلة: المكى والمدنى، والناسخ والمنسوخ، والتقديم والتأخير، والمقطوع والموصول، والخاص والعام، والإضمار، والعربية».

وتفسير الإمام يحيى بن سلام (ت: ٢٠٠هـ) من التفاسير الأثرية حيث يعنى برواية الأحاديث والآثار المتعلقة بتفسير القرآن، ثم يُعقب ذلك بالنقد والاختيار، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوى، والتخريج الإعرابى، ويتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التى تتماشى وإياه، مشيرًا إلى اختياراته فى القراءة بما يقتضى أن له رواية أو طريقًا.

ويتعرض ابن أبى زمنين فى تفسيره لأسماء السور، والمكى والمدنى، ويُعنى بأسباب النزول وبعض حوادث السيرة، وغالبًا ما ينقل فى ذلك عن الكلبى. ولا يخلو تفسيره من بعض الإسرائيليات المروية عن الكلبى، دون أن يتعقبها أو يفندها.

وابن أبى زمنين نادرًا ما يذكر الأحاديث الواردة فى فضائل الآيات والسور، ومثال ذلك ما أورده فى فضل الآيتين فى ختام سورة البقرة.

كما أنه مُقِلٌّ فى استشهاده بالشعر، حتى إنه ليمر عشرات الصفحات دون أن يذكر فيها شاهدًا شعريًا.

والتفسير يسير من بدئه إلى منتهاه على نسق واحد لا يعدوه فيمزج المصنف بين الآيات وتفسيرها، عن طريق تقطيع الآية إلى أجزاء ثم يعقب كل جزء تفسيره، وقد يكون هذا الجزء المقتطع كلمة أو أكثر، حتى تخال الكلام واحدًا، ممزوجة فيه الآيات

بتفسيرها، وأحيانًا يفصل بين الألفاظ القرآنية وتفسيرها بقوله: «يعنى» أو «أى»، ويتخلل ذلك بيان أقوال المفسرين من الصحابة أو التابعين، ثم يتعرض للمعانى المعجمية، وما ورد من لغات للفظ المفسر، مصحوبة ببيان المفرد والجمع، أو المذكر والمؤنث.

ثم يفضُّ ابن أبى زمنين إشكالا نحويًا قد يقع للبس أو غموض، فيقوم ببيان الوجه الإعرابى، وعلاقة هذا الوجه بمعناه الدلالى المتفق وتفسير الآية.

كل ذلك مصحوبًا بوجوه القراءات القرآنية المختلفة، مع توجيه كل قراءة نحويًا ودلاليًا لبيان المعنى.

وقد يجود بعض القراءات، مثال ذلك ما قاله فى قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (البقرة: ٨٨) حيث قال: «تُقرأ على وجهين: «غُلْفٌ»، «غُلُفٌ»، وأجود القراءتين: «غُلْفٌ»، بتسكين اللام».

وقد تكون هذه القراءات للصحابة، والتابعين، أو تكون قراءة سبعية أو عشرية.

وهو لا يستطرد فى بيان الوجوه النحوية أو وجوه القراءات إلا فى القليل، مع عناية تامة بتوجيه القراءات.

ويُعقب المصنف ذلك ببيان الأحاديث والآثار التى وردت بشأن هذه الآية، مع الكلام على الناسخ والمنسوخ، والمدنى والمكى، وأسباب النزول، وغير ذلك من مباحث علوم القرآن.

وقد أكثر ابن أبى زمنين من الإحالة على السابق، مخافة التكرار.

موقفه من المسائل الفقهية:

السمة العامة لتفسير ابن أبى زمنين هى الإيجاز مع الإقلال من الخوض فى اختلافات الفقهاء فى بعض الأحكام، مع إحالتها إلى كتب الأحكام، مثال ذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...** ﴾ (النساء: ١٠٢) حيث قال: «ذكر يحيى ونقل فيها

اختلاف الفـقهاء، فاختـصرت ذلك إذ له موضـعه من كتب الفقه سُـنة صلاة الخوف، ونقل فيها اختلاف الفقهاء، وقال: «فاختصرت ذلك إذ له موضعه من كتب الفقه».

وقال فى آخر تفسير سورة النســاء: «ذكر يحيى فى هذه السورة مسائل من الفرائض فاختصرت كثيرًا منها؛ إذ للفرائض بأسرها مواضعها من كتب الفقه».

موقفه من الحديث النبوى الشريف:

من المـلاحظ أن الأحـاديث والآثار التى رواها ابن أبى زمـنين هى عن يحـيى بن سلام بإسـناده، وإيراد هذه الأحاديث والآثار بأسـانيدها، له فـائدة عظيمـة فى معـرفه أسانيدها تلك الأحـاديث والآثار والحكم عليها، وفى كثـير من هذه الأحاديث والآثار غرائب مما يزيد فى قيمة الكتاب عند طلبة الحديث النبوى، ويكفى أن تعرف أن بعض أحاديث هذا التفسـير لم يقف عليها جمع من كبار الحفـاظ؛ أمثال: الحافظ زين الدين العراقى فى تخـريجه لإحياء علوم الدين، والحـافظ جمال الدين الزيلعى فى تخـريجه لأحاديث الكشـاف، والحافظ شهـاب الدين بن حجر فى: «الكاف الشـاف فى تخريج أحاديث الكشاف»، وغيرهم، كما صرحوا فى بعض هذه الأحاديث بذلك.

من كل ما ذكرنا ندرك قيمة هذا التفسير؛ فهو ليس مجرد اختصار لتفسير يحيى بن سلام فحـسب، بل أضحى هذا التفسيـر مستقلا عن تـفسير يحيى بن سـلام؛ بكثرة ما أضافه إليه.



٢- التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل

للإمام المهدوى

• **التعريف بصاحب التفسير**[١]:

هو العباس أحمد بن عمار بن أبى العباس المهدوى، ولد بالمهدية من بلاد القيروان، أستاذ مشهور، رحل وقرأ على: محمد بن سفيان، وعلى جده لأمه: مهدى ابن إبراهيم، وأبى الحسن أحمد بن محمد القنطرى بمكة.

له من المؤلفات: الهداية فى القراءات السبع، والتفصيل فى التفسير، والتحصيل، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى بعد الثلاثين وأربعمائة، رحمه الله تعالى.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير لم يطبع بعد، ومنه عدة نسخ خطية فى مكتبات كثيرة، ومنها نسخة فى دار الكتب المصرية، وأخرى فى الدار أيضًا مصورة عن نسخة برلين بألمانيا، وقد اطلعت على أجزاء كبيرة منهما.

وقد حقق الكتاب الدكتور أحمد القرشى، المدرس بجامعة الأزهر، وذلك فى أطروحته المقدمة لنيل درجة الدكتوراة فى كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، وقد استفدت منها كثيرًا فى بحثى هذا.

وقد مدح هذا التفسير ونقل عنه الأئمة، وضَمَّنه الإمام الديرينى منظومته المسماة بـ «التيسير فى التفسير» ومدحه مع غيره من أئمة التفسير بقوله:

والمهدوى البحر ذى الفضل الجلى

والدامغانى والقشيرى الولى

---

(١) مصادر الترجمة: إنباه الرواة (١/ ٩٩)، طبقات القراء لابن الجزرى (١/ ٩٢)، طبقات النحاة لابن قاضى شهبة (١/ ٢٢٧)، طبقات المفسرين للداوودى (رقم ٥١/ ص٤٤).

السبب الداعى لهذا التأليف:

وقد سـجل المهدوى فى مـقدمة كـتابه السبب الداعى لهـذا التأليف فقـال: «أمر المـوفق، أطال الله بقاءه للعلوم يرفـعهـا، وللمعـانى يجمـعهـا، وللمكارم يصنعـها، ولعِصَابة الأدب يذب عنهـا ويمنعها، باختصـار كتاب «التفصـيل الجامع لعلوم التنزيل» المؤلف لخزانته العالية، أدام الله فيها ـ بدوام أيامه ـ النعم المتوالية، بعد حصوله لديه، ووقوفه عليه، ليكون هذا الاختصار قريب المتناول، لمن أراد التذكار، كما كان الجامع خزانة جامعة لمن أراد المطالعة، فبـادرتُ إلى امتثال أمره، ولم أقصر، وأهطعت إليه، ولم أعذر».

منهج المهدوى فى تفسيره:

وقد أوضح المهـدوى منهجه الذى سار عليه فى تفـسيره، وذلك فى مقدمـة كتابه حيث قال: «وأنا مـبتدئ ـ إن شاء الله ـ فى نظم هذا المختـصر الصغير، ومجـتهد أن أجمع فيه أغراض الجامع الكبيـر، من الأحكام المجملة، والآيات المنسوخة وأحكامها المهملة، والقراءات المعهودة المستعملة، والتفسير، والغريب، والمشكل، والإعراب، والمـواعظ، والأمثـال، والآداب، وما تعلق بذلك من سـائر علوم التنزيل المـحتـملة للتأويل.

ويكـون المحـذوف من الأصـل ما أنا ذاكره فى هذا الفصل: فأحذف من الأحكام ـ التى هى أصول الحلال والحرام ـ أكثر تفريع المـسائل المنثورة، مما ليس بمنصوص فى السـورة، وأقتـصـر من ذكر الاختـلاف على الأقوال المـشـهورة، وأذكـر الناسخ والمنسـوخ بكمـاله، وأورده مخـتصـرًا على أتم أحـواله، وأذكـر القراءات السـبع فى الروايات التى اقتصر عليها أهل الأمصـار، سوى من لم يبلغ مبلغهم فى الاشتهار، إلا ما لا اخـتلاف فيه بـين السبعة القـراء، فإنى أذكره منسـوبًا إلى بعض من روى عنه من القرأة، ليعرف من هذا الاخـتصار ما هو من القراءات المروية، مـما لم يقرأ به قارئ، وإن كان جائزًا فى العربية.

وأذكر من مسائل الإعراب الخـفية ما يحتاج إليه، مما اخـتلف القراء فيه، أو كان جائزًا فى المقاييس العقلية، فإذا كـملت السور، وأتيت على آخرها من هذا المختصر،

جمعت فى آخره أصول القراءات، واختصار التعليل فيها، وأصول مواقف القراءة ومبادئها، وذكر السور، وعدد آيها، ليجمع ـ بعون الله وتوفيقه ـ هذا الاختصار ما لم تجمعه الدواوين الكبار، ولتكون أغراض الجامع مضمنة فيه، ومجملة فى معانيه.

وأجعل ترتيب السور مفصلاً؛ ليكون أقرب متناولاً، فأقول: القول من أول سورة كذا إلى موضع كذا منها، فأجمع من آيها عشرين آية أو نحوها، بقدر طول الآى وقصرها، ثم أقول: الإحكام والنسخ، فأذكرهما، ثم أقول: التفسير، فأذكره، ثم أقول: القراءات، فأذكرها، ثم أقول: الإعراب، فأذكره، ثم أذكر الجزء الذى يليه، حتى آتى ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى آخر الكتاب على ما شرطته فيه، وأذكر فى آخر كل سورة موضع نزولها، واختلاف أهل الأمصار فى عددها، وأستغنى عن تسمية رءوس آيها».

موقفه من المكى والمدنى وعد الآى:

يُولى المهدوى ـ فى تفسيره ـ المكى والمدنى وعدّ الآى عناية خاصة، مثال ذلك قوله فى آخر سورة البقرة: «هذه السورة مدنية، وعددها فى الكوفى مائتان وست وثمانون، وفى البصرى سبع وثمانون، وفى بقية العدد خمس وثمانون، اختلافها إحدى عشرة آية».

وكذلك فى سورة الأنعام حيث قال: «هذه السورة مكية، وقد روى عن ابن عباس وغيره: ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة من قوله تعالى: ﴿**أَتْلُ**﴾ إلى قوله: ﴿**تَتَّقُونَ**﴾ (الأنعام: ١٥١ - ١٥٣)، ونزلت جميعها سواهن جملة بمكة؛ عددها فى المدنيين والمكى مائة آية وسبع وستون آية، وفى البصرى والشامى ست، وفى الكوفى خمس، اختلف فيها فى أربع آيات».

موقفه من أسباب النزول:

عُنى المهدوى فى تفسيره بذكر أسباب النزول، وتوسع فى ذكرها كثيرًا، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ (البقرة: ١٥٨) حيث ذكر المهدوى سبب نزول هذه الآيات فقال: «قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ لعروة بن الزبير وقد سألها عن الآية، وقال: ما أرى على

أحد شيئًا ألا يطوف بهما، فـقالت له: لا، ولو كان كذلك لكانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهـما، إنما أُنزلت فى الأنــصار، كانوا يُهلـون لمناة، وكانت مناة حـذو قديد، وكانوا يتحرجـون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جـاء الإسلام سألوا النبى ﷺ عن ذلك، فنزلت الآية».

وأحيانا يذكر المهدوى سبب النزول فى معـرض كلامه على الأحكام الفقهية، مثال ذلك ما قاله عنـد قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة: ٢٣٢) .

وربما أورد المـهـدوى فى سبب نزول الآيـة أكثر من رواية دون أن يرجح بـينها، مثال ذلك ما ذكـره عـند تفسير قـوله تعالى: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ (الرعـــد: ١٣) حيث ذكر أنهـا نزلت فى عامر بن طفيل وأربد بن قـيس حين أرادا الغدر بالنبى ﷺ ، فأرسل الله على أربد صـاعقة فمـات، وأصاب عامر الطاعـون فى عنقه فمـات، وقيل: نزلت فى يهـودى قال للنبى ﷺ : أخبـرنى من أى شىء ربك؟ أمن لؤلؤ أو من ياقوت؟ فجاءت صاعقة فأحرقته، روى ذلك عن مجاهد وأنس.

المهدوى وتفسير القرآن بالقرآن:

وقد اعتدَّ المهدوى بهذا النوع من التفسـير اعتدادًا واضحًا، فنراه يستدل على معنى كلمة مـجملة بمـا فُصِّل فى مكان آخـر، مثال ذلك مـا ذكره فى تفسـير قـوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البـقـرة: ٣٧) حيث نقل المهـدوى عن مجاهد والضحاك وابن جبير أن الكلمات هى ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣) .

ومن ذلك أيضًا، مـا جاء عند تفسـير قـوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ (سبأ: ١) حيث ذكر المهدوى أن الحمد فى الآخرة هو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ (الزمر: ٧٤) أو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠) .

كما يستدل المهدوى بالقرآن على تعدد المعانى للكلمة الواحدة، مثال ذلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتـحة: ٦) حيث قال المهدوى:

«أى: أرشدنا ووفقنا، وأصل الهداية: الدلالة... وقد تأتى «هديت» بمعنى: بينت، نحو: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ (فصلت: ١٧) أى: فبيَّنا لهم، وبمعنى ألهمت، نحو: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ (الإنسان: ٣)، وبمعنى: دعوت، نحو: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)».

ومن ذلك أيضًا ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٣٥) حيث قال المهدوى: «أصل الظلم: وضع الشىء فى غير موضعه، وقد يسمى به الشرك، كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام: ٨٢)، والجحد نحو: ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٩)، والنقص، نحو: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧)».

وكذلك استدل المهدوى بالقرآن فى توجيه القراءات، مثال ذلك ما ذكره للأوجه الإعرابية المحتملة فى قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ (البقرة: ٨١) حيث قال: «من جمع فمعناه الكبائر الموبقة... ومن أفرد فلأن الخطيئة أضيفت إلى ضمير مفرد، فحسن إفراد المضاف إليه، والمراد الكثرة، ومثله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (النحل: ١٨)».

كما استدل المهدوى بالقرآن على وجه إعرابى، كما جاء عند ذكره للأوجه الإعرابية المحتملة فى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة: ١٨٥) فمن الأوجه التى ذكرها قوله: «﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مبتدأ، و ﴿الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ صفة له، والخبر ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (البقرة: ١٨٥) وأعيد ذكر الشهر تعظيمًا له، كقوله تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ﴾ (الحاقة: ١، ٢)».

كما استدل أيضًا بالآيات المخصصة للآيات التى فيها معنى العموم، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ٤٨) الآية، حيث قال المهدوى: «هذا عام فى اللفظ خاص فى المعنى، خوطب به اليهود لأنهم زعموا أن آباءهم يشفعون لهم، ويبين ذلك قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: ٢٨)، وقوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: ٤٨)».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

والمهدوى يعتمد الحديث فى تفسيره إلا أن منهجه فيه يقوم على حذف الأسانيد وإهمال التخريج، إضافة إلى عدم التزامه بالصحة فى بعض ما يورده، مثال ذلك ما جاء فى تفسير الصراط فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) حيث قال: «وروى عن النبى ﷺ أنه كتاب الله».

وكذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال المهدوى: «المغضوب عليهم اليهود، والضالون: النصارى، روى ذلك عن النبى ﷺ».

وكذلك تفسيره العدل فى قوله تعالى: ﴿وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ (البقرة: ٤٨)، بالفدية.

وكذلك تفسير الويل فى قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ (البقرة: ٧٩) بأنه واد فى جهنم.

وكذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠) حيث قال المهدوى: «هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه، روت ذلك عائشة عن النبى ﷺ».

كما استعان المهدوى بالحديث النبوى فى توجيه القراءات القرآنية، ومن ذلك ما ذكره عند توجيه قراءة الإفراد والجمع فى (الرياح)، من قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ (البقرة: ١٦٤) حيث ساق حديث «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا» فى معرض توجيه قراءة من قرأ بجمع «الرياح» مع الرحمة، وإفرادها مع العذاب.

ومن ذلك أيضًا ما جاء فى توجيه القراءات الواردة فى (بئيس) من قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ (الأعراف: ١٦٥) حيث وجه المهدوى قراءة (بئس) بكسر الباء وسكون الهمز، فقال: «من قرأ «بئس» بالهمز، مثل «فعل» فأصله فعل استعمل اسمًا فصار وصفًا، كما قال النبى ﷺ: «إن الله ينهاكم عن قيل وقال . .»».

كما أفاد المهدوى من الحديث الشريف فى تخصيص ما جاء عامًا فى القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند حديثه عن الأحكام الفقهية فى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ (البقرة: ١٧٣) حيث قال: «الميتة والدم ههنا عموم فى اللفظ، ومعناه الخصوص، لأن النبى ﷺ أحل ميتة البحر والجراد، بقوله ﷺ: «أحلت لى ميتتان: الحيتان، والجراد»».

كما استعان المهدوى بالأحاديث النبوية فى عرضه القضايا الفقهية ـ وما أكثرها فى تفسيره ـ فنراه يستدل على أن الأنبذة المحرمة ليست ما يتخذ من العنب فقط، بل ما يتخذ من العنب وغيره مما يُسكر كثيره، ويستدل على ذلك بما فى الصحيح عن النبى ﷺ «إن من العنب خمرًا، ومن الزبيب خمرًا، ومن البر خمرًا، ومن الشعير خمرًا، ومن العسل خمرًا، وأنا أنهاكم عن كل مسكر» ذكر المهدوى ذلك عند حديثه على الأحكام الفقهية فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ (البقرة: ٢١٩).

موقفه من تفسير القرآن بأقوال السلف:

ويلاحظ عناية المهدوى بإيراد الأقوال المختلفة المنسوبة للصحابة والتابعين فى التفسير، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: ٤٩) حيث قال: «قال ابن عباس: يعنى اللؤلؤ المكنون، وعن الحسن وابن يزيد: شُبهن ببيض النعام يكن تحت الريش من الريح والغبار. سعيد بن جبير والسدى: شُبهن ببطن البيض قبل أن يقشر وتمسه الأيدى».

وربما تعرض المهدوى إلى نقد بعض تلك الآثار والرد عليها، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (البقرة: ٦٥) حيث رد على قول مجاهد فى تفسيره للمسخ قائلا: «إن مجاهدًا خالف جميع من سبقه من أهل التفسير عندما ذهب إلى القول بعدم المسخ المادى، وتأول ذلك بأن المراد هو المسخ لقلوبهم، وظاهر الآية يشير إلى المسخ بدون تأويل، وهذا ما يستفاد من تفسير ابن عباس الذى روى عنه أنهم مُسخوا قردة فأقاموا ثلاثة أيام ثم ماتوا».

موقفه من آيات الصفات:

والمهدوى يميل للتأويل فى باب الصفات، حيث قال فى تفسيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ (البقرة: ٢٩): «قيل معناه: أقبل عليها، وقيل: صعد أمره، وقيل:

قصد إلى خلقها: الإرادة، ولا يجوز أن يحـمل شىء مما جاء فى ذلك على انتقال ولا حركـة ولا زوال، وإنما يحمل ذلك على عـلو قدرته وأمره، ومـا يجوز أن يوصف به تعالى».

وعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥) قـال المهـدوى: «اليدان صفة مـن صفات الله عز وجل، وقـيل: عبَّر باليـدين عن القدرة، وقيل: عـبَّر بهما عن القـوة، وقيل: ذُكرتا للتـأكيد على ما تـستعمله العـرب من نحو قولهم: هذا جنته يداك، فمعنى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ على هذا: لما خلقته».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (الصافات: ١٢) قال فى قراءة الضم: «ويجوز أن يكون إخبار الله تعالى عن نفسـه بالعجب محمولاً على أنه ظهر من أمره وسخطه على من كفر به ما يقوم مقام العـجب من المخلوقين، كما يجمل إخباره تعالى عن نفـسه بالضحك لمن رضى عـنه ـ على ما جاء فى الخـبر عن النبى ﷺ ـ على أنه أظهـر له من رضـاه عنه ما يقـوم له مـقام الضـحك من المـخلوقـين مجـازًا واتساعًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ (الأنعـــام: ٣)، نقل المهـدوى عن الحسن البصرى قـوله: «اجتمع أربعة أمـلاك فقال أحدهم: جئت من الأرض السفلى، قالوا: فـأين تركت ربنا؟ قال: ثَمَّ، وقال أحدهم: جـئت من المشـرق، قـالوا: فأين تركت ربنا؟ قـال: ثَمَّ، وقـال أحدهم: جـئت من المغرب، قالوا: فأين تركت ربنا؟ قال: ثَمَّ».

ثم قال: «وهذا كله إنمـا يحمل على ما يجوز أن يوصف بـه البارى سبحانـه مما قدمناه فى أول الكتاب، لا على وجـه التحيز وشغل الأمكنة وغيـر ذلك مما يوصف به المخلوقون، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦) قال المهدوى: «إضافة الكلام إلى الله ـ عز وجل ـ إضـافة صفة إلى موصوف على الحـقيقة، لأن ذاته تعالى غير متعرية من الكلام، وليست إضافة خلق إلى خالق، ولا ملك إلى مالك، ولا إضافة تشريف».

رؤية الله تعالى:

ذهب المهدوى إلى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، وقد تناول هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣) الآية، حيث قال: «ويدل على صحة جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) فدخول «إلى» دليل على أنه نظر العين، ولا معنى لقول من قال: إنه من الانتظار، وأن المعنى: ثواب ربها منتظرة؛ لأن العرب لا تقول: نظرت إليه بمعنى انتظرته، إنما تقول: نظرته وانتظرته، ولا يقولون أيضًا: انتظرت زيدًا بمعنى انتظرت عطاءه، أو نحوه، لما فى ذلك من تغيير المعانى، فإنما يضاف النظر إلى الوجوه، والانتظار إلى القلوب، وإنما أضيف النظر إلى الوجوه، والمراد العيون، لأنه فى الوجوه.

وكذلك قول من قال: إن «إلى» واحد الآلاء وليست بحرف جر، والتقدير عنده: نعمة ربها منتظرة، محال ظاهر الفساد؛ لأنه قد أخبر عن الوجوه بأن النعيم قد حل بها فى قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ فكيف يجوز أن يخبر عنها بأنها تنتظر ما قد حلت فيه، وهل يجوز أن تقول: أنا انتظرت زيدًا، وأنت معه؟!».

موقفه من الشفاعة:

اهتم المهدوى بمسألة الشفاعة وحللها، وذكر مفهومها اللغوى، وقرر مذهب أهل السنة والجماعة فيها، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ (البقرة: ١٢٣) حيث قال ما نصه: «سُميت الشفاعة شفاعة لأن طالبها جاء بآخر معه يشفع، والشفع هو: الزوج، وهذا عام فى اللفظ خاص فى المعنى خوطب به اليهود لأنهم زعموا أن آباءهم يشفعون لهم، ويبين ذلك قوله تعالى فى موضع آخر: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء: ٢٨)».

وأورد رأى من أنكر الشفاعة من المعتزلة، وبيّن أن فى هذا ردًا للكتاب والسنة.

موقفه من مرتكب الكبائر:

كما نصر المهدوى مذهب أهل السنة والجماعة فى قضية مرتكب الكبيرة عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء: ٣١)

حيث قال: «أعلم الله تعالى أنه يُكَفِّر الصغـائر باجتناب الكبائر، وروى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قـال فى الكبـائر: «أن تدعو لله ندًا وقـد خلقك، وأن تقـتل ولدك من أجل أن يأكل معك، وأن تزنى بحليلة جارك» وتلا: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ** ﴾ (الفرقان: ٦٨)».

وأورد ما ثبت عن ابن عبـاس وابن عمر، ثم ذكر حكم مرتـكب الكبيرة عند أهل السنة فأوضح أنهـا تُغفر لمن أقلع عنها وتاب قـبل الموت، وأساف أنها قـد تُغفر لمن مات عليها من المسلمين مستدلا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ (النساء: ٤٨).

موقفه من اللغة:

يتـضح من تفـسيـر المهـدوى إحـاطة مؤلفـه الواسـعة بـفنون اللغة وأسـاليـبهـا واستعمالاتها، مع امتلاكه لقواعد اشتقاقـها وتصريفها، ومعرفة غريبها، وقدرته البارعة على توجيه القراءات القرآنية، وحل مشكلات الإعراب الخفية.

ويتسم منهج المـهدوى فى تناوله لشرح المفـردات اللغوية باعتمـاده لأقوال علماء اللغة والنحو السابقين، وخاصة من عرف منهم بعـنايته بالتفسير اللغوى للقرآن الكريم، أمثال سيبويه، والفراء، وأبى عبيدة، والأصمعى، والمبرد، وغيرهم.

يقول المهدوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (الفاتـحة: ١): «والأصل فى اسم الله الذى هو «الله» عـند سـيـبـويـه (لاه) دخلت عليـه الألف واللام للتعظيم لا للتعريف، ولسيبويه أيضًا قول آخر: أن أصله (إله) فحذفت الهمزة.. إلخ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا** ﴾ (النبأ: ٩) فسَّر المهدوى السبات بالراحة فقال: «يقال: سبتت المرأة شعرها: إذا حلَّته وأرسلته، وقيل: إن أصل السبات الانقطاع عن العمل من أجل الراحة، ومنه يوم السبت».

ومن المباحث اللغوية التى أولاها المهدوى اهتمامًـا كبيرًا مبحث الاشتقاق، وهذه بعض النماذج التى توضح عناية المهدوى بهذا المبحث ومنهجه فيه:

* ما جاء فى معرض تفـسير قوله تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ** ﴾ (البـقـرة: ٣٠) حـيث قال المـهدوى: «نسـبح بحـمدك: ننزهك عن الـسوء ونبـرؤك منه، وأصله من «السبح» الذى هو الجرى، فالمسبح جارٍ فى تنزيه الله تعالى وتبرئته من السوء».

* ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ (البقرة: ٥٣) حيث قال: «أى: إلى خالقكم، برأ الله الخلق يبرؤهم، وأصله من تبرى الشىء، وهو انفصاله منه، فالخلق قد فصلوا من العدم إلى الوجود».

وإذا كان هناك أكثر من رأى فى اشتقاق الكلمة، فإن المهدوى يذكره، ومن ذلك ما قاله فى اشتقاق لفظة (ملك) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠).

ومن الجوانب التى طرقها المهدوى وبرزت فى تفسيره (الاشتراك) فنجده يعنى بعرض المعانى الكثيرة فى اللفظ الواحد، من ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) حيث قال المهدوى فى تفسير الدين: «والدين - ههنا - الجزاء، وفى الخبر عن النبى ﷺ: «يوم الدين: يوم الحساب» وقد يقع الدين للدأب والعادة، ويقع للانقياد والطاعة، ويقع للعادة».

وكذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ (البقرة: ٢٣٥) حيث قال: «والسر فى اللغة يكون على ثلاثة أوجه: الإخفاء فى النفس، والغشيان - أى: الجماع - والشرف فى الحسب، يقال: فلان من سر قومه، إذا كان من صميمهم».

موقفه من النحو:

برز الجانب النحوى فى تفسير المهدوى كأحد المعالم الرئيسية فى منهجه كوسيلة أساسية لفهم آيات القرآن الكريم، وللمهدوى فى معالجة الجانب النحوى سمات معينة، أهمها:

(أ) ممارسة الإعراب منفصلاً عن التفسير.

(ب) تناوله من مسائل الإعراب المسائل المشكلة والخفية، دون الواضحة الجلية، وقد صرح المهدوى بذلك فى مقدمة تفسيره حين قال: «وأذكر من مسائل الإعراب الخفية ما يحتاج إليه، مما اختلف القراء فيه، أو كان جائزًا فى المقاييس العقلية».

(جـ) التوسع فى إعراب الآيات، وذكر الأوجه الإعرابية المحتملة فيها، وحكاية أقوال العلماء من أئمة النحو، مثال ذلك ما جاء فى إعراب قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ (البقرة: ١٠٢) فقد حشد المهدوى جميع ما قيل فى

عطف ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ من آراء واحتمالات وأقوال، وأشبع فى ذلك القول، حتى قال «السمين الحلبى» بعد نقله لما قاله المهدوى فى المسألة المذكورة: «وقد أمعن المهدوى فيها فأمتع».

والمهدوى يميل كثيرًا إلى المذهب البصرى فى النحو، ويقدمه على مذهب الكوفيين فى كثير من المواضع، ويُفصل فى عرض المذهب البصرى، ويُجمل أو يُشير سريعًا إلى المذهب الكوفى، مع كثرة اعتماده سيبويه وغيره من اعمدة مدرسة البصرة.

ومن النماذج الدالة على ما سبق يُنظر ما قاله فى نصب «بعوضة» من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦)، وكذلك ما قاله فى إعراب قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة: ٤٨).

الصور البلاغية فى تفسير المهدوى:

عُنى المهدوى فى تفسيره بالبلاغة القرآنية إلى حد ما، ولكنه لم يتوسع فى ذلك إلى الحد الذى بلغه المشارقة، كالزمخشرى وغيره، وفيما يلى بعض الصور البلاغية المتنوعة التى برزت فى تفسيره:

* **المجاز العقلى**: وقد عرض له المهدوى فى مواضع كثيرة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ (البقرة: ١٦) حيث أشار إلى أن إسناد الربح إلى التجارة هو من الإسناد المجازى، فقال: «والعرب تقول: ربح تجره، على الاتساع، والمعنى ربح فى تجره».

* **المشاكلة**: وقد عرض لها المهدوى فى مواطن كثيرة، ومن ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٥) حيث قال: «أى يجازيهم على استهزائهم، والعرب تستعمل ذلك كثيرًا؛ يعنى تسمية العقوبة باسم الذنب، كما سمى جزاء السيئة سيئة».

* **الالتفات**: وقد عرض له المهدوى فى صوره المتعددة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «خروج من لفظ الغيبة إلى الخطاب، والعرب تستعمل ذلك».

موقفه من الشعر:

والمهدوى لا يكثر من الاستدلال بالشعر فى تفسيره، ومن مواضع استدلاله بالشعر ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ (البقرة: ١٠٢) حيث نقل المهدوى ما قاله البعض من أن معنى ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ يُعْلِمان، وساق على ذلك شاهدًا شعريًا لكعب بن زهير، هو:

تعلم رسول الله أنك مدركى وأن وعيدًا منك كالأخذ باليد

وأكثر استعانة المهدوى بالشعر كانت فى مجال الاحتجاج للقراءات، ومن ذلك ما جاء فى احتجاجه لقراءة إسكان الياء فى (بقى) من قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ (البقرة: ٢٧٨) حيث استشهد بقول جرير:

هو الخليفة فارضوا ما رضى لكم ماضى العزيمة ما فى حكمه جنف

ويلاحظ فى استشهاد المهدوى بالشعر أنه أحيانًا يذكر أكثر من شاهد فى الموضع الواحد، ينظر مثلاً ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ...﴾ (البقرة: ٥٣) الآية.

والمهدوى فى استشهاده بالشعر لا يغفل ـ فى الأعم الأغلب ـ نسبة الشعر إلى قائله، مع توضيح الشاهد فى البيت، وربما اكتفى بشطر البيت الذى فيه الشاهد.

مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ (الشورى: ٤٥) حيث قال: «وقيل: إن الطرف ههنا العين، والمعنى ينظرون من عين ضعيف النظر، والعرب تستعمل هذا فى القريب، ومنه قول الشاعر:

* فغض الطرف إنك من نمير *».

موقفه من القراءات:

ورغم كثرة تآليف المهدوى فى القراءات إلا أنه خصص لها بابًا فى «التحصيل»، وقال فى مقدمة كتابه: «وأذكر القراءات السبع فى الروايات التى اقتصر عليها أهل الأمصار، سوى من لم يبلغ مبلغهم فى الاشتهار، إلا ما لا اختلاف فيه بين السبعة

القراء، فإنى أذكره منسوبًا إلى بعض من رُوى عنه من القراء، ليعرف من هذا الاختصار ما هو من القراءات المروية مما لم يقرأ بها قارئ، وإن كان جائزًا فى العربية».

ويكاد القسم الخـاص بالقراءات من تفسـير المهـدوى أن يشكل بمفرده كـتابًا فى القراءات واختلاف أوجهها مما يستحق أن يضاف إلى كتبه الأخرى التى أفردها بالتأليف فى هذا الفن.

وجاء فى آخـر كتابه قوله: «قـد أتيت فى جميع سـور القرآن على ما شـرطته فى صدر الديـوان، وأنا أذكر على أثر ذلك أصـول القراءات، وأجمل مـنها ما بسطـته فى الكبير».

وقد توسع المهدوى فى ذكر القراءات، المتواتر منها والشاذ، مع نسبة القراءة لمن قرأ بها من القراء، فإذا كانت القراءة سبعـية فإنه يستوعب ذكر كل من قرأ بها من القراء السبعة، وأحيـانًا يذكر من قرأ بها من بقية القراء العشـرة، وإذا كانت القراءة عشرية أو شاذة فإنه يعزوها لمعظم من قرأ بها، ولا يـغفل المهدوى ذكر بعض القراءات المسندة إلى بعض الصحابة ـ ﷺ ـ أمـثال: عمر بن الخطاب، وعلى، ومـعاذ بن جبل، وأبى ابن كعب، وغيرهم، ومن ذلك مـا جاء عند قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البـقـرة: ٢١٩) حيث ذكر قراءة ابن مسعود: (أكـثر) بالثاء، ومن ذلك أيضًا ما جاء عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤) حيث ذكر قراءة أم المؤمنين عائشة وابن عباس (يُطَوَّقونه) بضم الياء وتخفيف الطاء وواو مفتوحة مشددة.

وينتقد المهدوى بعض القراءات الشاذة لمـخالفتها للمصحف، ومن ذلك قراءة أبى رجاء (عـوهدوا) بالبناء للمفعـول، ومن ذلك أيضا قراءة الحـسن: (والملائكة والناس أجمعون).

ومن أهم أصول الاحتجاج فى القراءات عند المهدوى: الآيات القرآنية، مثال ذلك ما ذكره عند قراءة «ملك» و ﴿مَالِكِ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة: ٤) احتـج لقـراءة «ملك» بـقـوله تعالـى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ﴾ (غـافـر: ١٦)، وبقـولـه: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (الناس: ٢)؛ واحتج لقراءة ﴿مَالِكِ﴾ بقوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ (آل عمران: ٢٦).

وكذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ (البقرة: ١٣٦) قرأ حمزة والكسائى: (تماسوهن) بألف وضم التاء من باب المفاعلة، وقرأ الباقون (تمسوهن) بفتح التاء بلا ألف، وقال المهدوى فى توجيه ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: على إسناد الفعل إلى الرجل خاصة، كما قال: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ (آل عمران: ٤٧).

كما يُعنى المهدوى فى تفسيره بتوجيه القراءات، فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ (الصافات: ١٢) قال: «من فتح التاء فهو على الخطاب للنبى ﷺ، ومن ضم، جاز أن يكون على معنى أن حالهم إذا تأملتموها كانت مما يقول القائل منكم: عجبتُ، ويجوز أن يكون على إضمار القول كأنه قال: قل يا محمد: عجبت، وإضمار القول كثير».

عنايته بالوقف والابتداء:

وللمهدوى فى تفسيره عناية بموضوع الوقوف فى القرآن، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا﴾ (الزخرف: ٥١، ٥٢) حيث قال: «إن الوقف على ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وقال: «وروى عن عيسى الثقفى ويعقوب الحضرمى أنهما وقفا على (أم)، على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؟، فحذف تبصرون الثانى، وقيل: من وقف على (أم) جعلها زائدة، وكأنه وقف على ﴿تُبْصِرُونَ﴾ من قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ولا يتم الوقف على ﴿تُبْصِرُونَ﴾ عند الخليل وسيبويه لأن (أم) تقتضى الاتصال بما قبلها».

موقفه من المسائل الفقهية:

الاتجاه الفقهى أحد الأسس التى أقام المهدوى عليها تفسيره، فتناوله فى مباحث منفصلة عن التفسير، وتوسع فى ذكر الأحكام الفقهية، وجمع أقوال الصحابة والتابعين، وأقوال الأئمة المجتهدين، حتى لكأن «التحصيل» كتاب فقه مقارن.

والمهدوى عند تناوله لآيات الأحكام يفيض فى ذكر المسائل الفقهية المتعددة المرتبطة بالآية، فمثلا عند قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) تكلم عن أعمال الحج، أعمال العمرة، ما يمتنع على المُحرِم (الرجل والمرأة)، حكم

الحج، حدود الاستطاعة، حكم العمرة، حكم فسخ الحج إلى العمرة، حكم الإحصار (الإحصار بالعدو، والإحصار بالمرض) ما يجب على المحصر فعله.

وعند تناوله للأحكام في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨٢) تكلم عن: شهادة العبيد، شهادة الصبيان، شهادة ولد الزنا، شهادة القاذف إذا تاب، شهادة من أتى حدًا من الحدود، شهادة القدرية، شهادة الولد للوالدين، والوالدين للولد، شهادة أحد الزوجين للآخر، شهادة الأعمى، شهادة شاهد الزور، شهادة امرأتين مع الرجل، شهادة النساء فى الحدود، نقل الشهادة.

والمهدوى لا يصرح باختياره لأحد الآراء الفقهية، وهو المنهج الذى سار عليه فى تناوله لأغلب المسائل الخلافية، غير أنه يمكن ملاحظة ميله إلى مذهبه المالكى إذ كثيرًا ما يورد رأى مالك فى الصدارة، ثم يعقبه برأى الشافعى، ثم يذكر رأى أبى حنيفة.

موقف المهدوى من النسخ:

أولى المهدوى فى تفسيره قضية النسخ اهتمامًا كبيرًا، فقال فى مقدمة تفسيره: «وأذكر الناسخ والمنسوخ بكماله، وأورده مختصرًا على أتم أحواله».

وقد تكلم المهدوى باختصار عن معنى النسخ وأقسامه، عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) ثم أحال القارئ إلى كتابه الكبير لزيادة البيان والتفصيل.

كما تناول المهدوى دعاوى النسخ مع المسائل الفقهية تحت عنوان (الإحكام والنسخ) وجمع بينهما، لما بينهما من ارتباط وثيق، وقد توسع المهدوى فى ذكر ما ورد عن الأئمة فى دعاوى النسخ، مع عزو أقوال النسخ لقائليها، وأدلى المهدوى بدلوه فى المناقشة والترجيح فيما أورده، ومن هذا القليل ما جاء عند قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) حيث ذكر ما ورد عن السلف فى إحكام الآية ونسخها، ورجح الإحكام، ووجه ما ورد عن القائلين بالنسخ، فقال: «وأحسن ما يحمل هذا المذهب عليه أن تكون الآية إنما نسخت الشدة اللاحقة بأصحاب النبى ﷺ عند نزولها، من قولهم: نسخت الريح

الآثار، أى أزالتـهـا، فكأن اللين فـى الآية الأخـرى أزال الشـدة التى فى الأولى وحل محلها، فإن لم يحمل على هذا ففيه بعد؛ لأن الآية خبر، وإذا لم يكن فى الخبر معنى الأمر والنهى استحال نسخه».

ولا يجيز المهدوى نسخ القرآن بالسنة حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا**﴾ (آل عمران: ٤١): «قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسنة: إن زكـريا ـ عليـه السـلام ـ مُنع الكلام وهو قـادر، وإنه منسـوخ بقـول النبى ﷺ: «ولا صمات يوم إلى الليل»، وأكثر العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وعلى أن زكريا إنما منع من الكلام بآفـة دخلـت عليـه منعتـه من الكلام، وتلك الآفة عـدم المقـدرة على الكلام مع الصحة، كذلك قال المفسرون، وذهب كثير من العلماء إلى أن قوله ﷺ: «لا صمات يـوم إلى الليل» إنما معناه عن ذكر الله، وأمـا عن الهذر وما لا فائـدة فيه، فالصمت عن ذلك واجب».

كما لا يجيز المهدوى نسخ الأخبار ويرى أنه مستحيل، ولهذا فهو يرفض أن تكون آية النساء الواردة فـى وعيد القـاتل ناسخة للآية فى آخـر فى سورة الفـرقان المتـضمنة حصول التوبة له.

موقفه من السيرة والتاريخ وذكر الغزوات:

يولى المهدوى فى تفـسيره أحداث السـيرة والغزوات عناية خاصة، مـثال ذلك ما ذكـره فـى قـولـه تعـالــى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ (الفـتح: ١٨) حيث قال: «يعنى بيعة الرضوان التى كـانت فى الحديبية، بايع المسلمون النبى ﷺ تحت شـجرة على المـوت، وكانوا ألفًـا وستـمائة، وقـيل فيمـا زاد على الألف: إنه خمسمائة، وقيل: ثلاثمائة، وعن ابن عباس: ألف وخمسمائة وعشرون».

موقفه من الإسرائيليات:

لم يخل تفسير المهدوى من ذكر بعض الإسـرائيليات، مثال ذلك ما ذكره فى قصة هاروت وماروت، وكذلك ما أورده فى تفسير السكينة فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ (البقرة: ٢٤٨).

موقفه من أحاديث فضائل السور:

والمهدوى يتعرض فى تفسيره لفضائل السور والآيات، ويورد فى الأعم الأغلب ما صح فيها من الأحاديث، مثال ذلك ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ**﴾ (البقرة: ٢٨٥) حيث قال: «روى أن النبى ﷺ قال: كتــب الله كتابًا قبل أن يخلق الســموات والأرض بألف عام فأنزل منه آيتــين ختم بهما سورة البقرة، ولا تقرآن فى دار ثلاث ليال، فيقربها الشيطان».

وقال فى سورة الأنعــام: «جاء فى الخبر أن ســورة الأنعام نزل معها سـبعون ألف ملك مع آية واحدة منها اثــنا عشر ألف ملك وهى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ**﴾ (الأنعام: ٥٩) الآية، ونزلت سورة الأنعام جملة».

وأخيرًا ندعو الله تعالى أن يُعجِّل بخروج هذا الـتفسير إلى عالم النور، بعد أن ظل حبيسًا فى عالم المخطوطات.

* * *

٣- تفسير السمعانى

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو: منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمى السمعانى، أبو المظفر المروزى، الحنفى ثم الشافعى، وهو جد أبى سعد السمعانى صاحب «الأنساب».

ولد سنة ست وعشرين وأربعمائة.

وسمع بمرو: أباه، وأبا بكر محمد بن عبد الصمد الترابى، وأبا غانم أحمد بن على الكراعى، وببغداد من عبد الصمد بن مأمون، وبنيسابور من أبى صالح المؤذن، وبمكة من أبى القاسم سعد بن على الزنجانى، وغيرهم.

وأخذ فقه أبى حنيفة عن أبيه أبى منصور السمعانى.

وكان قد دخل بغداد فى سنة إحدى وستين وأربعمائة، وناظر أبا نصر الصباغ، واجتمع بأبى إسحاق الشيرازى، وهو إذ ذاك حنفى، ثم خرج إلى الحجاز، فجاور بمكة، ثم عاد إلى مرو فى سنة ثمان وستين، فأظهر الانتقال إلى مذهب الشافعى، فاضطرب أهل مرو، ووقعت فتنة، فخرج عن مرو، ونزل نيسابور، فعقد له مجلس التذكير، ثم عاد إلى مرو، ودرَّس بها فى مدرسة الشافعية، وقدَّمه نظام الملك على أقرانه.

وكان أبو المظفر أحد العلماء بالحديث، مفسرًا، مفتيًا.

حدث عنه: أبو نصر محمد بن يوسف القاشانى، والقاضى أبو القاسم الجنيد بن محمد بن على، والقاضى أبو البدر حسان بن كامل بن صخر، وأبو منصور محمود بن أحمد بن عبد المنعم، وابنه أبو بكر محمد بن منصور، وطائفة.

وكان شوكًا فى أعين المخالفين، كما قال الذهبى.

---

(١) **مصادر الترجمة:** الأنساب للسمعانى (٣/ ٢٩٩)، المنتظم (٩/ ١٠٢)، اللباب (٢/ ١٣٨ - ١٣٩)، وفيات الأعيان (٣/ ٢١١)، سير أعلام النبلاء (١٩/ ١١٤ - ١١٩)، طبقات السبكى (٥/ ٣٣٥ - ٣٤٦)، طبقات المفسرين للداودى (٢/ ٣٢٩، ٣٤٠)، هداية العارفين (٢/ ٤٧٣)، كشف الظنون (١/ ٤٤٩).

وصنَّف كتبًا، منها: منهاج أهل السنة، القواطع فى أصول الفقه، البرهان، ويشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية، الأحاديث الألف الحسان، الرد على القدرية، الطبقات، الاصطلام فى الرد على أبى زيد الدبوسى، الانتصار لأصحاب الحديث، والتفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى فى ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير طبع مؤخرًا فى دار الكتب العلمية، وفى دار الوطن بالرياض، ويقع فى ست مجلدات.

موقفه من المكى والمدنى وأسماء وفضائل السور:

يُعنَى السمعانى فى تفسيره بذكر المكى والمدنى، وأسماء السور، وذكر ما ورد فى فضلها من أحاديث، ومدار معظمها صحيح، مثال ذلك قوله عند تفسير سورة الأنعام: «اعلم أن سورة الأنعام مكية، روى يوسف بن مهران عن ابن عباس ﵄ أنه قال: سورة الأنعام نزلت جملة بمكة ليلة، معها سبعون ألف ملك يحدونها بالتسبيح، وقد رُوِى هذا مرفوعًا إلى النبى ﷺ، وفى تمام الخبر عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأها فى ليلة استغفر له السبعون ألف ملك أولئك، ليله ونهاره إلى أن يصبح» وفى بعض الروايات: «أن تلك الملائكة كان لهم زجل بالتسبيح، وكانت الأرض ترتج، والنبى ﷺ يقول: سبحان ربى العظيم حتى نزلت» وفى رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال: نزلت سورة الأنعام جملة بمكة إلا آيتين: قوله تعالى: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا** ...﴾ (الأنعام: ١٥١) الآية، وقوله: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ...﴾ (الأنعام: ٩١) الآية، وفى بعض الروايات: «إلا ثلاث آيات، من قوله: ﴿**قُلْ تَعَالَوْا**﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، وعن عمر ﵁ أنه قال: سورة الأنعام من نجائب القرآن، وعن علىٍّ ﵁ أنه قال: من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى فى رضا ربه».

وعند تفسير سورة براءة قال السمعانى: «اعلم أن هذه السورة مدنية، وقد صح عن النبى ﷺ برواية البراء بن عازب: «أنها آخر سورة أُنزلت كاملة» ولها أسماء كثيرة.

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه السورة، فقال: هى الفاضحة، ما زال ينزل

قوله تعالى: ومنهم، ومنهم، حتى ظننا أنه لا يترك منا أحـدًا، وقال حذيفة بن اليمان: هى سورة العذاب.

ومن المعروف أنها تسمى سورة البحوث، ومن أسمائها: المبعثرة، ومن أسمائها: المنيرة، ومن أسمائها: الحافرة، لأنهـا حفرت عن قلوب المنافقين، وروى النقاش عن ابن عمر أنها تسمى المقشقـشة، وعن عمران بن حدير أنه قال: قرأت هذه السورة على أعرابى، فقـال: هذه السورة أظنها آخر مـا أنزلت، فقلت له: ولِمَ؟ فقـال: أرى عهودًا تُنبذ، وعقودًا تُنقض».

موقفه من أسباب النزول:

عُنِىَ السمعانى فى تفسيره بذكر أسبـاب النزول، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ (النساء: ٩٣) حيث قال: «نزلت الآية فى مقيس بن ضبابة الليثى، أسلم وأخوه هشام، ثم وجد أخاه مقتولاً فى بنى النجار، فجاء إلى النبى ﷺ فى ذلك، فبعث مـعه رجلاً فهريًا إلى بنى النجار، وأمـرهم أن يدفعوا إليه قاتل أخـيه، أو يسلموا الدية، فجاءا إليـهم، وبلَّغا الرسالة، فقالوا: سمـعًا وطاعة لرسول الله، والله ما نعرف القـاتل، وساقوا الدية إليه مائة من الإبل، فلمـا رجعا أقبل مقيس وقتل الفهرى، واستاق الإبل، ولحق بمكة وارتد، وقال الشعر:

قـتلت به فـهـرًا وحـمـلتُ عـقله ... سراة بـنى النجـار أربـاب فـارعِ

فأدركت ثأرى واضطجـعت موسرًا ... وكـنـت إلـى الأوثـان أول راجـعِ

فنزلت الآية فيـه، وهو الذى أمر النبى ﷺ بقتله، فـجاء الجماعـة الذين عيَّنهم للقتل يوم فتح مكة، فقُتِل وهو متعلق بأستار الكعبة».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة وأقوال السلف:

والسمـعانى يعتـمد الحـديث وأقوال الصحـابة والتابعيـن فى تفسيـره، مع حذف الأسانيد إلا فى مروياته عن البـغوى، وقد يحيل الأحاديث إلى مُخرجيـها، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١) قال السمعانى: «روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنًى فانشق القمر فلقتين، فلقة وراء الجبـل، وفلقة دونه، وأنزل الله تعـالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ وعـن ابـن

عباس: أن المشركين سألوا من النبى ﷺ آية، وروى أنهم قالوا له: إن كنت صادقًا فشُقَّ القمر لنا حتى نرى قطعة منه على أبى قبيس، وقطعة منه على قيقعان، فدعا الله تعالى وانشق القمر على ما أرادوا، فقال النبى ﷺ : «اشهدوا اشهدوا».

ثم يورد السمعانى بعض الشبهات ويردها، فيقول: **فإن قيل**: ابن عباس لم يكن رأى انشقاق القمر، فكيف تصح روايته؟ وأما ابن مسعود فقد تفرد بهذه الرواية، ولو كان قد انشق القمر لرواه جميع أصحاب رسول الله ﷺ ، أيضًا لو كان ثابتًا لرواه جميع الناس، ولأرَّخوا له تاريخًا، لأنهم قد أرَّخوا ما دون هذا من الحوادث، وإنما معنى الآية: انشق أى: ينشق، وذلك يوم القيامة، ويقال: معنى انشق القمر: أى: انكسف، **فالجواب**: أنه قد ثبت انشقاق القمر بالرواية الصحيحة، رواه ابن مسعود وجبير بن مطعم، شهدا بالرؤية، ورواه ابن عباس وابن عمر وأنس، وروى بعضهم عن عبد الله بن عمرو، ومن المحتمل أنه روى عن رؤية، وقد كان ابن مسعود روى هذا عن رؤيته، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة، فكان ذلك اتفاقًا منهم، ثم الدليل القاطع على ثبوته الآية.

وقوله: إن معناه سينشق القمر، **قلنا**: هذا عدول عن ظاهر الآية، ولا يجوز إلا بدليل قاطع، ولأن الله تعالى قال: ﴿**وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾ (القمر: ٢) وهذا دليل على أنهم قد رأوها، ولأنه سماع آية، وإنما يكون آية إذا كانت فى الدنيا، لأن الآية ههنا بمعنى الدلالة والعبرة.

وقوله: إن الناس لم يروا، **قلنا**: يحتمل أنه كان فى زمان غفلة الناس، أو تَسَتَّرَ عنهم بغيم، وقد ردَّ الله تعالى الشمس ليوشع بن نون، ولم يُنقَل أن أحدًا أرَّخ لذلك أيضًا، وقد ذكر فى بعض التفاسير أن أهل مكة قالوا: سحرنا ابن أبى كبشة، فقال بعضهم: سلوا السُّفَّار الذين يقدمون، فإنه إن كان سحرنا فلا يقدر أن يسحر جميع الناس، فقدم السفار وسألوهم وأخبروا أنهم قد رأوا».

والسمعانى فى استدلاله بالأحاديث ليس مجرد ناقل، بل هو ناقد بصير، يتعقب ما يورده ويحكم عليه بميزان المحدثين، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ (الأنعام: ١٥٨) حيث قال: «أجمع المفسرون على أنه أراد به طلوع الشمس

من مغربها، إلا فى رواية شاذة عن معاذ بن جبل أنه: خروج الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وقد ثبت برواية ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال فيه: «هى طلوع الشمس من مغربها» وكذلك رواه أبو سعيد الخدرى مرفوعًا بلفظه.

وقال ابن مسعود: إن الشمس والقمر يطلعان يومئذ أسودين، وروى صفوان بن عسال المرادى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن للتوبة بابًا قِبَل المغرب، عرضه سبعون ذراعًا، فهو مفتوح إلى أن تطلع الشمس من مغربها، ثم يُغلَق فلا تقبل التوبة بعده» فهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ (النمل: ٨٩) حيث قال: «فإن أكثر المفسرين على أن المراد من الحسنة الإيمان، ومن السيئة الشرك، وقد روى صفوان بن عسال المرادى، أن النبى ﷺ قال: «يأتى الإيمان والشرك يوم القيامة فيجثوان بين يدى الرحمن، ويطلب كل واحد منهما أهله، فيقول الله تعالى للإيمان: انطلق بأهلك إلى الجنة، ويقول الله تعالى للشرك: انطلق بأهلك إلى النار، وتلا قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ...﴾ الآية، والخبر غريب، والله أعلم».

موقفه من القراءات:

لم يتوسع السمعانى فى ذكر القراءات، فهو يستشهد فى تفسيره بالقراءات المتواترة والشاذة، مع نسبة القراءة لمن قرأ بها من القراء، كما يورد السمعانى بعض القراءات المسندة للصحابة والتابعين، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) قال السمعانى: «قرئ فى الشاذ: «من أنفَسِكُم» ويقال: إن هذه القراءة قراءة فاطمة - رضي الله عنها، قال يعقوب الحضرمى: طلبت هذا الحرف خمسين سنة فلم أجد له راويًا، ومعنى هذا: أشرفكم وأفضلكم، والقراءة المعروفة: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾» قال قتادة: ومعناه: إن نسبه معروف بينكم».

وقد يتعقب السمعانى بعض القراءات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ (النور: ٣٥) حيث قال: «وقرئ: «درىء» برفع الدال مهموزًا، قرأه حمزة وأبو بكر، وأهل النحو يخطئونه فى هذه القراءة، وقالوا: لا يوجد فعيل فى اللغة، والشاذ: «درى» بفتح الدال».

موقفه من الوقف والابتداء:

وللسمعانى فى تفسيره عناية بموضوع الوقوف فى القرآن، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٧) حيث قال: «فاعلم: أن أُبى بن كعب وعائشة وابن عباس - فى رواية طاوس عنه - رأوا الوقف على قول: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ وهو قول الحسن وأكثر التابعين، وبه قال الكسائى، والفراء، والأخفش، وأبو عبيد، وأبو حاتم، قالوا: إن الواو فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ واو الابتداء، والدليل على صحته قراءة ابن عباس: «ويقول الراسخون فى العلم آمنا به» وروى ابن جريج، عن مجاهد، عن ابن عباس - فى رواية أخرى: الواو للنسق، ولا وقف على قوله: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ وأن الراسخين فى العلم يعلمون التأويل».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام: ٣٦) قال السمعانى: «ههنا الوقف، ومعناه: إنما يستجيب الذين يسمعون سماع القبول».

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ (الفتح: ٢٩) قال السمعانى: «منهم من قال: الوقف على قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ﴾ كلام مبتدأ بمعنى: صفتهم فى الإنجيل كزرع، ومنهم من قال: الوقف على قوله: ﴿فِي الإِنجِيلِ﴾».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ (القمر: ٦) قال السمعانى: «منهم من قال: قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ عليه الوقف، وبه تم الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ ومنهم من قال: معناه: فتول عنهم يوم يدعو الداعى».

موقفه من العقيدة:

وتفسير الإمام السمعانى من التفاسير التى عُنِيت ببيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرد على أهل البدع والأهواء، ودحض شبهاتهم وأباطيلهم، والمطلع على هذا التفسير يتجلى له هذا الأمر جيدًا، فما من آية من القرآن اتخذها أهل البدع والأهواء دليلاً لنصرة مذهبهم، أو صرفوها عن ظاهرها وأولوها، إلا ورأيته متصديًا لهم مبطلا لبدعهم، ومنتصرًا لمذهب أهل السنة والجماعة، ومبينًا الحق فى المسألة، وقد أكثر من ذلك على مدار تفسيره كله.

رده على القدرية:

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الحجر: ١٢) قال السمعانى: «قال الحسن: كذلك نسلك الشرك فى قلوب المجرمين، ونسلك، أى: ندخل، وقال مجاهد: نسلك التكذيب، ومعنى كاف التشبيه، أى: كما فعلنا بالكفار من قبل هؤلاء كذلك نفعل بهؤلاء الكفار، وقد قال بعضهم: إن معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أى: نسلك القرآن، ومعناه: أنه لما أعطاهم ما يفهمون به القرآن، فكأنه سلك القرآن فى قلوبهم، والمنقول عن السلف هو القول الأول، وهو رد على القدرية صريحًا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣) قال السمعانى: «يعنى: لا يُسأل عما يحكم على خلقه، والخلق يُسألون عن أفعالهم وأعمالهم، وقيل: لا يُسأل عما يفعل، لأنه كله حكمة وصواب، وهم يُسألون عما يفعلون لجواز الخطأ عليهم، وقيل: معنى لا يُسأل عما يفعل: لا يقال له: لِمَ؟ ولماذا؟ بخلاف الخلق، وفى الآية رد على القدرية، وقطع شبهتهم بالكلية.

وقد روى أبو الأسود الدؤلى أن عمران بن حصين قال له: أرأيت ما يسعى فيه الناس ويكدحون، أهو أمرٌ قُضِىَ عليهم أو شىء يستأنفونه؟ فقلت: لا، بل أمر قُضى عليهم، قال: أفلا يكون ظلمًا؟ قلت: سبحان الله ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فقال لى: أصبت يا أبا الأسود، وقد أجزت عقلك، ثم روى عمران أن رجلا من جهينة - أو مزينة - أتى النبى ﷺ قال له: عمَّ يفعل الناس أو يكدحون فيه، أهو شىء قُضِى عليهم؟ أم شىء يستأنفونه؟ فقال النبى ﷺ: «هو شىء قُضِى عليهم» فقال ذلك الرجل: يا رسول الله، أفلا يكون ظلمًا؟ قال: «لا» ثم تلا قوله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ قال الشيخ: وقد ذكرنا هذا الخبر فى كتاب «مسند القدر».

رده على المرجئة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) قال السمعانى: «أى: صلاتكم، فجعل الصلاة إيمانًا، وهذا دليل على المرجئة، حيث لم يجعلوا الصلاة من الإيمان، وإنما سُموا مرجئة لأنهم أخَّروا العلم عن الإيمان.

وحُكى: أن أبا يوسف شهد عند شريك بن عبد الله القاضى فرد شهادته، قيل له: أترد شهادة يعقوب؟ فقال: كيف أقبل شهادة من يقول: إن الصلاة ليست من الإيمان؟!».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ (الأعراف: ١١١) قال السمعانى: «أى: أرجئه، والإرجاء: التأخير، يقال: أرجأت أمر كذا، أى: أخرت، ومنه المرجئة، سُموا بذلك، لتأخيرهم العمل فى الإيمان، فإنهم زعموا أن العمل ليس من الإيمان».

رده على المعتزلة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ (البقرة: ٧) قال السمعانى: «ذكر ابن كيسان أقوالا فى معناه:

أحدها: أى: جازاهم على كفرهم بأن ختم على قلوبهم.

والثانى ـ وهو قول أهل السنة ـ أى: ختم على قلبهم بالكفر، لما سبق من علمه الأزلى فيهم.

وحكى قول ثالث: أن معناه: جعل على قلوبهم علامة تعرفهم الملائكة بها، وهذا تأويل أهل الاعتزال، نبرأ إلى الله منه.

وحكى أبو عمر غلام ثعلب، عن ثعلب، عن إبراهيم الأعرابى: أن الختم هو منع القلب من الإيمان، ذكره فى كتاب الياء».

صفة العلم:

وعن صفة العلم يقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٦): «سبب نزول الآية: أن قومًا من علماء اليهود حضروا عند النبى ﷺ، فقال لهم: «أنتم تعلمون أنى رسول الله»؟ فقالوا: لا نعلم ذلك، فنزل قوله: ﴿لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى: مع علمه، كما يقال: جاءنى فلان بسيفه، أى: مع سيفه، وفيه دليل على أن لله علمًا، هو صفته، خلاف قول المعتزلة خذلهم الله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ (هود: ١٤) قال السمعانى: «وقوله: ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ بمعنى: أنزله وفيه علمه، وهذا رد على المعتزلة حيث قالوا: لا علم لله».

صفة الاستواء:

وتكلم بالتفصيل عن صفة الاستواء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ (الأعراف: ٥٤) فقال: «أوَّلَ المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأنشدوا فيه:

قد استوى بشرٌ على العراق   من غير سيفٍ ودمٍ مهراق

وأما أهل السنة فيتبرءون من هذا التأويل، ويقولون: إن الاستواء على العرش صفة لله ـ تعالى ـ بلا كيف، والإيمان به واجب، وكذلك يُحكى عن مالك بن أنس، وغيره من السلف، أنهم قالوا فى هذه الآية: الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ (طه: ٥). قال السمعانى: «اعلم أن مخارج الاستواء فى اللغة كثيرة: وقد يكون بمعنى العلو، وقد يكون بمعنى الاستقرار، وقد يكون بمعنى الاستيلاء ـ على بُعد ـ وقد يكون بمعنى الإقبال، والمذهب عند أهل السنة أنه يؤمن به ولا يكيف، وقد رووا عن جعفر بن عبد الله، وبشر الخفاف قالا: كنا عند مالك فأتاه رجل وسأله عن قوله: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك مليًا، وعلاه الرحضاء، ثم قال: الكيف غير معقول، والاستواء مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا ضالا، ثم أمر به فأُخرج.

ونقل أهل الحديث عن سفيان الثورى، والأوزاعى، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك أنهم قالوا فى الآيات المتشابهة: أمِرُّوها كما جاءت.

وقال بعضهم: تأويله الإيمان به، وأما تأويل الاستواء بالاستقبال، فهو تأويل المعتزلة.

وذكر الزجاج، والنحاس، وجماعة من النحاة من أهل السنة: أنه لا يسمى الاستواء استيلاء فى اللغة إلا إذا غلب غيره عليه، وهذا لا يجوز على الله تعالى».

صفة اليدين:

وعن صفة اليدين قال السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ (المائدة: ٦٤): «يعنى: يدا الله مبسوطتان، يرزق وينفق على مشيئته كيف يشاء، قال أهل العلم: ليس فى هذا رد على اليهود فى إثباتهم اليد لله ـ تعالى ـ وإنما

الرد عليهم فى نسبته إلى البخل، وأما اليد: صفة الله ـ تعالى ـ بلا كيف، وله يدان، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال: «كلتا يديه يمين» والله أعلم بكيفية المراد».

صفة الكلام:

وعن صفة الكلام يقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (النساء: ١٦٤): «إنما كلمه بنفسه من غير واسطة، ولا وحى، وفيه دليل على من قال: إن الله خلق كلامًا فى الشجرة فسمعه موسى، وذلك لأنه قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

قال الفراء، وثعلب: إن العرب تسمى ما توصل إلى الإنسان: كلامًا، بأى طريق وصل إليه، ولكن لا تحققه بالمصدر، فإذا حقق الكلام بالمصدر لم تكن إلا حقيقة الكلام، وهذا كالإرادة، يقال: أراد فلان إرادة، فيكون حقيقة الإرادة، ولا يقال: أراد الجدار أن يسقط إرادة، وإنما يقال: أراد الجدار، من غير ذكر المصدر؛ لأنه مجاز، فلما حقق الله كلامه موسى بالتكليم، عرف أنه حقيقة الكلام من غير واسطة، قال ثعلب: وهذا دليل من قول الفراء أنه ما كان يقول بخلق القرآن.

فإن قال قائل: بأى شىء عرف موسى أنه كلام الله؟ قيل: بتعريف الله تعالى إياه، وإنزال آية عرف موسى بتلك الآية أنه كلام الله ـ تعالى ـ وهذا مذهب أهل السنة أنه سمع كلام الله حقيقة، بلا كيف، وقال وائل بن داود: معنى قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أى: مرارًا، كلامًا بعد كلام».

صفة العلو:

وعن صفة الاستعلاء، قال السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (النحل: ٥٠): «قال بعضهم: معناه: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، والقول الثانى ـ وهو الأصح ـ أن هذه الصفة العلو التى تفرد الله بها، وهو كما وصف به نفسه من غير تكييف».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: ١٨) قال السمعانى: «وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ هو صفة الاستعلاء الذى لله تعالى، الذى يعرفه أهل السنة».

صفة الإتيان والمجىء:

وعن صفة الإتيـان والمجىء لله تعالى، قال السمـعانى عند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ (البقرة: ٢١٠): «والأولى فى هذه الآية ومـا يشـاكلهـا أن نؤمن بظاهرها، ونكل علمـهـا الى الله تعـالى، وننزه الله سبحانه وتعالى عن سمات الحدث والنقص».

صفة الوجه:

وعن إثباته لصفة الوجه لله تعالى، قال السـمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥): «وقد ذكر الله تعالى، الوجه فى كتابه فى أحد عشر موضعًا، وهو صفة لله تعالى، وتفسيره قراءته والإيمان به».

وعند تفسـيره لقـوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (الانعـام: ١٠٨) قال: «قـال ابن عباس: أى: يريدون إياه بـالطاعة، ويريدون خالص وجهه، والوجه صفة لله تعالى بلا كيف، وجه لا كالوجوه».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٥٢) قال: «أى: إلا هو، وعن سفيـان بن عيينة قال: كل ما وصف الله به نفـسه فى الكتاب، فتفـسيره قراءته، لا تفسير له غيره».

موقفه من خلق القرآن:

والسمعـانى يقرر عقيدة أهل السنة فـى أن القرآن غير مخلوق، وذلك عند تفـسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (الزخـرف: ٣) حيث قال: «قال السدى: أنزلناه، وقال مجاهد: قلناه، وعن بعـضهم: بيناه، قاله سفيان الثـورى، واستدل بهذا من زعم أن القرآن مخلوق، وذكر أن الجعل بمعنى الخلق بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ (طه: ٥٣) أى: خلق لكم، وعندنا هذا التعلق باطل، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وعليه إجماع أهل السنة، وزعموا أن من قال: إنه مخلوق فهو كافر، لأن فيه نفى كلام الله تعالى، وقد بينًا وجه الآية عند السلف ومن يعتمد فى تفسيره.

وقد ورد الجعل فى القرآن بغيـر معنى الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ

﴿الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ (الزخرف: ١٩) ومعناه: أنهم وصفوهم بالأنوثة وليس المعنى أنهم خلقوهم».

موقفه من خلق الجنة والنار:

تعرض السمعانى لتلك القضية، عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤) وقرر عقيدة أهل السنة، فقال: «أى: هُيئت للكافرين، وهذا دليلٌ على أن النار مخلوقة، لا كما قال أهل البدعة، ودليلٌ على أنها مخلوقة للكافرين، وإِنْ دخلها بعض المؤمنين تأديبًا وتعريكًا».

رؤية الله فى الآخرة:

كما قرر السمعانى فى تفسيره عقيدة أهل السنة فى رؤية البارى ـ جل جلاله ـ فى الآخرة فى مواطن كثيرة من تفسيره، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣): «واستدل بهذه الآية من يعتقد نفى الرؤية، قالوا: لما تمدَّح بأنه لا تدركه الأبصار، فمدحه يكون على الأبد فى الدنيا والآخرة. واعلم أن الرؤية حق، على مذهب أهل السنة، وقد ورد بها القرآن والسنة، وروى جرير بن عبد الله البجلى وغيره بروايات صحيحة عن النبى ﷺ أنه قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب، لا تضامون فى رؤيته» ويروون: «لا تضارون فى رؤيته».

فأما قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فالإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك: هو الوقوف على كُنه الشيء وحقيقته، والرؤية: هى المعاينة، وقد تكون الرؤية بلا إدراك، قال الله ـ تعالى ـ فى قصة موسى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ﴾ (الشعراء: ٦١، ٦٢) فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية، وإذا كان الإدراك غير الرؤية، فالله ـ تعالى ـ يجوز أن يُرى، ولكن لا يُدرك كنهه، إذ لا كُنْهَ له حتى يُدرك، وهذا كما أنه يعلم ويعرف ولا يحاط به، كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه: ١١٠) فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم، وقال ابن عباس ـ حكاه مقاتل عنه، والأول قول الزجاج، معنى قوله: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ يعنى: فى الدنيا، هو يرى الخلق، ولا يراه الخلق فى الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

(القيامة: ٢٢، ٢٣)فكما أثبتت الرؤية بتلك الآية فى الآخرة، دل أن المراد بهذه الآية الإدراك فى الدنيا، ليكون جمعًا بين الآيتين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾قال السمعانى: «هو النظر إلى الله تعالى بالأعين، وهو ثابت للمؤمنين فى الجنة بوعد الله تعالى وبخبر الرسول ﷺ.

قال: أخبرنا أبو الحسن بن النقور، أخبرنا أبو القاسم بن حبابة، أخبرنا البغوى، أخبرنا هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى الله تعالى».

قال رضي الله عنه: أخبرنا أبو على الشافعى بمكة، أخبرنا أبو الحسن بن فراس بإسناده عن إسرائيل عن ثوير بن أبى فاختة عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن النبى ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه ألف سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى كل يوم مرتين».

وفى رواية: «غدوة وعشيًا، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾.

والذى ذكرناه من النظر إلى الله هو قول عامة المفسرين، وهو مروى عن الحسن البصرى أيضًا أنه حمل الآية على هذا، وذكره سائر الرواة.

وحكى بعضهم عن مجاهد: إلى ثواب ربها ناظرة، وليس يصح، لأن العرب لا تطلق هذا اللفظ فى مثل هذا الموضع إلا والمراد منه النظر بالعين، ولعل القول المحكى عن مجاهد لا يثبت، لأنه لم يورده من يوثق بروايته.

وحمل بعضهم قوله: ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أى: منتظرة، وهذا أيضًا تأويل باطل، لأن العرب لا تصل قوله: «ناظرة» بكلمة «إلى» إلا بمعنى النظر بالعين، قال الشاعر:

نظرت إليها بالمحصب من منى ... ولى نظر ولولا التحرج عارم

فأما إذا أرادوا الانتظار فإنهم لا يصلونها بـ «إلى».

قال الشاعر:

فإنكما إن تنظرانى ساعة ... من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

أى: تنتظرانى، وعلى المعنى لا يصح أيضًا هذا التأويل، لأن الطلاقة والهشاشة والسرور إنما يكون بالوصول إلى المطلوب، فأما مع الانتظار فلا، فإن فى الانتظار تنغصًا ومشقة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥)، قال: «وفى الآية دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى، وقد نقل هذا الدليل عن مالك والشافعى؛ رحمة الله عليهما».

خلق أفعال العباد:

ذهب السمعانى إلى أن أفعال العباد مخلوقة، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٢) قال السمعانى: «وهذا دليل لأهل السنة على: أن أفعال العباد مخلوقة، حيث نسب الله تعالى هزيمة المسلمين إلى نفسه مع وقوع الفعل منهم، فقال: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾».

زيادة الإيمان ونقصانه:

استدل السمعانى لأهل السنة بأن الإيمان يزيد وينقص، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (الأنفال: ٢) حيث قال: «أى: يقينًا وتصديقًا، وذلك أنه كلما نزلت آية فآمنوا به ازدادوا إيمانًا وتصديقًا، وهذا دليل لأهل السنة على أن الإيمان يزيد وينقص».

موقفه من أهل الكبائر:

نصر السمعانى مذهب أهل السنة فى قضية مرتكب الكبيرة، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ (النساء: ٩٣) حيث قال بعد أن أورد أقوال الصحابة فى تلك الآية: «والأصح، والذى عليه الأكثرون، وهو مذهب أهل السنة: أن لقاتل المؤمن عمدًا توبة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ﴾ (طه: ٨٢)، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، ولأن القتل العمد ليس بأشد من الكفر، ومن الكفر توبة، فمن القتل أولى، وأما الذى روى عن ابن عباس، فعلى سبيل التشديد والمبالغة فى الزجر عن القتل، وهو مثل ما روى عن سفيان بن عيينة أنه قال: إن لم يَقْتُل يُقال له: لا توبة لك، منعًا له عن القتل، وإن قَتَل يقال له: لك توبة، حتى

يتوب، وروى أن رجلا جاء إلى ابن عباس وسأله: هل لقاتل المؤمن توبة؟ قال: لا، فجاءه آخر، وسأله عن ذلك، فقال: نعم، له توبة، فقيل له فى ذلك، فقال: إن الأول لم يكن قَتَلَ، فمنعته عن القتل، وإن الثانى قَتَلَ، فأرشدته إلى التوبة.

واعلم أن لا متعلق فى هذه الآية لمن يقول بالتخليد فى النار لأهل الكبائر من المسلمين، لأنَّا إن نظرنا إلى سبب نزول الآية، فالآية نزلت فى قاتل كافر كما بيَّنا، وقيل: إنه فيمن يقتل مستحلا، والأولى أن نقول فيه ما قاله أبو صالح: إن معنى قوله: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ (النساء: ٩٣) إن جازى، وبه نقول إن الله تعالى إن جازاه ذلك خالدًا، فهو جزاؤه، ولكنه ربما لا يجازى، وقد وعد أن لا يجازى ويغفر لمن يشاء، وهو لا يخلف الميعاد، وحكى عن قريش بن أنس ـ رحمه الله ـ أنه قال: كنت فى مجلس فيه عمرو بن عبيد، فقال: لو قال الله لى يوم القيامة: لم قلت بتخليد القاتل المتعمد فى النار؟ لقلت له: أنت الذى قلت: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ قال قريش ـ وكنت أصغر القوم: فقلت له: أرأيت لو قال الله تعالى لك: ألستُ قلتُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨)، فمن أين علمت أنى لم أشأ مغفرة القاتل؟ فسكت ولم يستطع الجواب.

وحكى أن عمرو بن عبيد جاء إلى أبى عمرو بن العلاء ـ رحمه الله ـ وقال له: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لا، فقال: أليس قد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا﴾ (النساء: ٩٣) فأنا على هذا، لأنه لا يخلف وعده، فقال أبو عمرو: ومن العجمة أتيت يا أبا عثمان؟! إن العرب لا تعد الإخلاف فى الوعيد خلفًا وذمًّا، وإنما ذلك فى الخلف فى الوعد، وأنشد له قول القائل فيه:

إنى إذا أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فقد تمدح بالخلف فى الوعيد، وقال آخر:

وإذا وعد المرء أنجز وعده ... وإن وعد الضراء فالعفو مانعه

فالله تعالى يجوز أن يخلف فى الوعيد، وإنما لا يخلف الميعاد».

موقف السمعانى من سؤال القبر:

هذا وقد قرر السمعانى فى تفسيره عقيدة أهل السنة فى إثبات سؤال القبر، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ (إبراهيم: ٢٧) حيث قال:

«أى: فى القبر، وعليه أكثر أهل التفسير، وقد ثبت ذلك عن النبى ﷺ برواية البراء بن عازب، وهو قول عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وجماعة من الصحابة، واعلم أن سؤال القبر ثابت فى السنة، والإيمان به واجب، وقد وردت فيه الأخبار الكثيرة» ثم أورد فى ذلك عدة أحاديث.

موقفه من الشفاعة:

قرر السمعانى عقيدة أهل السنة فى مسألة الشفاعة، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٩) حيث قال: «أجمع المفسرون أن هذا مقام الشفاعة، وقد ثبت هذا عن النبى ﷺ، وفى رواية أبى هريرة أن النبى ﷺ قرأ قوله: ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ قال: «هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى» وروى أنه ﷺ قال: «أنا سيد الأنبياء إذا بُعثوا، وأنا وافدهم إذا تكلموا، وأنا مبشرهم إذا أبلسوا، وأنا إمامهم إذا سجدوا، أقول فأسمع، وأشفع فأشفع، وأسأل فأُعطَى».

موقفه من المجاز:

والسمعانى لا يتذرع فى تفسيره بالمجاز والتشبيه، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج: ١٨) حيث قال: «فإن من اعتقاد أهل السنة أن الحيوان والموات مطيع كله لله تعالى، وقال بعضهم: إن سجود الحجارة هو بظهور أثر الصنع فيه، على معنى أنه يحمل على السجود والخضوع لمن تأمله وتدبر فيه، وهذا قول فاسد، والصحيح ما قدمنا، والدليل عليه أن الله تعالى وصف الحجارة بالخشية، فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٧٤)، ولا يستقيم حمل الخشية على ظهور أثر القدرة فيه، وأيضًا فإن الله تعالى قال: ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ﴾ (سبأ: ١٠) أى: سبِّحى معه، ولو كان المراد ظهور أثر الصنع لم يكن لقوله: ﴿ مَعَ دَاوُدَ ﴾ (الأنبياء: ٧٩) معنًى، لأن داود وغيره فى رؤية أثر الصنع سواء، وأيضًا فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: يطيع الله بتسبيحه ﴿ وَلَكِن لَّا

تفقهون تسبيحهم ﴾ (الإسراء: ٤٤) ولو كان المراد بالتسبيح ظهور أثر الصنع فيه لم يستقم قوله: ﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ ذكر هذه الدلائل أبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن السرى، وأثنى عليه ابن فارس فقال: ذب عن الدين ونصر السنة».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ (سورة ق: ٣٠) قال السمعانى بعد أن ذكر أقوال المفسرين المعتمدة عنده فى تفسير الآية: «وقال بعضهم: أن القول من جهنم ههنا على طريق المجاز مثل قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطنى مهلاً رويدًا قد ملأت بطنى

فقوله: قطنى أى: حسبى، ووجه المجاز فيه أنه لما امتلأ الحوض ولم يكن فيه مزيد وكأنه قال: قد امتلأت فحسبى، كذلك فى جهنم، وهو على توسع الكلام، والأصح أن هذا النطق من جهنم على طريق الحقيقة، وهذا اللائق بمذهب أهل السنة فى الإيمان بتسبيح الجمادات، وما نزل فى ذلك من آى القرآن».

ويقول السمعانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **والنجم والشجر يسجدان** ﴾ (الرحمن: ٦) «وأما سجودهما، قال ابن عباس: يسجدان إذا طلعت الشمس وإذا قالت الشمس إلى أن تغرب، ويقال: سجودهما هو ما سخرهما الله تعالى على مشيئته وأمره، والأولى هو أن يقال: إن سجود الموات ثابت بنص الكتاب، وهو على ما أراد الله تعالى، والعلم بحقيقته موكول إليه، وهو مذهب أهل السنة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ (البقرة: ٧٤) قال السمعانى: «**فإن قيل:** الحجر جماد لا يفهم، فكيف يخشى؟! **قلنا:** قد قال أهل السنة: إن لله تعالى علمًا فى الموات لا يعلمه غيره.

وقيل: إن الله تعالى يفهمهم ويلهمهم ذلك فيخشون بإلهامه، وبمثل هذا وردت الأخبار.

فإنه روى: أن النبى ﷺ كان على «ثبير» والكفار يطلبونه، فقال الجبل: انزل عنِّى فإنى أخاف أن تُؤخذ علىَّ فيعاقبنى الله بذلك، فقال له جبل حراء: «إلىَّ يا رسول الله».

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «كان حجرٌ يسلم علىَّ بمكة قبل أن أُبعث، وأنا أعرفه الآن» والخبر صحيح» ثم ذكر حديث حنين الجذع المتواتر.

موقفه من التفسير الصوفى:

ويكثر الإمام السمعانى فى تفسيره من إيراد أقوال الصوفية، ولكنه تصوف سنِّى لا يقول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، ويسميهم أهل المعانى، مثال ذلك ما قاله فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (البقرة: ٢٠٢) حيث قال: «وقال أهل المعانى: يحاسب العباد من غير تدبير ولا رؤية، لكونه عالمًا بما للعباد وما على العباد فلا يحتاج إلى رؤية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٣) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: إنما قدم المغفرة على التوبة، لأنها هى المطلوبة بالتوبة».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءُو أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (يوسف: ١٦) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: جاءوا فى ظلمة العشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب، فروى أن يعقوب سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: ما لكم، هل أصاب الذئب من غنمكم شيئًا؟ قالوا: لا، وإنما الذئب أكل يوسف».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ (إبراهيم: ٥٠) قال السمعانى: «قال أهل المعانى: وإنما ذكر أن قميصهم من قطران، لأن النار إليه أسرع اشتعالا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (الحجر: ٣٦) قال السمعانى: «وقال أهل المعانى: إن إبليس لما سأل الإمهال لم تكن إجابة الله إياه كرامة له، بل كانت زيادة له فى شقائه وبلائه».

عناية السمعانى بإيراد بعض النكات التفسيرية:

ويتعرض السمعانى فى تفسيره لبعض النكات التفسيرية، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) يقول: « **فإن قال قائل**: كيف طلب المغفرة لهم، وهم كفار؟! وكيف قال: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهذا لا يليق بسؤال المغفرة؟! **قيل: أما الأول** فمعنى قوله: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعنى: بعد الإيمان، وهذا إنما يستقيم على قول السدى، لأن الإيمان لا ينفع فى القيامة، والصحيح آخر القولين، قال بعضهم: هذا فى فريقين منهم

فقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يعنى: من كفر منهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يعنى: من آمن منهم، وقال أهل المعانى من أرباب النحو: ليس هذا على وجه طلب المغفرة، وإنما هذا على تسليم الأمر إليه، وتفويضه إلى مراده، ألا تراه يقول: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ولو كان على وجه طلب المغفرة لقال: «فإنك أنت الغفور الرحيم».

وأما السؤال الثانى: فاعلم أن فى مصحف ابن مسعود: «وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم» وكان ابن شنبوذ يقرأ كذلك زمانًا ببغداد، فمُنع عنه، وفيه قصة».

موقفه من المسائل الفقهية:

ويُعنى السمعانى فى تفسيره بالجانب الفقهى، ويورد فى مسائله الفقهية أقوال الفقهاء والأئمة المجتهدين، مُعْرِضًا عن أقوال الحنابلة، ولا يستطرد فى ذكر الأدلة، ويرجح ما يراه صوابًا، مع عدم تعصبه لمذهبه، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٤) حيث قال: «قال داود وأهل الظاهر: يجب على المسافر صوم عدة من أيام أخر وإن صام رمضان، قولاً بظاهر الآية.

والجمهور على أن فيه إضماراً وتقديره: فأفطر، فعدة من أيام أخر.

ثم اختلفوا فى حد المرض الذى يبيح الفطر، فقال داود وأهل الظاهر: هو ما ينطلق عليه اسم المرض، وهو قول ابن سيرين من السلف، وقال الحسن: هو المرض الذى تجوز معه الصلاة قاعدا.

ومذهب الشافعى: هو المرض الذى يخاف من الصوم معه الزيادة فى المرض.

فأمَّا حد السفر الذى يبيح الفطر اختلفوا فيه، فقال داود ومن تابعه: هو ما ينطلق عليه اسم السفر.

ومذهب الشافعى: أنه مسافة القصر، ستة عشر فرسخًا.

ومذهب أبى حنيفة رضي الله عنه: أنه مسيرة ثلاثة أيام، كما قال فى القصر».

وربما أحال السمعانى فى شرحه لآيات الأحكام إلى المطولات والأصول، مثال ذلك ما قاله فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ (البقرة: ٢٢٦) قال السمعانى: «أى: يحلفون، قال ابن عباس: إنما ينعقد الإيلاء إذا

حلف على ترك الوطء أبدًا ومطلقًا، ومذهب أبى حنيفة أنه ينعقد الإيلاء بالحلف على أربعة أشهر، ومذهب الشافعى أنه إنما يصير موليا بالحلف على أربعة أشهر، وهى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أى: انتظار أربعة أشهر.

﴿فَإِن فَاءُو﴾ أى: فإن رجعوا على اليمين بالوطء فى حق من يقدر على الوطء، أو بالقول فى حق من لا يقدر على الوطء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقرأ أُبى بن كعب «فإن فاءوا فيهن» يعنى فى المدة، وهذا يوافق قول أبى حنيفة.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ يعنى: بالإيقاع ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لقول الزوج، عليهم بما يضمره، ومذهب الشافعى أنه تجوز الفيئة بعد المدة بوقف حتى يفىء أى: يطلق، وهو مروى عن عمر، وعلى، وأبى الدرداء ﷺ.

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تطلق طلقة بائنة بانقضاء المدة، وهو مروى عن ابن عباس ﷺ، وابن مسعود، وعلى، فى رواية ضعيفة، والمسألة فى الخلافيات».

موقفه من الأصول:

حوى تفسير السمعانى بين ثناياه الكثير من مسائل الأصول، مع عرض دقيق شامل للعديد منها، فتعرض السمعانى لتعريف النسخ وأنواعه وأحكامه عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) حيث قال: «والنسخ فى اللغة: رفع الشىء وإقامة غيره مقامه، يقال: نسخت الشمس الظل، أى رفعته وأقامت الضياء مقامه، وقد يكون بمعنى رفع الشىء من غير إقامة غيره مقامه، يقال: نسخت الرياح الآثار إذا رفعتها من أصلها من غير شىء يقوم مقامها.

والنسخ جائز فى الجملة باتفاق الأمة، ونسخ القرآن على وجوه:

منها: نسخ يوجب رفع التلاوة والحكم جميعًا، وذلك مثل ما روى عن أبى أمامة ابن سهل بن حنيف «أن قومًا من الصحابة قاموا ليلة ليقرءوا سورة فلم يذكروا منها إلا قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فغدوا على النبى ﷺ وأخبروه بذلك فقال ﷺ: «تلك سورة رفعت تلاوتها وأحكامها» وقيل: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة وحكمًا.

ومن النسخ ما يوجب رفع التلاوة دون الحكم، وذلك مثل آية «الرجم» رُفعت تلاوتها وبقى حكمها.

ومنه ما يوجب رفع الحكم دون التلاوة، مثل آية الوصية للوالدين والأقربين، وآية عدة الوفاة بالحول، ومثلها آية التخفيف فى القتال، وآية الممتحنة، ونحو ذلك.

ومن وجوه النسخ ما يوجب رفع الحكم وإقامة غيره مقامه، وذلك مثل القِبْلَة نُسخت إلى الكعبة، والوصية نُسخت إلى الميراث، وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشرًا، ومقاومة الواحد العشرة فى القتال نسخت إلى مقاومة الواحد الاثنين، ونحو ذلك.

ومنها: رفع الحكم من غير إقامة شىء مقامه، وذلك مثل امتحان النساء، نُسخ من غير خلف، وكذلك أمثال هذا».

كما قرر السمعانى فى تفسيره جواز القياس فى الأحكام، وردَّ على شبهات الخوارج، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ**﴾ (الحشر: ٢): «والاعتبار هو النظر فى الشىء ليعرف به جنسه ومثله، وقيل: معناه: فانظروا وتدبروا يا ذوى العقول والفهوم، كيف سلَّط الله المؤمنين عليهم، وسلَّطهم على أنفسهم، وقد استدل بهذه الآية على جواز القياس فى الأحكام، لأن القياس نوع اعتبار، إذ هو تعبير شىء بمثله بمعنًى جامع بينهما ليتفقا فى حكم الشرع».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾ (آل عمران: ٦٠) قال السمعانى: «**فإن قيل:** أكان شاكًا فى الحق حتى نهاه عن الشك؟ **قيل:** الخطاب مع النبى ﷺ، والمراد به: الأمة، وقيل: معناه: قل للشاك فيه: الحق من ربك فلا تكن من الشاكين.

واعلم أن فيما سبق من التمثيل على جواز القياس دليلٌ على أن القياس هو رد فرع إلى أصل بنوع شبه، وقد رد الله تعالى عيسى إلى آدم بنوع، فدل على جواز القياس، والمثل: هو ذكر سائر يستدل به على غيره فى معناه».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ (الشورى: ١٠) قال السمعانى: «استدل من منع القياس فى الحوادث بهذه الآية، قال: الحُكم إلى الله لا إلى رأى الرجال، وكذلك كان الخوارج يقولون: لا حكم إلا الله، وأنكروا الحكمين، وهذا الاستدلال فاسد؛ لأن عندنا من قال بالقياس والاجتهاد فهو رجوع إلى الله فى حكمه، فإن أصول المقايسات هى: الكتاب، والسنة».

موقفه من السيرة:

حفل تفسير السمعانى بالكثير من أحداث السيرة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ (الأنفال: ١١) حيث قال: «والقصة فى ذلك: أن الكفار يوم بدر نزلوا على الماء، ونزل المسلمون على غير ماء، فأجنب بعضهم وأحدثوا، فلم يجدوا ماء يتطهرون به، وكانوا فى رمل تسوخ فيه أرجلهم، فوسوس إليهم الشيطان: إنكم تزعمون أنكم على الحق وأولئك على الباطل وإذا هم على الماء، فلو كنتم على الحق لكنتم أنتم على الماء، وما بقيتم مجنبين محدثين، فوقع فيهم خوف شديد، فألقى الله تعالى عليهم النعاس حتى أمنوا، وأنشأ سحابة فتمطَّرت عليهم حتى سال الوادى، وتطهروا واغتسلوا، وتلبدت الرمال حتى ثبتت عليها الأقدام، فهذا معنى قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً﴾».

موقفه من الإسرائيليات:

والسمعانى مُكْثِرٌ ومتساهل - إلى حد بعيد - فى إيراده للإسرائيليات فى تفسيره، وسوَّد بها الكثير من صفحات كتابه، ودافع عن بعضها دفاعًا شديدًا، مع أن فى بعضها ما يمس جوانب العقيدة وعصمة الأنبياء، وكان من الأجدر به، وهو حُجَّة فى السُّنَّة، أن يصون كتابه عنها، أو أن يتعقبها ويفندها.

مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف ٢٤) قال السمعانى: وأما هَمُّ يوسف فاعلم أنه قد ثبت عن عبد الله بن عباس أنه سئل عن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: جلس منها مجلس الخاتن وحلَّ هميانه، رواه ابن أبى مليكة، وعطاء وغيرهما.

وعن مجاهد أنه قال: حلَّ سراويله وجعل يعالج ثيابه، وهذا قول أكثر المتقدمين، منهم: سعيد بن جبير، والحسن البصرى، والضحاك وغيرهم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قاله متقدمو هذه الأمة وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا فى الأنبياء من غير علم، وكذلك قال ابن الأنبارى، وزعم المتأخرين أن الهم كان منها: هو العزيمة على المعصية، وأما الهم منه: فكان خاطر القلب وشدة المحبة بالشهوة.

وفى القصة: أن المرأة قالت له: ما أحسن عينيك، فقال: هى أول ما تسيل من

وجهى فى قبرى، فقالت: ما أحسن شعرك، فقال: هو أول ما يُنشر فى قبرى، فقالت: إن فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتى، فقال: إذًا يذهب نصيبى من الجنة، قالت: إن الجنينة عطشى فقم فاسقها، قال: إن المفتاح بيد غيرى، قال: فجاء الشيطان ودخل بينهما وأخذ بحنكه وحنكها حتى همَّت به وهَمَّ بها، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذى ذكره».

ثم قال: «وروى ليث: عن ابن عباس أنه قعد منها مقعد الرجل من امرأته فرأى كفًا بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⦗١٠⦘ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ **(الانفطار: ١٠، ١١)** ففزع وهرب، ثم إنه عاد، فظهر ذلك الكف مكتوبًا عليها: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٣٢) ففزع وهرب، ثم إنه عاد فرأى ذلك الكف أيضًا مكتوبًا عليها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١) ففزع وهرب، ثم إنه عاد، فقال الله لجبريل: أدرك عبدى قبل أن يواقع الخطيئة، فجاء ومسحه بجناحه حتى خرجت شهوته من أنامله».

ثم قال فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ (يوسف ٢٤): «**فإن قيل:** هذا دليل على أنه لم يهم بالزنا ولم يقصده، **قلنا:** لا، هذا بعد الهم، **فإن قيل:** أليس قد قال فى أثناء السورة: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (يوسف: ٥٢)؟ **قلنا:** قد ثبت عن النبى ﷺ: «أن يوسف لما قال هذا، قال له جبريل: ولا حين هممت؟ فقال: وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ **(الحج: ٥٢)** حيث أورد قصة الغرانيق، ثم قال: «**فإن قال قائل:** كيف يجوز هذا على النبى ﷺ، وقد كان معصومًا من الغلط فى أصل الدين؟ وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)، وقال الله تعالى: ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢) أى: أبليس؟.

فالجواب عنه: اختلفوا فى الجواب عن هذا، قال بعضهم: إن هذا ألقاه بعض المنافقين فى قراءته، وكان المنافق هو القارئ فظنّ المشركون أن الرسول ﷺ قرأ،

وسمى ذلك المنافق شيطانًا، لأن كل كافر متمرد بمنزلة الشيطان، وهذا جواب ضعيف.

ومنهم من قال: إن الرسول لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر هذا بين قراءة النبى ﷺ، وسمع المشركون ذلك، وظنوا أن الرسول ﷺ قرأ، وهذا اختيار الأزهرى وغيره.

وقال بعضهم: إن الرسول الله ﷺ أغفى إغفاءة ونعس، فجرى على لسانه هذا، ولم يكن به خبر بإلقاء الشيطان، وهذا قول قتادة.

وأما الأكثرون من السلف فقد ذهبوا إلى أن هذا شىء جرى على لسان الرسول ﷺ بإلقاء الشيطان من غير أن يعتقد، وذلك محنة وفتنة من الله لعباده، والله تعالى يمتحن عباده بما شاء، ويفتنهم بما يريد، وليس عليه اعتراض لأحد، وقالوا: إن هذا وإن كان غلطا عظيمًا، فالغلط يجوز على الأنبياء، إلا أنهم لا يُقرون عليه.

وعن بعضهم: أن شيطانًا يقال له: الأبيض عمل هذا العمل، وفى بعض الروايات: أنه تصور بصورة جبريل، وأدخل فى قراءته هذا، والله أعلم».

قلت: لا داعى لهذه التمحلات فالقصة باطلة باتفاق أهل التحقيق.

كثرة نقله عن تفسير «شفاء الصدور» للنقاش:

والسمعانى مولع بالقصص والغرائب، ويكثر فى كتابه من النقل عن تفسير أبى بكر النقاش، وهو كذَّاب وضَّاع، وتفسيره المسمى: «شفاء الصدور» هو «شقاء للصدور»، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**﴾ (**الصافات: ١٤٣**) قال السمعانى: «وذكر النقاش فى تفسيره: أن يونس صلوات الله عليه دعا ربه فى بطن الحوت، وقال: إلهى مِن البيوت أخرجتنى، وفى البحار سترتنى، وفى بطن الحوت حبستنى، فإن كنتُ عملت لك عملا صالحًا ففَرِّج عنى.

وَذكر أيضًا: أنه لقى قارون فى لجج البحار، فسمع قارون صوت يونس ـ عليه السلام، فكان فى عذاب شديد، فطلب أن يُمسَك عنه العذاب، حتى يسأل يونس، فأمر الله تعالى بإمساك العذاب عنه، فسأل قارون يونس عن ابن عمه موسى، فقال: قد

توفى، وسأل عن هارون، فقال: قد توفى قبله، فقال: واحزناه! فأمر الله تعالى أن يرد عنه العذاب إلى يوم القيامة لمَّا سأل عن ابن عمه.

وذكر أيضًا: أن الحوت قرَّ به فى لجج البحار مسيرة ستة آلاف سنة، وذكر أنه بلغ به نجوم الأرضين السابعة، فسمع من تسبيح الحصى وما فى قعر البحر شيئًا عظيمًا، وذكر أن البحر تكلم معه، وقال: إلى أين كنت تريد أن تهرب من مولاى أيها العبد الخاطئ؟! إلى الأرض، أما إلى السماء، أم إلى البحار، أم إلى الجبال؟! وإنا نسبح الله تعالى منذ خلقنا ونعبده، ونخاف أن يعذبنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ (العنكبوت: ٦٠) قال السمعانى: «وذكر النقاش فى تفسيره ـ أن المراد ـ أى محمد ﷺ، وكان لا يدخر شيئًا للغد، وقد ثبت برواية أنس: «أن النبى ﷺ كان لا يدخر شيئًا لغد».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق: ٣) قال السمعانى: «وذكر النقاش بإسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: من شر الذكر إذا دخل، قال النقاش: فذكرت ذلك لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، وقلت: هل يجوز أن تفسر القرآن بهذا؟! قال: نعم، قال النبى ﷺ: «أعوذ بك من شر منيى» وهو خبر معروف، وهو أن النبى ﷺ قال: «أعوذ بك من شر سمعى ومن شر بصرى» فعدَّد أشياء، وقال فى آخرها: «ومن شر منيى».

وهكذا يورد السمعانى هذه الأقوال ويمر عليها دون أن يتعقبها أو ينكرها.

وأخيرًا . . فإن تفسير السمعانى واحد من أفضل التفاسير التى دافعت ونافحت عن عقيدة أهل السنة، لولا ما شابه من كثرة الإسرائيليات والغرائب الواهيا

٤- تفســــير «النكت والعيون»

للمــــاوردى

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو على بن محمد بن حبيب، أبو الحسن، الشافعى، البصرى ثم البغدادى، الماوردى، الملقب بـ «أقضى القضاة». ولد سنة أربع وستين وثلاثمائة، وتفقه على أبى القاسم الصيمرى بالبصرة، وعلى أبى حامد الإسفرايينى ببغداد.

وحدَّث عن: الحسن بن على الجَبَلى، ومحمد بن عدى المنْقرى، ومحمد بن المعلّى الأزدى، وجعفر بن محمد بن الفضل البغدادى.

ولى القضاء ببلدان شتّى، ثم سكن بغداد.

وكان من وجوه فقهاء الشافعية، حافظًا للمذهب، ذا منزلة عند ملوك بنى بُويْه.

درَّس بالبصرة وبغداد سنين، فروى عنه الخطيب، وأبو العزّ بن كادش، وابن بدران الحلوانى.

ونقل عن الماوردى قوله ـ لمن قال له: اتّبع ولا تبتدع، فى مسألة توريث ذوى الأرحام: بل أجتهد ولا أُقلِّد.

وللماوردى مصنّفات فى الفقه والأصول والتفسير والأدب، منها: الحاوى، النكت والعيون فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدد دراسته، أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، والإقناع، ومختصر فى الفقه، وأعلام النبوّة.

توفّى ببغداد سنة خمسين وأربعمائة.

التعريف بالتفسير وبيان منهجه:

وتفسير «النكت والعيون» تفسير كامل للقرآن الكريم، طبع عدة مرات، والطبعة التى بين يدى تقع فى ست مجلدات، وهى طبعة دار الكتب العلمية (١٤١٢هـ).

---

(١) **مصادر الترجمة:** تاريخ بغداد (١٢/١٠٢)، طبقات الفقهاء للشيرازى ١٣١، المنتظم (١٥/٥٢)، معجم الأدباء (١٥/ ٥٢)، الكامل فى التاريخ (٦/ ٦٥١)، وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٢)، سير أعلام النبلاء (١٨/٦٤)، طبقات الشافعية للسبكى (٥/٢٦٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٨٥).

اقتصر الإمام الماوردى فى كتابه على تفسير ما خفى من آيات القرآن الكريم، أما الجلى الواضح فتركه لفهم القارئ.

وقد جمع الماوردى فى تفسيره بين أقوال السلف والخَلَف، كما أضاف إلى ذلك ما ظهر له من معنًى محتمل، وقد رتَّب تفسيره ترتيبًا بديعًا، فهو يحصر الأقوال الكثيرة فى تأويل الآية فى عدد، ثم يفصلها الأول فالثانى فالثالث... إلخ، وينسب كل قول إلى قائله غالبًا، مع توجيه وترجيح لبعض الأقوال.

وقد عُنى فى تفسيره بالجانب اللغوى، فيذكر أصول الكلمات واشتقاقها، موضحًا ذلك بالعديد من الشواهد الشعرية - والتى غالبًا ما ينسبها لقائليها - ثم يربطها بالمعنى المراد من الآية فى عبارة موجزة ناصعة البيان.

قال الماوردى مبينًا لمنهجه، فى مقدمة تفسيره: «ولما كان الظاهر الجلىُّ مفهومًا بالتلاوة، وكان الغامض الخفى لا يُعلم إلا من وجهين: نقل واجتهاد، جعلت كتابى هذا مقصورًا على تأويل ما خفى علمه، وتفسير ما غمض تصوره، وجعلته جامعًا بين أقاويل السلف والخلف وموضحًا عن المؤتلف والمختلف، وذاكرًا ما سنح به الخاطر من معنى محتمل، عبرت عنه بأنه محتمل ليتميز ما قيل مما قلته، ويُعلم ما استُخرج مما استخرجته، وعدلت عما ظهر معناه من فحواه اكتفاء بفهم قارئه وتصور تاليه ليكون أقرب مأخذًا وأسهل مطلبًا، وقدمت لتفسيره فصولاً تكون لعلمه أصولاً، يتضح منها ما اشتبه تأويله، وخفى دليله».

مصادر الماوردى فى تفسيره:

هذا... وقد تنوعت مصادر الماوردى فى تفسيره، فنراه ينقل فى القراءات عن كتاب «القراءات الشاذة» لابن خالويه، وكتاب «الحجة فى علل القراءات السبع» لأبى على الحسن بن أحمد الفارسى، وكتاب «المحتسب» فى تبيين وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها، لأبى الفتح عثمان بن جنى، ولقد استفاد أيضًا من كتب مكى بن أبى طالب القيسى، وكُتب أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى.

أما مصادره من كتب التفسير، فيعتبر كتاب الطبرى «جامع البيان عن تأويل آى القرآن» من أهم مصادره فى التفسير بالمأثور، كما أكثر النقل عن مقاتل بن سليمان،

وابن أبى حاتم، وتفسير يحيى بن سلام، وأبى بكر النقاش، هذا بالإضافة إلى ذكره لأقوال أئمة المعتزلة كالرمانى وأبى مسلم الأصبهانى وغيرهم.

أما مصادره فى اللغة فقد استمد الماوردى مادته اللغوية من مصادر كثيرة ومتنوعة، فنقل عن الكسائى، والفراء، والأخفش، وثعلب، والمبرد، والزجاج، وذلك من مؤلفاتهم فى معانى القرآن.

وعن أبى عبيدة من «مجاز القرآن»، كما نقل عن الخليل بن أحمد، وسيبويه، وأبى عمرو بن العلاء.

ويعد تفسير «النكت والعيون» واحدًا من أهم كتب التفسير، مما حدا بالكثيرين من بعده بالسير على طريقته فى عرض الأقوال أو النقل عنه، مثال ذلك ما نراه فى «زاد المسير» لابن الجوزى، وتفسير القرطبى، والفخر الرازى، وابن عطية، وغيرهم من المفسرين.

وبدأ الماوردى كتابه بعده فصول أفردها لأسماء القرآن، وبيان معنى السورة والآية، ونزول القرآن على سبعة أحرف، ثم عقد فصلا طويلاً فى إعجاز القرآن.

ثم أبان عن موقفه من التفسير بالرأى فقال: «وإذا كان القرآن بهذه المنزلة من الإعجاز فى نظمه ومعانيه، احتاجت ألفاظه فى استخراج معانيها إلى زيادة التأمل لها وفضل الرويَّة فيها، ولا يقتصر فيها على أوائل البديهة، ولا يقنع فيها بمبادئ الفكرة، ليصل بمبالغة الاجتهاد وإمعان النظر إلى جميع ما تضمنته ألفاظه من المعانى واحتملته من التأويل، لأن للكلام الجامع وجوهًا، قد تظهر تارة، وتغمض أخرى، وإن كان كلام الله منزهًا من الآفتين: الفكر والروية، ليعمل فيما احتملته ألفاظه من المعانى المختلفة، غير ما سَنَصِفُهُ من الأصل المعتبر فى اختلاف التأويل عند احتمال وجوه.

وقد روى سهل بن مهران الضبعى، عن أبى عمران الجونى، عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ فِى الْقُرْآنِ برأيه فأصاب فقد أخطأ» فتمسك فيه بعض المتورعة ممن قلَّت فى العلم طبقته، وضعفت فيه خبرته، واستعمل هذا الحديث على ظاهره، وامتنع أن يستنبط معانى القرآن باجتهاده، عند وضوح شواهده، إلا أن يرد بها نقل صحيح، ويدلَّ عليها نص صريح، وهذا عدول عما تعبّد الله تعالى به خلقه فى خطابهم بلسان عربى مبين، قد نبه على معانيه ما صرح من اللغز

والتعميـة، التى لا يوقف عليها إلا بالموضعة إلى كلام حكيم، أَبَان عن مراده، وقطع أعذار عباده، وجعل لهم سبلاً إلى استنباط أحكامه، كما قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣) ولو كان ما قالوه صحيحًا لكان كلام الله غير مفهوم، ومراده بخطابه غير معلوم، ولصار كاللغز المعمَّى، فبطل الاحتجاج به، وكان ورود النص على تأويله، مغنيًا عن الاحتجاج بتنزيله، وأعوذ بالله من قولٍ فى القرآن يؤدى إلى التوقف عنه، ويؤول إلى ترك الاحتجاج به.

ولهذا الحديث - إن صح - تأويل، معناه: أنّ مَنْ حمل القرآن على رأيه، ولم يعمل على شواهد ألفاظه، فأصاب الحق، فقد أخطأ الدليل».

ثم تكلم الماوردى عن أوجه التفسير وضوابطه، وذكر كلامًا نفيسًا نورده بنصه.

قال الماوردى: «فإذا صح جواز الاجتهاد فى استخراج معانى القرآن من فحوى ألفاظه، وشواهد خطابه، فقد قسم عبد الله بن عباس ﷺ وجوه التفسير على أربعة أقسام: فروى سفيان، عن أبى الزناد قال ابن عباس: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب بكلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل» وهذا صحيح.

أما الذى تعرفه العرب بكلامها، فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم.

وأما الذى لا يعذر أحد بجهالته، فهو ما يلزم الكافّة فى القرآن من الشرائع وجملة دلائل التوحيد.

وأما الذى يعلمه العلماء، فهو وجوه تأويل المتشابه وفروع الأحكام.

وأما الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل، فهو ما يجرى مجرى الغيوب وقيام الساعة.

وهذا التقسيم الذى ذكره ابن عباس صحيح، غير أن ما لا يعذر أحد بجهالته داخل فى جملة ما يعلمه العلماء من الرجوع إليهم فى تأويله، وإنما يختلف القسمان فى فرض العلم به على الأعيان، وما يختص بالعلماء يكون فرض العلم به على الكفاية، فصار التفسير منقسمًا على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما اختص الله تعالى بعلمه، كالغيوب، فلا مساغ للاجتهاد فى تفسيره ولا يجوز أن يؤخذ إلا عن توقيف، من أحد ثلاثة أوجه:

إما من نص فى سياق التنزيل، **وإما** عن بيان من جهة الرسول، **وإما عن** إجماع الأمة على ما اتفقوا عليه من تأويل.

فإن لم يرد فـيه توقيف، علمنا أن الله تعالـى أراد لمصلحةٍ استـأثر بها، ألاَّ يُطْلِع عباده على غيبه.

والقسم الثانى: ما يرجع فيه إلى لسان العرب، وذلك شيئان: اللغة والإعراب:

فأمـا اللغة، فيكون العلم بها فى حق المفسر دون القارئ، فإن كان مما لا يوجب العمل، جاز أن يعمل فيه على خبر الواحد والاثنين، وأن يستشهد فيه من الشعر بالبيت والبيتـين، وإن كان مما يوجب العـمل، لم يعمل فيه على خـبر الواحد والاثنين، ولا يستشهد فيه بالبيت والبيتين، حتى يكون نقلُهُ مستفيضًا، وشواهد الشعر فيه متناصرة.

وقد روى أبو حاضـر عن ابن عباس: أن رجلاً سـأل النبى ﷺ : أىُّ علم القرآن أفضل؟ قال: «غَـرِيبُهُ، فالتَمِـسُوهُ فى الشِّعْرِ» وإنما خص الغـريب لاختصاصـه بإعجاز القرآن، وأحال على الشعر لأنه ديوان كلامهم، وشواهدُ معانيهم، وقد قال ابن عباس: «إذا أشكَلَ عَلَيْكُم الشىءُ من كتاب الله فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب».

وأما الإعـراب، فإن كان اختلافه موجبًا لاختلاف حُكمِهِ وتغيير تأويله، لزم العلم به فى حق المفسر وحق القارئ، ليتوصل المفسر إلى معرفة حكمه، ويَسْلَمَ القارئ من لَحْنِهِ، ورُوى عن النبى ﷺ ، أنه قال: «أعربُوا القرآنَ والتمسُوا غرائِبَه».

وإن كان اختلاف إعرابه لا يوجب اختلاف حكمـه، ولا يقتضى تغيير تأويله، كان العلم بإعـرابه لازمًـا فى حق القارئ لِيَـسْلَمَ مِنَ اللَّحْنِ فـى تلاوته، ولم يلزم فى حق المفسر لوصـوله مع الجهل بإعرابه إلى معرفة حكمه، وإن كـان الجهل بإعراب القرآن نقصًا عامًا.

والقسـم الـثالث: ما يرجع فيه إلى اجتهاد العلماء، وهو تأويل المتشابه، واستنباط الأحكام، وبيان المجـمل، وتخصيص العمـوم، والمجتهدون من عـلماء الشرع أخص بتفسيره من غيرهم حملاً لمـعانى الألفاظ على الأصول الشرعية، حتى لا يتنافى الجمع بين معانيها وأصول الشرع، فيعتـبر فيه حال اللفظ، فإنه ينقسم إلى قسمين: **أحدهـما**: أن يكون مشتـملاً على معنًى واحد لا يتعـداه، ومقصورًا عليه، ولا يحتـمل ما سواه،

فيكون من المعانى الجلية والنصوص الظاهرة، التى يُعلَمُ مُراد الله تعالى بها قطعًا من صريح كلامه، وهذا قسم لا يختلف حكمه ولا يلتبس تأويله. **والقسم الثانى**: أن يكون اللفظ محتملاً لمعنيين أو أكثر، وهذا على ضربين: **أحدهما**: أن يكون أحد المعنيين ظاهرًا جليًا، والآخر باطنًا خفيًا، فيكون محمولاً على الظاهر الجلى دون الباطن الخفى، إلا أن يقوم الدليل على أن الجلىَّ غيرُ مُرَادٍ، فيحمل على الخفى. **والضرب الثانى**: أن يكون المعنيان جليَّين، واللفظ مستعملاً فيهما حقيقةً، وهذا على ضربين: **أحدهما**: أن يختلف أصل الحقيقة فيهما، فهذا ينقسم على ثلاثة أقسام: **أحدها**: أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى اللغة، والآخر مستعملاً فى الشرع، فيكون حملُه على المعنى الشرعىِّ أولى من حملِهِ على المعنى اللُّغَوىِّ، لأن الشرع ناقل. **والقسم الثانى**: أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى اللغة، والآخر مستعملاً فى العُرْفِ، فيكون حمله على المعنى العُرفى أولى من حملة على معنى اللُّغةِ، لأنه أقرب معهود. **والقسم الثالث**: أن يكون أحد المعنيين مستعملاً فى الشرع، والآخر مستعملاً فى العرف، فيكون حمله على معنى الشرع أولى من حملة على معنى العرف لأن الشرع ألزم.

والضرب الثانى: أن يتفق أصل الحقيقة فيهما فيكونا مستعملَيْن فى اللغة على سواء، أو فى الشرع، أو فى العُرف، فهذا على ضربين: **أحدهما**: أن يتنافى اجتماعُهما ولا يُمْكِن استعمالهما كالأحكام الشرعية، مثل القُرْء الذى هو حقيقة فى الطهر، وحقيقة فى الحيض، ولا يجوز للمجتهد أن يجمع بينهما لتنافيهما، وعليه أن يجتهد رأيَهُ فى المراد فيهما بالأمارات الدالَّةِ عليه، فإذا وصل إليه، وكان هو الذى أراده الله تعالى منه، وإذا أدى اجتهاد غيره إلى الحكم الآخر، وكان هو المراد منه فيكون مُرادُ الله تعالى من كل واحدٍ منهما ما أداه اجتهاده إليه.

ولو لم يترجَّحْ للمجتهد أحدُ الحكمين، ولا غَلَبَ فى نفسه أحد المعنيين لتكافؤِ الأمارات عنده، ففيه للعلماء مذهبان: **أحدهما**: أن يكون مخيرًا للعمل على أيهما شاء. **والمذهب الثانى**: أن يأخذ بأغلظ المذهبين حكمًا.

والضرب الثانى فى اختـلاف المعنيين: ألا يتنافيا ويُمْكِن الجمعُ بينهـما فهذا على ضربين:

أحدهـما: أن يتساويا، ولا يترجَّحَ أحدهما على الآخرِ بدليلٍ، فيكون المعنيان معًا مرادين، لأن الله تعـالى لو أراد أحدهما لنصب على مـرادِهِ منهما دليـلاً، وإن جاز أن يريد كل واحدٍ من المعنيين بلفظين متغايرين لعدم التنافى بينهما، جاز أن يريدهما بلفظ واحدٍ، يشتملُ عليهما، ويكون ذلك أبلَغَ فى الإِعجاز والفصاحة.

والضـــرب الثـــانى: أن يتـرجَّحَ أحدهمــا على الآخر بدليلٍ، وهو على ضــربين: **أحـدهمـا:** أن يكون دليلاً على بطلان أحد المـعنيين، فيسقط حكمه، ويصـير المعنى الآخر هو المراد، وحكمه هو الثابت. **والضرب الثانى:** أن يكون دليلاً على صحة أحد المعنيين فيثبت حكمه ويكون مرادًا، ولا يقتضى سقوط المعنى الآخر، ويجوز أن يكون مرادًا، وإن لم يكن عليه دليل، لأن موجب لفظـه دليل، فاستويا فى حكم اللفظ، وإن ترجَّحَ أحدهما بدليل، فصارا مرادين معًا.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن المعنى الذى يرجح بدليل أَثْبَتُ حكمًا من المعنى الذى تجرد عنه، ولقوته بالدليل الذى ترجح به، فـهذا أصلٌ يعتبر من وجوه التـفسير، ليكون ما احتملته ألفـاظ القرآن من اختلاف المعانى محمولاً عليـه، فيعلم ما يؤخذ به ويعدل عنه».

موقفه من المكى والمدنى وأسماء السور:

والماوردى يعنى فى تفسيره بذكر المكى والمدنى وأسماء السور، مثال ذلك ما قاله فى فاتحة الكتاب: «قال قتادة: هى مكية، وقال مجاهد: هى مدنية.

ولها ثلاثة أسماء: فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثانى».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

اعتمد المـاوردى هذا النوع من التفسير فى كتـابه، فمثلا عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٣٧) قال: «واخـتُلِفَ فى الكلمات التى تلقَّاها آدم من ربِّه على ثلاثة أقاويل:

أحدها: قوله: ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (**الأعراف: ٢٣**) وهذا قول الحسن، وقتادة، وابن زيد».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

ومن السمات الواضحة فى «النكت والعيون» اعتماد الماوردى على السنة الصحيحة فى تفسيره للقرآن، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ (**الفاتحة: ٧**) قال: روى «عن عديٍّ بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ، عن المغضوب عليهم، فقال: هُمُ اليَهُود، وعن الضالين، فقال: هُمُ النَّصارَى».

موقفه من القراءات:

حفل تفسير «النكت والعيون» بالقراءات القرآنية، المتواتر منها والشاذ، والماوردى عندما يذكرها فهو ينسبها إلى من قرأ بها، ويعنى بتوجيهها.

مثال ذلك عند تفسيره قوله عز وجل: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ** ﴾ (**الكهف: ٩٣**) حيث قال: «بالفتح قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم فى رواية حفص، وقرأ الباقون: «بين السُّدين» بالضم، واختُلف فيهما على قولين:

أحدهما: أنهما لغتان معناهما واحد.

الثانى: أن معناهما مختلف.

وفى الفرق بينهما ثلاثة أوجه [ولم يذكر الوجه الثالث]:

أحدها: أن السُّد ـ بالضم ـ من فعل الله، عز وجل، وبالفتح من فعل الآدميين.

الثانى: أنه بالضم الاسم، وبالفتح المصدر، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴾ (**الكهف: ٩٤**) قال: «قرأ حمزة والكسائى: «خَرَاجًا» وقرأ الباقون «خَرْجًا» وفى اختلاف القراءتين ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الخراج الغلة الأجرة.

الثانى: أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض، والخرج ما يؤخذ عن الرقاب، قاله أبو عمرو بن العلاء.

الثــــالث: أن الخراج ما يؤخـذ دفعة، والخراج ثابت مأخـوذ فى كل سنة، قاله ثعلب».

وفى قوله تعالى: ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ (البقرة: ٢٥٩) قال: «قراءتان:

إحــداهــما: «ننشرُها» بالراء المهـملة، قرأ بذلك ابن كثيـر ونافع وأبو عمرو، ومعناه نحـييهـا، والنشور: الحيـاة بعد الموت، مـأخوذ من نشر الثـوب، لأن الميت كالمطوى، لأنه مقبـوض عن التصرف بالموت، فإذا حَيِىَ وانبسط بالتـصرف قيل: نُشِرَ وأُنشِر.

والقراءة الثانية: قرأ بها الباقون: «ننشزُها» بالزاى المعجمة، يعنى نرفع بعضها إلى بعض، وأصل النشـوز الارتفاع، ومنه النشـز اسم للموضع المـرتفع من الأرض، ومنه نشوز المرأة لارتفاعها عن طاعة الزوج».

موقفه من أسباب النزول:

ويُعنى المـاوردى فى تفـسيـره عناية تامـة بأسبـاب النزول، وربمـا أورد فى الآية الواحدة عدة أسباب، دون أن يرجح بينهـا، مما يشعر بتصويبه لها جـميعًا. والماوردى ينسب جمـيع هذه الأقوال إلى أصحابهـا، مثال ذلك ما قـاله عند تفسير قـوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقـرة: ١١٥) قال: «اخـتلف أهل التأويل فى تأويلها، وسبب نزولها، على سبعة أقاويل:

أحــــدها: أن سبب ذلك أن النبى ﷺ كان يـستقبل بصلاته بيت المـقدس بعد هجرته ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشـر شهرًا، حتى قالت اليهود: إن محمدًا وأصحابه ما دروا أين قبلتهم حتى هديناهم، فأمرهم الله تعالى باستقبال الكعبة، فتكلمت اليهود، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وهذا قول ابن عباس.

والثـانى: أن هذه الآية نزلت قبل أن يفرض استقبال القبلة، فأباح لهم أن يتوجهوا بصلاتهم حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب، وهذا قول قتادة وابن زيد.

والثـالث: أنها نزلت فى صلاة التطوع للسائر حـيث توجه، وللخائف حيث تمكن من مشرق أو مغرب، وهذا قول ابن عمر، روى سعيد بن جبير عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ أن تصلى أينما توجهت بك راحلتك فى السفر

تطوعًا، وكان رسول الله ﷺ إذا رجع من مكة يصلى على راحلته تطوعًا، يومئ برأسه نحو المدينة.

والرابع: أنها نزلت، فيمن خفيت عليهم القبلة، ولم يعرفوا جهتها، فَصَلُّوا إلى جهات مختلفة.

روى عاصم بن عبد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة، فنزلنا منزلاً، فجعل الرجل يأخذ الأحجار، فيعمل مسجدًا يصلى فيه، فلما أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا: يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

والخامس: أنها نزلت فى النجاشى، ورَوَى أبو قتادة أن النبى ﷺ قال: «إِنَّ أَخَاكُم النَّجَاشِىَ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْه» قالوا: نصلى على رجل ليس بمسلم؟! قال: فنزلت: ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١٩٩) قالوا: فإنه كان لا يصلى إلى القبلة، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾.

والسادس: أن سبب نزولها أن الله تعالى لما أنزل قوله: ﴿ **ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ (غافر: ٦٠) قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿ **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** ﴾ (البقرة: ١١٥).

والسابع: أن معناه: وحيثما كنتم من مشرق أو مغرب فلكم قبلة تستقبلونها، يعنى جهة إلى الكعبة، وهذا قول مجاهد».

هل فى تفسير الماوردى نزعة اعتزالية ؟

وقد وجد من القدامى والمعاصرين من اتهم الماوردى بالاعتزال، وسنورد أولا نماذج من تفسيره يُشَمُّ منها رائحة الاعتزال، ثم نذكر حجج من رماه بالاعتزال مع مناقشة تلك الحجج وبيان الرأى الراجح فى تلك المسألة، فنقول:

قال الماوردى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٧): «الختم: الطبع، ومنه ختم الكتاب، وفيه أربعة تأويلات:

أحـــدها: وهو قول مجاهد: أن القلب مثل الكـف، فإذا أذنب العَبْدُ ذنبًا ضُمَّ منه كالإصبع، فإذا أذنب ذنبًا ثانيًا ضم منه كالإصبع الثانية، حتى يضمَّ جميعه ثم يطبع عليه بطابع.

والثانى: أنها سمة تكون علامة فيهم، تعرفهم الملائكة بها من بين المؤمنين.

والثالث: أنه إخبار من الله تعالى عن كفرهم وإعراضهم عن سماع ما دعوا إليه من الحق، تشبيهًا بما قد انسدَّ وخُتم عليه، فلا يدخله خير.

والـرابــع: أنها شهـادة من الله تعالى على قلوبهم، بأنها لا تعى الذكـر ولا تقبل الحقَّ، وعلى أسمـاعهم بأنها لا تصـغى إليه، والغشـاوة: تعاميـهم عن الحق، وسُمِّى القلب قلبًا لتقلُّبِه بالخواطر، وقد قيل:

مَـا سُـــمِّىَ الْقَلْبُ إلاَّ مِنْ تَقَـلُّبـهِ وَالرَّأىُ يَصْـرِفُ، وَالإِنْسَـانُ أَطْوَارُ

والغشاوة: الغطاء الشامل».

وعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ (البقرة: ٢٥٣) قال: «فيه وجهان:

أحدهما: ولو شاء الله ما أمر بالقتال بعد وضوح الحجة.

والثانى: ولو شاء الله لاضطرهم إلى الإيمان، ولما حصل فيهم خيار».

وعند تفـسيـر قوله عـز وجل: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَـمَن شَـاءَ فَلْيُـؤْمِن وَمَن شَـاءَ فَلْيَـكْفُـرْ**﴾ (الكـهف: ٢٩) قال الماوردى: «هذا وإن كان خارجًا مخرج التخيير فهو على وجه التهديد والوعيد، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم لا ينفعون الله بإيمانهم ولا يضرونه بكفرهم.

الثانى: فمن شاء الجنة فليؤمن، ومن شاء النار فليكفر، قاله ابن عباس.

الثـــالث: فمن شاء فليعرِّض نفسه للجنة بـالإيمان، ومن شاء فليعرض نفسه للنار بالكفر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ**﴾ (التغـابن: ٢) قال: «بأنه خلقه ﴿**وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ**﴾ بأنه خلقه، قاله الزجاج.

الثانى: فمنكم كافر به وإن أقرّ به، ومنكم مؤمن به.

قال الحسن: وفى الكلام محذوف وتقديره: فمنكم كافر ومنكم مؤمن ومنكم فاسق، فحذفه لما فى الكلام من الدليل عليه.

وقال غيره: لا حذف فيه لأن المقصود به ذكر الطرفين».

رأى ابن الصلاح ـ من القدامى ـ فى تفسير الماوردى ومناقشته فى ذلك:

وأول من اتَّهم الماوردى بالاعتزال ـ حسب علمى ـ هو: تقى الدين ابن الصلاح ـ مع أن بينهما نحو مائتى سنة ـ حيث قال: «هذا الماوردىُّ ـ عفا الله عنه ـ يُتَّهمُ بالاعتزال، وقد كنت لا أتحققُ ذلك عليه، وأتأولُ له، وأعتذرُ عنه فى كونه يوردُ فى الآيات التى يَختلفُ فيها أهلُ التفسير ـ تفسيرَ أهلِ السنة، وتفسيرَ المعتزلة ـ غير متعرضٍ لبيانِ ما هو الحقُّ منها، وأقولُ: لعلَّ قصدهُ إيراد كل ما قيل من حقٍّ أو باطل، ولهذا يورد من أقوال المشبِّهة أشياء من هذا الإيراد، حتى وجدته يختارُ فى بعض المواضع قولَ المعتزلةِ، وما بَنَوه على أصولهم الفاسدة، ومن ذلك مصيرهُ فى الأعرافِ إلى أنَّ الله لا يشاءُ عبادة الأوثان... وقال فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام: ١١٢) وجهان فى ﴿جَعَلْنَا﴾:

أحدهما: معناه حكمنا بأنَّهم أعداء.

والثانى: تركناهم على العداوةِ فلم نَمنعهم منها.

وتفسيره عظيمُ الضَّررِ، لكونه مشحونًا بتأويلات أهل الباطل، تلبيسًا وتدسيسًا على وجه لا يفطن له غيرُ أهل العلم والتحقيق، مع أنَّهُ تأليفُ رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يَجتهدُ فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق، ثُمَّ هو ليس معتزليًّا مطلقًا فإنه لا يوافقهم فى جميع أصولهم، مثل خلق القرآن كما دلَّ عليه تفسيره فى قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: ٢) وغير ذلك، ويوافقهم فى القَدَرِ، وهى البليَّةُ التى غلبت على البصريين وعُيبوا بها قديمًا».

ثمَّ جاء جمع من العلماء بعد ابن الصلاح فنَقلوا عنه كلامه ونسبوه إليه، تَخلصًا مِن تبعته لعدمِ تيقنهم منه، فهذا ياقوت الحمويُّ، يقول من غير جَزم: «... وكان

عالمًا بـارعًا متـفننًا شافعـيًّا فى الفـروع، ومعتـزليًّا فى الأصول على مـا بلغنى، والله أعلم».

وقال الداودى فى «طبـقات المـفسرين»: «. . . وذكـره ابن الصلاح فى طبـقاته، واتهمه بالاعتزال فى بعض المسائل بِحَسَبِ ما فهـمه عنه فى تفسيره فى موافقة المعتزلة فيـها، ولا يوافقـهم فى جمـيع أصولهم، ومـمـا خالفهم فـيه أَنَّ الجنَّة مَـخلوقةٌ، نعم يوافقهم فى القول بالقَدَرِ، وهى بلية غلبت على البصريين».

وكذلك ذكر الذهبى ذلك فى ترجمتـه للماوردى فى «تاريخ الإسلام» دون أن يشير إلى ابن الصلاح.

وقد أوضح ابن الصـلاح منشأ اتهـامه للماوردى بالاعـتزال ألا وهو ذِكْـرُهُ لبعض أقوالهم دونَ اعتراضٍ عليها وقد أَخَـذَ مِن هـذا أَنَّهُ يَختـارها، والمعتزلةُ لا يطلقون صفةَ الاعتـزال إلا على من وافـقـهم فى أصولهم الخـمسـة ـ التوحـيد، والعـدل، والوعد والوعيد، والمنـزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعـروف، والنهى عن المنكر ـ وأَمَّا من لا يقول بهـا جميعًـا فليس معتـزليًّا بالقول الصـحيح، وقد نص على ذلك أبو الحسين الخياط، من أئمة المعتزلة فى القرن الثالث ـ فى كتابه «الانتصار».

أما قول ابن الصـلاح: إِنَّه كان «يورد فى تفسيره فى الآيات التى يختلف فـيها أهل التفسـير ـ تفسير أهل السنة، وتفسـير المعتزلة ـ غـير متعرض لبيـان ما هو الحق منها» فالماوردى يُعنى بـعرض الأقوال فى المسألة، ويجـتهد فى نسبة كـل قول إلى قائله من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فى الكثير الغالب، وربمـا فاته نسبة بعضها، ومن غير المعقول أَن نُحمِّلَه تَبِعةَ كلِّ قولٍ قـيل فى المسألة، وبخاصة حين يسنده إلى قائله، وقد أوضح فى مـقدمـته أنه أراد مـن تفسـيره أن يكون «. . . جـامـعًا بين أقـاويل السلف والخلف، وموضحًا عن المؤتلف والمختلف. . .».

وقد أقـر ابن الصلاح بذلك حـين قال: «لعل قـصده إيراد كل ما قـيل من حق أو باطل»، غير أنه لم يعذره، ولم يرض بما ذهب إليه.

نعم، كان الأفضل أن يتعقب الأقوال بالتوجيه لها، والترجيح بينها، وقد فعل ذلك حينًا، وتركه حينًا آخر.

أما قول ابن الصلاح: «حتى وجدته يختار فى بعض المواضع قول المعتزلة، وما بنوه على أصولهم الفاسدة، ومن ذلك مصيره فى الأعراف إلى أن الله لا يشاء عبادة الأوثان. . . وقال فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾ (الأنعام: ١١٢) وجهان فى ﴿جَعَلْنَا﴾:

أحدهما: معناه حكمنا بأنهم أعداء.

والثانى: تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها».

فصحيحٌ أَنَّه ذَكَرَ أقوال المعتزلة، لكنَّ دلالةَ ذلك على اعتقادهِ بِها غيرُ قطعيةٍ، فهو لم يزد على أَنْ عَرَضَ القولَ وتَركه ولَم يُرجحه بشىء.

أما قول ابن الصلاح: «وتفسيره عظيمُ الضَّرَرِ لكونهِ مشحونًا بتأويلات أهل الباطل، تلبيسًا وتدسيسًا على وجه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق، مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة، بل يجتهد فى كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق» فهو قول مردودٌ وغيرُ مُسلَّمٍ، وفيه تَحاملٌ ظاهرٌ على الماوردى، وعدمُ إنصافٍ لَهُ، ذلك أنَّ تفسيْرَهُ مليءٌ بتأويلات السَّلَفِ من الصحابة والتابعين، ومشاهير علماء المسلمين، منسوبةٌ لَهم بأسمائهم، مع ما نقله بجانبِ ذلك من تأويلات الخَلَفِ، ومن بينها بعض تأويلات المعتزلة، والتى أراد من ذكرها بيان ما قيل فى الآية من حق وباطل، ومن راجح ومرجوح، وهو فى الغالب حين يذكر أقوال المعتزلة ينسبها إلى من قال بها من علمائهم كأبى على الجُبَّائى، والأصمِّ، وعلى بن عيسى الرمانىِّ، وأبى مسلم محمد بن بَحر الأصفهانىِّ، والذى كثيرًا ما ينقلُ آرائه ويتعقبها بالنَّقدِ والردِّ، فلا لوم عليه بعد ذلك، إذا حكى أقوال المعتزلة ما دام قد نَسبها.

فكيف يصحُّ من ابن الصلاح بعدَ هذا أن يصرف النظرَ عن كل ذلك، ويتصيَّد ما قد يكون ذكره الماوردى من أقوالهم التى أغفل نسبتها ليجعل منها دليلاً على أنه معتزلى أراد الإضرار بعقائد السَّوادِ من الناس فقصد بذلك التدليس والتلبيس! فرحم الله ابن الصلاح فلقد فاته الإنصاف.

رأى الدكتور عدنان زرزور ـ من المعاصرين ـ في «النكت والعيـون» ومناقشـته فى ذلك:

أما الدكتور عدنان زرزور فقد عدَّ تفسير الماوردى من تفاسير المعتزلة، وأَنَّهُ وُضِعَ على أصولهم ومنهجهم فى التفسير ونقل منه نصّا رآهُ دليلاً على ما ذهب إليه، فقال فى كتابه «الحاكم الجشمى ومنهجه فى تفسير القرآن»: «والناظر فى هذا التفسير قد لا يقف فيه سريعًا على أثرٍ واضح لمذهب المصنِّفِ الذى كان لا يُجاهرُ بالاعتزال فيما يبدو، ولكنه كان ينتصر فيه لمذهب المعتزلة على التحقيق، مرة بالإشارة العابرة، وأخرى بوضع القارئ أمام وجوه كثيرة فى تفسير الآية الواحدة، يوردها موجزةً ملخصةً وليس من بينها ما يناقض مذهب المعتزلة بحال.

قال فى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢): «وفى المتقين ثلاثة تأويلات:

أحدها: الذين اتقوا ما حرم الله عليهم، وأدوا ما افترض عليهم، وهذا قول الحسن البصرى.

والثـانى: أنهم الذين يحذرون من الله العقوبة، ويرجون رحمته، وهذا قول ابن عباس.

والثـالث: أنهم اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق، وهذا فاسد لأنه قد يكون كذلك وهو فاسق، وإنما خص به المتقين وإن كان هُدًى لجميع الناس لأنهم آمنوا به، وصدقوا بما فيه».

ثم قال الدكتور عدنان: «وأيا ما كان الأمر فإن الماوردى وضع تفسيره على أصول المعتزلة ومنهجهم فى التفسير، سواءً أخالفهم فى بعض المسائل أم لا، وسواء أجاهر بالاعتزال أم لا، وإن كنا لا ندرى ما هو حد الجهر عند ابن الصلاح».

وقد عَقَّبَ الدكتور عبد الله الوهيبى ـ فى مقدمة تحقيقه لتفسير العز بن عبد السلام ـ على ما ذكره الدكتور عدنان زرزور تلك فقال: «وهذا حُكمٌ يعوزهُ التحقيق، فلو أنَّ الباحث تصفح هذا التفسير وقرأ فيه لتبين له أنه تسرع فى الحكم عليه، ورجع عن قوله «فإن الماوردى وضع تفسيره على أصول المعتزلة ومنهجهم فى التفسير» لأن قوله هذا يعنى أن الماوردى يقول بجميع أصول المعتزلة، وهذا قول لا دليل عليه،

ومخالف لما فى تفسير الماوردى، ولو صح ما قال، لم يقل ابن الصلاح: «هو ليس معتزليّا مطلقًا فإنه لا يوافقهم فى جميع أصولهم، مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره فى قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ (الأنبياء: ٢) وغير ذلك، ويوافقهم فى القدر...» فكان الأولى بالباحث أن يكون منصفًا فى حكمه، متحققًا من قوله بقراءة قسم من هذا التفسير يكفى للحكم عليه، أما إصدار الحكم بناء على قراءة المقدمة وتفسير آيتين من سورة البقرة فلا يكفى، وليس فى هاتين الآيتين ما يدل على حكمه».

والسبكى الذى نقل قول ابن الصلاح فى الماوردى عقَّب عليه فقال: «والصحيحُ أنَّه ليس معتزليّا، ولكنه يقول بالقَدَرِ فقط».

وابن حجر تعقب عبارة الذهبى عن الماوردى بأنه «صدوق فى نفسه، لكنه معتزلى» فيقول: «ولا ينبغى أن يطلق عليه اسم الاعتزال» ثم قال: «والمسائل التى وافق فيها المعتزلة معروفة، منها مسألة وجوب الأحكام والعمل بها هل هى مستفادة من الشرع أو العقل؟ كان يذهب إلى أنها مستفادة من العقل، ومسائل أخرى توجد فى تفسيره وغيره منها أنه قال فى تفسير سورة الأعراف: إن الله لا يشاء عبادة الأوثان، وافق اجتهاده فيها مقالات المعتزلة».

وهذا تلميذه الخطيب البغدادى يقول عنه: «كتبت عنه، وكان ثقة».

ويقول ابن الجوزى: «وكان ثقة صالحًا».

فلو كان معتزليّا لنبهوا على ذلك، فالخطيب تلميذه فهو أقرب إليه، وأعرف به.

ولعل من أدلة عدم اعتزاله علاقته بالخليفة القادر بالله، ووجه ذلك أن القادر كان من علماء الشافعية، وقد ألف كتابًا فى الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وأورد فى كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز وإكفار المعتزلة والقائلين بخلق القرآن، وكان ذلك الكتابُ يُقرأُ فى كُلِّ جُمعةٍ فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى وبحضرة الناس، فإذا كان هذا هو رأى الخليفة القادر بالله فى المعتزلة وموقفه منهم، فبعيد أن يُقرب الماوردى منه وهو كذلك، وبعيد أن يجهل عقيدته، ثم هو معلوم عنه من سيرته شجاعته، وجرأته فى الحق، يشهد لذلك موقفه

من تلقيب جـلال الدولة بملك الملوك، ومعـارضته لذلـك، فما الذى يجـعله إذا كان معتـزليّا لا يتظاهر بالانتسـاب إليهم، ويخفى أمره بل يجـتهد فى كتمـان ذلك؟! ثم ما الذى يجـعل القول باعـتزاله يتـأخر نحـو مائتى سنة إلى أن جـاء ابن الصلاح فـأعلن ذلك؟».

ثم ذكر الدكتور عـبد الله الوهيبى ما رآه صوابًا، وأوافقه عليـه، فقال: ولعل أقرب ما يـقال عن المـاوردى فى هذه المسـألة ما قـاله ابن حجـر من أن: «له مسـائل وافق اجتهاده فيها مقالات المعتزلة، ولا ينبغى أن يطلق عليه اسم الاعتزال».

موقفه من المسائل الفقهية:

حفل تفـسير الماوردى بذكـر العديد من المسـائل الفقهيـة، مع إيراده آراء الأئمة المجتهدين والصحابة والتابعين، دون الإشارة إلى مذهب الإمام أحمد.

والماوردى لا يستطرد فى ذكر الأدلـة ومناقشتها، وغالبًا مـا يرجح قول الشافعى، مثال ذلك عند تفسـير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾ (البقرة: ١٥٨) حيث قال: «فذهب أبو حنيفة إلى أنّ السعى بين الصفا والمروة غير واجب فى الحج والعمرة بأمرين:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ ورفع الجنح من أحكام المباحات دون الواجبات.

والثانى: أن ابن عباس وابن مسعود قَرآ: ﴿**فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾.

وذهب الشـافعى، ومالك، وفـقهـاء الحرمـين، إلى وجوب السـعى فى النسكين تمسكًا بفحوى الخطاب ونص السنة، وليس فى قوله: ﴿**فَلا جُنَاحَ**﴾ دليل على إباحته دون وجوبه، لخروجـه على سبب، وهو أن الصفا كـان عليه فى الجاهليـة صنم اسمه إساف، وعلى المروة صنم اسـمه نائلة، فكانت الجاهلية إذا سعت بين الصـفا والمروة طافوا حول الصـفا والمروة تعظيمًـا لإساف ونائلة، فلما جاء الإسـلام وأُلغيت الأصنام تَكَرَّهَ المسلمون أن يُوَافِقُوا الجاهلية فى الطواف حول الصـفا والمروة، مجانبةً لما كانوا

عليه من تعظيم إساف ونـائلة، فأباح الله تعالى ذلك لهم فى الإسلام لاختـلاف القصد فقال: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾.

وأما قراءة ابن مسعود، وابن عباس: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فلا حـجة فيها على سقـوط فرض السعى بينهما لأن لا صلة فى الكلام إذا تقدمهـا جَحْد، كقوله تعـالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ (الأعـراف: ١٢) بمعنى أن تسجـد، وكما قال الشاعر:

ما كـان يرضى رسول الله فـعلهم والطيــبـان أبو بكر ولا عُــمَـرُ»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ (البقرة: ١٩٦) قال: «فيه قولان:

أحدهما: أنه كل حابس من عدوّ، أو مرض، أو عذر، وهو قول مجاهد، وقتادة، وعطاء، وأبى حنيفة.

والثـانى: أنه الإحصار بالعدوّ، دون المرض، وهو قـول ابن عباس، وابن عمر، وأنس بن مالك، والشافعى.

وفى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ قولان:

أحدهما: شاة، وهو قول ابن عباس، والحسن، والسدى، وعلقمة، وعطاء، وأكثر الفقهاء.

والثـانى: بدنة، وهو قول عمر، وعائشـة، ومجاهد، وطاوس، وعروة، وجعلوه فيما استيسر من صغار البُدْن وكبارها».

نقله لبعض أقوال الصوفية:

ذكر الماوردى فى مقدمة تفسـيره أقوال العلماء فى حديث: «ما نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ لَهَا ظَهْرٌ وبَطْنٌ» وقال بعد أن عدَّه من أخبار الآحاد: «ففيه أربعة تأويلات:

أحدها: معناه أنك إذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها، وقفت على معناها، وهو قول الحسن.

والثانى: يعنى أن القِصَصَ ظاهِرُها الإخبار بهلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين، وهذا قول أبى عبيد.

والثـالث: معناه ما من آية إلا وقد عمل بها قـوم، ولها قوم سيعملون بها، وهذا قول ابن مسعود.

والرابع: يعنى أن ظاهرها لفظها، وباطنها تأويلها، وهذا قول الجاحظ».

هذا وقـد أكثـر الماوردى عند تفـسيـره لبعض الآيات من ذكـر أقوال الصـوفيـة، ويصدرها بقوله: قال أصحاب الخواطر، أو المعارف، أو الإشارة، أو المتعمقة، ويذكر هذه الأقوال غالبًا دون تعقيب، وتارة يتعقبـها إن كانت بعيدة عن المراد، ومن أمثلة ما أورده وارتضاه مـا قاله عند تفـسير قـوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ (البقرة:٢٥٧) قال الماوردى:

«**أحدهما**: يخرجونهم من نور الهدى إلى ظلمات الضلالة.

والثانى: يخرجونهم من نور الثواب إلى ظلمة العذاب فى النار.

وعلى وجـه ثالث لأصحاب الخواطر: أنهم يخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الهوى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ (الأحزاب: ٣٣) قال الماوردى: «وفى تأويل هذه الآية لأصحاب الخواطر ثلاثة أوجه:

«**أحـــدها**: يذهب عنكم رجس الأهواء والتبرج، ويطهـركم من دنس الدنيا والميل إليها.

الثانى: يذهب عنكم رجس الغل والحسد، ويطهركم بالتوفيق والهداية.

الثالث: يذهب عنكم رجس البخل والطمع ويطهركم بالسخاء والإيثار».

ومن أمثلة ما حكاه من أقـوال الصوفية ولم يقـره ما قاله عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ**﴾ (المـؤمنون: ١٧) حيـث قال: «وتأويل بعض المتعمـقة فى غوامض المعانى سبع طرائق: أنها سـبعة حجب بينه وبين ربه، **الحجاب الأول**: قلبه، **الثانى**: جسمه، **الثالث**: نفسه، **الرابع**: عقله، **الخامس**: علمه، **السادس**: إرادته، **السابع**: مشيئته توصله إن صلحت وتحجبه إن فسدت، وهذا تكلف بعيد».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ (الفـرقان: ٥٣) قال: «وتأويل

بعض المتعمقين فى غوامض المعانى أن مرج البحرين قلوب الأبرار مضيئة بالبر، وهو العذب، وقلوب الفجار مظلمة بالفجور وهو الملح الأجاج، وهو بعيد».

موقفه من الإسرائيليات:

والماوردى يكثر فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات، ولا يعقب عليها أو يفندها، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله عز وجل: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ (هود: ٣٨) قال: «قال زيد بن أسلم: مكث نوح، عليه السلام، مائة سنة يغرس الشجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها.

واختلف فى طولها على ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما قاله الحسن: كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت مطبقة.

الثانى: ما قاله ابن عباس: كان طولها أربعمائة ذراع، وعلوها ثلاثون ذراعًا.

[**الثالث**]: وقال خصيف: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعًا.

وكان فى أعلاها الطير، وفى وسطها الناس، وفى أسفلها السباع، وأقلعت من عين وردة فى يوم الجمعة لعشر مضين من رجب، ورست بباقردى على الجودى يوم عاشوراء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (ص: ٣٤) قال: «وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه فأخذه الشيطان من تحته، وقال مجاهد: بل أخذه الشيطان من يده لأن سليمان سأل الشيطان كيف تضل الناس؟ فقال الشيطان: أعطنى خاتمك حتى أخبرك فأعطاه خاتمه، فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسى سليمان متشبهًا بصورته داخلاً على نسائه، يقضى بغير الحق ويأمر بغير صواب، واختلف فى إصابته النساء، فحكى عن ابن عباس: أنه كان يأتيهن فى حيضهن، وقال مجاهد: مُنع من إتيانهن، وزال عن سليمان ملكه فخرج هاربًا إلى ساحل البحر يتضيف الناس ويحمل سموك الصيادين بالأجرة، وإذا أخبر الناس أنه سليمان كذبوه، فجلس الشيطان على سريره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾».

واختلف فى اسم هذا الشيطان على أربعة أقاويل:

أحدها: أن اسمه صخر، قاله ابن عباس.

الثانى: آصف، قاله مجاهد.

الثالث: حقيق، قاله السدى.

الرابع: سيد، قاله قتادة.

ثم إن سليمـان بعد أن استنكر بنو إسرائـيل حكم الشيطان أخذ حوته من صـياد، قيل: إنه استطعمـها، وقال ابن عباس: أخذها أجرًا فى حـمل حوت حمله، فلما شق بطنه وجد خـاتمه فيهـا، وذلك بعد أربعين يومًـا من زوال ملكه عنه، وهى عدة الأيام التى عُبد الصنم فى داره.

قال مقاتل: وملك أربعـين سنة، عشرين سنة قبل الفتنة وعـشرين بعدها، وكانت الأربعون يومًا التى خرج فيها عن ملكه: ذا القعدة وعشرًا من ذى الحجة، فسجد الناس له حين عاد الخاتم إليه وصار إلى ملكه.

وحكى يحيى بن أبى عمرو الشيبانى أن سليمان وجـد خاتمه بعسقلان فمشى منها إلى بيت المقدس تواضعًا لله.

قال ابن عـباس: ثم إن سليمـان ظفر بالشيطـان فجعله فى تخت من رخـام وشده بالنحاس وألقاه فى البحر، فهذا تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾».

وهكذا يمر الماوردى على هذه الأقوال، ولا يفندها مع ما فـيها من مساس بجانب العقيدة، وعصمة الأنبياء.

٥- زاد المسير فى علم التفسير

لابن الجوزى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: عبد الرحمن بن على بن محمد بن على القرشى التيمى، أبو الفرج البغدادى، الحنبلى، يُعرف بابن الجوزى، ويلقب بجمال الدين.

وُلد ببغداد فى حدود سنة عشر وخمسمائة، وتوفى أبوه وله من العمر ثلاث سنين.

ولما بلغ سن التمييز مضت به عمته إلى أبى الفضل محمد بن ناصر، فتولى تعليمه، وسمَّعه من الشيوخ.

قرأ ابن الجوزى القرآن على سبط الخياط، وعلى أبى حكيم إبراهيم بن دينار النهروانى، وقرأ عليه المذهب والفرائض.

وتفقه على: أبى بكر الدينورى، وابن الفراء.

وسمع من أحمد بن أحمد التوكلى، وزاهر الشحامى، وشهدة الكاتبة، وأحمد بن على بن الحسن بن البناء البغدادى، وأحمد بن محمد بن الحسن البغدادى الأصبهانى، وأبى العز بن كادش، وطائفة، مجموعهم نيف وثمانون شيخًا.

حدَّث عنه: ابنه يوسف، وابن الدبيثى، وابن النجار، والحافظ عبد الغنى المقدسى، وآخرون.

وكان من كبار الوعَّاظ ببغداد، فقيهًا عالمًا بالتاريخ والحديث، واسع الاطلاع، كثير التصانيف.

قال عنه ابن الدبيثى: إليه انتهت معرفة الحديث وعلومه.

وقال ابن خلكان: علاَّمة عصره، وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ.

---

(١) مصادر الترجمة: المنتظم (١/ ١٣ - ٤٤) المقدمة، الكامل فى التاريخ (١٢/ ١٧١)، وفيات الأعيان (٣/ ١٤٠ برقم ١٧٠)، سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٥)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١٥٥ برقم ١١٠، ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٣٩٩ برقم ٢٠٥)، البداية والنهاية (١٣/ ٣١)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٢٧٥/ برقم ٢٦٠).

ومع إحاطة ابن الجوزى بكثير من فنون العلم، وشهرته، وإكبار العلماء لعلمه، فقد تعرَّض لنقد بعضهم، واتُّهم بكثرة الأوهام.

قال الحافظ سيف الدين ابن المجد: هو كثير الوهم جدًا، فإن فى مشيخته مع صغرها أوهامًا.

وعن ابن نقطة، قال: قيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزى؟ قال: إنما يُتتبَّع على مَن قَلَّ غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة.

صنَّف ابن الجوزى كتبًا كثيرة فى أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والأخبار والتاريخ، وغير ذلك، بلغت فى قول بعضهم نحو ثلاثمائة كتاب.

فمن كتبه فى الفقه: الإنصاف فى مسائل الخلاف، عمدة الدلائل فى مشهور المسائل، مسبوك الذهب، وغيرها.

ومن كتبه فى الحديث: جامع المسانيد، الحدائق، غريب الحديث، والموضوعات.

وصنَّف فى الوعظ: التبصرة، المدهش، بحر الدموع، والياقوتة.

وله أيضًا: زاد المسير فى علم التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، فنون الأفنان فى عيون علوم القرآن، الوفا فى فضائل المصطفى، تلبيس إبليس، دفع شبهة التشبيه، والمنتظم فى تاريخ الأمم والملوك.

وله شعر، منه:

يا ساكن الدنيا تأهَّب ... وانتظر يوم الفراقِ
وأعِدَّ زادك للرحيل فـ ... ـسوف تُحدى بالرفاقِ
وابك الذنوبَ بأدمع تنهلُّ ... من سحب المآقى
يا من أضاع زمانه أرضيـ ... ـتَ ما يفنى بباقى؟

توفى ببغداد فى رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة.

منهج ابن الجوزى فى تفسيره

والسبب الداعى لتأليفه هذا الكتاب:

أوضح ابن الجوزى فى مقدمة كتابه السبب الداعى لهذا التأليف، ومنهجه الذى ارتضاه فقال: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم؛

لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وإنى نظرت فى جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد عديم الترتيب، وربما أُهمل فيه المشكل، وشُرِح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطويًا على العلم الغزير».

ثم قال: «ولما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفى بالمقصود كشفه حتى ينظر للآية الواحدة فى كتب، فرُبَّ تفسير أخل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وجد لم يوجد بيان المكى من المدنى، وإن وجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حُكْم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع فى الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة، وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال ـ التى أحطت بها ـ إلا ما تبعد صحته، مع الاختصار البالغ. فإذا رأيت فى فرش الآيات ما لم يذكر تفسيره، فهو لا يخلو من أمرين: إما أن يكون قد سبق، وإما أن يكون ظاهرًا لا يحتاج إلى تفسير، وقد انتقى كتابنا هذا أنقى التفاسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، فنظمه فى عبارة الاختصار».

وقد جمع ابن الجوزى فى تفسيره بين أقوال السلف والخلف، ورتب تفسيره ترتيبًا بديعًا، فهو يحصر الأقوال الكثيرة فى تأويل الآية، فى عدد، ثم يفصلها، وينسب كل قول إلى قائله، مع عناية تامة بالجانب اللغوى والقراءات، وعدم الاستطراد فى المسائل الكلامية.

موقفه من أحاديث فضائل السور:

كما عُنى ابن الجوزى فى تفسيره بأحاديث فضائل السور، ويفرد لها فصلاً فى مطلع تفسيره لكل سورة، مثال ذلك فى سورة البقرة حيث قال: «فصل فى فضيلتها: روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن البيت الذى تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وروى أبو أمامة عن النبى ﷺ أنه قال: «اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة».

وابن الجوزىَ لا يلتزم الصحة فيما يورده من تلك الأحاديث، مثال ذلك ما ذكره فى فضل سورة النور، عند تفسيره لها، حيث ذكر حديثًا عزاه للحاكم فى مستدركه: «لا تنزلوهن الغرف، ولا تعلموهن الكتابة، وعلموهن المغزل وسورة النور».

موقفه من المكى والمدنى:

وابن الجوزى فى تفسيره من المعنيين بذكر المكى والمدنى، معتمدًا فى ذلك على أقوال الصحابة ﷺ أو التابعين، وإن كان ثمة اختلاف بين الصحابة والتابعين فى تلك المسألة فإنه يذكرها دون أن يرجح بين الأقوال، مثال ذلك اختلافهم فى سورة الفاتحة حيث قال: «واختلف العلماء فى نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية، وهو مروى عن علىٍّ بن أبى طالب والحسن وأبى العالية وقتادة وأبى عبيدة.

والثانى: أنها مدنية وهو مروى عن أبى هريرة ومجاهد وعبيد بن عُمير وعطاء الخراسانى، وعن ابن عباس كالقولين».

وأيضًا فى سورة البقرة حيث قال: «قال ابن عباس: هى أول ما نزل بالمدينة، وهذا قول الحسن ومجاهد وعكرمة وجابر بن زيد وقتادة، وذكر قوم أنها مدنية سوى آية وهى قوله عز وجل: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ**﴾ (البقرة: ٢٨١) أُنزلت يوم النحر بمنى فى حجة الوداع».

موقفه من أسباب النزول:

هذا ولم يغفل ابن الجوزى فى تفسيره أسباب النزول، بل هو من المكثرين فيها، وربما أورد فى بعض السور والآيات أكثر من سبب دون أن يُصوب أو يرجح بين الأقوال، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ (الأحزاب: ٢٣) حيث قال: «اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت فى أنس بن النضر، قاله أنس بن مالك، وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أنس بن مالك قال: غاب عمِّى أنس بن النضر عن قتال بدر، فلما قدم قال: غبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين، لئن أشهدنى الله ـ عز وجل ـ قتالاً ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أحد انكشف الناس، فقال: اللهم

إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعنى: المشركين ـ وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى: المسلمين ـ ثم مشى بسيفه، فلقيه سعد بن معاذ فقال: أى سعد، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أحد، واهًا لريح الجنة، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع، قال أنس: فوجدناه بين القتلى، به بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قد مَثَّلوا به، قال: فما عرفناه، حتى عرفته أخته ببنانه، قال أنس: فكنا نقول: أنزلت هذه الآية: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ فيه وفى أصحابه.

والثانى: أنها نزلت فى طلحة بن عبيد الله، روى النزال بن سبرة عن على ـ عليه السلام ـ أنهما له، حدثنا عن طلحة، قال: ذاك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى: ﴿**فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ**﴾ (الأحزاب: ٢٣) لا حساب عليه فيما يستقبل، وقد جعل بعض المفسرين هذا القدر من الآية فى طلحة، وأولها فى أنس».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ...**﴾ (الأحزاب: ٥٣) الآية، أورد ابن الجوزى فى سبب نزولها ستة أقوال:

«**القول الأول**: أخرجاه فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة، فجاء رسول الله ﷺ فدخل، فإذا القوم جلوس، فرجع، وإنهم قاموا فانطلقوا، وجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه، وأنزل الله تعالى هذه الآية.

والثانى: أن ناسًا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبى ﷺ، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون، فكان رسول الله ﷺ يتأذى لهم، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس.

والثالث: أن عمر بن الخطاب قال: قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، أخرجه البخارى من حديث أنس، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر، كلاهما عن عمر.

والرابـع: أن عمر أمـر نساء رسول الله ﷺ بالحجاب، فـقالت زينب: يا بن الخطاب، إنك لتغار علينا والوحى ينزل فى بيوتنا؛ فنزلت الآية، قاله ابن مسعود.

والخـامس: أن عمر كـان يقول لرسول الله ﷺ: احجب نسـاءك، فلا يفعل، فخرجت سـودة ليلة فقال عمر: قـد عرفناك يا سودة؛ حرصًـا على أن ينزل الحجاب، فنزل الحجاب، رواه عكرمة عن عائشة.

والسادس: أن رسول الله ﷺ كان يطعم معه بعض أصحابه، فأصابت يد رجل منهم يد عائشـة، وكانت معـهم، فكره النبى ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجـاب، قاله مجاهد».

موقفه من القراءات القرآنية:

والقارئ لزاد المسيـر يجد أن ابن الجوزى قد حشد تفسيره بذكـر القراءات القرآنية المتواتر مـنها والشاذ، مع عزوها إلى من قـرأ بها، ويورد ـ أيضًا ـ فى تفسـيره قراءات الصحابة والتابعين، مع العناية التامة بتوجيه تلك القراءات، ولهذا حوى تفسيره ثروة من القراءات القرآنية، شغلت حيزًا كبيـرًا من تفسيره، مثال ذلك ما أورده عند قوله تعالى: ﴿مَـالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفـاتحـة: ٤) حيث قـال: «قرأ عاصم، والـكسائى، وخلف، ويعقوب: «مـالك» بألف، وقرأ ابن السميـفع، وابن أبى عبلة كذلك، إلا أنهمـا نصبا الكاف، وقرأ أبو هريرة، وعاصم الجحـدرى: «ملك» بإسكان اللام منه غير الألف مع كسر الكاف.

وقرأ أبو عثمان النهدى، والشعبى «ملك» بكسر اللام ونصب الكاف من غير ألف، وقرأ سعد بن أبى وقاص، وعائشـة، ومورق العجلى: «ملك» مثل ذلك إلا أنهم رفعوا الكاف.

وقرأ أبى بن كعب، وأبو رجاء العطاردى «مليك» بياء بعد اللام مكسورة الكاف من غيـر ألف، وقرأ عمرو بن العـاص كذلك، إلا أنه ضم الكاف، وقرأ أبو حنيـفة، وأبو حيوة «ملك» على الفعل الماضى، «ويوم» بالنصب.

وروى عـبد الوارث عن أبى عـمـرو: إسكان اللام، والمشـهـور عن أبى عمـرو وجمهور القراء «ملك» بفتح الميم مع كسر اللام، وهو أظهر فى المدح، لأن كل ملك مالك، وليس كل مالك ملكا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ (سبأ: ٥٢) قال ابن الجوزى: «قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: (التَّنَاوُشُ) غير مهموز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائى، والمفضل عن عاصم: بالهمز. قال الفراء: من همز جعله من «نأشت» ومن لم يهمز جعله من «نشت» وهما متقاربان، والمعنى: تناولت الشىء بمنزلة ذمت الشىء، وذأمته: إذا عبته، وقد تناوش القوم فى القتال: إذا تناول بعضهم بعضًا بالرماح، ولم يتدانوا كل التدانى، وقد يجوز همز «التناؤش» وهى من نُشْتُ لانضمام الواو، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ (المرسلات: ١١). وقال الزجاج: من همز «التناوش» فلأن واو التناوش مضمومة، وكل واو مضمومة ضمتها لازمة، إن شئت أبدلت منها همزة، وإن شئت لم تبدل نحو: أدؤر».

الشواهد الشعرية فى زاد المسير:

يزخر زاد المسير بالعديد من الشواهد الشعرية والتى أوردها ابن الجوزى عند تعرضه للاشتقاق أو الإعراب أو التفسير، وقد يأتى بأكثر من شاهد شعرى فى الآية الواحدة، وغالبًا ما ينسب الشواهد إلى قائليها، ومن أمثلة ذلك ما قاله فى «آمين» حيث قال: «وقال ابن قتيبة: معناها: يا أمين أجب دعاءنا، فسقطت يا، كما سقطت فى قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (يوسف: ٢٩) تأويله: يا يوسف، ومن طول الألف قال: آمين، أدخل ألف النداء على ألف «آمين» كما يقال: آزيد أقبل، ومعناه: يا زيد. قال ابن الأنبارى: وهذا القول خطأ عند جميع النحويين؛ لأنه إذا أدخل «يا» على «آمين» كان منادى مفردًا، فحكم آخره الرفع، فلما أجمعت العرب على فتح نونه، دل على أنه غير منادى، وإنما فُتحت نون «آمين» لسكونها وسكون الياء التى قبلها، كما تقول العرب: ليت، ولعل، قال: وفى «آمين» لغتان: «أمين» بالقصر، «وآمين» بالمد، والنون فيهما مفتوحة.

أنشدنا أبو العباس عن ابن الأعرابى:

سقى الله حيا بين صارة والحمى ... حمى فيد صوب المدجنات المواطرِ

أمين وأدى الله ركبًا إليهم ... بخير ووقاهم حمام المقادرِ

وأنشدنا أبو العباس أيضًا:

تباعد منى فطحل وابن أمه ... أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وأنشدنا أبو العباس أيضًا:

يا رب لا تسلبنى حبها أبدًا ... ويرحم الله عبدًا قال آمينا

وأنشدنى أبى:

أمين ومن أعطاك منى هوداة ... رمى الله فى أطرافه فاقفعلَّت

وأنشدنى أبى:

فقلت له قد هجت لى بارح الهوى ... أصاب حمام الموت أهوننا وجدا

أمين وأضناه الهوى فوق ما به ... أمين ولاقى من تباريحه جهدا»

كما أكثر ابن الجوزى فى تفسيره من الشواهد الشعرية لبيان المعنى اللغوى، مثال ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ (الإسراء: ٧٩) حيث قال: «قال ابن عباس: فَصَلِّ بالقرآن، قال مجاهد، وعلقمة، والأسود: التهجُّد بعد النوم، قال ابن قتيبة: تهجَّدت: سَهِرت، وهَجَدت: نِمْت، وقال ابن الأنبارى: التهجُّد ههنا بمعنى: التيقُّظ والسَّهَر، واللغويون يقولون: هو من حروف الأضداد؛ يقال للنائم: هاجِد ومتهجِّد، وكذلك للساهر، قال النابغة:

وَلو أنهَا عَرضتْ لأشْمَطَ رَاهِبٍ ... عَبَد الإله صَرُورَةٍ مُتَهَجِّدِ

لرنا لِبَهْجَتِهَا وَحُسْنِ حَدِيْثِهَا ... وَلَخَالَهُ رَشَدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

يعنى بالمتهجد: الساهر.

وقال لبيد:

قَال: هَجِّدْنَا فَقَد طَالَ السُّرى ... وقَدَرْنا إن خنَا الدَّهْرِ غَفَلْ

أى: نَوِّمْنا.

وقال الأزهرى: المتهجِّد: القائم إلى الصلاة من النَّوم، وقيل له: متهجد، لإلقائه الهُجُود عن نفسه، كما يقال: تَحَرَّج وتأثَّم».

وأحيانا كان يذكر الشاهد الشعرى مستشهدًا به على مسألة بلاغية، وذلك مثل قوله فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «وقرأ الحسن، وأبو

المتوكل، وأبو مجلد «يعبد» بضم الياء وفتح الباء، قال ابن الأنبارى: المعنى: قل: يا محمد: إياك نعبد، والعرب ترجع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (يونس: ٢٢)، وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ وفى قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ (الإنسان: ٢١، ٢٢). وقال لبيد:

باتت تشكى إلىَّ النفس مجهشة وقد حملتك سبعًا بعد سبعينا»

موقفه من التفسير بالمأثور:

حظيت السنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين بعناية فائقة فى تفسير ابن الجوزى، ومن أمثلة ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال: «فأما المغضوب عليهم» فهم اليهود؛ و «الضالون»: النصارى، رواه عدى ابن حاتم عن النبى ﷺ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ (ق: ١٨) قال ابن الجوزى: «وروى أبو أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يساره، فكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات، فإذا عمل حسنة كتبها له صاحب اليمين عشرًا، وإذا عمل سيئة، وأراد صاحب الشمال أن يكتبها، قال صاحب اليمين: أمسك، فيمسك عنه سبع ساعات، فإن استغفر منها لم يكتب عليه شىء، وإن لم يستغفر كتب عليه سيئة واحدة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ (سبأ: ٢٣) قال: «وفى سبب فزعهم قولان:

أحدهما: أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى، روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ قال: فيقول: الحق، فينادون الحق» وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله ـ عز وجل ـ الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فُزِّع

عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال: الحق ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (سبأ: ٢٣)».

وابن الجوزى فى تفسيره يسهب فى ذكر الأقوال، مع عزوها إلى أصحابها، وربما يذكر للقائل الواحد أكثر من قول، إلا أنه غالبًا ما يورد تلك الأقوال دون أن يُفاضل بينها، بما يُشعر بصوابها عنده وارتضائه لها. مثال ذلك فى تفسيره للشفع والوتر، حيث قال: «وللمفسرين فى «الشفع والوتر» عشرون قولاً:

أحدها: أن الشفع: يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ.

والثانى: أن الشفع يوم النحر، والوتر: يوم عرفة، رواه جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ، وبه قال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك.

والثالث: أن الشفع والوتر: الصلاة، منها الشفع ومنها الوتر، رواه عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ، وبه قال قتادة.

والرابع: أن الشفع: الخلق كله، والوتر: الله تعالى، رواه العوفى عن ابن عباس، وبه قال مجاهد فى رواية مسروق وأبى صالح.

والخامس: أن الوتر: آدم شفع بزوجته، رواه مجاهد عن ابن عباس.

والسادس: أن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر: اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله عبد الله بن الزبير، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣).

والسابع: أن الشفع: صلاة الغداة، والوتر: صلاة المغرب، حكاه عطية.

والثامن: أن الشفع: الركعتان من صلاة المغرب، والوتر: الركعة الثالثة، قاله أبو العالية، والربيع بن أنس.

والتاسع: أن الشفع والوتر: الخلق كله، منه شفع، ومنه وتر، قاله ابن زيد، ومجاهد فى رواية.

والعاشر: أنه العدد منه الشفع، ومنه وتر، وهذا والذى قبله مرويان عن الحسن.

والحادى عشر: أن الشفع: عشر ذى الحجة، والوتر: أيام منى الثلاثة، قاله الضحاك.

والثانى عشر: أن الشفع: هو الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧)، والوتر هو الله لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١)، قاله سفيان بن عيينة.

والثالث عشر: أن الشفع: هو آدم وحواء، والوتر الله تعالى، قاله مقاتل بن سليمان.

والرابع عشر: أن الشفع: الأيام والليالى، والوتر: اليوم الذى لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة، قاله مقاتل بن حيان.

والخامس عشر: الشفع: درجات الجنان، لأنها ثمان، والوتر: دركات النار، لأنها سبع، فكأن الله أقسم بالجنة والنار، قاله الحسين بن الفضل.

والسادس عشر: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين بين عز وذل، وقدرة وعجز، وقوة وضعف، وعلم وجهل، وموت وحياة، والوتر: انفراد صفات الله عز وجل، عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت، قاله أبو بكر الوراق.

والسابع عشر: أن الشفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت.

والثامن عشر: أن الشفع: مسجد مكة والمدينة، والوتر: بيت المقدس.

والتاسع عشر: أن الشفع: القران بين الحج والتمتع، والوتر: الإفراد.

والعشرون: الشفع: العبادات المتكررة كالصلاة، والصوم، والزكاة. والوتر: العبادة التى لا تتكرر وهو الحج، حكى هذه الأقوال الأربعة الثعلبى».

موقفه من العقيدة:

والإمام ابن الجوزى من أئمة أهل السنة، ولذلك نراه يقرر مذهب أهل السنة فى تفسيره ويردُّ على الفرق الأخرى، مفندًا لأقوالهم مستشهدًا فى ذلك بالأحاديث الصحيحة والفهم السليم لآيات القرآن، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ...﴾ إلى قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٨، ٩) حيث أثبت الميزان فقال: «والقول بالميزان مشهور فى الحديث، وظاهر القرآن ينطق به، وأنكرت المعتزلة ذلك، وقالوا: الأعمال أعراض، فكيف توزن؟» ثم أجاب عن ذلك حسب عقيدة أهل السنة والجماعة

بقوله: «إن الوزن يرجع إلى الصحائف، بدليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله ـ عز وجل ـ يستخلص رجلاً من أمتى على رءوس الناس يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلا، كُلُّ سِجِلٍّ مدُّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمتك كتبتى الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب؛ فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم عليك اليوم، فيُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فتوضع السجِلاَّت فى كفة، والبطاقة فى كفة، قال: فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» أخرجه أحمد فى مسنده، والترمذى».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥) حيث قال: وقد احتجت المعتزلة بهذه الآية، فأجاب أصحابنا بأجوبة، **منها:** أنه لا يحبه دينًا، ولا يريده شرعًا، فأما أنه لم يرده وجودًا؛ فلا، **والثانى:** أنه لا يحبه للمؤمنين دون الكافرين، **والثالث:** أن للإرادة معنًى غير المحبة، فإن الإنسان قد يتناول المرَّ، ويريد ربط الجرح، ولا يحب شيئًا من ذلك، وإذا بان فى المعقول الفرق بين الإرادة والمحبة؛ بطل ادعاؤهم التساوى بينهما، وهذا جواب معتمد، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧)».

موقفه من آيات الصفات:

وابن الجوزى لم يثبت على قدم فى آيات الصفات، فتارة يثبتها، وتارة يمرها كما جاءت، مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً﴾ (البقرة: ٢٦) حيث قال: «الحياء ـ بالمد: الانقباض والاحتشام، غير أن صفات الحق عز وجل لا يطلع لها على ماهية، وإنما تمر كما جاءت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) قال: «وإجماع السلف منعقد على أن لا يزيدوا على قراءة الآية، وقد شذ قوم فقالوا: العرش بمعنى الملك، وهذا عدول عن الحقيقة إلى التجوز، مع مخالفة الأثر، ألم يسمعوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى

الْمَاءِ﴾ (هود: ٧) أتراه كان الملك على الماء؟ وبعضهم يقول: استوى بمعنى استولى، ويحتج بقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق — من غير سيف ودم مهراق

وبقول الشاعر أيضًا:

هما استويا بفضلهما جميعًا — على عرش الملوك بغير شك

وهذا منكر عند اللغويين، قال ابن الأعرابى: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم.. فقالوا: وإنما يقال: استولى فلان على كذا، إذا كان بعيدًا عنه غير متمكن منه، ثم تمكن منه، والله عز وجل لم يزل مستوليًا على الأشياء، والبيتان لا يعرف قائلهما، كذا قال ابن فارس اللغوى.

ولو صحا فلا حجة فيهما لما بينا من استيلاء من لم يكن مستوليا، نعوذ بالله من تعطيل الملحدة وتشبيه المجسمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (الفتح: ١٠) قال: «فيه أربعة أقوال:

أحدها: يد الله فى الوفاء فوق أيديهم.

والثانى: يد الله فى الثواب فوق أيديهم.

والثالث: يد الله عليهم فى المنة بالهداية فوق أيديهم بالطاعة.

ذكر هذه الأقوال الزجاج.

والرابع: قوة الله ونصرته فوق أيديهم ونصرتهم، ذكره ابن جرير وابن كيسان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ (المائدة: ٦٤) قال ابن الجوزى: «قال الزجاج: وقد ذهب قوم إلى أن معنى «يد الله» نعمته، وهذا خطأ ينقضه قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ فيكون المعنى على قولهم: نعمتاه، ونعم الله أكثر من أن تحصى، والمراد بقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ أنه جواد ينفق كيف يشاء، وإلى نحو هذا ذهب ابن الأنبارى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر: ٦٨) قال: «وقد أخرج البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يقبض الله

الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» وأخرجا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوى الله ـ عز وجل ـ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، ابن المتكبرون؟» قال ابن عباس: الأرض والسموات كلها بيمينه، وقال سعيد بن جبير: السموات قبضة، والأرضون قبضة..».

موقفه من المسائل الفقهية:

يولى ابن الجوزى المسائل الفقهية عناية خاصة فى تفسيره، ويعقد لها فصلا خاصًا، ويورد أقوال الأئمة المجتهدين وغيرهم من الصحابة والتابعين، مصدرًا كلامه بقول الإمام أحمد، مع عدم استطراده فى ذكر الأدلة أو الترجيح بين الأقوال أو التعصب لمذهبه، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣) حيث قال:

«**فصل:** معنى الضرورة فى إباحة الميتة: أن يخاف على نفسه أو بعض أعضائه، سئل أحمد ﷺ عن المضطر إذا لم يأكل الميتة، فذكر عن مسروق أنه قال: من اضطر فلم يأكل فمات دخل النار، فأما مقدار ما يأكل؛ فنقل حنبل: يأكل مقدار ما يقيمه عن الموت، ونقل عن ابن منصور: يأكل بقدر ما يستغنى، فظاهر الأولى: أنه لا يجوز له الشبع، وهو قول أبى حنيفة والشافعى، وظاهر الثانية: جواز الشبع، وهو قول مالك».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩) قال ابن الجوزى:

«**فصل:** نقل ابن منصور عن أحمد: إذا قتل رجل رجلاً بعصًا أو خنقه، أو شدخ رأسه بحجر يُقتل بمثل الذى قتل به، فظاهر هذا: أن القصاص يكون بغير السيف، ويكون بمثل الآلة التى قَتَلَ بها، وهو قول مالك، والشافعى، ونقل عنه حرب: إذا قتله بخشبة قُتِلَ بالسيف، ونقل أبو طالب: إذا خنقه قتل بالسيف، فظاهر هذا: أنه لا يكون القصاص إلا بالسيف، وهو قول أبى حنيفة رحمه الله».

موقفه من الإسرائيليات:

هذا ولم يخل «زاد المسير» من الكثير من الإسرائيليات، وإن كان فى تلك الروايات ما يخالف العقيدة فإن ابن الجوزى يتصدى لها ويفندها، مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ (سورة ص: ٢١، ٢٢) حيث قال: «الإشارة إلى قصة ابتلائه: قد ذكرنا عن وهب أنه قال: كانت الحمامة من طيور الجنة، وقال السدى: تصور له الشيطان فى صورة حمامة، قال المفسرون: إنه لما تبع الحمامة رأى امرأة فى بستان على شط بركة لها تغتسل، وقيل: بل على سطح لها، فعجب من حسنها، فحانت منها التفاتة، فرأت ظله فنقضت شعرها فغطى بدنها، فزاده ذلك إعجابًا، فسأل عنها فقيل: هذه امرأة أوريا وزوجها فى غزاة، فكتب داود إلى أمير ذلك الجيش أن ابعث أوريا إلى موضع كذا وكذا وقدِّمه قبل التابوت، وكان مَن قُدِّم على التابوت لا يحل له أن يرجع حتى يُفتح عليه أو يُستشهد، ففعل ذلك ففُتح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، ففُتح عليه، فكتب إلى داود يخبره، فكتب إليه أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا، فقُتل فى المرة الثالثة، فلما انقضت عدة المرأة تزوجها داود، فهى أم سليمان، فلما دخل بها لم يلبث إلا يسيرًا حتى بعث الله، عز وجل، ملكيْن فى صورة إنسيين، وقيل: لم يأته الملكان حتى جاء منها سليمان وشب ثم أتياه فوجداه فى محراب عبادته، فمنعهما الحرس من الدخول إليه، فتسوروا المحراب عليه.

وعلى هذا الذى ذكرناه من القصة أكثر المفسرين، وقد روى نحوه العوفى عن ابن عباس، وروى عن الحسن، وقتادة، والسدى، ومقاتل فى آخرين.

وذكر جماعة من المفسرين أن داود لما نظر إلى المرأة، سأل عنها، وبعث زوجها إلى الغزاة مرة بعد مرة إلى أن قُتل فتزوجها، وروى مثل هذا عن ابن عباس، ووهب، والحسن فى جماعة.

قال المصنف: وهذا لا يصح من طريق النقل، ولا يجوز من حيث المعنى، لأن الأنبياء منزهون عنه».

ومن أمثلة ما ذكره ابن الجوزى فى تفسيره من الإسرائيليات ولم يعقب عليه ما قاله عند تفسيره لأول سورة ق، حيث أورد ابن الجوزى خمسة أقوال فى تفسيرها، ثم قال: «**والثانى منها**: أنه جبل من زبرجدة خضراء، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وروى عكرمة، عن ابن عباس قال: خلق الله جبلا يقال له «ق» محيط بالعالم وعروقه إلى الصخرة التى عليها الأرض، فإذا أراد الله عز وجل أن يزلزل قرية، أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذى يلى تلك القرية، وقال مجاهد: هو جبل محيط بالأرض، وروى عن الضحاك أنه من زمردة خضراء، وعليه كنفا السماء، وخضرة السماء منه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ**﴾ (النمل: ٣٥) حيث قال ابن الجوزى: «إنما أرسلت الهدية لتعلم أنه إن كان نبيّا لم يرد الدنيا، وإن كان ملكا فسيرضى بالحَمْل، وأنها بعثت ثلاث لبنات من ذهب فى كل لبنة مائة رطلٍ، وياقوتة حمراء طولها شبر مثقوبة، وثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة، وألبستهم لباسًا واحدًا حتى لا يعرف الذكر من الأنثى، ثم كتبت إليه: إنى قد بعثت إليك بهدية فاقبلها، وبعثت إليك بياقوتة طولها شبر، فأدخل فيها خيطا واختم على طرفى الخيط بخاتمك، وقد بعثت إليك ثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة، فميز بين الجوارى والغلمان، فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثت إليه، فقال له: انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسى ثمانية أميال فى ثمانية أميال لبِنًا من الذهب، فانطلق فبعث الشياطين فقطعوا اللَّبِن من الجبال، وطلوه بالذهب وفرشوه، ونصبوا فى الطريق أساطين الياقوت الأحمر، فلما جاء الرسل قال بعضهم لبعض: كيف تدخلون على هذا الرجل بثلاث لبنات وعنده ما رأيتم؟ فقال رئيسهم: إنما نحن رسل، فدخلوا عليه، فوضعوا اللبن بين يديه، فقال: أتمدونني بمال؟ ثم دعا ذرة فربط فيها خيطا وأدخلها فى ثقب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر، ثم جمع بين طرفى الخيط فختم عليه ودفعها إليهم، ثم مَيَّزَ بين الغلمان والجوارى، هذا كله مروى عن ابن عباس.

وقال مجاهد: جعلت لباس الغلمان للجوارى ولباس الجوارى للغلمان، فميزهم، ولم يقبل هديتها.

وفى عدد الوصائف والوصفاء خمسة أقوال:

أحدهـــــا: ثلاثون وصيفًا وثلاثون وصيفة، وقد ذكرناه عن ابن عباس.

والثانـــى: خمسمائة غلام وخمسمائة جارية، قاله وهب.

والثالـــث: مائتا غلام ومائتا جارية، قاله مجاهد.

والرابـــع: عشرة غلمان وعشر جوار، قاله ابن السائب.

والخامس: مائة وصيف ومائة وصيفة، قاله مقاتل».

وأخيرًا . . فـإن «زاد المسير» واحدٌ من أحسن مـؤلفات ابن الجوزى، إن لم يكن أحـسنها علـى الإطلاق، رغم ما أورده فـيـه ـ وهو من علماء الـحديث ونقـاده ـ من أحاديث موضوعة وضعيفة، مع قلة ترجيحاته فى كثير من المسائل والأقوال.

والكتاب طُبِع عدة مرات، والطبعة التى رجعنا هى طبعة المكتب الإسلامى.

* * *

٦- تفســـير ابن عرفـــة

التعريف بصاحب التفسير[(١)]:

هو محمــد بن محمد بن مــحمد بن عرفة، أبو عــبد الله الوَرْغمى التونسى، فـقيه المالكية بتونس، وخطيبها بجامع الزيتونة، يعرف بابن عرفة.

ولد سنة ست عشرة وسبعمائة بتونس.

وتفقـه على: القاضى ابن عبد السلام الهوارى وأخذ عنه الأصول، وأخذ القراءات عن محمد بن محمد بن حسن بن سلامة الأنصارى.

وأخــذ عن: والده، ومحمد الوادى آشى، ومــحمد بن هارون الكنانى، والشريف التلمسانى، ومحمد بن الجباب، وغيرهم.

ومهر فى الأُصول والفروع والعربية والقراءات وغير ذلك، وصار المرجوع إليه فى الفتوى ببلاد المغرب، وتصدّى للتدريس وإسماع الحديث مع علو الرتبة عند السلطان.

وقدم القاهرة حاجًا سنة (٧٩٣هـ) فأخذ عنه المصريون والمدنيون.

وممن أخذ عنه: يحيى العجبيسى، والأُبى، وابن ناجى، وعيسى الغبرينى، وابن عقاب، وابن الشماع، وأبو الطيّب بن علوان، وآخرون.

له من الكتب: المختصر الكبير فى الفقه (مطبوع)، المختصر الشامل فى التوحيد، المبسوط فى الفقه، الحدود فى التعاريف الفقهية (مطبوع)، والطرق الواضحة فى عمل المناصحة، التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى بتونس سنة ثلاث وثمانمائة.

التعريف بهذا التفسير ومنهج مؤلفه:

تفسير ابن عرفة عبارة عن مجالس أملاها فى التفسير من منتصف القرن الثامن إلى نهايته، ونهاية حياته هو، كلما أنهى ختمــة منه أعاد ختمة جديدة، وقيَّد تلك المجالس بعض تلاميذه، واشتهر منها:

١- **رواية البـسيلى**، وهو أحمد بن محمد أبو العـباس التونسى، وله تقييدان عن

---

(١) **مصـادر الترجـمة**: نيل الابتهاج ٢٧٤، الضوء اللامع (٩/ ٢٤٠ - ٢٤٢)، طبـقات المفسرين للداوودى (٢/ ٢٣٦)، الديباج المذهب ٣٣٧، إنباء الغمر (٢/ ١٩٢).

شيخـه، تقييد كـبير وآخر صـغير، وكلاهما مـخطوط، والكبير فقـدت بعض أجزائه، والصغير ناقص، وليس كل ما فيه من كلام ابن عرفة.

٢- **رواية الأبى**، وهو محمد بن خلفة الوشتاتى، وهى أكمل الروايات لتفسير ابن عرفة، ومنها نسخ خطية كثيرة من أكملهـا نسخة المكتبة الوطنية بتونس، وقد طبع جزء من هذه الرواية فى مجلدين إلى نهاية سورة البقرة بتحقيق الدكتور حسن المناعى نشرها مركز البحوث بكلية الزيتونة سنة ١٩٨٦م، وهى التى رجعنا إليها فى هذه الدراسة.

٣- **رواية أبى القـاسم الشريف الإدريسى السـلاوى** من أهل القـرن التـاسع، وله تقييد فى مجلدين وهو مفقود.

والذى نراه أن يُطلق على هذا التفسير اسم: «مجالس التفسير لابن عرفة».

وقد بيَّن ابن عاشور فـى كتابه: «التفسير ورجـاله» (ص ١٢١) منهج ابن عرفة فى تفسيره فقـال: «ويهتم بالتخريج والتأويل حتى تتضح دلالة الآية مستـقيمة على المعنى الذى تتعلق به، ويرد ما عسى أن يكون قد وقع من تخريج بعـيد أو تأويل غير مقبول، بتطبيق القواعد اللغوية، والنكت البلاغيـة، أو بإثارة ما يتعلق بالمفاد من مباحث أصلية ترجع إلى أصول الدين أو أصـول الفقه، جـاعلاً عمدته فى هذه الـمباحث تفسـير ابن عطية غـير مـعرض عن تفسـير الكشاف، فـيعـتبر كـلام ابن عطية حـاصلاً بين أيدى مستمعيه، ليسـايره أو يرده، ويورد كلام الزمخشرى، ويكثر إيراد الآراء والمذاهب عن العلماء فى كل مسألة».

وقال الدكتور حسن المناعى ملخصًا منهج ابن عرفة فى تفسيره:

«سارت دروس التـفسير فى منهـجها على نسق مـتشابه حـيث كانت تُتلى الآية أو الآيات ثم يبدأ فى التفسير، فيورد كلام أئمـة القراءات أو اللغة والنحو، ويعتنى ببيان ما احتمل التأويل أو الاختـلاف بين المفسرين، فيذكر أقوال العلماء من أصـوليين وفقهاء ومحدثين، وقد يعرج فى ذكر نكتة بلاغية أو علمية أو شواهد شعرية أو قضايا اجتماعية ظرفية أو مباحث فى أصول الدين أو أصول الفقه ليـقوّم بهما ما لم يستقم من تفسير أو تأويل، ويرجح به آراء على أخرى، وتلتقى جميعـها أحيانا فى الآية الواحدة، وتُعرَض على التلاميـد لتناقش، فيصيـر الدرس محكمة تفسيـرية تتداول فيهـا الآراء سجالا بين

الحاضرين، فتجمع الاحتمالات العديدة والأوجه المختلفة وتتدارس برؤى سنية أشعرية ومنهجية حرة، وربما كانت الكلمة الأخيرة لأحد الطلبة، ويقره عليها شيخه فى تواضع علمى. ولقد اختار ابن عرفة لنفـسه هذا المنهج التربوى وآثره على غيره من المناهج، وسار بالتفسير وجهة جديدة؛ وجهة السؤال والجواب قبل تقرير المسألة».

وقال الدكتور المناعى أيضًـا: «فجاء هذا التفسير يزخـر بالنقل عن عشرات الكتب الثمينة النادرة وعشرات العلماء فى كل فن، دون تمييز أحدهم عن سواهم، وإن كان قد خص بعضهم باهتمام أكثر من غيرهم كـالزمخشرى وابن عطية، وهو ما حمل المرحوم الشـيخ محمـد الطاهر بن عـاشـور على القـول بكون هذا التقييد تعليـقًا على ابن عطية أشبه منه بالتفسير، والحقيقة أن هذا غير صحيح ذلك لأننا نلاحظ مثلاً فى سورة البقرة أن النقل عن ابن عطية يكاد يتـساوى مع النقل عن الزمخشـرى عدديًا، فعن الأول نقل ابن عرفة مائتين وخمسًا وأربعين مرة، وعن الثانى مائتين وإحدى عشرة مرة».

هذا . . . وقد قدم ابن عرفة لتـفسيره بمقدمة تكلم فيها عن علم الـتفسير وشروط المفسر، ثم شرع فى تفسير الاستعاذة.

موقفه من تناسب الآى والسور:

عُنى ابن عرفة بفن المناسبات فى تفسيره، وذكر آراء العلماء فى مسألة التناسب بين السور والآيات، وذلك عند تفسـير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٩)، حيث قال: «من الناس من ينظر وجه المناسبة بين الآية وما قبلها كابن الخطيب، ومنهم من لا يلتزم فى كل آية كالزمخشرى وابن عطية، ومنهم من يمنع النظر فى ذلك ويحرِّم لئلا يعتقد أن الـمناسبة من إعجاز القرآن، فإذا لم تظهر المناسـبة فقد يدرك الناظر وهنًا فى دينه وخلل فى معـتقده» ويبدو من صنيع ابن عـرفة فى تفسيره مـيله للرأى الثانى، مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ (آل عمـران: ١٤) حيث قال: «مناسبتـها لما قبلها أن الآية المتقدمة اقـتضت الحض على الجهاد، ومدح المتصف به، ومن خالف نفسه فى سـبيل الراحة، أتت هذه الآية فى معرض الذم لمن لم يتصف بذلك وطاوع نفسه وشهوته البهيمية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧) أورد ما قرره بعضهم بأن: «وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها بأنها سبب فيه، كأنه قيل: لِمَ لا ينفع الإنذار فيهم؟ فقيل: بسبب الختم على قلوبهم» ثم رد هذا القول.

موقفه من المكى والمدنى وأسماء السور:

ويتعرض ابن عرفة فى تفسيره لأسماء السورة وبيان المكى والمدنى ولا يتعرض لعد الآى، مثال ذلك ما قاله فى سورة الفاتحة حيث قال: «اختلفوا فيها؛ فقال ابن عباس ﷺ، وجماعة: إنها مكية، واحتج له ابن عطية بقوله تعالى فى الحجر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٦)، وهى مكية بإجماع، وفى حديث أُبى بن كعب أنها السبع المثانى، قال الإمام: وذهب عطاء والزهرى وجماعة إلى أنها مدنية، وقيل: إنها نزلت بمكة والمدينة، وأبطله القاضى العماد بأنه يجب عليه تحصيل الحاصل وهو محال، وأجاب ابن عرفة بأن التأكيد شائع فى كلام العرب وليس فيه تحصيل الحاصل.

فإن قلت: يلزم عليه أن تكون الفاتحة فى القرآن مرتين لنزولها مرتين، وكانت تكرر كما تكرر ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ **قلنا:** إنما ذلك إذا نزلت على أنه غير الأولى، فقد ذكر الأصوليون على أن الغيرين يصدقان على المثلين، أما إذا نزلت على أنه غير الأولى بعينها فلا يلزم ذلك فيها.

زاد القاضى العماد فى إبطال النزول بمكة والمدينة: أنه يلزم منه أن يكون كل ما نزل بمكة نزل بالمدينة مرة أخرى؛ لأن جبريل ـ عليه السلام ـ كان يعارضه القرآن فى كل سنة مرة وفى الأخيرة مرتين فيكون ذلك إنزالا آخر وهذا لا يقوله أحد.

وقال: ولعلهم يعنون بنزولها مرتين، أن جبريل نزل حين حولت القبلة فأخبره عليه الصلاة والسلام أن الفاتحة ركن فى الصلاة كما كانت بمكة وأقرأه فيها قراءة لم يكن أقرأه بها فى مكة فظنوا ذلك إنزالا جديدًا، وهو ضعيف».

موقفه من العقيدة:

وابن عرفة يفسر آيات العقيــدة حسب مذهبه الأشعرى، لذا نراه يكثر من الرد على المخالفين كالمعتزلة وغيرهم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال: «ولما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أوهم أن للإنسان فى العبادة ضربًا من المشاركة والاختيار، فعقبه بطلب الهداية تنبــيهًا على كمال الافــتقار وأن كل العبادة والطاعــة من الله تعالى وليس للعبد عليها قدرة، فهو دليل لأهل السنة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال: استدل بها الزمخشرى على عدم الرؤية مطلقًــا، لأن «لن» عنده لنفى دائم، وهى المسماة بـ «لن الزمــخشرى» ونحن نقول: إنها لنفى غير دائم». ثم يُثبت بعد ذلك الرؤية مستدلا عليها بقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ (الأعــراف: ١٤٣) حيث قــال: «دليل على أن الرؤيا ممكنة لأن استقرار الجبل فى مكان ممكن عقلا، وقد علق عليه بسوف ترانى فدل على إمكان الرؤية إذ لا يصح تعليق المستحيل على الممكن».

كما ردَّ على الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (إبراهيم: ١) الذى يرى أن ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تعنى بتسهيله، وأجاب ابن عرفة بأن هذا التفسير متماش مع مذهبه - أى الزمخشرى - فى نسبة أفعال العباد إليهم، وأنها ليست مقدورة لله، وإنما ييسرها ويسهلها الله عليهم.

كما ناقش ابن عرفة ابن عطية فى نفس الموضوع حين فسر ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾: بعلم الله واقتضائه وتوفيقه، فرد عليه ابن عرفة بأن هذه نزعة اعتزالية، ولولا قوله: واقتضائه لكان صريحًا فى اتباع المعتزلة، لأنهم يقولون: إن العبد يستقل بأفعاله، ويخلقها، وإن الله لم يخلق الشر، ولا أراده.

ثم يفسر ابــن عرفة الآية بما يراه صوابًا وهو أن مــعنى قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أى بقدرته وخلقه واختراعه وأنــه خلق الهداية والضلال، وأراد تعالى أن يكون فى ملكه ما لا يريد.

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾(البقرة: ١٧٩) قال ابن عرفة: «فيه دليل لأهل السنة القائلين بأن لا حسن ولا قــبح، لأن الآية خرجت مخرج الامتنان

بتعداد هذه النعم فدل على أنها تفضل من الله تعالى، ولو كان القصاص واجبًا فى العقل لما حسن كونه نعمة، ولما صح الإتيان به لأن ذلك تحصيل الحاصل».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ**﴾ (البقرة: ٢١٧) قال ابن عرفة: «فى لفظها رحمة وتفضل من الله ـ عز وجل ـ لأن قبلها: ﴿**حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ**﴾ (البقرة: ٢١٧) فكان المناسب أن يقال: «ومن "يُرَدُّ" منكم عن دينه» لكنه لو قيل هكذا لدخل فى عمومه من أكره على الردة، فقال: «ومن "يرتدد"» ليختص الوعيد بمن ارتد مختارًا متعمدًا» ثم تساءل ابن عرفة: «هلا قيل: فيمت وهو مرتد، ليناسب أول الآية آخرها، ويسمونه رد العجز على الصدر؟ قال: فقلت: إن من عادتهم أنهم يجيبون بأنه لو قيل كذلك لتناول مرتكب الكبيرة من المسلمين، لأنه يصدق عليه أنه مرتد عن دينه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**﴾ (آل عمران: ١٩)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**﴾ (الفاتحة: ١) قال: «الوصف بالرحيم دليل لنا على المعتزلة فى إبطال قاعدة التحسين والتقبيح، وأن الله تعالى لا يجب عليه شىء لاقتضائها أن توبته على العصاة محض رحمة منه وتفضل، لأن الدليل اقتضى وجوب ذلك عليها».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ (البقرة: ١٦٧) قال: «قال الزمخشرى: الضمير لمطلق الربط لأن مذهبه خلود مرتكب الكبيرة فى النار، فلو جعله للحصر لكان مفهومه أن مرتكب الكبيرة يخرج من النار بالشفاعة» ثم ردَّ عليه وقرر عقيدة أهل السنة.

وعند تفسيره لآية الكرسى قال: «وقد تقدم الخلاف فى الصفات، فنحن نثبتها ونقول: الله عالم بعلم، قادر بقدرة، حىٌّ بحياة، والمعتزلة ينفونها».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

وابن عرفة يولى هذا الجانب من التفسير عناية خاصة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ (الأنبياء: ٢٠) قال: «معناه: لا يفترون من العبادة، وفى آية أخرى: ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ**﴾ (الشورى: ٥)».

موقفه من تفسير القرآن بالسنة:

ويتعرض ابن عرفة لتفسير القرآن بالحديث الشريف، كما في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) حيث قال: «فالدين هنا عام، خصص بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: ١٩) ووقع تفصيله وزيادة بيانه بقوله ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا».

موقفه من تفسير القرآن بأقوال السلف:

ومن اعتماد ابن عرفة على ما أُثر عن الصحابة في تفسير القرآن ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨) حيث قال: «والمعنى درجة في التفضيل، إلا أن تفسير لفظة درجة وقع حوله خلاف، فعند الجمهور هي حسن المعاشرة، وهو رأى ابن عباس، وهو الظاهر، فيقولون: وله عليها من القيام بحقه المبادرة إلى غرضه ورفقه، مثل الذى عليه وزيادة درجة التقديم».

موقفه من أسباب النزول:

أما أسباب النزول فهو يذكرها، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾(البقرة: ١٨٩) حيث قال: «كانوا إذا حجوا واعتمروا يلتزمون أن لا يحول بينهم وبين السماء شيء فيدخلون بيوتهم من خلفها ينقبون الحائط، أو من سقفها، أو يطلعون سلم على السطح فينزلون في وسط الدار، وهذا عند بدء الدخول، فإذا تكرر ذلك تركوه».

وقد يورد ابن عرفة أقوال المفسرين في سبب النزول ويردُّ أو يرجح بينها بما يراه صوابًا، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(البقرة: ٩٧) .

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات:

وابن عرفة يتعرض في تفسيره لفضائل السور والآيات، ويورد ما صح فيها من الأحاديث، مثال ذلك ما قاله في فاتحة الكتاب: «قال ابن عطية: ويروى أنها تعدل

ثلثى القرآن. والعدل إما فى المعانى باشتمالها على التوحيد وغيره، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على التوحيد فقط، وإما أن يكون فضلا من الله لا يعلل».

موقفه من السيرة:

ولا يغفل ابن عرفة فى تفسيره ذكر أحداث السيرة ضمن حديثه عن أسباب النزول، مثال ذلك ما ذكره فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ...﴾ (البقرة: ٦) حيث قال: «قال ابن عطية: وقال الربيع بن أنس: إن الآية نزلت فى قادة الأحزاب، وهم أهل القليب ببدر، وفى بعض النسخ: وأهل القليب ببدر ـ قال ابن عرفة: وهو الصحيح، فإن غزوة الأحزاب متأخرة عن بدر، وأهل القليب ببدر قُتلوا فلم يبق منهم أحد للأحزاب.

قال ابن عرفة: إلا أن يريد بالأحزاب الجماعة ولا يريد بهم الغزوة».

موقفه من الإسرائيليات:

وابن عرفة مُقِلٌّ فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات، ويقف منها موقف الناقد البصير، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٩) قال ما نصه: «قيل لابن عرفة: أوَيُجاب بعكس ما قال الزمخشرى؛ وهو أنه خلقت السموات والأرض ملتصقة ثم خلقت الأرض ودحيت ثم فصلت السموات وصيرت سبعًا، والله أعلم؟ فقال: هذا يمكن، لكن الأثر الذى أورده هنا أن الأرض خلقت كالفهر وعلاها الدخان فخلقت منه السموات، يرده ما ذكره الشيخ الزمخشرى ونقله عن الحسن، وللفخر فى «الأربعين» كلام طويل وليس فيه خبر صحيح».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ (البقرة: ١٠٢) قال ابن عرفة: «قال ابن عطية: روى أنهما ملكان اختصمت إليهما امرأة...، وحكى القصة، وضعفه ابن عطية من جهة السند.

قال ابن عرفة: بل هو ضعيف من جهة الاستدلال، فإنه قد قام الدليل على عصمة الملائكة، ولا يقال: إنهما كانا معصومين ثم انتفت العصمة عنهما حينئذ، فإن ذلك إنما هو فيمن يتصف بالحفظ لا بالعصمة، فيصح أن يحفظ تارة دون تارة، أما العصمة

فلا تزول عمن ثبتت له أبدًا، وقد كان الشيوخ يخطئون ابن عطية فى هذا الموضوع لأجل ذكره هذه الحكاية ونقل بعضهم عن القرافى: أن مالكًا أنكر ذلك فى حق هاروت وماروت».

عناية ابن عرفة بإيراد بعض النكات التفسيرية:

وابن عرفة يُعنى بالنكات التفسيرية فى كتابه، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ**﴾ حيث قال: «وقُدِّم على ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ إما لأن الرحمن تفرد به البارئ تعالى، أو لإفادته عموم الرحمة فكان أصلا، والرحيم كان كالزيادة فى التشريف للمؤمنين، قال تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**﴾ (يونس: ٢٦) وإما لأجل رأس الآى فى الفاتحة. وقيل: الرحيم أبلغ، بدليل ذكره بعد الرحمن، ولأن الرحمن يفيد نوعًا من القهر والكبرياء، قال تعالى: ﴿**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**﴾ (الفرقان: ٢٦) ولولا ذلك لما ناسب ذكر الوعيد معه، ولأن ختم الكلام بما هو أقوى دلالة على أن الرحمة أرجى وأقرب لحسن الظن بالله تعالى».

ثم قال: « **فإن قلت:** لِمَ؟ قال: ﴿**الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ بلفظ الفعل، و ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ بلفظ الاسم؟ وهلا قال: صراط المنعم عليهم كما قال: ﴿**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾؟ **قلت:** فالجواب أنه قصد التنبيه على التأدب مع الله تعالى بنسبة الإنعام عليه وعدم نسبة الشر إليه بل أتى به بلفظ المفعول الذى لم يتم فاعله فلم ينسب الغضب إليه على معنى الفاعلية وإن كان هو الفاعل المختار لكل شيء لكن جرت العادة فى مقام التأدب أن ينسب للفاعل الخير دون الشر.

وأجاب القاضى العماد بوجوه:

الأول: من ألطاف الله أنه إذا ذكر نعمة أسندها إليه فقال: ﴿**وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**﴾ (الروم: ٣٦) ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾ (الشعراء: ٨٠) .

الثانى: إنما قال: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ ليدخل غضبه وغضب الملائكة والأنبياء والمؤمنين، فهو أعم فائدة.

الثالث: إنما لم يقل صراط المنعم عليهم لأن إبراز ضمير فاعل النعمة ذكر وشكر له باللسان وبالقلب فيكون دعاءً مقرونًا بالشكر والذكر.

الرابع: فيه فائدة بيانية، وهو أنه من التفنن فى الكلام، لأنه لو أجرى على أسلوب واحد لم يكن فيه تلك اللذاذة وإذا اختلف أسلوبه ألقى السامع إليه سمعه وهو تنبيه وطلب إحضار ذهنه من قريب ومن بعيد».

موقفه من القراءات:

وابن عرفة يتعرض فى تفسيره للقراءات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ (البقرة: ٦) قال ابن عرفة: «ذكر الزمخشرى هنا رواية ورش وجعلها لحنًا، وكَفَّره الطيبى، وظاهر كلام الطيبى هذا أن السبع قراءات أخبار آحاد وليس بمتواتر.

قال ابن عرفة: وحاصل كلام الناس فيها أنها على وجهين: فأما ما يرجع إلى آحاد الكلام كملك ومالك، ويخدعون ويخادعون، فهو متواتر اتفاقًا من غير خلاف منصوص، إلا أن ظاهر كلام الداوودى ـ على ما نقل عنه الأنبارى ـ أنها غير متواترة، وأما ما يرجع إلى كيفية النطق بها من إعراب وإمالة وكيفية وقف ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: نقل الأنبارى ـ شارح البرهان ـ عن أبى المعالى أنها متواترة وأنكره عليه، وهو اختيار الشيخ أبى عبد الله محمد بن سلامة من أشياخنا.

الثانى: أنها متواترة عند القراء فقط، نقله المازرى فى شرح البرهان، واختاره شيخنا ابن عرفة.

الثالث: أنها غير متواترة، قاله ابن العربى فى العواصم والقواصم، والأنبارى، وابن رشد فى كتاب الصلاة الأول وفى كتاب الجامع الرابع من البيان والتحصيل. قال ابن عرفة: وهو اختيار الشيخ أبى إسحاق إبراهيم الجزرى وشيخنا القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد السلام، وصاحبنا الفقيه أبى العباس أحمد بن إدريس البجائى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة: ٢٨٤) قال: «قال الزمخشرى: وقد قُرِئَ: «فيغفرْ» ـ بالجزم ـ فى جواب الشرط» ثم أورد رد أبى حيان عليه، ثم قال: «وتحامل الزمخشرى هنا وأساء الأدب على السوسى من طريق

أبي عمرو، وخطأه كما خطأ الصيمـرى فى تبصرته، والزجاج، وكذلك خطأ ابن عامر فى قـراءته: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ (الأنعـام: ١٣٧) ولكن تخطئتـه هنا لأبى عمرو من طريق السوسى أشنع» ثم قـال: «ومذهب أهل السنة أنه يجوز أن يغفر له، وإن لم يتب منها ـ إلا الكفر».

كما يتـعرض ابن عرفة للقراءات الشاذة، مـثال ذلك قوله عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حيث قال: «قال ابن عطية: وقرأ سفيان بن عينية ورؤبة بن العجاج «الحمـدَ لله» بفتح الدال على إضمار فعل، قال ابن عـرفة: وقالوا: الضم أدل على الثبوت، قال الزمخشرى: ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ﴾ (هـود: ٦٩) بالرفع فى الثانى ليدل على أن إبراهيم حـيَّاهم بتحية أحسن من تحـيتهم لأن الرفع دال على الثبوت. وكذا قال السكاكى فى علم البيان».

موقفه من المسائل الفقهية والأصول:

ومن يطالع تفسير ابن عـرفة يلمس مبلغ عناية مؤلفه بالفقه وأصـوله، فهو يتوقف عند آيات الأحكام ويستـخرج منها الأدلة الأصـولية، ويُعنى بالتفريعـات الفقهيـة، وقد أشار إلى هذا الطاهر بن عـاشور بقوله: «وشـديد الاهتمام بأن ينتـزع من الآيات ما هو من سيـاقها أو ليس منه بمـا يرجع إلى الأحكام التكليفيـة من مسائل الأصول ومـسائل الفقه، وإيراد ما يتعلق بذلك من الأنظار ومناقشتها».

وهو فى تناوله لمـسائل الفقـه فى تفسـيره لا يعـرض رأيًا إلا وينسبه لـقائله، ولا يتعرض إلى المسائل الخلافية إلا نادراً.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٩) قال: «وقال الزمخشرى: وعند الإمام أبى حنيفة: لا يصلون حال المشى، وعند الإمام الشافعى ﷺ: يصلون فى كل حال، والراكب يومئ ويسقط عنه التوجه إلى القبلة.

قال ابن عرفة: مذهب الإمام مـالك والشافعى ﷺ فى ذلك سواء، وينوى التوجه إلى القبلة، وهذا إذا خـاف العدو وفوات الوقت المختـار، فإن رجا حصـول الأمن فيه آخَّر الصلاة، وكذا الخائف من لصوص أو سباع، لأن الفرع فى هذا أقوى من أصله».

ومن أمثلة ذلك أيضًا رده لاجتهاد الإمام المازرى فى تجويزه إعطاء الرشوة للحصول على القضاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ (البقرة: ١٨٨).

وقال ابن عرفة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦): «الآية تدل على أن جميع الأحكام الشرعية تعلل، وذلك أنهم اختلفوا فى التعبدات، فذهب جماعة منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى أنها الأحكام التى لا علة لها، والآية تقتضى أن الأحكام كلها لا تكون إلا لمصلحة، لأنها خرجت مخرج التبيين على كمال المبادرة إلى امتثال الأحكام الشرعية فدل على أن المراد ـ والله أعلم ـ ما فى ذلك من المصلحة، وأنتم لا تعلمون هذا فعليكم أن تأخذوها بالقبول».

أما فيما يتعلق بقضية النسخ فابن عرفة له فيها باع وافر، وإحاطة بالكثير من دقائقها وفروعها، ويظهر ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) فقد تعرض ابن عرفة إلى مسألة نسخ القرآن بخبر الواحد، وهى مسألة خلافية، حيث إن الجمهور على جواز هذا النوع من النسخ عقلا، وأما وقوعه شرعًا ففيه خلاف بين العلماء.

كما تعرض ابن عرفة إلى نسخ الحكم الأثقل بالأخف، وأشار إلى ما أورده ابن عطية من جواز هذا النسخ، ومثاله: نسخ الثبوت للعشرة بالثبوت لشخصين فقط، وبيَّن ابن عرفة أن العبرة فى الثقل والخفة بالمصلحة، فقد يكون متعلق هذه المصلحة أرجح من متعلق المصلحة الأخرى أو مساويًا لها، ولا شك أن وقوف الواحد للعشرة ثوابه يكون أعظم من ثواب ما هو أخف منه، وأقل ثوابًا لكونه أكثر الوقوع، فيتعدد ثوابه ويكثر بتعدد وقوعه.

كما تعرض ابن عرفة لموضوع نسخ القرآن بالقياس، فمنع وقوعه، كما منع النسخ بالإجماع وأشار إلى هذا بقوله: «ولا يصح نسخ النص بالقياس؛ لأن النص المقيس عليه إما أن يكون موافقًا لذلك النص المنسوخ أو مخالفًا، فإن كان موافقًا فلا نسخ، وإن كان مخالفًا فهو الناسخ لا القياس» ثم قال: «ولا ينسخ بالإجماع لأنه إنما يكون فى حياة النبى ﷺ، والإجماع إنما هو بعد وفاته».

وعند قولــه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٧٨)) قال ابن عرفة: «ويؤخذ منه ذم التقليد كلية فى الباطل»

وعند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ (البقرة: ١٥٨) ذكر اختلاف الأصوليين فى «الواو» وهل تفيد الترتيب، ورجَّح أنها لا تقتضيه ولا تنافيه، ولكن يحتج بها على ترجيح ما قدَّم الشارع فى لفظه.

وعند قولــه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ (البقرة: ١٧٤) قال: «وفى الآية عندهم حجة للعمل بالإجماع السكوتى».

ابن عرفة والمسائل الكونية:

تعرض ابن عرفة فى تفسيره لبعض القضايا العلمية فاستدل على كروية الأرض بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) وبقوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ (المعارج: ٤٠) حيث بيَّن أن تعدد المشرق والمغرب دليل على أن الأرض كروية لأن كل موضع مغرب لقوم مشرق لآخرين.

كما استدل أيضًا على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة: ٢٢).

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال: «وصفه على هذا بالمستقيم لأن طريق الخير قسمان: قريبة، وبعيدة. فالخط المستقيم نص إقليدس على أنه أقرب مسافة بين نقطتين، فالخط المستقيم أقرب من المعوج، فلذلك وصفه على هذا بالمستقيم».

وأخيرًا . . . ندعو الله أن يُعجِّل بالعثور على هذا التفسير كاملا، ليعُمَّ النفع به . . إنه سميع مجيب.



الباب الثالث

تفاسير الشيعة

١ـ تفسير فرات الكوفى.

٢ـ تفسير القمى.

٣ـ تفسير العياشى.

٤ـ تفسير الحويزى.

٥ـ تفسير البحرانى.

٦ـ تفسير الطوسى.

أشهر مؤلفى الشيعة الإمامية الاثنا عشرية
فى تفسير القرآن، وأسماء كتبهم(١)

حوت المكتبة الإسلامية العشرات من مصنفات الإمامية الاثنا عشرية فى تفسير القرآن، ما بين مخطوط ومطبوع ومفقود، وكلها يدور حول تركيز عقيدتهم، مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال، وهذه نبذة وجيزة عن أشهر مؤلفاتهم فى التفسير:

١ - محمد بن العباس بن عيسى، له كتاب التفسير.

٢ - على بن الحسن بن فضال، له كتاب التفسير، توفى عام ٢٢٤هـ.

٣ - أحمد بن محمد بن خالد البرقى، صاحب «المحاسن» وهو مشتمل على عدة كتب، منها كتاب التفسير والتأويل، توفى عام ٢٧٤هـ، وقيل: ٢٨٠هـ.

٤ - محمد بن أورمة القمى، له كتاب تفسير القرآن.

٥ - على بن إبراهيم بن هاشم القمى له كتاب التفسير، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٦ - على بن الحسين بن بابويه القمى، له كتاب التفسير، توفى عام ٣٢٩هـ.

٧ - محمد بن مسعود السمرقندى، العياشى، له كتاب التفسير، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٨ - محمد بن إبراهيم الكاتب النعمانى، ينسب له تفسير للقرآن.

٩ - محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد، شيخ القميين، له كتاب تفسير القرآن.

١٠- أبو منصور الصرام، له كتاب تفسير القرآن.

١١- محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى، له كتاب التفسير، توفى عام ٣٨١هـ.

١٢- الشريف الرضى محمد بن الحسين بن موسى، وله معانى القرآن، توفى عام ٤٠٦هـ.

١٣- الشيخ الطوسى محمد بن الحسن، شيخ الطائفة، له «التبيان» فى تفسير القرآن، توفى عام ٤٦٠هـ، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

---

(١) لم نذكر فى هذه العجالة أسماء الكتب المؤلفة فى أحكام القرآن.

١٤- إسماعيل بن على بن الحسين السمان، له «البستان فى تفسير القرآن» فى عشر مجلدات.

١٥- محمد بن الحسن الفتال النيسابورى، له «التنوير فى معانى التفسير».

١٦- الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى، له «مجمع البيان»، توفى عام ٥٤٨هـ.

١٧- فضل الله بن على الراوندى الحسنى، له «الكافى فى التفسير».

١٨- أبو الفتوح الحسين بن على بن محمد الخزاعى الرازى، له «روض الجنان فى تفسير القرآن» فى عشرين مجلدًا.

١٩- قطب الدين سعيد بن هبة الراوندى، له «خلاصة التفاسير» فى عشر مجلدات، و «تفسير القرآن» فى مجلدين، و «فقه القرآن فى بيان آيات الأحكام» أيضًا فى مجلدين، توفى عام ٥٧٣هـ.

٢٠- محمد بن هارون المعروف والده بالكال، له «مختصر التبيان فى تفسير القرآن»، توفى عام ٥٩٧هـ

٢١- محمد بن منصور بن إدريس العجلى الحلى، له «مختصر التبيان»، توفى عام ٥٩٨هـ.

٢٢- محمد بن أبى الخير الحمدانى، له «مفتاح التفسير».

٢٣- على بن موسى بن طاووس الحسنى الحلى، له «سعد السعود» فى تفسير آيات الذكر، توفى عام ٦٦٤هـ.

٢٤- العلامة الحلى الحسن بن يوسف مطهر، وله «نهج الإيمان فى تفسير القرآن» وهو ملخص «الكشاف» و «التبيان» وغيرهما، و «القول الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز»، توفى عام ٧٢٦هـ.

٢٥- عبد الرزاق أحمد الكاشانى، له «السراج الوهاج فى تفسير القرآن» و «تأويلات القرآن»، توفى عام ٧٣٠هـ، وقيل: ٧٣٥هـ، ويطبع منسوبًا لابن عربى، وهو خطأ، ويترجم له على أنه من أهل السنة.

٢٦- محمد بن محمد الرازى البويهى، له تفسيران: «تحفة الأشراف» وهو تفسير كبير، و «بحر الأصداف»، توفى عام ٧٦٦هـ.

٢٧- حيدر بن على بن حيدر الحسينى الآملى، صاحب تفسير «المحيط الأعظم والبحر الخضم فى تأويل كتاب الله العزيز المحكم»، وله ثلاثة تفاسير أخر: «التأويلات»، و «جامع الأسرار»، و «منتخب التأويل».

٢٨- أبو الفضل بن يوسف الديملى الجيلانى، له «تفسير القرآن» فى مجلدين ضخمين.

٢٩- الشيخ عفيف الدين طيفور بن سراج الدين جنيد، له تفسير اقتصر على الأحاديث المروية عن الأئمة، قد فرغ منه عام ٨٧٦هـ.

٣٠- المولى حسين بن على الواعظ الكاشفى، صاحب «جواهر التفسير لتحفة الأمير» ويقال له: «العروس» أيضًا، و «المواهب العلية»، توفى عام ٩١٠هـ.

٣١- المولى حسين بن الخواجة شرف الدين الأردبيلى المعروف بالإلهى، له تفسير كبير لتمام القرآن الكريم فى مجلدين، يسمى بـ «تفسير الإلهى» وقد يسمى: «تفسير الأردبيلى»، توفى عام ٩٥٠هـ.

٣٢- أبو المحاسن الحسين بن الحسن الجرجانى، من مشاهير الإمامية فى القرن العاشر، صاحب «جلاء الأذهان فى تفسير القرآن».

٣٣- بهاء الدين محمد بن الحسين العاملى، له «العروة الوثقى فى تفسير القرآن» و «عين الحياة»، توفى عام ١٠٣٠هـ، وقيل: ١٠٣٥هـ.

٣٤- صدر المتألهين محمد بن إبراهيم الشيرازى، توفى عام ١٠٥٠هـ، وتفسيره غير كامل، وهو مطبوع متداول، فى سبعة مجلدات، وهو تفسير فلسفى صوفى.

٣٥- المولى محمد رضا بن عبد الحسين النصيرى الطوسى، صاحب «تفسير الأئمة لهداية الأمة» فى ثلاثين مجلدًا، و «كشف الآيات».

٣٦- المولى عبد الوحيد بن نعمة الله الواعظ الاسترآبادى، صاحب «أسرار القرآن فى تفسير الفرقان».

٣٧- المولى تاج الدين الحسن بن محمد الأصفهانى، له «البحر المواج فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٠٨٥هـ.

٣٨- المولى محمد بن مرتضى المشهور بالفيض الكاشانى، صاحب التفاسير الثلاثة المشهورة: «الصافى» و «المصفى» و «الأصفى»، توفى عام ١٠٩١هـ.

٣٩- الشيخ عبد على الحويزى، له تفسير «نور الثقلين»، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٤٠- السيد هاشم بن سلميان الحسينى البحرانى، صاحب «البرهان فى تفسير القرآن»، وسنتكلم عليه بالتفصيل، و «كتاب الهادى ومصباح النادى فى تفسير القرآن» وهو كبير أيضًا، توفى عام ١١٠٧هـ أو ١١٠٩هـ.

٤١- السيد نعمة الله بن عبد الله الحسينى الموسوى الجزائرى، له «العقود والمرجان فى تفسير القرآن» فى ثلاثة مجلدات، وله أيضًا تفسير للقرآن كتبه على هامش القرآن يقرب من سبعين ألف بيت، توفى عام ١١١٢هـ.

٤٢- محمد إسماعيل بن محمد باقر الأصفهانى الخاتون آبادى، له كتاب تفسير كبير فى أربعة عشر مجلدًا، توفى عام ١١١٦هـ.

٤٣- محمد بن محمد رضا بن إسماعيل المشهدى، له «كنز الدقائق» فى تفسير القرآن، توفى عام ١١٢٥هـ.

٤٤- على بن الحسين العاملى، له «الوجيز فى تفسير القرآن العزيز».

٤٥- أحمد بن الحسن بن على الحر العاملى، أخو الشيخ الحر العاملى المعروف، له كتاب تفسير القرآن.

٤٦- المولى أبو الحسن بن الشيخ محمد طاهر الفتونى النباطى العاملى، له «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار فى تفسير القرآن» وقد يقال: «مشكاة الأنوار».

٤٧- عبد الله الأفندى بن عيسى التبريزى، صاحب «الأمان من النيران فى تفسير القرآن».

٤٨- المولى محمد بن على النجار التسترى، صاحب التفسير الكبير المسمى بـ «تفسير ابن النجار» أو بـ «مجمع التفاسير»، توفى عام ١١٤٠هـ.

٤٩- الشيخ عبد النبى الطسوجى، له تفسير كبير، توفى عام ١١٦٠هـ.

٥٠- السيد عبد الله بن محمد رضا الحسينى الكاظمى، الشهير بشبر، له تفاسير ثلاثة للقرآن المجيد: كبير، ووسيط، وصغير، توفى عام ١٢٤٢هـ.

٥١- المولى محمد جعفر الاسترآبادى المعروف بشريعتمدار، له «تفسير محمد جعفر الاسترآبادى» والظاهر أنه غير تفسيره الموسوم بـ «مظاهر الأسرار»، توفى عام ١٢٦٣هـ.

٥٢- السيد محمد مهدى بن محمد جعفر الموسوى التنكابنى، له «خلاصة التفاسير».

٥٣- الشيخ صالح بن محمد البرقانى القزوينى، صاحب التفاسير: الكبير المسمى بـ «بحر العرفان» فى سبعة عشر مجلدًا، والوسيط فى تسعة مجلدات، والصغير فى مجلد واحد، توفى عام ١٢٧٥هـ.

٥٤- السيد حسين بن رضا الحسينى البروجردى، له كتاب تفسير، توفى عام ١٢٧٧هـ.

٥٥- الشيخ محمد حسين بن باقر البروجردى، له تفسير كبير، وآخر يسمى بـ «أسرار التنزيل» اختاره من تفسيره، توفى فى نيف وثلاثمائة بعد الألف.

٥٦- الشيخ محمد جواد البلاغى، له «آلاء الرحمن فى تفسير القرآن» ـ غير كامل ـ توفى عام ١٣٥٢هـ.

٥٧- السيد على بن الحسين الحائرى، له «مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر» فى اثنى عشر مجلدًا، توفى عام ١٣٥٣هـ.

٥٨- السيد محمد مولانا، له «التفسير الوجيز»، توفى عام ١٣٦٣هـ.

٥٩- السيد محمد حسين الطباطبائى، له «الميزان فى تفسير القرآن» فى عشرين مجلدا، توفى عام ١٤٠٢هـ، وسنتكلم عليه بالتفصيل.

٦٠- الشيخ محمد جواد مغنية، له «الكاشف فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٤٠٠هـ.

٦١- السيد آية الله أبو القاسم الخوئى، له «البيان فى تفسير القرآن»، توفى عام ١٤١٣هـ.

وسيقتصر كلامنا على ستة كتب: خمسة من الغلاة، وهم: فرات الكوفى، القمى، العياشى، الحويزى، والبحرانى، ثم نختم الكلام بالحديث عن «التبيان» لشيخ الطائفة الطوسى، حيث أنه خير من يمثل الجانب المعتدل فى تفاسير الإمامية الاثنا عشرية.

١- تفسير فرات الكوفى

التعريف بصاحب التفسير[1]:

هو الشيخ أبو القـاسم فرات بن إبراهيم بن فـرات الكوفى، من معاصـرى الكلينى والحافظ ابن عقدة وابن ماتى وغيرهم.

غير أن صفـحات التاريخ لم تنقل إلينا من حياته شيئًـا، ولم تفرد له كتب الرجال ترجمة لا بقليل ولا كثير، ولم تذكره حتى فى خلال التراجم.

ومشايـخه يناهزون المائة، أما الرواة عنه فـلا يتجاوز عددهم المـذكورين فى هذا التفسير أو غيره.

ونسبتـه «الكوفى» لأنه كان من القاطنين بها، كـما يظهر من طبقة شـيوخه والرواة عنه.

وربما كان فرات الكوفى من الناحية الفكرية والعقائدية زيديّا أو كان متعاطفًا معهم ومخـالطًا إياهم ومتمـايلاً إليهم ـ على الأقل ـ كمـا يبدو واضحًـا من خلال مشـايخه وأسانيده وأحاديثه فى الكتاب فهـو أشبه ما يكون بكتب الزيدية، وليس فى تفسيره نصٌّ على الأئمة الاثنى عشر.

التعريف بالتفسير:

وتفسيـر فرات الكوفى من أقدم المصـادر التراثية عند الشيـعة، التى وصلت إلينا، وهو يضم بين دفتـيه (٧٧٧) حديثًـا، تدور فى الأعم الأغلب حول مـا يرونه ويعدونه نازلا فى أهل البيت ـ عليهم السلام ـ من آى الذكر الحكيم، كما يتخلله بعض الروايات التى لا ترتبط بما نزل فيهم، بل لها جانب تفـسيرى محض، وربما لا يكون لها جانب تفسيرى بل ذكرت فيها الآية استطرادًا.

وتفسير فرات الكوفى ـ كمؤلفه ـ لا يمثـل الاتجاه الإمامى، ففيه تصريحات للإمام زيد ـ رحمه الله ـ فى نفى العصمة عن الإمام السجاد والباقر والصادق، وأن المعصومين من أهل البيت خمـسة لا سادس لهم، كمـا أن الكتاب لا يرتبط بأهل السنة بشكل من

---

(١) **مصادر الترجمة:** أعيان الشيعة (٨/ ٣٩٦)، مقدمة محقق تفسير فرات، معجم رجال الحديث (١٧٠/ ١٢٦ - ١٢٨)، الكافى (٢/ ٣٤٩).

الأشكال، فالكتاب فيه تعريض وطعن على كثير من الصحابة، وفيه أيضًا التوجه الخاص الموجود عند الشيعة فى أخذ معارفهم من أهل البيت حيث ترى الكتاب زاخرًا بأحاديث الباقر والصادق.

والأحاديث المذكورة فى هذا الكتاب فى جملتها تبدو عليها علامات الوضع ظاهرة، ولا حاجة للحكم عليها بميزان نقد الأحاديث.

والكتاب يقع فى جزء صغير، وله أكثر من طبعة.

وأرى أن أسوق لك بعض النماذج من هذا التفسير لتقف بنفسك على مسلكه.

نزول القرآن فى آل البيت وفى أعدائهم:

يقول فرات الكوفى فى مقدمة كتابه: «عن الأصبغ بن نباتة، عن أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ قال: القرآن أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى عدونا، وربع فرائض وأحكام، وربع حلال وحرام، ولنا كرائم القرآن».

«وعن ابن عباس قال: أخذ النبى يد علىٍّ ـ صلوات الله عليهما ـ فقال: «إن القرآن أربعة أرباع: ربع فينا أهل البيت خاصة، وربع فى أعدائنا، وربع حلال وحرام، وربع فرائض وأحكام».

تحريف القرآن:

ولما كان فرات الكوفى يقول بتحريف القرآن، نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) يقول: «عن حمران قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقرأ هذه الآية: «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل محمد على العالمين» قلت: ليس نقرأ هكذا!، فقال: أدخل حرف مكان حرف».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما فى قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فى على» أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ فيه الخبر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢) قال: «عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ

قال: لو أن الجهال من هذه الأمة يعرفون متى سُمِّيَ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ لم ينكروا، إن الله تبارك وتعالى حين أخذ ميثاق ذرية آدم، وذلك فيما أنزل الله على محمد ﷺ فى كتابه فنزل بها جبرائيل كما قرأنا يا جابر، تسمع الله يقول: «وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وأن محمدًا رسولى وأن عليا أمير المؤمنين» فوالله فسماه أمير المؤمنين فى الأظلة حيث أخذ ميثاق ذرية بنى آدم».

وكذلك عند قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الحجر: ٤١) قال فرات الكوفى: «عن سلام بن المستنير الجعفى قال: دخلت على أبى جعفر ـ عليه السلام ـ فقلت: جعلنى الله فداك، إنى أكره أن أشق عليك، فإن أذنت لى أن أسألك سألتك، فقال عليه السلام: سلنى عما شئت، قال: قلت: أسألك عن القرآن؟ قال: نعم، قال: قلت: ما قول الله عز وجل: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؟ قال: صراط على بن أبى طالب، فقلت: صراط عليٍّ؟؟! فقال: صراط على بن أبى طالب، عليه السلام».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (النحل: ٢٤) قال: «عن أبى حمزة اليمانى قال: قرأ جبرائيل ـ عليه السلام ـ على محمد ﷺ هكذا قوله: «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم فى على قالوا أساطير الأولين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (سورة ق: ٢٤) قال فرات الكوفى: «عن الحسن بن راشد قال: قال لى شريك القاضى أيام المهدى: أتريد أن أحدثك بحديث أتبرك به على أن تجعل لله عليك أن لا تحدث به حتى أموت؟ قال: قلت: أنت آمن، فحدث بما شئت، قال: كنت على باب الأعمش وعليه جماعة من أصحاب الحديث، قال: ففتح الأعمش الباب فنظر إليهم ثم رجع وأغلق الباب فانصرفوا وبقيت أنا، فخرج فرآنى، فقال: أنت هنا؟! لو علمت لأدخلتك أو لخرجت إليك، قال: ثم قال: أتدرى ما كان ترددى فى الدهليز هذا اليوم؟ قلت: لا، قال: إنى ذكرت آية فى كتاب الله، قلت: ما هى؟ قال: قول الله تعالى: «يا محمد، يا على، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد» قال: قلت: وهكذا نزلت؟ قال: إى والذى بعث محمدًا بالنبوة لهكذا نزلت».

موقفه من التفسير الباطن:

وفرات الكوفى كغيره من الشيعة يقول بأن للقرآن ظهراً وبطنًا، ويفسر آيات القرآن على هذا النحو، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ**﴾ (الأنفال: ١١) قال: «عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: أما قوله: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ فإن السماء فى البطن رسول الله ﷺ، والماء أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، جعل عليا من رسول الله ﷺ؛ فذلك قوله: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ وأما قوله: ﴿**لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ**﴾ فذلك على بن أبى طالب - عليه السلام - يطهر الله به قلب من والاه، فذلك قوله: ﴿**لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ**﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (المائدة: ٥) قال: «عن أبى جعفر الباقر - عليه السلام - قال: فالإيمان فى بطن القرآن على بن أبى طالب - عليه السلام - فمن يكفر بولايته فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين».

ولايـــــة على:

وفرات الكوفى يقرر فى تفسيره إمامة على ﷺ، وخلافته للنبى ﷺ بدون فصل، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ (المائدة: ٥٥) : يقول: «عن عبد الله بن عطاء قال: كنت جالسًا مع أبى جعفر - عليه السلام - فى مسجد الرسول - ﷺ - وابن عبد الله ابن سلام جالسٌ فى صحن المسجد، قال: فقلت: جُعلت فداك، هذا ابن الذى عنده علم الكتاب؟ قال: لا، ولكنه صاحبكم على بن أبى طالب - عليه السلام - نزل فيه: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...**﴾ إلى آخر الآية، ونزل فيه ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...**﴾ (المائدة: ٦٧) إلى آخر الآية، فأخذ رسول الله ﷺ بيد على بن أبى طالب - عليه السلام - يوم غدير خم وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

وروى - أيضًا «عن أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية قال: أقبل سائل فسأل

رسـول الله ﷺ فقـال: «هل سألت أحـدًا من أصـحابى؟» قـال: لا، قال: «فـأت المسجد فاسألهم ثم عُدْ إلىَّ فأخبرنى»، فأتـى المسجد فلم يعطه أحدٌ شيئًا، قال: فمر بعلىٍّ وهو راكع فناوله يده فأخذ خاتمه، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «هل تعرف هذا الرجل؟» قال: لا، فأرسل مـعه سلمان، فإذا هو على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ قال: ونزلت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

نزول جبريل على على ﷺ بالقرآن:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (المائدة: ٥٥) قال فرات الكوفى: «عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة المائدة فقـال: «اكتب» فكتبت حتى انتهيت إلى هذه الآيـة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم أتى رسول الله ﷺ يـخفق برأسه كأنه نائم وهو يملى بلسانه حتى فرغ من آخر السورة، ثم انتبه فقال لى: «اكتب» فأملى علىَّ من الموضع الذى خـفق عنده، فقلت: ألم تُمْلِ علىَّ حتى ختمـتها؟ قال: «الله أكبر، ذلك الذى أملى عليك جبرئيل ـ عليه السلام» ثم قال علىٌّ ـ عليه السـلام: فأملى علىَّ رسول الله ﷺ ستين آية، وأملى علىَّ جبرئيل أربعًا وستين آية».

عرض ولاية على على نبى الله
يونس وأهل السموات والأرض:

قال فـرات الكـوفى عند تفسـير قـوله تعالى: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (الصـافـات: ١٤٣): «عن جعفر بن محمد عن أبيـه عن جده ـ عليهم السلام ـ قال: قال رسـول الله ﷺ: «إن الله تبـارك وتعـالى عـرض ولاية على بن أبى طـالب ـ عليـه السلام ـ على أهل السماوات وأهل الأرض فقبلوها مـا خلا يونس بن منى، فعاقبه الله وحبسه فى بطن الحوت لإنكاره ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ حتى قبلها، قال أبو يعقـوب: فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين لإنكارى ولاية على بن أبى طالب ـ عليه السلام.

قال أبو عبد الله: فأنكرت الحديث فعرضتـه على عبد الله بن سليمان المدنى فقال لى: لا تجزع منه، فـإن أمير المـؤمنين على بن أبى طالب ـ عليـه السلام ـ خطب هنا

بالكوفة نحمد الله تعالى وأثنى عليه فقال فى خطبته: «فلولا أنه كان من المقرين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون» فقام إليه فلان ابن فلان وقال: يا أمير المؤمنين، إنا سمعنا الله يقول: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾! فقال: اقعد يا بكار «فلولا أنه كان من المقرين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون».

إقرار الملائكة وحملة العرش بولاية على:

وعند قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم: ٩) قال فرات الكوفى: «عن فاطمة بنت محمد ـ عليها السلام ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بى إلى السماء فصرت إلى سدرة المنتهى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ فرأيته بقلبى ولم أره بعينى، سمعت الأذان مثنى مثنى، والإقامة وترًا وترًا، وسمعت مناديًا ينادى: يا ملائكتى وسكان سماواتى وأرضى وحملة عرشى اشهدوا أنى أنا الله لا إله أنا وحدى لا شريك لى، قالوا: شهدنا وأقررنا، قال: اشهدوا يا ملائكتى وسكان سماواتى وأرضى وحملة عرشى بأن محمدًا عبدى ورسولى، قالوا: شهدنا وأقررنا، قال: واشهدوا يا ملائكتى وسكان سماواتى وأرضى وحملة عرشى بأن عليّا وليى وولى رسولى وولى المؤمنين، قالوا: شهدنا وأقررنا».

استحباب صوم يوم ولاية على:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) قال: «عن فرات بن أحنف: عن عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: قلت: جُعلت فداك، للمسلمين عيد أفضل من الفطر والأضحى ويوم الجمعة ويوم عرفة؟ قال: فقال لى: نعم، أفضلها وأعظمها وأشرفها عند الله منزلة، وهو اليوم الذى أكمل الله فيه الدين وأنزل على نبيه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ قال: قلت: وأى يوم هو؟ قال: فقال لى: إن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا أراد أحدهم أن يعقد الوصية والإمامة للوصى من بعده جعلوا ذلك اليوم عيدا، وإنه اليوم الذى نصب فيه رسول الله ﷺ عليّا للناس علمًا وأنزل فيه ما أنزل، وكمل فيه الدين وتمت فيه النعمة على المؤمنين، قال: قلت: وأى يوم هو فى السنة؟ قال: فقال لى: إن الأيام تتقدم وتتأخر فربما كان يوم السبت والأحد والاثنين

إلى آخر الأيام السبعة، قال: قلت: فما ينبغى لنا أن نعمل فى ذلك اليوم؟ قال: هو يوم عبادة وصلاة وشكر لله وحمـد له وسرور لما مَنَّ الله به عليكم من ولايتنا، وإنى أحب لكم أن تصوموه».

وفادة على رضي الله عنه على الله وإعطاؤه مفاتيح الغيب:

وعند تفسـير قـوله تعـالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَـهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَـمَـامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ (البقرة: ٢١٠) قال: «عن عبد الواحد بن على قال: قال أمير المؤمنين ـ على ابن أبى طالب ـ عليـه السلام: أنا أؤدى من النبـيين إلى الوصـيين ومن الوصـيين إلى النبيين، وما بعث الله نبيًا إلا وأنا أقـضى دينه وأنجز عداته، ولقد اصطفانى ربى بالعلم والظفر، ولقـد وفدت إلى ربى اثنتى عـشرة وفادة، فـعرَّفنى نفـسه، وأعطانى مـفاتيح الغيب».

موقفه من التقية:

وفرات الكوفى يقول بالتقية ويدين بها، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ**﴾ (فصلت: ٣٤) يقول: «عن معاوية بن عمار: عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: قلـت: جُعلت فداك ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ**﴾ قال: الحـسنة التقية، والسيئة الإذاعة».

القـائـــــم:

وعند تفسـيره للآيات الثلاث من أول سورة الشـمس قال: «عن أبى جعفـر ـ عليه السلام ـ قـال: قال الحارث الأعور للحـسين ـ عليه السلام: يا بن رسـول الله جُعلت فداك، أخبرنى عن قول الله فى كتابه: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾ قال: ويحك يا حارث، ذلك محمد رسول الله ﷺ، قال: قلت: جُعلت فداك، قوله: ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا**﴾ قال: ذلك أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ يتلو محمدًا ﷺ، قال: قلت: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا**﴾ قال: ذلك القائم من آل محمد ﷺ يملأ الأرض عدلا وقسطا».

الأوصـــــياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) قال: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: ٧٦) ثلاث عشرة آية، قال: هم الأوصياء يمشون على الأرض هونًا، فإذا قام القائم عرفوا كل ناصب، فإن أقر بالإسلام ـ وهو الولاية ـ وإلا ضُربت عنقه، أو أقر بالجزية فأداها كما تؤدى».

الطعن فى معاوية:

وفرات الكوفى يطعن فى تفسيره على معاوية، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: كنت والله جالسًا بين يدى رسول الله ﷺ وقد نزل بنا «غدير خم» وقد غص المجلس بالمهاجرين والأنصار، فقام رسول الله ﷺ على قدميه فقال: «أيها الناس إن الله أمرنى بأمر فقال: «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك فى علىٍّ» فقلت لصاحبى جبرئيل ـ عليه السلام: يا خليلى إن قريشا قالوا لى كذا وكذا، فأتى الخبر من ربى فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ثم نادى على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فأقامه عن يمينه ثم قال: «أيها الناس ألستم تعلمون أنى أولى منكم بأنفسكم؟» قالوا: اللهم بلى، قال: «من كنت مولاه فعلى مولاه».

فقال رجل من عرض المسجد: يا رسول الله ما تأويل هذا؟ قال: «من كنت نبيه فعلى أميره، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فقال حذيفة: فوالله لقد رأيت معاوية حتى قام يتمطى وخرج مغضبًا واضعًا يمينه على عبد الله بن قيس الأشعرى ويساره على المغيرة بن شعبة ثم قام يمشى متمطيًا وهو يقول: لا نصدق محمدًا فى مقالته ولا نقر لعلى بولايته؛ فأنزل الله ـ تعالى ـ على إثر كلامه: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (القيامة: ٣١ - ٣٥) فهَمَّ به رسول الله ﷺ أن يرده فيقتله، فقال جبرئيل: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (القيامة: ١٦) فسكت النبى».

قصة أهل وادى اليابس والطعن فى أبى بكر وعمر:

وعند تفسير سورة العاديات ذكر فرات الكوفى فى سبب نزولها حديثًا مكذوبًا، يطعن فيه فى أبى بكر، وعمر ﵄، فقال: «هذه السورة نزلت فى أهل وادى اليابس، إن أهل وادى اليابس اجتمعوا اثنى عشر ألفا فارس وتعاهدوا وتعاقدوا أن لا يتخلف رجل عن رجل، ولا يخذل أحد أحدًا، ولا يفر رجل عن صاحبه حتى يموتوا كلهم على خلق رجل واحد، ويقتلون محمدًا وعليّا، فنزل جبرئيل ـ عليه السلام ـ على محمد ﷺ فأخبره بقصتهم وما تعاهدوا عليه وتواثقوا، وأمره أن يبعث أبا بكر إليهم فى أربعة آلاف فارس من المهاجرين والأنصار، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فحمد الله ـ تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن جبرئيل ـ عليه السلام ـ أخبرنى أن أهل وادى اليابس فى اثنى عشر ألف فارس قد استعدوا وتعاهدوا وتواثقوا أن لا يغدر رجل بصاحبه ولا يفر عنه ولا يخذله حتى يقتلونى أو يقتلوا أخى على بن أبى طالب، وأمرنى أن أُسير إليهم أبا بكر فى أربعة آلاف فارس، فجِدُّوا فى أمركم واستعدوا لعدوكم وانهضوا إليهم على اسم الله وبركته يوم الاثنين إن شاء الله، فأخذ المسلمون عدتهم وتهيأوا، وأمر رسول الله ﷺ أبا بكر بأمر، وكان فيما أمره به: أن إذا رآهم أن يعرض عليهم الإسلام فإن تابعوه وإلا واقعهم فقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح أموالهم وأخرب ديارهم.

فمضى أبو بكر ومن معه من المهاجرين والأنصار فى أحسن عدة وأحسن هيئة، يسير بهم سيرًا رفيقًا حتى انتهوا إلى أهل الوادى اليابس، فلما بلغ القوم نزول القوم عليهم ونزول أبى بكر وأصحابه قريبًا منهم خرج إليهم من وادى اليابس مائتا رجل مدججين فى السلاح، فلما صادفوهم قالوا لهم: من أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ ليخرج إلينا صاحبكم حتى نكلمه، فخرج إليهم أبو بكر ونفر من المسلمين، فقال لهم أبو بكر: أنا صاحب رسول الله ﷺ، فقالوا: ما أقدمك علينا؟ قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أعرض عليكم الإسلام: أن تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون، ولكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وإلا فالحرب بيننا وبينكم، قالوا له: أما واللات والعزى لولا رحم بيننا وبينك وقرابة قريبة لقتلناك وجميع أصحابك حتى تكون حديثًا

لمن يأتى بعدكم، ارجع أنت وأصحابك وارغبوا فى العافية، فإنا نريد صاحبكم بعينه، وأخاه على بن أبى طالب.

فقال أبو بكر لأصحابه: يا قوم، إن القوم أكثر منا أضعافًا وأعد منكم عدة، وقد نأت داركم عن إخوانكم من المسلمين فارجعوا نُعلم رسول الله ﷺ بحال القوم، فقالوا له جميعًا: خالفت يا أبا بكر رسول الله ﷺ وما أُمرت به. فاتق الله وواقع القوم ولا تخالف قول رسول الله ﷺ، قال: إنى أعلم ما لا تعلمون، والشاهد يرى ما لا يراه الغائب، فانصرف الناس وانصرفوا أجمعين.

فأخبر جبرئيل ـ عليه السلام ـ النبى ﷺ بما قال القوم وما رد عليهم أبو بكر، فقال النبى ﷺ: «يا أبا بكر خالفت أمرى، ولم تفعل ما أمرتك به، وكنت لى عاصيًا فيما أمرتك» فقام النبى ﷺ ـ وصعد المنبر ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معاشر المسلمين إنى أمرت أبا بكر أن يسير إلى أهل وادى اليابس وأن يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إلى الله وإلىَّ، فإن أجابوا وإلا واقعهم، وإنه سار إليهم فخرج إليه منهم مائتا رجل، فلما سمع كلامهم وما استقبلوه به انتقع صدره ـ ودخله الرعب منهم، وترك قولى ولم يطع أمرى، وإن جبرئيل ـ عليه السلام ـ أمرنى عن الله ـ تبارك وتعالى ـ أن أبعث عمر مكانه فى أصحابه فى أربعة آلاف فارس، فسر يا عمر باسم الله ولا تعمل ما عمل أبو بكر أخوك، فإنه قد عصى الله وعصانى» وأمره بما أمر به أبا بكر.

فخرج عمر والمهاجرون والأنصار الذين كانوا مع أبى بكر يقصد بهم فى مسيره حتى شارف القوم، فكان قريبًا حيث يراهم ويرونه، حتى خرج إليهم مائتا رجل من أهل وادى اليابس فقالوا له ولأصحابه مثل مقالتهم لأبى بكر، فانصرف عنهم وانصرف الناس معه، وكاد أن يطير قلبه لما رأى من نجدة القوم وجمعهم، ورجع، فنزل جبرئيل ـ عليه السلام ـ على النبى ﷺ وأخبره بما صنع عمر وأنه قد انصرف وانصرف المسلمون معه، فصعد ﷺ المنبر فحمد الله تعالى، وأثنى عليه وأخبرهم بما صنع عمر وما كان منه، وأنه قد انصرف بالمسلمين معه مخالفًا لأمرى عاصيًا لقولى، فقدم إليه عمر، وأخبره بمثل ما أخبره به صاحبه، فقال له النبى ﷺ: «يا عمر قد عصيت

الله في عرشه، وعصيتني وخالفت أمرى وعملت برأيك، ألا قبح الله رأيك، وإن جبرئيل - عليه السلام - أمرنى عن الله أن أبعث على بن أبى طالب - عليه السلام - فى هؤلاء المسلمين، وأخبرنى أن الله تعالى يفتح عليه وعلى أصحابه» ثم نزل فدعا على ابن أبى طالب - عليه السلام - فأوصاه بما أوصى به أبا بكر وعمر وأصحابه فى أربعة آلاف فارس، وأخبره أن الله سيفتح عليه وعلى أصحابه.

فخرج علىٌّ - عليه السلام - ومعه المهاجرون والأنصار فسار بهم سيرًا غير سير أبى بكر وعمر، وذلك أنه أعنف(١) بهم فى السير حتى خافوا أن يتقطعوا من التعب وتحفى دوابهم فقال لهم: لا تخافوا، فإن رسول الله ﷺ أمرنى بأمر وأنا منته إلى أمره، وأخبرنى أن الله تبارك وتعالى سيفتح علىَّ وعليكم، أبشروا فإنكم غادونٍ إلى خير، فطابت أنفسهم وسكنت قلوبهم، فساروا كل ذلك فى السير والتعب الشديد حتى باتوا قريبًا منهم حيث يراهم ويرونه، وأمر أصحابه أن ينزلوا، وسمع أهل الوادى اليابس بقدوم على بن أبى طالب - عليه السلام - فخرج منهم إليهم مائتا فارس شاكين فى السلاح، فلما رآهم علىٌّ - عليه السلام - خرج إليهم فى نفر من أصحابه فقالوا لهم: من أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟ قال: أنا أمير المؤمنين! على بن أبى طالب، ابن عم رسول الله ﷺ وأخوه ورسوله إليكم أن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم من الخير والشر، فقالوا: إياك أردنا وأنت طلبتنا، قد سمعنا مقالتك وما أردت، وهذا الأمر لا يوافقنا وتبًّا لك ولأصحابك، وخذ حذرك واستعد للحرب، ولكنا قاتلوك وقاتلو أصحابك، والموعد فيما بيننا وبينكم غدًا سحرًا ضحوة، وقد أعذرنا فيما بيننا وبينكم.

فقال لهم علىٌّ - عليه السلام: ويلكم تهددونى بكثرتكم وجمعكم؟!! وأنا أستعين بالله وملائكته وبالمسلمين عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فانصرفوا إلى مراكزهم وانصرف علىٌّ إلى مركزه.

فلما جنه الليل أمر علىٌّ أصحابه أن يحسوا دوابهم ويقضمونها ويسرجونها، فلما أسفر الصبح صلى بالناس بغلس ثم أغار عليهم بأصحابه فلم يعلموا حتى توطأتهم

(١) أى: أسرع.

الخيل فما أدرك آخر أصحابه حتى قتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستباح أموالهم وأخرب ديارهم وأقبل بالأسارى والأموال معه.

ونزل جبرئيل - عليه السلام - فأخبر النبى ﷺ بما فتح الله على يدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - وجماعة المسلمين، فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وأخبر الناس بما فتح الله تعالى على المسلمين، وأعلمهم أنه لم يصب منهم إلا رجلان.

فخرج النبى ﷺ يستقبل عليًا وجميع أهل المدينة من المسلمين حتى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة، فلما رآه علىٌّ مقبلا نزل عن دابته، ونزل النبى ﷺ حتى التزمه، وقبَّل النبى ﷺ بين عينيه، ونزل جماعة المسلمين إلى على حيث نزل النبى ﷺ، وأقبل بالغنيمة والأسارى وما رزقهم الله تعالى من أهل الوادى اليابس.

ثم قال جعفر بن محمد - عليهما السلام: فما غنم المسلمون مثلها قط، إلا أن يكون خيبر، فإنها مثل خيبر، وأنزل الله تعالى فى ذلك اليوم: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا**﴾ (العاديات: ١).

ثم قال: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾ قال: لكفور ﴿**وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ**﴾ قال: يعنيهما جميعًا، قد شهدا جمع وادى اليابس وتمنيا الحياة ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾ يعنى أمير المؤمنين عليه السلام ﴿**أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ**﴾ قال: نزلت هاتان الآيتان فيهما خاصة كانا يضمران ضمير السوء ويعملان به فأخبر الله تعالى خبرهما، فهذه قصة أهل وادى اليابس وتفسير السورة».

موقفه من سحر النبى ﷺ:

وفرات الكوفى يخالف الغالبية من الشيعة الإمامية، ويقول بوقوع السحر للنبى ﷺ، فقال عند تفسير سورة الفلق: «عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - عليه السلام - قال: سحر لبيد بن أعصم اليهودى وأم عبد الله اليهودية رسول الله ﷺ فى عقد من قز أحمر وأخضر وأصفر، فعقدوه له فى إحدى عشرة عقدة ثم جعلوه فى جف من طلع - قال: يعنى قشور اللوز - ثم أدخلوه فى بئر بواد فى مراقى البئر تحت راعوفة

ـ يعنى الحجر الخارج ـ فأقام النبى ﷺ ثلاثًا لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع ولا يبصر ولا يأتى النساء!! فنزل عليه جبرئيل ـ عليه السلام ـ ونزل معه بالمعوذتين فقال له: يا محمد ما شأنك؟ قال: «ما أدرى، أنا بالحال الذى ترى» فقال: إن أم عبد الله ولبيد ابن أعصم سحراك، وأخبره بالسحر حيث هو، ثم قرأ جبرئيل ـ عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقال رسول الله ﷺ ذلك فانحلت عقدة، ولم يزل يقرأ آية ويقرأ النبى ﷺ وتنحل عقدة، حتى قرأها عليه إحدى عشرة آية، وانحلت إحدى عشرة عقدة، وجلس النبى ﷺ ودخل أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فأخبره بما جاء به جبرئيل وقال: «انطلق فأتنى بالسحر» فخرج علىٌّ فجاء به، فأمر به رسول الله ﷺ فنقض، ثم تفل عليه، وأرسل إلى لبيد بن أعصم وأم عبد الله اليهودية فقال: «ما دعاكم إلى ما صنعتم؟!»، ثم دعا رسول الله ﷺ على لبيد وقال: «لا أخرجك الله من الدنيا سالمًا» قال: وكان موسرًا كثير المال، فمر به غلام يسعى، فى أذنه قرط قيمته دينار، فجاذبه فخرم أذن الصبى، فأُخذ وقُطعت يده فمات من وقته».

خلق على وفاطمة والحسن والحسين من نور الله وعرضهم على آدم والملائكة فى الجنة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦) قال فرات الكوفى: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ كان ولا شىء، فخلق خمسة: النبى ـ محمد ﷺ، وهو الأعلى، وسمى أمير المؤمنين عليا، وله الأسماء الحسنى، فاشتق منها حسنًا وحُسينا، وهو فاطر فاشتق لفاطمة من أسمائه اسمًا، فلما خلقهم جعلهم فى الميثاق فإنهم عن يمين العرش، وخلق الملائكة من نور، فلما أن نظروا إليهم عظموا أمرهم وشأنهم ولُقنوا التسبيح، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (الصافات: ١٦٥، ١٦٦)، فلما خلق الله تعالى آدم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نظر إليهم عن يمين العرش فقال: يا رب من هؤلاء؟ قال: يا آدم هؤلاء صفوتى وخاصتى، خلقتهم من نور جلالى وشققت لهم اسمًا من أسمائى، قال: يا رب فبحقك عليهم علمنى أسماءهم، قال:

يا آدم فهم عندك أمانة، سر من سرى، لا يطلع عليه غيرك إلا بإذنى، قال: نعم، يا رب، قال: يا آدم أعطنى على ذلك العهد، فأخذ عليه العهد، ثم علمه أسماءهم ثم عرضهم على الملائكة ولم يكن علمهم بأسمائهم ﴿ **فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٣) فعلمت الملائكة أنه مستودع وأنه مُفضل بالعلم، وأُمروا بالسجود، إذ كانت سجدتهم لآدم تفضيلاً له وعبادةً لله إذ كان ذلك يحق له، وأبى إبليس الفاسق عن أمر ربه فقال: ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ** ﴾ (الأعراف: ١٢) قال: فقد فضلته عليك حيث أمر بالفضل للخمسة الذين لم أجعل لك عليهم سلطانًا ولا من شيعتهم، فذلك استثناء اللعين ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ (الحجر: ٤٠) قال: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ (الحجر: ٤٢) وهم الشيعة».

الكلمات التى دعا بها آدم ربه:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾ (البقرة: ٣٧) قال فرات الكوفى: «عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما نزلت الخطيئة بآدم وأُخرج من الجنة أتاه جبرئيل ـ عليه السلام ـ فقال: يا آدم ادع ربك، قال: حبيبى جبرئيل، ما أدعو؟ قال: قل: رب أسألك بحق الخمسة الذين تخرجهم من صلبى آخر الزمان إلا تبت علىَّ ورحمتنى، فقال له آدم ـ عليه السلام: يا جبرئيل سمهم لى، قال: قل: رب أسألك بحق محمد نبيك، وبحق علىٍّ وصى نبيك، وبحق فاطمة بنت نبيك، وبحق الحسن والحسين سبطى نبيك إلا تبت علىَّ ورحمتنى، فدعا بهن آدم فتاب الله عليه، وذلك قول الله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾».

عرض ولاية أهل البيت والأئمة على السموات والأرض ومن فيهن:

وعند قوله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ** ﴾ (البقرة: ٢٨٥) قال فرات الكوفى: «عن أبى جعفر محمد بن على ـ عليهما السلام ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما أُسرى بى إلى السماء قال لى العزيز: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ** ﴾

قلت: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: صدقت يا محمد، عليك السلام، من خلَّفت لأمتك من بعدك؟ قلت: خيرها لأهلها، قال: على بن أبى طالب؟ قلت: نعم يا رب، قال: يا محمد إنى اطلعت إلى الأرض إطلاعة فاخترتك منها واشتققت لك اسمًا من أسمائى لا أُذكر فى مكان إلا ذُكرت معى، فأنا محمود وأنت محمد، ثم اطلعت الثانية فاخترت عليًا واشتققت له اسمًا من أسمائى، فأنا الأعلى وهو على، يا محمد إنى خلقتك وخلقت عليًا وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ولده أشباح نور من نورى وعرضت ولايتكم على السموات وأهلها وعلى الأرضين ومن فيهن، فمن قبل ولايتكم كان عندى من المقربين، ومن جحدها كان عندى من الكفار الضالين، يا محمد لو أن عبدًا عبدنى حتى ينقطع أو يصير كالشن البالى ثم أتانى جاحدًا لولايتكم ما غفرت له حتى يقر بولايتكم، يا محمد تحب أن تراهم؟ قلت: نعم يا رب، قال: التفت عن يمين العرش، فالتفت فإذا أنا بأشباح علىٍّ وفاطمة والحسن والحسين والأئمة كلهم، حتى بلغ المهدى ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فى ضحضاح من نور قيام يصلون، والمهدى فى وسطهم كأنه كوكب درى، فقال لى: يا محمد هؤلاء الحجج وهو الثائر من عترتك، فوعزتى وجلالى إنه لحجة واجبة لأوليائى منتقم من أعدائى».

خلق فاطمة وفضلها:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم: ٤، ٥) قال: «عن أبى عبد الله جعفر بن محمد ـ عليهما السلام ـ عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «معاشر الناس تدرون مم خُلقت فاطمة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «خُلقت فاطمة حوراء إنسية لا إنسية، قال: خُلقت من عرق جبرئيل ومن زغبه»، قالوا: يا رسول الله أشكل ذلك علينا، تقول: حوراء إنسية لا إنسية، ثم تقول: من عرق جبرئيل ومن زغبه؟! قال: «إذًا أنبئكم، أهدى إلىَّ ربى تفاحة من الجنة أتانى بها جبرئيل فضمها إلى صدره فعرق جبرئيل ـ عليه السلام ـ وعرقت التفاحة فصار عرقهما شيئًا واحدًا، ثم قال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قلت: وعليك السلام يا جبرئيل، فقال: إن الله أهدى إليك تفاحة من الجنة، فأخذتها فقبَّلتها ووضعتها على عينى وضممتها إلى صدرى، ثم قال: يا محمد كُلها، قلت: يا حبيبى

جبـرئيل هدية ربى تؤكل؟! قال: نعم، قـد أُمرت بأكلهـا، فأفلقتـها فرأيـت منها نوراً ساطعًا فرعـت من ذلك النـور، قـال: كُلْ فـإن ذلك نـور المنصـورة فـاطـمة، قلت: يا جبرئيل ومن المنصـورة؟ قال: جارية تخرج من صلبك اسمها فـى السماء المنصورة وفى الأرض فاطمـة، فقلت: يا جبرئيل ولِـمَ سُميت فى السمـاء منصورة وفى الأرض فاطمة؟ قال: سميت فاطمة فى الأرض لأنها فطمت شيعتها عن النار، وفطمت أعداءها عن حبها، وذلك قـول الله فى كتابه: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ بنصـر فاطمة عليها السلام».

المعصومون من آل البيت:

وفرات الكوفى لا يقول بعصمة الأئمة، خلافًا للإمامية الاثنا عشرية،ولكنه يقصرها على أربعة من أهل البيت هم: على، والحسن، والحسين، وفاطمة، فيقول عند تفسير قـوله تعـالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ (الأحزاب: ٣٠): «عن أبى خالد قال: كنا عند زيـد بن على ـ عليهما السلام ـ فجاءه أبو الخطاب يكلمه، فـقال له زيد: اتق الله، فإنى قـدمت عليكم وشيعـتكم يتهافـتون فى المباهاة، فإن رسـول الله ﷺ جدنا، والمؤمن المهاجر معه أبونا، وزوجـته خديجة بنت خويلد جـدتنا، وبنته فاطمة الزهراء أمنا، فـمَنْ أهله إلا مَنْ نزل بمثل الذى نزلنا، فالله بيننا وبين من غلا فينا، ووضعنا على غيـر حدنا، وقال فينا ما لا نقول فى أنفسنا، المعصـومون منا خمسـة: رسول الله ﷺ ، وعلى، والحسن، والحسـين، وفاطمة، عليهم الصلاة والسلام، وأما سائرنا أهل البيت فـيذنب كما يذنب الناس، ويحسن كما يحسن الناس، للمحـسن منا ضعفا الأجر، وللمسىء منا ضـعفان من العذاب، لأن الله تعالى قال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾».

ولم أر فى هذا التفـسير ما يشـير إلى قول مؤلفـه بالرجعة أو البداء، كـما وأنه لا يتعرض للمسائل الكلامية والمباحث الفقهية مطلقًا، ولكن رأيناه يسير مع الهوى الشيعى سيرًا فيه كثير من الغلو والتطرف والخروج عن دائرة المعقول والمقبول.

٢- تفسير القمى

التعريف بصاحب التفسير(١)

هو: على بن إبراهيم بن هاشم، أبو الحسن القمى ـ نسبة إلى مدينة «قم» الإيرانية ـ سمع فأكثر، وصنف كتبًا، أخذ العلم عن أبيه، وروى عنه كثير، وروى أيضًا عن: أحمد بن محمد بن خالد البرقى، ومحمد بن عيسى بن عبيد، وصالح السندى، وآخرين.

روى عنه: محمد بن يعقوب الكلينى، ومحمد بن موسى ابن المتوكل، وأحمد بن زياد بن جعفر الهمدانى، وغيرهم.

وكان من أعلام الفقهاء والمحدثين الشيعة، مفسرًا، مؤرخًا، كثير الحديث.

صنف كتبًا منها: التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، الناسخ والمنسوخ، أخبار القرآن ورواياته، قرب الإسناد، المغازى، الأنبياء، فضائل أمير المؤمنين، الشرائع، التوحيد.

ولم نظفر له بتاريخ وفاة، إلا أنه كان حيّا فى سنة سبع وثلاثمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وهذا التفسير المنسوب إلى على بن إبراهيم القمىّ هو من صنع تلميذه أبى الفضل العباس بن محمد بن القاسم بن حمزة ابن الإمام موسى بن جعفر، وأبو الفضل هذا مجهول الحال، لا يُعرف، إلا أنه علوى، وربما كان من تلاميذ على بن إبراهيم، إذ لم يثبت ذلك يقينًا، من غير روايته فى التفسير عن شيخه القمىّ.

كما أن الإسناد إليه أيضًا مجهول، لم يُعرف من الراوى لهذا التفسير عن أبى الفضل هذا؟!.

وهذا التفسير تلفيق من إملاءات القمِّى، وقسط وافر من تفسير أبى الجارود زياد بن المنذر السرحوب المتوفى سنة (١٥٠هـ)، وكان من أصحاب الإمام أبى جعفر الباقر، وهو رأس الجارودية من الزيدية.

---

(١) مصادر الترجمة: إيضاح المكنون (١/ ٣٠٩)، طبقات المفسرين للداودى (/ ٣٩٢)، لسان الميزان (٤/ ١٩١)، الذريعة (٤/ ١٩١)، مقدمة المحقق.

فكان ما أورده أبو الفضل فى هذا التفسير من أحاديث الإمام الباقر، فهو من طريق أبى الجارود، وما أورده من أحاديث الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ فمن طريق على بن إبراهيم، وأضاف إليهما بأسانيد عن غير طريقهما، فهو مؤلف ثلاثى المأخذ، وعلى أى حال فهــو من صنع أبى الفضل، ونسب إلى شيخه، لأن أكـثر رواياته عنه، ولعله كان الأصل فأضاف إليه أحاديث أبى الجارود وغيره، لغرض التكميل.

ومن ثَمَّ فانتساب هذا التفسير إلى على بن إبراهيم أمر مشهور لا مستند له.

وهذا التفسير واحد من أقدم ما وصل إلينا من تفـاسير الإمامية الاثنا عشرية، ونقل عنه من جاء بعده من أئمة الشيعة ومؤلفـيهم أمثال: الكاشانى، والحويزى، والبحرانى، وغيرهم.

والطبعة التى بين يدينا والتى رجـعنا إليها فى بحثنا هذا هى طبعـة مؤسسة الأعلى (بيروت ١٤١٢هـ) وتقع فى مجلدين.

منهج هذا التفسير:

وقد رُتب هذا التفسير حسب ترتيب السور والآيات آية آية، فيذكر الآية ويعقبها بما رواه على بن إبراهيم، ويسـتمر على هذا النمط حـتى نهاية سورة البـقرة، ومن بدايات سورة آل عمران نراه يمزجه بما رواه عن أبى الجارود، وكذا عن غيره من سائر الرواة، ويستمر حتى نهاية القرآن.

وهذه الروايات التى يوردها لا يُوثق بصحتها ولا يُعـول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من أئمـة أهل البيت ﷺ، وهى أحاديث مكذوبة لا أصل لهـا، ناطقة على نفسها بالوضع، وليست فى حاجة إلى بيان وضـعها بميزان النقد الصحيح، إذ نحن فى غنًى عن هذا، فكل من يقـرأها يتبين له كـذبها من خـلال ألفاظها ومـعانيـها ومتـونها المضطربة.

علم القرآن جميعه عند الأئمة:

يعتقد القمى أن علم القرآن جميعه عند الأئمة، فيقول فى مقدمته: «ونحن ذاكرون ومخبـرون بما ينتهى إلينا ورواه مـشايخنا وثقاتنا عن الذين فرض الله طاعـتهم وأوجب ولايتهم ولا يقبل عملا إلا بهم، وهم الذين وصـفهم الله تبارك وتعالى وفرض سؤالهم

والأخذ منهم فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فعلمهم عن رسول الله، وهم الذين قال فى كتابه وخاطبهم فى قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا﴾ أنتم يا معشر الأئمة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨) فرسول الله ﷺ شهيد عـليهم وهم شهداء على الناس، فالعلم عندهم، والقرآن معهم، ودين الله عز وجل الذى ارتضـاه لأنبيائه وملائكته ورسله منهم يُقتـبس، وهو قول أمـير المؤمنين ـ علـيه السلام: ألا أن العلم الذى هبـط به آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض وجميع ما فضلت به النبيون إلى خاتم النبيين عندى وعند غيرى عترة خاتم النبيين، فأين يتاه بكم؟! بل أين تذهبون؟!.

وقال أيضًا أميـر المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى خطبته: ولقد علم المـستحفظون من أصحاب مـحمد ﷺ أنه قال: «إنى وأهل بيتى مـطهرون فلا تسبقـوهم فتضلوا، ولا تتخلفـوا عنهم فتزلوا، ولا تخالفـوهم فتجهلوا، ولا تُعلمـوهم فإنهم أعلم منكم، هم أعلم الناس كبارًا، وأحلم الناس صغارًا، فاتبعوا الحق وأهله حيث كان».

مقدمات التفسير:

ثم استطرد القمى إلى ذكر مـقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فـقال: «فالقرآن منه ناسخ، ومنه منسوخ، ومنه محكم، ومنه متشابه، ومنه عام، ومنه خاص، ومنه تقديم، ومنه تأخير، ومنه منقطع، ومنه معطوف، ومنه حرف مكان حرف، ومنه على خلاف ما أنزل الله، ومنه ما لفظه عام ومعناه خاص، ومنه ما لفظه خاص ومعناه عام، ومنه آيات بعضها فى سورة وتمامها فى سورة أخرى، ومنه ما تأويله فى تنزيله، ومنه ما تأويله مع تنزيله، ومنه ما تأويله قـبل تنزيله، ومنه ما تأويله بعد تنزيله، ومنه رخـصة إطلاق بعد الحظر، ومنه رخصة صـاحبها فيهـا بالخيار، إن شاء فعل وإن شـاء ترك، ومنه رخصة ظاهرها خلاف باطنها يعمل بظاهرها ولا يدان بباطنهـا، ومنه ما على لفظ الخبر ومعناه حكاية عن قوم، ومنه آيات نصفها منسوخة ونصفهـا متروكة على حالها، ومنه مخاطبة لقوم ومعناه لقوم آخرين، ومنه مخاطبـة للنبى ﷺ والمعنىُّ أمته، ومنه ما لفظه مفرد ومعناه جمع، ومنه ما لا يعرف تحـريمه إلا بتحليله، ومنه ردٌّ على الملحدين، ومنه رد

على الزنادقة، ومنه رد على المانوية، ومنه رد على الجهمية، ومنه رد على الدهرية، ومنه رد على عبدة النيران، ومنه رد على عبدة الأوثان، ومنه رد على المعتزلة، ومنه رد على القدرية، ومنه رد على المجبرة، ومنه رد على من أنكر من المسلمين الثواب والعقاب بعد الموت يوم القيامة، ومنه رد على من أنكر المعراج والإسراء، ومنه رد على من أنكر الميثاق كالآيات التى نزلت فى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ومنه رد على من أنكر الجنة والنار، ومنه رد على من أنكر المتعة والرجعة، ومنه رد على من وصف الله عز وجل، ومنه مخاطبة الله عز وجل لأمير المؤمنين والأئمة، عليهم السلام، وما ذكره الله من فضائلهم، وفيه خروج القائم وأخبار الرجعة ، وما وعد الله تبارك وتعالى الأئمة ـ عليهم السلام ـ من النصرة والانتقام من أعدائهم».

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها القمى فى مقدمة تفسيره، وكتابه مذهبى إلى حد التطرف والغلو، ولا يكاد مؤلفه يمر بآية إلا ويحاول أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه مع تحيز مزرٍ، وتعصب ممقوت، وإليك هذه الأمثلة:

الجفر ومصحف فاطمة:

والقمى يقول بوجود الجفر ومصحف فاطمة، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (الأحقاف: ٤) قال: «أبو عبد الله ـ عليه السلام: إن فى الجفر الذى يذكرونه لما يسوءهم لأنهم لا يقولون الحق، والحق فيه، فليخرجوا قضايا علىّ وفرائضه إن كانوا صادقين، وسلوهم عن الخالات والعمات، وليخرجوا مصحف فاطمة عليها السلام، فإن فيه وصية فاطمة، ومعه سلاح رسول الله ﷺ ، أن الله عز وجل يقول: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾».

وقد أثبتنا هذا الشاهد رغم عدم وجوده فى النسخة المطبوعة التى تحت يدى، حيث أنه موجود ومثبت فى العديد من تفاسير الشيعة المتأخرة، والتى عزته للقمى فى معرض تفسير هذه الآية.

تحريف القرآن:

كذلك نجد القمى يعتقد بأن القرآن بُدِّل وحُرِّف، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ**﴾ (النساء: ١٦٦) قال: «فإنه حدثنى أبى عن

ابن أبى عمير عن أبى بصير عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: إنما أنزلت «لكن الله يشهد بما أنزل إليك فى علىٍّ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا» وقرأ أبو عبد الله ـ عليه السلام: «إن الذين كفروا وظلموا آل محمد حقهم لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقًا إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدًا وكان ذلك على الله يسيرًا».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣) قال: «وقال العالم ـ عليه السلام: نزل: «وآل عمران وآل محمد على العالمين» فأسقطوا آل محمد من الكتاب».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ (آل عمران: ١١٠) قال ما نصه: «عن ابن سنان قال: قرئت عند أبى عبد الله ـ عليه السلام: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: «خير أمة» يقتلون أمير المؤمنين والحسن والحسين ـ عليهم السلام؟ فقال القارئ: جُعلت فداك، كيف نزلت ؟ فقال: نزلت: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» ألا ترى مدح الله لهم ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾؟».

الإيمان بالأوصياء:

ويدين القمى بأن الإيمان بالأوصياء جزء من العقيدة، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ**﴾ (الأنعام: ٣٩) يقول: «نزلت فى الذين كذبوا بأوصيائهم، صم بكم، كما قال الله فى الظلمات، من كان من ولد إبليس فإنه لا يصدق بالأوصياء ولا يؤمن بهم أبدا، وهم الذين أضلهم الله، ومن كان من ولد آدم آمن بالأوصياء فهم على صراط مستقيم، قال: وسمعته يقول: كذبوا بآياتنا كلها فى بطن القرآن أن كذبوا بالأوصياء كلهم».

ولايـــة على:

لما كان القمى يدين بإمامة على ﵁، ويرى أنه خليفة النبى ﷺ بلا فصل، فإنا نراه يحاول بكل ما أوتى من قوة أن يثبت إمامته وولايته من القرآن، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (المائدة: ٦٧) يقول: «نزلت هذه

الآية فى علىٍّ: «بلغ مـا أنزل إليك من ربك فى علىٍّ وإن لم تفعل فـما بلغت رسـالته والله يعصمك من الناس» قال: نزلت هذه الآية فى منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع، وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع لتمام عشر حجج من مقدمه المدينة، فكان من قوله بمنى أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه عنى، فإنى لا أدرى لـعلِّى لا ألقاكم بعـد عامى هذا» ثم قـال: «أى يوم أعظم حرمـة؟» قال الناس: هذا اليوم، قال: «فأى شهر؟» قال الناس: هذا، قال: «وأى بلد أعظم حرمة؟» قالوا: بلدنا هذا، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعـراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا هل بلغت أيها الناس؟» قـالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد» ثم قـال: «ألا وكل مأثرة أو بدعة كانت فى الجاهليـة أو دم أو مال فهى تحت قدمىَّ هاتين، ليس أحـد أكرم من أحد إلا بالتقـوى، ألا هلا بلغت؟» قالوا : نعم؟ قـال: «اللهم اشهـد. . .» فى حديث طويل، إلى أن قال:

«أيها الناس، إنـى تارك فيكم الثقلـين» قالوا: يا رسول الله، ومـا الثقـلان؟ قال: «كتاب الله وعترتى أهل بيـتى، فإنه قد نبأنى اللطيف الخبير أنهمـا لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض كأصـبعىَّ هاتين ـ وجمع بين سبابتـيه ـ ولا أقول كهاتين ـ وجمع سـبابته والوسطى ـ فتفـضل هذه على هذه» فاجتمع قـوم من أصحابه وقالوا: يريد مـحمد أن يجعل الإمامـة فى أهل بيته، فخـرج أربعة نفر منهم إلى مكة ودخلوا الكعـبة وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبـوا فيما بينهم كتابًا إن مات محـمد أو قُتل أن لا يردوا هذا الأمر فى أهل بيته أبدًا، فأنزل الله على نبيه فى ذلك: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾ (الزخـرف: ٧٩، ٨٠) فخـرج رسول الله ﷺ من مكة يريد المدينة ونزل منزلاً يقال له: «غدير خم» وقد علَّم الناس مناسكهم وأوعز إليهم وصيته إذ نزلت عليه هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ فقام رسول الله ﷺ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس هل تعلمون من وليكم؟» فقالوا: نعم، الله ورسوله، ثم قال: «ألستم تعلمون أنى أولى بكم من أنفـسكم؟» قالوا: بلى، قال: «اللهم اشهد»

فأعاد ذلك عليهم ثلاثًا، كل ذلك يقول مثل قوله الأول، ويقول الناس كذلك، ويقول: «اللهم اشهد» ثم أخذ بيد أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ فرفعهما حتى بان للناس بياض إبطيهما، ثم قال: «ألا من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه» ثم رفع رأسه إلى السماء فقال: «اللهم اشهد عليهم وأنا من الشاهدين» فاستفهمه عمر فقام من بين أصحابه فقال: يا رسول الله، هذا من الله ومن رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، من الله ورسوله إنه أمير المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، يقعده الله يوم القيامة على الصراط فيدخل أولياءه الجنة وأعداءه النار» فقال أصحابه الذين ارتدوا بعده: قد قال محمد فى مسجد الخيف ما قال، وقال ههنا ما قال، وإن رجع إلى المدينة يأخذنا بالبيعة له، فاجتمعوا أربعة عشر نفرًا وتآمروا على قتل رسول الله ﷺ، وقعدوا فى العقبة، وهى عقبة «هرشى» بين الجحفة والأبواء، فقعدوا سبعة عن يمين العقبة وسبعة عن يسارها لينفروا ناقة رسول الله ﷺ، فلما جنَّ الليل تقدم رسول الله ﷺ فى تلك الليلة العسكر فأقبل ينعس على ناقته، فلما دنا من العقبة ناداه جبرئيل: يا محمد إن فلانًا وفلانًا قد قعدوا لك، فنظر رسول الله ﷺ فقال: «من هذا خلفى؟» فقال حذيفة اليمانى: أنا يا رسول الله، حذيفة بن اليمان، قال: «سمعت ما سمعت؟» قال: نعم، قال: «فاكتم» ثم دنا رسول الله ﷺ منهم فناداهم بأسمائهم، فلما سمعوا نداء رسول الله ﷺ فروا ودخلوا فى غمار الناس، وقد كانوا عقلوا رواحلهم فتركوها، ولحق الناس برسول الله ﷺ وطالبوهم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى رواحلهم فعرفهم، فلما نزل قال: «ما بال أقوام تحالفوا فى الكعبة إن مات محمد أو قُتل ألا يردوا هذا الأمر فى أهل بيته أبدًا؟» فجاءوا إلى رسول الله ﷺ فحلفوا أنهم لم يقولوا من ذلك شيئًا ولم يريدوه ولم يكتموا رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا** ﴾ (التوبة: ٧٤) أن لا يردوا هذا الأمر فى أهل بيت رسول الله ﷺ ﴿ **وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا** ﴾ من قتل رسول الله ﷺ».

تأثر القمى بفقه الشيعة فى تفسيره:

والقمى متأثر بفقه الإمامية الاثنا عشرية وآرائهم الاجتهادية، ويستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه.

نكاح المتعة:

ولما كان الإمامية الاثنا عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين، فلهذا حاول القمى ـ وهو واحد منهم ـ أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فعندما فسر قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ (النساء: ٢٤) قال: «قال الصادق ـ عليه السلام: فهذه الآية دليل على المتعة».

نكاح الكتابيات:

وقال القمى عند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ (المائدة: ٥) الآية: «فقد أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية على ما يجب، فأما إذا كانوا فى دار الشرك ولم يؤدوا الجزية لم يحل مناكحتهم».

طعن القمى فى الصحابة:

كذلك نجد القمى فى تفسيره يطعن على أبى بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، وأم المؤمنين عائشة، وحفصة وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ويلعنهم، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلاً عن صحابى جاهد مع رسول الله ﷺ وبذل فى سبيل نصرته ونصرة دين الله دمه وماله، كما يطعن فى بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية.

طعنه على أبى بكر وعمر رضي الله عنهما:

فمثلاً عند تفسيره للآيات (٧ - ٣٠) من سورة المطففين قال: «﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ هو فلان وفلان، قوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ زريق وحبتر ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهما زريق

وحبتر كانا يكذبان رسول الله ﷺ، إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ هما ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ يعنى هما ومن تبعهما ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ إلى قوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ وهم رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ زريق وحبتر ومن تبعهما ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ برسول الله ﷺ.. إلى آخر السورة فيهما».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢) قال: «وحدثنى أبى عن الحسين بن سعيد عن بعض رجاله عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: ما بعث الله نبيًا إلا وفى أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده، فأما صاحبا نوح: فقنطيفوص وخرام، وأما صاحبا إبراهيم: فمكثل ورزام، وأما صاحبا موسى: فالسامرى ومرعقيبا، وأما صاحبا عيسى: فبولس ومريتوس، وأما صاحبا محمد ﷺ: فحبتر وزريق».

وعند تفسيره لأول سورة الفلق قال ما نصه: «الفلق جُبٌّ فى جهنم يتعوذ أهل النار من شدة حره، فسأل الله أن يأذن له أن يتنفس، فأذن له فتنفس فأحرق جهنم، قال: وفى ذلك الجب صندوق من نار يتعوذ أهل الجب من حر ذلك الصندوق، وهو التابوت، وفى ذلك التابوت ستة من الأولين وستة من الآخرين، فأما الستة التى من الأولين: فابن آدم الذى قتل أخاه، ونمرود إبراهيم الذى ألقى إبراهيم فى النار، وفرعون موسى، والسامرى الذى اتخذ العجل، والذى هوَّد اليهود، والذى نصَّر النصارى، وأما الستة التى من الآخرين فهم الأول والثانى والثالث والرابع، وصاحب الخوارج، وابن ملجم، لعنهم الله».

الطعن فى أبى بكر وعمر وعثمان:

ويقول القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ..﴾ (آل عمران: ١٠٦): «عن مالك بن ضمرة عن أبى ذر ـ رحمة الله عليه ـ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يرد علىَّ أمتى يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم ما فعلتم بالثقلين

من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فحرَّفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأما الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم يرد علىَّ راية مع فرعون هذه الأمة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فحرَّفناه ومزقناه وخالفناه، وأما الأصغر فعاديناه وقاتلناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية مع سامرى هذه الأمة، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقول: أما الأكبر فعصيناه وتركناه، وأما الأصغر فخذلناه وضيعناه وصنعنا به كل قبيح، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية ذى الثدية مع أول الخوارج وآخرهم فأسألهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر ففرقناه وبرئنا منه، وأما الأصغر فقاتلناه وقتلناه، فأقول: ردوا النار ظمآء مظمئين مسودة وجوهكم، ثم ترد علىَّ راية مع إمام المتقين وسيد الوصيين وقائد الغر المحجلين ووصى رسول رب العالمين، فأقول لهم: ما فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أما الأكبر فاتبعناه وأطعناه، وأما الأصغر فأحببناه وواليناه وآزرناه ونصرناه حتى أهرقت فيهم دماؤنا، فأقول: ردوا الجنة رواءً مرويين مبيضة وجوهكم، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (آل عمران:١٠٦، ١٠٧)».

الطعن فى عثمان:

قال القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** ﴾ (البقرة: ٨٤): «ذكر أنها نزلت فى أبى ذر وعثمان بن عفان، وكان سبب ذلك لما أمر عثمان بنفى أبى ذر إلى الربذة، دخل عليه أبو ذر رضي الله عنه - وكان عليلاً - متوكئًا على عصاه، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم قد حُملت إليه من بعض النواحى، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم، فقال أبو ذر لعثمان: ما هذا المال؟ فقال عثمان: مائة ألف درهم حُملت إلىَّ من بعض النواحى، أريد أن أضم إليها مثلها، ثم أرى فيها رأيى، فقال أبو ذر: أيا عثمان، أيما أكثر مائة ألف درهم أو أربعة دنانير؟ فقال عثمان: بل مائة ألف درهم،

فقال أبو ذر: أما تذكر إذ أنا وأنت قد دخلنا على رسول الله ﷺ عشاء فرأيناه كئيبًا حزينًا فسلمنا عليه، فلم يرد علينا بسلام، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكا مستبشرًا، فقلنا له: بآبائنا وأمهاتنا، دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبًا حزينًا، ثم عدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشرًا؟! فقال: «نعم، كان قد بقى عندى من فيء المسلمين أربعة دنانير، لم أكن قسمتها وخفت أن يدركنى الموت وهى عندى وقد قسمتها اليوم فاسترحت منها» فنظر عثمان إلى كعب الأحبار وقال له: يا أبا إسحاق، ما تقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة، هل يجب عليه فيما بعد ذلك شيء؟ فقال: لو اتخذ لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شيء، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ثم قال له: يا بن اليهودية الكافرة ما أنت والنظر فى أحكام المسلمين، قول الله أصدق من قولك حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

فقال عثمان: يا أبا ذر، إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، ولولا صحبتك لرسول الله ﷺ لقتلتك، فقال: كذبت يا عثمان، ويلك، أخبرنى حبيبى رسول الله ﷺ، فقال: «يا أبا ذر لا يفتنونك ولا يقتلونك، وأما عقلى فقد بقى منه ما أحفظه، حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ فيك وفى قومك، قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ فىَّ وفى قومى؟ قال: سمعته ﷺ يقول: «إذا بلغ آل أبى العاص ثلاثين رجلاً صيروا مال الله دولا، وكتاب الله دغلا، وعباده خولا، والفاسقين حزبًا، والصالحين حربًا» فقال عثمان: يا معشر أصحاب محمد ﷺ هل سمع أحد منكم هذا من رسول الله؟ فقالوا: سمعنا هذا من رسول الله، فقال عثمان: ادع عليّا، فجاء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال له عثمان: يا أبا الحسن انظر ما يقول هذا الشيخ الكذاب، فقال أمير المؤمنين ـ عليه السلام: يا عثمان، لا تقل كذاب، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: صدق أبو ذر فقد سمعنا هذا من رسول الله ﷺ، فبكى أبو ذر عند ذلك، فقال: ويلكم، كلكم قد مدَّ عنقه إلى هذا المال!

ظننتم أنى أكذب على رسول الله ﷺ، ثم نظر إليهم فقال: من خيركم؟ فقالوا: أنت تقول إنك خـيرنا، قال: نعم، خلفت حـبيبى رسول الله ﷺ فى هذه الجـبة، وهى علىّ بعد، وأنتم قـد أحدثتم أحداثًا كثـيرة، واللهُ سائلكم عن ذلك ولا يسألنـى، فقال عثمان: يا أبا ذر، أسألك بحق رسول الله ﷺ إلا ما أخبرتنى عن شىء أسألك عنه، فقال أبو ذر: والله لو لم تسألنى بحق رسول الله ﷺ لمـا أخبرتك، فقال: أى البلاد أحب إليك أن تكون فيـها؟ فقال: مكة، حرم الله وحـرم رسوله، أعبد الله فيـها حتى يأتينى المـوت، فقال: لا، ولا كـرامة لك، قـال: المدينة، حـرم رسول الله ﷺ، قال: لا، ولا كرامة لك، قال: فسكت أبو ذر، فقال عثمان: أى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها؟ قال: الربذة التى كنت فيها على غير دين الإسلام، فقال عثمان: سر إليها، فقال أبو ذر: قـد سألتنى فصدقـتك، وأنا أسألك فاصدقنى، قـال: نعم، قال أبو ذر: أخبـرنى لو بعثتنى فى بعث أصحـابك إلى المشركـين فأسرونى، فقـالوا: لا نفديه إلا بثلث ما تملك؟ قـال: كنت أفديك، قال: فـإن قالوا: لا نفديـه إلا بنصف ما تملك؟ قال: كنت أفديك، قـال: فإن قالوا: لا نفديه إلا بكل ما تـملك؟ قال: كنت أفديك، قال: أبو ذر: الله أكبـر، قال حبيبى رسول الله ﷺ يومًـا: «يا أبا ذر، كيف إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها؟ فتقـول: مكة حرم الله ورسوله، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت، فيقال لك: لا، ولا كرامة لك، فتقول: فالمدينة، حرم رسول الله ﷺ، فيقال لك: لا، ولا كرامة لك، ثم يقال لك: فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيهـا؟ فتقول: الربذة، التى كنت فـيها على غير دين الإسـلام، فيقال لك: سـر إليها» فقلت: إن هذا لكائن يا رسـول الله؟ فقـال: «إى والــذى نفسـى بيـده لكائـن» فقلت: يا رسـول الله، أفلا أضع سـيفى هذا على عـاتقى فأضرب به قـدمًا قدمًـا؟ قال: «لا، اسمع واسكت، ولو لعبد حبشى، وقد أنـزل الله فيك وفى عثمان آية» فقلت: وما هى يا رسول الله؟ قـال: قوله تبـارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ

منكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٨٤، ٨٥)».

الطعن فى طلحة والزبير رضي الله عنهما:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) قال القمى ما نصه: «عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ قال: نزلت هذه الآية فى طلحة والزبير، والجمل جملهم».

الطعن فى بنى أمية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعام: ٢٧) قال القمى: «نزلت فى بنى أمية، ثم قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام: ٢٨) قال: من عداوة أمير المؤمنين ـ عليه السلام».

وكذلك عند تفسيره للآيات (٤ - ١٠) من سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قال ما نصه: «أى أعلمناهم، ثم انقطعت مخاطبة بنى إسرائيل وخاطب أمة محمد ﷺ فقال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ يعنى فلانًا وفلانًا وأصحابهما ونقضهم العهد ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يعنى ما ادعوه من الخلافة ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾ يعنى يوم الجمل ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يعنى أمير المؤمنين وأصحابه ﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾ أى طلبوكم وقتلوكم ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ يعنى يتم ويكون ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ يعنى بنى أمية على آل محمد ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ من الحسن والحسين أبناء على وأصحابهما فقتلوا الحسين ابن على وسبوا نساء آل محمد ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ يعنى القائم وأصحابه ﴿لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يعنى: يسودون وجوههم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه وأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأصحابه ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أى يعلو عليكم فيقتلوكم،

ثم عطف على آل محمد عليه السلام فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أى ينصركم على عدوكم، ثم خاطب بنى أمية فقال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ يعنى عدتم بالسفيانى عدنا بالقائم من آل محمد ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أى حبسًا يحصرون فيها، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ أى يبين ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى آل محمد ﷺ ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ ثم عطف على بنى أمية فقال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾».

الطعن فى أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة رضي الله عنهم :

وعند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التحريم: ١).

قال فى سبب نزول هذه السورة: «إن رسـول الله ﷺ كان فى بعض بيوت نسائه وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه، وكان ذات يوم فى بيت حفصة، فذهبت حفصة فى حاجة لها فتناول رسول الله ﷺ مارية، فعلـمت بذلك حفصة فغضبت، وأقبلت على رسول الله ﷺ وقالت: يا رسـول الله، هذا فى يومى وفى دارى وعلى فراشى؟ فاستحيـا رسول الله ﷺ منها، فقال: «كفى فقـد حرَّمت مارية على نفسى ولا أطأها بعد هذا أبـدًا، وأنا أفضى إليك سـرّا، فإن أنت أخبـرت به فعليك لعنة الله والـملائكة والناس أجمعـين» فقالت: نعم، ما هو؟ فقال: «إن أبا بكر يلى الخـلافة بعدى ثم من بعده أبوك» فقـالت: من أخبرك بهذا؟ قال: «الله أخبـرنى» فأخبرت حفصـة عائشة من يومهـا ذلك، وأخبـرت عائشة أبـا بكر، فجاء أبو بكـر إلى عمر فـقال له: إن عـائشة أخبرتنى عن حفصة بشىء، ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة، فجاء عمر إلى حفصة، فقال لهـا: ما هذا الذى أخبرت عنك عـائشة؟ فأنكرت ذلك، قالت: مـا قلت لها من ذلك شيئًا، فقال لها عمر: إن كان هذا حقّا فأخبرينا حتى نتقدم فيه، فقالت: نعم، قد قال رسـول الله ذلك، فاجتمـعوا أربعة على أن يسـموا رسول الله، فنزل جـبرئيل على رسول الله ﷺ بهذه السورة»!!.

الطعن فى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦) قال القمى فى سبب نزولها: «نزلت فى مارية القبطية أم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وكان سبب ذلك أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ: إن إبراهيم ليس هو منك، وإنما هو من جريج القبطى، فإنه يدخل إليها فى كل يوم، فغضب رسول الله ﷺ وقال لأمير المؤمنين ـ عليه السلام: «خذ السيف وأتنى برأس جريج» فأخذ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ السيف ثم قال: بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنك إذا بعثتنى فى أمر أكون فيه كالسفود المحماة فى الوبر، فكيف تأمرنى؟ أتثبت فيه أو أمضى على ذلك؟ فقال له رسول الله ﷺ: «بل تثبت» فجاء أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إلى مشربة أم إبراهيم فتسلق عليها، فلما نظر إليه جريج هرب منه وصعد النخلة، فدنا منه أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقال له: انزل، فقال له: يا على! اتق الله ما ههنا أناس، إنى مجبوب، ثم كشف عن عورته، فإذا هو مجبوب، فأتى به إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «ما شأنك يا جريج؟» فقال: يا رسول الله، إن القبط يجبون حشمهم ومن يدخل إلى أهليهم، والقبطيون لا يأنسون إلا بالقبطيين، فبعثنى أبوها لأدخل إليها وأخدمها وأونسها، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ...﴾ (الحجرات: ٦) الآية».

الطعن فى معاوية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥) قال القمى: «قال أبو جعفر: نزلت فى بنى أمية، فهم شر خلق الله هم الذين كفروا فى باطن القرآن فهم لا يؤمنون، قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ فهم أصحابه الذين فروا يوم أحد، قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ نزلت فى معاوية لما خان أمير المؤمنين ـ عليه السلام.

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها:

وعند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ الآيات إلى آخر القصة، نجد القمى يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف عليه بين المفسرين جميعًا، ونراه يجعل العتاب موجهًا إلى عثمان ﷺ، والذى حمله على ذلك هو ما يراه أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجهًا إلى النبى ﷺ، كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منه، أما توجه العتاب إلى عثمان ﷺ وصدور سبب منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره، لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة، ولهذا نراه يقول: «نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم، وكان ابن أم مكتوم مؤذنًا لرسول الله ﷺ، وكان أعمى وجاء إلى رسول الله ﷺ وعنده أصحابه وعثمان عنده فقدمه رسول الله ﷺ فعبس وجهه وتولى عنه فأنزل الله ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يعنى عثمان ﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾».

روايته الأحاديث الموضوعة فى فضائل أهل البيت:

قال القمى عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥): «فإنه حدثنى أبى عن إسماعيل بن ضرار عن يونس بن عبد الرحمن عن هشام عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: كشط له عن الأرض ومن عليها، وعن السماء ومن فيها، والملك الذى يحملها، والعرش ومن عليه، وفعل ذلك برسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام».

وكذلك عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ (النبأ: ٣٨) قال: «الروح ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل وكان مع رسول الله ﷺ، وهو مع الأئمة ـ عليهم السلام».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ (النبأ: ٤٠) قال: «ترابيًا أى علويًا، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: المكنى أمير المؤمنين أبو تراب».

أحاديث مكذوبة فى فضل الأئمة والشيعة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ...﴾ الآيات: (٤٦ - ٤٩) من سورة الأعراف قال القمى: «فإنه حدثنى أبى

عن الحسن بن محبوب عن أبى أيوب عن يزيد عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: الأعراف كثبان بين الجنة والنار، والرجال الأئمة صلوات الله عليهم، يقفون على الأعراف مع شيعتهم، وقد سيق المؤمنون إلى الجنة بلا حساب، فيقول الأئمة لشيعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلى إخوانكم فى الجنة قد سبقوا إليها بلا حساب، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ثم يقال لهم: انظروا إلى أعدائكم فى النار وهو قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فى النار ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ثم يقولون لمن فى النار من أعدائهم: أهولاء شيعتى وإخوانى الذين كنتم أنتم تحلفون فى الدنيا أن لا ينالهم الله برحمة، ثم يقول الأئمة لشيعتهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ قال القمى: «السماء فى هذا الموضع: أمير المؤمنين ـ عليه السلام، والطارق الذى يطرق: الأئمة ـ عليهم السلام ـ من عند ربهم مما يحدث بالليل والنهار، وهو الروح الذى مع الأئمة يسددهم».

أخذ الميثاق على الأنبياء بنصرة أمير المؤمنين وولايته:

قال القمى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢): «حدثنى أبى عن النضر ابن سويد عن يحيى الحلبى عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله: أول من سبق من الرسل إلى «بلى»: محمد رسول الله ﷺ، وذلك أنه كان أقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى، وكان بالمكان الذى قال له جبرئيل لما أسرى به إلى السماء: «تقدم يا محمد فقد وطأت موطئًا لم يطأه ملك مقرب ولا نبى مرسل» ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، فكان من الله عز وجل كما قال الله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٩) أى بل أدنى، فلما خرج الأمر من الله وقع إلى أوليائه عليهم السلام، فقال الصادق: كان الميثاق مأخوذًا عليهم له بالربوبية ولرسوله بالنبوة، ولأمير المؤمنين

والأئمة بالإمامة، فقال: ألست بربكم، ومحمد نبيكم، وعليٌّ إمامكم، والأئمة الهادون أئمتكم؟ فقالوا: بلى شهدنا، فقال الله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: لئلا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢) فأول ما أخذ الله عز وجل الميثاق على الأنبياء له بالربوبية، وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ...﴾ (الأحزاب: ٧) فذكر جملة الأنبياء، ثم أبرز أفضلهم بالأسامى فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد، فقدم رسول الله ﷺ لأنه أفضلهم ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فهؤلاء الخمسة أفضل الأنبياء، ورسول الله ﷺ أفضلهم، ثم أخذ بعد ذلك ميثاق رسول الله ﷺ على الأنبياء بالإيمان به وعلى أن ينصروا أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ (آل عمران: ٨١) يعنى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأخبروا أممكم بخبره وخبر وليه من الأئمة».

خلق الأئمـــة:

قال القمى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ...﴾ (الأنعام: ١١٥) الآية: «إذا خلق الله الإمام فى بطن أمه يكتب على عضده الأيمن ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وحدثنى أبى عن حميد بن شعيب عن الحسن بن راشد قال: قال أبو عبد الله ـ عليه السلام: إن الله إذا أحب أن يخلق الإمام أخذ شربة من تحت العرش من ماء المزن وأعطاها ملكا فسقاها إياه، فمن ذلك يُخلَق الإمام، فإذا وُلِدَ بعث الله ذلك الملك إلى الإمام أن يكتب بين عينيه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإذا مضى ذلك الإمام الذى قبله رفع له منارًا يبصر به أعمال العباد، فلذلك يحتج به على خلقه».

علم الأوليـــاء:

يقول القمى فى تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥): «حدثنى أبى عن عبد الله بن جندب قال: كتبت إلى أبى الحسن الرضا ـ صلوات الله عليه ـ أسأله عن تفسير هذه الآية؟ فكتب إلىَّ

الجواب: أما بعد، فإن محمداً ﷺ كان أمين الله فى خلقه، فلما قُبض النبى كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله فى أرضه، عندنا علم المنايا والبلايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وما من فئة تضل مائة وتهدى مائة إلا ونحن نعرف سائقها وقائدها وناعقها، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله عز وجل علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم إلى يوم القيامة، نحن الآخذون بحجزة نبينا ونبينا الآخذ بحجزة ربنا، والحجزة النور، وشيعتنا آخذون بحجزتنا، من فارقنا هلك، ومن تبعنا نجا، والمفارق لنا والجاحد لولايتنا كافر، ومتبعنا وتابع أوليائنا مؤمن، لا يحبنا كافر، ولا يبغضنا مؤمن، فمن مات وهو يحبنا كان حقًا على الله أن يبعثه معنا، نحن نور لمن تبعنا، وهدًى لمن اهتدى بنا، ومن لم يكن منا فليس من الإسلام فى شىء، بنا فتح الله الدين وبنا يختمه، وبنا أطعمكم الله عشب الأرض، وبنا أنزل الله قطر السماء، وبنا آمنكم الله عز وجل من الغرق فى بحركم، ومن الخسف فى بركم، وبنا نفعكم الله فى حياتكم وفى قبوركم وفى محشركم وعند الصراط وعند الميزان وعند دخولكم الجنان، مثلنا فى كتاب الله عز وجل كمثل مشكاة، المشكاة فى القنديل، فنحن المشكاة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ المصباح محمد ﷺ ﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا دعية ولا منكرة ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ القرآن ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إمام بعد إمام ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فالنور علىٌّ صلوات الله عليه، يهدى لولايتنا من أحب، وحقٌّ على الله أن يبعث ولينا مشرقًا وجهه، منيراً برهانه، ظاهرة عند الله حجته».

الإمام الغائب:

والقمى كغيره من الإمامية يؤمن بالإمام الغائب، وأنه سيخرج فى آخر الزمان، وفند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥) قال: «هو مثل لآل محمد ﷺ: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ هى التى لا يستسقى منها وهو الإمام الذى قد غاب فلا يقتبس منه العلم «والقصر المشيد» هو المرتفع، وهو مثل لأمير المؤمنين - عليه السلام -

والأئمة وفضائلهم لشرفة على الدنيا، وهو قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣) وقال الشاعر فى ذلك:

بئر معطلة وقصر مشرف مثل لآل محمد مستطرف

فالقصر مجدهم الذى لا يرتقى والبئر علمهم الذى لا ينزف»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٥٤) قال: «هو مخاطبة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين غصبوا آل محمد حقهم وارتدوا عن دين الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ نزلت فى القائم ـ عليه السلام ـ وأصحابه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٤٤) قال: «أما قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يعنى فلانًا وفلانًا تركوا ولاية على أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وقد أُمروا به ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعنى دولتهم فى الدنيا وما بسط لهم فيها، وأما قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ يعنى بذلك قيام القائم، حتى كأنهم لم يكن لهم سلطان قط، فذلك قوله ﴿بَغْتَةً﴾ فنزلت بخبره هذه الآية على محمد ﷺ».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣) قال القمى: «فإنها نزلت فى القائم من آل محمد، وهو الذى ذكرناه مما تأويله بعد تنزيله».

التقيــــة:

ولتأثر القمى بعقيدة الإمامية الاثنا عشرية فى التقية نجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (آل عمران: ٢٨) يقول: «فإن هذه الآية رخصة، ظاهرها خلاف باطنها، يدان بظاهرها ولا يدان بباطنها إلا عند التقية، إن التقية رخصة للمؤمن أن يراه الكافر فيصلى بصلاته ويصوم بصيامه إذا اتقاه فى الظاهر، وفى الباطن يدين الله بخلاف ذلك».

الرجعـــــة:

والقمى يؤمـن بعقيدة الرجعة، فلهـذا نـراه عـندما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البـقرة: ٥٥) قال: «فـهم السبعون الذين اختارهم موسى ليـسمعوا كلام الله، فلما سمعـوا الكلام قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جـهرة، فبـعث الله عليهم صاعـقة فاحتـرقوا، ثم أحيـاهم الله بعد ذلك وبعثهم أنبياء، فهذا دليل على الرجـعة فى أمة محمد ﷺ فإنه النبى ﷺ قال: «لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلا وفى أمتى مثله».

وواضح تأثير العقـيدة على القمى فى هذا الاتجاه المنحرف فى تفـسير الآية، ولا أرى فى الآية دليلا ولا شـبه دليل على الرجـعة، ودعوى أنه لم يكن فـى بنى إسرائيل شىء إلا وفى أمة محـمد، ﷺ مثله، دعوى لا تقـوم على أساس من الحق، وليس لها أصل معروف فى الشريعة.

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾ (النمل: ٨٢) قال: «حدثنى أبى عن ابن أبى عمير عن أبى بصير عن أبى عـبد الله ـ عليه السلام ـ قال: انتهى رسـول الله ﷺ إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهو نائم فى المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال له: «قم يا دابة الله» فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله، أيسمى بعضنا بعضًـا بهذا الاسم؟ فقـال: «لا والله ما هو إلا له خاصـة، وهو الدابة التى ذكر الله فى كتـابه ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾» ثم قال: «يا على إذا كان آخر الزمـان أخرجك الله فى أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعـداءك» فقال رجل لأبى عبد الله ـ عليـه السلام: إن الناس يقولون هذه الدابة إنما تُكلمهم؟ فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: كلمهم الله فى نار جهنم، إنما هو يكلمهم من الكلام، والدليل على أن هذا فى الرجـعة قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النـمل: ٨٣، ٨٤) قال: الآيات: أمير المؤمنين والأئمة ـ عليهم السلام، فقال الرجل لأبى عبد الله عليه السلام: إن العامة تزعم أن قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ

من كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ عنى يوم القيامة، فقال أبو عبـد الله ـ عليه السلام: أفيحشر الله من كل أمة فوجا ويدع الباقين؟ لا، ولكنه فى الرجـعة، وأما آية القيامة فهى ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا**﴾ (الكهف: ٤٧) حدثنى أبى عـن ابن أبى عمير عن المفضل عن أبى عبد الله ـ عليه السـلام ـ فى قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا**﴾ قال: ليس أحد من المؤمنين قتل إلا يرجع حتى يمـوت ولا يرجع إلا من محض الإيمان محضًا، ومحض الكفر محضًا».

وكذلك عند تفـسير قـوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ (القـــصص: ٨٥) قال: «قال: يرجع إليكم نبيكم ﷺ وأمـير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والأئمة عليهم السلام».

البـــــداء:

والقمى كغـيره من الإمامية الاثنا عشـرية يقول بعقيدة البـداء، ويدلل عليها بآيات كثيرة من كـتاب الله، فمثلاً عند تفسـيره لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ**﴾ **(الأنعام: ٢)** يقـول: «حدثنى أبى عن النضر بن سويد عن الحلبى عن عبد الله عن مسكان عن أبى عبـد الله ـ عليه السلام ـ قـال: الأجل المقضى هو المـحتوم الذى قـضاه الله وحتمه، والمُسَمَّى هو الذى فيه البداء يقدم ما يشـاء ويؤخر مـا يشـاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخـير، وحدثنى ياسر عن الرضا ـ عليه السلام ـ قـال: ما بعث الله نبيًا إلا بتحـريـم الخـمر، وأن يقـر له بالبـداء، أن يفعل الله ما يشـاء، وأن يكون فى تراثه الكندر».

وقد رد الشيخ الزرقانى فى كتابه: «مناهل العرفان» على القائلين بالبداء فقال:

«البداء فى لغة العرب يطلق على معنيين: **أحدهما:** الظهور بعد الخفاء، **والآخر:** نشأة رأى جديد لم يك موجـودًا، ولعل هذا المعنى الثانى هو الأليق والأوفق والأزوق بمذهب القائلين به ـ قـبحهم الله ـ لأن عباراتهم المأثورة عنهم جـرت هذا المجرى فى الاستعمال دون الاستعمال الأول، كتلك الكلمة التى نسبوها إلى جعفر الصادق ـ ﷺ: «ما بدا الله تعـالى فى شىء كمـا بدا له فى إسماعـيل» هذان معنيـان متقـاربان للبداء، وكلاهما مستحيل على الله تعالى لما يلزمهما من سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل

والحدوث عليه محالان، لأن النظر الصحـيح فى هذا العالم دلنا على أن خالقه ومدبره متصف أزلاً بالعلم الواسع، المطلق، المحيط بكل ما كان وما سيكون وما هو كائن.

فأغمضوا أعينهم عن النظر فى كتاب الكون الناطق، وصموا آذانهم عن سماع كلام الله وكلام نبـيه الصادق، وزعـموا أن النسخ ضرب من البـداء ومستلزم للبـداء، ونسوا وتناسوا أن الله حين ينسخ بعض أحكامـه ببعض، ما ظهر له أمر كان خافـيا عليه، وما نشأ له رأى جديد كان يفـقده من قبل، إنما كان سبـحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أزلا، من قبل أن يشرعهما لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق، ويبرأ السماء والأرض.

اجتمعت اليهود والرافضة على هذه الضلالة، ضلالة استلزام النسخ للبداء، فاليهود أنكروا النسخ، أما الرافضة فأثبتـوا النسخ، ثم أسرفوا فى إثبات هذا البداء اللازم له فى زعمهم، ونسبوه إلى الله فى صراحة ووقاحة ـ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ـ وشتان بين النسخ القـائم على الحكمة ورعاية المصلحة، وبين البداء المـستلزم للجهل وطرو العلم».

الإمام الصامت والإمام الناطق:

والقمى يؤمن بأن الأرض لا تـخلو من إمام حجـة، صامت أو ناطق، فيـقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَـادٍ﴾ (الرعـد: ٧) قال: «حدثنى أبى عن حماد عن أبى بصـير عن أبى عبد الله قال: المنذر: رسول الله ﷺ، والهادى: أمـير المؤمنين، وبعده الأئمـة ـ عليهم السلام ـ وهو قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: فى كل زمان إمام هاد مبين، وهو ردٌّ على من ينكر أن فى كل عصـر وزمان إمامًا وأنه لا تخلـو الأرض من حـجـة كمـا قـال أمير المؤمنين ـ عليه السلام: لا تخلو الأرض من إمام قائم بحجة الله، إما ظاهر مشهور، وإما خائف مقهور، لئلا يبطل حجج الله وبيناته».

رؤيـــــة الله:

اضطربت روايات القمى فى مسألة رؤية الله تعالى فى الآخرة فنراه يثبتها عند تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦) حيث قال: «النظر إلى وجه الله عز وجل».

ثم جرى على مذهب الشيـعة والمعتزلة والخوارج فنفاها عند تفسـير قوله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) حيث قال: «ينظرون إلى وجه الله أي: إلى رحمة الله ونعمته».

التفسير الرمزى:

والقمى فى تفسيره يكثر من ذكر المعانى الباطنية والتفسيرات الرمزية، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم: ٢٤، ٢٥) حيث قال: «عن أبى جعفر الأحول عن سلام بن المستنير عن أبى جعفر - عليه السلام - قال: سألته عن قول الله: ﴿مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ..﴾ الآية قال: الشجرة رسول الله ﷺ أصلها نسبه ثابت فى بنى هاشم، وفرع الشجرة على بن أبى طالب - عليه السلام - وغصن الشجرة فاطمة - عليها السلام - وثمرتها الأئمة من ولد على وفاطمة - عليهم السلام - وشيعتهم ورقها، وإن المؤمن من شيعتنا ليموت فتسقط من الشجرة ورقة، وإن المؤمن ليولد فتورق الشجرة ورقة، قلت: أرأيت قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾؟ قال: يعنى بذلك ما يفتون به الأئمة شيعتهم فى كل حج وعمرة من الحلال والحرام».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥) نجده يذكر أقوالاً لا تعدو أن تكون إلا من وضع الشيعة، فقال: «قول الله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ المشكاة فاطمة عليها السلام ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ﴾ الحسن والحسين ﴿فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كأن فاطمة عليها السلام كوكب درى بين نساء أهل الأرض ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يوقد من إبراهيم عليه وعلى نبينا وآله السلام ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ يعنى لا يهودية ولا نصرانية ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يكاد العلم يتفجر منها ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ إمام منها بعد إمام ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يهدى الله للأئمة من يشاء أن يدخله فى نور ولايتهم مخلصًا ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾».

الإسرائيليات فى تفسير القمى:

هذا وقد مــلأ القمى تفســيره بعجــائب وغرائب الإسرائيلــيات، دون أن يعلق على شــىء منها، فمــثلاً عند تفســير قوله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧) أورد قصة هام بن هام فقال: «هو أبو إبليس، وقال: الجن من ولد الجان منهم مؤمنون ومنهم كــافرون، ويهود ونصارى، وتختلف أديانهــم، والشياطين من ولد إبليس، وليس فيهم مؤمن إلا واحد اســمه «هام بن هيم بن لاقيس بن إبليس» جاء إلى رسول الله ﷺ فرآه جسيمًا عظيمًا وامرءًا مهولا، فقال له: من أنت؟ قال: أنا هام بن هيم بن لاقــيس بن إبلــيس، قال: كــنت يوم قُــتل هابيل غــلامًــا ابن أعــوام أنهى عن الاعتصام، وآمر بإفساد الطعام، فــقال رسول الله ﷺ: «بئس لعمرى الشاب المؤمل والكهل المؤمر» فــقال: دع عنك هذا يا محمد! فقــد جرت توبتى على يد نوح، ولقد كنت معه فى السفــينة فعاتبته على دعائه على قومــه، ولقد كنت مع إبراهيم حيث أُلقى فى النار فجــعلها الله عليه بردًا وسلامًــا، ولقد كنت مع موسى حين أغــرق الله فرعون ونَجَّى بنى إســرائيل، ولقد كنــت مع هود حــين دعا على قومه فعاتبــته، ولقد كنت مع صالح فــعاتبــته على دعــائه على قومــه، ولقد قرأت الكتــب فكلها تبــشرنى بك، والأنبياء يقرئونك السلام ويقولون: أنت أفضل الأنبــياء وأكرمهم، فعلمنى مما أنزل الله عليك شيئًا، فقال رسول الله ﷺ لأميــر المؤمنين ـ عليه السلام: «علمه» فقال هام: يا محمد، إنا لا نطيع إلا نبيا أو وصى نبى، فمن هذا؟ قال: هذا أخى ووصيى ووزيرى ووارثى على بن أبى طالب، قــال: نعم، نجــد اسمــه فى الكتب «إليــا» فعلمــه أميــر المؤمنين ـ عليه السلام ـ فلما كانت ليلة «الهرير» بصــفين جاء إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام».

وعند تفسيــره لقــوله تعــالــى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧) قــال: «عــن أبى عبد الله ـ عليــه السلام ـ قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ غــضب على ملك مِنَ الملائكة فقطع جناحه وألقــاه فى جــزيرة من جــزر البحــر، فبقى مــا شاء الله عز وجل فى ذلك البحر، فلما بعث الله ـ عز وجل ـ إدريس ـ عليــه السلام ـ جاء ذلك الملَك إليه فقال: يا نبى الله، ادع الله أن يرضى عنى ويردَّ جناحى، قال: نعم، فدعا إدريس، فرد الله عز

وجل عليه جناحه ورضى عنه، قال الملك لإدريس: ألك حاجة؟ قال: نعم، أحب أن ترفعنى إلى السماء حتى أنظر إلى ملَك الموت فإنه لا عيش لى مع ذكره، فأخذه الملك على جناحه حتى انتهى به إلى السماء الرابعة وإذا ملك الموت يحرك رأسه تعجبًا، فسلم إدريس ـ عليه السلام ـ على ملك الموت، فقال له: ما لك تحرك رأسك؟ قال: إن رب العزة أمرنى أن أقبض روحك بين السماء الرابعة والخامسة، فقلت: يا رب وكيف هذا وغلظ السماء الرابعة مسيرة خمسمائة عام؟ ومن السماء الرابعة إلى السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام، ومن السماء الثالثة إلى السماء الثانية مسيرة خمسمائة عام، وغلظ السماء الثالثة مسيرة خمسمائة عام، وكل سمائين وما بينهما كذلك، فكيف يكون هذا؟! ثم قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة، وهو قوله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾».

وبالجملة . . . فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه، وتأثره بعقيدة الشيعة، وغلوه وتطرفه فى أفكاره.

* * *

٣- تفسير العياشى

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو: محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى، أبو النضر السمرقندى، المعروف بالعياشى، من كبار فقهاء الشيعة الإمامية.

كان أوحد دهره فى غزارة العلم، وأكثر أهل الشرق علمًا وفضلاً وأدبًا وفهمًا.

روى عن: جعفر بن أحمد، وحمدويه، ومحمد بن نصير، وعبد الله بن محمد بن خالد الطيالسى، وجماعة من شيوخ الكوفيين والبغداديين والقميين.

وتخرَّج عليه فطاحل العلماء كالكشى وغيره.

وروى له الشيخ الطوسى فى كتابيه «التهذيب» و «الاستبصار».

ورُوى أنه أنفق على العلم والحديث تركة أبيه كلها، وكانت ثلاثمائة ألف دينار.

وقد صنف العياشى كتبًا كثيرة تزيد على مائتى كتاب، فى شتى العلوم، كالفقه والحديث والتفسير والكلام والسير، وغير ذلك، منها: الطهارات الكبير، الصلاة، الصوم، الزكاة، المناسك، النكاح، الطلاق، التجارة والكسب، الذبائح، القضاء وآداب الحكم، المواريث، المسح على القدمين، التفسير، وهو ما نحن بصدد دراسته، سيرة أبى بكر، سيرة عمر، سيرة عثمان، البشارات، التوحيد والصفة، الإيمان، فرض طاعة العلماء، البداء، ودلائل الأئمة، وغيرها.

توفى العياشى فى حدود سنة عشرين وثلاثمائة.

التعريف بالتفسير:

جمع العياشى فى تفسيره ما أُثر ـ عنده ـ عن أئمة أهل البيت فى تفسير القرآن، غير أن هذا التفسير لم يصل إلينا إلا مبتوراً فقد بتره أولاً ناسخه، حيث أسقط الأسانيد، واقتصر على متون الأحاديث، معتذراً بأنه لم يجد فى دياره من يكون عنده سماع أو إجازة من المؤلف، فلذلك حذف الأسانيد واكتفى بالمتون، ومِن ثَمَّ قال المجلسى بشأنه: «إن اعتذاره هذا أشنع من فعلته بحذف الأسانيد».

---

(١) **مصادر الترجمة:** أعيان الشيعة (١٠/ ٥٦)، الذريعة (٤/ ٣٩٥)، الفهرست لابن النديم ١٩٤، الأعلام للزركلى (٧/ ٩٥).

والجهة الأخرى فى بتر الكتاب: عدم العثور على الجزء الثانى من جزئى التفسير، حيث انتهى ما وصل إلينا إلى آخرة سورة الكهف.

وقد نقل الحافظ عـبيد الله بن عبد الله الحاكم الحسكانى الـنيسابورى ـ من أعلام القرن الخامس، ومن شيوخ مشايخ العلامة الطبـرسى، صاحب تفسير «مجمع البيان» ـ الكثير عن تفسير العياشى، فى كتابه: «شواهد التنزيل» ويوردها بالأسانيد التامة، وربما كانت عنده من هذا التفسير نسخة كاملة.

والكتاب طُبع عدة مرات، وقدم العياشى لتفسيره بعدة أبواب ذكر فيها فضل القرآن وأن له ظهرًا وبطنًا، وأورد عدة أحاديث منها ما رواه جـعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه «قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إنكم فى زمـان هدنة وأنتم على ظهر السفر، والسيـر بكم سـريع، فقـد رأيتم الليل والنهـار والشـمس والقمـر يبليان كل جـديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدوا الجهاز لبعد المفاز» فقام المقداد فقال: يا رسول الله ما دار الهـدنة؟ قال: «دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست علـيكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفـع، وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعلـه خلفه ساقه إلى الـنار، وهو الدليل يدل على خير سـبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيـان وتحصيل، وهو الفصل، ليس بالهزل، له ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم، لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مـصابيح الهدى ومنازل الحكمة ودليل على المعروف لمن عرفه».

ثم أورد عدة أحاديث تحت باب: «ترك رواية التى بخلاف القرآن».

ثم ذكر بابًا فى أن القرآن نزل فى آل البيت، وفى عـدوهم فقال: «عن أبى الجارود قال: سمـعت أبا جعفر عليه السلام يقول: نزل القرآن عـلى أربعة أرباع: ربع فينا، وربع فى عدونا، وربع فرائض وأحكام، وربع سنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن».

وقال: «وعن الأصبغ بن نباتة قال: سمـعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفى عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام».

وقال: «عن عـبد الله بن بكيـر، عن أبى عبد الله عليه السلام، قـال: نـزل القـرآن بإياك أعـنى واسـمعى يا جارة».

وقال: «عن محمد بن خالد بن الحجاج الكرخى عن بعض أصحابه رفعه إلى خيثمة قال: قال أبو جعفر: يا خيثمة القرآن نزل أثلاثًا: ثلث فينا وفى أحبائنا، وثلث فى أعدائنا وعدو من كان قبلنا، وثلث سُنة ومثل، ولو أن الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شىء، ولكن القرآن يجرى أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكل قوم آية يتلونها وهم منها من خير أو شر».

ثم ذكر بابًا فى: «تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه» فقال:

«عن إبراهيم بن عمر قال: قال أبو عبد الله: إن فى القرآن ما مضى وما يحدث وما هو كائن، كانت فيه أسماء الرجال فأُلقيت، وإنما الاسم الواحد منه فى وجوه لا يحصى، يعرف ذلك الوصاة».

«عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبى عبد الله ﵇: إن الأحاديث تختلف عنكم؟! قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، أدنى ما للإمام أن يفتى على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة ص: ٣٩)».

ثم ذكر ما عنى به الأئمة من القرآن فقال:

«عن محمد بن مسلم قال: أبو جعفر - عليه السلام: يا محمد، إذا سمعت الله ذكر أحدًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا».

«وعن داود بن فرقد عمن أخبره عن أبى عبد الله ﵇ قال: لو قد قرئ القرآن كما أُنزل لألفيتنا فيه مسمين».

«وعن ميسر عن أبى جعفر ﵇ قال: لولا أنه زيد فى كتاب الله ونقص منه ما خفى حقنا على ذى حجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدق القرآن».

ثم ذكر بابًا فى: علم الأئمة بالتأويل فقال:

«عن سليم بن قيس الهلالى قال: سمعت أمير المؤمنين ﵇ يقول: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها علىَّ فأكتبها بخطى، وعلمنى تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لى أن يعلمنى فهمها

وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علم إملائه على فكتبته منذ دعا لى بما دعا، وما ترك شيئًا علمه الله من حـلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى كان أو لا يكون من طاعة أو معصيـة إلا علمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفًـا واحدًا، ثم وضع يده على صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علمًـا وفهمًا وحكمة ونورًا، لم أنس شيـئًا، ولم يفتنى شىء لم أكتبه، فقلت: يا رسول الله، أوتخوفت علىَّ النسيان فيما بعد؟ فقال: «لست أتخوف».

«عن بشير الدهان قـال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقـول: إن الله فرض طاعتنا فى كتابه فلا يسع الناس جهلا، لنا صفو المال، ولنا الأنفال، ولنا كرائم القرآن، ولا أقول لكم: إنَّا أصـحاب الغيب، ونعلم كـتاب الله، وكـتاب الله يحتـمل كل شىء، إن الله أعلمنا علمًا لا يعلمه أحد غـيره، وعلما قد أعلمه ملائكته ورسله، فمـا علمته ملائكته ورسله فنحن نعلمه».

التحريف فى القرآن:

ولما كان العيـاشى من غلاة الشيعة الذين يقولون بالتـحريف فى القرآن فنراه يقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ (البـقـرة: ٧٩) يقول: «عن محـمد بن سالم مسلم عن أبى بصـير قال: قال جـعفر بن محمد: خرج عـبد الله بن عمرو بن العاص من عند عثمان فلقى أمـير المؤمنين، فقال له: يا على، بيتنا الليلة فى أمر نرجو أن يثبت الله هذه الأمـة، فقال أمير المؤمنين: لن يخفى علىَّ مـا بيتم فيـه، حرَّفتم وغـيَّرتم وبدَّلتم تسع مـائة حرف، ثلاثمائة حـرَّفتم، وثلاثمائة غيَّرتم، وثلاثمائة بدَّلتم».

وعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ...**﴾ (البـقـرة: ١٠٦) يقول: «عن عمـر بن يزيد قال: سـألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ...**﴾ فقال: كذبوا ما هكذا هى إذا كان ينسى وينسخها أو يأت بمثلها لم ينسـخها، قلت: هكذا قال الله؟ قال: ليس هكذا قال تبارك وتعالى، قلت: فكيف قال؟ قال: ليس فيها ألف ولا واو، قال: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها مثلها» يقول: ما نميت من إمام أو ننسه ذكره نأت بخير منه من صلبه مثله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١) الآية، قال العياشى ما نصه: «عن حبيب السجستانى قال: سألت أبا جعفر ﷺ عن قول الله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ...﴾ فكيف يؤمن موسى بعيسى وينصره ولم يدركه؟ وكيف يؤمن عيسى بمحمد ﷺ وينصره ولم يدركه؟ فقال: يا حبيب إن القرآن قد طُرح منه آى كثيرة ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة وتوهمها الرجال، وهذا وَهْمٌ، فاقرأها «وإذا أخذ ميثاق أمم النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه» هكذا أنزلها الله يا حبيب، فوالله ما وفَّت أمة من الأمم التى كانت قبل موسى بما أخذ الله عليها من الميثاق لكل نبى بعثه الله بعد نبيها، ولقد كذبت الأمة التى جاءها موسى لما جاءها موسى ولم يؤمنوا به ولا نصروه إلا القليل منهم، ولقد كذبت أمة عيسى بمحمد ﷺ ولم يؤمنوا به ولا نصروه لما جاءها إلا القليل منهم، لقد جحدت هذه الأمة بما أخذ عليها رسول الله ﷺ من الميثاق لعلى بن أبى طالب ﷺ يوم أقامه للناس ونصبه لهم ودعاهم إلى ولايته وطاعته فى حياته، وأشهدهم بذلك على أنفسهم، فأى ميثاق آكد من قول رسول الله ﷺ فى على بن أبى طالب ﷺ، فوالله ما وفوا به بل جحدوا وكذبوا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠) قال العياشى ما نصه: «عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابه عن أبى عبد الله ﷺ قال فى قراءة على ﷺ: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» قال: هم آل محمد ﷺ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (آل عمران: ١٢٣) قال ما نصه: «عن أبى بصير قال: قرأت عند أبى عبد الله ﷺ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فقال: ليس هكذا أنزلها الله إنما أنزلت «وأنتم قليل»».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ (الأعراف: ١٧٢) قال: «عن جابر قال: قال لى أبو جعفر ﷺ: يا جابر لو يعلم الجهال

متى سُمى أمير المؤمنين عليٌّ لم ينكروا حـقه، قال: قلت: جُعلت فداك، متى سُمى؟ فقال لى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ إلى: «ألست بربكم وأن محمدًا نبيكم وأن عليا أميـر المؤمنين» قال: ثم قال لى: يا جابر، هكذا والله جاء بها محمد ﷺ».

الجفـــــر:

والعياشى كغيره من الإمامية يؤمن بالجفر، ويقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٤٥) «عن أبى حمزة عن أبى عبد الله ؓ قال فى الجفـر: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل الألواح على موسى ـ عليه السلام ـ أنزلهـا عليه وفيها تـبيان كل شىء كان أو هو كائن إلى أن تقـوم الساعة، فلما انقـضت أيام موسى أوحى الله إليه أن استـودع الألواح ـ وهى زبرجدة من الجنة ـ جبلا يقال له: زينة، فـأتى موسى الجبل فانشق له الجبل، فجعل فـيه الألواح ملفوفة، فلما جـعلها فيـه انطبق الجبل عليهـا، فلم تزل فى الجبل حتى بعـث الله نبيه محـمدًا ﷺ، فأقـبل ركب من اليمن يريدون الرسول ﷺ، فلمـا انتهوا إلى الجـبل انفرج الجبل وخرجت الألواح ملفـوفة كما وضعـها موسى، فأخذها القـوم، فلما وقعت فى أيديهـم ألقى الله فى قلوبهم الرعب أن لا ينظروا إليها وهابوها حتى يأتوا بها رسول الله ﷺ، وأنزل الله جبرئيل عـلى نبيه فأخبـره بأمر القوم، وبالذى أصابوه، فلمـا قدموا على النبى ﷺ ابتدأهم فـسألهم عما وجـدوا، فقالوا: وما علمك بمـا وجدنا؟ قال: «أخبرنى بـه ربى، وهو الألواح» قالوا: نشهد إنك لرسـول الله، فأخرجوها فـوضعوها إليه، فنظر إليها وقـرأها، وكانت بالعبرانى، ثم دعا أميـر المؤمنين ؓ فقال: «دونك هذه، ففيها علم الأولين وعلم الآخرين، وهى ألواح موسى، وقد أمرنى ربى أن أدفعها إليك» فقال: يا رسول الله، لست أُحسن قراءتهـا، قال: «إن جبرئيل أمرنى أن آمرك أن تضعهـا تحت رأسك هذه الليلة فإنك تصبح وقـد عُلِّمتَ قراءتها» قال: فجـعلها تحت رأسه فأصبح وقد علَّمه الله كل شىء فيها، فأمره رسول الله ﷺ بنسخها فنسخها فى جلد شاة، وهـو الجفر، وفـيه علم الأولين والآخـرين، وهو عندنا، والألواح عندنا، وعصا موسى عندنا، ونحن ورثنا النبيين صلى الله عليهم أجمعين، قال: قال أبو جعفر

ـ عليه السلام: تلك الصخرة التي حفظت ألواح موسى تحت شجرة في واد يعرف بكذا».

علم الحروف التي في أوائل السور:

يقول العياشي عند تفسيره لأول سورة الأعراف: «عن أبي جمعة رحمة بن صدقة قال: أتى رجل من بني أمية ـ وكان زنديقًا ـ إلى جعفر بن محمد عليه السلام فقال له: قول الله في كتابه: ﴿الٓمٓصٓ﴾ أي شيء أراد بهذا، وأي شيء فيه من الحلال والحرام، وأي شيء في ذا مما ينتفع به الناس؟! قال: فأغاظ ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال: أمسك ويحك، الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، كم معك؟ فقال الرجل: مائة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد عليه السلام: إذا انقضت سنة إحدى وستين ومائة ينقضي ملك أصحابك، قال: فنظرنا فلما انقضت إحدى وستون ومائة يوم عاشوراء دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم».

ويقول: «عن خيثمة الجعفي عن أبي لبيد المخزومي قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا لبيد إنه يملك من ولد العباس اثنا عشر، يقتل بعد الثامن منهم أربعة، فتصيب أحدهم الذبحة فتذبحه، هم فئة قصيرة أعمارهم، قليلة مدتهم، خبيثة سيرتهم، منهم الفويسق الملقب بالهادي، والناطق والغاوي، يا أبا لبيد إن حروف القرآن المقطعة لعلمًا جمّا، إن الله تبارك وتعالى أنزل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ...﴾ (البقرة: ١، ٢) فقام محمد ﷺ حتى ظهر نوره وثبتت كلمته، وولد يوم ولد، وقد مضى من الألف السابع مائة سنة وثلاث سنين، ثم قال: وتبيانه في كتاب الله في الحروف المقطعة إذا عددتها من غير تكرار، وليس من حروف مقطعة حرف ينقضي أيام الأيام إلا وقائم من بني هاشم عند انقضائه، ثم قال: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فذلك مائة وإحدى وستون، ثم كان بدو خروج الحسين بن علي عليه السلام ﴿الٓمٓ ۝١ اللَّهُ﴾ فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند ﴿الٓمٓصٓ﴾، ويقوم قائمنا عند انقضائها بـ ﴿الٓر﴾ فافهم ذلك وعه واكتمه».

قال المؤلف: ومن ذا الذي قال: إن القرآن يخضع في تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجُمل؟! اللهم إن هذا لا يصدر إلا عن مخرف متلاعب بكتاب الله.

ولايـــــة على:

والقمى يدين بولاية **على** ﷺ، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ الآية، قال: «عن زياد بن المنذر أبى الجارود صاحب الدمدمة الجارودية قال: كنت عند أبى جعفر محمد بن على ﷺ بالأبطح وهو يحدث الناس، فقام إليه رجل من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعشى، كان يروى عن الحسن البصـرى، فقال: يا بن رسول الله، جُعلت فداك، إن الحسن البـصرى يحدثنا حـديثًا يزعم أن هذه الآية نزلت فى رجل، ولا يخبرنا مَن الرجلُ ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ تفسيرها: أتخشى الناس؟ فالله يعـصمك من الناس، فقال أبو جعفر ﷺ: ما له؟ لا قضى الله دينه - يعنى صلاته، أما أن لو شـاء أن يخبر به أخبر به، إن جبرئيل هبط على رسول الله ﷺ فقال له: إن ربك تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم، فـدله على الصلاة واحتج بها عليـه، فدل رسول الله ﷺ أمتـه عليها واحتج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبـارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك من زكاتهم على مثل ما دللتـهم عليه من صلاتهم، فدله على الزكاة واحتج بهـا عليه، فدل رسول الله ﷺ أمتـه على الزكاة، واحتج بهـا عليهم، ثم أتاه جـبرئيل فقـال: إن الله تبارك وتعالى يـأمرك أن تدل أمتك من صـيامـهم، على مثل مـا دللتهم عليه مـن صلاتهم، وزكاتهم، شهـر رمضان، بين شعبان وشـوال، يؤتى فيه كذا، ويجتنب فيـه كذا، فدله على الصـيام واحتج بهـا عليه، فـدل رسول الله ﷺ أمـته على الصـيام واحتـج بها عليهم، ثم أتاه فقال: إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تدل أمتك من وليهم، على مثل ما دللتهم عليه فى صـلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم، قـال: فقال رسول الله ﷺ: «ربِّ، أمتى حديـثو عهد بجاهلـية» فأنزل الله: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ تفسيرها: أتخشى الناس؟ فالله يعصمك من الناس، فقام رسول الله ﷺ فأخذ بيد عـلى بن أبى طالب فرفـعها فـقال: «مَن كنت مـولاه فعلىٌّ مـولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه».

و «عن جابر بن أرقم قال: بينا نحن فى مـجلس لنا وأخو زيد بن أرقم يحدثنا إذا

أقبل رجل على فرسه، عليه هيئة السفر، فسلم علينا ثم وقف، فقال: أفيكم زيد بن أرقم؟ فقال زيد: أنا زيد بن أرقم، فما تريد؟ فقال الرجل: أتدرى من أين جئت؟ قال: لا، قال: من فسطاط مصر لأسألك عن حديث بلغنى عنك تذكره عن رسول الله ﷺ، فقال له زيد: وما هو؟ قال: حديث «غدير خم» فى ولاية على بن أبى طالب ﵁، فقال: يا بن أخى إن قبل غدير خم ما أحدثك به، أن جبرئيل ـ الروح الأمين عليه السلام ـ نزل على رسول الله ﷺ بولاية على بن أبى طالب ﵁، فدعا قومًا ـ أنا فيهم ـ فاستشارهم فى ذلك ليقوم به فى الموسم، فلم نَدْر ما نقول له، وبكى ﷺ، فقال له جبرئيل: ما لك يا محمد، أجزعت من أمر الله؟ فقال: «كلا يا جبرئيل، ولكن قد علم ربى ما لقيت من قريش، إذ لم يقروا لى بالرسالة حتى أمرنى بجهادى، وأهبط إلىَّ جنودًا من السماء فنصرونى، فكيف يقروا لى لعلىٍّ من بعدى؟ فانصرف عنه جبرئيل ثم نزل عليه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ (هود: ١٢) فلما نزلنا الجحفة راجعين وضربنا أخبيتنا نزل جبرئيل، عليه السلام، بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا رسول الله ﷺ وهو ينادى: «يا أيها الناس أجيبوا داعى الله، أنا رسول الله» فأتيناه مسرعين فى شدة الحر، فإذا هو واضع بعض ثوبه على رأسه وبعضه على قدميه من الحر، وأمر بِقَمٍّ ما تحت الدُّوح، فقُمَّ ما كان ثمة من الشوك والحجارة، فقال رجل: ما دعاه إلى قَمٍّ هذا المكان وهو يريد أن يرحل من ساعته، ليأتينكم اليوم بداهية، فلما فرغوا من القَمِّ أمر رسول الله ﷺ أن يؤتى بأحلاس دوابنا وأثاث إبلنا وحقائبها فوضعنا بعضها على بعض، ثم ألقينا عليها ثوبًا، ثم صعد عليها رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنه نزل علىَّ عشية عرفة أمرٌ ضقت به ذرعًا مخافة تكذيب أهل الإفك، حتى جاءنى فى هذا الموضع وعيد من ربى إن لم أفعل، ألا وإنى غير هائب لقوم، ولا محابٍ لقرابتى، أيها الناس، من أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: الله ورسوله، قال: «اللهم اشهد، وأنت يا جبرئيل فاشهد» حتى قالها ثلاثًا، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب ﵁ فرفعه إليه، ثم قال: «اللهم مَن كنت مولاه فعلىٌّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله» قالها ثلاثًا، ثم

قال: «هل سمعتم؟» فقالوا: اللهم بلى، قال: «فأقررتم؟» قالوا: اللهم نعم، ثم قال: «اللهم اشهد، وأنت يا جبرئيل فاشهد» ثم نزل فانصرفنا إلى رحالنا، وكان إلى جانب خبائي خباء نفر من قريش، وهم ثلاثة، ومعي حذيفة بن اليمان، فسمعنا أحد الثلاثة وهو يقول: والله إن محمدًا لأحمق إن كان يرى أن الأمر يستقيم لعلي من بعده، وقال آخرون: أتجعله أحمق، ألم تعلم أنه مجنون، قد كاد أن يصرع عند امرأة ابن أبي كبشة، وقال الثالث: دعوه، إن شاء أن يكون أحمق، وإن شاء أن يكون مجنونًا، والله ما يكون ما يقول أبدًا، فغضب حذيفة من مقالتهم فرفع جانب الخباء فأدخل رأسه إليهم وقال: فعلتموها ورسول الله ﷺ بين أظهركم، ووحي الله ينزل عليكم، والله لأخبرنه بكرة بمقالتكم، فقالوا له: يا أبا عبد الله وإنك لههنا، وقد سمعت ما قلنا؟ اكتم علينا، فإن لكل جوار أمانة، فقال لهم: ما هذا من جوار الأمانة ولا من مجالسها، ما نصحتُ الله ورسوله إن أنا طويت عنه هذا الحديث، فقالوا له: يا أبا عبد الله فاصنع ما شئت، فوالله لنحلفن أنَّا لم نقل، وإنك قد كذبت علينا، أفتراه يصدقك ويكذبنا ونحن ثلاثا؟ فقال لهم: أما أنا فلا أبالي إذا أديت النصيحة إلى الله وإلى رسوله فقولوا ما شئتم أن تقولوا، ثم مضىٰ حتى أتى رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام إلى جانبه، محتبٍ بحمائل سيفه فأخبره بمقالة القوم، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأتوه، فقال لهم: «ماذا قلتم؟» فقالوا: والله ما قلنا شيئًا، فإن كنت بُلِّغتَ عنا شيئًا فمكذوب علينا، فهبط جبرئيل بهذه الآية: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**﴾ (التوبة: ٧٤) وقال لعلي عليه السلام عند ذلك: «ليقولوا ما شاءوا، والله إن قلبي بين أضلاعي، وإن سيفي لفي عنقي، ولئن هموا لأهمن» فقال جبرئيل للنبي ﷺ: اصبر للأمر الذي هو كائن، فأخبر النبي ﷺ عليا عليه السلام بما أخبره به جبرئيل، فقال: إذًا أصبر للمقادير».

عرض ولاية علي عليه السلام على آدم عليه السلام:

يقول العياشي عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ**﴾ ما نصه: «عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ عرض على آدم في الميثاق ذريته، فمر به النبي ﷺ وهو متكئ على عليٍّ عليه السلام، وفاطمة

تتلوهما، والحسن والحسين ﷺ يتلون على فاطمة، فقال الله: يا آدم، إياك أن تنظر إليهم بحسد أهبطك من جوارى، فلما أسكنه الله الجنة مثل له النبى وعلىٌّ وفاطمة والحسن والحسين، فنظر إليهم بحسد، ثم عُرضت عليه الولاية فأنكرها، فرمته الجنة بأوراقها، فلما تاب إلى الله من حسده وأقر بالولاية ودعا بحق الخمسة: محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين، غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ...﴾ (البقرة: ٣٧) الآية».

روايته للأحاديث المكذوبة فى فضائل أهل البيت:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ (الرعد: ٣٩) قال: «عن إبراهيم بن أبى يحيى عن جعفر بن محمد ﷺ قال: ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته، فإن علم الله أنه من شيعتنا حجبه عن ذلك الشيطان، وإن لم يكن من شيعتنا أثبت الشيطان إصبعه السبابة فى دبره فكان مأبونًا، وذلك أن الذكر يخرج للوجه، فإن كانت امرأة أثبتت فى فرجها فكانت فاجرة، فعند ذلك يبكى الصبى بكاء شديدًا إذا هو خرج من بطن أمه، والله بعد ذلك يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب».

والذى يقرأ الرواية لا يسعه أمام ما فيها إلا أن يحكم بأنها موضوعة، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الإمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع، وينقصهم الذوق وتعوزهم المهارة، وإلا فأى ذوق وأى مهارة فى تلك الرواية التى أوردها العياشى واختلقها على العبد الصالح جعفر الصادق ﷺ؟!.

القائم:

والعياشى يدين بالقائم، ومتأثر بهذه العقيدة، فنجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ١٤٨) قال ما نصه: «عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله ﷺ: إذا أوذن الإمام دعا الله باسمه العبرانى الأكبر فانتحيت له أصحابه الثلاثمائة والثلاثة عشر قزعًا كقزع الخريف وهم أصحاب الولاية، ومنهم من يُفتقد من فراشه ليلا فيصبح بمكة، ومنهم من يُرى يسير فى السحاب نهارًا، يُعرف باسمه واسم أبيه وحسبه ونسبه، قلت: جُعلت فداك، أيهم أعظم إيمانًا؟ قال: الذى يسير فى السحاب نهارًا، وهم المفقودون، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ (البقرة: ٢٦١) قال: «وعن المفضل بن محمد الجعـفى قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ قال: «الحبة فاطمة، والسبع السنابل سبعة من ولدها سابعهم قائم، قلت: الحسن؟ قـال: إن الحسن إمام من الله مـفترض طاعتـه ولكن ليس من السنابل السبعة، أولهم الحسين وآخرهم القائم، فقلت قوله: ﴿فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ قال: يولد الرجل منهم فى الكوفة مائة من صلبه وليس ذاك إلا هؤلاء السبعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧) قال: «عن يونس بن عبد الرحمن عمن ذكـره، رفعه قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال: إن ظاهرها الحمد وباطنها ولد الولد، والسابع منها القائم».

جفنة القائم:

وعـنـد تفسـيـر قـوله تعالـى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ (آل عمران: ٣٧) قال العياشى ما نصه: «عن سيف عن نجم عن أبى جعفر ﷺ قال: إن فاطمة ﷺ ضـمنت لعلى ﷺ عمل البيت والعـجين والخبز وقم البيـت، وضمن لها على ﷺ ما كان خلـف البـاب من نقـل الحطب وأن يجىء بالطعـام، فقال لها يومًا: يا فاطمـة هل عندك شىء؟ قالت: لا والذى عظَّم حقك، مـا كان عندنا منذ ثلاثة أيام شىء نقريك به، قـال: أفلا أخبرتنـى؟ قالت: كان رسول الله ﷺ نهـانى أن أسألك شيئًـا، فقال: «لا تسألى ابن عمك شيـئًا، إن جاءك بشىء عفو وإلا فلا تسـأليه» قال: فخرج الإمام على ﷺ فلقى رجلا فاستقرض منه ديناراً، ثم أقبل به وقد أمسى، فلقى المقداد بن الأسـود، فقال للمقـداد: ما أخرجك فى هذه الساعـة؟ قال: الجوع والذى عظم حقك يا أميـر المؤمنين، قال: قلت لأبى جعفـر: ورسول الله ﷺ حىٌّ؟ قال: ورسول الله ﷺ حىٌّ، قـال: فهـو أخرجنى، وقد اسـتقرضت ديـناراً وسأوثرك به، فدفعه إليه، فأقبل فوجد رسـول الله ﷺ جالسًا وفاطمة تصلى وبينهما شىء مغطى، فلما فرغت أحـضرت ذلك الشىء، فإذا جفنة من خبز ولحم، قـال: يا فاطمة أنَّى لك هذا؟ قـالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغـير حـساب، فـقال رسـول الله

ﷺ: «ألا أحدثك بمثلك ومثلها» قال: بلى، قال: «مثل زكريا إذا دخل على مريم في المحراب فوجد عندها رزقًا، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» فأكلوا منها شهرًا، وهى الجفنة التى يأكل منها القائم، وهى عندنا».

الأوصياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل: ١٦) يقول: «عن معلى بن خنيس عن أبى عبد الله ﵇ فى قوله: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قال: النجم: رسول الله ﷺ، والعلامات: الأوصياء بهم يهتدون».

علم الأئمة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤) قال العياشى: «عن محمد بن يزيد قال: سألت أبا عبد الله ﵇ عن قول الله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ فقال: رسول الله ﷺ أصلها، وأمير المؤمنين ﵇ فرعها، والأئمة من ذريتهما أغصانها، وعلم الأئمة ثمرها، وشيعتهم ورقها، فهل ترى فيها فضلا؟ قلت: لا والله، قال: والله إن المؤمن ليموت فتسقط ورقة من تلك الشجرة، وإنه ليولد فتورق ورقة فيها، قال: قلت: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ (إبراهيم: ٢٥) قال: يعنى ما يخرج إلى الناس من علم الإمام فى كل حين يسأل عنه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ (النحل: ٦٧) قال: «عن مسعدة بن صدقة عن أبى عبد الله ﵇ فى قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ إلى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩) فالنحل الأئمة، والجبال العرب، والشجر الموالى عتاقه ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يعنى الأولاد والعبيد ممن لم يعتق، وهو يتولى الله ورسوله والأئمة، والثمرات المختلف ألوانه فنون العلم الذى قد يعلم الأئمة شيعتهم، ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يقول فى العلم شفاء للناس، والشيعة هم الناس، وغيرهم الله أعلم بهم ما هو، ولو كان كما يزعم أنه العسل الذى يأكله الناس إذًا ما أكل منه ولا شرب ذو عاهة إلا برئ لقول الله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ولا خلف لقول الله، وإنما

الشفاء فى علم القـرآن لقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسـراء: ٨٣) فهو شفاء ورحمة لأهـله لا شك فيه ولا مرية. وأهله الأئمة الهدى الذين قال الله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة: ١٢٩)».

نزول السكينة على الأوصياء:

يقول العياشى عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ...﴾ (التـوبة: ٤٠) الآية، يقول ما نصه: «عـن العباس بن هلال عن أبى الحسن الرضا ﷺ قال: سـمعته وهو يقول للحسن: أى شىء السكينة عندكم؟ وقرأ: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فقال له الحسن: جُعلت فداك لا أدرى، فأى شىء؟ قال: ريح تخرج من الجنة طيبة لها صورة كصورة وجـه الإنسان، قال: فتكون مع الأنبـياء، فقال له على بن أسـباط: تنزل على الأنبياء والأوصياء؟! فقال: تنزل على الأنبياء والأوصياء».

طعنه على الصحابة:

وإنا لنلاحظ على المـؤلف أنه يطعن على الصحـابة ويرميـهم بالكفر أو مـا يقرب منه، ويجردهم من كل فضل نُسِب إليهم فى القرآن، تنقيصًا لهم، وحطا من قدرهم.

الطعن فى أبى بكر وعمر وعثمان:

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ١٢٤) يقول العياشى: «عن صفوان الجمال قال: كنا بمكة فجرى الحديث فى قول الله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ قال: أتمهن بمحمد وعلىٍّ والأئمة من ولد علىٍّ ﷺ، فى قول الله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ٣٤) ثم قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قال: يا رب، ويكون من ذريتى ظالم؟ قال: نعم، فلان وفلان وفـلان ومن اتبعهم، قال: يا رب فـعجِّل لمحمد وعـلىٍّ ما وعدتنى فيهما، وعجِّل نصرك لهما، وإليها أشار بقوله: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فالملة: الإمامة فلما أسكن ذريته بمكة قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ﴾ فاستثنى من آمن خوفًا أن يقول له لا، كـما قال له فى الدعوة الأولى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ

عَهْدِى الظَّالِمِينَ﴾ فلما قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ قال: يا رب ومن الذين متعتهم؟ قال: الذين كفروا بآياتى فلان وفلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ....﴾ (البقرة: ٢٠٤) الآية، قال ما نصه: «عن الحسين بن بشار قال: سألت أبا الحسن ﷺ عن قول الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: فلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً ..﴾ (البقرة: ٢٠٨) الآية، قال ما نصه: «عن أبى بصير قال: سمعت أبا عبد الله ﷺ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً﴾ قال: أتدرى ما السِّلم؟ قال: قلت: أنت أعلم، قال: ولاية علىٍّ والأئمة الأوصياء من بعده، قال: وخطوات الشيطان والله: ولاية فلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ..﴾ (آل عمران: ٧) الآية قال ما نصه: «عن عبد الرحمن بن كثير الهاشمى عن أبى عبد الله ﷺ فى قول الله: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ قال: أمير المؤمنين والأئمة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فلان وفلان وفلان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٦٥) قال العياشى فى سبب نزولها: نزلت فى التيمى والعدوى والعشرة معهما أنهم اجتمعوا اثنا عشر، فكمنوا لرسول الله ﷺ فى العقبة وائتمروا بينهم ليقتلوه، فقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول: إنما كنا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن لنقتلنه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فقال الله لنبيه ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ يعنى محمدًا ﷺ ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ يعنى عليًا أن يعفو عنهما فى أن يلعنهما على المنابر ويلعن غيرهما، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ...﴾ (الحجر: ٤٤) الآية، قال: «عن

أبى بصير عن جـعفر بن محمـد ﷺ قال: يؤتى بجهنم لها سبـعة أبواب، بابها الأول للظالم وهو زريق، وبابهـا الثانى لحبتـر، والباب الثالث لـلثالث، والرابع لمـعاوية، والباب الخامس لعـبد الملك، والباب السادس لعسكر بن هوسـر، والباب السابع لأبى سلامة، فهم أبواب لمن اتبعهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ (النساء: ١٣٧) قال العياشى: «هما والثالث والرابع وعبد الرحمن وطلحة، وكانوا سبعة عشر رجلا، قال: لما وجه النبى ﷺ على بن أبى طالـب ﷺ وعمـار بن ياسـر، رحمـه الله، إلى أهل مكة، قالوا: بعث هذا الصـبى، ولو بعث غيـره يا حذيفة إلى أهل مكة وفـى مكة صناديها، كانوا يسمون عليّـا الصبى لأنه كان اسمه فى كتـاب الله الصبى لقول الله: «ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا، وهو صـبى، وقال إننى من المسلمين»! فقالوا: والله الكفر بنا أولى مما نحن فـيه، فساروا فقالوا لهما وخوفـوهما بأهل مكة، فعرضوا لهما وغلظوا عليهـما الأمر، فقال على ﷺ: حسبنا الله ونـعم الوكيل، ومضى، فلما دخلا مكة أخبر الله نبيه بقولهم لعلى، وبقول علىٍّ لهم، فأنزل الله بأسمائهم فى كتابه، وذلك قـول الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) إلى قوله: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ (آل عمـران: ١٧٤) وإنما نزلت: «ألـم تر إلى فلان وفلان لقوا عليّـا وعمارًا فقالا: إن أبا سفيـان وعبد الله بن عامر وأهل مكة قـد جمعوا لكم فاخشوهم فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» وهما اللذان قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾ (النسـاء: ١٣٧) إلى آخر الآية، فهذا أول كفرهم، والكفر الثانى قول النبى ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الشِّعْب رجل فيطلع عليكم بوجهه، فمثله عند الله كمثل عيـسى، لم يبق منهم أحـد إلا تمنى أن يكون بعض أهله» فـإذا بعلىٍّ قد خـرج وطلع بوجهـه، وقال: «هو هذا» فـخرجوا غـضابًا وقالوا: مـا بقى إلا أن يجعله نبـيّا، والله الرجوع إلى آلهتنا خـير مما نسمع منه فى ابن عمه، وليـصدنا على أن دام هذا، فأنزل الله: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ (الإسراء: ٥) إلى آخر الآية، فهذا الكفر الثانى، وزاد الكفر بالكفر حين قال الله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

نَفيرًا﴾ (الإسراء: ٦) فقال النبى ﷺ: «يا على، أصبحت وأمسيت خير البرية» فقال له الناس: هو خير من آدم ونوح ومن إبراهيم ومن الأنبياء؟ فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٤٣، ٤٤) قالوا: فهو خير منك يا محمد؟ قال: «قال الله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨) ولكنه خير منكم وذريته خير من ذريتكم ومن اتبعه خير ممن اتبعكم» فقاموا غضابًا، وقالوا: زيادة الرجوع إلى الكفر أهون علينا مما يقول فى ابن عمه، وذلك قول الله: ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ (النساء: ١٣٧)».

الطعن على أبى بكر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ (التوبة: ٤٠) يقول: «عن عبد الله بن محمد الحجال قال: كنت عند أبى الحسن الثانى ومعى الحسن بن الجهم، قال له الحسن: إنهم يحتجون علينا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ قال: وما لهم فى ذلك، فوالله لقد قال الله: «فأنزل الله سكينته على رسوله» وما ذكره فيها بخير، قال: قلت له: إنا جعلت فداك وهكذا تقرءونها؟ قال: هكذا قرأتها، قال زرارة: قال أبو جعفر ؓ: «فأنزل سكينته على رسوله» ألا ترى أن السكينة إنما نزلت على رسوله؟».

الطعن على طلحة والزبير:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠) قال: «نزلت فى طلحة والزبير، والجمل جملهم».

الطعن فى عائشة وحفصة وأبى بكر وعمر:

يقول العياشى عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، يقول ما نصه: «عن عبد الصمد بن بشير عن أبى عبد الله ؓ قال: تدرون مات النبى ﷺ أو قتل؟ إن الله يقول: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فسم قبل الموت، إنهما سقتاه قبل الموت، فقلنا: إنهما وأبوهما شر من خلق الله».

الطعن فى بنى أمية:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (البقرة: ٨٩) «عن جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية عن قول الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قال: تفسيرها فى الباطن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ فى على ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ فقال الله فيهم: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فى باطن القرآن، قال أبو جعفر فيه: يعنى بنى أمية هم الكافرون فى باطن القرآن».

الرجعة وقيام القائم:

ولما كان العياشى يدين بالرجعة وقيام القائم فإنا نجده عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ (التوبة: ١١١) يقول: «عن زرارة قال: كرهت أن أسأل أبا جعفر عليه السلام فى الرجعة، فأقبلت مسألة لطيفة أبلغ فيها حاجتى، فقلت: جُعلت فداك، أخبرنى عمن قتل مات؟ قال: لا، الموت موت والقتل قتل، قال: فقلت له: ما أحد يقتل إلا مات؟ قال: فقال: يا زرارة، قول الله أصدق من قولك، قد فرق بينهما فى القرآن قال: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ وقال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٨) وليس كما قلت يا زرارة، الموت موت، والقتل قتل، وقد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية، قال: فقلت له: إن الله يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) أفرأيت من قتل لم يذق الموت؟ قال: فقال: ليس من قتل بالسيف كمن مات على فراشه، إن من قتل لا بد من أن يرجع إلى الدنيا حتى يذوق الموت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ (الإسراء: ٤) قال: «عن صالح بن سهل عن أبى عبد الله عليه السلام فى قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ قتل على، وطعن الحسن ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وقتل الحسين ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ إذا جاء نصر دم الحسين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم لا يدعون وترًا لآل محمد إلا حرقوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ قبل قيام القائم ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ خروج الحسين فى الكَرَّة سبعين رجلاً من أصحابه الذين قتلوا

معه، عليهم البيض المذهب، لكل بيضة وجهان المؤدى إلى الناس إن الحسن قد خرج فى أصحابه حتى لا يشك فيه المؤمنون وأنه ليس بدجال ولا شيطان، الإمام الذى بين أظهر الناس يومئذ، فإذا استقر على المؤمن أنه الحسين لا يشكون فيه، وبلغ عن الحسين الحجة القائم بين أظهر الناس وصدقه المؤمنون بذلك، جاء الحجة الموت فيكون الذى يلى غسله وكفنه وحنوطه وإيلاجه فى حفرته الحسين، ولا يلى الوصى إلا الوصى».

التقيـــة:

يدين العياشى كغيره من الإمامية بالتقية، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (آل عمران: ٢٨) حيث قال: «عن الحسين بن زيد بن على عن جعفر بن محمد عن أبيه ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: لا إيمان لمن لا تقية له، ويقول: قال الله: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾».

رؤية الله فى الآخرة:

والعياشى يوافق المعتزلة وينكر جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ (الأنعام: ١٠٣) قال: «عن الأشعث بن حاتم قال: قال ذو الرئاستين: قلت لأبى الحسن الرضا ﷺ: جعلت فداك، أخبرنى عما اختلف فيه الناس من الرؤية، فقال بعضهم: لا يرى، فقال: يا أبا العباس، من وصف الله بخلاف ما وصف به نفسه قد أعظم الفرية على الله، قال الله: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ هذه الأبصار ليست هى الأعين، إنما هى الأبصار التى فى القلب لا يقع عليه الأوهام ولا يدرك كيف هو».

تأثر العياشى فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية

فرض الرجلين فى الوضوء

ويرى العياشى أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما، ولهذا نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة) يقول: «عن زرارة قال: قلت لأبى جعفر ﷺ: أخبرنى عن حد الوجه الذى ينبغى له أن يوضأ، الذى قال

الله؟ فقال: الوجه الذى أمر الله بغسله الذى لا ينبغى لأحد أن يزيد عليه ولا ينقص منه، إن زاد عليه لم يؤجر، وإن نقص منه أثم، ما دارت السبابة والوسطى والإبهام من قصاص الشعر إلى الذقن، وما جرت عليه الإصبعان من الوجه مستديرًا فهو من الوجه، وما سوى ذلك فليس من الوجه، فقلت: الصدغ ليس من الوجه؟ قال: لا، قال زرارة: فقلت لأبى جعفر ﷺ: ألا تخبرنى من أين علمت وقلت إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثم قال: يا زرارة، قال رسول الله ﷺ وقد نزل به الكتاب من الله، لأن الله قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فعرفنا أن الوجه كله ينبغى له أن يغسل، ثم قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه فعرفنا أنهما ينبغى أن يغسلا إلى المرفقين، ثم فصل بين الكلام فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ فعلمنا حين قال: «برءوسكم» أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أن المسح على بعضهما، ثم فسر ذلك رسول الله للناس فضيعوه».

خمس الغنائم:

وهو يرى فى الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ (الأنفال: ٤٠) قال: «عن زرارة ومحمد بن مسلم وأبى بصير أنهم قالوا له: ما حق الإمام فى أموال الناس؟ قال: الفىء والأنفال والخُمس، وكل ما دخل منه فىء أو أنفال أو خمس أو غنيمة فإن لهم خمسه، فإن الله يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ وكل شىء فى الدنيا فإن لهم فيه نصيبًا فمن وصلهم بشىء مما يدعون له أكثر مما يأخذون منه».

و «عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر ﷺ فى قول الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ...﴾ قال: هم أهل قرابة نبى الله ﷺ».

و «عن إسحاق عن رجل عن أبى عبد الله ﷺ قال: سألته عن سهم الصفوة،

فقال: كان لرسول الله ﷺ ، وأربعة أخماس للمجاهدين والقوام، وخمس يقسم بين مقسم رسول الله ﷺ ، ونحن نقول: هو لنا، والناس يقولون: ليس لكم، وسهم لذى القربى، وهو لنا، وثلاثة أسهام لليتامى والمساكين وأبناء السبيل، يقسمه الإمام بينهم، فإن أصابهم درهم درهم لكل فرقة منهم نظر الإمام بعد، فجعلها فى ذى القربى، قال: يردونها إلينا».

هذا والكتاب ـ إضافة لما سبق ـ فهو مملوء بالإسرائيليات والأحاديث المكذوبة فى فضائل السور.



٤- تفســـير «نور الثقليـــن»

للحــويـــزى

التعريف بصاحب التفسير[١]:

هو عبـد على بن جمعـة العروسى الحويزى، من مـحدثى القرن الحادى عـشر، المتوفـى سنة (١١١٢هـ)، كان على مشرب الإخـبارية، وكان محـدثًا فقيهًـا، وشاعرًا أديبًا، جامعًا، سكن «شيراز» وحدَّث بها، وتتلمذ على يديه جماعة، منهم: السيد نعمة الله الجزائرى، وغيره.

التعريف بهذا التفسير:

هذا التفـسير يجـرى على مذهب الإمامـية الاثنا عـشرية، من حمل ألفـاظ القرآن الكريم على معـانٍ تتفق وأصول المذهب وتعاليـمه، مع كثير من التـعصب والغلو فى التنويه بشـأن أهل البيت والحطِّ من قـدر الصحـابة الذين يعتـبرهم غـير مـوالين لعلىٍّ وذريته.

وقد جمع الـحويزى فى تفسيـره ما عثر عليـه من الروايات المنسوبة ـ عنده ـ إلى أئمة أهل البيت مـما لها ارتباط بآى الذكـر الحكيم، تفسيرًا أو تأويلاً، أو استـشهادًا أو تأييدًا، دون أن يعلق عليها جرحًا أو تعديلاً.

ويقول فى مقـدمة كتابه: «وأما مـا نقلت مما ظاهره يخالف لإجـماع الطائفة فلم أقصد به بيان اعتقاد ولا عمل، وإنما أوردته ليعلم الناظر المطلع كيف نقل وعمن نقل، ليطلب له من التوجيـه ما يخرجه من ذلك، مع أنه لم أخل موضـعًا من تلك المواضع عن نقل ما يضاده، ويكون عليه المعول فى الكشف والإبداء».

وتلك محـاولة منه ليتـخلص من مأزق تبـعات ما أورده فى كـتابه من مناقـضات ومخالفات صريـحة حتى مع أسس قواعد مذهب الإماميـة، ويوكل النظر والتحقيق فى ذلك إلى عاتق القارئ!.

والحـويزى فى تفسـيـره لا يستـوعب جمـيع آى القـرآن، كمـا أنه لا يورد النص القرآنى، وإنمـا يسرد الروايات تباعًا، حـسب ترتيب الآيات والسور، ويبدأ تفسـير كل سورة بما ورد فى فضلها من الأحاديث الموضوعة باتفاق أهل العلم.

---

(١) لم تسعفنا المصادر التى بين أيدينا بترجمة وافية له.

كما أنه يورد أخبارًا مشتملة على الغلو فى شأن أهل البيت، ويحشد كتابه بالإسرائيليات كما فى قصة هاروت وماروت، وأن الزهرة كانت امرأة فمسخت، وأن الملكين زنيا بها ونحو ذلك من الإسرائيليات والأحاديث المكذوبة الفاضحة التى سوَّد بها كتابه، والتى نُجِلُّ أهل البيت - ﷺ - عنها، فضلاً عن منافاتها مع رفعة شأن القرآن الكريم.

هذا والكتاب مطبوع فى خمسة مجلدات، بمؤسسة إسماعيليان، إيران.

مصادر الحويزى فى تفسيره:

جمع الحويزى مرويات كتابه من كتب التفسير والحديث والمناقب، مثل تفسير: القمى، والعياشى، والطبرسى، وكتاب الكافى، وعلل الشرائع، ومعانى الأخبار، والاحتجاج، والغيبة، وثواب الأعمال، وكمال الدين وتمام النعمة، وكتاب الخصال.

وحيث أنه قد تقدم الكلام على القيمة العلمية للكتب الثلاث الأولى، مع بيان مناهجها، فقد اكتفيت فى ذكر الشواهد والأمثلة عند الكلام على هذا التفسير بالإحالة إلى مصادر الأخيرة فقط، حتى لا نثقل الكتاب.

وإليك بعض الأمثلة من هذا التفسير لترى بنفسك ما فى هذا التفسير من غلو صاحبه وتعصبه المذهبى.

موقفه من تحريف القرآن:

والحويزى من غلاة الشيعة الذين يقولون بتحريف القرآن، فمثلاً عند تفسير سورة البينة يقول الحويزى، نقلاً عن الكافى:

«عن أحمد بن محمد بن أبى نصر قال: دفع إلىَّ أبو الحسن - عليه السلام - مصحفًا وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فوجدت فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، قال: فبعث إلىَّ: ابعث إلىَّ بالمصحف».

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة: ٧٩) قال: «لما استخلف عمر سأل عليًا - عليه السلام - أن يدفع إليهم القرآن فيحرفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن، إن جئت بالقرآن الذى كنت جئت به إلى أبى بكر لتقوم الحجة عليكم،

ولا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا ما جئتنا به، فإن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدى، فقال عمر: فهل وقت إظهاره معلوم؟ قال على ـ عليه السلام ـ: نعم، إذا قام القائم من ولدى يظهره، ويحمل الناس عليه، فتجرى السنة به».

موقفه من التقية:

والحويزى كغيره من علماء الشيعة الإمامية يقول بالتقية ويدين بها، فنراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (القصص: ٥٤) يقول: «عن هشام ابن سالم وغيره عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قول الله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ على التقية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ قال: الحسنة التقية، والسيئة الإذاعة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤) قال الحويزى: «قال على بن موسى الرضا ـ عليه السلام: لا دين لمن لا ورع له، ولا أمان لمن لا تقية له، وإن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية، فقيل له: يا بن رسول الله إلى متى؟ قال: إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم خروج قائمنا، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا».

مولد القائم:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ (القصص: ٥) قال الحويزى بإسناده إلى حكيمة فى حديث طويل تذكر فيه مولد القائم ـ عليه السلام ـ تقول فيه: «وقد ذكرت أم القائم ـ عليه السلام ـ وجلست منها حيث تقعد المرأة من المرأة للولادة، فقبضت على كفى وغمزت غمزة شديدة ثم أنت أنة وتشهدت ونظرت تحتها فإذا أنا بولى الله ـ صلى الله عليه ـ متلقيا الأرض بمساجده، فأخذت بكتفيه فأجلسته فى حجرى وإذا هو نظيف مفروغ منه، فنادانى أبو محمد، عليهما السلام: يا عمة هلمى فأتينى بابنى، فأتيته به فتناوله وأخرج لسانه فمسحه على عينيه، ففتحها ثم أدخله فى فيه فحنكه ثم أدخله فى أذنيه وأجلسه فى راحته اليسرى، فاستوى ولى الله جالسا، فمسح يده على رأسه وقال له: يا بنى انطق،

فقدَّره الله، فاستعاذ ولى الله من الشيطان الرجيم واستفتح بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥، ٦) وصلى على رسول الله وأمير المؤمنين والأئمة ـ عليهم السلام ـ واحدًا واحدًا حتى انتهى إلى أبيه، فناولنيه أبو محمد ـ عليه السلام ـ وقال: يا عمه رديه إلى أمه حتى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

الأئمة الاثنا عشر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ (التوبة: ٣٦) قال الحويزى: «عن جابر الجعفى قال: سألت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ عن تأويل قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ قال: فتنفس سيدى الصعداء فقال: يا جابر، أما السنة فهى جدى رسول الله ﷺ، وشهورها اثنا عشر شهرًا، فهو أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ إلى وإلى ابنى جعفر وابنه موسى، وابنه على، وابنه محمد، وابنه على، وإلى ابنه الحسن، وإلى ابنه محمد الهادى المهدى اثنا عشر إمامًا حُجج الله فى خلقه وأمناؤه على وحيه وعلمه، والأربعة الحرم الذين هم الدين القيم أربعة منهم يخرجون باسم واحد، علىّ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وأبى على بن الحسين، وعلى بن موسى، وعلى بن محمد، فالإقرار بهؤلاء هو الدين القيم ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أى: قولوا بهم جميعًا تهتدوا».

الإمام الصامت والإمام الناطق:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥) قال الحويزى: «البئر المعطلة: الإمام الصامت، والقصر المشيد: الإمام الناطق».

أول من يبايع القائم:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: ١) يقول الحويزى: «قال أبو عبد الله ـ عليه السلام: أول من يبايع القائم: جبرئيل، ينزل فى صورة طير أبيض، فيبايعه، ثم يضع رجلاً على بيت الله الحرام، ورجلا على بيت المقدس، ثم ينادى بصوت ذلق تسمعه الخلائق: أتى أمر الله فلا تستعجلوه».

ولادة الأوصياء:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ...﴾ (مريم: ١٢) قال الحويزى: «عن عبد الله بن إبراهيم الجعفرى قال: سمعت إسحاق بن جعفر يقول: الأوصياء إذا حملت بهم أمهاتهم...» إلى قوله: «فإذا كان الليلة التى تلد فيها ظهر لها فى البيت نور تراه ولا يراه غيرها - إلا أبوه - فإذا ولدته ولدته قاعدًا وتفسَّحت له حتى يخرج متربعًا، ثم يستدير بعد وقوعه إلى الأرض فلا يُخطئ القبلة حيث كانت بوجهه، ثم يعطس ثلاثًا يشير بأصبعه بالتحميد، ويقع مسرورًا مختونًا ورباعيتاه من فوق وأسفل وناباه وضاحكاه، ومن بين يديه مثل سبيكة الذهب نور، ويقيم يومه وليلته تسيل يداه ذهبا، وكذلك الأنبياء إذا وُلدوا، وإنما الأوصياء أعلاق من الأنبياء».

عرض أرواح أهل البيت والأئمة على السموات والأرض والجبال:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) قال الحويزى: «عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله - عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفى عام، فجعل أعلاها وأشرفها محمد وعلى والحسن والحسين - عليهم السلام - والأئمة صلوات الله عليهم، فعرضها على السموات والأرض والجبال فغشيها نورهم، فقال الله تبارك وتعالى للسموات والأرض والجبال: هؤلاء أحبائى وأوليائى وحججى على خلقى وأئمة بريتى، ما خلقت خلقًا هو أحب إلىَّ منهم، ولهم ولمن تولاهم خلقت جنتى، ولمن خالفهم وعاداهم خلقت نارى، فمن ادعى منزلتهم مِنِّى ومحلهم من عظمتى عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين وجعلته مع المشركين فى أسفل درك من نارى، ومن أقر بولايتهم ولم يدع منزلتهم مِنِّى ومكانهم من عظمتى جعلته معهم فى روضات جناتى وكان لهم فيها ما يشاءون عندى، وأبحتهم كرامتى، فأيكم يحملها بأثقالها ويدعيها لنفسه؟ فأبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها من ادعاء منزلتها وتمنى محلها من عظمة ربهم، فلما أسكن الله - عز وجل - آدم وزوجته الجنة قال لهما: ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

شئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ يعنى شجرة الحنطة **﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** (البقرة: ٣٥) فنظرا إلى منزلة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة بعدهم فوجداها أشرف منازل أهل الجنة، فقالا: ربنا لمن هذه المنزلة؟ فقال الله جل جلاله: ارفعا رءوسكما إلى ساق العرش، فرفعا رءوسهما فوجدا أسماء محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والأئمة ـ عليهم السلام ـ مكتوبة على ساق العرش بنور من نور الله الجبار جل جلاله، فقالا: يا ربنا ما أكرم أهل هذه المنزلة عليك، وما أحبهم إليك، وما أشرفهم لديك؟ فقال الله جل جلاله: لولاهم ما خلقتكما، هؤلاء خزنة علمى وأمنائى على سرى، إياكما أن تنظرا إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم عندى ومحلهم من كرامتى، فتدخلان فى نهيى وعصيانى فتكونا من الظالمين، قالا: ربنا ومن الظالمون؟ قال: المدعون لمنزلتهم بغير حق، قالا: ربنا فأرنا منزلة ظالميهم فى نارك حتى نراها كما رأينا منزلتهم فى جنتك، فأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ النار فأبرزت جميع ما فيها من ألوان النكال والعذاب، وقال عز وجل: مكان الظالمين لهم المدعين لمنزلتهم فى أسفل درك منها، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب، يا آدم ويا حواء لا تنظرا إلى أنوارى وحججى بعين الحسد فأُهبطكما عن جوارى، وأُحل بكما عن هوانى **﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾** (الأعراف: ٢٠ - ٢٢) وحملهما على تمنى منزلتهم فنظرا إليهم بعين الحسد فخُذلا حتى أكلا من شجرة الحنطة، فعاد مكان ما أكلا شعيرًا، فأصل الحنطة كلها مما لم يأكلاه، وأصل الشعير كله مما عاد مكان ما أكلاه، فلما أكلا من الشجرة طار الحلى والحلل عن أجسادهما وبقيا عريانين **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا﴾** (الأعراف: ٢٢ - ٢٤) من جوارى فلا يجاورنى فى جنتى من يعصينى، فهبطا موكولَين إلى أنفسهما فى طلب المعاش، فلما أراد الله ـ عز وجل ـ أن يتوب عليهما جاءهما جبرئيل ـ عليه السلام ـ

فقال لهمـا: إنكما إن ظلمتما أنفسكمـا بتمنى منزلة من فُضِّل عليكما فجزاؤكـما ما قد عوقبتما به من الهبوط من جوار الله ـ عز وجل ـ إلى أرضه، فسلا ربكما بحق الأسماء التى رأيتموها على سـاق العرش حتى يتوب عليكما، فقالا: إنا نـسألك بحق الأكرمين عليك: مـحـمد، وعـلى، وفاطمـة، والحـسن، والحـسـين، والأئمـة إلا تبت علينا ورحمتنا، فتاب الله عليهما إنه هو التواب الرحيم، فلم يزل أنبياء الله بعد ذلك يحفظون هذه الأمانة ويخبرون بها أوصياءهم والمخلصين من أمـتهم فيأبون حملها ويشفقون من ادعائهـا، وحملها الإنسان الذى قـد عرف بأصل كل ظلم منه إلى يوم القيـامة، وذلك قول الله عـز وجل: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ (الأحزاب: ٧٢) ».

أحاديث مكذوبة فى فضائل على:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ...**﴾ (الكهف: ٩) يروى الحـويزى خـبـرًا غـريبًا يقـول فـيه: «وبإسـناده إلى أنس بن مالك قـال: أُهدى لرسول الله ﷺ بسـاط من قرية يقال لها «بهندف» فـقعد عليه على وأبو بكـر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحـمن بن عوف وسعد، فقال النبى ﷺ لعلى: «يا على قل: يا ريح احـمل بنا» فـقال على: يا ريـح احمل بنا، فـحـمل بهم حـتى أتوا أصحـاب الكهف، فسلم أبو بكر وعمر، فلم يردوا عليهم السـلام، ثم قام علىٌّ فسلم فردوا عليه السلام، فـقال أبو بكر: يا علىٌّ ما بالهم ردوا عليك ولم يردوا علينا؟ فـقال لهم علىٌّ، فـقـالوا: إنا لا نرد بعـد المـوت إلا على نبى أو وصـى نبى، ثم قـال علىٌّ: يا ريح احملينا فحملتنا، ثم قال: يا ريـح ضـعينا فوضـعتنا، فوكـز برجله الأرض فتوضأ علىٌّ وتوضأنا، ثم قـال: يا ريح احـملينا فـحملتنا فـوافينا المدينـة والنبى ﷺ فى صلاة الغداة وهـو يقرأ: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ فلمـا قـضى النبى ﷺ الصـلاة قـال: «يا علـى، أخـبرونى عـن مسـيـركم أم تحبـون أن أخبركم؟ قال: بل تخبرنا يا رسول الله، قال أنس بن مالك: فقص القصة كأنه معنا».

عرض ولاية على على يونس عليه السلام:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ (الأنبياء: ٨٧) قال الحويزى: «وفى حديث أبى حمـزة الثمالى أنه دخل عبد الله بن عمـر على على بن الحسين زين العابدين ـ عليـه السلام ـ وقال له: يا بن الـحسين أنت الذى تقـول: إن يونس بن متى إنما لقى من الحوت ما لقى لأنه عُرضت عليـه ولاية جدى فتوقف عندها؟! قال: بلى ثكلتك أمك، قـال: فأرنى آية ذلك إن كنت من الصـادقين، فـأمر بشـد عينه بعـصابة وعينىَّ بعـصابة، ثم أمر بعد سـاعة بفتح أعيـننا، فإذا نحن على شاطئ البحـر تضرب أمواجـه، فقال ابن عـمر: يا سيدى دمـى فى رقبتك، الله الله فى نفـسى، قال: هنيئة وأريك إن كنت من الصادقين، ثم قال: يا أيها الحـوت، قال: فاطلع الحوت رأسه من البحـر مثل الجبل العظيم وهو يقـول: لبيك لبيك يا ولى الله، فقـال: من أنت؟ قال: حوت يونس يا سيـدى، قال: ائتنا بالخبر، قـال: يا سيدى إن الله تعالى لم يبـعث نبيّا من آدم إلى أن صار جدك محـمد إلا وقد عُرض عليه ولايتكم أهل البيـت، فمن قبلها من الأنبيـاء سلم وتخلص، ومن توقف عنهـا وتتعتـع فى حملها لقى مـا لقى آدم من المصيبة، وما لقى نوح من الغرق[1]، وما لقى إبراهيم من النار، وما لقى يوسف من الجب، وما لقى أيوب من البـلاء، وما لقى داود من الخطيـئة، إلى أن بعث الله يونس فأوحى الله إليـه أن يا يونس تولَّ أمير المـؤمنين عليّا والأئمة الراشـدين من صلبه، فى كلام له، قال: فكيف أتولى مـن لم أره ولم أعرفه؟ وذهب مغتـاظا، فأوحى الله تعالى إلىَّ أن التقم يونس ولا توهـن له عظمًا، فمكث فى بطنى أربعـين صباحًـا يطوف معى البحار فى ظلمات ثلاث ينادى أنه لا إله إلا أنت سـبحانك إنى كنت من الظالمين، قد قبلت ولاية عـلى بن أبى طالب والأئمة الراشـدين من ولده ـ عليهم السـلام ـ فلما أن آمن بولايتكم أمرنى ربى فقذفته على ساحل البـحر، فقال زين العابدين ـ عليه السلام: ارجع أيها الحوت إلى وكرك؛ فرجع الحوت واستوى الماء».

(١) هكذا بالأصول، وهذا مما يدل على اختلاق وتلفيق مثل هذه الأخبار.

الطعن فى أبى بكر وعثمان:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾ (محمد: ٢٥): قال الحويزى: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى**﴾ فـلان وفلان وفـلان ارتدوا على الإيمـان فى تـرك ولاية أمير المـؤمنـين ـ عليه السلام ـ قلت: قـوله تعالى: ﴿**ذَٰلِـكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَـرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ**﴾ (مـحـمـد: ٢٦) قال: نزلـت والله فيهـمـا وفـى أتباعـهما، وهو قول الله ـ عز وجل ـ الذى نـزل به جبرئيل على محمد ﷺ: «ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله فى علىٍّ ـ عليه السلام ـ سنطيعكم فى بعض الأمر» قال: دعوا بنى أمية إلى ميثـاقهم أن لا يصيروا الأمر فينا بعد النبى ﷺ، ولا يعطونا من الخمس شيئًا، وقالوا: إن أعطيناهم إياه لم يحتاجوا إلى شىء، ولم يبالوا أن يكون الأمر فيهم، فقالوا: سنطيـعكم فى بعض الأمر الذى دعوتمونا إليه ـ وهو الخمس ـ أن لا نعطيهم منه شيئا، وقوله: ﴿**كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ**﴾ والذى نزل الله ما افترض على خلقه من ولاية أمير المؤمنين، وكان معهم أبو عبيدة، وكان كاتبهم، فأنزل الله: ﴿**أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ...**﴾ (الزخــرف: ٧٩، ٨٠) الآية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ (الزخرف: ٣٨) قال الحويزى: «وفى خطبة لأمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وهى خطبة الوسيلة، يقول فيـها ـ عليه السلام: ولئن تقمصها دونى الأشقيـان ونازعانى فيما ليس لهما بحق، وركباها ضلالة، واعتقـلاها جهالة، فلبئس ما عليه وردوا، ولبئس ما لأنفسهـما مَهَّدا، يتلاعنان فى دورهما، ويتـبرأ كل منهما من صاحبـه، يقول لقرينه إذا التقيا: ﴿**يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ**﴾ فيجيب الأشقى على رثوثة: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً**﴾ (الفرقان: ٢٨، ٢٩) فأنا الذكر الذى عنه صُدَّ».

رأيه فى سحر النبى ﷺ:

والحويزى يخالف الكثيـر من الشيعة الإمامية ويقـول بوقوع السحر للنبى ﷺ، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق: ٤) يقول: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ قال: قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام: إن جبرئيل أتى النبى ﷺ وآله وقال له: يا محمـد، قال: «لبيك يا جبرئيل» قال: إن فلانًا سحـرك وجعل السحر فى بئر بنى فلان فابعث إليه ـ يعنى البئر ـ أوثق الناس عندك وأعظمهم فى عينك، وهو عديل نفسك، حتى يأتيك بالسحـر، قال فبعث النبى ﷺ على بن أبى طالب وقال: «انطلق إلى بئر أروان فإن فيـها سحرًا سحرنى به لبيد بن أعصم الـيهودى فأتنى به» قال علىٌّ ـ عليه السلام: فانطلقت فى حاجة رسول الله ﷺ فهطبت فإذا ماء البئر قد صار كأنها الحناء من السحر، فطلبته مستـعجلا حتى انتهيت إلى أسفل القليب فلم أظفر به، قال الذين معى: ما فيه شىء فاصعد، فقلت: لا والله ما كَذَبت وما كُذِّبت، وما نفسى به مثـل أنفسكم ـ يعنى رسـول الله ﷺ ـ ثم طلبت طلبًا بلطف فـاستـخرجت حُـقّا فأتيت النبى ﷺ فقال: «افتح» ففتحته فإذا فى الحق قطعة كرب النخل فى جوفه وتر عليها إحدى وعشرون عقدة، وكان جبرئيل ـ عليه السلام ـ أُنزل يومئذ بالمعوذتين على النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: «يا على اقرأها علىَّ وترًا» فجعل أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى فرغ منها، وكشف الله ـ عز وجل ـ عن نبيه ما سُحر وعافاه».

وبعـد .. فأنت ترى من كل مـا سقناه إلـيك أن المؤلف يجـدُّ فى إخضـاع آيات القرآن لمـذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعـقيدته، وهذا خروج بكتـاب الله تعالى عن معانيه الظاهرة والمرادة منه!!.

٥- البرهان فى تفسير القرآن

للبحـــــرانـــى

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

هو: السيد هاشم بن سيد سليـمان بن سيد إسماعيل بن سيد عـبد الجواد بن سيد على بن سيد سليمان بن سيد ناصر الحسينى الكتكانى.

ولد فى «كتكان» من قرى بلدة «توبلى» من أعـمال البحرين، ولم يذكر مـترجموه تاريخ ولادته ولم يشيروا إلى ما يوضح ذلك، ولكنهم ذكروا سنة وفاته، وقد توفى سنة ١١٠٧هـ (أو سنة ١١٠٩هـ) فى قرية «النعيم» ونقل إلى قرية «توبلى» ودُفن بها.

روى عن جملة من المشايخ منهم: السيد عبد العظيم ابن السيد عباس الإستراباذى الأخبـارى، والشيخ محـمود بن عـبد السلام، والشـيخ فخر الدين الطريـحى النجفى صاحب كتاب «مجمع البحرين».

وذكر صاحب اللؤلؤة «أنه كان فاضلاً محدثًا جامعً مـتتبعًا للأخبار بما لم يسبق له سابق سوى شيخنا المجملى، وقد صنف كتبًا عديدة تشهد بشدة تتبعه واطلاعه».

ومؤلفاته تجاوز السبعين كتابًا، بين صغير وكبير ووسيط.

وها هى جملة من مؤلفاته:

١- إثبات الوصيـة (ذكر المعلق أن صاحب الذريـعة يستظهر أن هذا الكتـاب هو كتاب البهجة المرضية الآتى بعد).

٢- احتجاج المخالفين على إمامة أمير المؤمنين.

٣- إرشاد المسترشدين.

٤- الإنصاف فى النص على الأئمة الأشراف من آل عبد مناف.

٥- إيضاح المسترشدين فى بيان تراجم الراجعين إلى ولاية أمير المؤمنين.

٦- البرهان فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدده.

٧- البهجة المرضية فى إثبات الخلافة والوصية.

(١) **مصادر الترجمة فى:** أعيان الشيـعة (١٠/ ٢٤٩)، أمل الآمل (٢/ ٣٤١)، ريحانة الأدب (١/ ٣٣٣)، لؤلؤة البحرين ٦٣.

٨ - تبصرة الولى فيمن رأى المهدى فى زمان أبيه أو فى غيبته الصغرى أو الكبرى.
٩ - تحفة الإخوان.
١٠- ترتيب التهذيب.
١١- تفضيل الأئمة على الأنبياء الذين كانوا قبل جدهم النبى الخاتم ﷺ .
١٢- تفضيل علىّ على أولى العزم من الرسل.
١٣- تنبيه الأريب وتذكرة اللبيب فى إيضاح رجال التهذيب.
١٤- التيمية فى بيان نسب التيمى.
١٥- التنبيهات فى تمام كتاب الفقه من كتاب الطهارة إلى الدّيات.
١٦- ثاقب المناقب فى المعجزات.
١٧- نزهة الأبرار فى خلق الجنة والنار.
١٨- حقيقة الإيمان.
١٩- حلية الآراء (قال المترجم: والظاهر أنه مصحف الأبرار الآتى).
٢٠- حلية الأبرار فى أحوال محمد وآله الأطهار.
٢١- حلية النظر فى فضل الأئمة الاثنى عشر.
٢٢- الدر النضيد فى خصائص الحسين الشهيد.
٢٣- سلاسل الحديد، منتخب من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد.
٢٤- عمدة النظر فى الأئمة الاثنى عشر.
٢٥- غاية المرام وحُجة الخصام فى تعيين الإمام من طريق الخاص والعام.
٢٦- لوامع الأنوار فى التفسير.
٢٧- مدينة المعجزات.
٢٨- المحجة فيما نزل فى القائم الحُجَّة.
٢٩- معالم الزلفى فى النشأة الأخرى.
٣٠- معجزات النبى ﷺ .
٣١- مناقب أمير المؤمنين.
٣٢- مناقب الشيعة.

٣٣- مولد القائم.

٣٤- الميثمية.

٣٥- نور الأنوار فى التفسير.

٣٦- نزهـة الأبـرار ومــنار الأفكار فى خلـق الجـنـة والـنار (ولعـله مـا تـقـدم تحت رقم: ١٧).

٣٧- نهاية الآمال فى ما يتم به الأعمال.

٣٨- نسب عمر بن الخطاب.

٣٩- الهادى وضياء النادى (مجلدان فى تفسير القرآن).

٤٠- وفاة الزهراء.

٤١- وفاة النبى ﷺ.

٤٢- روضة العارفين.

٤٣- الهداية فى تفسير القرآن.

التعريف بهذا التفسير:

والكتاب طبع للمرة الأولى على الحجر فى طهران سنة ١٢٩٥هـ فى مجلدين يبلغ عدد صـفحاتهـما ١١٤٨ صـحيفـة، وطبع للمرة الثـانية فى أربع مجلـدات تبلغ عدد صفحاتهما ١٩٩٦ صحيفة، وذلك فى سنة ١٣٧٥هـ.

وأرى قبل كل شىء أن أسـوق للقارئ الكريم أهم الآراء التى يقول بها الـبحرانى، ويجهر بها فى مقدمة تفسـيره، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفـسير بذكر بعض النـماذج القليلة حيث أن المقـدمة أبانت بوضوح لا لبث فـيه عن موقفه من القرآن وتفسيره، وإليك أهم هذه الآراء.

علم القرآن عند الأئمة والأوصياء:

قال المؤلف فى مقـدمة تفسيره بعد أن ذكر فضل القرآن الكـريم ما نصه: «غير أن أسرار تأويله لا تهتدى إليه العقول، وأنوار حقائق خفياته لا تصل إليه قريحة المفضول، ولهذا اختلف فى تأويله الناس، وصـاروا فى تفسيره على أنفاس وانعكاس، قـد فسروه على مقـتضى أديانهم، وسلكوا به على موجب مذاهبـهم واعتقادهم، وكـل حزب بما

لديهم فرحون، ولم يرجعوا فيه إلى أهل الذكر، صلى الله عليهم وسلم أجمعين، أهل التنزيل والتأويل القائل فيهم جل جلاله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ٧) لا غيرهم، وهم الذين أوتوا العلم وأولوا الأمر وأهل الاستنباط وأهل الذكر الذين أمر الناس بسؤالهم كما جاءت به الآثار النبوية والأخبار الإمامية، ومن ذا الذى يحوى القرآن غيرهم ويحيط تنزيله وتأويله سواهم؟ ففى الحديث عن مولانا باقر العلم أبى جعفر محمد بن على ـ عليهما السلام ـ قال: «ما يستطيع أحد أن يدعى أنه جمع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء».

وفى حديث آخر عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «ما من أحد من الناس ادعى أنه جمع القرآن كله كما أنزل الله إلا كذب، وما جمعه وحفظه كما أنزل الله إلا على بن أبى طالب والأئمة من بعده».

وفى الحديث عن مولى الأمة وإمامها أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام: «أن عبد الله بن عباس جاءه ـ عليه السلام ـ يسأله عن تفسير القرآن فوعده الليل، فلما حضر قال: ما أول القرآن؟ قال: الفاتحة، قال: وما أول الفاتحة؟ قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال: وما أول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؟ قال: ﴿بِسْمِ﴾، قال: وما أول ﴿بِسْمِ﴾؟ قال: الباء، فجعل ـ عليه السلام ـ يتكلم فى الباء طول الليل، فلما قرب الفجر قال: لو زادنا الليل لزدنا».

وقال ـ عليه السلام ـ فى حديث آخر: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيرًا فى تفسير فاتحة الكتاب».

رأى المؤلف فى تفاسير غير الشيعة:

ثم قال البحرانى: «إذا عرفت ذلك فقد رأيت عكوف أهل الزمان على تفسير من لم يروه من أهل العصمة ـ سلام الله عليهم ـ الذى أنزل التنزيل والتأويل فى بيوتهم، وأوتوا من العلم ما لم يؤته غيرهم، بل كان يجب التوقف حتى يأتى تأويله عنهم لأن علم التنزيل والتأويل فى أيديهم وما جاء عنهم ـ عليهم السلام ـ فهو النور والهدى، وما جاء من غيرهم فهو الظلمة والعمى، والعجب كل العجب من علماء علمى المعانى والبيان حيث زعموا أن معرفة هذين العلمين يطلع على مكنون سر الله، جل جلاله،

من تأويل القرآن. قال بعض أئمتهم: «فويل ثم ويل، ثم ويل لمن تعاطى التفسير وهو فى هذين العلمين راجل، وذلك أنهم ذكروا أن العلمين مأخوذان من استقراء تراكيب كلام العرب البلغاء، باحثان عن مقتضيات الأحوال والمقام كالحذف، والإضمار، والفصل، والوصل، والحقيقة، والمجاز، وغير ذلك.

ولا ريب أن محل ذلك من كتاب الله، جل جلاله، يحتاج معرفته إلى العلم من أهل التنزيل والتأويل، وهم أهل البيت - عليهم السلام - الذين علمهم الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغى معرفة ذلك إلا منهم، ومن تعاطى معرفته من غيرهم ركب متن عمياء، وخبط خبط عشواء، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تُصرفون؟».

مصادر البحرانى فى تفسيره وحملته على تفاسير أهل السنة:

يقول البحرانى فى مقدمته: «وقد كنت أولاً قد جمعت فى كتاب «الهادى» كثيراً من تفسير أهل البيت - عليهم السلام - قبل عثورى على تفسير الشيخ الثقة محمد بن العباس بن ماهيار المعروف بابن الحجام ما ذكره عنه الشيخ الفاضل شرف الدين النجفى وغيرهما من الكتب الآتى ذكرها فى الباب الخامس عشر فى ذكر الكتب المأخوذ منها الكتاب وذكر مصنفيها فى مقدمة الكتاب، وهذه الكتب من الكتب المعتمد عليها، والمعول والمرجع إليها، مصنفوها مشايخ معتبرون، وعلماء منتجبون.

وربما ذكرت فى الكتاب التفسير عن ابن عباس على قلة إذ هو تلميذ مولانا أمير المؤمنين - عليه السلام - وربما ذكرت التفسير من طريق الجمهور إذا كان موافقاً لرواية أهل البيت - عليهم السلام - أو كان فى فضل أهل البيت عليهم السلام. . . عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «القرآن أربعة أرباع: فربع فينا أهل البيت خاصة، وربع حلال، وربع حرام، وربع فرائض وأحكام، والله أنزل فينا كرائم القرآن». والعجب من مصنفى تفسير الجمهور مع روايتهم هذه الرواية أنها لم يذكروا إلا القليل فى تفاسيرهم من فضل أهل البيت ولا سيما متأخرى [هكذا] مفسريهم كصاحب الكشاف والبيضاوى.

ثم إن لم أعثر على تفسير الآية من صريح رواية مسندة عن أهل البيت ذكرت ما

ذكره الشيخ أبو الحسن علىّ بن إبراهيم الثقة فى تفسيره، إذ هو منسوب إلى مولانا وإمامنا الصادق ـ عليه السلام».

مدح البحرانى لتفسيره:

ثم قال البحرانى ـ مادحًا كتابه: «وكتابى هذا يُطلعك على كثير من أسرار علم القرآن، ويرشدك إلى ما جهله متعاطى التفسير من أهل الزمان، ويوضح لك عن ما ذكره من العلوم الشرعية والقصص والأخبار النبوية وفضائل أهل البيت الإمامية، إذ صار كتابًا شافيًا ودستورًا وافيًا ومرجعًا كافيًا، حُجة فى الزمان، وعينًا من الأعيان، إذ هو مأخوذ من تأويل أهل التنزيل والتأويل الذين نزل الوحى فى دارهم عن جبريل عن الجليل، أهل بيت الرحمة، ومنبع العلم والحكمة، صلى الله عليهم أجمعين».

السبب الداعى لهذا التأليف:

ثم ذكر المؤلف أنه ألف تفسيره خدمة للسلطان «شاه بهادر خان» الذى أثنى عليه بالغ الثناء، ووصل نسبه بنسب المصطفى عليه السلام، ثم قال: «واعلم أيها الراغب فيما جاء عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ من التفسير، والطالب لما سنح منهم من الحق المنير، أنى قد جمعت ما فى تفسير «الهادى ومصباح النادى» الذى ألفته أولاً إلى زيادات هذا الكتاب ليعم النفع ويسهل أخذه على الطلاب، إن فى ذلك لعبرة الأولى الألباب، وشفاء للمؤمنين، ونورًا لمن استضاء به من خُلَّص الأصحاب، فهو كتاب عليه المعول، وإليه المرجع لا تفاسير الجمهور، فهذا التفسير الظل وتفاسيرهم الحرور».

المنهج التفصيلى للبحرانى:

ثم ذكر البحرانى فى مقدمة كتابه أبوابًا عدَّة توضح منهجه الذى نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما تكشف لنا عن نظرته لكتاب الله وموقفه من تفسيره، تلك النظرة التى لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف من أغراه مذهبه وخدعه هواه، وراح يؤيد آراءه بأحاديث يرويها عن أهل البيت، كلها ـ فيما نعتقد، ويظهر من أسلوبها ـ من وضع الشيعة.

يقول البحرانى: «إنى جعلت قبل المقصود مقدمة فيها أبواب تشتمل على فوائد فى

الكتاب، وسميته «البرهان فى تفسير القرآن» وهو قد اشتمل على كثير من أهل البيت ـ عليهم السلام ـ الذين نزل القرآن فى منازلهم، فمرجع تنزيله وتأويله إليهم، والله سبحانه نسأل أن يجعل محيانا محياهم، ومماتنا مماتهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل».

ثم ذكر عدة أبواب:

الباب الأول: فى فضل العالم والمتعلم.

الباب الثانى: فى فضل القرآن.

الباب الثالث: فى الثقلين، وهما كتاب الله والعترة، ويعنى بالعترة: الأئمة الاثنى عشر، كما صرح بذلك فى الحديث الثالث رواية عن على، وقيل: أهل بيت النبى ﷺ عامة.

والباب الرابع: فى معنى الثقلين من طريق المخالفين، وفى أنه ما من شىء يحتاج إليه العباد إلا وهو فى القرآن وفيه تبيان كل شىء.

والباب الخامس: فى أن القرآن لم يجمعه كما أُنزل إلا الأئمة ـ عليهم السلام ـ وعندهم تأويله، وذكر أحاديث منها: عن أبى عبد الله قال: «إنا أهل بيت لم ينبعث منا إلا من يعلم كتابه من أول إلى آخره».

وعن أبى عبد الله أيضًا قال: «والله إنى لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه فى كفى، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن، قال الله تعالى: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1] (النحل: ٨٩).

وعن يعقوب بن جعفر قال: «كنت مع أبى الحسن ـ عليه السلام ـ بمكة، فقال له رجل: إنك لتفسر من كتاب الله ما لم يُسمع، فقال: علينا نزل قبل الناس، ولنا فُسر قبل أن يُفسر فى الناس، فنحن نعلم حلاله وحرامه، وناسخه ومنسوخه، وسفريه وحضريه، وفى أى ليلة نزلت من آية، وفيمن نزلت، فنحن حكماء الله فى أرضه، وشهداؤه على خلقه، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ١٩) ، فالشهادة لنا والمسألة للمشهود عليه، فهذا قد أنهيته».

وعن أبى عبد الله قال: «إنا أهل البيت لم يزل الله يبعث منا من يعلم كتاب من

(١) فى المطبوع: «فيه تبيان كل شىء» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

أوله إلى آخره، وإن عندنا من حلاله وحرامه ما يسعنا كتمانه ما نستطيع أن نحدث به أحدًا».

والباب السادس: في النهي عن تفسير القرآن بالرأي والنهي عن الجدال. ويروى فيه: «عن زيد الشحام قال: دخل قتادة بن دعامة على أبي جعفر - عليه السلام - فقال: يا قتادة، أنت فقيه أهل البصرة؟ فقال: هكذا يزعمون، فقال أبو جعفر: بلغني أنك تفسر القرآن، قال له قتادة: نعم، فقال له أبو جعفر: فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت، وأنا أسألك، قال قتادة: سل، قال: أخبرني عن قول الله عز وجل في سبأ: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سبأ: ١٨)، فقال قتادة: ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يريد هذا البيت كان آمنًا حتى يرجع إلى أهله، فقال أبو جعفر: ناشدتك الله يا قتادة، هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد حلال وكراء حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه؟ قال قتادة: اللهم نعم، فقال أبو جعفر: ويحك قتادة، إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت، ويحك يا قتادة، ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكراء حلال يروم هذا البيت عارفًا بحقنا، يهوانا قلبه كما قال الله عز وجل: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، ولم يعن البيت فيقول: «إليه»، فنحن والله دعوة إبراهيم - عليه السلام - التي من هواها قبلت حجته وإلا فلا، يا قتادة، فإن كان كذلك كان آمنًا من عذاب جهنم يوم القيامة، قال قتادة: لا جرم والله لا فسرتها إلا هكذا، فقال أبو جعفر: ويحك يا قتادة، إنما يعرف القرآن من خوطب به».

والباب السابع: في أن القرآن له ظهر وبطن، وعام وخاص، ومحكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، والنبي ﷺ وأهل بيته يعلمون ذلك، وهم الراسخون في العلم، وروى فيه عن أبي جابر قال: سألت أبا جعفر عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك، كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم، فقال لي: يا جابر، إن للقرآن بطنًا، وللبطن بطنًا وظهرًا، وللظهر ظهرًا، يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إن الآية

ليكون أولها فى شىء وأوسطها فى شىء وآخرها فى شىء، وهو كلام متصل ينصرف على وجوه».

وروى فيه أيضًا عن حماد بن عثمان قال: قلت لأبى عبد الله - عليه السلام: إن الأحاديث تختلف عنكم، قال: فقال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى للإمام أن يفتى على سبعة وجوه، ثم قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة ص: ٣٩) ».

والباب الثامن: فيما نزل عليه القرآن من الأقسام. وروى فيه: «عن أمير المؤمنين - عليه السلام - قال: «أنزل القرآن أثلاثًا: ثلث فينا وفى عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام».

والباب التاسع: فى أن القرآن نزل بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة» وروى فيه: «عن أبى عبد الله قال: نزل القرآن بـ «إياك أعنى واسمعى يا جارة»، ثم قال الكلينى: وفى رواية أخرى عن أبى عبد الله - عليه السلام - معناه: ما عاتب الله عز وجل به نبيه ﷺ فهو يعنى به ما قد مضى فى القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٤) ».

والباب العاشر: فيما عنى به الأئمة فى القرآن.

وروى فيه: «عن أبى جعفر قال: إذا سمعت الله ذكر أحدًا من هذه الأمة بخير فهم نحن، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا».

«وروى عن أبى عبد الله قال: لو قرئ القرآن كما أنزل لألفيتنا فيه مسمين».

«وعن أبى جعفر قال: لولا أن زيد فى كتاب الله ونقص منه ما خفى حقنا على ذى الحجى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدقه القرآن».

«وروى عن داود بن فرقد قال: قلت لأبى عبد الله - عليه السلام: أنتم الصلاة فى كتاب الله عز وجل، وأنتم الزكاة، وأنتم الحج؟ فقال: يا داود، نحن الصلاة فى كتاب الله عز وجل، ونحن الزكاة، ونحن الصيام، ونحن الحج، ونحن الشهر الحرام، ونحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله، ونحن وجه الله، ونحن الآيات، ونحن البينات، وعدونا فى كتاب الله الفحشاء والمنكر والبغى والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير، يا داود،

إن الله خلقنا وأكرم خلقنا، وفضَّلنا، وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما فى السموات وما فى الأرض، وجعل لنا أضداداً وأعداء، فسمانا فى كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدو، وسمى أضدادنا وأعداءنا فى كتابه، وكنى عن أسمائهم، وضرب لهم الأمثال فى كتابه فى أبغض الأسماء إليه وإلى عباده المتقين».

والباب الحادى عشر: فى معنى الباب العاشر.

والباب الثانى عشر: فى معنى الثقلين والخليفتين من طريق المخالفين.

والباب الثالث عشر: فى العلة التى من أجلها أنّ القرآن باللسان العربى، وأن المعجز فى نظمه، ولم صار جديداً على مر الأزمان.

والباب الرابع عشر: فى أن كل حديث لا يوافق القرآن فهو مردود.

والباب الخامس عشر: فى أول سورة نزلت وآخر سورة.

والباب السادس عشر: فى ذكر الكتب المأخوذ منها الكتاب، وعدَّ ما يزيد عن ستين كتابًا منها ما هو فى التفسير كتفسير الحسن العسكرى، والطوسى، والطبرسى، والزمخشرى، ومنها ما هو فى الحديث كالكافى، ومن لا يحضره الفقيه، والاستبصار، ومنها ما هو فى المناقب، ومنها ما هو فى الزهد والمواعظ.

ثم ذكر أن فى القرآن ناسخًا ومنسوخًا، ومحكمًا ومتشابهًا، وعامًا وخاصًا.. إلخ، وذكر أمثلة لكل ذلك.

ثم ذكر أن فى القرآن ما هو على خلاف ما أنزل الله، وضرب مثلا لذلك قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران:١١٠): «قال أبو عبد الله لقارئ هذه الآية: خير أمة يقتلون أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ والحسن والحسين ـ ابنى علىٍّ ـ عليهم السلام؟ فقيل له: وكيف أُنزلت يا بن رسول الله؟ فقال: إنما نزلت: «كنتم خير أئمة أخرجت للناس» ألا ترى مدح الله لهم فى آخر الآية: ﴿**تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾».

«ومثله انه قرئ على أبى عبد الله: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**﴾ (الفرقان: ٧٤)، فقال أبو عبد الله: لقد سألوا الله عظيمًا أن

يجعلهم للمتقين إمامًا، فـقيل له: يا بن رسول الله، كيف نزلت هذه الآية؟ فقال: إنما نزلت: «الذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعل لنا من المتقين إمامًا».

«وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١)، فقال أبو عبد الله: كيف يحفظ الشيء من أمر الله؟ وكيف يكون المعقب من بين يديه؟ فقيل له: وكيف يكـون ذلك يا بن رسول الله؟ فقـال: إنما نزلت: «له مـعقبـات من خلف ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله». قال: ومثله كثير».

ثم ذكر ما هو محرف فى القرآن، وذكـر من أمثلة ذلك قوله: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك فى على» كذا أنزلت ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾».

وقولـه: «يا أيها الرسـول بلغ ما أُنزل إليك فى علىٍّ من ربك وإن لـم تفعل فـما بلَّغت رسالته».

وقوله: «إن الذين كفروا وظلموا آل محمد لم يكن الله ليغفر لهم».

وقوله: «وسيعلم الذين ظلموا آل محمد أى منقلب ينقلبون».

وقوله: «ولو تـرى الذين ظلموا آل مـحمد حـقهم فى غـمرات المـوت».. قال: «ومثله كثير نذكره فى مواضعه».

ثم ذكر أن بعض الآيات فى سورة وتمامها فى سورة أخرى، فقوله فى سورة البقرة فى قصة بنى إسرائيل «حـين عبر بهم موسى البحر وأغرق الله فـرعون وأصحابه وأنزل موسى بنى إسرائيل (هكذا) وأنزل عليهم المن والسلوى فقالوا لموسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة: ٦١)، فقال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾، فقالوا له: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة: ٢٢)، فنصف الآية فى سورة البقرة، ونصفها فى سورة المائدة».

وقوله تعالى: ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الفرقان: ٥)، فرد عليهم: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)،

فنصف الآية فى سورة الفرقان ونصفها فى سورة العنكبوت. قال: ومثله كثير نذكره فى مواضعه إن شاء الله».

ثم ذكر أن فى القرآن ردًا علـى الزنادقة والثنوية وعبدة الأوثان والدهرية والمـعتزلة و. . و. . . و. . . وعلى من أنكر الرجعة، وهنا عرض لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ (النمل: ٨٣) فروى: «عن حماد عن أبى عبد الله قال: ما يقول الناس فى هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾؟ يقولون إنها فى القيامة؟ قال: ليس كما يقولون، إن ذلك فى الرجعة، يحشر الله فى القيامة من كل أمة فوجًا ويدع الباقين؟ إنما آية يوم القيامة قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٧) وقوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥) فقال الصادق ـ عليه السلام: كل قرية أهلك أهلها بالعذاب لا يرجعون فى الرجعة وأما فى القيـامة فيرجعون، والذين محضوا الإيمان محضًا وغيرهم ممن لم يهلكوا بالعذاب ومحضوا الكفر محضًا يرجعون».

«روى عن أبى عبـد الله فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ (آل عمران: ٨١)، قال؟: ما بعث الله نبـيًا من لدن آدم إلا ويرجع إلـى الدنيا فـينصر أمـيـر المؤمنين، وهو قـوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يعنى رسول الله ﷺ ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ يعنى أمير المؤمنين».

«وروى عن معمر بن شمر قال: ذكر عند أبى جـعفر ـ عليه السلام ـ جابر، فقال: رحم الله جابرًا، لقد بلغ من علمـه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، يعنى الرجعة، قال: ومثله كثير نذكره فى مواضعه».

وفى خاتمة الكتاب ذكر أبوابًا هى:

الباب الأول: فى أن المعوذتين من القرآن.

والباب الثانى: فى رد متشابه القرآن إلى تأويله، وساق أمثلة كثيرة من الآيات التى توهم الاختـلاف والتناقض ووفق بينها بما يتـفق مع اللغة والشرع تارة، وبمـا يتفق مع مذهبه الشيعى تارة أخرى.

والبـاب الثـالث: فى فضل القرآن، وساق فـيه رواية عن علىٍّ ـ عليه السلام ـ أنه

قال: «والذى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأكرم أهل بيته، ما من شىء تطلبونه من حرز: من حرق أو غرق أو سرق أو إفلات دابة من صاحبها أو ضالة أو آبق إلا وهو فى القرآن، فمن أراد ذلك فليسألنى عنه». ثم ذكر أن رجالا سألوا عليّا عما يؤمنهم من الغرق والحرق وغير ذلك، فكان ـ عليه السلام ـ يعلم كل واحد من القرآن ما يدفع عنه هذا المكروه، فى روايات متعددة.

والباب الرابع: فى أن حديث أهل البيت صعب مستصعب، وساق روايات متعددة فى هذا المعنى، منها: «عن أبى جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن حديث آل محمد ﷺ صعب مستصعب لا يؤمن به إلا ملك مقرب، أو نبى مرسل، أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان، فما ورد عليكم من حديث آل محمد ﷺ فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه، وما اشمأزت منه قلوبكم وأنكرتموه فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى العالم من آل محمد، وإنما الهالك أن يحدث أحدكم بشىء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا، والله ما كان هذا، والإنكار هو الكفر».

الباب الخامس: فى وجوب التسليم لأهل البيت فيما جاء عنهم ـ عليهم السلام ـ وساق روايات كثيرة... منها:

«عن أبى سفيان بن السمط قال: قلت لأبى عبد الله ـ عليه السلام: جُعلتُ فداك، يأتينا الرجل من قبلكم يعرف بالكذب فيحدث بالحديث فنستبشعه، فقال أبو عبد الله ـ عليه السلام: يقول لك: إنى قلت الليل إنه نهار والنهار إنه ليل؟ قلت: لا، قال: «فإن قال لك هذا أنى قلته فلا تكذب به فإنك إنما تكذبنى».

«وروى عن على بن سويد عن أبى الحسن الأول ـ عليه السلام ـ أنه كتب إليه فى رسالته: ولا تقل لما يبلغك عنا أو ينسب إلينا: هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه، فإنك لا تدرى لم قلناه وعلى أى وجه وضعناه».

«وروى عن كامل التمار عن أبى جعفر قال: كنت عنده فهو يحدثنى إذ نكس رأسه إلى الأرض فقال: قد أفلح المسلمون، إن المسلمين هم النجباء، يا كامل: الناس كلهم بهائم إلا قليلا من المؤمنين، والمؤمن غريب».

ثم قال المؤلف:

«ثم اعلم أيها الأخ فى الدين، والطالب للحق المستبين، والراغب فى علوم أهل

اليقين محمد وآله والأئمة الراشدين والأمناء المعصومين حجة الله على الخلق أجمعين، وأفضل الأولين والآخرين، فقد اشتمل الكتاب على كثير من الروايات عنهم - عليهم السلام - فى تفسير كتاب الله العزيز، وانطوى على الجم الغفير من فضلهم، وما نزل فيهم - عليهم السلام - واحتوى على كثير من علوم الأحكام والآداب؛ وقصص الأنبياء، وغير ذلك مما لا يحتويه كتاب، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب، فليس لأحد أن يعمل بتفسير المخالفين بعد إظهار الحق وزهوق الباطل، والالتماس من الإخوان الناظرين فى هذا الكتاب - إن صح عندهم ما هو أصح من الأصول التى أخذت منها هذا الكتاب - فليصلحوا ما تبين فيه من الخلل، لأن بعض الكتب التى أخذت منها هذا الكتاب كتفسير على بن إبراهيم وكان يحضرنى فيه نسخ عديدة، والعياشى وكان يحضرنى منه نسختان من أول القرآن إلى آخر سورة الكهف، فأصلحت وصححت بحسب الإمكان من ذلك، والله سبحانه هو الموفق».

ثم ذكر اصطلاحاته ورموزه إلى من نقل عنهم، ثم ذكر أن كتابه هذا مبنى على كتب المشايخ الثلاثة: الشيخ محمد بن يعقوب الكلينى، والشيخ محمد بن على بن الحسين ابن بابويه، الشيخ محمد بن الحسن الطوسى، ثم ذكر طريقه إليهم.

وجاء فى آخر الكتاب ما نصه:

«وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب المبارك المسمى بـ «البرهان فى تفسير القرآن» على يد مؤلفه الفهامة العلامة بحر العلوم الكامل العالم السيد هاشم ابن السيد سليمان ابن السيد إسماعيل ابن السيد عبد الجواد الحسينى البحرانى لخزانه مؤلفه (هكذا) وفقه الله تعالى لتأليف مثله بحق محمد وآله - باليوم الثالث من شهر ذى الحجة الحرام سنة الخامسة والتسعين بعد الألف من الهجرة المحمدية، على مهاجرها وآله الصلاة والسلام».

وبعد . . فهذه أهم آراء المصنف التى يراها فى القرآن وتفسيره ومفسِّريه، والتى توضح لك مقدار غلوه وتطرفه، ذلك الغلو والتطرف الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه.

وإليك بعض الأمثلة من تفسيره:

ولايـــــة على وفضائله:

والبحـرانى يدين بولاية علىٍّ ﷺ وإمامـته، وهو يلوى الآيات ليـدلل على ذلك، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال البحرانى: «روى عن أبى عبد الله قال: الطريق هو معرفة أمير المؤمنين، ومعرفة الإمام».

وفى رواية أخرى عنه: «قال: هو أمير المؤمنين ـ عليـه السلام ـ ومعرفته، والدليل على أنه أمير المؤمنين قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف: ٤)، وهو أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى أم الكتاب فى قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) يقول: «وعن أبى عبد الله قال: المغضوب عليهم الغصاب، والضالين الشكاك الذين لا يعرفون الإمام».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، روى عن الإمام العسكرى قال: «قال رسول الله ﷺ: «أيكم وقى بنفسه نفس رجل مؤمن البارحة»؟ فقال على ـ عليه السلام: أنا هو يا رسول الله، وقيت بنفسى نفس ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى.

فقــال رسول الله ﷺ: «حدِّث بالقـصة إخوانك المـؤمنين ولا نكشف عن اسم المنافقين الكائدين لنا فقد كفاكم الله شرهم وأخرهم للتوبة لعلهم يتذكرون أو يخشون».

فقــال على ـ عليه الســلام: إننى بينا أسيـر فى بنى فلان بظاهر المـدينة وبين يدى بعـيدًا مِنِّى ثابت بن قـيس، إذ بلغ بئرًا عـارية قديمـة بعيـدة القعـر، وهناك رجل من المنافقين فدفعـه ليرميه فى البئر، فتماسك ثابت بى، ثم عاد فـدفعه، والرجل لا يشعر بى حتى وصلت إلـيه وقد اندفع ثابت فى البـئر، فكرهت أن أشـتغل بطلب المنافـقين خوفًا على ثابت، فوقعت فى البئر لعلى آخذه، فنظرت فإذا أنا قد سبقته إلى قرار البئر.

فقال رسول الله ﷺ: «كيف لا تـسبقه وأنت أرزن منه، ولو لم يكن من رزانتك إلا ما فى جوفك من علم الأولين والآخـرين الذى أودع الله ورسوله لكان من حقك أن تكون أرزن من كل شىء، فيكف كان حالك وحال ثابت؟»

قال: يا رسول الله، فصرت إلى البئر واستقررت قائمًا وكان ذلك أسهل علىَّ وأخف على رجلى من خطاى التى كنت أخطوها رويدًا رويدًا، ثم جاء ثابت فانحدر فوقع على يدىَّ وقد بسطتها إليه، وخشيت أن يضرنى سقوطه علىَّ أو يضره، فما كان إلا كطاقة ريحان تناولتها بيدىَّ، ثم نظرت فإذا ذلك المنافق ومعه آخرون على شفير البئر وهو يقول لهما: أردنا واحدًا فصارا اثنين، فجاءوا بصخرة فيها مائة «من» فأرسلوها، فخشيت أن تصيب ثابتًا فاحتضنته وجعلت رأسه إلى صدرى وانحنيت عليه، فوقعت الصخرة على مؤخر رأسى فما كانت إلا كترويحة بمروحة تروحت بها فى حمارة القيظ، ثم جاءوا بصخرة أخرى فيها قدر ثلاثمائة «من» فأرسلوها علينا، وانحنيت على ثابت فأصابت مؤخرة رأسى، فكان كماء صُب على رأسى وبدنى فى يوم شديد الحر، ثم جاءوا بصخرة ثالثة فيها قدر خمسمائة «من» يديرونها على الأرض، لا يمكنهم أن يقلبوها، فأرسلوها علينا، فانحنيت على ثابت فأصابت مؤخر رأسى وظهرى، فكانت كثوب ناعم صببته على بدنى ولبسته فنعمت به، فسمعتهم يقولون: لو أن لابن أبى طالب وابن قيس مائة ألف روح ما نجت منها واحدة من بلاء هذه الصخور، ثم انصرفوا، فدفع الله عنا شرهم، فأذن الله لشفير البئر فانحط، ولقرار البئر فارتفع، فاستوى القرار والشفير بعد بالأرض، فخطونا وخرجنا.

فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحسن، إن الله عز وجل أوجب لك من الفضائل والثواب ما لا يعرفه غيره، ينادى مناد يوم القيامة: أين محبو على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم من الصالحين فيقال لهم: خذوا بأيدى من شئتم من عرصات يوم القيامة فأدخلوهم الجنة، وأقل رجل منهم ينجو بشفاعته من أهل تلك العرصات ألف ألف رجل، ثم ينادى مناد: أين البقية من محبى على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم مقتصدون، فيقال لهم: تمنوا على الله ما شئتم، فيتمنون، فيفعل بكل واحد منهم ما تمناه ثم يضعف له مائة ألف ضعف، ثم ينادى مناد: أين البقية من محبى على بن أبى طالب؟ فيقوم قوم ظالمون لأنفسهم معتدون عليها، ويقال: أين المبغضون لعلى بن أبى طالب؟ فيؤتى بهم جمٌّ غفير وعددٌ كثير، فيجعل كل ألف من هؤلاء فداء لواحد من محبى على بن أبى طالب - عليه السلام - ليدخلوا الجنة، فينجى الله عز وجل محبيك ويجعل أعداءهم فداءهم».

ثم قال رسول الله ﷺ لعلى ـ عليه السـلام: «انظر»، فنظر إلى عبد الله بن أبى وإلى سبعة من اليهود، قال: قد شاهدت، ختم الله على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فقال رسـول الله ﷺ: «أنت يا على أفضل شهداء الله فى الأرض بعد محـمد رسول الله ﷺ»، قـال: فذلك قـوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ تبصرهم الملائكة فيعرفونهم بها، ويبصرها رسول الله ﷺ، ويبصرها خير خلق الله بعده عـلى بن أبى طالب ـ عليه السـلام، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة:٧) فى الآخرة: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة:١٠) من كفرهم بالله وكفرهم بمحمد رسول الله ﷺ».

وعند قولـه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البـقـرة: ٨) «يروى عن جعفـر الصادق أنه قال: إن رسول الله ﷺ لمـا أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فى يوم الغدير موقـفه المشهور المعروف، ثم قال: «يا عباد الله، انسبونى»، فقالوا: أنت مـحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ثم قال: «أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم؟ فأنا مولاكم، أولى بكم من أنفسكم»؟ قـالوا: بلى يا رسول الله، فنظر رسول الله ﷺ إلى السـماء فقال: «اللهم إنى أستشهـدك بقول هؤلاء» ـ ويقول ذلك ثلاثا ـ ثم قال: «ألا فمن كنت مولاه وأولى به، فهذا مولاه وأولى به، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله»، ثم قال: «قم يا أبا بكر فبـايع له بإمرة المؤمنين»، فقام ففعل ذلك وبايع له، ثم قال: «قم يا عمـر فبايع له بإمرة المؤمنين»، فـقام وبايع له، ثم قال بعد ذلك لتمام التسـعة، ثم لرؤساء المهاجرين والأنصار، فبـايعوا كلهم، فقام من بين جماعـتهم عمـر بن الخطاب ـ عليه اللعنة[1]، فـقال: بخٍ بـخٍ لك يا بن أبى طالب، مولاى ومـولى كل مـؤمن ومؤمنة، ثم تفـرقوا عن ذلك وقـد وُكِّدت عليـهم العـهود والمواثيق. ثم إن قومًا من متمردى جبابرتهم تواطئوا بينهم إن كان لمحمد ﷺ كائنة ليـدفعن هـذا الأمر عن على ـ علـيه السـلام ـ ولا يتـركونه لـه، فعـرف الله ذلك فى

(١) هكذا بالأصل المطبوع، وهو يبين منهج المـؤلف فى تفسيره وعقيدتـه فى سب الصحابة، فإلى الله المشتكى.

قلوبهم، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ ويقولون: لقد أقمت علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا، وكفيتنا مؤنة الظلمة والجبابرة فى سياستنا، وعلم الله فى قلوبهم خلاف ذلك مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون، ولدفع الحق عن مستحقه مؤثرون، فأخبر الله عز وجل محمدًا عنهم فقال: يا محمد: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ**﴾ الذى أمرك بنصب علىٍّ ـ عليه السلام ـ إمامًا وسائسًا لأمتك ومدبرا، ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ بذلك ولكنهم مواطئون على هلاكه وإهلاكه، يواطئون أنفسهم على التمرد على علىٍّ ـ عليه السلام ـ إن كانت بك كائنة».

ثم ساق تفسير الآيات بعد على هذا النحو الغريب العجيب، وذكر أن «الجبال انقلبت لعلى بن أبى طالب فضة، ثم ذهبًا، ثم مسكا وعنبرًا وجواهر ويواقيت، ونادته أنها مسخرات له فليأمرها بما يشاء، وأنها نادته بأن له عند الله من الشأن العظيم ما لو سأل الله أن يحط السماء إلى الأرض أو ينقل الأرض إلى السماء لفعل. . . وأن هذا كله وغيره وقع أمام القوم وشاهدوه فمرضت قلوبهم بالإضافة إلى مرض أجسامهم لما شاهدوه من فضل علىٍّ، فقال الله عند ذلك: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾ . . إلخ.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . . .**﴾ الآية (المائدة: ٥٥) يقول ما نصه: «. . عن أبى جعفر ـ عليه السلام ـ قوله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ**﴾ قال: إن رهطا من اليهود أسلموا، منهم عبد الله بن سلام، وأسيد ابن ثعلبة، وابن يامين، وابن صوريا، فأتوا النبى ﷺ فقالوا: يا نبى الله، إن موسى أوصى إلى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ ومن ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**﴾. . . إلى قوله: ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ قال رسول الله ﷺ : «قوموا»، فقاموا وأتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال: «يا سائل، ما أعطاك أحد شيئًا»؟ قال: نعم؟ هذا الخاتم، قال: «ومن أعطاكه»؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذى يصلى، قال: «على أى حال أعطاك»؟ قال: راكعًا. . فكبَّر النبى ﷺ وكبَّر أهل المسجد، فقال النبى ﷺ : «على بن أبى طالب وليكم بعدى»، قالوا: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيّا، وبعلى بن أبى طالب وليّا، فأنزل الله عز

وجـل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (المـائدة: ٥٦) فروى عن عمـر بن الخطاب أنه قال: والله لقد تصدقت بأربعيـن خاتمًا وأنا راكع لينزل الله فىَّ ما نزل فى على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ فما نزل».

والحديث فيه رائحة الافتراء والكذب على عمر رضي الله عنه.

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ إلـى قـوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المـائدة: ٦٧) قال ما نصه: «. . . عن أبى الجارود قال: سمـعتُ أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقول: فـرض الله عز وجل على العباد خمسًا: أخذوا أربعًا وتركوا واحدة، قلت: أتسميهن لى، جُعلتُ فداك؟ فقال: الصلاة، وكان الناس لا يدرون كـيف يعملون، فنزل جـبريل ـ عليه السـلام ـ وقال: يا محـمد أخبرهم بمواقيت صلواتهم، ثم نزلت الزكاة فقال: يا محمد، أخبرهم عن زكاتهم مثل ما أخبـرتهم عن صلاتهم، ثم نزل الصوم فكان رسول الله ﷺ إذا كـان يوم عاشوراً بعث إلى مَن حـوله من القرى فـصاموا ذلك اليـوم، فنزل شهـر رمضـان بين شعـبان وشوَّال، ثم نزل الحج، فنزل جبريـل فقال: أخبرهم عن حجهم مـثل ما أخبرتهم عن صلاتهم وزكاتهم وصومهم، ثم نزلت الولاية، وإنمـا آتاه ذلك فى يوم الجمعة بعرفة، أنزل الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ (المـائدة: ٣)، وكان كـمال الدين بولاية علىّ بن أبـى طالب، فقـال عند ذلك رسول الله ﷺ: إنّ أمتى حديثو عهد بالجاهلية، متى أخبرتهم بهذا فى ابن عمى يقول قائل، ويقول قائل، فقلت فى نفسى من غير أن ينطق به لسانى، فأتتنى عزيمة من الله عز وجل بتلة أوعدنى إن لم أبلغ أن يعذبنى (هكذا العبارة بالأصل) فنزلت: ﴿أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ فأخذ الرسول ﷺ بيد علىّ ـ عليه السلام ـ فقال:

«يا أيها الناس، إنه لم يكن من الأنبياء فيمن كـان قبلى إلا وقد عمَّره الله تعالى ثم دعاه فـأجابه، فـأوشك أن أُدْعَى فأجـيب، وأنا مسـئول وأنتـم مسئـولون، فمـاذا أنتم قائلون؟» فـقالوا: نشهد أنك قـد بلغتَ ونصحتَ وأديتَ ما عليك، فجـزاك الله أفضل جزاء المرسلين، فقال: «اللهم اشهد» ثلاث مرات ـ ثم قال: «يا معشر المسلمين، هذا

وليكم من بعدى، فليبلغ الشاهد منكم الغائب» قال أبو جعفر ـ عليه السلام: كان ـ والله ـ أمينًا على خلقه وعيبة علمه ودينه الذى ارتضاه لنفسه، ثم إن رسول الله ﷺ حضره الذى حضره فدعا عليًّا فقال: «يا على، إنى أريد أن أئتمنك على ما ائتمننى الله عليه من غيبة علمه ومن خلقه ومن دينه الذى ارتضاه لنفسه، فلم يشرك والله فيها ـ يا زياد ـ أحدًا من الخلق، ثم إن عليًّا حضره الذى حضره فدعا ولده، وكانوا اثنى عشر ذكرًا، فقال لهم: يا بنىّ، إن الله عز وجل قد أبى إلا أن يجعل فىَّ سُنَّة من يعقوب، وإن يعقوب دعا ولده، وكانوا اثنى عشر ذكرًا فأخبرهم بصاحبهم، ألا إنى أخبركم بصاحبكم، ألا إن هذين ابنا رسول الله ﷺ: الحسن والحسين، فاسمعوا لهما وأطيعوا، ووازروهما، فإنى قد ائتمنتهما على ما ائتمننى عليه رسول الله ﷺ مما ائتمنه الله عليه من خلقه ومن غيبه ومن دينه الذى ارتضاه لنفسه، فأوجب الله لهما من علىٍّ ـ عليه السلام ـ ما أوجب لعلىٍّ من رسول الله ﷺ، فلم يكن لأحد منهما فضل على صاحبه إلا بكبره، وإن الحسين ـ عليه السلام ـ كان إذا حضر الحسن ـ عليه السلام ـ لم ينطق فى ذلك المسجد حتى يقوم، ثم إن الحسن حضره الذى حضره فسلم ذلك إلى الحسين، ثم إن حسينًا حضره الذى حضره فدعا ابنته الكبرى فاطمة بنت الحسين ـ عليها السلام ـ فدفع إليها كتابًا ملفوفًا ووصية ظاهرة، وكان على بن الحسين ـ عليه السلام ـ مبطونًا لا يرون إلا أنه لِمَا به، فدفعت فاطمة الكتاب إلى على بن الحسين ـ عليه السلام ـ ثم صار ـ والله ـ ذلك الكتاب إلينا».

وبدهى أن هذا الاتجاه فى تفسير ما سبق من الآيات إنما دفع قائليه إليه ما يعتقده فى الإمامة والأئمة.

ولسنا بحاجة إلى الإطالة فى إبطال هذا الاتجاه، بعدما أثبت لنا علماء الحديث ونقاده، أن كل الروايات فى ولاية علىٍّ ليس لها أساس من الصحة، وأنها من وضع الشيعة أنفسهم ليروجوا بها مذهبهم فى الإمامة والأئمة.

التحريف والنقص فى القرآن:

ولما كان البحرانى من غلاة الشيعة الذين يقولون بتحريف القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣) يقول ما نصه:

«الشيخ فى أماليه عن أبى محمد الفحـام قال: حدثنى محمد بن عيسى عن هارون قال: حدثنى جعفر بن محـمد ـ عليه السلام ـ يقرآ (هكذا): «إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران وآل محمد على العالمين» قال: هكذا نزلت.

«على بن إبراهيم قـال العـالم عليه السـلام: نزل: «آل عـمران وآل مـحمـد على العالمين» فأسقطوا آل محمدا من الكتاب».

نزول القرآن فى آل البيت:

يقول البحـرانى عند تفسير قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...﴾ (المائدة: ١) «عـن عكـرمة أنه قـال: ما أنزل الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا ورأسها على بن أبى طالب ـ عليه السلام».

«عن عكرمة عن ابن عباس قال: «ما نزلت آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا وعلى شريفها وأميرها، ولقد عاتب الله أصحـاب محمد ﷺ فى غير مكان، وما ذكر عليا إلا بخير».

«وفى صحيـفة الرضا ـ عليه السلام ـ قـال: ليس فى القرآن آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا فى حقنا».

فضائل أهل البيت والأئمة والشيعة:

فمثلاً، نجد كثيرًا من آيات القرآن لها معان خاصة، ولا صلة لها بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكنا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معـان لا صلة لها باللفظ... معـان تحمل فى طياتها طابع التـعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة.

فمثـلا عنـد تفســير قولـه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤ ومـا بعـدها)، يقول البحـرانى ما نصه: «... عن عمـرو بن حريث قـال: سألت أبا عبـد الله ـ عليه السـلام ـ عن قول الله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «أنا أصلها، وأميـر المؤمنين فرعها، والأئمة من ذُرِّيتـهما أغصانها، وعلم الأئمـة ثمرتها،

وشيعتهم المؤمنون ورقها» هل فى هذا فضل؟ قال: لا والله، قال: والله، وإنَّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، وإنَّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها».

وساق رواية أخرى بعد ذلك وفيها: «إن المولود ليولد من شيعتنا فتورق ورقة منها، وإن المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها».

وفى رواية بعدها قال: «قلت له: جُعلتُ فداك، قوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قال: هو ما يخرج من الإمام من الحلال والحرام فى كل سنة إلى شيعته».

وقال: «... عن أبى عبد الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ...﴾ الآيتين، قال: هذا مثل ضربه الله لأهل بيت نبيه، ولمن عاداهم هو: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ (النبأ: ٣٨) يروى «عن أبى عبد الله أنه قال: ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ قال: نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صوابًا، قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نحمد ربنا ونصلى على نبينا، ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا».

الطعن على الصحابة:

والبحرانى من غلاة الشيعة، الذين يطعنون على الصحابة فلذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٣٧) يقول ما نصه: «عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ فى قوله عز وجل: «إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم» (هكذا فى الأصل) قال: نزلت فى فلان وفلان وفلان، آمنوا بالنبى فى أول الأمر وكفروا حيث عرضت عليه الولاية حين قال النبى ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه، ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين، ثم ازدادوا كفرا بأخذهم من بايعهم بالبيعة لهم، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شىء».

الطعن على أبى بكر:

يقول البحرانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ (الرعد: ١٩): «... عن مروان عن السدى عن الكلبى عن أبى صالح

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قال: عليّ ـ عليه السلام ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ قال: الأول».

الطعن على أبى بكر وعمر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ﴾.. إلى قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ (الكهف: ٣٢ - ٣٧)، قال البحراني ما نصه: «يروى عن أبى عبد الله أنه قال: دخل أبو بكر على عليٍّ ـ عليه السلام ـ فقال له: إن رسول الله ﷺ لم يحدث إلينا فى أمرك حدثًا بعد يوم الولاية، وأنا أشهد أنك مولاى، مُقِرٌّ بذلك، وقد سلَّمتُ عليك على عهد رسول الله ﷺ بإمرة المؤمنين، وأخبرنا رسول الله ﷺ أنك وصيه ووارثه وخليفته فى أهله ونسائه، ولم يخبرنا بأنك خليفته من بعده، ولا جَرَم لنا فى ذلك فيما بيننا وبينك، ولا ذنب بيننا وبين الله، فقال له ـ عليه السلام: أرأيتك إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرك بأنى أولى بالمجلس الذى أنت فيه، وإن لم تنح عنه كفرت، فما تقول؟ فقال: إن رأيت رسول الله ﷺ حتى يخبرنى ببعض هذا اكتفيت به، قال: فوافنى إذا صليت المغرب، قال: فرجع بعد المغرب فأخذه بيده وأخرجه إلى مسجد قباء فإذا رسول الله ﷺ جالس فى القبلة، فقال: «يا عتيق، وثبتَ على عليٍّ ـ عليه السلام ـ وجلستَ مجلس النبوة، وقد تقدمتُ إليك، فانزع هذا السربال الذى تسربلته فخله لعليٍّ وإلا فموعدك النار»، ثم أخذ بيده فأخرجه، فقام النبى ﷺ عنهما، وانطلق أمير المؤمنين إلى سلمان فقال: يا سلمان، أما علمت أنه كان من الأمر كذا وكذا؟ فقال سلمان: ليشهرن بك وليبد منه إلى صاحبه وليخبرنه بالخبر، فضحك أمير المؤمنين وقال: أما أن يخبر صاحبه فيفعل، ثم قال: لا والله لا يذكرانه أبدًا إلى يوم القيامة مما نظرا إلى نفسهما من ذلك، فلقى أبو بكر عمر فقال: إن عليًّا أتى كذا وكذا لموضع كذا وكذا وقال رسول الله ﷺ كذا وكذا. فقال له عمر: ويلك، ما أقل عقلك، فوالله ما أنت فيه الساعة إلا من بعض سحر ابن أبى كبشة، قد نسيتَ بنى هاشم؟ تقلدَ هذه السربال ومَن فيه».

الطعن على عائشة رضي الله عنها:

قال البحرانى عند تفسيرقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ إلى آخره، (النور: ١١): «يروى عن عليّ بن إبراهيم أنه قال: إن العامة روت أنها نزلت فى

عائشة وما رُميت به فى غزاة بنى المصطلق من خزاعة، وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت فى ماريا القبطية وما رمتها بها عائشة، ثم قال علىّ بن إبراهيم: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علىّ بن فضالة قال: حدثنا عبد الله ابن بكير عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر ـ عليه السلام ـ يقول: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه حزنًا شديدًا، فقالت عائشة: ما الذى يحزنك عليه؟ فما هو إلا ابن جريج، فبعث رسول الله ﷺ عليًا ـ عليه السلام ـ وأمره بقتله، فذهب علىٌّ ـ عليه السلام ـ ومعه السيف، وكان جريج القبطى فى حائط، فضرب علىٌّ ـ عليه السلام ـ باب البستان، فأقبل جريج ليفتح الباب، فلما رأى عليًا ـ عليه السلام ـ عرف فى وجهه الشر فأدبر راجعًا ولم يفتح باب البستان، فوثب علىٌّ ـ عليه السلام ـ على الحائط ونزل إلى البستان وأتبعه، وولى جريج مدبرًا، فلما خشى أن يرهقه صعد فى نخلة فبدت عورته، فإذا ليس له ما للرجال ولا ما للنساء، فانصرف علىٌّ ـ عليه السلام ـ إلى النبى ﷺ فقال له: يا رسول الله، إذا بعثتنى فى الأمر أكون فيه كالمسمار المحمى فى الوبر أم أثبت؟ قال: «بل اثبت» فقال: والذى بعثك بالحق، ما له ما، للرجال ولا ما للنساء، فقال رسول الله ﷺ : «الحمد لله الذى يصرف عنا السوء أهل البيت».

القائـــــم:

قال البحرانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾ (الحجر: ٣٦ - ٣٨): «روى عن وهب بن جميع مولى إسحاق بن عمار قال: سألت أبا عبد الله ـ عليه السلام ـ عن قول إبليس: ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾ قال له وهب: جُعلتُ فداك، أى يوم هو؟ قال: يا وهب أتحسب أنه يوم يبعث الله فيه الناس؟ إنّ الله أنظره إلى يوم يبعث فيها قائمنا، فإذا بعث الله قائمنا كان فى مسجد الكوفة وجاء إبليس حتى يجثو بين يديه على ركبتيه فيقول: يا ويله من هذا اليوم، فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك اليوم الوقت المعلوم».

وظاهر أن الذى دفع البحـرانى إلى هذا الاتجاه إنما هو عقـيدته فى إمامة الـمهدى المنتظر الذى سيخرج آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلمًا وجوراً.

وظاهر ـ أيضًا أن البعث المذكور فى الآية هـو بعث الخلائق يوم القيامة، لا بعث مهديهم، وإلا فما وجه الجمع فى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ وما الدليل على ما يقولون؟.

انتقام القائم من ذرية قتلة الحسين:

وعند تفسيـره لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣) قال البحرانى ما نصه: «. . . عن أبى عبد الله ـ عليـه السلام ـ فى قوله تـعالى: ﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ قـال: أولاد قـتلة الحسين ـ عليه السلام».

«وعن عبد السلام بن صالح الهروى قال: قلت لأبى الحسن على بن موسى الرضا ـ عليه السلام: يا بن رسول الله، ما تقول فى حديث روى عن الصادق ـ عليه السلام ـ أنه قال: إذا قام القائم ـ عليـه السلام ـ قتل ذرارى قتلة الحسين ـ عليـه السلام ـ بفعال آبائها، فـقال: هو كذلك، قلت: فقـول الله عز وجل: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعـــام: ١٦٤) ما معناه؟ فقال: صدق الله فى جـميع أقواله، لكن ذرارى قتلة الحسين يرضون فعال آبائهم ويفتخرون بها، ومـن رضى شيئًا كان كمن أتاه، ولو أن رجلا قُتل فى المـشرق فـرضى بقتله رجل فى الـمغـرب لكان الراضى عند الله عز وجل شـريك القاتل، وإنمـا يقتلهم القـائم ـ إذا خرج ـ لرضـاها بفعل آبائهم، قال: فـقلت له: بأى شىء يبدأ القائم فيكم؟ (هكذا) قال: يبدأ ببنى شيبة ويقطع أيديهم لأنهم سراق بيت الله عز وجل».

فضائل السور وخواصها:

والبـحرانى بعـد هذا لا يفوته أن يذكـر فى بداية كل سـورة من الروايات عن أهل البيت مـا يشير لفضل هذه السـورة أو فوائدها وخواصهـا، وما أُعد لقارئهـا من الأجر والثواب، وهذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبـة، كالروايات المنسوبة إلى أُبى وابن عباس فى فـضائل السور، وليس بغريب أن يذكر صاحـبنا مثل هذه الروايات المكذوبة

فى تفسيره بعدما سوَّد كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ، وعلى آل بيته، رضوان الله عليهم، ومثـال ذلك ما ذكره فى أول تفسيره لسورة الأعراف حـيث ذكر عدة روايات فى فـضائلها، مـنها: «. . . عن أبى عبـد الله ـ عليه السلام ـ قال: مَن قرأ سـورة الأعراف فى كل شهر كان يوم القيـامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها فى كل جمعـة كان ممن لا يُحاسب يوم القيامة فإن فيها محكمًا، فلا تدعوا قراءتها فإنها تشهد يوم القيامة لمن قرأها».

«وروى النبى ﷺ أنه قال: «مَن قرأ هذه السورة جـعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سترًا، وكان لآدم رفيقًا، ومَن كتبهـا بماء ورد وزعفران وعلَّقها عليها لم يضرّ به سبع ولا عدو ما دامت عليه بإذن الله».

وعند تفـسيره لسـورة الـشـورى يقول: «. . . ومن خـواص القرآن مـا روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن قرأ هذه السورة صلَّت عليه الملائكة وترحَّموا عليه بعد موته، ومَن كتبها بماء المطر وسحق بذلك المـاء كحلاً واكتحل به مَن بعينه بياض قلعه وزال عنه كل ما كان عـارضًا بعينه من الآلام بإذن الله»، وقال الصـادق ـ عليه السلام: مَن كتبها وعلَّقها عليه أمن من الناس، ومَن شربها فى سفر أنس».

وعند تفسيـره لسورة الفتح يقول: «ومن خـواص القرآن روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ هذه السورة كتب الله له من الثواب كمن بايع النبى ﷺ تحت الشجرة وأوفى بيعـته، وكمن شهـد مع النبى ﷺ يوم فتح مكة، ومن كـتبها وجـعلها تحت رأسه أمن من اللصوص، ومن كـتبها فى صحيـفة وغسلها بماء زمزم وشـربها كان عند الناس مسموع ولا يسمع شيئًا يمر عليه إلا وعاه».

عجائب تأويلات البحرانى:

وللبحـرانى فى تفسيره غـرائب من التأويلات الباطلة التى لا تخـضع لشىء سوى الانحراف عن الجادة، وهى خرافات وأباطيل، لا يقـرها عقل ولا شرع، مثال ذلك ما قاله فى تفسيـره لقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾** (البقرة: ٢٦، ٢٧) . . قال ما نصه: «على بن

إبراهيم قـال: حدثنى أبى عن النضـر بن سويد عن القاسـم بن سليمان عن مـعلى بن خنيس عن أبى عبد الله ـ عليه السلام ـ أن هذا المثل ضربه الله لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ عليـه السـلام ـ فالبعـوضة: أميـر المؤمنين ـ عليه السـلام ـ وما فوقـها: رسول الله ﷺ».

وعند قـوله تعـالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (المائدة: ٥) يقول ما نصه: «. . . عن أبى حمزة قال: سألت أبا جعفر عن قـول الله تبـارك وتعـالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ قال: تفسـيرها فى بطن القرآن: ومن يكفر بولاية علـى ـ عليه السلام ـ وعلى هو الإيمان».

وبالجملة . . فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتـفسير المأثور، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت، إما صـريحًا أو استخلاصًا من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار لا يوثق بصحتها، ولا يُعول على صدق نسبتها إلى من تُنسَب إليه من علماء أهل البيت عليهم السلام.

* * *

وبعد أن انتهـينا من الحديث عن تفاسيـر غلاة الشيعة نخـتم الكلام بالحديث عن تفسير «التبـيان» لشيخ الطائفة الطوسى حيث أنه يمثل تيار الاعـتدال عند الإمامية الاثنا عشرية فنقول:

(وفي سورة الذاريات عند قوله تعالى: "إنكم لفي قول مختلف. يؤفك عنه من أفك"
يروى عن أبي جعفر أنه قال: "إنكم لفي قول مختلف" اختلف في ولاية هذه
الأمة، فمن استقام على ولاية علي دخل الجنة، ومن خالف ولاية علي دخل النار.
وأما قوله: "يؤفك عنه من أفك" قال: يعني عليًّا، من أفك عن ولايته أفك
عن الجنة، فذلك قوله: "يؤفك عنه من أفك" (ج ٤ ص ٢٣٩))

وعند قوله تعالى في سورة المدثر: (كل نفس بما كسبت رهينة. إلى قوله: (لم نك من المصلين)
روي عن أبي جعفر عن أبيه عن جده عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي عليه السلام:
يا علي، قوله عز وجل: "كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون.
عن المجرمين ما سلككم في سقر" فالمجرمون هم المنكرون لولايتك. "قالوا لم نك
من المصلين. ولم نك نطعم المسكين. وكنا نخوض مع الخائضين" فيقول لهم أصحاب اليمين:
ليس من هذا أتيتم، فما الذي سلككم في سقر يا أشقياء؟ قالوا: وكنا نكذب
بيوم الدين حتى أتانا اليقين. فقالوا لهم: هذا الذي سلككم في سقر يا أشقياء.
ويوم الدين يوم الميثاق حيث جحدوا وكذبوا بولايتك وعتوا عليك واستكبروا.
وفي سورة النبأ عند قوله تعالى: "يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون (ج ٤ ص ٤٢٤)
إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا" يروى عن أبي عبد الله أنه قال:
"لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا" قال: نحن والله المأذون
لهم يوم القيامة والقائلون صوابا. قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نمجد
ربنا ونصلي على نبينا ونشفع لشيعتنا فلا يردنا ربنا (ج ٤ ص ٤٢٤)

محمد حسين الذهبي - كلية الشريعة - بغداد ١٩٦٤

صورة خطية من نقولات الشيخ الذهبى من كتاب تفسير

«البرهان» ومنها أخذنا شواهد هذا البحث

٦- التبيان فى تفسير القرآن

للطوسى

التعريف بصاحب التفسير[(١)]:

هو محمد بن الحسن بن على، أبو جعفر، الطوسى، المعروف بـ «شيخ الطائفة» متكلم الشيعة وفقيه الإمامية، مصنف «تهذيب الأحكام» و «الاستبصار»، من الكتب الأربعة عند الإمامية والتى عليها مدار استنباط الأحكام.

ولد فى «طوس» من بلاد «خراسان» سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، وارتحل إلى بغداد سنة ثمان وأربعمائة، واستوطنها، وأخذ عن الشيخ المفيد ولازمه، واستفاد منه كثيرا، ثم لازم ـ بعد وفاة المفيد (سنة ٤١٣هـ) ـ الشريف المرتضى، وحظى بعنايته وتوجيهه لِمَا ظهر عليه من النبوغ والتفوق، وبعد وفاة المرتضى (سنة ٤٣٦هـ) استقل الطوسى بالزعامة الدينية، وارتفع شأنه، وذاع صيته.

وكان الطوسى من بحور العلم، متوفر الذكاء، عالى الهمة، واسع الرواية، ازدحم عليه العلماء والفضلاء، وحصل له من التلامذة ما لا يُحصى كثرة.

ومن الغريب أن السبكى ترجم له فى طبقات الشافعية الكبرى.

وللطوسى تصانيف كثيرة، منها: المبسوط فى فروع الفقه، النهاية فى الفقه، العدة فى أصول الفقه، المفصح فى الإمامة، مسائل الخلاف، والتبيان فى تفسير القرآن، وهو ما نحن بصدد دراسته.

توفى الطوسى بمشهد على من الكوفة سنة إحدى وستين وأربعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير التبيان يقع فى عشر مجلدات، وله أكثر من طبعة، وهو تفسير جامع وشامل لمختلف أبعاد الكلام حول القرآن، لغةً وأدبًا، قراءةً ونحوًا، تفسيرًا وتأويلا، فقهًا وكلامًا بحيث لم يترك جانبًا من جوانب التفسير، إلا وبحث عنه بحثًا وافيًا، فى

---

(١) مصادر الترجمة: الذريعة (٢/ ١٤)، روضات الجنات ٥٨٠، البداية والنهاية (١٢/ ٩٧)، طبقات الشافعية للسبكى (٤/ ١٢٦)، المنتظم (٨/ ٥٢).

وجازة وإيفاء بيان، ويبدو من إحالات الطوسى إلى كتبه الفقهية والأصولية والكلامية، أنه كتب «التبيان» فى فترة متأخرة عن سائر كتبه الأخرى.

الدواعى التى حملت الطوسى على كتابة تفسيره ووصفه إياه:

قال الطوسى فى مقدمة تفسيره: «فإن الذى حملنى على الشروع فى عمل هذا الكتاب، أنى لم أجد أحدًا من أصحابنا قديمًا وحديثًا من عمل كتابًا يحتوى على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه، وإنما سلك جماعة منهم فى جمع ما رواه ونقله وانتهى إليه فى الكتب المروية فى الحديث، ولم يتعرض أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج إليه، فوجدت من شرع فى تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل فى جميع معانيه، واستيعاب ما قيل فيه من فنون، كالطبرى وغيره، وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه، ومعانى ألفاظه، وسلك الباقون المتوسطون فى ذلك مسلك ما قويت فيه منتهم، وتركوا ما لا معرفة لهم به، فإن الزجَّاج والفراء ومن أشبههما من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلق بالإعراب والتصريف. ومفضل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة، واشتقاق الألفاظ. والمتكلمين كأبى على الجبائى وغيره صرفوا همتهم إلى ما يتعلق بالمعانى الكلامية. ومنهم من أضاف إلى ذلك، الكلام فى فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به، من بسط فروع الفقه، واختلاف الفقهاء كالبلخى وغيره، وأصلح من سلك فى ذلك مسلكًا جميلا مقتصدًا، محمد بن بحر، أبو مسلم الأصفهانى، وعلى بن عيسى الرمانى فإن كتابهما أصلح ما صنف فى هذا المعنى، غير أنهما أطالا الخطب فيه وأوردا فيه كثيرًا مما لا يُحتاج إليه».

ثم قال: «وسمعت جماعة من أصحابنا قديمًا وحديثًا يرغبون فى كتاب مقتصد، يجتمع على جميع فنون علم القرآن: من القراءة، والمعانى، والإعراب، والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه، وأنواع المبطلين، كالمجبرة والمشبهة والمجسمة وغيرهم، وذكر ما يختص أصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة مذهبهم فى أصول الديانات وفروعها، وأنا إن شاء الله تعالى أشرع فى ذلك على وجه الإيجاز والاختصار لكل فن من فنونه، ولا أطيل فيمله الناظر فيه، ولا أختصر اختصارًا يقصر فهمه عن معانيه».

رأى الطوسى فى تحريف القرآن:

قال الطوسى فى مقدمة تفسيره: «وأما الكلام فى زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضًا، لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذى نصره المرتضى، وهو الظاهر فى الروايات، غير أنه رويت روايات كثيرة، من جهة الخاصة والعامة، بنقصان كثير من آى القرآن، ونقل شىء منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التى لا توجب علمًا ولا عملا، والأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها، لأنه يمكن تأويلها، ولو صحت لما كان ذلك طعنًا على ما هو موجود بين الدفتين، فإن ذلك معلوم صحته، لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه، ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه، ورد ما يرد من اختلاف الأخبار فى الفروع إليه».

المنهج العام للطوسى فى «التبيان»:

أما المنهج الذى سلكه الطوسى فى تفسيره، فهو المنهج الذى مشى عليه أكثر المفسرين فى عصره، فيبدأ بذكر مقدمات تمهيدية، تقع نافعة فى معرفة أساليب القرآن، ومناهج بيانه وسائر شئونه، مما يرتبط بالتفسير والتأويل، وشروط التفسير المقبول، والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، ومعرفة وجوه إعجاز القرآن، وأحكام تلاوته وقراءته، وأنه نزل بحرف واحد، والكلام عن حديث: «نزل القرآن على سبعة أحرف» والتعرض لأسامى القرآن وأسامى سوره وآياته، وما إلى ذلك.

ويبدأ الطوسى تفسيره بذكر الآية، ويتعرض لغريب لغتها واختلاف القراءة فيها، ثم التعرض لمختلف الأقوال والآراء، وينتهى إلى تفسير الآية تفسيرًا معنويًا فى غاية الوجازة والإيفاء مع ذكر أسباب النزول، والمسائل الكلامية المستفادة من ظاهر الآية، حسب إمكان اللغة، كما يتعرض للمسائل الخلافية فى الفقه والأحكام، ومسائل الاعتقاد ونحوها، كل ذلك مع عفة اللسان وحسن الأدب فى التعبير.

أما بالنسبة للجانب اللغوى، فقد رأينا الطوسى لغويًا ونحويًا بكل ما فى الكلمة من معنًى حيث كان يسرد آراء اللغويين والنحاة، ثم يأتى عليها لينسف ما ينسف منها بدليل، ويثبت ما يثبت منها بحجة وبرهان، وكان يطرح رأيه الواضح المتميز والمغاير

لأراء غيره من أهل اللغة والنحو بجرأة عظيمة تنبئ عن وجود ثقافة لغوية ونحوية ضخمة تؤهله أن يكون فى مصاف علماء النحو واللغة.

أما بالنسبة للقراءات فلم يستنكر على أحد من القراء قراءته، وإنما كان يقول: بجواز القراءة بما يتداوله القراء، ولذلك يطرح آراءهم جميعًا فى تفسيره.

ورجع الطوسى فى القراءات إلى كل القراء المشهورين أمثال: عاصم، والكسائى، وخلف، وحمزة، ويعقوب، والأعمش، ونافع.

وأما موقفه من الشعر والشعراء، فقال عنه: «ولولا عناد الملحدين وتعجرفهم لما احتيج إلى الاحتجاج بالشعر وغيره، للشيء المشتبه فى القرآن؛ لأن غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلى، أو لفظ منقول عن بعض الأعراب، أو مَثَلٌ سائر عن أهل البادية، ولا تكون منزلة النبى صلى الله عليه وآله ـ وحاشاه من ذلك ـ أقل من منزلة واحد من هؤلاء».

ورغم قناعة الطوسى بعدم جواز الاحتجاج بشعر الشعراء على القرآن، إلا أنه استشهد بالشعر مبررًا ذلك بقوله: «إنما يحتج العلماء الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء اتساعًا فى العلم وقطعًا للشغب».

وناقش الطوسى فى «تبيانه» آراء المفسرين وبخاصة الطبرى، والجبائى، والرمانى، وأبى مسلم، ورجح آراء بعضهم على بعض الآخر، كما رفض أقوالهم أحيانًا، وطرح رأيًا يخالف ما قالوه مستدلا فى كل ذلك إلى حجة أو دليل رآه صوابًا.

وقد تخفف الطوسى فى تفسيره من الحديث عن المبهمات فى القرآن الكريم، وسكت عما سكت عنه القرآن الكريم، ولم يتكلف فى التأويل بأكثر مما يجب، وربما كان يعتبر الخوض فى مثل تلك المسائل والتعمق فيها من صوارف التفسير التى لا يرى الطوسى ضرورة فى سبر غورها والغوص فى تفاصيلها.

كما أشبع الطوسى آيات الأحكام شرحًا وبحثًا وتفصيلا، وقد طرح آراء بعض المجتهدين والمفسرين، وناقش أكثرهم، رادًا على قسم منهم ومبينًا رأيه الفقهى بوضوح وجلاء باعتباره من أئمة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية.

ثناء الطبرسى على التبيان:

ولعل الشيخ أبا على الفضل بن الحسن الطبرسى، مـؤلف كتاب «مجمع البيان فى تفسير القـرآن» خير من عرف حق هذا الرجل، وأول من اعترف بفضله وأهمـية كتابه، فقال فيه فى جملة ما قال: «إنـه الكتاب الذى يُقتبس منه ضياء الحق، ويلوح عليه رواء الصدق، قد تضـمن من المعانى الأسرار البديعـة، واحتضن من ألفاظ اللغة الوسـيعة، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا تنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضىء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره».

موقفه من النسخ:

ذكر الطوسى فى تفسيره الآيات الناسخة والمنسوخة، مع رده على بعض المفسرين الذين خالفوه فى الرأى، كما ورفض الرأى القائل بأن السنة ناسخة للقرآن الكريم مؤكدًا أن الآية القرآنية لا تنسخ إلا بآية قرآنية أخرى، وفق المصلحة ومشيئة الله تعالى.

إمامـــة علـى:

لما كان الطوسى يدين بإمامـة على ﷺ، ويرى أنه خليفة النبى ﷺ بلا فصل، فإنا نراه يحاول جاهدًا أن يثبت إمامتـه وولايته من القرآن الكريم، فنراه عند تفسير قوله تعـــالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ (المائدة: ٥٥) يقول: «واعلم أن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمامة أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بعد النبى بلا فصل.

ووجه الدلالة فـيهـا أنه قد ثبت أن الولى فى الآية بمـعنى الأولى والأحق، وثبت أيضًا أن المعنى بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فإذا ثبت هذان الأصلان دل على إمامته، لأن كل من قال: إن معنى الولى فى الآية ما ذكرناه قال: إنها خاصة فيه. ومن قال باختصاصها به ـ عليه السلام ـ قال: المراد بها الإمامة.

فإن قيل: دلوا أولاً على أن الولى يستعمل فى اللغة بمعنى الأولى والأحق ثم على أن المراد به فى الآية ذلك، ثم دلوا على توجهها إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام.

قلنا: الذى يدل على أن الولى يفيد الأولى قول أهل اللغة للسلطان المالك للأمر: فلان ولى الأمر، قال الكميت:

ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

ويقولون: فلان ولى عهد المسلمين إذا استخلف للأمر لأنه أولى بمقام من قبله من غيره، وقال النبى ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» يريد من هو أولى بالعقد عليها. وقال تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ يعقوب يعنى من يكون أولى بحيازة ميراثى من بنى العم. وقال المبرد: الولى والأولى والأحق والمولى بمعنى يقوم به الأئمة.

قلنا: من أصحابنا من قال: إنه كان إمامًا فى الحال ولكن لم يؤمر لوجود النبى ﷺ وكان وجوده مانعًا من تصرفه، فلما مضى النبى ﷺ قام بما كان له. ومنهم من قال ـ وهو الذى نعتمده ـ أن الآية على فرض طاعته واستحقاقه للإمامة، وهذا كان حاصلاً له. وأما التصرف فموقوف على ما بعد الوفاة كما يثبت استحقاق الأمر لولى العهد فى حياة الإمام الذى قبله وإن لم يجز له التصرف فى حياته. وكذلك يثبت استحقاق الوصية للوصى وإن منع من التصرف وجود الموصى. وكذلك القول فى الأئمة، وقد استوفينا الكلام على الآية فى كتاب «الإمامة» بما لا يحتمل بسطه ههنا.

فإن قيل: أليس قد رُوى أنها نزلت فى عبادة بن الصامت أو عبد الله بن سلام وأصحابه؟ فما أنكرتم أن يكون المراد بالذين آمنوا هم دون من ذهبتم إليه؟.

قلنا: أول ما نقوله: إنا دللنا على أن هذه الآية نزلت فى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ بنقل الطائفتين، ولما اعتبرناه من اعتبار الصفة المذكورة فى الآية وأنها ليست حاصلة فى غيره بطل ما يروى فى خلاف ذلك، على أن الذى روى فى الخبر من نزولها فى عبادة ابن الصامت لا ينافى ما قلناه؛ لأن عبادة لمّا تبرأ من حلف اليهود أعطى ولاية من تضمنته الآية، فأما ما روى من خبر عبد الله بن سلام فبخلاف ما ذهبوا إليه لأنه روى أن عبد الله بن سلام لما أسلم قطعت اليهود حلفه وتبرأوا منه، فاشتد ذلك عليه وعلى أصحابه، فأنزل الله تعالى الآية تسلية لعبد الله بن سلام وأصحابه وأنه قد عوضهم من محالفة اليهود، ولاية الله وولاية رسوله وولاية الذين آمنوا.

والذى يكشف عما قلناه أنه قد روى أنها لما نزلت خرج النبى ﷺ من البيت، فقال لبعض أصحابه: «هل أعطى أحدًا سائلاً شيئًا» فقالوا: نعم يا رسول الله، قد

أعطى على بن أبى طالب السائل خاتمه، وهو راكع. فقال النبى ﷺ: «الله اكبر قد أنزل الله فيه قرآنا» ثم تلا الآية إلى آخرها، وفى ذلك بطلان ما قالوه.

وقد استوفينا ما يتعلق بالشبهات المذكورة فى الآية فى كتاب «الاستيفاء» وحللناها بغاية ما يمكن، فمن أراده وقف عليه من هناك. فأما الولى بمعنى الناصر فلسنا ندفعه فى اللغة لكن لا يجوز أن يكون مرادًا فى الآية لما بيناه من نفى الاختصاص».

قلت: وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعاوى فى كتابه: «منهاج السنة» (٤/ ٣ - ٩).

عصمة الأئمة:

ولما كان الطوسى يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (النساء: ٥٩) يقول: «وروى أصحابنا عن أبى جعفر وأبى عبد الله ـ عليه السلام ـ: أنهم الأئمة من آل محمد ﷺ وآله، فلذلك أوجب الله تعالى طاعتهم بالإطلاق، كما أوجب طاعة رسوله وطاعة نفسه كذلك. ولا يجوز إيجاب طاعة أحد مطلقًا إلا من كان معصومًا مأمونًا منه السهو والغلط، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء، ولا العلماء، وإنما هو واجب فى الأئمة الذين دلت الأدلة على عصمتهم وطهارتهم، فأما من قال المراد به العلماء فقوله بعيد؛ لأن قوله: ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ**﴾ معناه: أطيعوا من له الأمر، وليس ذلك العلماء».

ثم قال: «وقوله: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ فمعنى الردّ إلى الله هو إلى كتابه، والرد إلى رسوله هو الردّ إلى سنته. وقول مجاهد، وقتادة، وميمون ابن مهران، والسدى: والرد إلى الأئمة يجرى مجرى الرد إلى الله والرسول، ولذلك قال فى آية أخرى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ**﴾ ولأنه إذا كان قولهم حجة من حيث كانوا معصومين حافظين للشرع جروا مجرى الرسول فى هذا الباب».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ١٢٤) قال الطوسى: «واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصومًا من القبائح؛ لأن الله

تعالى نفى أن ينال عهده ـ الذى هو الإمامة ـ ظالم، ومن ليس بـمعصوم فهو ظالم: إما لنفسه، أو لغيره. **فإن قـيل:** إنما نفى أن يناله ظالم فى حال كونه كذلك، فأما إذا تاب وأناب فلا يسمى ظالما، فلا يمتنع أن ينال؟ **قلنا:** إذا تاب لا يخرج من أن تكون الآية تناولته فى حال كونه ظالما، فإذا نفى أن يناله فقد حكم عليه بأنه لا ينالها، ولم يفد أنه لا ينالها فى هـذه الحال دون غيـرها، فيجب أن تحـمل الآية على عمـوم الأوقات فى ذلك، ولا ينالها وإن تاب فـيما بعـد. واستدلوا بهـا أيضا على أن الإمامـة منفصلة من النبوة، لأن الله خاطب إبراهيم ـ عليـه السلام ـ وهو نبى، فقال له: إنه سيجـعله إمامًا جزاء له على إتمـامه ما ابتلاه الله به من الكلمـات، ولو كان إمامًا فى الحـال لما كان للكلام معنـى، فدل ذلك على أن منزلة الإمامـة منفصلة من النبـوة. وإنما أراد الله أن يجعلها لإبراهيم ـ عليـه السلام ـ وقد أملينا رسالة مقـررة فى الفرق بين النبى والإمام، وأن النبى قد لا يكـون أمامًا على بعض الوجـوه، فأما الإمـام فلا شك أنه يكون غـير نبى».

موقفه من إمامة أبى بكر وعمر:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...**﴾ (النور: ٥٥) الآية، قال الطوسى: «واستدل الجبائى ومن تابعه علـى إمامة الخلفاء الأربعة بأن قال: الاستـخلاف المذكور فى الآية لم يكن إلا لهؤلاء؛ لأن التمكين المذكور فى الآية إنما حصل فى أيام أبى بكر وعمر؛ لأن الفتوح كانت فى أيامهم، فأبو بكر فـتح بلاد العرب وطرفًا من بلاد العجم، وعمر فتح مداين كسرى إلى حد خراسان وسجستان وغيرهما، فإذا كان التمكين والاستخلاف ههنا ليس هو إلا لهؤلاء الأئمة الأربعة وأصحابهم علمنا أنهم مُحِقُّون.

والكلام على ذلك من وجوه:

أحدها: أن الاستخلاف ههنا ليس هو الإمارة والخلافة، بل المعنى هو إبقاؤهم فى أثر من مضى من القرون، وجعلهم عوضًا منهم وخلفًا، كما قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ**﴾ (الأنعام: ١٦٥) وقال: ﴿**عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ**﴾ (الأعراف: ١٢٩) وقال سبـحانه: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ**﴾

(الأنعام: ١٣٣) وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ (الفرقان: ٦٢) أى: جعل كل واحد منهما خلف صاحبه، وإذا ثبت ذلـك، فالاستخلاف والتمكين الذى ذكره الله فى الآية، كـانا فى أيام النبى ﷺ حين قـمع الله أعداءه، وأعـلا كلمتـه ونشر ولايـته، وأظهر دعـوته، وأكمل دينه، ونعوذ بالله أن نقـول: لم يمكن الله دينه لنبيه فى حـياته حتى تلا فى ذلك مـتلاف [هكذا بـالأصل] بعده، وليس ذلك التمكين كـثرة الفتوح والغلبة على البلدان؛ لأن ذلك يوجب أن دين الله لم يتـمكن بعد إلى يومنا هذا لعلمنا ببقاء مـمالك للكفر كثـيرة لم يفتحهـا المسلمون، ويلزم على ذلك إمامـة معاوية وبنى أمية؛ لأنهم تمكنوا أكثر من تمكن أبى بكر وعمر، وفتحوا بلادًا لم يفتحوها.

ولو سلمنا أن المـراد بالاستخـلاف الإمامـة للزم أن يكون منصوصًـا عليه، وذلك ليس مذهب أكثـر مخالفينا، وإن استدلوا بـذلك على صحة إمامتهم احـتاجوا أن يدلوا على ثبوت إمامتهم بغـير الآية، وأنهم خلفاء الرسول حتى تتناولهم الآية. **فـإن قـالوا:** المفسرون ذكروا ذلك. **قلنا:** لم يذكر جميع المفسرين ذلك، فإن مجاهدًا قال: هم أمة محـمد ﷺ. وعـن ابن عبـاس وغيـره قريب من ذلك. وقـال أهل البيت ـ عليـهم السلام: إن المراد بذلك المهدى ـ عليه السـلام ـ لأنه يظهر بعد الخوف، ويتمكن بعد أن كان مغلوبًا، فليس فى ذلك إجمـاع المفسرين. وهذا أول ما فيه. وقد اسـتوفينا ما يتعلق بالآية فى كتاب «الإمامة» فلا نطيل بذكره ههنا، وقد تكلمنا على نظير هذه الآية، وأن ذلك ليس بطعن على واحد مـنهم، وإنما المراد الممـانعة من أن يكون فيـها دلالة على الإمامـة، وكيف يكون ذلك، ولو صح ما قالوه لمـا احتيج إلى اختـياره، ولكان منصوصًا عليه، وليس ذلك مذهبًا لأكثر العلماء، فصح ما قلنا».

التقيـــــة:

والطوسى ـ كغيره من علماء الإمامية ـ يقول بالتقية، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...﴾ (آل عمران: ٢٧) الآية، يقول: «والتقـية عندنا واجبـة عند الخوف على النفس، وقد روى رخـصة فى جواز الإفـصاح بالحق عندها. روى الحـسن أن مسيلمـة الكذاب أخذ رجلين من أصحـاب رسول الله ﷺ فقال لأحـدهما: أتشهـد أن محمدًا رسول الله؟ قـال: نعم، قال: أفتشـهد أنى رسول الله؟ قال: نعم، ثم دعا بالآخر فقال: أتشـهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم،

فقال له: أفتشهد أنى رسول الله؟ قال: إنى أصم، قالها ثلاثًا، كل ذلك تقية، فتقول ذلك، فضرب عنقه، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال: «أما هذا المقتول فمضى على صدقه وتقيته وأخذ بفضله، فهنيئًا له، وأما الآخر فقبل رخصة الله، فلا تبعة عليه». فعلى هذا التقية رخصة، والإفصاح بالحق فضيلة. وظاهر أخبارنا يدل على أنها واجبة، وخلافها خطأ».

الرجعة:

ولما كان الطوسى يقول بالرجعة فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول ما نصه: «وقول من قال: لا تجوز الرجعة لأن ذلك معجزة ودلالة على نبوة نبى، وذلك لا يجوز إلا فى زمن نبى، غير صحيح؛ لأن عندنا يجوز إظهار المعجزات على يد الأئمة والصالحين، وقد بيَّناه فى الأصول. ومن ادعى قيام الحجة بأن الخلق لا يردون إلى الدنيا كما علمنا أن لا نبى بعد نبينا مقترح مبتدع، لما لا دليل على صحته، فإنا لا نخالف فى ذلك، وقال البلخى: لا تجوز الرجعة مع الإعلام بها، لأن فيها إغراء بالمعاصى من جهة الاتكال على التوبة فى الكرَّة الثانية. قال الرمانى: هذا ليس بصحيح من قبل أنه لو كان فيها إغراء بالمعصية، لكان فى إعلام التقية إلى مدة إغراء بالمعصية. وقد أعلم الله تعالى نبيه وغيره إبليس أنه يبقيه إلى يوم يبعثون ولم يكن فى ذلك إغراء بالمعصية. وعندى أن الذى قاله البلخى ليس بصحيح؛ لأن من يقول بالرجعة لا يقطع على أن الناس كلهم يرجعون، فيكون فى ذلك اتكال على التوبة فى الرجعة، فيصير إغراء. فلا أحد من المكلفين إلا ويجوز أن لا يرجع وإن قطع على الرجعة فى الجملة، ويجوز أن لا يرجع، فكفى به فى باب الزجر. وأما قول الرمانى: إن الله تعالى أعلم أقوامًا مدة مقامهم، فإن ذلك لا يجوز إلا فيمن هو معصوم يؤمن من جهة الخطأ كالأنبياء ومن يجرى مجراهم فى كونهم معصومين. فأما من ليس بمعصوم، فلا يجوز ذلك، لأنه يصير مغرى بالقبح».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩) قال ما نصه: «وفى الآية دليل على أن الرجعة إلى دار

الدنيا جائزة لأقوام مخصوصين، لأنه تعالى أخبر أن قومًا ممن قتلوا فى سبيل الله ردهم الله أحياء كما كانوا، فأما الرجعة التى يذهب إليها أهل التناسخ، ففاسدة، والقول بها باطل».

تأثر الطوسى بفقه الشيعة فى تفسيره:

ونجد الطوسى فى تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الاثنى عشرية وآرائهم الاجتهادية، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم، وهو فى استدلاله ورده، ودفاعه وجدله، عنيف كل العنف، قوى إلى حد بعيد، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه، والباطل بجانب من يخالفه.

نكاح المتعة:

يقول الإمامية الاثنى عشرية بجواز نكاح المتعة، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين؛ فلهذا حاول الطوسى ـ وهو واحد منهم ـ أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى.

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...**﴾ **(النساء: ٢٤)** الآية، قال: «وأما الخبر الذى يروونه أن النبى ﷺ نهى عن المتعة فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته، فتارة يروون أنه نهى عنها فى عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها فى عام الفتح، وقد طعن أيضًا فى طريقه بما هو معروف، وأول دليل على ضعفه قول عمر: «متعتان كانتا فى عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما» فأخبر أن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله، وأنه الذى نهى عنهما، لضرب من الرأى. **فإن قالوا:** إنما نهى لأن النبى ﷺ كان نهى عنهما، **قلنا:** لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ فنهى عنهما، وأنا أنهى عنهما أيضًا، فكان يكون آكد فى باب المنع، فلما لم يقل ذلك دلَّ على أن التحريم لم يكن صدر عن النبى ﷺ، وصح ما قلناه. وقال الحكم بن عتيبة: قال على ـ عليه السلام: لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شفى.

وذكر البلخى، عن وكـيع، عن اسماعيل بن أبى خالد، عـن قيس بن أبى حازم، عن عبد الله بن مسعود: قـال: كنا مع النبى ﷺ ونحن شباب، فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ قال: «قال: لا» ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب، إلى أجل.

ثم قـال: وعن الباقـر ـ عليـه السلام ـ كـان علىٌّ يقـول: لولا مـا سبـقنى به ابن الخطاب ما زنى إلا شفى.

أقـول: إلا شفى ـ بالفاء ـ يعنى إلا قليل، أراد أنه لولا ما سبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه فى قلوب الناس لندبت الناس عليها ورغـبتهم فيها فاستغنوا بها عن الزنا، فما زنى منهم إلا قليل، وكان نهـيه عنها تارة بقوله: متعتان كـانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا محرمـهما ومعاقب عليهـما: متعة الحج، ومتـعة النساء، وأخرى بقولـه: ثلاث كن على عهـد رسول الله ﷺ أنا محـرمهن ومـعاقب عليـهن: متـعة الحج، ومتعة النســاء، وحىَّ على خير العمل فى الأذان؛ وفيه: جاء عبـد الله بن عمير الليثى إلى أبى جعفر ـ علـيه السلام ـ فقال له: ما تقول فى متعـة النساء؟ فقال: أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه فهى حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها؟ فقال: وإن كان فعل، قال: فإنى أعيذك بالله من ذلك أن تحل شيئًا حرمه عمر، فـقال له: فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله ﷺ، فهلم ألاعنك أن القول ما قال رسـول الله ﷺ وأن الباطل ما قال صاحبك، قال: فأقـبل عبد الله بن عميـر فقال: يسرك أن نساءك وبنـاتك وأخواتك وبنات عمك يفـعل ذلك؟ قـال: فأعـرض عنـه أبو جـعفـر حـين ذكر نساءه وبنات عمـه. وفيه سأل أبو حنيفة أبا جعفر محمد بن النعمان ـ صاحب الطاق ـ فقال له: يا أبا جعفر، ما تقول فى المتعـة، أتزعم أنها حلال؟ قال: نعم، قال: فـما يمنعك أن تأمر نساءك يستـمتعن ويكسبن عليك؟ فقال له أبو جعفر: لـيس كل الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالاً، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدراهم، ولكن مـا تقول: يا أبا حنيفة فى النبيذ، أتزعم أنه حلال؟ قال: نعم، قال: فـما يمنعك أن تقعد نساءك فى الحوانيـت نباذات فيكسبن عليك؟ فقال أبو حنيـفة: واحدة بواحدة وسهمك أنفذ، ثم قـال له أبو جعفر: إن الآية التى فى سأل سائل تنطق بتـحريم المتعة والرواية عن النبى ﷺ قد جـاءت بنسخها.

فقال له أبو جعفر: يا أبا حنيفة: إن سورة سأل سائل مكية وآية المتعة مدنية، وروايتك شاذة ردية، فقال أبو حنيفة: وآية الميراث أيضًا تنطق بنسخ المتعة، فقال أبو جعفر: قد ثبت النكاح بغير ميراث، فقال أبو حنيفة: من أين قلت ذلك؟ فقال أبو جعفر: لو أن رجلاً من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها ما تقول فيها؟ قال: لا ترث منه، فقال: قد ثبت النكاح بغير ميراث. ثم افترقا».

فرض الرجلين فى الوضوء:

كذلك يقول الطوسى كغيره من علماء الإمامية بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا نراه يجادل بكل قوة ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة، إن دلت على شىء فهو قوة عقله وسعة ذهنه وكثرة اطلاعه، فعندما فسر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ (المائدة: ٥) قال ما نصه: «﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ عطف على الرءوس، فمن قرأ بالجر ذهب إلى أنه يجب مسحهما كما وجب مسح الرأس، ومن نصبها ذهب إلى أنه معطوف على موضع الرءوس، لأن موضعها نصب لوقوع المسح عليها، وإنما جر الرءوس لدخول الباء الموجبة للتبعيض على ما بيَّناه، فالقراءتان جميعًا تفيدان المسح على ما نذهب إليه. وممن قال بالمسح: ابن عباس، والحسن البصرى، وأبو على الجبائى، ومحمد بن جرير الطبرى، وغيرهم ممن ذكرناهم فى «الخلاف» غير أنهم أوجبوا الجمع بين المسح والغسل، المسح بالكتاب، والغسل بالسنة، وخالف الطبرى فى ذلك. وأوجبوا كلهم استيعاب جميع الرِّجل ظاهرًا وباطنًا. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رءوس الأصابع إلى الكعبين. وهما الناتئان فى وسط القدم على ما استدل عليه. وقال عكرمة عن ابن عباس: الوضوء غسلتان ومسحتان. وبه قال أنس بن مالك. وقال عكرمة: ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح. وبه قال الشعبى، ألا ترى أن التيمم يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحا. وقال قتادة: افترض الله مسحتين وغسلتين. روى أوس بن أبى أوس قال: رأيت النبى ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام فصلى. وروى حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم، فبال عليها قائمًا، ثم دعا بماء، فتوضأ ومسح على نعليه، وعنه أنه قال: إن كتاب

الله المسح ويأبى الناس إلا الغسل. وعن أمير المؤمنين على ـ عليه السلام ـ أنه قال: ما نزل القرآن إلا بالمسح.

فإن قيل: القراءة بالجر ليست على العطف على الرءوس فى المعنى، وإنما عطف على طريق المجاورة، كما قالوا: جحر ضب خرب، وخرب، من صفات الجحر لا الضب، وكما قال الشاعر:

كان ثبيرًا فى عرنين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

والمزمل من صفه الكبير لا البجاد.

وقال الأعشى:

لقد كان فى حول ثواء ثويته تقضى لبانات ويسام سائم

قلنا: هذا لا يجوز من وجوه:

أحدها: ما قال الزجاج أن الإعراب بالمجاورة لا يجوز فى القرآن، وإنما يجوز ذلك فى ضرورة الكلام والشعر.

والثانى: أن الإعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف، فأما قول الشاعر:

فهل أنت إن ماتت إتانك راحل إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذى هو الفاء، فإنه يمكن أن يكون أراد الرفع وإنما جر الراوى وهما. ويكون عطفًا على راحل يكون قد أقوى لأن القصيدة مجرورة. وقال قوم: أراد بذلك الأمر وإنما جر لإطلاق الشعر.

والثالث: أن الإعراب بالمجاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس فأما قول الشاعر: ثواء ثويته، فإنما جره بالبدل من الحول، والمعنى لقد كان فى ثواء ثويته تقضى لبانات. وهو من بدل الاشتمال، كقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ (البروج: ٤) وقول الشاعر:

لم يبق إلا أسير غير منفلت وموثق فى عقال الأسر مكبول

فليس خفض موثق على المجاورة؛ لأن معنى البيت: لم يبق غير أسير، قالا بمعنى غير وهى تعاقبها فى الاستثناء. فقوله: غير موثق عطف المعنى على موضع أسير. وتقديره: لم يبق غير أسير وغير منفلت. وأما قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ (الواقعة: ٢٢) فى قراءة من جرهما، فليس بمجرور، بل يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون عطفا على قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ (الواقعة: ١٧، ١٨) إلى قوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ عطف على أكواب. وقولهم: إنه لا يطاف إلا بالكأس غير مسلم، بل لا يمتنع أن يطاف بالحور العين كما يطاف بالكأس، وقد ذكر فى جملة ما يطاف به الفاكهة واللحم.

والثانى: أنه لما قال: ﴿أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (الواقعة: ١١، ١٢) عطف بحور عين على جنات النعيم فكأنه قال: هم فى جنات النعيم. وفى مقاربة أو معاشرة حور عين. ذكره أبو على الفارسى.

فأما من قال: الرجلان ممسوحان ويراد بالمسح الغسل، فقوله يَبْطُل بما قلناه من أن المسح غير الغسل، واستشهادهم بقولهم: تمسحت للصلاة وأنهم سموا الغسل مسحًا. وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ (سورة ص: ٣٣) وأنه أراد غسلها، ولذلك قالوا: بعض أعضاء الطهارة مغسولة، وبعضها ممسوحة. وفلان يرى غسل الرجلين، وفلان يرى مسحهما، ولأنه لا خلاف أن الرأس ممسوح مسحًا ليس بغسل فلا بد أن يكون حكم الرجلين حكمه؛ لكونهما معطوفتين عليها، وقولهم: تمسحت للصلاة، فلأنهم لما أرادوا أن يخبروا بلفظ مختصر عن جميع أفعال الصلاة، لم يجز أن يقولوا: اغتسلت للصلاة؛ لأن فى الطهارة ما ليس بغسل.

واستطالوا أن يقولوا: اغتسلت وتمسحت للصلاة، قالوا بدلاً من ذلك: تمسحت، توسعا ومجازًا. وقوله: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ فأكثر المفسرين على أن المراد به فطفق ضربًا. ذهب إليه الفراء وأبو عبيدة. وقال آخرون: أراد المسح فى الحقيقة، وأنه كان مسح أعراقها وسوقها. وإنما حمل على الغسل شاذ منهم، ومن قال القراءة تقتضى المسح غير أنه المسح على الخفين فقوله باطل؛ لأن الخف لا يسمى رجلاً فى لغة ولا شرع. والله تعالى أمر بإيقاع الفرض على ما يسمى رجلا فى الحقيقة. وأما القراءة بالنصب فقد بينا أنها معطوفة على موضع الرءوس لأن موضعها النصب، والحكم فيها المسح والعطف على الموضع جائز، لأنهم يقولون: لست بقائم ولا قاعدا. ويقولون: حسبت بصدره وصدر زيد أن زيدًا فى الدار وعمرو، فيرفع عمرو بالعطف على الموضع. وقال الشاعر:

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال آخر:

هل أنت باعث دينار لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

وإنما نصب عبد رب؛ لأن التقدير باعث دينارًا، فحمله على الموضع، وقد سوغوا العطف على المعنى، وإن كان اللفظ لا يقتضيه، قال الشاعر:

جئنى بمثل بنى عمرو لقومهم أو مثل أسرة منظور بن سيار

لما كان معنى جئنى هات مثلهم، أو أعطنى مثلهم. قال: أو مثل بالنصب عطفًا على المعنى، وعطف الأرجل على الأيدى لا يجوز؛ لأن الكلام متى حصل فيه عاملان: قريب وبعيد لا يجوز إعمال البعيد دون القريب مع صحة حمله عليه. ولا يجوز أن يقول القائل: ضربت زيدًا وعمرًا، وأكرمت خالدًا وبكرًا. ويريد بنصب بكر العطف على زيد أو عمرو المضروبين، لأن ذلك خروج عن فصاحة الكلام، ودخول فى معنى اللغو، وبمثل ما قلناه ورد القرآن وأكثر الشعر، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾ (الجن: ٧) ولو أعمل الأول، لقال: كما ظنتموه. وقال: ﴿**آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**﴾ (الكهف: ٩٦) ولو أعمل الأول لقال: أفرغه. وقال: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾ (الحاقة: ١٩) ولو أعمل الأول لقال: هاؤم اقرأوه. وقال الشاعر:

قضى كل ذى دين فوفَّى غريمه وعزة ممطولٌ مُعنى غريمها

ولو أعمل الأول لقال: فوفاه غريمه. فأما قول امرئ القيس:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

فإنما أعمل الأول للضرورة؛ لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا وإنما كان المطلوب عنده الملك. وجعل القليل كافيًا. ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى.

فأما من نصب بتقدير: واغسلوا أرجلكم، كما قالوا:

* متقلدًا سيفا ورمحا *

وقال:

* وعلفها تبنًا وماء باردا *

فقد أخطأ لأن ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على اللفظ.

فأمـا إذا جاز حمله على ما فى اللفـظ، فلا يجوز هذا التقـدير. ومن قال: يجب غسل الرجلين؛ لأنهما محدودتان كـاليدين، فقوله ليس بصحيح؛ لأنَّا لا نسلم أن العلة فى كون اليدين مغسولتين كونهما مـحدودتين، وإنما وجب غسلهما؛ لأنهما عطفا على عضو مغسول، وهو الوجه، فكذلك إذا عطف الرجلين على ممسوح هو الرأس، وجب أن يكونا ممسوحـين. والكعبان عندنا هما الناتئان فى وسط القدم، وبه قـال محمد بن الحســن، وإن أوجب الغسل. وقـال أكثر المـفسـرين والفقـهاء: الكعـبان هما عـظما الساقـين، يدل على ما قلناه أنه لو أراد مـا قالوا لقال: إلى الكعـاب؛ لأن فى الرجلين منهـا أربعة. وأيضًـا فكل من قـال: يجب مـسح الرجلين، ولا يجـوز الغسل، قـال: الكعب، وهو ما قلناه؛ لأن من خـالف فى أن الكعب ما قلناه على قولين: قـائل يقول بوجوب الغسل، وآخر يقول بالتخيير».

نكاح الكتابيات:

ولما كان مذهب الطوسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ** ... ﴾ (البقرة: ٢٢١) الآية، نجـده يقول: «وهذه الآية على عـمومـها عندنا فى تحـريم مناكحـة الكفار، وليـست منسوخة ولا مخصوصة. وقال ابن عباس فى رواية شهر بن حوشب عنه قال: فرَّق عمر بين طلحة وحذيفة وبين امرأتيهما اللتيْن كانتا عندهما، وقال غيره عن ابن عباس، وإليه ذهب الحسن، ومجاهد والربيع: هى عـامة إلا أنها نسخت بقوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾ (المائدة: ٥) وقال قتادة، وسعيد بن جبير: هى على الخصوص، وإنما اختير ما قلناه لأنه لا دليل على نسخها، ولا على خصوصها».

ثم قال: «وعندنا لا يجـوز العقد على الكتابية نكاح الـدوام، لقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ** ﴾ (البـقرة: ٢٢١) ولقوله: ﴿ **وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ** ﴾ (المـمتـحنة: ١٠) فإذا ثبت ذلك قلـنا فى قوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ** ﴾ تـأويـلان: أحـدهـمـا: أن يكون المـراد بذلك اللائى أسلمن منهن. والمراد بـقوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ من كن فى الأصل مؤمنات ولدن على الإسلام، قيل: إن

قومًا كانوا يتحرجون من العقد على الكافرة إذا أسلمت، فبين الله بذلك أنه لا حرج فى ذلك، فلذلك أفردهن بالذكر، حكى ذلك البلخى.

والثانى: أن يخص ذلك بنكاح المتعة أو ملك اليمين، لأنه يجوز عندنا وطؤهن بعقد المتعة وملك اليمين، على أنه روى أبو الجارود عن أبى جعفر - عليه السلام - أن ذلك منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وروى عن عبد الله - عليه السلام - أنه قال: هو منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ وقوله: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ﴾».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠) قال ما نصه: «وفى ذلك دلالة على أنه لا يجوز العقد على الكافرة سواء كانت ذمية أو حربية أو عابدة وثن، وعلى كل حالٍ؛ لأنه عام فى جميع ذلك، وليس لأحد أن يخص الآية بعابدة الوثن لنزولها بسببهم، لأن المعتبر بعموم اللفظ لا بالسبب».

ثم قال: «والمفسرون على أن حكم هذه الآية منسوخ، وعندنا أن الآية غير منسوخة وفيها دلالة على المنع من تزوج المسلم اليهودية والنصرانية، لأنهما كافرتان، والآية على عمومها فى المنع من التمسك بعصم الكوافر، ولا نخصها إلا بدليل».

الغنائم:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم، فيوجبون الخُمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب، بل يشمل أنواعًا سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعثر عليه، والمعدن الذى يُستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى. وليس الخُمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقًّا امتيازيًا لآل محمد الذين حُرِّمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخُمس حقٌّ سلطانى بإرادة ملكية، وهى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن(١).

(١) تعريف الشيعة ص ٣١.

لما كان هذا، فـإنا نجد الطوسى يُنزل ما ورد فى الغنائم من الآيات عـلى مذهبه، ولهذا عندما فسر قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ...﴾ (الأنفال: ٤١) الآية، يقول متأثرًا بمذهبه:

«وأما خـمس الغنيمـة فإنه يُقـسم عندنا سـتة أقسام: فـسهم لله، وسهـم لرسوله ﷺ، وهذان السهـمان مع سهم ذى القـربى، للقائم مـقام النبى ﷺ ينفقـها على نفسه وأهل بيته من بنى هاشم، وسهم لليتـامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل من أهل بيت الرسول لا يُشـركهم فيهـا باقى الناس، لأن الله تعالى عوَّضهم ذلـك عما أباح لفقـراء المسلمين ومـساكينهم وأبـناء سبيلهم من الصـدقات، إذ كانت الصـدقات محرمة على أهل بيت رسول الله ـ عليـهم السلام ـ وهو قول على بن الحسين بن على ابن أبى طالب، ومحمد بن على الباقر ابنه عليهم السلام، رواه الطبرى بإسناده عنهما.

وقال الحسين بن على المغربى حاكيًا عن الصابونى من أصحابنا: إن هؤلاء الثلاثة فرق لا يدخلون فى سـهم ذى القربى، وإن كان عـموم اللفظ يقتـضيه؛ لأن سهـامهم مفردة، وهو الظاهر من المذهب.

والذين يستحقون الخمس عندنا: من كان ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين، فأما ولد عبد مناف من المطلبيين فلا شـىء لهم فيـه، وعند أصحـابنا الخمس يجب فى كل فـائدة تحصل للإنسـان من المكاسب وأرباح التجارات والكنوز والمعادن والغوص وغـير ذلك مما ذكرناه فى كتب الفقه.

ويمكن الاستدلال على ذلك بهذه الآية، لأن جميع ذلك يسمى غنيمة».

ثم قال: «وقد بيَّنا نحن أن المـراد بذى القربى أهل بيت النبى ﷺ، وبعد النبى القائم مقامه، وبه قال على بن الحسين ـ عليه السلام ـ وروى جبير بن مطعم عن النبى ﷺ: أنهم بنو هاشم، وبنو المطلب، واختاره الشافعـى، وقال الحسن وقتادة: سهم الله وسهم رسوله وسـهم ذى القربى لولى الأمر من بعده، وهو مـثل مذهبنا. وقال أبو على الجبائى: إن الأئمة الأربعة جـعلوا سهم الرسول وذى القربى فى الكراع والسلاح، وأجمـعوا على أن سهم اليـتامى والمسـاكين وابن السـبيل شائع فى الناس بخـلاف ما قلناه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ (الحشر: ٥) قال الطوسى: «يعنى من اليهود الذين أجلاهم من بنى النضير، وإن كان الحكم ساريًا فى جميع الكفار أيًا كان حكمهم، فالفىء رد ما كان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إياهم ذلك، على ما شرط فيه، يقال: فاء يفىء فيئًا إذا رجع، وأفأته عليه إذا رددته عليه. وقال عمر ابن الخطاب ومعمر: مال الفىء هو مال الجزية والخراج. والفىء كل ما رجع من أموال الكافرين إلى المؤمنين، سواء كان غنيمة أو غير غنيمة، فالغنيمة ما أخذ بالسيف، فأربعة أخماسه للمقاتلة وخمسه للذين ذكرهم الله فى قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم ...﴾ (الأنفال: ٤١) الآية.

وقال كثير من العلماء: إن الفىء المذكور فى هذه الآية هو الغنيمة. وقال قوم: مال الفىء خلاف مال الصدقات، لأن مال الفىء أوسع، فإنه يجوز أن يصرف فى مصالح المسلمين، ومال الصدقات إنما هو فى الأصناف الثمانية. قال قوم: مال الفىء يأخذ منه الفقراء من قرابة رسول الله ﷺ بإجماع الصحابة فى زمن عمر بن الخطاب، ولم يخالفه فيه أحد إلا الشافعى، فإنه قال: يأخذ منه الفقراء والأغنياء، وإنما ذُكِروا فى الآية لأنهم مُنعوا الصدقة، فبيَّن الله أن لهم فى مال الفىء حقًا. وقال عمر بن الخطاب: مال بنى النضير كان فيأ لرسول الله ﷺ خاصة ﴿وَلِذِى الْقُرْبَىٰ﴾ قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله من بنى هاشم وبنى عبد المطلب. وقيل: جعل أبو بكر وعمر سهمين: سهم رسوله وسهم قرابته من الأغنياء فى سبيل الله، وصدقة عن رسول الله ﷺ، ذكره قتادة. والباقى فى أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا أبًا لهم، وابن السبيل المنقطع به من المسافرين فى غير معصية الله. وقال يزيد بن رومان: الغنيمة ما أخذ من دار الحرب بالقتال عنوة. وقيل: كانت الغنائم فى صدر الإسلام لهؤلاء الأصناف، ثم نسخ بما ذكره فى سورة الأنفال: بالخمس، والباقى للمحاربين، ذكره قتادة.

والذى نذهب إليه أن مال الفىء غير مال الغنيمة، فالغنيمة كل ما أخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام، وما لا يمكن نقله إلى دار الإسلام، فهو لجميع المسلمين ينظر فيه الإمام ويصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح

المسلمين. والفيء كل ما أخذ من الكفار بغير قتال أو انجلاء أهلها، وكان ذلك للنبى ﷺ وآله خاصة يضعه فى المذكورين فى هذه الآية، وهو لمن قام مقامه من الأئمة الراشدين».

ميراث الأنبياء:

والطوسى يقول - كغيره من علماء مذهبه - بأن الأنبياء يورثون، ولذلك نراه عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ (مريم: ٤، ٥) يقول: «وفى الآية دلالة على أن الأنبياء يورثون المال بخلاف ما يقول من خالفنا أنهم لا يورثون؛ لأن زكريا صرَّح بدعائه وطلب من يرثه ويحجب بنى عمه وعصبته من الولد. وحقيقة الميراث: انتقال ملك المورث إلى ورثته بعد موته بحكم الله، وحَمْل ذلك على العلم والنبوة على خلاف الظاهر، لأن النبوة والعلم لا يورثان؛ لأن النبوة تابعة للمصلحة لا مدخل للنسب فيها، والعلم موقوف على من يتعرض له ويتعلمه، على أن زكريا إنما سأل وليّا من ولده يحجب مواليه من بنى عمه وعصبته من الميراث، وذلك لا يليق إلا بالمال؛ لأن النبوة والعلم لا يحجب الولد عنهما بحال، على أن اشتراطه أن يجعله (رضيّا) لا يليق بالنبوة، لأن النبى لا يكون إلا رضيّا معصومًا فلا معنى لمسألته ذلك، وليس كذلك المال، لأنه يرثه الرضى وغير الرضى».

الإجماع وعصمة الأئمة:

ولما كان الطوسى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حُجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفًا عن رأى الإمام أو كان داخلاً فى جملة المجمعين[1]، فإنا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) يقول: «فأما الأمة فجماعتها حجة دون كل واحد منها. واستدل البلخى، والجبائى، والرمانى، وابن الأخشاد، وكثير من الفقهاء، وغيرهم بهذه الآية على أن الإجماع حجة من حيث أن الله وصفهم بأنهم عدول، فإذا

---

(١) تعريف الشيعة ص ١٦.

عدَّلهم الله تعالى، لم يجز أن تكون شهادتهم مردودة، وقد بيَّنا فى أصول الفقه أنه لا دلالة فيها على أن الإجماع حجة وجملته أن الله تعالى وصفهم بأنهم عدول، وبأنهم شهداء، وذلك يقتضى أن يكون كل واحد عدلا، وشاهدًا، لأن شهداء جمع شهيد، وقد علمنا أن كل واحد من هذه الأمة ليس بهذه الصفة، فلم يجز أن يكون المراد ما قالوه، على أن الأمة إن أريد بها جميع الأمة، فقد بينا أن فيها كثيرًا ممن يحكم بفسقه بل بكفره، فلا يجوز حملها على الجميع. وإن خصوها بالمؤمنين العدول، لنا أن نخصها بجماعة، كل واحد منهم موصوف بما وصفنا به جماعتهم: وهم الأئمة المعصومون من آل الرسول ﷺ، على أنَّا لو سلمنا ما قالوه من كونهم عدولا، ينبغى أن نجنبهم ما يقدح فى عدالتهم، وهى الكبائر، فأما الصغائر فلم يمكنا أن نحتج بإجماعهم، لأن ما من شىء أجمعوا عليه إلا ويجوز أن يكون صغيرًا فلا يقدح فى عدالتهم، ولا يجب الاقتداء بهم فيه لكونه قبيحًا. وفى ذلك بطلان الاحتجاج بإجماعهم. وكيف يجنبون الصغائر وحال شهادتهم ليس بأعظم من شهادة النبى ﷺ، ومع هذا يجوزون عليه الصغائر، فهلا جاز مثل ذلك عليهم، ولا تقدح فى عدالتهم كما لم تقدح فى عدالة النبى ﷺ».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء: ١١٥) قال: «وقد استدل خلق من المتكلمين والفقهاء بهذه الآية على أن الإجماع حجة، بأن قالوا: توعد الله على اتباع غير سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول ﷺ فلولا أن اتباعهم واجب لم يجز».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٨) قال ما نصه: «واستدل جماعة بهذه الآية على أن الإجماع حجة بأن قالوا: إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع، لا يجب الرد، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة، وهذا إن استدل به مع فرض أن فى الأمة معصومًا حافظا للشرع كان صحيحًا، وإن

فرضوا مع عدم المعصوم كان باطلا، لأن ذلك استدلال بدليل خطاب، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لا يدل على أن ما عداه بخلافه عند أكثر المحصلين، فكيف يعتمد عليه ههنا، على أنهم لا يجمعون على شىء إلا عن كتاب أو سنة، فكيف يقال: إذا أجمعوا لا يجب عليه الرد إلى الكتاب والسنة، وهم قد ردوا إليها، على أن ذلك يلزم فى كل جماعة، وإن لم يكونوا جميع الأمة إذا اتفقوا على شىء ألا يجب عليهم الرد إلى الكتاب والسنة؛ لأن قوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ يتناول جماعة ولا يستغرق جميع الأمة، فعلم بذلك فساد الاستدلال بما قالوه. وقد بيَّنا الكلام على ذلك مستوفًى فى «العدة فى أصول الفقه».

تأثر الطوسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره:

هذا.. وإن عقيدة الطوسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادئ المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيرًا ما يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية ويرتضى مذهبهم ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ما عداه. وأحيانًا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يُسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم، والمعارض لأدلتهم.

الهدى والضلال:

ففى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله، نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ما عداها.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا** ...﴾ (الأنعام: ١٢٥).. الآية يقول ما نصه: «وقيل فى معنى الآية والإضلال فى الآية قولان:

أحدهما: أنه يريد بالهدى تسهيل السبيل إلى الإسلام بالدلائل التى يشرح بها الصدر، والإضلال تصعيب السبيل إليه بالدلائل التى يضيق بها الصدر، لأن حاله أوجبت تغليظ المحنة عليه من غير أن يكون هناك مانع له ولا تدبير غير أولى منه، وإنما هو حض على الاجتهاد فى طلب الحق حتى ينشرح بالدلائل الصدر، ولا يضيق بدعائها إلى خلاف ما سبق من العقد، والهدى إلى ما طلبه طالب الحق، والإضلال عما طلبه طالب تأكيد الكفر.

والثانى: أن يراد بالهداية: الهداية إلى الثواب، وبالإضلال: الإضلال عن الثواب والسلوك به إلى العقاب، ويكون التقدير: من يرد الله أن يهديه للثواب فى الآخرة فيشرح صدره للإسلام فى الدنيا بأن يفعل له اللطف الذى يختار عنده الإسلام، ومن يرد أن يعاقبه ويعدل به عن الثواب إلى النار يجعل صدره ضيقًا حرجًا بما سبق من سوء اختياره الكفر جزاء على فعله ويخذله ويخلى بينه وبين ما يريده من الكفر أو يحكم على قلبه بالضيق والحرج، أو يسميه بذلك على ما فسرناه.

وهذا الإضلال لا يكون إلا مستحقًا كما أن تلك الهداية لا تكون إلا مستحقة، وقد سمى الله تعالى الثواب هداية فى قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**﴾ (الأعراف: ٤٣) وقال: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ**﴾ (محمد: ٤، ٥) والهداية بعد القتل إنما هى الثواب فى الجنة، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى**﴾ (محمد: ١٧) وقال: ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ (التغابن: ١١) وقال: ﴿**يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ**﴾ (التغابن: ١١) وقال: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت: ٦٩) وكل ذلك يراد به الثواب، وقد سمى العقاب ضلالا فى قوله: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾ (إبراهيم: ٢٧) وقوله: ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ (البقرة: ٢٦).

وهذه الجملة معنى قول أبى على الجبائى والبلخى، والأول قول الرمانى، وقيل أيضا: إنما يشرح قلب المؤمن بالآيات، والدلائل لكونه طالب للحق، ولم يفعل ذلك بالكافر لكونه طالبًا لتأكيد الكفر، وفى هذا الوجه حضٌّ على طلب الحق».

رؤية الله تعالى فى الآخرة:

كذلك يقول الطوسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين: (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ بما يتفق ومذهبه فيقول: «وقوله: ﴿**إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ معناه منتظرة نعمة ربها وثوابه أن يصل إليهم. وقيل: ﴿**نَّاضِرَةٌ**﴾ أى: مشرقة ﴿**إِلَى**﴾ ثواب ربها ﴿**نَاظِرَةٌ**﴾ وليس فى ذلك تنغيص لأن الانتظار إنما يكون فيه تنغيص إذا كان لا يوثق بوصوله إلى المنتظر أو هو محتاج إليه فى الحال. والمؤمنون

بخلاف ذلك، لأنهم فى الحال مُستغنون مُنعمون، وهم أيضًا واثقون أنهم يصلون إلى الثواب المنتظر. والنظر هو تقارب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلبًا للرؤية.

ويكون النظر بمعنى الانتظار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ﴾ (النمل: ٣٥) أى منتظرة، وقال الشاعر:

وجـــــوه يـوم بـدر ناظـرات   إلى الـرحـمن تـأتى بالفـــلاح

أى منتظرة للرحمة التى تنزل عليهم.

وقد يقول القائل: إنما عينى ممدودة إلى الله، وإلى فلان، وأنظر إليه، أى: أنتظر خيره ونفعه، وأؤمل ذلك من جهته، وقوله: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران: ٧٧) معناه: لا ينيلهم رحمته.

ويكون النظر بمعنى المقابلة، ومنه المناظرة فى الجدل، ومنه نظر الرحمة، أى: قابله بالرحمة، ويقال: دور بنى فلان تتناظر أى تتقابل، وهو ينظر إلى فلان أى يؤمله وينتظر خيره، وليس النظر بمعنى الرؤية أصلا؛ بدلالة أنهم يقولون: نظرت إلى الهلال فلم أره، فلو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضًا، ولأنهم يجعلون الرؤية غاية للنظر يقولون: ما زلت أنظر إليه حتى رأيته، ولا يجعل الشىء غاية لنفسه، لا يقال: بما زلت أراه حتى رأيته، ويعلم الناظر ناظرًا ضرورة، ولا يعلم كونه رائيًا بل يسأل بعد ذلك: هل رأيت أم لا؟ ودخول «إلى» فى الآية لا يدل على أن المراد بالنظر الرؤية، ولا تعليقه بالوجوه يدل على ذلك، لأنَّا أنشدنا البيت، وفيه تعليق النظر بالوجه وتعديه بحرف «إلى» والمراد به الانتظار، وقال جميل بن معمر:

وإذا نـظـرت إلـيـك مـن مـلـك   والبـحـر دونك جـدتـنى نعـمـاء

والمراد به الانتظار والتأميل، وأيضًا فإنه فى مقابلة قوله فى صفة أهل النار: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٥) فالمؤمنون يؤمنون بتجديد الكرامة وينتظرون الثواب، والكفار يظنون الفاقرة، وكله راجع إلى فعل القلب، ولو سلمنا أن النظر يعد الرؤية لجاز أن يكون المراد أنها رؤية ثواب ربها، لأن الثواب الذى هو أنواع اللذات من المأكول والمشروب والمنكوح تصح رؤيته. ويجوز أيضًا أن يكون إلى واحد الآلاء، وفى واحدها لغات: «ألا» مثل قفا، و «ألى» مثل معى، و «ألى» مثل حسى، فإذا

أضيف إلى غيره سقط الـتنوين، ولا يكون (إلى) حرفًا فى الآية، وكل ذلك يبطل قول من أجاز الرؤية على الله تعالى».

السـحر:

والطوسى ينكر حقيقة السحـر ولا يقول به، ويخالف جمهور أهل السنة فى ذلك، ويرد أدلتهم، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله ﷺ، ولهذا تراه فى تفسيره لقـوله تعالى: للآية (١٠٢) من سـورة البقـرة: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ . . . الآية، يقول ما نصه:

«وقيل فى معنى السحر أربعة أقوال:

أحـدها: أنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيـقة لها يخيل إلى المسحور أن لها حقيقة.

والثانى: أنه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

والثـالث: أنه قلب الحيـوان من صورة إلى صورة، وإنشاء الأجـسام على وجه الاختراع، فيمكن للساحر أن يقلب الإنسان حمارًا وينشئ أجسامًا.

والرابع: أنه ضرب من خدع الجن كالذى يمسك له التجدل فيصرع.

وأقرب الأقوال الأول، لأن كل شـيء خـرج عن العـادة الـخـارقة فإنـه لا يجـوز أن يتأتى من السـاحر. ومن جـوَّز للسـاحر شـيئًا من هذا فـقد كفـر لأنه لا يمكنه مع ذلك العلم بصـحة المعـجزات الدالة على النبـوات، لأنه أجاز مـثله من جهة الـحيلة والسحر».

ثم قـال: «فأمـا ما روى من أن النبى ﷺ سُـحِرَ، وكـان يرى أنه يفعل مـا لم يفعله، وأنه لم يفعله، فـأخبار آحاد لا يلتفت إليها، وحـاشا النبى ﷺ من كل صفة نقص، إذ تنفر من قبول قـوله؛ لأنه حجة الله على خلقه، وصفيه من عـباده، واختاره الله على علم منه. فكيف يجوز ذلك مع ما جنَّبـه الله من الفظاظة والغلظة، وغير ذلك من الأخلاق الدنيـئة، والخلق المشـينة، ولا يجوِّز ذلك على الأنبيـاء إلا من لم يعرف مقدارهم ولا يعرفهم حقيقة معرفتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾، وقد أكذب الله من قال: ﴿**إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا**﴾ فقال: ﴿**إِذْ يَقُولُ**

الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾(الإسراء: ٤٧) فنعوذ بالله من الخذلان، ونحمده على التوفيق لما يرضاه».

الشفاعة:

هذا.. ولا يلتزم الطوسى القول بكل آراء المعتزلة، بل نراه يخالفهم فى كثير من الأحيان، ويرد عليهم آراءهم، ويجادلهم فيها جدالاً عنيفًا قويًا.

فمذهب الطوسى فى الشفاعة مثلاً يخالف مذهب المعتزلة، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يقول ما نصه:

«وتقول: فلان يشفع إلىَّ بالعداوة، أى: يعين علىَّ ويعادينى، وتقول: شفعت الرجل: إذا صرت ثانيه، وشفعت له: إذا كانت له شافعًا، وإنما سميت شفعة الدار، لأن صاحبها يشفع ما له بها، ويضمها إلى ملكه، وقوله: ﴿ وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ مخصوص عندنا بالكفار، لأن حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون فى إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبى ﷺ فيشفعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلاة لما روى من قوله ﷺ: ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» وإنما قلنا لا تكون فى زيادة المنافع؛ لأنها لو استعملت فى ذلك، لكان أحدنا شافعًا فى النبى ﷺ إذا سأل الله أن يزيده فى كراماته، وذلك خلاف الإجماع، فعلم بذلك أن الشفاعة مختصة بما قلناه، وعلم بثبوت الشفاعة أن النفى فى الآية يختص بالكفار دون أهل القبلة.

والشفاعة ثبتت عندنا للنبى ﷺ وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين، وقيل: إن نفى الشفاعة فى هذه الآية يختص باليهود من بنى إسرائيل، لأنهم ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وأن آباءهم يشفعون إليه، فآيسهم الله من ذلك، فأخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ولا بد من تخصيص الآية لكل أحد، لأن المعتزلة القائلين بالوعيد يثبتون شفاعة مقبولة - وإن قالوا: إنها فى زيادة المنافع».

حقيقة الإيمان:

والطوسى أيضًا يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣) قال:

«واستدل من قال الصلاة: الإيمان بهذه الآية، فقالوا: سمى الله الصلاة إيمانًا على تأويل ابن عباس، وقتادة، والسدى، والربيع، وداود بن أبى عاصم، وابن زيد، وسعيد ابن المنذر، وعمرو بن عبيد، وواصل، وجميع المعتزلة. ومن خالفهم من المرجئة لا يسلم هذا التأويل ويقول: الإيمان على ظاهره وهو التصديق ولا ينزل ذلك بقول من ليس قوله حجة، لأنهم ليسوا جميع المفسرين بل بعضهم ولا يكون ذلك حجة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩) الآية، قال: «والإيمان عندنا وعند المعتزلة بمعنًى واحد، غير أن عندهم أن فعل الواجبات من أفعال الجوارح من الإيمان، وعندنا أن أفعال الواجبات من أفعال القلوب التى هى التصديق من الإيمان، فأما أفعال الجوارح، فليست من الإيمان، وإن كانت واجبة».

موقفه من أصحاب الكبائر:

وقد خالف الطوسى المعتزلة فى هذه المسألة فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (النساء: ١٣) قال: «واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن فاسق أهل الصلاة مخلد فى النار، ومعاقب لا محالة، وهذا لا دلالة لهم فيه من وجوه؛ لأن قوله: ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ إشارة إلى من يتعدى جميع حدود الله، ومن كان كذلك فعندنا يكون كافرًا، وأيضًا فلا خلاف أن الآية مخصوصة بصاحب الصغيرة، وإن كان فعل المعصية، وتعدى حدًا فإنه خارج منها، فإن جاز لهم إخراج الصغيرة منها لدليل، جاز لنا أن نخرج من يتفضل الله عليه بالعفو، أو يشفع فيه النبى ﷺ، وأيضًا فإن التائب لا بد من إخراجه من هذه الآية لقيام الدلالة على وجوب قبول التوبة، فكذلك يجب أن يشترط من يتفضل الله بإسقاط عقابه، **فإن قالوا:** قبول التوبة واجب، والعفو ليس بواجب؟ **قلنا:** قبول التوبة واجب إذا حصلت، وكذلك سقوط العقاب واجب إذا حصل العفو. **فإن قالوا:** يجوز أن لا يختار الله العفو، **قلنا:** وكذلك يجوز ألا يختار العاصى التوبة، فإن جعلوا الآية دالة على أن

الله لا يختار العفو، جاز لغيرهم أن يجعل الآية دالة على أن العاصى لا يختار التوبة، على أن هذه الآية معارضة بآيات كثيرة، فى وقوع العفو. كقوله: ﴿ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٧) على ما سنبينه فيما بعد، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٢) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٥). فإن شرطوا فى آياتنا التوبة، شرطنا فى آياتهم ارتفاع العفو، والكلام فى ذلك مستقصًى فى الوعيد، لا نطول بذكره فى هذا الكتاب».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٢) قال الطوسى: «واستدلت المعتزلة بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى نار جهنم، وأنه إذا قتل مؤمنًا، فإنه يستحق الخلود، ولا يعفى عنه بظاهر اللفظ. ولنا أن نقول: ما أنكرتم أن يكون المراد بالآية للكفار ومن لا ثواب له أصلا. فأما من هو مستحق للثواب، فلا يجوز أن يكون مرادًا بالخلود أصلا، لما بيَّناه فيما مضى من نظائره. وقد روى أصحابنا أن الآية متوجهة إلى من يقتل المؤمن لإيمانه، وذلك لا يكون إلا كافرا. وقال عكرمة، وابن جريج: أن الآية نزلت فى إنسان بعينه ارتد ثم قتل مسلمًا، فأنزل الله تعالى فيه الآية؛ لأنه كان مستحلا لقتله، على أنه قد قيل: إن قوله: ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ لا يفهم من الخلود فى اللغة إلا طول اللبث، فأما البقاء ببقاء الله، فلا يعرف فى اللغة، ثم لا خلاف أن الآية مخصوصة بمن لا يتوب؛ لأنه إن تاب فلا بد من العفو عنه إجماعًا، وبه قال مجاهد. وقال ابن عباس: لا توبة له ولا إذا قتله فى حال الشرك ثم أسلم وتاب. وبه قال ابن مسعود، وزيد بن ثابت، والضحاك. ولا يعترض على ما قلناه قول من يقول: إن قاتل العمد لا يوفق للتوبة؛ لأن هذا القول إن صح فإنما يدل على أنه لا يختار التوبة. ولا ينافى ذلك القول بأنها لو حصلت لأزالت العقاب».

ثم قال: «وإذا كان لا بد من تخصيص الآية بإخراج التائبين عنها، جاز لنا أن نخرج منها من يتفضل الله عليه بالعفو، على أن ظاهر الآية يتضمن أن جزاءه جهنم، فمن أين أن ذلك لا بد من حصوله، وأن العفو لا يجوز حصوله؟ وهذا قول أبى مجلز وأبى صالح. ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا

عَظِيماً﴾ (النساء: ٩٢) لأن ذلك إخبار عن أنه مستحق لذلك، فمن أين حصوله لا محالة؟ وقال الجبائى: الجزاء عبارة عما يفعل، وما لا يفعل لا يسمى جزاء. ألا ترى أن الأجير إذا استحق الأجرة على من استأجره، لا يقال فى الدراهم التى مع المستأجر سواء فعل، أو لم يفعل ألا ترى أنا نقول: جزاء من فعل الجميل أن يقابل عليه بمثله، وإن كان ما فعل بعد؟ وإنما يراد أنه ينبغى أن يقابل بذلك. ونقول: من استحق عليه القود، أو حد من الحدود إن جزاء هذا أن يقتل، أو يقام عليه الحد. ولو كان الأمر على ما قالوه لوجب ألا يكون الخلود فى النار جزاء للكفار، لأنه لم يقع بعد، ولا يصح أن يقع، لأن ما يوجد منه لا يكون إلا متناهيًا، وإنما لم يقل فى الدراهم، إنها جزاء لعمله، لأن ما يستحقه الأجير فى الذمة لا يتعين فى دراهم معينة، وللمستأجر أن يعطيه منها، ومن غيرها، فلذلك لم توصف هذه المعينة بأنها جزاء للعمل، ثم لنا أن نعارض بآيات الغفران، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٧) وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٥٢) وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٥) وإذا تعارضا، وقفا وبقينا على جواز العفو عقلا».

موقفه من التفضيل بين الملائكة والأنبياء:

والطوسى يخالف المعتزلة فى هذه المسألة فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠): «واستدل جماعة من المعتزلة بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر ـ والأنبياء منهم ـ وهذا ليس بشىء، لأنه لم يجر ههنا ذكر لكثرة الثواب وأن الملائكة أكثر ثوابًا من البشر، بل كان قصد إبليس أن يقول لآدم: ما نهاك الله عن أكل الشجرة إلا أن تكونا ملكين، فإن كنتما ملكين فقد نهاكما، وحيث لستما من الملائكة فما نهاكما الله عن أكلها».

حدوث القرآن:

والطوسى ـ كغيره من الإمامية ـ يقول بخلق القرآن، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٨) قال: «وفى هذه الآية دلالة على حدوث

القرآن، لأن مـا يكون منزلاً ومحفوظًا لا يكـون إلا محدثا؛ لأن القديم لا يجـوز عليه ذلك ولا يحتاج إلى حفظه».

موقفه من الإسرائيليات:

وكثيرًا ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها. . اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة، فإنه ينبه على كذب الرواية، ويبين مـا فيها من مجافاتها للحق وبعـدها عن الصواب، فمثلا عند تفسيـر قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ (سـورة ص: ٢٠) الآيات، قال بعد أن ذكر ما روى فى ذلك من الإسرائيليات: «فخبر باطل موضوع وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له ولا يجوز أن تقبل أخبار الآحاد فى ما يتضمن فى الأنبياء ما لا يجوز على أدون الناس، فإن الله نزَّههم عن هذه المنزلة وأعلى قدرهم عنـها وقـد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥) وقال: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الدخـان: ٣٢) فكيف يختار تعالـى من يتعشق نساء أصحابه ويعرضـهم للقتل من غير استحقاق، ولايجـوِّز مثل هذا على الأنبياء إلا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم التى خصهم الله فيها، نعوذ بالله من سوء التوفيق.

وقد روى عن على ـ عليه السـلام ـ أنه قال: «لا أوتى برجل يقول إن داود ارتكب فاحشة إلا ضربته حدين: أحدهما للقذف، والآخر: لأجل النبوة».

وكذلك عند تفـسير قـوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (سـورة ص: ٣٤) الآية، قال: «والذى قاله المـفسرون من أهل الحق ومن نزَّه الأنبيـاء عن القبائح ونزه الله تعـالى عن مثل ذلك هو أنه لا يجـوز أن يُمكن الله تعالى جنيًّا ليتمثل فى صورة نبى لما فى ذلـك من الاستبعاد، وأن النبوة لا تكون فى الخاتم، وأنه تعـالى لا يسلب النبى نبوته، وليس فـى الآية شىء من ذلك، وإنما قـال فيـها أنه ألقى على كرسيه جسدا».

الطوسى والمسائل الكونية:

احـتوى «التـبيـان» على بعض الإشـارات العلميـة التى تنم عن سـعة أفق تفكيـر الطوسى، حيث كان لا يستبعد فكرة كروية الأرض، مـخالفًا بذلك جمعًا من المفسرين

وأصحاب الرأى، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾ (البقرة: ٢١) الآية، قال: «واستدل أبو على الجبائى بهذه الآية على أن الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون والبلخى بأن قال: جعلها فراشًا، والفراش البساط، بسط الله تعالى إياها، والكرة لا تكون مبسوطة، قال: والعقل يدل أيضًا على بطلان قولهم لأن الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها لأن الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان لأن الماء لا يستقر فيه كاستقراره فى الأوانى فلو كانت له ناحية فى البحر مستعلية على الناحية الأخرى لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى الناحية المنخفضة كما يصير كذلك إذا امتلأ الإناء الذى فيه الماء، وهذا لا يدل على ما قاله لأن قول من قال الأرض كروية معناه إن لجميعها شكل الكرة».

وأخيرًا .. فقد قرأنا «التبيان» ووجدنا أن الطوسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الاثنى عشرية، ولم نلمس عليه تعصبًا ممقوتًا، ولم نأخذ عليه أنه كفَّر أحدًا من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم.

كما أنه لم يغال فى شأن علىٍّ بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة للأئمة.

وكل ما لاحظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائد أصحابه، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل.

* * *



كتب ورسائل للإسماعيلية

١ - أساس التأويل.

٢ - مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية.

٣- رسالة الإيضاح والتبيين.

٤- مزاج التسنيم.



١- أســـــاس التأويــــل

للنعمان بن حيون التميمى

التعريف بصاحب الكتاب(١):

أولاً: هو قاضى القضاة، النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد التميمى، واختلف فى تاريخ ولادته، فقال بعضهم: ٢٥٩هـ. وقال آخرون: إنه ولد فى العشر الأخير من القرن الثالث.

اتصل فى أول عهده بمؤسس الدولة العبيدية، وبعد وفاة المهدى ولاه «القاسم بأمر الله» قضاء طرابلس الغرب، وفى عهد المنصور تولى قضاء المنصورية، ولما دخل المعز مصر، كان معه «النعمان»، وأصبح قاضيًا للقضاة. ووضع للمعز أسس القانون الفاطمى، وينظر إليه أنه المشرع الأكبر للعبيديين.

قال عنه الذهبى: «العلامة المارق، قاضى الدولة العبيدية، كان مالكيّا فارتد إلى مذهب الباطنية، ووضع لهم أسس الدعوة، ونبذ الدين وراء ظهره، وانسلخ من الدين، فبُعدًا له وسُحقًا».

وقال عنه ابن العماد فى «شذرات الذهب»: «والنعمان بن محمد بن منصور القيروانى، القاضى أبو حنيفة، الشيعى ظاهرًا، الزنديق باطنًا، قاضى قضاة الدولة العبيدية، صنف كتبًا فى ابتداء الدعوة، وكتابًا فى فقه الشيعة، وكتبًا كثيرًا تدل على انسلاخه من الدين، يبدل فيها معانى القرآن ويحرفها».

ويكاد لا يوجد من يوازى النعمان بن محمد هذا فى قَدْرِ ما خدم به دعوتهم من تدوين عقائدهم وأخبار أئمتهم، إذ له ما يقرب من خمسين مصنفًا فى ذلك، طبع منها: دعائم الإسلام، وتأويل الدعائم، الاقتصاد فى الفقه، أساس التأويل، وهو ما نحن بصدد دراسته، افتتاح الدعوة، الأرجوزة المختارة، شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأخيار، المجالس والمسايرات، واختلاف الفقهاء، ينتصر فيه لأهل البيت.

توفى النعمان أول رجب سنة ٣٦٣هـ، وصلّى عليه المعز، ودفن فى داره بالقاهرة.

---

(١) مصادر الترجمة: أعيان الشيعة (١٠/ ٢٢٣)، وفيات الأعيان (٥/ ٤١٥) روضة الجنان (٢/ ٢١٩).

التعريف بهذا الكتاب:

واالكتاب طُبع ضمن منشورات دار الثقافة ـ بيـروت ـ بتحقيق الأستاذ عارف تامر، والذى أورد فى مقدمة الكتاب:

«ترددت كثيرًا قبل أن أُقدم عـلى دفع هذا الكتاب إلى الطبع، وما ذلك إلا لرغبتى التامة فى الإبقاء عليه مدة أطول فى كهف التقية بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الأخرى التى لم يحن وقت نشرها وتعميمها بعد» (ص ٥).

ثم قـال فى مـقدمـتـه: «إنه ـ أى أساس التـأويل ـ الكتاب الوحيـد بين مجمـوعة المخطوطات الإسـماعيلية الذى يعـالج موضوعًا مـعينًا هو (التأويل)، والسفـر النفيس الذى يمثل الفكرة الأساسـية لهذا العالم تمثـيلاً متزنًا معقـولا، ويعرضها عرضًا دقـيقًا مفصلا» (ص ٥).

ثم قـال: «لقد كان التأويل فى عهد الدعـوة الإسماعيلية المبكر وفى إبان ازدهارها هو الموضوع الأساسى لكل فكرة فلسفية باطنة، والشجرة التى نمت وترعرعت ثم تفرع منهـا الكثيـر من الأغصـان، أو بلغـة أصح: الأساس الذى تركـزت عليه هذه الدعـوة الفكرية، والغذاء الذى مَوَّن الفلسفة البـاطنية بالحِكَم والمنطق والبيان، ولأجل هذا كله اعتبر «أساس التأويل» لدى الإسماعيلية من الكتب الثمينة، والذخائر الغالية التى تقضى تعاليمها العقائدية بالمحافظة على سريتـه وكتمان تعاليمه والسهر على منع تسرب المواد العقائدية التى وردت فـيه لمن هم من غير الإسماعـيليين، وكان هذا يعتبر سـر العقيدة ومفتاح باب الدعوة، مضافـًا إلى ذلك أن فى الكتاب تأويلا لقصص الأنبياء التى وردت فى الكتب السمـاوية الثلاث: التوراة، والإنجـيل، والقرآن، فكل هذا يُشكِّل موضـوعًا تقضى العقيدة بالمحافظة على أسراره التامـة مما يخرج عن نطاق المفهوم لدى طبقات العامـة الذين اعتبروا بأنهم لم ينالوا مـن الثقافة إلا قـشورها، ومن العلوم إلا ظاهرها» (ص ٥، ٦).

وقـال: «قد يكون من الواضح أن التأويل بمعناه الواقعى لدى الإسماعيليين يختلف عن التفسير بمعناه الصحيح لدى عامة الفرق الإسـلامية الأخرى، فالتفسير معناه: جلاء المعنى لكل كلمة غامضـة لا يفهم معناها القارئ، فإذا سُئلنا مثلا مـا هو تفسير كلمة:

(شجرة)؟ أجبناه: أنهـا نبتة تغرس صغيـرة، ثم تنمو فيتفرع منهـا جذوع وأغصان ينبت عليـها ورق أخـضـر، وفى الربيع تحمل أزهـارًا لا تلبث بعد ذلك حـتى تعـقد ثمـرًا طيبا. . . إلخ.

أما إذا قلنا: ما هو تأويل كلمـة: (شجرة)؟ فنجيب: بأن ذلك يتبع رأى المـسئول المباشـر عن التأويل، قد يقـول: إنها حجرة، أو بقـرة، أو صخرة، أو غير ذلـك مما يجب أن يتلاءم مع الحقيـقة والواقع والعقل، فلا يكون غريبًا عن التـصديق، ولا بعيدًا عن الفكر.

إذًا فالتأويل هو باطن المـعنى أو رمزه أو جوهره، وهو حقيقة مـستترة وراء لفظة لا تدل عليها. . . ومن هنا أعطى النظام الإسماعيلى الفكرى صـلاحية التفسير للناطق، ووهب صلاحية التأويل للإمام، فاعتبـر الأول ممثلا للشريعة والأحكام والفقه والقانون والظاهر، والثانى ممثلا للحقيقة والتأويل والفلسفة والباطن» (ص ٦، ٧).

وقـال: «من المُسَلَّم به، أن التأويل من العلوم التى خَصَّ بها الإسماعيليون أئمتهم وسُمُّـوا لأجله بالباطنية، فـقد جعلوا مـحمدًا هو صـاحب التنزيل للقرآن، كـما قلنا، وجعلـوا عليّا صـاحب التأويل، أى أن القـرآن أنزل على محـمد بلفظه ومـعناه الظاهر للناس، أما أسـراره التأويلية البـاطنة فقد خُص بهـا علىٌّ والأئمة من بعده، وقـد أخذ الإسمـاعيليون بعض آيات القـرآن الكريم دليلا على القـول بوجوب التأويل، كـقوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ (يوسف: ٦)، وكقوله: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** ﴾ (يوسف: ٦١)، وكقوله: ﴿ **سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ (الكهف: ٧٨)، وكقوله: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ ...** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (آل عمران: ٧، ٨)» (ص ٧، ٨).

وقـــال: «هناك أدلة عقليـة على وجوب التأويل أُخذت من القرآن الـكريم كقوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ (فصلت: ٥٣).

وكقوله سـبحانه: ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ (الـذاريـات: ٢٠، ٢١)، وكل هذا يفسر أن الظاهر وجد للدلالة على البـاطن، وقد اعتبروه

ممثولا والظاهر مثلا[1]، والمؤيد فى الدين داعى دعاتهم وفيلسوفهم الأكبر يقول فى هذا الصدد: «خلق الله الأمثال والممثولات، فجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول، والدنيا مثل والآخرة ممثول».

وقال أيضًا:

«اقصد حمى ممثوله دون المثل ذا إبر النحل وهذا كالعسل» (ص: ٨)

هذا . . ولم يتناول ابن حيون فى كتابه القرآن كله، بل أخذ بعض الآيات التى ظهر له أنها تؤيد مذهبه، وإليك نماذج من تأويلاته لتتعرف عن قرب على منهجه الباطنى فى التأويل:

فمثلاً عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١) قال: «عنى به شرح الظاهر».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر: ٢) قال: «أقم الدعوة لله باطنا، وهى باطن الصلاة، وأقمها فى الظاهر ولا الظاهر دون الباطن ﴿وَانْحَرْ﴾ أى خذ عهد الأساسية على أساسك ونصبه للبيان تتصل ذريتك الباطنة ويكثر المستجيبين لدعوتك وينبتر أمر شانئك وقائل ذلك فيك. فكان كما وعد الله جل ذكره، والنحر إنما يكون للجِمَال وهى أمثلة الأئمة، والذبح للغنم وهى أمثال المؤمنين، والبقر أمثال الحُجج، فضرب مثل أساس إبراهيم بالكبش، وأساس موسى بالبقر، وأساس محمد بالبعير، وذلك الذى ذكره من قول إبراهيم لأساسه إسماعيل».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِى﴾ (الحجر: ٨٧) قال: «أى الأئمة السبعة»، يقصد أئمة الإسماعيلية.

---

(١) إن نظرية المثل والممثول تُعَد حجر الأساس لعامة عقائد الاسماعيلية، التى جعلت لكل ظاهر باطنًا، وسموا الأول مثلا، والثانى ممثولا، وعليه تبتنى نظرية التأويل عندهم، وتذهب إلى أن الله تعالى جعل كل معانى الدين فى الموجودات، لذا يجب أن يستدل بما فى الطبيعة على إدراك حقيقة الدين، فما ظهر من أمور الدين من العبادة العملية، التى بيَّنها القرآن معانى يفهمها العامة، ولكن لكل فريضة من فرائض الدين تأويلا باطنًا، لا يعلمه إلا الأئمة، وكبار حججهم وأبوابهم ودعاتهم.

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٤) قال: «مع التنزيل الظاهر بيان باطنى يوضحه وييسره لمن عسر عليه أمره بالبيان الذى هو التأويل».

وفى تأويل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الحديد: ١٩) قال ابن حيون: «فالشهداء: الأئمة، والصديقون هم أيضًا، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، (الزمر: ٦٩) وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: ٤٦) وقوله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» يعنى الإمام».

* * *

«بسم الله الرحمن الرحيم» سنة ١٩٦٠

كتاب: أساس التأويل: طبع منشورات دار الثقافة، بيروت

المؤلف: الداعي الإسماعيلي: النعمان بن حيون التميمي المغربي، قاضي قضاة الدولة الفاطمية المتوفى سنة ٣٦٣ [illegible] تحقيق وتقديم [illegible]

قال محقق الكتاب الأستاذ عارف تامر في مقدمته (إنه - أي أساس التأويل - الكتاب الوحيد بين مجموعة المخطوطات الإسماعيلية الذي يعالج موضوعًا معينًا هو التأويل) والسفر النفيس الذي يمثل الفكرة الأساسية لهذا العلم تمثيلًا متزنًا معقولًا، ويعرضها عرضًا دقيقًا مفصلًا» ص ٩... ثم قال «لقد كان التأويل في عهد الدعوة الإسماعيلية المبكر وفي إبان ازدهارها الموضوع الأساسي لكل فكرة فلسفية باطنية، والشجرة التي نمت وترعرعت ثم تفرع منها الكثير من الأغصان» أو بلغة أصح: الأساس الذي تركزت عليه دعائم هذه الدعوة الفكرية، والغذاء الذي موّن الفلسفة الباطنية بالحياة والنمو والبيان. ولا أدل على هذا كله من اعتبار كتاب «أساس التأويل» لدى الإسماعيلية من الكتب الثمينة والذخائر الغالية التي تقضي تعاليمهم العقائدية بالمحافظة على سريته وكتمانه تعاليمه، والسهر على منع تسرب المواد العقائدية التي وردت فيه لغيرهم من غير الإسماعيلية، وكل هذا يعتبر من العقائد ومفتاح باب الدعوة، وإذا أضفنا إلى ذلك أن في الكتاب تأويلات لقصص الأنبياء التي وردت في الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والقرآن، فكل هذا كان يشكل موضوعًا [illegible] بالمحافظة على أسراره البالغة مما يخرج عن نطاق [illegible] لدى [illegible] المذهب [illegible] بأنهم لم [illegible] الكتاب [illegible] ومن العلماء الأطهار» ص ١٦

«فيكون من الواضح أن التأويل بمعناه الدقيق لدى الإسماعيلية يختلف عن التفسير بمعناه الصحيح لدى جماعة الفرق الإسلامية الأخرى، فالتفسير معناه إيضاح المعنى لكل كلمة غامضة

صورة خطية من نقولات الشيخ الذهبي من كتاب «أساس التأويل»

ومنها أخذنا شواهد هذا البحث

٢- مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية

التعريف بالكتاب ومؤلفه:

وهذا الكتاب لمؤلف مجهول، وقد طُبع ضمن أربعة كتب إسماعيلية، منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة ـ ميلانو، عنى بتصحيحها الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمى ـ غوتيغن، ومكتوب عليها: «لا يجوز الاطلاع عليها إلا بإذن من له الحل والعقد».

قال فى مقدمتها: «أما بعد أيها الأخ. . فقد وقفت على مسائلك التى دلت على تألق جذوة ذكائك، وعلوك فى مرتبة العلم وارتقائك، وسألت الإجابة عنها، وهى ـ أيها الأخ ـ تقتضى جوابًا من زُبد الحقائق المصونة، وسرائر الحكم المكنونة، ولب الفوائد المخزونة، وأنا أتحقق أنك أهل لأن تطلع على ذلك، وحقيق بأن تخص بفضل ما هنالك، إلا أنه مما لا يودع فى بطون الأوراق، ولا يجب أن يرمق من العيون الشحمية بالأحداق، صيانة له عن إيذائه وبذله، وخوفًا عليه أن يقع إلى غير أهله، بل يجب أن يكون قرطاسه الأذن الواعية، وقلمه اللسان المترجمة عن جواهرها العالية، لكنى لما أوثره من الجلاء لبصيرتك، والزيادة فى إنارة صورتك، كتبت لك فى هذه الأوراق، وأنا آخذ عليك عهد الله تعالى وعظيم الميثاق الذى أخذه على ملائكته المقربين، وأنبيائه المنتجبين، وأئمة دينه الهادين، وجدودهم الميامين، وإلا فأنت برىء منهم أجمعين، لا وقف على ذلك إلا أنت أو أولادك لا غيرهم، ثم يرد إلىَّ هذه الكراسة بعد أن تحفظ ما فيها، وإن أردت أن تغيب ذلك تركتها عندك مدة ما يحفظ ما فيها، ثم أعدتها إلىَّ، والله على ما نقول وكيل» (ص ٥،٦) ، وإليك نماذج من تأويلاته.

قال المؤلف: «إن الله تعالى نزه أمهات الأئمة عن الطمث، كما قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣) يعنى بالرجس: دم الطمث» (ص ٨) .

وقال فى جوابه عن قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ

مَا سِجِّينٌ﴾ (المطففين: ٧، ٨): «نقول بفضل الله تعالى ومادة وليه فى أرضه ـ صلوات الله عليه:

إن سجين هى الصخرة التى تقدم ذكرها[(١)] والتى فيها العذاب الأكبر، وهى كما قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾، ذكر سيدنا حميد الدين[(٢)] ـ أعلى الله قدسه ـ فى كتاب «راحة العقل» أن المعنى بذلك بكتاب الفجار يعنى نفوس الفجار المرقوم فيها ما اكتسبه من الذنوب، وقال: «سجين»: صخرة فى أسفل الأرض يُعذب فيها المخالفون، فعنى بـ «كتاب الفجار» إمامهم وأتباعهم الذين انكتبت فى نفوسهم المعاصى فاستحقوا بها الكون هنالك بخلافهم للحق. كما قال بعض العلماء فى بعض أشعاره:

سجنهم سجين إذا لم يتبعوا عليـنا، دليل عليينا

وقال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ فعنى بـ «عليين»: عالم الإبداع، و «كتاب الأبرار»: إمامهم ونفوسهم التى انكبت فيها المعارف الحقيقية وصحت منهم الولاية لأهل الحق، وصفوا وخلصوا فصاروا أئمة بعد أن كانوا مأمومين، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ (القصص: ٥)، فهم المستضعفون؛ يعنى المؤمنين الذين يَمُنُّ الله عليهم فيصيرون أئمة كما تقدم شرح ذلك، ويحصلون فى عليين عند صعودهم فى زمرة القائم، سلام الله عليه، الذى به يصيرون عقلا مجردًا مثل من يخلفونه من عقول عالم الإبداع الذى هو العاشر، ويرتفع العاشر إلى مرتبة من فوقه فاعلم ذلك»(ص ١٦، ١٧).

وقال: «ولما كان الدين ظاهرًا وباطنًا قام النبى ﷺ بتبليغ الظاهر، وصرف إلى وصيه[(٣)] نصف الدين وهو الباطن ... ولذلك خاطبه بقوله: ﴿فَوَلِّ

---

(١) ذكر فى ص ١٢ أنها كانت الصخرة التى هى سفل الأرض، وهى على مثال سفل القدر، فى سفلها مسام ضيقة يدخل فيها البخار والدخان الذى يتصاعد من جثث أضداد القائم بعد حرقهم بنار من الأثير ويصيرون فى وسطها، وهى غيران هائلة وأودية عظيمة.

(٢) هو: حميد الدين أحمد بن عبد الله، الكرمانى (٣٧٥ - ٤١١هـ) الملقب بحجة العراقيين، وكبير دعاة الإسماعيلية فى العراق، له مؤلفات عديدة فى المذهب الإسماعيلى، وكتابه «راحة العقل» طبع فى دار الفكر العربى، القاهرة ١٣٧١هـ.

(٣) يعنى عليًا، كرم الله وجهه.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة: ١٤٤)، فعنى بـ «وجهه» وصيه، وعنى بـ «المسجد الحرام» دعوته التى هى الحرم الذى من دخله كان آمنًا أو أطاعه واستقام على ذلك، و «الشطر» الذى ولاّه إياه بتأويل التنزيل والشريعة اللذيْن جاء بهما الرسول صلى الله عليهما وعلى آلهما» (ص ٢٠).

وقال فى شرحه لقول علىٍّ فى خطبة النهروان: «إن كلامى مغلق، وعلمى غامض، وحكمتى غزيرة»: «إن مولانا يعنى ـ صلوات الله عليه ـ يكون كلامه مغلقًا، وعلمه غامضًا، لأنه إنما ينبئ عن خفيات الغيوب، وما أطلعه الله تعالى عليه بواسطة رسوله ـ صلوات الله عليهما وعلى آلهما ـ من العلم المحجوب، كما قال: «علمنى رسول الله ﷺ ألف باب من العلم، انفتح لى من كل باب منها ألف باب، أدركت علم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة» فهو إذا تكلم بذلك انغلق على من لم يتصل بمن عندهم مفاتيحه ولديهم لديجور الشك مصابيحه من أولاده أئمة الهدى عليهم جميعًا السلام.

وقوله صلوات الله عليه: «وحكمتى غزيرة» فعنى بالحكمة تأويل الكتاب الكريم ودور حقائقه وهى التى ذكرها الله تعالى فى آيات من الكتاب كثيرة بقوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢)، وكرر ذكر الحكمة مع الكتاب فى آيات كثيرة. فالكتاب هو ظاهر القرآن الكريم، والحكمة تأويله ومعانيه.. والغزارة التى ذكرها فى الحكمة هو، يجيب على المسألة بسبعة أجوبة، وبسبعين، وبسبعمائة، كما ذكر ذلك مولانا الصادق صلوات الله عليه... وهذه الغزارة التى لا نهاية لها ولا حد يحقق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ (لقمان:٢٧)» (ص ٣٢).

وقال عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ٧٧): «إن حكم الآية يعم جميع من تقلد عهد النبى والوصى والإمام، وأعطاه صفقة يمينه على الائتمار بأمره، فراقت الدنيا فى عينه، واستهوته زخارفها فمال إليها،

واستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير، فباع ما كان قد اشتراه من الله من الجنة الباقية بالدنيا الحقيرة الفانية، وانسلخ من جملة من عناهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)، فلم يستحق لنكثه أن يكون له فى الآخرة خلاق ولا نصيب فى الخير، ولا يكلمه الله ولا أن ينظر إليه يوم القيامة ولا أن يزكيه، كما يستحق ذلك المؤمنون، بل خلده بفعله فى عذاب أليم» (ص ٣٤، ٣٥).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥). إلى آخر الآية: «جعل العقل الأول[1] نور السموات والأرض... ثم قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾، فعنى

(١) درجات الدعوة الدينية عند الإسماعيلية:

والإسماعيلية يقولون بأن لكل ظاهر باطنًا، ويجعلون لكل درجة كونية درجة دينية، وإليك جدولا يوضح ذلك:

١ - العقل الأول = الناطق

٢ - العقل الثانى = الفلك الأقصى = الأساس.

٣ - العقل الثالث = فلك الثوابت = الإمام.

٤ - العقل الرابع = فلك زحل = الباب.

٥ - العقل الخامس = فلك المشترى = الحجة.

٦ - العقل السادس = فلك المريخ = داعى البلاغ.

٧ - العقل السابع = فلك الشمس = الداعى المطلق.

٨ - العقل الثامن = فلك الزهرة = الداعى المحدود.

٩ - العقل التاسع = فلك عطارد = المأذون المطلق.

١٠- العقل العاشر = فلك القمر = المأذون المحدود، وربما يطلق عليه المكاسر والمكالب.

وجعلوا تفسير ذلك بإيجاز:

١ - الناطق: وله رتبة التنزيل.

٢ - الأساس: وله رتبة التأويل.

٣ - الإمام: وله رتبة الأمر.

٤ - الباب: وله رتبة الأمر.

٥ - الحجة: وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا.

٦ - داعى البلاغ: وله رتبة الاحتجاج، وتعريف المعاد.

٧ - الداعى المطلق: وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية.

٨ - الداعى المحصور، أو المحدود: وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة.

بالمثل من قام مقامه فى عالم الطبيعة، وهو النبى ﷺ، وكان ما اتصل به من الوحى وأيد به من التأييد ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهى الكوة، فأعلمنا سبحانه أن ما استفاد الناطق من المعارف الإلهية - كالخزانة التى عنها تؤخذ، و ﴿فِيهَا﴾ توجد أنوار الملكوت التى كنى عنها بالـ ﴿مِصْبَاحٌ﴾ وإن كانت تلك الموضوعات لا تعرف المعانى كما لا تشعر الكوة بالمصباح، ثم قال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ فالمصباح كناية عن العلوم الإلهية، والزجاجة كناية عن الأئمة - عليهم السلام - وتلك المعانى والمعارف هى الأنوار القدسية محيط بها الأئمة القائمون بها، يجمعونها ويحفظونها ولا يفارقونها، فتضىء ذواتهم بها وذوات غيرهم من أتباعهم الطالبين لها إحاطة القنديل وإضاءته لما حوله، وقوله تعالى: ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ كناية عن الوصى، فعنى أن الأئمة - عليه وعليهم السلام - فى استنباط المعارف الدينية والحكم النبوية كالوصى - عليهم جميعًا السلام - فيما انفتح له ظاهرًا وباطنًا من الحكم، واحتوى عليه من العلوم، وقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، فالشجرة المباركة كناية عن النبى ﷺ، فوصف الكوكب الدرى بأنه يستنبط المعارف من وضائع الشجرة المباركة التى هى الناطق[١]، وأن الأئمة عليهم السلام يشاكلونه فى استنباط ذلك وإن كانوا لا كهو فى الرتبة لكون مرتبة الوصاية مالكة لمرتبة الإمامة، وقوله: ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ يعنى أن الأئمة بمثابة الزيتون الذى هو ثمرة تلك الشجرة، وقوله: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ يعنى ليسوا فى رتبة النبوة التى هى الدعوة الظاهرة فيكون شرقية مثلها، ولا فى رتبة الوصاية التى لها الدعوة الباطنة فيكون غربية مثلها، بل شرقية غربية جميعا بقيامهم مقامهما وحفظهم مكانهما، ولهم فى جمعهم وقيامهم بذلك مرتبتان هما الممثلان بالشرق والغرب، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ الزيت: ما خرج من الزيتون من دهنه، وهو مثل

= ٩ - المأذون المطلق: وله رتبة أخذ العهد والميثاق.
١٠ - المأذون المحدود: وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة، وهو المكاسر.

(١) والنطقاء السبعة عند الإسماعيلية يعبر عنهم بالحروف السبعة (آ، ن، إ، م، ع، م، ق) وهى الحروف الأولى من أسماء النطقاء السبعة، وهم: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، قائم.

الكلام والفوائد التى تؤخذ من الأئمة ـ عليهم السلام ـ يقول: تكاد معرفتهم وكلامهم فى إفادتهم وتعليمهم وهدايتهم التى تخرج منهم لفظا، وإن لم يكن عن الوصى المشبهة بالنار تشبه معرفة كلام أولى الوحى، وقوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يقول: يفتح منه أنوار علوم زيادة على زيادة بظهور إمام منهم عن إمام، وقوله: ﴿يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يقول: وكل منهم فى زمانه قائم.. وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: وهذا القائم.. ومقام رسوله يقيم خلفاء له فى الجزائر يدعون الناس إلى الله عبادته ومعرفته ما جاء به النبى ﷺ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول: وهذا القائم ... ومقام رسوله بكل شىء من أمور الدنيا وأمور القبلة وأحكامها وما فيها من النجاة عليم خبير لا يشتبه عليه شىء منه» (ص ٣٦ - ٣٨).

وقال: «إن قسط الناطق تلاوة القرآن وبسط الشريعة، وقسط الوصى شرح التأويل وإيضاح الحقيقة» (ص ٤٢).

وقال عن قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ...﴾ (البقرة: ٢٥٩) الآية: «إنه عزير النبى ـ عليه السلام ـ وهو من الحدود الداعين فى دور موسى ـ عليه السلام ـ كان قد نظر إلى دعوة خمل أمرها ومات ذكرها وامتحن أهلها وحدهم محنة شديدة فقال فى نفسه: ما أظن أن يرجع إلى هؤلاء بعد هذا الانقطاع عن الخير بلا مادة ولا تأييد يحيون به، فأراد الله إظهار قدرته فى نفسه فأنساه مراتب الحدود التسعة والتسعين الذين هم أسماء الله الحسنى ومرتبة إمام عصره الذى هو المسمى، ثم بعث: يعنى مباحثة حده له عن ذلك فلم يعرف منها غير حدث الذى هو كاليوم منها ونفسه التى هى كبعض اليوم بقوله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فلم يعترف إلا عن ذلك، فأعلمه حده بما نسى من تلك الأسماء بقوله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ يعنى يتغيره، وهو أنه أمره أن ينظر فيما معه من علم الظاهر الذى هو كالطعام، وعلم الباطن الذى هو كالشراب ليقوم له منه برهان مراتب تلك الحدود، وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ إشارة فى هذا الموضع إلى حدث الذى يحمل عنه ثقل الطلبة كما يحمل الحمار ثقل راكبه ويريح عليه من تعب المسير، الحمار المذموم هو

من علماء المخالفين، والحمار المحمود وهو من علماء الحق ولذلك صار اليهود يتباركون بحافر حمار عزير لِمَا سمعوا له من التشريف فلزموا المثل وتركوا الممثول» (ص: ٥٧، ٥٨).

وقال عن قول النبى ﷺ: «لخلوف فم الصائم أحب إلى الله من رائحة المسك»: «إن الصائم مثل الكاتم لدينه وعلمه عمن لا يستحقه، والخلوف هو ما يطلع على الإنسان من بخار المعدة لتعطلها عن الطعام، فأشار بذلك إلى ما يكون عند الحدود من الصمت عن الكلام فيما لم يؤذن لهم به ولم يحضر أهله وإن كان مكروهًا لعدم الفائدة كما تكره رائحة الخلوف لتغير ريحه، فإن ذلك الإمساك أحبٌّ إلى الله تعالى من إبدائه إلى غير أهله وفى غير وقته، وشبَّهه لديه تعالى برائحة المسك الذى هو أطيب المشمومات لفضل الكتمان عنده» (ص ٦٩).

وقال عن قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ (الرحمن: ٣١): «إن الله تعالى قدر دور الستر على مدة معلومة وجعل حساب الخلائق وثوابهم وعقابهم عند انقضاء تلك المدة وفراغها، فأعلمهم تعالى فى هذه الآية أن ما وعدهم به من الثواب وأوعدهم به من العقاب يكون عند فراغها، فذلك معنى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ فنسب فراغ المدة إليه إذ هى عن أمره تعالى، وإلا فلا ينسب إليه اشتغال ولا فراغ على الحقيقة» (ص ٧٢).

وقال: «إن أبواب الجنة الثمانية هم الأئمة السبعة والقائم، على ذكره السلام، وأبواب النار السبعة هم أضداد الأئمة السبعة، والقائم لا ضد له لقهره الأضداد عند قيامه» (ص ٧٣).

وقال عن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٧٠): «وهم الذين قال فيهم مولانا الصادق صلوات الله عليه: «والله ما يبدل الله السيئات حسنات إلا لشيعتنا» (ص ٨٩).

وقال فى قصة آدم وإبليس: «إن آدم ـ عليه السلام ـ لما أقيم فى أول دور الستر نُهى عن كشف الحقائق، وهى التى بها النجاة، وهى بالحقيقة شجرة الخلد والمُلك الذى لا يبلى، لكون معرفتها مع الأعمال الصالحة مورثة لعارفها الخلد فى دار النعيم

والملك الذى لا يبلى، ولما تأخر الحارث[١] عن السجود لآدم ورأى ما وقع من التعظيم لآدم ورفع منزلته، فاحتال فى مكيدته فجاءه على وجه النصح وأقسم له على ذلك وقال: إن أردت صلاح من صرف أمره إليك فهم لا يصلحون إلا بإبداء الحقائق، فانخدع ـ عليه السلام ـ وظن أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، فأظهر شيئًا من ذلك فأنكره ما تحت يده واضطرب على أمره، وكان فى ذلك ترك وصية ربه . . . وسائر قصته المعروفة» (ص ١٠١).

وقال عن تأويل ليلة القدر فى قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا . . .﴾ (القدر: ٤) إلى آخر السورة: «إن ليلة القدر مثلٌ على مولاتنا فاطمة ـ عليها السلام ـ لأن الليالى مثلٌ على الحجج وهى حجة مولانا. . . .[٢]»، وقال الله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: ٣) يريد أن فضلها زائد على فضل ألف حجة ممن تقدمها، لأن الشهور أيضًا أمثال الحجج، وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ٤، ٥) يعنى بالملائكة، والروح: الأئمة من ذريتهما الذين من جملتهم القائم المُكَنَّى عنه بالروح، وأنهم صلوات الله عليهم من ذريتها ونسلهما، إلى طلوع الفجر بقيام قائمهم، صلوات الله عليهم أجمعين، عند انقضاء دور الستر وابتداء دور الكشف الذى هو ممثول الفجر» (ص ١١٤، ١١٥).

وقال عن قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨) «والجواب ما قال الله تعالى فى صفة الأئمة ـ صلوات الله عليهم ـ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، وذلك أن الله تعالى أطلعهم بمادته وتأييده لهم على نيات الخلق وما تخفيه صدورهم، فما يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا وعندهم ـ صلوات الله عليهم ـ علمه مما أخذوه عن جدهم رسول الله ﷺ، كما جاء فى الرواية عن مولانا الصادق ـ صلوات الله عليه ـ أنه قال يومًا لبعضهم ما كان البارحة عاملاً فى دار فلان، فاستحى الرجل من كلامه ـ صلوات الله عليه ـ فقال بعض من حضره: أوتعلم ما يفعل

اسم الشيطان.

حروف مقطعة وأرقام يرمز بها لأمور نجهلها، وهى كتابة سرية.

يا بن رسول الله؟ فقال: ما كان الله تعالى ليجعلنا شهداء على خلقه ويحجب عنا شيئًا من أمورهم، استحيوا منّا فى السر كما تستحيون منّا فى العلانية، فهم صلوات الله عليهم الرقباء والشهداء على الخلق» (ص ١١٥، ١١٦).

وقال عن قوله تعالى فى شأن آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩): «الخطاب من إمام ذلك الوقت ـ عليه السلام ـ للملائكة الذين هم الحدود المالكون أمر الدعوة، يقول: فإذا أقمت آدم ونفخت فيه من روحى، يعنى أمددته بما يقدر على القيام فيمن دون، فقعوا له ساجدين، أى أطيعوا له واستمعوا وسلموا لأمره ولا تعترضوا، فأطاعوا وسلموا إلا إبليس ـ وهو شخص ممن كان قد أقيم لإفادة غيره ـ فإنه تكبَّر وأبى عن السجود وعارض آدم ـ عليه السلام ـ وكانت القضية فى ذلك كمثل ما كان رسول الله ﷺ فى إقامة وصيه صلوات الله عليهما يوم غدير خم، وطاعة من أطاعه كسلمان وأبى ذر والمقداد وعمار ومن تبعهم ﭫ، وعصيان من عصى كالأضداد الثلاثة[1] وتابعيهم وهذا جار فى جميع الأدوار» (ص ١١٧).

وقال عن علىٍّ: «كيف كان يقتل عن يمينه وشماله وخلفه وقدامه، وهو شخص واحد؟ فإذا كانت معجزة فكيف بيان هذه المعجزة؟... الجواب: أن هذه منه صلوات الله عليه من جملة المعجزات التى تقدم ذكرها والتى لا يقدر عليها إلا الرسول والوصى والأئمة صلوات الله عليهم أجمعين، وفى ضمن كل واحد منهم صلوات الله عليهم من الصور ما لا يحصيه العدد، كل صورة منها قادرة على التشخيص على الانفراد أى وقت شاءت، وقد جاءت الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ، أنه قال: لما كان فى يوم «أحُد» واشتد القتال، خرجتُ من عند رسول الله ﷺ وهو واقف، ووصيه معه فى بعض المواضع، فلما وصلت العسكر رأيت رسول الله ﷺ، وعليّا ـ عليه السلام ـ يحملان فى عسكر المشركين، فيلقيان الميمنة على الميسرة، والميسرة على الميمنة، ثم عدتُ إلى حيث عهدتهما فوجدتهما قاعدين ما تغير منهما شىء، فهذه الرواية تؤكد ما تقدم ذكره من التشخيص بما شاءوا ـ أى وقت شاءوا ـ صلوات الله عليهم» (ص ١٢٢، ١٢٣).

(١) يقصد أبا بكر وعمر وعثمان ﭫ.

وقال عن قـوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ...﴾ (النســاء: ١) الآية: «إن المـراد بالنفس الواحدة هـنا النـاطق صلوات الله عليه ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعنى: الوصى ـ عليـه السلام ـ المزاوج له فى الدين ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ يعنى حدودًا مـقيدين بمنزلة الرجـال ومسـتفـيدين بمنزلة الـنساء، قـال النبى ﷺ: «أنا وأنت يا على أبوَا المؤمنين» (ص ١٢٥).

وقـال فى قـوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحـمن: ٣٣): «السلطان هو قائم القيامة الذى يقدر به على خرق الأفلاك بوجيز من القول» (ص ١٢٥).

وقال: «لمـا سئل عن الأنبياء والأئـمة والمحن التى وقعت عـليهم، بم استحـقوا المحنة؟ ومـا عدل الله سبحـانه؟ وكيف هذا القصاص؟.. الجـواب: أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، ولا عنده حيف ولا محـاباة لأحد، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلـزلة: ٨)، ولما كان الأنبياء والأئمـة صلوات الله عليهم مجامع لمن دونهم، وكان منهم من له ذنب صغير وكبير، كانت المكافأة بالمحن والقتل وغيره على قدر ذنوب من فى ضمنـهم بما يوجبه العدل وتقـتضيه الحكمـة، وما يظلم ربك أحدًا» (ص ١٢٧، ١٢٨).

وقـال: «وقـد سئل عن كـبـش إسمـاعـيل الذى فُدِىَ به مـا هو؟ الجـواب: أن إسحـاق ـ عليه السلام ـ هو المكنى عنه بالكبش، وذلـك أن إبراهيم صلوات الله عليه كان قد همَّ أن يأخـذ العهد على إسماعـيل لإسحاق ـ عليه السـلام ـ فأوحى الله تعالى إليه أن يأخذ العهـد لإسماعيل على إسحاق ويقـيمه سترًا عليه وحـجابًا، وهو ما نصه الكتاب الكريم من قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: إسماعيل ـ عليه السلام ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أى آخذ العهد عليك لإسحاق ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢) أى: صابرًا على ما تأمرنى به، مُسَلِّمًا لأمرك.. إلى قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٧) وهو ما أمر به من أخذ العهد على إسحاق لإسـماعيل ـ عليه السلام ـ فإسحاق المكنى عنه بالكبش» (ص ١٢٧، ١٢٨).

وقال عن ردم ذى القرنين: «الجواب: أن الإشارة بذى القرنين إلى مولانا أمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ صلوات الله عليه ـ وقد قال فى بعض كلامه: «أنا ذو قرنى هذه الأمة» والمعنى فى ذلك: أنه الحائز لرتبة الظاهر والباطن بعد رسول الله ﷺ، وكذلك كل إمام من ولده هو الحائز لهذه الرتبة، والردم بين يأجوج ومأجوج وبين البشر، هو مثلٌ على العهد الكريم الذى حجز به بين أهل الظاهر وبين أهل الدعوة.. وفى الرواية: «أن يأجوج ومأجوج قصار الخلق، مشوهو الصور، وأنهم لا يزالون يلحسون السد بألسنتهم فى الليل يطلبون خرقه، وأن ألسنتهم كمثل المبارد، فإذا طلع الفجر عليهم وأحسوا أصوات المؤذنين هربوا وعاد السد بحاله»، والمعنى فى ذلك أن «يأجوج ومأجوج» كما تقدم به القول هم أمثال أهل الظاهر «وقصر قامتهم وشوه خلقهم» هو إشارة إلى قصور دينهم وقصورهم لخلاف الحق وأهله، ومعنى لحسهم السد بألسنتهم فى الليل: أنهم فى أيام الفترات يتبعون آثار الأولياء ويطلبون تبطيلاً للعهود والمواثيق والاطلاع على مذهب الحق والكفر فيه، «فإذا أذن المؤذنون»، يعنى أقام الدعاة الذين هم ممثول المؤذنين «هربوا» يعنى قهقروا على أعقابهم وانكسروا وبطل سحرهم وتمويههم «وعاد السد إلى ما كان عليه» يعنى استقامت أمور الدعوة على ما كانت عليه من أخذ العهود والمواثيق والحراسة عن أهل الفساد والعناد»[1] (ص ١٣٠).



(١) شواهد هذا البحث مما كتبه الوالد، رحمه الله.

٣- رسالة الإيضاح والتبيين

التعريف بالرسالة ومؤلفها:

هذه الرسالة هى الرسالة الثانية من أربعة كتب إسماعيلية، منقولة عن النسخة الخطية (هـ ٧٥) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة - ميلانو - السابق الإشارة إليها - وعنوانها الكامل: «رسالة الإيضاح والتبيين فى كيفية تسلسل ولادتى الجسم والدين» لعلى بن محمد بن الوليد، ولم أعثر له على ترجمة، فيما بين يدى من مراجع.

قال فى على ﷺ: «أنا المخاطب من الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[1] (الرعد: ٧).

وقال: «إن عليًا هو المعنى بقول الله تعالى فى مخاطبته نبيه - عليهما السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾[2] (القصص:٣٥)».

* * *

(١) الإيضاح والتبيين ص ١٣٨.

(٢) الإيضاح والتبيين ص ١٣٩.

٤- مـزاج التسـنيم

لإسماعيل بن هبة الله

التعريف بالكتاب وصاحبه:

كتـاب «مزاج التسنيـم» من تأليف: ضياء الدين إسـماعيل بن هـبة الله بن إبراهيم الإسـماعـيلى السلـيمـانى، توفى بنجـران سنة ١١٨٤هـ، وترتـيبـه فى الدعـوة الرابع والثلاثون، عنى بتصحيحه الدكتور شتروطمان، للمجمع العلمى ـ غوتيغن، عن النسخة الخطية (هـ ٧٦) المحفوظة فى مكتبة أمبروسيانة ـ ميلانو.

وهـو تفسيـر باطنى يبدأ من قوله تعالى فى سـورة التوبة: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ (التـوبة: ٩٤) وينتهى عند آخر قوله تـعالى فى سورة العنكبوت: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٤٤).

وهو مطبـوع فى أربعة أقسـام مسلسلة الأرقـام يبدأ القـسم الأول من صفـحة (١) وينتهى القسم الرابع بصفحة (٣٧٠).. وفى آخـر القسم الرابع فك رموز الكتابة السرية الموجودة بالكتاب.

وجاء فى آخر النسخة:

«وكان الـفراغ من زبر هذا الكتـاب الموضح من الأسـرار لما هو لب اللبـاب يوم الأحد خامس عشر من شهر رجب الأصب (هكذا) سنة ١١٧٣هـ، وذلك من مسودتها التى هى بخط مؤلفها سيدنا الداعى الجليل عدم النظير والمثيل: ضياء الدين ودرة تاجه والإكليل، إسمـاعيل ابن سـيدنا هبة الله أيده الله بـالنصر والظفر، وبلغـه فى رفع بناء الدعوة كنه الأمل والوطر، وذلك بحصنه السـعيد وقصره الشامخ المشـيد من محروس نجران ببلاد يام، حرسـها الله من الأشرار اللئام، وذلك بخط العبد الـضعيف، البائس الذليل اللهيف، أحقر عـبيد مولاه، وأحوجهم لعفوه ورضاه، عـبد الله ابن سيدنا على ابن هبة الله، وفقه الله لما يحب ويرضى، وخـتم له بالحسنى، فيجب على من قرأه أن لا يتركـه من الدعاء بأن الله يرحم لطيـفه وكـثيفـه، ويسرع بانضمـامه إلى جـوار جده وأليفه، وأجره على من لا يضيع أجر المحسنين:

يلوح الخـط فى القـرطاس دهرًا وكـاتبـه رمـيـم فى التـراب»

وهذا الكتاب يروج لنظريات وعقائد الإسماعيلية الفلسفية الباطلة كنظرية المثل والممثول، ويحاول أن يخضع القرآن وتفسيره ليبرهن على أسس عقيدتهم فى العقول العشرة، والنطقاء السبعة، وغيرها من عقائدهم الفاسدة، وإليك نماذج من تأويلاته:

قال مؤلفه فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا...﴾ (التوبة: ١٠٧) إلى آخر الآية، ما نصه: «﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ وهم أشر أقسام أهل الإضرار، ممن يظهر فى دور الستر ﴿مَسْجِدًا﴾ يعنى بعبد اللات، إمام الضلالة، لما نصبوه لهم قائدًا باختيارهم، وذلك جارٍ منهم فى أول كل دور عطفًا على ما سبق من ابتداء الدعوة الإبليسية ﴿ضِرَارًا﴾ لكى يضاروا به أهل الندم من أهل النسبة الأدون ﴿وَكُفْرًا﴾ يعنى بمقام حجاب العين ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى بين أهل الدعوة الإسلامية ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعنى مركزًا لهم يأوون إليه ﴿مِن قَبْلُ﴾ يعنى من حال ابتداء تلك الدعوة الإبليسية ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ﴾ يعنى بالدعاء إلى الحجاب النبوى ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يعنى الميم ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يعنى فيما يقولون سابقًا ولاحقًا، وأيضًا أن هذا المسجد الذى كانوا يجتمعون فيه فى وقت الرسول ويعقدون فيه الآراء الفاسدة، أنه من البقاع الخبيثة التى كانوا يجتمعون بها فى كل دور، ويتصل بها خبائث من حثالاتهم، وهى تلحق بالسقيفة بالرجاسة...» (ص ٨، ٩).

وقال فى شرحه لأول سورة يونس: ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ (يونس: ١، ٢) ما نصه: «﴿الَر﴾ إقسام منه بـ «ألف» الفاطر المتفرد فى المقام، و «لام» الحسين، و «راء» شبر اللذين صارا مقامًا واحدًا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ يعنى إشارة إلى أسماء الكرار وصفاته ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ يعنى أهل النسبة الأدون ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ يعنى من مجموع صفو زبدهم الريحية وصورهم الملائكية، ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ يعنى بحجابه وهم أهل الجرائر وذلك من مخالفة وصيه فى الظاهر (J T.٩T عـل.TV2) [يقصد: أُبى بن كعب] ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى بوصيه فى الباطن (J1iH عل) [يقصد: سلمان] المحتجب

به الفاطر ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعنى الحسين بالانضمام إليه ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ يعنى بهذه المقامات، ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى تعمية للعقول إرادة منهم الدحض لأمر من أمروا بطاعتهم» (ص ١٠٠، ١٠١).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا..﴾ ما نصه: «﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: حجابه ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ (إبراهيم: ٣٥) يعنى يشير إلى حجاب ولده إسماعيل المتظاهر به فى مقر دعوته فى كل دور، وذلك بمكة المشرفة التى صارت مركزًا لخمائرهم الشريفة، وأيضًا أن دعاءه متوجه بالأمان إلى ما يتصل بتلك البقاع الطاهرة من خمائر أهل الندم لكى لا يلحقها ويمتزج بها شىء من الخبائث التى فى تلك المواضع المظلمة ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ يعنى حجب الأئمة القائمين هنالك لهداية أهل الجزائر ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ يعنى يشير إليهم شىء من المراتب يقومون بها فى الدعوة وهم أعنى بذلك الأضداد ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ يعنى من المأنوسين بالدعوة وذلك سابقًا ولاحقًا لكونهم مالوا إليهم فى حال المحارات ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ يعنى فى حد الابتداء ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعنى فى الانتهاء ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ يعنى فى قبول ما دعوت إليه، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعنى ساتر لمن أطاعك رحيم به لأنه أشار بالرحمة إلى العصاة» (ص ١٠٠، ١٠١).

وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ ما نصه: «﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ يعنى العين ﴿لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعنى إمامين، وهو صاحب الولاية وضده ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يعنى المقام فيها (JLIH عل) [يقصد: سلمان] ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يعنى من مخالفة أمره ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يعنى التصرف فى أمور الدعوتين ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ يعنى الإمداد للأبواب السلسية يصبه إليهم فى كل عصر ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ يعنى الميم المحتجب به ﴿تَتَّقُونَ﴾ يعنى من المخالفة» (ص: ١٢٣).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (الإسراء: ٧١) ما نصه: «قال مولاى الحسام: يعنى عند قيام السابع يدعى أهل كل وقت بمن هو إمام لهم وشاهد عليهم، ثم قال

تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ يعنى وجد اعتقاده فى الوصى ممثول اليمين، ﴿فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ يعنى يظهرون ولاية إمامهم ﴿وَلا يُظْلَمُونَ﴾ يعنى فى ثوابهم ﴿فَتِيلاً﴾ والفتيل ما فى شق نوى التمرة، يعنى: لا يظلمون آخر ما فعلوه ووالوا به وكان شيئا يسيرًا من الولاية المرموز عليها بالفتيل. هذا قوله أعلى الله شريف قدسه.. ثم قال تعالى مخاطبًا لأهل دعوة الناطق: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ يعنى فى المقامات البشرية عن معرفة الحق الموجب ما كان منه سابقًا ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ يعنى فى القوالب الممسوخة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ يعنى أبق، وأيضًا من ظهر وهو فى التراكيب البشرية أعمى عَمِىَ فى غيرها، ثم قال تعالى مخاطبًا للحجاب النبوى: ﴿وَإِن كَادُوا﴾ يعنى أولئك الأجبات ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يعنى يصدونك كما جرى ذلك من أصولهم إلى أصلك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعنى من إقامة الوصى الذى هو من (ح. T. ٧ ط ٩) [يقصد: حجب على] ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ يعنى بنصب جبتهم الموازين له فى كل كرة ﴿وَإِذًا لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ يعنى مخاللاً لهم فى أمورهم النكيرة» (ص ١٥١، ١٥٢).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (الإسراء: ٩٠) ما نصه: ﴿وَقَالُوا﴾ يعنى مجاثم الضلال كبراء هذه الأمة ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ يعنى نستسلم استسلام معرفة ويقين بمقام من أقمته للوصاية ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ﴾ يعنى تظهر لنا من دعوة الباطن ﴿يَنْبُوعًا﴾ يعنى بابها السلسلى نستفيد منه مشافهة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ يعنى دعوة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ يعنى من حدود الحضرة ﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ﴾ يعنى الأسرار المحجوبة ﴿خِلالَهَا تَفْجِيرًا﴾ يعنى يتخلل بها الكل منهم ومن أهل الدعوة حتى يستووا فى معرفتها ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ يعنى يقيم لهم وصيًا منهم كما زعمت، يعنى بما كان أوهمهم من إشراكهم فى الأمر وذلك طلبًا من الحجاب النبوى تسكين شرهم كما أوهم ذلك فيما سبق ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ﴾ يعنى المحتجب بك ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ يعنى بحدود الدعوة العمرانية العلوية ﴿قَبِيلاً﴾ يعنى: نشاهدهم مقابلة ومعاينة ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ يعنى وصيًا، يشيرون إلى جبتهم المزخرف، إذ هى مأوى للصور المنكرة المتزخرفة بالإفك

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ يعنى تدعى مقام مرسلك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ يعنى الارتقاء إلى ذلك المقام ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ يعنى تنصب لنا إمامًا منا، وكان هذا دأبهم فى كل دور بحسب ما اختاروه ومالوا إليه فى حال المحارات. وجمد على ذلك مائع تصوراتهم من الانحدار ﴿نَّقْرَؤُهُ﴾ يعنى يتصورون من تصوره بالاستفاده منه.. ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ يعنى تقديسًا للمحتجب به أن يكون فى مقامه أو يقيم وصيًا بغير أمره ﴿هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا﴾ يعنى من أحد حدود أهل النسبة الأدون المباشرين لكم، ﴿رَّسُولاً﴾ يعنى منه إلى من أرسل إليهم سابقًا» (ص ١٥٥).

وقال عند تفسير لقوله تعالى فى سورة مريم: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ الآيات (مريم: ٧٥) - ما نصه: «﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ﴾ يعنى عن اتباع العين وحجبه ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ يعنى الميم بأمر العين ﴿مَدًّا﴾ يعنى من الإمهال ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يعنى فى التراكيب ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ يعنى عند ظهور القائم المنتظر، ثم قال تعالى: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يعنى عند مشاهدتهم ذلك ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يعنى مأوى ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ يعنى أنصارًا، ثم قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ﴾ يعنى إمام كل زمان ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ يعنى إلى الندم سابقًا ﴿هُدًى﴾ يعنى فى ظهور فضلاتهم وذلك فى المعرفة والصفاء والإنارة ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ يعنى الذين بقوا على الطاعة وصلحت نياتهم على القيام بصلاح الدعوة فى الحديث عطفًا منهم على ما سبق فى القديم ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى العين ﴿ثَوَابًا﴾ يعنى إثابة فى صعودهم فى سلالم الصعود ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ يعنى يأوون إليه عند ترتيبهم فى النواسيت واللاواهيت، ثم قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ يعنى «حبتر»[1] كفر بحجاب الوصى وحدوده فى كل دور ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ يعنى علمًا وأتباعًا وترشحًا منه للفساد، ولذلك تظاهر بدخوله فى الملة الإسلامية تملقًا ليبلغ مرامه من الإغواء، وكان ذلك بمتقضى ما انعقد فى وهمه الخبيث ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ يعنى على علم الباطن ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ يعنى عند الناطق مقامًا يعهد به إليه ويشير ﴿كَلاَّ﴾ يعنى إقساما لا يكون ذلك، ثم قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ يعنى فى تصوره المظلم ما

---

(١) يقصد: أبا بكر ﷺ، وهذه عادة غلاة الشيعة، ومن شاكلهم من الإسماعيلية.

كان منه من التعدى والتمويه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ يعنى ما يقترفه من تلك السيئات ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ يعنى ما طلبه من الإمهال سابقًا ولاحقًا ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ يعنى فى العذاب الأدنى والعذاب الأكبر لتفرده فى أليم العذاب على أتباعه، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ يعنى أهل الإصرار ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ يعنى إمام كل زمان ﴿آلِهَةً﴾ يعنى أهل أئمة وهم الذين اتخذوهم سابقًا ومالوا إليهم ﴿لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ يعنى فى معادهم يعتزون بهم ﴿كَلاَّ﴾ يعنى امتناعهم بذلك المرام الفاسد ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ يعنى بتعبدهم لهم بالطاعة ويتبرأون منهم، ذلك حين يكشف لهم أنواع العذاب ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ يعنى يضادونهم بالتعذيب لهم والتهويل والإحراق لهم بتصوراتهم النارية» (ص ١٩٧، ١٩٨).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ...﴾ (الأنبياء: ١٦وما بعدها) ما نصه: «﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ﴾ يعنى رتبنا (JIH عل) [يقصد: سلمان] فى مقام الوصاية الباطنة دليلا على (H,IJ ٩ عل) [يقصد: الحسين] ﴿وَالأَرْضَ﴾ يعنى رتبنا (J T ٩ T ج T .V عل) [يقصد: أبى بن كعب] فى مقام الوصاية الظاهرة دليلا على (H I J عل) [يقصد: الحسن] ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يعنى من الحدود فى الدعوتين ﴿لاعِبِينَ﴾ يعنى مستهزئين فى إقامتهم ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ يعنى «حبتر» ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يعنى لأقمناه منا، ولكن لا تكون الظلمة كالنور ولا الظل كالحرور ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يعنى إقامته. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يعنى مقام حجاب (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ يعنى مقام الضد ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يعنى لظهور أمر (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] لا سيما عند تمام مدة مهلة الأجبات ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ يعنى عن مقام ما يدعيه من الخلافة، ثم قال تعالى مشيرًا إلى فريق الإصرار: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ يعنى أن حبترًا لحجاب (J I 2 عـ J عـ) [يقصد: الكرار] (ص ٢٢٥).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ...﴾ (الأنبياء: ٨٣ وما بعدها) ما نصه: «﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ يعنى إمام زمانه وهو كان من أبوابه وصار مجمعًا عظيمًا من الأعضاء الرئيسية أولا فى دور المسيح وآخره فى

المجمع المحمدى ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ يعنى إشارة إلى حجابه الذى حصل منه وممن فى جواره التوقف فى أحد أعضاء الهيكل العلوى، وهو المستقر فى ذلك الزمان فابتُلى باضطراب أهل دعوته وكثرة المنافقين وتغلبهم، وجرى ذلك منهم فى كل دور عند ظهور فضلائهم ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ يعنى ذلك الابتلاء ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾ يعنى أهل دعوته الذين كان ظهور فضلائهم فيها فى كل كَرَّة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ يعنى من غير أهل دعوته، استجابوا له وصلحوا على يديه ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ يعنى ساقهم إليه وهداهم به وخصهم بذلك كما اختصه فى ابتداء الفطرة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ يعنى: المتعبدين منهم بطاعته ذكرهم بالهداية وقادهم إليها» (ص ٢٣٥).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا...﴾ (المؤمنون: ٨٤ وما بعدها) ما نصه: «﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ يعنى الدعوة وحدودها، وأيضًا الأرض الظاهرة ومن فيها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ يعنى المدبر ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعنى أنه العين تعالى علاه، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ﴾ يعنى الذى تكون منه مراتب السبعة الأتماء الذين أحاطت مراتبهم على أكثر المراتب لكونهم أشرف مقامات الدور العمرانى، ومقامات أهل الدور العمرانى أفضل ممن تقدمهم فى الأدوار ـ وقد أشار إلى ما لهم من علو المنازل فى الهيكل القائمى، ولأنهم وحدهم وأبيهم صاحب كنز الوالد بما هذا فصه أعلى الله قدسه ورزقنا شفاعته وأنسه ـ وإتمام دوره مثل فاطمة والحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر ابن محمد وإسماعيل بن جعفر ومحمد بن إسماعيل سابعهم، منهم حاسة السمع، ومنهم حاسة البصر، ومنهم حاسة الشم، ومنهم حاسة التذوق، ومنهم حاسة اللمس، ومنهم حاسة التخيل، ومنهم حاسة الحفظ، ومنهم حاسة الذكر، وهؤلاء الثمانية يكونون هذه الحواس الثمانى، ومحمد ﷺ وعلى آله حاسة النطق والفطنة (VII ا ٩ . ل ا ى T) [يقصد:] والفكرة ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى (ل ا XX ل عـــ) [يقصد: الفاطر] ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ يعنى صاحب الاستقرار ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعنى من مخالفته» (ص ٢٧٢، ٢٧٣).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ ...﴾ (النور: ١١ وما بعدها): ما نصه: «﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ﴾ يعنى الذين اختاروا الضد وأقاموا بحسب ما كان منه ومنهم فى القديم ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ يعنى بتظاهرهم بالدخول فى الملة الإسلامية ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يعنى نكوصهم لأنه بذلك امتاز الخبيث من الطيب ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعنى ترافعت درجاتكم وتلألأت صوركم. ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ يعنى بقدر ما يصرفه من الضلال أو عمل به سابقًا أو لاحقًا ﴿وَالَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ يعنى معظم أمر الضد منهم وهم أهل السقيفة ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى متضاعف على غيرهم فى جميع أبواب العذاب الأدنى والأكبر، ثم قال تعالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ قال مولاى ذو الحدين ـ قدس الله روحه فى ذلك: يعنى نص النبى على الوصى ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعنى بمستفيدهم، ثم قال تعالى: ﴿خَيْرًا وَقَالُوا﴾ يعنى أولئك المخالفين ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يعنى: كذب بيِّن، ثم قال تعالى: ﴿لَّوْلا جَاءُو عَلَيْهِ﴾ يعنى على صحة أنه ضدهم ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يعنى يشهدون بأربعة دلائل، **الأولى:** كونه من أهل بيت النبوة، **والثانية:** إثبات الإمام فى عقبه، **والثالثة:** الإشارة من الله ورسوله إليه، **والرابعة:** كونه فى مقام العصمة ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ يعنى بهذه الدلائل ﴿فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ﴾ يعنى عند الناطق ﴿هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يعنى عليه بالإشارة إلى ما ليس يستكمل خصال الوصاية» (ص ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ (الفرقان: ٦٣ وما بعدها) ما نصه: «﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ يعنى الدعاة ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ﴾ يعنى فى قوانين الدعوة عند ظهور فضلائهم فى الأدوار ﴿هَوْنًا﴾ يعنى بوقار ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ يعنى بمقاماتهم ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ يعنى أجابوه بلين وحسن عبارة ووعظ، وذلك دأبهم فى كل ظهور ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ يعنى صاحب عصرهم ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ يعنى متوجهين إليه بالعبادة ظاهرًا وباطنًا ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ يعنى إمام زمانهم الذين هم دعاة إليه ﴿اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: الإدراك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يعنى هلاكا ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ يعنى أسوأ مستقر لمن دخلها ﴿وَمُقَامًا﴾ يعنى لمن أقام فيها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ يعنى

من علوم صاحب الدعوة الهادية وأمواله لكونهم معصومين به ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ يعنى متوسطا بين الحالين ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ﴾ يعنى ولى أمره ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ يعنى إمامًا ثانيا ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ يعنى بواجب لدى الجهاد أو فى أمر توجبه الشريعة، وأيضا لا يسقطون أحدًا من مرتبته إلا باستحقاقه لذلك لموجب ما صدر منه من الذنب الذى جرى عليه فى الكرات ﴿وَلا يَزْنُونَ﴾ يعنى يتعدون إلى شىء من الخدم فى غير حرائرهم التى أمرهم مصروف إلى سواهم من الدعاة ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يعنى من الذين هم غير معصومين ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ يعنى ظاهرًا وباطنًا ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى من انتقامه يجدد عليه فى القوالب ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ يعنى فى الصخرة، ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ يعنى رجع إلى التوبة وأقلع عن ذلك الذنب، وكان ذلك منه المتاب بحسب ما انعقده فى ضميره، ولا بد له من التصفية والتطهير بقدر ذلك الذنب ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ يعنى بالدعوة إلى ولى أمره ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ﴾ يعنى ولى الزمان المتولى للتدبير ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ يعنى تلك الذنوب التى ابتنت فى صورهم ظلمات، وما كانوا قد ترتبوا فيه من الضدية، ﴿حَسَنَاتٍ﴾ يعنى بمراتب من مراتب أهل الحق وبصور نورانية من فعلهم ذلك، وتلك التخيلات التى قد انقشعت عنهم تلتئم ثم تكون لها أهلا من أهل العناد، ثم قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعنى لمن تاب إليه» (٣٠٦، ٣٠٧) .

وقال عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الشعراء: ﴿طسم ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء: ١، ٢) ما نصه: «قال الله تعالى: ﴿طسم﴾ إقسام من العاشر بمجمع المعين الذين جمع مجامع النطقاء والأسس والأئمة، لكون الطاء من النطقاء، والسين من الأسس، والميم من الأئمة، وأيضًا أن عدد الطاء تسعة، وعدد السين والميم مائة، فدلتنا المائة على أن مجموعه حوى من الصور الكلية التى سلمها إليه العاشر يوم (ل ا B Y ٩ عـ) [يقصد: الغدير] من المركزية الاستقرارية مائة صورة، ثم على تسعة مجامع عظام رجعت إليه وهم: الميم والفاء وأسابيع الدور المحمدى فأقسم بها تعالى، وكان وضع الطاء فى أول الحروف هذه إشارة أن العين الأولة أو ما تسلم إلى العين الآخرة من المجامع الميم والفاء وأسابيع الدور المحمدى ﴿تِلْكَ آيَاتُ

﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يعنى مقامات (ل ا ، H ٩ عل) [يقصد: الحسين]، قباب الأنوار من ولده لكونه الكتاب وهم آياته» (ص ٣٠٩).

وقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ...﴾ (العنكبوت: ٨) ما نصه: «﴿وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ﴾ قال مولاى الحسام فى حقيقة ذلك: يعنى محمد بن أبى بكر ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ يعنى الضالين اللذين كان استفادته أولا منهما ﴿حُسْنًا﴾ يعنى أن يدعوهما إلى ولاية الوصى، ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ يعنى أن تشركهما فى مقام الوصاية ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعنى أنهم يستحقانه ﴿فَلا تُطِعْهُمَا﴾ يعنى فيما أمراك به ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعنى دعوتهم إذا قام السابع ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعنى صرف الدعوة» (ص ٣٦١).

ملحوظة: فى آخر القسم الرابع من كتاب: «مزاج التسنيم» توجد حروف الكتابة السرية وما يقابلها بالحروف العربية على النحو المبين فى الصفحة التالية، وهى منقولة بخط الشهيد الشيخ الذهبى.

ويلى ذلك فك الرموز الموجودة بالكتاب ابتداء من أول سورة يونس إلى آخر ما وصل إليه من سورة العنكبوت.

وقد وضعنا فك الرموز بين معقوفتين فى ثنايا النص، إتمامًا للفائدة.

ملحوظة هامة

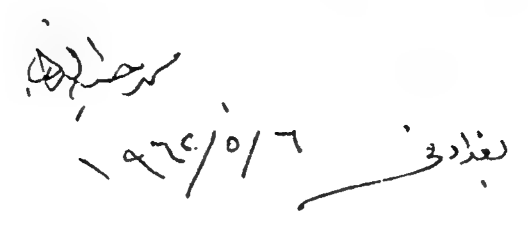
القسم الرابع من

في آخر كتاب مزاج التسنيم توجد حروف الكتابة السرية وما يقابلها بالحروف العربية على النحو الآتي:

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض

ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ى لا

ويلي ذلك فك الرموز الموجودة بالكتاب ابتداء من أول سورة يونس إلى آخر ما وصل إليه من سورة العنكبوت. وقد وضعنا فك الرموز بالهامش نقلا عن الجدول الموجود بآخر الكتاب.



محمد حسين الذهبي

بغداد في ٦/٥/١٩٦٢

صورة خطية للكتابة السرية الواردة فى كتاب «مزاج التسنيم»

بخط الشهيد الشيخ الذهبى

الباب الخامس

تفاســـير الإباضـــية

* تفسير كتاب الله العزيز
لهـــود بـــن محكـــم.



تفســـير كتـــاب اللـــه العـــزيـــز

لهود بن محكم الهوارى

التعريف بصاحب التفسير[1]:

هو الشيخ العلامة المفسر هود بن مُحكِّم، وهو الراجح فى ضبط هذا الاسم، ابن هود الهوارى، وقبيلة «الهوارى» التى ينتسب إليها من قبائل البرانس البربرية، وقد سكن بطونها عدة مواطن فى إفريقيا والمغرب، حيث جاورت هوارة قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس الغـرب، وسكنت بطون منهـا بلاد الجريـد جنوب الحدود الجـزائرية التونسيـة الآن، وسكنت بطون منها جبل «أوراس» ونواحيه، وهـو الموطن الذى ينتمى إليه الشيخ هود ـ رحمه الله.

ولم تحدد المصادر العام الذى ولد فيـه الشيخ هود، ولكن يُقدر أنه وُلِدَ فى العقد الأول أو الثانى من القرن الثالث الهجرى (٢٠٠ - ٢٤٩ هـ).

ولقد كان الشيخ محكم والد الشيخ هود عالمًا جليـلا، وقاضيًا فحلا، عينه الإمام أفلح ـ حكم الدولة الرسـتمية بين: ٢٠٨ - ٢٥٨هـــ ـ قاضيًا على «تيـهرت» عاصـمة الدولة الرستمية.

وقد ذهب مـحقق الكتاب إلى عدم اسـتبعـاد كون الشيخ هود هاجر إلى القـيروان وتيهرت لطلب العلم.

وكما ذهب الأستاذ سلـطان الشيبانى كذلك إلى عدم استبعـاد كون الشيخ هود قد رحل إلى الأندلس فى أواخر حياته، وقرأ على مشايخها وتتلمذ عليهم.

ووصفـه الشمـاخى بقوله: «وهو عـلامة مـتفنن غـائص، وهو صاحب التـفسـير المعروف، وهو كتـاب جليل فى تفسير كلام الله لم يتعرض فـيه للنحو والإعراب، بل على طريقة المتقدمين».

ولم تُسعف المصـادر بذكر شيوخه إذا استـثنيا أباه مُحكما، وكذلك الأمـر بالنسبة لتلاميذه الذين تلقوا عنه العلم.

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من مقدمة محقق التفسير.

ولم نظفر له بتاريخ وفاة، ويقدر الأستاذ شريفى أنها كانت فى العقد الثامن أو التاسع من القرن الثالث الهجرى، أى حوالى سنة ٢٨٠ هـ، حيث أن كل من ذكره من المؤرخين وكتاب السير يؤكد أنه من علماء الطبقة السادسة (٢٥٠ - ٣٠٠هـ).

التعريف بالتفسير:

وتفسير هود بن محكم هو أول تفسير كامل للقرآن، يصل إلينا من تفاسير الإباضية، وطبع مؤخرًا فى أربعة مجلدات بدار الغرب الإسلامى الطبعة الأولى ١٩٩٠م، بتحقيق بالحاج بن سعيد الشريفى، وهو إباضى أيضًا.

ولقد ظل هذا التفسير أكثر من أحد عشر قرنًا منسيًا مغمورًا، إلى أن ظهرت مخطوطاته المتفرقة فى بعض الخزائن الخاصة، وهى خزائن لعلماء من القرون الأربعة الأخيرة يحتفظ بها أبناؤهم وحفدتهم، وهى موجودة فى وادى ميزاب جنوب الجزائر بمدن العطف، وبنى يسجن، والقرارة، وفى جزيرة جربة، بالبلاد التونسية.

وقد اطلع الوالد ـ رحمه الله ـ على الجزئين الأول والرابع من مخطوطات هذا التفسير، وكانت فى ملك الشيخ إبراهيم إطفيش، رحمه الله.

وقد ذكر محقق هذا التفسير أن هناك صلة وثيقة بين هذا التفسير وتفسير يحيى بن سلام البصرى، وبينهما قرن من الزمان، ويؤيد ذلك بكثرة الروايات فيه عن علماء البصرة صحابة وتابعين، ثم عقد مقارنة بينهما تثبت العلاقة الوثيقة بين التفسيرين.

ثم قال محققه: «واليوم وبعد أكثر من عشر سنوات من التحقيق والمقارنة والاستقراء، أستطيع أن أقول بدون تردد: إن الشيخ هودًا الهوارى اعتمد اعتمادًا كثيرًا ـ إن لم أقل اعتمادًا كليًا ـ على تفسير ابن سلام البصرى».

وقد يكون هود بن محكم رحل إلى القيروان طلبًا للعلم فتلقاه مباشرة من محمد ابن يحيى بن سلام أو من أبى داود العطار تلميذ يحيى، والذى أضافه هو تحريف عقيدة يحيى بن سلام السلفية فى تفسيره إلى العقيدة الإباضية.

والملاحظ على هذا التفسير أنه ينقل كثيرًا عن علماء الإباضية فى روايات كثيرة جاءت منسوبة إلى جابر بن زيد وإلى عبيدة بن مسلم خاصة، وإلى عامة علماء الإباضية وفقهائهم الذين يصفهم بقوله: «أصحابنا».

وقد قـدَّم هود بن محكم لكتابه بمـقدمة حوت بعـضًا من علوم القرآن، وقد فـقد أولها لأن المخطوطات المـوجودة اتفقت على عدم وجود بداية المقـدمة مثل: أول ما نزل، وآخر ما نزل، ونزول القرآن على سبعـة أحرف، وقراءة القرآن فى عهده ﷺ، وعدد سور القـرآن، والمكى والمدنى، وفى القول فى القرآن بغـير علم، وما يلزم من تكلم فى التفسير من علوم، وفضل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فى التفسير.

ويورد المؤلف فى ذلك كله آثارًا فـقط يبدؤها بقوله: ذكـروا، ويسندها لصاحبـها بدون ذكر سنده إليه.

وتفسير هود بن محكم يُعَدُّ أول مختصر لتفسير يحيى بن سلام، وقد حفظه لنا فى صورته الكاملة أو القريبة من الكمال؛ فـهو أقرب زمنًا من المؤلف من ابن أبى زمنين، كما أنه حوى من الآثار والأخبار ما لا يوجد فيه.

كما يلاحظ أنه يسرد الأقوال دون ترجيح، ولا يهتم بِعَدِّ الآى، ولكنه يذكر المكى والمدنى.

موقفه من العقيدة:

وهود بن محكم يقف فى تفـسيره ضد من يقول بالإرجـاء، ولكنه يرد على إرجاء أهل السنة وليس إرجاء المرجئة.

يقول ابن سيرين عن الخوارج: «هم عمـدوا إلى آيات الوعيد النازلة فى المشركين فوضعوها على المسلمين فجاءوا ببدعة القول بالتكفير».

فمثـلا عند قوله تعالى: ﴿**وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ**﴾ (النحل: ٩٤) قال مـا نصـه: «﴿**دَخَـلاً بَيْنَكُمْ**﴾ أى: خيانة وغدرًا كمـا صنع المنافقون الذين خانوا الله، إذ نقضوا الأيمان فقالوا ولم يعملوا، وتركوا الوفاء بما أقروا لله به، والدخل: الخيانة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**ارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ (التوبة: ٤٥) قال: «أى وشكت قلوبهم فى أن لا يعـذبهم الله بالتـخلف عن الجـهـاد بعـد إقرارها بـالله والنبى. . . ولم يكن ارتيابهم شكًا فى الله وإنما كان ارتيابهم وشكهم فى أن لا يعذبهم الله بتخلفهم عن نبى الله بعد إقرارهم وتوحيدهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ (فاطر: ١٠) قال: «ولا التوحيد

إلا بالعمل، كقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (الإسراء: ١٩) والإيمان قول وعمل، لا ينفع القول دون العمل».

كما نراه يحاول بكل وسيلة أن يقرر عقيدته ويستدل على ذلك بآيات الكتاب الكريم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ...﴾ (البقرة: ٨ - ١٠) الآيات، يقول: «ثم ذكر الله صنفًا آخر من الناس - يعنى المنافقين - فقال: أقروا لله بألسنتهم وخالفت قلوبهم ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أى: حتى يستكملوا دين الله ويوفوا بفرائضه ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ (النجم: ٣٧) أى الذى أكمل الإيمان وأكمل الفرائض. قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى بما أعطوهم من الإقرار والتصديق، وأعطوا الحقوق من الزكاة يخادعون بذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين، فجعل الله مخادعتهم رسوله والمؤمنين كمخادعة منهم لله، وهو كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠) والإيمان بالنبى ﷺ إيمان بالله، والكفر به هو كفر بالله، وكذلك مخادعة الله، قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ أى: إن ذلك يرجع إليهم عذابه وثواب كفره. وتفسير خدعة الله إياهم فى سورة الحديد، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أن ذلك يصير عليهم، ثم قال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعنى بذلك النفاق. يقول: فى قلوبهم نفاق، فنسب النفاق إلى القلب كما نسب الإثم إليه، كقوله فى الشهادة: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، قال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ أى: الطبع على قلوبهم بكفرهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعنى عذابًا موجعًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ مخففة؛ أى: بقولهم: إنا مؤمنون وليسوا بمؤمنين، إذ لم يستكملوا فرائض الله ولم يوفوا بها. فهذا تفسير من قرأها بالتخفيف. ومن قرأها بالتثقيل «بما كانوا يُكَذِّبون» فهو يريد: بعض العمل أيضًا تكذيب؛ إن التكذيب تكذيبان: تكذيب بالقول، وتكذيب بالعمل، ومثله فى اللغة أن يقول القائل للرجل إذا حمل علي صاحبه فلم يحقق فى حملته: كذب الحملة، وإذا حقق قالوا: صدق الحملة. فمن قرأها بالتخفيف فهو يريد الكذب على معنى ما فسرناه أولاً، وأخت هذه الآية ونظيرتها التى فى براءة ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة: ٧٧) يقول: أعقبهم بالخلف والكذب الذى كان منهم، نفاقًا فى قلوبهم إلى يوم

يلقونه. ومن قرأها بالتثقيل فهــو بالمعنى الآخر الذى وصفناه آخرًا، ولا يعنى به جحدًا ولا إنكارًا؛ لأن مرض النفاق غير مرض الشرك، وكذلك كفر النفاق غير كفر الشرك».

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجـد المؤلف يحاول أن يأخذ من الـقرآن ما يدل على أن مرتكب الكبـيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**...﴾ (البـقـرة: ٨١، ٨٢) يقــول: «﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ يعنى الشـرك ﴿**وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾ ثم مات ولم يتب منه ﴿**فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ أى لا يموتون ولا يخرجون منها أبد الأبد».

موقفه من الشفاعة:

ويرى هود بن محكم أن الشفـاعة لا تكون إلا للمؤمنين، فمثلاً عند تفـسيره لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾(البـقـرة: ٤٨) يقول: «أى: لا تفـديها ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ لأن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ﴿**وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ أى: فداء، كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ (المـائدة: ٣٦) أى: من فضـة وذهب ﴿**وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ**﴾(المائدة: ٣٦) وكقوله: ﴿**وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا**﴾ (الأنعام: ٧٠) أى: وإن تفد بكل فدية ما تُقُبِّل منها».

وكذلك عند تفسيره قول تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ (البقرة: ١٢٣) يقول: «أى: فداء، وقد فسرناه قبل هذا الموضع ﴿**وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ**﴾ أى لا يشفع لها أحـد عند الله، لأنه لا تكون الشفاعة إلا للمـؤمنين خاصة ﴿**وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ أى: لا أحد ينصرهم يومئذ، كقوله: ﴿**مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**﴾ (الصافات: ٢٥، ٢٦) ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾ (الأعراف: ٥١) قال: «يعنى أنه ليس أصحاب النار كلهم جاحدين، يقول: ﴿**وَمَا كَانُوا**﴾ أى: ولم يكونوا، أى:

أهل النار جميعًا بآياتنا يجحدون، أى: إن من أهل النار الجاحد بآياتنا وغير الجاحد، وهذا حقيقة التأويل؛ لأنه قد دخلت النار بغير الجحود، دخلها أكلة الربا وراكبو الزنا، وقاتلو الأنفس، وآكلو أموال اليتامى وأموال الناس بالباطل، وغير ذلك من الكبائر الموبقة.

والآية جامعة لجميع الكفار من كافر مشرك، وكافر منافق على المعنى الذى فسرنا. فمن قال: إن أهل النار كلهم جاحدون أكذبه الوجود، فقد دخلها بغير جحود من وصفنا.

ومن قال: إنهم جميعًا غير جاحدين لقول الله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أى: إنهم جميعًا لم يكونوا جاحدين أكذبه الوجود أن أهل الجحد والإنكار من أهل النار. قال الله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فانقطعت قصة أهل الجنة وأهل النار ههنا».

موقفه من مغفرة الذنوب:

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل: بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ (الزمر: ٥٢) يقول: «قال: بالشرك والكبائر الموبقة ﴿لا تَقْنَطُوا﴾ أى: لا تيأسوا ﴿مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ على التوبة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ذكروا عن الحسن أنه قال: لما نزل فى قاتل المؤمن وفى السارق والزانى وغير ذلك مما نزل تخوف قوم أن يؤاخذوا بما عملوا فى الجاهلية فقالوا: أينا لم يفعل، فأنزل الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أى: لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأنزل ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: ٦٨ - ٧٠) أى: لمن تاب إليه إذ جعل له بعد ذنوبه متابًا ومرجعًا».

موقفه من المتشابه:

كذلك نجـد المؤلف يقف أمام المتـشابه موقف التأويل، فـمثلاً عند تفسـير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ...﴾ (البقرة: ٢١٠) الآية يقول: «قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيـامة ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ أى وتأتيـهم الملائكة ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ يعنى الموت ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ يعنى عواقبها. قال بعض المفسرين: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: بأمـره ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ (البقرة: ٢١٠) أى الموت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) قال: «أى: جاء أمر ربك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ (الكهف: ٨٠) قال: «ذكر بعضهـم قال: فى مصحف عبد الله بن مسـعود: فخاف ربك أن يرهقهمـا طغيانًا وكفرًا. وتأويل فخـاف ربك: أى فكره ربك؛ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٦) وتفسير كره: لم يُرد».

موقفه من الإسرائيليات:

أسرف هود فى ذكـر الإسرائيليات، ومـلأ بها كتـابه ولم يفندها أو يعقب عليـها، وأكثرها عن الكلبى.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ (الإسـراء: ٧) قال: «أى: وليفسدوا مـا غلبوا عليه فساداً. فبـعث الله فى الآخرة بختنصر البابلى المـجوسى فقتل وسبى وخرَّب بيت المقدس، وقذف فيه الجيف والعذرة. ويقال: إن فسادهم الثانى قتل يحيى بن زكـريا، فبعث الله بختنصر عـقوبة عليهم بقتلـهم يحيى، فقتل منهم سـبعين ألفًا.

وذكر بعضهم قال: كان يحـيى بن زكريا فى زمان لم يكن للرجل منهم أن يتزوج امرأة أخيه بعده. فإذا كذب متـعمدًا لم يُوَلَّ المُلك. فمات الملك، وولى أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه ـ الملك الذى مات ـ فسـألهم فرخصوا له. وسأل يحيى بن زكريا فأبى أن يرخص له، فحـقدت عليه امرأة أخيـه، وجاءت بابنة أخى الملك الأول إليه،

فقال لها: سليني اليوم حكم. فقالت: حتى أنطلق إلى أمي. فلقيت أمها فقالت: قولي له: إن أردت أن تفي لنا بشيء فأعطني رأس يحيى بن زكريا، فقالت: أقول له خيرًا من هذا. فقالت: هذا خير لك منه. فأتت إليه فسألته، فكره أن يُخلِفَها ولا يُولي الملك. فدفع إليها يحيى بن زكريا، فلما وضعت الشفرة على حلقة قال: قولي باسم الله هذا ما بايع عليه يحيى بن زكريا عيسى ابن مريم على أن لا يزني ولا يسرق ولا يلبس إيمانه بسوء. فلما أمَرَّت الشفرة على أوداجه فذبحته ناداها منادٍ من فوقها فقال: يا ربة البيت الخاطئة الغاوية. قالت: إنها كذلك، فماذا تريد منها؟ فقال: لِتَبشر، فإنها أول من تدخل النار. قال: فخسف بابنتها. فجاءوا بالمعاول فجعلوا يحفرون عنها وتدخل في الأرض حتى ذهبت ولم يُقدر عليها».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (سورة ص: ٢٥) قال: «قال الكلبي: إن داود قال: رب اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، فوددت أنك أعطيتني من ذلك ما أعطيتهم. قال الله: إني ابتليتهما بما لم أبتلك به. قال: فإن شئت أبتليك بما ابتليتهما وأعطيك مثل ما أعطيتهما. قال: رب، نعم. قال: اعمل عملك حتى يتبين بلاؤك. فمكث ما شاء الله بذلك؛ يصوم النهار ويقوم الليل، فكان على ذلك، فبينما هو في المحراب ذات يوم، والزبور بين يديه، إذ جاء طائر فوقع قريبًا منه، فتناوله داود، فطار إلى الكوى، فقام ليأخذه، قال بعضهم: فوقع في مضجعه، فقام ليأخذه، فوقع الطير إلى البستان، فأشرف داود فنظر، فإذا هو بامرأة تغتسل في البستان. فعجب من حسنها، فأبصرت ظله فنقضت شعرها فغطاها. فزاده ذلك عجبًا بها. ثم أرسل غلامًا له فقال: اتبع هذه المرأة فاعلم من هي، أو ابنة من هي، وهل لها زوج؟.

فاتبعها الغلام حتى عرفها، فرجع فقال: هي ابنة فلان، وزوجها فلان، وكان يومئذ مع ابن أخت داود في بعث. فكتب داود إلى ابن أخته: أن ابعث فلانًا واجعله بين يدي التابوت فلا يرجع حتى يفتح المدينة أو يُقتل. فبعثه فقُتل. فلما انقضت عدة المرأة أرسل إليها فتزوجها، وهي أم سليمان بن داود.

فلما علم الله ما وقع في عبده أحب أن يستنقذه، فأرسل إليه ملكين فأتياه في

المحراب، والحرس حول المحراب، وهم ثلاثة وثلاثون ألفًا، فرأى داود الرجلين قد تسوّروا المحراب، ففزغ منهما وقال: لقد ضعف سلطانى حتى إن الناس تسوّروا محرابى». . . إلى آخر القصة وفيها ما فيها من أباطيل ومساس بعصمة الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام.

موقفه من المسائل الفقهية:

ومن المواضع الفقهية فى تفسير هود بن محكم ـ والتى تؤكد سطوه على تفسير يحيى بن سلام ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٣) حيث قال: «يعنى الزكاة المفروضة على ما سن رسول الله ﷺ فى الذهب والفضة، والإبل والبقر والغنم، والبر والشعير، والتمر والزبيب. وفى قول الحسن وغيره من أصحابنا: وما سوى ذلك فليس فيه زكاة حتى يباع فتكون فيه زكاة الأموال يزكيه مع ماله إذا زكى إذا كان له مال. وبعض أصحابنا يجعل الذرة مع البر والشعير. وقد فسرنا ذلك فى أحاديث الزكاة».

ولا يعرف لهود كتاب فى الحديث، ويبدو أن هذه الجملة من تفسير يحيى بن سلام نقلت حرفيًا وأراد بها كتابه «الجامع» الذى صنفه فى الحديث، وقد رجَّح ذلك محقق التفسير.

ولما كان الإباضية يجوزون قتل النساء والصبيان فى الحرب، فإن هودًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: ١٩٠) أعرض عن ذكر الآثار الواردة فى النهى عن ذلك وقال: «﴿وَلا تَعْتَدُوا﴾ أى فى حربكم فتقتلوا من لا يقاتلونكم، وتقتلوا من قد آمنتموه وتحرم بحرمتكم ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم أمر بقتالهم فى سورة براءة فقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ (التوبة: ٥) ».

حملته على أهل السنة:

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة ـ ويسميهم بالفرقة الشاكة إلا ولمزهم، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (الحجر: ١، ٢) ، قال: «وقد تأولت

الفرقة الشاكة هذه الآية على غير تأويلها، وردّت على الله تنزيله، فقالوا: هم قوم من أهل التوحيد يدخلون النار، فيعيرهم أهل النار، ويقولون: قد كان هؤلاء مسلمين فما أغنى عنهم؛ قالوا: فغضب لهم ربهم فيخرجهم - زعموا - من النار ويدخلهم الجنة. قالوا: فعند ذلك ﴿ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ فزعموا أن الله مخرج أقوامًا من النار قد احترقوا وصاروا حممًا فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء الجهنّميون. قالوا: فيدعون ربّهم فيمحى ذلك الاسم عنهم، فيسمّون عتقاء رب العالمين، افتراء على الله، وكذبًا عليه، وجحودًا بتنزيله . . .» إلى أن قال: «فكيف بعد هذا من تنزيل الله ومحكم كتابه تزعم الفرقة الشاكة أن أهل جهنم يخرجون منها ويدخلون الجنة؟ يتّبعون الروايات الكاذبة التى ليس لها أصل فى كتاب الله، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، فالله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين».

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ (هود: ١٠٨) قال: «أى: إلا ما سبقهم به الذين دخلوا قبلهم، وذكرها هنا ما افترت الفرقة الشاكة من أن قومًا يدخلون النار ثم يخرجون منها بالشفاعة؛ فإن هذا موضعه وموضع الرد عليهم».

رؤية الله تعالى فى الآخرة:

ويرى مؤلفنا كغيره من الإباضية أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقًا، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) قال: «أى: تنتظر الثواب، وهى وجوه المؤمنين، وحدثنى مسلم الواسطى قال: سمعت أبا صالح يقول فى قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ قال: تنتظر الثواب من ربها. قال أبو صالح: ما رآه أحد ولا يراه أحد».

رأيه فى الميزان:

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم ﴾ (الأعراف: ٩) قال: «وبلغنا أن المؤمن توزن حسناته وسيئاته، فمنهم من تفضل حسناته على سيئاته، وإن لم تفضل إلا حسنة واحدة يضاعفها الله له فيدخله الجنة» وخالف هود فى ذلك الكثيرين من الإباضية الذين لا يقرون بالميزان، ويؤولونه بالعدل.

حطه من قدر عثمان ـ رضي الله عنه ـ والطعن فيه:

ثم إن المؤلف لا تكاد تأتى مناسبة وفيها ذكر لعثمان رضي الله عنه إلا وغض من شأنه ورماه بكل نقيصة، فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢) قال: «ذكروا عن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو قتل نفسًا متعمدًا، أو زنى بعد إحصانه» قال جابر بن زيد: وأنا أقول الرابعة من كتاب الله: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩)».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١) قال: «ذكروا أن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو قتل نفسًا متعمدًا» وبعضهم يقول: والرابع: ما حكم الله من قتل الفئة الباغية حتى تفىء إلى أمر الله» وفيما يؤثر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أُمرت أن أقاتل حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم وسبى ذراريهم إلا بحقها» فينبغى أن يتفهم الناس هذه النكتة: إلا بحقّها؛ وحقها ما وصفنا من رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفسًا متعمدًا، أو قاتل أهل البغى فقُتل عليه».

هذا هو مفسرنا الإباضى، وهذا هو تفسيره الذى ملأه بعقائد الإباضية، مع بيان لمدى تعصبه الشديد لمذهبه، ومجاراته للمعتزلة فى بعض عقائدهم

* * *



الباب السادس

تفاسير الزيدية

* تفسير الأعقم.



تفســـير الأعقــــم

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١]:

مؤلف هذا التفسـير هو العلامة على بن محمـد بن على الأعقم الآنسى، من قرية «مطح آنس» عالم فقيه مفسر، من علماء القرن التاسع الهجرى، زيدى المذهب.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد، وطبع عام ١٩٩٠م فى دار الحكمة اليمانية.

ويتعرض الأعقم فى تفـسيره لأسماء السور وبيان مكيهـا ومدنيها، ويورد فى بداية كل سـورة مـا ذكر فى فضلـها من الأحاديث المـوضوعـة ـ غالبًا ـ ثم يذكر أسـباب النزول، إن وجدت، كـما يتعرض الأعـقم فى تفسيـره للقراءات المتواتر منهـا والشاذ وينسبها ـ غالبًا ـ إلى من قرأ بها من القراء.

أما مـصادره فى التـفسيـر فمن أهمـها: تفسـير الزمخـشرى، والحاكم الجـشمى، والثعلبى، والهادى، وصاحب العجائب والغرائب.

أخذه بمذهب المعتزلة فى حرية الإرادة وخلق الأفعال:

والأعقم متأثر بأقوال المعتزلة فى تلك المـسألة، ولكنه عندما يجد ما يصادمه من الآيات الصريحة فـى أن أفعال العباد كلهـا مخلوقة لله تعالى، يلجـأ للتخلص من هذه الضائقة بالقول باللطف، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ (آل عمران: ٨) يقول: «لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا، وأرشدنا لدينك، ولا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (المائدة: ٤١) قال الأعقم: «﴿ **وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ** ﴾ تركه مفتونًا وخذلانًا ﴿ **فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا** ﴾ فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شـيئًا. قوله تعالى: ﴿ **أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ** ﴾ يعنـى: من الألطاف ما يطهر قلوبهم به لأنهم ليسوا من أهلها».

---

(١) لم أعثر لـه على ترجمة مفـصلة، فيما بين يدى من مـراجع، ويقينى أن له ترجمة فـى «معجم مؤلفات الزيدية» ولكنه ليس تحت يدى الآن.

وعندما تكلم الأعقم عن قوله تعالى: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٣٩) قال: «﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أى: يخليه وضلالته لا يلطف به، لأنه ليس من أهل اللطف ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: يلطف به».

وعند تفسيره للآيات (٢٨ - ٣٠) من سورة الأعراف قال: «وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى بالقبائح، وكفى به ردًا على أهل الجبر ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل، وقيل: بالتوحيد أحياء لا من شىء أو لا ﴿تَعُودُونَ﴾ أحياء بعد الموت والفناء، وقيل: تعودون على ما أنتم عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ﴾ قيل: المراد بالهدى الدلالة وذلك أن المؤمن نظر فعرف وهؤلاء لم يعرفوا، وقيل: الهدى إلى طريق الثواب والضلال عنه بالعقاب فى النار».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ...﴾ الآيات (٤٧ - ٥٠) من سورة القمر قال: «نزلت فى وفد نجران، وقيل: فى القدرية من هذه الأمة، وعن النبى ﷺ: «لعنت القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبيًا»، قيل: يا رسول الله، ومن القدرية؟ قال: «قوم يعملون المعاصى يقولون: الله قدرها عليهم» قيل: ومن المرجئة؟ قال: «هم قوم يقولون الإيمان بلا عمل» وقد علمنا أن المجبرة أعداء الرحمن وشهود الشيطان، وعنه ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمَّة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩) قال: «يعنى كل شىء خلقناه على قدر معلوم فاللسان على مقدار ما يصلح الكلام، واليد للبطش، والرجل للمشى، والعين للبصر، والأذن للسمع، والمعدة للطعام، وقيل: خلق النار بمقدار استحقاق أهلها، **ومتى قيل**: هلا حملتم ذلك على أفعال العباد وأنه خلق الخير والشر؟ **قلنا**: ليس فى الظاهر ذلك لأن أفعالهم ليست بخلق الله تعالى لأن فيها الكفر والظلم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨) قال: «والآية تدل على أن العبد مخيَّرٌ يقدر على الخير والشر».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا

تعملون بصير ﴾ (التغابن: ٢) قال ما نصه: «كذلك ههنا الله تعالى خلقهم ثم الإيمان والكفر منهم، وقيل: فمنكم كافر بالله ومنكم مؤمن به، وقيل: فمنكم كافر فى السر مؤمن فى العلانيَّة كالمنافقين، وقيل: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب ومنكم مؤمن بالله كافر بالكوكب، ولا يجوز حمله على أنه خلقهم مؤمنين كافرين لأن الكفر والإيمان فعل العبد».

تزرع المؤلف بالمجاز والتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره:

كذلك نرى الأعقم يعتمد فى تفسيره على الفروض المجازية ويحمل الكلام الذى يبدو غريبًا فى ظاهره على أنه من قبيل التمثيل والتخييل، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) قال نقلاً عن الزمخشرى: «هذا من باب التمثيل والتخييل.. وباب التمثيل واسع فى كتاب الله ومن كلام العرب».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (البقرة: ٧٤) قال: «والخشية فى الحجارة مجاز عن انقيادها لأمر الله تعالى».

موقفه من أصحاب الكبائر:

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ (النساء: ٩٣) يقول: «والعجب من قوم يقرأون هذه الآية ويرون ما فيها ويسمعون ما فى هذه الأحاديث العظيمة ثم يطمعون بالعفو من قاتل المؤمن».

موقفه من رؤية الله تعالى فى الآخرة:

ويرى الأعقم أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقًا، ويصرح بذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٣) حيث قال: «فيه وجهان: **أحدهما**: أن المراد نظر العين، وثانيهما: أن المراد الانتظار، فمن حمله على الانتظار قيل: تنتظر الثواب من ربها، روى ذلك عن أمير المؤمنين على - عليه السلام - والحسن، وقيل: «إلى» بمعنى النعمة، أى: نعم ربها منتظرة، أى قطعوا أطماعهم عن كل شىء سوى الله، قال الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن يأتى بالخلاص

فأما من قال: يحمل على نظر العين قيل: إلى ثواب ربها ناظرة، أى: منتظرة إلى ما أعطاها الله فى الجنة من النعم حالاً بعد حال، وروى ذلك عن جماعة من المفسرين فذكر نفسه وأراد ثوابه، قال القاضى: والأول أولى».

موقفه من المسائل الفقهية:

وتعرض الأعقم فى تفسيره لبعض المسائل الفقهية باختصار شديد، وهو يذكر أقوال العترة والإمام يحيى والقاسم وأبى حنيفة والشافعى، ويرجح ما يراه صوابًا حتى لو خالف مذهبه.

مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ...﴾ (المائدة: ٥) الآية، حيث قال: «﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ هم اليهود والنصارى، واختلفوا فى معناه، قيل: نساء أهل الكتاب عن أكثر المفسرين، والذين آمنوا منهم إزالة الشبهة، أى من كانت يهودية فآمنت يجوز أن يتزوج بها، عن يحيى والقاسم - عليهم السلام - وقيل: أراد الحرائر من أهل الكتاب فتحل الحرائر، ولا تحل الإماء، عن مجاهد وجماعة، وإليه ذهب الشافعى».

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة:

ويلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث، وما يذكره يمر عليه مرًا سابريًا دون أن يعقب عليه ولو بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو توهينه أو وضعه.

فمثلاً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) قال: «نزلت فى على ـ عليه السلام ـ حين تصدق بخاتمه وهو راكع فى صلاته حين سأله سائل فطرح إليه بخاتمه، ذكره الحاكم ـ يقصد الحاكم الجشمى ـ والثعلبى والكشاف» ثم قال: «قال فى تفسير الثعلبى: قال أبو ذر الغفارى: سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا فصمَّتا، ورأيته بهاتين وإلا عَميتا يقول: «علىٌّ قائد البررة وقاتل الكفرة، منصورٌ من نصره، مخذولٌ من خذله» أما إنى صليت مع رسول الله ﷺ يومًا من الأيام فسأله سائل فى المسجد فلم يعطه شيئًا، وعلى ـ عليه السلام ـ كان راكعًا، فأومأ إليه بخنصره، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، فنزل فيه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ...﴾ الآية».

وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة باتفاق أهل العلم.

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: «قال جار الله: جميع ما أنزل الله إليك، وقيل: نزلت فى اليهود، قال فى الثعلبى: يعنى بلِّغ فى فضل على بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ لما نزلت الآية أخذ بيد علىٍّ ـ عليه السلام ـ وقال: «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه»، وروى فى الحاكم أنها نزلت فى علىٍّ ـ عليه السلام ـ قال فى الثعلبى: لما نزلت أخذ بيد على ـ عليه السلام ـ فقال: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ألست أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: «هذا مولى من أنا مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه» قال: فاستقبله عمر بن الخطاب فقال: هنيئًا لك يا بن أبى طالب، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة» ثم يمر الأعقم على هذه الرواية أيضًا بدون أن يتعقبها بشىء أصلاً.

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ (البقرة: ٣٧) قال: «واختلفوا فى هذه الكلمات على أقوال: فالذى ذكره الفقيه أحمد بن مفضل ـ رحمه الله ـ ورواه أيضًا فى الثعلبى، وهو أيضًا رواية أهل البيت ـ عليهم السلام: أن آدم لما خرج من الجنة رأى عن يمين العرش أشباحًا خمسة، فقال آدم: يا رب من هؤلاء؟ قال: صفوة من نورى، فأنا الله المحمود وهذا محمد، وأنا المتعالى وهذا على، وأنا

الفاطر وهذه فاطمة، وأنا المحسن وهذا الحسن، ولى الأسماء الحسنى، وهذا الحسين، قال آدم ـ عليه السلام: فبحقهم اغفر لى».

موقفه من الإسرائيليات:

وقد ملأ الأعقم تفسيره بالكثير من الإسرائيليات، ويمرّ عليها دون أن يتعقبها، وغالب ما يرويه ينقله عن تفسير الثعلبى، والزمخشرى، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (هود: ٣٧) الآيات، قال: «وروى أن نوحًا ـ عليه السلام ـ اتخذ السفينة فى سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين ذراعًا، وطولها فى السماء ثلاثون ذراعًا، وكانت من خشب الساج، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل فى الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفى البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه فى البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم وجعله معترضًا بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفًا ومائتى ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وروى أن الحواريين قالوا لعيسى ـ عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفًا من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا كعب بن حام، فضرب الكثيب بعصاه وقال: قم بإذن الله، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب، فقال له عيسى: أهكذا هلكت؟ قال: لا، متُّ وأنا شاب، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثَمَّ شبت، قال: حدثنا عن سفينة نوح، قال: كان طولها ألف ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فقال له: عد بإذن الله كما كنت، فعاد ترابًا، روى ذلك جار الله».

وروى قصة عجيبة عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ (المائدة: ١١٤) الآيات، حيث قال: «وروى أن عيسى ـ عليه السلام ـ لما أراد الدعاء لبس صوفًا ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة: الخوان عليها الطعام، فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين، غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم، فبكى عيسى ـ عليه السلام ـ وقال: اللهم اجعلنى من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مُثْلة وعقوبة، فقال لهم: ليقم أحسنكم عملاً فيكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها، قال شمعون ـ كبير

الحواريين: أنت أولى بذلك يا روح الله، فقام عيسى ـ عليه السلام ـ فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل فقال: باسم الله خير الرازقين، فإذا سمكة مشوية بلا فلوس ولا شوك تسيل دسمًا، وعند رأسها ملح، وعند ذنبها خل، وحولها البقول ما خلا الكراث، وإذا خمسة أرغفة على واحد منها زيتون، وعلى الثانى عسل، وعلى الثالث سمن، وعلى الرابع جبن، وعلى الخامس قديد، قال شمعون: يا روح الله أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة؟ فقال: ليس شىء منهما، ولكنه شىء اخترعه الله تعالى بالقدرة الغالبة، كلوا مما سألتم، واشكروا الله يمددكم ويزدكم من فضله، قال الحواريون: يا روح الله لو أريتنا من هذه الآية آية أخرى، فقال عيسى ـ عليه السلام: يا سمكة أحيى بإذن الله تعالى، فاضطربت، ثم قال لها: عودى كما كنت، فعادت مشوية، ثم طارت المائدة، روى ذلك الكشاف.

وروى الثعلبى: أنه أقبلت الملائكة بمائدة يحملونها عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات حتى وضعوها بين أيديهم أكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم، وروى فيه أيضًا: كانت المائدة إذا وضعت بين يدى بنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى من السماء بكل طعام إلا اللحم، وروى: أنه ما أحد أكل منها من أهل العلل إلاَّ برئ، ولا فقير إلا استغنى، وروى أنها كانت إذا نزلت اجتمع إليها الناس الكبار والصغار والفقراء والأغنياء والرجال والنساء، فأوحى الله تعالى إلى عيسى ـ عليه السلام ـ أن اجعل رزقى ومائدتى للفقراء لا الأغنياء، فعظم ذلك على الأغنياء حتى شكوا، فقال لهم عيسى ـ عليه السلام: هلكتم فشمروا لعذاب الله تعالى، وروى أنه مسخ منهم ثلاثمائة وثلاثون رجلاً أصبحوا خنازير يسعون فى الكناسات، وقيل: كانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم من امرأة ولا صبى، فلما نظرت الخنازير إلى عيسى ـ عليه السلام ـ بكت وجعل عيسى ـ عليه السلام ـ يدعوهم بأسمائهم واحدًا واحدًا فيبكون ولا يقدرون على الكلام، روى ذلك الثعلبى».

التفسير الإشارى:

فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...**﴾ (النور: ٣٥) قال الأعقم: «واختلف العلماء فى هذا المثل المشبه به على

أقوال: قيل: هو مثل لمحمد ﷺ، المشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه، والنبوة لا شرقية ولا غربية، أى لا يهودية ولا نصرانية، يوقد من شجرة وهو إبراهيم، وكان نور محمد ﷺ بين الناس ولو لم يتكلم، وقيل: المشكاة إبراهيم، والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد ﷺ، من شجرة: يعنى إبراهيم، مباركة لأن أكثر الأنبياء منه، لا شرقية ولا غربية: يعنى إبراهيم لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا «يكاد زيتها يضىء» يكاد محاسن محمد يضىء قبل أن يوحى إليه، وقيل: المشكاة فاطمة، والمصباح الحسن والحسين، وقيل: هو مثل ضربه الله للمؤمنين فهو يتقلب فى خمسة أنوار، فكلامه نور، وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره نور إلى النور يوم القيامة فى الجنة».

والكتاب لا يشفى الغليل فى الوقوف على صورة واضحة لتفاسير الزيدية، وكنت أتمنى الكتابة عن تفسير الحاكم الجشمى ـ المعتزلى ثم الزيدى ـ غير أن الدكتور عدنان زرزور فد سبقنى إلى ذلك، فى كتابه القيم: «الحاكم الجشمى ومنهجه فى التفسير».

* * *

البَابُ السَّابِعُ

تفاسير الصوفية

١- تفسير القشيرى.

٢- تفسير ابن برجان.

٣- تفسير الخروبى.

٤- تفسير النخجوانى.

٥- تفسير إسماعيل حقى.

٦- تفسير ابن عجيبة.



١- لطائف الإشارات

للقشـــيرى

التعريف بالمؤلف[(١)]:

هو: عـبـد الكريم بن هوازن بن عـبـد الله بن طلحـة القـشـيـرى، أبو القـاسم النيسابورى، أحد مشاهير الشافعية، عالم بالفقه والأصول والحديث والكلام والأدب.

ولد سنة ست وسبعـين وثلاثمائة، توفى أبوه وهو طفل صغيـر وبقى فى كنف أمه إلى أن تعلم الأدب والعربية، ثم رحل بعد ذلك من «إستوا» ـ القرية التى ولد بها ـ إلى «نيسـابور» قاصداً تعلم ما يكفـيه من طرق الحساب لحـماية أهل قريته من ظلـم عمال الخراج.

وأثـناء هـذه الرحلـة حضـر حلقـة الإمـام الصـوفى الـشـهير بأبـى علـى الدقـاق، وكان لسـان عصـره فى التـصـوف وعلـوم الشـريعـة، فَقَبِـلَ القشيرىَّ فـى حلقته بشرط أن يكتسب الشريعة، ويتقن علومها، وقد قبل هذا الشرط وعكف على دراسة الفقه عند أئمته، ولما انتهى منه حضـر عند الإمام أبى بكر بن فورك ليتعلـم الأصـول، فبـرع فى الفقه والأصول معًا، وصار من أحسن تلامذته ضبطًا وسلوكًا.

وبعد وفاة أبى بكر اختلف إلى الأستاذ أبى إسحـاق الإسفراييني وقعد يسمع جميع دروسه، وبعد أيام قال له الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسمـاع، فأعاد عليه ما سمعه منه، فقـال له: لست تحتاج إلـى دروسى، بل يكفيك أن تطالع مصنـفاتى، وتنظر فى طريقتى، وإن أشكل عليك شىء طالعـتنى به، ففعل ذلك، وجمع بين طريقـته وطريقة ابن فورك.

ثم نظر فى كتب القاضى أبى بكر بن الطيب الباقلانى، وبذلك صار القشيرى بارعًا فى الفقه والأصول مما دفع بالجوينى إمام الحـرمين أن يصاحبه، ويحج معه، رفقة أبى بكر البيهقى.

---

(١) مصادر الترجمة: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٧)، طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ١٥٣)، طبقات المفسرين للداودى (١/ ٣٤٤)، شذرات الذهب (٣/ ٣١٩).

ولم يقتصر القشيرى على الفقه والأصول، بل كان متحققًا فى علم الكلام ومفسرًا، متفننًا نحويًا ولغويًا، أديبًا كاتبًا شاعرًا، شجاعًا بطلا، له فى الفروسية واستعمال السلاح الآثار الجميلة.

وهكذا حقق الإمام القشيرى ما طلبه منه أستاذه «الدقاق» فى تحصيل علوم الشريعة، كل ذلك وهو يحضر حلقات أستاذه «الدقاق» فى التصوف، إلى أن رأى فيه قبسًا من النبوغ والعطاء، فزوجه كريمته.

وكان القشيرى يحسن الكلام على مذهب الأشعرى، ويحفظ الأشعار والحكايات، وكان له مجلس وعظ، وعندما نال القشيرى هذه الشهادة أصبح أستاذ خراسان بدون منازع.

صنف القشيرى العديد من الكتب والرسائل غير أن مصادر التاريخ تذكر أن أغلب مصنفاته قد فُقد.

ونذكر فيما يلى أهم مؤلفاته:

١ - الرسالة القشيرية فى التصوف.

٢ - لطائف الإشارات، وهو ما نحن بصدده.

٣ - كتابا القلوب (الصغير، والكبير).

٤ - أحكام السماع.

٥ - شكاية أهل السنة.

٦ - ناسخ الحديث ومنسوخه.

٧ - ديوان شعر.

٨ - القصيدة الصوفية.

٩ - الحقائق والرقائق، مخطوط.

١٠- آداب الصوفية، مفقود.

١١- كتاب الجواهر، مفقود.

١٢- كتاب المناجاة، مفقود.

١٣- رسالة ترتيب السلوك، ظهرت مترجمة بالألمانية سنة ١٩٦٢م بقلم فرتزماير.

١٤- بلغة القاصد.

١٥- منثور الخطاب فى مشهور الأبواب، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط.

١٦- المنشـور فى الكلام، عـلى أبواب التـصـوف، مخـطوط بالخـزانة الملكيـة بالرباط.

١٧- عيون الأجوبة فى أصول الأسئلة، مفقود.

١٨- شرح أسماء الله الحسنى، أو التحبير فى التذكير.

١٩- التفسير الكبير.

وتوفى القشيرى - رحمه الله - فى ربيع الآخـر سنة خمس وستين وأربعمائة، ودفن إلى جوار صهره وشيخه أبى على الدقاق.

التعريف بهذا التفسير ومنهج القشيرى فيه:

تفسير لطائف الإشارات واحد من أقدم التفاسير الصوفية الكاملة التى وصلت إلينا، وطُبع هذا التفسـير فى مصر سنة ١٩٦٩م بتحـقيق الدكتور إبراهيم بسـيونى، وطبع بعد ذلك عدة مرات منها طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة والتى رجعنا إليها فى هذه الدراسة.

وما يثـير انتـباه قـارئ هذا المؤلف الكبـير للوهلة الأولى هو انعـدام ذكر أسـماء المصادر التى اعـتمدها الإمام القشيرى فى تفـسيره، وهذه المنهجية تخـتلف تماما عن التى ارتضاها عند تأليف رسالته المشهورة.

والقـشيـرى رجل أوتى حظًا وفيـرًا من العلوم العـقلية والـنقلية قـبل أن يلج باب الصوفـية، وهذه فى حـد ذاتها ظاهرة لهـا أهميتـها، ثم هو بعـد ذلك كله أديب ينظم الشعـر ويتذوق الأسلوب العـربى تذوقًا يعـتمد على أسس قـوية، فإذا جـاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى، وليستخرج منه إشارات لطيـفة فهو مُعَدٌّ لذلك أحسن إعداد، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل.

ثم هو شافـعى أشعرى، وهو سنى مـتحفظ، وهو بهـذه الأوصاف باحث متـعمق منصف، لا يأخـذ - وهو يسـتخـرج إشارة مـن العبـارة - إلا جانـب الحذر والحـيطة والاعتدال، لا ينـصر الحقيقـة على حساب الشريعـة، ولا ينصر الشريعة عـلى حساب الحقيقة، فليس غريبًا أن يجىء «لطائف الإشارات» تعبيرًا صادقًا عن التصوف فى أفضل

درجات الاعتـدال، وأنقى صور التناول، فليس عند القشيرى ما عند غيـره من مساس بالألوهية، بل هو طالمـا يعلنها حربًا لا هوادة فيـها على المبتدعـين والمضللين الذين أساءوا إلـى التصـوف وأهله، تارة تحت ستـار الثوب، وتارة بدعـوى الفناء المُـغرق، والحلول والاتحاد، ونحو ذلك من الأباطيل.

صدَّر القشيـرى كتابه بمقدمة أوضحت منهـجه فى تناول الأسلوب القرآنى، وهذه المقـدمة لا تلقى ضـوءًا على الكتاب وحـده، إنما تقف بنا على المـقصود بالتـفسـير الإشارى للقرآن، وسائله وغاياته.

ومـن المقـدمـة نفهـم أن هذا اللون من التفسير يعـتمد على استبطان خفايا الألفاظ ـ مفردة أو مركبة ـ دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها المعجمية، وإنما يُنظَر إلى اللفظة القرآنيـة على أنها ذات جوهر يدق على الفهم المادى، والأصـفياء من عبـاده وحدهم هم الذين يتـاح لهم ـ بفضل من الله ـ العلم الذى يكشـفون به عن هذا الجوهر.

وفى ذلك يقول القشيرى فى مقدمته: «أكـرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاسـتبصـار ما ضمنه من دقـيق إشاراته وخفىِّ رمـوزه، بما لوَّح لأسرارهم مـن مكنونات، فوقـفوا بمـا خُصوا به مـن أنوار الغيب على مـا استـتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مـراتبهم وأقدارهم، والحق ـ سبحانه وتعـالى ـ يلهمهم بما به يكرمهم، فهم به عنه ناطقون، وعن لطائفه مُخبـرون، وإليه يُشيرون، وعنه يُفصحون، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون».

كما جـاول القشيرى فى «لطائفه» أن يبـرهن على أن كل صغيرة وكـبيرة فى علوم الصوفية لها أصلٌ من القرآن، ويتجلى ذلك بصفة خاصة حيثما ورد المصطلح الصوفى صريحًـا فى النص القرآنى، كـالذكر، والتوكل، والرضـا، والولى، والولاية، والظاهر والباطن، والقبض والبسط.

موقفه من العقيدة:

لا تبتعد المواقف الكلامية للإمام القشيرى كما وردت فى «لطائف الإشارت» والتى تخص الأسماء والصفـات والقدر وخلق الأفعال ومصيـر مرتكب الكبائر ورؤية الله يوم

القيامة... إلخ، عن مواقف المدرسة الأشعرية التى ينتمى إليها القشيرى ودافع عنها بشدة طول حياته، ويظهر فيها كذلك تأثير ابن فورك والإسفرائينى على تلميذهما القشيرى فى ميدان العقيدة.

فمثلا عند تفسير قوله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ (البقرة: ٢) قال: «حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق، وموجب الأمرين التوفيق. والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد، فى حفظ العهد، ومراعاة الحد. فالمؤمنون هم الذين صدقوا باعتقادهم ثم الذين صدقوا فى اجتهادهم».

وعند تفسير قوله جل ذكره: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨) قال: «فالأكوان بقدرته استوت، لا أن الحق سبحانه بذاته على مخلوق استوى، وأنى بذلك! والأحدية والصمدية حقه، وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه، إذ المكان به استوى، لا الحق سبحانه على مكان بذاته استوى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف: ٥٣) قال القشيرى: «﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أى: توحد بجلال الكبرياء بوصف الملكوت. وملوكنا إذا أرادوا التجلى والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم فى ألوان مشاهدهم، فأخبر الحق سبحانه بما يقرب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدَّس الجبار عن الأقطار».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (يونس: ١٠٠) الآية قال: «لا يمكن حمل الإذن فى هذه الآية إلا على معنى المشيئة؛ لأنه للكافة بالإيمان، والذى هو مأمور بالشيء لا يقال: إنه غير مأذون فيه. ولا يجوز حمل هذه الآية على معنى أنه لا يؤمن أحد إلا إذا ألجأه الحق إلى الإيمان واضطره، لأن موجب ذلك ألا يكون أحد فى العالم مؤمنًا بالاختيار، وذلك خطأ، فدل على أنه أراد به: إلا أن يشاء الله أن يؤمن هو طوعًا. ولا يجوز بمقتضى هذا أنه يريد من أحد أن يؤمن

طوعًا ثم لا يؤمن؛ لأنه يُبطل فائدة الآية، فصح قول أهل السنة بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ١٠٣) قال: «حروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض فقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ ههنا معناها «منا» فلا شيء يجب على الله لكونه إلهًا ملكًا، فيجب الشيء من الله لصدقه ولا يجب عليه لعزته، وكما لا يجوز أن يدخل نبى من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فى النار لا يجوز أن يخلد واحد من المؤمنين فى النار لأنه أخبر أنه ينجى الرسل والمؤمنين جميعًا».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا...﴾ (الرعد: ٥) الآية قال: «وإن تعجب يا محمد لقولهم فهذا موضع يتعجب منه الخلق، فالعجب لا يجوز فى صفة الحق، إذ إن التعجب الاستبعاد والحق لا يستبعد شيئًا، وإنما أثبت موضع التعجب للخلق، وحسن ما قالوا: «إنما تعجب من حجب» لأن من ينل عيون البصيرة لا يتعجب من شيء. وقوم أطلقوا اللفظ بأن هذا من باب الموافقة، أى: إنك إن تعجب فهذا عجب موافقتك له. وإطلاق هذا وإن كان فيه إشارة إلى حالة لطيفة لا يجوز، والأدبُ السكوتُ عن أمثال هذا. والقوم عبروا عن ذلك فقالوا: أعجب العجب قول ما لا يجوز فى وصفه العجب.. وإن تعجب».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس: ٧١) قال: «ولفظ ﴿أَيْدِينَا﴾ توسع؛ أى مما عملنا وخلقنا».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر: ٦٧) قال: «ما عرفوه حق معرفته، وما وصفوه حق وصفه، وما عظموه حق تعظيمه؛ فمن اتصف بتمثيل، أو جنح إلى تعطيل حاد عن السنة المثلى وانحرف عن الطريق الحسنى. وصفوا الحق بالأعضاء، وتوهموا فى نعته الأجزاء، فما قدروه حق قدره؛ فالخلق فى قبضة قدرته، والسموات مطويات بيمينه، ويمينه قدرته».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (النجم: ٨، ٩) قال: «دنا جبريل من محمد ﷺ. فتدلى جبريل: أى نزل من العلو إلى

محمد. وقيل: «تدلى» تفيد الزيادة فى القرب، وأن محمداً ﷺ هو الذى دنا من ربه دنو كرامـة، وأن التدلى هنا مـعناه السجـود. ويقال: دنا مـحمد من ربـه بما أُودعَ من لطائف المعرفة وزوائدها، فتدلى بسكون قلبه إلى ما أدناه ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ ويقال: كان بينه ﷺ وبين الله قدر قوسين، أراد به دنو كرامة لا دنو مسافة. ويقال: كان من عادتهم إذا أرادوا تحقيق الألفة بينهم إلصاق أحدهـم قوسه بقوس صاحبه عبارة عن عقد الموالاة بينهـما، وأنزل الله سبحانه هذا الخطاب على مقتـضى معهودهم. ثم رفع الله هذا فقال: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أى بل أدنى».

وعند تفسـيره لقـوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧) قال: «كل من على وجه الأرض فى حكم الفناء من حيث الجواز. ومـن حيث الخـبر: ستـفنى الدنيا ومـن عليها ويـبقى وجه ربـك ذو الجلال والإكرام، «والوجه»: صفة لله سبحانه لم يدل عليه العقل قطعًا ودل عليه جوازًا، وورد الخبر بكونه قطعًا، ويقال: فى بقاء الوجه بقاء الذات؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها، ولا محالة شـرطها قيامهـا بنفسه وذاته، وفائدة تخـصيص الوجه بالذكر أن مـا عداه يعرف بالعقل، والوجه لا يعلم بالعقل، وإنما يعرف بالنقل والأخبار».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾ (النمل: ٧) الآية قال القشـيرى: «وبدت لعينه تلك النار قريبـة، فكان يمشى نحوها، وهى تتبـاعد حتى قرب منها، فرأى شجرة رطبة خضراء تشـتعل كلها من أولها إلى آخرها، وهى مضيئة، فجمع خُشيبات وأراد أن يقتـبس منها، فعند ذلك سمع النداء من الله، لا من الشجرة، كما توهم المخالفون من أهل البدع، وحصل الإجماع أن موسى سمع تلك الليلة كلام الله، ولو كان النداء فى الشـجرة لكان المتكـلم به الشجرة، ولأجل الإجـماع قلنا: لم يكن النداء فى الشجرة، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء فى الشجرة ويكون تعريفًا، ولكن حـينئذ يكون المـتكلم بذلك الشـجرة ولا يـنكر فى الجواز أن يكون الله أسـمع موسى كلامـه بإسماع خلقه له، وخلق كلامًـا فى الشجرة أيضًا، فموسى سـمع كلامه القديم وسمع كلامًا مخلوقًا فى الشجرة... وهذا من طريق العقل جائز».

نماذج من تفسيره الإشارى المقبول:

هذا. . . وقد حفل «لطائف الإشارات» بالعديد من التفسير الإشارى المقبول، بل لا نبالغ إذ وضعناه فى قمة تفاسير الصوفية الإشارية المقبولة، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ (البقرة: ١٩٣) الآية، قال: «الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس؛ فإن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك. أى استوف أحكام الرياضة حتى لا يبقى للآثار البشرية شىء، وتسلم النفس والقلب لله، فلا يكون معارض ولا منازع منك لا بالتوقى ولا بالتلقى، لا بالتدبير ولا بالاختيار بحال من الأحوال؛ تجرى عليك صروفه كما يريد، وتكون محوًا عن الاختيارات، بخلاف ما يرد به الحكم، فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير، فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام».

وكذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**﴾ (البقرة: ١٩٧) قال: «كما أن للحج بالنفوس أشهر معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج فى جميع السنة إلا فى وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج، فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهى أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة فى حال شبابه فليست له وصلة فى حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التى آخرها الجنة، فأما الإرادة التى آخرها الوصلة. . فلا».

وأيضًا عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ (البقرة: ١٩٧) حيث قال القشيرى: «كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شىء فى الطريق، ولا يمزج إرادته بشىء. فمن نازعه أو عارضه أو زاحمه سلَّم الكل للكل، فلا لأجل الدنيا مع أحد يخاصم، ولا لشىء من حظوظ النفس والجاه مع أحد يزاحم».

نماذج من تأويلاته وإشاراته الغير مقبولة:

هذا. . ولم يخل تفسير القشيرى من بعض الإشارات التى لا تخضع لقواعد التأويل، فمثلا يقول القشيرى عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ**

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٣١): «الأولياء هم الرواسى فى الأرض وبهم يُرزقون، وبهم يُدفع عنهم البلاء، وبهم يوفى عليهم العطاء. وكما أنه لولا الجبال الرواسى لم تكن للأرض أوتادٌ. فكذلك الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض فلولاهم لنزلت بهم الشدة».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ (النمل: ٦١) قال: «ويقال: الرواسى فى الأرض الأبدال والأولياء والأوتاد؛ بهم يديم إمساك الأرض، وببركاتهم يدفع عن أهلها البلاء».

وكذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠) يقول القشيرى: «﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ فى الظاهر الجبال، وفى الحقيقة الأبدال والأوتاد الذين هم غياث الخلق، بهم يقيهم، وبهم يصرف البلاء عن قريبهم وقاصبهم» ونصٌّ القشيرى ـ كما ترى ـ على أن هذا هو المراد حقيقة! .

موقفه من البسملة:

سار القشيرى فى «اللطائف» على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة، وأحيانًا حرفًا حرفًا، حسبما يحلو له من مقال أو يلوح له من خيال، من غير ضابطة يعتمد عليها أو حجة مقبولة، فمثلاً عند تفسير البسملة من سورة الفاتحة يقول: «الباء فى «باسم الله» حرف التضمين، أى بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات، فما من حادث مخلوق، وحاصل منسوق، من عين وأثر، ومن حجر ومدر، ونجم وشجر، ورسم وطلل، وحكم وعلل، إلا بالحق وجوده، والحق ملكه، ومن الحق بدؤه، وإلى الحق عوده، فبه وَحَّدَ مَن وَحَّدَ، وبه جحد من ألحد، وبه عرف من اعترف، وبه تخلَّف من اقترف».

لم نعرف حرف التضمين، ولم نعرف كيف فسر البسملة من هذه السورة بهذه المعانى، ولكنه فى سائر السور يفسرها بمعانٍ أُخر، ولعله يدعى أنه هكذا أُلهم وأُشرق عليه.

موقفه من الحروف المقطعة فى أوائل السور:

وللقشيرى فى تفسير الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور منحًى غريب، يقف العقل أمامه حائرًا وعاجزًا عن تلمس محمل له يُحمل عليه حتى يبدو صحيحًا مقبولا.

فمثلا عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١) قال: «الألف إشارة إلى انفراده بالربوبية، واللام إشارة إلى لطفه بأهل التوحيد، والراء إشارة إلى رحمته بكافة البرية».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ١، ٢) قال: «الألف إشارة إلى تفرده عن كل غير بوجه الغنى، وباحتياج كل شىء إليه؛ كالألف تتصل بها كل الحروف ولكنها لا تتصل بحرف، واللام تشير إلى معنى أنه ما من حرف إلا وفى آخره صورة تعويج ما، واللام أقرب الحروف شبهًا بالألف فهى منتصبة القامة مثلها، والفرق بينهما أن الألف لا يتصل بها شىء ولكن اللام تتصل بغيرها فلا جرم أن لا يكون فى الحروف حرف واحد متكون من حرفين إلا اللام والألف ويسمى لام ألف ويكتب على شكل الاقتناع مثل صورة لام. أما «الميم» فالإشارة فيه إلى الحرب من؛ فمن الرب الخلق، ومن العبد خدمة الحق، ومن الرب الطَّوْل والفضل».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان: ١، ٢) قال: «الألف تشير إلى آلائه، واللام تشير إلا لطفه وعطائه، والميم تشير إلى مجده وسنائه؛ فبآلائه يرفع الجحد عن قلوب أوليائه؛ وبلطفه وعطائه يثبت المحبة فى أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه مستغنٍ عن جميع خلقه بوصف كبريائه».

وهذا الذى قاله القشيرى مشكل إلى حد بعيد، ذلك أن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى، على ما ذكره، ولكن أين الدليل؟.

غمز القشيرى لأهل الظاهر وثناؤه على العوام:

لم يسلم أهل الشريعة من غمز ولمز القشيرى لهم فى تفسيره، مع ثنائه على العوام المعظمين للصوفية، مثال ذلك عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ

يَدْرُسُونَهَا...﴾ (سبأ: ٤٤) الآية حيث قال: «الإشارة من هذا إلى أهل الغفلة؛ يعارضون أصحاب القلوب فيما يجرى من الأمور، بما تشوش إليهم نفوسهم، ويخطر ببالهم من هواجسهم عن مُقتضى تفرقة قلوبهم على قياس ما يقع لهم من غـير استناد إلى إلهام، أو اعتـمادٍ على تقدير من الله وإفهـام. وأهل الحقائق الذين هم لسـان الوقت إذا قالوا شيئًا أو أطلقوا حديثًا، فلو طولبوا بإقامة البرهان عليه لم يمكنهم؛ لأن الذى يتكلم عن الفراسة أو عن الإلهام، أو كان مُستنطقًا فليس يمكن لهؤلاء إقامة الحجة على أقوالهم. وأصحاب الـغفلة ليس لهم إيمان بذلك، فإذا سـمعوا شيـئًا منه عارضوهم فـيهلكون، فسبيل هؤلاء الأكابر عند ذلك أن يسكتوا، ثم الأيام تجب أولئك».

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿حمٓ ① عٓسٓقٓ﴾ (الشورى: ١، ٢) قال: «والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان، ولا بهذه الجملة استبصار، فالواجب صون الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار، وإن أهل الوداعـة من العوام الذين فى قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحـديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثيرٍ ممن عد نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر».

موقفه من الإسرائيليات:

لم يخل «لطائف الإشارات» من ذكـر الإسرائيليات والتى يوردها القـشيرى دون أن يعقب عليها، فمثلاً عند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (سورة ص: ٣٤) قال: «اختلف الناس فى هذه الفتنة؛ ومنها أنه كانت له مائة امرأة فقال: «لأطوفن على هؤلاء فيـولد من كل واحدة منهن غلام يقاتل فى سبيل الله» ولم يقل: إن شاء الله، ولم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق مولود، فألقته على كرسيه، فاستغفر ربه من ترك الاستثناء، وكان ذلك ترك ما هو الأولى.

وقـيل فى الـتـفـاسـير: إنـه تزوج بامـرأة كـانت زوجـة ملـك، قهـره سليـمان، وسباها، فقالت له: إن أذنت لى أن اتخـذ تمثالاً على صورة لأبى لأتسلى بنظرى إليه، فأذن لهـا، فكانت تعظمه وتسـجد له مع جواريهـا أربعين يومًـا، وكانت تعبـده سرًا، فعوقب عليه.

وقيل: كان سبب بلائه أن امرأة كانت من أحب نسائه إليه، كان إذا أراد دخول الخلاء نزع خاتمه ودفعه إليها، وهى على باب الخلاء، فإذا خرج استرده. وجاء يوم شيطان يقال له «صخر» على صورة سليمان وقال لامرأته: ادفعى إلىَّ الخاتم، فدفعته، ولبسه، وقعد على كرسيه، يُمشى أموره، إلا التصرف فى نسائه، فقد منعه الله عن ذلك. فلما خرج سليمان طالب المرأة بالخاتم، فقالت: الساعة دفعته إليك. فظن أنه فُتن، وكان إذا أخبر الناس أنه سليمان لا يُصدقونه، فخرج هاربًا إلى ساحل البحر، وأصابته شدائد، وحمل سمك الصيادين بأجرةٍ حتى يجد قوتًا.

ولما اتهم بنو إسرائيل الشيطان واستنكروا حكمه نشروا التوراة بين يديه ففر ورمى بالخاتم فى البحر، وطار فى الهواء. ولما أذن الله رد ملك سليمان إليه، ابتلعت سمكة خاتمه، ووقعت فى حبال الصيادين، ودفعوها إلى سليمان فى أجرته، فلما شق بطنها ورأى خاتمه لبسه، وسجد له الملاحون، وعاد إلى سرير مُلكه».

موقفه من القدرية:

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ...﴾ (الأحقاف: ٩) الآية قال القشيرى: «وفى الآية دليل على فساد قول أهل القدر والبدع حيث قالوا: «إيلام البرىء قبيح فى العقل» لأنه لو لم يجز ذلك لكان يقول: أعلم قطعًا أنى رسول الله، وأنى معصوم... فلا محالة يغفر لى، ولكنه قال: وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم؛ ليعلم أن الأمر أمره، والحكم حكمه، وله أن يفعل بعباده ما يريد».

موقفه من إمامة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما:

وعند تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ...﴾ (الفتح: ١٦) الآية قال: «جاء فى التفاسير أنهم أهل اليمامة، أصحاب مسيلمة، وقد دعاهم أبو بكر وحاربهم، فالآية تدل على إمامته... وقيل: هم أهل فارس دعاهم عمر بن الخطاب وحاربهم؛ فالآية تدل على صحة إمامته. وصحة إمامته تدل على صحة إمامة أبى بكر».

وواضح من هذا أنه يقصد ضمنًا الرد على الشيعة فى قولهم بإمامة علىٍّ رضي الله عنه.

موقفه من السيرة والتاريخ:

ويتعرض القشيـرى فى تفسيره أحيانًا لأحداث السيرة ويورد طرفًـا قليلاً منها، مثال ذلك عند تفـسيـره لقوله جل ذكـره: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ (الفتح: ١٨) قال: «هذا بيعة الرضوان، وهى البيعة تحت الشجرة بالحديبية، وسميت بيعة الرضوان لقـوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ وكانوا ألفًا وخمسمائة، وقيل: وثلاثمائة، وقيل: وأربعمائة. وكانوا قصدوا دخول مكة، فلما بلغ ذلك المشركين قـابلوهم صادين لهم عن المسجد الحرام مع أنه لم يكن خـارجًا لحـرب، فـقصـده المـشركـون، ثم صالحـوه على أن ينصـرف هذا العام، ويقيم بها ثلاثًا ثم يخرج، وأن يكون بينه وبينهم صلح عـشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضا، وكان النبى قد رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، فبشر بذلك أصـحابه، فلما صدهم المشركـون خامر قلوبهم شىء، وعادت إلى قلوب بعضهم تهمةٌ حتى قال الصديق: لم يقل العام! فسكنت قلوبهم بنزول الآية؛ لأن الله سبحانه علم فى قلوبهم من الاضطراب والتشكك؛ فأنزل السكينة فى قلوبهم وثبتهم باليقين ﴿**وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (الفتح: ١٨) هو فتح خيبر بعد مدة يسيرة، وما حصلوا عليه من مغانم كثيرة من خيبر. وقيل: ما يأخذونه إلى يوم القيامة».

موقفه من الفقه والأصول:

لم يشغل هذا الجـانب فى «لطائف الإشارات» مساحـة واسعة، وإنما يتـعرض له القشيـرى بإيجاز شديد، فمـثلاً عند تفسيـره لقوله جل ذكره: ﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الحـشـر: ٥) قال: «لمـا أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نـخيل بنى النضيـر قالت اليهـود: ما فائدة هذا؟! فـبقى المـسلمـون عن الجواب، فـأنزل الله تعـالى هذه الآية ليـوضح أن ذلك بإذن الله. . . فانقطع الكلام، وفى هذا دليل على أن الشريعة غيـر مُعللة، وأن الأمر الشرعى إذا جاء بطل التعليل، وسكتت الألسنة عن المطالبة بـ «لِمَ؟»».

موقفه من أسباب النزول:

عُنى القشيرى فى تفسيره بأسباب النزول، ولكن دون إسهاب مثال ذلك فى تفسيره لقوله جل ذكره: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) حيث قال: «قيل: نزلت الآية فى رجلٍ منهم أُهديت له رأس شاة فطاف على سبعة أبيات حتى انتهى إلى الأول. وقيل: نزلت فى رجل منهم نزل به ضيف فقرب منه الطعام وأطفأ السراج ليوهم ضيفه أنه يأكل، حتى يؤثر به الضيف على نفسه وعلى عياله، فأنزل الله الآية فى شأنه».

* * *

٢- تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب
والتعرف على الآيات والأنباء العظام

لابن بَرَّجان

التعريف بصاحب هذا التفسير[١]:

هو أبو الحكم ابن برجان اللخمى الإفريقى الإشبـيلى الصوفى، عالم، له مشاركة فى فنون مختلفة، أحد العارفين الأقطاب الذى شغل الناس فى أواخر القرن السادس.

وتضاربت آراء المترجمين له فى اسمـه، فمنهم من سماه عبد الرحمن، ومنهم من سماه عبد السلام، ومنهم من جعل الاسمين لشخصين منفردين، ومنهم من اعتبره اسمًا لشخص واحد، وأغلب الـمترجمين له يطلقـون عليه: أبا الحكم عبد السـلام بن عبد الرحمن بن مـحمد بن عبـد الرحمن، ويجعلون وفاته سنة سـتة وثلاثين وخمسـمائة، وطائفة منهم يطلقون عليه: عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن ابن أبى الرجال محمـد بن عبد الرحمن، ويجعلون وفاته بعد سنة ثلاثين وخـمسمائة، ويكاد جمهور المترجمين له يتفقون مع ابن الأبار فى سنة الوفاة، إلا أنهم يختلفون معه فى الاسم، رغم أن بعضهم صـرح بالنقل عنه كالذهبى فى «السير» واليـافعى فى «مرآة الجنان». . . ويظهر أنهما شخصان متمايزان خلط بينهما بعض المترجمين، ويزكى هذا الاحتمال السيوطى فقد ترجم للمفسر فى «طبقات المفسرين»، وترجم للغوى فى «بغية الوعاة» وجعلهـما مختلفـين فى الاسم وسنة الوفاة، بينما طابق بينهمـا فى اللقب فقط «ابن برجان» معتبرًا أن هذا اللقب مـخفف من أبى الرجال، وقد ضبطه ابن خلكان قبله فقال: برجان بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء بعدها جيم وبعد الألف نون.

وذهب الباحثون المعـاصرون مع الجمهور، معتبـرين أن أبا الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن محمـد بن برجان هو الذى شغل المغرب والأندلس فى الثلث الأولى من القرن السـادس، ومـعهم كذلك الدكتـور إبراهيم الوافى الذى نَسَبَ إليه هذا التفـسير، لكنه ذكر من بين المـؤلفيـن فى التفسـيـر فى القـرن السـابع الهجرى: عـبد السلام بن

(١) مصادر التـرجمة: طبقات المفسـرين للداوودى (١ /٣٠٦)، مرآة الجنان، (٣/ ٢٦٧)، مفتاح السعادة ((٢/ ١١١)، النجوم الزاهرة (٥/ ٢٧٠)، طبقات المفسرين للسيوطى (٢٠).

عبد الرحمن بن برجان وقال: إنه حفيد المترجم، ونسب إليه تفسيرًا للفاتحة، وذكر أنه موجود بالخزانة التيمورية.

واتفق المترجمون أنه من أهل «إشبيلية» ويرجعون أصله إلى إفريقية، وذكر ابن الأبار أنه كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث والتحقق بعلم الكلام والتصوف مع الزهد والاجتهاد فى العبادة.

أما عن شيوخه فلم يذكروا إلا أنه سمع الحديث من ابن منظور.

وذكروا من تلامذته: أبا القاسم القنطرى، وأبا محمد عبد الحق الإشبيلى، الذى اشتهر فى علم الحديث والرجال، وأبا محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف، وأبا عبد الله بن خليل القيسى، وهو آخر من روى عنه حسب بن الزبير.

وهكذا فقد جمع ابن برجان بين الحديث، وعلم الكلام، والتصوف، ووصفه ابن الزبير بأنه: «أخذ من كل علم بأوفر حظ، مؤثرًا لطريقة التصوف وعلم الباطن، متصرفًا فى ذلك، عارفًا بمذاهب الناس، متقيدًا ـ فى نظره ـ بظواهر الكتاب والسنة، بريئًا من تعمق الباطنية، بعيدًا عن قحية الظاهرية، شديد التمسك بالكتاب والسنة».

أما مؤلفاته فإن المترجمين ينسبون له ثلاثة مؤلفات وهى:

١- **كتاب فى التفسير:** قال ابن الأبار عنه: لم يكمله، ووصفه ابن الزبير بأنه: «جرى فيه على طريقة لم يسبق إليها، استقرأ من آيات عجائب وقرائن من الغيوب إلا أنه أغمض فى التعبير، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه وألف إشاراته وإلهامه».

ونقل ابن خلكان بعد ذكر تنبؤ ابن برجان بفتح بيت المقدس سنة ٥٩٨هـ، أنه لم يزل يطلب هذا التفسير حتى وجده، غير أن القصة مذكورة فى الحاشية بخط غير الأول، ونقل محققه إحسان عباس قال: «بهامش المختار، قلت ـ أعنى كاتبها موسى ابن أحمد لطف الله به: وقفت فى القاهرة ودمشق على ثلاث نسخ من التفسير المذكور، وهذا الفصل المشار إليه، لكنه مكتوب على الجميع على الحاشية بعد خط الأصل، قال: وأخبرنى الشيخ تقى الدين محمد بن زين الدين الشافعى قاضى القضاة بالديار المصرية ـ رحمه الله تعالى ـ أنه رأى هذا الفصل فى نسختين على صورة ما

ذكرناه، والله أعلم». وهذا يدل على اعتناء المشارقة بهذا التفسير، وأنه قد دخل إلى المشرق فى وقت مبكر وتعددت نسخه هناك.

٢- **كتاب فى تفسير الأسماء الحسنى**: وصفه ابن الزبير بالشهير، وقد ذكره العلامة الطاهر ابن عاشور ونقل منه، وذكر أبو العلا عفيفى أن المخطوطين: «شرح معانى أسماء الله الحسنى» و «ترجمان لسان الحق المبثوث فى الأمر والخلق» الموجودين بألمانيا وفرنسا كتاب واحد. وقد أشار ابن برجان إلى هذا الكتاب فى عدة مناسبات فى تفسيره، ومن ذلك يُعلم أن هذا الكتاب وضع قبل التفسير.

٣- «**الإرشاد**» قيل عنه: «إنه قصد فيه على استخراج أحاديث صحيح مسلم بن الحجاج من كتاب الله تعالى، فتارة يريك الحديث من نص آية، وتارة من محتواها ومفهومها، وتارة من إشارتها أو من مجموع آيتين مؤتلفتين أو مفترقتين، ومن عدة آيات، إلى أشباه هذه المآخذ».

التعريف بتفسير الإمام ابن برجان:

وهذا التفسير لم يطبع بعد، والراجح أنه مؤلفه لم يتمه، وقد وقفت على نسخة مصورة عن الأصل المحفوظ بمكتبة السليمانية بتركيا، وتبدأ من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف، وأخرى مصورة عن النسخة المحفوظة فى الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٢٤٢ ك) تبدأ بسورة الأعراف وتنتهى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ**﴾ (الآية: ٦٢) من سورة النور.

وهذا التفسير فى مجمله تفسير صوفى، يركز فيه مؤلفه على الحروف وأسرارها وشىء من الإشارة وأنواع من التخليط والهذيان، وهو لا ينقل عن أحد سبقه ألبتة، ولا يهتم باللغويات والنحو.

تسمية الكتاب:

وأغلب المترجمين لابن برجان ينسبون له التفسير بالإطلاق بدون وصفه باسم يميزه، وسماه حاجى خليفة: «الإرشاد فى تفسير القرآن» وكذلك فعل إسماعيل باشا البغدادى، ويُعكر على هذا ما ذكرناه من أن له كتاب «الإرشاد»، والذى يظهر أن اسم التفسير هو: «تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب والتعرف على الآيات والأنباء العظام» ـ وهو ما أثبتناه ـ تبعًا للباحثين الذين وقفوا على نسخة من هذا التفسير فى ألمانيا.

منهج ابن برجان فى تفسيره:

بدأ ابن برجان التفسير بخطبة الكتاب، ثم عقد فصلاً يدل على فكره ومنهجه المنحرف فى تفسير القرآن الكريم فقال: «ثم قد يكشف الله جل جلاله لبصائر بعض عباده المؤمنين فيرون بها ما غاب عن أبصار رءوسهم. . . فرأوا بنور الإيمان وحقيقة الإيقان ما ليس بشخص ولا جوهر ولا عرض ولا هو من قبيل ذلك، ثم قد يرون أيضًا ما ليس كالأجسام المعهودة مرائى روحانية يصورها مصور العقل فى باطن الذكر، وكذلك يزيل الوقر عن أسماع قلوبهم فيسمعون بها ما غاب عن آذان رءوسهم. . .» ثم تكلم عن الإلهام.

وبعد أن يذكر ابن برجان اسم السورة، يشير فى بعض الأحيان إلى كونها مكية أو مدنية، وعدد المنسوخ فيها، ثم يبدأ فى التفسير، وفى سورة مريم مثلاً يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، مريم، فيها من المنسوخ أربع آيات»؛ ثم يبدأ بتفسير الآيات فى السورة مقسمًا إياها إلى جمل ويوضح معناها دون استطراد.

ففى سورة الإسراء قال: «قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾» ثم شرع يفسر التسبيح، وبعده فسر قوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ لينتقل إلى ما بعده ﴿ **لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾.

ومما يلفت النظر فى هذا التفسير اهتمام ابن برجان بالمعانى الدقيقة، فمثلاً فى سورة الإسراء عند الحديث عن بركة المسجد الأقصى قال: «ربما سميت تلك الأرض مقدسة لتجلى المبارك القدوس ـ عز وجل ـ فيها لموسى ـ عليه السلام ـ وتكليمه إياه فيما هنالك، قال ـ عز وجل: ﴿ **نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ (النمل: ٨) وقال: ﴿ **إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ (طه: ١٢) فليس يبعد مع هذا أن يكون الله ـ عز وجل ذكره ـ أبقى بركة تجليه فيما هنالك إلى يوم القيامة».

وقد يورد ابن برجان أقوال المفسرين ويردّ ما لا يراه صوابًا ـ فى نظره ـ فمثلاً فى قصة موسى رد ما أورده المفسرون من سبب عقدة لسان موسى وإرجاعهم ذلك السبب إلى الجمرة قائلاً: «والصحيح ـ والله أعلم بما ينزل ـ أنه كان رجلاً عبرانيًا فى مجاورة القبط فى جحورها فكان ظاهر لسانه لغة القبط ثم تغرب إلى أرض مدين وجاور العرب

فتغرب من أجل ذلك مدة سنين كان فيها هنالك، قال عز وجل: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فكانت من أجل ذلك لكنة لسانه فلم يكن فصيحًا فى لسانهم كأخيه هارون عليهما السلام».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى ابن برجان تفسير القرآن بالقرآن عناية واضحة فقد يأتى بآية ليؤيد بها معنى محتملا من آية أخرى، مثال ذلك ما ذكره فى سورة الإسراء بعد الحديث عن الإسراء هل كان بجسده ﷺ أم بروحه، فقال: «فصل: قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٣ - ١٧) فأخبر جل جلاله نصًا غير محتمل أنها كانت منه رؤية بصر».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ (الإسراء: ١٧) قال: «ففى هذه الآية والتى فى سورة الشورى، قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ...﴾ (الشورى: ٢٠) الآية، غير أن التى فى هذه السورة أجلى وأبين، وجاءت آية سورة هود وفيه بعض الإشكال قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٤) وهى أخبار لا يجوز عليها النسخ، والتوفية فى هذه الآية ـ والله أعلم بما ينزل ـ هو: أن يطعم بعلمه ويسقى فيحصى عليه الفوافى، ونعم السمع والبصر والحواس فتكون ذلك توفية لعمله، ويعطيه ربه من الدنيا ما شاء ولربما زاده على مراده ثم يحتسب له من ذلك فيما ذكرناه، دل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣)».

موقفه من التفسير بالمأثور:

ويستدل الإمام ابن برجان بالأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين فى محاولة منه للوقوف على مراد الله تعالى فى كتابه الكريم، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾ (الإسراء: ٧٠) الآيات، حيث قال: «قرأ النبى ﷺ الآيتين فقال: يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ستون ذراعًا ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينظر إلى أصحابه

فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم آتنا بهذا وبارك لنا فى هذا حتى يأتيهم فيقول: ابشروا لكل رجل منكم مثل هذا».

وابن برجان ليس مجرد ناقل للأقوال، بل يناقشها ويرجح بينها، ويرد منها ما لا يراه صوابًا، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ (الأنبياء: ٩٨) قال: «روى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال: «الورود الدخول حتى لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، ثم ينجى الله الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا» وروى نحو ذلك عن ابن عباس، وروى عن ابن مسعود أنه قال: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾ (مريم: ٧١) يعنى الصراط، وروى أنه قال: يردونها ويصدرونها بأعمالهم، وقال قتادة: ورودها الممر عليها؛ وأما ما روى عن جابر عن النبى ﷺ فإنه لو ثبت لكان الحجة البالغة، وطريق هذا العلم، ولا يصح العلم ولا يتحصل بطريق الآحاد كيف وقد ضعفت نقلة هذا الحديث، فإنهم مجهولون».

موقفه من القراءات:

وابن برجان من أهل المعرفة بالقراءات ـ كما ذكر ابن الجزرى ـ فى «غاية النهاية فى طبقات القراء» ولذا كان طبيعيًا أن يوظف ابن برجان علومه ومعارفه فى التفسير، خاصة تلك العلوم التى لها علاقة وطيدة بالتفسير والقراءات، فلا غرابة إذًا أن يعنى ابن برجان فى تفسيره بالقراءات، مع ذكره لقراءات الصحابة والتابعين: أمثال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والشعبى وغيرهم، والقراء السبع وغير السبع، لكن اهتمام ابن برجان بقراءات الصحابة والتابعين يبدو أكثر وضوحًا، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ** ﴾ (الإسراء: ٣) قال ابن برجان: «قرأها ابن كثير «فى الكُتب» على الجمع» وفى ﴿ **لَتُفْسِدُنَّ** ﴾ قال: «قرأها ابن عباس «لَتُفْسَدن» بتاء مضمومة وفتح السين».

ويجمع ابن برجان فى تفسيره بين القراءات ويوظفها ليستدل بها على المعانى مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ** ﴾ (الإسراء: ١٠٦) حيث قال: «قرأها ابن عباس وقتادة وعكرمة وابن محيصن والشعبى: «فرَّقناه»

بالتشديد، أى: فرقنا تنزيله، قال: من خفف معناه بيناه، وفى قراءة أُبى وابن مسعود «فرقناه لتقرأه على الناس» ثم قال: «والجمع بينها وبين قراءة التخفيف أن إنزاله إلى بيت العزة جملة فيه من القراءة ثم فرق إنزاله بعد على نجومه ومنازله ليقرأه على الناس على مكث» وهكذا حمل قراءة التشديد على التنزل الأول، وقراءة التخفيف على التنزل الثانى.

كما يورد ابن برجان فى تفسيره القراءات الشاذة، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (الإسراء: ١١٠) حيث قال: «قرأ طلحة: «أيا من تدعون» كأنه قال: من دعوت بهذين الاسمين فهو الله جل ذكره».

وأتى بقراءة ابن عباس وأبى: «وأما الغلام فكان كافرًا وكان أبواه مؤمنين».

قال ابن برجان: «قرأ الخدرى: وأما الغلام فكان فاجرًا وكان أبواه مؤمنين».

المناسبة بين السور:

لم يغفل ابن برجان فى تفسيره الإشارة إلى ذكر المناسبة بين بعض السور، مثال ذلك ما قاله فى أول تفسير سورة الإسراء حيث قال: «انتظم أول هذه السورة بمعنى آخر سورة النحل من ذكر إبراهيم وذكر أصحاب السبت وذكر نبوة محمد ﷺ وأمره إياه بأن يدعو إلى سبيل ربه - عز وجل - يمدح نفسه بعد، وإتيانه موسى الكتاب وجعله هدى لبنى إسرائيل ثم قال: ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٢) من معنى التوحيد وخالص التعبد الذى حاله التوكل، ثم قال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ (الإسراء: ٣) ذكَّره بسننه القديمة إذ لم يجعله من الهالكين بالكفر وعرض باقتضاء الشكر بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء: ٣)».

المناسبة بين الآيات:

والإمام ابن برجان يولى هذه المسألة اهتمامًا شديدًا.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ﴾ (النحل: ٥) قال: «عطف هذا الخطاب على ما تقدم لاتصال ذكر الخلق بالأمر وتقارب معنيهما لصدورهما فى أمر الخالق جل وعلا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

(الرعد: ١٥) قال: «انتظام هذه الآية بالتى تقدمتها يعنى أنه ليس بشىء كائن ما كان مؤمن أو كافر أو حيوان أو نبات بخارج عن التعبد لله - عز وجل - والقنوت لعظمته».

ابن برجان ومقاصد السور:

يعنى ابن برجان فى تفسيره بذكر مقاصد السور، ويوليها عناية خاصة مثال ذلك ما قاله فى سورة الحجر: «الغرض المقصود الأول فى هذه السورة - والله أعلم - الذكر والتذكير».

وقال بعد حديثه عن السبع المثانى: «فهذا يؤيد ما تقدم ذكره من العبرة والقول بأن القرآن كله واحد فرد لم يتفصل بعد على كل شىء» ثم قال: «عبر عن ذلك قوله فى مفتتح أم القرآن وأم الكتاب: الحمد لله، فجاء بالحمد الذى هو جامع الثناء والمدائح والذكر أجمعه وأضافه إلى اسمه جل ذكره، والذى جميع الأسماء له شارحة ثم تفصلت عنه الأسماء جميعًا كما تفصلت عن الحمد الأذكار كلها، أتبع ذلك رب العالمين، فذكر الوجود كله الواقع تحت اسم العالمين، وهو كل مخلوق وكل مذكور وموجود سوى الله - عز وجل - فظهر بذلك ما فصَّله إيجادًا كما أظهر بتغاير الأسماء ما فصَّله عن اسمه الواحد الأحد».

موقفه من أحاديث فضائل السور والآيات:

وابن برجان يكثر فى تفسيره من ذكر الصحيح والضعيف والموضوع فى فضائل السور والآيات، وربما يتعرض لها بالنقد والتضعيف.

موقفه من أسباب النزول:

كما يتعرض ابن برجان فى تفسيره لأسباب النزول، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ (النساء: ٤٣) قال: «قال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعامًا فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت منا، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت: «قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾».

موقفه من السيرة والتاريخ:

وابن برجان يتعرض فى تفسيره للسيرة والتاريخ وقصص الأنبياء، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ (الأعراف: ١٧٥) حيث قال: «اختلف الناس فيمن هو المعنىُّ بهذا، فقال قوم: هو بلعام بن باعوراء، وقيل: باعر، وقال آخرون: هو البسوس، عابد من بنى إسرائيل، قالوا: كانت له ثلاث دعوات استنفدهن على ما ذكروه فى أمره، والله أعلم أكان ذلك أم لا؟ وقال قوم: هو أمية بن أبى الصلت، وقال قوم: نزلت فى راهب بن صيفى، وقال قوم: إنها نزلت مثلا فى اليهود والنصارى وكل من آتاه الله من آياته وعلمه كتابه فانسلخ من ذلك فهو المعنى بهذا، ثم اختلفوا فى القصص عن هؤلاء المذكورين، وأنا ذاكر طرفًا من قصص أمية ابن الصلت لقرب طريقه وتارك ذكر قصص ما قص فى شأن أولئك لبعد الطريق وتعذر الوقوف على صحته وسقمه...» ثم ذكر طرفًا وشعرًا كثيرًا له فى التوحيد.

موقفه من الفرق الأخرى:

وابن برجان فى تفسيره يتعرض أحيانًا للفرق الأخرى ويردّ عليها، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ (آل عمران: ٥٥) وبعد أن ذكر كلامًا كثيرًا عن المسيح والمسيح الدجال تطرق للكلام عن عقيدة الشيعة فى الرجعة فقال: «وحتى هذا اعتقد قوم أنه حىٌّ وأنه تكون منه رجعة فيفعل ما يفعل الوصى، فإنهم ادعوا أن رسول الله ﷺ جعله وصيًا، وهذا لم يثبت؟ وإنما يكون فى نسله ومنهم يكون الرجل الصالح المهدى المبشر به، فهذا أوقع أولئك فى هذيانهم من قولهم بالرجعة».

الاتجاه الإشارى فى تفسير ابن برجان:

قال الداودى فى طبقات المفسرين (١/ ٣٠٦): «عابوا عليه الإمعان فى علم الحروف حتى استعمله فى تفسير القرآن».

فمثلا عند تفسير فاتحة الكتاب ذكر ابن برجان كلامًا كثيرًا فيه هذيان وتخليط، ذكر فيه أن الفاتحة سبعة فصول، تنفصل هذه السبعة فصول إلى مائة فصل عدد أسمائه جل ذكره، وعددها عدد درجات الجنة، عنها انفصل العلم كله وإليها رجع، ثم قال:

«وهذه الفصول الأربعة للقرآن شبيهة بالفصول السبعة للأسماء وقد تقدم ذكرها فى شرح الأسماء[1]، وهى أيضًا شبيهة بأيام السنة سابعها يوم الجمعة وهو جامعها وموضع فريدها، عنه انفصلت وإليه ترجع، على نحو ما تقدم من العبرة فى اسم الشهيد، وهذه الفصول السبعة وما انفصلت إليه ترجع كلها إلى فصلين: فصل الإلهية، وفصل النبوة يرجعان معًا إلى فصل الإلهية، الأعلى ينتظم الأسفل».

ثم قال: «إنباه إياى أعنى ونفسى أخاطب أين يذهب بك أيها اللاعب المتلاهى والبطال المتغافل؟ أغفلت حظك ولهيت عن فوزك رب العالمين الرحمن الرحيم ذو العرش العظيم يذكر ويثنى كلامه على تلاوتك».

وعند تفسير كلمة ﴿الرَّحِيمِ﴾ قال: «فصل: كان الله جل جلاله ولا شىء قبله ولا موجود سواه، ولما كتب فى الذكر كل شىء ثم أوجد أوائل ما كتبه فكان ذلك ثناء لفردانيته ثم استوى على العرش فحمد كل شىء باستوائه على العرش إذ حيى باستوائه ذلك العبد الكلى واستوى أى كمل وتم كما شاءه المستوى العلى الكبير، فهو جل ذكره لا يعزب عنه من موجودات عبده الكلى والجزئى مثال ذرة فى العلو ولا فى المنتهى ولا ما هو أصغر من ذلك ولا أكبر، فكان مقتضى اسمه الرحمن شاملاً للجملة، ومقتضى اسمه الرحيم عامّا للمطيعين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قال: «وهى كلمة مركبة من أربعة أحرف من حروف المعرفة الهمزة والياء والألف والكاف، والهمزة صادرة من ذات المخاطب إلى الكاف التى هى لمواجهة المخاطب، والياء والألف سبيل إلى ذلك وعماد له، أشار بها السر المخاطب بالإخلاص للعبادة على حكم التوحيد المحض. . .».

وعند تفسير قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ﴾ قال: «ثلاثة حروف مرسومة ظاهرة وأربعة رءوس وستة توالى دخلت لضرورة النطق بالرءوس المرسومة الرءوس، ولما كانت الهمزة إنما دخلت لضرورة النطق بالألف لحقت بالتوالى إذًا سبعة والمرسومة ثلاثة فهى عشرة كانت هذه التوالى. . .» إلى أن قال: «فصل: فالهمزة يعطى معناها ههنا كل ما ما أفهمته من معنًى وما أعملته من معلوم، وكذلك

---

(١) يقصد ابن برجان كتابه فى شرح الأسماء الحسنى.

الألف، وكذلك اللام، إذ هى أوائل المعانى فى كل ما دخلت عليه كل صحيح معتبر...».

ثم ذكر فى الحروف حوالى خمس صفحات، وقال فيها: «وعلى هذا السبيل تأولها حبر العرب عبد الله بن عباس حيث قال: ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله أعلم، ﴿الٓر﴾ أنا الله أعلم وأرى. ولإمعانه فى العلم بالحروف لما سئل عن تفسير قوله جل وعز: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قال: لو أخبرتكم بتفسيرها لكفرتمونى، وفى أخرى. لكفرتم، أى بتكذيبكم الحق».

وهذا إن صح عن ابن عباس فهو مشكل إلى حد بعيد، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة بحرف ليس معهودًا فى كلام العرب، اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر:

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد: قالت: وقفت.

وقول زهير:

بالخير خيرات وإن شرًا فا ... ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد: وإن شرًا فشر، وأراد: إلا أن تشاء.

وقول الآخر:

نادوهموا ألا الجموا ألا تا ... قالوا جميعًا كلهم ألا فا

أراد: ألا تركبون، قالوا: ألا فاركبوا.

وقوله ﷺ «كفى بالسيف شا» أراد، شافيًا.

... ولكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله: ﴿الٓمٓ﴾؟.

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه... ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا.

وعلى هذا فتفسير (ابن برجان) تفسير عظيم الضرر، وإن كانت له حسنات فهى قطرة فى بحر سيئاته، ويكفى شهادة معاصريه لمؤلفه بأنه مبتدع.

٣- تفسير «رياض الأزهار وكنز الأسرار»

للخروبـــــي

التعريف بصاحب هذا التفسير[(١)]:

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن على، أبو عبد الله الخروبى، الطرابلسى، السفاقسى، ثم الجزائرى.

كان فقيهًا مالكيًا، صوفيًا، مفسرًا.

ولد الإمام الخروبى فى قرية «قرقارش»، إحدى قرى طرابلس الغرب فى ساحلها الغربى، وبها مسجد يعرف بـ «مسجد الخروبى»، وقد جُدد وكُتب على بابه: «مسجد وضريح سيدى على الخروبى»، والضريح بجوار المسجد وبجانبه زاوية للذاكرين ملحقة به، فهذه النسبة إلى والده، إذ كان رجلاً صالحًا، وابنه الشيخ محمد تربى فى هذا الجو العلمى الصالح.

حضر مجالس العلم والعرفان، وأخذ عن أساتذة عصره ومشايخ مصره، ويأتى فى مقدمتهم: الشيخ أحمد زروق، وأبو عبد الله الزيتونى، وعمر بن زيان المديونى، وعلى الخروبى، والحطاب الصغير، وغيرهم.

ارتحل إلى الجزائر، وجلس هنالك للتدريس، وأخذ عنه جماعة من أهل العلم، وأقام بها، وكان ذا مكانة عند أمراء الجزائر وحكامها، وأوطن بها إلى أن مات فى سنة (٩٦٣هـ)، وله أيضًا رحلة إلى المغرب الأقصى، وكان ذلك سنة (٩٥٨هـ) حيث أخذ عنه كثير من أهلها، وقدم مراكش سفيرًا من سلطان آل عثمان ومن الأمير أبى عبد الله الشريف بقصد المهادنة بينهما وتحرير البلاد.

وكان ـ رحمه الله ـ إمامًا بارعًا محققًا، وضَّاح الفهم، ساطع الحجة، عباب علمى الظاهر والباطن، متين الحفظ، واسع المعرفة، شديد الرواية، معتدل الإفادة، شهير الذكر.

---

(١) مصادر الترجمة: هدية العارفين (٢/ ٢٤٥)، إيضاح المكنون (٢/ ٤٧١)، شجرة النور الزكية ٢٨٤ برقم ١٠٧٤، الأعلام (٦/ ٢٩٢)، معجم المؤلفين (١١/ ٦)، النحو وكتب التفسير للدكتور إبراهيم الوافى (ص٩٧٤ - ٩٧٧)، وقد استفدت منه كثيرًا فى بحثى.

وجمع الخروبى فى مؤلفـاته بين التصوف والتفسير والتـاريخ؛ فألف شرحًا للحكم العطائية، ورسالة رد فـيها على أبى عمر القـسطلى المراكشى، وتفسـيراً للقرآن الكريم «رياض الأزهار وكنز الأسرار» وهو مـا نحن بصدده، ومن تواليفه أيضًـا: مزيل اللبس عن آداب وأسرار القواعد الخمس، وشرحٌ على الصـلاة المشيشية، وُصِف على أنه فى غاية الجودة والنبل، والحِكَـم الكبرى، والأُنس فى التنبيه على عيـوب النفس، وكفاية المريد وحلية العبيد، وكتاب فى تاريخ وتراجم أساتذته ومعاصريه.

وتوفى الإمام الخروبى بالجزائر، سنة ثلاث وستين وتسعمائة.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير «رياض الأزهار وكنز الأسرار» لم يطبع بعـد، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المـصرية، رقم ٣٦٤/ تفسـير مكتـبة طلعت، وهى من الجزائـر، ويوجد على بعض أوراقهـا اسم الزاوية التى كانت مـوقوفة عليـها، وهى بخط مـغربى، وتقع هذه النسخة فى ثمانية أجزاء، كل جزء فى مجلد مستقل، وقد كتب على ظهر الورقة الأولى صورة وقفية تثبت أن هذه النسخة من تفسير الـشيخ الخروبى بأجزائها الثمانية، وأوقفها الشيخ مـحمد بن مـحمد الـترقتى الأندلسى على زاوية الأندلس، بـالجزائر فى أواسط جمادى الآخرة سنة ١١١١هـ.

وقد كلفت الدار كـاتبًا اسمه السـيد حسن رشيـد بكتابة نسخـة حديثة منها؛ فـقام بنسخها، وخطه واضح جيد، ولكنه لم يستطع أن يستنسخ تفسير سورة «المنافقون» إلى آخر الجزء الثامن والأخير لرداءة النسخة الأصل، وانطماس خطها وتآكل أوراقها، وهذه النسخة الحديثة تحمل رقم ٢٢٣٦٢/ ب.

مصادر الخروبى ومقصده ومنهجه فى التفسير:

أشار الخروبى فى مقدمة كتابه إلى أهم مصادره التى اعتمد عليها فى التفسير فقال: «وأعتمـد فى التفسـير على كتاب الإمـام ابن عطية ـ رحمه الله تعـالى، وعلى الجواهر الحسان للشيخ أبى زيد عبد الرحمن الثعالبى ـ رحمه الله تعالى، والقاعدة فى كتابنا هذا أن أجعل العـين المهملة للإمـام ابن عطية، والثاء المـثلثة للشيخ الثـعالبى، وإن أتيت

بكلام غيرهما فى كل فن أنسبه إلى قائله، وإن أطلقت الكلام أو أسندت القول إلى ضمير المتكلم فهو لنا، هكذا فى الكتاب كله».

وهو أكثر نقلاً عن ابن عطية فى التفسير والإعراب والقراءات وتوجيهها لسعة تفسيره وإمامته، وهو أصل كليهما.

ولكن الخروبى لم يقتصر على هذين المصدرين بل نراه ينقل كثيرًا عن أبى حيان، والنقاش، والواحدى، والفخر الرازى، والزمخشرى، وهو حيثما ذكر الزمخشرى أعقبه ـ غالبا ـ بهذه الجملة الدعائية: «سامحه الله»، وهو دعاء يوحى بعدم الرضا عنه لنزعته الاعتزالية.

ثم ذكر الخروبى بعد ذلك فصولاً فى: إعراب القرآن ولغاته، وذكر أئمة التفسير من الصحابة والتابعين ومن جاء من بعدهم، والوعيد فيمن فسر القرآن برأيه، وفصلاً فى جمع القرآن، وأول ما نزل، وآخر ما نزل، والمكى والمدنى، وتفسير أسماء القرآن، وذكر السورة والآية، ونقط القرآن وشكله وترتيب سوره وتجزئته، ثم ذكر بابًا فى الاستعاذة، ثم شرع فى تفسير الفاتحة.

ثم تحدث الخروبى فى مقدمة كتابه عن مقصده من تأليفه، وهو أن يجمع فيه بين الشريعة والحقيقة، أى بين الأحكام الظاهرة والأسرار الربانية الصوفية، قال: «ونحن قصدنا فى كتابنا هذا أن نجمع بين الطرفين؛ ليكون جامعًا بين الشريعة والحقيقة، فنأتى من علوم ظاهرة بعلم التفسير، إذ هو العلم المراد لذاته وباقى العلوم دالة معينة عليه، ولنأت معه بما أمكن من أسباب النزول للفوائد المتعلقة به».

فهو يثبت التفسير الظاهر ـ أولاً ـ ليكون الأساس الذى يبنى عليه الباطن وما يبديه من حقائق وأسرار؛ لأن ذلك أضمن لإصابة الحق والبعد عن الزيغ فى تفسير كتاب الله، قال: «ولنأت من علوم باطنة بالحقائق البادية من آياته، وبالأسرار التى تضمنها تراكيب جمله وألفاظه، مما سبق الغير إليها أو مما لم يعثر أحد غيرى عليها، ولنقدم التفسير؛ ليكون قاعدة لما نأتى به من الحقائق والأسرار، إذ ذلك أبلغ فى نيل الغرض وأنقى للعرض، وإن دلت الآية على تعلق أو تحلق أو تخل أو تحل أنبه على ذلك بلفظ موجز».

والخروبى يحتاط فى تفسيره ولا يرضى بشطحـات الصوفية فى كتاب الله تعالى إذ هو من العلمـاء الأثبات، وهو الواجب، إذ يتحـتم على من يريد أن يستـجلى الأسرار والأفهام الدقيقة من معانى القرآن الكريم أن يحكم تفسير ظاهره بدلالة أسلوبه ومقاصده وما أُثِرَ فى بيانه، ولا يحيد عن ذلك.

وقد ذكر الخروبى أن بعض المفسرين كابن عـطية والزمخشرى وابن العربى اشتغل بظاهر القرآن وأحكامه الظاهرة من فـقه ونحو ولغة وغيرها، وبعضهم اشـتغل بالحقائق والأسرار كالسُّلمى، فرأى هو الجمع بينهما؛ ليكون تفسيره أكثر نفعًا وأسير ذكرًا، قال: «وإنما سلكت فى كـتابنا هذا المـسلك الغريب، ونحوت فـيه هذا المنحى العـجيب؛ ليكون جامعًا بين الشريعة والحقيقة، فيعتمده كل طالب نجيب وكل صوفى لبيب ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ (البـقـرة: ٦٠) فكان كتـابنا ـ والحمد لله ـ جامـعًا بين العلم والعمل».

موقفه من أسماء السور والمكى والمدنى وعد الآيات:

يتعرض الخروبى فـى تفسيره لأسماء السور، وبيـان المكى والمدنى، وعدَّ الآى، مثال ذلك عند تفـسير سورة مريم حـيث قال: «وهذه السورة مكية بإجمـاع إلا السجدة منها، فقيل: مكية، وقيل: مدنية، وهى تسعون وثمانية أو تسع آيات».

فضائل السور:

والخروبى يورد فى تفسيره الصحيح والضـعيف والموضوع عند حديثه عن فضائل السور والآيات فقال مثلاً عند تفسير سورة مريم: «روى من قرأ سورة مريم أعطى عشر حسنـات بعدد من كـذَّب زكريا وصدَّق بـه، ومريم، وعيـسى، وإبراهيم، وإسـحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعـيل، وإدريس، وعشر حسنات بعدد من دعا الله فى الدنيا وبعدد من لم يدع الله».

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى الخروبى تفسير القرآن بالقرآن عناية خاصة، فمثلاً عند تفسير ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ (الشعراء: ٣٣) قال: «هنا معناه: أخرجها من جيبه بدليل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (النـمل: ١٢)، ومن كمه بدليل: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ (طه: ٢٢)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (الأعراف: ١٣٧)، قال: «المراد بـ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٥، ٦)».

موقفه من تفسير القرآن بالمأثور:

اعتماد الخروبى التفسير بالمأثور سمة واضحة فى تفسيره، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ (مريم: ٣) قال: «وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: خير الذكر الخفى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «قال ابن عبَّاس، ومجاهد: يريد أوَّل المؤمنين من قومه بنى إسرائيل ومن أهل زمانه؛ إذ كان الكفر عمَّ الآفاق.

ويحتمل أن يريد: ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنَّك لا تُرى فى الدنيا، قاله أبو العالية.

قلت: فيكون على قول أبى العالية قوله: ﴿أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إخبار بإيمانه عن حالٍ وقتى، وعلى قول ابن عبَّاس: إخبار عن إيمانٍ سابق فائدته الاستعطاف؛ بقبول توبته».

موقفه من أقوال بعض المفسرين:

والخروبى فى تفسيره ليس مجرد ناقل لأقوال غيره من المفسرين، بل نراه يرجح بينها ويردُّ منها ما لا يراه صوابًا، فمثلا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٨) قال الخروبى: «﴿الْبَحْرَ﴾ بحر القلزم، ووقع فى كتاب النقاش أنه نيل مصر، وهذا خطأ لا تساعده رواية ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل».

موقفه من المبهمات:

يتعرض الخروبى فى تفسيره للمبهمات، ويورد أقوال من سبقوه، ولكنه يوردها بميزان الناقد البصير، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ (الأعراف: ١١٣) قال الخروبى: «قيل: إنَّ السحرة الذين جاءوا فرعون كانوا خمسة عشر ألفًا، قاله ابن إسحاق، وقال ابن جريج: تسعمائة، وقال النقاش: كانوا اثنين وسبعين

رجلاً، وقـال عكرمة: سـبعون ألـفًا، وقال مـحمد بـن المنكدر: ثمانون ألفًـا، وقال السدى: مائتا ألف ونيف، وهذه أقوال ليس لها سند يوقف عنده».

موقفه من الإعراب:

لما كان بيان الشريعـة والحقيقة هو الهدف الأساسى من هذا التفسـير، فقد جاء ما عداه من المسائل الأخرى كـالنحو واللغة والقراءات مختصرًا حسبـما دعت إليه الحاجة وبما يُعين على تحقيق الهدف الأصلى للتفسير، يقول الخروبى: «ومهما دعا الحال إلى التعرض إلى بعض مسائل من نحو ولغة وقراءات وغير ذلك من العلوم الظاهرة فلنتكلم عليها باختصار».

مثال ذلك ما ذكره فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ (الأنعـام: ٣) حيث قال الخروبى: «الظـرفية هنا فى قوله: ﴿فِـي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ﴾ ليست على حد قولنا: زيد فى الدار لاستحالة حلوله تعالى فى الأماكن ومماسـته للأجرام ومحاذاته لها، فوجب صرف الآية إلى مـعنى جائز فى حقه تعالى، فقالت فـرقة من العلماء: تأويل ذلك على تقدير صفة مـحذوفة من اللفظ ثابتة فى المعنى، كأنه قـال: وهو الله المعبود فى السماوات وفى الأرض، وقـيل: التقدير: وهو الله المدبر للأمر فى السـموات والأرض، وقال الزجاج: «فى» متعلقـة بما تضمنه اسم الله عز وجل من المعانى، كما يقال: أمير المؤمنين الخليفة فى المشرق والمغرب ـ عليه السلام: هذا عندى أفضل الأقوال وأكثرها إحرازًا لفصاحة اللفظ وبراعة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وآثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات، فجمع هذه كلها فى قوله جلت قدرته وهو...».

وعند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنعـام: ٢٧) قال الخروبى: «وقرئ برفع «نكذب»، على الاسـتئناف والقطع عن التمنى ومثَّله سيبويه بقولك: دعنى ولا أعـود وأنا لا أعود، ويحتمل أن يكون حالا، تقديره: نرد غير مكذبيـن أو عطفًا على نرد، وقرئ بالنصب بإضمـار «أنْ» بعد الواو فى جواب التمنى، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ (الأنعام: ٢٩)، الجمهور أن هذا ابتداء كلام وحكاية لقولهم من إنكار البعث، و «إن» هنا نافية، وقيل: إن مقالتهم هذه عطف

على «لعادوا» أى ولو ردوا لكفروا ولقالوا: إن هى إلا حياتنا الدنيا، وقيل: يجوز أن يعطف على قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨) على معنى وإنهم لقوم كاذبون فى كل شىء، وهم الذين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾».

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ (النمل: ١٨)، قال: «قرأ جمهور القراء «لا يحطْمنَّكم» بشد النون وسكون الحاء، وقرأ أبو عمرو فى رواية عبيد بسكون النون، وهى قراءة ابن أبى إسحاق، وقرئ «لا يُحَطِّمنَّكم» بضم الياء وفتح الحاء وكسر الطاء وشدها وشد النون، وقرئ أيضًا بفتح الياء وكسر الحاء والطاء وشدها، وقرئ: «لا يَحْطِمْكُم» مخففة بغير نون، وفى مصحف أُبى بن كعب: «لا يحطمنكن» مخففة النون التى قبل الكاف، قال الزمخشرى ـ سامحه الله وعفا عنا وعنه: **فإن قلت:** لا يحطمنكم ما هو؟ **قلت:** يحتمل أن يكون جوابًا للأمر، وأن يكون نهيًا بدلا من الأمر، والذى جوز أن يكون بدلا منه أن فى معنى لا تكونوا جوابًا للأمر، وأن يكون نهيًا بدلا من الأمر، والذى جوز أن يكون بدلا منه أنه فى معنى لا تكونوا حيث كنتم؛ فيحطمكم على طريقة «لا أرينك ههنا»، أراد لا يحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ».

والخروبى كما ترى ينقل توجيهات الزمخشرى النحوية بقبول لها، وتجويز الزمخشرى أن يكون ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جوابًا للأمر ضعيف منتقد؛ لأن جواب الأمر لا يؤكد بالنون، وقد نقله الخروبى على نحو ما وجده فى «الكشاف».

ومراده بقوله: «على طريقة لا أرينك ههنا» أن النملة نهت عن الحطم، والمراد النهى عن البقاء خارج المساكن، أى لا تظهروا بأرض الوادى فيحطمكم جنود سليمان، كما أن «لا أرينك» المتكلم ينهى به نفسه عن رؤية المخاطب، والمقصود طرده؛ أى لا تكن هنا فأراك ـ وهو مثل ـ وفى المراجع التى رأيتها بلفظ «بعين ما أرينك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ...﴾ (مريم: ٥) الآية، قال: «﴿مِن وَرَائِي﴾ أى: بعد موتى، ويتعلق بالموالى أو بمحذوف تقديره: فعل الموالى وهو تبديلهم وسوء خلافتهم، ويصح تعلقه بمحذوف هو حال من الموالى ومضاف إليهم، ولا يصح تعلقه بـ ﴿خِفْتُ﴾ لفساد المعنى».

وعند تفسـير قـوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مـريم: ٢) يقـول الخروبى: «﴿ذِكْرُ﴾ مرتفع بقوله: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ فى قول فرقة، وقيل: ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا ذكر».

موقفه من القراءات:

وموقف الخـروبى من القراءات يتـفق مع موقف الثـعالبى منها، وذلـك يظهر فى سلوكه مسلكه فى الابتـعاد عن ذكر نقد المفسرين لبـعض القراءات، ومنهم ابن عطية، فالخروبى لا يذكـر هذا النقد، ولا يثبته فـى تفسيره، وهو إذا ما حكاه يذكـر معه الرد عليه؛ ليثـبت عدم صحته أو عـدم جوازه، ومثال ذلك ما ذكـره عن ابن عطية فى قوله تعالى: ﴿عَادًا الأُولَى﴾ (النجم: ٥٠)، حيث قال: «وقرأ نافع أيضًا وأبو عمرو بالوصل والإدغام: إدغام النون فى اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام، وعاب أبو عثمان والمبرد هذه القراءة وقالا: إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حد السكون، وحق ألف الوصل أن تبقى. . . قال أبو على والفراء: القراءة سائغة، وأيضًا فمن العرب من يقول: لحمر جاء فيحذف الألف مع النقل ويعتمد بحركة اللام ولا يراها فى حكم السكون».

والخروبى فى تفسيره يورد القراءات المتـواترة والشاذة، وقراءات الصحابة وينسبها إلى من قرأ بها، ويعنى بتوجيهها.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (مريم: ٢) قال: «وقرأ الجمـهور «ذِكْرُ» بكسر الذال، وسكون الـكاف، ورفع الراء، وقرأ الحسن «ذَكَّرَ رحـمة ربك» بفتـح الذال والكاف وشدها، وفتح الـراء، ونصب رحمة، أى: هذا المـتلو فى القرآن ذكـر رحمة ربك، وحكى أبو عمـرو الدانى عن يعمر أنه قرأ «ذكـر» بفتح الذال وكسر الكاف وشدها، وسكون الراء، وفتح رحمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ (مريم: ٢٤) قال: «قرأ نافع وحمزة وجماعة بكسر ميم «من»، وقرأ ابن كثيـر وأبو عمرو وجماعة بفتحها، والفاعل ينادى على القراءتين: قيل عـيسى عليه السلام أى ناداها المولود، وقيل: جـبريل عليه السلام، وفى قـراءة ابن عباس «فناداها ملك من تحـتها»، وقرأ علقـمة «فخاطبـها من تحتها»، والقول الأول أظهر».

موقفه من المسائل الفقهية:

اعتمد الخروبى فى تفسيره وفى عرضه للأحكام الفقهية على كتب المالكية لموافقتها مذهبه، ولا يعنى هذا أنَّه كان متعصبًا لها، بل كان متحررًا فى الرأى، دقيقًا فى النقل، موافقًا للدليل، فتضمن كتابه آراء الفقهاء الأربعة فى الآية مع ترجيح مذهبه على سائرها.

وكثيرًا ما يسكت عن ذكر الأحكام ويحيل إلى كتب الفقه، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة: ٩) حيث قال: «واختلفوا فى حكم إذا وقع ـ أى البيع والشراء، وذلك مذكور فى كتب الفقه».

موقفه من العقيدة:

والخروبى فى تفسيره يسير على منهج أهل السنة فى آيات الأسماء والصفات وغيرها من المسائل الكلامية.

الخروبى وصفة الكلام:

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ...﴾ الآية (الأعراف: ١٤٣) قال: «والآية نصٌّ على ثبوت كلام الله تعالى لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكلامه القديم الذى هو صفة من صفاته ليس بحرفٍ ولا بصوت ولا تقديم ولا تأخير، وذلك أنَّ الله سبحانه خلق لموسى إدراكًا سمع به الكلام القديم الذى هو صفة ذات، هذا هو مذهب أهل الحق، ولغيرهم فيه كلام غير معول عليه.

وقال ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير: أدنى الله موسى حتى سمع صريف الأقلام فى اللوح.

وكلام الله ـ عزَّ وجل ـ لا يشبه كلام المخلوقين؛ وكما أنَّ ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات، وهو سبحانه معلوم كالمعلومات».

الخروبى ورؤية الله تعالى فى الآخرة:

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «سأل موسى عليه الصلاة والسلام من ربه الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وهذا

دليل على جوازها عقـلاً، وبه قال أهل السنة، ولو كانت محالاً ـ كمـا يقوله غيرهم ـ لما سألها الرسول موسى عليه الصلام والسلام.

ولجواز الرؤية أدلـة كثيـرة انظرها فى محلهـا، منها: أنَّه لمَّا كـان تعالى مـوجودًا صحت رؤيته وكانت جائزة.

وقوله: ﴿قَالَ لَن تَرَانِى﴾ (الأعراف: ١٤٣) جوابٌ من الرب جلَّ جلاله لموسى عليه الصلاة والسلام، وليس هو بجـواب لمن سأل محالاً، لتعليـقه الرؤية على جائز، وهو رؤية الجبل، ولذا استدرك النفى فقال: ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى﴾ (الأعراف: ١٤٣) ، فلمَّا علَّق الرؤية على أمرٍ جائز، وهو استقرار الجبل مكانه، علمنا أنَّ ما علِّق على الجائز جائز مثله، ولو كانت الرؤية مـحالة لعلَّقها على محال، ولو نظرنا إلى مجرد نفى الرؤية بـ ﴿لَن﴾ لاقتضى الحال أنَّ موسى لا يرى ربه أبدًا، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، لكن ناقض ذلك التواتر الوارد عنه ﷺ ، والآيات القرآنية الدالة على أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وهذا يجب الإيمان به.

وكان نفى الرؤية فى الآية إنَّمـا هو بسبب عدم استـقرار الجبل مكانه، ولو اسـتقرَّ لحصلت الرؤية، كما نصَّ على ذلك بقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى﴾ فالمنفى إذًا استقرار الجبل مكانه، لا الرؤية نفسـها، وإنْ كان ظاهر اللفظ يأبى هذا لمباشرة أداة النفى الرؤية.

لكنَّ المعنى يصـحح لثبوت المنفـى وجوازه أيضًا، فلو كانت الرؤية ممـتنعة منع استحـالة لقال: لا أُرى، أو لست بمرئى، فينفى أصل الرؤية، فلمـا لم ينفِ أصلها دلَّ على جوازها.

فإن قـيل: كيـف قال: ﴿لَن تَـرَانِى﴾، ولم يقل لن تنظر إلىَّ حـتَّى يكون مطابقًا لقوله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؟.

فالجواب: أنَّ النَّظر لمَّا كان مقدمة الرؤية، كان المقصود هو الرؤية لا النَّظر الذى لا رؤية معه، قاله الإمام الفخر».

وعند تفـسيـر قوله تعـالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾

(الأعراف: ١٤٣) قال الخروبى: «التجلى: عبارة عن ظهـور أنوار عظمته ونعوت كماله، أمَّا التـجلى الذى هو من صفـة الأجسام فـمحـالٌ فى حقه، تعـالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

قال المتأوِّلون ـ كالقاضى الباقـلانى وغيره: إنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ خلق للجبل حياةً وحسًا وإدراكًـا به، ثمَّ تجلَّى له، أى: ظهر وبدا سلطانه، فاندك الجـبل لشدة المطلع، فلمَّا رأى موسى ما بالجبل صُعق، وهذا المعنى هو المروى عن ابن عبَّاس.

وأسند الطبرى عن حماد بن زيد عن ثابت عن ابن عبَّاس عن النبى ﷺ: أنَّه قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ فوضع الإبهام قريبًا من طرف خنصره، قال: «فساخ الجبل» فقـال حميد لثابت: تقول هـذا؟! فرفع ثابت يده فضرب صدر حمـيد، وقال: يقوله رسول الله ﷺ، ويقوله أنس، وأكتمه أنا؟!».

الجانب الصوفى فى تفسير الخروبى:

ذكرنا فى بداية هذا المـبحث أن مقـصد الخروبى ومنهـجه فى هذا التفسـير، هو الجمع بين الشـريعة والحقيـقة، والحق أن النزعة الصوفـية فى هذا التفسـير ليست هى السمة الغالبة عليـه، وهى نزعة صوفية سنية منضبطة بميزان الشـريعة، ليس فيها شطط من التأويل، أو قول بالحلول والاتحاد، أو نقل عمن عُرفوا بالزيغ والإلحاد.

فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعـراف: ١٤٤) يقول: «أى: اقـبل ما أعطيتك، واشـتغل بالشكر على ذلك، فهـو أولى بك من سؤال غيره، ولا مرية أنَّ القيام بحقوق النعم الحاصلة أولى من الاشتغال بطلب غيرها، وهذا أمرٌ لا يخـفى على الرسول ﷺ، كـيف وهو يعلِّم النَّاس الآداب، وإنَّما حـمله على ذلك: الإدلال والشوق إلى رؤية ربه؛ إذ لمَّا سمع كلامـه، لم يطق الصبر على رؤيته، والحبيب يشتاق إلى رؤية حبيبه قبل سماع كلامه فكيف بعد سماعه الكلام.

فكأنَّ موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهم أنَّ الكلام جعله الله مقدمة بين يدى أمرٍ أعظم منه، وهو الرؤية، فطلبها على سبيل الترقى فى المقامات العلية، وهذا شأن أهل الكمال».

ثم قال: «وفى هذه الآية: ما يفيد العبد أدبًا مع الله، فليكن مشغولاً بشكر نعم ربه عن تحصيل غرض نفسه، فالأوَّل: شغلٌ بالحقوق، والثانى: شغلٌ عنها».

وبعـد . . ولِمَا كان لـلخروبى من شـهرة واسعـة فى عالم الـتصوف، وقـوله فى مقدمتـه: إنه أراد أن يجمع فى تفسيره بين الشريعـة والحقيقة، فقد صُـنِّفَ كتابه ضمن تفاسـير الصوفيـة، وبعد مطالعتى لهـذا التفسـير فإنى أرى أن يوضع فى مصـاف كتب التفسير بالرأى المحمود، لغلبة التفسير بالظاهر فيه على الجانب الإشارى.

وندعو الله أن يرى هذا التفسير النور قريبًا ليعم النفع به.



٤- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية

للنخجواني

التعريف بصاحب هذا التفسير(١):

هو: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان، و «بابا نعمة الله» من أهل «آقشهر» بولاية «قرمان» نسبته إلى «نخجوان» من بلاد «القفقاس» رحل إلى الأناضول، واشتهر، وتوفى بآقشهر، سنة ١٥١٤م - ٩٢٠هـ.

له من المصنفات:

١- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، وهو ما نحن بصدد دراسته.

٢- هداية الإخوان فى التصوف.

التعريف بهذا التفسير:

و «الفواتح الإلهية» تفسير صوفى إشارى كامل للقرآن الكريم، ويقع فى مجلدين كبيرين، وطبع فى استانبول سنة ١٣٢٥هـ، وهى الطبعة التى نُحيل إليها فى هذه الدراسة.

قال صاحب الشقائق النعمانية: «كتبه بلا مراجعة للتفاسير وأدرج فيه من الحقائق والدقائق ما يعجز عن إدراكه كثير من الناس».

وهو تفسير يسير فيه المؤلف على منهج صوفى لا يفهم إلا الباطن، متجاوزًا الظاهر، وهو يُقدم لتفسير كل سورة من سور القرآن بفاتحة للسورة وخاتمة، ويفسر «البسملة» فى بداية كل سورة، وهو لا يتعرض إطلاقًا للقراءات أو اللغة أو أسباب النزول أو المسائل الفقهية، ولا ينقل النخجوانى عن أحد من المفسرين ألبتة، وإنما ينقل عن أناس عرفوا بالزيغ فى العقيدة أمثال أبى يزيد البسطامى، وابن عربى.

وقد افتتح المؤلف تفسيره بمقدمة طويلة تدل على انحراف منهجه وفكره، وتأثره بنظرية وحدة الوجود، حيث قال: « قبل الخوض فى المقصود لا بد من تمهيد أصلى

(١) مصادر الترجمة: الأعلام (٨/ ٣٩) كشف الظنون ١٢٩٣، الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان (١/ ٣٩٨)، وتحرف اسمه فى التفسير المطبوع إلى «النخوجانى».

كلىّ جملى يتضمن على سرائر عموم المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات الواردة على قلوب الكُمَّل».

ونحن لا ننكر على النخجوانى أن ثم حقائق ومكاشفات يلقيها الله فى قلوب أصفيائه وأحبابه، ويخصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول، كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأقوال تفسيراً للقرآن وبيانًا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه المكاشفات يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها، أما أن تكون هذه المكاشفات خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك ما لا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى؛ لأن القرآن عربى، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنه: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (فصلت: ٣) وحاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر: ١٧).

ثم قال: «وبعدما قد بلغت الكثرة غايتها وانتهت المخالفة نهايتها أظهر سبحانه مرتبتى النبوة والولاية - كما أشرنا إليه - بأن خص بعض النفوس القدسية بالإلهامات الغيبية والإلقاءات الكشفية المعدة للنفوس الزكية لأن ينزل عليها سلطان الوحدة الذاتية حسب شئونها وأوصافها وأسمائها، وبعدما قد نزلت الوحدة الذاتية عليها على وجهها وتمكنت فيها بذاتها وتشرفت هى بنزولها وورودها قد فنيت حينئذ هويتها الناسوتية فى لاهوتية الحق بالمرة، فمنهم من انجذب إليها بالكلية ولم ينزل عن تلك المرتبة أصلاً بل قد بقيت فى عالم اللاهوت منخلعة عن ألبسة عالم الناسوت رأسًا بلا شائبة التفات ورجوع منهم إلى جانب عالم الناسوت ومقتضياتها أصلا، ألا وهم البدلاء الأمناء العرفاء الحائرون الهائمون الوالهون الواصلون الفانون الفائزون الباقون الدائمون التائهون الآمنون، وهم هم تحت قباب عز الوجوب متمكنون، وعن لوازم الإمكان منسلخون، ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (يونس: ٦٢) ومنهم من حاز كلتى مرتبتى الظاهر والباطن والغيب والشهادة والأولى والأخرى فاستقروا فى مرتبة الخلافة

والنيابة الإلهية، وأحاطوا عموم مراتب الملك والملكوت والناسوت واللاهوت والغيب والشهادة، فاستحقوا بكمال التمجيد والتعظيم، واختصوا بمزيد التربية والتكريم من لدنه سبحانه، وكيف لا وهم قد تأيدوا من عنده سبحانه بالقوة القدسية والحدس الفطرى والكشف الجِبِلّى بتربية بعض الأسماء الإلهية إياهم وتقويته عليهم وتأييده إليهم، فهؤلاء هم الأنبياء الأمناء الأصفياء الواصلون إلى وحدة الذات، المكنون فى مقر الخلافة الإلهية والنيابة الحقيقية الحقية، وبالجملة فقد انتهت علومهم اللدنية وإدراكاتهم الفطرية اللاهوتية الفائض عليهم من العقل الكلى المتشعب من حضرة العلم المحيط الإلهى إلى مبدئها الأصلى ومنشأها الحقيقى، وكذا عموم أعمالهم الصالحة المقبولة المرضية عند الله الفائضة عليهم من النفس الكلية المتشعبة من حضرة القدرة العلية الغالبة المحيطة الإلهية أيضًا إلى منشأها الأصلى ومبدئها الحقيقى، وبالجملة فقد انتهت عموم أوصافهم وأفعالهم ومواجيدهم وأحوالهم إلى ما قد فاضت عليهم من المبدأ الفياض، وكيف لا وقد خلَّقهم الحق بأخلاقه بعد ما خلَّفهم عن نفسه وأنابهم مناب قدس ذاته، وبعثهم إلى جميع خليقته وعموم بريته بالولاية المطلقة والدعوة العامة والهداية الكاملة والإرشاد التام إلى وحدة ذاته وكمالات أسمائه وصفاته وأيدهم بأنواع الكرامات والإرهاصات والمعجزات الخارقة لمطلق الرسوم والعادات».

ثم قال: «فعليك أيها العارف المتفرج أعانك الله على ما يعنيك أن تنصرف أنت فى نفسك عن تصرفات مداركك ومشاعرك مطلقا، وتنعزل عن مقتضيات قواك وآلاتك جملة، وعن لوازم حواسك ومدركاتها رأسا.

وبالجملة فعليك أن تميت نفسك بالموت الإرادى عن مقتضيات الحياة المستعارة الصورية ولوازمها الناسوتية مطلقًا حتى تكون أنت بلا أنت، وكنت بلا كنت، مُتصفًا بالحياة الحقيقية الحقية ولوازمها اللاهوتية، ومقتضياتها الروحانية الباقية أزلا وأبدًا، وحينئذ يمكنك التحقق والتمكن والتقرر فى مقر الخلافة والنيابة الإلهية بلا تزلزل وتلوين، فحينئذ حق لك أن تنفرج فى مظاهر الحق ومجاليه التى هى متنزهات اليقين العلمى والعينى والحقى، وتنعم أنت بلا أنت فى روضات المكاشفات والمشاهدات الجارية فيها أنهار المعارف والحقائق المملوءة بمياه العلوم اللدنية والإدراكات الفطرية

الفائضة من العقل الكلى والنفس الكلية المتشعبتين من حضرتى العلم المحيط الإلهى والقدرة الكاملة الشاملة المنبسطة من القوة القدسية المترشحة من بحر الوجود بمقتضى الجود الإلهى».

ثم قال أيضًا: «وبالجملة فما كذب فؤاده أيضًا فى عموم ما علم ورأى إذ ليس وراء الله مرئى ومرمى، ومن ترقى من مرتبة العين إلى الحق فقد هُدى إلى ما هدى ووصل إلى ما وصل وحصل عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، وتشرف بشرف اللُّقيا، وتكرم بكرامة قاب قوسين أو أدنى، وحينئذ قد أوحى إليه الحق ما أوحى، فقد طويت دونه سجلات الأوصاف والأسماء، واضمحل لديه نشآت الأولى والأخرى، وارتفع عن بصر بصيرته، ونظر كشفه وشهوده مطلق التعداد والإحصاء ولم يبق دونه لا الإراء ولا الأهواء، بل قد تلاشى عنه الاسم والمسمى، وقد فنى حينئذ هو وهويته وذاته وماهيته فى هوية الحق وذاته مطلقا، واضمحلت تعينه فى عينه سبحانه، وبالجملة قد لاحت عنده وبرزت دونه عماء فى عماء مشتملة على صفاء فى صفاء بحيث لا يتعاقب فيها لا الظلمة ولا الضياء، ولا الصباح ولا المساء، ولا اللذة ولا العناء، ولا الوجد ولا الفقد، ولا الجَّد ولا الجِّد، ولا الفرح ولا الترح، ولا العدد ولا المعدود، ولا الحد ولا المحدود، ولا الحامد ولا المحمود، ولا الشاهد ولا المشهود، ولا الحضور ولا الشهود، ولا الموجود، ولا الوجدان، ولا الفقدان، بل هو نور على نور، وحضور فى حضور، وسرور غب سرور، بحيث لا يعرضه فترة وفتور، ولا يحوم حوله غفلة وفطور، وفتور وقصور، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور».

وحدة الوجود:

وحيث أن المؤلف من القائلين بوحدة الوجود، فنرى أن نُعرِّف القارئ بنبذة مختصرة عن هذه النظرية والقائلين بها، وموقف المحققين منها ومنهم، ثم نورد العديد من الأمثلة من هذا التفسير، لنرى إغراق النخجوانى فيها، فنقول:

وحدة الوجود مذهب فلسفى لا دينى يقول بأن الله والطبيعة حقيقة واحدة، وأن الله هو الوجود الحق، ويعتبرونه ـ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ـ صورة هذا العالم

المخلوق، أما مجموع المظاهر المادية فهى تعلن عن وجود الله دون أن يكون لها وجود قائم بذاته.

وهو مذهب قديم وجدت جذوره لدى: اليونانيين القدماء، وكذلك فى الهندوسية الهندية، ثم انتقل إلى بعض الغلاة من متصوفة المسلمين، ومن أبرزهم: محيى الدين ابن عربى.

ويتلخص مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود فى إنكاره لعالم الظاهر ولا يعترف بالوجود الحقيقى إلا لله، فالخلق هم ظل للوجود الحق، فلا موجود إلا الله، فهو الوجود الحق.

وابن عربى يقرر أنه ليس ثمة فرق بين ما هو خالق وما هو مخلوق، ومن أقواله التى تدل على ذلك:

«سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها».

ويقول مبينًا وحدة الوجود، وأن الله يحوى فى ذاته كل المخلوقات:

يا خالق الأشياء فى نفسه ... أنت لما تخلق جامعُ
تخلق ما لا ينتهى كونه ... فيك فأنت الضيق الواسعُ

ويقول أيضًا:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا ... وليس خلقًا بذاك الوجه فاذكروا
جمعٌ وفرقٌ فإن العين واحدة ... وهى الكثيرة لا تبقى ولا تذرُ

وبناء على هذا التصور فليس ثمة خلق ولا موجود من عدم، بل مجرد فيض وتجلٍّ، وما دام الأمر كذلك فلا مجال للحديث عن علة أو غاية، وإنما يسير العالم وفق ضرورة مطلقة ويخضع لحتمية وجبرية صارمة.

وهذا العالم لا يُتكلم فيه عن خير وشر، ولا عن قضاء وقدر، ولا عن حرية أو إرادة، ومن ثَمَّ لا حساب ولا مسئولية، ولا ثواب ولا عقاب، بل الجميع فى نعيم مقيم، والفرق بين الجنة والنار إنما هو فى المرتبة فقط لا فى النوع.

ومما يؤكد على قوله بالجبر، الذى هو من نتائج مذهبه الفاسد:

الحكم حكم الجبر والاضطرار ... ما ثم حكم يقتضى الاختيار
إلا الذى يعزى إلينا ... ففى ظاهره بأنه عن خيار

لو فكَّر الناظر فيه رأى بأنه المختار عن اضطرار

وكما قد ترتب على قول ابن عربى بوحدة الوجود قوله بالجبر ونفى الحساب والثواب والعقاب، فإنه ترتب على مذهبه أيضًا قوله بوحدة الأديان، وقد أكد ابن عربى على أن من يعبد الله ومن يعبد الأحجار والأصنام، ومن عبدوا العجل، كلهم سواء، لأنهم فى الحقيقة ما عبدوا إلا الله، إذ ليس ثمة فرق بين خالق ومخلوق.

يقول فى ذلك:

لقد صار قلبى قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآنِ

وقد تابع ابنَ عربى فى القول بوحدة الوجود قومٌ أعجبوا بآرائه وعرضوا لذلك المذهب فى أشعارهم وكتبهم، ومن هؤلاء: ابن الفارض، وابن سبعين، والتلمسانى.

أما ابن الفارض فيؤكد مذهبه فى وحدة الوجود فى قصيدته المشهورة بالتائية التى يقول فيها:

لها صلاتى بالمقام أقيمها وأشهد أنها لى صلت

وما زالت إياها وإياى لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

فهو هنا يصرح بأنه يصلى لنفسه، لأن نفسه هى الله، ويبين أنه ينشد ذلك الشعر فى حال الصحو لا فى حال :لسكر فيقول:

ففى الصحو بعد المحو لم أك غيرها

وذاتى ذاتى إذا تحلَّت تجلَّت

والصوفية معجبون بهذه القصيدة التائية ويسمون صاحبها بـ «سلطان العاشقين»، على الرغم مما يوجد فى تلك القصيدة من كفر صريح، وإلحاد فى دين الله.

وأما ابن سبعين فمن أقواله الدالة على متابعة ابن عربى فى القول بوحدة الوجود قوله: ربٌّ مالك، وعبدٌ هالك، وأنتم ذلك الله فقط، والكثرة وهم.

وهنا يؤكد ابن سبعين أن هذه الموجودات ليس له وجود حقيقى، فوجودها وهم، وليس ثمة فرق بين الخلق وبين الحق، فالموجودات هى الله!!.

أما التلمسانى، فقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية: من أعظم هؤلاء كفرًا، وهو

أحذقهم فى الكفر والزندقة فهو لا يفرق بين الكائنات وخالقها، إنما الكائنات أجزاء منه وأبعاض له، بمنزلة أمواج البحر فى البحر، وأجزاء البيت من البيت، ومن ذلك قوله:

البحر لا شك عندى فى توحُّده ... وإن تعدد بالأمواج والزَّبدِ
فلا يَغُرَّنك ما شاهدت من صورٍ ... فالواحد الرب سارى العين فى العددِ

ويقول أيضًا:

فما البحر إلا الموج لا شىء ... غيره، وإن فرقته كثرة المتعدد

ومن شعره أيضًا:

أحنُّ إليه وهو قلبى، وهل يرى ... سواى أخو وجد يحن لقلبه؟
ويحجب طرفى عنه إذ هو ناظرى ... وما بعده إلا لإفراط قربه

فالوجود عند التلمسانى واحد، وليس هناك فرق بين الخالق والمخلوق، بل كل المخلوقات إنما هى الله ذاته.

وألف الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى رسالة صغيرة فى هذا الموضوع، سماها «إيضاح المقصود فى معنى وحدة الوجود» طبعت مؤخرًا فى مصر، ولم يأت فيها بجديد، وزعم أن المسألة خلافية بين علماء الأئمة قاطبة من ناحية، وهؤلاء الأربعة من ناحية أخرى.

ولم يبرهن على صحتها بشىء، وقال: إن ابن كمال باشا «مفتى تركيا» تمنى لو أن السلطان ألزم الأمة بالإيمان بها!!.

ومع هذا فقد وجد من العلماء - وبخاصة الصوفية - من نصر مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود، كالمهايمى فى تفسيره، والقاشانى صاحب التأويلات، والبروسوى صاحب «روح البيان» وصاحبنا النخجوانى صاحب «الفواتح الإلهية».

ويقول ابن تيمية - بعد أن ذكر كثيرًا من أقوال أصحاب مذهب وحدة الوجود: «يقولون: إن الوجود واحد، كما يقول ابن عربى - صاحب الفتوحات - وابن سبعين، وابن الفارض، والتلمسانى، وأمثالهم - عليهم من الله ما يستحقونه - فإنهم لا يجعلون للخالق سبحانه وجودًا مباينًا لوجود المخلوق، وهو جامع كل شر فى العالم، ومبدأ ضلالهم من حيث لم يثبتوا للخالق وجودًا مباينًا لوجود المخلوق، وهم يأخذون من

كلام الفلاسفة شيئًا، ومن القول الفاسد من كلام المتصوفة والمتكلمين شيئًا، ومن كلام القرامطة والباطنية شيئًا، فيطوفون على أبواب المذاهب ويفوزون بأخس المطالب، ويثنون على ما يذكر كلام التصوف المخلوط بالفلسفة» «جامع الرسائل ١/ ١٦٧» .

وممن حمل على الحلاج وابن عربى وابن الفارض العلامة البقاعى، ورماهم بالزندقة والإلحاد فى كثير من كتبه، بل أفردهم بالتأليف فى كتب مستقلة.

وإليك بعض النماذج من هذا التفسير:

يقول النخجوانى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ...**﴾ (البقرة: ٢٠) الآيات: «﴿**يَكَادُ**﴾ يقرب ﴿**الْبَرْقُ**﴾ أى برق التجلى اللطفى من غاية قربه ﴿**يَخْطَفُ**﴾ ويعمى ﴿**أَبْصَارَهُمْ**﴾ التى يرون بها أنفسهم ذوات متأصلات فى الوجود بل ﴿**كُلَّمَا أَضَاءَ**﴾ وأشرق ﴿**لَهُم**﴾ التجلى اللطفى وأمد عليهم بحسب البسط والجمال ﴿**مَّشَوْا**﴾ وساروا ﴿**فِيهِ**﴾ باقين ببقائه ﴿**وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ**﴾ وقبض ظله عنهم بمقتضى التجلى القهرى حسب القبض والجلال ﴿**قَامُوا**﴾ سكنوا وبقوا على ما هم عليه من العدم ﴿**و**﴾ بالجملة ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ**﴾ المنتقم الغيور المتجلى عليهم بالقهر دائما ﴿**لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ**﴾ وبعموم تعيناتهم التى ظنوا أنفسهم بسببها أنهم موجودات حقيقة وصيرهم فانين معدومين بحيث لا وجود لهم أصلا كما هم عليه حقيقة دائما عند العارف المحقق المتحقق بوحدة الوجود المسقطة لعموم الكثرات».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿**فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ...**﴾ (البقرة: ٥٤) قال: «﴿**فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ**﴾ الأمارة بهذا الظلم بأنواع الرياضات وترك المشتهيات والمستلذات وقطع المألوفات وترك المستحسنات، لائمين عليها بأنواع الملامات حتى تكون مطمئنة بما قسم لها الحق، راضية بجريان حكم القضاء الإلهى، مرضية بالفناء الكلى فى الله، بل فانية عن الفناء أيضًا ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ**﴾ وخالقكم الذى قد خلقكم لمصلحة التوحيد والعرفان».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...**﴾ (البقرة: ١٩٧) قال: «إذ الحج كناية عن الموت الإرادى المنبئ عن الحياة

الحقيقية، وهذه الأمور من أوصاف الأحياء بالحياة الطبيعية، فمن قصد الحج الحقيقى والحياة الحقيقة فعليه أن يميت نفسه من لوازم الحياة الطبيعية المستعارة الغير القارة ليفوز بالحياة الحقيقية الأزلية والبقاء الأبدى السرمدى، وذلك لا يتيسر إلا بالخروج عن مقتضيات العقل الجزئى المشوب بالوهم والخيال بل هو مغلوب منهما محكوم لهما دائما، ولا يحصل ذلك إلا للسالك الناسك الذى قد جذبه الحق عن نفسه متدرجًا مترقيًا من عالم إلى عالم، من العوالم المنتخبة عنها ذاته إلى أن وصل إلى مقام ومرتبة قد طويت المراتب عندها وفنيت العوالم بأسرها فيها، وفنى هو أيضًا فيها، بل قد فنى فناءها أيضًا فيها، ولم ينزل منها هابطًا أصلا بل تقرر وتمكن واطمأن فيها كما نشاهد نحن مثلها متحسرين إليها متمنين لها من بعض بدلاء الزمان، أدام الله ظله العالى على مفارق أهل اليمين والعرفان، وإبهام اسمه إنما هو لإبهام شأنه، هيهات هيهات ما لنا وما له حتى نتكلم عنه! جعلنا الله من خدامه وتراب أقدامه».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ...﴾ (البقرة: ٢١٣) قال النخجوانى: «﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد الموفق لكل العباد إلى ما هم عليه ﴿يَهْدِى﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى بابه بلا عوج وضلال، أرجوتم وطمعتم أيها المحمديون المتوجهون إلى زلال التوحيد وصفو التجريد والتفريد أن تصلوا إليه بأنانيتكم هذه بلا سلوك ومجاهدة، وسكر وصحو، وتلوين وتمكين، وقيد وإطلاق، ونفى وإثبات، وفناء وبقاء، هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وتمنيتم متوقعًا ﴿أَن تَدْخُلُوا﴾ فجأة بهويتكم هذه بلا إفنائها وفنائها فى هوية الله».

وعند تفسير قوله تعالى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ (البقرة: ٢٥٥) قال: «﴿اللَّهُ﴾ أى الذات الموجود الكائن الثابت الحق الحقيق بالحقية والتحقيق والثبوت، إياك أن تتقيد بالألفاظ ومحتملاتها إذ الغرض من التعبير إنما هو التنبيه وإلا فكيف يعبر عنه سبحانه وهو أجل من أن يحيط به العقول فتعبر عنه وتورده فى قالب الألفاظ الذى ﴿لا إِلَهَ﴾ أى لا موجود، وإن شئت قلت: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما ينطق به ألسنة التعبير عن الذات الأحدية إذ كل العبارات

والإشارات وعموم الإدراكـات والمكاشفات والمشاهدات إنما ينتهى إليـه، وبعد انتهاء الكل إليه تكل وتَـجهل وتَعمى وتدهش، مـا للتراب ورب الأرباب حتى يـتكلموا عنه! سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته وبعموم أوصافه وأسمائه أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلامًا جامعًا ينبههم على مبدئهم ومعادهم بعد توفيق منه وجذب من جانبه إلى أسهل الطرق بالنسبة إلى المسترشدين، إنما هى الألفاظ المنبهة عن غيب الذات إذ الألفاظ خالية عن المواد الغليظة والكدورات الكثيـفة المزيحة لصفاء الوحدة، ومع ذلك أيضًا لا يخلو عن شـوب الكثرة والحجـاب، والحاصل أن من اطلع بإطلاع الله وإلهامه إياه على أن فيه مبدأ التكاليف الذى هـو العقل الجزئى المتشعب من العقل الكل المتشـعب من حضرة العلم الحضورى الحـقى فلا بد له أن يصرفه إلى امتـثال ما أمر، واجتناب مـا نهى؛ ليكون فى مرتبة العـبودية مطمئنًا راضيًـا مستدرجًـا من الحياة الصورية إلى الحياة المعنوية التى هى عبارة عن الوجود البحت».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...**﴾ (البقرة: ٢٥٥) قال: «﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ**﴾ مجلاه ومظاهره ﴿**السَّمَوَاتِ**﴾ المذكورة ﴿**وَالأَرْضَ**﴾ المذكورة ﴿**وَلا يَئُودُهُ**﴾ ولا يثقله ﴿**حِفْظُهُمَا**﴾ وإن كانت سماوات الأسماء وأرض الطبيعة غير متناهية بل وإن فرضت بأضعافها وآلافها أمـوراً متعددة غير متناهية لا يثقله، إذ كل من تحقق بسـعة قلب الإنسـان المنعكس من الذات الأحدية المـائل نحوها بالمـيل الحبى والشوقى، المتلذذ دائمًا بوجده وحضوره قـد تحقق عنده ولاح لديه من الوسعة والسعة ما لا يمكن التعبير عنه مطلقًـا، كما سمح به سلطان العارفين وبرهان الواصلين ـ أعنى أبا يزيد البسطامى ـ عمت بركـات أنفاسه الشريفة على عـموم الفقراء المتوجـهين نحو فضاء التوحيد حيث قال: لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة فى زاوية من زوايا قلب العارف مـا أحس، وأيضًا قد جـاء بعده رأس المـوحدين ورئيس أرباب التحـقيق واليقين محيى الملة والدين الذى هيج بحر الوحـدة تهيجًا شديدا إلى حيث يترشح من تيار قلبه الزخار رشحـات المعارف والحقائق على ذوى العزائم الصحيحة المـقتفية أثر طريقه، قدس الله روحه العـزيز وأرواحهم، وشكر الله سعيه ومساعـيهم حيث قال فى «فصـوص الحكم»: وهذا وسع أبى يزيد فى عـالم الأجسـام، بل أقول: لـو أن ما لا

يتناهى وجوده قدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له فى زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس بذلك فى علمه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ...﴾ (آل عمران: ٤٤) الآيات، حيث قال: «﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فى أمرها وحفظها، وإنما نوحيه ونلهمه إليك يا أكمل الرسل لتكون آية لك فى صدق دعواك النبوة والرسالة، والإنكار على أمثال هذه الأخبارات والإنباءات الصادرة عن الأنبياء والأولياء المستندة إلى محض الإلهام والوحى النازل من عند العليم العلام إنما ينشأ من العقل القاصر المموه بالوهم المزخرف والخيال الباطل المضل عن طريق الكشف واليقين وإلا فمن صفا عقله المفاض له من حضرة العلم المحيط الإلهى عن كدورات الوهم والخيال وانكشفت سريرة سره بسرائر الأقوال وأسرار الأحوال ومرموزات الأحكام والأفعال ظهر عنده بلا سترة وحجاب أن من النفوس البشرية من تترقى فى هذه النشأة عن عالم الشهادة إلى عالم الغيب المطلق، واتصلت بالمبادى العلية التى هى الصفات الإلهية بحيث قد اضمحلت حصة ناسوتها بالمرة وغلبته الحصة اللاهوتية عليها، وحينئذ ظهرت منها بإمداد الحضرة العلية العلمية الإلهية واردات غيبية ومكاشفات قلبية وملاحظات سرية ومشاهدات عينية بعضها متعلق بعالم الغيب وبعضها بالشهادة، كالإخبار عن الوقائع الماضية والآتية كما نسمع ونشاهد أمثال ذلك من بعض بدلاء الزمان ـ أدام الله بركته على مفارق أهل اليقين والعرفان ـ فى حالتى قبضه وبسطه، كلمات وحكايات متعلقة بوقائع وقعت فى البلاد النائية ونحن نجزم بوقوعها كما نسمع، ونعلم أيضًا جزمًا أنه حاضر عند وقوعها، وأيضًا نجزم بأنه لم يسمع من أحد قط لانسلاخه عن مطلق الاستخبار والاستفسار على الوجه المتعارف بين الناس، ونسمع أيضًا منه ـ مد الله ظله ـ أحوالاً ووقائع قد جرت بيننا وشوب شائبة، ونحن إذا راجعنا وجداننا لم نستحضر الأمور التى جرت علينا فى يومنا بل فى ساعتنا هذه بلا فوت شىء منها، وبالجملة وقوع أمثال ذلك منه ـ مد ظله ـ أكثر من أن تحصى».

وقال النخجوانى فى خاتمة سورة النساء: «وأما البدلاء المجذوبون المنجذبون المستغرقون فى بحر الذات، الهائمون بمطالعة جمال الله، الفانون فيه مطلقًا، فهم هو،

وهو هم، ما لنا وما لهم حتى نتكلم عنهم، جعلنا الله من خدامهم وتراب أقدامهم، فعليك أيها المريد العازم لسلوك طريق الفناء، الحازم الجازم فى هذا العزم أن تصفى أولاً سرك وسريرتك عن التوجه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصدك الاستغراق والفناء فى بحر الوحدة، ولا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة وتخريب أركان بدنك العاطلة، ولا يتأتى لك هذا الكسر والتخريب إلا بالرياضات الشاقة والمجاهدات الشديدة من الجوع والعطش والسهر المفرط والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتهيات النفسية، وكذا بالتلذذ بالموت الإرادى والفناء الاختيارى، وبالصبر على البلاء الاضطرارى، والرضا على عموم ما قد جرى عليه القضاء الإلهى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ...﴾ (المائدة: ٩٦) قال: «وتساقون أيها المؤمنون للعرض والحساب، وعليكم الحذر والاتقاء عن التعرض بمصنوعاته بقهر وغلبة فى عموم أحوالكم سيما فى أوان الحج عند لبس الإحرام الذى هو كفن الفناء المعنوى والموت الإرادى الحقيقى عند ذوى الألباب الناظرين إلى لب الأحكام وزبدتها، فكما لا يبقى عند عروض الموت الصورى للقوى والأوصاف والآلات الظاهرة آثار وأفعال بل قد تعطلت وانمحت وتلاشت بحيث لا يتوقع منها ذلك أصلا، كذلك فى الموت الإرادى الذى هو عبارة عن حج العارف بالله لا بد من إحرامه وتعطيل أعضائه وجوارحه عن مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الحيوانية وعن جميع لوازم التعينات الجسمانية والروحانية والغيبية والشهادية والظاهرية والباطنية مطلقًا، وبالجملة عن عموم الإضافات والكثرات الحاجبة لصرافة الوحدة الذاتية المستهلك دونها جميع ما يتوهم من أشباح الأظلال والعكوس والأمثال، لذلك صار الموت الإرادى أشد فى الانمحاء وأغرق فى الفناء من الموت الصورى عند العارف المكاشف المشاهد إذ منتهى الأمر فى الموت الإرادى والفناء الاختيارى إلى العدم الصرف والفناء المحض المطلق الذى ما شم رائحة الوجود أصلا، فكيف تخلل الموت والحياة والوجود والعدم للوجود الأزلى الأبدى والبقاء السرمدى الذى لا يعرضه الموت والفوت مطلقًا، تاهت فى بيداء صمديتك أنظار العقل وآراؤه».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ...﴾ (الحج: ٢٦) قال: «﴿وَ﴾ بعد تطهير أوساخ الأمكان وأكدار الهيولا والأركان ﴿لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التى قد نذروها فى

قطع بوادى تعيناتهم ومهاوى هوياتهم وماهياتهم من ذبح بقرة أمارتهم المضلة عن سواء السبيل ﴿وَ﴾ بعدما تطهروا من الأوساخ وأوفوا بالعهود والنذور ﴿لْيَطَّوَّفُوا﴾ منخلعين عن خلعة ناسوتهم متجردين عن ثياب بشريتهم وجلباب هويتهم ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ والركن الوثيق الذى هو عبارة عن قلب العارف المحقق المتحقق بمقام الفناء الذاتى والبقاء الأزلى الأبدى الذى لا يلحقه إنصرام ولا يعرضه انقراض وانخرام، فالأمر ﴿ذَلِكَ﴾ لمن أراد السلوك لطريق الفناء والحج الحقيقى والطواف المعنوى».

تمنى كثير من المحققين مرتبة إبليس:

ونختم الحديث عن هذا التفسير بنموذج آخر - إن دل على شىء فإنما يدل على شطط الأقوال وخلل الأفكار عند النخجوانى، حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٣٤) قال: «والسر فى استثنائه - سبحانه - إبليس عن هذا الحكم وعدم توفيقه وإقداره إياه السجود أن يظهر سر الظهور والإظهار، والربوبية والعبودية، والإيمان والكفر، والجنة والنار، وجميع المعتقدات الشرعية والتكاليف الإلهية، إذ بسببه تظهر الاثنينية، وتتعدد الطرق، وتتفاوت الآراء والمقالات، وتتبين المخالفات والمنازعات، وبتعزيره وتضليله يستتر الحق ويظهر الباطل، وبالجملة فهو الرقيب الحاجب الحافظ المحافظ لآدابه سبحانه، والمعتكف ببابه حتى لا يكون شرعة لكل وارد أو يتوجه إليه واحد بعد واحد، غيرةً منه على الله، وحمية لحمى قدس ذاته وفضاء لاهوته، ولهذا قد تمنى كثير من المحققين مرتبته! ومن كمال غيرته على ربه إلهاء بنى آدم وإغرارهم بالمستلذات والمزخرفات التى مالت إليها نفوسهم بالطبع ليشغلهم ويلهيهم بها عن التوجه إلى جنابه والعكوف حول بابه»!.

والخلاصة . . أن هذا التفسير ليس هفوة قلم من مؤلفه، بل هو مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وخاصة أن النخجوانى كتبه فى حال الصحو، لا حال السُّكْر والمحو، وليته احتفظ به لنفسه ولم يخرجه للناس فيوقع الكثير منهم بسببه فى حيرة واختلاف، فمنهم من يأخذه على ظاهره، ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا وجد فى كتب التفسير ما يعارضه أو يخالفه فربما كذب به أو أشكل عليه، ومنهم من يكذبه على الإطلاق، ويرى أنه تقوُّلٌ على الله وبهتان، فليته فعل ذلك إذًا لأراحنا من هذه الحيرة، وأراح نفسه من كلام الناس فيه.

٥- روح البيان فى تفسير القرآن

لإسماعيل حقى

التعريف بصاحب التفسير(١):

هو الشيخ: إسماعيل حقى بن مصطفى الإسلامبولى الحنفى الجلوتى، المولى أبو الفداء: متصوف مفسر، تركى مستعرب، ولد فى آيدوس سنة ١٠٦٣هـ، وسكن القسطنطينية، وانتقل إلى بروسة، وكان من أتباع الطريقة «الخلوتية» فنُفى إلى تكفور طاغ، وأوذى، وعاد إلى «بروسا» فمات فيها، سنة ١١٣٧هـ، وعمره أربع وسبعون سنة، ولم نعرف من شيوخه سوى: سمى ابن عفان.

وله مصنفات فى شتى العلوم منها العربى، ومنها التركى، قاربت الستين كتابًا، ذُكر معظمها فى آخر المجلد الأول من تفسيره، ونذكر منها:

روح البيان فى تفسير القرآن، ويُعرف بتفسير حقى، والرسالة الخليلية، والأربعون حديثًا.

التعريف بهذا التفسير:

شرع البروسوى فى تفسيره سنة ١٠٩٤هـ، وفرغ منه سنة ١١١٧هـ، وقضى فى تأليفه ٢٣ سنة.

وتنوعت مصادر البروسوى التى استقى منها مادة تفسيره، ولعل من أهمها:

فى التفسير: بحر العلوم للسمرقندى، والوسيط للواحدى، ومعالم التنزيل للبغوى، والتيسير للنسفى، والكشاف للزمخشرى، وأحكام القرآن لابن العربى، ومفاتيح الغيب للرازى، والبحر المحيط للرازى، والتأويلات النجمية لنجم الدين الأسدى الرازى المعروف بـ «داية»، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى، وتأويلات القاشانى، وتفسير الحدادى، وتفسير الكواشى، وتفسير الجلالين، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود الذى تأثر به كثيراً.

---

(١) مصادر الترجمة: إيضاح المكنون (١/ ٥٨٥)، معجم المطبوعات ٤٤١، المكتبة الأزهرية (١/ ٢٣٣)، الأعلام للزركلى (١/ ٣١٣).

أما مصادره فى علوم القرآن فهى: أسباب النزول للواحدى، البرهان للزركشى، والإتقان للسيوطى.

وفى الحديث: صحيح البخارى، وجامع الترمذى، والترغيب والترهيب للمنذرى، والمقاصد الحسنة للسخاوى.

ومن مصادره فى التصوف: الرسالة القشيرية، والفتوحات المكية، والفصوص، وتلقيح الأفهام، وجميعها لابن عربى، والمثنوى لجلال الدين الرومى.

ومن مصادره فى الفقه وأصوله: بدائع الصنائع للكاسانى، تبيين الحقائق للزيلعى، الأشباه والنظائر لابن نجيم.

وفى العقيدة: رسالة القضاء والقدر لابن كمال باشا.

وفى التراجم: طبقات الشافعية للسبكى.

ومن مصادره فى اللغة: مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهانى، والنهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، والقاموس المحيط للفيروزآبادى، وغيرها من المصادر.

وهذا التفسير يقع فى عشرة مجلدات كبار، والطبعة التى اعتمدت عليها هى طبعة دار الفكر، وهى مصورة عن الطبعة الأولى، المطبوعة فى «إستانبول».

وقد اختصر الشيخ الصابونى هذا التفسير وسماه: «زبدة البيان» فى أربعة مجلدات، وهو مطبوع.

الداعى إلى تأليف هذا التفسير:

قال البروسوى فى مقدمة تفسيره: «لما أشار إلىَّ شيخى الإمام العلامة، وأستاذى الجهبذ الفهامة، سلطان وقته ونادرة زمانه، حجة الله على الخلق بعلمه وعرفانه، مُطلع أنوار العناية والتوفيق، وارث أسرار الخليفى على التحقيق، المشهود له بسر التجديد فى رأس العقد الثانى من الألف الثانى، معدن الإلهام الربانى السيد الثانى، الشيخ الحسيب النسيب سمى ابن عفان نزيل قسطنطينية، أمده الله وأمدنا به فى السر والعلانية، بالنقل إلى برج الأولياء مدينة «بروسا» صينت عن تطاول يد الضراء والبوسى، فى العشر السادس من العشر العاشر من العقد الأول من الألف الثانى، ولم أجد بدًا من الوعظ

والتذكير فى الجامع الكبير والمعبد المنير الشهير وقد كان منى حين انتواء الإقامة ببعض ديار الروم بعض صحائف ملتقطة من صفحات التفاسير وأدوات العلوم، مشتملة على ما يزيد على آل عمران، من سور القرآن، لكنها مع الإطناب الواقع بها كانت متفرقة كأيادى سبأ، جزء منها حوته الدبور وجزء منها حوته الصبا، أردت أن ألخص ما فرط من الالتقاط وأخلص الأوراق المتفرقة من مسامحات الألفاظ والحروف والنقاط، وأضم إليها نبذًا مما سنح لى من المعارف، وجعله فى سمط ما أنظمه من اللطائف، وأسرد بأنملة البراعة، وإن كنت قليل البضاعة قصير الباعة، ما يليه إلى آخر النظم الكريم، إن أمهلنى الله العظيم إلى قضاء هذا الوطر الجسيم، وأُبيض للناس قدر ما حررته بين الأسابيع والشهور، وأفرزته بالتسويد أثناء السطور، ليكون ذخرًا للآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون، وشفيعًا لى حين لا يجدى نفعًا غير الكاف والنون وأسأل الله تعالى أن يجعله من صالحات الأعمال وخالصات الآثار، وباقيات الحسنات إلى آخر الأعمار، فإنه إذا أراد بعبد خيرًا حسن عمله فى الناس، وأهَّله لخيرات هى بمنزلة العين من الرأس».

ثم أشار فى آخر الكتاب إلى زمن انتهائه من هذا التفسير وأنه أتمه فى ثلاث وعشرين عامًا ـ على مدة الوحى المحمدى ـ فقال: «وقد تم تحرير روح البيان فى تفسير القرآن، فى مدة الوحى تقريبًا لما أن قسى الأقدار رمتنى إلى أقاصى أقطار الأرض، وأيدى الأسفار النائية تداولتنى من طول إلى عرض، حتى أقامنى الله مقام الإتمام، فجاء بإذن الله التمام: يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى المنتظم فى سلك شهور سنة سبع عشرة ومائة ألف، من هجرة من يرى من قدام وخلف، وقلت فى تاريخه نظمًا:

إن من جناب ذى المنن ... ختم تفسير الكتاب المستطاب
قال فى تاريخه حقى الفقير ... حامدًا لله: قد تم الكتاب

منهج البروسوى فى تفسيره:

ويبدأ البروسوى تفسيره مباشرة بشرح الآيات غير مكثر من وجوه التفسير، وأحيانًا يقدم بين يدى السورة، مع العناية ببيان النواحى اللغوية، ويتعرض للإعراب إن كان مهمًا فى فهم المعنى، ثم يعتنى بتحديد معانى العبارات والمصطلحات فيعرف كل كلمة تقريبًا، ويكثر من ذكر أسباب النزول دون عزو، ومنها المكذوب.

ثم يشرع البروسوى فى التفسير، ويتعرض لذكر الروايات والقصص بعد ذلك، ويطغى الجانب الوعظى على مساحة كبيرة من هذا التفسير، ويكثر من ذكر الإسرائيليات وربما نقد بعضها أحيانًا، كما يتطرق أحيانًا لذكر المناسبة بين الآيات، ويعتنى بتفسير الآيات الفقهية، بما يتناسب مع مذهبه الحنفى، ويذكر أحيانًا بعض النكات التى يمكن أن تثار حول الآية.

أما من الناحية البلاغية فإن البروسوى لم يتعرض تقريبًا لعلم البديع، واعتنى اعتناء واضحًا بعلم المعانى بإشارات بلاغية مختصرة متأثرًا فى ذلك بأبى السعود، وهذه الإشارات لا تتجاوز ذكر نوع الأسلوب البلاغى دون بيان لسر استخدامه وموقعه من السياق، أما كلامه فى البيان فأقل بكثير من كلامه فى المعانى.

ويؤخذ علي البروسوى كثرة التعبيرات بالفارسية، وكثرة استشهاده بالشعر الفارسى مما جعل فى تناول الكتاب وفهمه صعوبة فى كثير من الأحيان.

موقفه من أسماء السور:

ويتعرض البروسوى فى تفسيره لذكر أسماء السور مثال ذلك ما ذكره فى سورة الفاتحة حيث قال: «وسميت بسورة الصلاة، وسورة الشفاء، والشافية، وأساس القرآن، والكافية، والوافية، وسورة الحمد، وسورة السؤال، وسورة الشكر، وسورة الدعاء لاشتمالها عليها، وسورة الكنز لما يروى أن الله تعالى قال: فاتحة الكتاب كنز من كنوز عرشى».

موقفه من فضائل الآيات والسور وخصائصها:

كما يكثر البروسوى فى تفسيره من ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة فى فضائل السور والآيات، مثال ذلك ما ذكره فى فاتحة الكتاب حيث قال: «قال الشيخ الأكبر فى الفتوحات: إذا قرأت فاتحة الكتاب فصل جبريل ـ عليه السلام ـ حالفًا عن ميكائيل ـ عليه السلام ـ حالفًا عن إسرافيل ـ عليه السلام ـ قال الله تعالى: يا إسرافيل بعزتى وجلالى وجودى وكرمى من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم متصلة بفاتحة الكتاب مرة واحدة فاشهدوا علىَّ أنى قد غفرت له وقبلت منه الحسنات وتجاوزت له عن السيئات،

ولا أحرق لسانه بالنار، وأجيره من عذاب القبر وعذاب النار وعذاب يوم القيامة والفزع الأكبر، وتلقانى قبل الأنبياء والأولياء أجمعين».

وقال أيضًا: «وفى الخبر أن النبى ﷺ قال: «ليلة أسرى بى إلى السماء عُرض علىَّ جميع الجنان فرأيت فيها أربعة أنهار، نهرًا من ماء، ونهرًا من لبن، ونهرًا من خمر، ونهرًا من عسل، فقلت: يا جبريل، من أين تجىء هذه الأنهار؟ وإلى أين تذهب؟ قال: تذهب إلى حوض الكوثر، ولا أدرى من أين تجىء، فادع الله تعالى ليُعلمك أو يُريك، فدعا ربه، فجاء ملك فسلمَ على النبى ﷺ ثم قال: يا محمد غمض عينيك، قال: فغمضت عينى، ثم قال: افتح عينيك، ففتحت، فإذا أنا عند شجرة ورأيت قبة من درة بيضاء ولها باب من ذهب أحمر وقفل، لو أن جميع ما فى الدنيا من الجن والإنس وضعوا على تلك القبة لكانوا مثل طائر جالس على جبل، فرأيت هذه الأنهار الأربعة تخرج من تحت هذه القبة، فلما أردت أن أرجع قال لى ذلك الملك: لم لا تدخل القبة؟ قلت: كيف أدخل وعلى بابها قفل لا مفتاح له عندى؟! قال: مفتاحه بسم الله الرحمن الرحيم، فلما دنوت من القفل وقلت بسم الله الرحمن الرحيم انفتح القفل، فدخلت فى القبة فرأيت هذه الأنهار تجرى من أربعة أركان القبة، ورأيت مكتوبًا على أربعة أركان القبة: بسم الله الرحمن الرحيم، ورأيت نهر الماء يخرج من ميم بسم الله، ورأيت نهر اللبن يخرج من هاء الله، ونهر الخمر يخرج من ميم الرحمن، ونهر العسل من ميم الرحيم، فعلمت أن أصل هذه الأنهار الأربعة من البسملة، فقال الله عز وجل: يا محمد من ذكرنى بهذه الأسماء من أمتك بقلب خالص من رياء وقال: بسم الله الرحمن الرحيم سقيته من هذه الأنهار»!.

هذا .. ولا يفوت البروسوى أن يذكر بعض الخصائص لبعض الآيات والأسماء، مما ينزه عنه كتب التفسير، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ (البروج: ١٤) حيث قال: «وخاصية الاسم الودود ثبوت الوداد لا سيما بين الزوجين، فمن قرأه ألف مرة على طعام وأكله مع زوجته غلبتها محبته ولمن يمكنها سوى طاعته، وقد روى أنه اسم الله الأعظم فى دعاء التاجر الذى قال فيه: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ، يا معيد، أسألك بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك، وبقدرتك

التى قدرت بها على جميع خلقك، وبرحمتك التى وسعت كل شىء، لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى. . . الحديث قد ذكره غير واحد من الأئمة».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ (البروج: ١٥) قال البروسوى: «ومن خاصية هذا الاسم ـ المجيد ـ تحصيل الجلالة والمجد والطهارة ظاهرًا وباطنًا، حتى فى عالم الأبدان والصور، فلقد قالوا: إذا صام الأبرص أيامًا وقرأه كل ليلة عند الإفطار كثيرًا فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، إما بلا سبب أو بسببٍ يفتح الله له به».

موقفه من الإسرائيليات:

يكثر البروسوى فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات والغرائب إلى حدٍّ كبير دون أن يعلق عليها أو يتعقبها، وسوَّد بها الكثير من صفحات تفسيره، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) حيث قال: «قال وهب: لله ثمانية عشر ألف عالَم، الدنيا عالم منها، وما العمران فى الخراب إلا كفسطاط فى صحراء. وقال الضحاك: ثلاثمائة وستون، ثلاثمائة منهم حفاة عراة لا يعرفون خالقهم، وهم حشو جهنم، وستون عالمًا يلبسون الثياب، مرَّ بهم ذو القرنين وكلمهم. وقال كعب الأحبار: لا يُحصى لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (المدثر: ٣١). وعن أبى هريرة ﷺ أن الله تعالى خلق الخلق أربعة أصناف: الملائكة، والشياطين، والجن، والإنس، ثم جعل هؤلاء عشرة أجزاء، تسعة منهم الملائكة، وواحد الثلاثة الباقى، ثم جعل هذه الثلاثة عشرة أجزاء، تسعة منهم الشياطين، وجزء واحد الجن والإنس، ثم جعلها عشرة أجزاء، فتسعة منهم الجن، وواحد الإنس، ثم جعل الإنس مائة وخمسة وعشرين جزءًا، فجعل مائة جزء فى بلاد الهند، منهم ساطوح، وهم أناس رؤسهم مثل رءوس الكلاب، ومالوخ وهم أناس أعينهم على صدورهم، وماسوخ وهم أناس آذانهم كآذان الفيلة، ومالوف وهم أناس لا يطاوعهم أرجلهم يسمون ذوال باى، ومصير كلهم إلى انار، وجعل اثنى عشر جزءًا منهم فى بلاد الروم: النسطورية، والملكانية، والإسرائيلية، كل من الثلاث أربع طوائف، ومصيرهم إلى النار جميعًا، وجعل ستة أجزاء فى المغرب، الزنج، والزط، والحبشة، والنوبة، وبربر، وسائر كفار العرب،

ومصيرهم إلى النار، وبقى من الإنس من أهل التوحيد جزء واحد فجزأهم ثلاثًا وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون على خطر، وهم أهل البدع والضلالات، وفرقة ناجية، وهم أهل السنة والجماعة، وحسابهم على الله تعالى، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ (يوسف: ٤) أورد البروسوى خبرًا طويلاً غريبًا، فقال: «قال بعض من مال إلى الاشتقاق فى هذه الأسماء: إنما سمى يعقوب لأن يعقوب وعيصا كانا توأمين فاقتتلا فى بطن أمى فلأقتلهما، فتأخر يعقوب فخرج عيص، فأخذ يعقوب بعقب عيص فخرج بعده، فلذا سمى به، وسمى الآخر عيصًا لمَّا عصى وخرج قبل يعقوب، وكان عيص رجلاً أشعر، وكان يعقوب أجرد، وكان عيص أحبهما إلى أبيه، وكان يعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيص صاحب صيد، وكان يعقوب صاحب غنم، فلما كبر إسحاق وعمى قال لعيص يومًا: يا بنى أطعمنى لحم صيد، واقترب منى أدع لك بدعاء دعا لى به أبى، هو دعاء النبوة، وكان لكل نبى دعوة مستجابة، وأخر رسولنا ﷺ دعاءه للشفاعة العظمى يوم القيامة، فخرج عيص لطلب صيد، فقالت أمه ليعقوب: يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة ثم اشوها، والبس جلدها، وقدِّمها إلى أبيك قبل أخيك... إلخ».

موقفه من العقيدة:

يبدو من تفسير روح البيان أن البروسوى ماتريدى المعتقد، مؤول للصفات، مثال ذلك ما قاله عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ (الفتح: ١٠) حيث قال: «المعنى قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم كأنه قيل: ثق يا محمد بنصرة الله لك لا بنصرة أصحابك ومبايعتهم على النصرة والثبات، وقال بعضهم: اليد فى الموضعين بمعنى الإحسان والصنيعة، فالمعنى نعمة الله عليهم فى الهداية إلى الإيمان وإلى بيعة الرضوان فوق ما صنعوا من البيعة كقوله تعالى: ﴿**بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ**﴾ (الحجرات: ١٧)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر: ٢٢) قال البروسوى: «﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أى ظهرت آيات قدرته وآثار قهره، مُثِّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان بنفسه من أحكام هيبته وسياسته فإنه عند حضوره يظهر ما لا يظهر بحضور وزرائه وسائر خواصه وعساكره، وقال الإمام أحمد: جاء أمره وقضاؤه على حذف المضاف للتهويل».

رأى البروسوى فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور:

عند تفسير قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف: ١) قال البروسوى: «الحروف المقطعة من الأسرار المكتومة التى يحرم إفشاؤها لغير أهلها، وقول بعضهم: هذه الحروف من المتشابهات القرآنية لا يعلم معانيها إلا الله سلوك إلى الطريق الأسلم وتسليم للأمر إلى أهله، وليس ببعيد من كرم الله تعالى إلى أن يفيض معانيها على قلوب الكُمَّل لكنهم إنما يرمزون بها ويشيرون بغير تصريح بحقائقها صونًا للعقول الضعيفة وحفظًا للعهد المأخوذ منهم»!!.

وتلك الدعاوى ـ الفيض والكشف ـ ليس لها دليل برهانى أو إقناعى، ولا تصلح دليلا شرعيّا بحال من الأحوال.

موقفه من الإعراب:

ويتعرض البروسوى فى تفسيره للإعراب إن كان مهمّا فى فهم المراد، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (الأعراف: ١٤٨) حيث قال: «أى من بعد ذهابه إلى الطور، و «من» لابتداء الغاية ﴿مِنْ﴾ للتبعيض ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ جمع حلى كثدى وثدى، وهو ما تزين به من الذهب والفضة، وإضافة الحلى إليهم مع أنها كانت للقبط لأدنى الملابسة حيث كانوا استعاروا من أربابها حين هموا بالخروج من مصر ﴿عِجْلاً﴾ مفعول أول لقوله: اتخذ، لأنه متعدٍّ إلى اثنين بمعنى التصيير، والمفعول الثانى محذوف أى صيروه إلهًا، والعجل: ولد البقر، وأبو العجل الثور، والجمع: العجاجيل، والأنثى عجلة، سمى عجلاً لاستعجال بنى إسرائيل عبادته، وكانت مدة عبادتهم له أربعين يومًا فعوقبوا فى التيه أربعين سنة، فجعل الله تعالى كل

سنة فى مقابلة يوم ﴿جَسَدًا﴾ بدل من عجلا أى جثة ذات دم ولحم أو جسدًا من ذهب لا روح معه؛ فإن الجسد اسم لجسم له لحم ودم، ويطلق على جثة لا روح لها».

موقفه من الرقص والسماع عند بعض الصوفية:

قال البروسوى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ**﴾ (**الأعراف**: ١٤٨): «وهل يجوز السماع؟ **الجواب**: إن كان السماع سماع القرآن أو الموعظة يجوز، وإن كان السماع الغناء فهو حرام لأن التغنى واستماع الغناء حرام، ومن أباحه من مشايخ الصوفية فلمن تخلى عن الهوى وتحلى بالتقوى».

ثم ذكر شرائط السماع فقال: «وله شرائط:

إحداها: أن لا يكون فيهم أمرد، **والثانية**: أن لا يكون جمعيتهم إلا من جنسهم ليس فيه فاسق ولا أهل دنيا ولا امرأة، **والثالثة**: أن يكون نية القوال الإخلاص لا اتخاذ الأجرة والطعام، **والرابعة**: أن لا يجتمعوا لأجل طعام أو نظر إلى فتوح، **والخامسة**: لا يقومون إلا مغلوبين، **والسادسة**: لا يُظهرون الوجد إلا صادقين.

قال الشيخ عمر بن الفارض فى القصيدة الموسومة بنظم الدر:

إذا هام شوقًا بالمناغى وهمّ أن ... يطير إلى أوطانه الأوليه
يسكن بالتحريك وهو بمهده ... إذ ناله أيدى المربى بهزه

قال الإمام القاشانى فى شرحه: إذا هام الولى واضطرب شوقًا إلى مركزه الأصلى ووطنه الأولى بسبب مناغاة المناغى وهمّ طائر روحه إلى أن يطير إلى عشه ووكره الأولىّ تهزه أيدى من يربيه فى المهد فيسكن بسبب التحريك من قلقه وهمه بالطيران، والمقصود من إيراد هذا المعنى أن يشير إلى فائدة الرقص والحركة فى السماع وذلك أن روح السآمة بهم عند السماع أن يرجع إلى وطنه المألوف ويفارق النفس والقالب فتحركه يد الحال وتسكنه عما يهم به بسبب التحريك إلى حلول الأجل المعلوم، وذلك تقدير العزيز العليم».

ثم قال: «واعلم أن الرقص والسماع حال المتلون لا حال المتمكن، ولذا تاب سيد الطائفة الجنيد البغدادى ـ قدس سره ـ عن السماع فى زمانه، فمن الناس من هو

متواجد، ومنهم من هو أهل وجد، ومنهم من هو أهل وجود، **فالأول**: المبتدئ الذى له انجذاب ضعيف، **والثانى**: المتوسط الذى له انجذاب قوى، **والثالث**: المنتهى الذى له انجذاب قوى وهو مستغن عن الدوران المعنوى بخلاف الأولين، ولا بد من العشق فى القلب، والصدق فى الحركة حتى يصح الدوران، والعلماء وإن اختلفوا فى ذلك فمن مثبت ومن نافٍ لكن الناس متفاوتون، والجواز للأهل المستجمع لشرائطه لا لغيره».

ثم تكلم ـ سامحه الله ـ عن مبدأ علم الموسيقى فقال:

«ذكر أن عليًا قال يومًا: لا أجد لذة العبادة يا رسول الله، فلقَّنه التوحيد، ووصَّاه أن لا يكلم أحدًا بما ظهر من آثار التوحيد، فلما امتلأ باطنه من أنوار التوحيد واضطر إلى التكلم جاء إلى بئر فتكلم فيها فنبت منها قصب، فأخذ راعٍ وعمل منه المزمار، وكان ذلك مبدأ لعلم الموسيقى»!!.

تعظيم البروسوى لشأن ابن عربى:

والبروسوى من المعجبين بابن عربى، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (يوسف: ٢): «ولكون الرسول ﷺ عربيًا جاء وارثه الأكمل من العرب، وهو حضرة الشيخ الأكبر والمسك الأذفر، والكبريت الأحمر، محيى الدين بن عربى، قدس الله نفسه الزاكية، وإنما قلت بكونه الوارث الأكمل لكونه خاتم الولاية الخاصة المحمدية، فهو أكمل مظاهر هذه المرتبة، وفيه ظهر التفضيل الذى لم يظهر فى غيره ومن عداه طفيلى مائدته فى هذا الباب، وبهذا المعنى نصرح به ولا نكنى، وليمت المنكر بغيظه وغضبه، ونعوذ بالله من سوء الاعتقاد»

تعظيمه لشأن الحلاج:

كما يعظم البروسوى الحلاج فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾ (الفجر: ٢٧، ٢٨): «وهى صورة جذبة العناية الربوبية نفوس الأنبياء والأولياء تجذبها من أنانيتها إلى هوية ربوبيته ﴿**رَاضِيَةً**﴾ أى طائعة تلك النفوس شوقًا إلى لقاء ربها ﴿**مَّرْضِيَّةً**﴾ أى على طريقة مرضية فى السير لربها باذلة نفسها فى مشاهدة اللقاء طامعة لرفع الاثنينية ودوام الالتقاء، قيل: لما قُدِّم الحلاج

لِتُقْطَع يده قُطعت اليد اليمنى أولاً فضحك، ثم قُطعت اليد اليسرى فضحك ضحكًا بليغًا، فخاف أن يصفر وجهه من نزف الدم فأكبَّ وجهه على الدم السائل ولطخ وجهه بدمه وأنشأ يقول:

الله يعلم أن الروح قد تلفت ... شوقًا إليك ولكنّى أُمنّيها

ونظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... أشهى إلىَّ من الدنيا وما فيها

يا قوم إنى غريبٌ فى دياركمُ ... سَلَّمت روحى إليكم فاحكموا فيها

ما أُسلم النفس للأسقام تُتلفها ... إلا لعلمى بأن الوصل يُحييها

نفسُ المحب على الآلام صابرةٌ ... لعلَّ مُسْقِمها يومًا يُداويها!

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: يا مولاى إنى غريب فى عبادك وذكرك أغرب منى، والغريب يألف الغريب، ثم ناداه رجل وقال: يا شيخ، ما العشق؟ قال: ظاهره ما ترى وباطنه دقَّ عن الورى».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٤٣، ٦٤) قال البروسوى: «حين تجلى لكم نور من أنوار صفاته فبعضكم يشرك ويقول: أنا الحق [يقصد: الحلاج]، وبعضكم يقول: سبحانى ما أعظم شانى [يقصد: أبا يزيد البسطامى] ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) حين تقولون أنا الحق وسبحانى ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) بأن يرخى حجابًا بينه وبينكم يعذبكم به عزة وغيرة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ (الأنعام: ٦٥) أى حجابًا من أوصاف بشريتكم باستيلاء الهوى عليكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ (الأنعام: ٦٥) يجعل الخلق فيكم فرقًا، فرقة يقولون: هم الصديقون، وفرقة يقولون: هم الزنادقة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ (الأنعام: ٦٥) بالقتل والصلب وقطع الأعراق كما فُعل بابن منصور، قالوا: وكان قد جرى من الحلاج ـ قُدس سره ـ كلام فى مجلس حامد بن عباس، وزير المقتدر، بحضرة القاضى أبى عمر فأفتى بِحِلِّ دمه، وكتب خطة بذلك، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء، وقال له الحلاج: ظهرى حمًى، ودمى حرام، وما يحل لكم أن تتأولوا علىَّ بما يُبيحه، وإنما اعتقادى الإسلام، ومذهبى السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة، الخلفاء الراشدين، وبقية العشرة من الصحابة ﷺ،

ولى كتبٌ فى السنة موجودة فى الوراقين، فالله الله فى دمى، ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه وانفضوا من المجلس، وحُمِلَ الحلاج إلى السجن، وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى فى المجلس، فعاد جواب المقتدر بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله فَلْيُسَلَّم إلى صاحب الشرطة وليتقدم بضربه ألف سوط، فإن مات وإلا فيضرب ألف سوط آخر، ثم ليضرب عنقه، فسلمه الوزير إلى الشرطى وقال له ما رسم به المقتدر، وقال أيضًا: إن لم يتلف بالضرب تُقطع يده ثم رجله ثم يحز رأسه وتحرق جثته، وإن خدعك وقال لك: أُجرى لك الفرات ودجلة ذهبًا وفضة فلا تقبل منه ذلك، ولا ترفع العقوبة عنه، فتسلمه الشرطى ليلاً، وأصبح يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى الحجة من سنة تسع وثلاثمائة فأخرجه إلى باب الطاق وهو يتبختر فى قيوده، واجتمع من العامة خلقٌ لا يُحصى عددهم، وضربه الجلاد ألف سوط ولم يتأوه، ولما فرغ من ضربه قطع أطرافه الأربعة ثم حزَّ رأسه، ثم أُحرقت جثته، ولما صار رماداً ألقاه فى دجلة، ونصب الرأس ببغداد على الجسر، وادَّعى بعض أصحابه أنه لم يُقتل ولكن أُلقى شبهه على عدو من أعداء الله تعالى، كما وقع فى حق عيسى، عليه السلام، والأولياء ورثة للأنبياء!.

يقول الفقير: لهذا التشبيه والتخييل نظائر فى حكايات المشايخ يجدها من تتبع، ومرادى بيان جوازه لا اعتقاد أنه كان كذلك.

فإن قلت: من حق ولاية الحلاج أن لا يحترق ولا يكون رماداً!؟ **قلت:** ذلك غير لازم فإن الأجساد مشتركة فى قبول العوارض والآفات، ألا ترى إلى حال أيوب ويحيى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر أهل التفسير فى أصحاب الرَّس أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين إليهم وأكلوا لحومهم تمرداً وعناداً، ورسّوا بئرهم بعظامهم، نعم قد يكون فى هذه النشأة أمور خارجة عن العادة خارقة كأحوال بعض الأنبياء والأولياء الذين قُتلوا مثلا ثم أحياهم الله تعالى، وأما فى القبر فقد ثبت أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ومن يليهم».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ قال: «إنما أنا رسول وليس إلىَّ شىء من الهداية، ولو كانت الهداية إلىَّ

لآمن كل من فى الأرض، وإنما إبليس مُزين وليس له من الضلالة شيء، ولو كانت الضلالة إليه لأضل كل من فى الأرض ولكن الله يضل من يشاء، كذا فى «تلقيح الأذهان»، فعليك بترك القيل والقال ورفض الاعتزال والجدال فإن الرضا والتسليم يسبب القبول وخلافه يؤدى إلى غضب الحبيب المقبول، يحكى عن حضرة الشيخ الأكبر ـ قدس سره الأطهر ـ أنه قال: أقمت بمدينة قرطبة بمشهد فأرانى الله أعيان رسله ـ عليهم السلام ـ من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، فخاطبنى منهم هود ـ عليه السلام ـ وأخبرنى فى سبب جمعيتهم، وهو أنهم اجتمعوا شفعاء للحلاج إلى نبينا ﷺ؛ وذلك أنه كان قد أساء الأدب بأن قال فى حياته الدنيوية: إن رسول الله ﷺ همّته دون منصبه، قيل له: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (الضحى: ٥) وكان من حقه لا يرضى إلا أن يقبل الله تعالى شفاعته فى كل كافر ومؤمن، لكنه ما قال إلا: «شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى» فلما صدر منه هذا القول جاءه رسول الله ﷺ فى واقعة وقال له: يا منصور، أنت الذى أنكرت علىَّ الشفاعة؟! فقال: يا رسول الله، قد كان ذلك، فقال: ألم تسمع أننى حكيت عن ربى عز وجل: «إذا أحببت عبداً كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»؟ فقال: بلى يا رسول الله، فقال: أولم تعلم أنى حبيب الله؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: فإذا كنت حبيب الله كان هو لسانى القائل، فإذا هو الشافع والمشفوع إليه، وأنا عدم فى وجود، فأى عتاب علىَّ يا منصور؟! فقال: يا رسول الله أنا تائب من قولى هذا، فما كفارة ذنبى؟ قال: قرِّب نفسك لله قربانًا فاقتل نفسك بسيف شريعتى، فكان من أمره ما كان، ثم قال هود، عليه السلام: وهو من حيث فارق الدنيا محجوب عن رسول الله ﷺ: والآن هذه الجمعة لأجل الشفاعة له إلى رسول الله ﷺ.

يقول الفقير سامحه الله القدير: فى هذه القصة أمران: أحدهما: عظم شأن الحلاج ـ قدس سره ـ بدلالة عظم شأن الشفعاء، والثانى: أنه قُتل فى بغداد فى آخر سنة ثلاثمائة وتسع وعشرون سنة، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن روح الحلاج كان محجوبًا عن روح رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثمائة سنة تقريبًا، وذلك بسبب كلمة صدرت منه على خلاف الأدب، فإن من كان على بساط القرب والحضور ينبغى أن يراعى الأدب فى كل أمر من الأمور»!!.

البروسوى ووحدة الوجود:

والبروسوى من القائلين بوحدة الوجود، وينص على ذلك فى تفسيره، فعند قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ (التوبة: ٣٣) قال: «وفى التأويلات النجمية: هو الذى أرسل رسول القلب إلى أمة العالم الأصغر الذى هو المملكة الأنفسية الإجمالية المضاهية للعالم الأكبر وهو المملكة الآفاقية التفصيلية بنور الهداية الأزلية ودين الحق الغالب على جميع الأديان وهو الملة الحنيفية السهلة السمحاء ﴿**وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ الذين أشركوا مع الحق غيره وما عرفوا أن الغير والغيرية من الموهومات التى أوجدتها قوة الوهم وإلا ليس فى الوجود إلا الله وصفاته».

ثم ذكر شعراً للكمال الخجندى، والمولى الجامى، ثم قال معقبًا: «يقول الفقير: هذه الكلمات المنبئة عن وحدة الوجود قد اتفق عليها أهل الشهود قاطبة، فالطعن لواحد منهم بأنه وجوديٌّ طعن لجميعهم، وليس الطعن إلا من الحجاب الكثيف والجهل العظيم وإلا فالأمر أظهر على البصير».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾ (قريش: ٤) قال البروسوى: «أشار بقريش إلى النفس المشركة وقواها الظالمة الخاطئة الساكنة فى البلد الإنسانى الذى هو مكة الوجود، وبالشتاء إلى القهر والجلال، وبالصيف إلى اللطف والجمال، وأغنى بالقهر والجلال العجز والضعف لأن المقهور عاجز ضعيف، وباللطف والجمال القدرة والقوة لأن الملطوف به صاحب التمكين، فأما عجز النفس وضعفها فعند عدم مساعدة هواها، وأما قوتها وقدرتها فعند وجود المساعدة، فهى وصفاتها ترتحل عند العجز والضعف إلى يمين المعقولات لأنها فى جانب يمين القلب، وعند القوة والقدرة ترتحل إلى شأم المحسوسات لأنها فى جانب شمال القلب الذى يلى الصدر، فهى تتقلب بين نعم المعقولات ونعم المحسوسات، ولا تشكرها بأن تقر بوحدة الوجود ورسالة رسول القلب كالفلاسفة المتوغلة فى المعقولات والفراعنة المنهمكة فى المحسوسات، ولذا قال تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ**﴾ (قريش: ٣) إلى بيت القلب الذى هو الكعبة الحقيقة لأنها مطاف الواردات والإلهامات، ومن ضرورة العبادة له

الإقرار برسالة رسول الهدى الذى هو القلب، فالبيت مُعَظَّم مُشَرَّف مطلقًا لإضافة الرب إليه، فما ظنك بعظمة الرب وجلاله وهيبته، ورب القلب هو الاسم لجامع المحيط بجميع الأسماء والصفات، وهو الاسم الأعظم الذى نيط به جميع التأثيرات العقلية والروحانية والعلمية والغيبية، أُمروا بأن يكونوا تحت هذا الاسم لا تحت الأسماء الجزئية ليتخلصوا من الشرك ويتحققوا بسر وحدة الوجود، فإن الأسماء الجزئية تعطى التقييد، والاسم الكلى يعطى الإطلاق، ومن ثمة بُعث النبى ﷺ فى أم البلاد إشارة إلى كليته وجمعيته، وهذا الرب الجليل المفيض المعطى أزال عنهم جوع العلوم والفيوض وأطعمهم بها وآمنهم من خوف الهلاك من الجوع لأن نفس الجاهل كالميت، ولا شك أن الأحياء يخافون من الموت، هكذا ورد بطريق الإلهام من الله العلام».

هذا هو تفسير «روح البيان»، وهذه هى أهم آراء مؤلفه فى إيجاز، والتى يدور معظمها حول وحدة الوجود، مع تعظيمه لغلاة الصوفية ورفعه لقدرهم، فخلط فيه عملا صالحًا وآخر سيئًا، عسى الله أن يغفر لنا وله.

* * *

٦- البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد

لابن عجيبة

التعريف بصاحب التفسير[(١)]:

هو أحمد بن محمد بن المهدى بن الحسين بن محمد، المعروف بابن عجيبة، والمكنى بأبى عباس، الحسنى نسبًا، التطوانى دارًا، الفاسى تعلمًا، المالكى مذهبًا، الشاذلى طريقة.

ولد ابن عجيبة فى قرية «أعجبيش»، من قبيلة «أنجرة» التى تسكن الجبال المحيطة بمدينة تطوان، الواقعة فى أقصى شمال المغرب، على مسافة عشرة كيلومترات، من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وكان مولده سنة ستين - وقيل: إحدى وستين - ومائة وألف هجرية.

حفظ القرآن وهو فى سن مبكرة، ورحل إلى مدينة القصر الكبير، وأقام فيها نحوًا من عامين، اجتهد خلالهما فى تحصيل العلم، ثم رحل إلى «تِطْوَان» وهو ابن العشرين، وأقام فيها، وأقبل على تحصيل العلم فى شتى الأبواب بكل جد، وتنوعت مجالسه بين أئمة الفقه، والتفسير، والحديث، واللغة، والنحو، والصرف، والمنطق.

ثم شدَّ الرحال إلى «فاس» وهو فى سن الأربعين، فسمع من علمائها، وأخذ عنهم، فأخذ علم الحديث عن محدث عصره التاودى بن سودة، ودرس التفسير والفرائض واللغة، ومكث هنالك سنتين، عاد بعدهما إلى «تطوان» ليتابع تدريسه وتأليفه.

كما تتلمذ ابن عجيبة على كثير من علماء عصره، أمثال: عبد الكريم بن قريش، والفقيه الشيخ أبو الحسن على بن أحمد بن شطير الحسنى، وأبو عبد الله محمد بن الحسن الجنوى الحسنى، والحافظ أبو عبد الله الطيب بن عبد المجيد بن كيران، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن بنيس الفاسى.

---

(١) **مصادر الترجمة**: لخصنا هذه الترجمة من المقدمة التى كتبها الدكتور أحمد القرشى فى تحقيقه للكتاب، وفيها ترجمة وافية لابن عجيبة.

ومن شيوخ ابن عجيبة فى التصوف: أبو المعالى العرب بن أحمد الحسنى الشهير بالدرقاوى، ومحمد بن الحبيب أحمد البوزيدى الحسنى.

وقد صنف ابن عجيبة فى التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف، وبلغت مؤلفاته ما يزيد على خمسة وأربعين تأليفًا أكثرها فى التصوف.

ومن مؤلفاته:

١ - البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، وهو ما نحن بصدده.

٢ - التفسير الكبير للفاتحة.

٣ - التفسير الوسيط للفاتحة.

٤ - التفسير المختصر للفاتحة.

٥ - الدرر المتناثرة فى توجيه القراءات المتواترة.

٦ - الكشف والبيان فى متشابه القرآن.

٧ - حاشية على الجامع الصغير للسيوطى.

٨ - أربعون حديثًا فى الأصول والفروع والرقائق.

٩ - الأنوار السنية فى الأذكار النبوية.

١٠- الأدعية والأذكار الممحقة للذنوب والأوزار.

١١- حاشية على مختصر خليل.

١٢- رسالة فى العقائد والصلاة.

١٣- تسهيل المدخل لتنمية الأعمال بالنية الصالحة عند الإقبال.

١٤- سلك الدرر فى ذكر القضاء والقدر.

١٥- الفتوحات القدوسية فى شرح المقدمة الآجرومية.

١٦- أزهار البستان فى طبقات الأعيان.

١٧- الفهرسة: وهى سيرة الشيخ الذاتية.

١٨- الأنوار السنية فى شرح القصيدة الهمزية.

١٩- الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية.

٢٠- اللوائح القدسية فى شرح الوظيفة الزروقية.

٢١- إيقاظ الهمم فى شرح الحِكَم.

٢٢- ديوان قصائد فى التصوف.

٢٣- رسالة فى ذم الغيبة ومدح العزلة والصمت.

٢٤- شرح أسماء الله الحسنى.

٢٥- شرح بردة الأبوصيرى، وغيرها.

توفى ابن عجيبة - رحمه الله - فى السابع من شوال سنة ١٢٢٤هـ.

التعريف بهذا التفسير:

وتفسير «البحر المديد» يقع فى ستة مجلدات، وطبع مؤخرًا على نفقة الدكتور حسن عباس زكى، وبتحقيق الدكتور أحمد القرشى، المدرس بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، وهو تفسير صوفى إشارى لا يغفل التفسير بالظاهر، وطريقة مؤلفه فيه أنه يقسم السورة إلى مقاطع ثم يقوم بتفسير كل مقطع حسب ما يقتضيه الظاهر، ثم يُتبع ذلك بالتفسير الإشارى.

صفات من يتصدى للتفسير الإشارى:

وقد ذكر ابن عجيبة فى مقدمة كتابه أهمية علم التفسير، وصفات من يتصدر له، فقال: «وبعد ... فإن علم تفسير القرآن من أجل العلوم، وأفضل ما يُنْفق فيه نتائج الأفكار وقرائح الفهوم، ولكن لا يتقدم لهذا الخطر الكبير إلا العالم النحرير، الذى رسخت أقدامه فى العلوم الظاهرة وجالت أفكاره فى معانى القرآن الباهرة، بعد أن تضلع من العلم الظاهر، إعرابًا وتصريفًا، وبلاغةً وبيانًا، وفقهًا وحديثًا، وتاريخًا، يكون آخذ ذلك من أفواه الرجال، ثم غاص فى علوم التصوف ذوقًا وحالا ومقالا، بصحبة أهل الأذواق من أهل الكمال، وإلا فسكوته عن هذا الأمر العظيم أسلم، واشتغاله بما يقدر عليه من علم الشريعة الظاهرة أتم».

السبب الداعى لهذا التأليف ورأى ابن عجيبة فى الظاهر والباطن:

ثم ذكر ابن عجيبة أنه كتب هذا التفسير الجامع بين تفسير أهل الظاهر وإشارة أهل الباطن بناء على طلب من شيخيه: محمد البوزيدى، والعربى الدرقاوى، ثم قال: «واعلم أن القرآن الكريم له ظاهر لأهل الظاهر، وباطن لأهل الباطن، وتفسير أهل

الباطن لا يذوقه إلا أهل الباطن، ولا يفهمه غيرهم، ولا يذوقه سواهم، ولا يصح ذكره إلا بعد تقرير الظاهر، ثم يشير إلى علم الباطن بعبارة رقيقة وإشارة دقيقة، فمن لم يبلغ فهمه لذوق تلك الأسرار فليسلم ولا يبادر بالإنكار، فإن علم الأذواق من وراء طور العقول، ولا يدرك بتواتر النقول».

ثم ذكر رأى ابن عطاء الله السكندرى فى التفسير الصوفى فقال: «قال فى لطائف المنن: اعلم أن تفسير هذه الطائفة ـ يعنى الصوفية ـ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، لكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له ودلت عليه فى حرف اللسان، وثَمَّ أفهام باطنة تفهم من الآية والحديث لمن فتح الله قلبه، وقد جاء أنه ـ عليه السلام ـ قال: «لكل آية ظاهر وباطن، وحد ومطلع»، فلا يصدنك عن تلقى المعانى الغريبة منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله ـ عز وجل ـ وكلام رسوله ﷺ، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لكلام الله لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لا يقولون ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها ومراداتها وموضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم».

مصادر ابن عجيبة فى تفسيره:

ومصادر ابن عجيبة فى التفسير الظاهر هى: تفسير الرازى، والبيضاوى، والواحدى، وابن جزى، وحاشية الفاسى، والثعلبى، وغيرهم.

وأما فى الجانب الإشارى فينقل عن أقطاب التصوف أمثال: القشيرى، وأبى الحسن النورى، وابن الفارض، والحلاج، وأبى يزيد البسطامى، والقطب الجيلانى، وأبو الحسن الشاذلى، ومحيى الدين بن عربى، والجنيد، والورتيجى، والحارث المحاسبى، والششترى، وغيرهم.

منهج ابن عجيبة فى التفسير:

سار ابن عجيبة فى تفسيره على منهج واضح المعالم، فهو يبدأ فى تفسير السورة ببيان المكى والمدنى، وعدد آياتها، ويذكر الاختلاف فى عدد الآيات ـ إن وجد ـ ويذكر عدد حروف السورة، مع ذكر مناسبة السورة لما قبلها، وسبب نزولها، إن وجد، وفضائلها، ومضمونها الإجمالى، ثم يشرع فى تفسير الآيات؛ فيبدأ بالشرح اللغوى

للكلمات الغريبة، ذاكرًا الإعراب، ثم يبين المعنى المراد معتمدًا فى ذلك على القرآن والأحاديث والآثار، وأقوال المفسرين المتقدمين، ثم يتبع ذلك بالتفسير الإشارى حيث يقول: «الإشارة».

موقفه من القراءات:

عُنى ابن عجيبة فى تفسيره بذكر القراءات المختلفة فى الآية، مُبينًا المعنى المترتب على ذلك، وغالبًا ما يعزو القراءة لصاحبها، وأحيانا يُغفل ذلك، فيُبهم، ويقول: «وقرئ بكذا» كما أنه يذكر أحيانًا بعض القراءات الشاذة.

موقفه من أسباب النزول:

من الواضح فى تفسير ابن عجيبة استناده إلى أسباب النزول، ليستعين بها على فهم الآيات، مثال ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ (البقرة: ١٩٨).

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...**﴾ (البقرة: ٢٠٤).

موقفه من تفسير القرآن بالقرآن:

يولى ابن عجيبة تفسير القرآن بالقرآن عناية خاصة، مثال ذلك ما جاء عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ...**﴾ (البقرة: ٣٧) فيذكر ابن عجيبة أن الكلمات التى تلقاها آدم هى قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ (الأعراف: ٢٣).

موقفه من التفسير بالمأثور:

اعتماد ابن عجيبة على السنة الشريفة فى تفسيره للقرآن الكريم سمة واضحة فى كتابه، مثال ذلك ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...**﴾ (البقرة: ١٣٣) حيث استدل على أن إسماعيل عُد من آباء يعقوب مع أنه عمه، بقوله ﷺ: «عم الرجل صنو أبيه»، وقال فى العباس: «هذا بقية آبائى».

كما حفل تفسير ابن عجيبة بأقوال الصحابة والتابعين ﷺ - وحين تتعدد الروايات

عن الصحابة فى تفسير كلمة أو آية، فإنه يذكرها، ولا يرجح بعضها على بعض، أو يقدح فى شىء منها، وذلك إشارة منه إلى أن معنى الآية يحتمل جميع المعانى.

والمتتبع لما أورده ابن عجيبة فى تفسيره من أحاديث وآثار يتبين له عدم التزامه - غالبًا - بتخريج الأحاديث أو نسبتها إلى مصادرها، وكثيرًا ما يدرج الحديث فى سياق الكلام دون أن يُنبه إلى أنه من السُّنَّة.

ويكثر ابن عجيبة فى تفسيره من إيراد الأحاديث الضعيفة والموضوعة، مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٧) حيث ذكر عن عائشة - رضي الله عنها - فى قصة الحولاء - امرأة من الأنصار - قال لها رسول الله ﷺ: «ما من امرأة حملت من زوجها حين تحمل إلا لها من الأجر مثل القائم ليله الصائم نهاره والغازى فى سبيل الله، وما من امرأة يأتيها الطلق إلا كان لها بكل طلقة عتق نسمة وبكل رضعة عتق رقبة، فإذا فطمت ولدها ناداها مناد من السماء: قد كُفيت العمل فيما مضى، فاستأنفى العمل فيما بقى» قالت عائشة رضي الله عنها: قد أُعطى النساء خيرًا كثيرًا، فما لكم يا معشر الرجال؟! فضحك النبى ﷺ ثم قال: «ما من رجل مؤمن يأخذ بيد امرأته يراودها إلا كتب الله له حسنة، وإن عانقها فعشر حسنات، وإن ضاجعها فعشرون حسنة، وإن أتاها كان خيرًا من الدنيا وما فيها، فإذا قام ليغتسل لم يمس الماء شعرة من على جسده إلا مُحى عنه سيئة، ويُعطى له درجة، وما يُعطى بغسله خير من الدنيا وما فيها، وإن الله تعالى يباهى الملائكة فيقول: انظروا إلى عبدى قام فى ليلة قرَّة يغتسل من الجنابة يتيقن بأنى ربه، اشهدوا أنى قد غفرت له».

موقفه من اللغة والإعراب:

ولابن عجيبة فى تفسيره عناية بالإعراب، وإذا كانت الآية تحتمل أوجهًا من الإعراب، فإنه يذكرها، ويذكر المعنى على اختلاف الأعاريب، وكثيرًا ما يطنب فى الكلام على مسألة نحوية، ومن ذلك كلامه الذى عقده لبيان الفرق بين (بلى) و (نعم) عند تفسير قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ (البقرة: ٨١).

كما يعنى ببيان معنى المفردات القرآنية، ويكثر من الشواهد الشعرية فى بيان المعانى اللغوية مثل ما جاء عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾

(البقرة: ١٦٦)، حيث قال: «والأسباب: العهود والوصل التى كانت بينهم فى الدنيا، يتوادون عليها، وأصل السبب: كل شىء يتوصل به إلى شىء، ومنه قيل للحبل الذى يصعد به: سبب، وللطريق: سبب، قال الشاعر:

ومَنْ هَابَ أسباب المنية يلقها ... ولو رام أسباب السماء بسلم»

وابن عجيبة غالبًا ما يذكر النص الشعرى مجردًا من اسم قائله، باستثناء بعض الأبيات.

موقفه من بعض الفرق الأخرى كالقدرية والجبرية والروافض:

هذا، ولم يخل «البحر المديد» من الرد ولو بطريقة مقتضبة على بعض الفرق والمذاهب الأخرى، مثال ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث قال: «قال ابن جزى: أى نطلب العون منك على العبادة وعلى جميع أمورنا فهذا دليل على بطلان قول القدرية والجبرية وأن الحق بين ذلك».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ (سورة ص: ٣٧) يقول: «أما القرآن العظيم فلا بد من الإيمان أنه منزل على نبينا محمد ﷺ، فمن اعتقد أنه منزل على غيره كالروافض فإنه كافر بالإجماع».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ (الأنعام: ٣٥) قال: «أى لو شاء الله جمعهم على الهدى لوفقهم للإيمان حتى يؤمنوا، ولكن لم تتعلق به مشيئته، وفيه حجة على القدرية».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٥) قال: «وفيه رد على مذهب القائلين بالرجعة من الروافض وأهل التناسخ».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٨) قال: «قال ابن عطية: وفى هذه اللفظة رد على الجبرية، ونص على تعلق العقاب بالكسب».

موقفه من المسائل الفقهية:

يتعرض ابن عجيبة فى تفسيره للأحكام الفقهية، عند مروره بآيات الأحكام، وهو فى ذلك لا يكتفى ـ غالبا ـ بذكر رأى مذهبه المالكى، بل ربما يقدم رأيًا يخالف

مذهبه، بناء على قوة الأدلة والحُجج، وأحيانًا يكتفى برأى الإمام مالك، ولا يذكر آراء المذاهب الأخرى.

موقفه من الإسرائيليات:

وابن عجيبة يكثر فى تفسيره من ذكر الإسرائيليات بغير تمحيص أو تعقيب، مثال ذلك ما نقله عن الرازى عند تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) حيث قال: «﴿الْعَالَمِينَ﴾ روى أن بنى آدم عشر الجن، وبنى آدم والجن عُشْر حيوانات البر، وهؤلاء كلهم عشر الطيور، وهؤلاء كلهم عشر حيوانات البحار، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة الأرض الموكلين ببنى آدم، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الدنيا، وهؤلاء كلهم عشر ملائكة السماء الثانية، ثم على هذا الترتيب إلى ملائكة السماء السابعة، ثم الكل فى مقابلة الكرسى نزر قليل، ثم هؤلاء عشر ملائكة السرادق الواحد فى سرادقات العرش التى عددها مائة ألف، طول كل سرادق وعرضه ـ إذا قوبلت به السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما يكون شيئًا يسيرًا ونزرًا قليلا، وما من موضع شبر إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم وله زجل بالتسبيح والتهليل، ثم هؤلاء كلهم فى مقابلة الذين يجولون حول العرش كالقطرة فى البحر ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

وقال وهب بن منبه ﷺ: قوائم العرش ثلاثمائة وست وستون قائمة، وبين كل قائمة وقائمة ستون ألف صحراء، وفى كل صحراء ستون ألف عالم، وكل عالم قدر الثقلين».

مقامات التوحيد عند ابن عجيبة:

قال ابن عجيبة عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (البقرة: ١٦٣): «واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على درجات:

الأولى: توحيد العامة: وهو الذى يعصم النفس والمال وينجو به من الخلود فى النار وهو نفى الشركاء والأنداد والصاحبة والأولاد والأشباه والأضداد.

الثانية: توحيد الخاصة: وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق الكشف لا بطريق الاستدلال فإن ذلك حاصل لكل مؤمن، وإنما مقام

الخاصة يقين فى القلب بعلم ضرورى لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده فلا يرجو إلا الله ولا يخاف أحدًا سواه إذ ليس يرى فاعلاً إلا الله فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب.

الدرجة الثالثة: ألا يرى فى الوجود إلا الله ولا يشهد معه سواه، فيغيب عن النظر إلى الأكوان فى شهود المكون، وهذا هو مقام الفناء، فإن رد إلى شهود الأثر بالله سمى مقام البقاء».

مقامات الأولياء عند ابن عجيبة:

ومن يقرأ فى هذا التفسير يلحظ فيه غلو صاحبه فى مقام الأولياء، فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ (البقرة: ١٤٣) يقول: «ثم إن العلماء بأحكام الله، إذا لم يحصل لهم الكشف عن ذات الله يكونون حجة على العامة يشهدون على الناس، والأولياء يشهدون على العلماء فيزكون من يستحق التزكية، ويردون من لا يستحقها؛ لأن العارفين بالله عالمون بمقامات العلماء أهل الظاهر، لا يخفى عليهم شىء من أحوالهم ومقاماتهم بخلاف العلماء لا يعرفون مقامات الأولياء ولا يشمون لها رائحة كما قال القائل:

تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى الناس أين توجهنا»

الأقطاب والأوتاد والغوث والنجباء والنقباء عند ابن عجيبة:

وابن عجيبة يلوى عنق الآيات، ويُخرج الألفاظ عن مدلولاتها ليؤيد بها عقائد الصوفية، فعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام: ١٦٥) يقول: «من شرف هذا الآدمى أن جعله خليفة عنه، فى ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف فى هذا الوجود، فالعوام إنما يتصرفون فيما ملَّكهم الله من الأملاك الحسية، والخواص يتصرفون بالهمة فى الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفُون بالله، أمرُهم بأمر الله، إن قالوا لشىء: كن؛ يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار.

والحاصل: أن من بقى مع الأكوان شهودًا وافتقارًا، كان محبوسًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون فى ذلك، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ أى: خلفاء عنه تتصرفون فى الوجود بأسره بأرواحكم، وأنتم فى الأرض بأشباحكم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ من أقطاب وأوتاد ونجباء ونقباء وغير ذلك».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١١، ١٢) قال: «ثم استوى إلى سماء الأرواح، أى: قصدها بالدعاء إليه، وهى لطائف، فقال لها ولأرض النفوس: ائتيا إلى حضرتى، طوعًا أو كرهًا، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع طبقات، وهى دوائر الأولياء، دائرة الغوث، ثم دائرة الأقطاب، ثم الأوتاد، ثم النقباء، ثم النجباء، ثم الأبرار، ثم الصالحين».

تحامل ابن عجيبة على أهل الشريعة:

وابن عجيبة فى «بحره المديد» يغمز ويلمز أهل الشريعة فى مواضع كثيرة من إشاراته مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ٩٠، ٩١) حيث قال: «اعلم أن قاعدة تفسير أهل الإشارة هى أن كل عقاب توجه لمن ترك طريق الإيمان وأنكر على أهله، يتوجه مثله لمن ترك طريق مقام الإحسان وأنكر على أهله، وكل وعيد توعد به أهل الكفران يتوعد به من ترك السلوك لمقام الإحسان، غير أن عذاب أهل الكفر حسىّ بدنى، وعذاب أهل الحجاب معنوىٌّ قلبىٌّ، فنقول فيمن رضى بعيبه، وأقام على مرض قلبه، وأنكر الأطباء ووجود أهل التربية: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ وهو كفرهم بما أنزل الله من الخصوصية على قلوب أوليائه بغيًا وحسدًا، أو جهلاً وسوء ظن، أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فباءوا بغضب الحجاب على غضب البعد والارتياب، أو بغضب سقم القلوب، على غضب الإصرار على المساوئ والعيوب، من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرّا على الكبائر وهو لا يشعر، كما قال الشاذلى ﷺ، ولا يصح التغلغل فيه إلا بصحبة أهله، وللكافرين

بالخصوصية عذاب الطمع وسجن الأكوان، وهما شجرة الذل والهوان، وإذا قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله من أسرار الحقيقة وأنوار الطريقة، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا من ظواهر الشريعة، ويكفرون بما وراءه من أسرار الحقيقة ككشف أسرار الذات، وأنوار الصفات».

وقد ضاهى ابن عجيبة فى منهجه ذلك الشيعة فى تفسيرهم للقرآن الكريم حيث جعلوا كل آية ذم وقدح فى أبى بكر وعمر والصحابة ﷺ، وكل آية مدح وثناء فى علىٍّ وأهل البيت، فبئس المنهج وبئس المضاهاة والمتابعة.

وأيضًا عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١١) قال: «وإذا قيل لمن يشتغل بالتعويق عن طريق الله، والإنكار على أولياء الله: أقصر عن هذا الإفساد، وارجع عن هذا الغى والعناد، فقد ظهرت معالم الإرشاد لأهل المحبة والوداد، قال: إنما أنا مصلح ناصح، وفى أحوالى كلها صالح، يقول الحق جل جلاله: بل أفسدت قلوب عبادى، ورددتهم عن طريق محبتى ووِدادى، وعوَّقتهم عن دخول حضرتى، وحرمتهم شهود ذاتى وصفاتى، سددت بابى فى وجه أحبابى، آيستهم من وجود التربية، وتحكمت على القدرة الأزلية، ولكنك لا تشعر بما أنت فيه من البلية، ولقد صدق من سبقت له العناية، وأتحف بالرعاية والهداية حيث قال:

فهذه طريقة الإشراقِ كانت وتبقى ما الوجود باقِ

وقال أيضًا:

وأنكروه ملأٌ عوامُ لم يفهموا مقصوده فهاموا

فتب أيها المنكر قبل الفوات، واطلب من يأخذ بيدك قبل الممات، لئلا تلقى الله بقلب سقيم، فتكون فى الحضيض الأسفل من عذابه الأليم، فسبب العذاب وجود الحجاب، وإتمام النعيم النظر لوجهه الكريم، منحنا الله منه الحظ الأوفر فى الدنيا والآخرة، آمين».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ (البقرة: ١١٣) الآية، قال: «كل ما قصه الحق تعالى علينا من مساوئ غيرنا فالمقصود به التنفير والتحذير من مثل ما ارتكبوه، والتخلق بضد ما

فعلوه، فكل من تراه ينقص الناس ويصغّرُهم فهو أصغرهم، وكل من تراه يقول: أصحاب سيدى فلان ليسوا على شىء، وأصحاب سيدى فلان ليس عندهم شىء، فليس هو على شىء، وقد ابتلى بعض المتصوفة بهذا الوصف الذميم، ينصب الميزان على الناس، فيسقط قومًا ويرفع آخرين، وهو يتلو كتاب الله، ويسمع قوله تعالى ﴿وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات: ١٢) الآية، وأكثر ما تجد هذا الوصف فى بعض الفقهاء المتجمدين على ظاهر الشريعة، يعتقد ألا علم فوق علمه، ولا فهم فوق فهمه، كيف؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ (النساء: ٥١، ٥٢) قال: «قال الورتجبى: وبّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم الذين اختاروا الرياسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التى هى الجبت، ويَخطون على آثار الطاغوت، التى هى إبليس. اهـ.

قلت: وينسحب التوبيخ على من فضل أهل الظاهر على أهل الباطن، وفضَّل العلماء على الأولياء، ويقولون: هم أهدى منهم سبيلاً، هيهات! بينهم من البَون ما بين السماء والأرض.

والكلام إنما هو فى التفضيل بين العارفين بالله، الذين جمعوا بين الفناء والبقاء، وبين العلماء الأتقياء، وأما العُبَّاد والزهاد والصالحون فلا شك أن العلماء الأتقياء أفضل منهم، وإليهم أشار ﷺ بقوله: «فَضلُ العَالِمِ على العابِد كَفَضْلِى عَلَى أدناكُم» وكذلك الأحاديث التى وردت فى تفضيل العلماء، وأما العارفون بالله فهم أعظم العلماء، لأن علمهم متعلق بذات الله كشفًا وذوقًا، وعلماء الظاهر علمهم متعلق بأحكام الله، مُفرقُون عن الله، بل هم أشد حجابًا من غيرهم عن الله، قال بعض الأولياء: أشد الناس حجابًا عن الله: العلماء، ثم العباد، ثم الزهاد. اهـ. لأن حلاوة ما هم فيه تمنعهم عن الانتقال عنه».

موقفه من علماء الحقيقة:

وابن عجيبة يثنى فى تفسيره على علماء الحقيقة ثناء حارًا، ويعظِّم من شأنهم، فيقول عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣) الآيات: «الإشارة: علماءُ هذه الأمة كأنبياء بنى إسرائيل، العارفون منهم كالرسل منهم، قال ابن الفارض ـ ﷺ:

فَعَالِمُنَا منهم نبىٌّ، ومَن دَعَا إلى الحقِّ منّا قَامَ بالرسُلِيّه
وعارفنا فى وقتنا الأحمَدىُّ من أولى العزمِ منهم آخِذٌ بالعَزِيمَه

فإنهم يشاركونهم فى وحى الإلهام، ويحصل لهم المكالمة مع المشاهدة، فيسمعون من الحق كما ينطقون به، كما قال الششترى:

أَنَا بالله أنطقُ ومِنَ الله أسمَع!

فتارة يسمعون كلامه بالوسائط، وتارة من غير الوسائط، يعرف هذا أهل الفن من أهل الذوق، وشأن من لم يَبلغُ مقامهم: التسليم.

إن لم تَرَ الهِلالَ فَسَلِّم لأُناس رأَوه بالأبصَار»

أقول: ودعوى التسليم للقوم أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت فى البعد والغرابة وتوريط لنا بالتسليم لهم بكل ما يقولون.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧) قال: «﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على الحقيقة ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ تعالى، وقد يُطلع عليه بعض خواص أوليائه، وهم ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ أى: الثابتون فى العلم، وهم العارفون بالله أهل الفناء والبقاء، وهم أهل التوحيد الخاص. . . فقد أطلعهم سبحانه تعالى على أسرار غيبه، فلم يبق عندهم متشابه فى الكتاب ولا فى السنة، حال كونهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ وصدقنا أنه من كلامه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ المحكم والمتشابه، وقد فهمنا مراده فى القسمين، وهم أولو الألباب، ولذلك مدحهم فقال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: القلوب الصافية من ظلمة الهوى وغَبَش الحس».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢) قال: «الإشارة: لا ينقطع عن العبد تسلط الشيطان حتى يدخل مقام الشهود والعيان، حين يكون عبدًا خالصًا لله، حرًا مما سواه، وذلك حين ينخرط فى سلك القوم، ويزول عنه لوث الحدوث والعدم، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وذلك بتحقيق مقام الفناء، ثم الرجوع إلى مقام البقاء».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٩١) قال: «قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ: من لم يتغلغل فى عملنا هذا، مات مصرًا على الكبائر وهو لا يشعر».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٢٤) قال ابن عجيبة بعد أن ذكر كلامًا للإمام الغزالى فى القلب: «وقد أنشد من وجد قلبه، وعرف ربه، وغنَّى لما وجد، فقال:

أَنَا القُرآنُ والسَّبْعُ المَثَانى ... وروحُ الرُّوح لا روح الأَوَانى

فؤادى عند معلوم مقيم ... تناجيه وعندكم لسانى

فَلاَ تَنْظُرْ بِطَرْفِكَ نَحْوَ جِسْمِى ... وعُدْ عن التنعيم الأوانى

فأَسْرارِى تراءت مبهمات ... مُسَتَّرَةُ بأَنْوار المَعَانى

فَمَنْ فَهِمَ الإِشَارَةَ فليَصُنْها ... وإلا سوف يُقتل بالسنانِ

كَحَلاَّج المحبة إذْ تبدَّتْ ... له شمسُ الحقيقة بالتدانى»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ٦٢ - ٦٤) قال: «وقال أبو سعيد الخراز ﷺ: إذا أراد الله أن يوالى عبدًا من عباده فتح عليه باب ذكره، فإذا اشتد ذكره فتح عليه باب القرب، ثم رُفع إلى مجلس الأنس، ثم أجلسه على كرسى التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية، وكشف له عن الجلال والعظمة، فإذا عاين ذلك بقى بلا هو، فحينئذٍ تفنى نفسه ويبرأ من دعاويها. اهـ.

فأنت ترى كيف جعل الفناء هو نهاية السير والوصول إلى الولاية، فمَن لا فناء له لا محبة له، ومن لا محبة له لا ولاية له، وإلى ذلك أشار ابن الفارض ﷺ في تائيته بقوله:

فلمْ تهْوَنى ما لم تكنْ فىَّ فانيا
ولم تَفنَ ما لَمْ تَجتَل فيكَ

قال ابن عجيبة: «وقال سعيد بن جبير: «هى النار بعينها» وهى إحدى حجب الله تعالى، ثم استدل بالحديث: «حجابه النار»، ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجب فى مظاهر تجلياته، وهى كثيرة، ومن جملتها النار، فهى إحدى الحجب التى احتجب الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

* هو النورُ المحيط بكل كَون *

ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات، العارفون بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لِما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ (طه: ٩) الآيات، قال: «وهل أتاك أيها العارف حديث موسى، كيف سار إلى نور الحبيب، ومناجاة القريب، إذ رأى نارًا فى مرأى العين، وهو نورُ تَجَلِّى الحبيب بلا بين، فقال لأهله ومن تعلق به: امكثوا، أقيموا فى مقام الطلب، واصبروا وصابروا ورابطوا على قلوبكم، فى نيل المُطَّلَبِ، إنى آنست نارًا، وهو نور وجه الحبيب فى مرائى تجلياته، وهذا مقام الفناء، لعلى آتيكم منها بقبس، تقتبسون منه أنوارًا لقلوبكم وأسراركم أو أجد على النار هدى يهدينى إلى مقام البقاء والتمكين، فلما أتاها، وتمكن من شهودها، نودى يا موسى: إنى أنا ربك، فلا نار ولا أثر، وإنما وجه الحبيب قد تجلى وظهر، فى مرأى الأثر، فاخلع نعليك، أى: اخرج عن الكونين إن أردت شهود حضرة المكون، كما قال القائل:

واخلع النعلين إن جئتَ إلى ذلك الحى ففيه قدسنا
وعن الكونين كن منخلعًا وأزل ما بيننا من بَيْنِنَا

إنك بالواد المقدس، أى: بحر حضرة القدس ومحل الأنس، قد طويت عنك

الأكوان، وأبصرت نور الشهود والعيان، وأنا اخترتك لحضرتى، واصطفيتك لمناجاتى، فاستمع لما يوحى إليك منِّى، فأنا الله لا إله إلا أنا وحدى، فإذا تمكنت من شهودى فانزل لمقام العبودية شكرًا، وأقم الصلاة لذكرى، إن الساعة آتية لا محالة، فأكرم مثواك، وأُجل منصبك، وأرفعك مع المقربين، فلا يصدنك عن مقام الشهود أهلُ العناد والجحود، فتسقط عن مقام القرب والأنس، وتصير فى جوار أهل حجاب الحس، ولعل هذا المنزع هو الذى انتحى ابنُ الفارض، حيث قال فى كلام له:

آنستُ فى الحَىِّ نارًا ... لَيْلاً فَبَشَّرْتُ أهلى
قُلْتُ: امْكُثُوا فلعَلى ... أجِدْ هُداى لَعَلى
دَنَوْتُ مِنها فكانَتْ ... نار التكلم قبلى
نودِيتُ منها كفاحًا ... رُدُّوا لَيالِىَ وَصْلى
حتى إذا مال تَدانى الـ ... ـميقاتُ فى جَمْعِ شَملى
صارت جِبالى دكّا ... من هيبة المُتَجلى
ولاحَ سر خفىٌ ... يدْرِيه مَنْ كَانَ مِثْلى
فالموتُ فِيهِ حياتى ... وفى حَياتى قَتلى
وصِرْتُ مُوسَى زَمَانى ... مذ صار بَعْضِىَ كُلى

قوله:

* صارت جبالى دكًا *

أى: جبال وجوده، فحصل الزوال من هيبة المتجلى، وهو الكبير المتعال. وهذا إنما يكون بعد موت النفس وقهرها، فإنها حينئذ تحيا بشهود ربها، حياة لا موت بعدها، وقوله: «مذ صار بعضى كلى»، يعنى: إنما حصلت له المناجاة والقرب الحقيقى حين فنيت دائرة حسه، فاتصل جزء معناه بكل المعنى المحيط به، وهو بحر المعانى المُفنى للأوانى».

إقحامه للتفسير الإشارى فى التفسير الظاهر:

هذا.. وقد أقحم ابن عجيبة فى تفسيره الظاهر الكثير من الشطحات الصوفية، على الرغم من كون ذلك مخالفًا لمنهجه الذى ذكره فى مقدمته، فمثلاً عند تفسير قوله

تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٦) قال: «فإن قلت: إذا كان العبد ذاهبًا على هذا المنهاج المستقيم، فكيف يطلب ما هو حاصل؟ فالجواب: أنه طلب التثبيت على ما هو حاصل، والإرشاد إلى ما هو ليس بحاصل، فأهل مقام الإسلام الذى هو حاصل، يطلبون الترقى إلى مقام الإيمان الذى ليس بحاصل، على طريق الصوفية الذين يخصون العمل الظاهر بمقام الإسلام، والعمل الباطن بمقام الإيمان، وأهل الإيمان يطلبون الثبات على الإيمان الذى هو حاصل، والترقى إلى مقام الإحسان الذى ليس بحاصل، وأهل مقام الإحسان يطلبون الثبات على الإحسان والترقى إلى ما لا نهاية له من كشوفات العرفان ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦).

قال الشيخ أبو العباس المرسى ﷺ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد بما ليس بحاصل، ثم قال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى بالتثبيت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنه حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجات الصالحين، والصالحون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معناه: نسألك التثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء، والشهداء يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى: بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصلت لهم الشهادة، وفاتهم درجات الصديقين، والصديقون يقولون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقين، وفاتهم درجات القطب، والقطب يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد إلى ما ليس بحاصل، فإنه حصل له رتبة القطبانية وفاته علم ما إذا شاء الله أن يطلعه عليه».

وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) حيث قال: «والشكر على ثلاث درجات: فدرجة العوام: الشكر على النعم، ودرجة الخواص: الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن رؤية النعم بمشاهدة المُنعم، قال رجل لإبراهيم بن

أدهم ﷺ: الفقراء إذا أُعطوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا، فقال إبراهيم: هذه أخلاق الكلاب، ولكن القوم إذا مُنعوا شكروا، وإذا أُعطوا آثروا».

قلت: وهذا تنطع ومخالفة للهدى القرآنى، حيث قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧)، وقال: ﴿**وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ**﴾ (الحج: ٣٥)، وقال: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (البقرة: ١٧٧).

ومخالف ـ أيضًا ـ للمنهج النبوى القائل: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له».

ولا شك أن هذا منهجٌ منافٍ لأصل العبادة ولُبِّها ـ وهو الدعاء ـ لأن الذى يشكر على المصائب كيف يدعو برفعها؟ مع ما فيه من حطٍّ لشأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ الذين قابلوا الابتلاء بالدعاء لا بالشكر!.

الجانب الصوفى فى هذا التفسير:

وهذا هو الجانب المهم فى هذا التفسير، يقول ابن عجيبة عند تفسيره لأول فاتحة القرآن: «لما تجلى الحق سبحانه من عالم الجبروت إلى عالم الملكوت، أو تقول: من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حمد نفسه بنفسه، ومجَّد نفسه بنفسه، وعظَّم نفسه بنفسه، ووحد نفسه بنفسه، ولله در الهروى حيث قال:

ما وحَّدَ الواحدَ من واحد ... إذ كُلُّ من وحده جاحِدُ

توحيد من ينطقُ عن نعته ... عارية أبطلها الواحدَ

توحيده إياه توحيدُهُ ... ونعتُ من ينعته لاحدُ

فقال فى تمجيد نفسه بنفسه مترجمًا نفسه بنفسه: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الفاتحة: ١)».

وهذا انحراف عقدى خطير إن لم يكن كفرًا، والعياذ بالله؛ لأن «ما» النافية مع «من» تفيد الاستغراق، وتنكير لفظة «واحد» تدل على شمول ذلك للرسل صلوات الله

عليهم أجمعين، وهم قد وحدوا الله حق توحيده، أما توحيد هؤلاء فلا شك أن الرسل لم يوحدوا به الله لأنه عين الشرك؛ وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥، ٦٦)، وقال تعالى عن أنبيائه ورسله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠).

ويقول أيضًا فى أول تفسيره لسورة الفاتحة: «قال فى الرسائل الكبرى: لا عبرة بظواهر الأشياء وإنما العبرة بالسر المكنون وليس ذلك إلا بظهور الحق وارتفاع عطاياه، وزوال أستاره وخفاياه، فإذا تحقق ذلك التجلى والظهور، استولى على الأشياء الفناء والدُّثور، وانقشعت الظلمات بإشراق النور، فهناك يبدو عين اليقين، ويحق الحق المبين، وعند ذلك تبطل دعوى المدعين، كما يفهم العامة بطلان ذلك يوم الدين، حين يكون الملك لله رب العالمين، وليت شعرى أى وقت كان الملك لسواه حتى يقع التقييد ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الحج: ٥٦)، وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩) لولا الدعاوى العريضة من القلوب المريضة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) قال ابن عجيبة: «الطريق المستقيم التى أمرنا الحق بطلبها هى: طريق الوصول إلى الحضرة، التى هى العلم بالله على نعت الشهود والعيان، وهو مقام التوحيد الخاص الذى هو أعلى درجات أهل التوحيد، وليس فوقه إلا مقام توحيد الأنبياء والرسل، ولا بد فيه من تربية على يد شيخ كامل عارف بطريقة السير، قد سلك المقامات تذوقًا وكشفًا، وجاز مقام الفناء والبقاء، وجمع بين الجذب والسلوك؛ لأن الطريق عويص، قليل خُطَّاره، كثير قُطَّاعه، وشيطان هذه الطريق فقيه بمقاماته ونوازله، فلا بد فيه من دليل وإلا ضل سالكها عن سواء السبيل».

أقول: والدليل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، والصراط الذى أُمرنا باتباعه هو صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا طريق الأقطاب والأغواث والأبدال.

وأيضًا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿الم﴾ فى أول سورة البقرة، يقول: «وقد حارت العقول فى رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟ فكيف بالمرسلين؟ فكيف بسيد

المرسلين؟ فكيف يطمع أحد فى إدارك حقائق رموز رب العالمين؟! قال الصِّدِّيق ﷺ: «فى كل كتاب سر، وسر القرآن فواتح السور» فمعرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء، وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه».

ثم قال: «قال: قلت: والأظهر أنها حروف تشير للعوالم الثلاثة، فالألف لوحدة الذات فى عالم الجبروت، واللام لظهور أسرارها فى عالم الملكوت، والميم لسريان أمدادها فى عالم الرحموت، والصاد لظهور تصرفها فى عالم الملك، وكل حرف من هذه الرموز يدل على ظهور أثر تصرف الذات فى غالم الشهادة، فالألف يشير إلى سريان الوحدة فى مظاهر الكون، واللام يشير إلى فيضان أنوار الملكوت من بحر الجبروت، والميم يشير إلى تصرف الملك فى عالم الملك... إلخ».

وقد مر بك سابقًا ما ذكرنا حول هذه الدعاوى فى تفسير الحروف المقطعة التى فى أوائل السور.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) يقول: «قال جعفر الصادق: لقد تجلى الله تعالى لخلقه فى كلامه ولكن لا يشعرون، وقال أيضا وقد سألوه عن حالة لحقته فى الصلاة حتى خرَّ مغشيا عليه، فلما سُرى عنه قيل له فى ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبى حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته، فدرجات القراءة ثلاث:

أدناها: أن يقرأ العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفًا بين يديه، وهو ناظر له ومستمع منه، فيكون حاله السؤال والتملق والتضرع والابتهال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله تعالى يخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

والثالثة: أن يرى فى كلام المتكلم، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته، بل يكون فانيًا عن نفسه، غائبًا فى شهود ربه، لم يبق له عن نفسه إخبار، ولا مع غير الله قرار.

فالأولى لأهل الفناء فى الأفعال، والثانية لأهل الفناء فى الصفات، والثالثة لأهل الفناء فى شهود الذات».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ (البقرة: ٣) قال ابن عجيبة:

«يا من غرق فى بحر الذات وتيار الصفات، ذلك الكتاب الذى تسمعه من أنوار ملكوتنا وأسرار جبروتنا، لا ريب فيه أنه من عندنا، فلا تسمعه من غيرنا ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨) فهو هادٍ لشهود ذاتنا، ومرشد للوصول إلى حضرتنا لمن اتقى شهود غيرنا، وغرق فى بحر وحدتنا».

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ (البقرة: ٢٨) قال ابن عجيبة: «وقد كنتم أمواتا بالغفلة وغم الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثم يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثم يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثم إليه ترجعون فى كل شىء، لشهود نوره فى كل شىء، وقبل كل شىء، وبعد كل شىء، وعند كل شىء، كان الله ولا شىء معه وهو الآن على ما عليه كان».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا...﴾ (البقرة: ٢٩) يقول: «وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: يا عبدى إنما منحتك صفاتى لتعرفنى بها، فإن ادعيتها لنفسك سلبتك الولاية ولم أسلبك صفاتى، يا عبدى أنت صفتى، وأنا صفتك فارجع إلىَّ أرجع إليك، يا عبدى فيك للعلوم باب مفتاحه أنا، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت، فاقصد أى البابين شئت...».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ...﴾ (البقرة: ٣٠) قال: «اعلم أن الروح القائمة بهذا الآدمى، هى قطعة من الروح الأعظم، التى هى المعانى القائمة بالأوانى، وهى آدم الأكبر، والأب الأقدم، وفى ذلك يقول ابن الفارض:

وإنى وإن كنتُ ابن آدم صورة فلى فيه معنىً شاهدٌ بأبوتى»

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ (البقرة: ١١٥) قال ابن عجيبة: «اعلم أن الأماكن والجهات وكل ما ظهر من الكائنات قائمة بأنوار الصفات ممحوة بأحدية الذات، كان الله ولا شىء معه، وهو الآن على ما عليه كان، إذ لا وجود لشىء مع الله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥) محق الآثار بأفلاك الأنوار، وانمحت الأنوار بأحدية الأسرار، وانفرد بالوجود الواحد القهار، ولله در القائل:

مُذْ عرفتُ الإله لم أر غيرا وكذا الغير عندنا ممنوعُ
مُذ تجمعت ما خشيتُ افتراقًا فأنا اليوم واصلٌ مجموعُ»

وأخيراً. . فهذا هو تفسير «**البحر المديد**» وهذه بعض النماذج من إشارياته ذكرتها لك، منها ما هو مقبول لجريانه على مقتضى الظاهر من الآيات، ومنها ما فيه شطحات لا نستطيع أن نسلمها له على ظاهرها، وإنما أقول: «على ظاهرها» لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنًى لا غبار عليه ـ أراده هو، وجهلته أنا.



الباب الثامن

كتب تفسير آيات الأحكام

١- أحكام القرآن الكريم للطحاوى.

٢- فقه القرآن للقطب الراوندى.



١- أحكام القرآن الكريم

للطحـــاوى

التعريف بصاحب الكتاب[١]:

هو أحمد بن محـمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الحَجْـرى الأزدى الفقيه، أبو جعفر الطحاوى ـ نسبة إلى «طحا» مدينة بصعيد مصر ـ المصرى، الحنفى.

ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين، وقيل غير ذلك، وكان شافعيًا أول أمره، يقرأ على خاله أبى إبراهيم المزنى.

وارتحل إلى الشام عام ثمان وستين ومائتين فلقى القاضى أبا حازم عبد الحميد بن عبد العزيز، وتفقه أيضًا عليه.

ثم خالف خاله ولزم القاضى أحمد بن أبى عمران ودرس عليه فقه أبى حنيفة.

وبرز بعد ذلك فى مذهب أبى حنيفة حتى انتهت إليه رئاسته بمصر.

وذُكر أنه كان مجتهدًا، وربما خالف أبا حنيفة عند قيام الدليل.

وللطحاوى من المـصنفات: اختـلاف العلماء، الشروط، أحكام القـرآن، وهو ما نحن بصدده، معانى الآثار، شرح الجامع الصغير، شرح الجامع الكبير، وتاريخ كبير، وغيرها.

توفى الطحاوى فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة بمصر، ودفن بالقرافة الصغرى ـ قرافة الإمام الشافعى ـ بمصر.

التعريف بالكتاب:

وكتاب أحكام القرآن للطحاوى يقع فى أربعـة أجزاء، عُثر فقط على النصف الأول منه، وطبع فى مجلدين فى إسطنـبول لأول مرة عام ١٤١٦هـ، بتـحقيق الدكتـور سعد الدين أونال، وهو أقـدم ما وصل إلينا من كـتب أحكام القـرآن عند الأحناف، بل عند أهل السنة جميعًا.

---

(١) مصـادر الترجـمة: مختصر تاريخ دمـشق (٣/ ٢٦٤ برقم ٣١٢)، سير أعلام النبلاء (٧/ ١٥ برقم ١٢٠٥، الجواهر المضية (١/ ١٠٢)، حسن المحاضرة (١/ ٢٧٧).

مقصد الطحاوى من تأليف هذا الكتاب وبيان منهجه:

وقد أوضح الإمام الطحاوى مقصده من تأليف كتابه ومنهجه الذى سار عليه حيث قال فى مقدمته: «وقد ألفنا كتابنا هذا نلتمس فيه كشف ما قدرنا على كشفه من أحكام كتاب الله ـ عز وجل ـ واستعمال ما حكينا فى رسالتنا هذه فى ذلك، وإيضاح ما قدرنا على إيضاحه منه، وما يجب العمل به فيه بما أمكننا من بيان متشابهه بمحكمه، وما أوضحته السنة منه، وما بينته اللغة العربية منه، وما دل عليه مما روى عن السلف الصالح من الخلفاء الراشدين المهديين، ومن سواهم من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وتابعيهم بإحسان ﷺ» (١/ ٦٥).

ترتيب الطحاوى لكتابه:

وقد رتب الإمام الطحاوى كتابه هذا على حسب أبواب الفقه المتعارفة، وجمع فى كل باب ما يتعلق به من الآيات دون النظر إلى ترتيب الآيات والسور، وهو فى مسلكه ذلك ـ من حيث تسمية كتابه وترتيبه ـ مساير لمنهج الإمامية الاثنى عشرية فى مؤلفاتهم الخاصة بأحكام القرآن.

موقفه من الظاهر والباطن:

والطحاوى فى أحكامه يقدم المعنى الظاهر للآية على المعنى الباطن حيث قال فى مقدمته: «وكان من القرآن ما قد يخرج على المعنى الذى يكون ظاهرًا لمعنى، ويكون باطنه معنًى آخر، وكان الواجب علينا فى ذلك استعمال ظاهره، وإن كان باطنه قد يحتمل خلاف ذلك، لأنَّا إنما خوطبنا ليبين لنا، ولم نخاطب به لغير ذلك، وإن كان بعض الناس قد خالفنا فى هذا، وذهب إلى أن الظاهر ليس بأولى به من الباطن، فإن القول عندنا فى ذلك ما ذهبنا إليه، للدلائل التى قد رأيناها تدل عليه وتوجب العمل به، من ذلك: أنَّا رأينا رسول الله ـ ﷺ ـ لما أُنزل الله عليه: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ**﴾ (البقرة: ١٨٧) قرأها على الناس، فعمد غير واحد، منهم: عدى بن حاتم الطائى، إلى خيطين، أحدهما: أسود والآخر أبيض، فاعتبر بهما ما فى الآية، ثم ذكروا ذلك للنبى ـ ﷺ ـ فلم يعنفهم على ما كان منهم، ولم يقل لهم: قد كان الأبيض والأسود اللذان عُنيا فى هذه الآية غير ما ذهبتم إليه، بل

قال: «إنك لعريض الوساد، إنما ذلك على سـواد الليل وبياض النهار» ولم يعب عليهم ـ ﷺ ـ استعمال الظاهر فى ذلك.

وفى استعمالهم ما استعملوا من ذلك قبل توقيف رسول الله ـ ﷺ ـ إياهم على المراد بذلك، دليل أن لهم استعمال القرآن على ظاهره، وإن لم يوقفوا على تأويله نصّاً كما وقفـوا على تنزيله نصّاً، وفى ثبوت ذلك استعـمال الظاهر، وإنه أولى بتأويل الآى من الباطن» (١/ ٦٤).

موقفه من المعنى العام والمعنى الخاص:

كما يقدم الطـحاوى فى أحكامه المعنى العام على المعنى الخـاص ويعبر عن ذلك فى المقدمـة بقوله: «وفى وجوب حمل هذه الآيات على ظاهرها وجـوب حملها على عمومـها، وإن كان بعض الناس قد ذهب إلى أن العام ليـس بأولى بها من الخاص إلا بدليل آخر يدل عليه، إما من كتاب، وإمـا من سنة، وإما من إجماع، فإنا لا نقول فى ذلك كما قال، ولكنا نذهب إلى أن العام فى ذلك أولى بها من الخاص؛ لأنه لما كانت الآيات فيها ما يُراد به العام، وفيها ما يُراد به الخاص، وكانوا قد استعملوا قبل التوقيف على ما ظهر لهم من المراد بها من عموم أو خصوص، وكان الخصوص لا يوقف عليه بظاهر التنزيل، وإنما يوقف عليه بتوقيف ثان من الرسول ـ ﷺ ـ أو من آية أخرى من التنزيل تدل عليه.

ثبت بما ذكرنا أن الذى عليهم فى ذلك استعمالها على عمومها، وأنه أولى بها من استعمالها على خصوصها حتى يعلم أن الله ـ عز وجل ـ أراد بها سوى ذلك» (١/ ٦٥).

موقفة من النسخ:

كـمـا عنى الإمـام الطحـاوى فى كـتـابه بتـبيـين الـناسخ والمنسـوخ من الآيات والأحاديث، وذكر نسـخ السنة بالقرآن، ثم ضرب أمثلة كـثيرة لذلك، وقال مـعبراً عن ذلك فى مقدمة كتابه: «. . . ثم وجدنا أشياء قد كانت مستعملة فى الإسلام فرضًا غير مذكورة فى القرآن، منها: التوارث بالهـجرة. . . ومنها: الصلاة إلى بيت المقدس. . . ومنها: بيع الأحـرار. . .»، ثم أثبت الطحاوى نسخ القرآن بالسنة بحـديث: «لا وصية لوارث» حـيث إن الله ـ عـز وجـل ـ كان قـد فـرض الـوصـيـة للـوالدين والأقـربين

بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (البقرة: ١٨٠)، وقال: «فثبت بما ذكرنا أن السنة قد تنسخ القرآن كما ينسخ القرآن السنة، **فإن قال قائل:** فقد قال الله - عز وجل - لنبيه - ﷺ -: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ (يونس: ١٥) فدل ذلك على أن التبديل إنما يكون عن الله - عز وجل - ولا يكون ذلك إلا بالقرآن، **قيل له:** ومن قال له أن الحكم الذى نسخ ما نسخ من القرآن ليس من قبل الله - عز وجل؟ أو أن السنة ليست عن الله - عز وجل؟ - بل هما عنه ينسخ بهما ما شاء من القرآن، كما ينسخ منهما ما شاء بالقرآن» (١/ ٦٣، وما بعدها).

هذا.. ولا يغفل الإمام الطحاوى فى كتابه ذكر القراءات - إن كانت ثمة قراءات - والخلاف فيها مع عزو القراءات إلى أصحابها بأسانيدها كما عنى بذكر سبب نزول الآيات، إن وجد.

ثم يمضى الإمام الطحاوى فى شرح الآيات المتشابهات بالآيات المحكمات ثم يوضحها ويبينها بالسنة، وبما روى عن السلف الصالح من الخلفاء الراشدين ومن سواهم من الصحابة وتابعيهم، ثم بما بينته اللغة العربية.

وهو فى ذلك يذكر أقوال الأئمة - دون أية إشارة إلى مذهب الإمام أحمد - فى الآية المراد تفسيرها، ثم يورد دليل كل إمام من الأحاديث والآثار بجميع طرقها المتعددة ورواياتها المختلفة، ولم يرد بذلك إلا التوثق من صحة الحديث وتحرير ألفاظه وما به من زيادة أو نقص، وإظهار ما صح عنده من أقوال الأئمة وما ذهب إليه فى ذلك؛ لأن الحديث قد يرد فى رواية مختصرة، ويذكر فى أخرى بتمامه، وقد يكون قد ورد على سبب معين يُعين على فهم ما يُراد فهمه، ويُذكر فى رواية عُريًا من السبب الذى قيل لأجله، أو يكون الحديث مطلقًا أو عامًا فى رواية، ويرد فى رواية أخرى مقيدًا خاصًا فيخص به العام الذى جاء فى تلك الرواية، أو يكون فى سند أحد الطرق مجهول أو مدلس أو مَنْ رُمِيَ بالاختلاط فيجىء من طرق أخرى ترتفع بها الجهالة وشبهة التدليس والاختلاط.

قال العلامة الكوثرى - رحمه الله - فى الحاوى (ص ٢١): «من قصر فى جمع الروايات واكتفى بخبر يعده صحيحًا، لا يكون وفَّى العلم حقه، لأن الروايات تختلف

زيادةً ونقصًا، ومحافظةً على الأصل، وروايةً بالمعنى، واختصارًا، فلا تحصل طمأنينة فى قلب الباحث إلا باستعراض جميعها مع آراء فقهاء الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، فيتمكن بذلك من رد المردود وتأييد المقبول».

ثم تحدث الكوثرى - رحمه الله - عن منهج الإمام الطحاوى (الحاوى ص ٢١) فقال: «وله منهج حكيم فى ترجيح الروايات بعضها على بعض من غير الاكتفاء بنقد رجال السند فقط، وهو دراسة الأحكام المنصوصة، وتبيين الأسس الجامعة لشتى الفروع من ذلك، فإذا شذ الحكم المفهوم من رواية راوٍ عن نظائره فى الشرع يعد ذلك علة قادحة فى قبول الخبر؛ لأن الأصل الجامع لشتى الفروع والنظائر فى حكم المتواتر، وانفراد راو بحكم مخالف لذلك لا يرفعه إلى درجة الاعتداد به مع هذه المخالفة الصارخة».

هذا. . . وقد أثبت الطحاوى فى كتابه هذا قدرة علمية فائقة فى الفقه والحديث حيث استخرج الأحكام الفقهية واستنبطها من مصادرها الأصلية وأورد خلالها أقوال الأئمة الفقهاء من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين، وعزا كل قول فيه إلى صاحبه بسنده المتصل، ثم رجَّح قول واحد منهم أو استقل به بعد مناقشة أدلة كل منهم، ويلجأ إلى الاعتماد على القياس والنظر فى الترجيح عند تكافؤ الأحاديث التى يستدل بها الأئمة بحيث يتعذر ترجيح أحد الأقوال، وإلا فإنه يعتمد أصلا على أصول علمى الحديث والفقه فنجده يقول: «إن المتصل الإسناد أولى أن يقبل ممن خالفه، والرواية التى تتضمن زيادة صحيحة الإسناد العمل بها أولى، وكل زيادة أو نقص ترد من رواية الحافظ تؤخذ بما فيها فى موضع التعارض، لأنها أولى من رواية غيره ممن هو دونه فى الحفظ».

وأخيرًا. . فإن كتاب أحكام القرآن للإمام الطحاوى يُعد فى مصاف كتب الفقه المقارن أو اختلاف الفقهاء، مع عفة اللسان والقلم، والحيدة التامة فى عرض الآراء وأدلتها.

٢- فقـــه القـــرآن

لقطب الدين الراوندى

التعريف بصاحب هذا التفسير[1]:

هو: الشيخ الإمام الفقيه المفسر المحدث الأديب الكبير قطب الدين أبو الحسين سعيد بن عبد الله بن الحسين بن هبة الله بن الحسن الراوندى، ويعرف اختصاراً بسعيد ابن هبة الله الراوندى، والراوندى نسبة إلى «راوندى» قرية بين كاشان وأصبهان.

وكان من أجلة فقهاء الإمامية، محدثًا، مفسرًا، متكلمًا، مشاركًا فى فنون أخرى من العلم.

روى عن طائفة من العلماء، منهم: السيد أبو السعادات هبة الله بن على الشجرى، والمفسر الفضل بن الحسن الطبرسى، وعماد الدين محمد بن أبى القاسم على الطبرى، والحسن بن محمد الحديقى، وأبو افضل عبد الرحيم بن أحمد الشيبانى المعروف بابن الإخوة البغدادى، والسيدان المرتضى والمجتبى ابنا الداعى ابن القاسم الحسنى الرازى، والسيد أبو البركات محمد بن إسماعيل الحسينى المشهدى، وأبو جعفر محمد بن على ابن المحسن الحلبى، وأبو جعفر محمد بن المرزبان.

روى عنه: القاضى أحمد بن على بن عبد الجبار الطوسى، وابن شهر آشوب محمد بن على السروى المازندرانى، وأبو جعفر محمد بن عبد الحميد بن محمود الدعويدار، ومنتجب الدين على بن عبيد الله بن بابويه الرازى، وناصر الدين راشد بن إبراهيم البحرانى، وبابويه بن سعد بن محمد بن بابويه، والخليل بن خمرتكين الحلبى، وأولاده الثلاثة: عماد الدين على، ونصير الدين حسين، وظهير الدين محمد، وآخرون.

---

(١) **مصادر الترجمة**: لسان الميزان (٣/ ٤٨ برقم ١٨٠)، أمل الآمل (٢/ ١٢٥ برقم ٣٥٦)، لؤلؤة البحرين (٣٠٤ برقم ١٠٣)، روضات الجنات (٤/ ٥ برقم ٣١٤)، أعيان الشيعة (٧/ ٢٦٠)، الأعلام (٣/ ١٠٤)، معجم المؤلفين (٤/ ٢٣٣).

من آثاره العلمية:

١ - إحكام الأحكام.

٢ - الاختلافات بين المفيد والمرتضى فى بعض المسائل الكلامية.

٣ - أسباب النزول.

٤ - الإغراب فى الإعراب.

٥ - ألقاب الرسول وفاطمة والأئمة (عليهم السلام).

٦ - تفسير القرآن الكريم، مختصر فى مجلدين.

٧ - تهافت الفلاسفة.

٨ - جواهر الكلام فى شرح مقدمة الكلام.

٩ - حل المعقود فى الجمل والعقود.

١٠- خلاصة التفاسير، فى عشرة مجلدات.

١١- الرائع فى الشرائع، مجلدان.

١٢- زهر المباحث وثمر المناقشة.

١٣- الشافية فى الغسلة الثانية.

١٤- شجار العصابة فى غسل الجنابة.

١٥- شرح آيات الأحكام، وهو غير كتابه فقه القرآن.

١٦- شرح الأبيات المشكلة فى العربية.

١٧- شرح العوامل المائة.

١٨- شرح الكلمات المائة من جمع الجاحظ.

١٩- شرح ما يجوز وما لا يجوز من النهاية.

٢٠- شرح مشكلات النهاية.

٢١- صحة أحاديث أصحابنا.

٢٢- صلاة الآيات.

٢٣- الصلاة الحاضرة لمن عليه الفائتة.

٢٤- ضياء الشهاب فى شرح الشهاب.

٢٥- فقه القرآن، وهو ما نحن بصدده، وغير ذلك من الكتب.

وفاتـــــه:

توفى القطب الراوندى ضحوة يوم الأربعاء رابع عشر شهر شوال سنة ٥٧٣هـ ودفن بـ «قم».

الباعث على تأليف الكتاب، وطريقة مؤلفه فيه:

قال الراوندى فى مقدمة كتابه:

«أما بعـد: فإن الذى حملنى على الشـروع فى جمع هذا الكتـاب أنى لم أجد من علماء الإسلام قديمًا وحديثًا من ألف كتابًا مفردًا يشتمل على الفقه الذى ينطق به كتاب الله، ولم يتعرض أحد منـهم لاستيعاب ما نص عليه لفظه أو مـعناه وظاهره أو فحواه، فى مجموع كان على الانفراد صائب هدف المـراد، وإن صنفوا فى الفقه وتفسير القرآن ما لا يحاط به إلا على امتداد الزمان. والعذر لنا خاصة واضح؛ لأن حجة هذه الطائفة فى صواب جميع مـا انفردت به من الأحاديث الشرعية والتكاليف السمـعية أو شاركت فيه غيـرها من الفقهاء هى إجماعهم؛ لأن إجـماعهم حجة قاطعـة ودلالة موجبة للعلم بكون المـعصوم الذى لا يجـوز عليه الخطأ فـيه، فـإن انضاف إلى ذلك كـتاب الله أو طريقة أخـرى توجب العلم وتثمر اليقـين فهى فضيلة ودلالة تنـضاف إلى أخرى، وإلا ففى إجمـاعهم كفاية. فرأيت أن أؤلف كـتابًا فى «فقه القرآن»، يغنى عن غـيره بحسن مبانيه، ولا يقصر فهم القارئ عن معانيه، متجنبًا فيه الإطالة والتكثير، ومتحريًا الإيجاز والتيسير ليكون الناظر فـيه أنيسا يصادقه، وللفقيه ردءًا يصدقـه. فجمعت منه بعون الله تعالى جـملة مشروحـة أخرجهـا الاستقـراء، وإن نسأ الله فى الأجل ذكر بعـد ذلك ما يقتضيه الاستقصاء، ودعوى الإجماع هذه دعوى كثيرًا ما تكون كاذبة، يلجأ إليها عندما يعوزهم الدليل وتخونهم الحجة.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه:

وهذا الكتاب من أقـدم ما وصل إلينا من كـتب أحكام القرآن عند الإمامـية الاثنى عشرية، ويتـعرض هذا التفسـير لآيات الأحكام فقط، وهو لا يتمـشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكرًا ما فى كل سورة من آيات الأحكام، كما فعل الجصاص وابن العربى مثلا، بل طريقته فى تفسـيره: أنه يعقد فيه أبوابًا كأبواب الفقه،

ويدرج فى كل باب منها الآيات التى تدخل تحت موضوع واحد ـ وذلك صنيع الإمامية جميعًا فى كتب فقه القرآن ـ فمثلاً يقول: باب الطهارة، ثم يذكر ما ورد فى الطهارة من الآيات القرآنية، شارحًا كل آية منها على حدة، مبينًا ما فيها من الأحكام على حسب ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية فى فروعهم، مع تعرضه للمذاهب الأخرى، ورده على من يخالف ما يـذهب إليه الإمامية الاثنا عـشرية، ويسير على هذا المنــوال حتى يختم كتابه بكتاب الديات.

والكتاب مطبوع فى مجلدين بمطبعة الولاية بـ «قم» عام ١٤٠٥هـ، وبتحقيق السيد أحمد الحسينى.

وإليك بعض ما جاء فى هذا الكتاب لتقف على مقدار تعصب صاحبه:

فرض الرجلين فى الوضوء:

يقول القطب الراوندى ـ كغـيره من علماء مذهبه ـ بأن الـمسح هو فرض الرجلين فى الوضوء، فلهذا تراه يجادل بكل قوة، ويدافع عن مذهبه وينصره بأدلة إن دلت على شىء فهو قـوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكـثرة اطلاعه، فعند تفسيـر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.. ﴾ الآية (المائدة: ٦) يقول ما نصه (١/ ١٩ وما بعدها):

«وقوله: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ من قرأها بالجر عطفها على اللفظ، وذهب إلى أنه يجب مسح الرجلين كما وجب مسح الرأس، ومن نصب فكمثل؛ لأنه ذهب إلى أنه معطوف على موضع الرءوس، فإن مـوضعهما نصب لوقوع المـسح عليهما، فالقراءتان جـميعًا تفيدان المسح على ما نذهب إليه. وممن قال بالمسح: ابن عباس، والحسن البصرى، والجبائى، والطبرى وغيـرهم. وعندنا أن المسح على ظاهرهما من رءوس الأصابع إلى الكعبين. قال ابن عـباس وأنس: الوضوء غسلتان ومسحـتان. وقال عكرمة: ليس على الرجلين غسل إنما فيهما المسح، وبه قال الشعبى، وقال: ألا ترى أن فى التيمم يمسح ما كان غسلا ويلغى مـا كان مسحًا. وقال قتادة: افتـرض الله مسحين وغسلين. وروى أوس بن أوس قال: رأيت النبى ﷺ توضأ ومسح على نعليه ثم قام وصلى. وكذلك روى حذيفة. وروى حبة العرنى: رأيت عليًا ـ عليه السلام ـ شرب فى الرحبة قائمًا ثم

توضأ ومسح على نعليه. ووصف ابن عباس وضوء رسول الله ﷺ وأنه مسح على رجليه وقال: إن كتاب الله المسح ويأبى الناس إلا الغسل».

. . . ثم قال: «وقال على ـ عليه السلام: ما نزل القرآن إلا بالمسح. وأما الكعبان فهما عندنا الناتئان فى وسط القدم، وبه قال محمد بن الحسن الشيبانى، وإن أوجب الغسل. وقال أكثر الفقهاء: هما عظما الساقين. يدل على ما قلناه أنه لو أراد ما قالوا لقال سبحانه: «إلى الكعاب» لأن فى الرجلين منها أربعة. فإن ادعوا تقديرًا بعد قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ أى كل واحدة إلى الكعبين، كما فى قولهم: «اكسنا حلة» أى اكس كل واحد منا حلة. فذلك مجاز، وحمل الكلام على الحقيقة إذا أمكن أولى، وهو قولنا.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، وعلى مذهبكم ليس فى كل رجل إلا كعب واحد؟.

قلنا: إنه تعالى أراد رجلى كل متطهر، وفى الرجلين كعبان، ولو بنى الكلام على ظاهره لقال: «وأرجلكم إلى الكعاب»، والعدول بلفظ «أرجلكم» إلى أن المراد بها رجلا كل متطهر أولى من حملها على كل رجل.

فصل: إن قيل: القراءة بالجر فى ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ ليست بالعطف على الرءوس فى المعنى، وإنما عطف عليها على طريق المجاورة، كما قالوا: «جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبْ» وخرب من صفات الجحر لا الضب؟.

قلنا: أولا: أن العرب لم تتكلم به إلا ساكنًا فقالوا: «خرب» فإنهم لا يقفون إلا على الساكن، فلا يستشهد به. وبعد التسليم فإنه لا يجوز فى الآية من وجوه:

أحدها: ما قال الزجاج أن الإعراب بالمجاورة لا يكون مع حرف العطف، وفى الآية حرف العطف الذى يوجب أن يكون حكم المعطوف حكم المعطوف عليه، وما ذكروه ليس فيه حرف العطف، فأما قول الشاعر:

فهل أنت إن ماتت أتانك راحل إلى آل بسطام بن قيس فخاطب

قالوا: جر مع حرف العطف الذى هو الفاء، فإنه يمكن أن يكون أراد الرفع وإنما جر الراوى وهمًا، ويكون عطفًا على راحل، فيكون قد أقوى لأن القصيدة مجرورة.

وقال قوم: أراد بذلك الأمر وإنما جر لإطلاق الشعر.

والثـانى: أن الإعراب بالمجـاورة إنما يجوز مع ارتفاع اللبس، فأمـا مع حصول اللبس فلا يجوز، ولا يلتبس على أحد أن «خـرب» صفة جحر لا ضب، وليس كذلك فى الآية، لأن الأرجل يمكن أن تكون مـمسـوحة ومـغسـولة، فالاشتـباه حـاصل هنا ومرتفع هناك، وأمـا قوله: «وحـورٍ عينٍ» فى قراءة من جـرهما، فليس بمـجرور على المجاورة، بل يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون عطفًا على قوله: ﴿**يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ**﴾ (الواقعة: ١٧، ١٨) إلى قوله: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ**﴾، فهو عطف على أكواب، وقولهم: أنه لا يطاف إلا بالكأس، غيـر مُسَلَّم، بل لا يمتنع أن يطاف بالحور العين كما يطاف بالكأس، وقد ذكر فى جملة ما يطاف به الفاكهة واللحم.

والثانى: أنه لما قال: ﴿**أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾ (الواقعة: ١١، ١٢) عطف بقوله: ﴿**وَحُورٌ عِينٌ**﴾ على ﴿**جَنَّاتِ النَّعِيمِ**﴾، فكأنه قال: هم فى جنات النعيم وفى مقاربة أو مـعاشرة حور عـين، ذكره أبو على الفارسى. ومن قال: القـراءة بالجر تقتـضى المسح علـى الخفين، فـقوله باطل؛ لأن الـخف لا يسمى رجلا فـى لغة ولا شرع، والله أمر بإيقاع الفرض على ما يسمى رجلا على الحقيقة.

فـصل: وإن قـيل: فى القـراءة بالنصـب فى ﴿**وَأَرْجُلَكُمْ**﴾: هى معـطوفة على قوله: ﴿**وَأَيْدِيَكُمْ**﴾ فى الجملة الأولى. فيقال: إن هذا غير صحيح؛ لأنه لا يجوز أن يقـول القـائل: (اضـرب زيدًا وعـمـرًا وأكـرم بكرًا وخـالـدًا)، ويريد بنـصـب خـالدا العـطف على «زيدا وعمرًا» المضروبيْن لأن ذلك خروج عن فصاحة الكلام ودخول فى معنى اللغـز، فإن أكرم المأمور خـالدًا فيكون ممتـثلاً لأمره معذورًا عـند العقلاء، وإن ضربه كـان ملومًا عنده. وهذا ممـا لا محيص عـنـه. على أن الكلام متـى حصل فـيه عامـلان ـ قريب وبعيـد ـ لا يجوز إعمال البـعيد دون القـريب مع صحة حـمله عليه. وبمثله ورد القرآن وفصيـح الشعر: قال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا**﴾ (الجن: ٧) ولو أعمل الأول لقال: «كـمـا ظننتموه». وقال: ﴿**آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**﴾ (الكـهف: ٩٦) ولو أعمل الأول لقال: «أفـرغه» وقال: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ**﴾

(الحاقة: ١٩) ولو أعمل الأول لقال: «هاؤم اقرأوه» وإليه ذهب البصريون. فأما من يختار إعمال الأول من الكوفيين فإنه لا يجيز ذلك فى مثل الموضع الذى نحن فيه، وليس قول امرئ القيس:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال

من قبيل ما نحن بصدده، إذا لم يوجه فيه الفعل الثانى إلى ما وجه إليه الأول، وإنما أعمل الأول لأنه لم يجعل القليل مطلوبًا، وإنما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافيًا، ولو لم يرد هذا ونصب لفسد المعنى.

وعلى هذا يعمل الأقرب أبدًا، أنشد سيبويه قول طفيل:

* جرى فوقها فاستشعرت لون مذهب *

وقال كثير:

قضى كل ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَهُ وعزةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

ولو أعمل الأول لقال: «فوفاه غريمه»، والاستدلال بقوله: «ممطول معنى غريمها» أولى، لأن قوله «عزة» مبتدأ، و «ممطول» خبره، و «معنى» كذلك، وكل واحد منها فعل للغريم، فلا يجوز رفعه بممطول، فيبقى (معنى) قد جرى خَبرًا على عزة، وهو فعل لغيرها، فيجب إبراز ضميره.

فأما من قال: إن قوله فى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ منصوبة بتقدير (واغسلوا أرجلكم) كما قال:

* متقلدًا سيفًا ورمحا *

وقال:

* وعلفتها تبنًا وماءً باردا *

فقد أخطأ أيضًا، لأن ذلك إنما يجوز إذا استحال حمله على ما فى اللفظ، فأما إذا جاز حمله على ما فى اللفظ فلا يجوز هذا التقدير.

فصل: وقد ذكرنا من قبل أن قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالنصب معطوف على موضع (برءُوسكم) لأن موضعها النصب، والعطف على الموضع جائز حسن كما يجوز على اللفظ، لا فرق بينهما عند العرب فى الحسن؛ لأنهم يقولون: «لست بقائم ولا قاعدًا»

أو «لا قاعـد» و «أن زيدًا فى الدار وعمرو» فرفع عـمرو بالعطف على الموضع، كـما نصب قاعد لأنه معطوف على محل بقائم. قال الشاعر:

مُـعـاوىَ إننـا بشـرٌ فـأسـجح   فلسـنا بالجبـال ولا الحـديد

مقدرًا لكل شبهة وصح أن الحكم فى الآية المسح فى الرجلين، وقد تقل الشبهة فى القراءة بالجر على ما قدمناه.

ومن قال: يجب غسل الرجلين لأنهما محدودتان كاليدين فقوله ليس بصحيح، لأنَّا لا نسلم أن العلة فى كون اليدين مغسولتين كونهما محدودتين، وإنما وجب غسلهما لأنهما عُطفتا على عضو مغسول وهو الوجه، وكذلك إذا عطف الرجلان على ممسوح - وهو الرأس - وجب أن يكونا ممسوحتين، والفصاحة فيما قال الله فى الجملتين ذكر معطوفًا ومعطوفًا عليه أحدهما محدود والآخر غير محدود فيهما. وروى أن الحسن قرأ: «وأرجلُكم» بالرفع. فإن صحت هذه القراءة فالوجه أنه الابتداء وخبره مضمر، أى: وأرجلكم ممسوحة، كما يقال: «أكرمت زيدًا وأخوه» أى وأخوه أكرمته، فأضمره على شريطة التفسير واستغنى بذكره مرة أخرى، إذ أن فى الكلام الذى يليه ما يدل عليه وكان فيما أبقى دليل على ما ألقى، فكأن هذه القراءة - وإن كانت شاذة - إشارة إلى أن مسح الرأس ببقية النداوة من مسح الرأس كما هو. ويدل أيضًا على وجوب الموالاة لأن الواو إذًا واو الحال فى قوله: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالرفع».

الخمس وأحكامه:

ولما كانت الإمامية الاثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيوجبون الخمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعًا سبعة هى: غنائم الحرب، وغنائم الغوص، والكنز الذى يعثر عليه، والمعدن الذى يستنبط من الأرض، وأرباح المكاسب، والحلال المختلط بالحرام، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى، وليس الخمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض، ولكنهم يعتبرونه حقًا امتيازيًا لآل محمد الذين حرمت عليهم الصدقات نظير ما تمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة، وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سلطانى

بإرادة ملكية، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن، لما كان هذا فإنا نجد الراوندى ينزل ما ورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه.

قال الراوندى فى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١): «وأما قسمة الخمس فهو عندنا على ستة أقسام على ما ذكره الله: سهم لله، وسهم لرسوله، وهذان مع سهم ذى القربى القائم مقام النبى ﷺ ينفقهما على نفسه وأهل بيته من بنى هاشم، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل كلهم من أهل بيت الرسول - ﷺ - لا يشركهم فيها باقى الناس؛ لأن الله عوضهم ذلك عما أباح لفقراء سائر المسلمين ومساكينهم وأبناء سبيلهم من الصدقات الواجبة، والمحرمة على أهل بيت النبى ﷺ، وهو قول زين العابدين والباقر - عليهما السلام - روى الطبرى بإسناده عنهما: والذين يستحقون الخمس عندنا من كان من ولد عبد المطلب، لأن هاشمًا لم يعقب إلا منه من الطالبيين والعباسيين والحارثيين واللهبيين، فأما ولد عبد مناف من المطلبيين فلا شىء لهم منه».

ثم قال: «وعن ابن عباس ومجاهد: ذوو القربى بنو هاشم. وقد بيَّنا أن المراد بذى القربى من كان أولى من أهل بيته فى حياته، وبعد النبى ﷺ هو القائم مقامه، وبه قال على بن الحسين - عليهما السلام - في رواياتهم. وقال الحسن وقتادة: سهم الله ورسوله: سهم ذى القربى لولى الأمر من بعده، وهو مثل مذهبنا.

فصل: قال المرتضى رضي الله عنه: إن تمسك الخصم بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ وقال: عمر الكلام يقتضى ألا يكون ذو القربى واحدًا، وعموم قوله: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ يقتضى تناوله لكل من كان بهذه الصفات ولا يختص ببنى هاشم، ومذهبكم يخالف ظاهر الكتاب لأنكم تخصون الإمام بسهم ذى القربى ولا تجعلونه لجميع قرابة الرسول من بنى هاشم، وتقولون: إن الثلاثة الأسهم الباقية هى ليتامى آل محمد ومساكينهم وأبناء سبيلهم ولا تتعدونهم إلى غيرهم ممن استحق هذا الاسم وهذه الأوصاف؟ وأجاب عنه فقال: ليس يمتنع تخصيص ما ظاهره العموم بالأدلة، على أن لا خلاف بين الأمة فى تخصيص

هذه الظواهر؛ لأنَّ ذا القربى عـام وقد خصوه بقربى النـبى - ﷺ - دون غيره. ولفظ اليتامى والمسكين وابن السبيل عام فى المشـرك والذمى والغنى والفقير، وقد خـصته الجماعة ببعض من له هذه الصفة. على أن من ذهب من أصحابنا إلى أن ذا القربى هو الإمام القائم مقام النبى ﷺ خاصة، وسمى بذلك لقربه منه نسبًا وتخصصًا، فالظاهر معه لأن قوله: «ذى القربى» لفظ واحد، ولو أراد الجمع لقال ذوى القربى، فمن حمل ذلك على الجمع فهو مخالف للظاهر. فـأما الاستدلال بأن ذا القربى فى الآية لا يجوز أن يحمل على جميع ذوى القرابات من بنى هاشم، فإن ما عطف على ذلك من اليتامى والمساكين وابن السبـيل إذا يلزم أن يكونوا غير الأقـارب؛ لأن الشىء لا يعطف على نفسـه. فضعيف، وذلك غـير لازم؛ لأن الشىء وإن لم يعطف على نفسه فـقد يعطف صفة على أخرى والموصوف واحد».

وقال: «قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم...﴾ إلى آخر الآية، ناسخ للآية التى فى الحشـر من قوله: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ (الحشـر: ٧) قالوا: لأن الله بين فى آية الغنيـمة أن الأربعة الأخماس للمقاتلة وخمسـها للرسول ولأقربائه، وفى آية الحشر كلها له. وعلى القول الأول لا يحـتاج إلى هذا لأنه الفىء. وعندنا الفىء للإمام خـاصة، يفرقه فـيمن يشاء يضعـه فى مؤنة نفسه وذى قرابتـه واليتامى والمساكيـن وابن السبيل من أهل بيت النبى ﷺ، ليس لسائر الناس فيه شىء. وكذلك قيل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠) أن الأمر فيه بإعطاء ذى القربى هو أمر بصلة قـرابة النبى - ﷺ - وهم الذين أرادهم الله بقـوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾».

نكاح الكتابيات:

لما كان مذهب الراوندى عدم جواز نكاح أهل الـكتاب من اليهود والنصارى، فإنا نجده متـأثرًا بهذا المذهب، ويفسـر كلام الله على مقتـضاه، فنجده عند تفسـيره لقوله تعـالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢١) يقول

ما نصه (٢/ ٧٦): «هذه الآية على عمومها عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار، وليست منسوخة ولا مخصوصة.

قال ابن عباس: فرَّق عُمر . . ابن طلحة وحذيفة اللتين كانتا تحتهما كتابيتين.

وقال الحسن: إنها عامة إلا أنها نسخت بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥) .

وقال ابن جبير: هى على الخصوص.

فصل: وقال بعض المفسرين: لا يقع اسم المشركات على نساء أهل الكتاب، فقد فصل الله تعالى بينهما فى قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ (البينة: ١) وفى قوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة: ١٠٥) إذ عطف أحدهما على الآخر.

وهذا التعليل من هذا الوجه غير صحيح، فالمشرك يطلق على الكل؛ لأن من جحد نبوة محمد ﷺ فقد أنكر معجزه فأضافه إلى غير الله، وهذا هو الشرك بعينه، وهذا ورد للتفخيم، كما عطف على الفاكهة النخيل والرمان مع كونهما منها تخصيصًا فى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(الرحمن: ٦٧) ».

نكاح المتعة:

والقطب الراوندى كغيره من الإمامية الاثنى عشرية، يقول بجواز نكاح المتعة، ولا يعترف بنسخه، فلهذا حاول أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى، فقال فى «باب المتعة وأحكامها» (٢/ ١٠٤ وما بعدها): «قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤) قال الحسن: هو النكاح، وقال ابن عباس والسدى: هو المتعة إلى أجل مسمى، وهو مذهبنا؛ لأن لفظ «الاستمتاع» إذا أطلق لا يستفاد به فى الشرع إلا العقد المؤجل، وإن كان فى أصل الوضع معناه الانتفاع.

ولا خلاف أن الشىء إذا كان له وضع وعرف شرعى يجب حمله على العرف دون الوضع؛ لأنه صار حقيقة والوضع مجازًا والحكم للطارئ، ألا ترى أنهم يقولون: «فلان يقول بالمتعة وفلان لا يقول بالمتعة» ولا يريدون إلا العقد المخصوص.

ولا ينافى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ (المؤمنون: ٥، ٦) لأنَّا نقول: إن هذه زوجة، ولا يلزم أن يلحـقها جمـيع أحكام الزوجـات من الميـراث والطلاق والإيلاء والظهار واللعـان؛ لأن أحكام الزوجات تختلف. ألا ترى أن المرتدة تبين بغـير طلاق، وكذا المرتد عندنا، والكتابية لا ترث.

وأما العـدة فإنهـا يلحقـها عندنا ويلحق به الولد أيضًـا فى هذا النكاح فـلا شنعة بذلك، ولو لم تكن زوجـة لما جاز أن يضم مـا ذكر فى هذه السـورة إلى ما فى تلك الآية، وإن ذلك جائـز لأنه لا تنافى بينهمـا، فيكون التـقدير: إلا على أزواجـهم أو ما ملكت أيمانهم، أو ما استمتعتم به منهن. وقد استقام الكلام.

وقد روى عن ابن مسـعود وابن عباس وأبى بن كـعب وسعيد بن جبـير أنهم قرأوا «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» وذلك صريح بما قلناه.

على أن لو كان المراد به عـقد النكاح الدائم لوجب لها جميع المهـر بنفس العقد لأنه قال تعالى: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعنى مهورهن عند أكثر المفسرين.

وذلك غيـر واجب بلا خلاف، وإنما يجب الأجـر بكماله فى عـقد المتـعة بنفس العقد.

ولا يعترض هذا بقوله تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (النسـاء: ٣) لأن آية الصدقة مطلقة وهذه مقيدة بما قبلها، مع أنه فصل سبحانه فقال: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

وفى أصحابنا من قال: قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ يدل على أنه تعالى أراد المتعة؛ لأن المهر لا يسمى أجـرًا بل سماه الله تعالى صدقة ونحلة، وهـذا ضعيف؛ لأن الله سمى المهر أجرًا فى قوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (النساء: ٢٥) وفى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (النساء: ٢٤) ومن حمل ذلك كله على المتعة كان مرتكبًا لما يعلم خلافه.

ومن حمل لفظ «الاستمتاع» على الانتـفاع فقد أبعد؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم من لا ينتفع بها شىء من المهر».

ثم قال: «وأما الخبر الذى يروونه أن النبى - ﷺ - نهى عن المتعة، فهو خبر واحد لا يترك له ظاهر القرآن، ومع ذلك يختلف لفظه وروايته: فتارة يروونه أنه نهى عنها فى عام خيبر، وتارة يروون أنه نهى عنها فى عام الفتح، وقد طعن أيضًا فى طريقه بما هو معروف.

وأدل دليل على ضعفه قول عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما ومعاقب عليهما» فأخبر أن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله ﷺ وأنه هو الذى نهى عنها لضرب من الرأى.

فإن قالوا: إنما نهى لأن النبى - ﷺ - كان نهى عنها.

قلنا: لو كان كذلك لكان يقول: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما أيضًا، فكان يكون آكد فى باب المنع، فلما لم يقل ذلك دل على أن التحريم لم يكن صدر عن النبى ﷺ، وصح ما قلناه.

وقال الحكم بن عيينة: قال على - عليه السلام: لولا أن عمر نهى المتعة ما زنى إلا شقى.

وذكر البلخى عن وكيع عن إسماعيل بن خالد عن قيس بن أبى حازم عن ابن مسعود قال: كنا مع النبى ﷺ ونحن شباب فقلنا: يا رسول الله ألا نستخصى؟ قال: «لا» ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ (النساء: ٢٤) قال السدى وقوم من أصحابنا: معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة التى تراضيتم عليها، فتزيدها فى الأجر وتزيدك فى المدة.

فصل: فإذا ثبت أن نكاح المتعة جائز وهو النكاح المؤجل، وقد سبق إلى القول بإباحة ذلك جماعة معروفة الأحوال عند المخالفين وقد أثبتوا فى كتبهم منهم أمير المؤمنين - عليه السلام - وابن مسعود، ومجاهد، وعطاء، وقد رووا عن جابر وسلمة ابن الأكوع وأبى سعيد الخدرى والمغيرة بن شعبة وابن جبير وابن جريح أنهم كانوا يفتون بها، وادعاؤهم الاتفاق على حظر المتعة باطل.

وقد ذكرنا أن الحجة لنا بعد الإجماع من القرآن قوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً**﴾ (النساء: ٢٤) ولفظ الاستمتاع والتمتع - وإن كان واقعًا على

الالتذاذ والانتفاع فى أصل اللغة ـ فقد صار بعرف الشرع مخصوصًا بهذا العقد المعين، لا سيما إذا أضــيف إلى النساء، ولا يفهم من قول القائل: «متعــة النساء» إلا هذا العقد المخصوص، كما أن لفظ الظهار اخــتص فى عرف الشرع بهذا الحكم المخصوص وإن كانت فى اللغة مشتــركة، فكأنه قال: إذا عقدتم عليهن هذا العقــد المخصوص فآتوهن أجورهن.

ولفظ: «استمــتعتم» لا تعدو وجــهين: إما أن يراد بها الانتــفاع والالتذاذ الذى هو أصل اللغة، أو العقد المؤجل المخصوص الذى اقتضاه عرف الشرع.

فلا يجوز أن يكون هو الوجه الأول لأمرين:

أحدهــما: أنه لا خلاف بين محصلى من تكلم فى أصول الفقه نفى أن لفظ القرآن إذا ورد، وهو محتمل لأمرين: **أحدهما:** أصل اللغة، **والآخر:** عرف الشرع، أنه يجب حمله على عرف الشرع، ولهذا حملوا كلهم لفظ صلاة وزكاة وصيام وحج على العرف الشرعى دون اللغوى.

والأمر الآخــر: أنه لا خلاف فى أن المهــر لا يجب بالالتذاذ، لأن رجلاً لو وطئ امرأته ولم يلتذ لوطئها لأن نفسه عافتــها وكرهتها، أو لغير ذلك من الأسباب لكان دفع جميع المهر واجبًا وإن كان الالتذاذ مــرتفعًا، فعلمنا أن الاستمتاع فى الآية إنما أريد به العقد المخصوص دون غيره.

ومـمــا يبين ذلك ويقويه قــوله تعالى: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**﴾ (النســاء: ٢٤) ومعناه على ما روى عن آل محمــد عليه وعليهم السلام: أن تزيدها أنت فى الأجر وتزيدك هى فى الأجل.

وما يقوله مخالفــونا من أن المراد به رفع الجناح فى الإبراء والنقصان أو الزيادة فى المهر أو ما يستقر بتراضيهما من النفقة ليس بصحيح؛ لأنَّا نعلم أن العفو والإباء مسقط للحقوق بالعقــول ومن الشرع ضرورة لا بهذه الآية، والزيادة فى المهر كالهــبة، والهبة أيضًا معلومة لا من هذه الآية، وأن التراضى مؤثر فى النفقات وما أشبهها، فحمل الآية والاستــفادة بها مــا ليس بمستــفاد قبلهــا ولا معلوم هو الأولى، فــالحكم الذى ذكرناه مستفاد بالآية غير معلوم قبلها، فيجب أن يكون أولى.

فإن قيل: كيف يصح حمل لفظة «استمتعتم» على النكاح المخصوص، وقد أباح الله بقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ النكاح المؤبد بلا خلاف، فمن خصص ذلك بعقد المتعة فهو خارج عن الإجماع؟

قلنا: قوله تعالى بعد ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ (النساء: ٢٣) يبيح العقد على النساء والتوصل بالمال إلى استباحتهن ويعم ذلك العقد المؤبد و المؤجل، ثم خص المؤجل بالذكر، فقال: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾ فالمعنى: فمن نكحتموها منهن نكاح المتعة فآتوهن أجورهن فريضة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ (النساء: ٢٤) لأن الزيادة فى الأجر لا يليق إلا بالعقد المؤجل.

فإن قيل: الآية مجملة لقوله تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ ولفظة الإحصان تقع على أشياء مختلفة من العقد والتزويج وغير ذلك؟.

قلنا: الأولى أن تكون لفظة «محصنين» محمولة على العقد والتنزيه من الزنا؛ لأنه فى مقابلة قوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ والسفاح: الزنا بغير شبهة، ولو حملت اللفظة على الأمرين من العفة والإحصان الذى يتعلق به الرجم لم يكن بعيداً.

فإن قيل: كيف يحمل لفظة «الإحصان» فى الآية على ما يقتضى الرجم وعندكم أن المتعة لا تحصن؟ **قلنا:** قد ذهب أكثر أصحابنا إلى أنها تحصن، وإنما لا تحصن إذا كانت المتمتع بها يغيب عنها فى أكثر الأوقات، والغائب عن زوجته فى النكاح الدائم لا يكون بحكم المحصن فى الرجم.

وبعد، فإذا كانت لفظة «محصنين» تليق بالنكاح الدائم رددنا ذلك إليه، كما أنَّا رددنا لفظة «الاستمتاع» إلى النكاح المؤجل لما كانت تليق به، فكأنه تعالى أحل النكاح على الإطلاق وابتغاءه بالأموال ثم فصل منه المؤبد بذكر الإحصان والمؤجل بذكر الاستمتاع»

طعن الراوندى على أبى بكر وعمر:

كما أننا نلاحظ أن الراوندى يطعن على أبى بكر وعمر فيقول فى: «باب الأنفال»:

«روى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .... ﴾ (الحشر: ٧) الآية، قال رسول الله ﷺ لجبرائيل ـ عليه السلام: لمن هذا الفىء؟ فأنزل الله قوله: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ... ﴾ (الإسراء: ٢٦) فاستدعى النبى ﷺ فاطمة ـ عليها السلام ـ فأعطاها فدكا وسلمها إليها، فكان وكلاؤها فيها طول حياة النبى ﷺ من عند نزولها، فلما مضى رسول الله ﷺ أخذها أبو بكر ولم يقبل بينتها ولا سمع دعواها، فطالبت بالميراث لأن من له حق إذا مُنِعَ من وجه جاز له أن يتوصل إليه بوجه آخر، فقال لها: سمعت رسول الله يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة» فمنعها الميراث هذا الكلام، وهذا مشهور. وروى على بن أسباط قال: لما ورد أبو الحسن موسى ـ عليه السلام ـ على المهدى الخليفة وجده يرد المظالم، فقال: ما بال مظلمتنا لا تُردُّ؟! فقال: ما هى يا أبا الحسن؟ فقال: إن الله لما فتح على نبيه فدك وما والاها ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فأنزل الله على نبيه: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ... ﴾ فلم يدر رسول الله ﷺ من هم، فراجع فى ذلك جبريل، فسأل الله عن ذلك، فأوحى الله إليه أن ادفع فدكًا إلى فاطمة، فدعاها رسول الله ﷺ فقال لها: «يا فاطمة إن الله أمرنى أن ادفع إليك فدك». فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك. فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله ﷺ، فلما ولى أبو بكر أخرج عنها وكلاءها، فأتته فسألته أن يردها عليها، فقال: ايتنى بأسود أو أحمر، فجاءت بأمير المؤمنين والحسن والحسين وأم أيمن، فشهدوا لها، فكتب بترك التعرض، فخرجت والكتاب معها، فلقيها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمد؟ قالت: كتاب كتبه لى ابن أبى قحافة. قال: فأرينيه، فأبت، فانتزعه من يدها فنظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه، وقال: هذا لأن أباك لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، وتركها ومضى. فقال له المهدى: حدها، فحدها، فقال: هذا كثير وانظر فيه».

وهكذا نجد القطب الراوندى يمضى فى كتابه ويناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة، إن دلت على شىء فهو قوة ذهن الرجل وسعة اطلاعه.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضــــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الموضــــــــوع الصفحة

الموضـــــــــوع | الصفحة